مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الثَّامِنُ والخَمسُون

سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الثَّامِنُ والخَمسُون

سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30

نُخبةٌ مِنْ عُلماء مَجمَعِ القُرآنِ الكريمِ بالشّارقةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن والخمسون،
سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 58 ، 800 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-647-62-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 58 : المجلد الثامن والخمسون، سورة الطُّور من الآية 25 إلى سورة الرَّحمن الآية 30.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-62-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4238337 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
السَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الطُّورِ

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ
أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا
كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطّور: 25 - 28]

❁ مناسبةُ الآيات لِما قَبلَها:

الاجتماع مع الأحبّة يعقبُه الحديثُ عن سابق الحال وحُسْن المآل

لَمّا ذكر النّظمُ الجليل في الآيات السّابقة أنّه ألحق ذرّيّاتهم بهم في رتبتهم، وكان ألذُّ ما يأنسُ به الإنسانُ حديثَه مع أحبّته؛ بيّن النّظمُ الجليل في هذه الآيات حديثَهم وتذكُّرَ حالِهم في الدّنيا، وثناءَهم على اللّه تعالى بحُسن إنعامِه عليهم، وأنّهم إذ يتنعّمون في هذا النّعيم، فإنّهم يتذكّرون حالَهم في دنياهم، وما لابسهم فيه من خشية ربّهم والخوف منه، فنالوا الأمانَ والسّلام بعد الإشفاق والخوف[1].

ومنها: لَمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة نعيمَ أهلِ الجنّة فيها من النّاحية المادّيّة والمعنويّة؛ جاءت هذه الآياتُ لتستكملَ صورَ هذا النّعيم، وذلك بتَحدُّثِهم بتلك الأحاديث المُسْعِدة التي يذكرون بها فضلَ اللّه عليهم وإحسانَه إليهم، بإنزالهم هذا المنزلَ الكريم بعد أن نجّاهم من البلاء ووقاهم عذابَ السَّموم[2].

❁ شرحُ المفردات:

1) ﴿فَمَنَّ﴾: (منّ) أصلٌ يدلّ على اصطناع خير[3]، والمَنّ: الإحسان الذي تَمُنّ به على من لا يَسْتَثِيبُه. واللّه المنّان علينا بالإيمان والإحسان في الأُمور كُلِّها[4]. والمِنَّةُ: النّعمة الثّقيلة، مَنَّ فلان على فلان: إذا أثقله بالنّعمة، وعلى ذلك قوله: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 18، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 25، 28.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 568.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (من).
(4) الخليل، العين: (منن).

﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 164][1]. والمُراد به في الآية الكريمة: أحسنَ علينا بالمغفرة والرّحمة[2].

2) ﴿ٱلسَّمُومِ﴾: (سمّ) أصلٌ يدلُّ على مدخلٍ في الشّيء، كالثّقب وغيرِه، ثمّ يشتقّ منه. فمن ذلك السَّموم: الرّيح الحارّة، لأنّها أيضًا تُداخِل الأجسامَ مداخلةً بقوّة[3]. وسَموم بيّنُ السُّمّ، وحَرور بيّنُ الحَرِّ. وقد سُمَّت لَيلتُنا وأسمّت[4]. والسَّمومُ: الرّيحُ الحارّة التي تُؤثّر تأثيرَ السّمّ، قال تعالى: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[5]. والمراد به في الآية الكريمة: "الرّيح الحارّة التي تدخل المسامّ، فسُمّيت بها نارُ جهنّم لأنّها بهذه الصّفة"[6].

3) ﴿ٱلْبَرُّ﴾: (برّ، برر): أصلُه يدلّ على انبساط عظيم مع تجرّد أو انكشاف[7]. والبِرُّ، أي: التّوسّع في فعل الخير، ويُنسَب ذلك إلى اللّه تعالى تارةً، نحو: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾[8]. والبَرُّ من صِفات اللّه: العَطوف الرَّحيم اللَّطيف الكَريم[9]، وقد يُنسَب إلى العبد تارةً؛ فيقال بَرّ العبدُ ربّه؛ أي: تَوسَّع في طاعته، ويكون معناها بالنّسبة للّه تعالى الثّواب، ومن العبد الطّاعة. والمراد به في الآية الكريمة: المُحْسِنُ[10].

المَعْنَى الإجْماليُّ:

امـتـنـانُ أهـلِ الجِـنان برحمة الرّحمن

يخبر النّظمُ الكريم عن تنعّم أهلِ الجنّة بما هم فيه، ومن ذلك: أنّهم يُقبِلون على بعضٍ متسائلين عن أحوالهم في الدّنيا، فيتذكّرون

(1) الرّاغب، المفردات: (منن).
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 385.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سم).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سمم).
(5) الرّاغب، المفردات: (سمم).
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 385.
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (برر).
(8) الرّاغب، المفردات: (بر).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (برّ).
(10) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 385.

كيف كانوا خائفين من عذاب الله وهم بين أهليهم، فَدعَوا الله بإخلاص، فمنَّ الله عليهم بالهداية والتّوفيق فَرحمَهم ووقاهم عذابَ السّموم، وأدخلهم برحمته في جناته استجابةً لضراعتهم بقولهم: وإنّا كنّا في الدّنيا نضرع إليه وحدَه أن يَقينا العذابَ الحارّ الشّديدَ حرُّه، ويوصلَنا إلى النّعيم، فاستجاب لنا وأعطانا سؤالَنا، لأنّه هو البَرُّ المحسِنُ إلى عباده، الرّحيم بهم(1).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ﴾:

من تمام التّنعيم محادثةُ الأحبّة في دار النّعيم

عطف النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ﴾(2)، أو على قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾(3)، فهو من تمام وصفِ مجالسهم التي يتنازعون فيها الكأسَ، ويطوف عليهم فيها الخَدَمُ ويتنادمون فيما بينهم عمّا سلف منهم في الحياة الدّنيا.

نُكْتَةُ التّعبير بالإقبال مادّةً وصيغةً:

الإقبال في تلك الجنان بين المتحابّين من كمال النّعيم

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالإقبال في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّهم يُقْبِل بعضُهم على بعض مواجهةً؛ لأنّ الإقبال هو الإتيان من الأمام وجهةَ الوَجهِ(4). وفي التّعبير به إشارةٌ إلى صفاء القلوب وسلامة الصّدور من الغلّ والحِقد الذي كان في الدّنيا، قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ [الحجر: 47]. وجاء التّعبيرُ بالفعل الماضي للدّلالة على تأكيد تحقّقه، فهو من حكاية المستقبل بالفعل الماضي، إشارةً إلى يقين تحقّقه، فجعله كأنّه حكايةُ حالٍ ماضية.

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 524، وينظر: السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 815.
(2) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 24.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 56.
(4) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ: 27/ 55.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ مع دلالة الإضمار:

الآبـاء والأبنـاء والـذّرّيّـاتُ في حِوارٍ عن سالف الأخبار

عبّر القرآنُ الكريم بالبعضيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾، دون التّعيين والتّحديد؛ ليَعُمّ الجميعَ من الآباء والذّرّيّة والأحباب والأصدقاء؛ بخلاف ما لو عبّر بالإظهار؛ فإنّه يشمل فئةً دون فئة، والمقام مقامُ امتنان؛ فالعموم أولى، ولذلك كان عَوْدُ الضّمائر على عموم المتّقين المَذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾، وعلى ذرّيّتهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾[1]. فالتّساؤل واقعٌ بين أهل الجِنان عن سابق الأحوال. وفي التّعبير بالبعضيّة إشارةٌ إلى شدّة الاتّصال والتّآلف؛ لأنّ البعض جزءٌ من البعض، لا ينفكُّ عنه.

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

مـــن أدب الـحـديـث مع الآخـر أن يُقْبِل عليـه السّامـع بوجهه كاملًا

دلّ التّعبير بحرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ الذي يفيد التّمكّنَ على شدّة الإقبال من بعضهم لبعض؛ وذلك بتوجُّهه بكامل وجهه، وفي ذلك إشارةٌ إلى أدب الحديث مع الآخر، بأن يُقْبِل عليه بوجهه كاملًا.

نُكْتَةُ تنكير ﴿بَعۡضٖ﴾:

كلّ امرئ منهم يَـذْكُـر للآخر ما كان من حاله

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿بَعۡضٖ﴾ مُنَكَّرًا في قوله جلّ شأنه: ﴿عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾، فلم يقل: (على بعضهم) كما سبق ذِكْره؛ وذلك للدّلالة على التّعميم، أي: "يسأل كلُّ بعضٍ منهم بعضًا آخرَ عن أحواله وأعماله، فيكون كلُّ بعضٍ سائلًا ومسؤولًا، لا أنّه يسأل بعضٌ معيّن منهم بعضًا آخر معيّنًا"[2].

دلالة التّعبير بالتّساؤل مادّةً وصيغةً:

مـــن لـطـيـف المسرّات معرفةُ أسـبـابِ دخـولِ الجنّات

عبّر النّظم الجليل بلفظ التّساؤل في قوله جلّ شأنه: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ دون غيره كالكلام والحديث؛ للدّلالة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 56.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 149.

على أنّهم يتكلمون عن أحوالهم في الدّنيا بصيغة السّؤال، بأن يسأل بعضُهم بعضًا عن السّبب الذي بلغ بهم إلى دار النّعيم، ولايتأتى ذلك من التّعبير بالكلام أو الحديث؛ لأنّه قد يكون من طرف واحد بخلاف التّساؤل، فلا بدّ من وجود طرفين؛ يُؤَكِّدُ ذلك أنّ فعلَ التّساؤل جاء على صيغة التّفاعل؛ للدّلالة على أنّهم يتشاركون ذلك الفعل[1]. وجيءَ بالفعل المضارع للدّلالة على تجدُّد ذلك ودوامِه للمُؤانسة والاستمتاع.

دلالةُ حذفِ متعلّق ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾:

عموم الأقوال والأعمال التي هي سبب هذه الأحوال

حُذِفَ متعلِّق الفعل ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ للدّلالة على العموم؛ فيرد السّؤال على الأقوال والأعمال التي هي سبب هذه الحال؛ كأن يقول: بأي عملٍ في الدّنيا نِلْتَ هذه الأحوالَ والدّرجات الرّفيعة؟[2].

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾:

تساؤلهم إنّما كان عن أحوالهم بين أهاليهم

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾؛ لأنّها مستأنَفَةٌ لبيان تساؤلهم في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾، فهم في تساؤلهم فيما بينهم يقولون هذه المقالة[3]. فالاستئناف بيانيٌّ، فكأنَّه قيل: ماذا قال بعضهم لبعض في التّساؤل؟ فقيل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾؛ أي: قال المسؤولون[4].

دلالةُ التّعبير بالقول دون الجواب:

التّعبير بالقول أعمّ؛ فيشملُ الجوابَ وغيرَه

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بلفظ القول في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾ مع سبق التّساؤل في قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾، الذي يقتضي وجودَ الجواب، بأن يقول: (أجابوا)؛ لكنّه عدلَ إلى القول لأنّه أعمّ؛ فيشملُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 18.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 249.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 56.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 63.

الجوابَ وغيرَه، وللدّلالة على أنّ التّساؤل لم يكن من قبيل الاختبار، بل من قبيل التّذاكر للماضي.

فائدة تتابع المؤكّدات في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ﴾:

أكّد النّظمُ الجليل الخبرَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾؛ لتقوية الخبر. وفيه إشارةٌ إلى كمال تلذُّذِهم بما أهَّلَهم إلى ما هم فيه من النّعيم؛ لأنّه من العظَمة والأمان بحيثُ لا يكاد يُصدّق[1].

الإشــفــاق من الجـليـل سبيلُ الوصول إلى دار اليقين

نُكْتَةُ دخولِ فعلِ الكَوْن:

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الكون في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾؛ للدّلالة على رسوخهم في الإشفاق، كما أنّه يُشير إلى أنّهم أسندوا ذلك العملَ إلى الله تعالى، فهو الذي جبلهم جِبِلّةَ خيرٍ ووَفّقَهم إليه[2].

الإشـفـاقُ صفةٌ راســخـــةٌ في المؤمنين

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿قَبۡلُ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بالظّرف ﴿قَبۡلُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾؛ للدّلالة على أنّ الإشفاق كان في دار العمل[3]، وهو أنسب لحكاية أحوالهم في الدّنيا، فهو تلذّذ بانتهاء زمان القبليّة الذي كانوا مشفقين فيه.

الدّنيا دارُ خوفٍ وإشفاق انتهى، والجنّة دارُ أمن وسلام

دلالة التّعبير بشِبه الجملة ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بشِبه الجملة ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾؛ وذلك للإشارة إلى كمال إشفاقهم، فإنّ "كونهم بين أهليهم مَظِنّةَ الأمن"[4]؛ وذلك لما لهم من العَدَد والعُدّة والنّعمة والسّعة؛ فمَن أشفق حيثُ موئلُ الأمان كان إشفاقُه شديدًا عظيمًا؛

المشفِقُ بين أهله أشدُّ إشفاقًا من سواه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 19.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 19.
(3) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 115.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 63.

وذلك لأنّ لفظ الأهل يُطْلَق على الدّائرة المحيطة بالإنسان من الذّرّيّة والزّوجة والأقارب، وهذا من صلاحهم وقوّةِ إيمانهم بالغيب.

دلالة التّعبير بـ﴿مُشۡفِقِينَ﴾ مادّةً وصيغةً:

شدّةُ الخوف مع الحَذَر

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالإشفاق في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ دون الخوف؛ لأنّه يدلّ على دوام الخوف والحذر مع اقترانه بالتّرحّم؛ وذلك بأن يَشُقّ على النّفس قبلَ أن تجمح إلى العِناد، وله أقسام: إشفاقٌ على العمل أن يصير إلى الضّياع، وإشفاقٌ على الوقت أن يشوبه تفرّقٌ، وعلى القلب أن يمازجَه عارضٌ، وعلى النّفس أن يُداخِلَها سببٌ، وكلّ هذه المعاني تؤكّدُ شدّةَ خوفِهم وحَذَرِهم من ملاقاة ربّهم؛ لذلك جاء التّعبير باسم الفاعل للدّلالة على كمال الاتّصاف بهذا الوصف، أي: عريقين في الخوف من الله تعالى[1].

نُكْتَةُ حَذْفِ متعلّق ﴿مُشۡفِقِينَ﴾:

الدّلالة على عموم ما يُشْفَق منه

حذفَ النّظمُ الجليل متعلّقَ الإشفاقِ في قوله جلّ شأنه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾، فلم يبيّنوا من أيّ شيء أشفقوا؛ وذلك للدّلالة على عموم ما يشفق منه، أي: خائفين من عصيان الله تعالى، وما يتبعه من سوء العاقبة[2].

دلالة التّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَمَنَّ﴾:

ما ألذَّ النّجاة بعد الخوف والمحاذرة

افتتح النّظمُ الجليل الآيةَ بالفاء العاطفة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾، فعطف الامتنانَ على مقولِ القول في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾، فكلا الجُملتَين من مقولهم[3]. ودلّت الفاءُ على أنّ الامتنان بالإنجاء من العذاب كان بسبب الإشفاق[4] في دار الدّنيا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 19.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 150.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 25.
(4) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 115.

دلالة التّعبير بالمنّ في قوله: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾:

عبّر بالمَنّ لعظَم النِّعَمِ المُنعَم بها

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالمَنّ دونَ غيره؛ لأنّه لا يُطْلَق إلّا على النّعمة الثّقيلة؛ يقال: مَنَّ فلانٌ على فلان، إذا أثقله بالنّعم، ولما كان الأمر يتعلّق بمغفرة الله ورحمته ودخول الجنّات عبّر بالمَنّ؛ لعظَم هذه النّعم.

نُكْتَةُ إسناد المَنّ إلى لفظ الجلالة:

امتنانُ ذي الجلال والإكرام أتمُّ امتنانٍ وأكملُه

أسند النّظمُ الجليل المَنّ إلى لفظ الجلالة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ للدّلالة على كمال إنعامه تعالى عليهم، فهو الإله الذي له جميع صفات الكمال والجلال[1].

دلالة التّعبير بحرف الاستعلاء (على):

تمكّن مِنَّة الله تعالى على أهل الجنّة كمالَ التّمكّنِ ومنتهاه

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (على)، الدّالّ على الاستعلاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾؛ للدّلالة على تمكُّن منَّتِه تعالى عليهم كمالَ التّمكُّنِ ومنتهاه، وفيه إشارة إلى عظيم امتنانه، وأنّه محضُ فضلٍ تفضّل به عليهم.

دلالة عطفِ الوقاية على الامتنان:

الامتنان إنّما يكون بإدخالهم الجِنان، وإنقاذِهم من النّيران

عطف النّظمُ الجليل الوقايةَ على الامتنان في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[2]، وفائدةُ العطفِ: الدّلالةُ على أنّ المَنّ والإنعام إنّما كان بإدخالهم الجنّةَ والتَّنَعُّمِ بها، وهذا ما دلّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾[3].

دلالة التّعبير بفعل الوقاية مع دلالة نون الجماعة:

عبّر النّظمُ الجليل بالوقاية في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ للدّلالة على أنّه تعالى جنّبهم العذابَ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 20.

(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 292.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 197.

جنّب الله أهلَ الجنّة العذابَ وسترهم منه برحمته

وسترهم برحمته[1]، ويُؤكّد ذلك أنّ فعل الوقاية يَرِد في القرآن في النّجاة من العذاب في الآخرة. وممّا يُذْكَر في سِرّ التّعبير بنون الجمع في قوله: ﴿وَوَقَىٰنَا﴾ أنّه لمّا كان عذاب الذُّرّيّات يَحْزُنُ الآباءَ؛ جُعِلَت وقايةُ الذُّرّيّات بمنزلة وقايةِ الآباء؛ فقالوا: ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ إغراقًا في الشّكر منهم وعن ذُرّيّاتِهم[2].

نوع الإضافة في قوله: ﴿عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾:

عذاب السّموم هو عذاب النّار المُحْرقة

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ العذابِ إلى السّموم في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾، وهي إضافة حقيقيّة للتّعريف، فالعذابُ إنّما هو عذاب النّار التي تدخل المسامّ بحرارتها[3]، فعذابُ السّموم هو عذاب نار جهنّم.

دلالةُ التّعبير بالسَّموم:

تخللها مسامّ الجِلد وتأثيرُها فيه

عبّر النّظمُ الجليل بالسّموم تعبيرًا عن عذاب النّار في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾؛ للدّلالة على ريح جهنّم والحرّ فيها، فأطلقت عليها لنفوذ حَرّها في المسامّ كالسّموم، والسّموم: هي ريحٌ شديدة الجفاف والحرارة، تهبُّ من جهة واحدة، فذَكَر السّمومَ ليُعْلِمَهم بحرارتها؛ قياسًا على ما عهدوه من الرّيح في حياتهم[4]. ولأنّها تتخلّل مسامّ الجسم وتؤثّر فيه كما يُؤثّر السّمّ في الجِلْد، وفي ذلك إشارةٌ إلى الألم الشّديد للمُعَذّب بنار السّموم.

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا﴾:

ترتُّبُ الامتنان على سابق الدّعاء

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنّها مستأنَفَة استئنافًا تعليليًّا، سيقت

---

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 115.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 57.

(3) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 194.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 57.

لبيان عِلّة مِنّة اللّه تعالى عليهم[1]، فالامتنانُ بسبب تقدّم الدّعاء، وهذا يُشير إلى أنّهم عظّموا أمرَ اللّه فنالوا أحسنَ الجزاء[2].. ولأنّ هذه الجملةَ بيانٌ لإشفاقهم المذكور في قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾، ولبيان اعترافهم باستجابة اللّه لدعائهم.

سرُّ تتابعِ المُؤكّدات في الآية:

تقويةُ الخبر وتأكيدُ إشفاقهم، والإشارة إلى كمال تعبّدهم ودعائهم

أكّد النّظم الجليل الخبر في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ بعِدّة مُؤكّدات؛ تقويةً للخَبَر وتأكيدًا لإشفاقهم المذكور سابقًا[3]، وفيه إشارةٌ إلى كمال تعبّدهم ودعائهم.

نُكْتَةُ دخول فعلِ الكَوْن:

صفةُ التّضرّعِ راسخةٌ في أهل الإيمان

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الكون في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾؛ لبيان شدّة اتّصافهم بصفة الدّعاء والعبادة، فهي رسخَت فيهم كرسوخ من طُبِع على الشّيء[4].

سرّ ذِكْر ﴿مِن﴾ في هذه الآية، وعدمُ ذِكْرها مع الآية السّابقة:

الدّعاء بمعنى فعل العبادة يقع في بعض الزّمان

أدخل النّظمُ الجليل حرفَ الجرّ ﴿مِن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ ولم يَذكُرْه في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾؛ وذلك لأنّ الدّعاء بمعنى فعل العبادة يقع في بعض الزّمان، فأثبت حرفَ الجرّ، أمّا التّحلّي بالفضائل كالخوف من اللّه تعالى، والتّخلّي عن الرّذائل؛ لا بدَ فيه من البراءة عن كلَ قليل وكثير، وهذا يشمل كلّ الزّمان[5].

نكتة دخول الظّرف ﴿قَبۡلُ﴾:

النّعيم في الجنّة منّة على الأعمال الصّالحة في الدّنيا

عبّر النّظم الجليل بظرف الزّمان ﴿قَبۡلُ﴾ الدّالّ على زمان

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 57.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 104.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 20.
(4) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 116.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 20.

القبليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ دون أن يقول: (إنّا كنّا ندعوه)؛ وذلك للدّلالة على أنّ ما قصدوه دعاؤهم الذي كانوا يأتون به في الدّنيا[1]، فَهُم يتحاورون ويتجاذبون أطراف الحديث عن أحوالهم في الدّنيا.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿قَبۡلُ﴾ عن الدّنيا:

جاء التّعبيرُ بقوله: ﴿قَبۡلُ﴾ عن الدّنيا دون ذِكْرها صراحةً لدلالة السّياق عليها؛ فما سبق ذِكْره من الإشفاق يُدَلِّل عليها، وكذا أمرُ الدّعاء واقعٌ فيها؛ لأنّها دارُ التّكليف، وأيضًا لانقضاء زمانها.

دلالة التّعبير بالدّعاء مادّة وصيغةً:

الدّعاء رأس العبادات

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالدّعاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ دون نعبده؛ لأنّه لفظٌ عامٌّ يشمل العبادة والتّوحيد والتّضرّع بكلّ صوره؛ بخلاف ما لو عبّر بالعبادة فقط، فإنّها قد تنصرف إلى التّكاليف، وعبّر بالمضارع للدّلالة على تجدّد دعائهم واستمرارهم فيه، وأنّه دأبٌ نهجوا عليه، واشتغلوا به على مرّ الزّمان.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّق ﴿نَدۡعُوهُۖ﴾:

دعاؤهم يشمل كلَّ أبوابِ الخير

آثَر النّظمُ الكريم حذفَ متعلّقِ فعلِ الدّعاء في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾؛ وذلك للتّعميم وللشّمول، أي: كنّا نبتهل إليه في أمورنا. كما أنّه يتناول دعاءَهم لأنفسهم ولذرّيّتهم بالنّجاة من النّار، ونوالِ الجنان[2].

سرّ تقديم جملة: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾:

الدّعاء موجِبٌ لبِرّ الله ورحمتِه

قدّم النّظمُ القرآنيُّ جملةَ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ على جملة: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنها تحمل الدّلالة على السّبب الأصليّ في الرّحمة، وهو العبادة بكلّ صورها، فكانت الموجِبَ لبِرّه سبحانه ورحمته[3].

(1) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 116.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 57.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 251.

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾:

بِرّه ورحمتُه من أسباب استجابة الدّعاء

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنّها مستأنَفَة استئنافًا تعليليًّا، سيقت لبيان علّة الدّعاء، ولبيان أنّه تعالى يستجيب دعاءَ الأبرارِ من عباده؛ لأنّه هو البَرّ الذي يُحْسِن لعباده، والرّحيم الذي وسِعت رحمتُه كلّ شيء[1].

دلالةُ تتابعِ المؤكّدات في فاصلة الآية:

رحمة الله تعالى بعباده على تقصيرهم أمرٌ يقتضي التّأكيد

أكّد النّظمُ الجليل الخبرَ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ وذلك لأنّه إنعامُ اللّٰه تعالى عليهم مع كونهم لا ينفكّون عن التّقصير لا يفعله غيرُه، فهو ممّا يُعَجَبُ منه غايةَ العَجَب، وذلك ممّا يقتضي تأكيدَه[2].

أثر تعدّد القراءاتِ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ﴾:

تعدّدت القراءاتُ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ بين فتحة همزة (إن) وكسرها؛ فقرأ نافعٌ وأبو جعفر والكسائيُّ بالفتح: ﴿أَنَّهُۥ﴾ على تقدير اللّام، والمعنى: ندعوه لأنّه هو البَرّ الرّحيم؛ أي: فَلِرَحمتِه يجيب مَن دعاه؛ فلهذا نَدعوه، وقرأ الباقون بكسر الهمزة على القَطْع والاستئناف[3].

سرُّ تذييلِ الآية الكريمة بهَذَيْن الوصفيْن:

تناسُبُ البِرّ والرّحمة لمقام الإشفاق من الله

ذيّل النّظمُ الجليل الآيةَ بالوَصفَين الجليلين في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لمناسبته موضوعَ الدّعاءِ والعبادة، فـ ﴿ٱلۡبَرُّ﴾ هو المُحْسِن المُنعِم على عباده، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ هو الكثيرُ الرّحمةِ، الذي إذا عبده عابدٌ أثابَه، وإذا سألَه سائلٌ أجابه[4].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 28.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 20.
(3) ابن أبي مريم، الموضح في القراءات: 3/ 1214.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 150.

كمالُ البِرّ والرّحمة لا يكونان إلّا لله تعالى

بلاغة القَصْر في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾:

قصرَ النّظمُ الجليل صفتَيِ البِرِّ والرّحمةِ على اللّه تعالى في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ وهو قَصْرٌ ادّعائيٌّ، فإنّ البِرّ والرّحمةَ حاصلةٌ فيما بين العباد، فَوَجْهُ حصرِها في اللّه تعالى المبالغةُ في عدم الاعتداد بما لدى غيرِه تعالى من تلك الصّفتَين[1]، فما لديهم بالنّسبة إلى صفات اللّه تعالى لا شيءَ يُذْكَر، ولا تصحّ المقارنةُ بحال؛ لأنّ صفاتِه كائنةٌ على وجه الكمال، وصفاتِ غيرِه على وجه النُّقصان، ولأنّها تختلف عن صفات البشر باعتبار عموم التّعلّق وباعتبار الدّوام؛ لأنّ اللّه بَرٌّ في الدّنيا والآخرة، وغيرُ اللّه بَرٌّ في بعض أوقات الدّنيا، ولا يملك في الآخرة شيئًا[2].

سرّ اختيارِ ﴿ٱلۡبَرُّ﴾ دونَ غيره:

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بصفة ﴿ٱلۡبَرُّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ مع أنّ معهود القرآنِ يجمع بين الرّحمن والرّحيم؛ فيقول: إنّه ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [البقرة: 163]؛ لكنّ التّعبير جاء: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنّ صفة البَرّ هي المناسبةُ لهذا السّياق؛ وذلك لما تحمله من معاني السّعَة؛ فهو الواسعُ الجود، الذي عطاؤُه حكمةٌ، ومنعُه رحمةٌ، ولأنّه لا يَنْقُصُه إعطاءٌ، ولا يزيده منعٌ؛ فهو يَبَرُّ عبدَه المؤمنَ بما يوافِق نفسَه؛ فربما بَرّه بالنّعمة، وربما بَرّهُ بالبُؤس؛ فهو يختار له من الأحوال ما هو خيرٌ له؛ ليوسِّعَ له في العُقبى[3].

البَرّ محسنٌ لمَن دعاه بإجابة دعائه

سرّ تقديم البَرّ على الرّحيم:

قدّم النّظمُ الجليل ﴿ٱلۡبَرُّ﴾ على ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ وذلك لأنّها الصّفة

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 58.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 58.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 301.

الأخصّ بالنّسبة إلى الدّعاء، فهو البرّ الذي يُحْسِن إلى عباده باستجابة دعائهم، ولأنّ صفةَ البَرّ تحمل معنى السّعَة؛ فهو سبحانه يقبل كلّ ما يتقرّب به إليه العبد من إيمان وعمل صالح وأخلاق؛ أمّا الرّحيم فهو يتعلّق بكل أفعاله تعالى مع عباده، في الدّعاء وغيره[1] - فقدّم ما يتعلّق على وجه الخصوص بموضوع الآية.

الفروق المعجميّة:

المَنّ والإنعام:

المنّ أخصّ من الإنعام

النِّعْمَةُ: الحالةُ الحَسَنةُ، والإنْعامُ: إيصالُ الإحسانِ إلى الغَيْرِ[2]. أمّا المَنّ فيَدلُّ على اصطناع خير[3]. والمَنّ: الإحسان الذي تمنّ على من لا يَسْتَثيبُه. واللّه المنّان علينا بالإيمان والإحسان في الأُمور كُلِّها[4]. وقال العسكريّ: "المِنَّة هيَ النِّعْمَة المقطوعة من جوانبها كَأنَّها قِطْعَة؛ ولِهَذا جاءَت على مِثال قِطْعَة، وأصلُ الكَلِمَة القطعُ، ومِنْه قَوْلُه تَعالَى: ﴿لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٍ ۝٨﴾ [فصلت: 8] أي: غير مَقْطوع، وسُمّيَ الدَّهْر مَنونًا، لِأنَّهُ يقطع بَين الإلف، وسمّي الِاعْتِداد بالنّعْمَة مَنًّا لِأنَّهُ يقطع الشُّكْرَ عَلَيْها"[5]. فالمَنّ هو نعمة مقطوعة، فهو أخصّ من الإنعام، فالإخبارُ عنِ امتنان اللّه تعالى عليهم للدّلالة على أنّها نعمة مقطوعة لهم، فهو تعالى قد أحسن عليهم بالمغفرة والرّحمة[6].

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 359.
(2) الرّاغب، المفردات: (نعم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (من).
(4) الخليل، العين: (منن).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 197.
(6) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 385.

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾ [الطور: 29 - 31]

مناسبةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

بيان مآل النّاس يوم القيامة يوجب المواظبةَ على التّذكير والتّبشير

لمّا ذكر النّظمُ الجليل حالَ الكافرين وحالَ المؤمنين، وكان ذلك مُشوّقًا إلى الجنّة وما يوصل إليها من الأعمال الصّالحة؛ سبّب عنه الأمرَ بالموعظة الحسنة، والتذكيرَ والتبشيرَ بما يدعو إليه، والمداومة عليه، والانصرافَ عن كيد الكائدين ومكر الكافرين[1].

ومنها: لمّا ذكر سبحانه فيما سبق أنّ الفريقين المُصدِّقين والمُكذِّبين مَجْزيّون بأعمالهم، وأنّ الرّسول على الحقّ المبين الذي مَن كذّبه باء بغضب من اللّه، ومن صَدّقه استحقّ رضوانَ اللّه ومغفرته. أمر رسولَه في هذه الآيات بالثّبات على التّذكير والموعظة، وعدم المبالاة بما يكيدون له[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِكَاهِنٖ﴾: (كهن) أصلُه إبرازُ لطيفٍ مُستكنٍّ في الباطن أو الغيب، كالإخبار بالمُغيَّبات، فهو تكلُّمٌ عن لطيفٍ، أي: خَفيٍّ ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الحاقة: 42][3]. وتَكَهَّنَ تَكَهُّنًا: قَضَى له بالغَيْبِ، فهو كاهِنٌ[4]، والكاهِن: الذي يخبر بالأخبار الماضية بضَرْبٍ منَ الظّنّ، كالعَرّاف الذي يُخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 21، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 30.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 45.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كهن).
(4) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (كهن).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (كهن).

ولقد كَهُنَ، ويقال: كَهَنَ لهم، إذا قال لهم قولَ الكَهَنة[1]. والمراد به في الآية الكريمة: الكاهِنُ الذي يوْهِم النّاسَ أنّه يَعلم الغيب[2].

2) ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾: (ربص) أصلٌ يدلُّ على الانتظار[3]. فالتّربُّصُ بالشّيء: أن تَنْتظِرَ به يومًا مّا، والفِعل تربَّصْتُ به[4]. التّربّص: الانتظار. وربصَ بالشّيء ربصًا، وتربّص به: انتظر به خيرًا أو شرًّا[5]. كأن ينتظر غلاءَ سلعةٍ، أو رخصَها، أو أمرًا ينتظر زوالَه أو حصولَه، يقال: تربّصت لكذا، ﴿وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [التّوبة: 98][6]. يقال: تربّص بسلعته الغلاءَ، كقوله تعالى: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾[7].

3) ﴿رَيْبَ﴾: أصلُ الرّيب يدلُّ على شكّ[8]، وهو أن تتوهّم بالشّيء أمرًا مّا، فينكشف عمّا تتوهّمه، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ﴾ [الحج: 5][9].

4) ﴿ٱلْمَنُونِ﴾: فهو من (منن)، وأصلُه يدلّ على قَطْعٍ وانْقِطاعٍ[10]، فالمَنون: الموتُ لأنّه يَمُنّ كلَّ شيءٍ ويَقطعُهُ، والمَنون الدّهر[11]. فهو تعبير عن الموت، أو الدّهر، فقيل للموت المَنون والمَنيَّة؛ لأنّه يُنْقِص العددَ، ويقطع المَدَدَ[12]. والدّهر يقطع الأعمارَ، كما أنّ الموت يقطع الأمانيَّ واللّذّات[13]. وقوله: ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾؛ لأنّ الموت مُشَكِّكٌ في وقت حصولِه، فالإنسانُ أبدًا في ريب المنون من جهة وقتِه، ورَيْبُ الدّهر صروفُه، وإنّما قيل: رَيْبٌ لما يُتَوَهّم فيه مِنَ المكر[14]. والمراد به في الآية الكريمة: صروفُ الدّهرِ وحوادثُه، أو حَدَثان الموت[15].

(1) الخليل، العين: (كهن).
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 119.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ربص).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نزع).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (ربص).
(6) الرّاغب، المفردات: (ربص).
(7) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (نزع).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ريب).
(9) الرّاغب، المفردات: (ريب).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منّ).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (منن).
(12) الرّاغب، المفردات: (منن).
(13) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 105.
(14) الرّاغب، المفردات: (ريب).
(15) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 500، 501.

المَعْنَى الإجْماليُّ:

أمرُ الله لرسوله بثّباته على دّعوتهم، ولاعبرةَ باتهاماتهم الباطلة

يأمر تعالى النّبيَّ ﷺ بالثّبات على التّذكير والموعظة وعدم المبالاة بكيد الكائدين، فإنّ حجّتك هي الغالبة؛ فما أنتَ بإنعام اللّه عليك بالنّبوّة ورجاحة العقل بكاهنٍ يخبر بالغيب دون علم، ولا مجنونٍ لا يعقل ما يقول كما يَدَّعون. ثمّ سلّى رسولَه بذِكْر تناقضِ أقوالهم؛ ليُنَبِّه إلى فساد آرائهم، وإلى أنّهم ما أعرضوا عن الحق إلّا اتّباعًا للهوى، لا اتّباعًا للدّليل والبُرهان، فنسبوه إلى الشّعر والسّحر بعد الكهانة، وانتظروا به نزولَ الموت، فأمرَهُ تعالى بأن يقول لهم: انتظروا موتي فإنّي معكم من المنتظرين بكم العذابَ، وسترون لمن تكون العاقبة[(1)].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الفاء في قوله: ﴿فَذَكِّرۡ﴾:

التّرغيب والتّرهيب يقتضي دوامَ التّذكير

افتتح النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ بالفاء، وهي هنا للتّفريع؛ فلمّا بيّن تعالى أنّ من النّاس قومًا يخافون اللّه تعالى، ويُشفقون منه، والنّبيّ ﷺ مأمورٌ بتذكير من يؤمن باللّه تعالى ويخافه، فرّع عليه الأمر بالتّذكير[(2)].

سرّ اختيارِ التّذكير دون غيره:

التّذكير يحمل معنى الوعظ والإرشاد

آثَر القرآن الكريم التّعبيرَ بالتّذكير في قوله: ﴿فَذَكِّرۡ﴾؛ لأنّه يحمل معنى الوعظ والإرشاد، ولسبق ذِكْره في قوله: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٥﴾ [الذّاريات: 55]، ولما يحمله من الفائدة للمَدْعوّين، وهي ارعواءُ بعضِ المُكَذّبين عن تكذيبهم، وازديادُ المُصَدّقين في إيمانهم[(3)]. كما أنّها تُفيد السّببيّة؛ لأنّ التّشويق إلى الجنّة والتّخويف من النّار يُسبّب ملازمةَ التّذكير[(4)].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 30، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 524.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 198.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 58.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 21.

دلالة الأمر ﴿فَذَكِّرْ﴾:

وجوب التّذكير سبيلُ نجاحِ الدّعوة وقَبولِ المَدعوين

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿فَذَكِّرْ﴾، وهو دالٌّ على وجوب التّذكير، والمراد به طلبُ المداومة والثّبات على ما هو عليه من الدّعوة والتّذكير[1]. وفي هذا دلالة على رحمة اللّه بعباده وحِرْصه على إيمانهم، وذلك بطلب مداومة التّذكير لإخراج النّفس من غفلتها.

نُكْتَةُ حذفِ متعلّق ﴿فَذَكِّرْ﴾:

لدلالة السّياق عليه وللعِلْم به

حذفَ النّظمُ الجليل متعلّقَ فعلِ التّذكير في قوله جلّ شأنه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ وذلك للعِلْم به، فالمُراد التّذكيرُ بالقرآن[2]، لأنّ القرآن هو خطاب الدّعوة، وهو الوحي الدّاعي إلى الرّشاد، وهذا ما يدلُّ عليه سياقُ الآيات القرآنيّة.

دلالة الفاء في ﴿فَمَآ أَنتَ﴾:

الأمـرُ بالتذكير دليلُ البراءة وتثبيتٌ للفؤاد

عبّر النّظمُ الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾؛ لأنّها تدلّ على التّفريع؛ حيثُ فُرِّع على الأمر بالتّذكير تبرئةُ النّبيّ ﷺ ممّا نسبوه إليه من الكهانة والجنون، ليربطَ على جَأْشِه ﷺ، فيكون أثبتَ على التّذكير[3].

نُكْتَةُ النّفي بالجملة الاسميّة دون الفعليّة:

انتفاءُ الكهانة والجنون انتفاءٌ غيرُ منتقضٍ بحالٍ من الأحوال

آثرَ النّظمُ الكريم النّفيَ بصيغة الجملة الاسميّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ دون الفعليّة، فلم يقل: (فلست بكاهن)؛ وذلك لما في الجملة الاسميّة من دلالة على ثبوت المعنى، فجيء بها دالّةً على كمال المعنى لمناسبة تعظيم من وُجّهت إليه التّهَمُ من الكهانة والجنون، بنفيها عنه ﷺ[4].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 154، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 119.
(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 116.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 58.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 59.

انتفاءُ صفات الكهانة والجنون بسبب نعمة الله عليه ﷺ

دلالة الباء في ﴿بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾، وهي هنا دالّةٌ على السّببيّة، أي: انتفى عنك وصفُ الكهانة ووصفُ الجُنون بسبب نعمة الله عليك، بما منحكَ من زيادة العقل، وأنعم به عليك من صدق النّبوّة[1]. ويجوز أن تكون الباء للملابسة، والجارُّ والمجرور في موضع الحال، والعامل فيه (كاهن أو مجنون)، والتّقدير: ما أنت كاهنٌ ولا مجنون متلبّسًا بنعمة ربّك. ويجوز أن تكون للقَسَم؛ فنعمةُ ربِّك مُقْسَم به، وجوابُ القَسَم ما عُلِمَ من الكلام، وهو (ما أنت بكاهن ولا مجنون)، والأقرب أن تكون للسّببيّة[2].

للدلالة الدّلالة على كمال النّعمة

نُكْتَةُ إفرادِ النّعمة وإضافتِها إلى لفظ الرّبوبيّة:

أفرد النّظمُ الجليل لفظةَ النّعمةِ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾؛ للدّلالة على جِنس الإنعام، وإضافتُها لِلَفْظ الرّبوبيّة للدّلالة على كمال هذه النّعمة، وأنّها محضُ إحسانٍ ولُطفٍ به ﷺ[3].

كمالُ التّشريف بالانتساب إلى الرّبّ المُحسن الكريم

نُكْتَةُ إضافةِ لفظِ الرّبوبيّة إلى ضميره ﷺ:

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ الرّبوبيّة إلى ضمير المخاطَب المُرادِ به النّبيُّ ﷺ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾؛ وذلك لبيان لطفه تعالى بنبيّه ﷺ؛ لأنّه هو ربّه ويُدبّر له ما فيه نفعُه، كما أنّ الإضافة تُفيد تشرّفَ المضافِ إليه[4].

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ﴾:

قدّم النّظم الجليل شبهَ الجملة على المسند في قوله جلّ شأنه:

---

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 104، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 198.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 25/ 37.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 59.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 59.

بنعمة ربِّه لا بغيرها انتفى وصفُ الكهانةِ والجنون

﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾ فلم يقل: (فما أنت بكاهن بنعمة ربّك)؛ وذلك للاهتمام بنعمة اللّه تعالى عليه، وأنّها بحيثُ تُحيل عليه أن يتّصف بما ذكروه من الأوصاف. فقدّم السّببَ على النّتيجة لأنّه أصلٌ لها، فنعمةُ اللّه هي السّبب في انتفاء الكهانة والجنون عنه ﷺ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِكَاهِنٖ﴾:

عبّر النّظم الجليل بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾؛لأنها تدل على التّأكيد في نفي الكهانة والجنون[1].

سِرّ اختيارِ الكفرة لوصف (كاهن):

اختار الكفّارُ وصفَ الكهانة ونسبوه إلى الرّسول؛ لأنّ الكاهن هو الذي يدّعي أنّه يعلم الغيبَ بمساعدة الجِنّ، ولمّا كان الرّسول ﷺ يُخبر بالغيب بإعلام اللّه له، ظنّوا ذلك من قَبيل الكهانة، ولكنّ القرآن نفى ذلك عنه في قوله: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾، بأن الذي يُعْلِمُه بالغيب هو اللّه.

نُكْتَةُ تنكير (كاهن) و﴿مَجۡنُونٍ﴾:

انتفاء صفات الكهانة والجنون انتفاءً مطلقًا

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الكاهن والمجنون بالتّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾؛ لما في التّنكير من دلالة على العموم، فينتفي عنه أيُّ صفاتِ الكاهن بأيّ حالٍ كان، وتنتفي أيُّ سمةٍ من سمات الجنون، فلا يتّصف بشيء ممّا يقال له كهانة أو جنون.

سرّ تقديم الكاهن على المجنون:

الكهانة عمل كسبيٌّ اختياريٌّ، والجنون غيرُ مكتَسَب

قدّم النّظمُ الجليل الكاهنَ على المجنون في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ﴾؛ لأنّ الكاهن أقلُّ نقصًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 59.

من المجنون في العقل، فالكاهنُ يقول كلامًا أكثرُه فارغٌ وتحكّم على المُغيّبات، والمجنونُ يقول كلامًا لا نظامَ له مع الإخبار ببعض المغيّبات[1]. كما أنّ الكاهن أشدُّ ذنبًا وضَرَرًا؛ لما له من سلامة العقل، وهي مناط التّكليف.

سرّ إعادةِ النّفي بحرف (لا):

كلّ صفة منفيّة علـى وجـه الاسـتـقـلال والكمال

كرّر النّظمُ الجليل النّفي في قوله جلّ شأنه: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، فلم يقل: (بكاهن ومجنون) من غير (لا)؛ وذلك للمبالغة في النّفي؛ لأنّها تنفي في كلّ الأزمنة؛ في الماضي والحاضر والمستقبل، وليجعلَ لكلّ وصفٍ نفيًا مستقلًّا، وهذا أبلغ في النّفي. والمراد من هذا النّفي: إبطالُ نسبتِه ﷺ إلى ذلك[2]. وفي النّفي بـ (لا) دلالةٌ على فصل كلٍّ منهما عن الآخر، أي: لا كهانة ولا جنون ولا كلاهما.

سرّ زيادة نفي الكهانة مع الجنون في سورة الطّور بخلاف سورة القلم:

النّاظر في سورة الطّور يجد قولَه تعالى: ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾، وفي سورة القلم ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: 2]؛ فزاد في سورة الطّور نفيَ الكهانة، والسّرّ في ذلك راجع إلى سياق السّورتين؛ فسورةُ الطّورِ مبنيّة على تفصيل أقوال الكفّار؛ فذَكَروا أنّه شاعر وأنّه مجنون وأنّه تقوّلَ القرآنَ إلى غير ذلك ممّا ذكروا؛ أمّا في سورة القلم فلم يَذْكر إلّا قولَهم أنّه مجنون؛ لذلك ناسب الاكتفاءُ بنفي الجنون في أوّل السورة بقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم: 2].

دلالة التّعبير بـ ﴿أَمْ﴾ دون (بل):

عبّر النّظمُ الجليل بـ ﴿أَمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 21.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 59.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾، وهي هنا منقطعة مفيدة للإضراب الانتقاليّ، فانتقالُ الحديثِ من اتّهامهم إيّاه بالكهانة والجنون المنفيّين في الآية السّابقة إلى إنكار اتّهامهم إيّاه بالشّاعريّة[1]. ولم يعبّر النّظم بـ (بل) وهي الأشهر في الإضراب الانتقاليّ، وذلك لأنّ ﴿أَمۡ﴾ تتضمّن الاستفهامَ. والمعنى: بل أيقولون شاعر؟[2].

بلاغة الاستفهام بـ ﴿أَمۡ﴾:

إنكار نسبةِ صفةِ الشّاعريّة

دلّ الاستفهامُ المُتضمَّنُ في ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ على الإنكار، أي: إنكارِ اتّهامه بالشّعر[3]. فالاستفهامُ المُتضمّن في همزة ﴿أَمۡ﴾ مستعملٌ للإنكار، وهذا بدلالة المقام[4].

بلاغة الانتقال إلى إبطال صفة الشّاعريّة:

تبرئة النّبيّ ﷺ من كلّ اتّهام

انتقل النّظمُ الجليل من إبطال صفَتي الكهانة والجنون إلى إبطال صفة الشّاعريّة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾؛ وذلك لأنّهم اتّهموه بكلّ ذلك ﷺ، فأنكر النّظمُ صفتَين، ثمّ أتبعَهما بصفة ثالثة[5]. وفي هذا دلالةٌ على براءته ﷺ من كلّ الاتهامات، وثبوتِ كلّ الكمالات البشريّة له ﷺ.

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يَقُولُونَ﴾:

ديدَنُ الكافرِ الاتّهامُ وإثارةُ الشّبهات

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن القول بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾؛ للإشارة إلى أنّهم يُردّدون هذا الاتهام مرّاتٍ تِلْوَ مرّات، وللتّسجيل عليهم بجهلهم المُستمرّ، وإصرارِهم على وصف الحقّ بصفات الباطل[6].

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 162.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 60.
(3) الإيجي، جامع البيان: 4/ 204.
(4) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 162.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 61.
(6) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 162.

وفيه استحضارٌ لمزاعم أهلِ الكُفْر وتقوّلِهم على رسول الإسلام في كلّ وقت وحين.

سرّ التّعبير بلفظ ﴿شَاعِرٌ﴾ مُنَكّرًا:

لا يقول الكلامَ العجيب إلّا شاعرٌ بليغ عظيم

ذكر القرآنُ الكريم مقولةَ أهلِ الكفر في وصفهم لرسول اللّه ﷺ بأنّه شاعرٌ توهّمًا منهم بأنّ هذا الكلام البليغ لا يتأتى إلّا ممّن له ملكةُ البيان وفصاحة اللّسان، وهذا في الغالب يكون للشّعراء في زعمهم، وليس الأمر كذلك لوجود فرقٍ بين كلام البشر وكلام ربّ البشر، وممّا يُؤكّد زعمَهم أنّه شاعر بليغ أنّه جاء لفظ ﴿شَاعِرٌ﴾ مُنكّرًا في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾؛ للدّلالة على المبالغة في الوصف، أي: أنتَ شاعر "فصيح بليغ، قد بلغتَ إلى درجة أعلى من البلاغة، بحيثُ قد عجز عن معارضتك أقرانُك من البلغاء"[1]. ولفظُ الشّاعر في الجملة مسند، والمسنَد إليه محذوف، وذلك للإيجاز في التّعبير[2].

دلالة التّعبير بـ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾ مادّةً وصيغةً:

التّربّص انتظارٌ مخصوصٍ بوقوع الشّرّ

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ التّربّص في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ دون الانتظار لوجود فرقٍ بينهما؛ فالتّربُّصُ أن تنتظر بالشّيء خيرًا أو شرًّا، وأن تنتظرَ به يومًا ما[3]. أمّا الانتظار فأصلُه يدلّ على تأمّلِ الشّيء ومعاينته، ومنه الانتظارُ، كأنّه ينظر إلى الوقت الذي يأتي فيه[4]. ومعنى انْتَظَرْتُهُ: أَخَّرْتُهُ[5]. وهو يدلّ على الإمهال والانتظار، فإنّ التّفحّص والتّأمّل يستغرق زمنًا[6]. فالتّربّص انتظارٌ مخصوص لا مطلق الانتظار، ففي الآية كانوا ينتظرون موتَه ﷺ، فهو انتظار مخصوص؛ لذلك كان التّعبيرُ

(1) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 359.
(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 162.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ربص).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(5) الرّاغب، المفردات: (نظر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نظر).

بالتّربّص دونَ الانتظار، وجاء التّعبيرُ بصيغة التّفعّل للدّلالة على المبالغة في الانتظار[1].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾:

تربّصهم به بسبب نبوّته ﷺ

عبّر النّظم الجليل بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾، وهي هنا صالحةٌ أن تكون بمعنى السّببيّة، أي: نتربَّصُ لأجلِه، ويجوز أن تتعلّق بقوله: ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾، أي: نتربّص وقوع ريب المنون به، فتكون للملابسة[2].

دلالة تقديمِ شبهِ الجملةِ:

رسولُ الله هو المقصود بالتّربّص من الكافرين

قدّم النّظمُ الجليل شبهَ الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾؛ لأنّ النّبيّ ﷺ هو المقصود بالانتظار والتّربّص؛ فقدّم ما هو الأهمّ على الفعل.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿رَيۡبَ﴾:

حوادثُ الدّهر ونوائبُه طارئةٌ لا تلبث أن تزول

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الرّيب في قوله جلّ شأنه: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾؛ للدّلالة على حوادث الدّهر، أو الموت.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾:

شُبّهت الحوادثُ بالرّيب؛ لأنّها لا تدوم ولا تبقى على حال

تظهر بلاغة الاستعارة في إطلاق ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ على الحوادث والشّكّ على وجه الاستعارة التّصريحيّة، فشبّهت الحوادثَ بالرّيب؛ لأنّها لا تدوم ولا تبقى على حال، كما أنّ الشّكّ كذلك[3].

بلاغة الإضافة في ﴿رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾:

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ الرّيب إلى المنون في قوله جلّ شأنه: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾، والإضافة - إذا كان المنون بمعنى الموت- بيانيّةٌ بمعنى (مِن)، فالمعنى: ننتظر به الحَدَثان، وهو الموت.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 61.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 61.

(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 294.

وإذا فُسّر المنون بالدّهر فالإضافة على أصلها، أي: أحداث الدّهر، كموتٍ، أو خروجٍ من البلد، أو تركِ دعوته[1].

المــوت يقطع الأمانيَ والدّهر يقطع الأعمار

سرّ التّعبير بالمنون:

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ المنون في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾؛ لدلالته على قَطْعٍ وانْقِطاعٍ[2]، فهو تعبيرٌ عن الموت، أو الدّهر، فقيل للموت المَنون والمَنِيَّة؛ لأنّه ينقص العدد، ويقطع المَدد[3]. والدّهر يقطع الأعمار، كما أنّ الموت يقطع الأمانيّ واللّذّات[4].

الحوارُ لا يحتاج إلى عطف

نُكْتَةُ فصل قوله: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ﴾:

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ دون أن يعطفها في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ لأنّها واردة في سياق محاورة، فهي مسبوقة بجملة: ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾[5]. فأغنى ترابطُ الحوار عن العطف لبيان الاتّصال.

تهديد الكافرين بالخُسران

دلالة الأمر في قوله: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿تَرَبَّصُواْ﴾ للدّلالة على التّهديد[6]، كما يدلّ على التّهكّم بهم[7]، فليس وراءَ الانتظار غير خسارتهم وظهورِ أمره ﷺ.

وقوع التّربّص من الكافرين يتبعه تربّصٌ من النّبيّ ﷺ

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَإِنِّي﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ لدلالتها على التّفريع، والمعنى: فلمّا أمرهم على وجه

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (منن).
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 8/ 105.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 62.
(6) ابن جزي، التّسهيل: 2/ 313.
(7) الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 105.

التّهديد والوعيد بالتّربّص، فرّع عليه الإخبارَ بأنّه منتظرٌ معهم، أي: إنّي متربّصٌ بكم كذلك، ولا ندري أيُّنا يصيبُه ريبُ المنون قبلُ[1]. كما أنّها تدلّ على السّببيّة، فالأمر بالتّربّص سبّب الإخبار بأنّه متربّص معهم[2].

غرض التّوكيد بـ (إنّ) والجملة الاسميّة:

مجاراة الخصم في زَعْمِه

أكّد النّظمُ الجليل الخبرَ في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾، فجاء به جملةً اسميّة مصدّرة بحرف التّأكيد (إنّ)، وذلك لأنّه نزّل المخاطَبين منزلةَ مَن ينكر تربُّصَه بهم؛ لأنّهم لغرورهم اقتصروا على أنّهم يتربّصون به ليَروا هلاكَه[3].

سِرّ التّعبير بقوله: ﴿مَعَكُم﴾، دون فيكم:

عبّر النّظمُ الجليل بظرف المعيّة (مع) في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ دون (فيكم)؛ لأنّ المعيّة هنا تُشير إلى أنّه ﷺ مساوٍ لهم في الانتظار، وذلك لأنّهم ظنّوا أنّهم أقوياء لكثرتهم، وأنّه ضعيف لوحدته، فبيّن أن الأمرَ خلافُ ذلك[4]، ولو قال: (فيكم) فقد يُتوهَّم أن يكون المعنى أنّه وإيّاهم يتربّصون أمرًا واحدًا. أمّا التّعبير بالمعيّة فإنّه يدلّ على أنّه ﷺ يتربّص ما ينزل أو يحلّ بهم من هلاك ودمار، ووقعَ ذلك لهم في غزوة بدر.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ دون (متربّصًا):

التّربّص ضمنَ جماعةٍ أدلُّ على قوّة التّربّص

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بأنّه من جنس المتربّصين، دونَ الإخبارِ بأنّه متربّصٌ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ لأنّه أبلغ[5]؛ فكونه من جملة المتربّصين يدلّ على كثرتهم، وأنّ انتظاره بليغ بحيثُ أهّلَه أن يكون من زمرة المتربّصين.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 62.

(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 253.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 62.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 23.

(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 253.

دلالة التّعبير بالمتربّصين تعريفًا وصيغة:

انتظار النّبيّ ﷺ على وجه مبالغة الكمال

عرّف النّظمُ الجليل المتربّصين بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾؛ للإشارة إلى أنّه ﷺ يتربّص بهم ريبَ المنون في جملة المتربّصين من المؤمنين. وجاء التّعبير بصيغة اسم الفاعل للدّلالة على رسوخه في التّربّص[1].

بلاغة جناس الاشتقاق في ﴿نَّتَرَبَّصُ﴾، ﴿تَرَبَّصُواْ﴾، ﴿ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾:

التّربّص لا يؤول إلّا لإظهار نُصرة الحقّ

جمع النّظمُ الجليلُ في سياق واحد ثلاثةَ ألفاظ من مادّة التّربّص في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠ قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾، على سبيل الجناس الاشتقاقيّ، وجمع تلك الألفاظ تأكيدٌ على معنى الانتظار، وأنّه سيظهر الحقُّ ويبين المُحِقّ.

الفُروق المعْجَميّة:

الكاهِن والسّاحر:

السّحرُ خدعة وحيلة، والكهانة الإخبار بالغيب

السّاحِر أصلُه يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِهِ[2]، وحقيقةُ السِّحْر: صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقيقَته إلى غَيْره، فكأنَّ السّاحِرَ لَمّا أرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَته، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وجْهه، أيْ: صَرَفَهُ[3]. أمّا الكاهنُ فأصلُه يدلّ على إبراز لطيفٍ مُستكنٍّ في الباطن أو الغيب؛ كالإخبار بالمغيَّبات، فهو تكلُّمٌ عن لطيفٍ، أي: خَفيٍّ[4]. وهو الذي يُخبر بالأخبار الماضية بضرب من الظّنّ، كالعرّاف الذي يخبر بالأخبار المستقبلة على نحو ذلك[5]. فالسّحرُ قائم على الخِداع، وأمّا الكهانة فهي الإخبار بالغيب رجمًا.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 23.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كهن).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (كهن).

وناسب أن يعبّر بالكهانة في هذا الموضع دونَ السّحر؛ لأنّ السّياق في الحديث عن يوم القيامة، وهو من الغيب، فناسبَ أن ينفيَ عنه الكهانة لذلك.

التّربّص والانتظار:

التّربّص انتظار مخصوص، فهو انتظارُ وقوعِ شيءٍ بشي

التّربص أن تنتظر بالشّيء خيرًا أو شرًّا، وأن تنتظر به يومًا ما[1]. أمّا الانتظار: فأصلُه يدلّ على تأمّلِ الشّيء ومعاينته، ومنه الانتظار، كأنّه ينظر إلى الوقت الذي يأتي فيه[2]. ومعنى انْتَظَرْتُهُ: أخَّرْتُهُ[3]. وهو يدلّ على الإمهال والانتظار، فإنّ التّفحّص والتّأمل يستغرق زمنًا[4]. فالتّربّص: انتظارٌ مخصوص، لا مطلقُ الانتظار، ففي الآية كانوا ينتظرون موتَه ﷺ، فهو انتظارٌ مخصوص.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ربص).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(3) الرّاغب، المفردات: (نظر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نظر).

﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٣٤﴾ [الطّور: 32 - 34]

مناسبةُ الآيات لِما قَبلَها:

اتـهـامـات المشركين لرسول الله من طغيان النّفوس لا من العقول

لمّا بيّن النّظمُ الكريم فيما سبق بعضَ افتراءات المشركين على رسول الله ﷺ؛ فقالوا: إنّه كاهن، أو شاعر، أو مجنون؛ أتبعه هنا ببيان أنّ تلك الافتراءات لا تستند إلى عقل راجح، أو تفكير سليم، بل هو من ضعف أحلامهم، وتناقض عقولهم، بل من طغيان نفوسهم[1].

شرحُ المفردات:

1) ﴿أَحۡلَٰمُهُم﴾: (حلم) أصله تركُ العجلة، وهو خلاف الطّيش[2]. والحِلْمُ: الأناة والعقل، وجمعه أحلام[3]، والحِلْم: ضبطُ النّفس والطّبع عن هيجان الغضب، قال الله تعالى: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾، أي: عقولُهم، وليس الحلم في الحقيقة هو العقل، بل هو من مسبَّبات العقل[4]. والمُراد به في الآية الكريمة: عقولُهم[5].

2) ﴿طَاغُونَ﴾: (طَغَى، طَغيَ) أصْلٌ يدلّ على مُجاوَزَةِ الحَدِّ في العِصْيانِ[6]، وكلّ شيء يُجاوِز القَدْر فقد طَغَى، مثلَ ما طَغَى الماءُ على قَوْمِ نوحٍ، وكَمّا طغتِ الصَّيحةُ على ثَمودَ[7]. ويطغو طُغيانًا: جاوز

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 23.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلم).
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (حلم).
(4) الرّاغب، المفردات: (حلم).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغي).
(7) الخليل، العين: (طغي).

القَدْرَ وارتفع وغلا في الكفر[1]، وأسْرَفَ في المَعاصي والظُّلْم[2]، والطّاغوتُ عبارةٌ عن كلِّ متعدٍّ، وكلِّ معبود من دون اللّه[3]. والمُراد به في الآية الكريمة: جاوزوا الحدّ في العناد[4].

3) ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾: (قول) أصلٌ يدلّ على القول من النّطق[5]. ويقال: تقوّل فلانٌ عليَّ باطلًا، أي: قال عليَّ ما لم أكن قلتُ. ومنه قولُ اللّه جلّ وعزّ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤﴾ [الحاقّة: 44]، يقال: أقَوّلْتَني ما لم أقُلْ، وقوّلتني مثلَه، أي: ادَّعيتَه عليَّ[6]. وتقوَّلَ عليه، أي: كذب عليه[7]. والمُراد به في الآية الكريمة: اخْتَلَقَه من تِلقاء نفسه[8].

المَعْنَى الإجْماليُّ:

إبطال مزاعم المُكذّبين وتحدّيهم بالإتيان بمثل القرآن

تُسَفِّهُ هذه الآياتُ الكريمة عقولَ الكافرين الذين ينسبون إلى النّبيّ ﷺ أوصافًا متناقضة تُنبِئُ عن ضعف عقولهم؛ لأنّ صفات الكهانة والشّعر والجنون لا يمكن اجتماعُها في شخص واحد وفي آن واحد؛ لذلك أنكر عليهم هذا التّناقضُ، متسائلًا: هل عقولُهم السّليمة هي التي تأمرهم بهذا التّناقضِ؟ بل هم في الحقيقة قومٌ متجاوزون للحدّ في الطّغيان والافتراء، يقولون ما لا دليلَ عليه من عقل أو كتاب. ثمّ تنتقل الآياتُ إلى طغيانهم الأشدّ، حيثُ يزعمون أنّه اخْتَلَق القرآنَ من تلقاء نفسه، فإن صحّ ما قالوه من الافتراء فليأتوا بكلام يماثل القرآن، إن كانوا صادقين في زعمهم وافترائهم[9].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (طغي).
(2) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (طغي).
(3) الرّاغب، المفردات: (طغى).
(4) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 386.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قول).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قول).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (قول).
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.
(9) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 30، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 525.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصل الآية عن سابقتها:

الإنكار والتّعجّب من صدور هذه الافتراءات ممّن يَدّعون أنّهم من أصحاب العقول

فصل النّظمُ الجليل قولَه جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾ عمّا سبق؛ لأنّها جملة مستقلّة سيقت للإضراب والانتقال إلى إنكار ما قالوه والتّعجيب منه؛ فكيف صحّ لهم أن يقولوا "مثل ذلك القولِ السّابق، ويستقرَّ ذلك في إدراكهم وهم يدّعون أنّهم أهلُ عقول لا تلتبس عليهم أحوالُ النّاسِ، فهم لا يجهلون أن محمّدًا ﷺ ليس بحال الكُهّان ولا المَجانين ولا الشّعراء"[1].

دلالة التّعبير بـ ﴿أَمۡ﴾:

توبيخ سفهاء العقول وتجهيلُ مقالاتِهم

عبّر النّظمُ الجليل بـ ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾، وهي هنا منقطعة، والاستفهام المقدّر فيها للإنكار والتّعجّب من حالهم؛ لجمعهم لهذا التّناقض في أقوالهم المفتراة في حقّه ﷺ من قولهم: كاهن وشاعر، وقولهم: إنّه مجنون؛ فهم بهذا التّناقض ليست لهم عقول أصلًا لقولهم هذا؛ لأنّ وصف الكهانة يقتضي أن يكون الكاهنُ في غاية المعرفة عندهم؛ لأنّهم يجعلونه حَكَمًا، والمجنون لا يصلح لإقامة صلح؛ لأنّه لا يَعْقِل؛ فكيف يتّهمونه بهذه الاتّهامات وهم أهل عقول، لا تلتبس عليهم أحوالُ النّاس؛ فضلًا عن حال النّبيّ ﷺ الذي يعيش بين ظهرانيهم، ويعرفون أنّه ليس بكاهن ولا مجنون[2].

ومن بلاغة التّعبير القرآنيّ أنّه عبّر بـ ﴿أَمۡ﴾ المنقطعة التي تُفيد الإضرابَ عن جميع ما حُكي عن القوم من الطّعن في النّبيّ ﷺ، ومن ذلك إضرابُه عن مقالتهم السّابقة في قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: 30]، وردّها بقوله تعالى: ﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ ٣١﴾ [الطور: 31]؛ للانتقال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 63.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 303.

إلى إنكار آخر، وهو جمعهم للتّناقض في أقوالهم من نسبته إلى الكهانة والجنون، ثمّ نسبته إلى الشّعر مع ما بينهما من تناقض، فإنّ الأحلام الرّاجحة لا تأمر بمثل هذا القول[1].

ويجوز أن تكون ﴿أَمۡ﴾ متّصلة، ويكون تقدير الكلام: أأُنزل عليهم ذِكْرٌ أم تأمرهم أحلامهم بهذا؟! وذلك لأنّ الأشياء إمّا أن تثبت بالسّمع أو تثبت بالعقل، ويكونَ تقديرُ الكلام: هل ورد أمرٌ سمعيٌّ، أم عقولُهم تأمرُهم بما كانوا يقولون[2].

دلالة التّعبير بـ ﴿تَأۡمُرُهُمۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

تجدُّدُ جهالةِ العقول الضّالّة

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾؛ لأن مادّة (أمر) تدلُّ على قَبول الأمر والانقياد له، والمُراد به هنا: الباعث، أي: تبعثُهم أحلامُهم على ذلك القولِ الشّنيع[3]، وفي ذلك إشارةٌ إلى سَفَهِ تلك العقول؛ لأنّها تأمر بالمتناقضات. وجاء التّعبيرُ بالفعل المضارع للدّلالة على تجدُّد ذلك الأمر؛ لأنّهم مُصرّون على الكفر ثابتون عليه، فكان ذلك الباعثُ مُكرَّرًا في أحلامهم.

بلاغة المجاز في إسناد الأمر إلى الأحلام:

العقل سلطانٌ مُطاع

أسند النّظمُ الجليل الأمر إلى الأحلام في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾ على طريقة المجاز، والعلاقة سببيّة؛ لأنّ العقول مُؤدّية إلى هذا القول[4]. ويجوز أن تكون استعارةً، فشَبّه العقولَ بسُلطان مُطاع، وأثبت له الأمرَ على طريق التّخييل، ووجهُ الشّبهِ هو الإغراءُ والتّحريض؛ فهي استعارة مكنيّة[5]، وسِرّ ذلك إظهارُ شِدّة تأثير العقول عليهم.

(1) القونويّ، حاشية البيضاويّ: 18/ 253.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 516.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 64.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.
(5) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 254.

نُكْتَةُ التّعبير بـ(الأحلام) دونَ العقول:

الحِلْمُ مانعٌ عن الغضب، موجِبٌ لحُسْن المعاملة

عبّر النّظمُ الجليل بالأحلام دونَ العقول في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾؛ وذلك لأنّ الحِلْم هو العقل المانع من هيجان الغضب، فهو أخصّ من العقل؛ لأنّه "مَلَكة غريزيّة تورث لصاحبها المعاملةَ بلُطف ولين لمَن أساء أو أزعج، واعتدالَ الطّبيعة"(1). وعلى ذلك: فالتّعبير بالأحلام دونَ العقول للإشارة إلى كمال العقل الذي ينبعث عنه وقارُ المرء وثباتُه وكمالُ حكمتِه؛ بخلاف العقل فهو يدلُّ على المنع من قولهم: (عقلت البعير)، أي: منعته، ولأنّ مادّة الحِلم تدلّ على تَرْك العَجَلة، وهذا من ثمار العقل الرّشيد الذي جمع بين الحِلم والعقل.

دلالة التّعبير بالإضمار في قوله: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم﴾:

من ضَعُفَ عقلُه وتناقض فكرُه، قَـلَّت هيبتُه وتَناقَصَ قدرُه

دلّ التّعبيرُ بالإضمار في هذه الجملة على التّهوين والتّقليل من شأنهم؛ وذلك لتناقض عقولهم في نسبة الافتراءات للنّبيّ ﷺ؛ فمن ضَعُفَ عقلُه وتناقض فكرُه؛ قَلّت هيبتُه وتَناقَصَ قَدْرُه.

دلالة التّعبير بالباء في قوله: ﴿بِهَٰذَآۚ﴾:

العقول الضّعيفة لا يصدر منها إلّا التّناقض

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الباء في قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾؛ لدلالتها على التّعدية، أي: تجعل أحلامَهم مُصدِرةً لهذا الأمر، وكأنّها مصدرُ هذا الفكر الباطل. وهذا تهكّمٌ وإزراءٌ بأحلامهم، فهي لم تُثْمِر لهم معرفةَ الحقّ من الباطل(2).

دلالة التّعبير باسم الإشارة القريب:

تناقضُ التّهم دليلُ فسادِ العقل

عبّر النّظمُ الجليل باسم الإشارة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾، والمُشار إليه هو التّناقض في أقوالهم التي تُخالف العقل؛ فإنّ الكاهن يكون ذا فِطنة ودِقّة نظر، وأمّا المجنون فإنّه مغطّى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 64.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 503.

العقلِ، وأمّا الشّاعر فإنّه ذو كلام موزون متّسق، والشّعر لا يتأتّى ذلك من المجنون، فظهر التّناقض في أقوالهم[1]. ويجوز أن تكون الإشارةُ إلى ما وقع منهم من عبادة الأصنام والأوثان، وهذا الفعل لا يتناسب مع طبيعة العقل؛ فضلًا عن كماله. وجاء التّعبير باسم الإشارة الدّالّة على القُرْب تهوينًا لما قالوا، وتحقيرًا لافتراءات المُعاندين.

نُكْتَةُ تكرار ذِكر ﴿أَمْ﴾:

الانـتـقـال من الإنكار إلى لفت الأنـظـار على طغيانهم

النّاظر في هذه الآيات يَجِد تكرارًا لقوله: ﴿أَمْ﴾ في هذه السّورة، بلغ عددُها خمسَ عشرةَ مرّةً، وفي هذه الآية مَرّتين؛ **أولاهما**: في صدر الآية ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُم﴾، **والثّانية**: في عجزها في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾. وقبل التّعليق على موضع هذه الآية يَجْدُر بنا الإشارةُ إلى سرّ التّكرار عمومًا في هذه السّورة، وهو أنّ السّياق فيها قائمٌ على إبطال حُجَج المُعاندين؛ فاستَعمَل الاستفهامَ بقوله: ﴿أَمْ﴾ للإقناع والإفحام، عن طريق لَفْت الانتباه إلى تناقضهم، وإلى إجبارهم بالاعتراف عن طريق الدّليل العقليّ المسوق بأسلوب استفهاميّ، ومن ذلك الآية التي معنا؛ فكرّر فيها لفظَ ﴿أَمْ﴾ للتّعجّب من حالهم، كما سبق في قوله: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ﴾، وللتّشكيك في قوله: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ ليكون التّشكيك داعيًا لهم بأن ينظروا في حالهم، ويتأمّلوا ما هم فيه من الطّغيان؛ يُؤكّد ذلك ما ذكره ابنُ عاشور، وهي هنا منقطعة، فهي للإضراب الانتقاليّ، انتقل به من الإنكار عليهم بتناقض أقوالهم، إلى الاستفهام عن اتّصافهم بالطّغيان، والمراد من الاستفهام التّشكيكُ؛ ليكون ذلك باعثًا على التّأمّل في حالهم، أو يُراد به التّقريرُ لكلّ سامع؛ إذ إنّه يجدهم طاغين[2].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 64.

دلالة التّعبير بضمير الفصل:

تعيينُهم وتخصيصهم بالطّغيان

دلّ التّعبيرُ بضمير الفصل في قوله: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ على تعيينهم وتخصيصهم؛ فكأنّ الطّغيان مقصورٌ عليهم بظواهرهم وبواطنهم، وفيه دلالةٌ على التّأكيد أيضًا[1].

سرّ التّعبيرِ عن الكافرين بلفظ ﴿قَوْمٌ﴾:

طغيانهم متأصِّل لا يرجى زواله

عبّر النّظمُ الجليل عن الكافرين بلفظ ﴿قَوْمٌ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ الطّغيان من مقوّماتهم التي يتّصفون بها، ولذلك تأصّل فيهم الطّغيان حتّى دفعهم إلى تلك المقولات المتناقضة[2]، وهو من باب التّمهيد لوصفهم بالطّغيان. وفيه إشارةٌ إلى أنّهم ذَوو قوّة فيما يحاولون فعلَه وافتراءَه على الرّسول ﷺ ومَن آمن به، وفي هذا تصويرٌ لحالة المسلمين في العهد المكّيّ، وتطاولِ الكافرين عليهم.

دلالة التّنكير في قوله: ﴿قَوْمٌ﴾، مع اقترانها بوصف الطّغيان:

تحقير الكافرين والتّشنيع بهم

جاء لفظ ﴿قَوْمٌ﴾ مُنكّرًا؛ للدّلالة على تحقير هؤلاء الكافرين والتّشنيع بهم؛ لأنّهم وظّفوا القوّة في غير موطنها، ويساعد على ذلك وصفُهم بالطّغيان، وهو سلوكٌ سلكَته العربُ في جاهليَّتِها، وجاء الإسلامُ لَمحوِه بإحلال العَدْل والإنصافِ مكانَه.

دلالة التّعبير بالطّغيان مادّةً وصيغةً:

تجاوزُ الحَدِّ في المعصية

عبّر النّظمُ الجليل بالطّغيان في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾؛ لدلالته على تجاوز الحَدّ في الافتراءات والاتّهامات التي اتّهموا بها رسولَ اللّه ﷺ، لدرجة أنّهم جمعوا بين المتناقضات التي تنبئ عن خروجهم عن مقتضى العقل. وجاء التّعبيرُ باسم الفاعل ﴿طَاغُونَ﴾؛ للدّلالة على ثبوت الوصف فيهم، وأنّ الطّغيان عادةٌ من

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 303.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 64.

عاداتهم الرّاسخة فيهم، فهم لطغيانهم لا يُبالون بالعناد الذي يخالف ما تأمر به الأحلام والنُّهى، ويقولون عن الحقّ ما لا يقوله إلّا الطّغاة السّفهاء[1].

بلاغة الاحتباك في الآية:

ما ذُكِر أشدُّ تنفيرًا من السّوء، وأعظمُ تحذيرًا له، وتقبيحًا منه

في هذه الآية احتباكٌ؛ وذلك لأنّ ذِكْر الأحلام أوّلًا دليلٌ على ضِدّها ثانيًا، والطّغيان ثانيًا على ضِده العدل السّواء أوّلًا، وسرّه: أنّ ما ذُكِر أشدُّ تنفيرًا من السّوء، وأعظمُ تحذيرًا له، وتقبيحًا منه[2].

نُكْتَةُ إعادة ذِكْر ﴿أَمۡ﴾:

تهمة التّقوّل أشدُّ عارًا من التّناقض في أقوالهم

كرّر النّظمُ الجليل ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾، وهي هنا منقطعة، والاستفهامُ المُقدّر فيها يُرادُ منه الإنكار[3]. فهو إنكارٌ لقولهم واتّهامِهمُ النّبيَّ ﷺ بتقوّل القرآن. وتَكرارُ الإضرابِ والانتقال من شيء إلى شيء مع الاستفهام يدلّ على أنّ ما تعقّبه أشنعُ ممّا تقدَّمَه، وهو أكثرُ جُرأةً وعِنادًا[4]. فاتّهامُ النّبيِّ ﷺ بالتّقوّل هو أفحشُ من التّناقض في أقوالهم السّابقة[5].

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾:

إصرار الكافرين على مقولة الكفر وتجديدها

آثَر النّظمُ الكريم التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَقُولُونَ﴾ عن القول في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾؛ للدّلالة على أنّهم اعتادوا على تلك المقولة، وأنّهم يكرّرونها على الدّوام[6]، فجدّدوا اتّهامهم للنّبيّ ﷺ بتقوّل القرآن. وفيه إشارةٌ إلى أنّ هذا القولَ الذي صدر عن المشركين في العهد المكّيّ، يصدر من المشركين في كلّ زمان ومكان، وأنّ هذا الاتهامَ متجدِّدٌ منهم.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 24.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 303.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 162.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 120.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 24.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 65.

دلالة التّعبير بالجمع في قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾:

قولُ البعضِ ينسحب على الجميع لِرضاهم به

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بضمير الجماعة في قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾، وإن كان هذا القولُ صادرًا عن بعض أفراد قريش؛ للدّلالة على أنّ هذا القول وإن صدر من بعضهم، فهو ينسحب على الجميع لِرضاهم به؛ لأنّه إذا قال الواحد قولًا وله أتباعٌ يقولون مِثْلَ قولِه أو يرضون به؛ حَسُنَ حينَئِذٍ إضافةُ ذلك الفعل إلى الكلّ؛ لأنّ الرّاضي بالفعل كفاعله. وفيه إشارةٌ أخرى إلى بيان نهج القرآن بأنّه لا يُقَيّد الأمرَ بشخص أو بآخر؛ بل القرآنُ موَجّهٌ للعالَمين، وصلاحيتُه باقية إلى يوم الدّين؛ لأنّ العِبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

دلالة التّعبير بـ ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ مادّةً وصيغةً:

تكلّفُ الافتراء والاجتهاد في الادّعاء

عبّر النّظمُ الجليل بالتّقوّل في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ دون (افتراه)؛ لبيان تَعنُّتِهم ومكابرتِهم في نسبة القرآن للرّسول ﷺ، وأنّه اخْتَلَقَه من تلقاء نفسه[1]. والتّقوّل: هو نسبةُ الكلام إلى مَن لم يَقُلْه[2]، ولا يُستعمَل إلّا في الكذب. وجاء التّعبير بصيغة التّفعّل للدّلالة على التّكلّف، أي: تكلَّفُ قولِه من نفسه[3]. وجاء التّعبير بصيغة الماضي ليُبرِزَ ما أضمروه في أنفسهم من سهولة الأمر في ادّعائهم بتقوّله للقرآن، وكأنّ الأسلوب القرآنيَّ سَهُل في بنائه ونظمه، بحيثُ أنّ الرّسول ﷺ لم يستغرق زمنًا في تقوّله كما يزعمون، بل انتهى وفُرِغَ منه، تعالى اللّه عمّا يقولون عُلوًّا كبيرًا.

دلالة التّعبير بالإضمار في ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾:

دلالة المَقام عليه، وتنزيهُ القرآنِ عن نسبة التّقوّل إليه

عبّر النّظمُ الجليل بالضّمير المتّصل في قوله جلّ شأنه: ﴿تَقَوَّلَهُۥ﴾ دونَ الإظهار، بأن يكون التّعبير: (أم يقولون تقوّل القرآنَ)، مع أنّ المُراد بالضّمير القرآنُ الكريم، ولم يتقدّم ذِكْرُه آنفًا؛ وذلك لدلالة

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 65.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 24.

المَقام عليه[1]، ولتنزيه القرآنِ عن نسبة التّقوّل إليه؛ لأنّهم يعلمون - بما عندَهم من الفصاحة والبيان - أنّه ليس من كلام البشر.

دلالة ﴿بَل﴾:

الانتقال من الاتّهام بلا أدلّة، إلى الإصرار على الكفر

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الإضراب ﴿بَل﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ وذلك لأنّه للإضراب والانتقال عن قولهم المحكيّ ﴿تَقَوَّلَهُۥۚ﴾، إلى بيان شناعةٍ أخرى من شناعاتهم؛ فقال: ﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، أي: أنّ سبب افترائهم بهذه الأقوال المتناقضة عنهم أنّهم كفّار لا يؤمنون بالله، ولا يُصَدّقون ما جاء به النّبيُّ ﷺ[2]. وفي التّعبير بـ ﴿بَل﴾ في الرّدّ عليهم دلالةٌ على سرعة تكذيبهم قبلَ إقامة الحُجّة عليهم، وليكون ورودُ الاستدلال مُفرَّعًا على قوله: ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، بمنزلة دليلٍ ثانٍ[3].

دلالة التّعبير بالمضارع المنفيّ ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾:

إصرارهم على الكفر ونبذُهم الإيمانَ

عبّر النّظمُ الجليل بالفعل المضارع المنفيّ في قوله جلّ شأنه: ﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للدّلالة على إصرارهم على الكفر، ونبذِ الإيمان بصورة متجدّدة ومستمرّة، وفائدة نفي الإيمان: بيانُ أنّ كفرَهم هو الذي حملهم على الطّعن وعدمِ التّصديق بنبوّتِه ﷺ[4]، وليس لوجود أمارات دالّةٍ على التّقوّل، بل زيّن لهم ذلك الافتراءَ انتفاءُ إيمانِهم.

دلالة حذفِ متعلّق ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾:

إفادة السّياق لعموم نفي الإيمان

حذف النّظمُ القرآنيُّ متعلّق قولِه: ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، مع أنّ المقصود (لا يؤمنون بالقرآن)، لدلالة السّياق عليه؛ وذلك لإفادة العموم في نفي الإيمان؛ فلا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بالكتاب الذي أُنزل عليه.

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 296.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 120.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 63.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 32.

سرّ التّعبير بنفي الإيمان، دون التّصريح بالكفر:

مـبـادرة أهـلِ الكُفرإلى الطّعن بـالـقـرآن، دون الـنـظـر إلى ما فيه من الآيات والبراهين

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بنفي الإيمان عنهم في قوله: ﴿لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، دون التّصريح بكفرهم؛ لأنّ دلائل تنزيه النّبيّ ﷺ عن تقوّل القرآنِ بيّنةٌ وظاهرة، ولكن الزّاعمين لها يأبَون الإيمانَ؛ فهم يُبادِرون إلى الطّعن دونَ نظرٍ لما فيه من الآيات والبراهين. وللتّفرقة بين عموم الكَفَرة وقادة الكُفْر الذين افترَوًا هذه الاتّهامات؛ فهم لا يؤمنون.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾:

ادّعـاءُ اختلاقِ الـقـرآن يوجب تعقيبَه بتصديق الدّعوى

عبّر النّظمُ الجليل بـ (الفاء) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأنّها رابطة لجواب شرط مقدّر، تقديره: إن كان ما قالوه حقًّا، فعليهم أن يأتوا بحديث مثله؛ ليثبتوا صحّة كلامهم[1]. وعلى هذا، يكون التّعبير بالفاء أفاد معنى التّرتيب والتّعقيب، وإقامةَ الحُجّة عليهم من خلال دليل عقليّ، مُفادُه: إذا كان محمّد ﷺ اختلق القرآنَ وتقوّلَه من نفسه، وهو عربيٌّ مثلُكم، فمالكم لا تتقوّلون حديثًا مثلَه تنهض به حجّتُكم.

دلالة اللّام في ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾:

الإيـتـاء بمثل الـقـرآن واجـبٌ مُـلْـزِم لإثبات الـصّــدق في الدّعوى

عبّر النّظمُ الجليل بلام الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأنّها مستعمَلَةٌ في أمر التّعجيز، والمُراد منه: التّحدّي ليلزمَهم بالحُجّة، فإن كانوا صادقين في زعمهم بأنّ القرآن مختَلَقٌ فَلْيَأتوا بمثله، وهم أهل فصاحة وبلاغة وحُسْنِ بيان[2].

دلالة الأمر وغرضُه في ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾:

إظـهـار الـعَـجْـزِ لبيان المعجزة

عبّر النّظمُ الجليل بالإيتاء بصيغة الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾؛ للدّلالة على إيجاب إحضار كلامٍ يُماثل القرآنَ ليكون اتّهامُهم صحيحًا، والأمر هنا للتّعجيز،

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 214.

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 120.

فإنّ الإتيان بمثله قد أعجزهم، فهو تحدٍّ وتعجيزٌ لهم[1]. ويجوز أن يكون الأمر هنا على حقيقته؛ لأنّه لم يقل: (ائتوا) مطلقًا؛ بل قال: (ائتوا إن كنتم صادقين)؛ فهو أمر معلّق على شرط، إذا وُجِد ذلك الشّرط وجب الإتيان به[2]. والأَوْلَى أن يحمل الأمرُ على التّعجيز؛ لأنّ ختام الآية يدعم هذا المعنى؛ لأنّه استعمل ﴿إِن﴾ الشّرطيّة التي تدلّ على التشكيك في وقوع الشّرط وتحقّقه، ويكون المعنى: أنّهم غيرُ صادقين في ادّعائهم أنّ القرآن متقوَّل من عند رسول اللّه ﷺ؛ لأنّهم رؤوس العرب وفصحاؤهم؛ فلو كان الأمر كذلك بأنّه تقوَّلَه؛ فلماذا لم يتقوّلوا هم أيضًا ويأتوا بمثله؛ فدلّ ذلك على عجزهم[3].

سرّ التّعبير بالإتيان دونَ القول:

إرخـاءُ العَنان لأهـل الكفر في أمر التّحدّي

آثَر القرآنُ التّعبيرَ بالإتيان دونَ القول، بأن يكون التّعبير: (فليقولوا مثله)؛ لقصد الإعذار لهم، بأن يقتنع منهم بجلْب كلام مثلِه ولو من أحد غيرهم؛ لأنّ الإتيان بالشّيء إحضارُه من مكانٍ آخر، وفي هذا إرخاءُ العَنان لهم في أمر التّحدّي[4].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِحَدِيثٍ﴾:

عبّر النّظم الجليل بحرف (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لدلالتها على التّعدية، أي: أحضروا مثلَ القرآنِ، وإن كان من مكان آخر[5].

دلالة التّعبير بلفظة (حديث):

توسيع نطاق التّحدّي يُعبّر عن قوّة الإعجاز

آثَر النّظمُ الكريم التّعبير بلفظ الحديث في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾؛ لأنّ لفظ الحديث يدلّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 214.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 518.
(3) القنوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 13/ 232.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 66.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 66.

على الإخبار بالحوادث، وأصل الحوادث أنّها الواقعات الحديثة؛ ثمّ توسِّع فأُطلِق على الواقعات ولو كانت قديمةً، وتَبِعَ ذلك إطلاقُ الحديث على الخبر مطلقًا، وتوسَّعَ فيه فأُطلِق على الكلام ولو لم يكن إخبارًا، وفي هذا دلالةٌ على توسيع نطاق التّحدّي، بأن يأتوا بأخبارٍ مثلِ قصص القرآن، ويكون ذلك استنزالًا لهم؛ لأنّ التّكلّم بالإخبار أسهلُ من التّكلّم في ابتكار الأغراض، ولأنّهم كانوا يقولون: إنّ القرآن أساطير الأوّلين؛ لأنّه يُخبر عن أحوال الأمم الماضية؛ فقيل لهم: إيتوا بأخبارٍ من أحوال الأُمم الماضية مثلِ أخبار القرآن؛ لأنّهم لا طاقةَ لهم في الإتيان بمثل ما في القرآن من المعارف والشّرائع والدّلائل[1].

دلالة التّنكير في قوله: ﴿بِحَدِيثٍ﴾:

تفخيم القرآن وتعظيمه

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بلفظ ﴿بِحَدِيثٍ﴾ مُنكَّرًا؛ لأنّه يدلّ على التّعظيم والتّفخيم؛ لأنّه وصفٌ للقرآن الذي تحدّى اللّه القومَ بالإتيانِ بمثله.

دلالة التّعبير بالمثليّة في قوله: ﴿مِّثۡلِهِۦٓ﴾:

تَحدّيهم بالإتيان بكتاب يماثل القرآنَ في نظمه وبلاغته

عبّر النّظمُ الجليل بالمثليّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ دون المشابهة؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالمِثليّة أخصُّ من المشابهة، لذلك كان التّعبيرُ بها؛ للدّلالة على أنّ التّحدّي واقعٌ في الإتيان بمثله في النّعوت التي استقلّ بها، من حيثُ النّظمُ ومن حيثُ المعنى، والمُراد: أن يأتوا بكتاب مثلِ القرآن في الهداية والأسلوب، الذي ملك ناصيةَ الفصاحة والبلاغة[2]، ويكون برتبته في حُسْن النّظم والبيان.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 66.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 53.

دلالة التّعبير بالإضمار في ﴿مِّثۡلِهِۦٓ﴾:

تنزيهُ القرآنِ الكريم عن أن يكون له مثل

دلّ التّعبير بالإضمار في ﴿مِّثۡلِهِۦٓ﴾ دون الإظهار، بأن يقول: (فليأتوا بمثل القرآن)؛ لتنزيهه عن أن يكون له مثل، وفي ذلك تبكيتٌ وتوبيخ للمعاندين الذين تَقوَّلوا على رسول اللّه ﷺ.

دلالة الإفراد في مثله:

التّعبير بالإفراد للمبالغة في التّحدّي ولدَفْع توهّمِ المعاندين

جاء التّعبير بلفظ المثليّة مفردًا في قوله: ﴿بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾؛ للمبالغة في التّحدّي، ولدفع تَوهُّم يَرِد في خاطر المعاندين، بأن القرآن سورٌ متعدّدة، وهذا يعطي لهم مساحةً في محاولة إثبات زعمهم؛ لذلك جاء التّعبيرُ بالمثليّة مُفردًا لدفع ذلك، ولبيان أنّ سور القرآن كلّها نسقٌ واحد؛ فلا اختلافَ في نظمها ولا وصفها.

بلاغة التّعبير بالشّرطيّة ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾:

اتّصافهم بالصّدق مرتَهَنٌ بإتيانهم مثلَ القرآن

عبّر النّظمُ الجليل بالشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾، وجوابُ الشّرطِ لها محذوفٌ لدلالة ما قبلَه عليه[1]، أي: إن كانوا صادقين فليأتوا بمثله، فجعل صدقَهم بدعواهم متعلّقًا بإتيانهم مثله، فإن لم يأتوا بذلك يبطل صدقُهم ويظهرُ أنّهم كاذبون فيما قالوا. والخطابُ "إلهابٌ لعزيمتهم ليأتوا بكلامٍ مثلِ القرآن؛ ليكونَ عدمُ إتيانِهم بمثلِه حُجّةً على كَذِبهم"[2].

دلالةُ التّعبير بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

لا شكّ في كَذِب مُكذِّب القرآن

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بأداة الشّرط ﴿إِن﴾ دون (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾، مع أنّ عدم الصّدق مقطوعٌ به لبيان أنّ ذلك في زعمهم؛ لأنّ عدم صدقِهم قبلَ التّأمّل التّامِّ ليس بمُحَقّق عندهم، وللتّشكيك بصدقهم؛ لذلك كان

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 298.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 67.

التّعبيرُ بأداة الشّرط بـ ﴿إِن﴾؛ لأنّها تكون لما لا يُتَوقّع حصولُه، فهي تدلّ على الشّكّ والاحتمال[1]، فصِدقُهم محلُّ شكّ.

نُكْتَةُ دخولِ فعلِ الكوْن:

صفة الصّدق منتفيةٌ عنهم انتفاءً وجوديًّا

أدخل النّظمُ الجليل فعلَ الكونِ في قوله جلّ شأنه: ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾؛ للدّلالة على رسوخ الوصف، إن كانوا راسخين بالصّدق[2]. وإيقاعُ هذا الوصف بالشّرط يدلّ على شدّة انتفاء هذا الوصف عنهم.

دلالة التّعبير بالصّدق مادّةً وصيغةً:

عدم إقامة المُدّعي الدّليل على دعواه دليلٌ على كَذِبه

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الصّدق في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾؛ للدّلالة على أن من يُكَذِّب رسولَ الله ﷺ، ويدّعي أنّه تقوّل القرآنَ؛ فقد انتفى عنه وصفُ الصّدق، وفيه إشارةٌ إلى إرخاء العنان لهم في التّحدّي أن يأتوا بحديث مثله؛ فإذا ما عجزوا، حكموا على أنفسهم بالكذب؛ لأنّ الصّدق نَقيضُ الكذِبِ[3]، وفي هذا إلهابٌ لعزيمتهم ليأتوا بكلام مثلِ القرآن؛ لأنّ عدم الإتيان بمثله حُجّةٌ على كذبهم[4]. وجاء التّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل للدّلالة على رسوخ الوصف، أي: إن كانوا عريقين في الصّدق[5].

دلالة حذف متعلّق الصّدق:

السّياق يدلّ على متعلّق الصّدق، ونفي صفة الصّدق عنهم على وجه المبالغة

حُذِفَ متعلِّق الصّدق لدلالة السّياق عليه، والمُراد: إن كانوا صادقين فيما زعموا من تقوّله ﷺ للقرآن، وفيه إشارةٌ إلى نفي صفة الصّدق عنهم على وجه المبالغة؛ لأنّ من يَكْذِب على رسول الله ويَصِفُه بالتّقوّل؛ فهو محروم من وصف الصدق؛ فضلًا عن عقابهم على الكذب.

---

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 27/ 64.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 26.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (صدق).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 67.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 26.

بلاغة التّعبير بهذه الآية:

تظهر بلاغةُ التّعبيرِ في هذه الآية في أنّ القرآن استخدم أسلوبَ الافتراضِ في إبطال مزاعمهم ودَحْضِ أباطيلهم، من خلال هذا الأسلوبِ الذي بناه على المحاجّة، وهو أسلوب عقليٌّ لا ينكره إلّا مرضى العقول؛ فقد حاجَجَهمُ القرآنُ في هذه الآية فيما زعموه من تقوّله ﷺ للقرآن، بأن يأتوا بحديث مثلِه على فرض أنّه ممّا يتيسّر مثلُه لفصحاء العرب وصُنّاعِ البيان، بقوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾.

استخدم أسلوبَ الافتراضِ في إبطال مزاعمهم ودحض أباطيلهم

الفُروق المعجميّة:

الحِلم، والعقل، والحِجر، والنُّهى:

العقل: نقيض الجهل، يقال: عَقَل يَعْقِل عقلًا، إذا عرف ما كان يجهله قبل[1].

العقل إدراكٌ، والحِلم تَرَوٍّ، والحِجْر قَيْدٌ، والنُّهى تجمّلٌ عن القبيح

أمّا الحِلم: فأصلُه من تَرْك العَجَلة، خلافُ الطّيش[2]، وهو ضبطُ النّفسِ والطّبع عن هيجان الغضب، قال الله تعالى: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ﴾، أي: عقولُهم، وليس الحِلْم في الحقيقة هو العقل، لكن فسّروه بذلك لكونه من مسبَّبات العقل[3].

وأمّا الحِجْر: فأصلُه منَ المنع والإحاطة على الشّيء، والعقلُ يُسمّى حِجْرًا لأنّه يمنع من إتيان ما لا ينبغي[4].

أمّا النُّهى: فأصلُه من النَّهي، وسُمّي به العقل لأنّه يَنهى عَنْ قَبيح الفِعْلِ[5]، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ [طه: 54][6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حلم).
(3) الرّاغب، المفردات: (حلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حجر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نهي).
(6) الرّاغب، المفردات: (نهي).

فالعقل: أصل الإدراك والفهم والتّمييز، وهو نقيض الجهل، وبه يتحقّق العلم. أمّا الحِلم: فهو صفة أخلاقيّة تتولّد عن العقل، وهي ضبط النّفس والتّروي. والحِجْر: قدرة العقل على منع النّفس عن الوقوع في الشّرور والقبائح. والنُّهى: العقل الذي يدفع صاحبَه إلى الرّشد، وينهاه عن الخطأ.

وقدِ اختار في الآية التّعبيرَ بالأحلام لأنّه من المَعيب أن يتّصف الإنسان بالتّناقض، فهم لم يضبطوا أنفسهم بالوقوع في موقف يناقض بعضَه.

الطّغيان والظّلم:

الظّلم نقص الحقّ، والطّغيان المجاوزة والمغالاة

أصل الظُّلم: نُقْصانُ الحقّ، ونقيضه الإنصاف، وهوَ إعْطاء الحقّ على التَّمامِ[1].

أمّا الطّغيان: فهو مُجاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ[2]. أو جاوَزَ القَدْرَ وارْتَفَعَ وغَلا في الكُفْرِ[3].

فالظّلمُ هضمٌ للحقّ، أمّا الطّغيان: فمجاوزةُ الحَدّ والمغالاة في العصيان والكُفْران. وقد آثَر النّظمُ الجليل التّعبيرَ بالطّغيان؛ لأنّه أراد بيانَ تجاوزِهم في الحَدّ في العصيان، وهذا يُعبَّر عنه بالظّلم لا بالطّغيان.

الافتراء، والكَذِب، والتّقوّل:

الكذب أعمّ، والافتراء أقبحُ الكذب، والتّقوّل نسبةُ القول إلى مَن لم يَقُلْه

الكذب: عدمُ مطابقةِ الخبر للواقع. والافتراء: أخصّ منه؛ لأنّه كذبُ المَرْءِ في حقّ غيرِه بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب فإنّه قد يكون في حقّ المتكلّم نفسِه، ولذا يقال لمن قال: (فعلت كذا، ولم أفعل كذا) غيرَ صادقٍ: هو كاذب، ولا يقال: هو مُفْتَرٍ، وقال سبحانه حكاية عن

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 231، 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (طغى).

الكفار: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [سبأ: 8]؛ لزعمهم أنّه أتاهم بما لا يرتضيه اللّه سبحانه مع نسبته إليه[1]. والافتراء: افتعالٌ من الفَرْي، وهو أقبح الكَذِب، وهو الكذب المتعمَّد[2]. والافتراءُ: هو العَظيمُ مِنَ الكَذِب. يُقالُ لِمَن عَملَ عملًا فبالغَ فيه: إنَّه لَيَفْري الفَريَّ؛ يعني: لَيَقْطَعُ الأمرَ العجيبَ[3].

أمّا التّقوّل: فهو نسبة القول إلى مَن لم يقله، يقال: قَوَّلْتَني مثلَه، أي: ادَّعيتَه عليَّ[4].

فعبّر في الآية بالتّقوّل لأنّه أخصُّ من الكَذِب، إذ هو ادّعاءُ قولٍ ونسبتُه إلى مَن لم يقله، إذِ المرادُ به في الآية الكريمة: اخْتَلَقَه من تلقاء نفسه[5].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 449، 450.
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (فري).
(3) السّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 103.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قول).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.

﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ [الطّور: 35 - 36]

❁ مناسبةُ الآيتين لِما قَبْلَهما:

إثبـات البعث وإعـادةُ الخَلْق بـعـد إثبـات الرّسالة

بعد أن ردّ النّظمُ الجليل على اتّهامات المشركين وافتراءاتهم على النّبيّ ﷺ بالكهانة والشّعر، انتقل إلى إنكار تكذيبهم بالبعث وعقيدتهم الدّهريّة، فهو انتقالٌ إلى إبطال ضرب آخرَ من شُبههم في إنكارهم البعث، وذلك بطَرْح برهانٍ عقليٍّ يدلُّ على وجود خالق قدير. فالمناسبة: هي الانتقال من تفنيد الطّعن في الرّسالة إلى إقامة الحُجّة على إمكان البعث بإثبات وجود الخالق[(1)].

ومنها: بعد أن دعاهم إلى التّحدّي للإتيان بمثله إن كانوا صادقين وعجزوا عن ذلك، انتقل الحديثُ إلى ميدان آخرَ في المحاجّة لإقامة الحُجّة عليهم، بأن ينظروا في أنفسهم، ويجيبوا على هذا التّساؤل: أخُلِقوا من غير شيء أم خلقوا أنفسَهم؟ وبذلك يفحمهمُ القرآنُ، ولا يجدون جوابًا إلّا الصّمت المُطبِق، والوجوم الحائر[(2)].

❁ شرحُ المفردات:

1) ﴿يُوقِنُونَ﴾: (يقن) أصلٌ يدلّ على زوال الشّك[(3)]، فاليقين: العِلْم وإزاحةُ الشّكِّ وتحقيق الأمر، وقد أيقن يوقن إيقانًا، فهو موقِنٌ[(4)]، واليَقينُ من صفة العِلْم فوقَ المعرفةِ والدّرايةِ وأخواتها، يقال: عِلْمٌ يَقين، ولا يقال: معرفةٌ يَقينٍ، وهو سكون الفَهْم مع ثبات الحُكم، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧﴾ [النّساء: 157] أي: ما قتلوه قتلًا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 216، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 67.
(2) الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 574.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (يقن).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (يقن).

تَيَقَّنوهُ، بل إنّما حكموا تخمينًا ووهمًا[1]. والمُراد به في الآية الكريمة: العِلْم بلا شكّ، فهم لا يتّصفون باليقين[2].

المعنى الإجماليُّ:

الدّليل العقليُّ حُجّةٌ دامغةٌ على إثبات الوحدانيّةِ وبُطلان الشّرك

تُقيم الآيتانِ حجّةً عقليّةً دامغةً على بُطلان شِرك المشركين، فتسألهم سؤالًا إنكاريًّا: أخُلِقوا من غير خالق؟ أم خَلَقوا أنفسَهم؟ وكِلا الأمرَين باطلٌ عقلًا وواقعًا، إذ لا يمكن لموجود أن يوْجَد من العَدَم بلا موجِد، ولا أن يكون هو خالِقُ نفسِه. ثمّ يُنتقل بهم إلى ما هو أعظم: أخَلَقوا السّماواتِ والأرضَ بما فيها من إتقان؟ والجوابُ مُضَمّن في التّوبيخ: بل هم لا يوقنون بعذاب اللّه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

بين يدي هاتين الآيتين:

النّاظرُ في هاتين الآيتين يجد تفرّدًا في عرض الدّليل العقليّ لإثبات الوحدانيّة وإبطالِ الشّرك؛ حيثُ تميّز باليُسر والسّهولة والبُعْد عن التّعقيدات التي يستعملها علماءُ الكلامِ والمنطقِ فيما يُسَمّونه بدليل الحدوثِ، أو دليلِ الجَوهر الفَرْد، وغيرِهما من الأدلّة التي يكون مبناها على المُقدّمات والتّقسيمات، وغيرِها التي تعقد الدّليل؛ بخلاف ما أورده القرآنُ في هاتَين الآيتين بعبارة سهلة، وضَحَ من خلالها الدّليل؛ فعندما قال: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾، وثبتَ بُطلانُ أنّهم خُلِقوا من غير شيء، وبُطلانُ أنّهم خَلَقوا أنفسَهم؛ فلم يبقَ إلّا الأمرُ الثّالث، وهو أنّ الخالق هو اللّه تعالى.

نُكْتَةُ تكرارِ ﴿أَمۡ﴾:

تقريعُ أسماعِ الكافرين بالبراهين العقليّة

كرّر النّظمُ الجليل ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ

(1) الرّاغب، المفردات: (يقن).

(2) النّخجوانيّ، الفواتح الإلهيّة: 2/ 360.

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 85، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 525.

﴿شَيۡءٍ﴾؛ للانتقال إلى إضرابٍ آخرَ، يُبْطِل به شبهةً أخرى من شُبههم في إنكار البعث، فاستدلَّ على إمكانه بدليل خَلْقِهم، وأنّهم ليسوا خالقين(1). وممّا يُذْكَر في دلالة التّكرار: أنّ القرآن الكريم واجهَ هؤلاءِ الكَفَرةَ بما يُزَلْزِل الأرضَ من تحت أقدامِهم، بما صاغَه لهم من هذه التّساؤلات المُصَدّرة بـ ﴿أَمۡ﴾، التي تحمل معنى الاستفهام الإنكاريّ، ولا يجدون أمامَها من سبيل إلّا الاعتراف وإعلان العجز.

نُكْتَةُ بناءِ الفعل ﴿خُلِقُواْ﴾ لما لم يُسَمّ فاعلُه:

دليلُ الخَلْقِ مؤجِبٌ للإيمان بذاته

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل ﴿خُلِقُواْ﴾ المبني للمفعول في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ للتّنبيه على دليل الخَلْق لذاته لا لكونه من معيّن، كما أنّ في حذف الفاعل المعلوم إيجازًا بليغًا في التّعبير. وممّا يُذْكَر في سِرّ بناء الفعل للمفعول أنّ القرآن الكريم يواجِهُ هؤلاء المشركين مواجهةً عقليّةً دامغةً، وذلك أنّه أنزلهم منزلةَ مَن يَدّعي أنّه مخلوق من غير شيء، أي: مخلوق ليس له خالق؛ فكان حَذْفُ الفاعلِ وبناءُ الفعلِ ﴿خُلِقُواْ﴾ لما لم يُسَمّ فاعلُه، تعبيرًا بلاغيًّا طابقَ اللّفظُ فيه المعنى(2). وفيه تنبيهٌ للعقل وإيقاظٌ للفِكْر، وذلك لأنّه لا يَتَصَوّرُ عاقلٌ وجودَ فعلٍ بدون فاعل.

سرّ التّعبير بـ ﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾:

إقرارُهم بأنّ الذي خلقَهم أوّلَ مَرّة هو الله دليلٌ على إثبات البعث

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿مِنۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ﴾ وذلك لتَعدُّدِ معانيها؛ فهي صالحةٌ أن تكون للابتداء، ويكون المُراد بالاستفهام التّقرير، والمعنى: أَيُقِرّون أنّهم خُلِقوا منَ العَدَم، فكلما خُلِقوا من عدم في نشأتهم الأولى، فإنّهم يُخْلَقون من عدم في النّشأة الآخِرة، فهو إثباتٌ للبَعْث(3). وصالحةٌ أن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 67.
(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 168.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 67.

تكون للتّعليل بمعنى اللّام، أي: أخُلِقوا لغير شيء، أي: أخُلِقوا باطلًا لا يُحاسَبون ولا يُؤمَرون؟ والمراد بالاستفهام الإنكار، والمعنى: إنكارُ أن يكون خَلْقُهم بغير حكمة، وهذا إثبات أن البعث واقعٌ لأجل الجزاء على الأعمال، فهو في معنى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون: 115][1].

دلالة دخولِ ﴿غَيْرِ﴾:

من المحال الخَلْقُ من لا شَيء

عبّر النّظمُ الجليل بـ ﴿غَيْرِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾، وهي هنا دالّة على النّفي، أي: أخُلِقوا من غير خالقٍ، ومن غير أبٍ وأُمٍّ[2]. والنّفيُ بـ ﴿غَيْرِ﴾ نفيٌ بليغ لأنّه اسم، فالتّعبيرُ بالنّفي المُؤكَّدِ مناسبٌ للدّلالة على استحالة الخَلْقِ من لا شيء[3].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿شَىْءٍ﴾:

إفادة العموم

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿شَىْءٍ﴾ مُنكّرًا في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾، لما في التّنكير من دلالة على الإبهام، فيدلّ على صور عديدة محتملة، أي: بل أخُلِقوا من غير خالق لهم؟ أو أخُلِقوا باطلًا لغير شيء؟ أو أخُلِقوا من غير أبٍ ولا أُمٍّ؟ فهم كالجماد لا يفهمون، ولا تقوم عليهم حُجّة؟[4]. ولأنّه يُفيد العمومَ لوقوع ﴿شَىْءٍ﴾ في سياق النّفي الضّمنيّ المُستفاد من الاستفهام الإنكاريّ في قوله: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟﴾.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ دون (من غير خالق):

دلالة (شيء) على الاستغراق والعمومِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بقوله: ﴿مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾، دون: (من غير خالق)؛ لأنّه لو قال: (من غير خالق) لكان لفظُ (خالق) مجافيًا للفكرة التي واجَهَهُم بها النّظمُ، وهي تنزيلُهم منزلةَ مَن ادّعى أنّه لا

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 505، وينظر: ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 68.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 216.
(3) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري الجامع: 27/ 65.
(4) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 232.

خالقَ له؛ لأنّ في: (من غير خالق) إشارةً إلى الفاعل، وإن كان منفيًّا؛ أمّا تعبيرُ القرآن من غير شيء؛ فهو الأوْلَى لأنّ لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ لا دلالةَ فيه مباشرةً على وجود خالق، أضف إلى هذا الاستغراقَ والعمومَ الذي يدلُّ عليه (شيء)؛ لذلك كان التّعبيرُ القرآنيّ هو الأوفق(1).

دلالة التّعبير بـ ﴿أَمۡ﴾:

إنكارُ قدرتِهم على الخَلْق إبطالٌ لمزاعِمِهم

عبّر النّظمُ الجليل بـ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾، وهي هنا منقطعة، جيءَ بها للدّلالة على الإضراب الانتقاليّ، انتقل إلى الإنكار بالاستفهام المُقدّر فيها، أي: هم ليسوا خالقين، ولمّا كانوا لم يَدّعوا أنّهم خالقون، فيكون الإنكارُ مرتّبًا على تنزيلهم منزلةَ مَن يَزعُم أنّه خالق(2)؛ أي: أهُم الذين خَلَقوا أنفسَهم، فلذلك هم لا يعبدون اللّه ﷻ(3)؟!

نُكْتَةُ تعريف طَرَفِي الإسناد:

لا خالقَ إلّا الله

عرّف النّظمُ الجليل طرفَي الإسنادِ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ للدّلالة على القَصْر، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ؛ وذلك للرّدّ عليهم بتنزيلهم منزلةَ مَن يَزْعُم أنّهم الخالقون، وليس اللّه تعالى، والتّقدير: أم هم الخالقون لا نحن. والمعنى: نحن الخالقون لا هم(4).

نُكْتَةُ تقديمِ المسند إليه على الخبر:

التّقديم لإفادة القَصْر

قدّمَ النّظمُ القرآنيّ المسنَد إليه على الخبر في سياق الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ لإفادة القصر لما يحمله هذا الأسلوب من دلالة قويّة في مقام الاحتجاج.

بلاغة حَذْفِ المفعول به:

إفادة العموم

حذفَ النّظمُ الجليل المفعولَ به لفعل الخَلْق في قوله جلّ

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 168.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 68.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 151.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 68، 69.

شأنه: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَـٰلِقُونَ﴾؛ وذلك لقصد التّعميم، أي: الخالقون للمخلوقات[1]، والحَذْفُ يفيد الإيجازَ في التّعبير.

بلاغة المقابلة بين ﴿خُلِقُواْ﴾ و﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَـٰلِقُونَ﴾:

تظهر بلاغةُ المقابلة بين الافْتِراضَيْن؛ **الفَرَض الأوّل**: الخَلْق من غير شيء ﴿خُلِقُواْ﴾ بحذف الفاعل. **والفَرَض الثّاني**: كونهم هم الذين خلقوا أنفسَهم ﴿ٱلۡخَـٰلِقُونَ﴾. فالملاحظ: اختفاءُ الفاعل في الفَرَض الأوّل، حتّى كاد ينعدم، ثمّ ظهر في الفَرَض الثّاني ﴿ٱلۡخَـٰلِقُونَ﴾ حتّى كاد يَصُكُّ الآذان[2].

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾:

تظافر الأدلّة على بُطلان الكفرِ، وضلالِ أهلِه

فصل النّظمُ الجليل جملةَ ﴿أَمۡ خَلَقُواْ﴾ عمّا سبقها؛ لأنّها مستأنَفةٌ سيقت بدلًا عن الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَـٰلِقُونَ﴾ بدل بعض من كلّ، للاستدلال على انتفاء قدرتهم على الخَلْق، فخَصّ السّماوات والأرض بالذّكر لعِظَم خَلْقِهما، وأنّهم عاجزون عن ذلك على وجْهِ اليقين[3].

نُكْتَةُ تكرار ﴿أَمۡ﴾:

تقريع الكافرين بتأكيد الإنكار

كرّر النّظمُ الجليل ذِكْرَ ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾؛ وذلك لتأكيد الإنكار المدلول عليه بالاستفهام، فإنّ ﴿أَمۡ﴾ هنا منقطعةٌ دالّةٌ على الإنكار كذلك[4]. فيُكَرِّر النّظمُ ذِكْرَها تقريعًا لهم بتكرير الإنكار بصوَرٍ مختلفةٍ متعدّدة.

نُكْتَةُ تخصيص ذِكْر السّماوات والأرض:

للتّعظيم والتّشريف

خصّ النّظمُ الجليل ذِكْرَ السّماوات والأرض في قوله جلّ شأنه:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 69.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 128.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 69.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.

﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾، مع أنّهما مدلولٌ عليهما بقوله تعالى: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾؛ وذلك لعِظَم خلقِهما وشَرفِهما على سائر المخلوقات[1]. وذِكْرُهما يُظْهِرُ عجزَ الكافرين على وجه القَطْع.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿بَل﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بـ ﴿بَل﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾، وهي حرفُ إضراب[2]، وجيء بها هنا لإبطال مضمون الكلامِ السّابق، أي: لم يُخْلَقوا من غير شيء، ولا هُمُ الذين خَلقوا السّماواتِ والأرضَ، والمعنى: أنّهم لم يفعلوا لا هذا ولا ذلك، ولكنّهم لا يوقنون بالبعث، فهم ينكرونه مكابرةً بلا حُجّة[3].

إبطالُ قدرتِهم على الخَلْق لإثبات مُكابرتِهم بإنكار البعث

دلالة التّعبير بالمضارع المنفيّ ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بالفعل المضارع المنفيّ في قوله جلّ شأنه: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾؛ للدّلالة على تجدّد نفي يقينِهم، فهم مُصِرّون على الجُحودِ والكفرِ، ومفارقون لليقين على وجه الدّوام والاستمرار.

خُلوّ الكافرِ من اليقين دائمٌ مستمرٌّ

نُكْتَةُ العدول عن نفي الإيمان إلى نفي اليقين:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بنفي اليقين دون نفي الإيمان في قوله جلّ شأنه: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾، فلم يقل: (بل لا يؤمنون)؛ وذلك للدّلالة على شدّة ضلالهم، فهم يخبطون في ظلمات الشّكّ دونَ عِلْمٍ ويقين، ولو كان لهم عِلمٌ ويقين لآمنوا بالنّبيّ ﷺ[4]. وهم إذا قيل لهم: مَنْ خلَقَكُم وخَلَقَ السّماواتِ والأرضَ؟ فإنّهم يقولون: اللّه، ولكن بغير يقين بذلك، إذ لو كانوا موقنين لما أعرضوا عن عبادته تعالى[5]. ولم يَنْفِ الإيمانَ لأنّه قد سبق نفيُ الإيمانِ عنهم، فعُلِمَ

الكافرُ غيرُ موقِنٍ بنسبة الخَلْق إلى الله تعالى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 38.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 299.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 70.
(4) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 233.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 38.

أنّهم غيرُ مؤمنين، فأراد هنا بيانَ أنّهم لا يوقنون بنسبة الخَلق إلى اللّه تعالى.

وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بنفي اليقين دفعُ تَوَهُّم قد يَرِد في الخاطر من تعارض يقع بين سؤالهم سؤالَ المُتّهَم في قوله: ﴿أَمۡ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۚ﴾، وبين إقرارهم بما يدفع هذه التّهمةَ عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25]، فجاء قولُه: ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ ليكشفَ عن حقيقة إقرارهم؛ لأنّه إقرارٌ لا يقوم على استدلال وبحث ونظر، ومِن ثَمّ فلا يقع منهم موقعَ اليقين(1).

دلالة حذف متعلّق ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾:

إرادة نفي الصّفة أصلًا

حُذِفَ متعلّق ﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾ لإرادة نفي الصّفة أصلًا، ويكون تقدير الكلام: أنّهم ما خَلَقوا السّماواتِ والأرضَ، و﴿لَّا يُوقِنُونَ﴾ بهذه الدّلائل أصلًا، وإن جئتَهم بكلّ آية(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

اليقين والإيمان:

اليقين عِلْمٌ بلا شَكّ، والإيمان تصديقٌ بالخبر

اليقين: هو العِلْم وإزاحة الشّكّ وتحقيقُ الأمر، وقد أيْقَن يوْقِنَ إيقانًا، فهو موقِن(3)، واليَقينُ من صفة العِلْم فوقَ المعرفة والدّراية وأخواتها، ونقيضه التّخمين، قال ﷻ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ١٥٧﴾ [النّساء: 157]، أي: ما قتلوه قتلًا تَيَقَّنوهُ، بل إنّما حكموا تخمينًا ووهمًا(4).

أمّا الإيمان: فهو التّصديق(5).

فاليقين دالٌّ على العِلم بعدَ إزالة الشّكّ، أمّا الإيمانُ في التّصديق، فعُبّر بنفي اليقين لبيان أنّ شكّهم ما زال قائمًا.

---

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 575.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 521.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (يقن).
(4) الرّاغب، المفردات: (يقن).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (أمن).

﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ ٣٧ أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٣٨﴾ [الطّور: 37 - 38]

مناسبةُ الآيتين لما قبلَهما:

عجزهم عن الخَلْق والتّدبير يقتضي نفيَ قدرتهم على اختيار النّبوّة

بعد أن نفى النّظمُ الجليل فيما سبق أن يكون للمشركين تصرّفٌ ما في الخَلْق والإيجاد، وبَيَّنَ فسادَ عقولِهم؛ أَعْقَبَه في هاتين الآيتين بنفي عِلمهم واطّلاعهم على ما يخوّلهم التّصرّفَ في خزائن اللّه، أو سلطةً في تعيين مَن يكون رسولًا، فكما أنّهم لا يملكون القدرةَ على خَلْق أنفسِهم أو الكون، فكذلك لا يملكون حقّ الاعتراضِ على مَنِ اختاره اللّه للرّسالة[1].

شرحُ المفردات:

1) ﴿خَزَآئِنُ﴾: (خزن) أصلٌ يدلّ على صيانة الشّيء، يقال: خزنتُ الدّرهمَ وغيرَه خزنًا؛ وخزنت السّرّ[2]. وخزن الشّيءَ: أحرزه، والخِزانة: اسمُ الموضع الذي يُخْزَن فيه الشّيء، والجمع: الخزائن[3]. والخَزْنُ: سَترُ الشّيءِ وحِفْظُه، ومنه: خازن المال[4]. وقوله تعالى: ﴿لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 50]، أي: مقدوراتُه التي منعها النّاسَ، لأنّ الخَزْن ضربٌ من المنع[5]. والمراد به في الآية الكريمة: رزقه، وعِلمه[6].

2) ﴿ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾: (سطر) أصلٌ يدلّ على اصطفاف الشّيء، كالكتاب والشّجر، وكلّ شيء اصطفّ[7]. ومن الأصل سيطر: تَسَلّط،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 72.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خزن).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (خزن).
(5) الرّاغب، المفردات: (خزن).
(6) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سطر).

فكأنّ المُسيطر امتدّ حتّى طالهم وأمسكهم وضبطَهم بقوّته، قال تعالى: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾[1]، والسَّيْطَرةُ مصدر المُسَيْطِر، وهو كالرَّقيب الحافظ المُتَعَهِّد للشّيء[2]، وسَيْطَرَ عليه: إذا أقام عليه قيامَ سطر، والمُسَيْطِر كالقائم في قوله: ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ [الرّعد: 33]، والحفيظ في قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ١٠٤﴾ [الأنعام: 104][3]. والمراد به في الآية الكريمة: الغالب على الشّيء، يديره كيف يشاء[4].

3) ﴿بِسُلۡطَٰنٍ﴾: (سلط) أصلٌ يدلّ على القوّة والقَهْر[5]، والسُّلْطانُ في معنى الحُجّة، قال تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ٢٩﴾ [الحاقة: 29] أي: حُجَّتيَه[6]. وكلُّ سلطانٍ في القرآن فهو حُجّة. قال: وإنّما سُمّي سلطانًا لأنّه حُجّةٌ للّه جلّ وعزّ في أرضه[7]. وسُمّيت الحُجّة سلطانًا؛ وذلك لما يلحق من الهجوم على القلوب، لكن أكثر تسلّطه على أهل العِلم والحكمة من المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ﴾ [غافر: 35][8]. والمراد به في الآية الكريمة: الحُجّة البيّنة، أي: حجّة واضحة تُصَدِّق استماعَه[9].

المَعْنَى الإجْماليُّ:

إبطالُ مزاعمِ أهلِ الشّرك في قدرتهم على التّسلّط والسّيطرة

تستأنف الآيتان الكريمتان إبطالَ مزاعم المشركين بالسّؤال الإنكاريّ: أفي أيديهم خزائنُ رحمة اللّه وقدرته، فيمنحون النّبوّة لمن شاؤوا؟ أم همُ المُسيطرون المُتَسَلِّطونَ بالقوّة على شؤون الخَلق؟

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سطر).
(2) الخليل، العين: (سطر).
(3) الرّاغب، المفردات: (سطر).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سلط).
(6) الخليل، العين: (سلط).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سلط).
(8) الرّاغب، المفردات: (سلط).
(9) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.

وكلُّ ذلك باطل، فهم لا يملكون شيئًا من أمر اللّه. ثمّ يتساءل النّظمُ مُنكِرًا: هل لهم سُلّمٌ ومَصْعَدٌ يرتقون به إلى السّماء، يستمعون فيه الوحيَ حتّى يكون لهم مستندٌ لما يقولون؟ فإن زعموا ذلك، فليأتِ سامعُهم بحُجّة ظاهرة تُثبت دعواهم، لكنّهم لا يملكون سوى الظّنّونِ والبُهتان[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نُكْتَةُ إعادة ذكر ﴿أَمْ﴾:

تأكيد الإنكار وإبطالُ تصرُّفهم في شؤون الخلائق

أعاد النّظمُ الجليل ذِكْرَ ﴿أَمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾، وهي هنا منقطعةٌ دالّةٌ على الإضراب الإبطاليّ، والمُراد إبطالُ أن يكون لهم تصرّفٌ في شؤون الرّبوبيّة، والاستفهام فيها للإنكار والتّهكّم بهم بتنزيلهم منزلةَ من يَدّعي امتلاكَ خزائنِ الرّحمن، ودلّ تكرارُها على تأكيد الإنكار[2].

نُكْتَةُ تقديم الظّرفيّة ﴿عِندَهُمْ﴾:

إفادة القصْر والاختصاص

قدّم النّظمُ الجليل الظّرفيّةَ ﴿عِندَهُمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾؛ لإفادة القَصْر والاختصاص[3]، والمُراد تأكيدُ انتفاءِ امتلاكِهم الخزائن.

دلالة التّعبير بالظّرفيّة (عند):

مُلك الشّيء حَوْزٌ له ووجودٌ في المكان

عبّر النّظمُ الجليل بالظّرف (عند) في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾، وهي هنا مستعملةٌ بمعنى المِلك والاختصاص، أي: أيَملِكون خزائنَ ربِّكَ[4]. فنفى أن يكون لهم شأنٌ ما في أمور الخلائق من الرّزق والخلق وغيره. وفي التّعبير بها مزيدُ تهكُّم بالمشركين في سلبهم هذا الزّعم منَ التّصرّف؛ فضلًا عن وجوده أصلًا.

(1) جماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 525.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 70.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 28.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 71.

دلالة التّعبير بالخزائن مادّةً وصيغةً:

الخزائن محلُّ المُقتنيات والمنافع

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ الخزائن في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ وهي جمع خزانة، وهي موضع الخَزْن، وتدلّ على المقدورات التي تنفع النّاس[1]، أي: خزائن رزقه، ومنها النّبوّة والعِلم، فهل كانت هذه الخزائنُ لهم حتّى يُقرّوا هم مَن يُرزق النّبوّة والعِلم؟![2]. وجاء التّعبير بصيغة الجمع لأنّ خزائن الله تعالى كثيرةٌ تعُمّ كلَّ شيء ممّا ينفع المخلوقات، ولأنّ المقام هنا جدير بالمبالغة في إفحام المشركين والتّهكّم بهم؛ فجاء التّعبير بهذه الصّيغة ليُؤَكّد على هذا المعنى.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿خَزَآئِنُ﴾:

الخزائن أسرارُ الله المُغَيّبة من قضائه وقَدَرِه

في قوله: ﴿خَزَآئِنُ﴾ استعارةٌ دلّ عليها السّياقُ؛ لأنّ المراد أسرارُ الله المُغَيّبة من قضائه وقَدَرِه، وتقسيم الحظوظ بين العباد؛ فشُبّهت تلك الأُمور بالخزائن، والجامع بينهما الخفاء، والغَرضُ منها: توبيخُهم على غرورهم واستعلائهم[3].

سرُّ تجريدِ الخزائن من وصف الرّحمة:

مناسبة سياق الآية لدفع غرورهم

جاء التّعبير القرآنيُّ ﴿خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ من دون ذِكْر الرّحمة، كما في قوله تعالى: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ﴾ [ص: 9]؛ وذلك لأنّ السّياق هنا يقتضي ذلك في ردّ غرورهم واستعلائهم؛ فهم يتوهّمون أنّهم يملكون النّفعَ والضّرّ، والعطاءَ والحِرمان، ونحوَ ذلك؛ فكان تجريدُ السّياق من لفظ الرّحمة هو المناسِبُ لدَفْع غرورِهم[4].

نُكْتَةُ إضافةِ الخزائن إلى لفظ الرّبوبيّة:

أرزاق العباد بيد الله تعالى وحدَه

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ الخزائنِ إلى الرّبوبيّة في قوله جلّ

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (خزن).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.
(3) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 170.
(4) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 170.

شأنه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾، دونَ لفظِ الجلالة (اللّه)، كما ورد في مواطن أخرى بقوله: ﴿خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: 50] [هود: 31]؛ لأنّ عنوانَ الرّبوبيّة هو المناسِبُ لهذا السّياق؛ فالمقامُ هنا يتحدّث عن عطاءات اللّه وأرزاقِه، والرّبوبيّة من معانيها الرّزق والعطاء؛ بخلاف الإضافة إلى لفظ الجلالة؛ فهو يَرِد دائمًا في مقام الهيبة والتّعظيم. وممّا يُذۡكَر في الإضافة: أنّها تُفيد دفعَ تَوَهّم يَرِدُ في خاطرهم أنّ المراد خزائنُهم، فدلّت الإضافةُ على أنّ المراد الخزائنُ المُختصّة بربّ العالَمين.

سرّ إضافة الرّبوبيّة إلى ضمير المخاطب:

تثبيت الفؤاد بالتّذكير بالإحسان

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ الرّبوبيّة إلى ضمير المخاطب في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾، والمراد به النّبيُّ ﷺ؛ وذلك إشارةً إلى إحسانه تعالى عليه بالنّبوّة والرّسالة[1]، وهو تسليَةٌ له ﷺ.

نُكْتَةُ إعادة ﴿أَمۡ﴾:

تأكيدُ الإنكار، تقريعًا لمسامع الكفّار، وإبطالًا لمزاعمهم

كرّر النّظمُ الجليل ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ تأكيدًا للإنكار، فليس لهم تصرّفٌ في عطاء اللّه تعالى في شأن النّبوّة والرّسالة والأرزاق، فليس لهم ذلك حتّى لو كان مثلَ تصرّفِ الوكيل والخازن[2].

دلالة تعريف طَرَفَي الإسناد:

تصوير غُرور الكفّار وبلوغُهم حَدّ المَدى في ادّعاء السّلطة

عرّف النّظمُ الجليل طَرَفي الإسنادِ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾؛ للدّلالة على القَصۡر، أي: هم لا غيرُهم الرّقباءُ الحافظون والرّؤساء[3]. فعَبّر بذلك لتأكيد الإنكار، فهُم ليسوا من ذلك بشيء، فالقَصۡر إضافيٌّ، أي: إنّهم بفعلهم ذلك يُنَزّلون أنفسَهم منزلةَ مَنِ اقتصر عليه الحُكم والسّيطرة والنّفوذ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 28.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 71.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 28.

نُكْتَةُ تقديمِ المسنَد إليه على المسنَد الفعليّ:

تأكيدُ الأمرِ في مقام الاحتجاج

قدّم النّظمُ القرآنيُّ المسنَد إليه ﴿أَمۡ هُمُ﴾ على الخبر؛ وذلك لإفادة القَصْر، وساعد على ذلك استخدامُ ضميرِ الفَصْل ﴿هُمُ﴾، والغَرَضُ من ذلك: تأكيدُ الأمرِ في مقام الاحتجاج.

دلالة التّعبير بالمُصيطرين مادّةً وصيغةً:

المصيطر المُتعهِّدُ للشّيء المُتسلّط عليه، واسمِ الفاعل لثبوت الوصف وقوّته

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ ﴿ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ دونَ غيره؛ لما يحمله من دلالات في مواجهة المشركين، والمعنى: بل أهُم المُسَلّطون الجبّارون الغالبون على الأمور، يُدَبِّرونها كيفما شاؤوا، ويبنونها على إرادتهم، ويجبرون النّاسَ على ما شاؤوا؛ لأنّ لفظ المصيطر يُطلَق على المُسَلّط القاهر، الذي لا يكون تحتَ أمرِ أحد ونهيه، يفعل ما يشاء[1]. فهو المُتعهِّدُ للشّيء المُتسلّط عليه[2]. وجاء التّعبيرُ بصيغة اسمِ الفاعل للدّلالة على ثبوت الوصف وقوّته، أي: أم هم العريقون بالسّيطرة والحُكم.

دلالة التّعبير بـ ﴿أَمۡ﴾:

إنكار وسائل استماعِهم لما يَجري في العالم العُلويّ

عبّر النّظمُ الجليل بـ ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنُه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾، وهي هنا منقطعةٌ، والاستفهام فيها دالٌّ على الإنكار، فأنكر وسائلَ استماعِهم لما يجري في العالم العُلْويّ، فيسترقوا بعضَ العِلْم ممّا هو محجوب عن النّاس[3]. وممّا يُذْكَر في دلالة التّعبير بـ ﴿أَمۡ﴾ أنّ القرآن سلك في نفي علمهم بالغيب طريقَ التّهكّم بهم بإنكار أن يكون لهم سُلَّمٌ يرتقون به إلى السّماء؛ ليستمعوا ما يجري في العالم العُلويّ من أمر تتلقّاه الملائكةُ في الملأ الأعلى بعضُهم مع بعض؛ لأنّه من المعلوم أنّه لا سُلّمَ يصل أهلَ الأرضِ بالسّماء، وفي ذلك مزيدُ توبيخٍ لهم[4].

---

(1) الهرويّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 86.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سطر).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 72.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 72.

دلالة اللّام في ﴿لَهُمْ﴾:

مزيدٌ من التّقريع والتّوبيخ لهؤلاء الكفرة

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (اللّام) قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾، وهو هنا للتّخصيص، أي: أيختصّون بسُلّم يرتقون به إلى السّماء، وفي ذلك مزيدٌ من التّقريع والتّوبيخ لهؤلاء الكفرة.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجملة ﴿لَهُمْ﴾:

إنكارُ اختصاصهم بنيل العِلْم السّماويّ

قدّمَ النّظمُ الجليل شبهَ الجملة ﴿لَهُمْ﴾ على المسند إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾؛ وذلك للدّلالة على الاختصاص، فأنكر اختصاصَهم بسُلّم يطّلعون من خلاله على أمر السّماء، فليس لهم وسيلة خاصّة بهم تمكّنهم من المعرفة التي لا يطّلع عليها أحدٌ سواهم.

سرّ التّعبير بـ ﴿سُلَّمٌ﴾ دون غيره:

عموم لفظِ السّلّم، ونفيُ الأعمِّ يلزم منه نفيُ الأخصّ

آثر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿سُلَّمٌ﴾ دونَ غيره كالمَصْعَد ونحوِه؛ لأنّه أعمّ، فيندرج تحتَه وسائلُ الصّعود والمعارج، ونفيُ الأعمِّ يلزم منه نفيُ الأخصّ؛ لأنّ السُّلَّمَ يُطْلَق على ما يُتَوصَّلُ به إلى الأمكنة العالية؛ فيُرجَى به السّلامة؛ ثمّ جُعِلَ اسمًا لكلّ ما يُتوصّلُ به إلى الشّيء، بخلاف المَصْعَد فإنّه يُستعمَل في الصّعود إلى الأماكن المرتفعة في الأرض أو في السّماء[1].

نُكْتَةُ تنكير ﴿سُلَّمٌ﴾:

تفخيم السُّلّم وتعظيمُه

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ السُّلَّم بصيغة التّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾؛ لإفادة العموم، أي: سلّمٌ ما، كما أنّه يدلّ على التّفخيم والتّعظيم، فسُلَّمٌ من شأنه أن يُمَكِّن النّاسَ من الرُّقيِّ إلى السّماء، هو سُلّمٌ في غاية العِظَم.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع: ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾:

الباطل يحتاج إلى تجديد الإنكار عليه حتّى لا يستشري

آثَر النّظم الكريمُ التّعبيرَ بالفعل المضارع ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾ في قوله

(1) الرّاغب، المفردات: (سلم) (صعد).

جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾؛ للدّلالة على تجدّد الاستماع، فيَؤول المعنى إلى تجدّد الإنكار عليهم.

سرّ حذفِ مفعولِ ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾:

إفـادةُ العموم لكلّ ما من شأنه أن يُسْمَع

ترك النّظمُ القرآنيُّ ذِكْر مفعولِ ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾؛ وذلك للدّلالة على العموم، فيَعُمّ كلَّ الكلامِ الذي من شأنه أن يُسمَع؛ من الأمور الغَيبيّة، كالمتعلّقة بأمور الوحي، أو ما يتعلّق بالمستقبل وغيره[1]، كالحشر وما يتبعه من أحوال يوم القيامة. ويجوز أن يكون الكلامُ من باب ترك المفعول رأسًا، كأنّه يقول: هل لهم قوة الاستماع من السماء حتّى يعلموا أنّه ليس برسول، وكلامه ليس بمرسل[2].

نُكْتَةُ تعديةِ السّماع بـ (في):

تضمين السّماع معنى الصّعود

عدّى النّظمُ الجليل فعلَ الاستماعِ بحرف الجَرّ (في) في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾؛ وذلك لتضمين الفعلِ معنى الصّعود، أي: يستمعون صاعدين فيه إلى السّماء لسماع كلام الملائكة[3].

بلاغة التّعبير بالظّرفيّة (في):

السُّلَّمَ السُّلَّمُ كـالـظّـرف لمـن ارتقى عليه

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الظّرفيّة (في) في قوله جلّ شأنُه: ﴿يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾، وهي هنا للظّرفيّة المجازيّة، فجعل السُّلَّمَ كالظّرف لمِن ارتقى عليه؛ وذلك لأنّ الرّاقيَ في السُّلَّم يكون كلّه عليه[4]. وكذلك يدلّ على أنّ استماعهم إنّما يكون وهم على ذلك السُّلّم. ويجوز أن تكون الظّرفيّة بمعنى (على)، والتّقدير: أم لهم سُلّم يستمعون عليه، والأَوْلَى بقاءُ الظّرفيّة على معناها؛ لأنّها الأمكن في بيان المعنى، من حيثُ الدّلالة على أنّ أجزاء السُّلّم آلة للاستماع.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 72.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 522.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 73.

سرّ التّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَلۡيَأۡتِ﴾:

ترتّيب البرهان على ادّعاء الارتقاء والسّماع

عبّر النّظمُ الجليل بالفاء الدّالّة على السّببيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾؛ لأنّ مَن يمتلك سُلَّمًا يُمَكّن من الصّعود إلى السّماء، ويكون متمكّنًا من الإتيان بالعجائب من الأخبار، وهذا يتطلّب أنّه يكون مُلزَمًا بأن يأتيَ بدليل على صعوده واستماعه[1]، ويجوز أن تكون لتفريع هذا الأمرِ التّعجيزيّ على النّفي المُستفادِ من استفهام الإنكار.

دلالة اللّام في ﴿فَلۡيَأۡتِ﴾:

الإتيان بالبرهان واجبٌ مُلزِمٌ على صاحب كلّ دعوى

عبّر النّظمُ الجليل بـ (باللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم﴾ وهي هنا لامُ الأمر التي تدخل على المضارع فتجزمه[2]. فألزمَهم بوجوب الإتيان بحُجّة تُبيِّن أنّهم على الحقّ في ادّعائهم بتكذيب النّبوّة[3]، وفي التّعبير بها مزيدٌ من المبالغة في طلب الإتيان.

دلالة الأمر بالإتيان في قوله: ﴿فَلۡيَأۡتِ﴾:

تعجيز المخاطَب بأمر لا يَسعُه، يُظهِر باطلَه ويكشف ضلالَه

عبّر النّظمُ الجليل بالأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾، والمُراد منه التّعجيز، فهو أمر تعجيزيّ؛ وذلك لأنّ أصل الاستماع منتفٍ بدلالة الاستفهام الإنكاريّ[4]. وفي التّعبير بالأمر مزيدُ توبيخٍ في إقامة الحُجّة عليهم، وذلك باستعمال طريقة الافتراض بأن يقول: وعلى فرض أنّهم يعلمون الغيبَ ولهم أدواتُهم التي توصلهم إلى ذلك؛ فقد طلب القرآنُ منهم أن يأتيَ مستمعُهم بدليل واضح في قوله: ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم﴾ دون (فليأتوا):

جاء التّعبير القرآنيُّ بقوله: ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم﴾، ولم يقل:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 29.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 300.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 87.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 73.

(فليأتوا) كما سبق في قوله: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾، وسرُّ ذلك كما يقول الرّازيّ: طلب منهم ما يكون أهونَ على تقدير صدقهم، ليكون اجتماعُهم عليه أدلّ على بُطلان قولهم؛ فقال هناك: ﴿فَلۡيَأۡتُواْ﴾ بصيغة الجمع، أي: اجتمعوا عليه وتعاونوا وأتَوا بمثله، فإن ذلك عند الاجتماع أهون، وأمّا الارتقاء في السُّلَّم بالاجتماع؛ فإنّه متعذِّرٌ؛ لأنّه لا يَرتقي إلّا واحد بعد واحد، ولا يحصل في الدّرجة العليا إلّا واحد؛ فقال ﴿فَلۡيَأۡتِ﴾ ذلك الواحد الذي كان أشدّ رُقيًّا بما سمعه[1].

طلبُ ما يكون أهونَ على تقدير صدقهم

نُكْتَةُ إفرادِ ﴿مُسۡتَمِعُهُم﴾:

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بصيغة المُفرَد في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم﴾، فلم يقل: (مستمعوهم)؛ لأنّ القوم يرسلون واحدًا منهم يستمع لهم، فهو يستمع لأجلهم، فالمستمع واحد[2]. فليس الاستماع مطلوبًا من كلّهم، بل يكفي أن تقع تلك الحُجّة بواحد منهم، والإفراد فيها أدقّ في طلب الحُجّة.

وقوعُ الاستماع من واحد يكفي لصحّة الدّعوى

بلاغة جِناس الاشتقاق بين ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾ و﴿مُسۡتَمِعُهُم﴾:

جمع النّظمُ الجليل بين لفظين من الجَذْر (سمع) في قوله جلّ شأنه: ﴿يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم﴾ على طريقة الجناس الاشتقاقيّ؛ وذلك لتأكيد انتفاء الاستماع، وتقوية الإنكار عليه، فهم لم يستمعوا إلى شيء من خبر السّماء، فكرّر لفظَين من جَذْر واحد تنبيهًا عليه.

تأكيدُ انتفاءِ الاستماع، وتقويةُ الإنكارِ عليه

دلالة الباء في قوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ وهي هنا للتّعدية أو الملابسة[3]،

لا قَبولَ لدعوى، ما لم ترافقها الحُجّة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 522.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 73.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 259.

والمعنى: فليأتِ متلبّسًا بالحُجّة، أو يقدّم حُجّتَه؛ فلا قَبولَ لدعوى ما لم ترافقها حجّةٌ ودليلٌ بيّنٌ.

سرّ التّعبير بـ (سلطان) دون حُجّة:

السّلطان أقوى من الحُجّة لما يحمله من معنى القوّة

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالسّلطان في قوله: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ دون الحُجّة لوجود فرق بينهما؛ فمادّةُ (سلط) تدلّ على القوّة، وأمّا مادة الحُجّة فتدلّ على الاستقامة في النّظر والمضي فيه على سَنَنٍ مستقيم؛ لأنّها مأخوذة من المَحَجّة وهي الطّريق المستقيم، وعلى هذا فالسّلطان أقوى من الحُجّة؛ لأنّه يحمل معنى زائدًا عليها، وهو القوّة؛ لذلك آثَر التّعبيرَ به لما يحمله من قوّة الاستدلال.

نُكْتَةُ تنكير (سلطان):

لا تُقْبَل الدّعوى إلّا ببرهان قاطع

عبّر النّظمُ الجليل عن السّلطان بصيغة التّنكير في قوله تعالى: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾؛ للدّلالة على قوّة الحُجّة وتعظيمها، فالمراد: "حجّة قاهرة بيّنةٌ في نفسها موضِحَة؛ لأنها من السماء"[1].

نُكْتَةُ وصفِ السّلطان بأنّه ﴿مُّبِينٍ﴾:

الحُجّة يجب أن تكون بيّنة في نفسها مبيّنة لغيرها

وصفَ النّظمُ الجليل السّلطانَ بالمُبين في قوله جلّ شأنه: ﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾؛ للدّلالة على أنّ الحُجّة يجب أن تكون واضحةً تُثْبِتُ استماعَه[2]، فتُظْهِرُ صِدْقَه لعموم النّاس، وجاءت بصيغة اسم الفاعل للدّلالة على تمكّن صفةِ البيان والوضوح فيها.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّلطان والحُجّة:

السُّلطان أخصّ من الحَجّة

أصل السُّلْطان من السَّلْطَة، وهي القوّة، ومنه السّليط لقوّة اشتماله، والسّلاطة لحِدّة اللّسان[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 29.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 493.

أمّا الحُجّة: فهي الاستقامة في النّظر، والمضيّ فيه على سَنَنٍ مستقيم، من ردّ الفرع إلى الأصل، وهي مأخوذة من المَحجّة، وهي الطّريق المستقيم، وهذا هو فعله المستدل، والحُجّة مشتقّة من معنى الاستقامة في القصد، حجّ يَحُجّ، إذا استقام في قصده[1]. فالسّلطانُ أقوى من الحُجّة؛ لأنّه يحمل معنًى زائدًا على الحُجّة، وهو القوّة. والحُجّة: هي الطّريقة التي يُستَدلّ بها على الحقّ، وتقود إليه، ولذلك آثَر القرآنُ هنا السّلطان دون غيره؛ لأنّ المراد قوّةُ الاستدلال.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 70.

﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ٣٩ أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ٤٠﴾ [الطّور: 39 - 40]

مناسبةُ الآيتين لِما قَبْلَهما:

إبطال نسبتهمُ البناتِ لله تعالى بعد إبطال معرفتهم بالغيب

لمّا نفى النّظمُ الجليل فيما سبق عن الكافرين معرفتَهم بالغيب والاطّلاعَ على الملأ الأعلى، وأبطل مقالتَهم بشأن الرّبوبيّة، انتقل هنا إلى إبطال مقولتهم بنسبتهمُ البناتِ للّه تعالى؛ استقصاءً لإبطال أوهامهم في المُغيّبات من العالم العُلْويّ[1].

ومن المناسبة أيضًا: أنّه بعد أن أبطل مزاعمَهم السّابقةَ في شأن الرّبوبيّة بإبطال نسبتهمُ البناتِ للّه ربّ العالَمين، تعالى اللّه عمّا يقولون عُلوًّا كبيرًا - عاودت هذه الآيةُ الحديثَ عن إبطال الدّواعي التي تحملهم على الإعراض عن دعوة الرّسول ﷺ بقوله: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾[2].

شرحُ المفردات:

1) ﴿مَّغۡرَمٖ﴾: (غرم) أصلٌ صحيح يدلُّ على مُلازمة ومُلازَة[3]. الغُرْمُ: أداءُ شيء لَزِمَ من قبل كفالةٍ، أو لزومُ نائبة في مالِه من غير جناية، والغَريمُ: المَلزوم ذلك. وحُبٌّ غَرامٌ، أي: لازم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ [الفرقان: 65] أي: لازمًا[4]. والغُرْمُ: ما ينوب الإنسانَ في ماله من ضرر لغير جناية منه أو خيانة، يقال: غَرِمَ كذا غُرْمًا ومَغْرَمًا، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦﴾ [الواقعة: 66]، ﴿فَهُم مِّن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 74.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 75.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غرم).
(4) الخليل، العين: (غرم).

مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ ﴿٤٦﴾ [القلم: 46][1]. والمُراد به في الآية الكريمة: أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه[2].

2) ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾: (ثقل) أصلُ الثِّقْل يُطلق على ضِدِّ الخِفَّة[3]، فالثِّقْل والخِفَّة متقابلان، فكلُّ ما يترجَّح على ما يوزن به أو يُقدَّر به يُقال: هو ثَقيل، وأصلُه في الأجسام، ثمَّ يُقال في المعاني، نحو: أَثْقَلَه الغَرْم والوِزْر، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾[4]، والثَّقَلُ: متاعُ المسافر وحَشَمُه، وجمعُه: أثقالٌ، والأثقالُ: الآثام[5]، والمُراد به في الآية الكريمة: مجهودون بِحملهم[6].

المَعْنَى الإجْماليُّ:

مواصلة القرآن تسفيهَهُ لمزاعم المشركين، ونفيَ طلبِ الأجر على الدّعوة

يستمرّ النّظمُ الجليل في إنكار أباطيل المشركين، فينكر زعمَهم بأنّ للّه البناتِ ولهم البنون؛ عجبًا لكم تنسبون للّه ما تكرهون لأنفسكم، وفي ذلك تسفيهٌ لزَعْمِهم الكاذب، وتوبيخٌ لهم على سوءِ أدبهم مع الخالق. ثمّ ينتقل الخطابُ إلى النّبيّ ﷺ معرِضًا عن المشركين، قائلًا لرسوله: أتسألُ هؤلاء المشركين وتطلبُ منهم أجرًا على دعوتك؟! فهم في جهد ومشقة مِن التزام غرامةٍ تطلبها منهم، فلا يقدرون على إجابتك إلى ما تدعوهم إليه، فأنكر في هذه الآية أسبابَ امتناعِهم عن قَبول الدّعوة التي تريد بهم الخيرَ[7].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية:

نسبة البنات للـه والبنين لأنفسهم جهلٌ مُرَكَّبٌ

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ

(1) الرّاغب، المفردات: (غرم).

(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 387.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثقل).

(4) الرّاغب، المُفردات: (ثقل).

(5) الخليل، العين: (ثقل).

(6) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 234.

(7) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 87، 88، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 525.

﴿وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾؛ لأنّها مستأنَفَة سيقت لتسفيه عقولِ المشركين بنسبة البنات للّه تعالى[1]، والآيةُ وردت للرّدّ على المشركين الذين نسبوا البناتِ للّه، واستأثروا لأنفسهم بالبنين، فالفصلُ بجَعْلِ هذه الجملة مستقلّةً، يجعلها قضيّةً قائمة بذاتها؛ لتأكيد إنكارها وتقوية التّسفيهِ والتّوبيخ.

سرّ تكرارِ إعادة ﴿أَمۡ﴾:

تأكيد الإنكار عليهم

كرّر النّظمُ الجليل ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ لتأكيد الإنكار، ولجَعْلِ تسفيهِ أحلامهم بنسبة البنات للّه تعالى جملةً مستقلّة بالإنكار[2].

سرّ تقديمِ شبهِ الجملة على المسند إليه في قوله: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ﴾:

ليس لله بنات ولا بنون

قدّم النّظمُ الجليل شبهَ الجملة على المسند إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ﴾؛ وذلك للدّلالة على الاختصاص، فزعموا أن ليس للّه إلّا البنات، فتقديمُ شبهِ الجملة المتضمنّة للضّمير العائد على الذّات الجليلة لتقوية الإنكار، فإنّ اللّه تعالى ليس له بناتٌ ولا بنون[3].

سِرّ تقديم البنات على البنين:

مَحَطُّ الإنكارِ لوَضاعة البنات في زعمهم، وشرفِ البنين

قدّم النّظمُ الكريم زعمَ المشركين في نسبة البنات للّه في قوله: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ﴾ على قوله: ﴿وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾؛ لأنّه مَحَطُّ الإنكارِ لوَضاعة البنات في زعمهم، وشرفِ البنين؛ فجعلوا الأخسّ عندهم للّه، واستأثروا هم بالأشرف لأنفسهم[4].

بلاغة الطّباق بين ﴿ٱلۡبَنَٰتُ﴾ و﴿ٱلۡبَنُونَ﴾:

إبراز سفاهة المشركين في نسبتهمُ البناتِ لله

جمع النّظم الجليل بين لفظي البنين والبنات في قوله جلّ شأنه:

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 387.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 74.
(4) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 172.

﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ على وجه الطّباق، وفائدتُه: إبرازُ سفاهةِ المشركين وتوبيخِهم على نسبتهم للّه تعالى ما يكرهونه لأنفسهم، بينما يختارون لأنفسهم الأفضلَ في زعمهم، وهذا الطّباقُ ينكِر سلوكَهم ذلك، ويُظهر كمالَ اللّه تعالى وتنزيهَهُ عنِ الاحتياج إلى البنين والبنات.

دلالة الواو في ﴿وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾:

إفــــادة أنّ الجُملتين وردتا في سياق الإنكار

عطف النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾، على الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ﴾ بالواو العاطفة[1]؛ لأنّ كِلا الجُملتَين وردتا في سياق الإنكار، فجعلوا لخالقهم ما لا يرضون لأنفسهم[2]. ودلّ ذلك على المبالغة في تشنيع قولهم؛ إذ ليس المرادُ أنّهم لو نسبوا للّه البنين لكانوا على حقّ، بل إبطالُ سفاهتِهم بنسبتهم الأدنى له، مع استئثارهم بالأعلى[3].

نُكْتَةُ الالتفات من ضمائر الغَيبة إلى الخطاب:

توجيه الخطاب للسّامع لإيقاع التّوبيخ عليه صراحةً

التفت النّظمُ الجليل من الغَيبة إلى الخطاب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾، فلم يقل: (ولهم البنون) كما جرى السّياق؛ وذلك لتشديد الإنكار والتّوبيخِ عليهم[4]، فكأنّ هذه القضيةَ هي أشدّ ما يوجب الإنكارَ والتّوبيخَ، فَوُجِّهَ الخطاب لقصد توجيهِ التّوبيخ إليهم، وتشديدِ الإنكار في زعمهم البناتِ للّه والبنينَ لأنفسِهم، وبيانِ أنّها قسمةٌ ضيزَى.

نُكْتَةُ فصل الآية عمّا قبلها:

الشّروع بإبطال أسباب الإعراض عن الإيمان

فصل النّظمُ الجليل الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ لأنّها مستأنَفَة لإيراد دواعي إعراضِهم عن

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 302.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 87.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 74.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 151.

دعوة النّبيّ ﷺ، فالسّياقُ كلُّه في إبطال الأسباب التي حملت المشركين على الكفر بالنّبوّة، فبعدَ أن أبطل اكتسابَ العِلْم بما زعموه، عاد إلى إبطال الدّواعي التي حملتهم على الكفر بدعوة الرّسول ﷺ(1).

دلالة التّعبير بـ ﴿أَمۡ﴾:

التـهـكّـم على المشركين بالبخل وخشية الأجر

عبّر النّظم الجليل بـ ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ للانتقال إلى التّهكّم بالمشركين، فنزّلَهم منزلةَ من يخشى أن يُسألَ أجرًا على الإرشاد(2).

نُكْتَةُ الالتفات إلى الغَيبة بعد الخطاب:

تشريف النّبيّ ﷺ بمخاطبته، والتّسليَةُ له

التفت النّظمُ الجليل من الخطاب إلى الغَيبة في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾، فلم يقل: (يسألكم)، فأعرض عن خطابهم إلى النّبيّ ﷺ؛ تنويهًا بذِكْره، ورفعًا لقَدْره، وتسليةً له(3).

سرُّ التّعبير بالسّؤال دونَ الطّلب:

السّؤال أعمّ من الطّلب لشُموله استدعاءَ المعرفة واستدعاءَ المالِ

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالسّؤال دونَ الطّلب؛ لوجود فرق بينهما؛ فالسّؤال لا يكون إلّا كلامًا، ويكون الطّلب بالسّعي وغيره، والسّؤال لا يخرج عن كونه استدعاءَ معرفةٍ أو ما يُؤدّي إلى المعرفة، أو استدعاءَ مالٍ أو ما يُؤدّي إلى المال؛ بخلاف الطّلب فيُستَخدم في الفحص عن وجود الشّيء عينًا كان أو معنًى، ولمّا كان السّؤال أعمَّ من الطّلب لشُموله استدعاءَ المعرفة واستدعاءَ المال؛ عبّر به لمناسبة ذِكر الأجر في الآية(4).

دلالة التّعبير عن السّؤال بالفعل المضارع:

تَـكْـرارُ سـؤال الأجـر مَـظِـنّـةٌ لنفور الأنفس

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾؛ لإفادة التّجدّد والاستمرار، أي: تسألهم سؤالًا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 75.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 75.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 30.
(4) الرّاغب، المفردات: (سأل)، (طلب).

متكرّرًا؛ وذلك لأنّ الدّعوة متكرّرةٌ مستمرّة[1]. فيكون ما أثقلَهم كثرة سؤالِهمُ الأجرَ.

سرّ التّعبير بالأجر دونَ المال:

الإشارةُ إلى أن ما يأتي به النّبيُّ ﷺ فيه مصلحتُهم

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالأجر دون المال أو غيره؛ للإشارة إلى أنّ ما يأتي به النّبيُّ ﷺ فيه مصلحتُهم، وذلك لأنّ الأجرَ لا يُطْلَب إلّا عند فعلِ شيءٍ يُفيد المطلوبَ منه الأجر، والمعنى: أنتَ أتيتَهم بما لو طلبتَ عليه أجرًا وعلموا كمالَ ما في دعوتك من المنفعة لهم، لأتَوْكَ بجميع أموالهم، ومع هذا لا تطلب منهم أجرًا، وهذه المعاني لا تظهر لو جاء التّعبير مالًا أو نحوه[2].

نُكْتَةُ تنكير ﴿أَجۡرٗا﴾:

في التّنكير تعظيم وتكثير وتنويع

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الأجر بالتّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا﴾، لما في التّنكير من تعظيم، أي: تسألهم أجرًا كبيرًا يحوجهم إلى الإعراض عن الدّعوة. وممّا يُذْكَر في دلالة التّنكير أنّه يُفيد التّنويع، ويتفرّع عن ذلك معنى التّكثير، والمعنى: لا أسألكم أجرًا كثيرًا يُثْقِلُكم من مَغْرَمِه، يساعد على هذا المعنى قولُه: ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾، وفيه إشارة للدّعاة بالتّرغيب في ثواب الدّعوة والتّحذير من عقاب المعصية؛ لأنّ الدّعوة إلى الله من أعظم الأمور التي لو كانت تُكافأ في الدّنيا، لاستحَقّ عليها الدّعاةُ أجرًا كبيرًا.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَهُم﴾:

فرّعت الفاءُ الجملةَ على ما قبلها

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾، وهي هنا للتّفريع، ففرّعت الجملة على ما قبلها؛ لبيان الملازمة بين سؤال الأجر وبين ما يعقبُه من التّجهُّم الذي يطرأ على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 75.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 524.

من سُئل الأجر وتحرّج منه[1]؛ لأنّ مجرّد السّؤال مُحرِج للمسؤول؛ لأنّه بين خيارين أحلاهما مُرٌّ كما يقال؛ فإن أعطى فالأمرُ ثقيل، وإن رَدّ ومنع فالأمر أصعب.

دلالة التّعبير بـ ﴿مِّن﴾:

لو طُلب الأجر لكان علّةً للإعراض عن الدّعوة

عبَّرَ النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾، وهي هنا للتّعليل والسّببيّة، أي: "مثقلون من أجل مغرم حُمِّلَ عليهم. والمعنى: أنّكَ ما كلّفتَهم شيئًا يعطونه إيّاكَ، فيكون ذلك سببًا لإعراضهم عنك؛ تَخَلُّصًا من أداء ما يطلب منهم، أي: انتفى عُذْرُ إعراضِهم عن دعوتك"[2].

دلالة التّعبير بالغُرم مادّةً وصيغةً:

ليس في الدّعوة من غرامة تقتضي الإعراضَ عنها

عبّر النّظمُ الجليل بالغُرم في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ لدلالته على "ما ينوب الإنسانَ في ماله من ضرر لغير جناية منه، أو خيانة"[3]، فالأجرُ على الدّعوة غرامةٌ يَلْزَم إعطاؤها عِوضًا عن الدّعوة، وهو ما لم يقع. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بالغُرم ما يحمله هذا اللّفظ من دلالة الالتزام التي يلتزم بها الإنسانُ في غرامةٍ تُطلَب منه، دونَ أن يكون له سبب، وكأنّ المعنى: أنّهم التزموا بأمرٍ تحمّلوه فوقَ طاقتِهم، وجاء التّعبيرُ بصيغة المصدر الميميّ للدّلالة على شِدّة الغُرْم وثُبوتِه[4].

نُكْتَةُ تنكير ﴿مَّغۡرَمٖ﴾:

الغُرمُ المُسبِّبُ للإعراض غُرْمٌ كبير

عبّر النّظم الكريم عن المَغْرم بالتّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾؛ وذلك لما في التّنكير من تعظيم، أي: كأنّ الأجر يُسَبِّب لهم مغرمًا كبيرًا يخشونه، فأعرضوا

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 75.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 76.

(3) الرّاغب، المفردات: (غرم).

(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 88.

عن الدّعوة، ومعلوم أنّ رسول الله ﷺ لم يسألهم أجرًا حتّى يكونوا في مغرم.

نُكْتَةُ تقديم شِبه الجملة ﴿مِّن مَّغۡرَمٖ﴾:

عِلّة الإعراض لو تحقّق السّؤالُ، ثِقَلُ العطاءِ على الكافرين

قدّم النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة على متعلَّقها في قوله جلّ شأنه: ﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾، فلم يقل: (مثقلون من مغرم)؛ للتّنبيه على سبب الإعراض، وحفاظًا على الفاصلة.

دلالة التّعبير بالثِّقْل مادّةً وصيغةً:

المثَقَل مَن أعياه الحِملُ وتعسّر عليه

عبّر النّظمُ الجليل بالثِّقل في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ دون غيره؛ لأنّه نقيض الخِفّة، فكلُّ ما يترجّح على ما يوزَن به أو يُقَدّر به يقال: هو ثَقيل، وأصلُه في الأجسام، ويستعمل في المعاني، كما في الآية[1]، وهو يدلّ على المطالبة بما يتعسّر على النّفس أداؤه[2]. وبهذا يكون التّعبيرُ بالثّقل هو الأولى؛ لأنّه يحمل المعنى المادّيَّ والمعنويّ، بخلاف التّعب والجهد. وجاء التّعبير بصيغة اسم المفعول للدّلالة على قوّة وقوعِ الوصفِ عليهم وثبوتِه.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾:

تشبيهُ الأجرِ بالحِمل المادّيّ؛ وحذْفُ المُشَبّهِ به، والرّمز له بخاصّة من خواصّه

في قوله تعالى: ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾ استعارة تخييليّة هي قرينة الاستعارة بالكناية؛ حيثُ شَبّه الأجرَ في بهاظتِه بالحِمل المادّيِّ، ثمّ حَذَف المُشَبّه به - وهو الحِملُ المادّيّ - ورمز له بخاصَّة من خواصّه، وهي الثّقل المَدلول عليها بقوله: ﴿مُّثۡقَلُونَ﴾[3].

دفعُ توهّمِ تعارضِ هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾:

الذي يقرأ آيةَ سورة الشّورى يجد أنّها تدلُّ على طلب الأجر،

(1) الرّاغب، المفردات: (ثقل).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 75.

(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 172.

كـلُّ آيـةٍ منهما لها سياقها

وبذلك يظهر للبعض توهّم تعارض، والجواب على ذلك: أنّه لا تعارضَ بينهما؛ لأنّ قولَه: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23] المُراد به: هو أنّي لا أسألكم عليه أجرًا يعود إلى الدّنيا، وإنّما أجري في المحبّة والزّلفى إلى اللّه تعالى؛ فالأجرُ هنا متعلّق بالآخرة. أمّا في قوله: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ فالمُراد أجرُ الدّنيا الذي نفاه القرآنُ بقوله: ﴿أَمْ﴾، وعلى ذلك لا تعارضَ بينهما؛ فكلُّ آيةٍ منهما لها سياقها[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميّة:

الثِّقْلُ والوِزْرُ:

الـثِّـقـل صفة معـنـويّة ضِـدّ الخِفّة، والـوِزْرُ هــو الــحـمـل الثّقيل

(ثقل): أصلُ الثِّقْل يُطلق على ضِدِّ الخِفَّة[2]، فالثِّقَل والخِفَّة متقابلان، وأصلُه في الأجسام، ثمَّ يُقال في المعاني، نحو: أَثْقَلَه الغُرْمُ والوِزْر، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطّور: 40][3].

أمّا الوِزْر: فمن (وَزَرَ) وهو الثِّقَلُ في الشَّيْءِ، والوِزْرُ: حِملُ الرَّجُلِ إذا بَسطَ ثَوْبَهُ فَجَعَلَ فيهِ المَتاعَ وحَمَله، ولِذَلكَ سُمّيَ الذَّنْبُ وِزْرًا[4]. وأصلُه في كَلامِ العَرَبِ الجَبَلُ الَّذي يُلْتَجَأُ إليه، وهو الحِملُ الثَّقيلُ[5]. فالوِزْرُ هو الثّقيل من الأحمال، التي تشابه في ثِقَلها الجبالَ. وعبّر في الآية الكريمة بـ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ للدّلالة على أنّ المَغْرم قد أجهدهم، لا أنّه حِملٌ يتّصف بشِدّة الثّقل.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 524.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ثقل).
(3) الرّاغب، المُفردات: (ثقل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وزر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (وزر).

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٤١ أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ
عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٤٣﴾ [الطور: 41 - 43]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

تَواصُلُ الرّدّ على شبهات المشركين وتفنيدُها

بعد أن ردّ النّظمُ الجليل فيما سبق اتهامَ المشركين للنّبيّ ﷺ بالسّعي لمكاسب دنيويّة؛ جاءت هذه الآية لنفي ادّعاء المشركين امتلاكَ عِلْمِ الغيبِ الذي يُمكِّنُهم من الحُكم على صدق الرّسالة، وهي زَعْمُهم أنّ دعوتَه ليست من عند اللّه تعالى[1].

شرحُ المُفْرداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَكِيدُونَ﴾: (كيد) أصلٌ يدلُّ على معالجة لشيء بشِدّة، وكلّ شيء تعالجه فأنتَ تكيدُه[2]. والكَيْدُ: التَّدْبيرُ بباطلٍ أو حقٍّ[3]، والكَيْدُ: المكر[4]. والكيد: الاحتيال والاجتهاد فيه[5]. وقد يكون مذمومًا وممدوحًا، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر[6]. فالذي يَكيد يُدَبِّر ويَمكُر ولا يُظْهِرُ كيدَه حتّى يأتيَ الوقتُ ويتمَّ التّدبيرُ على ما أراد[7]. فالمَكيدون في الآية الكريمة: هم المكورُ بهم، المَجْزيّونَ بكَيْدِهم[8].

المَعْنَى الإجْماليُّ:

نفيُ افتراءات المشركين، وتحقيرُ مكرهم، والتّنديد بشِركهم

يواصل النّظمُ القرآنيُّ الرّدَّ على افتراءات المشركين؛ لكشف

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 76.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كيد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كيد).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (كيد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (كيد).
(6) الرّاغب، المفردات: (كيد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كيد).
(8) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 122.

بُطلان معتقدهم، فيتساءَلُ مُنكِرًا: أعندَهم عِلْمُ الغيب حتّى يكتبوا ما سيجري للنّبيّ ﷺ وأصحابِه؟ ولا شكّ أنّ ذلك ليس في وسعهم؛ فالغيبُ لا يعلمُه إلّا اللّه. ثمّ ينتقل إلى كشف نواياهم الخَفيّةِ، فهم يبيّتون كيدًا ومكرًا، ولكنّ مكرَهم سيَرتَدُّ عليهم، فهم في الحقيقة المَكيدون. ثمّ يُنكر عليهم شِرْكَهم: ألهمُ إله غير اللّه؟ فاللّه مُنَزّه عن كلّ شريك، ولا معبودَ بحَقٍّ سواه، وفي هذا إنكارٌ بليغ للمشركين في عبادتهم الأصنامَ، واتّخاذهمُ الأندادَ مع اللّه تعالى(1).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبلاغيُّ:

نُكْتَةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

إنـكـار ادّعـاءِ المشركين معرفة الغيب

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ لأنّها مستأنفة، سيقت لإيراد إنكارٍ آخرَ على المشركين، "فبعد أن ردّ عليهم إنكارَهم الإسلام؛ لأنّهم اتّهموا النّبيّ ﷺ بطلب أجرٍ على تبليغ دعوتِه، أعقبَه بِرَدٍّ آخرَ بأنّهم كالذين اطَّلَعوا على أنّ ما عند اللّه يخالف ما ادّعى الرّسول ﷺ إبلاغَه عن اللّه، فهم يكتبون ما اطّلعوا عليه، فيجدونَه مخالفًا لما جاء به الرّسولُ ﷺ"(2). ويجوز أن يكون ردًّا على قولهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: 30]؛ أي: أعندهمُ الغيبُ حتّى يقولوا ذلك، أم عند اللّه علمُ الغيب؟!(3). فنُكْتَةُ الفصلِ هنا هي استمرارُ وتعدُّدُ وجوهِ الاحتجاج والإنكار على المشركين، بعد إبطال مزاعمِهم بمعرفة الغيب.

دلالة التّعبير بـ ﴿أَمۡ﴾:

نـفـيُ الحصول وإنكاره

دلّ التّعبيرُ بـ ﴿أَمۡ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ﴾ على النّفي والإنكار، بمعنى نفي الحصولِ من أصله؛ أي: هل عندهم عِلْم ما غاب

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 35، 36، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 525.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 76.
(3) محمّد الهلال، التّفسير التّربيّ: 11/ 170.

عنهم؟! والغرضُ من ذلك إبطالُ أن يكون لهم بالغيب صلةٌ؛ لأنّ همزة الاستفهام المُقَدّرة في ﴿أَمْ﴾ همزةُ إنكارٍ بدلالة المقام[1].

نُكْتَةُ إعادةِ ذِكْر ﴿أَمْ﴾:

أنّى للجاهل عِلْمُ ما لا يَسَعُهُ

كرّر النّظمُ الجليل ﴿أَمْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾؛ وذلك لتأكيد الإنكار، ولحشد وجوه إبطال عِلْم المشركين بالغيب، فذكر وجهًا آخر من وجوه بُطلان معرفتِهم، فصرّح بنفي علمِهمُ الغيبَ تصريحًا مع الإنكار والتّهكّم؛ وذلك لأنّ غرورَ المشركين وتطاولَهم على الله ورسوله لا يصدران إلّا عمّن خرج عن نطاق البشريّة والملائكيّة؛ كأنّهم وضعوا أيديَهم على أسرار الحياة، ما كان وما هو كائن وما سيكون، وكأنّهم بذلك أحاطوا عِلْمًا بالغيوب الإلهيّة، وأنّى لهم ذلك[2].

نُكْتَةُ تقديمِ الظّرفيّة ﴿عِندَهُمُ﴾:

تشديد الإنكار على ادّعاء معرفةِ الغيب

قدّم النّظمُ الجليل شبهَ الجملةِ ﴿عِندَهُمُ﴾ على المسند إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾؛ وذلك لإفادة الاختصاص والاستئثار، أي: أهو مختصٌّ بهم دون غيرهم حتّى يزعموا معرفة الغيب ومعرفة ما لا يعلمُه أحدٌ سواهم[3]، وهذا التّقديم يُفيد تشديدَ الإنكار والتّعجّب من ادّعائهمُ الباطلَ؛ حيثُ أعطوا لأنفسهم ما لا يجوز؛ لأنّ عِلْم الغيب من خصائصه سبحانه دونَ غيرِه.

دلالة تعريف الغيب بالألف واللّام:

(أل) في لفظ (الغيب) بين الجنس والعهد

عرّف النّظمُ الجليل ﴿ٱلْغَيْبُ﴾ بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ وهو تعريف الجنس، أي: ليس لهم شيء من معرفة الغيب، فغاب عنهم أصله بالجملة[4]. ويجوز

(1) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 172.
(2) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 173.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 76.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 76.

أن تكون للعهد، ويكون المراد على ذلك نوع من الغيب، كما تقول: اشترى اللّحم؛ تريد بيانَ الحقيقة لا كلّ اللّحم[1]. ويكون المُراد بعِلْم الغيب هنا ادِّعاءَهُم معرفة أنّ النّبيّ ﷺ يموت قبلَهم، فنفيُ عِلْم الغيب عنهم على وجه الإنكار لإبطال أصل المعرفة عنهم[2].

بلاغة المجاز في قوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾:

لا يعلم آجال العباد إلّا الله تعالى

حذف النّظمُ الجليل المضافَ وأقام المضافَ إليه مقامَه في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ أي: علمُ الغيب[3]، أو أسرارُه، فحُذِف ما يُعْلَم من السّياق إيجازًا في التّعبير، وهو كنايةٌ عن نفي اتّصافهم بالألُوهيّة؛ لأنّ عِلْم أسرارِ الغيب لا يحيط به إلّا اللّه، وهذه الكناية من أبدع وألطف الكنايات.

دلالة الفاء في ﴿فَهُمۡ﴾:

معرفة الغيب تُسَبِّبُ القدرةَ على كتابة الأقدار

عبّر النّظمُ الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ وهي هنا حرفُ عطف[4]، وأفادت بما فيها من دلالة على السّببيّة أنّ معرفة الغيبِ تُسَبِّبُ القدرةَ على كتابة الأقدار. والأمر ليس كما زعموا، فلا يعلم غيبَ السّماوات والأرض إلّا اللّه[5].

دلالة التّعبير بالكتابة في قوله: ﴿يَكۡتُبُونَ﴾:

يُعبّر بالكتابة عن التّوثيق والجَزم الذي لا يقبل التّخلّفَ

آثر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالكتابة في قوله: ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؛ لأنّه يُعبّر بها عن التّوثيق والجَزم الذي لا يقبل التّخلّفَ؛ لأنّ شأنَ الشّيء الذي يُراد تحقيقُه والدّوامُ عليه أن يُكتبَ ويُسَجّل؛ فيكون الخبر في قوله: ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ مستعملًا في معناه من إفادة النّسبة الخبريّة. ويجوز أن تكون الكتابة على حقيقتها؛ أي: فهم يُسَجّلون ما

(1) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/ 220.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 39.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 30.
(4) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 302.
(5) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّريّ الجامع: 27/ 71.

اطّلعوا عليه من الغيب ليبقى معلومًا لِمَن يَطّلع عليه، ويكون الخبر ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ مستعملًا في معنى الفَرَضِ والتَّقدير، تبعًا لفَرَضِ قوله: ﴿عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾[1]، ولأنّ الكتاب يكون بمعنى الحُكم؛ فيكون معناها: أهُم قادرون على الحُكم؛ لأنّهم يعلمون الغيبَ أو ما في اللّوح المحفوظ؛ ثمّ يقومون بتنفيذه وقضائه[2].

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿يَكۡتُبُونَ﴾:

لو علموا الغيبَ لتجدّدَت كتابتُهم للنّاس ما ينفعُهم

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الكتابة بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّهم يُجَدِّدون للنّاس زعمَهم كتابةَ ما غاب عنهم ممّا ينفعُهم ويَضرُّهم[3].

بلاغة فاصلة الجملة:

نفيُ الشّيء بإيجابه

تظهر بلاغةُ فاصلة الآية ﴿فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ في أنّها من قبيل نفي الشّيء بإيجابه؛ لأنّ العبارة من حيثُ اللّفظ إثباتٌ وتقرير، ومن حيثُ المعنى نفيٌ وإنكارٌ لترتُّبها على تحصيل علم الغيب؛ فلمّا انتفى علمُهم بالغيب انتفت كتابتُهم[4].

دلالة حذفِ متعلِّق ﴿يَكۡتُبُونَ﴾:

إفادة العموم في كل ما يتعلق بأمور الغيب

حُذِفَ متعلِّق ﴿يَكۡتُبُونَ﴾؛ لإفادة العموم؛ أي: فهم يكتبون كلّ ما يتعلّق بأمور الغيب، حتّى يُمَكِّنُهم ذلك منازعةَ النّبيِّ ﷺ في البعث وأمورِ الآخرة بزعمهم[5].

نُكْتَةُ فصلِ الآية ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ عن سابقتها:

الانتقال من إنكار الأقوال إلى كشف النّوايا والكيد الخفيّ

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾؛ لأنّها مستأنفة سيقت لإبطال

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 77.
(2) محمّد الهلال، التفسير الثريّ: 11/ 175.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 30.
(4) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 173.
(5) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/ 230.

نواياهم الخبيثة للنّبيّ ﷺ، وللمؤمنين ولدعوة الإسلام[1]، بعد أن ردَّ شبهاتِهم وأقوالَهم الظّاهرةَ، فدلَّ الفصلُ على تنويع الإنكار، وتعدّد وجوهِ التّهديد والرّدع، مع تنبيه المؤمنين إلى كيدهم المستتر.

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ﴾:

الإنكار والتّوبيخ

جاء التّعبير بـ ﴿أَمۡ﴾ في قوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ﴾ لما تحمله من معنى الاستفهام الإنكاريّ، والمُراد: لا ينبغي ولا يليق منهم هذه الإرادة، والمقصودُ بها التّشاورُ والاجتماعُ على كيدك، ويُفَسّر ذلك قولُه: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ﴾ الآية[2]. ويجوز أن يكون الاستفهامُ للتّقرير بدلالة المَقام، و﴿أَمۡ﴾ فيه بمعنى (بل)؛ أي: بل هم يريدون كيدًا بالرّسالة والرّسول[3].

نُكْتَةُ إعادة ذِكْر ﴿أَمۡ﴾:

تأكيدُ الإنكار لكشف نوايا الكفّار

كرّر النّظمُ الجليل ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾ لتأكيد الإنكار، ولكشف نواياهم الخبيثة، وللتّأكيد على جَعْلِه في جملة مستقلّة بالإنكار لما يحملُه من الخطورة؛ لأنّه يتعلّق بكيدهم للنّبيّ ﷺ في إنهاء حياته.

سرُّ التّعبير بالإرادة في قوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾:

الإرادة تدلّ على السّعي في طلب الشّيء

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالإرادة في قوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ﴾؛ لأنّها تدلُّ على السّعي في طلب الشّيء، وهذا ما فعله المشركون في محاولة التّخلّص من النّبيّ ﷺ ومن دعوته؛ يُؤكّد ذلك مجيءُ الفعل بصيغة المضارع ﴿يُرِيدُونَ﴾.

دلالة التّعبير عن الإرادة بالفعل المضارع:

الإصرار على الكفر يُجدّد المكايدَ وخبثَ النّوايا

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الإرادة بالفعل المضارع في قوله جلّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 77.
(2) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/ 220.
(3) المطعنيّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 173.

شأنه: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾؛ وذلك للدّلالة على التّجدّد والاستمرار في إرادة الكيد بالرّسالة والرّسول، والواقعُ الدّعوي الذي عاشَهُ رسولُ اللّه ﷺ والمسلمون معه يُؤكّدُ تجدُّدَ كيدهم، وما فعلوه بدار النّدوة خيرُ دليلٍ على ذلك.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿كَيۡدٗاۖ﴾، ودلالةُ تنكيره:

كيد الكافرين للحقّ كيدٌ عظيم

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالكيد دون المَكْر في قوله: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾؛ لأنّ الكيد أقوى وأشدّ من المَكر؛ لأنّه يدلُّ على إيقاع الضَّرَر قهرًا بالمستهدَف؛ بخلاف المَكرِ فهو أقلُّ قوّةً من الكيد؛ يُؤكّد ذلك أنّ فعلَ الكيدِ يتعدّى بنفسه؛ بخلاف المَكْرِ؛ فيتعدّى بحرف الجَرّ الباء، وما يتعدّى بنفسه أقوى في تأثيره ومعناه، ولذلك عبّر بالكيد لما يحمله من الدّلالة على شِدّة تدبيرهم وعنادهم[1]. وجاء بصيغة التّنكير لما يحمله من دلالةٍ على التّعظيم والتّفخيم، أي: كيدًا عظيمًا وخطيرًا، يُظهِر مدى ما أضمروه من شَرٍّ ومَكْرٍ، مع توهُّمِهم أنّهم قادرون على إبطال دعوةِ الحَقّ[2].

نُكْتَةُ حذفِ متعلّق الكيدِ:

كلّ مكايدِهم صغيرِها وكبيرِها لا تَضُرُّ أهلَ الحقّ

حذفَ النّظمُ الجليل متعلِّقَ الكيدِ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾؛ وذلك ليكون دالًّا على عموم ما يستطيعون أن يكيدوه[3]، فيشمل كلَّ نوعٍ من أنواع الكيد الذي قد يبيّتونه؛ فجاء الحَذْف لتوسيع المعنى والتّذييل بما ينسف جميعَ مقاصدِهم الخبيثةِ دونَ تحديد. وذهب بعضُ العلماء إلى أنّ ذلك من الإخبار بالغيب؛ لأنّ السّورة مَكّيّة، والكيد كان وقوعُه ليلةَ الهجرة؛ ثمّ أهلكهم اللّه تعالى في غزوة بدر[4].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 30.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 77.
(4) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 89.

دلالة التّعبير بالفاء في ﴿فَٱلَّذِينَ﴾:

ولا يحيق المَكْرُ السَّيِّءُ إلّا بأهله

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ وهي هنا للتّفريع، ففرَّع الجملة على إرادة الكيد والتّهديد بعاقبته؛ للدّلالة على تلازم وقوعِ المَكر السَّيِّءِ على أهله وارتداده عليهم[1].

دلالة التّعبير بالاسم الموصول:

احتمال الاسم الموصول للعموم والخصوص

عبّر النّظمُ الجليل بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾؛ لأنّه يَحْتَمِلُ العمومَ والخصوصَ، فالعموم يشمل جميع الكفّار، والخصوص يُراد به المخاطَبون من قريش[2].

نُكْتَةُ العدولِ عن الإضمار إلى الإظهار:

الموصول يُسَجِّل الكفرَ عليهم، ويُفْصِحُ عن علّة الجزاء

عدل النّظمُ الجليل عن الإضمار إلى الاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ فلم يقل: (هم المكيدون)؛ وذلك للتّسجيل عليهم بما في حيز الصّلة من اتّصافهم بهذه الصّفة القبيحة، وهي الكفر، ولأنّها هي العِلّة في تعلّق الحُكم بهم[3].

نُكْتَةُ التّعبير عن الكفر بالفعل الماضي:

تحقّقُ الكفر ورسوخُهم فيه

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن الكفر بالفعل الماضي ﴿كَفَرُواْ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾؛ للدّلالة على تحقيقهمُ الكفرَ ووقوعِه منهم، ورسوخِهم في الاتّصاف به.

بلاغة التّعبير بأسلوب القَصْر:

قَصْرُ مآل الكيد على أهله تهديدًا لهم

عبّر النّظمُ الجليل بأسلوب القَصْر في قوله جلّ شأنه: ﴿هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾؛ وذلك بالإتيان بضمير الفصل، أي: هم خاصّةً الذين سينالون سوءَ كيدِهم[4]. فصفةُ الكيدِ مقصورةٌ عليهم،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 78.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 155.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 39.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 31.

وهو قَصْرٌ إضافيٌّ[1]؛ وذلك لأنّ المعنى ليس أنّ غيرَهم لا يُكاد له، بل المقصود: أنّ الكيد في هذا السّياق مختصٌّ بهم دون غيرِهم، وأنّهم هم المخصوصون بالجزاء على الكيد الذي دبّروه، وغرضُه التّهديد والوعيد.

دلالة التّعبير عن الكيد باسم المفعول:

الجزاء من جنس العمل

عبّر النّظمُ الجليل عن الكيد باسم المفعول في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّهم يجازَوْنَ بكيدهم، فضَرَرُ كيدهم لا يعود إلّا عليهم[2]، فهو تعبير عن عودة المكر السَّيِّء على أصحابه، وفيه بشارة للنّبيّ ﷺ بنصره عليهم وردِّ كيدهم، ووقع ذلك في غزوة بدر، وهذا من إعجاز القرآن في إخباره بغيب المستقبل.

بلاغة المشاكلة في الآية:

سوءُ المصير للكافرين جزاءُ مكرِهم وكيدِهم

عبّر النّظمُ الجليل بإطلاق الكيد على ما يجازيهمُ اللّه تعالى به في قوله جلّ شأنه: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ على سبيل المشاكلة[3]، وذلك لإظهار المقابلة التّهديديّة، فجاء التّعبير مشاكِلًا لأفعالهم؛ ليُشْعِر بأنّ كيدَهم سيرتدُّ عليهم، وأنّ ما ينتظرهم من العقوبة المؤجَّلة مُدبّرٌ بإحكامٍ يفوق تدبيرَهم، فيكون تهديدًا بليغًا وسخريةً ضمنيّةً من ضعف مكرهم أمامَ تقديرِ اللّه.

بلاغة جناس الاشتقاق في لفظ الكيد:

قَلْبُ كيدِ الكافرين إلى كيدٍ يحيق بهم أمرٌ مُؤكَّدٌ محقّق

جمع النّظمُ الجليل في الآية بين لفظين من الجذر (كيد): ﴿كَيۡدٗاۖ﴾ و﴿ٱلۡمَكِيدُونَ﴾، في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ على سبيل الجناس الاشتقاقيّ، وبلاغة ذلك

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 89.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 122.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 78.

تتجلّى في تأكيد المعنى؛ إذ إنّ تكرار اللّفظ بِمُشْتَقَّيْهِ يُظْهِر العلاقةَ السّببيّة بين كيدهم ومآلهم، فهم يُكاد بهم من حيثُ لا يشعرون.

نُكْتَةُ فصلِ قولِه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ﴾ عمّا سبق:

خطورة الشّرك الذي هو أعظم ضلالاتهم

فَصَلَ النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ لأنّها مستأنَفَة سيقت للإنكار على أعظم جرائمهم، وهو الشّرك بالله، ففصلُها عن الآيات السّابقة يُشير إلى عِظَم هذا الضّلال، فجعلَه في جملة مستقلّة برأسها تنبيهًا على شدّة بطلانه؛ لأنّ الإشراك هو أصل كلّ ضلالٍ، وأعظمُ الكفر، فجاءت الآيةُ كالسّهم الأخير القاطع في سلسلة الإنكار المتتالية، مخصَّصة في السّياق لتعرية هذا الباطل، وإنكارِ هذه العقيدة الفاسدة استقلالًا[1].

دلالة الاستفهام بـ ﴿أَمۡ﴾:

الإنكار والنّفي

جاء التّعبير القرآنيُّ بأسلوب الاستفهام في قوله: ﴿أَمۡ﴾؛ لدلالتِه على الإنكار والنّفي، وتقديره بـ (بل) و(الهمزة)، أو بـ (الهمزة) وحدَها؛ حتّى يكون هناك استفهام، والمراد: إنكارُ أن يكون لهم في الواقع إلهٌ غيرُ الله، وعلى معنى النّفي يكون المعنى: ما ينبغي لهم، ولا يليق بالعقلاء اعتقادُ أن هناك آلهة غيرُه سبحانه، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾[2].

علّة تكرار ﴿أَمۡ﴾:

إنكار الشّرك وإبطالُه أعظمُ مقصِد للسّورة

كرّر النّظمُ الجليل ﴿أَمۡ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ استمرارًا لسياق التّفنيد والتّقريع والتّوبيخ[3]، حيثُ جاءت ﴿أَمۡ﴾ المتكرِّرة في الآيات السّابقة؛ لتفصيل شبهات الكافرين والرّدّ عليها شبهةً شُبهةً، فكلُّ ﴿أَمۡ﴾ تُفيد انتقالًا إلى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 78.
(2) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/ 221.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 303.

لون جديد من الإنكار والتّوبيخ. وفي هذه جاءت ﴿أَمۡ﴾ للانتقال إلى أخطر دعاواهم وأشدِّها بُطلانًا، وهو دعواهم بوجود آلهة غير اللّه، فجاءت ﴿أَمۡ﴾ هذه لتُفرد هذه الشّبهة العظيمة، بإنكارٍ مستقلٍّ يليق بعِظَم جُرْمِها، ولتكون مِسْكَ الختامِ في سلسلة تفنيد افتراءاتهم[1].

دلالة اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾:

هل من خالق غيرُ الله

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ﴾، وهي هنا للاختصاص، أي: هل اختصّ بهم إلهٌ من دون اللّه تعالى يحفظهم، ويرزقهم، وينصرُهم[2]. وجواب الفطرة: (لا إلهَ إلّا هو، فأنّى يُؤْفَكون).

نُكْتَةُ تقديمِ شبه الجملة على المسند إليه:

الـدّلالـة على الاختصاص

قدّم النّظمُ الجليل شبهَ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ على المسنَد إليه[3] في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ﴾؛ وذلك للدّلالة على الاختصاص، أي: هل خُصّوا بإلهٍ غيرِ اللّه تعالى يعبدونه أو يستحقّ العبادةَ فيُرجَى نفعُه ويُخافُ ضُرُّه؟ وجواب الفطرة السّليمة نفيُ وجودِ إله إلّا اللّه تعالى.

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿إِلَٰهٌ﴾:

إفـادة العموم لـلـمبـالـغـة في الإنكار

عبّر النّظمُ الجليل بتنكير الإله في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ﴾؛ لتهوين شأنه وتحقيره، أي: أيُّ إلهٍ تافهٍ يعبدونه غيرِ اللّه؟! فهو لا يُعدّ شيئًا يُذْكَر أمامَ عظَمة الإله الحقّ. ويجوز أن يكون المُراد من التّنكير العمومَ والتّهويلَ، وذلك للمبالغة في الإنكار، أي: أيزعمون أنّ لهم إلهًا أيَّ إلهٍ غيرِ اللّه؟! وهو إنكارٌ شديد يدلّ على أنّ أيّ إلهٍ غيرِ اللّه لا يُتصوّر وجودُه أصلًا، ولا يستحقّ أن يُعدَّ إلهًا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 78.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 89.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 303.

فالتّنكير هنا جاء لتسفيه الشّرك، وبطلانه المُطلَق، سواء حُمِل على التّهويل أو التّهوين، وكلاهما يدلّ على شناعة الشّرك. وذهب بعضُ العلماء إلى أنّ التّنكير يدلّ على الانعدام؛ لأنّه منَ السّهو أو الخطأ أن تقول: إنّه للتّحقير؛ لأنّ الحقارة صفةٌ لموصوف له وجود، وليس في الكون إلهٌ غيرَ الله، وعلى هذا فالمُراد من التّنكير الانعدام[1].

دلالة التّعبير بالمركّب الإضافيّ ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِۚ﴾:

لا وجـودَ لإلـهٍ سوى الله تعالى

عبّر النّظمُ الجليل بالمُركّب الإضافيّ ﴿غَيۡرُ ٱللَّهِۚ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ﴾ لوصف الإله[2]؛ للدّلالة على أنّه ليس هناك إلهٌ غير الله تعالى، فهو الذي أحاط بجميع صفات الكمال والجلال والجمال، فلا يمكن بوجه من الوجوه أن يكون معه إله"[3].

نُكْتَةُ فصلِ جملة التّسبيح:

تنزيهٌ بليغ لقطع أوهـام الـشّرك والشّريك

فصل النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ عمّا سبقها؛ لأنّها مستأنَفةٌ سيقت لتنزيه الله تعالى عن الشّريك، فأنكر عليهم ادّعاءهم أنّ لهم إلهًا يحفظهم ويرزقهم وينصرهم من دون الله[4]، وللثّناء على الله تعالى بعد تلك النّقائص التي افتراها المشركون.

دلالة التّعبير بـ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ مادّةً وصيغةً:

تنزيه الرّحمن عـن مـزاعـم الكفّار

عبّر النّظم الجليل بلفظ ﴿سُبۡحَٰنَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وهو مصدر ناب مناب فعلِه، دالٌّ على تأكيد التّنزيه[5]، والمُراد: تنزيهُ الله تعالى من أن يكون لعباده إلهٌ غيرُه يرزقهم ويحفظهم[6]. وجاء بصيغة المَصدريّة للدّلالة على دوام

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 175.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 303.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 31.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 122.
(5) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 303.
(6) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 36.

التّسبيح واستمرارِه في دفع النّقائص، وتنزيهُه عمّا لا يليق بجلاله تنزيهًا كاملًا لا يرتبط بزمان أو مكان أو بفاعل معيّن؛ بخلاف ما لو جاء بصيغة الفعل فإنّه يدلّ على زمن معيّن، وهذا غير مُراد في هذا المقام.

نُكْتَةُ تعدية لفظِ التّسبيح بـ (عن):

تنزيه مقامِ الألوهيّة عن الشّريك

عدّى النّظمُ الجليل لفظَ التّسبيح بـ (عن) في قوله جلّ شأنه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، وهو حرفٌ دالٌّ على المجاوزة والإبعاد، فأبعدَ هذا المعتقدَ عن ذات الله تعالى، ونَزَّهه سبحانه عمّا يُشرك به هؤلاء من الأصنام الباطلة، فسبحانَه مُنزّه عن كلّ شريك[1].

دلالة التّعبير بالإظهار في موضع الإضمار:

استدعاء المقام للإظهار؛ كيدًا للمشركين

جاء التّعبير القرآنيُّ بإظهار لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ في موضع الإضمار؛ فلم يقل: (سبحانه)؛ لأنّ المقام هنا يستدعي هذا الإظهار؛ كيدًا للمشركين الذين دَعَوا مع الله آلهةً أخرى، يعبدونها ويَلْجَؤون إليها في جَلْب المنافع ودَفْع المضارّ[2].

سرّ التّعبير بـ (ما):

تنزيه الله تعالى عن الشّرك وعن الشّريك

عبّر النّظمُ الجليل بـ (ما) في قوله جلّ شأنه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ لأنّها صالحةٌ أن تكون مصدريّةً، أي: عن شركهم به تعالى، وأن تكون موصولة، أي: عن الذين يجعلونهم شركاءَ له[3]. فهو تنزيهٌ لله تعالى عن الشّريك والشّرك عامّة، وهذا مبالغة في التّنزيه.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿يُشۡرِكُونَ﴾:

تجدّدُ شركِهم وإصرارُهم عليه في عباداتهم

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن شِرْكِهم بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ للدّلالة على تجدُّدِه

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 122.
(2) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 175.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 122.

وإصرارهم عليه في عبادتهم لهذه الجمادات التي لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنهم من الله شيئًا.

بلاغة ختام الآية بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾:

إثبات الوحدانيّة لله ربّ العالَمِين

جاء ختام الآية بهذه الجملة للتّأكيد على إثبات الوحدانيّة لله ربّ العالَمين، بهذا الأسلوب البلاغيّ الذي جَرّد المشركين من كلّ أسباب القوّة والسّيطرة، وأبطل مزاعمَهم في تعدّد الآلهة.

بلاغة التّرتيب في الاستفهام:

التّرقّي في المعاني والأسلوب والرّدّ على افتراءاتهم المذكورة

النّاظر في سياق الاستفهامات الواردة في سورة الطّور، وعددُها خمسةَ عشرَ استفهامًا في أربعَ عشرةَ آيةً، بَدْءًا من قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: 30] إلى قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ - يجد أنّها في مواجهة افتراءات المشركين وتعنّتِهم في رفضهم لدعوة الإسلام ومنهج القرآن، وهذا واضح في كثرة افتراءاتِهم الكاذبة، وتوهّماتِهم الباطلة، التي واجهَها القرآنُ بأسلوب شديد من خلال الاستفهامات الاستنكاريّة الواردة في هذه الآيات، وغرضُها تفنيدُ مزاعمِ المشركين، وإقامةُ الحُجّة عليهم بما لا يستطيعون دفعَهُ؛ بل يَلْزَمُهم الجوابُ والإقرارُ دونَ إنكار أو معارضة، لمن له عقلٌ وألقى السّمع وهو شهيد؛ يُؤكّد ذلك بلاغةُ التّرتيب والتّرقّي في المعاني، بَدْءًا من قوله: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ﴾ [الطور: 30] إلى قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ﴾؛ وذلك لأنّه تدرّج وترقّى في حكاية ما قالوه من المنكر إلى ما هو أدخل فيه؛ فبدأ بنفي الشّعر والكهانة عنه ﷺ، وذلك بدعوته بالتّذكير في قوله: ﴿فَذَكِّرۡ﴾ [الطور: 29] ودُم عليه؛ لأنّك أنتَ الغالبُ في هذه الدّنيا، وفي دار القرار، ويكون قولُه تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ﴾ [الطور: 30] إلى قوله: ﴿هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ تفصيلًا للمُجْمَل من تكذيب المُكَذّبين، مع التّعريض بفساد مقالتِهم الحمقاء؛ ثمّ ترقّى

الأسلوبُ القرآنيُّ عن مناقشة ادّعائهم بأنّ الرّسول ﷺ كاهنٌ أو مجنون، إلى قولهم فيه بأنّه شاعر؛ لأنّه أدخلُ في الكذب من الكهانة والجنون؛ ثمّ ترقّى الأسلوبُ إلى عَزوِ هذه الافتراءات إلى طغيانهم في قوله: ﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾؛ لأنّه أدخل في الذّمّ من نقصان العقل؛ ثمّ أخذ القرآنُ خطوةً أعلى في أسلوب الرّدّ على افتراءاتهم المذكورة في الآيات، بتنزيل مَن قال ذلك من الكافرين منزلةَ من يدّعي أنّه خُلِقَ من غير شيء، أو خَلَقَ نفسَه، أو خَلَقَ السّماواتِ والأرضَ، ومعلومٌ أنّ ذلك باطل لا يقبله العقلُ، وبعد أن أبطل مزاعمَهم عقلًا، انتقل إلى المشاهدة والسّماع من اللّه ﷻ، وهو أظهر في البُطلان؛ ثمّ ترقّى الأسلوبُ في تفنيد حُجَجِهم في الإنكار عليهم، بجعلهمُ الخالقَ أدنى من المخلوق، في نسبة البنات إليه مع نفورهم من ذلك، ويواصل الأسلوبُ الإيغال في تهكّمِه بهم بقوله: ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ﴾ الذي يُناقِضُ ما أخبر به الرّسولُ ﷺ، ويترقّى الأسلوبُ من الإضراب إلى الإنكار عليهم الكيدَ برسول اللّه ﷺ، ولكنّ القرآن يتوعَّدُهم بأنّهم هم المَكيدون، وتحقيق ذلك في قوله: ﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ﴾ يُنجيهم من كيده وعذابه، وجواب الفطرة: بأنّه لا إلهَ إلّا اللّه؛ فهو المعبود بحَقّ[1].

❁ الفُروقُ المعجميّة:

الكيد والمكر:

الكيد أشدّ قوّةً في التّدبير من المكر

الكيد: أقوى وأشدّ، ويدلّ على إيقاع الضّرر قهرًا بالمستهدَف، سواء عَلِم بذلك أم لم يعلم، وأصله من المشقّة.

والمَكر: أقلّ قوّةً من الكيد، ويُشترط فيه غالبًا أن يكون التّدبير للضّرر بحيثُ يعلمه المَمكور به، أي: لا يظلّ خفيًّا تمامًا عنه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 307، 308، والآلوسيّ، روح المعاني: 41/ 42.

والكيد أقوى لأنّه يتعدّى بنفسه، فيقال: كادَه، بينما المَكرُ يتعدّى بحرف الجَرّ الباء، فيقال: مَكَر به، وما يتعدّى بنفسه أقوى في تأثيره ومعناه(1). فعَبَّر في الآية بالكيد للدّلالة على قوّة تدبيرهم وشِدّة عَدائِهم.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259، 260.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ٤٥ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٦﴾ [الطّور: 44 - 46]

مناسبةُ الآيات لِما قَبْلَها:

إنكار عنادهم عن المُدرَك بالحسّ بعد إنكار إعراضهم عن دلائل العقل

بعد أن ذكر النّظمُ الجليل مزاعمَهم الفاسدة في النّبوّة، ثمّ أعقبه بالرّدّ عليهم في جحودهم للأُلوهيّة بإنكارها بتاتًا، وبادّعاء الشّريك للّه، أو باتّخاذه الولد - أتبع ذلك في هذه الآية بيانُ شدّةِ ضلالهم وقوّةِ عنادهم؛ إذ قد بلغوا حدًّا في العناد بليغًا، فقد أصبحوا يكابرون في إدراك المحسوسات فضلًا عن المعقولات[1].

ومنها: لمّا بيّن فسادَ أقوالِهم وسقوطَها عن درجة الاعتبار؛ أشار في هذه الآية إلى أنّه لم يبقَ لهم شيء من وجه الاعتذار؛ لأنّ الآيات ظهرت والحُجَجَ تميّزت ولم يؤمنوا، فاستحقّوا بذلك الانتقام في يومهم الذي يوعدون، ولا يجدون مَن يدفع عنهم العذاب[2].

شرحُ المفردات:

1) ﴿كِسۡفٗا﴾: (كسف) أصلٌ يدلّ على تغيّر في حال الشّيء إلى ما لا يُحَبُّ، وعلى قطع شيء من شيء[3]، والكِسْفَةُ: قطعةُ سحاب، أو قطعةُ قطن أو صوف، فإذا كان واسعًا كبيرًا فهو كِسْفٌ، ولو سقط من السّماء جانب فهو كِسْف[4]. والكِسْفَة: القطعة من الشّيء. يقال:

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 37.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 528.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسف).
(4) الخليل، العين: (كسف).

أعطني كِسْفَةً من ثوبك، والجمع كِسَفٌ وكِسَفٌ[1]. والمُراد به في الآية الكريمة: جانبٌ من السَّماء، أو قِطْعَة منها[2].

2) ﴿سَاقِطًا﴾: (سقط) أصلٌ واحد يدلُّ على الوقوع[3]، والسُّقوطُ: طرح الشّيء، إمّا من مكان عالٍ إلى مكان منخفض، قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾[4]. والسّقْطَةُ: الوَقْعةُ الشّديدةُ. وسقَطَ يَسْقُطُ سُقوطًا، فَهوَ ساقِطٌ وسَقوطٌ: وقَعَ[5]. وسِقْطُ السّحاب: طَرفٌ منه، كأنّه ساقِطٌ في الأرض من ناحية الأفق[6].

3) ﴿مَّرۡكُومٌ﴾: (رَكَمَ) أَصْلٌ يَدُلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيْءِ، وركمتُ الشّيء: ألقيت بعضَه على بعض[7]. والرُّكامُ: ما يُلْقَى بعضُه على بعض، قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [النّور: 43]، الرَّكْمُ: جَمعُكَ شَيْئًا فَوْقَ شَيْءٍ حَتَّى تَجْعلَه رُكامًا كالرَّملِ والسَّحابِ ونَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الشَّيْءِ المُرْتكِم بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ. وهو إلقاءُ بَعْضِ الشَّيْءِ عَلَى بَعْضٍ[8]، قال تعالى: ﴿فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ [الأنفال: 37] أي: يجعل بعضَهم على بعض[9]. والمراد به في الآية الكريمة: تراكم السّحاب بعضِه على بعض[10].

4) ﴿يُصۡعَقُونَ﴾: (صعق) أصلٌ يدلّ على شدّة صوت؛ من ذلك: الصّعق، وهو الصّوت الشّديد[11]. والصُّعاقُ: الصَّوت الشَّديد، والصَّعّاقُ: الشَّديدُ الصَّوْتِ. والصّاعِقَةُ: صيحة العَذابِ، والوَقْعُ الشَّديدُ من صوْتِ الرَّعْدِ، يسقُطُ معه قِطْعة من نار. ويجمع صَواعِق، والصَّعِقُ: المَغْشِيُّ عليه. وصَعِق صعقًا: غُشي عليه من صَوْتٍ يسمعه، أو حِسٍّ أو نحوه. وصعِق صعَقًا: مات[12]. والصّاعِقَةُ على ثلاثة أوجه: الموت، والعذاب، والنّار، وهي أشياءُ ناتجة عن

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (كسف).
(2) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 280.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقط).
(4) الرّاغب، المفردات: (سقط).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سقط).
(6) الخليل، العين: (سقط).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ركم).
(8) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ركم).
(9) ابن الجوزيّ، تذكرة الأريب، ص: 129.
(10) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 156.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صعق).
(12) الخليل، العين: (صعق).

الصّاعِقَةِ، وهي الصّوت الشّديد من الجوّ، ثمّ يكون منها نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، ولهذه الأشياء تأثيرات عديدة[1]. والمُراد به في الآية الكريمة: يموتون ويَهْلِكون[2].

المَعْنَى الإجْماليُّ:

تصوير عناد المشركين وجُحودهم مع رؤية العذاب النّازل عليهم

يصوّر النّظمُ الجليل مدى عنادِ المشركين وجحودهم، حتّى لو رأوا عذابًا حسّيًّا نازلًا من السّماء كقِطَعٍ متساقطة لَما آمنوا، بل لقالوا: هذا سحابٌ متراكم! وهو إنكار للمحسوسات، بعد أن أنكروا المعقولات. ثمّ يأمر الله النّبيَّ ﷺ أن يَدَعَهُم وشأنَهم، فهم ماضون إلى مصيرهم المحتوم: يوم الصّعقة، حيثُ لا ينفعُهم كيدُهم الذي كانوا يحيكونه في الدّنيا، ولا يجدون مَن ينصرهم أو يدفع عنهم العذاب، فهم مهزومون عاجزون يوم لا تنفع فيه الحيل ولا القوّة[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَإِن﴾:

رؤية العذاب النّازل لا تقطع عنادَ المُكذّبين

عطف النّظمُ الجليل قولَه جلّ شأنه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ على قوله جلّ شأنه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطّور: 30] وما بعدها؛ وذلك لاشتراك معاني الجُمَل مع ما في هذه الجملة في تصوير مكابرتهم، فلو رَأوا بأعينهم كِسْفًا ساقطًا من السّماء وقيل لهم: هذا كِسْفٌ نازل عذابًا بكم، فإنّهم يُكابرون ويقولون: هو سحاب مركوم[4]. ويجوز أن تكون استئنافيّةً لبيان تعنُّتِهم ومكابرتهم، عندما يروا بعضَ ما سألوا من الآيات، كما في سورة الإسراء: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: 92] يقولون: هذا سحابٌ مركوم.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (صعق).

(2) الخازن، لباب التّأويل: 4/ 202.

(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 37، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 89، 90.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 79.

دلالة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

إبراز حال المشركين في بلوغهم أقصى درجات المُكابرة والعِناد

عبّر النّظمُ الجليل بالجملة الشّرطيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾، فجعل قولَهم ذلك ورؤيةَ الكِسْفِ مُتلازمَين[1]، فالتّعبيرُ بالجملة الشّرطية يُبْرِز حالَهم الذي بلغ أقصى درجاتِ المُكابرة والعناد؛ فهي تُصوِّر حالًا يفترض وقوعَ العذابِ صراحةً، ومع ذلك يُقابلونه بالإنكار والتّأويل الفاسد، وهذا يُظْهِر مدى تعنُّتِهم ومنافاتهم للعقل والحِكمة.

نُكْتَةُ الاشتراط بـ (إن) دون (إذا):

التّهديد بالعذاب لا بإيقاعه

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بأداة الشّرط (إن) دونَ (إذا) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾؛ لدلالتها على الاحتمال لا على اليقين، فهو لا يقتضي أنّه يقع[2]. بل هو لمُجرّد بيانِ شدّة عنادِهم، فهم لا يعارضون الدّعوةَ لمنافاتها الحقّ، بل لأنّهم معاندون. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بـ(إن) دون (إذا): أنّ الكلام هنا على سبيل الفَرَض والتّقدير؛ لأنّه من المعلوم أنّ قُرَيشًا لم ينزل عليهم قِطَعٌ من السّماء تعذيبًا لهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: 33]، والتّقدير كأنّه يقول: لو عذّبناهم بسقوط قِطَعٍ من السّماء عليهم، لم ينتهوا ولم يرجعوا؛ عنادًا منهم[3].

دلالة التّعبير بالرّؤية مادّةً وصيغةً:

عنادٌ لا يلين، وإصرارٌ على الكفر حالَ رؤية العذاب صراحةً

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الرّؤية في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ دونَ العِلْم؛ للدّلالة على أنّهم يرونه بأعينهم معاينةً[4]، ومقامُ الرّؤيةِ أثبتُ في إقامة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 80.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 80.
(3) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/ 221.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 34.

الحُجّة؛ لأنّه كما يقال: ليس مع العين أين، ومع رؤيتهم بأعينهم لم يؤمنوا، فمن باب أولى لا يؤمنون مع العِلْم. وجاء التّعبيرُ بالفعل المضارع للدّلالة على تكرار رؤيتِهم له، وهذا يُظْهِر مدى تعنُّتِهم، وشِدّةَ مكابرتِهم، بالإصرار على كفرهم.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿كِسۡفٗا﴾:

بيان فَرْطِ عنادِهم، مع رؤيتِهم لمظاهر العذاب النّازل عليهم

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿كِسۡفٗا﴾ دون (قِطَعًا)؛ لأنّ الكِسْفَةَ قطعةٌ من السّحابِ والقُطْنِ، ونحوِ ذلك من الأجسام المُتخلخِلة الحائلة، وجمعها: كِسَف، والمُراد بها هنا: قطعةُ السّحاب الواقعةِ من السّماء، فتغطّيهم وهي نازلةٌ للعذاب، ولذلك كان التّعبير بها لبيان فَرْطِ عنادِهم، حتّى مع رؤيتِهم لمظاهر العذاب النّازل عليهم[1]. ويجوز أن يكون التّعبير بها من باب التّلويح إلى ما حكاه اللّه عنهم في سورة الإسراء، قال تعالى: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: 92]، ولأنّ الكَسْفَ يستعمل مع السّماء؛ بخلاف الخَسْف فهو مع الأرض؛ فلمّا كان العذابُ نازلًا من السّماء عبّر عنه بالكَسْفِ[2].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿كِسۡفٗا﴾:

التّهويل والتّعظيم

عبّر النّظمُ الجليل بتنكير الكِسْف في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا﴾؛ للدّلالة على التّهويل والتّفخيم، أي: ولو رَأوا كِسْفًا عظيمًا من السّماء - وهو شيءٌ مَهولٌ مُفْزِعٌ - لَما صدّقوا، بل أنكروا، فقالوا: ﴿سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾.

دلالة التّعبير بالإفراد في قوله: ﴿كِسۡفٗا﴾:

اسمُ الجنس يحتمل القليلَ والكثير

جاء التّعبيرُ بالإفراد في قوله: ﴿كِسۡفٗا﴾ مع أنه جاء بالجمع في مواطنَ أخرى، منها قولُه: ﴿فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾

(1) الرّاغب، المفردات: (كسف).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 528.

[الشعراء: 187] بفتح السّين ﴿كِسَفٗا﴾ [الشعراء: 187]؛ لأنّه اسمٌ جنسٍ يحتمل القليلَ والكثير[1].

دلالة التّعبير بـ ﴿مِّنَ﴾:

بعضٌ من السّماء يكفي لترويعِهم وإهلاكِهم

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ ﴿مِّنَ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾؛ للدّلالة على التّبعيض، أي: أنّ هذا الكسفَ هو جُزءٌ من السماء[2]، لا كلّها، وهذا يُهوّل الموقف إذ يكفي سقوط قطعة واحدة منها لإحداث الهلاك، فكيف لو سقطت كلّها؟!

دلالة التّعبير بشبه الجملة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

تهويل موضع السّقوط وعِظَمه

عبّر النّظمُ الجليل بشِبه الجملة ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾؛ لتكون صفةً مخصِّصَة للكِسْف، وذلك للدّلالة على أنّ بعض ما يسقط من السّماء يكفي في الإهلاك[3]، فهو تهويل المشهد؛ فالمقصودُ أن ما يسقط ليس شيئًا مجهولًا، بل هو جزءٌ من السّماء ذاتِها. وتحديدُ مكانِ سقوط الكِسْف يُضفي رهبةً واسعة على المشهد؛ فلو سقط عليهم شيءٌ ممّا هو متعلّق بالأرض لما كان مثيرًا، أمّا أن يسقط عليهم بعضٌ من بناء السّماء، فهو تهديدٌ عظيم، قد يُحْدِثُ فيهم التَّفكُّرَ والاتّعاظَ. وفيه إشارةٌ إلى أنّهم لا يستطيعون دَفْعَه؛ لأنّ العربَ تُعَبّر بالسّماء على الشّيء الذي لا يمكنُهم دَفْعُه.

سرُّ التّعبيرِ بالسّقوط دونَ الوقوع:

الإشارة إلى انفصال جُزء من السّماء

آثَر القرآنُ التّعبيرَ بقوله: ﴿سَاقِطٗا﴾ دون (واقعًا)؛ لأنّ السّقوط يحمل معنى السّوء، ويُستَخدم في الغالب في الذّمّ والتّوبيخ،

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 261.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 79.

كالسّقوط من أعين النّاس؛ بخلاف الوقوع فإنّه يقال للإبل والدّوابّ إذا رَبَضَت وبَرَكت، ولذلك آثَر التّعبير بالسّقوط هنا لما يحملُه من معنى التّهديد؛ لأنّ الوصف بالسّقوط يُشير إلى سقوط قطعةٍ من عذاب السّماء من النّيازِك المُتفجِّرة، أو بقايا أو شظايا النّجوم والكواكبِ المُتَفجّرة، التي تَدور حولَ الأرض بأحجامٍ مختلفة، أو ما يسقط من الصّواعق والبَرق[1]. وجاء التّعبيرُ بالاسميّة دونَ الفعليّة (يسقط)؛ للإشارة إلى انفصال جُزء من السّماء؛ بخلاف الفعليّة التي تَدلُّ على تجدُّد السّقوط، وهذا غير مُراد في هذا السّياق.

بلاغة الموقع النّحويّ لقوله: ﴿سَاقِطًا﴾:

رؤيـة الـكِـسْـف في حالة سقوط تـصـويـرٌ مهيبٌ للهلاك الوشيك

جاءت كلمة ﴿سَاقِطًا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرۡكُومٌ﴾ في محلّ نَصبِ حالٍ من الكِسْف، أي: يرون كِسْفًا حالَ كونِه ساقطًا من السّماء[2]. وهذه الحال تُبيِّن هيئةَ ذلك الجُزءِ حين رؤيتِهم إيّاه، فهو ليس ساكنًا ثابتًا، بل في حالة سقوط، وهذا يعطي قوّةً ورهبةً في المشهد.

دلالة التّعبير بالقول فعلًا مضارعًا:

المُكابرة متجدّدة فـيـهـم، وصـفـةٌ راسخةٌ لا تَزول

عبّر النّظمُ الجليل عن القول بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرۡكُومٌ﴾؛ للدّلالة على استمرار مُكابرتهم وتجدُّدها كلّما رَأوا آيةً، فهو يُصوّر ردّةَ فعلٍ حاضرةٍ دائمة، كأنّها سجيّةٌ فيهم، فهم يُسارعون إلى ردّ المعجزة بالتّأويل الفاسد والإنكار، وهذا يُشير إلى ثباتهم وإصرارهم على الجُحود وتكرارِ الموقف ذاتِه كلَّ مَرّة، وفيه إشارةٌ إلى أنّهم يقولون ذلك من غير عقيدة.

(1) محمّد الهلال، التّفسير الثّريّ: 11/ 177.

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 147.

سرّ التّعبير بالسّحاب:

إعطاءُ أنفسِهم مساحةً من الطّمأنينة، وإبعادُ أمرِ العذاب والعقاب

آثَر القرآنُ الكريم التّعبير بالسّحاب في قوله: ﴿سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾؛ لأنّ مادة (سحب) تدلّ على جَرّ شيءٍ مبسوط ومَدِّه، كَسَحْبِ الذّيل، وسُمّي السّحابُ سحابًا تشبيهًا له بذلك، كأنّه ينسحب في الهواء انسحابًا، ويُطلَق السّحاب على الغَيم، سواء كان فيه ماء أو لم يكن، ولذلك قيل: سحاب جَهام، والجَهامُ: السّحابُ الذي فَرَّغَ ماءَه، ولمّا كان السّحاب يحمل هذه المعاني المألوفة لديهم، ويُشاهدون ذلك أمامَ أعينِهم، قالوا عن الكِسَف السّاقط من السّماء: ﴿سَحَابٞ﴾؛ ليُعْطوا لأنفسهم مساحةً من الطّمأنينة، وليُبْعِدوا أمرَ العذاب والعقاب[1].

نُكْتَةُ تنكير السّحاب، وموقعُه الإعرابيّ:

التّهوين والتّقليل من شأن هذا السّحاب

عبّر النّظمُ الجليل عن السّحاب بالتّنكير في قوله تعالى: ﴿يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾؛ للدلالة على تحقيرهم وتقليلهم لشأن الكِسَف السّاقط من السّماء، فيُنكرون كونَه آية[2]، ويُهوِّنون من فظاعة المشهد، فيجعلونه شيئًا مألوفًا لا دلالةَ فيه، رغمَ هولِه ووضوحِه. فالتّنكيرُ يُظْهِر جهلَهم، فكأنّهم يقولون: هذا مُجرّد شيءٍ من جنس السّحاب، لا عذابَ فيه. أمّا الموقعُ الإعرابيّ للسّحاب فهو خبرٌ لمبتدأ محذوف، تقديره: هذا سحابٌ[3]. وإنّما لم يقولوا: (هذا سحاب)، إشارةً إلى وضوح الأمر، وظهورِ العِناد[4].

فائدة وصف السّحاب بأنّه ﴿مَّرۡكُومٞ﴾:

الإشارة إلى أنّه سحاب متراكم بعضُه فوقَ بعض

وصف النّظمُ الجليل السّحابَ بـ ﴿مَّرۡكُومٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾؛ للدّلالة على أنّه سحابٌ أُلقيَ بعضُه على

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (سحب).

(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 147.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 340.

(4) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 147.

بعض للمطر، فلم يُصَدّقوا أنّه كِسْف ساقطٌ للعذاب[1]. ويفيد أنّهم يَرونَهُ سحابًا مألوفًا ذا هيئةٍ معتادة في الطّبيعة، متراكمًا بعضُه فوقَ بعض، كما هي حالُ السّحبِ المُمطِرة، لا آيةَ عذابٍ أو نذيرًا من السّماء. فهم يُحيلون المُعجزةَ إلى ظاهرة طبيعيّة، ويجعلون الخطرَ الوشيكَ مُجرّد غيم معتاد.

دلالة التّعبير بـ ﴿مَّرۡكُومٞ﴾ مادّةً وصيغةً:

وَصْفُ السّحابِ بالتّراكم المعتادِ نفيًا لمعجزة العذاب

عبّر النّظمُ الجليل بـ ﴿مَّرۡكُومٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾؛ للدّلالة على هيئة السّحاب المُتراكب، الذي يُلْقَى بعضُه فوقَ بعضٍ[2]، وهو ما نُسَمّيه السّحُبَ الرّكاميّة؛ فهم لا يُبالون به، ولا يعتبرون بها، ويعدّونَها من الظّواهر الطّبيعيّة التي تحدُثُ بين الحين والآخر، وهذا دليلٌ على شدّة عنادِهم، وعدمِ النّظر إلى الآيات الكونيّة بالمنطق الصّحيح[3]. وعبّر بذلك للدّلالة على أنّه هو السّحاب المُمطِر[4]. وفيه إشارةٌ إلى أنّهم حين يَعْجِزون عن التّكذيب يرجعون إلى التّأويل والتّخييل[5]. وجاء بصيغة اسم مفعول للدّلالة على أنّ هذا التّراكمَ واقعٌ بفعل فاعل، أي: أنّه سحاب قد جُمِع وتراكم بالهواء، وهو ما يراه النّاسُ عادةً مُؤذِنًا بالمطر. وفي التّعبير باسم المفعول توبيخٌ للكافرين بعبادتهم للأصنام؛ لأنّها لا تملك فعلَ ذلك؛ فهذا التّراكُم واقعٌ بفعله سبحانه وتعالى.

دلالة الفاء في ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾:

استحكم عنادُهم حتّى لا يُرجَى معه هدًى، فوجبَ تَرْكُهم

عبّر النّظمُ الجليل بـ (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾، وهي هنا فاءُ التّفريع، وجيءَ بها لتَربطَ

---

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 89.

(2) الرّاغب، المفردات: (ركم).

(3) محمّد الهلال، التّفسير الثّريّ: 11/ 177.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 79.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 529.

الأمرَ بتركِ عرضِ الآياتِ عليهم، بما قبلَه من بيانِ عنادِهم الأصيلِ، ومُكابرتِهم المُستحكِمة، حتّى بلغوا حَدًّا لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُؤثِّر فيهم الحُجَج[1]. فالفاء تُفيد أن الأمر بتَركِهم نتيجةٌ حتميّةٌ لِما تقدّم من كشف طبعِهم المُكابِر، فهم لا يطلبون الآياتِ لهُدًى أو بُرهان، بل للتّمادي في الجُحود والسُّخرية، ولذلك فَطَلَبُ الآياتِ لهم لا يُجدي، فالأنسبُ تَرْكُهم إلى أن يَلْقَوا عاقبتَهم. فالفاء تُفصِح عن شرط مُقدّر، تقديرُه: إذا بلغوا في الكفر والعِناد إلى هذا الحَدّ، وتبيّن أنّهم لا يرجعون عن الكفر، فَدَعْهُم حتّى يموتوا عليه[2].

دلالة الأمر في ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾:

تـركُ مجاراتِهم فـي طلبهمُ الآياتِ، لا تركُ التّبليغِ

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الأمر في قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾؛ للدّلالة على تركهم والإعراض عنهم[3]، وهو ليس أمرًا بترك الدّعوة مطلقًا، بل هو أمر خاصّ بترك الاستجابة لاقتراحاتهم في الآيات والمعجزات، إذ إنّهم لا يطلبونها ابتغاءَ الحقّ، بل عِنادًا ومكابرة[4]. ويجوز أن يكون المراد بالخطاب من لم يظهر عنادُه لا من ظهر عنادُه؛ فلم يقل اللّه في حقّه: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾، ويدلّ على هذا أنّه تعالى قال من قبلُ: ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ٢٩﴾ [الطور: 29]، وقال هنا: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾، فمَن يُذَكِّرُهم هم المُشْفِقون الذين قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦﴾ [الطور: 26]، ومَن يَذرُهم الذين قالوا: ﴿شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطور: 30][5].

سرّ التّعبير بقوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾، دون (اتركهم):

أرشد الله نبيّه بأن لا يبالي بالكفّار وأن لا يعتدّ بهم تحقيرًا لهم

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بقوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ دون (اتركهم)

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 80.
(2) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/ 221.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 123.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 80.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 530.

لوجود فَرْق بينهما؛ فقولُه: ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ أخصّ من قوله: (اتركهم)؛ لأنّه تَرْكٌ مع إعراض وقِلّةِ اعتداد، فهو ترك للإهمال؛ بخلاف التّرْك فهو أصلٌ يدلّ على التّخلية عن الشّيء، فهو تركٌ ومفارقة، وعلى ذلك يكون (اتركهم) أعمّ من (ذرهم)؛ لذلك جاء التّعبير بالفعل (ذرهم) للدّلالة على أنّ اللّه تعالى أرشد النّبيّ ﷺ أن لا يبالي بهم؛ لأنّهم لا يُعتَدُّ بهم تحقيرًا لهم.

دلالة التّعبير بـ ﴿حَتَّىٰ﴾:

التّرك والإمهال للمشركين له غايةٌ محدّدة

عبّر النّظمُ الجليل بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾، وهي هنا حرفُ غاية وجَرّ[1]، وجيءَ بها لتُفيد أنّ التّرك والإمهال للمشركين مُمتدّ إلى غاية محدّدة، وهي يومُ الصّعق والهلاك[2].

بلاغة الاستعارة في ملاقاتهم لليوم:

مواجهة العقاب أمرٌ حتميٌّ

عبّر النّظمُ الجليل عن وقوع اليوم بـ (ملاقاتهم لليوم) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾، وهي استعارة مَكنيّة، حيثُ شُبّه اليوم - وهو الزّمان الذي لا يملك إرادةً - بشخصٍ كائنٍ حيّ يمكن لقاؤه، وذلك على سبيل الاستعارة المَكنيّة، حيثُ حُذِف المُشَبّه به (الشّخص)، وذُكِرَ شيءٌ من لوازمه - وهو (الملاقاة) - وإثباتُ فعلِ المُلاقاة إلى اليوم يُعَدّ تخييلًا لهذه الاستعارة[3]. وتأتي بلاغةُ هذه الاستعارة لتُجسِّد اليومَ، وتُحيلُه من مُجرّد زمنٍ إلى خصم حاضر، وتكون مواجهتُه حَتميّة لا مَفَرّ منها، فالمُلاقاة هنا لا تعني اللّقاء العاديّ، بل هي لقاء حسابٍ لنَيل عواقبِ أعمالهم.

(1) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 306.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 80.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 81.

أثَرُ تَعدُّدِ القراءات في قوله: ﴿يُلَٰقُواْ﴾:

قرأ جمهور القُرّاء ﴿يُلَٰقُواْ﴾ بضَمّ الياء وفتح اللّام، وألِفٌ بعدَها مع ضَمّ القاف، وقرأ أبو جعفر بفتح الياء وإسكان اللّام وفتح القاف ﴿يَلْقَوا﴾[1]. فَوَجْهُ قراءةِ الجمهور أنّها من المُلاقاة، وسبق بيانُ معناها في الاستعارة، وأمّا قراءةُ أبي جعفر؛ فهي مضارع (لقي)، والمُراد: يَلْقَوا جزاءَ أعمالِهم في يومهم[2].

نُكْتَةُ إضافةِ اليوم إلى ضميرهم:

تخصيص عذابِ يومِ القيامة بالمكذِّبينَ

عبّر النّظمُ الجليلُ بإضافة اليوم إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾، وهذه الإضافةُ وقعت لأدنى ملابسة، فأُضيف إليهم لأنّهم اشتهروا بإنكاره، وعُرِفوا بالذين لا يؤمنون بالآخرة[3]، وهذه الإضافة تَرْبط اليومَ بهم خصيصًا، فكأنّ العذاب في هذا اليوم قد خُصّص لهم من فَرْط إنكارِهم وتكذيبهم بهذا اليوم الذي أُوْعِدوه.

دلالة التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

إيضاحُ المصيرِ وحتميّةُ الجزاءِ

عبّر النّظمُ الجليل بالاسم الموصول في قوله جلّ شأنه: ﴿يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ لوصف اليوم[4]، وفائدتُه هنا مع صلته التّنبيهُ على خَطئِهم في إنكار هذا اليوم[5]، وليُبرِزَ حتميّةَ وقوعِه وهولَه الذي سيَحِلُّ بهم. فالصِّلة تُشير إلى المصير الذي ينتظر المُكذِّبين، فهذا اليوم الذي ينكرونه هو نفسُه اليوم الذي سيصيبُهم فيه الهلاك.

نُكْتَةُ تقديمِ الظّرف ﴿فِيهِ﴾:

لا صَعْقَ إلّا في ذلك اليوم تأكيدًا لحتميَّةِ المصيرِ

قدّم النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة ﴿فِيهِ﴾ على الفعل في قوله جلّ

(1) القاضي، البدور الزّاهرة: 2/ 865.
(2) السمين الحلبي، الدّرّ المصون: 10/ 79.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 80.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 340.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 81.

شأنه: ﴿ٱلَّذِى فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾، فلم يقل: (يصعقون فيه)؛ وذلك للتّخصيص والحَصْر[1]، وليُؤكِّدَ أنّ الصّعقَ سيقع في هذا اليوم بالذّات لا في غيره، وهو تأكيدٌ على حتميّة وقوعِ العذاب وتثبيت موعِده. كما أنّ التّقديم يُبْرِز أنّ ذلك اليوم هو الذي سيكون فيه الجزاءُ الموعود.

دلالة التّعبير بـ﴿يُصۡعَقُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

الموت ذروةُ الهلاكِ ومنتهى العذابِ

عبّر النّظم الجليل بالصّعق في قوله جلّ شأنه: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ دون الموت، مع اشتراكِهما في المعنى العامّ وهو الهلاك، إلّا أنّ القرآن آثَر التّعبير بالصّعق؛ لأنّ المادّة اللّغويّة له تدلُّ على العذاب؛ فالصّاعقة: "صوتُ الرّعْدِ الشّديد الذي يُصْعَق منه الإنسانُ، أي: يُغْشَى عليه"[2]. وهو من الجَوّ؛ ثمّ يكون منه نارٌ وعذابٌ يعقبه الموت؛ لذا جيء به هنا للدّلالة على الموت والهلاك[3]، وجاء التّعبير بصيغة المضارع المبنيّ للمفعول للاهتمام بالصّعق لذاته، لا بكونِه من فاعل معيّن.

أثرُ تعدّدِ القراءاتِ في قوله: ﴿يُصۡعَقُونَ﴾:

تعدّدتِ القراءاتُ في قوله: ﴿يُصۡعَقُونَ﴾؛ حيثُ قرأ ابنُ عامر وعاصم بضَمّ الياء، وباقي القُرّاء بفتح الياء، ووجهُ قراءةِ ابنِ عامر وعاصم: أنّها من (أصعق) بالألف؛ فقد يقال: (صَعِقَ فلانٌ) بكسر العين، وأصعَقَه اللّه؛ فـ ﴿يُصۡعَقُونَ﴾ على هذا مثل: (يُكْرَمون). ويجوز أن يكون من (صُعِقَ) بضَمّ الصّاد وكسرِ العين؛ فهو مصعوق، وصعقَهُ اللّه، فـ ﴿يُصۡعَقُونَ﴾ على هذا كـ (يُضْرَبون). ووَجْهُ مَن قرأ بفتح الياء أنّه من (صَعِق) بكسر العين (يَصْعَق)

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 35.

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (صعق).

(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 90.

بفتحها، قال تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزّمر: 68]؛ فـ ﴿يُصۡعَقُونَ﴾ على هذا كـ (يحذرون)(1).

نُكْتَة فصلِ قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾:

تفخيمُ اليومِ وتهويلُ الموقفِ فيه

فصلَ النّظمُ الجليل قولَه جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ عمّا سبق؛ لأنّها بدلٌ من قوله تعالى: ﴿يَوۡمَهُمُ﴾(2)، فبين الجُملَتين كمالُ اتّصالٍ، وفائدةُ الفصلِ تفخيمُ شأنِ اليوم، فهو ليس مُجرّدَ وقتٍ للعقوبة، بل هو يومٌ عصيب يتخلّى المَرءُ فيه عن أقرانه وأهلِه وأحبَّتِه.

دلالة التّنكير في قوله: ﴿يَوۡمَ﴾:

التّهويل والتّعظيم لهذا اليوم

جاء لفظُ ﴿يَوۡمَ﴾ مُنكّرًا في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي﴾ للتّهويل والتّعظيمِ لهذا اليوم الذي يعود إلى قوله: ﴿يَوۡمَهُمُ﴾. ويجوز أن يكون التّعظيم ليوم بَدرٍ، فإنّهم كانوا قاطعين بنصرهم عن المسلمين، وما أغنى أحدٌ عن أحدٍ شيئًا(3).

سرّ التّعبير بقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ﴾، ولم يقل: (يوم لا يغنيهم كيدهم):

أوثِر التّعبيرُ بقوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ﴾ ولم يقل: (يوم لا يغنيهم كيدهم)، مع أنّ الإغناء يتعدّى بنفسه، وذلك لفائدة جليلة، وهي أنّ قول القائل أغناني كذا، يُفْهَم منه أنّه نفعني، وقولَه: أغنى عنّي، يُفْهَم منه أنّه دفع عنّي الضّررَ؛ فقولُه: أغناني معناه في الحقيقة: (أفادني غير مستفيد)، وقوله: أغنى عنّي، أي: لم يُحْوِجني إلى الحضور، وعلى ذلك: فالتّعبير بقوله: ﴿لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ﴾

(1) ابن أبي مريم، المُوضح في وجوه القراءات: 3/ 1215.
(2) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 148.
(3) الجمل، حاشية على الجلالين: 4/ 221.

معناه: لا يدفع عنهم الضَّررَ، ولا شكّ أنّ قوله: لا يدفع عنهم الضّرَرَ، أبلغُ من قوله: (لا ينفعهم نفعًا)[1].

دلالة التّعبير بالمضارع المنفي:

نفيُ النّصرة عنهم دائمٌ لا يزول

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن نفي الإغناء بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾؛ وذلك للدّلالة على تجدّد النّفي، فهو لا يُغني عنهم شيئًا على سبيل الدّوام والاستمرار.

نُكتَةُ تقديمِ شِبه الجُملة: ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

إفادةُ الاختصاصِ والتّأكيد بأن كيدَهم لا يُغني عنهم شيئًا

قدّم النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على المسنَد إليه في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾، فلم يقل: (لا يُغْني كيدُهم شيئًا عنهم)؛ وذلك لإفادة الاختصاص والتّأكيد، أي: لا يُغْني كيدُهم شيئًا عنهم هم بالذّات، ولا عن غيرهم. وهذا التّخصيص يُفيد أنّ كيدَهم الذي كانوا يظنّون به النّجاةَ، لن يُدفعَ به عنهم العذابُ بأيّ وجْهٍ، وهذا يُشير إلى خيبتهم وانتقاضِ كيدهم. وفيه إفادةٌ إلى أنّ تقديم الأهمِّ أولى؛ فلو قال: (يوم لا يغني كيدُهم) كان السّامعُ لهذا الكلام ربما يقول: لا يغني كيدُهم غيرَهم، فيرجو الخيرَ في حقّهم، وإذا سمع: ﴿لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ﴾ انقطع رجاؤه وانتظر الأمر الذي ليس بمُغنٍ[2].

دلالة التّعبير بالكيد دون الفعل:

قياسٌ بالطّريق الأَوْلى

جاء التّعبير القرآنيّ بلفظ الكيد في قوله: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ﴾، ولم يقل: (يوم لا يغنى عنهم أفعالهم)، مع أنّ الكيد هو فعلٌ يسوء مَن نزل به، وإن حَسُن ممّن صدر منه، وجوابُ ذلك: أنّه قياسٌ بالطّريق الأَوْلى؛ لأنّهم كانوا يأتون بفعل للنّبيّ ﷺ والمؤمنين،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 522.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 522.

وكانوا يعتقدون أنّه أحسنُ أعمالهم؛ فقال: (ما أغنى أحسنُ أعمالِهم الذي كانوا يعتقدون فيه)؛ ليقطعَ رجاءَهم عمّا دونه. وفيه وجه آخر؛ وهو أنّه تعالى لمّا قال مِن قبلُ: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ﴾، وأكثرُ المُفسّرين على أنّ المُراد به تدبيرُهم في قتل النّبيّ ﷺ، ثمّ قال: ﴿هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾؛ أي: لا ينفعهم كيدُهم في الدّنيا؛ فماذا يفعلون يوم لا ينفعهم ذلك الكيدُ بل يَضُرُّهم[1].

دلالة إضافة الكيد إلى ضمير الغائب:

كيدهم المُعتاد لا ينفعهم شيئًا يومَ حلولِ العذاب

أضاف النّظمُ الجليل الكيدَ إلى ضمير الغائب في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾، وهي من إضافة المصدر إلى فاعله[2]، والمُراد به ما كانوا يُدبِّرونه من مَكرٍ وخِداعٍ في الدّنيا ضِدَّ النّبيّ ﷺ[3]. أي: الكيدُ الذي صدر عنهم، لا الذي وُجِّه إليهم. فالإضافةُ تُسَجِّل الكيدَ عليهم أنفسِهم، فالكيدُ الذي كان سلاحَهم المعتاد لم يُغْنِ عنهم شيئًا في ذلك اليوم - وفي هذا تحقيرٌ لكيدهم.

نُكْتَة تنكير ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

تهويل العذاب في ذلك اليوم

عبّر النّظمُ الجليل عن لفظ الشّيء بالتّنكير في قوله جلّ شأنه: ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا﴾؛ للدّلالة على العموم، أي: لا يُغني عنهم أيُّ شيء من الإغناء، فلا يدفع عنهم موتًا ولا ذُلًّا ولا عذابًا[4]، فالتّنكير هنا يفيد تهويلَ العذابِ في ذلك اليوم، وكذلك تحقيرَ كيدِهم؛ لبيانِ شِدّة العَجزِ والخِذْلان.

دلالة الواو في قوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾:

استيفاءٌ لوجوه الهلاك وانقطاعِ وسائل النّجاة

عطف النّظمُ الجليل في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 522.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 81.
(3) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 306.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 39.

على الجملة في قوله تعالى: ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ بالواو العاطفة[1]، وفائدةُ العطفِ: بيانُ انتفاءِ وسائل النّجاة على العموم، فلا نجاةَ بوسائلَ مِن فعلهم، ولا بوسائلَ من غيرهم، فانتفى نوعا الوسائلِ المُنجية[2].

نُكْتَةُ إعادةِ حرفِ النّفي (لا):

الـدّلالـة على استـقـلال كـلّ جملة منهما في النّفي

أعاد النّظمُ الجليل حرفَ النّفي (لا) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، فلم يَكتفِ بنفيٍ واحدٍ يُعطف عليه؛ وذلك للتّأكيد والتّقوية، وللإشارة إلى أنّ كلّ واحدة من الجملتين مستقلّة في النّفي، فيكون كلُّ معنًى من المعنَيين منفيًّا بنفي خاصّ به، وهذا أبلغ في انقطاع الأمل عنهم.

سرّ تقديمِ قوله: ﴿وَلَا هُمْ﴾، على قوله: ﴿يُنصَرُونَ﴾:

خُـذْلانٌ خِـذْلانٌ مُعجّل لا مُؤجَّل

قدّم النّظمُ الجليل النّفيَ على المسنَد إليه ﴿هُمْ﴾، والمسندِ الفعليّ ﴿يُنصَرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ وذلك لأجل القَصْر والتّوكيد، أي: لا يُنصرون هم بالذّات دونَ غيرهم. فالخِذلان متحقّقٌ في حَقّهم دونَ غيرهم، فهم أخصّ النّاسِ في انتفاء النّصرة. كما أنّه يُشير إلى تعجيل الخِذلان وانقطاعِ الأمل.

نُكْتَةُ التّعبير بالنّصر مادّةً وصيغةً:

لا نـاصـرَ يمنع عـذابَ الله عن الكافرين

عبّر النّظمُ الجليل بنفي النّصرة في قوله: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾؛ للدّلالة على نفي النّصرة والشّفاعة؛ لأنّ دفعَ العذابِ يكون بشفاعة شفيع أو بنصر ناصر؛ لذلك جاء التّعبير بنفي النّصرة. وللدّلالة على انتفاء مَن يمنع عنهم العذابَ، ويحولُ بينهم وبينه[3]. وجاء التّعبير بالبناء للمفعول للدّلالة على

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 341.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 82.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 156.

شمول نفي النّصر عنهم من أيّ جهة كانت، ومن أيّ فاعل كان[1]، فليس ثَمَّ أحدٌ على الإطلاق يمنعهم من عذاب الله تعالى. وجاء التّعبير بالفعل المضارع للدّلالة على تجدّد انتفاء النّصرة والنّصير[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الوَذْرُ والتَّرْكُ:

(ذرهـم) أخـصُّ من (اتركُهُم)

(ترك) أصل يدلّ على التّخلية عن الشّيء، والتَّرْكُ: ودْعُك الشَّيْءَ[3]. فهو ترك ومفارقة.

أمّا وذَرَ: فأصلُه منَ الوَذَرَةُ، وهي قطعة من اللّحم، وتسميتُها بذلك لقلّة الاعتداد بها، وفلانٌ يَذَرُ الشّيءَ. أي: يَقْذِفُهُ لقِلّة اعتداده به[4]، قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾ [الأنعام: 70]، أي: "أعرض عنهم، ولا تبالِ بتكذيبهم واستهزائهم"[5]. وفي الآية عبّر بالفعل (ذرهم) للدّلالة على أنّ الله تعالى أرشد النّبيَّ ﷺ أن لا يبالي بهم؛ لأنّهم لا يُعتدُّ بهم تحقيرًا لهم.

الرَّكْمُ والجَمعُ:

الجمع عامٌّ، والرَّكْمُ جمعٌ بإلقاء شيء فوق شيء

الجَمع: ضَمّ الشّيء بتقريب بعضِه من بعض، يقال: جَمَعْتُهُ فاجْتَمَعَ[6]، فهو جمع عامٌّ مُطلّق.

أمّا الرَّكم: فهو أخصّ من الجمع، فيدلّ على جمع بكيفيّة ما، فهو إلقاء الشّيءِ بعضِه على بعض[7]. قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا﴾ [النّور: 43]، وهو جَمعُكَ شَيْئًا فَوْقَ شَيْءٍ حَتَّى تَجْعلَه رُكامًا كالرَّملِ والسَّحابِ

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 91.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 35.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ترك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وذر).
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 36.
(6) الرّاغب، المفردات: (جمع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ركم).

ونَحْوِ ذَلِكَ[1]. فالرَّكم جمعٌ بتراكمٍ فوقيّ، وفي الآية عبّر بالرّكم لأنّ السّحاب يُجمع على هذا النّحو.

الغمام والسّحاب:

الغمام من (غمّ، أو غمم)، وأصْله يَدُلُّ عَلَى تَغْطِيَةٍ، والغَمُّ: سَترُ الشّيء، ومنه: الغَمامُ لكونه ساترًا لضَوء الشّمس[2].

الغمام يستر ضوءَ الشّمسِ، والسّحاب تسحبُه الرّياح

أمّا السّحاب فهو من الجذر (سَحَبَ)، وأصلُه يدلّ على جَرِّ شَيْءٍ مَبْسوطٍ ومَدّه. تَقولُ: سَحَبْتُ ذَيْلي بالأرْضِ سَحْبًا. وسُمّي السَّحابُ سَحابًا إمّا لجَرِّ الرّيح له، أو لجَرِّه الماء، أو لانجراره في مَمَرِّه[3]. فيُلاحظ في الغيم السّترُ، وفي السّحاب الحركةُ وانسحابُه بالهواء، ولا شكّ أنّ الكَسْف فيه حركة وسقوط، فكان الأنسبُ له التّعبيرَ بالسّحاب.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (ركم).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غم، غمم).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سحب).

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطّور: 47 - 49]

من كيدٍ لا يُغني ونصيرٍ لا ينفع إلى عـذابٍ لا يُؤجَّل

مناسبةُ الآيات لِما قبلَها:

بعد أن فصَّل النّظمُ الجليل في بيان عِنادهم في النّبوّة، وفَضَح شِركَهم في الأُلوهيّة، وعَرَّى مكابرتَهم حتّى للمَحْسوسات - انتقل السّياق في هذه الآية إلى تهديد جديد يُمهِّد للختام، فيُخبر أنّهم لن يُمهَلوا إلى يوم الصّعق فحسب، بل سيُصيبهم عذابٌ في الدّنيا قبلَ ذلك اليوم؛ فجاءت الآيةُ: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ مناسبةً لِما قبلَها، لتُكمِلَ مشهدَ الوعيدِ المُتَدَرِّج[1].

ومنها: لمّا ذكر اللّه تعالى عذابَ الظّالمين في القيامة، أخبر أنّ لهم عذابًا دونَ عذابِ يوم القيامة بقوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾.

ومنها: لمّا ذكر فيما سبق الحُجَجَ والبراهين على بُطلان مزاعم المشركين؛ أمر رسولَه ﷺ ألّا يعبأ بهم شيئًا، وأن يَصْبِر لحُكْم ربّه لينالَ عنايةَ اللّه له.

شرحُ المفردات:

1) ﴿وَإِدْبَـٰرَ﴾: (دبر) أصل يدلُّ على آخرِ الشّيء وخلفِه خلافِ قُبُله[2]. والإدْبارُ: نقيض الإقبال[3]. دُبُر كلِّ شيءٍ خلاف قُبُله، وأدْبارَ السُّجودِ: أي أواخرِ الصَّلَواتِ. وإدْبارَ النُّجومِ: عند الصُّبحِ في آخر اللّيل إذا أدبَرَت موَلّيةً نحو المغرب[4].

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دبر).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (دبر).
(4) الخليل، العين: (دبر).

المَعْنَى الإجْماليُّ:

يهدّد النّظمُ الجليل المشركين بعذاب قريب يصيبهم في الدّنيا قبلَ عذاب الآخرة، من القتل والسّبي وعذابِ البرزخِ وغيرِ ذلك، ولكنّ أكثرَهم غافلون عن ذلك. ثمّ وُجِّهَ الخطابُ إلى النّبيّ ﷺ بالصّبر على ما يلقاه من أذًى، والتّمسّك بحُكم اللّه ووعدِه، وأنّه ناصرُكَ عليهم، ويحفظك برعايته من كيدهم، وسبِّح بحمد ربّك حين تقومُ من نومك في الصّباح إلى الصّلاة، وحين تقوم من مجلسك، وحين تُدْبِرُ النّجومُ ويُشْرِق الصّباحُ؛ لِتُنزِّهَ خالقَ السّماوات والأرض، السُّبّوحَ القدّوسَ، ربَّ الملائكةِ والرّوح[1].

عـذابٌ للمشركين في الدّنيا قبلَ عذابِ الآخرة، ودعوةٌ للصّبر والتّسبيح لربّ العِباد

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

افتتح النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ بالواو، وهي اعتراضيّة، دخلت على جملة معترضةٍ بين سياق التّهديد الأُخرويّ في الآيات السّابقة، والوصايا الرّبّانيةِ التي سَتَلي؛ وذلك للتّنبيه على أنّ العذاب لا يقتصر على يوم الصّعْقِ، بل لهم عذابٌ سابق في الدّنيا كذلك[2].

اعتراضٌ يكشف العاجلَ من الوعيد

نُكْتَةُ تأكيدِ الجملة:

عبّر النّظمُ الجليل بتأكيد الجملة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ وذلك للدّلالة على وقوع العذاب بصورة لا تقبل الشّكّ، لا سيما في سياق إنكار المشركين، فالتّأكيد للرّدّ على شكّهم وإنكارِهم وقوعَ العذاب[3]. وهو يدلّ على حتميّةِ العذاب، وكونه واقعًا لا محالة.

الرّدّ على إنكارِ الظّالمينَ للعذاب

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 37، وجماعة من العلماء، التّفسير الميسر: 1/ 525.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 82.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 82.

دلالة اللّام في ﴿لِلَّذِينَ﴾:

عذاب الكفّار مستحَقٌّ لهم، ومختصٌّ بهم

عبّر النّظم الجليل بحرف الجرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا﴾؛ للدّلالة على أنّه عذاب مستحقّ لهم، مختصّ بهم.

دلالة التّعبير بالإظهار في موضع الإضمار:

تسجيل التّهمة، وتعليلُ الوعيدِ

وضع النّظمُ الجليل الاسمَ الموصولَ الظّاهرَ موضعَ الضّميرِ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، فلم يقل: (وإنّ لهم)؛ وذلك لتعميم الحُكم، فيشملُ كلّ ظالم؛ وللإشارة إلى علّة الحُكم، وهي وقوع الظّلم منهم[1]. فجاء العدولُ إلى الاسم الظّاهر للتّسجيلِ عليهم بصفةِ الظّلم، وهي تعليلٌ ضمنيٌّ لاستحقاقهم العذاب، وإشارةٌ إلى أنّهم لم يُعذَّبوا عبثًا، بل لأنّهم ظلموا أنفسَهم وكذّبوا الحَقّ. وممّا يُذْكَر في سرِّ التّعبير باسم الموصول الظّاهر (الذين) دون الضّمير (لهم) لتعدّد الأقوال في المُراد بالذين ظلموا؛ فذهب البعض: إلى أنّهم أهلُ مكّة، ويفسّر العذابَ بأهل بدر، ويجوز أن يُحمَل على العموم لكلّ ظالم، والمُراد بالعذاب (عذاب القبر).

سِرّ التّعبيرِ بالظّلم مادّةً وصيغةً:

الشِّركُ ظلمٌ عظيمٌ

عبّر النّظمُ الجليل بالظّلم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ لتعدّد المُرادِ به؛ فيجوز إطلاقُه على كيدهم للنّبيّ ﷺ، وعلى عبادتهم للأوثان، وذلك لأنّهم وضعوها في غير موضعها، وهذا ظاهر في ظلمهم للنّبيّ ﷺ وللقرآنِ الذي أُنزل عليه؛ حيثُ وصَفوا القرآنَ بالسّحر والكَهانة[2]. وجاء التّعبير بالفعل الماضي للدّلالة على وقوع الظّلم وتحقّقه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 36.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 36.

نُكْتَةُ تقديمِ شِبه الجُملة:

عذابُهم مخصوصٌ بهم، لا ينالُه سواهم

قدّم النّظمُ الجليل الجارَّ والمجرورَ ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ على المبتدأ المُؤَخَّرِ ﴿عَذَابًا﴾؛ للدّلالة على القَصْر والاختصاص، أي: لهم خاصّة هذا العذاب، فهو غير مدفوع عنهم ولا مُشتَرَكٌ فيه مع غيرهم، وفيه تهديد بليغ، وربطٌ بين الفعل (الظّلم)، والجزاء (العذاب).

نُكْتَةُ تنكيرِ العذاب:

صورُ العذابِ وأشكالُها أوسعُ من حصرها

عبّر النّظمُ الجليل بتنكير العذاب في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ للتّنويع، أي: عذابًا آخر[1]، كما أنّ التّنكير يدلّ على التّفخيم والتّهويل، فالتّنكير هنا يوحي بأنّ هذا العذابَ غيرُ معيّن ولا محدودٍ بوجهٍ أو نوعٍ، بل هو عذاب مُبْهَمٌ في شِدّته وتنوّعه ومظاهره، وهذا يُضفي عليه رهبةً في النّفوس.

دلالة التّعبير بـ ﴿دُونَ﴾:

العذاب الأقلّ وجعًا أعجلُ وقوعًا

عبّر النّظمُ الجليل بـ ﴿دُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، وأصلها المكان المنفصل انفصالًا قريبًا، واستعملت للدّلالة على الأقلّ[2]، فعذاب الدّنيا أقلّ رتبةً من عذاب يوم القيامة[3]؛ يُؤكّد هذا قولُه: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [السّجدة: 21]، ويكون المُراد بقوله: ﴿دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: أقلّ من ذلك في الدّوام والشّدّة.

غرض التّعبير باسم الإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تهويل الموعد وتعظيمُ العذاب

عبّر النّظمُ الجليل باسم الإشارة الدّالّ على البُعْد في قوله تعالى: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾؛ للإشارة إلى عذاب يوم القيامة، وقد جاء باسم الإشارة البعيد تعظيمًا لشأن ذلك اليوم وتهويلًا له، فهو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 152.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 82.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 36.

ليس أيّ يوم، بل اليوم العظيم، يوم الصّعق والجزاء والخلود، وهو عذاب الآخرة[1].

دلالة الواو في ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

العذاب النّاجم عن كفرهم نتيجةً نتيجةٌ لجهلهم

عبّر النّظمُ الجليل بالواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وهي تُفيد العطف[2]، وذلك لربط الاستدراك بما قبلَه ربطًا وثيقًا، أي: إنّهم - إضافةً إلى العذاب - في جهل مُطبِق بحقيقة ذلك العذاب.

فائدة الاستدراك:

الجهل لا يمنع العذابَ بل يُعجِّلُه

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الاستدراك (لكنّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، بعد الإخبار المُؤكَّد بوجود عذاب دنيويّ دونَ العذابِ في الآخرة؛ للدّلالة على أنّه واقع لا محالة، ولكنّه لا يخطر ببالهم ولا يُقدِّرونه؛ لِما هم فيه من بَطَر وغُرور وغفلة[3]. فالاستدراكُ هنا لا يَنقض الحُكمَ السّابق، بل يُقوّيه ويُؤَكِّدُه.

نُكْتَةُ التّعبير بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ دون (ولكنهم لا يعلمون):

من الكافرين قِلّةٌ يعلمون ولكنّهم يُكابرون

عبّر النّظمُ الجليل بالأكثريّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ دون أن يقول: (ولكنّهم لا يعلمون)؛ وذلك لأنّ فيهم من يعلم ذلك، ولكنّهم يُصِرّون على الكفر عِنادًا[4]. ويجوز أن يكون التّعبير بالأكثريّة جريًا على عادة العرب، حيثُ تُعبّر عن الكلّ بالأكثر؛ كما قال تعالى: ﴿أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ٤١﴾ [سبأ: 41][5].

---

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 149.
(2) الدّرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 9/ 308.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 82.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 153.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 534.

فائدة التّعبير بالفعل المضارع المنفيّ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

دوامُ الجهلِ وتأصُّلُ الغفلةِ

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدّلالة على تجدّد النّفي، أي: أنّ انتفاء علمِهم يتجدّد على الدّوام، فهو تعبيرٌ عن رسوخ جهلهم.

نُكْتَةُ حذفِ المفعول:

لا تُدرِكُ عقولُ الغافلين شيئًا من الحقّ

حذف النّظمُ الجليل المفعولَ لفعل العِلم في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لظهوره من السّياق، أي: لا يعلمون ما سيقع بهم، ولا شأنَ العذابِ، وما سينزل بهم[1]. كما أنّ حذف المفعول يُراد منه الاهتمامُ بنفي العِلْم عمومًا، لا بالنّظر إلى تعلّقه بمفعول، فهو تسجيل عليهم بالجهل.

دلالة الواو في ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾:

تَركُ المُكذّبين، والصّبرُ على الأذى، تسليَةٌ للمُبَلِّغ الأمين

عَطَفَ النّظم الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ على الجملة في قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ﴾، تُفيد استئنافَ سلسلةِ التّسليَةِ والتّثبيتِ للنّبيّ ﷺ[2]؛ فإنّ معظم ما في السّورة أخبارٌ تخالِطُ نفسَه ﷺ، من الكَدَر والأسَف على ضلال قومِه وبُعْدِهم عمّا جاءَهم به من الهدى، فجاء الأمرُ بالصّبر تسليَةً له[3].

دلالةُ الأمرِ بالصّبر:

تثبيتٌ في وجه المُكابرة، وتفويضٌ للحكيم العليم

عبّر النّظمُ الجليل بفعل الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ تسليةً للنّبيّ ﷺ بعد ما تضمّنته الآياتُ السّابقة من صور تكذيبِ القوم وشِدّة عنادِهم وعاقبةِ أمرهم[4]، فجاء هذا الأمرُ ليَرْبِطَ على قلبه ويُثبِّتَه على ما يلقى من أذى وأعباءِ الدّعوة. والأمرُ

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 512.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 37.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 83.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 37.

بالصّبر هنا يشمل احتمالَ الأذى، والرّضا بحُكم اللّه، والثّقةَ بعواقب الأمور وإن طال البلاءُ. وممّا يُذْكَر في سرّ التّعبير بالصّبر: أنّه لما قال اللّه لرسوله فيما سبق: ﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ﴾، كان فيه الإشارةُ إلى أنّه لم يَبْقَ في نُصحهم نفعٌ، ولا سيما أنّه قد تقدم قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾، وكان ذلك ممّا يحمل النّبيَّ ﷺ على الدّعاء، كما قال نوح عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26]، إلّا أنّ اللّه قال له: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾.

الصّبر فعلٌ مأمور، وغايةٌ مرجوّة، وعِلّةٌ مقصودة

دلالة اللّام في ﴿لِحُكۡمِ﴾:

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجَرّ (اللّام) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، وهي هنا صالحةٌ أن تكون بمعنى (على)، فيكون لتعدية فعل (اصبر)، كقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [المزّمّل: 10]. وأن تكون بمعنى (إلى)، أي: اصبر إلى أن يحكم اللّه بينَكَ وبينهم. وأن تكون (للتّعليل)، أي: اصبر لأنّك تقوم بما وجب عليك بما حكمنا من إرسالنا إيّاك[1]. وهذه المعاني ليست متعارضةً، بل متكاملةً، وكلّها محتمِلة في الآية الكريمة؛ فالنّبيّ ﷺ مأمورٌ بالصّبر على عدم استجابة بعض النّاس لدعوته، إلى أن يأتيَ حكمُ اللّه الفاصلُ بينَه وبينَ المُكذِبين، من أجل القيام بما أوجبه اللّه عليه من تبليغ الرّسالة. وهذا من بلاغة القرآن الكريم وإعجازه، حيثُ يحتمل اللّفظُ الواحدُ معانيَ متعدّدة متكاملة تُثْري المعنى، وتوَسِّع الدّلالة.

الإضافة للتّشريف والتّخصيص، والحُكم صادرٌ عن الله سبحانه وتعالى

دلالة إضافةِ حُكم إلى لفظ الرّبّ:

أضاف النّظمُ الجليل لفظَ (حُكْم) إلى لفظ (ربّك) في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، وهي إضافة تشريف وتخصيص، وبيان أنّ هذا الحُكم صادرٌ عن اللّه سبحانه وتعالى، لا عن أحدٍ سواه، وفيه بيانٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 83.

بأنّ هذا الحُكمَ يحمل معنى الحفظِ والرّعاية؛ لأنّه صادرٌ من ربِّكَ الذي يقوم على تربيتك والإنعام عليك.

دلالة التّعبير بالحُكم في قوله: ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾:

العبد مأمور بالصّبر على ما أُمِرَ به، وما نُهيَ عنه

جاء التّعبير القرآنيُّ بلفظ الحُكم في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ دون غيره؛ لأنّ حُكم اللّه نوعان: خَلْقٌ وأمر؛ **فالأوّل**: ما يُقَدّره من المصائب، **والثّاني**: ما يأمر به وينهى عنه، والعبد مأمور بالصّبر على هذا وعلى هذا؛ فعليه أن يَصْبِر لما أُمِرَ به، ولِما نُهيَ عنه.

سرّ التّعبير بقوله: ﴿لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ دون: (لحُكْمِنا) أو (لحُكْم الله):

تثبيت الصّابر برحمة المُحْسِن المُرَبّي

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالرّبوبيّة في قوله جلّ شأنه: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾، دون أن يقول: (لحُكْمِنا) أو (لحُكْم اللّه)؛ وذلك للدّلالة على الإحسان والتّلطّف، فالأمرُ بالصّبر هو ما يُريده الذي سبق منه الإحسان إليك[1].

دلالةُ كاف الخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾:

تشريف النّبيّ ﷺ وتطمينه والإحسان إليه

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بإضافة لفظ (رب) إلى كاف الخطاب في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾؛ وذلك لتشريفه ﷺ، والإشعارِ بأنّ هذا الصّبرَ في كنف رَبٍّ يُربّيه ويُحْسِن إليه، فهو تطمينٌ للنّبيّ ﷺ، بأنّ ما يُقدِّره اللّه له من أحكام إنّما هو من ربّه، الذي لا يُريد به إلّا اللّطفَ والإحسانَ.

معنى الفاء في ﴿فَإِنَّكَ﴾:

وجب صبرك لأنك بعين الله

عبّر النّظم الجليل بالفاء في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ وهي هنا للتّفريع، جيء بها لتفريع العلّة على المعلول، أي: اصبر، لأنك بأعيننا، والمراد: أن سبب قدرتك على الصبر وثباتك عليه هو أنك محفوظ بعين اللّه، محروس برعايته، واقع في دائرة عنايته التامة[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 37.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 83، 84.

نُكْتَةُ تتابعِ المؤكّدات:

حفظٌ متين، وعنايةٌ لا تنقطع

أكّد النّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، والمُراد منه تأكيدُ الخبرِ لتقويةِ المعنى، والمقصودُ تثبيتُ قلبِ النّبيّ ﷺ غايةَ التّثبيتِ، بعد أن ورد في السّياق كثيرٌ من مشاهد التّكذيبِ والعِناد والوعيد.

دلالة الباء في ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾:

لُصوقُ العنايةِ، وقُرْبٌ لا انفصالَ فيه

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجَرّ (الباء) في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، وهي هنا للإلصاق المجازيّ، أي: لا نغفُل عنك، فهي تدلّ على الملازمة، أي: أنّ النّبيّ ﷺ في حفظ اللّه ورعايته الدّائمة، بحيثُ لا تغفل عنه عينُه سبحانَه طرفةَ عين[1]. وهذا يبعثُ الطّمأنينةَ في قلب النّبيّ ﷺ، ويُشجِّعُه على الصّبر والمُضيّ في دعوته، ويكون تقدير الكلام على هذا: محفوظٌ بأعيننا. وإن كان المُرادُ العِلم؛ فمعناه: بمَرأىً مِنّا، أي: بمكانٍ نَراك، وتقديره: فإنك بأعيننا مَرْئيٌّ[2].

نُكْتَةُ جمعِ الأعين وإضافتِها:

مَن كان في معيّة اللّه أمِنَ كيدَ الماكرين

جمع النّظمُ الجليل الأعين في قوله جلّ شأنه: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾؛ لأنّه أراد المبالغةَ في الحفظ وكثرةِ أسبابه[3]، "حتّى كأنّ معه جماعةً حَفَظَةً له بأعينهم، لأنّ المقصود تصبيرُ حبيبه على المَكايد ومشاقِّ التّكاليف والطّاعة. فناسبَ الجمعُ، لأنّها أفعالٌ كثيرة، يحتاج كلٌّ منها إلى حارس، بل حُرّاس"[4]. وإضافةُ العين إلى ضمير التّعظيم تعظيمٌ لشأن حفظِه تعالى لنَبيّه ﷺ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 84.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 525.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 156.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 55.

سرّ التّعبير بالجمع ﴿بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾:

لمّا كثرت المكائدُ عَظُم الحفظُ والعناية الرّبانيّة

جاء التّعبيرُ القرآنيّ بالجمع ﴿بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ في حقّه ﷺ، وفي حقّ موسى عليه السلام ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39] على الإفراد، ووجهُ ذلك: أنّه لمّا وحّد الضّميرَ هناك، وهو ياء المُتكلّم، وحّد العين، ولمّا ذكَر هنا ضميرَ الجمعِ في قوله: ﴿بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ وهو النّون، جمعَ العين، وقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾، هذا من حيثُ اللّفظ، وأمّا من حيثُ المعنى: فلأنّ الحفظَ ها هنا أتمّ؛ لأنّ الصّبر مَطيّةُ الرّحمةِ بالنّبيّ ﷺ، حيثُ اجتمع له النّاس وجمعوا له مكايدَ وتشاوروا في أمره؛ فكلّ ذلك يحتاج إلى حفظ عظيم في نظر الخَلْق؛ فقال: ﴿بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾؛ بخلاف قوله في قصة موسى: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39]؛ لأن موسى كان يحتاج إلى رعاية خاصّة في طفولته[1].

دلالة الواو في ﴿وَسَبِّحۡ﴾:

التّسبيح سِلاح الصّابر

عبّر النّظمُ الجليل بواو العطف في قوله جلّ شأنه: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ لعطف الأمر بالتّسبيح على ما قبله من الأمر بالصّبر في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾؛ وذلك لأنّ العبادة بالتّسبيح والصّلاة أعظمُ ناصرٍ، وأكبرُ مُعِزٍّ[2]، فالتّسبيح هو مَعين الصّبر، ووسيلةُ الثّبات، وسِرّ القوّة في وجه الأذى والعناد، فجمعت الواو بين الثّبات والعبادة.

دلالةُ الأمر في ﴿وَسَبِّحۡ﴾:

التّسبيحُ مَلاذ المؤمنِ وسلاحُه فــي مـواجـهـة الضّيق

عبّر النّظمُ الجليل بصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، هذا الأمر بالتّسبيح، وهو التّنزيه للّٰه تعالى عمّا لا يليق به[3]، فالتّسبيحُ هو مَلاذ المؤمنِ وسلاحُه في مواجهة الضّيق

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 525.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 38.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 153.

والبلاء والكرب. وقد يُراد به الصّلاة، إذ كَثُر إطلاقُ التّسبيحِ على الصّلاة[1]؛ وذلك لأنّ التّسبيح جزءٌ من الصّلاة، وهذا ظاهرٌ في إطلاقات القرآن الكريم.

دلالة الباء في ﴿بِحَمۡدِ﴾:

وجوبُ مصاحبةِ التَّنزيهِ لكمالِ الثَّناءِ

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (الباء) في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ لأنّها تُفيد المصاحبةَ والملابسة، وفي هذا إشارةٌ إلى أنّ التّسبيح يجب أن يكون مصحوبًا بالحمد[2].

دلالة إضافة الحمد للرّبّ:

وجوبُ الثّناءِ لعظيمِ الإحسانِ

عبّر النّظمُ الجليل بإضافة الحمد إلى الرّبّ في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ وذلك للتّشريف والتّخصيص، فالحمد المطلوب هو حمد خاصٌّ باللّه ﷻ وحدَه، فهو المُستَحِقّ لكلّ الثّناء.

دلالةُ التّعبير بلفظ الرّبوبيّة مُضافًا إلى ضميره:

تثبيتُ الفؤادِ بتذكيرِ سابقِ الإحسانِ

عبّر النّظمُ الجليل بلفظ (الرّبوبيّة) مُضافًا إلى ضمير المُخاطَب ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾؛ تذكيرًا بسابق إحسانه، أي: الرّبّ المُحسن والمُتفضّل عليك بالنّبوّة[3]، وهذا يبعث على الطّمأنينة والسّكينة في قلب النّبيّ ﷺ. فهو ربُّه ومُربّيه الذي يتولّى رعايتَه وعنايتَه الخاصّة.

دلالة التّعبير بالظّرفيّة ﴿حِينَ﴾:

بدايةُ اليومِ بحمدِ اللهِ وتسبيحِه

عبّر النّظمُ الجليل بالظّرف ﴿حِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، أي: حين تقوم من النّوم وتَشْرَع ببداية يومِك، ومُزاولَةِ أعمالِ الدّعوة[4]، ووقتُ القيامِ هو بداية اليوم. هذا التّخصيصُ يُفصِح عن أهمّيّة بدءِ اليوم بذِكْر اللّه والتّسبيح

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 84.

(2) الخطيب، السّراج المنير: 4/ 121.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 38.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 85.

والحمد، كَزادٍ روحيٍّ لجميع أعمال اليوم. وفيه إشارةٌ إلى إيقاع التّسبيح في كلّ أحوالِكَ عندما تقوم لأمر ما، ولا سيما مجاهدةِ قومِكَ الذين يُعادونَكَ.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع ﴿تَقُومُ﴾:

تجدُّدُ العبادةِ كلَّ استيقاظٍ وقيامٍ للعمل

عبّر النّظمُ الجليل بالفعل المضارع ﴿تَقُومُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾، وذلك يُشير إلى أنّ التسبيح والحمد يقعان وقتَ القيامِ من النّوم[1]. والتّعبيرُ بصيغة المضارع للدّلالة على التّجدّد والاستمراريّة، أي: أنّ التّسبيح والحمد مطلوبان في كلّ مَرّةٍ يقوم فيها النّبيُّ ﷺ، سواء كان قيامًا من النّوم، أو قيامًا إلى الصّلاة، وغيرها[2].

دلالةُ حذفِ متعلّق ﴿تَقُومُ﴾:

تعدّدُ المُرادِ من الفعل

حُذِفَ متعلّق ﴿تَقُومُ﴾ في قوله: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾؛ وذلك لتَعدّد المُراد؛ فيجوز أن يكون المُراد: تقوم من موضعك، ودلّ على ذلك قولُه ﷺ: «سبحانكَ اللّهمّ وبحمدِك، أشهد أن لا إلهَ إلّا أنتَ، أستغفرُكَ وأتوبُ إليك»[3] قبلَ أن يقوم من مجلسه، يُكْتَب ذلك كفارةً لما يكون قد صدر منه من اللّفظ واللّغو في المجلس. ويجوز أن يكون التّقدير: حين تقوم من النّوم، أو حين تقومُ إلى الصّلاة، أو حين تقوم لأمر ما، وكلّ ذلك دلّت عليه الأحاديث[4].

دلالة الواو في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

وجوب الذّكر والعبادة شاملٌ لجميع الأوقات

عبّر النّظمُ الجليل بالواو في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾، وهي هنا للعطف[5]، وتفيد الجمعَ بين أوقات

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 156.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 38.
(3) الترمذي، السنن، الحديث رقم: (3732).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/ 525.
(5) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 36.

التّسبيح؛ فبعد أن أمر الله تعالى بالتّسبيح حين القيام أوّلَ النّهارِ، أتبعَ ذلك بالأمر بالتّسبيح في بعض أوقات اللّيل[1]، وهذا يُشير إلى شمولِ أوقاتِ التّسبيح والذّكرِ ليلًا ونهارًا.

دلالة التّعبير بـ (مِن):

العـبـادة في بعض اللّيل لا كلّه

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الجرّ (مِن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾، وهي هنا للتّبعيض، أي: بعضِ اللّيل، لا كلِّه، وهو ما يدلّ على انتقاء وقتٍ مخصوصٍ من اللّيل، وهو أصفاه وأهْدَؤُه، أي: الوقت الذي ينصرف فيه النّاسُ عن شواغلهم، وتصفو فيه النّفوس للمُناجاة والذّكر[2].

نُكْتَةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

تعظيمُ وقتِ اللّيل، وإبرازُ شرفِه كمَقامٍ للعبادة والخَلْوة

قدّم النّظمُ الجليل شِبهَ الجملة على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾؛ وذلك لتعظيم شأنِ اللّيل، إذ هو موضِعُ السّكون والهُدوء، ومحلُّ الخَلْوَة مع الله، وهو الوقتُ الذي يَقِلّ فيه الانشغالُ، وتصفو فيه الأرواحُ للذّكر والتّسبيح[3]. فالتّقديمُ يُفيد الاهتمامَ بالظّرف الزّمنيّ، والتّنبيهَ على خصوصيّته.

سرّ تخصيصِ اللّيل بالذّكر:

اللّيلُ أُنس العابدين

أُفْرِدَ اللّيلُ بالذّكر دونَ النّهار لتعظيمه؛ لأنّ العبادة فيه أشقّ على النّفس، وأبعدُ عن الرّياء، ولأنّ القراءة فيه أثبتُ لحضورِ القَلْب.

دلالة الفاء في ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾:

التّسبيح بعد الصّبر خيرُ مُعين

عبّر النّظمُ الجليل بحرف الفاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾، وهي هنا للعطف، عطفت جملةَ التّسبيح على الصّبر

---

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 123.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 85.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 38، 39.

في قوله: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾[1]، وهي تفيدُ التّرتيب والتّعقيب، فالصّبرُ يقتضي إتباعَه بالعبادة والتّسبيح، وهما خيرُ زاد.

دلالة الأمر بالتّسبيح في قوله: ﴿فَسَبِّحۡهُ﴾:

المـداومـة على تسبيح الله في أوقـات الصّفاء في اللّيل

عبّر النّظم الجليل بفعل الأمر في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾، وهو يدلّ على الطّلب الجازم بالعبادة والذّكر[2]، وأُريدَ به هنا المداومةُ على تسبيح الله في أوقاتٍ مخصوصةٍ من اللّيل.

دلالة التّعبير بالواو في ﴿وَإِدۡبَٰرَ﴾:

دوام التّسبيح من أوّل اللّيل إلى آخره

عبّر النّظمُ الجليل بالواو العاطفة في قوله تعالى: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾، عطفت الجملةَ على قوله تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾[3]، لتدلّ على أنّ وقت التّسبيح المطلوب يشمل أوّلَه وآخرَه، أي: من حين قيام اللّيل إلى وقت إدبار النّجوم، أي: طلوع الفجر. أي: "واذكر ربّك حين تقوم من منامك، ومن مجلسك، وحين تغيبُ النّجوم، ويصبح الصّباحُ"[4].

دلالة التّعبير بالإدبار:

غياب النّجوم بضَوء الصّباح

آثَر القرآنُ الكريم التّعبيرَ بالإدبار في قوله تعالى: ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾؛ لدلالتها على غياب النّجوم بضَوء الصّباح؛ لأنّ مادة (أدبر) تدلّ على الغروب؛ أي: ذهاب ضوئها، وهذا لا يتأتى إلّا من خلال إقبال ضوء الصّباح، وعكسُ الإدبارِ الإقبالُ، ولأنّه يعني آخِرَ اللّيل، ويكون المُراد بالتّسبيح في هذا الوقت؛ هو صلاة التّهجّد أو صلاةُ الفجر[5].

دلالة الإضافة في ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾:

تصوير المشهد الأخير من اللّيل عـنـد غـيـاب النّجوم

أضاف النّظم الجليل الإدبارَ إلى النّجوم في قوله جلّ شأنه:

(1) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 36.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 96.
(3) محمود صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 36.
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 37.
(5) محمّد الهلال، التّفسير الثّريّ: 11/ 179.

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾؛ وذلك لتصوير المشهد الأخير من اللّيل عند غياب النّجوم وانسحابها من السّماء؛ إيذانًا بطلوع الفجر[1]. والإضافة تُحَدّد الزّمان، أي: وسبّحه في وقت إدبار النّجوم، وذلك من آخر اللّيل في نصفه الثّاني[2].

دلالة (أل) في ﴿ٱلنُّجُومِ﴾:

كلّ النّجوم التي في السّماء

عرّف النّظم الجليل النّجوم بالألف واللّام في قوله جلّ شأنه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾، والمُرادُ به تعريف الجنس، أي: كلّ النّجوم التي في السّماء.

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/ 514.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 39.

سُورَةُ النَّجمِ

سُورَةُ النَّجْمِ

التَّعريف العامُّ بالسّورة:

المكّي والمدنيّ وعدد الآي:

سورة النَّجم كلُّها مكّيَّة بالاتِّفاق[1]، وذكر السُّيوطيُّ أنَّه استُثني منها: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: 32]، وقيلَ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ٣٣﴾ [النجم: 33]، إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١﴾ [النجم: 41] الآيات التِّسع[2]، والحقيقة أنَّ سند هذه الرِّوايات الَّتي اعتمدوا عليها ضعيف[3]، فضلًا عن أنَّ أسلوب هذه الآيات ونسقها يقطع بمكّيَّتها.

وأمّا عدد آياتها؛ فهي سِتّونَ وآيتان في الكوفيِّ، وستّون وآيَة في عدد الباقين، وسبب اختلافهم فيها عائدٌ إلى اختلافهم في تحديد رؤوس ثلاث آياتٍ فيها[4].

ترتيبُ النُّزول وترتيب المصحف:

جـاء ترتيبها المصحفيُّ بين سورتَي الطّور والقمر

سورة النَّجم هي السّورة الثّالثة والخمسون في التَّرتيب المصحفيِّ الشَّريف، وهو التَّرتيب الثّابت، والمُعوَّل عليه عند أهل النَّظر والتَّحقيق، فجاء ترتيبها بين سورتَي (الطّور) و(القمر)، وهي السّورَةُ الثّالثة والعشرون في تَرْتيبِ نُزولِ السّوَرِ، نَزَلَت بَعدَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 5، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 195.
(2) السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 65.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 87.
(4) الداني، البيان في عد آي القرآن، ص: 233.

سورَةِ (الإخلاص)، وقَبلَ سورَةِ (عبس وتولّى)[1]، وقيل: إنَّ ترتيبها الثّانية والعشرون[2].

فضائل السّورة:

حوزُ أوَّليَّة الجهر والإعلان دليلُ قوَّة الرِّسالة، وشدَّة العزم على تبليغها

هذه السّورة الكريمة من سور المفصَّل الَّتي قال فيها النَّبيُّ ﷺ، فيما رواه عنه واثلة بن الأسقع ﵁: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»[3]، وقد ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يقرأ بها في صلاته، وهي أوَّل سورة أعلنَ بها ﷺ وجهر بقراءتها في الحرم، والمشركون يسمعون[4].

اسم السّورة ومناسبة تسميتها:

سورةُ النَّجم اشتهرت بهذا الاسم، ولا تُعرف لها أسماء أخرى

وردت تسميتها بسورة ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾ بثبوت الواو في كتب السُّنَّة، فقد ذكر البخاريُّ ومسلم[5] والتِّرمذيُّ تسميتها بذلك[6]، ووردت تسميتها من دون الواو في بعض كتب السُّنَّة والمصاحف[7]، وقد ذكر الكثيرون أنَّ سبب تسميتها بالنَّجم لاستهلالها بذكره[8].

وقد ربط البقاعيُّ بين اسمها ومقصودها، فأشار إلى أنَّ اسم السّورة "النَّجم" لم يُذكر فقط لوروده في بدايتها، وإنَّما يشير اسم السّورة إلى كون محورها يرمز للهدى والنّور الَّذي يُضيء لمن يريد الهداية، كما يدلُّ على أنَّ الله تعالى أقسم به ليشير إلى خطر الهوى، الَّذي يُضِلُّ، ويغوي الإنسان، ويُذمُّ؛ لأنَّ عاقبته الفناء في

---

(1) دروزة، التّفسير الحديث: 2/ 74، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 88.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.
(3) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطّبراني في المعجم الكبير: 22/ 76، برقم: (187).
(4) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 5/ 195، ويُنظر: البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم: (4581)، مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم: (576).
(5) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الصّلاة، باب سجود التلاوة، حديث رقم: (576).
(6) البخاري، صحيح البخاري: 4/ 1839، والترمذي، سنن التّرمذيّ: 5/ 393.
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 87.
(8) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 87.

الدُّنيا والآخرة، ومن ناحية أخرى، يمدح العلم، الَّذي يُعدُّ نورًا، يوضِّح طريق الهدى، ويُفضِّل أهل التَّزكية والطُّهر.

فالسّورة في مجملها تدعو إلى اتِّباع هدي النَّبيِّ ﷺ الَّذي هو العلم الحقُّ؛ لأنَّه لا ينطق إلّا عن وحي من الله، فتُشبه هدايته بالنَّجم الَّذي يُهدي السّائرين في ظلام الجهل والضَّلال، ويُراد من هذا التَّنويه أن يُذكِّر الإنسان بضرورة التَّزوُّد من نور العلم، وأنَّ مَن لم يسلك سبيل الرَّشاد، فإنَّ مصيره الفشل في الدُّنيا والآخرة، كما أنَّ اسم "النَّجم" يربط بين معاني العظمة الإلهيَّة، وعلوِّ المكانة الَّتي يجب أن يحتلَّها العلم في حياة الإنسان، ليصبح منارة ترشد كلَّ تائه يبحث عن طريق، تمامًا كما يُضيء النَّجم درب المسافر ليصل إلى هدفه[1].

المحور العامُّ للسورة:

محور السّورة يقوم على تصديق الوحي ونفي الشُّبهات عنه

محور هذه السّورة واضحٌ وظاهرٌ للعيان، وهو متَّصلٌ تمام الاتِّصال بمحور سورة الطّور الَّتي سبقتها، فلئن كان محور تلك يقوم على بيان الجزاء الأخرويِّ لطرفَيِ النِّزاع، من المكذِّبين والمتَّقين، وإقامة الأدلَّة على ثبوت وقوع وعد الله تعالى، فإنَّ هذه السّورة الكريمة جاءت؛ لتبيِّن صدق الوحي الَّذي جاءهم به نبيُّهم من عند ربِّه، فالمصدر العلميُّ والمعرفيُّ الَّذي اعتمده النَّبيُّ ﷺ قائم على الوحي لا على هوى النَّفس، ويظهر ذلك من خلال ما يأتي:

أوَّلًا: نَعَت السّورة على المشركين آلهتهم المزعومة، الَّتي لا تستند عبادتها إلى مصدرٍ معرفيٍّ سليم، وبيَّنت أنَّ إيثارهم للحياة الدُّنيا هو الَّذي عطَّل أدوات معرفتهم، وعرضت لهم أنموذجًا كفريًّا معروفًا لديهم؛ إذ كان سبب الكفر هو التكذيب لما جاء من الوحي على الأنبياء السّابقين.

(1) البقاعي، مصاعد النّظر: 3/ 35، ونظم الدرر: 19/ 40.

ثانيًا: تعرَّضت السورة لبعض صفات هذا الإله الحقِّ الَّذي أهلك المكذّبين السّابقين لهم.

ثالثًا: قامت السّورة على إثبات مصدريَّة هذا الوحي الإلهيِّ، ونفي شبهاتهم حول النُّبوَّة والوحي.

موضوعات السّورة وخصائصها:

جاءت موضوعات السورة على الشَّكل الآتي:

مَدارُ السّورة يدور حولَ تحقيق وعد الله ووعيده

أوَّلًا: تؤكِّد السّورة أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا ينطق عن الهوى، وأنَّ وحي القرآن منزَّل من اللّه، وأنَّه شاهدٌ على ذلك، وأنَّه يوحى إليه بواسطة جبريل، وأنَّ القرآن هو الحقُّ المبين، مع بيان أنَّ النَّبيَّ موصل للرِّسالة من اللّه، وأنَّه لا يختلق شيئًا من تلقاء نفسه (آيات: 1 - 18).

ثانيًا: تتناول السّورة إبطال عبادة الأصنام والأوثان، موضِّحة أنَّ اللّه هو خالق الكون، وأنَّ ما يعبد من دون اللّه، من أصنام وأوثان، لا تملك شيئًا، وأنَّها أوهام لا حقائق لها، مع ذكر أنَّ المشركين يزعمون أنَّ الملائكة بنات اللّه، وهو قول باطل لا أساس له، وتأكيد أنَّ اللّه هو المستحقُّ للعبادة وحده، وأنَّ الشِّرك فساد واحد من مقاصد السورة الكبرى (آيات: 19 - 33).

ثالثًا: تتحدَّث السّورة عن علم الغيب، وتؤكِّد أنَّ اللّه وحده المطَّلع على الغيب، وأنَّ النّاس لا يملكون معرفة الغيب إلّا إذا أذن اللّه، وأنَّ من قاس غيبه على عالم الشَّهادة، واعتقد أنَّ علمه محدود هو في ضلال، وتنذر أنَّ اللّه هو المطَّلع على كلِّ شيء، وأنَّه لا يَعلم الغيب إلّا هو، مع ذكر أنَّ ذلك من حقائق الإيمان، وتحذر من الاعتماد على الظَّنِّ والتَّقليد الأعمى (آيات: 34 - 44).

رابعًا: تُختَتم السّورة بتحذير من اتِّباع الهوى والظَّنِّ، وتأكيد أنَّ الحقَّ لا يُعرف إلّا من خلال الوحي، وأنَّ اللّه هو عالم الغيب، وأنَّه

الحقُّ المبين، وأنَّ مَن يتَّبع الشَّهوات يعترض على هدى اللّه، ويضلُّ في ظلام الشَّكِّ والظَّنِّ، داعيًا إلى التَّصديق بوحدانيَّة اللّه واتِّباع رسله، وعدم الاعتماد على الظُّنون والأوهام (آيات: 61 - 62)[1].

الخصائص الموضوعيَّة للسّورة:

تـميَّـزت سـورة النَّجـم بـخـصـائـص أفـردتـهـا عـن غيرها من السّور

أوَّلًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها تناولت الإشارة إلى حادثة الإسراء والمعراج، فشاركت بهذا الأمر سورة الإسراء، إلّا أنَّ ذِكر الحادثة في هذه السّورة جاء متَّسقًا مع بيان مصدريَّة الوحي، وأنَّه من عند اللّه تعالى لا من عند غيره.

ثانيًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها ذكرت أسماء آلهتهم المزعومة، وهي: اللّات والعزّى ومناة الثّالثة، وكان هذا الذِّكر منسجمًا أيضًا مع محور السّورة الكريمة في إثبات الوحدانيَّة ونفي الشُّبهات عنها.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بذكرها لشبهات جديدة للمشركين سواء أكان من حيث المضمون أم أسلوب العرض: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ۝٣٣ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ۝٣٤ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم: 33 - 37].

الخصائص الأسلوبيَّة للسورة:

أوَّلًا: تميَّزت السّورة الكريمة بقصر آياتها وتقارب فواصلها، وبأنَّ أغلب فواصلها اختُتمت بالألف المقصورة والممدودة، فقد ذُيِّلت بهما ستٌّ وخمسون فاصلة من فواصلها، ممّا أعطاها إيقاعًا خاصًّا بها، وبلاغة ورصانة وجزالة في ألفاظها، وجرسًا موسيقيًّا عذبًا في أصواتها.

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 88 - 89.

ثانيًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها زاخرة بأنساق تعبيريَّة خاصَّة بها، حتّى كأنَّ كلَّ تراكيبها كانت كذلك، ممّا يؤكِّد أنَّ لهذه السّورة نظمًا خاصًّا بها، وهي بهذا تشبه السّور اللّاتي سبقنها بخصوصيَّة تركيباتها وأنساقها التَّعبيريَّة، ومنها على سبيل التَّمثيل لا الحصر: آيات القسم في مطلعها.

ثالثًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حوت أبنية صرفيَّة لم تأتِ في غيرها من السّور مثل: ﴿مِرَّةٍ﴾، ﴿بِٱلْأُفُقِ﴾، ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾، ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾، ﴿نَزْلَةً﴾، ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، ﴿أَجِنَّةٌ﴾ [النجم: 32]، ﴿تُزَكُّوٓاْ﴾ [النجم: 32]، ﴿ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: 32]، ﴿أَضْحَكَ﴾ [النجم: 43]، ﴿وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: 43]، ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ [النجم: 53]، ﴿أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم: 53]، ﴿تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [النجم: 55]، ﴿أَزِفَتِ﴾ [النجم: 57]، ﴿ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ [النجم: 57]، ﴿كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النجم: 58] وغيرها.

رابعًا: تميَّزت السّورة الكريمة بأنَّها حوت ألفاظًا فريدة لم ترد في غيرها من السّور: ﴿قَابَ﴾، ﴿قَوْسَيْنِ﴾، ﴿سِدْرَةِ﴾؛ إذ وردت مرَّتين، ﴿ٱللَّٰتَ﴾، ﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾، ﴿وَمَنَوٰةَ﴾، ﴿ضِيزَىٰٓ﴾، ﴿مَبْلَغُهُم﴾ [النجم: 30]، ﴿وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ [النجم: 34]، ﴿وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [النجم: 48]، ﴿ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [النجم: 49]، ﴿سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النجم: 61].

مناسبةُ السّورة لما قبلها:

إنَّ وجوه ارتباط السّورتَيْن كثيرة جدًّا، منها:

أوَّلًا: كلتا السّورتَيْن استُهلَّتا بالقسم بمقدَّسات معظَّمة، وجواب قسم الطّور كان على وقوع العذاب، الَّذي بيَّنت سورة النَّجم أنَّ النَّبيَّ ﷺ في قسَمِها أنَّه لا ينطق فيه عن الهوى بل هو وحيٌ مُقرَّرٌ من الله.

سورةُ النَّجم متَّصلة تمامًا بسورة الطّور مضمونًا وأسلوبًا

ثانيًا: إنَّ التُّهم الَّتي وُجِّهت للنَّبيِّ ﷺ هناك من الشِّعر، والافتراء، والكهانة، والجنون، جاءت هذه السّورة الكريمة لتنفيها عنه، فهو لا ينطق عن الهوى، وليس بضالٍّ أو غويٍّ.

ثالثًا: اشتركت السّورتان في ذكر بعض آيات اللّه في الأنفس والآفاق، واشتركتا كذلك في الحديث عن جزاء المتَّقين والمحسنين، فضلًا عن جزاء المكذِّبين.

رابعًا: إنَّ سورة الطّور خُتِمت بقوله: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾ [الطور: 49]، وافتُتحت النَّجم بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾.

خامسًا: ذُكِرَت في الطّور ذرّيَّة المؤمنين، وأنَّهم تبعٌ لآبائهم، وفي النَّجم ذُكرت ذرّيَّة اليهود في آية: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: 32][1].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 41، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 92 - 93.

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: 1 - 3]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الآيات الكونيَّة دليلٌ على صِدق النَّبيِّ ﷺ في رسالته

أوَّلُ هذه السّورة مناسبٌ لآخر سورةِ الطّور لفظًا ومعنًى، أمّا اللَّفظُ؛ فلأنَّ ختمَ الطّور بالنَّجم، وافتتاحَ هذه بالنَّجم مع واو القسم، وأمّا المعنى؛ لَمّا قال اللّه تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝٤٩﴾ [الطور: 49]؛ ختمَ بذكر النُّجوم وإدبارها كآيةٍ من آياتِ اللّه الكونيَّة؛ افتتحَ سورة النَّجم بالقسم بالنَّجم إذا هوى؛ لتأكيدِ صدقِ النَّبيِّ ﷺ في رسالته، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾[1].

افتتاح القسم بالنُّجوم حثٌّ على الاهتداء بهديه واتِّباع أثره

ولَمّا خُتِمَتِ الطّورُ بأمره ﷺ بالتَّسبيح والتَّحميد، فكان فاعلًا لا محالة، وذاك بعد تقسيمهم القولَ في النَّبيِّ ﷺ بأنَّه كاهنٌ وساحر ومجنون، وكان لذلك تعلُّق بالشَّياطين، وكانتِ الشَّياطين مباينةً للقرآن بختلها وبمنعها بالرُّجوم من النُّجوم، افتُتحتْ هذه بالقسم بالنُّجوم للحثِّ على الاهتداء بهديه والاستدلالِ بأدلَّته واتِّباع أثره، فقال: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾: معنى النَّجم مُتعدِّدٌ، فيقعُ على الثُّريَّا، وعلى منازلِ القمرِ، وعلى كلِّ الكواكبِ أيضًا، فهي تُسمّى نجمًا[3]، والأصلُ في معنى النَّجم هو الطُّلوعُ والظُّهورُ، فنجمَ الشَّيءُ بمعنى: طَلَعَ[4]، و﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾: الكَوكَبُ، أي: الجُرمُ الَّذي يَبدو للنّاظرين

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 231.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 41.
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نجم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نجم).

لامعًا في جَوِّ السَّماءِ لَيْلًا[1]، ويحتملُ أن يكون معنى النَّجم في الآية: الثُّريّا، أو النَّجم من نجوم القرآن[2].

2) ﴿هَوَىٰ﴾: أصلُ (هوي) يَدُلُّ على خُلوٍّ، وسقوط، أَصْلُهُ الهَواءُ بَيْنَ الأرضِ والسَّماءِ، سُمّيَ لِخُلُوِّه، ويُقالُ: هَوَى الشَّيءُ يَهوي: سَقَطَ، وهاوية: جَهَنَّمُ؛ لأنَّ الكافِرَ يَهوي فيها، ويَقولونَ: الهَوِيُّ: ذَهابٌ في انحِدارٍ، والهويُّ في الارتِفاعِ، وسُمّيَ هَوى النَّفْسِ بذلِكَ؛ لأنَّه يَهْوي بصاحِبِه في الدُّنيا إلى كُلِّ داهيَةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويَةِ[3]، ومعنى ﴿هَوَىٰ﴾: سقطَ من مكانه إلى مكانٍ آخر، أو نزل[4].

3) ﴿صَاحِبُكُمْ﴾: أصلُ (صحب) يدُلُّ على مُقارنةِ شيءٍ ومُقاربته، وكلُّ شيءٍ لازمَ شيئًا؛ فقد استصحبه[5]، فالصّاحِبُ هو المُلازِمُ إنسانًا كان أو حيوانًا، أو مَكانًا، أو زَمانًا، ولا فرقَ بينَ أن تكونَ مُصاحَبَتُهُ بالبدنِ - وهو الأصلُ والأكثَرُ - أو بالعنايَةِ والهِمَّةِ"[6]، والمراد بصاحبكم هنا: محمَّد ﷺ[7].

4) ﴿غَوَىٰ﴾: أصلُ (غوي) يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ وإظلامِ الأَمْرِ[8]، والغوايةُ: الانجذابُ إلى شيءٍ فاسد[9]، والغَوايةُ: الضَّلالُ واتِّباعُ الهوى والانهماكُ في الباطل، وخلافُهُ: الرُّشد[10]، والغَيُّ: جهْلٌ من اعتقاد فاسد[11]، والغاوي: "هوَ العالِمُ بالحَقِّ العادِلُ عَنهُ قَصْدًا إلَى غَيرِهِ"[12]، والمقصودُ بقوله: ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ ما اتَّبع هوًى، وما اعتقدَ باطلًا أبدًا، والمرادُ نفْيُ ما ينسبون للنَّبيِّ ﷺ[13].

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 89.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 495، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة: (هوى).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 495، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 89.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صحب).
(6) الرّاغب، المفردات: (صحب).
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 497، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(9) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غوي).
(10) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(11) الراغب، المفردات: (غوي).
(12) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 443.
(13) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 497، والماوردي، النكت والعيون: 5/ 390، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

القسمُ توكيدٌ على صدقِ صاحبِ الرِّسالة، وأنَّه لا ينطق عن الهوى

افتتَحَ اللّهُ تعالى هذه السّورةَ بهذا القَسَمِ العظيمِ، بالقسَمِ بالنَّجْمِ إذا سَقَطَ، على أنَّه ما حادَ رسولُ اللّهِ محمَّدٌ ﷺ عن الحَقِّ - يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ - وما كان غاويًا مُتَّبِعًا لِهَواه، وما يَصدُرُ كَلامُه ﷺ عن هَوًى في نَفْسِه؛ فما نُطْقُهُ في الدّينِ إلّا وحْيٌ يوحيه اللّهُ إليه ﷺ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ﴾:

قسمٌ بمخلوقٍ من مخلوقاتِ اللّه، وهو النَّجم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ للقسم و﴿ٱلنَّجۡمِ﴾ مجرور بالواو، والجار والمجرور متعلّقان بفعل محذوف، تقديره: أقسمُ بالنَّجم؛ إذا هوى[2]، أو أقسمُ بربِّ النَّجم، والأظهرُ القسم بالنَّجم، وقد استعملَ الواو؛ لأنَّ القسمَ هنا بالنَّجم، والواو أنسبُ للقسم بمخلوقات اللّه؛ إذ التّاءُ تُستخدمُ في القسم باللّه[3].

دلالةُ حذف فعل القسم:

حَذْفُ فعلِ القسم اكتفاءً بالواو الدّالَّةِ عليه إيجازٌ معجزٌ

حُذِفَ فعلُ القسم في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، فلم يقل: (أقسمُ بالنَّجم إذا هوى)؛ اختصارًا واكتفاءً بالواو الدالَّة عليه، وهذا من الإيجاز المعجز، وهو من بلاغةِ القرآن.

دلالةُ تعريف لفظ (النَّجْمِ):

نجوم السَّماء دليلٌ على الاهتداء.

تَعريفُ (النَّجْم) باللّامِ يَجوزُ أن يكونَ للجِنسِ، والمقصودُ نجومُ السَّماء الَّتي هي ثابتةٌ فيها للاهتداء، أو النَّجم المنقضَّة فيها الَّتي هي رجومٌ للشَّياطين، أو نجومُ القرآن، أو أن يكونَ تَعريفَ العَهْد، وأشهَرُ النُّجوم بإطلاقِ اسم النَّجم عليه: الثُّريّا[4]؛ لأنَّهم كانوا يوقِّتونَ بأزمانِ طُلوعِها مَواقيتَ الفُصولِ ونُضْجَ الثِّمارِ، وقيل:

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 45.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 345.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 232.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 233، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 154.

النَّجْمُ: الشِّعْرى اليَمانيَّةُ، وهي العَبورُ، وكانتْ مُعظَّمةً عندَ العرَبِ، وعبَدَتْها خُزاعةُ[1].

النَّجمُ ثابتٌ قليلُ التَّغيُّر والواحدُ من النُّجوم دائمٌ زمانًا ودهرًا

مناسبةُ القسم بـ(النَّجْمِ) مفردًا دون غيره:

قولُه تعالَى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسَمَ اللّهُ تعالى بالنَّجم؛ لِما في خلْقِه مِن الدَّلالةِ على عَظيمِ قُدْرةِ اللّهِ تعالَى[2]، ولِما في الإقسامِ بالنَّجْمِ إذا هَوى - على نَزاهتِه ﷺ عن شائبةِ الضَّلالِ والغَوايةِ - مِن البَراعةِ البَديعةِ وحُسْنِ المَوقعِ ما لا غايةَ وراءَه؛ لأنَّ النَّجْمَ شأْنُه أن يَهتديَ بِهِ السّاري إلى مَسالكِ الدُّنيا، كأنَّه قيل: والنَّجْمِ الَّذي يَهتدي به السّابلةُ إلى سَواءِ السَّبيلِ[3].

وقد جاء المُقسَمُ به مفردًا لا جمعًا كالقسم مثلًا بـ(الذّاريات المرسلات والنّازعات)، فلم يقل: (والنُّجوم)؛ لأنَّها حالَّةٌ في مكانها، وحالُها ليس كحالِ الرّياحِ الذّاريات وحالِ المرسلات، الَّتي هي متبدِّلةٌ بأفرادها مستمرَّةٌ بأنواعها، والمقصودُ منها لا يحصلُ إلّا بالتَّبدُّل والتَّغيُّر، ولذا عبَّر فيها بالجمع؛ إشارةً إلى النَّوعِ المستمرِّ لا الفردِ المعيَّن المستقرِّ، وأمّا النَّجمُ؛ فهو ثابتٌ قليلُ التَّغيُّر، والواحدُ من النُّجوم دائمٌ زمانًا ودهرًا[4]، وحتّى بكونها رجومًا للشَّياطين فبما يخرجُ منها من شُهب، بأن ينفصلَ عنها شهابٌ قبسٌ يؤخذُ من نار، فيقتلَ الجنيَّ، أو يخبله؛ ولأنَّ الكواكبَ لا تزولُ عن أماكنها؛ لأنَّها قارَّةٌ في الفلك على حالها[5].

سقوطٌ يجرحُ ألوهيَّةَ ما عُبِدَ من النُّجوم من دون الله

سرُّ تقييد القسم بالنَّجم بوقت غروبه:

تقييدُ القَسم بالنَّجم بوقتِ غروبه بقوله: ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾؛ لإشعارِ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 233، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 154، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 89.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 90.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 154.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 200.
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 512.

غروب ذلك المخلوق العظيم بعد أوجِهِ في شرفِ الارتفاع في الأفق على أنَّه تسخيرٌ لقدرةِ اللّه تعالى، ولذلك قال إبراهيم لَمّا أفلَ النَّجم: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾ [الأنعام: 76][1]، ولأنَّ الاهتداءَ بالنَّجم، وهو مائلٌ إلى المغرب أكثر؛ لأنَّه يهدي في الطَّريقين الدُّنيويِّ والدّينيِّ، أمّا الدُّنيويُّ؛ فلأنَّ النَّجمَ إذا زالَ؛ تبيَّنَ بزواله جانبُ المغرب من المشرق والجنوب من الشَّمال، بخلاف كونه في وسطِ السَّماء[2]، وأمّا الدّينيُّ؛ فلأنَّ اللّهَ لَمّا أقسمَ بالنَّجم؛ شرَّفه، وعظَّمه، وكان من المشركين من يعبده، فقرنَ بتعظيمه وصفًا يدلُّ على أنَّه لم يبلغْ درجةَ العبادة، فإنَّه هاوٍ آفلٌ[3].

دلالة ﴿إِذَا﴾:

مِن أعظمِ أحوالِ النَّجم الدّالَّةِ على قدرةِ خالقه هو حالُ هويّه

الأصلُ أنَّ (إذا) ظرفٌ لِما يُستَقبلُ من الزَّمن، ولكنَّه في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ قد انسلخَ عنه معنى الاستقبال، وصارَ اسمَ زمانٍ للوقت المجرَّد[4]، في محلِّ جرٍّ بحرف القسم؛ لأنَّ فعلَ الحال - وهو فعل القسم (أقسم) - لا يعملُ في المستقبل، أي: صار المعنى: أقسمُ بالنَّجم وقتَ هويّه، وعلى هذا فالوجهُ في إعراب ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ أن يكون بدلَ اشتمالٍ من النَّجم؛ لأنَّ المرادَ من النَّجم أحوالُه الدالَّةُ على قدرةِ خالقه ومصرفه، ومِن أعظمِ أحواله حالُ هويّه[5].

سرُّ إيثار الفعل ﴿هَوَىٰ﴾ مادّة وصيغة:

الهويُّ بشكلٍ سريع في مكانٍ خالٍ يناسبُ حركةَ الشُّهب عند سقوطها

عبَّر النَّظم الحكيمُ بلفظِ الهويِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ دون غيره من الألفاظ كالسُّقوط مثلًا؛ لاتِّساع دلالةِ الهويِّ ومناسبةِ هذه المعاني للسّياق؛ فلفظُ هوى في أصله يَدُلُّ على خُلوٍّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 90.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 154.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 233.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 154.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 90.

وسقوط[1]، ممّا يُشْعِرُ بالحركةِ السَّريعة والسُّقوطِ السَّريع المفاجئ من علوٍّ إلى سفلٍ في مكانٍ خالٍ؛ انجذابًا إلى القاع أو الأرض حيثُ لا مستقَرَّ دونها[2]، ومن معاني هوى أيضًا هلكَ، ونزلَ، وذهب[3]، وهذه المعاني تتناسبُ مع حركة النُّجوم (الشُّهب) عند سقوطها، ومعنى نزلَ يتناسبُ أيضًا مع تفسيرِ معنى النَّجم بأنَّه القرآن، كما أنَّ بعضَ المفسِّرين من فسَّر "﴿هَوَىٰ﴾ بمعنى (سجدَ)؛ ليتناسبَ مع جلالِ الموقف في قصَّة المعراج، ويتناسبَ مع خواتيم سورة الطّور"[4].

ظـاهـرةُ هـويّ النَّجم حتميَّةٌ ثابتةٌ متحقِّقة

وإيثارُ الفعل بصيغةِ الماضي؛ ليتناسبَ مع السُّرعة في الحركة وانقضائها، ولأنَّه يشيرُ إلى حقيقةٍ كونيَّة حتميَّةٍ مشاهدة، والتَّعبيرُ بالماضي مع ﴿إِذَا﴾ يفيدُ أيضًا أنَّ هذه الظّاهرة حتميَّةٌ ثابتةٌ متحقَّقةٌ ومتكرِّرة، أي: (كلَّما هوى)، فتعطي معنًى أبلغَ مِن مجيء التَّعبير بصيغة المضارع.

براعةُ استعمال لفظ ﴿هَوَىٰ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

كـلـمةٌ بصيغة واحــدة تـوحـي بـمشـهـدٍ كـونيٍّ بصريٍّ حقيقيٍّ وغيبيٍّ معنويٍّ

حقيقةُ الهويِّ في اللُّغة: السُّقوطُ، وقد أُطْلِقَ هنا في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ مجازًا عَلى غُروبِ الكَوكَبِ، أي: استُعيرَ الهويُّ إلى اقتراب اختِفائِه، إذا فُسِّرَ النَّجمُ بنجمِ السَّماء أو الثُّريّا، أو مجازًا عن نزولِ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، أو الوحي نفسه من السَّماء؛ إذا فُسِّر النَّجمُ بجبريل أو القرآن، ولكن يَجوزُ أن يُرادَ بالهويِّ في الآية كذلك سُقوطُ الشِّهابِ حينَ يَلوحُ لِلنّاظِرِ أنَّهُ يَجري في أديمِ السَّماءِ، فهو هويٌّ حَقيقيٌّ، فيَكونُ قَدِ استُعمِلَ في حَقيقَتِه ومَجازِه[5]؛ ليدلَّ على اتِّساعِ الدَّلالة البيانيَّة والبراعةِ في استعمال كلمةٍ واحدة بصيغة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هوى).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هوي).
(3) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 638.
(4) فاضل السامرائي، لمسات بيانية: 11/ 150.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 91.

واحدة توحي بمشهدٍ كونيٍّ بصريٍّ (النَّجم الحقيقي)، ومشهدٍ غيبيّ معنويٍّ (نزول الوحي).

مناسبةُ القسم بـ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾:

حـــالُ نُـــزولِ الـــقـــرآن الاعتباريِّ كنُزولِ شَيءٍ مُنيرٍ إنارةً مَعنويَّةً نـازِلٍ مِن مَحلِّ رِفعةٍ مَعنويَّةٍ

لَمَا كان الكلامُ مَسوقًا؛ لإثباتِ أنَّ القُرآنَ وحْيٌ من اللّهِ مُنزَّلٌ مِن السَّماءِ، فشابَهَ حالُ نُزولِه الاعتباريِّ حالَ النَّجْمِ في حالةِ هويِّه مُشابَهَةً تَمثيليَّةً حاصلةً مِن نُزولِ شَيءٍ مُنيرٍ إنارةً مَعنويَّةً نازِلٍ مِن مَحلِّ رِفعةٍ مَعنويَّةٍ، شُبِّهَ بحالةِ نُزولِ نَجْمٍ مِن أعلى الأُفُقِ إلى أسْفلِه، وهو مِن تمثيلِ المعقولِ بالمحسوسِ، أو الإشارةُ إلى مُشابَهةِ حالةِ نُزولِ جبريلَ مِن السَّماواتِ بحالةِ نُزولِ النَّجْمِ مِن أعلى مَكانِه إلى أسفَلِه، أو بانقِضاضِ الشِّهابِ؛ تَشبيهُ مَحسوسٍ بمَحسوسٍ، وفيه مناسبةٌ أيضًا لجواب القسم ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾، "فالنَّجمُ علامةٌ في السَّماء تهدي السّائر، وتدلُّه، فإذا سقطَ؛ امتنعتِ الهداية، وامتنعتِ الفائدة، لكنَّ محمَّدًا ﷺ ما ضَلَّ وما غوى... وكأنَّه سبحانه يقول: وإن سقطَ النَّجمُ الَّذي يهدي السّائرين، فنجمُ محمَّد ﷺ لا يسقطُ أبدًا، نجمُ السَّماء يهدي للمادّيّات، وهي موقوتةٌ، ونجمُ محمَّد يهدي للقيم وللمعنويّات وهي باقيةٌ دائمةٌ"[1].

بلاغةُ الاحتراسِ في لفظ ﴿هَوَىٰ﴾:

القسَمُ بالنَّجم دلالـــةٌ عـلى القُدرةِ الإلهيَّةِ مـع الاحــتراسِ عــن اعـتـقـادِ عِبادتِها

في ذِكْرِ ﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ احتراسٌ مِن أن يَتوهَّمَ المشركون أنَّ في القسَمِ بالنَّجْمِ إقرارًا لِعبادةِ نَجْمِ الشِّعْرى؛ فإنَّ حالةَ الغُروبِ المُعبَّرَ عنها بالهويِّ حالةُ انخفاضٍ ومَغيبٍ في تَخيُّلِ الرّائي؛ لأنَّهم يَعُدّون طُلوعَ النَّجمِ أوْجًا لشَرَفِه، ويَعُدّون غُروبَه حَضيضًا، وتلك اعتباراتٌ لهم تَخيُّليَّةٌ شائعةٌ بيْنَهم، فمِن النّافعِ مَوعظةُ النّاسِ بذلك؛ لأنَّه كافٍ في إقناعِهم وُصولًا إلى الحقِّ، فيَكونُ قولُه: إذا هَوَى إشعارًا بأنَّ النُّجومَ كلَّها مُسَخَّرةٌ لقُدْرةِ اللّهِ تعالى، مُسيَّرةٌ في نِظامٍ أوجَدَها عليه، ولا

(1) الشعراوي، خواطر الشعراوي، ص: 14671.

اختيارَ لها، فليست أهلًا لأن تُعبَدَ، فحصَلَ المَقصودُ مِن القسَم بما فيها مِن الدَّلالةِ على القُدرةِ الإلهيَّةِ، مع الاحتراسِ عن اعتقادِ عِبادتِها[1].

وجه إيثار ﴿مَا﴾ النّافيَة:

تأكيدُ كمالِ عِلمِ النَّبيِّ وعمله ورشده، وأنَّه على الحقِّ المبين

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ ﴿مَا﴾ دون غيرها من أدواتِ النَّفي؛ لقوَّةِ النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكدُ في النَّفي، فهي تقعُ جوابًا للقسم، كما في هذه الآية، فإنَّ البيانَ القرآنيَّ لَمّا أقسمَ بهذا القسم الجليل؛ أجابه بقوله معبِّرًا بالماضي نفيًا[2]، وقد دلَّ هذا النَّفي بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ على كمالِ عِلمِه ومَعرفتِه، وأنَّه على الحَقِّ المُبِينِ، وفي قوله: ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ على كمالِ رُشدِه، وأنَّه أبَرُّ العالَمِينَ، فهو الكامِلُ في عِلمِه وفي عَمَلِه[3]، ففي ضِمنِ النَّفيِ الشَّهادةُ له بأنَّه على الهُدى والرَّشادِ[4].

سرُّ إيثار فعل (الضلال) ماضيًا:

الضَّلالُ لم يحدثْ للنَّبيِّ في أيِّ وقتٍ من الأوقات قطُّ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بصيغة الماضي المنفيِّ في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، ولم يقل: (يضلُّ صاحبكم)؛ لإفادةِ القطع والجزم في نفيِ الضَّلالِ عنه ﷺ، فالضَّلالُ لم يحدث في أيِّ وقتٍ من الأوقات قطُّ، لا في الماضي ولا الحاضر، وهذا النَّفي لما كان الكفّارُ قد رموا به رسولَ اللّه ﷺ، ولينفي عنه ما قبل النُّبوَّة، فيكون ما بعدها بطريق الأولى، أي: إنَّه ما عملَ الضّالين يومًا من الأيّام، فمتى تقوَّلَ القرآنَ عنده، ولا علمَ فيه عملَ المجانين ولا غيرهم ما رموه به[5]، فما ضلَّ ﷺ حين اعتزلكم، وما تعبدون في صغره، وما غوى حين اختلى بنفسه، ورأى في منامه ما رأى[6].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 91.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 42.
(3) ابن القيم، مفتاح دار السعادة: 1/ 40.
(4) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص: 245.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 42.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 234.

بلاغةُ المجاز في لفظ (الضَّلال):

ثباتُ النَّبيِّ ﷺ على الهداية حصلَ بصورتيه الحسّيَّة والبصريّة

الضَّلالُ: عَدَمُ الاهتِداءِ إلَى الطَّريقِ الموصِلِ إلى المَقصودِ، وهو في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ مَجازٌ في سُلوكِ ما يُنافي الحَقَّ[1]، وهو مجازٌ لغويٌّ؛ إذ شُبِّهَ اتِّباعُ طريق الهدايةِ بالمشي في طريقٍ مستقيم، وتركُه بالضَّلال، فاستُعمِل ﴿ضَلَّ﴾ مجازًا عن الانحراف الفكريِّ أو العقديِّ، ومن بلاغةِ التَّعبير به دون لفظ (انحرف أو أخطأ) الإيحاءُ بثباتِ النَّبيِّ ﷺ على الهداية، بصورةٍ حسّيَّةٍ بصريَّة لطريقٍ ووجهةٍ، فكأنَّ النَّبيَّ ﷺ يسيرُ على صراط واضح بيِّن، لا يتوهُ فيه، ولا يزيغُ عنه.

دلالةُ لفظ الصُّحبة وإضافته إلى ضمير الخطاب:

معرفةُ الكافرين بتفاصيلِ أحوالِ النَّبيِّ ﷺ الشَّريفةِ تعريضٌ ببهتانهم

المُرادُ بالصّاحِبِ في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾ الَّذي لَهُ مُلابَساتٌ وأحوالٌ مَعَ المُضافِ إلَيهِ[2]، وقد آثرَ البيانُ الحكيم التَّعبيرَ بوصف الصُّحبة، وأضافها إلى ضميرِ الخطاب، ولم يقل: ما ضَلَّ محمَّدٌ، أو النَّبيُّ أو الرَّسول أو عبدي؛ للإيذانِ بوُقوفِهم على تَفاصيلِ أحوالِه الشَّريفةِ، وإحاطتِهم خُبْرًا ببراءته ﷺ ممّا نُفيَ عنه بالكُلّيَّةِ، واتِّصافِه ﷺ بغايةِ الهُدَى والرَّشادِ، فإنَّ طولَ صُحبتِهم له ﷺ، ومُشاهدَتَهم لَمحاسنِ شُؤونه العظيمة، مُقْتضيةٌ لذلكَ حتْمًا[3]، ولتأكيد إقامةِ الحُجَّةِ عليهم بأنَّه صاحِبُهم، وهم أعلَمُ الخَلقِ به وبحالِه، وقد نَبَّه على هذا المعنى بقولِه تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ﴾ [المؤمنون: 69][4]، وللتَّرغيب لهم بالصُّحبةِ والإقبالِ بهم إليه، والتَّقبيح عليهم اتِّهامه في إنذاره، وهم يعرفون طيبَ أعرافه، وطهارة شمائله وأخلاقه، والتَّعريض بأنَّهم أهلُ بُهتانٍ؛ إذ هو بيْنَهم

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 92.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 92.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 154.
(4) ابن القيم، التبيان في أقسام القرآن، ص: 246.

في بلَدٍ لا تَتعذَّرُ فيه إحاطةُ عِلمِ أهلِه بحالِ واحدٍ مُعيَّنٍ مَقصودٍ مِن بيْنِهم[1]، فإيرادُه ﷺ بعُنوانِ صاحبيَّتِه ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، وفاق مقتضَى الصُّحبةِ ومعرفتهم لأحواله أن يُصَدِّقوه، ويَنصروه، لا أن يكونوا أعداءً له[2].

وجهُ العطف بالواو في ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾:

بلغَ النَّبيُّ ﷺ غايةَ الكمال في عِلمِه ومعرفته وفي رشده

في العطفِ بالواو جمعَ البيانُ القرآنيُّ للنَّبيِّ ﷺ أصلينِ، هما غايةُ كَمالِ العَبدِ، وبهما سعادتُه وفَلاحُه، وهما: نفيُ الضَّلال المنافي للهُدى، ونفيُ الغَيِّ المنافي للرَّشادِ، فالهُدى في عِلمِه، والرَّشادُ في عَمَلِه[3]، وإذا انتفَى عنه الجهلُ، وانتفَى عنه الغَيُّ؛ تبيَّنَ أنَّ منهجَه ﷺ عِلْمٌ ورُشْدٌ[4]، ولأنَّه لَمّا كان الهدى قد يصحبهُ ميلٌ لا يقرِّبُ الموصولَ إلى القصد، وإن حَصَلَ به نوعُ خللٍ في القرب أو نحوه؛ فقد يكون القصدُ غيرَ صالح - والنَّبيُّ منزَّهٌ عن ذلك - بيَّن أنَّ النَّبيَّ ﷺ ما مالَ أدنى ميلٍ، ولا كان مقصوده ممّا يسوء، فإنَّه محروسٌ من أسبابه الَّتي هي غوايةُ الشَّياطين وغيرها[5]، وحتى لو ثبتَ اتِّحادُ معنى لفظَي: الضَّلال والغواية فإنَّ العطفَ لاختلافِ اللَّفظ، ويكون المقصودُ التَّأكيدَ باللَّفظ المخالف، مع اتِّحاد المعنى[6].

سرُّ تكرار (ما) النافية:

تأكيدُ نفيِ الضَّلالةِ والغوايةِ معًا أو كلٍّ منهما على حدة

كرّرَ البيانُ الحكيمُ حرفَ النَّفي (ما) مع المعطوفِ على المَنفيِّ قبلَه، في قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، ولم يقل: (ما ضلَّ صاحبكم وغوى)؛ تأكيدًا لمعنى النَّفي، حتى لا يُتصوَّرَ أنَّ النَّفيَ مقتصرٌ على الجمع بينها فقط، وإنَّما هو نفيٌ للجمع بينها والإفراد،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 92.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الحجرات - الحديد، ص: 205.
(3) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 538.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة الحجرات - الحديد، ص: 205.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 42.
(6) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 538.

أي: نفيُ الضَّلالة والغواية والنُّطقِ عن الهوى معًا، أو كلٌّ منهما على حدة، أمّا القول: ما ضلَّ صاحبكم وما غوى؛ فهي تفيدُ النَّفيَ بالجمع بين الصِّفتين، وأبطلَ بذلك قولهم في النَّبيِّ ﷺ بأنَّه مَجنونٌ، وساحِرٌ، وشاعِرٌ، وقالوا في القُرآنِ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ٧﴾ [ص: 7]، فالجنونُ مِن الضَّلالِ؛ لأنَّ المَجنونَ لا يَهْتدي إلى وسائلِ الصَّوابِ، والكذِبُ والسِّحرُ ضَلالٌ وغَوايةٌ، والشِّعرُ المُتعارَفُ بينَهم غَوايةٌ[1].

سرُّ تقديم نفي الضَّلال على الغواية:

الـتَّرقّي في تنزيهِ الرَّسول ﷺ؛ فلا عنده الضَّلالُ الكبير ولا الغوايةُ البسيطة

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ نفيَ الضَّلال على نفيِ الغواية، ولم يقل: (ما غوى صاحبكم وما ضلَّ)؛ ترقّيًا في تنزيهِ الرَّسول؛ فلا عنده الضَّلالُ الكبير ولا الغوايةُ البسيطة؛ لأنَّ الضَّلالَ أعمُّ؛ إذ هو ضدُّ الاهتداءِ إلى الطَّريق الموصل، وأمّا الغوايةُ؛ فهي فسادُ الرَّأي وتعلُّقه بالباطل، وكذلك في التَّقديم مراعاةٌ للفاصلة القرآنيَّة.

وجهُ العطف بالواو في ﴿وَمَا يَنطِقُ﴾:

بتمام إبطالِ قَولِ الكافرين في النَّبيِّ وصْفٌ لكَمالِ ذاتِه صلوات ربّي عليه

قولُه تعالَى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ عطْفٌ على جَوابِ القَسَم - وهو قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾ - وهذا وصْفُ كَمالٍ لِذاتِ النَّبيِّ ﷺ، وبه تمَّ إبطالُ قَوْلِ الكافرين فيه، فحَسُنَ الوَقْفُ عَلَيه، والكلامُ الَّذي يَنطِقُ بِهِ هو القُرآنُ؛ لأنَّ المشركين قالوا فيهِ: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ﴾ [الفرقان: 4]، والمعنى: وما يَصدُرُ نُطقُه بالقُرآنِ - على قول - عن هَواهُ ورأيِه أصلًا؛ فإنَّ المرادَ استِمرارُ نفْيِ النُّطقِ عن الهوَى، لا نفْيُ استِمرارِ النُّطقِ عنه[2].

دلالةُ نفي الفعل ﴿يَنطِقُ﴾ مضارعًا:

استمرارُ نفي نطقِ النَّبيِّ ﷺ عن الهوى

آثرَ البيانُ القرآنيُّ نفيَ الفعل المضارع ﴿يَنطِقُ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ برغم أنَّ نفيَ الفعلين السّابقين بالماضي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 92 - 93.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 155، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 93.

(﴿ضَلَّ﴾، ﴿غَوَىٰ﴾)؛ ليفيدَ استمرارَ نفي جِنسِ ما يَنطِقُ به عن الاتِّصافِ بالصُّدورِ عن هوًى، سواءٌ كان القرآنَ أو غيرَه مِن الإرشادِ النَّبويِّ بالتَّعليمِ والخَطابةِ، والمَوعظةِ والحِكمةِ، والقُرآن هو المَقصودُ الأوَّل؛ لأنَّه سَببُ هذا الرَّدِّ عليهم - النُّطق عن الهوى - ولو قال: (ما نطق عن الهوى)؛ لاحتملَ المعنى أنَّه نفى عنه النُّطقَ عن الهوى في الماضي فقط، ولم ينفِه عنه فيما يُستَقبلُ من نُطقه(1).

والتَّعبيرُ بصيغة المضارعة يُحقِّقُ أيضًا حكمةَ التَّرتيب بنفي الفعلين السّابقين، وهما الضَّلالُ والغوايةُ بصيغة الماضي، وبنفي فعلِ النُّطق عن الهوى بصيغة المستقبل؛ ليكون المعنى: ما ضلَّ حين اعتزلكم، وما تعبدون في صغره، وما غوى حين اختلى بنفسه، ورأى في منامه ما رأى، وما ينطقُ عن الهوى الآن حيثُ أُرسِل إليكم، وجُعِل رسولًا شاهدًا عليكم، فلم يكن أوَّلًا ضالًّا ولا غاويًا، وصار الآن منقذًا من الضَّلالة ومرشدًا وهاديًا(2).

معنى ﴿عَنِ﴾ في قوله: ﴿عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾:

الـدّافـعُ لنطقِ النَّبيِّ ﷺ زكيٌّ صـادقٌ ونطقهُ صادقٌ أيضًا

يُعدّى النُّطقُ عادةً بالباء، كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾ [الجاثية: 29]، أمّا هنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾؛ فعدّي بـ﴿عَنِ﴾، ومعناها: لا يَصْدُرُ نُطْقُهُ عَنِ الهَوَى، يعني أنَّ الدافعَ للنُّطق ليس من هوًى، وهو بمنزلةِ تزكيةٍ للنَّفس القائلة؛ لأنَّ الإنسانَ قد ينطقُ بالحقِّ، لكن عن هوًى، كما في قولهم: (حقٌّ أُريدَ به باطل)، بأن يكونَ الدّافعُ هوى، (ناطق عن هوى)، وهكذا زكّى اللهُ تعالى رسولَه ﷺ بتزكيةِ الدّافع للقول، فالدّافعُ له زكيٌّ صادقٌ ونطقه صادقٌ أيضًا، وهناك من رأى أنَّها بمعنى الباء، وتكونُ متعلِّقة بمحذوف حال، والمعنى: وما ينطقُ بالهوى(3).

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 93.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 234.
(3) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 1186، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 346.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾:

نطقُ النَّبيِّ ﷺ منزَّهٌ عن كلِّ هوًى للنَّفسِ الأمّارةِ بالسّوء

لامُ تعريف ﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ في الآية عهديَّةٌ، معهودها ذهنيٌّ، والمرادُ بها هنا: النَّفسُ الأمّارة بالسوء، ولأنَّ القرآنَ لم يستعملِ الهوى إلّا في المواضعِ الَّذي يخالفُ المحبَّةَ، كما أنَّ في التَّعريف نفيًا لكلِّ أنواع هوى النَّفس ممّا يؤكّد أنَّ كلامه ﷺ وحيٌ من الله.

بلاغةُ الجناس غير التّامِّ بين ﴿هَوَىٰ﴾، و﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾:

دقَّةُ اختيارِ الألفاظ المتقاربةِ لفظًا وصوتًا، المتباينةِ معنًى

في قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ جناسٌ غيرُ تامٍّ بين لفظي ﴿هَوَىٰ﴾ و﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾، فاللَّفظانِ لهما الجذرُ اللُّغويُّ ذاته؛ إلا أنَّ لفظ ﴿هَوَىٰ﴾ أتى بصيغة الفعل، وهو بمعنى سقط، و﴿ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ بصيغة الاسم، وهو بمعنى الرَّغبة النَّفسيَّة والنَّفس الأمّارة بالسّوء، وهذا التَّشابهُ في اللَّفظ مع الاختلاف في المعنى يحدثُ تناسقًا موسيقيًّا، ويعطي جماليَّةً في السَّمعِ، ويحملُ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وضوحًا، ويساعدُ على ترسُّخهِ في الذِّهن، ويُظهرُ الإعجازَ القرآنيَّ في دقَّةِ اختيارِ الألفاظ المتقاربة لفظًا وصوتًا، المتباينةِ معنًى.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الهويّ والسُّقوط:

هويُّ النَّجمِ يكون بقوَّةٍ هائلة لا مجرَّد سقوط عادي

الهويُّ أخصُّ من السُّقوط، فالهويُّ سقوطٌ سريعٌ من علوٍّ إلى سفلٍ في مكانٍ خالٍ؛ انجذابًا إلى القاعِ أو الأرض؛ حيث لا مستقرَّ دونها، فأصلُ هوى يَدُلُّ على خُلوٍّ وسقوط[1]، ممّا يشيرُ إلى أنَّ الهوي يكون أقوى وأسرعَ وأعمقَ من السُّقوط، ويطلقُ الهوي على الانحدار وعلى الارتفاع، وأهواهُ: رَفَعَه في الهَواءِ، وأسقَطَه، وقد وردَ في القرآن بمعنى نزل، وبمعنى هلك، وبمعنى الذَّهاب[2]، في حين أنَّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هوي).
(2) ابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 638، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 361.

السُّقوطَ لفظٌ أعمٌّ؛ إذ يدلُّ على مجرَّدِ الوقوع من علوٍّ إلى سفلٍ[1]، وقد استعملَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿هَوَىٰ﴾ في الآية؛ كونه أدقَّ وأنسبَ مع لفظ النَّجم في الآية، فهويُّه يكونُ بقوَّةٍ وسرعة هائلة، لا مجرَّد سقوطٍ عاديٍّ، كما أنَّ لفظ ﴿هَوَىٰ﴾ - بمعنى (نزلَ) - أنسبُ من لفظ (سقط)؛ إذا ما فُسِّرَ النَّجم بالقرآن.

الضَّلال والغيّ:

مقام النَّبيِّ الكريم مبرَّأٌ من أن يكون بمظنَّة سوء، أو بموضع تهمة

الضَّلالُ أعمُّ من الغَيِّ، ويكون في مقابلةِ الهُدى، والغيُّ في مقابلةِ الرُّشد، فالمراد من الضَّلال ألّا يجدَ السّالكُ إلى مقصده طريقًا أصلًا، والغوايةُ ألّا يكون له طريقٌ إلى المقصدِ مستقيم[2]، فالضَّلالُ هو العدولُ عن الطَّريق المستقيم، ويُقال لكلِّ عدولٍ عن المنهج وعن الحَقِّ، عمدًا كان أو سهوًا، يسيرًا كان أو كثيرًا؛ إذ أصلُه يدلُّ على ضياعِ الشَّيءِ وذهابُهُ في غيرِ حقِّهِ[3]، والضَّلالُ غالبًا ما يكون عن جهل، في حين أنَّ الغيَّ غالبًا ما يكون عن اتِّباع الهوى، فالغيُّ أشدُّ من الضَّلال؛ إذ هو مقترنٌ بالهوى والفساد، فالغاوي: "هوَ العالِمُ بالحَقِّ العادِلُ عَنهُ قَصدًا إلَى غَيرِهِ"[4]، والغيُّ: ضلالٌ وخيبة، وانجذابٌ إلى شيءٍ فاسد[5]، واتِّباعُ الهوى، والانهماكُ في الباطل[6]، وقد جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين الضَّلالِ والغيِّ؛ لينفيَ عن النَّبيِّ ﷺ كلَّ ما ينسبُ إليه من الضَّلالِ أو الجنون، واتِّباعِ الباطل؛ سواءٌ كان بقصدٍ أو بغير قصد، أي: تبرئةٌ لمقام النَّبيِّ الكريم أن يكون بمظنَّة سوء، أو بموضع تهمة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سقط).
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 234.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ضل)، والزبيدي، تاج العروس: (ضلل).
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 443.
(5) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غوي).
(6) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾ [النجم: 4 - 10]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد النَّفي الَّذي يحملُ التَّنزيهَ أتى بالحصر الَّذي يدفعُ الإنكار

لمّا أكَّدَ سبحانه أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يجاوزْ نطقُه فمَه في وقتٍ من الأوقات لا في الحال ولا في الاستقبال، نطقًا ناشئًا عن الهوى، وأنَّه لم يتقوَّلِ القرآنَ من عند نفسه؛ تنزيهًا له عمّا نُسِبَ إليه، فكان ذلك مَظِنَّة السُّؤال من الكافرين عن أصلِ ما تقوَّله بحسبِ زعمهم، أجابَ سبحانه بالحصر الَّذي يدفعُ إنكارهم، فقال: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحۡيٞ﴾ - ﴿يُوحَىٰ﴾: الوحيُ: إلقاءُ عِلْمٍ في إخفاءٍ أو غَيرِه إلى غَيرِكَ، والوحيُ: أصلُه الإشارةُ السَّريعة، ويقالُ للكتابة: وحيٌ؛ إذ هي إشارةٌ ما، وقد يكونُ الوحيُ بالإلهام، كما يكونُ بضربٍ منَ الكلام، وقد يقالُ ذلك للوساوس، والإيحاءُ: إيقاعُ المعنى في القلبِ بطريقة خفيَّة، وكلُّ ما في القرآن من التَّركيب هو من الوحي بأيٍّ مِن الطُّرقِ السّابقة، ومعنى ﴿وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾، أي: ما هذا القرآن إلّا وحيٌ يوْحيه اللّهُ إلى محمَّد ﷺ عن طريقِ جبريل[2].

2) ﴿ٱلۡقُوَىٰ﴾: جمعُ (قوَّة)، وأصلُها يَدُلُّ عَلى شِدَّةٍ وخِلافِ ضَعْفٍ، والقَويُّ: خِلافُ الضَّعيفِ، ورَجُلٌ شَديدُ القوَى، أي: شَديدُ أسرِ الخَلقِ[3]، والقوَّةُ تُستعمَلُ في مَعْنَى القُدرَة، نَحوُ قَوْلِه: ﴿خُذُواْ مَآ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 43.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 498، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قوي).

﴿ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة: 63]، وفي القُدرَةِ الإلَهيَّةِ، نَحوُ قَولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢١﴾ [المجادلة: 21][1]، ومعنى ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، أي: جبريلُ عليه السلام شديدُ الأسباب[2].

3) ﴿مِرَّةٖ﴾: من الإمرار، والمِرَّةُ: القوَّةُ والشِّدَّةُ والعقلُ، وشِدَّةُ الفَتْل، والمِرَّةُ: شِدَّةُ أَسْرِ الخَلْق، ومنه: فلانٌ ذو مِرَّةٍ، أي: قوَّة الخلقِ وشدَّته، كأنَّه محكمُ الفتل، ومعنى ﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ أي: ذو قوَّةٍ، وذو إحكام، وحصافة في عقلِه ورأيه، وصحَّةِ الجسمِ وسلامتِه مِنَ الآفاتِ والعاهاتِ، ويعني به جبريل خَلَقَهُ اللّٰه تعالَى قَويًّا ذا مِرَّة شَديدَة[3].

4) ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾: له معانٍ متعدِّدةٌ، ويُستَعملُ لازمًا، ومتعدّيًا بالحرف، فمِنَ الأوَّل قولُهم: استَوَى الشَّيءُ؛ إذا اعتدلَ في ذاته، واستوى الرَّجلُ؛ إذا انتهى شبابُهُ[4]، ومنهُ قول اللّٰه تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسۡتَوَىٰٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [القصص: 14]، ومِنَ الثّاني قولهم: استَوَى على الشَّيء؛ إذا علا عَلَيه، وارتفع[5]، ومعنى ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾ هنا، أي: سويٌّ، يعني: جبريلَ عليه السلام خَلَقَهُ اللّٰه قَويًّا سَويًّا معتدلًا[6]، ومعنى فاستوى: فاستقامَ، واعتدلَ بغايةِ ما يكون من قوَّته على أكملِ حالاته على صورتِه الحقيقيَّة الَّتي خلقهُ اللّٰهُ تعالى عليها، وقيل: استوى بقوَّته على ما جعلَ له من الأمر[7].

5) ﴿بِٱلۡأُفُقِ﴾: أصله يَدُلُّ على تَباعُدِ ما بَينَ أطرافِ الشَّيءِ واتِّساعِه، وعلى بُلوغِ النِّهايَة، ومن ذَلِكَ الآفاقُ: النَّواحي والأطرافُ، ولِلسَّماءِ آفاقٌ ولِلأرْضِ آفاقٌ، فأمّا آفاقُ السَّماءِ؛ فما انتَهَى إِلَيهِ البَصَرُ مِنها، مَعَ وجْهِ الأرضِ مِن جَميعِ نَواحيها، أي: منتهى ما تراهُ العينُ من الأرض، كأنَّما التقتْ عنده بالسَّماء، وأمّا آفاقُ الأرضِ؛ فأطرافُها مِن حَيثُ أحاطَتْ بكَ[8]، ومعنى ﴿بِٱلۡأُفُقِ﴾، أي: أفقُ السَّماء، وهو جانبٌ من جوانبها، وهي النِّهايةُ في العلوِّ والفضلِ من السَّماء[9].

(1) الراغب، المفردات: (قوي).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 498.
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (مرر)، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 499، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157.
(4) الجوهريّ، الصِّحاح، والراغب، المفردات: (سوا)، والزَّبيديّ، تاج العروس: (سوو).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوي).
(6) الخليل، العين، والزبيدي، تاج العروس: (مرّ).
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 45.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أفق).
(9) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 392، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 45.

6) ﴿دَنَا﴾: دَنا الشَّيءُ مِنَ الشَّيءِ دُنوًّا ودَناوَةً: قَرُبَ، ويُقالُ: دانَيتُ بينَ الأمرين؛ إذا كانَت منكَ مُقارَبةٌ بينَهُما[1]، والأصلُ في معناه كذلك، وهو القربُ والمقاربة[2]، والقربُ قد يكونُ بالزَّمانِ والمكانِ، وقد يكونُ مَعنويًّا أو بالحُكم[3]، ومعنى ﴿دَنَا﴾: اقتربَ.

7) ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾: أصْله يَدُلُّ على مُقارَبَةِ الشَّيءِ ومُداناتِه بسُهولَةٍ ورِفْقٍ، يُقالُ: أدلَيْتُ الدَّلْوَ، إذا أرْسَلْتَها في البِئرِ[4]، والتَّدلّي استرسالٌ مع تعلُّق كتدلّي الثَّمرة[5]، وتَدَلَّى: إذا قَرُبَ بَعدَ عُلُوٍ، وإذا تَواضَعَ، ومعنى قولِه تَعالَى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾: ثمَّ دَنا جِبْريلُ مِن محمَّدٍ ﷺ فتَدَلَّى، أي: زادَ في القُرْبِ[6].

8) ﴿قَابَ﴾: أصلُ القابِ: القَدْرُ، ويُقالُ: قابُ القوس: ما بَينَ المَقْبِضِ والسِّيَةِ - أي: طرفُ القوس - ولِكُلِّ قَوْسٍ قابانِ، يُقال: بَينهما قابُ قَوسٍ؛ كِنايَةً عَن القرب، ومعنى ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾، أي: طولُ قوسين[7]، أو مقدارُ قوسين، أي: مسافةُ قدرِ قوسين[8].

9) ﴿قَوْسَيْنِ﴾: أصلُ (قوس) يَدُلُّ على تَقديرِ شَيءٍ بشَيءٍ، فالقوسُ: الذِّراعُ، وسُمّيَتْ بذَلِكَ؛ لأنَّهُ يُقَدَّرُ بها المَذْروعُ[9]، والقَوسُ: آلَةٌ مِن عودِ نَبْعٍ، مُقَوَّسَةٌ يُشَدُّ بها وتَرٌ مِن جِلْدٍ، ويُرْمَى عَنها السِّهامُ والنِّشابُ، وهيَ في مِقدارِ الذِّراعِ عِندَ العَرَبِ[10]، والقوسان معروفان، وهما ما يُرمى عنهما، قيل: أرادَ بهما القريبين، وكأنَّهما أقصرُ شيءٍ من غيرهما، من قسيِّ النّاس، وقيل: هما الذِّراعان[11].

10) ﴿أَدْنَىٰ﴾: اسمُ تفضيل، من الدُّنوِّ، ومعناه القربُ، ويُقالُ: دانَيتُ بينَ الأمرين؛ إذا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (دنا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دنى)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دنو).
(3) الرّاغب، المفردات: (دنا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دلى).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157.
(6) الزبيدي، تاج العروس: (دلي).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قاب)، والمعجم الوسيط، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (قوب).
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 502، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 45.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوس).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 97.
(11) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قوس).

كانَتْ منك مُقارَبةٌ بينَهُما[1]، والأصلُ في معناه كذلك، وهو القربُ[2]، والقربُ قد يكونُ بالزَّمانِ والمكانِ، وقد يكونُ مَعنويًّا أو بالحُكمِ[3]، ومعنى ﴿أَدۡنَىٰ﴾: أقرب[4].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ صِدقِ النَّبيِّ ﷺ وقوَّةِ جبريل الَّذي علَّمه، وقرَّبه منه

يُبيِّنُ اللّهُ تعالى بأسلوبِ الحصر صِدقَ النَّبيِّ في رسالته وأمانته في تبليغها، فيقول: ما نُطْقُ النَّبيِّ ﷺ في الدّينِ إلّا وحْيٌ يوحيه اللّهُ إليه، وقد علَّمَ مُحمَّدًا ﷺ هذا القُرآنَ جِبريلُ عليه السلام الشَّديدُ القوَى، ذو الجِسمِ القَويِّ السّالمِ مِنَ النَّقصِ، الجَميلُ ظاهِرًا وباطِنًا، فارتَفَع جبريلُ، وعلا في السَّماءِ على صورتِه الحَقيقيَّةِ، وهو في ناحيةِ السَّماءِ العُليا، ثمَّ اقترَب جبريلُ من مُحمَّدٍ ﷺ وتدَلَّى إليه؛ ليوحيَ إليه ما شاء اللّهُ، فكان مِقدارُ قُربِ جبريلَ مِن مُحمَّدٍ ﷺ قَدْرَ قَوسَينِ، أو هو أقرَبُ، فأوحى جِبريلُ إلى عبدِ اللّهِ مُحمَّدٍ ﷺ ما أوحاه إليه مِنَ اللّهِ تعالى.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيِّ:

استئنافٌ يبيِّن أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا ينطقُ إلّا بالوحيِ عن الله

قولُه تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾[5]، الَّتي تستثيرُ سؤالًا لمن يسمعها، وهو: فبماذا ينطقُ؟ أعنِ الدَّليلِ أو الاجتهاد؟ فجاء الجوابُ: إنَّما ينطقُ عن اللّهِ بالوحي[6]، أي: بين الجملتين شبهُ كمال اتِّصال.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (دنا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دنى)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (دنو).
(3) الرّاغب، المفردات: (دنا).
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 502.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 94.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 235، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 43.

دلالة ﴿إِنۡ﴾:

﴿إِنۡ﴾ تدلُّ على النَّفي من وجه، وعلى الإثباتِ من وجهٍ آخر، ودلالتها في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ على قوَّةٍ في النَّفي؛ لأنَّها أتت مع ﴿إِلَّا﴾، فأفادتِ الحصرَ[1]، أي: ليس ما نطقَ به إلّا وحيٌ من اللّٰه، ولذا آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بها هنا؛ لأنَّ مسألةَ الوحي هي المسألةُ الأساسيَّة الَّتي بين الإيمان والكفر، فالكافرون كانوا يقولون هو قولُ كاهن، هو قولُ شاعر، فأراد نفيَ قولهم، وذلك يحصلُ بصيغة النَّفي، فقال: ما هو كما يقولون، وزادَ، فقال: بل هو وحيٌ[2]، ولذا بعد أن زكّى سبحانه الدّافع، بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾، ثبَّته أنَّه وحيٌ بأقوى حالاتِ الإثبات بقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾.

بعد أن زكّى سبحانه الدّافع ثبَّت أنَّه وحيٌ بأقوى حالاتِ الإثبات

عود الضَّمير ﴿هُوَ﴾، وفائدة استحضاره:

ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ عائدٌ إلى المَنطوقِ به، المأخوذِ من فِعلِ ﴿يَنطِقُ﴾ من القرآن وبيانه، وكلِّ أقوالِه ﷺ وأفعاله وأحوالِ بيانه[3]، ويَجوزُ أن يَعودَ الضَّميرُ إلى مَعلوم مِن سياقِ الرَّدِّ عليهم، وهو القرآن، والمعنى: ما القرآن إلّا وحيٌ؛ لأنَّهم زَعَموا في أقوالِهم المَردودةِ بقَولِه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ﴾، أنَّ القُرآنَ سِحر، أو شِعر، أو كِهانة، أو أساطير الأوَّلينَ، أو إفْك افتراهُ[4]، وهذا على قولِ مَن قالَ: النَّجم ليس المراد منه القرآن، وأمّا على قولِ من يقولُ: هو القرآن؛ فهو عائدٌ إلى المذكور[5].

توكيدُ أنَّ ما ينطقُ به رسولُ اللّٰه من قرآنٍ وغيره وحيٌ من اللّٰه

وفائدةُ استحضاره هي إفادةُ توكيدِ كونِ ما ينطقُ به رسول اللّٰه من قرآن وسنَّة، أو ما هو معلومٌ من السّياق، وهو القرآن وحيًا من اللّٰه، ليس غير ذلك.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 235.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب، ص: 28، 237.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 43.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 94.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 235.

بلاغةُ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

الحصرُ أصرحُ وأدفعُ لإنكارهم البالغ

الاستثناءُ بـ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أفادَ معنى الحصر؛ لأنَّه سُبق بنفي، والمعنى: ما القرآنُ أو ما ينطقه النَّبيُّ ﷺ إلّا وحيٌ، وليس شيئًا آخر، أي: حصرَ الَّذي يتكلَّم به النَّبيُّ ﷺ من القرآن وبيانه وكلِّ أقواله بالوحي من الله تعالى، فكان هذا الحصرُ أصرحَ وأدفعَ لإنكارهم البالغ[1].

دلالةُ التَّعبير بالمصدر ﴿وَحْيٌ﴾:

كلُّ ما ينطقه النَّبيُّ ﷺ من القرآنِ وغيره وحيٌ من الله تعالى

الوحيُ يحتملُ أن يكون اسمًا، ويحتملُ أن يكون مصدرًا، فإنَّ الوحي اسمٌ معناه الكتاب، ومصدرٌ له معانٍ منها الإرسال والإلهام والكتابة والكلام والإشارة والإفهام، فإن قلنا: ﴿هُوَ﴾ ضميرُ القرآن، فالوحيُ: اسمٌ معناه الكتاب، كأنَّه يقول: ما القرآن إلّا كتابٌ، و﴿يُوحَىٰ﴾ بمعنى: يُرسَل، ويحتملُ على هذا أيضًا أن يُقال: هو مصدر، أي: ما القرآن إلّا إرسالٌ وإلهام، بمعنى المفعول، أي: مرسَل، وإن قلنا: المراد من قوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾ قوله وكلامه، فالوحي حينئذٍ هو الإلهام، ملهَمٌ من الله، أو مرسل[2]، وعلى الاحتمالين فالتَّعبيرُ بالاسم أو المصدر فيه تأكيدٌ على أنَّ القرآنَ وكلَّ ما ينطقه النَّبيُّ ﷺ هو وحيٌ من الله؛ إرسالًا أو كتابةً أو إلهامًا أو إشارةً أو إفهامًا.

سرُّ التَّعبيرِ بالفعل ﴿يُوحَىٰ﴾ مضارعًا:

ما يَنطِقُ به النَّبيُّ من القرآن مُتجدِّدٌ وحيُه غيرُ مُنقطِعٍ

التَّعبيرُ بصيغة المُضارِع ﴿يُوحَىٰ﴾ تدلُّ على أنَّ ما يَنطِقُ به من القرآن مُتجدِّدٌ وحيُه غيرُ مُنقطِع[3]، أي: يُجدَّدُ إلى النَّبيِّ ﷺ إيحاؤه من اللهِ وقتًا بعد وقت، ويَجوزُ أن يَجْتَهِدَ ﷺ، فإذا استَقَرَّ اجتهادُهُ عَلى شَيءٍ؛ أوحيَ إلَيه أنَّكَ قَد أصَبتَ الحَقَّ[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 43.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 235.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 155، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 95.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 43.

نكتةُ حذف فاعل ﴿يُوحَىٰ﴾:

تُركَ فاعلُ ﴿يُوحَىٰ﴾؛ لضربٍ مِن الإجمالِ الَّذي يَعقُبُه التَّفصيلُ؛ لأنَّه سيَرِدُ بعْدَه ما يُبيِّنُه مِن قولِه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾[1].

وجهُ حذف متعلِّقِ ﴿يُوحَىٰ﴾:

مُتعلِّقُ ﴿يُوحَىٰ﴾ مَحذوفٌ، تَقديرُه: يوحى إليه، أي: إلى صاحِبِكم[2]، وتكمنُ نكتةُ الحذف في الاختصار؛ لأنَّه مفهومٌ من سياقِ الكلام.

في الحذفِ اختصارٌ مفهومٌ من السّياق

توجيهُ الوصف بجملة ﴿يُوحَىٰ﴾:

جُملةُ ﴿يُوحَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ صفةٌ مؤكِّدةٌ لـ﴿وَحۡيٞ﴾[3]، رافعةٌ لاحتمالِ المجازِ، أي: هو وحيٌ حَقيقةً لا مُجرَّدُ تَسميةٍ، كقَولِك: هذا قَولٌ يُقالُ[4]، مفيدةٌ للاستمرارِ التَّجدُّديِّ[5].

صفةٌ تؤكِّدُ أنَّه وحيٌ حَقيقةً لا مُجرَّدُ تَسميةٍ

بلاغةُ التَّوكيد بجملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾:

اجتمعَ في جُملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ عدَّةُ مؤكِّدات، وهي: ﴿إِنۡ﴾ النافية؛ إذ تُفيدُ الاستغراقَ والتَّأكيدَ على أنَّ ما بعدها هو الحقيقةُ الثابتة، والضميرُ ﴿هُوَ﴾ الَّذي فصلَ بين ﴿إِنۡ﴾ النافية وما بعدها؛ ليؤكِّد أنَّ المنطوقَ المعنيّ، وهو القرآن ليس إلّا شيئًا محدَّدًا، وهو الوحيُ من اللّه، وأداةُ الاستثناء ﴿إِلَّا﴾ الَّتي أفادتْ مع ﴿إِنۡ﴾ النافية الحصرَ الكامل، ومجيءُ جملة ﴿يُوحَىٰ﴾ صفةً مؤكِّدة؛ لكون الوحي من اللّه وحده.

ليس للنَّبيِّ من قولٍ إلّا ما يوحى إليه

بلاغةُ الاستئناف في جملة: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾:

جاءت جُملةُ: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ استِئنافًا بَيانيًّا؛ لبَيانِ كَيفيَّةِ الوحيِ[6]، الَّتي يوحى بها إلى النَّبيِّ ﷺ بالتَّساؤل عنها في

بيانُ الكيفيَّةِ الَّتي يوحي بها إلى النَّبيِّ ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 95.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 95.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 43، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 95.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 84، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 157.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 155.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 95.

قولِه تعالى: ﴿يُوحَىٰ﴾، أي: كأنَّ سائلًا قد سأل: وكيف يوحى؟ وما صفاتُ المَلَكِ جبريل عليه السلام؟ فقال سبحانه مُبَيِّنًا له بأوصافِه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾(1).

سرُّ التَّعبير بالفعل (علَّم) دلالة وصيغة:

الـوحـيُ ليس مجرَّد كلامٍ يُنقلُ بل علمٌ يُفهمُ، ويُـدرك دون نقصٍ أو خلل

في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ (علَّم) دون غيره؛ للدَّلالة على أنَّ الوحي الَّذي كان ينزلُ به جبريلُ على النَّبيِّ ﷺ ليس مجرَّد كلامٍ يُنقلُ، بل هو علمٌ يُفهم، ويُدرك، ويُحفظ، ويُطبَّق، فالعلمُ هو المعرفةُ وإدراكُ الشَّيء بحقيقته، وعَلِمه: عَرَفَهُ حَقَّ المعرفة(2)، وهكذا ينبغي أن يكون القرآنُ عند المسلمين؛ للعلم والتَّعلُّم والمدارسة والإتقان، وليس لمجرَّد القراءة والنَّقل.

العلمُ كلُّهُ من الله تعالى وما جبريلُ إلّا وسيطٌ.

وفي التَّعبير بالعلم أيضًا دلالة على أنَّ هذا العلم من اللّه أصلًا، وجبريل عليه السلام هو الوسيطُ في إبلاغِ الوحي، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أنَّ العلمَ الإلهيَّ يُؤخذُ بطريقة منهجيَّة متدرِّجةٍ، وليس دفعةً واحدةً؛ ممّا يناسبُ طبيعةَ البشر في تلقّي المعرفة.

وجاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي؛ لإفادة التَّحقُّق والوقوع والتَّمام، أي: إنَّ جبريل عليه السلام قد علَّم النَّبيَّ محمَّدًا ﷺ العلمَ الكامل التامَّ المحكم دون نقصٍ أو خلل.

عود الضَّمير في ﴿عَلَّمَهُۥ﴾:

جبريـلُ هـو من عـلَّـمَ الـقـرآنَ للنَّبيِّ ﷺ

ضَميرُ الغائبِ في ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عائدٌ على الوَحْيِ، أو على ما عادَ إليه ضَميرُ ﴿هُوَ﴾ مِن قولِه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾، وضَميرُ ﴿هُوَ﴾ يَعودُ على القُرآنِ، وهو المَفعولُ الأوَّلُ لـ(علَّم)، والمفعولُ الثّاني مَحذوفٌ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 44.

(2) الراغب، المفردات: (علم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 88.

والتَّقديرُ: (علَّمَه إيّاهُ)، يَعودُ على ﴿صَاحِبُكُمۡ﴾، ويَجوزُ جَعْلُ هاءِ ﴿عَلَّمَهُۥ﴾ عائدًا على ﴿صَاحِبُكُمۡ﴾، والمَحذوفُ عائدٌ على ﴿وَحۡيٞ﴾؛ إبطالًا لقولِ المُشركين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النحل: 103][1].

دلالةُ لفظ ﴿شَدِيدُ﴾ معرَّفًا بالإضافة:

عظمةُ المعلِّم (جبريل) ببلوغه القوى الكاملة المطلوبة لمهمَّة الوحي

استعمالُ لفظ الشِّدَّة في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ - الَّذي يدلُّ على القوَّةِ والجلادةِ والصَّلابةِ، والإحكام، ونقيضِ اللِّين، وثباتِ القلب[2]، مضافًا إلى لفظ القوَّة ﴿ٱلۡقُوَىٰ﴾، الَّذي يدلُّ أيضًا على الشِّدَّةِ والقدرة وخِلافِ الضَّعْف[3] - تعبيرٌ عن المبالغةِ في الشِّدَّةِ والقوَّة، وأنَّه بلغَ أعلى درجات القوَّة، لا مجرَّد قوَّة عادية، وأنَّ هذه القوى الَّتي بلغها هي القوى الكاملةُ المطلوبة لمهمَّة الوحي، من قوَّةِ الإدراك والأمانة في التَّبليغ، وقوَّةِ التَّحمُّل وقوَّة التَّنفيذ، فلا يعتريه ضعفٌ أو نقصٌ أو عجز، وفي هذا تأكيد على عظمة المعلم (جبريل) عليه السلام، ممّا يبعثُ في نفسِ النَّبيِّ ﷺ الثِّقةَ والطُّمأنينةَ لقوَّة معلِّمِه، وأنَّ الوحي صادرٌ عن مصدرٍ قويٍّ لا يُغلب، وفي مدحِ المعلِّم مدحٌ للمتعلِّم، "فالتَّعلُّم يشرُفُ بشرفِ المعلَّم"[4].

نكتةُ تعريف ﴿ٱلۡقُوَىٰ﴾ وجمعها:

كمالُ قوَّةِ جبريل عليه السلام بإحاطته بجميع أنواعِ القدرةِ لتنفيذِ رسالة الوحي

في تعريف ﴿ٱلۡقُوَىٰ﴾ دلالةٌ على الكمال، فجبريلُ عليه السلام قد حازَ أعلى مراتب القوَّة المختصَّة بالوحي، فكأنَّ القوى الأخرى ناقصة بالنِّسبة إليها، "وأتى بلفظ الجمع، وعرَّفها تعريفَ الجنس؛ تنبيهًا على أنَّه إذا اعتبر بهذا العالم وبالَّذينَ يعلمهم، ويفيدهم، هوَ كثير القوى عظيم القدرة"[5]، أي: دلَّ الجمع على تعدُّد هذه القوى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 95.

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (شدد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (قوي).

(4) الشعراوي، خواطر الشعراوي، ص: 14675.

(5) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 270.

وكثرتها، فهي تشملُ قوَّةَ الإدراك، وقوَّةَ الأمانة، وقوَّةَ الرّوح، وقوَّةَ ذكاءٍ في الاستقبال، وقوَّةً في الحفظ، وقوَّةً في التَّبليغ والأداء، وفي الإرسال والإلقاء، وفي جميع أنواع القدرات الَّتي تناسبُ مهمَّته، وتتطلَّبها رسالةُ الوحي[1]، فالمُرادُ بـ﴿ٱلْقُوَىٰ﴾ استِطاعَةُ تَنفيذِ ما يَأمُرُ اللّه به مِنَ الأعمال العَظيمة العقليَّة والجسمانيَّةِ، فهو المَلَكُ الَّذي يَنْزِلُ على الرُّسلِ بالتَّبليغ[2].

دلالةُ تعديد الوصف بجملة ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾:

الزِّيادةُ في بيانِ ما اختصَّ اللهُ به جبريلَ من صفاتٍ عظيمة

المِرَّةُ: تُطلَقُ على قوَّةِ الذّاتِ، وتُطلَقُ على مَتانةِ العقْلِ وأصالتِه، وعلى كمالٍ في العقل والدّين معًا، وعلى المنظرِ والهيبة العظيمة، وعلى الخُلق الحسن، والوصفُ بقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ - بما يتضمَّنه من المعاني - زيادةٌ في بيانِ ما اختصَّ اللّهُ به جبريلَ من صفاتٍ عظيمة، إلّا ما كان من المعنى الأوَّل، فإنَّه على اعتبارِ أنَّ إفرادَ قوَّةٍ بالذِّكْرِ رُبَّما يكون؛ لبيانِ أنَّ قوى جبريل المَشْهورَةَ شَديدةٌ، وله قوَّةٌ أُخْرى خَصَّهُ اللّه بها، يُقال: فُلانٌ كثيرُ المالِ، وله مالٌ لا يَعْرِفُهُ أحَدٌ، أو على تقدير: عَلَّمَهُ مَن قواهُ شَديدَةٌ وفي ذاتِه أيْضًا شِدَّةٌ، فإنَّ الإنسانَ رُبَّما تَكونُ قواهُ شَديدَةً وفي جِسْمِهِ صِغَرٌ وحَقارَةٌ ورَخاوَةٌ[3].

وجهُ التَّعبير بلفظ ﴿مِرَّةٍ﴾ نكرةً:

قوَّة جبريل عليه السلام هائلةٌ لا تُضاهى غيرُ مألوفة وغيرُ معروفة سابقًا

التَّعبيرُ بالنَّكرة ﴿مِرَّةٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾؛ للتَّفخيم والتَّعظيم والتَّهويل لهذه الصِّفة، وللإشارة إلى أنَّها قوَّةٌ هائلةٌ لا تُضاهى، خارقةٌ غير مألوفة وغير معروفة سابقًا، وكذلك للتَّنويع بين المعرفة والنَّكرة، فقد جاءتْ صفة ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ معرفة، وفي هذا إظهارٌ لجوانب مختلفة من عظمةِ قوَّة جبريل عليه السلام، وتَخصيصُ

---

(1) الشعراوي، خواطر الشعراوي، ص: 14675.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 95.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 238.

جبريلَ بوصف ﴿مِرَّةٍ﴾ يُشعِرُ بأنَّه الملَكُ الَّذي يَنزِلُ بفُيوضاتِ الحِكمةِ على الرُّسلِ والأنبياءِ[1].

سرُّ تقديم القوَّة العلميَّة على الجسميَّة:

أساسُ مهمَّة جبريل عليه السلام العلمُ والتَّبليغ، فالقوَّةُ الجسديَّة تابعةٌ له

على تفسير ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ بقوَّة جبريل في علمه، وتفسير ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ بشدَّة في جسمه، يكون قد قدَّم القوَّةَ العلميَّة على الجسميَّة، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ [البقرة: 247][2]، وفي هذا التَّقديم إعلاءٌ لشأن العلم الرّوحيِّ على القوَّة المادّيَّة، فأساسُ مهمَّة جبريل عليه السلام هو العلمُ والتَّبليغ، والقوَّة الجسديَّة تابعةٌ له، فبدأ بالأهمِّ، وهو القوَّة العلميَّة.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾:

رسالاتُ الله تعالى العظيمة منوطةٌ بذوي العزيمة والقدرة على الخوارق

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ عاطفةٌ تفيدُ التَّفريع، فقوله: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ مُفرَّعٌ على ما تَقدَّم من قولِه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ بطَريقِ التَّفسيرِ، والفاءُ لتَفصيلِ ﴿عَلَّمَهُۥ﴾[3]، فإنَّه إلى قولِه تعالى: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ بيانٌ لكيفيَّةِ التَّعليم، أي: فاستقامَ جبريل على صورتِه الَّتي خلَقَه اللّهُ تعالَى عليها دونَ الصّورةِ الَّتي كانَ يَتمثَّلُ بها؛ كلَّما هبَطَ بالوحْي، أو أنَّها تفيدُ معنى السَّببيَّة، فإنَّ تشكُّله عليه السلام بشكلِه يتسبَّبُ عن قوَّته وقدرته على الخوارق، والمعنى: استوَى بقوَّته، أي: قامَ بعزيمةٍ لتلقّي رسالةِ اللّه على ما جُعِلَ له مِن الأمرِ[4]، أو استقامَ، واعتدلَ بغاية ما يكون من قوَّته على أكملِ حالاته في الصّورة الَّتي فُطِرَ عليها[5].

مرجعُ الضَّمير في قوله: ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾:

استيفاءُ الصِّفات المؤهَّلة لوظيفة الوحي تمكينٌ من القيام بها على الوجه الأكمل

الضَّميرُ في فعل ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ يعودُ إلى جبريل، أي: فاستقامَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 96.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 238.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 96.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 155، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 47.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 45.

جبريل، واعتدلَ بغاية ما يكون من قوَّته على أكملِ حالاته في الصّورة الَّتي فُطِرَ عليها[1]، أي: إنَّ جبريلَ بهذه الصِّفات، الَّتي أقامَ اللّه ﷻ خلقَه عليها، قد استوى، أي: استوفى الصِّفاتِ الَّتي تؤهِّله لهذه الوظيفة، والَّتي تمكِّنه من القيام بها على الوجه الأكمل[2].

ويحتملُ أن يعودَ الضَّمير على النَّبيِّ ﷺ أي: "علَّمه جبريلُ حتى استوى رسولُ اللّهِ، ونضجَ في عمليَّة التَّحصيل الكافي لهداية العالم، فحمَّله هذه المهمَّة؛ ليهديَ النّاس"[3].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾:

ظـهـورُ جبريـل عليه السلام مكتملًا في خَـلْـقه وهيئته حدثٌ واقعيٌّ

معنى استوى: قامَ جبريلُ بعزيمة لتلقّي رسالةِ اللّه حالَ كونه بالأفق الأعلى، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ الإخبارَ عنه بصيغة الماضي؛ لأنَّه حدثٌ وقعَ قبل زمنِ إنزالِ الآيات، وللدَّلالة على التَّحقُّقِ والتَّمام، ممّا يؤكِّدُ أنَّ ظهورَ جبريل عليه السلام كان حدثًا واقعيًّا وليس تخيُّلًا أو حلمًا، وأنَّه مكتملٌ في خَلقه وهيئته لا نقصَ فيه، وهذا يزيدُ في تعظيمِ شأنِ جبريل عليه السلام، ويبعثُ الطُّمأنينةَ في قلبِ النَّبيِّ ﷺ.

معنى الواو في قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ﴾:

استـوى جبريـلُ مــعــه ﷺ بالنّاحية الَّتي هي النِّهاية في العلوِّ والفضل من السَّماوات

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ﴾ حاليَّة، والمعنى: فاستوى جبريلُ والحالُ أنَّه بالأفق الأعلى[4]، أو استوى جبريلُ عليه السلام معه ﷺ بالنّاحية الَّتي هي النِّهاية في العلوِّ والفضل من السَّماوات، باعتبار كون الضَّمير المنفصل (هو) للنَّبيِّ ﷺ.

عودُ ضمير الفصل (هو) وسرُّ تكراره:

المشهورُ أنَّ (هو) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ضميرُ جبريل، وتقديره: استوى، كما خلقه اللّهُ تعالى بالأفق الشَّرقيِّ -

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 45.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 589.
(3) الشعراوي، خواطر الشعراوي، ص: 14676.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 155، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 96.

قبل أن ينزلَ إلى العالم الأرضيِّ - فسدَّ المشرقَ لعظمته، وجوَّزوا أن يكونَ الضميرُ المنفصل للنَّبيِّ ﷺ أي: استوى جبريلُ عليه السلام معه ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾، أي: النّاحية الَّتي هي النِّهاية في العلوِّ والفضل من السَّماوات؛ مناسبةً لحالة هذا الاستواء، والمعنى: استوى جبريلُ بمكان، والنَّبيُّ ﷺ بالمكان العالي رتبةً ومنزلةً في رفعة القَدْر[1].

المكان العالي رتبةً ومنزلة تليق بمقامهما العالي

معنى الباء في ﴿بِٱلۡأُفُقِ﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ ظرفيَّة، بمعنى (في)، والمعنى: "فاستوى له في الأفق الأعلى، وهو أفقُ الشَّمس، فملأ الأفق"[2]، واستعمالُ الباء بدلَ (في)؛ للدَّلالة على ثبوتٍ أقوى، فكأنَّ جبريلَ متمكِّنٌ ومستقرٌّ في الأفقِ الأعلى، لا مجرَّد مرور فقط.

ثباتُ مقامِ جبريل في الأفق الأعلى

دلالة تعريف (الأفق):

لامُ تعريف الأفق في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ عهديَّةٌ، معهودها معلومٌ في الذِّهن، تشيرُ إلى أفقٍ مخصوصٍ معهودٍ، له شأنٌ في سياق الرُّؤية العظيمة، فالأفقُ "اسمٌ للجوِّ الَّذي يبدو للنّاظر ملتقى بين طرفِ منتهى النَّظر من الأرض، وبين منتهى ما يلوحُ كالقبَّة الزَّرقاء، وغلبَ إطلاقه على ناحيةٍ بعيدة عن موطنِ القوم، ومنه أفقُ المشرق وأفقُ المغرب"[3].

في تعيين مقام الرُّؤية تعظيمٌ للمشهد

نكتةُ وصف (الأفق) بالأعلى:

في وصْفِ الأفقِ بالأعْلى في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ إفادةُ أنَّه ناحيةٌ مِن جَوِّ السَّماءِ، أي: "احترازٌ عن أفقِ الأرض، والمُراد الجهةُ العليا مِنَ السَّماء المقابلة للنّاظر"[4]، وذُكِرَ هذا؛ ليُرتَّبَ عليه

في وصْفِ الأُفق بالأعلى احترازٌ عن أفقِ الأرض

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 238، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 45.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 419، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 96.
(4) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 272.

قولُه: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾[1]، وفيه بيانٌ لعظمة جبريل ومكانته ورسالته، فجبريلُ في أعلى أفقٍ ممكنٍ للرُّؤية البشريَّة، والنَّبيُّ رآه في أشرفِ المواضع وأعلاها رؤيةً لا يلوِّثها الشَّكُّ أو الوهم، بل كانت صفاءً خالصًا بين رسولين كريمين.

وإنْ كان الضَّميرُ (هو) عائدًا على رسولِ اللّه ﷺ فيكون وصفُ الأفق بالأعلى، أي: بالمكان العالي رتبةً ومنزلةً في رفعةِ القدر، لا حقيقة في الحصول في المكان[2].

بلاغة الوصل بـ﴿ثُمَّ﴾:

بعد الاستواءِ العظيم دنا جبريلُ من الجنابِ الأقدسِ دنوَّ زيادةٍ في كرامةٍ لا دنوَّ مسافةٍ

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ عاطفةٌ على جُملة: ﴿فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، وتفيد التَّراخي الرُّتبيَّ؛ لأنَّ الدُّنوَّ إلى حيثُ يَبلُغ الوحيُ هو الأهمُّ في هذا المقام، ولأنَّ دُنوَّ جبريل إلى العالَم الأرضيِّ لم يكن بعد الاستواء مباشرةً، وإنَّما بعد أن تلقَّى ما يُبلِّغُه إلى الرَّسولِ ﷺ[3]، وأمّا إن فُسِّرَ ﴿دَنَا﴾ بدنوِّ جبريل من الحضرة الإلهيَّة - الَّتي هي مهيَّأةٌ لتلقّي الوحي، فإنَّ ﴿ثُمَّ﴾ تفيدُ التَّراخي الحقيقيَّ، والمعنى: بعد ذلك الاستواءِ العظيم دنا جبريلُ من الجنابِ الأقدسِ دنوَّ زيادةٍ في كرامةٍ لا دنوَّ مسافة، فأخذ الوحيَ الَّذي أذنَ له في أخذه، فتدلَّى عقبَ ذلك من اللّه رسولًا إلى صاحبكم[4]، وكذا لو فُسِّرَ الدُّنوُّ بإرادةِ الدُّنوِّ، بحيث يكون المعنى: فاستقامَ جبريلُ على صورته الَّتي خلقه اللّهُ تعالى عليها سادًّا أفقَ الشَّمس، ثُمَّ أرادَ الدُّنوَّ من النَّبيِّ عليهما الصَّلاةُ والسَّلامُ، فاسترسلَ من الأفقِ الأعلى[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 96.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 238.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 96.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 45.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 155.

دلالةُ فعل الدُّنوّ ماضيًا:

دنوُّ جبريل من النَّبيِّ ﷺ كان دنوًّا حقيقيًّا

عبَّر البيانُ الإلهي بصيغة الماضي ﴿دَنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه حدثٌ تحقَّقَ، ووقع، فالدُّنوُّ ليس حالةً مستمرَّةً متكرِّرة؛ إذ الآيةُ تتحدَّثُ عن واقعةٍ تاريخيَّة مضتْ، وانقضتْ، وفي هذا إثباتٌ لحقيقةِ الوحي، وأنَّ دنوَّ جبريلَ عليه السلام من النَّبيِّ ﷺ لتبليغه الرِّسالة كان دنوًّا حقيقيًّا.

توجيهُ العطف بالفاء:

فاءُ ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ عاطفةٌ[1]، والمعطوفُ عليه إمّا محذوفٌ عند من فسَّر ﴿دَنَا﴾ بأنَّه دنوُّ جبريل من الحضرةِ الإلهيَّة، والتَّقدير: دنا جبريلُ من الجناب الأقدس، فأخذَ الوحيَ الَّذي أُذِنَ له في أخذه، فتدلّى عقبَ ذلك من اللّه رسولًا إلى صاحبكم[2]، وهي هنا للتَّرتيب والتَّعقيب والسَّببيَّة، فأخْذُ جبريل للوحي سببٌ في تبليغه، أو أن يكونَ المعطوفُ عليه هو فعلُ ﴿دَنَا﴾، والفاءُ تفيدُ التَّرتيبَ الزَّمنيَّ والتَّعقيب والسَّببيَّة، فتدلّي جبريل عليه السلام من النَّبيِّ ﷺ، أي: زيادته في القرب جاءتْ مباشرة بعد دنوِّه منه[3]، أو أن تكون الفاءُ من بابِ عطف الخاصِّ على العامِّ؛ لأنَّ ﴿دَنَا﴾ أعمُّ مِن (تدلّى)، فبيَّن هيئةَ الدُّنوِّ كيف كانت قابَ قوسين أو أدنى[4].

دلالةُ فعل التَّدلّي ماضيًا:

حقيقةُ الوحي وتاريخيَّته يناسبةُ الفعل الماضي

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ جاءَ التَّعبير بفعل ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ بصيغة الماضي؛ تناسبًا مع الفعل المعطوف عليه ﴿دَنَا﴾، وكذلك للدَّلالة على أنَّ فعل التَّدلّي حدثٌ تحقَّقَ، ووقعَ، ومضى، فالآيةُ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 346.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 45.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 390.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 11.

تتحدَّثُ عن حقيقةٍ تاريخيَّة، وهي حقيقةُ الوحي، ولذا ناسبَ مجيء معظم الأفعال في السّياق بصيغة الماضي.

فنُّ القلب في الآية:

في تقدُّم الأثر، وهو الدُّنوُّ إثارةٌ للتَّصوُّر وتصويرٌ لعظمة المشهد

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ فنُّ القلب، وهو من المقلوب الَّذي تقدَّمَ فيه ما يوضِّحه التَّأخُّر، وتأخَّر ما يوضِّحه التَّقديم، أي: تدلّى، فدنا؛ لأنَّه تدلّى للدُّنوِّ، ودنا بالتَّدلّي[1]، وهذا عند مَن عدَّ الدُّنوَّ من جبريل عليه السلام إلى النَّبيِّ ﷺ، لا إلى اللّهِ سبحانه، وعند مَن لم يعدَّ الدُّنوَّ أعمَّ مِن التَّدلّي[2]، وتكمنُ بلاغةُ هذا القلب فيما يُحدثه من تشويق؛ إذ بدأتِ الآية بالفعل الأعظم أثرًا على السّامع، وهو (الدُّنوُّ)، ثم أُتبِعت بالوسيلة إليه (التَّدلّي)؛ لتُحدثَ تشويقًا بصريًّا ومعنويًّا في التَّصوُّر.

بلاغةُ وصل الآية بالفاء:

فاءُ ﴿فَكَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾سببيَّة، أي: إنَّ ما وقع بعد ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ من دنوِّ جبريل عليه السلام مِن النَّبيِّ ﷺ يُؤدّي إلى النَّتيجةِ الَّتي تمَّ ذكرها، وهي ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾.

نكتةُ التَّعبير بفعل الكينونة الماضي:

إضفاءُ الثَّباتِ والاستمراريَّة واليقين في دنوِّ جبريل من النَّبيِّ ﷺ

التَّعبيرُ بفعل الكينونة الماضي في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ يدلُّ على حالةٍ ثابتةٍ أو مستمرَّةٍ من قربِ جبريل من النَّبيِّ ﷺ وليس مجرَّد لحظةٍ أو حالةٍ عابرة رأى فيها النَّبيُّ جبريل قريبًا منه، بل كان دنوًّا ثابتًا ومستمرًّا، كما لو أنَّ المسافة بينهما أصبحت ثابتةً في تلك اللَّحظة، وهذا يعكسُ ثباتَ العلاقةِ الوثيقة بين النَّبيِّ ﷺ والوحي.

وفي كونه ماضيًا دلالةٌ على تأكيدِ وقوعِ هذا الحدث الجليل؛ لأنَّ الفعلَ الماضي يُستَعملُ لتأكيدِ وقوعِ الحدث في زمنٍ محدَّد، وفيه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 347.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 11.

دلالةٌ حسم، فدنوُّ جبريل لم يكن مجرَّدَ حالةٍ ممكنة أو محتملة، بل كان واقعًا أكيدًا ومؤكَّدًا، ولو استعمل الفعل المضارع مثل (يكون)؛ لأوحى بشيء من التَّردُّد أو الاحتمال.

بلاغةُ التَّشبيه والكناية في قوله: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾:

تصويرُ شدَّة القربِ والتَّلاقي بين النَّبيِّ والملَك

قابُ القوس: المسافةُ ما بين مقبضِ القوس ووتره، وذلك حين يُشَدُّ القوس لإطلاق السِّهام منه، فيكون أشبهَ بنصف دائرة، وفي التَّعبير به دلالةٌ على شدَّة القرب، وأنَّ المسافة قريبة جدًّا، والسِّرُّ في تشبيه التقاءِ جبريل بالنَّبيِّ ﷺ؛ إذ يكون كلٌّ منهما أشبهَ بقوس مشدودٍ مهيَّأ للرِّماية، يقفُ كلٌّ منهما في مواجهة صاحبه، مشدودًا إليه، حتى يتماسّا عند نهايةِ القاب، الَّذي يبدأُ من مركز الدائرة إلى محيطها، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ القوسَ في حال شدَّة، يكون متوتِّرًا واقعًا تحتَ قوَّةٍ مؤثِّرة، تشدُّهُ شدًّا عنيفًا، وكذلك شأنُ كلٍّ من جبريل والنَّبيِّ في حال التقائهما، إنَّهما يتجاذبان جذبًا قويًّا، فجبريلُ يجذبُ نفسه إلى حالٍ بشريَّة، والنَّبيُّ يجذبُ نفسه إلى جهة الملائكة، وهكذا يظلّان يتجاذبان، وقتًا معًا؛ حتّى يتماسّا، كما يتماس وترا القوسين المشدودين، المواجه كلٌّ منهما للآخر، وهنا يتمُّ اللِّقاء والتَّجاوب بينهما[1].

وفي قولِه: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ كنايةٌ عن المُعاهَدةِ على لُزوم الطّاعةِ؛ لأنَّ الحَليفَينِ في عُرْفِ العربِ؛ إذا تَحالَفا على الوفاءِ والصَّفاءِ؛ ألْصَقا وتَرَي قَوسَيْهما[2].

بلاغةُ الإيجاز بالحذف في الآية:

في الحذفِ إيجازٌ مفهومٌ من السّياق

في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ إيجازٌ بالحذْفِ مفهومٌ من السّياق، والتَّقديرُ: فكان مِقدارُ مَسافةِ قُربِه مِثْلَ قابِ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 591 - 592.

(2) حاشية ابن المنيِّر على الكشاف: 4/ 420.

قَوسَيْنِ، فحُذِفَت هذه المُضافاتُ[1]، وهي ثلاثةٌ من اسم كان وواحد من خبرها.

توجيهُ العطف بـ﴿أَوۡ﴾:

لشدَّةِ القرب يُقدَّرُ بقابِ قوسين، أو يُقدَّر بأقرب منهما

حرفُ ﴿أَوۡ﴾ في قولِه: ﴿أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ ليست للشَّكِّ، وإنَّما للتَّخييرِ في التَّقديرِ، والمعنى: أو أدْنى على تقديركم[2]، أو إن شئتم؛ قدِّروا ذلك القرب بقاب قوسين، وإن شئتم؛ قدِّروه بأدنى منهما[3]، وأضافَ ابنُ عاشور أنَّه مُستعمَلٌ في التَّقريبِ، أي: إن أراد أحدٌ تَقريبَ هذه المسافةِ؛ فهو مُخيَّرٌ بيْنَ أن يَجعَلَها قابَ قوسَينِ أو أدْنى، أي: لا أزيَدَ؛ إشارةً إلى أنَّ التَّقديرَ لا مُبالَغةَ فيه[4]، أي: لتأكيد هذا القرب، وأنَّه بالنِّسبة لمن يرونه تختلفُ عليهم رؤيته، فيراه بعضهم قابَ قوسين، ويراه بعضهم أدنى وأقرب من ذلك[5]، أو هي بمعنى (بل)، أي: بل أدنى[6].

دلالةُ صيغة أفعل التَّفضيل ﴿أَدۡنَىٰ﴾:

المسافةُ الَّتي كانت بين جبريل والنَّبيِّ عليهما السلام قريبةٌ جدًّا

﴿أَدۡنَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ اسم تفضيل، والمفضَّل عليه محذوفٌ، تقديره: أو أدنى من قاب قوسين[7]، فالمسافةُ في قاب قوسين قريبةٌ، فأتى بلفظ ﴿أَدۡنَىٰ﴾ للتَّأكيد على شدَّة القرب، وأنَّها أقرب من قاب قوسين.

بلاغةُ الوصل بالفاء في جملة ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾:

تتويجُ مشهدِ القُربِ ببيانِ إمكانِ الوحي

الفاءُ في قوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ للتَّفريع، أي: تفرَّعَ قولُه: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ على قولِه: ﴿فَتَدَلَّىٰ ۞ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ﴾ المُفرَّعِ على المُفرَّعِ على قَولِه: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾، وهذا التَّفريعُ هو المَقصودُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 420.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 157.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 26/ 358.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 98.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 592.
(6) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 346.
(7) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 346.

مِن البَيانِ، وما قبْلَه تَمهيدٌ له، وتَمثيلٌ لأحوالٍ عَجيبةٍ بأقرَبِ ما يَفهَمُه النّاسُ؛ لقصْدِ بَيانِ إمكانِ تَلقّي الوحْيِ عن اللّهِ تعالى؛ إذ كان المشرِكون يُحيلونه، فبَيَّنَ لهم إمْكانَ الوحي بوصفِ طريقِ الوحي إجْمالًا، وهو كَيْفيَّةٌ من صور الوَحي[1].

بلاغةُ الإيجاز بحذف فاعل (أوْحَى) ومرجع الضَّمير فيه:

الـتَّركـيـزُ على إثـبـاتِ الإيـحـاءِ إبطالٌ لإنكارِهم إيّاه

لم يصرِّحِ البيانُ القرآنيُّ بالفاعل في قوله تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾؛ إذ التَّقدير: (فأوحى اللّه إلى عَبْدِه محمَّدٍ ﷺ)؛ اختصارًا؛ لأنَّه مَعلومٌ مِن قولِه: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾، فالإضمارُ كافٍ في هذا المَقام؛ لأنَّ المَقصودَ إثباتُ الإيحاءِ لإبطالِ إنكارِهم إيّاه[2]، ثمَّ إنَّه لم يصرِّحْ بالفاعل لاحتمال أنَّ يكون هو جبريل، والضَّميرُ عائدٌ عليه، والمعنى: فأوحى جبريلُ عليه السلام إلَى عبْدِ اللّه تعالَى ما أوحى[3].

وجه التَّعبير بالفعل الماضي ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾:

حـتـميَّةُ وقـوعِ الـوحـي لـلـنَّـبـيِّ تُزيلُ أيَّ شكٍّ في حقيقةِ الوحي

التَّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ في الآية يدلُّ على تحقُّق وقوع الإعلام للنَّبيِّ ﷺ، من لدن جبريل عليه السلام، في خفاء وبسرعة في زمن ماضٍ محدَّد، ومِن ثمَّ فإنَّ هذه الصّيغة تزيلُ أيَّ شكٍّ، فاللّهُ سبحانه وتعالى يُبيِّن أنَّ الوحي واقعٌ حتميٌّ تمَّ تبليغه، ويتناسب مع السّياقِ الَّذي يدلُّ على يقينِ ما رأى النَّبيُّ من أحوالِ الوحي، والنَّعي على تشكيكِ الكافرين به، وذلك في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.

معنى ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾:

تـخـصـيـصُ الاتِّجاه وتشريفُ العبوديَّة

﴿إِلَىٰ﴾ حرف جرٍّ، ومعناه في الآية انتهاءُ الغاية، وقد عُدّي بالفعل (أوحى)؛ لإفادة معنى انتهاء الوحي ووصوله إلى رسول اللّه ﷺ عن طريق جبريل عليه السلام، فأشارَ إلى جهة الوحي والمستقبل له؛ بأنَّ الوحي

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 98.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 98.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 158، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 156.

صادرٌ من جبريل عليه السلام وانتهتْ غايته إلى النَّبيِّ ﷺ، وهذا يدلُّ على غايةِ الإيصال والاتِّجاه، أي: إنَّ الوحي كان مقصودًا مخصوصًا موجَّهًا إلى النَّبيِّ ﷺ لا إلى غيره.

سرُّ التَّعبير بلفظ ﴿عَبۡدِهِۦ﴾ معرَّفًا بالإضافة:

في وصف النَّبيِّ ﷺ بالعبوديَّة لـه تشريفٌ وتكريم

إيثارُ التَّعبيرِ عن النَّبيِّ ﷺ بعُنوانِ ﴿عَبۡدِهِۦ﴾ إظْهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، فلم يقل: (فأوحى إليه)؛ وذلك لِما في اختِصاصِ الإضافةِ إلى ضَميرِ الجَلالةِ مِن التَّشريفِ والتَّكريم[1]، وفي التَّعبيرِ بلفظ العبوديَّة أيضًا إشارةٌ إلى أنَّه لم يكن أحدٌ ليستحقَّ هذا الأمر العظيم غيره؛ لأنَّه ﷺ لم يتعبَّدْ قطُّ لأحدٍ غير اللّه، وكلُّ مَن عاداه حصل منهم تعبُّدٌ لغيره، فكان أحقَّ الخلق بهذا الوصف، فقد كان يتعبَّد اللّهَ في غار حراء وغيره، وهذه المنزلة كانت على هذا التَّقدير في أوَّل الوحي لَمّا كان بحراء[2].

ولم يقل كذلك: (عبد اللّه)، أي: أضمرَ الاسم الجليل لغايةِ ظُهورِه، وإن لم يَجْرِ لاسْمِه ﷻ ذِكرٌ؛ لأنَّه لا يُلْبِسُ؛ لِما هو معلوم ممّا تقدَّم من أنَّ كلامَ اللّه يكون وحيًا بوساطة رسول يوحي بإذنه سبحانه، ولأنَّ المقامَ يناسبُ الإضمار؛ لأنَّ الوحي إلقاءٌ في خفاء[3].

وجهُ استعمال ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾:

العـمـوم والإبهامُ يفيدان تفخيمَ الوحي وتعظيمه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بـ﴿مَآ﴾ دون (الَّذي)؛ لأنَّها أعمُّ، فتحتملُ أن تكون موصولة أو مصدريَّةً، وهي ومدخولها - على كلِّ حال - في موضع نصب على أنَّها مفعول به على الأوَّل، والتَّقدير: فأوحى إلى عبده وحيه، أو مفعولٌ مطلق على الثّاني، والتَّقدير: فأوحى إلى عبد اللّه وحيًا[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 98.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 46.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 46.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 347.

وفي التَّعبير بـ﴿مَآ﴾ الموصولة أيضًا إبهامٌ؛ لتَفخيمِ الموحى به الَّذي أوحيَ إليه وتعظيمِه، وأنَّه ممّا يجلُّ عن الوصف، وممّا لا تحصرهُ الأوصاف، كأنَّه أعظمُ مِن أن يُحيطَ به بَيانٌ[1]، فأبْهَمَ الأمرَ الَّذي أوحاهُ إلى عبدِه، وجعلَه عامًّا، وذلك أبلَغُ؛ لأنَّ السّامعَ يَذهَبُ وهمُه فيه كلَّ مَذهبٍ[2].

سرُّ تكرارِ الفعل ﴿أَوۡحَىٰٓ﴾:

ترسيخُ حقيقة الوحي تعظيمٌ لشأنِه، وتشويقٌ لتدبُّر عظمته

يُظهر تكرارُ فعلِ ﴿أَوۡحَىٰٓ﴾، في قوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾، التَّأكيدَ على حقيقة الوحي، وما يتضمَّنه من الرِّسالة الخاتمة، وفي هذا التَّأكيد تعظيمٌ لشأن الوحي، ومزيدُ إثباتٍ له، وتشويقٌ للمؤمن للتَّدبُّر في عظمة هذا الوحي.

بلاغةُ الجناس الاشتقاقيِّ في (﴿وَحۡيٞ﴾ - ﴿يُوحَىٰ﴾ - ﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾):

يضفي الجناسُ جمالًا ويحملُ على الإصغاء والتَّدبُّر

بين الألفاظ ﴿وَحۡيٞ﴾ و﴿يُوحَىٰ﴾ و﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ لتوافق ركني الجناس في الحروف وترتيبها وجمعها؛ إذ ترجعُ الألفاظ إلى جذرٍ لغويٍّ واحد هو (وَحَى)، وفيها كذلك جناسٌ مستوفي؛ لكون ركني الجناس من نوعين مختلفين، فـ﴿وَحۡيٞ﴾ أتى اسمًا، و﴿يُوحَىٰ﴾ أتى فعلًا بصيغة المضارع، و﴿فَأَوۡحَىٰٓ﴾ أتى فعلًا بصيغةِ الماضي، ممّا يعطي جماليَّةً في السَّمعِ، ويحقِّقُ عذوبةً وترنُّمًا، بما يحملُ السّامعَ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وضوحًا، ويساعدُ على ترسُّخهِ في الذِّهن دفعًا لمركزيَّة إنكاره بوصفه قوام الرِّسالة، ومصدرها الأصيل.

الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّنوّ والقرب:

الدُّنوُّ لا يكونُ إلّا في المسافة بين شيئين، تَقول: دارُه دانية، وأمّا

(1) حاشية ابن المنير على الكشاف: 4/ 420.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 347.

الدُّنوُّ قربُ المسافةِ من علوٍّ إلى سفلٍ، والقربُ خلافُ البعد

القربُ؛ فهو عامٌّ، يكونُ في ذلك وفي غيره، تَقول: قُلوبنا تتقاربُ، ولا تَقول: تتدانى[1]، ومن الفروق أيضًا أنَّ الدُّنوَّ هو القربُ بالذّات، أو بالحكم، ويُستَعملُ في المكان والزَّمان والمنزلة[2]، والأصلُ في الدُّنوِّ أن يكونَ إلى سُفْل، ومن هنا استُعْمِلَ الدُّنوُّ في الهبوطِ المعنويِّ (قلَّة قيمة الشَّيء)[3]، أي: الدُّنوُّ يدلُّ على القربِ مع وجودِ حركةٍ من علوٍّ إلى سفل، في حين أنَّ القربَ هو مجرَّد خلافِ البُعد[4]، ويُستَعْمَلُ في المكان والزَّمان، والنِّسبة، والحُظْوة، والرِّعاية، والقدرة[5]، وقد استُعمِل هنا لفظ (﴿دَنَا﴾ - ﴿أَدْنَىٰ﴾)؛ لكونه أنسبَ مع سياقِ الآية الكريمة الَّتي وردَ فيها لفظ (تدلّى)، ولفظ قاب قوسين، ممّا يدلُّ على القرب في المسافة، وهذا القربُ هو من علوٍّ إلى سفل، وأيضًا باختيار دنا وأدنى يتحقَّق الجناس الاشتقاقيُّ الَّذي فيه مراعاةُ الفاصلة، فضلًا عن وجودِ الطِّباق بين أعلى وأدنى.

القاب والمقدار:

القابُ مسافةٌ دقيقةٌ وقريبةٌ جدًّا تتناسبُ مع تلقّي الوحي

القابُ هو قياسُ مسافةٍ محدَّدة بدقَّة، تدلُّ على شدَّةِ القرب، فالقابُ: هو ما بَيْنَ المَقْبِضِ والسّيَةِ من القوس، ويُقال: بَينهما قاب قَوس؛ كِنايَةً عَن القرب[6]، في حين أنَّ المقدار أعمُّ من القاب؛ إذ مقدار الشَّيء مثله في العدد أو الكيل أو الوزن أو المساحة، والقضاء والحكم، وقَدْرُ كُلِّ شَيءٍ ومِقدارُه: مِقياسُه، ومبلغه، والمقدارُ: الكمّيَّة[7]، أي: يدلُّ المقدارُ على القياس والكمّيَّة، ويشملُ الزَّمان والمكان والكمَّ، والمادّيَّ والمعنويَّ، وقد كان استعمال لفظ ﴿قَابَ﴾

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 307.
(2) الراغب، المفردات: (دنا).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (دنو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرب).
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 253.
(6) الراغب، المفردات، والمعجم الوسيط: (قاب).
(7) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (قدر)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعريف، ص: 312.

أنسبَ وأدقَّ في سياقٍ يدلُّ على شدَّةِ القرب؛ للدَّلالة على مسافةٍ دقيقةٍ وقريبة جدًّا، وهي قاب قوسين، وهذا يتناسب مع حقيقة الوحي، وهو إلقاءٌ في خفاء، فتبليغُ القرآنِ الكريم من جبريل عليه السلام إلى النَّبيِّ ﷺ كان من مسافةٍ قريبة جدًّا بينهما.

﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ١٢﴾

[النجم: 11 - 12]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

قُــرْبُ الــوحي وصِدقُ الرُّؤية

لمّا أثبتَ القرآنُ الحكيم ما أثبتَ من القرب من النَّبيِّ ﷺ ممَّن أوحى إليه، قرَّره على وجهٍ أفادَ الرُّؤية، فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡفُؤَادُ﴾: الفؤادُ كالقلب، لكن يُقال له: فؤادٌ؛ إذا اعتُبِرَ فيه معنى التَّفَؤُّدِ، أي: التَّوَقُّدِ، يُقال: فأدْتُ اللَّحمَ: شَوَيتُه، وجمعُ الفؤادِ: أفئِدَةٌ، وتخصيصُ الأفئدةِ تنبيهٌ على فرطِ تأثيرٍ له[2]، ومعنى ﴿ٱلۡفُؤَادُ﴾: القلبُ الَّذي هو في غايةِ الذَّكاء والاتِّقاد[3].

2) ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾: من: مارَ يمورُ مَوْرًا، ومعنى المَوْر: التَّردُّد وعدمُ الاستقرار، والبعيرُ يمورُ عَضُداه، إذا تردَّدا في عرضِ جنبيه، والطَّعنةُ تمورُ؛ إذا مالتْ يمينًا أو شمالًا[4]، ومعنى ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾: أفتجادلونه مجادلةَ الشّاكّين المتحيّرين لا الكائنين على بصيرةٍ فيما تخاصمون فيه[5]، أي: تستخرجون منه بجدالكم له فيما أخبركم به شكًّا فيه، ولا شكَّ فيه[6]، أو أفَتُكَذِّبونَهُ، وتشكِّكونه فيما يَرَى بعَينَيه، كما كَذَّبتُموهُ فيما بَلَغَكُم عَنِ اللّه[7].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 50.
(2) الرّاغب، المُفردات: (فأد).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 50.
(4) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (مور).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مري).
(6) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 52.
(7) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 421، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 99.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

ما كَذَبَ قَلبُ مُحمَّدٍ ﷺ ما رآه ببَصَرِه، بل صَدَقَه، وتحَقَّقَه، وعَلِمَه يَقينًا، ثمَّ يوبِّخُ اللّٰهُ تعالى المشركينَ على تكذيبِهم للنَّبيِّ ﷺ فيقولُ: أفتُجادِلونَه - يا كُفّارَ قُرَيشٍ - على ما يرى ممّا أراهُ اللّٰهُ من آياته[1].

صِـدقُ الـرُّؤيـة ودلالةُ اليقين في مواجهة تكذيبِ المشركين

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ إيثارِ النَّفي بـ﴿مَا﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفيَ بـ﴿مَا﴾، في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، دون غيرها من أدواتِ النَّفي؛ لقوَّة النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكد من (لا) و(لم)، كما أنَّ النَّفيَ بها نفيٌ مؤكَّدٌ قاطعٌ؛ لأنَّه نفيٌ في الماضي والمستقبل؛ إذ إنَّ ﴿مَا﴾ تُستخدم لنفي كلٍّ من الفعل الماضي والمضارع على حدٍّ سواء، ومن ثَمَّ فإنَّ استعمالَ هذه الأداة في الآية يدلُّ على المبالغة في نفي الكذب عن قلبِ النَّبيِّ ﷺ في رؤيته لجبريل عليه السلام، وهذا التَّأكيدُ والمبالغة؛ بسببِ شكِّ المشركين وتكذيبهم للنَّبيِّ ﷺ فيما أخبرهم به من الوحي.

المبالغةُ في نفي كذب النَّبيِّ ﷺ في رؤيته جبريل

دلالةُ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿كَذَبَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالماضي ﴿كَذَبَ﴾ منفيًّا في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾؛ لإفادة تأكيد النَّفي، أي: تأكيد نفي تحقُّق أيِّ كذبٍ أو شكٍّ أو وهمٍ أو خطأ ووقوعِه في رؤيةِ النَّبيِّ ﷺ لجبريل عليه السلام، بل كانت رؤيتُه صَحيحةً ثابتةً متحقِّقةً يقينيَّةً، لا تقبلُ الجدل.

رؤيـةُ النَّبيِّ ﷺ لـجـبريـلَ ثـابـتـةٌ متحقِّقةٌ يقينيَّةٌ لا تقبلُ الجدل

توجيهُ القراءات في ﴿كَذَبَ﴾:

في قوله: ﴿كَذَبَ﴾ قراءتان[2]: قِراءةُ ﴿كَذَّبَ﴾ بتَشديدِ الذّالِ، وهي قراءةُ ابن عامر وأبي جعفر، بمعنى: أنَّ فُؤادَ محمَّدٍ عليه الصلاة والسلام لم

نفيُ أيِّ كذبٍ أو شكٍّ للفؤاد فيما رأى

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 510.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 379.

يُكَذِّبِ الَّذي رأى، ولم يَشُكَّ فيه، ولم يُنكِرْه، بل جعلَه حَقًّا وصِدقًا، وقيل: المعنى: ما كَذَّب صاحِبُ الفؤادِ ما رأى[1]، ففي التَّشديد مبالغة في نفي الكذب، وقِراءةُ ﴿كَذَبَ﴾ بتَخفيفِ الذّالِ، وهي قراءةُ الباقين، والمعنى: ما كذَبَ فؤادُ مُحمَّدٍ ﷺ فيما رأى بعَينِه، فقد رأى الحَقَّ، أو: "ما كَذَب فؤادُ مُحمَّدٍ محمَّدًا الَّذي رأى، ولكِنَّه صَدَقَهُ"[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْفُؤَادُ﴾ معرَّفًا:

ما رآه النَّبيُّ ﷺ هو رؤيةٌ حقيقيَّةٌ صادقة

الفؤاد: وعاءُ القلب أو داخله، والفؤادُ: القلبُ الَّذي هو في غايةِ الذِّكاء والاتِّقاد، وسُمّي الفؤاد بذلك لحرارته[3]، واستعمالات تركيبه فيها معنى الإعداد والتَّهيئة، والإنضاج، والتَّحرُّق والتَّوقُّد[4]، أي: الفؤادُ يُطلق على القلب عندما يكون في حالتي الشِّدَّةِ والاضطراب أو الإدراك العميق، ومن هنا جاء استعمالُ الفؤاد للتَّأكيدِ على الإدراك القويِّ، فالفؤادُ أدركَ أنَّ ما رآه النَّبيُّ ﷺ هو رؤيةٌ حقيقيَّةٌ صحيحة ثابتةٌ لا كذب فيها، ولا شكَّ.

و(الـ) في قولِه: الفُؤادُ عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: فُؤادُه[5]، وهو فؤادُ النَّبيِّ ﷺ ومِن ثَمَّ فاللّامُ عهديَّة، معهودها ذكريٌّ، فقد سبقَ ذكره ﷺ في قوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، ويحتملُ أن تكون اللّامُ جنسيَّة، والمقصودُ جنسُ الفؤاد؛ لأنَّ المكذِّبَ هو الوهمُ والخيال، يقول: كيف يرى جبريل مع أنَّه ألطفُ من الهوى والهواء لا يرى[6].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 507، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 685.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 507، والأزهري، معاني القراءات: 3/ 37، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 685.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 50.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 218، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فأَدَ).
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 99.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 241.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾:

نفيُ الكذبِ عن أصل الرُّؤيا وعن كلِّ تفاصيلها

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا رَأَىٰٓ﴾ تحتملُ أن تكون موصولةً، أي: الَّذي رآه، والرّابطُ محذوف، وهو ضميرٌ عائدٌ إلى عبده، في قوله: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾، أي: ما رآه عبده ببصره[1]، وتحتملُ أن تكون مصدريَّةً، أي: رؤيته، في موضع النَّصب؛ لأنَّه مفعول ﴿كَذَبَ﴾[2].

وفي الجمع بين المعنيين نفيٌ للكذبِ عن أصلِ الرُّؤيا وعن كلِّ تفاصيلها، ففي المصدريَّة نفيُ الكذبِ عن أصلِ الرُّؤيا، في حين تنفي الموصولة الكذب عن كلِّ ما رآهُ النَّبيُّ ﷺ حينها.

دلالةُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿رَأَىٰٓ﴾:

الرُّؤيةُ متحقَّقةٌ ثابتةٌ صادقةٌ لا شكَّ فيها

التَّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿رَأَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾؛ لإفادة تحقُّقِ وقوعِ الرُّؤية وثبوتها، وأنَّها رؤيةٌ صادقةٌ يقينيَّة، وهذا يتناسبُ مع تأكيد نفي الكذب عن هذه الرُّؤية، ويتناسبُ كذلك مع الأفعال الماضية الواردة في السّياق.

نكتةُ حذف مفعول ﴿رَأَىٰٓ﴾:

ما رآهُ النَّبيُّ ﷺ أعظمُ من أن يوصفَ أو يُحَدَّ

حذْفُ مفعول ﴿رَأَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ يوحي بتعظيم المرئيِّ، وكأنَّ ما رآهُ النَّبيُّ ﷺ أعظمُ مِن أن يوصَفَ أو يُحَدَّ، أي: ما كذبَ الفؤادُ ما رآهُ النَّبيُّ، وهو الرَّبُّ سبحانه، أو جبريل عليه السلام، أو الآيات العجيبة الإلهيَّة[3]، فضلًا عمّا في الحذْف من إيجازٍ، فما رآه النَّبيُّ مفهومٌ من السّياق، من قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾، وفيه إثارةٌ لذهنِ السّامع، ودفْعٌ له للسُّؤال: ما الَّذي رآه الفؤاد، أو البصر، أو رسول اللّه؟ بما يقوّي أثر المعنى.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 99.
(2) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 25.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 242.

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

تأكيدُ صدقِ النَّبيِّ ﷺ فيما رأى، وتوافُقُ بصيرته مع بصره

في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ استعارتان، تكمنُ الأولى في إسنادِ الكذب إلى الفؤاد، وهي استعارةٌ مَكْنيَّة؛ إذ شُبِّه الفؤاد بإنسانٍ يتكلَّم، أو يشهد، ثم حُذِف المشبَّه به، وهو الإنسان، وأُبقي على بعض لوازمه، وهو الكذب، وتكمنُ الثّانية في إسنادِ الرُّؤية إلى الفؤاد، وهي إمّا استعارةٌ مَكْنيَّة؛ إذ حُذِفَ المشبَّه به، وهو البصر أو العين، وأبقى شيئًا من خصائصه (الرؤية)، أو تصريحيَّة؛ إذا قُدِّر أنَّ ﴿رَأَىٰٓ﴾ هو اللَّفظُ الَّذي صُرِّحَ به من المشبَّه به، واعتبرَ الفؤاد هو المشبَّه المحذوف.

وكلُّ ذلك يصبُّ في تأكيدِ صدقِ النَّبيِّ ﷺ فيما رأى، وتوافقِ بصيرته مع بصره، وشهودِ قلبه لِما رآه بعيْنه دون وهمٍ أو خيال.

بلاغةُ الاستفهامِ بالهمزة في ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾:

الإنكارُ والتَّوبيخُ لمن كذَّبَ الصّادقَ الأمين

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ استفهامُ إنكارٍ وزجرٍ وتوبيخ[1]؛ لأنَّهم لم يجرِّبوا على النَّبيِّ ﷺ كذبةً واحدةً، بل أطلقوا عليه أكملَ الأوصاف الجليلة، فوصفوه بالصّادق الأمين، فكيف وقد زادهُ اللّهُ كمالًا فوقَ كمالٍ، واختاره رسولًا عامًّا لكلِّ النّاس؟ فكيف من كان هذا شأنه يكذبُ على ربِّه؟![2].

دلالةُ المضارعة والمفاعلة في الفعل (تمارون):

إدامةُ الجحود والاجتهاد فيه صفةُ كفّار قريش

آثرَ البيانُ القرآنيُّ صيغة المضارع (تمارون)؛ لأنَّ محطَّ الإنكار وقوعُ المارارة منهم في نفسها في أيِّ وقتٍ لا وفي وقتٍ معيَّن، والمضارعُ هو المتعيَّن؛ للدَّلالة على هذا المعنى[3]، وفي هذا تصويرٌ لمدى عنادِ كفّار قريش، وأنَّ الجُحودَ كان دائِمًا منهم[4]، وتشيرُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 52.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 177.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 178.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 93.

صيغة المفاعلة إلى اجتهادهم في التَّشكيك فيما رآه معاينة، فضلًا عن معنى الجحود[1].

بلاغةُ الاستعارة في الفعل (تمارون):

تصويرُ مماراة كفّار قريش للقولِ بمري النّاقة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالفعل (تمارون)؛ لِما فيه من استعارةٍ تصريحيَّةٍ تبعيَّة، شُبِّهتْ فيها المجادلة الَّتي يريدُ كلُّ طرفيها أو أطرافها أن يستدرَّ ما عند خصمه من موافقةٍ لِما يقول، بمري النّاقة أو الدّابَّة الحلوب، وهو المسحُ على ظهرها وضرعها؛ لتدرَّ بما عندها من لبن، والجامعُ بين طرفي الاستعارة هو حصولُ النَّفعِ.

توجيهُ القراءات في ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾:

جدالُ الكافرين للنَّبيِّ ﷺ لا يهدأ، وجحودهم لا ينتهي

في قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ قراءتان: قِراءةُ: ﴿أَفَتَمْرُونَهُۥ﴾ بفَتح التّاءِ، وإسكانِ الميم، مِن غيرِ ألفٍ، بمعنى: أفتَجْحَدونَه؟، من مَراهُ حقَّهُ؛ إذا جحدَهُ، أو أفتغلبونه في المراء من ماريته؛ فمريته، قرأ بها حمزةُ، والكِسائيُّ، وخلَفٌ، ويعقوبُ، وقِراءةُ: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ بضَمِّ التّاءِ، وفَتحِ المَيم، وألِفٍ بعْدَها، بمعنى: أفتُجادِلونَه، من المراءِ وهو الملاحاةُ والمجادلةُ، قرأ بها الباقون[2]، والمعنيانِ متقاربان مُتداخِلانِ[3]؛ لأنَّ مُجادَلتَهم جُحودٌ، "وذلك أنَّ المشركين قد جحدوا أن يكون رسولُ اللّه ﷺ رأى ما أراهُ اللّهُ ليلة أُسري به، وجادلوا في ذلك"[4]، وإنَّ الجُحودَ كان دائِمًا منهم، وهذا جِدالٌ جَديدٌ[5].

معنى حرف الاستعلاء ﴿عَلَىٰ﴾:

لشدَّةِ جحود الكافرين هم يغالبون في الباطل

قولُه: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ مِن المُماراةِ، وهي المُلاحاةُ والمُجادَلةُ في الباطلِ، وتَعديةُ الفِعلِ فيهما بحرْفِ الاستِعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾؛ لتَضمُّنه

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 52.

(2) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 379، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 685، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 158.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 99.

(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 510.

(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 93.

معْنى المغالبة، فإنَّ المماري والجاحد يقصدان بفعلهما غلبة الخصم، أي: هَبْكُم غالَبْتُموه على عِبادتِكم الآلهةَ، وعلى الإعراضِ عن سَماعِ القرآنِ، ونحْوِ ذلك؛ أتَغْلِبونه على ما رَأى ببصَرِه[1]، وفي هذا دلالة على شدَّةِ جحودهم وعنادهم.

وجهُ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ الموصولة:

مجادلة المشركين للنَّبيِّ ﷺ على كلِّ ما رآه

التَّعبيرُ بـ﴿مَا﴾ الموصولة في قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على العموم، وفيه شمولٌ لكلِّ ما رآهُ النَّبيُّ ﷺ من أشياء عظيمة، فالمشركون لجحودهم يشكِّكون، ويجادلون في كلِّ ما رآه النَّبيُّ ﷺ وبهذا يستحقّون مزيدَ توبيخٍ وزجرٍ؛ لتكذيبهم لِما لا يحيطون بعظمته.

دلالةُ المضارع في فعل ﴿يَرَىٰ﴾:

في استحضار ما رآه النَّبيُّ ﷺ تأكيدٌ لحقيَّته وتجدُّد الحقّ منه

عبَّر عن فعل الرُّؤيةِ منه ﷺ في قولِه: ﴿عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾، بالمضارِعِ مع كونه في زمنٍ مضى؛ إشارةً إلى استِحضارِ هذا الشَّيءِ، وأنَّه عليه السلام حينَ أخْبَرَ به كأنَّما يَراهُ الآنَ؛ لأنَّ الإنسانَ إذا حدَّثَ عن ماضٍ؛ فرُبَّما يقولُ قائلٌ: لعلَّه نسيَ، فأخطأ، ولكن إذا عبَّرَ بالمضارِعِ؛ صارَ كأنَّه يَتحدَّثُ عن شَيءٍ هو يُشاهِدُه[2]؛ إشارةً إلى أنَّه كما لم يَهِمْ لم يلبسِ الأمرُ عليه، ممّا يزيدُ مطابقة قلبه ﷺ لبصره في رؤيةِ جبريل عليه السلام وضوحًا[3].

وفيه إشارةٌ كذلك إلى ما يمكِنُ حدوثُه بعدُ[4] من تجدُّدِ ما يرى وتكرارِه، وهو الحقُّ[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 240، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 158، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 100.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الحجرات - الحديد، ص: 209، 210.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 52.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 12.
(5) محمد هلال، التفسير الثري: 27/ 91.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المماراة والمجادلة والمحاجّة:

بين المماراة والمجادلة والمحاجَّة تباينٌ في الأغراض والنَّهج

المماراةُ هي المجادلةُ والمحاجَّة والمعارضة على مذهبِ الشَّكِّ والرِّيبةِ، أي: بسببِ الشَّكِّ والتَّردُّدِ وعدمِ اليقين فيما يقولُ الآخر، وكلٌّ من المتمارِيينِ يُعالجُ صاحبَه؛ ليستخرجَ ما عنده، ثم يستزيد، أي: لا يكتفي، ولا يقتنعُ، ويجحدُ ما عنده، أي: هدفُه الطَّعنُ في كَلام الآخر؛ لإظْهارِ خَلَلٍ فيهِ مِن غَيْر أن يَرْتَبِطَ بهِ غَرَضٌ سِوَى تَحْقيرِ الآخرِ[1]، في حين أنَّ المجادلة هي المُفاوَضَةُ على سَبيلِ المُنازَعة والمُغالَبة[2]، والغَرَضُ مِنَ الجدال إلزامُ الخَصْم، وإفهامُ مَن هوَ قاصِرٌ عَن إدْراك مُقَدِّمات البُرهان، فالجِدالُ: مِراءٌ يَتعلَّقُ بإظهارِ المَذاهبِ وتَقريرِها، أي: المطلوبُ بالجدال: الرُّجوعُ عن المذهب، وهوَ محمودٌ؛ إن كانَ للوُقوفِ على الحَقِّ، وإلّا فمذمومٌ[3]، وأمّا المُحاجَّة؛ فهي أن يطلبَ كلُّ واحد من المحاجّين أنْ يردَّ الآخرَ عن حجَّته ومحجَّته[4]، وهي تثبيتُ القصدِ والرَّأيِ لِما يصحِّحه[5]، والمطلوب بالحجاجِ هو ظهورُ الحجَّة، وقد كان استعمالُ لفظ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ أنسبَ مع شكِّهم ومجادلتهم في كلِّ ما رآه النَّبيُّ ﷺ.

---

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مور).

(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جدل).

(3) الزبيدي، تاج العروس: (جدل).

(4) الراغب، المفردات: (حجّ).

(5) المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 298.

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم: 13 - 18]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد رؤيةِ النَّبيِّ لـجبريل في الأرض تأكيدُ رؤيته في العالم العلويِّ

بعدما ذكر البيانُ الإلهيُّ رؤيةَ الفؤاد، وهي أصدقُ وأثبتُ؛ لأنَّها تنفي خداعَ النَّظر، ووبَّخَ الكافرين على مجادلتهم وتشكيكهم في رؤيةِ النَّبيِّ ﷺ للوحي في الأرض؛ قطعَ أطماعهم عن المجادلةِ بتأكيد تكرُّرِ رؤيته ﷺ لجبريل في العالَمِ العُلويِّ عند سدرةِ المنتهى، وهو فوق السَّماء السّابعة، بما ينفي احتمالَ أن يكون هناك جنٌّ ولا إنس، فقال: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَزۡلَةً﴾: أصلُ (نزل) تَدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه، يُقالُ: نَزَلَ عَن دابَّتِهِ نُزولًا، ونَزَلَ المَطَرُ مِنَ السَّماءِ نُزولًا، ووَجَدْتُ القَومَ على نَزَلاتِهِم، أي: مَنازِلِهِم[2]، و﴿نَزۡلَةً﴾ فعلة من النُّزول؛ فهوَ مَصْدَرٌ دالٌّ على المَرَّةِ، ومعنى ﴿نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ مرَّةً أخرى، أي: ليكملَ له الأمر مرَّة في عالم الكون، وأخرى في المحلِّ الأنزه الأعلى[3].

2) ﴿سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾: السِّدْرُ اسمٌ لِلجنس، واحِدَتُها سِدْرَة، وهو شجرٌ قليلُ الغناءِ عند الأكلِ، وقد يخضدُ، ويُستَظلُّ به[4]، والمنتهى: من (نهي)، وأصله يَدُلُّ على غايَةٍ وبُلوغٍ، ومِنهُ أنهَيتُ إلَيهِ الخَبَرَ:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 243، والبقاعي، نظم الدّرر: 19/ 52، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 100.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نزل).
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 52، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 100.
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سدن).

بَلَّغْتُه إيّاهُ، والنِّهايَة: غايَةُ كُلِّ شَيءٍ وآخِرُهُ، والمنتهى: مُفْتَعَلٌ مِنَ النِّهايَة: الغايَةِ[1]، ومعنى ﴿سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ مكانٌ علويٌّ فوق السَّماء السّابعة، شُبِّهَ بالسِّدرة الَّتي هي واحدةُ شجرِ السِّدر[2]، وهو في أقصى الجنَّة، وينتهي إليه علمُ الخلائق من الأوَّلين والآخرين ولا يتعدّاها، وينتهي إليه ما يعرجُ من تحت وما ينزلُ من فوق، فيلتقي هنالك[3].

3) ﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾: الجَنَّةُ: كلُّ بستانٍ ذي شجر يسترُ بأشجاره الأرضَ، وسُمّيَتِ الجنَّة إمّا تشبيهًا بالجنَّة في الأرض – وإن كان بينهما بونٌ – وإمّا لستره نعمها عنّا[4]، والمأوى: مصدرٌ أضيفَ إلى الجنَّة، كإضافة الدّارِ للخلد في قوله: ﴿دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [فصلت: 28]، فالمأوى اسمٌ للمكان الَّذي يُؤْوى إليه[5]، والمأوى: المكانُ والمنزلُ، والإيواءُ هو الضَّمُّ، و﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ هي جنَّةُ المَبيتِ، أو الَّتي تَصيرُ إليها أرواح الشُّهَداءِ والمؤمنين[6]، وهي الجَنَّةُ المَعروفَةُ بأنَّها مَأوَى المُتَّقينَ، فإنَّ الجَنَّةَ مُنتَهَى مَراتِبِ ارتِقاءِ الأرواحِ الزَّكيَّةِ[7].

4) ﴿يَغۡشَىٰ﴾: أصلُ (غشي) يَدُلُّ على تَغْطيَةِ شَيءٍ بشَيءٍ كثيفٍ يَعُمُّه كغشاءِ السَّرج والجَفن، ومن ذلك: تَغَشَّى ثيابه، واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرى، ولا يَسْمع، والغِشاوَةُ: ما غَشيَ القَلبَ من رَينِ الطَّبْعِ[8]، وغَشيَهُ غِشاوَةً: أتاهُ إتيانَ ما قد غَشيَهُ، أي: ستره[9]، ومعنى ﴿يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ﴾: يغطّيها[10].

5) ﴿زَاغَ﴾: أصلُه يَدُلُّ على مَيلِ الشَّيءِ، وزاغَتِ الشَّمسُ: مالَت، وفاءَ الفَيْءُ[11]، وزاغ: مالَ عنِ القَصْدِ، وزاغَ عنِ الطَّريقِ: عَدَلَ[12]، والزَّيغُ: الميلُ عن الاستقامةِ، والزّائغُ: المائلُ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نَهَيَ).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 100.
(3) ابن الأثير، النهاية: 2/ 353، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 53.
(4) الراغب، المفردات: (جن).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أوي).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أوى).
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 101.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (غشو).
(9) الراغب، المفردات: (غشي).
(10) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 53.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زيغ).
(12) الزبيدي، تاج العروس: (زوغ).

وزاغ البصر: كَلَّ[1]، ومعنى ﴿زَاغَ﴾ في الآية: ما مالَ أدنى ميلٍ، أي: ما مالَ بَصَرُهُ إِلَى مَرْئِيٍّ آخَرَ غَيْرِ ما ذُكِر[2].

6) ﴿طَغَىٰ﴾: أصلُ الطُّغيان: مجاوزةُ الحدِّ في كلِّ شيء، وغلبَ في تزايدِ العصيان[3]، والطُّغيانُ: كلُّ ما جاوز القدْرَ، وارتَفَعَ، وغَلا في الكفرِ[4]، ومعنى ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾: ما جاوزَ القصدَ في رؤيته[5]، أي: ما جاوزَ ما أُمِرَ برؤيته، وما لم يؤذَنْ له فيه، ولا تجاوزَ المرئيُّ إلى غيره[6].

7) ﴿ءَايَٰتِ﴾: الآياتُ جمعُ آيةٍ، وجذرُها - وهو الهمزةُ والياءُ والحرفُ المعتلُّ - يدلُّ على بقاءِ الشَّيءِ في مكانِهِ شاخِصًا عَلامَةً لِشَيءٍ[7]، والآيةُ: كلُّ شيءٍ ظاهرٍ مُلازِمٌ لشيءٍ باطنٍ يُعرَفُ به حسّيًّا كان أم عقليًّا[8]، ومعنى الآياتِ هنا: دَلائِلُ عَظَمَةِ اللّه تَعالَى الَّتي تُزيدُ الرَّسولَ ارتِفاعًا[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في حضرةِ الجلالِ كانت رؤيةُ المصطفى لجبريل والآياتِ العظمى

لقد رأى محمَّدٌ ﷺ جِبريلَ مرَّةً أُخرى على صورتِه الحَقيقيَّةِ، الَّتي خلَقَه اللّهُ عليها عندَ مكانٍ علويٍّ فوق السَّماء السّابعة يُسمَّى سِدْرَةَ المنتهَى، إليها يَنْتهي علمُ الخلائقِ وأعمالهم، ولا يعلم أحدٌ ما وراءَها، عِندَ هذه السِّدرة جنَّةُ المأوى، وقد رأى محمَّدٌ جِبريل حينَ غَشيَ سِدْرةَ المُنتَهى ما غَشيَها من أمْرِ اللّهِ تعالى، فما مالَ

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زيغ)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 154.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 53، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 102.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طغى)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طغو).
(4) ابن سيده، المُحكم: (طغي).
(5) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 4/ 1172.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 53، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (طغو).
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أيى).
(8) الرّاغب، المفردات: (أيّ)، ورشيد رضا، تفسير المنار: 1/ 238.
(9) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 102.

بَصَرُ مُحمَّدٍ ﷺ يَمينًا ولا شِمالًا، ولا تجاوَزَ الحدَّ الَّذي رآه، ولقد رأى محمَّدٌ ﷺ لَيلةَ الإسراءِ والمعراجِ الآياتِ الكُبرى مِن آياتِ رَبِّه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ﴾:

بين التَّرقِّي في بَيانِ مَراتبِ الوحْيِ والحال الَّتي تنفي أيَّ شكٍّ فيما رآه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ إمّا عاطفةٌ، والعطفُ عطْفُ قِصَّةٍ على قِصَّةٍ، ابتُدِئَ بالأضْعَفِ في مراتب الوحي، وعُقِّبَ بالأقْوى، أي: ترقّى في بَيانِ مَراتبِ الوحْيِ، والمعنى: إنْ كُنتُم تَجحَدون رُؤيتَه جِبريلَ في الأرضِ، فلقد رآهُ رُؤيةً أعظَمَ منها؛ إذ رآهُ في العالَمِ العُلويِّ مُصاحِبًا[2]، وإما أن تكون حاليَّة، والمعنى: كيف تجادلونه فيما رآه، على وجهٍ لا يُشَكُّ فيه؟![3].

بلاغةُ التَّوكيد باللام و(قد):

إزالــةُ الإنـكـار والـغـرابة بيانٌ لعظيم المنزلة

تأكيدُ الكلامِ بلامِ القسَمِ وحرْفِ التَّحقيقِ مِن أجْلِ إنكارِ المشركين رؤيةَ النَّبيِّ ﷺ لجبريل[4]، ولِما في هذا الخبَرِ مِن الغَرابةِ، مِن حيثُ هو قدْ رأى جِبريلَ، ومِن حيثُ إنَّه عُرِجَ به إلى السَّماءِ، ومِن الأهمّيَّةِ مِن حيثُ هو دالٌّ على عَظيمِ مَنزلةِ النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ[5].

دلالةُ فعل الرُّؤية الماضي، وعود الضَّمير فيه:

في تحقُّقِ وقوعِ الرُّؤية ردٌّ على المنكرين

التَّعبيرُ بصيغة الماضي في الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الحدثَ وقع فعلًا؛ لأنَّه ممّا يُستغرب، أو يُنكر، وقد شكَّكَ به المشركون، ولهذا سُبِقَ الفعلُ باللّام وقد.

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 29 - 30، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 156، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 100.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 100.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 243.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 52.

(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 100.

وضَميرُ الرَّفْعِ في ﴿رَءَاهُ﴾ عائدٌ على ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، وهو النَّبيُّ ﷺ وضَميرُ النَّصبِ عائدٌ على جِبريلَ[1]، أو على اللّه سبحانه[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدر الدّالِّ على المرَّة ﴿نَزْلَةً﴾:

تأكيدُ نزولِ جبريلَ ورؤيةِ النَّبيِّ ﷺ له

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿نَزْلَةً﴾ دون لفظ (مرَّة)، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؛ لتأكيدِ حقيقةِ الأمر، وهو النُّزول، وأنَّه ليس أمرًا مجازيًّا، فـ﴿نَزْلَةً﴾ فعْلَةٌ من النُّزولِ، وهو مَصدَرٌ دالٌّ على المَرَّةِ، أي: في مكانٍ آخرَ من النُّزول الَّذي هو الحلولُ في المكان[3]، ولأنَّ هذه الرُّؤيةَ العجيبة لمّا كانت لا تتأتّى إلّا بتنزُّلٍ من جبريل يقطعُ مسافاتِ البعد الَّتي هي الحجب؛ ليصير به بحيث يراه البشر[4]، أي: إنَّ الرُّؤيةَ في هذه المرَّةِ أيضًا كانت بنُزولٍ ودُنوٍّ[5]، ولأنَّ العرجةَ الَّتي في الآخرة لا نزلةَ لها، فقال: ﴿نَزْلَةً﴾؛ ليعلمَ أنَّها من الَّذي كان في الدُّنيا[6].

وانتصبَ ﴿نَزْلَةً﴾ على نزْعِ الخافضِ، أو على النِّيابةِ عن ظرْفِ المكانِ، أو على حذْفِ مُضافٍ بتَقديرِ: وقْتَ نَزلةٍ أُخرى، فتَكونُ نائبًا عن ظرْفِ الزَّمان[7].

نكتةُ وصف ﴿نَزْلَةً﴾ بـ﴿أُخْرَىٰ﴾:

رؤيةُ النَّبيِّ لجبريل مرَّةً في عالم الكون الأدنى وأخرى في المحلِّ الأنزهِ الأعلى

وصَفَ البيانُ الحكيمُ النَّزلةَ بالأخرى، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾؛ للدَّلالة إلى أنَّها ليستِ الأولى الَّتي يرى فيها النَّبيُّ ﷺ جبريلَ في صورته الحقيقيَّة، بل سبقتها نزلةٌ سابقة، فهي نزلةٌ أخرى بالنِّسبة؛ لِما في قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، فإنَّ التَّدلّي نزولٌ بالمكان الَّذي

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 100.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 243.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 100.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 52.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 254.
(6) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 243.
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 100.

بلغَ إليه(1)، وهذا يؤكِّد تكرارَ رؤيةِ النَّبيِّ ﷺ لجبريل؛ ليكملَ له الأمرُ مرَّةً في عالمِ الكون الأدنى وأخرى في المحلِّ الأنزهِ الأعلى(2).

سرُّ إيثار لفظ ﴿عِندَ﴾:

مراعاةُ القربِ مع تنزيهِ المقامِ في التَّعبير القرآنيِّ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿عِندَ﴾ في قوله: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ دون غيره من الألفاظ، كلفظ (فوق، أمام، تحت)؛ لكون لفظ ﴿عِندَ﴾ تفيدُ القرب مع عدمِ تحديدِ المسافة بدقَّة، وهذا يناسبُ مقامَ الغيبِ الإلهيِّ والملائكيِّ، والتَّنزيهَ عن تحديدِ المكان حسّيًّا، ولأنَّ ﴿عِندَ﴾ تُستَعملُ للظَّرفيَّة المكانيَّة والزَّمانيَّة، وهذا أبلغُ في التَّعبير، وتقديرِ ظرف المكان؛ رأى جبريلَ أو غيرَه بقربِ سدرةِ المنتهى، وخُصَّتِ الرُّؤيةُ بالذِّكر عند هذا المكان؛ لعظيم شرفِ المكان بما حصلَ عنده من آياتِ ربِّه الكبرى، ولأنَّها منتهى العروج في مراتبِ الكرامة(3)، وتقديرُ ظرفِ الزَّمان: رآه عند الحيرة القصوى، أي: في الزَّمانِ الَّذي تحارُ فيه عقولُ العقلاء، والرُّؤيةُ من أتمِّ العلوم، وذلك الوقت من أشدِّ أوقاتِ الجهل والحيرة، وما حارَ ﷺ وقتًا من شأنه أن يحارَ العاقلُ فيه(4).

وجهُ التَّعبير بلفظ ﴿سِدۡرَةِ﴾:

السِّـدرةُ مثالُ القُرْبِ والجلالِ والجمال

التَّعبيرُ بلفظ السِّدرة إشارةٌ إلى شرفِ ذلك المكان الَّذي انتهى إليه رسولُ اللّه ﷺ وطيبِه ونعيمِه وعظمَتِه، فالسِّدرةُ واحدة شجرِ السِّدر، ويختصُّ بثلاثة أوصاف: ظلٌّ مديد، وطعمٌ لذيذ، ورائحةٌ زكيَّة، فجُعِلَتِ السِّدرةُ مثلًا لذلك المكان، إمّا في صفة تفرُّعه، وإمّا في كونه حدًّا؛ انتهى إليه قربُ النَّبيِّ ﷺ إلى موضعٍ لم يبلغه قبله مَلَكٌ(5).

(1) التّحرير والتّنوير: 27/ 100.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 52.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 100.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 244.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 101.

سـدرةُ المنتهى بين المقامِ والمالكِ والمآل

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾:

إضافةُ ﴿سِدۡرَةِ﴾ إلى ﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ إضافةٌ بَيانيَّةٌ، أو لتَعريفِ السِّدرةِ بمَكانٍ يُنْتهَى إليه، لا يَتجاوَزُه أحدٌ؛ لأنَّ ما وراءَهُ لا تُطيقُه المخلوقاتُ، وهو مكانٌ علويٌّ فوقَ السَّماءِ السّابعة، وردَ التَّصريحُ به في حديث المعراج[1]، أو هي إضافةُ المِلْكِ إلى المالِكِ على حذْفِ الجارِّ والمَجرورِ، أي: سِدرةُ المُنْتَهى إليهِ هو اللّهُ ﷻ، قالَ تعالَى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: 42][2]، وهي بذلك كإضافةِ البيتِ إليه، وهي إضافةُ تشريفٍ وتعظيم[3]، أو إضافةِ المحلِّ إلى الحالِّ، كقولك: كتابُ الفقهِ، والتَّقديرُ: سدرةٌ عندَها مُنتهى علومِ الخلائقِ[4].

مـنـتـهـى مـخـصـوصٌ ومعهودٌ بلغَ حدَّ الـكـمـالِ وغـايـةَ المقامِ

دلالةُ تعريف ﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾:

جاءتْ كلمةُ ﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ مُعرَّفةً بـ(الـ)، لا نكرةً؛ للدَّلالة على أنَّ المقصودَ منتهًى مخصوصٌ ومعهود - لا أيُّ منتهًى - فهو المنتهى الأعظم، الَّذي ينتهي إليه علمُ الخلائق ومراتبهم، ولا يُجاوَز، كأنَّ الآية تقولُ: عند السِّدرةِ الَّتي هي منتهى كلِّ أحدٍ سواه سبحانه، فـ(الـ) هنا تفيدُ الكمالَ والغايةَ القصوى.

في التَّكرارِ تأكيدُ مـعـنـى الـقـربِ والتَّشريف

سرُّ تكرار ظرف المكان ﴿عِندَهَا﴾ وعودُ الضَّمير فيه:

تكرَّر ظرفُ المكان ﴿عِندَ﴾ في قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾؛ لاختلافِ المتعلَّق به، فالظَّرفُ ﴿عِندَ﴾ في قوله: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ متعلِّقٌ بـ﴿رَءَاهُ﴾، أو حال من الفاعل أو المفعول أو منهما معًا، أمّا الظَّرف ﴿عِندَهَا﴾؛ فمتعلِّقٌ بمحذوفِ خبرٌ مقدَّم، و﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ مبتدأ مؤخَّر[5]، والضَّميرُ في لفظ ﴿عِندَهَا﴾

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 101.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 156.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 244.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 156.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 350.

عائدٌ على سدرةِ المنتهى[1]، وفي تكرار هذا الظَّرف في الجملتين تأكيدُ معنى القربِ والتَّشريف.

بلاغة تقديم الخبر ﴿عِندَهَا﴾:

في الاهتمامِ بموضعِ السِّدرة تعظيمٌ لها

قدَّم النَّظمُ الحكيم الخبرَ في قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾؛ للاهتمام بمكانِ السِّدرة وتعظيمه، بأنْ جعلَ التَّركيزَ في بداية الجملة على الموضع، الَّذي تجلَّت فيه الآياتُ العظمى، ولإفادةِ الاختصاص، أي: لم يقعْ ما وقعَ من التَّجلّيات والمشاهدات العظمى في أيِّ موضع، بل في ذلك المكانِ العظيم والمخصوص لا غيره حصلَ ما حصل، فهي موضعُ الاصطفاء والمشاهدة.

سرُّ تعريف ﴿جَنَّةُ﴾ بالإضافة:

بيان نوع الجنَّة كشفٌ لمراتبِ القُرْبِ والخلود

﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾: الجنَّةُ المعروفة بأنَّها مأوى المتَّقين، فإنَّ الجنَّةَ منتهى مراتبِ ارتقاءِ الأرواح الزَّكيَّة[2]، وحينئذٍ فالإضافة، كما في قوله تعالى: ﴿دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ﴾ [فاطر: 35]، أو هي جنَّةٌ أخرى عندها يكون أرواحُ الشُّهداء، أو جنَّة للملائكة[3]، وهي في المعاني السّابقة إضافةٌ بيانيَّةٌ؛ إذ يبيِّن المضافُ إليه نوعَ الجنَّة بأنَّها مأوًى للمتَّقين، أو أنَّها موضعٌ للملائكة، أو أرواح الشُّهداء، وهي بذلك كلِّه تكشفُ مراتبَ القُرْب والخلود.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾:

المأوى الكاملُ الَّذي لا مأوًى في الحقيقة غيره

﴿ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ المكانُ الَّذي يُؤوى إليه، أي: يُرجَع إليه، والتَّعريف باللّام فيه للعهد، أي: مأوى المؤمنين، قال تعالى: ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 53.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 101، و21/ 231.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 244.

﴿ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩﴾ [السجدة: 19][1]، فهو المأوى الكاملُ الَّذي لا مأوى في الحقيقة غيره؛ لأنَّه لا يوازى في عِظَمِه[2].

بيانُ المتشابه اللَّفظيّ في قوله تعالى: ﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾:

المفردُ للعظمة والجمعُ لتفاوتِ المنازل

يختلفُ قوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾، في هذه السّورة عن قوله تعالى في سورة السَّجدة: ﴿فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [السجدة: 19]، فقد جاء في الآية الأولى مفردًا ﴿جَنَّةُ﴾، وفي الثّانية جمعًا ﴿جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾؛ وذلك لمراعاة السّياق في السّورتين، فالسّياقُ في سورة النَّجم للحديث عن مكانٍ عظيم في المعراج، وهو سِدرةُ المنتهى، وما يتجلّى عندها من آياتٍ، فعبَّر بالمفرد؛ للدَّلالة على العظمة والفخامة، وكأنَّها جنَّةٌ واحدة جامعةٌ لكلِّ معاني الجمال، وأمّا سياق سورة السجدة؛ فهو للحديث عن الجزاءِ الأخرويِّ بعد ذكر صفاتِ المؤمنين وأعمالهم، فعبَّر بالجمع؛ لأنَّ المقامَ مقامُ توزيعِ جزاءٍ بحسب درجات النّاس، فتعدُّدُ الجنّاتِ يراعي تفاوت المؤمنين في المنازل.

دلالة الظَّرف ﴿إِذۡ﴾:

ما حُفَّ بسدرة المُنْتهى مِن الجمالِ يناسب صنع ذي الجلالِ

﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالَى: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ ظرْفٌ، العامل فيه ما قبله أو ما بعده، فإن كان ما قبله؛ ففيه احتمالان: أظهرهما فعل ﴿رَءَاهُ﴾، والتَّقدير: رآه وقتَ ما يغشى السِّدرةَ الَّذي يغشى، والاحتمالُ الآخر: الفعلُ الَّذي في النَّزلة، تقديره: رآه نزلةً أخرى، تلك النَّزلةِ وقتَ ما يغشى السِّدرةَ ما يغشى، أي: إنَّ نزوله لم يكن إلّا بعدما ظهرتِ العجائب عند السِّدرةِ وغشيها ما غشى، وإن كان العامل في الظَّرف ﴿إِذۡ﴾ ما بعده، فهو إمّا ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾، أي:

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 21/ 231.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 53.

ما زاغ بصره وقتَ غشيان السِّدرةِ ما غشيها[1]، أو أنَّ الظَّرف ﴿إِذْ﴾ في مَوضعِ الحالِ من ﴿سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، أُريدَ به التّنويهُ بما حُفَّ بهذا المكانِ المُسمَّى سِدرةَ المُنْتهى من الجَلالِ والجَمالِ[2].

وجهُ التَّعبير بالمضارع ﴿يَغۡشَى﴾:

استحضارُ الصّورة وتجدُّدُ الغشيان بما يدلُّ على عَظَمةِ المنّان

صيغةُ المُضارعِ في قوله: ﴿إِذۡ يَغۡشَى﴾ و﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾ لحِكايةِ الحالِ الماضيةِ؛ استِحضارًا لصورتِها البَديعةِ، وللإيذانِ باستِمرارِ الغَشَيانِ بطَريقِ التَّجدُّدِ، بما يدلُّ على عَظَمةِ اللّهِ وجَلالِه[3].

نكتةُ تكرار لفظ ﴿ٱلسِّدۡرَةَ﴾ معرَّفًا بـ(ال) دون الإضافة:

سموُّ المكان حقيق بالاهتمام وتعظيم الشَّأن

(الـ) في لفظ ﴿ٱلسِّدۡرَةَ﴾ للعهد الذِّكريِّ؛ إذ سَبقتْ في قوله: ﴿سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، وقد كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ ذِكرها منعًا للَّبس؛ إذ لو عُبِّر بالضَّمير، فقال: (عند سدرة المنتهى عندها جنَّة المأوى؛ إذ يغشاها)؛ لعادَ إلى أقربِ مذكورٍ، وهو جنَّةُ المأوى، ولأنَّ في إعادةِ التَّصريح بذكره مزيدَ اهتمامٍ بها، وتعظيمًا لشأنها.

سرُّ إيثار الموصول ﴿مَا﴾ وتأخيره عن المفعول، وحذف المتعلّق:

تغشى السِّدرة أمورٌ عظيمة لا يُحيطُ بها تعبيرٌ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ باسم الموصول ﴿مَا﴾، في قوله: ﴿مَا يَغۡشَىٰ﴾، الَّتي تفيدُ إبهامَ الغاشي؛ لإفادة الإبهامِ المفيد للتَّفخيم الإجماليِّ، وتَعظيمٌ وتَكثيرٌ لما يَغْشاها، أي: ولقد رآهُ عندَ السِّدرة وقتَ ما غشيَها ممّا لا يكتنهه الوصفُ، ولا يَفي به البيانُ كيفًا ولا كمًّا، وتأخيره عن المفعول للتَّشويق إليه[4]، فضلًا عن حذف متعلّق ﴿يَغۡشَى﴾، وأنَّه تَضيقُ عنه عِباراتُ الوصْفِ في اللُّغة، فقد عُلِمَ بهذه العِبارةِ أنَّ ما يَغشاها من الخلائقِ الدّالَّةِ على عَظَمةِ اللّهِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 245.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 100.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 157.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 157.

وجَلالِه أشياءُ لا يَكتَنِهُها النَّعتُ، ولا يُحيطُ بها الوصفُ[1]، أي: إنَّها مع التَّفخيمِ تفيدُ العموم، ولذا اختلفتْ عباراتُ المفسِّرين في بيانِ ما يغشاها، فقال ابن مسعود: فراشٌ من ذهب، وقال ابن عبّاس: الملائكةُ، وقال الضَّحّاك: نورُ ربِّ العزَّة سبحانه[2]، وغير ذلك[3]، وهذا بسببِ ذكرِ كلٍّ واحد منهم فردًا من أفرادِ العموم على سبيل التَّمثيلِ لا الحصر.

سرُّ تكرار المضارع ﴿يَغۡشَىٰ﴾:

تجدُّدُ الغشيان وهيبتهُ لحظةٌ عظمى في مشهدِ الإسراء والمعراج

تكرارُ الفعل المضارع ﴿يَغۡشَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ يحملُ في طيّاته بلاغةً عميقةً، تُسهمُ في تعظيمِ الموقفِ وتهويلِ المشهد؛ إذ يوحي بالاستمرارِ والتَّجدُّد، كأنَّ الغشيان متَّصلٌ، أو أنَّه عائدٌ في كلِّ حين، ويُعطي التَّكرارَ الآيةَ أيضًا إيقاعًا قويًّا وجاذبًا، ممّا يعمِّقُ وقعها في السَّمعِ والنَّفس، وهذا من مظاهر التَّناسبِ الصَّوتي في القرآن الكريم.

بلاغةُ جملةِ الاستئناف ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾:

الاعتراضُ يؤكِّدُ رؤيةَ النَّبيِّ ﷺ لجبريل

جُملةُ: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ مُعترِضةٌ، وهي في معنى جُملةِ: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ إلى آخِرِها، أي: رأى جِبريلَ رُؤيةً لا خطَأَ فيها، ولا زيادةَ على ما وُصِفَ، أي: لا مُبالَغةَ[4].

نكتة النَّفي بـ﴿مَا﴾:

نفيُ جنسِ الزَّيغِ عن بصره الشَّريف كمالٌ للرُّؤيةِ النَّبويَّة

آثرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفيَ بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾ لقوَّةِ النَّفي بها؛ إذ إنَّها آكدُ في النَّفي من غيرها، فهي تنفي جنسَ الزَّيغ عن بصرِ رسولِ اللّه ﷺ في أيِّ وقتٍ من الأوقات، وفي هذا مبالغةٌ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 421، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 157، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 101.
(2) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 396.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 157.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 101.

في تأكيدِ أنَّه ما مالَ بصرُهُ ﷺ عمّا رآهُ، وما عدلَ عن رؤيةِ العجائبِ الَّتي أمرَ برؤيتها، بل أثبتَهُ إثباتًا صحيحًا متيقَّنًا[1]، ممّا يؤكِّد كمالَ الرُّؤيةِ النَّبويَّة.

دلالةُ إيثار الفعل ﴿زَاغَ﴾ ماضيًا:

ثـبـاتُ بـصـرِ النَّبيِّ ﷺ عند مشاهدةِ الآيات الكبرى

آثرَ القرآنُ استعمالَ الفعل ﴿زَاغَ﴾ دون جاوزَ أو مالَ أو عدلَ؛ لكونه الأنسبَ مع السّياق الَّذي يقرِّرُ حقيقةَ الوحي، وحالَ النَّبيِّ ﷺ في حبِّه وتعلُّقه بما يرى من آياتِ ربِّه الكبرى، وحقيقةً غيبيَّة ستكون اختبارًا لإيمان النّاس؛ لأنَّ الزَّيغ لا يكون إلّا ميلًا عَن الحقِّ، يُقال: فلانٌ من أهل الزَّيغ، ويُقال أيضًا زاغَ عَن الحقِّ، في حين أنَّ الميلَ عامٌّ في المحبوب والمَكْروه[2]، وفي التَّعبير بلفظ الزَّيغ ومجيء الفعل بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على أنَّ رؤيته لآياتِ اللّه الكبرى كانت حقًّا يقينًا، ولم يكن غواشَ عينٍ، ولا تجاوزَ رؤية، وإنَّما هي المشاهدة الواضحة المحقَّقة، الَّتي لا تحتملُ شكًّا ولا ظنًّا، وقد عاينَ فيها من آياتِ ربِّه الكبرى، واتَّصلَ قلبهُ بالحقيقة عاريةً مباشرة مكشوفة، أي: أن يكون ذلك بيانًا لوصول محمَّد ﷺ إلى سدرةِ اليقين الَّذي لا يقينَ فوقه، فبصرُ النَّبيِّ ما زاغ، أي: ما مالَ أدنى ميلٍ عن الطَّريق، فلم يرَ الشَّيءَ على خلافِ ما هو عليه[3].

سرُّ إيثار لفظ ﴿ٱلْبَصَرُ﴾ معرَّفًا:

الامتداحُ لبصره الـشَّـريـف ﷺ بنفي الزَّيغ عنه خاصَّةً

جاء لفظُ البصر في قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ معرَّفًا بـ(الـ) دون الإضافة أو دون التَّنكير؛ ليحتملَ معنيين للّام، وهما: أنَّها عهديَّةٌ، والمقصود هو بصرُ النَّبيِّ المعروف محمَّد ﷺ أي: ما زاغَ بصرُ محمَّد، وفي هذا امتداحُ لبصره الشَّريف ﷺ أو أنَّها لتعريفِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 157.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 213.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 246.

الجنس، أي: ما زاغَ بصرٌ أصلًا في ذلك الموضع لعظمةِ الهيبة، وفي هذا من التَّعظيمِ لذلك الموضع المهيب، والدَّلالةِ على العموم الَّذي يُغني عن مجيئه نكرة[1].

نكتة إيثار ﴿ٱلۡبَصَرُ﴾:

نفيُ الزَّيغِ عن البصرِ في هذا الموقف الجليل أعجبُ وأبلغُ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ البصر دون القلب، في قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾ - مع أنَّه في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾، نفى الكذب عن رؤية الفؤاد - لبيانِ قوَّة النَّبيِّ ﷺ إذ لم يزغْ بصره من غيرِ اختيارٍ في مثل هذا الموقف العظيم، الَّذي تزيغُ فيه أبصارُ الرِّجال، كيف لا؟ والشَّخصُ عندما يحضرُ عند ملِكٍ عظيم يرى من نفسه أنَّه يهابه، ويرتجفُ؛ إظهارًا لعظمته مع أنَّ قلبه قويٌّ[2]، فنفيُ الزَّيغِ عن البصرِ في هكذا موقف هو أعجبُ وأبلغ.

توجيهُ العطف في قوله: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾:

ثباتُ النَّبيِّ ﷺ في مقامِ المشاهدة، وتمامُ أدبه مع ربِّه

قوله تعالى: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ عطفُ جملةٍ مستقلَّةٍ على جملةٍ أخرى، وهي: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾، فكأنَّه تعالى قال عند ظهور النور: ما زاغ بصرُ محمَّد ﷺ، وما طغى محمَّدٌ بسببِ الالتفات، ولو التفتَ؛ لكان طاغيًا، أو عطفُ جملةٍ مقدَّرةٍ على جملةٍ أخرى، والتَّقدير: لم يقطعْ نظره عن المقصود، أو ما مالَ عن الأنوارِ، وما طغى، أي: ما طلبَ شيئًا وراءها[3]، واختلافُ التَّقدير للاختلاف في معنى ما غشيَ السِّدرة، وفي جميع التَّقديرات بيانٌ لنجاحِ النَّبيِّ ﷺ في الاختبارِ ولأدبه ﷺ مع ربِّه.

سرُّ تكرار (ما) النّافية:

تأكيدُ كمالِ الرُّؤية النَّبويَّة، فلا زيادة فيها ولا نقصان

كرَّرَ النَّظمُ الحكيم حرفَ النَّفي (ما) مع المعطوف على المنفيِّ قبله، في قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾؛ تأكيدًا لمعنى النَّفي، وللاهتمامِ بنفي كلِّ فعلٍ على حدة، فـ﴿مَا﴾ الأولى تنفي أيَّ ميلٍ أو

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 345.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 246.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 246.

انحراف، والثّانية تنفي أيَّ تجاوزٍ أو إفراطٍ، وفي هذا براءةُ البصر النَّبويِّ مِن كِلا الفعلين بشكلٍ مطلق، فيحصلُ التَّكاملُ في النَّفي، ومِن ثَمَّ كمال الرُّؤية النّبويَّة، فلا زيادة ولا نقصان.

دلالةُ الماضي ﴿طَغَىٰ﴾:

تحقُّقُ انتفاءِ طُغيانِ بصرِ النَّبيِّ ﷺ في أعظمِ مشهد

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغة الماضي في قوله: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ انتفاءِ طغيان بصرِ النَّبيِّ ﷺ، أي: تجاوزه ما أُمِرَ به قطعًا، فلم يرتفعْ عن الحدِّ الَّذي حُدَّ له[1]، مع أنَّ ذلك العالمَ غريبٌ عن بني آدم، وفيه من العجائب ما يحيرُ النّاظر، بل كانت له العفَّةُ الصّادقة المتوسِّطة بين الشَّرهِ والزَّهادةِ على أتمِّ قوانين العدل، فأثبتَ ما رآه على حقيقته[2].

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

تصويرٌ يدلُّ على كمالِ الانضباط والاتِّزان في الرُّؤيةِ النَّبويَّة

في قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ استعارتان مكنيَّتان، الأولى في قوله: ﴿زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾؛ إذ شُبِّه البصرُ بشخصٍ عاقلٍ أو صاحبِ إرادةٍ، يمكنُ أن يميلَ، أو ينحرف، وحُذِفَ المشبَّهُ به، وأُبقي فعل الزَّيغ، وهو من خصائصه، والثّانية في قوله: ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾؛ إذ شُبِّه البصرُ بشخصٍ متجاوزٍ لحدِّه أو متعدٍّ، فالطُّغيانُ لا يكونُ للبصر الحقيقيِّ، وحُذِفَ المشبَّه به، وأُبقي فعل الزَّيغ، وتكمن بلاغةُ الاستعارة في تشخيصِ البصر، فالبصرُ يُصوَّرُ، وكأنَّه كائنٌ عاقلٌ مسؤول، يُمكن أن يحيدَ، أو يتجاوز الحدَّ، لكنَّه لم يفعلْ، ممّا يدلُّ على كمالِ الانضباطِ والاتّزان في الرُّؤية النَّبويَّة، فبصره ﷺ "لم يقصِّرْ عن المرئيِّ، فيقع دونه، ولم يزدْ عليه، فيقع وراءه، بل وافقَ موضعه، ولم يجاوزْ موقعه"[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 246.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 28/ 246.

(3) الشريف الرضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن: 2/ 317.

بلاغةُ التَّوكيد باللّام و(قد):

تأكيدُ الرُّؤية النَّبويَّة للآيات الكبرى في مواجهةِ إنكارِ المشركين

في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ زادَ البيانُ القرآنيُّ في تأكيدِ الإسراءِ والمعراج على وجهٍ يَعُمُّ غَيرَه باستعمالِ اللّامِ الموطِّئة للقسم؛ إذ التَّقديرُ: واللّهِ لقد رأى النَّبيُّ ﷺ جبريلَ في صورتِه مرَّةً أُخرى[1]، وبحرف التَّحقيق (قد)؛ إذ قد سبق الفعل الماضي ﴿رَأَىٰ﴾؛ لأنَّ المشركين كانوا قد أنكَروا الإسراءَ إنكارًا لم يقعْ لهم في غَيرِه مِثلُه[2].

دلالة الماضي ﴿رَأَىٰ﴾:

تحقُّقُ الرُّؤيةِ من النَّبيِّ ﷺ على أكملِ وجه

التَّعبيرُ بصيغة الماضي في قوله: ﴿رَأَىٰ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق الرُّؤيةِ من النَّبيِّ ﷺ على أكملِ وجه، والمعنى: لقد أبصرَ بسببِ ما أهَّلناهُ له من الرِّسالة إبصارًا ساريًا إلى البواطن غير مقتصرٍ على الظَّواهر من آياتِ ربِّه المحسن إليه[3].

معنى حرف الجر ﴿مِنۡ﴾:

في التَّبعيضِ تعظيمٌ للمرئيِّ من آياتِ الله الكبرى وتفخيمٌ للمستور

﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ للتَّبعيض، أي: لقد رأى بعض آياتِ ربِّه الكبرى، بما يدلُّ على عِظَم ما رآه النَّبيُّ ﷺ فمجرَّد رؤية أيِّ جزءٍ من آياتِ ربِّه تُعدُّ رؤيةً لآياتٍ عظيمة هائلة، ممّا يُضفي على الحدث هيبةً وجلالًا، ويفتحُ بابَ التَّأمُّل في عظمةِ ما خفيَ من الآيات؛ إذ لو كان ما رآه هو بعضُ الآيات، فكيف بما لم يُرَ؟.

سرُّ جمع ﴿ءَايَٰتِ﴾ وتعريفه بالإضافة:

كثرةُ الآيات تدلُّ على عظمةِ قدرة الله

جمعَ البيانُ القرآنيُّ الآيات، ولم يقل: (لقد رأى آية ربِّه الكبرى)؛ للدَّلالة على كثرةِ هذه الآيات الَّتي رآها النَّبيُّ ﷺ ليلةَ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 421.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 54.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 54.

الإسراء والمعراج، والَّتي تدلُّ على عظمةِ قدرة اللّٰه سبحانه، وقد ذكرَ المفسِّرون أمثلةً لهذه الآيات، ومنها رؤيته لجبريل عليه السلام في صورته، ورؤيته للأنبياء؛ آدم وعيسى وموسى ويوسف وغيرهم[1].

وإضافةُ الآيات إلى ذاتهِ العليَّة؛ تشريفًا للآياتِ الَّتي رآها النَّبيُّ ﷺ وتعظيمًا لمن رآها، وتفخيمًا لهذا الحدث العظيم.

تكريمُ النَّبيِّ ﷺ وتشريفه، وتعظيمُ شأنِ المعراج

نكتةُ إيثار لفظ الرُّبوبيّة مضافًا إلى الضَّمير:

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ لفظَ الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ دون لفظِ الألوهيَّة؛ لكونه أنسبَ مع مقامِ الإحسان والرِّعاية والعناية الَّذي أكرمَ اللّٰهُ به رسوله في الإسراء والمعراج، فقد أحسنَ إليه في هذه الرِّحلة الكريمة بما لم يصلْ إليه أحدٌ قبله، ولا يصلُ إليه أحدٌ بعده[2]، وأمّا إضافةُ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير العائد إلى النَّبيِّ ﷺ فهي إضافةُ تشريفٍ وتكريمٍ للنَّبيِّ ﷺ وتسليةٍ؛ لِما يلاقيه من قومِه.

مقامُ العناية والإحسان يليق تكريمًا متفرِّدًا بالنَّبيِّ العدنان ﷺ

سرُّ وصف الآيات بالكبرى:

﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ إمّا صفةٌ لـ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ لا مفعولٌ به، ويكون المرئيُّ محذوفًا؛ لأنَّ في الآيات ما لم يره، وفيها ما رآه، وعلى عدِّه مفعولًا به، يكون مقتضاه أنَّه رأى الآياتِ الكبرى كلَّها على الشُّمول، وإنَّ آيات اللّٰه لا يحيطُ بها أحد[3]، أو أنَّها صفةٌ لمحذوف تقديره: لقد رأى من آيات ربِّه الآية الكبرى[4].

آياتُ اللهِ لا يحيطُ بها أحد

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿رَأَىٰ﴾:

المَرئيُّ في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ مَحذوفٌ؛ لتَفخيمِ الأمرِ وتَعظيمِه، كأنَّه قال: لقد رَأى مِن آياتِ ربِّه

في الحذفِ تفخيمٌ لِما رآه النَّبيُّ ﷺ من آياتِ الله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 54.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 54.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 91.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 247.

الكُبْرى أُمورًا عِظامًا لا يُحيطُ بها الوصْفُ، والحذْفُ في مِثلِ هذا أبلَغُ وأهولُ؛ لأنَّ فيه تَفخيمًا لآياتِ اللهِ الكُبرى، وأنَّ فيها ما رآهُ، وفيها ما لمْ يَرَهُ[1]، وهذا باعتبار ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ نعتًا لـ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾ لا مفعولًا به للفعل ﴿رَأَىٰ﴾.

دلالةُ صيغة التَّفضيل في ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾:

ما رآهُ النَّبيُّ أقوى الآيات في الدَّلالة على قدرة الله

﴿ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ تأنيثُ (الأكبر)، وهي صيغةُ تفضيل محلّاة بـ(الـ) هي مظنَّةُ التَّخصيص، فكأنَّه تعالى يقول: (رأى من آيات ربِّه آياتٍ هنَّ أكبر الآيات)[2]؛ إذ التَّفضيلُ مظنَّة العهد، فـ(الـ) في هذا السّياق: عهديَّة، والكِبَرُ: مُستعارٌ لقوَّة الماهيَّة، أي: آياتنا القويَّة الدَّلالة على قدرتنا[3].

بلاغةُ التَّذييل:

الخاتمةُ المهيبةُ تليقُ بمشهدِ الإسراءِ والمعراج

قولُه تعالَى: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ تَذْييلٌ لِما سبق، أي: رأى آياتٍ غيْرَ سِدرةِ المُنْتهَى، وجنَّةِ المأْوَى، وما غشيَ السِّدرةَ مِن البَهجةِ والجَلالِ، رأى مِن آياتِ اللهِ الكُبْرى[4]، فجاءَ التَّذييلُ لتأكيدِ يقينيَّةِ ما رآهُ النَّبيُّ ﷺ وتعظيمِ ما رآه بأنَّه من آياتِ الله الكبرى الدّالَّة على أنَّه الرَّبُّ المنعمُ المتفضِّلُ المستحقُّ للعبادة، بالإضافة إلى أنَّ هذا التَّذييلَ كان بمنزلةِ خاتمةٍ مهيبةٍ تليقُ بمشهدِ الإسراء والمعراج، ختمَ اللهُ بها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المأوى والمسكن والمنزل:

جنَّةُ المأوى هي مكانُ اللُّجوءِ والحمايةِ والمأمنُ لأرواحِ المؤمنين

المأوى هو مكانُ اللُّجوءِ والحماية والعودة؛ إذ أصلهُ يدلُّ على

(1) حاشية ابن المنير على الكشاف: 4/ 421، والطيبي، فتوح الغيب: 15/ 91، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 350.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 246.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 16/ 209.

(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 102.

التَّجمُّعِ والإشفاقِ، وأويتُ إليه: رحمتُه ورقَقْتُ له، والمأوى هو الملجأُ والمأمنُ ممّا يُخشى منه[1]، ومأوى الرَّجلِ: منزله الَّذي يميلُ إليه، ويقيمُ فيه[2]، في حين أنَّ المسكنَ هو مكانُ الاستقرارِ والاستيطانِ والإقامةِ والرّاحةِ من التَّعب، فأصله من السُّكونِ وعدمِ الاضطراب والحركة[3]، فإذا كان المكانُ يُراعى فيه معنى الهدوء والسُّكون عن الحركة، واتِّخاذه للجلوسِ والرّاحة من التَّعب سُمّي مسكنًا، وأمّا المنزلُ؛ فهو مكانُ النُّزول والإقامةِ والحلولِ؛ إذ أصله من الهبوطِ والوقوعِ والحلولِ في المكان[4]، فكلُّ مكانٍ يُنزَلُ فيه يُسمّى منزلًا، وقد ناسبَ مجيءُ لفظِ المأوى مع الجنَّة في قوله: ﴿جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّها الجنَّة الَّتي تأوي إليها أرواحُ المؤمنين، وهي مكانُ اللُّجوءِ والحماية والمأمن لهم.

الزَّيغ والميل والطُّغيان:

نفيُ أيِّ ذمٍّ يمكنُ أن يُنسبَ للنَّبيِّ ﷺ من زيغٍ أو طغيان

الزَّيغُ أخصُّ من الميل، فالزَّيغُ اسمٌ لميل مكروه، فلا يكون الزَّيغ إلّا مذمومًا؛ لأنَّ الزَّيغ مطلقًا لا يكون إلّا الميل عن الحقِّ إلى الباطل، والميل عن الاستقامة والصَّواب[5]، ويُستَعملُ في العدول عن القَصْدِ، وفي الشَّكِّ والجَوْر عن الحقِّ، ويُستَعملُ أيضًا في الغلطِ في الرُّؤية[6]، أمّا الميلُ؛ فعامٌّ في المحبوبِ والمكروه[7]، فالميلُ: هو العدولُ من جهةِ الوسطِ إلى أحدِ الجانبين، أي: انحِرافٌ في الشَّيءِ إلى جانبٍ منهُ[8]،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أوى).
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 86.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن سِيده، المحكم، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سكن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نزل).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 213، والراغب، المفردات: (زيغ)، والكفوي، الكليات، ص: 490.
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 154، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (زوغ).
(7) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 213.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ميل).

فيكون معناه بحسب السّياق الوارد فيه، وأمّا الطُّغيان؛ فهو تجاوزُ الحدِّ في المكروهِ مع غلبةٍ وقهرٍ، والغلوُّ في ذلك، ويشملُ الإفراطَ في المعصيةِ والكبرِ والكفرِ، فهو بذلك أشدُّ من البغي، وأشدُّ من العتوِّ[1]، وقد استعمل البيان القرآنيُّ لفظي: (﴿زَاغَ﴾ - ﴿طَغَىٰ﴾)؛ لأنَّ اللَّفظين فيهما ذمٌّ، وسياقُ الآيات ينفي أيَّ ذمٍّ يمكنُ أن يُنسبَ للنَّبيِّ ﷺ، فينفي عن النَّبيِّ ﷺ أيَّ غلطٍ في رؤيته، ويثبتُ ما رآه إثباتًا مستيقنًا صحيحًا من غير أن يزيغَ بصره، وينفي كذلك أيَّ تجاوزٍ لِما أُمِرَ برؤيته، وما لم يؤذنْ له فيه.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 230.

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ٢٢﴾ [النجم: 19 - 22]

مُناسَبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

من إثباتِ أنَّ النَّبيَّ موحًى إليه بالقُرآنِ، إلى إبطالِ عِبادةِ الأصنامِ

لَمَّا جَرَى في صِفةِ الوحْيِ ومُشاهَدةِ رسولِ اللهِ ﷺ جبريلَ عليه السلام، ما دلَّ على شُؤونٍ جَليلةٍ مِن عَظَمةِ اللهِ تعالى، وشرَفِ رَسولِه، وشرَفِ جِبريلَ؛ إذ وُصِفَ بصِفاتِ الكَمالِ، ومَنازِلِ العِزَّةِ، كما وُصِفَ النَّبيُّ ﷺ بالعُروجِ في المَنازِلِ العُلْيا؛ كان ذلك ممّا يُثيرُ موازَنةَ هذه الأحوالِ الرَّفيعةِ بحالِ أعظَمِ آلِهَتِهم الثَّلاثِ في زَعْمِهم، وهي: اللّاتُ، والعُزَّى، ومَناةُ الَّتي لا تَملِكُ تَصرُّفًا، ولا يُعرَجُ بها إلى رِفعةٍ، فكان هذا التَّضادُّ جامِعًا خَياليًّا يَقْتضي تَعقيبَ ذِكرِ تلك الأحوالِ بذِكرِ أحوالِ هاتِه[1].

بعدَ بيانِ استحقاقِ الله الإلهيَّةَ متفرِّدًا بها أُنكِرَ على المشركين عبادة الأصنام

لَمّا أخبرَ سبحانَه مِن استقامةِ طريقِ نبيِّه ﷺ ممّا ثبتتْ رسالتُه بما أوحي إليه، وما أراه من آياته، الَّتي ظهرَ بها استحقاقُه سبحانه الإلهيَّةَ متفرِّدًا بها؛ سبَّبَ عنه الإنكار عليهم في عبادةِ معبوداتهم على وجهٍ دالٍّ على أنَّها لا تصلحُ لصالحةٍ، فقال: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾[2].

من تقريرِ الرِّسالة وبيانِ عظمة الله إلى هدمِ الشِّرك

لَمّا قرَّرَ الرِّسالةَ أوَّلًا، وأتبَعَه مِن ذِكرِ عَظَمةِ اللهِ وقُدرتِه الباهرةِ بذِكرِ التَّوحيدِ، والمَنْعِ عن الإشراكِ باللهِ تعالى؛ وقَّفَهم على حَقارةِ مَعبوداتِهم، وهي الأوثانُ، وأنَّها ليستْ لها قُدرةٌ[3]، وذَكَر ما ينبغي أن يَبتدِئَ به الرَّسولُ، وهو التَّوحيدُ، ومَنعُ الخَلقِ عن الإشراكِ[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 102، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 819.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 58.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 14.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 247.

❁ شَرْحُ المُفْرَدات:

1) ﴿ٱللَّٰتَ﴾: اسمُ صنم كان في جوفِ الكعبة في الجاهليَّة، وقيل: كانَت لثَقيف في الطّائف، وقيل: لقُرَيْش في النَّخْلَة، واللّاتُ من لوى يلوي؛ لأنَّهم كانوا يلتوون عليها، أي: يعكفون، ويطوفون بها، أو أصلُ اللّات: اللّاهُ، فحذفوا منه الهاء، وأدخلوا التّاء فيه، وأنَّثوه؛ تنبيهًا على قصوره عن الله تعالى، وجعلوه مختصًّا بما يتقرَّبُ به إلى الله تعالى في زعمهم[1].

2) ﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾: اسمُ صنم كان لكنانة وقريش، وقيل: شجرةٌ من السَّمُر، كانت لبني غطفان يَعْبُدونَها، وكانوا بَنَوا عَلَيْها بَيْتًا، وأقاموا لَها سَدَنَةً، فبَعَثَ إليها رَسولُ الله ﷺ خالِدَ بنَ الوَليدِ، فهَدَمَ البَيتَ، وأحرق السَّمُرَة[2].

3) ﴿وَمَنَوٰةَ﴾: اسمُ صنم كان يُعبَدُ في الجاهليَّة، كانتْ تعظِّمه العربُ[3]، ومناةُ: صَخْرَةٌ، وفي الصِّحاح: صَنَمٌ كانَ لهُذَيْل وخُزاعَة بَيْنَ مَكَّةَ والمَدينَة، يَعْبُدونها من دونِ الله، مِن قَوْلِك: مَنَوتُ الشَّيءَ[4]، ولعلَّ أصلَ الاسم على صيغة (فَعَلة)، وهي تأتي للفاعليَّة، فكأنَّ معنى اسمها (المقدَّرة أو المبيِّنة للبخت) على زعمهم[5].

4) ﴿ضِيزَىٰٓ﴾: أصلها: الواو (ضوز)، أو الياء (ضيز)، ويدلُّ أصله على اعوجاج، ومنه القسمة الضّيزى: النّاقصة[6]، تقول: ضِزْتُه حَقَّه، أي: مَنَعْتُه، ونَقَصْته، وبخسته، وضازَ في الحُكْم، أي: جارَ، وضيزَى: ظالمة، جائرة، غير مستوية، ناقصة، ومنافية للحقِّ[7]، ومعنى ﴿قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغوي، أي: ناقصةٌ، جائرةٌ وغير منصفة[8].

❁ المَعْنى الإجمالِيُّ:

يُخبِرُ الله تعالى عمّا عليه المشركونَ مِن جهلٍ وسَفَهٍ، ويُبيِّنُ بُطلانَ عبادتِهم للأصنام،

(1) الراغب، المفردات، ونشوان، شمس العلوم، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لوت)، وحاشية الصاوي على الجلالين، ص: 1875.
(2) ابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، اللغة العربية المعاصرة: (عززى).
(3) وأحمد مختار عمر، اللغة العربية المعاصرة: (مناة).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (مني)، وأحمد مختار عمر، اللغة العربية المعاصرة: (مناة).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أمن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضوز)، (ضيز).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، وابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ضيز).
(8) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ضيز)، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 106.

السَّفَهُ في العقيدة، والظُّلمُ في القِسمة حالُ المشركين

فيقولُ: أفرأيتُم أيُّها المُشرِكونَ اللّاتَ والعُزَّى ومَناةَ الثّالِثةَ الأُخرَى، تلك الأصنامَ الَّتي تَعبُدونَها مِن دونِ اللّهِ، وتَزعُمونَ أنَّها بَناتٌ للّهِ تعالى، أخبروني عنها، هل لها قدرة توصف بها؟ أم هي جمادات لا تعقلُ، ولا تنفع، ويتابعُ سبحانه موبِّخًا: أتَختارون الذُّكرانَ لأنفُسِكم، وتَنسُبونَ للّهِ تعالى الإناثَ اللّاتي تَكرَهونَهنَّ، ولا تَرضَونَ بهنَّ بناتٍ لكم؟ قِسمَتُكم تلك - أيُّها المُشرِكونَ - قِسمةٌ جائِرةٌ ظالِمةٌ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهام بالهمزة:

التَّهكُّم بالمشركين وإبطالُ إلهيَّةِ أسماءٍ لا مُسمّى لها، وإنكارُ عبادتها

المرادُ من الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾ استحضارُ صورةِ المُستَفْهَم عنه - وهو أصنامهم الجماديَّة - في أذهان المشركين؛ ليُحكَمَ عليها، وهي حاضرةٌ فيه؛ ليكون حضورها أعونَ على إدراكِ قيمةِ الحكم الَّذي يُحكَم به عليها، وهو أنَّها أسماءٌ، لا مُسمًّى لها قال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾(2).

ويمكن أن يُرادَ بالاستفهام التَّقريرُ والتَّهكُّم على اعتبارِ الرُّؤية بصريَّة تَتعدَّى إلى مَفعولٍ واحدٍ، فلا تَطلُبُ مَفعولًا ثانيًا، والمعنى: كيف ترَونَ اللّاتَ والعُزَّى ومَناةَ بالنِّسبةِ لما وُصِفَ في عَظَمةِ اللّهِ تعالى، وشرَفِ مَلائكته، وشَرَفِ رَسولِه ﷺ؟ وهذا تَهكُّمٌ بهم، وإبطالٌ لإلهيَّةِ تلك الأصنام بطَريقِ الفَحْوى، ودَليلُه العيانُ، أو أن يُرادَ به الإنكارُ على اعتبار الرُّؤية علميَّةً قَلبيَّةً، والمعنى: أزَعَمْتُم اللّاتَ والعُزَّى ومَناةَ؟ فحُذِفَ المَفعولُ الثّاني اختصارًا، والتَّقديرُ: أزَعَمْتُموهنَّ بَناتِ اللّهِ؟ أتَجْعَلون له الأُنثى، وأنتُم تَبْتَغون الأبناءَ الذُّكورَ؟(3).

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 522، والحجازي، التفسير الواضح: 3/ 559.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 179.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 103.

معنى الفاء في ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾، وفائدتها:

الانتقال من عظمةِ الآياتِ إلى بيانِ فسادِ المعبودات

الفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ وما بعْدَه على ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ المُفرَّعة على جملة: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾[1]، فكأنَّه يقولُ لهم: أخبرتكم بما رأى النَّبيُّ ﷺ من آياتِ اللّه الكبرى، فأخبروني بما ترونَ من هذه الأصنام الخسيسة، فشتّان بين ما رأى، وترون، أو هي لترتيب الرُّؤيةِ على ما ذكر من شؤونه تعالى المنافية لها غايةَ المنافاة[2]، وللتَّعقيب، أي: عقيب ما سمعتم من عظمةِ آيات اللّه تعالى الكبرى ونفاذِ أمره في الملأ الأعلى وما تحت الثَّرى، فانظروا إلى اللّات والعزّى، فتعلموا فسادَ ما ذهبتم إليه، وعوَّلتم عليه[3].

دلالةُ التَّعبير بفعل ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ﴾:

البصريَّة والعِلميَّة تصوِّرُ حقارةَ الأصنام

الرُّؤيةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ مزيجٌ من البصريَّة والعِلميَّة، وكلتاهما مقصودٌ في مقامِ تحقيقِ معبوداتهم المزعومة، ولها مدخلٌ في تصوُّرِ المعنى المراد، وهو حقارةُ الأصنام[4]، فالرُّؤيةُ البصريَّةُ تُري النّاظرَ إليها أنَّها كتلٌ جماديَّة صمّاء، وهذه حقارة، والرُّؤية العلميَّة تُري المتأمِّلَ فيها أنَّ هذه الأصنام والعدم سواءٌ لا تنفعُ، ولا تضرُّ، ولذلك فإنَّنا نقولُ: إذا حُملتِ الرُّؤيةُ على البصريَّة؛ اندمجَ فيها معنى الرُّؤية العلميَّة؛ لأنَّها مسبَّبة على البصريَّة، وإذا قلنا: إنَّ الرُّؤيةَ علميَّةٌ اندمجَ فيها معنى الرُّؤية البصريَّة؛ لأنَّها سببٌ فيها، أي: استحضروا صورةَ اللّات والعزّى ومناة في أذهانكم، ثمَّ اسمعوا الحكمَ عليها[5].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 102.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 158.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 248.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 103 - 104.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 180.

دلالةُ تعريف ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾:

حين يُعرَّفُ الباطل يُفضح

لامُ التَّعريف في ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ للعهد الذِّهنيِّ، فهما عَلَمٌ على معبودين معروفين لدى المخاطَبين من المشركين، و﴿ٱللَّٰتَ﴾: صنمٌ كان لثقيف بالطّائف، و﴿وَٱلۡعُزَّىٰ﴾: اسمُ صنم حجرٍ أبيض عليه بناء، وكان جمهور العرب يعبدونه وبخاصَّة قريش[1]، وهو تعريفٌ يُقصد به التَّعيين، بما يحقِّقُ غرضَ الاستفهام، وهو استحضارُ صورة هذه الأصنام في الذِّهن، ويُقصد كذلك التَّوبيخ بإظهارِ عظمةٍ زائفةٍ لِما لا يستحقُّ التَّعظيمَ.

توجيه العطف بالواو:

التَّشريكُ يزيدُ حدَّة التَّوبيخِ

جاء العطفُ بين اللّات والعزَّى بـ(الواو)؛ للجمع بين أشهرِ معبوداتهم؛ فقد كانا أعظمَ أصنامهم شهرةً ومكانةً، فإنَّهم كانوا يحلفون بهما[2]، وهذا الجمعُ بين رمزين كبيرين للشِّرك، ممّا يزيدُ من حدَّة التَّوبيخ والاستنكار، والعطفُ كذلك للتَّشريك بينهما في التَّوبيخ والإنكار، وفي كون كلٍّ منهما باطلًا في الألوهيَّة.

سرُّ الوصف:

التَّهكُّمُ والتَّسفيهُ بأصنامهم مهما تفاوتت في وجوهها أو مرتبتها عندهم

وُصفت ﴿وَمَنَوٰةَ﴾ بـ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾، وهي صفةٌ كاشفة تؤكِّد ترتيبها بعد اللّات والعُزّى في الذِّكر والمكان؛ إذ كانت أقلَّ شهرةً؛ لبُعد موضعها عن قريش[3]، أي: هما صفتان للتَّأكيد، وقد تكون صفة ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ مِن التَّأخُّرِ في الرُّتبةِ والمَنزلةِ[4]، أو من التَّأخُّر الوجودي[5]، أو أن تكون مناة هي أعظم هذه الأوثان، فيكون التَّأكيد بهاتين الصِّفتين لأجل عظمها[6]، أو أن تكون صفةً للعُزَّى، وإنَّما

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 104.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 58.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 105.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 159.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 423.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 17.

أخَّرها رِعايةً للفاصلةِ[1]، أي: فيه تَقديمٌ وتأخيرٌ، تَقديرُه: والعُزَّى الأُخْرى، ومَناة الثّالثة الذَّليلة[2]، أو أن يكون الوصفُ بهاتين الصِّفتين ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ جَرى على أُسلوبِ العرَب؛ إذا أخبَروا عن مُتعدِّدٍ، وكان فيه مَن يُظَنُّ أنَّه غيرُ داخلٍ في الخبَرِ لعَظَمةٍ، أو تَباعُدٍ عن التَّلبُّسِ بمِثلِ ما تَلبَّسَ به نُظراؤه؛ أن يَختِموا الخبَرَ، فيَقولوا: وفلانٌ هو الآخَرُ، ووَجْهُه هنا: أنَّ عُبّادَ مَناةَ كَثيرون في قَبائلِ العرَبِ، فنَبَّه على أنَّ كَثرةَ عَبَدتِها لا يَزيدُها قوَّةً على بَقيَّةِ الأصنامِ في مَقامِ إبطالِ إلهيَّتِها، وكلُّ ذلك جارٍ مَجرى التَّهكُّمِ والتَّسفيهِ، والتَّوبيخِ والتَّبكيتِ لهم[3].

سرُّ ترتيبِ الأصنامِ تقديمًا وتأخيرًا:

ترتيبُ الأصنام بين التَّفاضلِ في شـرفِ الـصّـورة وجغرافيَّةِ المكان

رُتِّبَتِ الأصْنامُ الثَّلاثةُ: ﴿ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ﴾ بهذا التَّرتيب؛ إمّا بحسبِ درجات الشَّرفِ التَّصويريِّ؛ إذ كانَ الأوَّلُ على صورةِ آدَميٍّ، والعُزّى على صورة نَباتٍ، ومَناةُ على صورَةِ صَخْرَةٍ، هي جَمادٌ، وهي الأدنى مرتبةً، وهذا على عدِّ ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ تُستعمَلُ للذَّمِّ[4]، أو بحسبِ الشُّهرةِ الجغرافيَّة؛ لأنَّ اللّاتَ والعُزَّى كانتا أشهرَ عند قريش والعرب من مناة؛ لبعدِ مكانها عنهم، ولأنَّ ترتيبَ مواقع بيوتِ هذه الأصنام كذلك، فاللّاتُ في أعلى تهامة بالطّائف، والعُزّى في وسطها بنخلة بين مكَّة والطّائف، ومناةُ بالمشللِ بين مكَّة، وهذا على عدِّ ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ صفة كاشفة تؤكِّدُ ذكر مناة[5]، أو أنَّه أخَّرَ مناة ليؤكِّدها بصفتي ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾، فقد ذُكِر أنَّها كانت أعظمَ هذه الأوثان قدرًا، وأكثرها عابدًا[6].

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 539 - 540.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 17.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 17، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 105.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 247.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 105.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 5/ 201.

بلاغةُ الاستفهام بالهمزة في قوله: ﴿أَلَكُمُ﴾:

الارتقاءُ في إبطالِ قسمةِ المشركين، وزيادةُ تسفيهِ كفرهم وسخافةِ عقلهم

قولُه تعالَى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ ارتقاءٌ في الإبطالِ والتَّهكُّم والتَّسفيهِ والتَّوبيخ، وهي مُجاراةٌ لاعتقادِهم أنَّ تلك الأصنامَ الثَّلاثةَ بَناتُ اللّهِ، وأنَّ الملائكةَ بَناتُ اللّهِ، أي: أجعَلْتُم للّهِ البناتِ خاصَّةً، وأنتم تَعلَمون أنَّ لكم أولادًا ذُكورًا وإناثًا؟ وأنَّكم تُفضِّلون الذُّكورَ، وتَكرَهون الإناثَ، وقد خصَصْتُم اللّهَ بالإناثِ دونَ الذُّكورِ، واللّهُ أولى بالفضْلِ والكَمالِ لو كُنتُم تَعلَمون؟ فكان في هذا زيادةُ تَشنيعٍ لكُفْرِهم؛ إذ كان كُفْرًا وسَخافةَ عقْلٍ[1].

معنى اللّام في (لكم) وعود ضمير الخطاب:

ادِّعاءُ استحقاقٍ يُظهرُ تناقضهم وجهلهم وسوءَ أدبهم مع الله

لامُ (لكم) في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾ لامُ الاختصاص والاستحقاق، والضَّمير (كم) في (لكم) عائدٌ إلى المشركين المخاطَبين الَّذين كانوا يقولون: الملائكةُ بناتُ اللّه، ويزعمون أنَّ الأنثى للّه، والذَّكرَ لهم.

وتفيد هذه اللّامُ أنَّ المشركين يدَّعون استحقاقهم للذُّكور دون غيرهم، والمعنى: أَلَكُمُ الذَّكرُ مختصًّا بكم ومقصورًا عليكم؟ والسّياقُ كلُّه استفهامٌ إنكاريٌّ يُظهر تناقضهم وجهلهم وسوءَ أدبهم مع اللّه تعالى.

دلالةُ تعريف ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ و﴿ٱلۡأُنثَىٰ﴾:

المبالغةُ في بيانِ شناعةِ كفرهم وسفاهةِ عقولهم

اللّامُ في ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ يفيدُ الاستغراقَ أو الجنس بأكمله، أي: ألكم الذُّكورُ الَّذين تفضِّلونهم، وترونهم النَّوعَ الأعلى، وله الإناثُ الَّذي تعدّونهم النَّوعَ الأدنى؟[2]، وأوثِرَ الإفرادُ لموافقة رؤوس الآيات المبتناةِ على الألف المقصورة[3]، وقد جاء التَّعريفُ باللّام؛ ليُبرِزَ شناعةَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 158، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 106.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 59.

(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 180.

كفرهم وسفاهةَ عقولهم، بأن ينسبوا للّٰه النَّوعَ الأدنى في أعرافهم الفاسدة، الَّذي يأنفون منه.

توجيهُ العطف بالواو:

الاشتراكُ في المعنى العام للسّياق التَّوبيخي وإبرازُ التَّناقض في عقليَّة المشركين

في عطف قوله: ﴿وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾، على قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ﴾ بالواو دلالةٌ على اشتراكٍ في المعنى العام للسّياق التَّوبيخي، أي: أتدَّعونَ الأفضلَ لأنفسكم، وتجعلون الأدنى للّٰه؟ وإبرازٌ للموازنة بين الجملتين بما يُظهرُ المفارقةَ والتَّناقضَ في عقليَّة المشركين.

فائدة شبه الجملة (له)، وعود الضَّمير فيه:

إنكارُ تخصيص المشركين الإناثَ للّٰه وتنزيهُ الذّاتِ الإلهيَّة

أفادتْ شبهُ الجملة (له) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ التَّخصيصَ، أي: له وحده الأنثى لا لغيره، وهذا على سبيلِ الإنكار والتَّوبيخ، والمعنى: ألكم أنتم الذَّكرُ الَّذي تفضِّلونه، وتجعلون للّٰه ما تكرهون؟ والضَّميرُ في (له) يعودُ إلى اللّٰه سبحانه، ولم يصرِّحْ بالاسم الجليل؛ تنزيهًا لذكره في هذا المقام.

بلاغةُ تقديم ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ على ﴿ٱلۡأُنثَىٰ﴾:

في تقديمِ زعمِ المشركين لأنفسهم مراعاةٌ لسياقِ الخطاب ولجماليَّةِ الفاصلة

قدَّم البيانُ القرآنيُّ ما زعموه لأنفسهم على ما زعموه للّٰه؛ لأنَّ الخطابَ بدأ معهم قبل ذكر هذه العبارة؛ إذ قال: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾، فناسبَ تقديمَ الخطاب معهم أن يقدِّم ما زعموه خالصًا لهم[1]، ولتحقيقِ جماليَّة الفاصلة في الآية؛ لأنَّ السّورة جاءتْ بفواصل منتهية بألف مقصورة: (﴿ٱلۡأُنثَىٰ﴾ - ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ - ﴿ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾).

بلاغةُ تقديم شبهَي الجملة الخبرين: (لكم - له) على المبتدأين:

الاهتمامُ بالاختصاص على سبيلِ التَّهكُّم والتَّسفيهِ لا الإقرار

تَقديمُ (لكم) و(له) في جُملة: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾؛ للاهتِمام بالاختصاصِ، الَّذي أفادَتْهُ اللّامُ اهتِمامًا في مَقام التَّهكُّم والتَّسفيهِ لا الإقرار، على أنَّ في تَقديم ﴿وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ إفادةَ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 180.

الاختِصاصِ، أي: وله وحده الأنثى دونَ الذَّكَرِ[1]، كما أنَّه تقديمٌ يتناسبُ مع السّياق الَّذي يستنكرُ فيه قسمتهم الجائرة بنسبتهم للّه ما يأنفون منه، ومع الفاصلة الصَّوتيَّة المنتهية بألف مقصورة؛ ممّا يحقّقُ جمال السَّجعِ والتَّناسقِ الإيقاعيِّ في السّورة.

دلالةُ الاعتراض في قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾:

في الاعتراضِ توظيفُ الانفعال النَّفسي لترسيخِ الحكم الإنكاري

الاستفهامُ والحكم عليه في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ من حيث الوضعُ النَّظميُّ هو اعتراضٌ بين الاستفهام الأوَّل ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾ وجوابه، أو الحكم عليه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾، وسرُّ هذا الاعتراض هو الاهتمامُ به؛ لأنَّ المشركين حين يسمعون ذِكرَ أصنامهم تتوقَّدُ أذهانهم، وتنشطُ مشاعرهم، وفي هذه اللَّحظة من وفرةِ النَّشاط ينزلُ عليهم هذا الاستفهام كالصّاعقة المباغتة، ويستقرُّ المعنى الإنكاريُّ في أنفسهم أيَّما استقرار[2].

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿ٱلذَّكَرُ﴾ و﴿ٱلْأُنثَىٰ﴾:

المقابلة تُظهرُ جورَ القسمةِ عند المشركين

الجمعُ بين الذَّكر والأنثى في قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ طباقٌ إيجابيٌّ من مقتضيات الحال[3]، وهو يكثِّف دلالةَ جورِ القسمة، بزعمهم أنَّ للّه تعالى البنات، وأنَّ لهم البنين.

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

قسمةُ المشركين الجائرة محلُّ الإنكارِ والتَّوبيخ والتَّهكُّمِ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ عمّا قبله، ولم يربط بينهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمالِ اتِّصالٍ؛ إذ جاءتِ الآيةُ الثّانية تَعليلًا للإنكارِ والتَّوبيخ والتَّهكُّم المُفادِ من الاستفهام في ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾، أي: قد جُرتُم في القِسمةِ، وما عدَلْتُم، فأنتم أحِقّاءُ بالإنكارِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 106.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 179.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 180.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 106، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 69.

قسمةُ المشركين بعيدةٌ في العقلِ وعن العدلِ والحقِّ

نكتةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾:

الإشارةُ بكلمةِ ﴿تِلْكَ﴾ إلى المَذكورِ باعتبارِ الإخبارِ عنه بلَفظِ ﴿قِسْمَةٌ﴾، فإنَّه مُؤنَّثُ اللَّفظِ[1]، أي: تلك القسمةُ قسمةٌ ضيزى، أو تلك النِّسبة قسمةٌ ضيزى، وهي نسبةُ البنات إلى اللّه، كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل: 62]، فلمّا نسبوا إلى اللّه البناتِ؛ حصلَ من تلك النِّسبة قسمةٌ جائزة[2]، واستعمالُ اسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾ الَّذي يُستخدمُ للبعيد؛ لتصويرِ هذه القسمة على أنَّها بعيدةٌ في العقل، بعيدةٌ عن العدل، بعيدةٌ عن الحقِّ[3]، وفي هذا توبيخٌ خفيٌّ، كأنَّه يقول لهم: كم أنتم بعيدون عن الصّواب؟.

الجوابُ الإنكاريُّ يكشفُ فسادَ الزَّعمِ وقبحَ القسمة

فائدة التَّعبير بـ﴿إِذًا﴾:

﴿إِذًا﴾ في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ إِذًا﴾ حرْفُ جَوابٍ أُريدَ به جَوابُ الاستِفهامِ الإنكاريِّ، أي: تَرتَّبَ على ما زعَمْتُم أنَّ ذلك قِسمةٌ ضيزَى، أي: قسَمْتُم قِسمةً جائرةً[4]، وتقدير ما كانت جوابًا له هو: نسبتكم البناتِ إلى اللّه تعالى - إذا كان لكم البنون - قسمةٌ ضيزى، أو نسبتكم البناتِ إلى اللّه تعالى، مع اعتقادكم أنَّهنَّ ناقصاتٌ، واختياركم البنين، مع اعتقادكم أنَّهم كاملون - إذا كنتم في غايةِ الحقارة، واللّهُ تعالى في نهايةِ العظمة - قسمةٌ ضيزى[5].

قِسمتُهم عظيمةٌ في الجورِ والظُّلمِ والجهل

نكتة تنكير ﴿قِسْمَةٌ﴾:

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿قِسْمَةٌ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّهويل والتَّفخيم في البشاعة، أي: تلك قسمةٌ عظيمةٌ في الجورِ والظُّلم والجهل،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 106.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 249.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 59.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 106.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 249.

فهي جائرةٌ ناقصةٌ ظالمةٌ عرجاء غيرُ معتدلة حيث خصصتم به ما أوصلتكم الكراهة له إلى دفنه حيًّا[1].

سرُّ وصف ﴿قِسۡمَةٞ﴾ بـ﴿ضِيزَىٰٓ﴾:

غرابةُ اللَّفظِ أشدُّ الأشياءِ مُلاءمةً لغرابةِ قِسمتهم الجائرة

وصفَ البيانُ الحكيم القسمةَ بلفظة ﴿ضِيزَىٰٓ﴾، وهي لفظةٌ غريبةٌ، هي مِن أغربِ ما في القرآنِ، ومعَ ذلك فإنَّ حُسنَها في نظم الكلامِ مِن أغربِ الحُسنِ وأعجبِه، فهي لَفظةٌ في مَوضعِها لا يسُدُّ غيرُها مسَدَّها، فسورةُ (النَّجم) كلُّها مَسجوعةٌ على حَرْفِ الياءِ اللَّيِّنةِ، فلمّا ذكَرَ الأصنامَ وقِسمةَ الأولادِ، وما كان يَزعُمُه الكفّارُ، قال: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ﴾؛ فجاءتْ هذه اللَّفظةُ على الحرْفِ المَسجوعِ، الَّذي جاءتِ السّورة جميعُها عليه، هذا مِن النّاحيةِ اللَّفظيَّة، أمّا مِن ناحيةِ المَعْنَى؛ فإنَّها في مَعرِضِ الإنكارِ على العربِ المشركينَ؛ إذ ورَدت في ذِكرِ الأصنام، وزعمِهم في قِسمةِ الأولادِ، فكانت غرابةُ اللَّفظِ أشدَّ الأشياءِ مُلاءمةً لغرابةِ هذه القِسمةِ الَّتي أنكرَها، والغرَضُ تَهجينُ قَولِهم، وتفنيدُ قِسمتِهم، والتَّشنيعُ عليها، وهذا مِن أعجَبِ ما ورَدَ في القرآنِ الكريمِ مِن مُطابَقةِ الألفاظِ لمُقْتَضَى الحال[2].

وجهُ إيثار لفظ ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ بصيغة التَّفضيل:

في صيغةِ التَّفضيل مبالغةٌ في الظُّلم الفاحش والتَّعدي البشع

﴿ضِيزَىٰٓ﴾ وزنه فُعْلَى من ضازه حقَّه؛ إذا نقصه، وأصلُ عينِ ضاز همزةٌ، يقال: ضأزه حقَّه كمنعه، ووَزْنُ ضيزى: فُعلى اسم تَفضيل (مِثْلَ كُبْرَى وطوبَى)، أي: شديدةُ الضَّيز، فلمّا وقعتِ الياءُ السّاكنة بعد الضمَّة حرَّكوه بالكسر محافظةً على الياء؛ لئلّا يقلبوها واوًا فتصير (ضوزى)، وهو ما كرهوه[3]، وفي التَّفضيل مبالغةٌ فيما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 59.

(2) ابن الأثير، المثل السائر: 1/ 162، والرافعي، إعجاز القرآن، ص: 158، ودرويش، إعراب القرآن: 9/ 355 - 356.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 107.

تحملهُ من معانٍ من الظُّلمِ وعدمِ العدل والاعوجاج والجورِ وعدم الاستواء والنَّقصِ وعدم الإنصاف والبخسِ والمنافاة للحقِّ[1].

بلاغةُ الاحتباك في الآية:

الاحتباكُ حُسْنُ إيجازٍ في التَّعبير

في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ احتباكٌ؛ إذ دلَّ ذكرُ اسم معبوداتهم في أسلوبِ الإنكار على حذف إنكارِ كونها آلهةً، ودلَّ إنكارُ تخصيصه بالإناث على حذفِ ما يدلُّ على أنَّهم جعلوها بناته[2]، وفي هذا حسنُ الإيجاز في التَّعبير وجمالُهُ؛ إذ لو لم يكن في الآية احتباكٌ؛ لظهرَ الكلام ركيكًا ضعيفًا.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الضّيزَى والجور والظُّلم:

اتِّخاذُ الشُّركاء مع الله أشدُّ الظلم وأبشعُه

الضّيزى ظلمٌ فاحشٌ وتعدٍّ بشعٌ، فهو ظلمٌ مع اعوجاجٍ وتحريفٍ للحقوق، وهو أبشعُ وأشدُّ من الجور والظُّلم، فقسمةٌ ضيزى تعني قسمةً ظالمة، غيرَ عادلة، معوجَّة، جائرة غير مستوية، ناقصةً غير تامَّة، وغير منصفة، مانعة، فيها بخسٌ ومنافيةٌ للحقِّ[3]، أمّا الجورُ؛ فأخصُّ من الظُّلم، فالجورُ خلافُ الاستقامة في الحكم، ونَقيضُ العَدْلِ، وضِدُّ القَصْدِ، أو المَيلُ عَن الحقِّ والعدل، فأصلُ الجور العدولُ عن الحقِّ[4]، وأمّا الظُّلم؛ فأصله نقصانُ الحقِّ؛ إذ هو وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعه المختصِّ به إمّا بزيادةٍ أو بنُقْصانٍ[5]، فهو

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ضيز).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 59.

(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ضيز).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (جور)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 231.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ظلم)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 231.

عامٌّ يشملُ كلَّ تعدٍّ على الحقِّ؛ سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا؛ إذ يتراوحُ الظُّلمُ ما بين أكبرِ الكبائرِ، وهو الشِّركُ باللّٰه تعالى، وبين ارتكابِ أصغرِ الذُّنوب، ومن هنا كان استعمالُ لفظة ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ في الآية أنسبَ مع السّياق؛ لاتِّساع دلالتها وكونها أشدَّ وأبشعَ أنواعِ الظُّلم؛ فاتِّخاذُ الشُّركاء مع اللّٰه، وجعْلُهم له ما يكرهون من البنات والذُّكور لهم، من أعظمِ الظُّلم وأشدِّه وأبشعه.

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [النجم: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تأكيدُ بطلانِ الألوهيَّةِ المزعومةِ للأصنام

لَمّا أفهَمَ الإنْكارُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ﴾ بُطْلانَ قَولِهم بكون اللّات والعزّى ومناة الثّالثة الأخرى آلهة، وتخصيصه بالإناث؛ حَصَرَ القَولَ الحَقَّ في هذه الأصنام، فقالَ مُستَأنِفًا: ما هَذِهِ الأصنامُ إلا أسماءٌ لا حَقائِقَ لَها[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾: أصلُ (سلط) يدورُ حولَ مَعْنى القوَّةِ والقَهْرِ، ومن ذلكَ السَّلاطَةُ، وهيَ مِنَ التَّسلُّطِ، وهوَ القَهْرُ، ومنهُ سُمّيَ السُّلطانُ سُلطانًا[2]، وسُمّيَتِ الحُجَّةُ سُلْطانًا؛ لِما يَلْحَقُ مِنَ الهُجوم عَلى القُلوبِ[3]، ومعنى ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾ في الآية: برهان تتعلّقون به، وحجَّة، وإنزالُها مِنَ اللّه: الإخبارُ بها[4].

2) ﴿تَهۡوَى﴾: الهوى، مَقصورٌ: هَوى النَّفس والعِشقُ، يكون في الخيرِ والشَّرِّ وإرادة النَّفس، والجمعُ الأهواء، ويُقالُ: هوى يَهوي هَويًّا: سقطَ إلى أسفَل، وانهَوى مثلُه، وكأنَّ الَّذي يتَّبعُ هَواهُ يَسقُطُ إلى أسفَل، وخاصَّةً إذا ترك شَرعَ اللّه، واتَّبع هواه[5]، "والمُرادُ بـ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾: ما لا باعِثَ عَلَيهِ إلّا المَيْلُ الشَّهوانيُّ، دونَ الأدِلَّةِ"[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 59 - 60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلط).
(3) الرّاغب، المفردات: (سلط).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 108، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 128.
(5) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (هوى).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 110.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ حقيقةِ هذه الأصنامِ المعبودةِ

يقولُ تعالى منكِرًا عليهم ما ابتَدَعوه مِن الافتراءِ والكفرِ مِن عبادةِ الأصنامِ وتسميتِها آلهةً: ما هذه الأسماءُ الَّتي سَمَّيتُم بها أصنامَكم إلَّا أسماءٌ لا حَقيقةَ لها، اختَرَعْتُموها أنتم وآباؤُكم، وزَعمتُم أنَّها آلِهةٌ، وما أنزَل اللهُ تعالى بها مِن حُجَّةٍ ولا بُرهانٍ! ما يتَّبِعُ المُشركونَ في عِبادتِهم تلك الأصنامَ إلَّا الظَّنَّ، وما تَميلُ إليه أنفُسُهم مِنَ الباطِلِ، ولقد جاء أولئك المُشرِكينَ الهُدَى مِن رَبِّهم(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في الآيةِ:

الاستِئنافُ يَكُرُّ بالإبطالِ على مُعتقَدِ المشركين

جُملةُ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ استِئنافٌ يَكُرُّ بالإبطالِ على مُعتقَدِهم مِن أصلِه، بعدَ إبطالِه بما هو مِن لَوازِمِه على مُجاراتِهم فيه؛ لإظهارِ اختلالِ مُعتقَدِهم(2).

بلاغةُ الاحتراسِ في الآيةِ:

نفيُ توهُّمِ أنَّ للهِ أولادًا ذُكورًا وإناثًا

في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ احتراسٌ؛ لئلَّا يَتوهَّمَ مُتوهِّمٌ إنكارَ نَسبتِهم البَناتِ للهِ، أنَّه إنكارٌ لتَخصيصِهم اللهَ بالبَناتِ، وأنَّ له أولادًا ذُكورًا وإناثًا، أو أنَّ مَصبَّ الإنكارِ على زعْمِهم أنَّها بناتٌ، وليست ببَناتٍ، فيَكونُ كالإنكارِ عليهم في زعْمِهم الملائكةَ بَناتٍ(3).

سرُّ إيثارِ النَّفيِ بـ﴿إِنْ﴾:

نفيُ تفنيدِ شبهةِ المشركين بأسلوبٍ هادئٍ لا زاجرٍ

آثَرَ البيانُ الحكيمُ النَّفيَ بـ﴿إِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾؛ لكون النَّفيِ بها جاء في سياقِ الرَّدِّ المنطقيِّ التَّوبيخيِّ الهادئ الَّذي يفنِّدُ شبهةَ المشركين، ويبطلها.

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 528.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 107.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 107.

نكتةُ القصر في الآية:

القَصْرُ في قولِه: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: هي أسماءٌ لا حقائقُ عاقلةٌ متصرِّفةٌ - كما تَزعُمون - وليس القصْرُ حَقيقيًّا؛ لأنَّ لِهاتِه الأصنامِ مُسمَّياتٍ، وهي الحِجارةُ أو البيوتُ الَّتي يَقصِدونها بالعِبادةِ، ويَجعَلون لها سَدَنةً[1]، وهذا على سبيلِ المبالغة والتَّجوُّز، يقال لتحقير إنسان: ما زيدٌ إلّا اسمٌ، وما الملكُ إلّا اسمٌ؛ إذا لم يكن مشتملًا على صفةٍ تُعتبَرُ في الكلام بين النّاس، ويؤيِّد هذا القول قوله تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً﴾ [يوسف: 40]، أي: ما هذه الأصنام إلّا أسماء[2].

لا تـتـعـدّى أصنـامـهـم أن تكون أسماءً لا حقائقَ لها

نكتة تنكير ﴿أَسْمَآءٌ﴾:

تنكيرُ ﴿أَسْمَآءٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ يفيدُ التَّحقيرَ لها، والتَّقليلَ من شأنها، فهي مجرَّدُ "أسماء محضة ليسَ تحتَها - ممّا تنبئُ هي عنهُ من معنى الألوهيَّة - شيءٌ ما أصلًا"[3]، ولذا لا تستحقُّ التَّعريفَ، ولو عرَّفها؛ لأوْهَمَ أنَّها معهودةٌ معروفة في العقل أو الشَّريعة.

الأصـنـام مـحـقَّـرَةٌ لا تحمل مضمونًا حقيقيًّا، ولا تدلُّ عـلى ذاتٍ لها حقُّ الألوهيَّة

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿أَسْمَآءٌ﴾، وفائدة جملة الصِّفة ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾:

لم يقلِ البيانُ الحكيم: (إن هي إلا ذوات أو إناث سميّتموها)، وإنَّما عبَّر بلفظ أسماء؛ للإشارة إلى أنَّها أسماءٌ لا مسمّى لها؛ فإنَّها ليستْ معبوداتٍ حقيقة[4]، فما ادَّعيتم أيُّها المشركون لها من الإلهيَّة ليس لها من ذلك إلّا الأسماء[5].

مسمّياتهم لا حقائقَ لها ولا دليلَ عليها من نقلٍ أو عقلٍ

وأكَّد القرآنُ هذا المعنى بجملة الصِّفة، وهي: ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ الَّتي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 107 - 108.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 250.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 159.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 250.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.

دلَّت على أنَّها أسماء ابتدعوا تسميتها؛ لمجرَّد الهوى دون دليلٍ نقليٍّ ولا وجهٍ عقليٍّ[1].

لطيفةُ نسبة التَّسمية إليهم:

كلُّ مَن يُطلِقُ أسماءً لا دليلَ عليها؛ فهو كالمبتدئِ الواضعِ لها

نسبَ البيانُ القرآنيُّ تسميةَ الأصنام إلى المشركين في قوله تعالى: ﴿سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ﴾ مع أنَّ هذه الأسامي لأصنامهم كانت قبلهم؛ لأنَّ كلَّ مَن يُطلقُ هذه الألفاظ؛ فهو كالمبتدئ الواضعِ لها؛ وذلك لأنَّ الواضعَ الأوَّلَ لهذه الأسماء لَمّا لم يكن واضعًا لها بدليلٍ نقليٍّ أو عقليٍّ لم يجزِ اتِّباعه.

بلاغة التَّوكيد بالضَّمير ﴿أَنتُمۡ﴾:

تأكيدُ نسبةِ التَّسميةِ إلى المشركين لا إلى آبائهم فقط

لَمّا قال سبحانه: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾؛ كأنَّ المشركين قالوا: هذه ليستْ أسماءً وضعناها نحن، وإنَّما هي كسائر الأسماء تلقّيناها ممَّن قبلنا من آبائنا، فجاءَ بضمير الفصل ﴿أَنتُمۡ﴾؛ للتَّأكيد على نسبةِ التَّسمية إليهم أيضًا لا إلى آبائهم فقط، ولاجتثاثِ قولهم من أصله، فهي من اختراعهم واختراعِ آبائهم لا غير، بمجرَّد الهوى لم يروا منها آيةً، ولا كلَّمتهم قطُّ كلمة يعتدّونها[2].

نكتةُ فصل الآية عمّا سبقها:

تعليلُ كونِ أصنامِهِم أسماءً لا حقائقَ لها

جُملةُ: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ تَعليلٌ لمَعْنى القَصْرِ بطَريقةِ الاكتِفاءِ؛ لأنَّ كونَها لا حَقائقَ لها في عالَم الشَّهادةِ أمْرٌ مَحسوسٌ؛ إذ ليستْ إلّا حِجارةً، وأمّا كَونُها لا حَقائقَ لها من عالَم الغَيبِ؛ فلأنَّ عالَمَ الغَيبِ لا طَريقَ إلى إثباتِ ما يَحتويه إلّا بإعلامٍ من عالم الغَيبِ سُبحانَه، أو بدليلِ العقْلِ - فيما للعقلِ فيه إدراكٌ - كدَلالةِ العالَمِ على وُجودِ الصّانعِ وبعْضِ صِفاتِه، واللهُ لم يُخبِرْ أحدًا من رُسلِه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 250، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.

بأنَّ للأصنام أرواحًا أو مَلائكةً، مِثلَ ما أخبَرَ عن حَقائقِ الملائكةِ والجنِّ والشَّياطينِ[1].

انتفاءُ البراهين يُبطل التَّسميات

سرُّ النَّفي بـ﴿مَّآ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفي بحرفِ ﴿مَّآ﴾، في قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ لأنَّها أصرحُ أدواتِ النَّفي وأشدُّها قطعًا، فنفت أنْ يكون اللّهُ أنزلَ، أو أيَّد، أو شرَّع لهذه الأسماء المعبودة أيَّ برهانٍ أو دليل؛ وذلك أنَّه لمّا عُلِمَ بما سبقَ أنَّ اللّهَ تعالى لم يأمرهم بشيءٍ ممّا افتروه عليه؛ صرَّح به نافيًا أن يدلَّ على ما وسموه به دليلٌ[2].

نفيُ أيِّ أصلٍ دينيٍّ سابقٍ لهذه العقيدة الباطلة

دلالةُ الفعل الماضي ﴿أَنزَلَ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ الماضي ﴿أَنزَلَ﴾؛ للدَّلالة على النَّفي القطعيِّ لما مضى، فالنَّفيُ لا يخصُّ الحالَ فقط، بل يشملُ الزَّمن الماضي كلَّه، أي: لم يُنزِل اللّهُ من قبل، ولا في أيِّ وقتٍ سابق أيَّ حُجَّةٍ، أو وحيٍ يسوِّغُ عبادتكم لهذه الأصنام.

الأصنامُ أسماءٌ سمّوها ليس لها أيُّ أصلٍ عُلوي

بلاغةُ التَّشبيه في الفعل ﴿أَنزَلَ﴾:

السُّلطانُ: الحُجَّةُ، وعُبِّرَ عن الإخبارِ الموحَى به بفعلِ ﴿أَنزَلَ﴾؛ لأنَّه إخبارٌ يَرِدُ مِن العالَم العُلويِّ، مِن اللّهِ تعالى، وهذا كِنايةٌ عن انتفاءِ أنْ تكونَ عليها حُجَّةٌ؛ لأنَّ وُجودَ الحُجَّةِ يَستلزِمُ ظُهورَها[3]، أي: استعمال ﴿أَنزَلَ﴾ هنا فيه تشبيهٌ ضمنيٌّ للحُجَّةِ الصَّحيحة بالوحي السَّماوي، أي: إن كانت هناك حُجَّةٌ لعبادةِ الأصنام؛ لوجبَ أنْ تُنزَّلَ من عند اللّهِ كما يُنزَّلُ الوحي، لكنَّها لم تُنزَل، إذًا لا حُجَّةَ فيها، فكلُّ ما لم يقرِّره اللّهُ، فلا قوَّةَ فيه ولا سلطان له؛ لأنَّه لا حقيقةَ له.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 108.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 108.

وجهُ إظهار اسم الله الأعظم:

المبالغةُ في نفي أيِّ حجَّةٍ للمشركين

في قوله: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ عبَّر بالاسم الأعظم الجامعِ لصفاتِ الجلال والجمال والكمال؛ للمبالغةِ في نفي أيِّ حجَّةٍ للمشركين في اتِّخاذهم هذه الأصنام شركاءَ للّه.

معنى الباء في القيد ﴿بِهَا﴾ وعود الضَّمير فيه:

نفيُ أيِّ ارتباطٍ بين هذه الأسماء والوحي الإلهيِّ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾ بمعنى المصاحبة، كقول القائل: ارتحل بأهله ومتاعه، أي: مع، فالمعنى: ما أنزلَ اللّهُ سلطانًا معها، أي: مقترنًا بها يؤيِّدها[1]، فلا توجد معها أيُّ حجَّةٍ، فهي منفصلةٌ عن الوحي والدَّليل كلَّ الانفصال، والضَّميرُ في ﴿بِهَا﴾ يعودُ على الأسماء المعبودة، الَّتي ذُكِرتْ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾، ويجوز أن تكون للاستعلاء المعنويِّ[2]، والمعنى: ما أنزل اللّه تعالى عليها من حجَّة أو برهان.

معنى حرف الجرِّ ﴿مِن﴾:

تأكيدُ نفي إنزالِ السُّلطانِ لهذه التَّسميات الباطلة

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ للتَّوكيد ودلالتها التَّنصيصُ على عموم النَّفي؛ إذ أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ بها عمومَ نفي إنزالِ السُّلطانِ واستغراقه[3]، فلا سلطانَ مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، ظاهرًا أو خفيًّا، أنزلهُ اللّهُ لتأييد هذه الأوثان.

دلالة لفظ ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾ منكَّرًا:

نفيُ أيِّ سلطانٍ لهذه الأسماء مبالغةٌ في تأكيدِ بطلانها

آثرَ النَّظمُ الحكيم التَّعبيرَ بلفظ ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾، في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ لاتِّساع دلالته؛ فمن معانيه الحجَّةُ القاهرة، والحجَّة الَّتي يُستضاءُ بها في الأمور، والبرهانُ والدَّليلُ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 251.

(2) فخر الدين قباوة، المفصل في تفسير القرآن الكريم المشهور بتفسير الجلالين، ص: 1864.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.

والقوَّةُ والقهرُ والغلبةُ والنُّفوذُ والسَّيطرة[1]، ومِن ثَمَّ فإنَّ نفيَ أيِّ سلطانٍ لهذه الأسماء - الَّتي اخترعوها - مبالغةٌ في تأكيدِ بطلانها، كما أنَّ هذا اللَّفظ يتناسبُ مع السّياق الَّذي يبيِّن كونها مجرَّد ألفاظٍ لا حقائقَ لها.

ونكَّرَ البيانُ الإلهيُّ مفردة ﴿سُلۡطَٰنٍۚ﴾؛ لإفادةِ العموم؛ لكونها جاءتْ نكرةً في سياقِ النَّفي، أي: ليس لهذه الأسماء أيَّ سلطانٍ مهما كان صغيرًا أو كبيرًا، ظاهرًا أو خفيًّا.

سرُّ تكرار النَّفي بـ﴿إِن﴾:

التَّكاملُ في تأكيد إبطالِ شُبَهِ المشركين في أيِّ وقتٍ من الأوقات

كرَّرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفيَ بـ﴿إِن﴾، في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ ليتكاملَ تأكيدُ الإبطالِ لشُبهِ المشركين فيما يتعلَّقُ بآلهتهم المزعومة في أيِّ وقت من الأوقات، وأيِّ حالٍ من الأحوال[2] بالأسلوب ذاته، فقد ركَّز في قوله تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ﴾ على بُطلان المسمَّيات نفسها، فهي لا تتجاوزُ كونها ألفاظًا اخترعوها لا مسمَّيات لها في الواقع، وركَّز في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ على بُطلانِ المسلكِ والمنهج، أي: إنَّ الَّذي يحكمُ عبادتكم لهذه الأسماء هو الهوى والظَّنُّ، لا العقل ولا الوحي.

إذًا فالتَّكرارُ ليس تكرارًا شكليًّا، بل هو تصعيدٌ في التَّوبيخ وتوسيعٌ في التَّفنيد، فاستعمال الأسلوب نفسه في عبارتين في آية واحدة يُعمِّقُ الإيقاعَ البيانيَّ، ويجعلُ التَّفنيدَ متكرِّرًا بنغمةٍ واحدةٍ تعمِّقُ أثرَ الإنكارِ، وتثبِّتُ المعنى في الذِّهن.

بلاغةُ الالتفات بالاستئناف في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾:

تَعدادُ قَبائحِهم اقتضَى الإعراضَ عنهم تحقيرًا لشأنِهم

في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ التفتَ البيانُ الحكيمُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سلط).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 60.

عن خِطابِ المشركينَ، الَّذي كان ابتِداؤُه مِن أوَّلِ السّورةِ، إلى الغَيبةِ عنهم؛ نعيًا عليهم بعدَ مجيءِ الآياتِ البيِّنات[1]، وللإيذانِ بأنَّ تعدادَ قَبائحِهم اقتضَى الإعراضَ عنهم تَحقيرًا لشأْنِهم، وحِكايةَ جِناياتِهم لغيرِهم، بأنَّهم ما يتَّبعونَ فيما ذُكِرَ من التَّسميةِ والعملِ بموجِبِها إلّا توهَّم أنَّ ما هُم عليهِ حقٌّ توهُّمًا باطلًا، وما تشتهيهِ أنفسُهم الأمّارةُ بالسّوءِ[2]، وهو استئنافٌ بيانيٌّ، فضميرُ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ عائدٌ على الَّذين كان الخطابُ موجَّهًا إليهم، وكأنَّه لَمّا نفى أنْ تَكونَ لهم حُجَّةٌ على الخَصائصِ، الَّتي يَزعُمونها لأصنامِهم، أو على أنَّ اللّهَ سمّاهم بتلك الأسماءِ؛ تبادر سؤالٌ عن سببِ ذلك، فأعقبَ سبحانه بإثباتِ أنَّهم استَنَدوا فيما يَزعُمونَه إلى الأوهامِ، وما تُحِبُّه نُفوسُهم مِن عِبادةِ الأصنامِ ومَحبَّةِ سَدَنتِها ومَواكبِ زيارتِها، وغُرورِهم بأنَّها تَسعَى في الوساطةِ لهم عندَ اللّهِ تعالى بما يَرغَبونَه في حَياتِهم، فتلك أوهامٌ وأمانيُّ مَحبوبةٌ لهم يَعيشون في غُرورِها[3].

وجهُ التَّعبير بالفعل ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ دلالة وصيغة:

تـصـويـرُ اجتماعِهم على الانقيادِ الأعمى والمستمرِّ لأوهامٍ باطلة

التَّعبيرُ بالاتِّباع في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ للدَّلالةِ على الانقيادِ الأعمى والذُّلِّ، وكأنَّهم يسيرون خلفَ الظَّنِّ والهوى، ويأتمرون به، ويقتفون أثره، بلا بصيرةٍ ولا نظر؛ لأنَّ أصلَ الكلمةِ يدلُّ على التُّلوِّ والقفْو، وفي إيثارِ صيغة التَّضعيف ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ دون (يتْبَعون)؛ للدَّلالة إلى أنَّهم يبذلون الجهدَ في اتِّباعهم للظَّنِّ الفاسد وهوى النَّفس، والمعنى: فيتَّبَعون بكلِّ عزائمهم؛ وذلك لأنَّ الاتِّباعَ جاءَ على صيغة الافتعالِ الَّتي تدلُّ على شدَّةِ الطَّلبِ والاجتهادِ في الطَّلب، والمبالغةِ في الفعل، وأمّا التَّعبيرُ بصيغة المضارع؛ فللدَّلالةِ على أنَّهم سيَستَمِرّونَ على اتِّباعِ الظَّنِّ وما تَهواهُ نُفوسُهم، وذلك يدُلُّ على

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 92.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 159.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 17/ 109.

أنَّهم اتَّبعوا ذلك مِن قبْلُ؛ بدَلالةِ لَحْنِ الخِطابِ أو فحواهُ[1]، وفيه تصويرٌ بديعٌ لحالة الانقياد التّامِّ لأوهامٍ لا تقودُ إلّا إلى الباطل، وأمّا صيغةُ الجمع؛ فللدَّلالة على تعاونهم على اتِّباع الباطل وهوى النَّفس.

بلاغةُ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

قصْرُ الاتِّباع على الوهم والأهواءِ الشَّخصيَّة

أفادَ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ معنى الحصر؛ لأنَّه سُبِقَ بنفي، والمعنى: لا يتَّبعون وحيًا، ولا عقلًا راجحًا، ولا برهانًا موحًى به، وإنَّما يتَّبعون الظُّنونَ والتَّخمينات والأهواء الشَّخصيَّة، فاتِّباعهم محصورٌ في الضَّلال بين الوهم، وهوى النَّفس.

دلالة تعريف ﴿ٱلظَّنَّ﴾:

المعهودُ عنهم هو الظَّنُّ المعلولُ في الله وصفاته وأحكامه

(الـ) في ﴿ٱلظَّنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ عهديَّة، والمقصودُ هو الاعتقادُ الباطل، والظَّنُّ المعلولُ في الله وصفاتِه وأحكامه[2]، لا أصلَ الظَّنِّ، وهو الاعتِقادُ غيرُ الجازمِ، بقَرينةِ عطْفِ ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ عليه[3]، ولأنَّه جاء في سياق الاعتقادِ الَّذي يُشترَطُ فيه اليقين، لا يجوزُ أن يُبنى على الظَّنِّ؛ لأنَّ اليقينَ لا يتعذَّر، وإلى هذا أشارَ بقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي: اتَّبعوا الظَّنَّ، وقد أمكنهم الأخذ باليقين[4].

توجيه العطف بالواو:

جمعُ الكافرين بين الظَّنِّ الباطل واتِّباع الهوى دليلٌ على شدَّة ضلالهم

عطْفُ ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ على ﴿ٱلظَّنَّ﴾ عطْفُ العِلَّةِ على المَعلولِ، أي: الظَّنُّ الَّذي يَبعَثُهم على اتِّباعِه أنَّه موافقٌ لِهَواهم وإلْفِهم لا الظَّنُّ الموافق للحقِّ[5]، كما دلَّ العطفُ على اجتماعِ ما تهواه أنفسهم، وظنِّهم الباطل في كونهما مقصورًا عليه، فمناطُ الذَّمِّ في

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 17/ 109.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/ 61.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 17/ 109 - 110.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 251.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 61، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 17/ 110.

هذه الآية، هو قصرُ اتِّباعهم على ظنِّهم الباطل، وما تهواهُ أنفسهم، والعطفُ يشيرُ كذلك إلى أنَّهم جمعوا بين اتِّباع الظَّنِّ الباطل في الاعتقاد، واتِّباع هوى النَّفس في السُّلوك والعمل والعبادة[1]، وهذا يدلُّ على شدَّة ضلالهم.

معنى (ما) في قوله: ﴿وَمَا تَهۡوَى﴾:

من شدَّة كفر المشركين وزيغهم لم يثبتوا على ضلالٍ واحد

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهۡوَى﴾ تحتملُ وجهين: الأوَّل: مصدريَّة، والتَّقدير: إن يتَّبعون إلّا الظَّنَّ وهوى الأنفس، والعدول عن صريح المصدر إلى الفعل برغم ما في ذلك من زيادة وتطويل؛ لكون الفعل ﴿تَهۡوَى﴾ يعطي قوَّةً في المعنى، ويجعله أنسبَ وأقرب؛ ليدلَّ على كلِّ هوى، فهو مع دلالته على تحقُّق المصدر يفيدُ التَّجدُّدَ والحدوث والاستقبال، بما يشيرُ إلى أنَّهم من شدَّة كفرهم ليسوا بثابتين على ضلالٍ واحد، وما هوتْ أنفسهم في الماضي شيئًا من أنواع العبادة، فالتزموا به، وداموا عليه، بل كلَّ يوم هم يستخرجون عبادةً، وإذا انكسرت أصنامهم اليوم؛ أتوا بغيرها غدًا، ويغيّرون وضعَ عبادتهم بمقتضى شهوتهم اليوم، والثّاني: أنَّها موصولة، والتَّقدير: والَّذي تشتهيه أنفسهم، والفرقُ بين المصدريَّة والموصولة أنَّ المُتَّبَعَ على الأوَّل الهوى، وعلى الثّاني مُقْتَضَى الهَوَى[2].

دلالة تعريف ﴿ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ وجمعها:

اتِّباعُ المشركين لهوى النَّفس أو أنفسهم موجبٌ لذمِّهم

تعريفُ ﴿ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ إمّا عِوَضٌ عن المُضافِ إليه، أي: وما تَهواهُ أنفُسُهم الأمّارة بالسوء[3]، أو للعهد، أو للجنسِ؛ والنَّفسُ من حيث هي إنَّما تهوى غير الأفضل؛ لأنَّها مجبولةٌ على حبِّ الملاذِّ، ولا تشتهي أبدًا إلّا بما يهوي بها عن

(1) الشعراوي، خواطر الشعراوي، ص: 14701.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 252.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 110.

غاية أوجها إلى أسفل حضيضها، وإنَّما يسوقها إلى حسنِ العاقبة والمعالي العقلُ[1].

اتّبع كلُّ واحد من المشركين ما تهواهُ نفسه هو لا ما تهواه الأنفس

وقد عبَّر عن ﴿ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ بلفظ الجمع - مع أنَّهم لا يتَّبعون ما تهواه كلُّ نفسٍ، فإنَّ من النُّفوسِ ما لا تهوى ما تهواه غيرها - لكونه من بابِ مقابلة الجمع بالجمع، معناه اتّبع كلُّ واحد منهم ما تهواهُ نفسه، يُقال: خرجَ النّاسُ بأهليهم، أي: كلُّ واحدٍ بأهله لا كلُّ واحدٍ بأهل الجمع[2].

بلاغةُ الكنايةِ في جملة العطف ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾:

لا يضبط المشركين وحيٌ، ولا يقودهم برهانٌ، وإنّما ميلُ النَّفس

في جملة العطفِ، وهي: ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ كِنايةٌ عن الخطَأ باعتبارِ لُزومِه له غالبًا، ومَناطُ الذَّمِّ في هذه الآيةِ هو قصْرُ اتِّباع المشركين على ما تَهواهُ أنفُسُهم[3]، وكأنَّها تقول: ولا يُحرِّكهم برهان، ولا يضبطهم وحيٌ، بل فقط ما تميلُ إليه أنفسهم من رغباتٍ وميول فاسدة، وهذا أبلغُ في الذَّمِّ والتَّقريع من التَّصريح.

وجه التَّعبير بالواو:

زيادةُ تقبيحِ حال من اتَّبعوا الظَّنَّ وهوى النَّفس، وقد جاءهم الرَّسول بالكتابِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ إمّا حاليَّة، والجملةُ حالٌ من فاعلِ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾، وهي حالٌ مُقرِّرةٌ للتَّعجيبِ مِن حالِهم، أي: يَستمِرّون على اتِّباعِ الظَّنِّ والهَوى في حالِ أنَّ اللّهَ أرسَلَ إليهم رسولًا بالهُدى[4]، أو اعتراضيَّةٌ، وهي تَوبيخٌ لهم، والَّذي هم عليه باطلٌ، أي: يَفعَلونَ هذه القبائحَ، والهُدى قد جاءَهُم، فكانوا أولى مَن يَقبَلُه، ويَترُكُ عِبادةَ مَن لا يُجدي عِبادتُه[5]، وسواءٌ كانت حاليَّة أو اعتراضيَّة، ففيها تأكيدٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 61، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 58.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 252.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 109 - 110.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 110.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 18.

لبطلانِ اتِّباعِ الظَّنِّ وهوى النَّفسِ، وزيادةُ تقبيحٍ لحالِهم، فإنَّ اتِّباعهما - من أيِّ شخصٍ كان - قبيحٌ، وممَّن هداهُ اللّهُ تعالى - بإرسال الرَّسول ﷺ وإنزالِ الكتابِ - أقبحُ(1).

بلاغةُ التَّوكيد بلام القسم و(قد):

المبالغةُ في التَّعجيب من استمرارِ الكافرين على ضلالهم

لامُ القَسَم وحرفُ التَّحقيقِ والتَّوكيد (قد) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾، يفيدان تأكيدَ الخبَرِ؛ للمُبالَغةِ فيما يَتضمَّنُه من التَّعجيبِ من حالِهم، كأنَّ المُخاطَبَ يشُكُّ في أنَّه جاءَهم ما فيه هُدًى مُقنِعٌ لهم من جِهةِ استمرارِهم على ضَلالِهم استمرارًا لا يُظَنُّ مِثلُه بعاقلٍ(2).

سرُّ إيثار فعل المجيء ماضيًا مجموعًا:

اتِّباعُ الظَّنِّ المعلول والهوى المضلِّ ممَّن تحقَّق مجيءُ الهدى إليه أقبح

عبَّر البيانُ الحكيمُ بلفظِ المجيء في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾ دون لفظ (أتاهم)؛ لأنَّ المجيءَ أعمُّ وأشمَلُ من الإتيان، فهو تمامُ الإتيان، ويُعبَّرُ بالمجيء كذلك عن القصدِ بالأمرِ والتَّدبير(3)، وهو بذلك أنسب من الإتيان؛ لكون الفعل من اللّه تعالى المحسن إليهم، ثمَّ إنَّ "الإتيان قد يقال باعتبار القصد، وإن لم يكن منه الحصول، أمّا المجيء؛ فيقال اعتبارًا بالحصول"(4)، ومجيءُ هدى اللّه واقعٌ محقَّق.

يرسِّخ ذلك صوغه ماضيًا دون المضارع؛ لأنَّه سُبِقَ بحرف التَّحقيق (قد)؛ ليدلَّ معه على تحقُّقِ وقوعِه، وقوعِ مجيء الهدى من اللّه بإرسالِ الرَّسول ﷺ وإنزالِ الكتابِ، وفي هذا زيادةُ تقبيحٍ لحالِهم، فإنَّ اتِّباعَ الظَّنِّ المعلولِ والهوى المضلِّ من أيِّ شخصٍ قبيحٌ، وممَّن تحقَّق مجيء الهدى إليه أقبح.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 110.
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 361.
(4) الراغب، المفردات: (جاء).

معنى حرف الجر ﴿مِّن﴾:

إلـهيَّـةٌ مصدر الـهـدى حـجَّـةٌ عـلى المـكـذِّبين وتـعـجـيـبٌ من حالهم

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ ابتدائيَّةٌ، تفيدُ أنَّ الهدى صادرٌ ومبتدأ من عند الله تعالى لا من عند غيره، فمصدره إلهيٌّ خالص، لا هوى فيه ولا افتراء، ولذلك فهو حُجَّةٌ قاطعة عليهم في إنكارهم وتكذيبهم، وزيادةٌ في التَّعجيب من استمرار ضلالهم.

نكتةُ التَّعبير عن الجلالة بلفظ الرُّبوبيَّة:

ضَـلالٌ مَخلوطٌ بـالـعـصـيـانِ والـتَّـمـرُّدِ على المحسن الَّـذي تجبُ طاعته

التَّعبيرُ عن اسم الجَلالةِ بعُنوانِ ﴿رَّبِّهِمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ لزيادةِ التَّعجيبِ مِن تَصامُمِهم عن سَماعِ الهُدى، مع أنَّه من المحسنِ إليهم، والَّذي تجبُ طاعتُه، فكان ضَلالُهم مَخلوطًا بالعِصيانِ والتَّمرُّدِ على خالِقِهم[1].

دلالةُ تعريف لفظ الرُّبوبيَّة بالإضافة إلى الضَّمير:

الـتَّـبـكـيـتُ جـزاءُ المكذِّبين المـعـرضـين عن الهدى الـصّـادر عــن المـحـسـن إليهم

في قوله: ﴿رَّبِّهِمُ﴾ إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير العائد إلى الكافرين، الّذين لا يتَّبعون إلّا الظَّنَّ الباطل وهوى النَّفس، وفي هذا تبكيتٌ للمكذِّبين؛ لأنَّهم أعرضوا عن هدًى صدرَ عن الجهةِ الَّتي لا يُعذرُ في الإعراض عنها، فهي الرَّبُّ المحسنُ إليهم رغمَ إعراضهم.

دلالة تعريف ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾:

إعراضُ الكافرين عــن الــهــدى الكامل الواضح دليلٌ على شدَّة ضلالهم

التَّعريفُ في ﴿ٱلْهُدَىٰٓ﴾؛ للدَّلالةِ على معْنى الكَمالِ، أي: الهُدى الواضحُ[2]، والمعنى: ولقد جاءهم من ربِّهم المحسن إليهم الهدى الكامل في بابه، إلى الدّين الحقِّ النّاطق بالكتاب المعجز النّاطق بالصّواب على لسان الرَّسول ﷺ والرَّأيُ يقتضي أنَّ مَن رأى الهدى؛ تَبعهُ، ولو أتاهُ به عدوُّه، فكيف إذا أتاه به من هو أفضلُ منه، من عند مَن إحسانُه لم ينقطعْ عنه قط[3] ؟.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 61، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 110.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 110.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 252، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 61.

﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥﴾ [النجم: 24 - 25]

❁ مُناسَبةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

لَمّا كان سياقُ الكلام يتحدَّثُ عن اتِّباعهم الظَّنَّ الفاسدَ وأهواءَ أنفسهم وتركهم للحقِّ، الَّذي جاء من عند خالقهم والمحسن عليهم، أي: انقطعَ العذرُ، وبطلَ التَّعلُّل؛ عقَّبَ ببيان أنَّ عليهم أن يتركوا أهويتهم، ويهتدوا بهدى ربِّهم، وذكرَ الأصلَ الموجبَ لاتِّباع الهوى، وهو اتِّباع هذا الآنس بنفسه ما يشتهي من جاهٍ ومالٍ وطولِ عمر ورفاهيةِ عيش، فقال: ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾[1].

بعد انقطاعِ العذرِ وبطلانِ التَّعلُّلِ بيَّن وجوب ترك الهوى والاهتداء بهداه تعالى

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿تَمَنَّىٰ﴾: أصله يَدُلُّ على تَقْديرِ شَيءٍ، ونَفاذِ القَضاءِ به، وتمنَّيتُ الشَّيءَ، أي: قدَّرتُه، وأحببتُ أن يَصيرَ إليَّ، فالتَّمَنّي تَشَهّي حُصولِ الأمرِ المَرْغوبِ فيه، وحديثُ النَّفْسِ بما يَكونُ وما لا يَكونُ[2]، والتَّمنّي تقديرُ شيءٍ في النَّفسِ وتصويرُه فيها معَ محبَّةِ حصولِ لذلكَ الشَّيءِ، وأكثرُ ما يكونُ عن ظَنٍّ وتَخمينٍ؛ ولهذا كان الكَذِبُ لهُ أملكَ، وكانَ غالبُ التَّمنّي كَذِبًا وتصوُّرَ ما لا حقيقةَ له؛ ولذلكَ وقعَ في المستحيلاتِ عكسَ التَّرجّي، فلا يقعُ إلّا في المُمْكِنِ[3]، ومعنى ﴿تَمَنَّىٰ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

ينكِرُ تعالى على مَن زعَم أنَّه يحصُلُ له ما تمنَّى، ويُبيِّنُ أنَّه ليس للإنسانِ ما يَتمنّاه، ويَشتهيه، فالأمرُ كلُّه للّه، فيقولُ: أم للإنسانِ ما يَتمنّاه مِنَ الخَيرِ؟ فلله وحدَه الآخِرةُ والدُّنيا.

هوى النَّفسِ ومناها لا يغيِّران ولا يبدِّلان في الحقائق

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (مني).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مني).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الإضراب الانتقالي بـ﴿أَمۡ﴾:

الانتقالُ من بيانِ هوى أنفسهم إلى بيانِ أنَّ ذلكَ لا ينفعهم

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ منقطعةٌ، وما فيها من معنى (بَل) إنَّما هو إضرابٌ انتقاليٌّ ناشئٌ عن قولِه: ﴿وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾، أي: الانتقالُ من بيانِ أنَّ ما هُم عليه مستندٌ إلى توهُّمهم وهوى أنفسهم إلى بيانِ أنَّ ذلكَ ممّا لا يُجدي نفعًا أصلًا[1].

بلاغةُ الاستفهام المقدَّر بعد ﴿أَمۡ﴾:

تأديبُ النُّفوس وترويضها على تحمُّلِ ما يخالفُ أهواءها

الاستفهامُ المُقدَّرُ بعْدَ ﴿أَمۡ﴾ إنكاريٌّ، قُصِدَ به إبطالُ نوالِ الإنسان ما يتمنّاه، وأن يجعلَ ما يتمنّاه باعثًا عن أعماله ومعتقداته، بل عليه أن يتطلَّبَ الحقَّ من دلائله وعلاماته، وإن خالفَ ما يتمنّاه، وهذا مُتَّصِلٌ بقولِه تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[2]، ويفيدُ كذلك النَّفيَ، والمعنى: ليسَ للإنسانِ كلُّ ما يتمنّاهُ وتشتهيهِ نفسُه من الأمورِ الَّتي من جُمْلَتِها أطماعُهم الفارغةُ في شفاعةِ الآلهةِ ونظائرِها، الَّتي لا تكادُ تدخلُ تحتَ الوجودِ[3]، وفي هذا الاستفهام تأديبٌ وترويضٌ للنُّفوس على تحمُّلِ ما يخالفُ أهواءها إذا كان الحقُّ مخالفًا لِلهوى، وليحملَ نفسه عليه حتّى تتخلَّق به[4].

معنى اللّام في ﴿لِلۡإِنسَٰنِ﴾:

إبطالُ تعلُّقِ الأماني بغير عملٍ أو استحقاقٍ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ لامُ الاختصاص، وتفيدُ أنَّ ما يتمنّاه الإنسانُ ليس مختصًّا به ولا مضمونًا له، فهو لا يملكُ أن ينالَ كلَّ ما يشتهي بمجرَّد التَّمنّي، أي: جاء هذا الإنكار بـ(اللام)، الدّالَّة على الاختصاص في سياق النَّفي؛ لإبطالِ تعلُّق الأماني بغير عملٍ أو استحقاق.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 159.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 111.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 424، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 159.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 111.

دلالة تعريف (الإنسان):

تَعريفُ الإنسانِ في قولِه: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ هو تعريفُ الجِنسِ، ووُقوعُه في حيِّزِ الإنكارِ المُساوي للنَّفْيِ؛ جَعلَه عامًّا في كلِّ إنسانٍ[1]، أي: إبطالُ نوالِ كلِّ إنسانٍ لِما يتمنّاه باعتباره باعثًا عن أعماله ومعتقداته.

إبطالُ نوالِ كلِّ إنسانٍ لِما يتمنّاه باعتباره باعثًا عن أعماله ومعتقداته

سرُّ تقديم شبه الجملة ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾:

تقدُّمُ المَجرورِ في قوله تعالى: ﴿لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾؛ لأنَّ مَحطَّ الإنكارِ هو أمْنيَّتُهم أن تَجريَ الأمورُ على حسَبِ أهوائِهم، فلذلك كانوا يُعرِضون عن كلِّ ما يُخالِفُ أهواءَهُم، فتَقديمُ المَعمولِ هنا لإفادةِ القصْرِ، وهو قصْرُ قلْبٍ، أي: ليس ذلك مَقصورًا عليهم، كما هو مُقْتضى حالِهم، فنُزِّلوا مَنزلةَ مَن يَرَونَ الأمورَ تَجْري على ما يَتمنَّون، أي: بل أماني الإنسانِ بيَدِ اللّهِ، يُعطي بعْضَها، ويَمنَعُ بعضَها، كما دلَّ عليه التَّفريعُ عقِبَه بقولِه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْآخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾[2].

مـحـطُّ الإنـكـار اعتقاد المشركين بأنَّ الأمورَ تَجْري على ما يَتمنَّون

سرُّ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ الموصولة:

﴿مَا﴾ المَوصولةُ في قوله: ﴿مَا تَمَنَّىٰ﴾ بمَنزِلةِ المُعرَّفِ بلامِ الجِنسِ، فوُقوعُها في حيِّزِ الاستِفهامِ الإنكاريِّ الَّذي بمَنزلةِ النَّفْيِ يَقْتضي العُمومَ، أي: ما للإنسانِ شَيءٌ ممّا تمنَّى، أي: ليس شَيءٌ جاريًا على إرادتِه، بلْ على إرادةِ اللّهِ، وقد شمِلَ ذلك كلَّ هَوًى دَعاهم إلى الإعراضِ عن كَلامِ الرَّسولِ ﷺ فشَمِلَ تَمنِّيهم شَفاعةَ الأصنامِ، وهو الأهمُّ مِن أحوالِ الأصنامِ عِندَهم، وذلك ما يُؤذِنُ به قولُه بعْدَ هذا: ﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾، وتَمنِّيهم أنْ يكونَ الرَّسولُ مَلَكًا، وغيرَ ذلك، نحْوَ قولِهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ

ليس للإنسان شـيءٌ ممّا يتمنّاه، فهو جارٍ على إرادة الله تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 111.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 111 - 112.

﴿هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزخرف: 31]، وقولِهم: ﴿بِقُرۡءَانٍ غَيۡرِ هَٰذَآ أَوۡ بَدِّلۡهُۚ﴾ [يونس: 15](1).

دلالة فعل التَّمنّي ماضيًا:

توبيخُ الإنسانِ على سلوكِ وتوهُّمِ في أمرٍ مختصٍّ بالله سبحانه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن فعل التَّمنّي بصيغة الماضي الَّتي تدلُّ على أمرٍ قد حصل؛ للإشارة إلى تحقُّق التَّمنّي في ذهنِ صاحبه، كأنَّ المشركين جعلوا ما يتمنَّوه أمرًا منتهيًا واقعًا، فناسبَ أنْ يُعبِّرَ عن تمنّيهم بصيغة الماضي، فردَّ اللّهُ عليه ذلك التَّوهُّم، وللإشارة كذلك إلى أنَّ التَّمنّي صار عادةً للكافرين، وسلوكًا مستقرًّا، لا مجرَّدَ احتمال، وفي الأمرين توبيخٌ لهذا الإنسان الكافرِ على سلوكه وتوهُّمه في أمورٍ مختصَّةٍ باللّه سبحانه.

بلاغةُ التَّفريع بالـ(الفاء):

الأمرُ كلُّه لله تعالى يتصرَّفُ فيه كما يشاءُ لا لأماني العبدِ المربوبِ المقهور

بعدَ أن أُنكِرَ أنَّ للإنسانِ ما تَمنَّى، وكان ذلك دليلًا قطعيًّا على أنَّه مربوبٌ مقهورٌ ممَّن له الأمر كلُّه، فُرِّعَ عليه أنَّه للّهِ الملكِ الأعظمِ وحده كانتِ الآخرةُ والأولى، أي: هو مالِكُ الآخرةِ والأولى، أي: فهو يَتصرَّفُ في أحوالِ أهلِهما بحسَبِ إرادته، لا بحسَبِ تَمنّي الإنسانِ الكافر، وهذا إبطالٌ لمُعتقَداتِ المُشرِكين، الَّتي منها يَقينُهم بشَفاعةِ أصْنامِهم(2).

معنى اللّام في (لله):

اختِصاصُ الله بأُمورِ الآخرةِ والأولى ينفي أن يكونَ للإنسانِ أيُّ سلطةٍ عليها

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ هي لامُ الملك، وهي تفيدُ أنَّ الدُّنيا والآخرة مملوكتان للّه، يتصرَّف فيهما كما يشاء، وفي هذا تعليلٌ لانتِفاءِ أن يكونَ للإنسانِ ما يَتمنّاهُ حتْمًا، أي: اختِصاص أُمورِ الآخرةِ والأولى جَميعًا بهِ تعالى، وهذا الاختصاص مُقْتضٍ لانتِفاءِ أن يكونَ للإنسانِ أمْرٌ مِن الأمورِ(3).

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 111.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 62، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 111.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 159.

وجه التَّصريح باسم الجلالة (الله):

اللــهُ هـو المـالكُ والحاكمُ والمُدبِّرُ في الأمرِ كلِّه

في التَّصريح بالاسم الجليل (اللّه) - الجامع لكلِّ صفاتِ الكمالِ والقدرة والعظمة بعد (اللام) - تقويةٌ لمعنى التَّوكيد والاختصاص، وبيانٌ أنَّ اللّهَ هو المالكُ والحاكمُ والمُدبِّر في الأمر كلِّه، وأنَّ الأمنياتِ لا تصنعُ المصائر، بل الحاكميَّةُ للّه وحده؛ وذلك لأنَّ الاسمَ الجليل يبعثُ في النَّفسِ المهابة والتَّعظيم تجاهَ اللّه سبحانه.

سرُّ تقديم الخبر (لله):

أمــورُ الآخــرة والأولى مقصورةٌ على كونها للهِ تعالى

تَقديمُ المَعمولِ في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ﴾؛ لإفادةِ الحصْر، أي: ما يحتويه العالمُ الأخرويُّ والدُّنيويُّ من الأمور للّهِ تعالى، لا للإنسانِ[1]، وفي هذا تعليلٌ لانتفاءِ أن يكونَ للإنسانِ ما يتمنّاهُ حتمًا، فإنَّ اختصاصَ أمورِ الآخرة والأولى جميعًا بهِ تعالى مقتضٍ لانتفاءِ أن يكونَ له أمرٌ من الأمور[2]، ويمكن أن يكونَ التَّقديم للاهتمامِ بالاسم الجليل وتعظيمه.

دلالةُ تعريف لفظي ﴿ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾:

الــتَّــعــريــفُ بالدّارين إعلانٌ لِمُلْكِ اللهِ المطلق

لامُ التَّعريف في لفظي ﴿ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ عهديَّةٌ، والعهدُ ذهنيٌّ، والمرادُ بالآخرة والأولى الدّارُ المعهودة عند السّامعين، فالآخرةُ: العالمُ الأخرويُّ، دارُ البقاء والجزاء، والأولى: العالمُ الدُّنيويُّ، الدّارُ الَّتي نحنُ فيها، والمراد بهما ما يحتويان عليه من الأمور، أي: أمور الآخرة وأمور الدُّنيا[3].

نكتة تقديم ﴿ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ على (الأولَى):

أولويَّةُ الآخرة في الميـزان القـرآنيِّ لــلاهــتــمــام بالأبقى

قُدِّمَتِ ﴿ٱلۡأٓخِرَةُ﴾ على (الأولى) في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾؛ للاهتمامِ بالآخرة وإعلاءِ شأنها، والتَّنبيهِ إلى أهمّيَّتها وقيمتها في الميزان الإلهيِّ، وأنَّها الَّتي يجِبُ أن يكونَ اعتِناءُ المؤمنينَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 112.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 160.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 112.

بها، فهي محلُّ الجزاء والمصير؛ لأنَّ الخِطابَ في هذه الآيةِ للنَّبيِّ ﷺ والمسلمينَ، معَ ما في هذا التَّقديمِ مِن الرِّعايةِ للفاصلةِ وقافيةِ السّورة وإيقاعها، بما يحقّق جمعًا بين أداءِ المعنى وتنغيم الإيقاع[1]، ولأنَّ مُلْكَ اللّهِ ﷻ في الآخرةِ يَظهَرُ أكثَرَ مِمّا في الدُّنيا؛ فالدُّنيا فيها مُلوكٌ، وفيها رُؤساءُ، وفيها زُعَماءُ، ويرى العامَّةُ أنَّ لهم تَدبيرًا، لكِن في الآخرةِ لا يوجَدُ هذا: ﴿يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16][2]، وهذا يُناسِبُ السّياقَ الَّذي يتحدَّثُ عن عظمةِ اللّه سبحانه.

بلاغة الطِّباق في ﴿ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾:

الجمعُ في قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ بين لفظين متقابلين في المعنى طِباقٌ، يُقصدُ به تَعميمُ الأشياءِ[3]، أي: جميع أمور الآخرة والأولى مختصَّةٌ باللّه سبحانه، وفي هذا مبالغةٌ في انتفاءِ أن يكونَ للإنسان أمرٌ من الأمور الَّتي يتمنّاها، فضلًا عن ما في هذا الطِّباق من زيادةِ حُسن الكلام.

مبالغةٌ في انتفاءِ أن يكونَ للإنسان أمرٌ من الأمور الَّتي يتمنّاها

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّمنّي والرَّجاء:

التَّمنّي يمكن أنْ يقعَ في المستحيلات، أمّا التَّرجّي؛ فلا يقعُ إلّا في المُمْكِن[4]، و"التَّمنّي يكون مع الكسل، ولا يسلكُ بصاحبه طُرُق الجدِّ والاجتهاد، والرَّجاءُ يكون مع بذلِ الجهد وحسنِ التَّوكُّل"[5]، فالتَّمنّي هو محبَّةُ حُصول الشَّيء، سَواءٌ كانَ ينتظرهُ، ويترقَّبُ حُصوله أو لا، فهو تقديرُ شيءٍ في النَّفس وتصويره فيها، وتَشَهّي حُصولِ ما

ما يتمنّاهُ المشركون من وجودِ الشُّركاء أمرٌ مستحيلٌ باطلٌ لا وزنَ له في ميزانِ الحقِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 112.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الحجرات والحديد، ص: 218.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 112.
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مني).
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 48.

يرغبُ فيه، وذلك يكون عن تخمينٍ وظنٍّ، ويكون في البعيد أو المستحيل، وأكثر التَّمنّي كذبٌ وتصوُّرٌ ما لا حقيقة له[1]، في حين أنَّ الرَّجاءَ هو الأملُ في الخير، وتطلُّبُ حصولِ شيء محبوبٍ مع وجود أملٍ في تحقيقه؛ سواءٌ كان مشروطًا بالأسباب، أم فضلًا من الله، أي: لا يكونُ الرَّجاءُ إلّا عن سببٍ يدعو إليه مِن كَرَم المَرجوِّ، ولهذا لم يُذَمَّ الرَّجاء[2]، وقد كان استعمالُ التَّمنّي في الآية أنسبَ مع السّياق وما ورد فيه من هوى النَّفس، وبيانُ أنَّ ما يتمنَّونه من وجودِ الشُّركاء أمرٌ مستحيل، وأنَّ أماني المشركين باطلةٌ لا وزنَ لها في ميزان الحقِّ، وأنَّ الأمورَ بيدِ الله تعالى، فله الآخرةُ والأولى، وليس بمجرَّد أماني البشر.

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مني)، والكفوي، الكليات، ص: 468، والمناوي، التوقيف، ص: 109، والزبيدي، تاج العروس: (مني).

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 244 - 245.

﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إيـاسٌ مـن أجرِ عبـادة الأصنـام الباطلة وحرمانٌ من شفاعتها

لمّا أيأسَهم مِن أن يَنالوا خَيرًا مِن عِبادةِ أصنامِهم والتَّقرُّبِ إليها، وأنَّها لا تكونُ وسيلةً لهم عندَ رَبِّهم؛ حَرَمَهم فائِدةَ عِبادتِها مِن وجهٍ آخَرَ[1].

مثالٌ لأمنيّةٍ من أمـاني المشركين قد أبطلها اللهُ

ولّما بيَّنَ سبحانه أنَّ أُمورَ الدّارَين بيَدِه وحده، وأن ليس للإنسانِ ما تَمنَّى؛ ضرَبَ لذلك مِثالًا مِن الأمانيِّ الَّتي هي أعظَمُ أمانيِّ المُشركين، وهي قولُهم في الأصنام: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، وقولُهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: 18]، فبيَّنَ إبطالَ قولِهم بطَريقِ فحوى الخِطابِ[2]، وهو أنَّ الملائكةَ الَّذين لهم شرَفُ المَنزلةِ، ومع قُربتِهم وزُلْفاهم وكَثرتِهم واغتِصاصِ السَّماواتِ بجُموعِهم لو شَفَعوا بأجمُعِهم لأحَدٍ لم تُغْنِ شَفاعتُهم عنه شَيئًا قطُّ، ولم تَنفَعْ، إلّا إذا شَفَعوا مِن بَعدِ أن يأذَنَ اللّهُ لهم في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ الشَّفاعةَ له، ويَرضاه، ويَراه أهلًا لأنْ يُشفَعَ له، فكيف تَشفَعُ الأصنامُ إليه لعَبَدتِهم، وهي حِجارةٌ في الأرضِ، وليستْ مَلائكةً في السَّماواتِ؟[3].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿مَّلَكٖ﴾: جعلَ النَّحويّون المَلَكَ من لفظِ الملائكة، وقال بعضُ المحقَّقين: هو من المِلك، قال: والمتولّي من الملائكة شيئًا من السّياسات يُقال له: مَلَك بالفتح[4]، وقالوا: إنَّ المَلَكَ كجبلٍ مِن هذا،

(1) المراغي، تفسير المراغي: 27/ 53.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 112.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 424.
(4) الراغب، المفردات: (ملك).

وأصلُه مألك، ثمَّ بالنَّقل ملأك، ثمَّ خُفِّفَ، فصار ملكًا؛ لأنَّ المَلَكَ رسولٌ يحملُ رسالةً منَ اللهِ ﷻ إلى مَن أرادَ مِن عبادِه[1]، والمَلَكُ واحدُ الملائكة، والملائِكَةُ: عالَمٌ غيبيٌّ، خلقَهُمُ اللهُ سبحانه مِن نور، وجعلَهم طائعين لَهُ، لا يعصون أمرَه[2].

2) ﴿تُغۡنِي﴾: أصلُ (غني) يدلُّ على الكِفايَةِ، ومنه الغِنَى في المالِ[3]، والغِنَى: ضِدُّ الفَقْرِ، وهو على ضَربَين: أحَدُهما: ارتِفاعُ الحاجاتِ، وليسَ ذلك إلّا للّهِ تعالى، والثّاني: قلَّةُ الحاجاتِ، وهو المُشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨﴾ [الضحى: 8][4]، ومعنى ﴿لَا تُغۡنِي﴾ في الآية: لا تنفعُ شفاعته[5].

3) ﴿شَفَٰعَتُهُمۡ﴾: أصلُ الشَّفاعة يدلُّ على مقارنةِ الشَّيئَين، من ذلك الشَّفْعُ خلافُ الوترِ، تقولُ: كان فردًا، فشَفَعْتُهُ، وشَفَعَ فلانٌ لفلانٍ؛ إذا جاء ملتمسًا مطلبه ومعينًا له[6]، والشَّفاعَةُ: الانضمامُ إلى آخر ناصرًا له وسائلًا عنه، وأكثرُ ما يُستَعملُ في انضمامِ من هو أعلى حُرمةً ومرتبةً إلى مَن هو أدنى، ومنه شفاعةُ يوم القيامة[7]، وهو المراد بالشَّفاعة في الآية، أي: سعيهم ووساطتهم في حصولِ نفعٍ أو دفعِ ضُرٍّ.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

إقناطُ المشركين مِن شفاعةِ الأصنامِ بطريقِ الأولويَّة

زادَ تعالى في بطلانِ شفاعةِ الأصنامِ لهم يومَ القيامة، فقال: وكَثيرٌ مِنَ الملائكةِ في السَّماواتِ معَ سُموِّ مَنزِلتِهم ورِفعةِ مَقامِهم لا يشفعون إلّا من بَعدِ أن يأذَنَ اللهُ في الشَّفاعةِ لِمَن يَشاءُ منهم،

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ألك - لأك).
(2) ابن عثيمين، شرح العقيدة الواسطيَّة: 1/ 59.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (غني).
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 427.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(7) الراغب، المفردات: (شفع).

ويَرضَى عن المَشفوعِ لهم، واللّهُ لا يأذنُ إلّا للمقرَّبين من خلقه، فكيف تشفعُ الأصنام؟[1] أي: فأعلَمَهُم أنَّ شفاعةَ ما يعبدون من دونه غيرُ نافعتهم[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾:

الانتقالُ إلى بيانٍ جديدٍ يدحضُ زعمَ المشركين في شفاعة آلهتهم

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ إمّا استئنافيَّةٌ، والآيةُ جاءتِ استئنافًا؛ لكشفِ بطلان ظنِّ المشركين الفاسد بأنَّ آلهتهم ستشفعُ لهم، كما ذكر سبحانه في قوله: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾.

إظهارُ عظمةِ مُلكِ الله وقدرته

وإمّا عاطفة[3]، والمعطوفُ عليه مقدَّر، وهو: فكم مِن شَخصٍ تَرَونَه في الأرضِ - معَ أنَّه في غايةِ المُكْنةِ فيما يَظهَرُ لكم - لا يَصِلُ إلى ما يتمَنّاه، ففي العَطْف إظهارُ ضَخامةِ مُلكِه، وأنَّه لا يُبالي بأحَدٍ مهما كان كثيرًا، فقال: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾[4].

دلالةُ التَّعبير بـ(كم) الخبريَّة:

التَّكثيرُ تفنيديٌّ لنفي شفاعةِ الملائكة وإبطالِ شفاعةِ الأصنام

(كم) في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾ خبريَّةٌ مفيدةٌ لتكثيرِ العدد، محلُّها الرَّفعُ على الابتداءِ، والخبرُ هو الجملةُ المنفيَّةُ[5]، وتثيرُ الانتباهَ والتَّشويقَ بما فيها من الإبهامِ الَّذي يستدعي التَّشويق، وتفيدُ إقناطَ المشركين من شفاعةِ الأصنامِ بطريقِ الأولويَّةِ، فها هي الملائكةُ على الرَّغم من كثرتها في كلِّ السَّماوات - والَّتي هي أعلى منهم - لا يملكون الشَّفاعةَ استقلالًا.

نكتة تنكير ﴿مَّلَكٍ﴾:

نفيُ شفاعة الكثرة المقرَّبين يوجب نفي شفاعة القلَّة المُستبعدين

تنكيرُ لفظ ﴿مَّلَكٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي

---

(1) الحجازي، التفسير الواضح: 3/ 560.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 529.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 357.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 62.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 160، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 113.

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جاء في سياق (كم) الخبريَّة الَّتي تفيدُ التَّكثير؛ ليعزِّز معنى الكثرة، دون أنْ يُقيِّد، أو يُحدِّد، أي: عددٌ عظيمٌ غير محصورٍ من الملائكة في السَّماوات لا تغني شفاعتهم، فكيف تغني شفاعة أصنامكم[1]؟ وفي ذلك مبالغةٌ في إبطالِ شفاعةِ أصنامهم.

معنى حرف الجر ﴿فِي﴾:

الظَّرفيَّةُ مؤذنةٌ بشدَّةِ قربِ الملائكة ومقامهم العالي

جاء حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بمعنى الظَّرفيَّة الحقيقيَّة المكانيَّة، أي: إنَّ هؤلاء الملائكة موجودون داخل السَّماوات، مستقرّون فيها لا في الأرض؛ لتشيرَ الظَّرفيَّة إلى زيادةِ قربِ الملائكة ومقامهم العالي، وشرفهم بشرفِ مسكنهم والعالم الَّذي هم أهله، وهو عالمُ الفضائل ومنازل الأسرار، أي: وهم في الكرامةِ والزُّلفى لا يملكون الشَّفاعة إلّا بإذن اللّه، فكيف بغيرهم من المخلوقات[2]؟.

دلالة تعريف ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وجمعها:

نفيُ شفاعةِ الأعلى تفنيدٌ لنفي شفاعةِ الأدنى

(الـ) التَّعريف في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للعهد الذِّهنيِّ، أي: إنَّ الحديث عن السَّماوات السَّبع المعروفة، الَّتي تشملُ طبقاتِ العالم العلويِّ، والجمعُ يدلُّ على إرادةِ السَّماوات كلِّها، لا يستثني منها طبقة أو مقامًا، والإحاطةِ بجميع العوالم العلويَّة بما فيها من عوالم الغيب والملائكة، بما يُبرزُ عظمةَ الخلق، وكثرةَ الملائكة وتنوُّع مراتبهم، ممّا يعظِّم من وقع نفي شفاعتهم دون إذنِ اللّه، والمعنى: حتّى لو اجتمعتْ كلُّ الملائكة في جميعِ السَّماوات المعروفة والمشهودة والغيبيَّة، فإنَّ شفاعتهم لا تُغني شيئًا إلّا بإذن اللّه، فكيف بغيرهم من المخلوقات؟.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 255.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 62، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 113.

دلالةُ نفي الإغناء عن الشَّفاعة دون نفي الشَّفاعة ذاتها:

تفنيدُ زعمِ المشركين بجدوى شفاعةِ الأصنام

نفى البيانُ القرآنيُّ الإغناءَ عن الشَّفاعة بقوله: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾ دون نفيِ وقوعِ الشَّفاعة، فلم يقل: (لا يَشفَعون)، مع أنَّ دَعْواهم: أنَّ هؤلاء شُفعاؤُنا، لا أنَّ شَفاعتَهم تنفَعُ، أو تُغْني، وقد قال تَعالى في مواضِعَ أُخَرَ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: 255]، فنَفَى الشَّفاعةَ بدونِ الإذْنِ، ووجْهُ ذلك: أنَّهم كانوا يَقولون: هؤلاء شُفعاؤُنا، وكانوا يَعتقِدون نفْعَ شَفاعتِهم، كما قال تَعالى: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3]، وكانوا يقولون: الأصنامُ تَشفَعُ لنا شَفاعةً مُقرِّبةً مُغْنيةً، فقال: لا تُغْني شَفاعتُهم؛ بدليلِ أنَّ شَفاعةَ الملائكةِ لا تُغْني، ولأنَّه لو عبَّر بقوله: لا يَشفَعون، ثم استَثْنى بقولِه: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾؛ لكان التَّقدير، أي: فيَشفَع، ولكن لا يكونُ فيه بَيانُ أنَّها تُقبَلُ، وتُغْني، أو لا تُقبَلُ، فإذا قال: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾، ثمَّ قال: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾، فيَكونُ معناهُ: تُغْني[1].

دلالةُ تعريف الشَّفاعة بالإضافة، وعود الضَّمير فيه:

المبالغةُ في إقناطِ المشركين من شفاعةِ الأصنامِ بطريقِ الأولويَّة

في قوله تعالى: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾ عرَّفَ الشَّفاعة بالإضافة إلى ضميرِ الجمع للملائكة برغم أنَّ المَلَك مفردٌ باعتبارِ المَعْنى[2]، وإضافةُ الشَّفاعة إلى ضميرهم، يفيدُ العموم، أي: جميع الملائكة على كثرتهم وعلوِّ مقدارهم لا تغني شفاعةُ واحدٍ منهم[3]، وهو أدلُّ على عظمةِ الأمر، وأدلُّ على تفنيدِ شفاعة الأصنام؛ إذ نفى شفاعة جميع الملائكة حالَ اجتماعهم إلّا بإذنه[4]، وكُلُّ ذلك لبيانِ فساد

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 256.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 160، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 358.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 113.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 62.

قَولِهم: إنَّ الأصنامَ يَشفَعونَ[1]، كأنَّه يقولُ: الملائكةُ الكرامُ لا تُغْني شفاعتُهم شيئًا إلّا بإذْنِ الله، فكيفَ أوثانُكم؟[2].

وجهُ التَّعبير بالنَّكرة ﴿شَيْـًٔا﴾ وحذف متعلّقها:

المبالغةُ في العموم مبالغةٌ في قصرِ أمر الشَّفاعة وردِّها بحذافيرها إليه سبحانه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بـ﴿شَيْـًٔا﴾ الَّتي عدَّها النُّحّاةُ أنكرَ النَّكرات، وأعمَّ الألفاظ وأبهمها في سياق نفي الشَّفاعة لأحد مِن الملائكة في قوله تعالى: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾؛ ليبالغَ في قصر الأمرِ وردِّه بحذافيره إليه ﷻ[3]، وللدَّلالة على العموم.

أو أنَّ ﴿شَيْـًٔا﴾ مفعولٌ مطلقٌ، لم تُذكَر مُتعلِّقاتُه للتَّعميم، أي: شيئًا مِن الإغناءِ؛ لزيادةِ التَّنصيصِ على عُمومِ نفْيِ إغناءِ شَفاعتِهم[4].

بلاغةُ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾:

الشَّفاعة مقصورةٌ على الله سبحانه، ومردودةٌ إلى إذنِه تعالى ورضاه

عُقِّبَ بالاستثناءِ بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾؛ لإزالةِ ما قد يُتوهَّمُ من ظاهرِ قوله تعالى: ﴿لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ﴾، بأنَّ الملائكةَ قد يَشفَعون، فلا تُقبَلُ شَفاعتُهم، وليس ذلك مُرادًا؛ لأنَّ المُرادَ أنَّهم لا يجرَؤون على الشَّفاعةِ عندَ اللهِ إلّا من بَعدِ أن يَأذَنَ اللهُ لأحدِهم في الشَّفاعةِ، ويَرضَى بقَبولِها في المَشفوعِ له، فالمُرادُ بـ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مَن يَشاؤُه اللهُ منهم، أي: فإذا أذِنَ لأحدِهم؛ قُبِلَت شَفاعتُه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: 28][5]، فالاستثناءُ يفيدُ قصرَ الأمر وردَّه بحذافيرِه إلى الله تعالى[6].

معنى حرف الجر ﴿مِنۢ﴾:

﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ لابتداء الغاية

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 255.
(2) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 319.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 62.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 160، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 113.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 113 - 114.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 62.

الزَّمنيَّة، أي: إنَّ الشَّفاعةَ لا تبدأُ، ولا تصدرُ من أحدٍ من الملائكة إلّا بعد حصولِ الإذنِ من اللّه تعالى.

لا شفاعةَ قبلَ الإذنِ الإلهيِّ

فائدة القيد ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾:

أفادَ القيدُ ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾ أنَّ الشَّفاعةَ مقيَّدةٌ لا مطلقة، أي: إلّا من بعد أنْ يُمكِّنَ، ويريدَ اللّهُ الَّذي لا أمرَ لأحدٍ أصلًا معه[1]، أي: إنَّ الشَّفاعةَ لا تقعُ بأيِّ وجهٍ قبلَ إذنِ اللّه، ويفيدُ القيدُ أيضًا أنَّ الشَّفاعةَ يبدأُ وقتها ومشروعيَّتها، وجدواها من لحظةِ الإذنِ الإلهيِّ تحديدًا، وليس قبله ولا استقلالًا عنه.

ارتباطُ الشَّفاعةِ بتجدُّدِ الإذنِ زمانًا ووجودًا

وجه التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن يَأۡذَنَ﴾:

عبَّر البيانُ الحكيم بالمصدر المؤوَّل ﴿أَن﴾ والفعل ﴿يَأۡذَنَ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ﴾، ولم يقل: من بعد إذنِ اللّه؛ للدَّلالة على أنَّه لا عمومَ بعد الإذنِ بجميع الأوقات، وإنَّما ذلك يُجدِّدُ بعد تجدُّدِ الإذنِ على حينه[2]، وفي التَّعبير بالمصدر المؤوَّل دلالة على مجرَّد معنى حدوث الإذن دون احتمال زائد عليه من وصف، أو كيفيَّة، أو غير ذلك؛ إذ في ﴿أَن﴾ تخليصٌ للمعنى من الإجمال.

دقَّـــةُ المعـنـى وتجدُّدُ الشَّفاعةِ بإذنٍ خاصٍّ

سرُّ إيثار فعل (الإذن) مضارعًا دون غيره:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظِ ﴿يَأۡذَنَ﴾ دون غيره من المفردات، مثل: يأمر؛ لأنَّ الإذن يدلُّ على رفعِ المانع والسَّماحِ بفعلِ الشَّفاعة مع عدمِ لزومه، وهذا يتناسبُ مع المقام، فاللّهُ لا يأمرُ بالشَّفاعة، بل يأذن بها.

وإيثارُ التَّعبير بصيغة المضارع دون (أذِنَ)؛ للدَّلالة على أنَّ الإذنَ يتجدَّدُ في كلِّ حالة شفاعة، لا في كلِّ الأوقات، والمعنى: لا شفاعةً تُقبلُ في أيِّ وقتٍ أو حالٍ إلّا بعد إذنٍ خاصٍّ متجدِّدٍ منه سبحانه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 62.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63.

معنى اللام في ﴿لِمَن﴾:

توجيهُ الشَّفاعة وتعلُّقها بالمشفوع له بإذنٍ خاصٍّ

(اللّامُ) في قولِه: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ هي اللّامُ الّتي تَدخُلُ بعدَ مادَّةِ الشَّفاعةِ على المشفوعِ له، فهي مُتعلِّقةٌ بشفاعتِهم، وليستِ اللّامُ مُتعلِّقةً بـ﴿يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾، ومَفعولُ ﴿يَأۡذَنَ﴾ مَحذوفٌ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ﴾، وتَقديرُه: أن يَأذنَهُم اللّهُ، ويَجوزُ أن تكونَ اللّامُ لتَعديةِ ﴿يَأۡذَنَ﴾ إذا أُريدَ بها معْنى يَستمِعُ، ومعْنى ذلك أنَّ الملائكةَ لا يَزالون يَتقرَّبون بطلَبِ إلْحاقِ المؤمنينَ بالمَراتبِ العُلْيا، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: 7]، فإنَّ الاستغفارَ دُعاءٌ، والشَّفاعةَ تَوجُّهٌ أعلى، فالملائكةُ يَعلَمون إذا أرادَ اللّهُ استجابةَ دَعوتِهم في بَعضِ المؤمنينَ، أذِنَ لأحدِهم أنْ يَشفَعَ له عندَ اللّهِ، فيَشفَعَ، فتُقبَلَ شَفاعتُه[1]، ويجوز أن تكون اللّام للتَّعليل[2].

وجه التَّعبير بالموصول (مَن):

في العموم والإبهام تعظيمٌ للموقف وتحريضٌ للمؤمنين في التَّعرُّض لرضا الله

(مَن) في قوله تعالى: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ اسمُ موصول عامٌّ يشيرُ إلى شخصٍ غيرِ مذكور باسمه، أي: فيه إبهامٌ يزيدُ من رهبةِ الموقف، ويُظهر أنَّ الأمرَ ليس بيد الشّافعِ ولا المشفوعِ له، بل مردُّه كليًّا لمشيئةِ اللّه وحده، وفيه تعظيمٌ للموقف "وتَحريضٌ للمؤمنينَ أن يَجتهِدوا في التَّعرُّضِ لِرضا اللّهِ عنهم؛ ليَكونوا أهلًا للعفْوِ عمّا فرَّطوا فيه مِن الأعمال"[3]، وللدَّلالة على العموم؛ إذ لو قال: إلّا من بعد أن يأذنَ اللّه لهم؛ لاقتصرَ الإذن على الملائكة، ولكنَّ التَّعبيرَ بـ(مَن) أفادَ عمومَ مَن يؤذنُ له في الشَّفاعة من الملائكة والمؤمنين من الإنسن والجنِّ، والتَّعبير بـ(مَن) دون (ما)؛ لأنَّ (مَن) تُستخدم غالبًا للعقلاء، فالمأذون لهم بالشَّفاعة هنا هم من العقلاء من الملائكة والنَّبيّين.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 114.
(2) قباوة، المفصّل، ص: 1865.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 114.

سرُّ إيثار الفعل ﴿يَشَآءُ﴾ مضارعًا دون غيره:

مشيئةُ اللهِ في الإذنِ بالشَّفاعة تقتضي وجود الشَّفاعة

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿يَشَآءُ﴾ دون غيره مثل (يريد)؛ لأنَّ المشيئةَ مِن اللهِ تقتضي وجودَ الشَّيء، وأمّا الإرادة منه؛ فلا تقتضي وجود المُراد[1]، وفي الحديث: «ما شاءَ اللهُ كانَ، وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ»[2]، وبهذا يتأكَّد وجود الإذن بالشَّفاعة يوم القيامة.

تجدُّدٌ لمشيئة الله وتصويرٌ لمشهدِ الشَّفاعة الحيِّ

وأوثِرَتْ صيغةُ المضارع؛ للدَّلالة على الاستمرار والتَّجدُّد، أي: "لمن يشاء بتجدُّد تعلُّق مشيئته به، لأن يكون مشفوعًا أو شافعًا"[3]، بخلاف الماضي الَّذي يدلُّ على الحدث المنقضي؛ فالإذنُ بالشَّفاعة ليس أمرًا سابقًا، وانتهى، بل هو متجدِّدٌ بحسب كلِّ حال، ولإفادة تصوير المشهد المهيب في سياقه الحيِّ؛ كأنَّ المشهدَ يجري الآن، والملائكةُ في انتظارِ الإذن، والله يشاءُ، ويأذنُ في كلِّ لحظةٍ بما يناسبُ حكمته وعدله، ولتحقيقِ الانسجام في الزَّمن في الآية الكريمة، فقد جاء الفعل ﴿يَأۡذَنَ﴾ بصيغةِ المضارع، ولو جاء أحدُ الفعلين بصيغة الماضي؛ لَما تحقَّق هذا الانسجام.

توجيه العطف بالواو:

لا يحظى بإذن الشَّفاعة إلّا من استحقَّ رضا الله

عُطِفَ قولُه: ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾ على ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ إذْنَ اللهِ بالشَّفاعةِ يَجْري على حسَبِ إرادتِه إذا كان المَشفوعُ له أهْلًا لأنْ يُشفَعَ له[4]، ذلك لأنَّ المَلِك من ملوك الأرض قد يأذنُ في الشَّفاعة، وهو كارهٌ، ولذا أخبرَ ﷻ معلِّمًا أنَّه ليس كأولئك، وإنَّما تجري شفاعته وفقًا لرضاه[5]، فالرِّضا بعد المشيئة شرطُ القَبول في إذنِ الشَّفاعة.

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شيأ).

(2) سنن أبي داود، باب: ما يقول، إذا أصبح، برقم: (5075).

(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 114.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63.

وجهُ التَّعبير بالفعل ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾ مضارعًا:

استمرارُ الرِّضا وتجدُّدُ وقوعه بحسبِ حالِ المشفوع له

التَّعبيرُ بصيغة المضارعة؛ للدَّلالة على تجدُّد رضاه سبحانه مع تجدُّدِ مشيئته في الإذن بالشَّفاعة، ولإفادةِ تصويرِ مشهدِ رضاه سبحانه، بما يكون قطعًا لأطماعهم وعن قولهم بمجرَّد الهوى بأنَّ آلهتهم تشفعُ لهم[1]، ولتحقيقِ التَّناسب مع صيغ المضارعة في الفعلين ﴿يَأۡذَنَ﴾ و﴿يَشَآءُ﴾.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ [النجم: 27 - 28]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

إبطالُ ادِّعاءِ المشركين تعظيمهم الملائكة، وهم ينسبون الأنوثة لها

لمّا بُيِّن للمشركين أنَّ الأصنام جماداتٌ لا تشفع، وأنَّ أعظمَ أجناسِ الخَلقِ - وهم الملائكة - لا شَفاعةَ لهم إلّا بإذن اللّه؛ تحجَّجوا بأنَّهم لا يعبدون الأصنامَ؛ لأنَّها جماداتٌ، وإنَّما يعبدون الملائِكةَ بعبادة الأصنام؛ فإنَّها على صوَرِها، وأنَّهم ينصبونها بين أيديهم؛ ليُذكِّرَ الشّاهِدُ الغائِبَ، فيعظِّموا المَلَكَ، فردَّ اللّه عليهم زعمهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيُسَمُّونَ﴾ - ﴿تَسۡمِيَةَ﴾: أصلُ الاسم من (سمو) وهو من العُلوِّ؛ لأنَّهُ تَنويهٌ ودَلالَةٌ عَلى المَعنَى[2]، وهوَ الَّذي بِهِ رُفِعَ ذِكْرِ المُسَمّى، فيُعْرَفُ بِهِ، والاسْمُ ما يُعْرَفُ بِهِ ذاتُ الشَّيءِ[3]، وقيل: الاسم ما أنبأ عَنِ المُسَمّى[4]، والاسمُ (مثل جذع وقفل)، فكأنَّه كلمةٌ تعبِّر عن صفةٍ جسميَّةٍ لظاهر الشَّيء، أو أعلاه تُتَّخَذُ علامةً له[5]، وقيل الاسم: ما دلَّ على معنى في نفسه[6]، ومعنى ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾: التَّسميَةُ مطلَقةٌ هُنا عَلى التَّوصيفِ؛ لأنَّ الاسمَ قَد يُطلَقُ على اللَّفظِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 257.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو).
(3) الراغب، المفردات: (سما).
(4) الكفوي، الكليات، ص: 83.
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (سمو).
(6) الجرجاني، التعريفات، ص: 24.

الدّالّ على المَعْنَى، وقَد يُطْلَقُ على المَدْلولِ المُسَمَّى ذاتًا كانَ أو مَعْنًى، أي: يَزْعُمونَ المَلائِكَةَ إناثًا، وذَلِكَ تَوصيفٌ[1].

2) ﴿ٱلۡأُنثَىٰ﴾: الأُنْثَى: خِلافُ الذَّكرِ، وسُمّيت أنثى للينها، فالأنيثُ: اللَّيِّن السَّهل، والمعنى المحوريُّ: لِيْنٌ أثناء الشَّيء وعدم غلظها وصلادتها، كالأرض السَّهلة المتسيِّبة التُّربة اللَّيِّنَتها، ومنه: حديد أنيث: غير ذكير، فالأنيث من الحديد: هو الَّذي يُسمَّى الحديد المطاوع، والذَّكير منه: هو الصُّلب[2]، والمراد هنا بالأنثى خلافُ الذَّكر.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

توبيخُ المشركين لتسميتهم الملائكة بنات الله

إنَّ الَّذين لا يصدِّقون بالبعث في الدّار الآخرة - وذلك يوم القيامة - لَيُسَمّون ملائكة اللّه تسميةَ الإناث، وذلك أنَّهم كانوا يقولون: هم بناتُ اللّه، وما لهم بذلك حقيقةُ علم، ما يتَّبعون في ذلك إلّا الوَهمَ الكاذِبَ، فيقولون ذلك ظنًّا بغيرِ علمٍ، وإنَّ الظَّنَّ لا ينفعُ من الحقِّ شيئًا، فيقومُ مقامه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئناف في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

تقوية الحجَّة وإبطالُ باطلٍ آخر شبيهٌ بالَّذي قبله

فصلَ البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ عمّا قبله؛ لكونه جاءَ اعتراضًا واستِطرادًا؛ لمناسبة ذِكرِ الملائكة، وتبَعًا لِما ذُكِرَ آنِفًا من جَعْلِ المشرِكين (اللّاتَ والعُزى ومَناةَ) بَناتٍ للّه بقوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ١٩﴾ [النجم: 19]، إلى قوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١﴾ [النجم: 21]، أي: ثُنِّيَ إليهم عِنانُ الرَّدِّ والإبطالِ؛ لزعْمِهم أنَّ الملائكة بَناتُ اللّهِ، جمعًا بين ردٍّ لباطلَين مُتشابهين[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 115.
(2) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أنث).
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 530.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 114.

تنبيهٌ على غرابةِ فِرْيةِ المشركين وفظاعتِها

سرُّ التَّوكيد بأكثر من مؤكِّد:

أكَّد البيانُ القرآنيُّ خبرَ تسميةِ المشركين ملائكة الله بأسماء الإناث بقولهم: هي بناتُ الله، بالتَّوكيدات الثَّلاثة ﴿إِنَّ﴾ و(اسميَّة الجملة) و(اللّام) في ﴿لَيُسَمُّونَ﴾؛ لينبِّه على أنَّه قولٌ بالغٌ في العَجبِ والشَّناعةِ والفظاعة، فلا يكادُ يُصدَّقُ أنَّ عاقلًا بالآخرة، مقرًّا بها يقول هذا القول، ويجترئ عليه[1].

إيذانٌ بتوبيخِ منكري الآخرة وتحقيرِ عقائدِهم

الغرض من التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

عبَّر البيانُ الحكيم في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ بالاسم الموصول؛ لِما تُؤذِنُ به الصِّلةُ مِن التَّوبيخِ لهم، والتَّحقيرِ لعَقائدِهم؛ إذ كَفَروا بالآخرةِ، وقد تواتَرَ إثباتُها على ألْسِنةِ الرُّسلِ، وعندَ أهلِ الأديانِ المُجاورينَ لهم مِن اليهودِ والنَّصارَى والصّابئة، فالمَوصوليَّةُ هنا مُستعمَلَةٌ في التَّحقيرِ والتَّهكُّمِ، وهو تَهكُّمُ المُحِقِّ بالمُبطِلِ؛ لأنَّ مَضمونَ الصِّلةِ ثابتٌ لهم[2].

الإيمانُ بالآخرة منتفٍ عن المشركين باستمرار

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَا﴾، ودخوله على المضارع المسند إلى ضمير الجماعة ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

﴿لَا﴾ أداةُ نفي تدخلُ على الفعل المضارع، وتكمنُ بلاغتُها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ أنَّها تفيدُ تجدُّد نفيَ عدم استمرارِ التَّصديق بوجود الآخرة والحساب والعقابِ وتجرُّده عنهم في الزَّمن الحاضر، وما يتَّصلُ به، بما يوحي أنَّ عدمَ إيمانهم بالآخرة هو السَّببُ الجذريُّ في فساد عقائدهم، ولو عَبَّرَ بـ(لم) دون (لا)؛ لأوهمَ إرادته من لم يكن مؤمنًا، ثمَّ آمن، وهو حالُ كثيرٍ ممَّن آمنَ بعد كفر، لكن التَّعبير بـ﴿لَا﴾ دلَّ على مَن استمرَّ على ذلك، وخُتِمَ له بالكفر.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 160.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 114 - 115.

معنى الباء ودلالتها في قوله: ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾:

البَاءُ في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ للإلصاق، أي: ليس لدى المشركين إيمانٌ وتصديقٌ وإقرارٌ ملتصقٌ بالآخرة، وبكلِّ ما فيها من حسابٍ وعقاب، والشَّكُّ بأيِّ شيءٍ منها كفرٌ، ولذلك تجرَّؤوا على فريتهم بتسميتهم الملائكةَ تسميةَ الأنثى، وقولهم: إنَّهم بناتُ اللّه.

في الإلصاق مبالغةٌ في نفي الإيمانِ بالآخرة عن المشركين

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ وإيثارها على غيرها من التَّسميات:

اللّام في: ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ عهديَّة، معهودها ذكريٌّ سبقَ ذكره في الآيات السّابقة، فالآخرةُ معهودةٌ معروفةٌ، وهي يومُ القيامة والسّاعة، وقد آثرَ البيانُ الحكيم التَّعبيرَ بلفظ الآخرة دون غيرها من التَّسميات؛ مراعاةً للسّياق، فقد سبق ذكرها في الآيات السّابقة كقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ ٢٥﴾ [النجم: 25]؛ لكون لفظ الآخرة أعمَّ من لفظِ الساعة والقيامة، فالآخرة نقيضُ المتقدِّمة، فهي النَّشأةُ الآخرة بعد الموت بكلِّ ما فيها؛ من بعثٍ ونشورٍ وحسابٍ وجنَّةٍ ونارٍ وغير ذلك.

عدمُ الإيمانِ بأيِّ شيءٍ من أمور الآخرة كفرٌ

معنى اللام ودلالتها في قوله: ﴿لَيُسَمُّونَ﴾:

لام ﴿لَيُسَمُّونَ﴾ هي لامُ المزحلقة، وتفيدُ التَّوكيد[1]، وقد أفادتْ تقويةَ معنى الفعل، وتوكيدَ وقوعه بشكل حتميٍّ، أي: أكَّدت تسمية المشركين لكلِّ واحد من الملائكة تسميةَ الأنثى[2].

تسميةُ المشركين الملائكة تسميةَ الأنثى أمرٌ مؤكَّدٌ لا شكَّ فيه

معنى اللام ودلالتها في ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾:

لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾، في معنى استغراق كلِّ فرد من أفرادِ الملائكة، أي: ليسمَّون كلَّ واحدٍ منهم، ويصفونه بصفةِ الأنوثة[3]، وهذا يشيرُ إلى شدَّةِ جرأتهم على الباطل.

وصفُ المشركين كلَّ واحدٍ من الملائكة بالأنوثة دليلٌ على جرأتهم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 357.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 160، وسيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 73.

في التَّوكيدِ دلالةٌ على انحرافٍ عقديٍّ خطير

دلالة التَّعبير بالمفعول المطلق ﴿تَسۡمِيَةَ﴾:

لم يقلْ سبحانه: (لَيُسَمّون الملائكة بالأنثى)، وإنَّما جاء التَّعبيرُ بالمفعول المطلق ﴿تَسۡمِيَةَ﴾؛ لتأكيدِ الفعل (يسمّون)، أي: التَّسميةُ ليست فقط لفظًا، بل هي اعتقادٌ فاسدٌ كاملٌ.

تسميةُ الأنثى كنايةٌ قرآنيَّة تكشفُ تزييف المشركين لعالمِ الملائكة

الغرضُ من التَّعبير بالكناية:

التَّسميةُ في قوله تعالى: ﴿لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ مطلقةٌ هنا على التَّوصيف؛ لأنَّ الاسمَ قد يُطلقُ على اللَّفظ الدالِّ على المعنى، وقد يُطلقُ على المدلول المسمّى - ذاتًا كان أو معنًى - والتَّسميةُ هنا كنايةٌ عن تبنّي وصفٍ باطلٍ وغير لائقٍ، والمعنى: أنَّهم يزعمون الملائكة إناثًا، وذلك توصيف، قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزخرف: 19][(1)].

من فسادِ معتقدات المشركين أن ينسبوا للهِ ما يكرهون

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿ٱلۡأُنثَىٰ﴾:

التَّعريفُ في ﴿ٱلۡأُنثَىٰ﴾ تَعريفُ الجنسِ الَّذي هو في معْنى المُتعدِّدِ، والأنثى: البنت والبنات، واستعمال لفظ الأنثى أليقُ بهذا الموضع من التَّعبير بصيغة الجمع (الإناث)؛ مراعاةً لِما جاء على وفقهِ من فواصل الآيات كلفظ: (الأولى) و(يرضى) [(2)]، ولأنَّه لو عبَّر بالإناث؛ لاحتملَ البنات أو الأعلام المعتادة للإناث، كعائشة وحفصة، ولكنَّه أرادَ جنس الإناث[(3)]، وتجنُّب اللَّبس والتَّخصيص، وفي إرادة الجنس إشارةٌ إلى ما يحمله هذا الجنس من ضعفٍ بشريٍّ، وما حمَّلوه من صفاتِ النَّقصِ والازدراء، وهذا يشيرُ إلى فسادِ معتقدهم بأنَّهم ينسبون للّه ما يكرهون.

معنى الواو ودلالتها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ حاليَّةٌ، والجملة

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 115.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 115.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/ 257.

بيانُ حال المفترين القائم على التَّوهُّم والجهل يُظهرُ فسادَ معتقدهم

حالٌ مِن ضَميرِ ﴿لَيُسَمُّونَ﴾، والتَّقدير: يُثبِتونَ للملائكةِ صِفاتِ الإناثِ في حالِ انتفاءِ عِلْمٍ منهم بذلك، وإنَّما هو تَخيُّلٌ وتَوهُّمٌ[1]، أو التَّقدير: والحالُ أنَّهم ما لهم بما سمّوهم به من علم[2]، سواءٌ في تكوين الملائكة أو صفتهم، وإنَّما يتَّبعون الظَّنَّ الباطلَ في أقوالهم وأحكامهم[3]، وبيانُ حالِ هؤلاء المفترين القائمِ على تَخيُّلٍ وتوهُّمٍ أو على جهلٍ يُظهر بطلانَ معتقدهم وفسادَه.

دلالة النَّفي بـ(ما) في ﴿وَمَا لَهُم﴾:

نفيُ العلم عن المشركين فيما ادَّعوه يُثبتُ كذبهم وافتراءهم

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ نافيةٌ، نفت أنْ يكون لهم علمٌ فيما أثبتوه للملائكة من الأنوثة، وأنها بناتُ اللّه، فإنَّهم لم يعرفوهم، ولا شاهدوهم، ولا أخبرهم به مخبرٌ مقبولُ الخبر، وهذا يُفهم منه أنَّهم قالو ذلك جهلًا وضلالةً وجرأةً، وكذبًا وزورًا وافتراءً وكفرًا شنيعًا[4].

وآثر النَّظم الكريم استعمال (ما) دون غيرها من أدواتِ النَّفي؛ لقوَّةِ النَّفي بها؛ إذ إنَّها تُستخدمُ لنفي كلٍّ من الفعل الماضي والمضارع على حدٍّ سواء، وكثيرًا ما يقترن منفيُّها بـ(من) الاستغراقيَّة المؤكِّدة، ومِن ثَمَّ كان استعمالها يدلُّ على بلوغِ الغايةِ في نفي العلم عنهم وإثباتِ جهلهم وكذبهم.

الغرضُ من تقديم شبه الجملة:

في التَّقديمِ بيانٌ لاختصاصهم بعدم العلم

﴿لَهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ خبرٌ مقدَّم، و﴿عِلۡمٍۖ﴾ مبتدأ مؤخَّر[5]، وفي تقديم شبه الجملة بيانُ اختصاصهم بعدمِ العلم، ولفتُ الانتباه إلى حالهم الَّذي يدلُّ على جهلهم وكذبهم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 115.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 160.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 73.
(4) الزحيلي، التفسير المنير: 27/ 115.
(5) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 357.

الـزِّيـادةُ في تعميمِ النَّفي وتأكيده مبالغة في إبطالِ معتقدِ المشركين

مبالغةٌ في نفي العلم عن المشركين فيما يدّعونه

نفيُ العلم بالشَّيء نفيٌ له وللدَّليل عليه

التَّأكيد على نفي أيِّ دليل للمشركين، على زعمهم أنَّ الملائكة إناث

معنى ﴿مِنۡ﴾ ودلالتها:

﴿مِنۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ للتَّوكيد، بما يفيدُ الإغراق في نفي وجودِ أيِّ علم عند المشركين، فيما افتروه على الملائكة وعلى اللّه سبحانه[1]، أي: والزِّيادةُ في تعميمِ النَّفي وتأكيده يدلُّ على المبالغةِ في إبطال معتقدهم.

الغرضُ من تنكير ﴿عِلۡمٍۖ﴾:

تنكيرُ لفظِ ﴿عِلۡمٍۖ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ يفيدُ العموم؛ لكونه جاء في سياق النَّفي، أي: نفى اللّهُ عنهم أيَّ علمٍ، ولو كان قليلًا، وفي هذا مبالغةٌ في بيانِ بطلان ما يعتقدون.

بلاغةُ التَّعبير بالكناية:

نفيُ البيان القرآنيِّ العلمَ عن المشركين - فيما افتروه من إثبات الأنوثة للملائكة، في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾ - كنايةٌ عن نفي الدَّليل عليه؛ إذ العِلمُ لا يكونُ إلّا عن دَليل لهم[2]، وفائدةُ الكناية المبالغةُ في إثباتِ ضلالهم؛ إذ نفيُ العلم عن الشَّيء، هو نفيٌ له وللدَّليلِ عليه.

موقع جملة: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ﴾، ودلالته:

يُثيرُ نفيُ البيانِ القرآنيِّ - أن يكون للمشركين أيُّ دليلٍ بإثباتهم الأنوثة للملائكة - تشوُّفَ السّامعِ إلى الحاملِ لهم على ذلك، فقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ﴾[3]، وهذا استئنافٌ بيانيٌّ، أي: بينَ الجُملتَين شِبهُ كمالِ اتِّصال، ويمكن أن تكون الجملة بَيانًا لجملة: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾، وعَوْدًا إلى جملة: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾، وتأكيدًا لمَضمونها، وتَوطئةً لتَفريع ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾[4]، فيكون بين الجُملتَين كمالُ اتِّصال.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 115.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 116.

بلاغةُ التَّعبير بأسلوب القصر بأقوى طُرُقه: النَّفي والاستثناء ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾:

تمكين المعنى في إثبات انتفاء أيِّ دليل على زعمهم

عبَّر النَّظم الكريم بالقصرِ بطريق النَّفي والاستثناء، أي: ما يتَّبعون علمًا، وإنَّما يتَّبعون وهمًا وتخييلًا؛ لتأكيد نفي زعمهم، وفي استعمالِ صيغة المضارعة ﴿يَتَّبِعُونَ﴾؛ لإفادة بيانِ جهلِ المشركينَ وإصرارهم على الاستمرار في اتِّباع التَّوهُّم والتَّخمين بدلَ الدَّليلِ والبرهان، فاتِّباعهم للظَّنِّ ليس أمرًا عارضًا، بل هو عادةٌ متكرِّرة ومستمرَّة في حياتهم، والتَّعبير بالفعل مجموعًا؛ للدَّلالة على أنَّ اتِّباع الظَّنِّ هو شأنُ عامَّة الكفّار، والتَّقدير: إن يتَّبعُ الكافرون إلّا الظَّنَّ.

بلاغةُ التَّعبير بالاتباع، ودلالته مادَّة وصيغة:

إظهارُ المشركين كأتباعِ أعمًى يزيدُ في تقريعهم

أصلُ الاتِّباع يدلُّ على التُّلوِّ والقَفْو[1]، وقد استعارَه البيانُ الحكيم في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾؛ للأخذِ بالشَّيء واعتقادِ مقتضاه، أي: ما يَأخُذونَ في ذَلِكَ إلّا بدَليلِ الظَّنِّ المُخْطِئ[2]، وهي استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ إذ ذكرَ المشبَّه به، وهو (الظَّنُّ) مع إسنادِ صفةٍ إليه، لا تليقُ إلا بالمشبَّه، وهو (الإنسان)؛ ممّا يعطي صورةً حيَّةً للشَّيء المجرَّد، أي: جُعلَ الظَّنُّ كأنَّه إمامٌ يتَّبعون أثره، ويمشون وراءه مع أنَّه في الحقيقة مجرَّدُ وهم باطل، كما أنَّ لفظَ الاتِّباع يوحي بأنَّهم مسلوبو الإرادةِ، تابعونَ لشيءٍ وهميّ، كالقطيع الَّذي يتَّبع دون وعي، ولو قال: (يظنّون)؛ لما أعطى هذا المعنى، لكنَّ الصّورة الاستعاريَّة (الاتِّباع)، أظهرتهم كأتباعِ أعمًى ممّا زادَ في تقريعهم.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾:

مبالغةٌ في الذَّمِّ والتَّقبيح لعقولِ المشركين

الاستثناءُ بـ﴿إِلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ استثناءٌ مُفرَّغٌ بأسلوبِ النَّفي والاستثناء يفيدُ القصر؛ إذ نفى اللّهُ عن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 116.

المشركين - فيما ادَّعوه من نسبة الأنوثة للملائكة - أيَّ علمٍ لهم في حالٍ من الأحوال، ثم أثبتَ لهم مجرَّدَ اتِّباع الظَّنِّ[1]، والقصرُ في التَّفريغ أعمُّ وأشمل، أي: لا يملكون أيَّ علمٍ سوى هذا الظَّنِّ الضَّعيف، وهو غايةٌ في الذَّمِّ والتَّقبيحِ لعقولهم.

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿ٱلظَّنَّۖ﴾:

ظَنٌّ معروفٌ وباطلٌ في أصله وصفاته، وهو بذلك أحرى بالنَّأيِ عنه

إنَّما جاء الظَّنُّ معرَّفًا ﴿ٱلظَّنَّۖ﴾ بلام الجنس؛ لبيانِ أنَّ الظَّنَّ الَّذي يتَّبعونه معروفٌ، لا يخفى عن المؤمنين، وهو الظَّنُّ السَّيِّئ، وهو تقليدٌ لما كان عليه آباؤهم، ممَّن تقطَّعتْ بهم السُّبلُ عن سبيلِ اللّه، فهو باطلٌ في أصله وصفاته، وهذا أحرى بالعقلاء أن ينأوا بأنفسهم عنه.

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي﴾:

بيانُ حال الظَّنِّ إقامةٌ للحجَّة على الكافرين

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي﴾ حاليَّة، أي: والحالُ أنَّ ظنَّهم الفاسدَ لا يغني عنهم من الحقِّ شيئًا[2]، فإنَّ الظَّنَّ لا يؤدِّي أبدًا إلى الجزمِ بالعلم بالشَّيء على ما هو عليه في نفسِ الأمر، فهو ممنوعٌ في أصول الدّين[3]، وفي بيانِ حال الظَّنِّ إقامةٌ للحجَّة عليهم، وإظهارٌ لإصرارهم على الضَّلال.

دلالة التَّوكيد:

تأكيدُ إبطال ما كان المشركون قاطعين به من نفعِ ظنِّهم الفاسد

أكَّد البيانُ القرآنيُّ كون الظَّنِّ لا اعتدادَ به، بـ(إنَّ) واسميَّة الجملة والمفعول المطلق ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾؛ لأنَّ المشركين كانوا كالقاطعين بأنَّ ذلك الظَّنَّ الفاسدَ ينفعهم[4]، فأكَّد اللّهُ أنَّ اعتقادَ المشركين الفاسدَ لا يغني شيئًا من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 358.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 64.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 63.

الإغناء عن أحدٍ من الخلق، فإنَّه لا يؤدّي أبدًا إلى الجزم بالعلم بالشَّيء على ما هو عليه في الأمر نفسه[1].

الغرضُ من الإظهار في: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ﴾:

كـونُ الـظَّـنِّ الباطل لا يقومُ أبدًا مقامَ الحقِّ حكمٌ مطلقٌ

في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ أظهرَ البيانُ الحكيم لفظَ الظَّنِّ في موضعِ الإضمار؛ إذ سبقَ ذكره، فلم يقل: (إنَّه لا يغني)؛ لإفادة إطلاقِ هذا الحكم في هذا الأمر المذكور وغيره[2]، أي: لتَكونَ الجُملةُ مُستقلَّةً بنفسِها، فتَسيرَ مَسيرَ الأمثالِ[3]، وللتَّأكيدِ على أنَّ أمرَ الدّين إنَّما ينبني على العلم الَّذي به يتَّضحُ الحقُّ من الباطل، وأنَّ الظَّنَّ لا يقومُ مقامَ العلم، ولا يغني عنه في أيِّ شيءٍ من الأشياء.

الغرضُ من تقديم المسند إليه:

الحكمُ بأنَّ الظَّنَّ لا يفيدُ إدراكَ حقائقِ الأشياء حُكمٌ مستمرٌّ لا يتغيَّر

جاء البيان القرآني بأسلوب تقديم المسند إليه على خبره الفعليِّ ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي﴾؛ لإفادة تأكيد عدم غناء هذا الظَّنِّ، وإنَّما حصل التَّأكيد من إسناد الفعل المنفيِّ للفاعل مرَّتين: مرَّة في كونه خبرًا له، ومرَّة في كون الفعل ﴿لَا يُغۡنِي﴾، مسندًا إلى الضَّمير العائد على اسم (إنَّ)، كأنَّه قيل: الظَّنُّ لا يغني، الظَّنُّ لا يغني، والتَّعبيرُ بالمضارعة للدَّلالة على أنَّ هذا الحكم حُكمٌ مطلقٌ مستمر لا يتغيَّر، ولا يتبدَّل، فالحقُّ وإدراكه هو العلم.

معنى حرف الجر ﴿مِنَ﴾ ودلالته:

بيانٌ لعدم إغناءِ الظَّنِّ عن الحقِّ شيئًا

حرْفُ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾ بَيانٌ لِما أُبهم في لفظ ﴿شَيۡـًٔا﴾، وهو مُقدَّمٌ على المُبيَّن، والتَّقدير: لا يغني شيئًا من الحقِّ[4]، أو هي للبدليَّة بمعنى (عن)، أي: عوضًا عن الحقِّ، باعتبار الحقِّ بمعنى العلم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 64.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 64.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 116.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 116.

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿ٱلۡحَقِّ﴾:

الظَّنُّ لا يغني مـن الـحـقِّ بجميع معانيه وصوره

اللّام في لفظ ﴿ٱلۡحَقِّ﴾ للجنس، وهو الأمرُ الثّابتُ في نفس الأمر، الَّذي هو حقيقةُ الشَّيء وذاته بحيث يكونُ الظَّنُّ بدلَه، أي: تفيدُ عمومَ الحقِّ كلِّه[1]، أو للعهد، فالحقُّ هو العلم، أي: لا يقومُ الظَّنُّ مَقامَ العلم، أو هو العذاب، أي: إنَّ ظنَّهم لا يُنْقِذُهُم من العَذابِ، أو المرادُ من الحقِّ هو اللّه، والمعنى أنَّ الظَّنَّ لا يفيدُ شيئًا من اللّه، أي: إنَّ الأوصافَ الإلهيَّة لا تُستخرجُ بالظُّنون بدليل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [لقمان: 30][2].

الغرض من تنكير ﴿شَيۡـًٔا﴾:

الاعتقادُ الباطلُ لا يفيدُ أيَّ شيءٍ من الحقِّ مهما قلَّ أو كثر

نكَّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿شَيۡـًٔا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا﴾؛ لإفادةِ العموم أو التَّقليل؛ لكونها نكرةً في سياقِ النَّفي، والمعنى: "وإنَّ الظَّنَّ الباطلَ والاعتقادَ الخاطئ لا يفيدُ في معرفةِ الحقِّ شيئًا، حتّى ولو كان هذا الشَّيءُ قليلًا؛ لأنَّ العقائدَ السَّليمة لا تُبنى على الظُّنونِ والأوهام، وإنَّما تُبنى على الحقائقِ الرّاسخة والعلوم الثابتة"[3].

الغرضُ من تقديم شبه الجملة:

الحقُّ هو الأهمُّ بالبيان فالدّينُ ينبني عليه

قدَّم البيانُ الإلهيُّ شبه الجملة ﴿مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ على المفعول ﴿شَيۡـًٔا﴾، ولم يقل: (لا يغني شيئًا من الحقِّ)؛ اهتمامًا بالمقدَّم، وهو الحقُّ؛ لأنَّه الأهمُّ بالبيانِ؛ إذ إنَّ أمرَ الدّين إنَّما ينبني على العلم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 64.
(2) ابن عادل، اللباب: 18/ 190.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 73.

﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ٣٠﴾ [النجم: 29 - 30]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

من جاءه الهدى، واستمرَّ على الكفر والهوى؛ لزم الإعراض عنه

بعدَ أن وصفَ اللّهُ مدارِكَ المشركين الباطلة وضلالهم، ودَأْبَهم في أنَّهم لا غَرَضَ لهم في اتِّباعِ الحَقِّ، بل استمرّوا على الهوى؛ فرَّعَ عليه أمْرَ نبيِّه ﷺ بالإعراض عنهم ذلك؛ أي: حقَّ أن يكون جزاؤُهم عن إعراضهم إعراضًا عنهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذِكۡرِنَا﴾: الذِّكْرُ: نقيضُ النِّسيان، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيهِ الذِّكْرُ باللِّسانِ، ويَقولونَ: اجعَلْهُ مِنكَ على ذُكْرٍ، بضَمِّ الذّالِ، أي: لا تَنْسَهُ[2]، والذِّكر تارةً يقال اعتبارًا باستحضاره، وتارةً أخرى يُقال لحضور الشَّيء القلب أو القول؛ ولذلك قيل: الذِّكر ذكران: ذكرٌ بالقلب، وذكرٌ باللِّسان[3]، والمراد بالذِّكر هنا القرآن[4].

2) ﴿مَبۡلَغُهُم﴾: أصلُ مادَّةِ (بلغ) الوُصولُ إلَى الشَّيءِ، تَقولُ: بَلَغْتُ المَكانَ؛ إذا وصَلتَ إليه، وقَد تُسَمَّى المُشارَفَةُ بُلوغًا بحَقِّ المُقارَبَةِ[5]، ومَعنى ﴿مَبۡلَغُهُم﴾ هنا: لا يكادونَ يجاوزونَهُ إلى غيرِهِ، فليس لهم علمٌ إلّا هذا الكفر باللّه، والشِّرك به على وجه الظَّنِّ، أي: غايةُ ما يبلغون به أنَّهم يأخذون بالظَّنِّ، أو إيثارُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 117.
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(3) الراغب، المفردات: (ذكر).
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 160، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 117.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلغ).

الدُّنيا غايةُ ما يبلغه علمهم، ولا يتجاوزونه إلَى أمور الآخرَة لعدم تصديقهم بها(1).

المَعنى الإجْماليُّ:

أمرُ للنَّبيِّ بالإعراض عن دعوةِ مَن تولّى عن الحقِّ

أمَرَ اللّٰهُ نبيَّه بالإعراضِ عمَّن أعرضَ عن القرآن، فقال: فأعْرِضْ يا محمَّدُ عن دعوته والاهتمام بشأنه، فإنَّ مَن غفلَ عن اللّٰه، وأعرضَ عن ذكره، وانهمكَ في الدُّنيا بحيث كانت منتهى همَّته، ومبلغَ علمه، لا تزيده الدَّعوةُ إلّا عنادًا وإصرارًا على الباطل، إنَّ رَبَّك - يا محمَّدُ - هو أعلَمُ بمَن ضَلَّ عن طَريقِه، وهو أعلَمُ بالَّذين اهتَدَوا إلى الحَقِّ(2).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾:

جزاءُ إعراض المشركين أمرٌ للنَّبيِّ بالإعراض عنهم

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾؛ للتَّفريع والسَّببيَّة، فبَعْدَ أنْ وصَفَ مَدارِكَ الكافرين الباطِلةَ وضَلالَهم؛ فرَّع عليه أمْرَ نَبيِّه ﷺ بالإعراضِ عنهم؛ ذلك لأنَّ ما تقَدَّمَ مِن وصفِ ضَلالِهم، كان نَتيجةَ إعراضِهم عن ذِكرِ اللّٰهِ، وهو التَّوَلّي عن الذِّكرِ؛ فحَقَّ أن يكونَ جَزاؤُهم عن ذلك الإعراضِ إعراضًا عنهم(3)، وفيها معنى التَّعقيب الَّذي يُلمح إلى المسارعة في الإعراض عن المعرضين عن القرآن وعدم الاكتراث بهم.

ويحتملُ أن تكون الفاءَ الفصيحةَ؛ لأنَّها أفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مقدَّر، تقديره: إذا عرفتَ ما ذكرته لك من أحوالهم، وأردتَ بيانَ ما هو اللازم لك، فأقول لك: (أعرض)(4).

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 530، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 266، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 160.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 116.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 147.

غرضُ التَّعبير بالأمر في قوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ﴾:

توجيهٌ للنَّبيِّ ﷺ في التَّعامل مع المعرضِ عن الحقِّ

الأمْرُ بالإعراض عمَّن تولّى في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ ليس للوجوب، وإنَّما هو توجيهٌ وإرشادٌ للنَّبيِّ ﷺ في التَّعامل مع المعرِضِ عن الحقِّ، وعدمِ الانشغال بمجادلته وإقناعه والمبالغةِ في الحرصِ على هدايته، فإنَّه لا تفيدُ دعوته إلّا عنادًا وإصرارًا على الباطل، وذلك تخفيفٌ من اللّه عن النَّبيِّ ﷺ.

معنى حرف الجر ﴿عَن﴾ ودلالته:

تجاوزُ مجادلةِ المعرضين عن الهداية إلى دعوةِ القابلين لها

يدلُّ حرف الجر ﴿عَن﴾، في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾ على المجاوزة، وهو الأصل في ﴿عَن﴾، أي: تجاوزْ مَن أعرضَ عن ذكرنا، ولم يردْ إلّا الدُّنيا الفانية الدَّنيئة، وتجاوزْ مجادلتهم والانشغال بدعوتهم، والتفتْ إلى دعوةِ القابلين للهداية.

الغرضُ من التَّعبير بالموصول ﴿مَّن﴾ في قوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾:

في الموصوليَّة إيذانٌ بعلَّة الأمْرِ بالإعراضِ عن الكافرين

عُبِّر بالاسم الظّاهرِ، وهو الاسم الموصول ﴿مَّن﴾، في قوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾؛ للتَّوسُّل بالاسم الموصول إلى وصْفِهم بما في حيِّزِ صلتِه من الأوصافِ القبيحةِ، وهي الإعراضُ عن القُرآنِ المفيدِ للعلمِ اليَقينيِّ والمُنطوي عَلى علومِ الأوَّلينَ والآخرين المذكِّر لأمورِ الآخرة[1]، ولِما تُؤذِنُ به صِلةُ المَوصولِ مِن عِلَّةِ الأمْرِ بالإعراضِ عنهم، ومِن تَرتُّبِ تَولّيهم عن ذِكرِ اللّهِ على ما سبَقَ وصْفُه من ضَلالِهم؛ إذْ لم يَتقدَّمْ وصْفُهم بالتَّولّي عنِ الذِّكرِ، وإنَّما تَقدَّمَ وصْفُ أسبابِه[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿تَوَلَّىٰ﴾ مادَّة وصيغة:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظ ﴿تَوَلَّىٰ﴾؛ لاتِّساع معناه، فالتَّوَلّي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 160.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 117.

تركُ إصغاءِ المشركين للحقِّ وانصرافُهم عنه موقفٌ ثابتٌ وراسخٌ منهم

قد يكون بالجسْم، وقد يكون بتَرْكِ الإصغاءِ والائتمار[1]، وهذا كان حالُ المشركين مع القرآن، فقد تركوا الإصغاءَ له، ولم يأتمِروا بما جاء فيه، وأدبروا، وانصرفوا عنه إلى شيءٍ آخر، ولمراعاة مناسبةِ السّياق الَّذي ذُكِرَ فيه لفظُ الإعراض الَّذي من معانيه التَّولّي مِن: ولّى عن الشَّيء: أَدْبَرَ، وأَعْرَضَ عَنْهُ، أو نَأى[2]، وهذا يدلُّ على شدَّةِ عنادِ المعرض وقبحِ فعله، وعدمِ استجابته للحقِّ، فهو مطموسٌ على قلبه، ولا يُرتجى منه أيُّ إيمان، ولهذا الغرض عبَّر بالفعل الماضي الَّذي يدلُّ على ثبوتِ وقوعِ التَّولّي منه وتحقُّقِه، فإعراضُه وانصرافه عن القرآن ليس مجرَّد تردُّد، بل هو موقفٌ ثابتٌ وراسخ منه، وكأنَّه صارَ طبيعةً له، ومجيءُ الفعلِ على صيغةِ المُفرَدِ مراعاةٌ للفظِ (مَن)، ألا ترى قولَهُ: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم﴾ بضَميرِ الجمْعِ؟[3].

بلاغةُ التَّعبير بالاستعارة في (الإعراض)، و(التَّولّي):

تركُ مجادلة المشركين لعدمِ استماعِهم القرآن والامتثالِ للحقِّ

حقيقةُ الإعراضِ: لفْتُ الوجهِ عنِ الشَّيء؛ لأنَّهُ مشتقٌّ مِنَ العارضِ، وهو صفحةُ الخدِّ؛ لأنَّ الكارهَ لشيء يصرِفُ عنه وجهَهُ، وحقيقةُ التَّولّي: الإدبار والانصراف، وهما - أي: (الإعراض)، و(التَّولّي)، في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾ - كلاهما مستعملٌ في مجازه؛ فأمّا الإعراض؛ فهو مستعارٌ لترك المجادلة، أو لترك الاهتمام بسلامتهم من العذاب وغضب الله، أي: عدم الاهتمام بنجاتهم؛ لأنَّهم لم يقبلوا الإرشاد، وإلّا فإنَّ النَّبيَّ ﷺ مأمورٌ بإدامةِ دعوتهم للإيمان، فكما كان يدعوهم قبل نزول هذه الآية، فقد دعاهم غير مرَّة بعد نزولها، وأمّا التَّولّي؛ فهو مستعارٌ، كذلك لعدمِ الاستماع أو لعدمِ الامتثال من الَّذين تولّوا عن القرآن الكريم[4].

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 282.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ولي).
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 117.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 117.

سرُّ الإضافة في: ﴿ذِكۡرِنَا﴾ في قوله: ﴿عَن ذِكۡرِنَا﴾:

إضافةُ الذِّكر إلى (نا) الدالة على التَّعظيم، في قوله تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا﴾؛ للتَّشريف والتَّكريم، فهو ذِكر خاصٌّ صادرٌ من اللّه، وليس مجرَّد كلام بشري، ممّا يعطيه مكانة عظيمة، فالتَّولّي عن كلام اللّه يعني التَّولّي عن الإيمان باللّه وبهدايته، كما أنَّ في الإضافة إظهارًا لعَظيمِ ذنبهم، وقبيحِ فِعلهم واستحقاقهم للتَّهديد والأمر بالإعراض عنهم.

التَّولّي عن كلام الله فعلٌ قبيحٌ يستحقُّ الإعراض عن فاعله

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾: إمّا عاطفةٌ[1] جمعَتْ بين وصفين للمشركين، هما: الإعراضُ عن القرآن، والانهماكُ بالدُّنيا، وإمّا حاليَّةٌ، والمعنى: فأعرضْ عن الَّذي تولّى عن ذكرنا، وحاله أنَّه لم يردْ إلّا الحياة الدُّنيا، فمن كانتْ هذه صفاته؛ فلا يُرتجى إيمانه، فأعرضْ عن دعوته والاهتمام بشأنه.

من كان حاله الإعراضَ عن القرآن والانهماكَ بالدُّنيا لا يستحقُّ الاهتمام

دلالةُ النَّفي بـ(لم) في ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ﴾:

دخولُ حرف الجزم والنَّفي (لم)، على الفعل المضارع ﴿يُرِدۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، نقلَ الفعلَ المضارع إلى معنى النَّفيِ في الزَّمن الماضي، وأفادَ نفيَ إرادة المعرض عن الآخرة، ودوامَ إعراضه على وجهٍ بليغ، أي: لم يُعرض عن القرآن الكريم المذكِّرِ لأمورِ الآخرةِ في وقتٍ، ويقبلْ في آخر، وإنَّما لم يردْ في وقتٍ من الأوقات إلّا الحياةَ الدُّنيا الحاضرة[2].

المشركُ لم يردْ في وقتٍ من الأوقات إلّا الحياة الدُّنيا

الغرضُ من التَّعبير بأسلوب القصر بطريق النَّفي والاستثناء:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالقصر بطريق النَّفي والاستثناء؛ فضحًا لهم وتعليلًا للإعراض والتَّولي عنهم؛ لأنَّهم أتفه النّاس بحصر

استمرارُ المشركين على الانهماك في الدُّنيا منبئٌ عن شدَّة ضلالهم

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 358.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 65.

غاياتهم فيما يفنى، وعبَّر بصيغة المضارع المجزوم في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ للدَّلالة على المبالغةِ في الدَّوام والاستمرار في عدم إرادتهم لغير الحياة الدُّنيا؛ بحيثُ كانت الدُّنيا هي مُنتهَى همَّتِهم، وقُصارَى سعيِهم لا تزيدُه الدَّعوةُ إلى خلافِها إلّا عنادًا وإصرارًا على الباطلِ[1]، أي: لم يكنْ إعراضهم في وقتٍ دون آخر، ولذا دلَّ على دوامه على هذا الوجه البليغ[2]، وقد أفادَ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾ المسبوق بالنَّفي الحصر.

بلاغة التعبير بالكناية:

الدُّنيا مُنتهَى همَّة الكافرين وقُصارَى سعيِهم

في هذا الأسلوب ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ كِنايةٌ عن عدَمِ الإيمانِ بالحياةِ الآخِرةِ، كما دلَّ عليه قولُه: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾؛ لأنَّهم لو آمَنوا بها على حَقيقتِها؛ لأرادوها، ولو ببَعضِ أعمالِهم[3]، فهُم رضوا بالحياة الدُّنيا، وقصروا نظرهم عليها، فلا تزيدُهم الدَّعوةُ إلى خلافِها إلّا عنادًا وإصرارًا على الباطلِ[4].

دلالةُ التَّعبير بالمفعول به موصوفًا:

ذمُّ مَن انشغلَ بالدُّنيا الفانية عن الآخرة الباقية

وصف الحياة بالوصف في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، يشير إلى نقصها وقِصرِ التَّمتُّع بها، وقلَّته وسرعةِ زواله وانقضائه، وكأنَّه لم يكن؛ لأنَّ الدُّنيا إنَّما سُمّيتْ بهذا الاسم لدنوِّها، أو لدناءتها[5]، ويردُ هذا التَّركيب عندما يريدُ النَّظم الكريم أن يصوِّرَ استغراقَ الإنسان في هذه الحياة، وعدمَ عنايته بما بعدها، واغتراره بأهوائها وشهواتها، وكأنَّها هي الحياة الأبديَّة[6].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 65.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 118.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 160 - 161.
(5) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 120.
(6) خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم - دراسة دلالية مقارنة، ص: 349 - 350.

دلالةُ الاستئناف:

بيانُ سببِ جهل المعرضين بوجود الحياة الآخرة لتحقيرهم

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ، بيَّنَ سَببَ جَهْلِ المعرضين بوُجودِ الحياةِ الآخِرةِ؛ لأنَّه لغرابته ممّا يَسألُ عنه السّائلُ، وفيه تَحقيرٌ لهم، وازدِراءٌ بهم بقُصورِ مَعلوماتِهم، وهذا الاستِئنافُ وقَعَ مُعترِضًا بينَ الجُمَلِ في قوله: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾، وعِلَّتِها في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[1]، وهو اعتِراضٌ مُقرِّرٌ لقُصورِ هِمَمِهم بالدُّنيا[2].

الغرضُ من التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تولّيهم عن القرآن وقصْرِ إرادتهم على الدُّنيا أمرٌ متناهٍ في الجهل

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ يشيرُ إلى ما أدّاهم إلى ماهم فيه من التَّولّي وقصرِ الإرادة على الحياة الدُّنيا[3]، وقد استعملَ ما يُشارُ به إلى البعيد؛ للدَّلالة على أنَّ إعراضهم وتولّيهم عن القرآن، وقصْرِ إرادتهم على الحياةِ الدُّنيا هو أمرٌ متناهٍ في الجهل والقباحة[4].

دلالة التَّعبير بالمصدر الميميِّ مضافًا إلى الضَّمير:

منتهى ما بلغهُ المشركون جهلٌ وقباحةٌ

عبَّر القرآن بالمصدر الميميِّ ﴿مَبۡلَغُهُم﴾ من الفعل (بلغ)، في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾، دون المصدر القياسيِّ الأصليِّ (بلوغهم)؛ للإيحاء بالحدِّ النِّهائي للعلم الَّذي وصلوا إليه، أي: ذلك الأمرُ المتناهي في الجهل والقباحة هو نهايةُ بلوغهم وموضعُ بلوغهم والحاصل لهم[5]، والإضافة إلى الضَّمير (هم) تعني أنَّ هذا المبلغ هو خاصٌّ بهم، لا يتعدّونه، وتبرز انغلاقهم العلميَّ والفكريَّ،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 118.

(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 425.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 65.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 65.

فهُم لا يمتلكون من العلم إلّا قشوره الدُّنيويَّة، وهم معرضون عن الذِّكر، فلا نصيبَ لهم من الهداية أو الفهم العميق.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها:

حقيقةُ ما بلغه المشركون أوهامٌ وظنونٌ انغمسوا فيها

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ بيانيَّة، أي: ذلك الَّذي بلغوه، هو أوهامٌ وظنونٌ لا تتَّصلُ بالهداية ولا بالآخرة، فلا تُمثِّل العلم الحقيقيَّ النافع، أو بمعنى (في) والتَّقدير: مبلغهم في الظّنون والأوهام، فهُم منغمسون فيها.

معنى اللام ودلالتها:

تسميةُ أوهام المشركين علمًا تهكُّمٌ بهم

التَّعريف في ﴿ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ للعهدِ، أي: العلم المعهود الَّذي يملكونه، ويعرفونه، وهو علمٌ قاصرٌ لا يتجاوز الظُّنون والأوهام، و"تسميته علمًا تهكُّمٌ بهم"[1]؛ لأنَّه لا علم لهم؛ لأنَّ عيون بصائرهم عمي، ومرائيها كثيفة مظلمة، لا تكشف عن نظر الآخرة، الَّتي هي أصل العلوم كلِّها[2].

بلاغة التَّعبير بالاستعارة في جملة: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم﴾:

تصويرٌ لقصور معلومات المشركين تحقيرًا لهم وازدراءً بحالهم

في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ استُعير للشَّيءِ - الَّذي لم يعلمه المشركون المنهمكون في الدُّنيا - اسمُ الحدِّ الَّذي يبلغُ إليه السّائرُ، فلا يعلم ما بعده من البلاد[3]، وفي هذا تصويرٌ لقصورِ معلوماتهم، بما يتضمَّن تحقيرهم والازدراءَ بحالهم.

موقع جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ﴾ ممّا قبله ودلالته:

تعليلٌ يحمل التَّسلية للنَّبيِّ والجوابَ عن تساؤله

وقع قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تَعليلًا لجُملةِ: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ﴾، وأفادَ تَسليةً للنَّبيِّ ﷺ بكون اللّه مُتولّي حِسابِهم وجَزائِهم موعدًا الضّالّينَ[4]، فبينهما شبهُ كمال

(1) حاشية الصاوي على الجلالين، ص: 1879.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 65.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 118.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 118.

اتِّصال، فكأنَّه لمّا أمر اللّهُ نبيَّه بالإعراض عن الكافرين، تساءلَ النَّبيُّ ﷺ عن علَّة ذلك، فجاءه الجواب.

بلاغة التَّعبير بالاستعارة، والكناية:

الوعيدُ بالكناية أشدُّ من التَّصريح به

في التعبير القرآني: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ تشبيهٌ للإسلام بالطَّريقِ المحسوس - الَّذي يسلكه المهتدون إلى دين اللّه، ويضلُّ عنه آخرون، فيسلكون سُبُلًا أخرى - استعارةٌ تصريحيَّة؛ إذ صرَّح بالمشبَّه به، وهو السَّبيل، وحذف المُشبَّه، وهو الإسلام، والجملةُ الخبريَّةُ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ جاءتْ كنايةً عن تولّي اللّهِ حسابَ الضّالّين والمهتدين وجزائهم بما يستحقّون[1]، وإحاطة علمه بحالهم، والوعيد بالكناية أشدُّ من التَّصريح به.

بلاغةُ توالي المؤكّدات في الآية:

توكيدُ كون اللّه وحده مُتولّي حساب المعرضين وجَزائِهم بما يستحقّون

التَّوكيدُ المُفادُ بحرْفِ ﴿إِنَّ﴾ وبضَميرِ الفَصْلِ ﴿هُوَ﴾ وبالجملة الاسميَّة، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، راجعٌ إلى المعْنى الكِنائيِّ، وهو أنَّ اللّه وحده مُتولّي حِسابِهم وجَزائِهم بما يستحقّون، وأمّا كونُه تعالى أعلَمَ بذلك؛ فلا مُقْتضى لتأكيده، لمّا كان المُخاطَبُ به النَّبيَّ ﷺ والمعْنى: هو أعلَمُ منكَ بحالِهم[2]، وهذا تسليةٌ له ﷺ أو أنَّ التَّوكيدَ قطعًا لطمعِ من يظنُّ أنَّ وعظَ النَّبيِّ ﷺ وكلامه يردُّ أحدًا من المشركين عن غيِّه، وإنْ أبلغَ ﷺ في أمره ودعائه في سرِّه وجهره[3].

سرُّ إيثار لفظ الرُّبوبيَّة معرَّفًا بالإضافة:

عنايةُ اللّه لا تنفكُّ عن نبيّه حتى مع إعراض الضالين عنه

في التعبير بالربوبيَّة وإضافته إلى النَّبيِّ ﷺ في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ما يدلُّ على التكريم والتشريف للنَّبيِّ ﷺ والرَّحمة والإحسان إليه بالإرسال وغيره، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 118.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 118.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/ 65.

ضلالَ هذا المصرِّ على الضلال من إحسان اللّه إلى نبيِّه ﷺ لأنَّه لو دخل في دينه؛ لأفسدَ أكثر ممّا يصلح، كما قال تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْۗ﴾ [التوبة: 47]؛ وذلك لأنَّ هذا الكافر جُبِل جبلَّة غير قابلة للخير[1].

دلالة التَّعبير بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

في اقتصارِ اللهِ بعلمِ أحوالِ الضالين والمهتدين وعيدٌ ووعدٌ

ضَميرُ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾ مُفيدٌ قصْرَ المسندِ على المسند إليه، وهو قصْرٌ حَقيقيٌّ، اختصَّ فيه المقصور بالمقصور عليه، فاللّهُ وحده مَن يعلم دَخائلَ الضالين، وعِلْمُه بحالهم صفةٌ مقصورةٌ على اللّه، لا يشاركه فيها أحدٌ، وأنتَ يا رسول اللّه لا تَعلَمُ، فلا تَتحسَّرْ عليهم[2]، وفي "اقتصارِ العلم بأحوالِ الفريقينِ عليهِ تعالَى رمزٌ إلى أنَّه تعالَى يعاملُهم بموجبِ علمِه بهم، فيجزي كلًّا منهم بما يليقُ بِه من الجزاءِ، ففيهِ وعيدٌ ووعدٌ ضِمنًا، كما سيأتي صَريحًا"[3].

دلالة التَّعبير بصيغة التَّفضيل: ﴿أَعْلَمُ﴾:

علمُ الله وسعَ الكون ومَن فيه وما فيه، فلا يعزبُ عن علمِهِ شيءٌ

مع أنَّ العلمَ بأحوال الضّالين والمهتدين صفةٌ مقصورةٌ على اللّه - ففي الحقيقةِ هو العالم لا غير - فقد صاغَ البيانُ الحكيم ﴿أَعْلَمُ﴾ على هيئة أفعل التفضيل؛ للدَّلالة على أنَّ اللّهَ لا يعزبُ عن علمه أحدٌ من الضالين، ولا أحدٌ من المهتدين، وأنَّ علْمَهُ وسعَ الكون ومَنْ فيه وما فيه، "ويمكن أنْ يقال: أعلم من كلِّ عالم بفرض عالم غيره"[4]، ولا يوجد.

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِمَن ضَلَّ﴾:

علمُ الله محيطٌ بخبايا المخلوقات ومصائرِ العباد

الباءُ في قوله: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾ وفي ﴿بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾؛ لِتَعْدِيَةِ صِفَتَي ﴿أَعْلَمُ﴾، وهي لِلْمُلابَسَةِ، أي: هو أشَدُّ عِلْمًا مُلابِسًا لِمَنْ ضَلَّ عَنْ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 65.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 118.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 266.

سَبيلِهِ ولمن اهتدى، أيْ: ملابسًا لحال ضلاله، وحال هدايته[1]، ويمكن أن تكون الباء "زائدةً لتقوية العمل"[2].

الغرض من التَّعبير بالموصول (مَنْ):

بيانٌ لاتِّصاف الكافرين بأقبحِ الأوصاف، وهي الإصرار على الضَّلال

في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وضعَ الموصول (مَنْ) موضعَ ضميرهم، فلم يقل: (هو أعلم بهم)؛ للتوسُّل به إلى وصفهم بما في حيِّزِ صلتِه من الأوصافِ القبيحةِ، وهي تحقُّق الإصرار على الضَّلال منهم، ولإفادةِ العموم، فهو أعلمُ بكلِّ مَن ضلَّ عن سبيله.

دلالة التَّعبير بالماضي في ﴿ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾:

بيانُ تحقُّق إصرارِ الكافرين على الضَّلال عليه

عبَّر البيانُ الحكيمُ بصيغةِ الماضي في قوله: ﴿بِمَن ضَلَّ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الضَّلال والإصرار عليه، فاللَّهُ أعلمُ بمَنْ أصرَّ عليهِ، ولم يرجعْ إلى الهُدَى أصلًا، ولا يرعوي عنِ الضَّلالِ أبدًا، فلا تُتعبْ نفسَك يامحمَّد في دعوتِهم، فإنَّهم من القبيلِ الأوَّلِ[3].

دلالة العطف في قوله: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ﴾:

في بيانِ شمول علم الله بالنّاس جميعًا مزيدُ تسليةٍ للنَّبيِّ ﷺ

في عطف (علم اللّه بمَن اهتدى) على (علمه بمَن ضلَّ عن سبيله) جمعٌ بين حالين متقابلين مختلفين، وهما حالُ الضّالين وحال المهتدين، بما يدلُّ على شمولِ علم اللّه بالناس جميعًا، وفي هذا مزيدُ تسلية للنَّبيِّ ﷺ.

بلاغة التتميم في جملة الفاصلة:

في التتميم وعْدٌ وتطمينٌ للمؤمنينَ وبِشارةٌ للنَّبيِّ ﷺ

أطنبَ البيانُ القرآني في الآية الكريمة بجُملةِ: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾؛ تَتْميمًا للمعنى، أي: علمُ اللّه تعالى أيضًا محيطٌ بكلِّ مَن اهتدى، والهدايةُ مرتبطةٌ بعلم اللّه الأزلي، وفيه وعْدٌ وطمأنينةٌ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 119.

(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 290.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.

للمؤمنينَ، وبِشارةٌ للنَّبيِّ ﷺ[1]، كما أنَّ في هذا التتميم مراعاةً للفاصلة القرآنية.

سرُّ تكرار ضمير الفصل (هو) واسم التفضيل ﴿أَعۡلَمُ﴾:

في التكرار بيانُ شمول علمِ الله وإيـذانٌ بكَمالِ تَبايُنِ المَعلومَينِ

كرَّرَ البيانُ الحكيم قولَه تعالى: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ﴾ ولفظ ﴿بِمَن﴾، ولم يقلْ: (هو أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وبالمهتدين)؛ لزيادةِ تقريرِ علمِ الله بخلقه سبحانه الضالين منهم والمهتدين على حدٍّ سواء، والإيذانِ بكَمالِ تَبايُنِ المَعلومَينِ[2].

سرُّ تقديم الضلال على الهداية:

فـي تـقـديـم الـضـلال تهديدٌ لـلـكـافـريـن وتسليةٌ لقلب النبي ﷺ

تَقْديم ذِكر (مَنْ ضَلَّ) على ذكر (مَنِ اهْتَدى)؛ لأنَّ ذِكر الضالّين أهمُّ في هَذا المَقام، والسياقُ يُعالج قضيةَ ضلالهم، وأمّا ذِكْرُ المُهْتَدين؛ فتَتْميمٌ[3]، ولأَنَّ المذكورَ نَبيُّه ﷺ والمعانِدونَ، فذَكَرهم أوَّلًا تَهديدًا لهم، وتَسليةً لقَلبِ نَبيِّه عليه الصلاة والسلام[4].

بلاغة التعبير بالطِّباق في ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾:

بضدِّها تتميَّز الأشياء

أسلوب الطباق يلائم خطاب العقول؛ إذ كلُّ ضدٍّ يستدعي ضدَّه في الذهن، فيأتي الضدُّ بالاستدعاء، وما جاء مع انتظاره كان في الذهن أقعد، وللمذكور السابق أكثر تمييزًا.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التولّي، والإعراض:

الإعراضُ تجاهلٌ مـؤقَّـتٌ وهجرٌ حكيم، والتولّي انـقـلابٌ عـن الـحـقِّ ومـوالاةٌ للباطل

الإعراضُ تجاهلٌ وعدمُ اكتراث[5]، فحَقيقَةُ الإعراضِ: لَفْتُ الوَجْهِ عَنِ الشَّيءِ؛ لأنَّهُ مُشتَقٌّ مِنَ العارِضِ، وهوَ صَفْحَةُ الخَدِّ؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 119.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 119.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 267.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عرض).

الكارِهَ لِشَيءٍ يَصْرِفُ عَنْهُ وجْهَهُ[1]، وأمّا التّولّي إذا عُدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتضى معنى الإعراض وترْك القرب[2]، وحَقيقَةُ التَّوَلّي: الإدبارُ والانصراف والذهاب[3]، وقد ناسبَ استعمالُ لفظ الإعراض مع النبي ﷺ؛ لأنَّ المأمور به ليس المرادُ منه الإدبار التامَّ والانصراف عنهم، فالنبيُّ ﷺ مأمورٌ بإدامة دعوتهم للإيمان، وإنَّما المراد عدمُ الاهتمام بالمشركين وعدمُ الاكتراث بهم، وعدمُ التحسُّر عليهم، وفي هذا تسليةٌ له ﷺ، بينما ناسبَ استعمال لفظ التولّي مع المشركين الذين أدبروا، وانصرفوا انصرافًا كاملًا عن ذكر الله، فالتولّي انقلابٌ عن الحقِّ، وموالاةٌ للباطل.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 117.

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/ 343، والكفوي، الكليات، ص: 28.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 117، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ولى).

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ٣١ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾ [النجم: 31 - 32]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

كلُّ ما في الكون ممَّن اهتدى، أو ضلَّ، في قبضته وتحت سطانه

لَمّا ذكَر اللّهُ تعالى أنَّه أعلَمُ بمَن ضَلَّ، وبمَنِ اهتَدَى، وكان هذا رُبَّما أوهَمَ أنَّ مَن ضَلَّ على هذه الحالةِ ليس في قَبضَتِه؛ قال نافيًا لهذا الإبهامِ، مُبَيِّنًا أنَّ له الأسماءَ الحُسنى ومُقتَضياتِها في العالَم، فهو مالك الملك[1]، فبعد أن ذكرَ أنَّ للّه أمورَ الدّارين بقوله: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾؛ جاء البيان لأهمِّ ما يجري في الدارين من أحوالِ الناس، الَّذين هم أشرفُ ما على الأرض بمناسبة قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾: فعل ماض يدُلُّ على القُبحِ، وسُمّيَتِ النّارُ سوءَى؛ لِقُبحِ مَنْظَرِها[3]، وساءَ الشَّيْءُ: قَبُحَ، والسّوءُ نَعتٌ لكلِّ شيءٍ رَديءٍ، وهو اسمٌ جامعٌ للآفاتِ والدّاءِ[4]، وهوَ: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّة والأُخرويَّة، والسَّيِّئَةُ: الفِعْلَةُ القبيحةُ[5]، والمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ في الآية: الَّذين عصوه من خلقه[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 66.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 119.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوء).
(4) الخليل، العين: (سوء).
(5) الراغب، المفردات: (سوء).
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 531.

2) ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾: أصلُ الإثم: البُطءُ والتَّأخُّرُ، والإثمُ: الذَّنب؛ لأنَّ هذا الإثمَ بطيءٌ عَنِ الخير مُتأخِّرٌ عنه[1]، والإثمُ: التقصيرُ، وسُمّيت الخمرُ إثْمًا؛ لأنَّها تقصرُ بشاربها لذهابها بعقله، والإثمُ لا يكون إلّا تعمُّدًا[2]، والإثمُ ما يحملُ على قلقِ النَّفس، وهو معصيةٌ وخطيئةٌ تستحقُّ على صاحبها الذَّمَّ والعقوبة عليه[3]، والمراد بكبائر الإثم: الآثامُ الكَبيرَةُ الَّتي شدَّدَ الدّينُ التَّحذيرَ منها، وذكر لها وعيدًا بالعذاب[4].

3) ﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: أصلُ الفحشِ يدلُّ على قُبحٍ في شَيءٍ وشناعةٍ فيه، لمجاوزته الحدَّ مع تكرُّهٍ له وذمٍّ شديدٍ، فالفُحشُ والفَحشاءُ والفاحِشَةُ: ما عظُمَ قُبحُهُ، وفَشا استقباحُه لدى النّاس، من الأفعال والأقوال والأحوال، و(الفاحشةُ) هنا بمعنى الفعلةِ الشَّنيعةِ الشَّديدةِ القُبح، من زنى أو نشوزٍ وسوءِ خُلقٍ[5]، "و﴿وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾: جَمْعُ فاحِشَةٍ، وهيَ: الفِعْلَةُ المَوْصوفَةُ بالشَّناعَةِ، والَّتي شَدَّدَ الدّينُ في النَّهْيِ عَنها، وتَوَعَّدَ عَلَيها بالعَذابِ، أو وضَعَ لَها عُقوباتٍ في الدُّنْيا، لِلَّذي يَظْهَرُ عَلَيهِ مِن فاعِليها، وهَذِهِ مِثْلُ قتل النَّفس، والزِّنى، والسَّرِقَةِ، والحِرابَةِ"[6].

4) ﴿ٱللَّمَمَۚ﴾: أصلُ (لمّ) يَدُلُّ على اجْتِماعٍ ومُقارَبَةٍ ومُضامَّةٍ، ولَمَمْتُ الشيء: جمعته، وأصلحته، وألْمَمْتُ بكذا، أي: نزلتُ به، وقاربته من غيرِ مواقعة، واللَّمَمُ: مقاربةُ المعصية، فاللَّممُ لَيْسَ بمواقَعَةِ الذَّنْبِ، وإنَّما هوَ مُقارَبَتُهُ، ثُمَّ يَنْحَجِزُ عَنْهُ، ويُعبَّر به عن الصَّغيرة[7]، ومعنى اللَّمم هو الفِعْلُ الحَرامُ الَّذي هوَ دونَ الكَبائِرِ والفَواحِشِ في تَشْديدِ التَّحْريم، وهوَ ما يَنْدُرُ تَرْكُ النّاسِ لَهُ، فيُكْتَفَى مِنهُم بعَدَمِ الإكْثارِ مِنِ ارتِكابِهِ، وهو ما يسمّيه العلماء الصغائر في مقابلة تسمية النوع الآخر بالكبائر[8].

5) ﴿أَجِنَّةٞ﴾: الجذر منه (جنن)، وأصله يدلُّ على السَّتْرِ والتَّسَتُّرِ، والجنينُ: الوَلَدُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (أثم).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 233.

(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (إثم)، والكفوي، الكليات، ص: 40.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 121.

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فحش).

(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 121.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لمّ)، والراغب، المفردات: (لم).

(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 110، 27/ 121.

في بَطْنِ أُمِّه[1]، والمعنى المحوري: سَتْرُ الشيء بكثيفٍ يعلوه، أو يكون الشيء في أثنائه[2]، و﴿أَجِنَّةٌ﴾: جمع جنين، وهوَ نَسْلُ الحَيَوانِ ما دامَ في الرَّحِم، وهوَ فعيلٌ بمَعْنَى مَفْعولٍ؛ لأنَّهُ مَسْتورٌ في ظُلُماتٍ ثَلاثٍ[3].

6) ﴿تُزَكُّوٓاْ﴾: (زكي) أصل يدلُّ على نَماءٍ وزيادَةٍ، وأصلُ الزكاة يرجعُ إلى النَّماءِ والطَّهارةِ[4]، والبركةِ والمَدْح، والزَّكاةُ: الصلاحُ، والزَّكاةُ: صفوةُ الشَّيْءِ، وأرضٌ زَكيَّةٌ: طيِّبةٌ سَمينَةٌ[5]، والزَّكاةُ: النُّموُّ الحاصل عن بركة اللّه تعالى، ويعتبر ذلك بالأمور الدُّنيويَّة والأخرويَّة[6]، ومعنى ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ في الآية: فلا تشهدوا لأنفسكم بأنَّها زكيَّةٌ بريئةٌ من الذُّنوب والمعاصي، فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة عن المعاصي بالكليَّة، أو بزكاءِ العمل وزيادةِ الخير، أو لا تِثقوا بأنَّكم أزْكياءُ، فيَدْخُلَكُمُ العُجْبُ بأعْمالِكُم، ولا يُثْنِ بَعْضُكُم على بَعْضٍ بالصَّلاحِ والطّاعَةِ؛ لِئَلّا يُغَيِّرَهُ ذَلِكَ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إحاطةُ مُلكِ الله لِما احتوت عليه العوالمُ كلُّها

للّه وحْدَه مُلْكُ ما في السَّماواتِ وما في الأرضِ من شيء؛ ليَجزيَ الَّذين عصوه من خلقه، فأساؤوا بمعصيتهم إيّاه، فيثيبهم بها النار، وليجزي الذين أطاعوه، فأحسنوا بطاعتهم إيّاه في الدُّنيا بالحسنى، وهي الجنَّة، فيثيبهم بها[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنّ).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جنن).
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 124، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جنن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زكى).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (زكا).
(6) الراغب، المفردات، ص: 380.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 540، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 63، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 539.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ إمّا استئنافٌ مسوقٌ للإخبار عن كمال قدرته سبحانه[1]، أو حاليَّة، أي: هو أعلمُ بمن ضلَّ، وبمن اهتدى، والحالُ أنَّ له ما في السَّماوات والأرض، أو عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ما تقديره: (فلله من في السَّماوات ومن في الأرض)، أي: له ملكُ الذوات والمعاني[2]، ويمكن أنْ يكون المعطوف عليه قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾، والمراد بالعطف الإشارةُ إلى الجَزاءِ، إذًا جاء العطفُ لإثباتِ وُقوعِ البَعثِ والجَزاءِ[3]، وللإشارةِ إلى كمالِ غنى اللّٰه وقدرته؛ لأنَّ مَن عَلِمَ، ولم يقدرْ؛ لا يتحقَّق منه الجزاء[4].

حالٌ من عَلِمَ، وقَدِرَ، أنْ يتحقَّق منه الجزاء

معنى اللام ودلالتها في (لله):

لام (للّٰه) في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لامُ الملكيَّة، أو لامُ التبعيَّة، والمعنى: كلُّ شيء في السَّماوات والأرض هو للّٰه خَلقًا وملكًا وتصرُّفًا[5].

كلُّ شيء لله وحده خَلقًا وملكًا وتصرُّفًا

الغرض من التصريح باسم الجلالة مقدَّمًا على المبتدأ:

التصريحُ بالاسم الجليل مقدَّمًا في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، في مقامِ التعظيم دلالةٌ على المبالغة في بيانِ عظمة اللّٰه سبحانه وعظمة ملكه سبحانه، وأنَّ له وحده ما في السَّماوات من الذوات والمعاني[6]، لا لغيره أصلًا لا استقلالًا ولا

بيانٌ لشمول الملك وتمامِ العظمة لله وحده دون سواه

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 326.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 66.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 119.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 268.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 66.

اشتراكًا[1]، أي: تخصيصُ ملك ما في السَّماوات والأرض باللّه تعالى وحصره به، كما دلَّ تقديمُ الاسم الجليل على العناية، والاهتمام به.

عمومُ ملك الله لما في السَّماوات والأرض دلالة على عظمته

دلالة التَّعبير بالاسم الموصول ﴿مَا﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾؛ للدَّلالة على العموم؛ إذ هي أدخل الموصولات في الإبهام وأعمُّها، أي: للّه كلُّ ما في السَّماوات والأرض من الذوات والمعاني[2]، وعدلَ عن (مَنْ)؛ لكثرة غير العاقل، والإشارة إلى ضعف العقلاء في مقام بيان عظمة اللّه، والإشارة إلى الذّوات والأوصاف والأحوال.

إيـذانٌ بتغلغلِ ملكه وانتشاره فـي السـماوات وفي الأرض

معنى حرف الجر ﴿فِي﴾ ودلالته:

عبَّر البيانُ الحكيم بحرف الوعاء ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للإشارةِ إلى تغلغلِ ملكه وسلطانه في كلِّ السماوات وفي كلِّ الأرض، فله الملكُ كلُّه، ومجيء الظَّرفية بعد ﴿مَا﴾ الَّتي أفادتِ العمومَ يزيدُ العمومَ عمومًا، والشُّمولَ شمولًا، فعمَّ كلَّ شيء في ظاهرِ السَّماواتِ والأرضِ وباطنهما.

تأكيدُ كمالِ ملكِ اللـه لـعوالـمَ كـثيرةٍ متنوِّعةٍ تستحقُّ الإفرادَ والاهتمام

سرُّ تكرار (ما) الموصولة:

أعادَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الموصول (ما) في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لتأكيد شمولِ ملك اللّه، وكأنَّ كلًّا من السماوات والأرض تضمُّ عوالمَ كثيرةً متنوِّعةً تستحقُّ الإفرادَ والاهتمام، وكلٌّ منهما مجالٌ مستقلٌّ لعظمةِ اللّه وملكه، وللدَّلالة على ملكِ اللّه لجميع ما في الأرض؛ إبطالًا لما قد يتوهَّمه الجاهلون أنَّ لهم في الأرض ملكًا، كما أنَّ تكرارَ الاسم الموصول يُضفي وقعًا موسيقيًّا وجماليًّا يتناسبُ مع فخامة المعنى.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 161.

معنى اللام ودلالتها في ﴿وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ﴾:

اللام في الأرض في قوله: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيَّة استغراقيَّة، تشملُ جنسَ الأرض، أي: من جَوهرٍ وعَرَضٍ صامتٍ وناطقٍ، فلا شيءَ خارجٌ عن ملكه يحوجه إلى ظلم، أو إخلافِ وعد.

لا شيءَ في الأرضِ خارجٌ عن ملكه سبحانه

سرُّ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

قدَّم النَّظمُ الحكيم ذِكرَ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ مراعاةً للسبقِ في الخلقِ، ومراعاةً لمقام عظمةِ اللّٰه وملكه؛ لكون السماوات أعجبَ وأدلَّ على كمالِ قدرته سبحانه، فإنَّ الآيات في السماوات أعظمُ منها في الأرض؛ لسعتها وعظمها، وما فيها من كواكبها، وشمسها، وقمرها، وبروجها، وعلوِّها، واستغنائها عن عمدٍ تقلُّها، ولأنَّ السَّماوات أعظمُ من الأرض شأنًا وخَلقًا، وأشرفُ ذاتًا وصفةً[1]، فهي متعبَّدُ الملائكةِ المقدَّسين على تفاوتِ مراتبهم، وقبلةُ الدُّعاء، ومعراجُ الأرواح الطّاهرة، ولا معاصي ومنْكرات تحصلُ فيها، بخلاف الأرض، التي وإن كان فيها الأنبياء؛ فقد وقعت فيها المعاصي، وحوت على المفسدين[2]، كما أنَّ تقديم السماوات على الأرض عادةُ القرآن الكريم.

السماواتُ أعجبُ وأدلُّ على كمالِ قدرته سبحانه

معنى اللام ودلالتها في ﴿لِيَجۡزِىَ﴾:

اللّامُ في قولِه: ﴿لِيَجۡزِىَ﴾ إمّا للتعليل؛ إذ جعَلَ الجزاءَ علَّةً لثُبوتِ مِلكِ اللّٰهِ لِما في السَّمواتِ والأرضِ، أو أنَّ الجزاءَ علَّةُ أمْرِ اللّٰه النَّبيَّ ﷺ بالإعراض عن هؤلاء المشركين، أي: أعرض عنهم؛ لأنَّ اللّٰهَ يعاقبهم كافيًا لك - يامحمد - ما أهمَّك من ذلك[3]، أو أنْ يكون ﴿لِيَجۡزِىَ﴾ متعلِّقًا بـ﴿أَعۡلَمُ﴾ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ

بين تعليلٍ يبرزُ ثراءَ المعنى بتقرير كمالِ قدرة اللّٰه وعاقبةٍ تؤكِّدُ حتميَّةَ الجزاء

(1) الآلوسي، روح المعاني: 8/ 468.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 77.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 268، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 66.

عَن سَبِيلِهِۦ﴾، أيْ: مِنْ خَصائِصِ عِلْمِهِ الَّذي لا يَعْزُبُ عَنهُ شَيءٌ أنْ يَكونَ عِلْمُهُ مُرَتَّبًا عَلَيهِ الجَزاء[1]، كأنَّه قيلَ: فيعلمُ ضلالَ من ضلَّ، واهتداءَ من اهتدَى، ويحفظُهما؛ ليجزيَ الذين أساؤوا بعقابِ ما عملوا من الضَّلالِ[2]، أو متعلِّقًا بقوله: ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ لا بالعلم ولا بخلقِ ما في السماوات، والمعنى: هو أعلمُ بمن ضلَّ، واهتدى؛ ليجزي من ضلَّ، واهتدى، الجزاءَ، واللّه أعلم به[3]، أو أنْ تكون لامُ العاقبة أو الصَّيرورة، بمعنى: أنَّ عاقبةَ أمرِ الخلق أن يكون فيهم محسنٌ ومسيءٌ؛ فللمسيءِ السوءى وللمحسنِ الحسنى، وهي متعلِّقةٌ بما دلَّ عليه معنى الملك[4].

دلالة التعبير بالمضارع ﴿لِيَجۡزِيَ﴾:

عـقـابُ الـلـه لمـن يـؤذي نبيَّه مستمرٌّ متجدِّد

في التَّعبير بالمضارعة في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾، مبالغةٌ في تسليةِ النبي ﷺ والتخفيفِ عنه؛ لأنَّ عقابَ اللّه تعالى لمن يؤذي نبيَّه، ويقفُ في وجه الدَّعوةِ مستمرٌّ متجدِّدٌ بما يكون كافيًا له ما أهمَّ من ذلك.

الغرض من التَّعبير بالمفعول به اسمًا موصولًا: ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

في الموصوليَّة عليّةُ عقابِ الله للمشركين، وهي إساءتهم العمل

في التعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وصلته تركيزٌ على الصِّلة؛ لأنَّ القرآنَ يأتي بالاسمِ الموصول عندما تكون صلته هي الَّتي عليها مدارُ الحكم، ومِنْ ثَمَّ يومئُ الاسمُ الموصول وصلته بعلَّة عقابِ اللّه لهم، وهي إساءتهم العملَ، وبذلك دفعَ اللّهُ عن نفسه الظُّلمَ، وأنَّه لا يُعذِّبُ إلّا عن ذنبٍ[5].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 120.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 268.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 362.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 268.

دلالةُ التَّعبير بالماضي المسند إلى ضمير الجماعة:

من عدلِ اللهِ ألّا يجازي إلّا بتحقُّقِ وقوعِ السوء

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالماضي المجموع ﴿أَسَٰٓـُٔواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ الأعمال السيئة منهم من كفرٍ وشركٍ ومعاصٍ واجتماعهم عليها؛ لأنَّ الأصلَ في الماضي أنَّه يدلُّ على حدثٍ وقعَ، وانقطعَ، ومضى، وانقضى، وفي هذا إشارةٌ إلى عدلِ اللّه فيهم.

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ و﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾:

الجزاءُ متعلِّقٌ بالعمل إمّا مماثلةً وإمّا تفضُّلًا

الباءانِ في قولِه: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾، وقولِه: ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾؛ لتَعديةِ فِعْلَي ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ ﴿وَيَجۡزِيَ﴾؛ فما بعْدَ الباءَينِ في معْنى مَفعولِ الفِعلَينِ، فهما داخِلَتانِ على الجزاءِ، وقولُه: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ حينَئذٍ تَقديرُه: بمِثلِ ما عَمِلوا، أي: جَزاءً عادِلًا مُماثِلًا لما عَمِلوا، فلذلك جُعِلَ بمَنزلةِ عَينِ ما عَمِلوه على طَريقةِ التَّشبيهِ البليغِ، وقولُه: ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾، أي: بالمثوبة الحسنى، أي: بأفضلِ ممّا عملوا[1].

دلالة (ما) بين الموصولة والمصدريَّة:

بين عمومِ الجزاءِ للمسيئين وتأكيده

(ما) في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ إمّا اسم موصول، أي: ليجزي المسيئينَ؛ بسببِ ما عملوا من الضَّلالِ، وغرضُ التعبير بالاسم الموصول إرادةُ العموم، أي: بسببِ كلِّ الَّذي عملوا من أقوالٍ وأفعال، أو مصدرية، أي: ليجزي المسيئين بسببِ عملهم، وغرضُ التعبير بالمصدر تأكيدُ الجزاء.

سرُّ إيثار فعل ﴿عَمِلُواْ﴾ ماضيًا مجموعًا:

عمومُ سوء المشركين للقول والفعل والنّيَّة وتحقُّق ذلك منهم

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظ العمل دون الفعل، في قوله تعالى: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾؛ للدَّلالة على سوء حالهم، فالعملُ لا يُقالُ إلّا في ما كان عن فكرٍ ورويَّةٍ، بخلاف الفعل[2]، والعملُ عامٌّ يشملُ كلَّ عملٍ يقومُ به

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 120.

(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عمل).

سواءٌ كان قولَ لسانٍ أم فعلَ جوارحٍ أم نيَّةً يعزمُ عليها، والتَّعبيرُ بصيغة الماضي تشيرُ إلى عدلِ اللّه فيهم، فالجزاءُ كان عن أعمالٍ قد تحقَّق وقوعها منهم.

بلاغة التَّشبيه البليغ في جملة: ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾:

تشبيهٌ يُبرزُ كمالَ العدلِ الإلهي، ويجعلُ الإحساسَ بالجزاء أكثرَ وقعًا

تقدير ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾: بمثل ما عملوا، أي: جزاءً عادلًا مماثلًا لما عملوا، فلذلك جُعِلَ بمنزلةِ عين ما عملوه على طريقة التَّشبيه البليغ[1]؛ إذ شُبِّه الجزاءُ بعين العمل، وحُذِفَ وجهُ الشَّبهِ وأداةُ التَّشبيه، وهذا يدلُّ على دقَّةِ العدلِ الإلهي وكمالِهِ، فكأنَّ العقوبةَ هي صورةُ العمل نفسها، وهذا التَّصويرُ للجزاء مطابقًا للعمل يُخيِّلُ للمخاطَبِ أنَّ المسيء يرى عمله ماثلًا أمامه في صورة العقوبة، فيُشعرُه بالعدالة التامَّة، ويجعلُ الإحساسَ بالجزاء أكثرَ وقعًا في النَّفس.

معنى العطف ودلالته في ﴿وَيَجۡزِيَ﴾:

الكلُّ يُجزى، لكن بحسبِ عمله

العطف بالواو في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾، يدلُّ على حكم اللّه بالجزاء لكلٍّ من المحسنين والمسيئين، فكلتا الفئتان حاضر في مشهد الجزاء، ولكن مع التَّغاير في المقام، فالجزاءُ الأوَّلُ جزاءٌ عادلٌ مقابلَ الإساءة، والثاني: جزاءُ فضلٍ وإكرام مقابلَ الإحسان، لكن الواو لا تفيدُ التَّماثلَ في النتائج.

سرُّ تكرار جملة: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ﴾:

توكيدُ خصوصيَّة الجزاء للمحسنين

أطنبَ البيانُ الحكيم بتكرار جملة: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾، دون الاكتفاء بذكر جزاءِ المحسنين مباشرة، فلم يقل: ليجزي الَّذين أساؤوا والمحسنين؛ للإشارة إلى اختلافِ نوع الجزاء في كلٍّ منهما في الطَّبيعة والمقام، ولتأكيدِ خصوصيَّةِ الجزاء للمحسنين، وأنَّه ليس مجرَّد مقابل لفعلهم، بل هو جزاءٌ خاص متميِّز، يتجاوز

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 127.

العمل إلى الفضل: ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾، وهي الجنَّة وما فيها من خير، فلإحسانهم قيمةٌ مستقلَّة، يستحقُّ الوقوفَ عليها، وعدم دمجها مع جزاء المسيئين في صيغة واحدة، أي: جاء التَّعبير مغايرًا؛ ليلائمَ طبيعةَ كلِّ جزاء.

دلالة التَّعبير بالماضي مسندًا إلى ضمير الجماعة:

الإحسانُ واقعٌ متحقَّقٌ من أهل الجنَّة وصفةٌ لهم

التعبيرُ بالماضي مجموعًا في قوله: ﴿أَحۡسَنُواْ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوعه، أي: وقوع فعل الإحسان منهم، وكثرةِ عددِ المحسنين واجتماعهم عليه، والتَّرغيب في الإحسان الجماعي، وفي هذا إيذانٌ باشتراك جميع أهلِ الجنَّة بالإحسان، وتنوُّع أفعالِ الإحسان من الثَّبات على الدين، والصَّبر عليه، وعلى أذى أعدائهم وغير ذلك.

دلالة التَّعبير بلفظ (الحُسنى) دلالة وصيغة:

مبالغةٌ في مدحِ عملِ المحسنين ومدحِ ثوابهم

(الحُسۡنَى) على وزن فُعلى، مؤنَّث الأحسن، في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾، وهي إمّا صِفةٌ لِموصوفٍ مَحذوفٍ يدُلُّ عليه (يَجزي)، وهي المَثوبةُ بمعْنى الثَّوابِ، والمعنى: ليجزي الذين أحسنوا بالمثوبة الحسنى، أي: بأفضل ممّا عملوا، وفيه إشارةٌ إلى مُضاعَفةِ الحَسَناتِ، والثبوتِ في الجنان الذي هو في غايةِ الحسن ما بعدها غاية، كقوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيۡرٞ مِّنۡهَا﴾ [النمل: 89][1]، أو صفةٌ لموصوف محذوف، وهو أعمالهم، والمعنى: بسببِ أعمالِهم الحُسۡنَى[2].

وقد أفادَ التعبيرُ بصيغة (فُعلى) المبالغةَ في الوصف، إذ صيغةُ (فُعلى) تدلُّ على قوَّة الوصف؛ لأنَّها مؤنَّث أفعل، سواءٌ في تفخيم أعمالهم الصالحة أو تفخيمِ المثوبة التي أكرمهم اللّٰهُ بها، وهي الجنَّة.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 67، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 120.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 161.

جزاءُ السيئة عدلٌ، وجزاءُ الإحسان فضلٌ

بلاغة التعبير بالمقابلة بين الجزاءين:

قوله تعالى في حقِّ المسيء ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾، وفي حقِّ المحسن ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾، فيه مقابلةٌ لطيفة؛ لأنَّ جزاءَ المسيء عذابٌ، فنبَّه على ما يدفعُ به الظُّلمَ عن نفسه سبحانه، فهو لا يعذب إلّا عن ذنبٍ، بخلاف قوله في حقِّ المحسنين ﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾؛ إذ لم يقل: (بما عملوا)؛ لأنَّ الثوابَ إنْ كان لا على حسنةٍ يكون في غايةِ الفضل، فلا يخلُّ بالمعنى، هذا إذا قلنا: الحسنى هي المثوبة بالحسنى، وأمّا إذا قلنا: هي الأعمال الحسنى؛ ففيه لطيفةٌ غير ذلك، وهي أنَّ أعمالهم لم يُذكرْ فيها التَّساوي، وإنَّما ذُكِرَ الحسنى؛ ليُشير إلى الكرمِ والصفح؛ إذ ذكر أحسن الاسمين[1].

خطابٌ واضحٌ ومنظَّمٌ يُعزِّزُ الفهمَ، ويحقِّقُ التَّأثيرَ الأقوى في النَّفس

بلاغة التعبير باللَّف والنَّشر في الآية:

جاء تَرتيبُ التَّفصيلِ لجَزاءِ المُسيئينَ والمُحسنينَ، في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾، على وفقِ تَرتيبِ إجْمالِه الَّذي في قولِه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ على طَريقةِ اللَّفِّ والنَّشرِ المُرتَّب[2]، فقد جاء النشرُ على وفْقِ ترتيبِ اللَّفِّ، بما يجعلُ الخطابَ واضحًا ومنظَّمًا، فلا يخلطُ بين الحالات أو الجزاءات، ويعزِّزُ فهْمَ المستمعِ أو القارئ؛ إذ يتتبَّع الحكاية أو الموقف تدريجيًّا وبترتيب منطقي، ويحقِّقُ التَّأثيرَ الأقوى في النَّفس، ويُسهِّلُ استيعاب المعنى.

كما أنَّ هذا التَّرتيبَ - من تقديم ذكرِ جزاء الَّذين أساؤوا على الَّذين أحسنوا - تحقَّقَ به التَّناسب مع قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾، الَّذي جاء على البدليَّة أو النَّعت.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 268.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 120.

موقع ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ﴾ ممّا قبله ودلالته:

تـبـيِّنُ صـفـاتِ المحسنين الَّذين استحقّوا الجزاء بالحسنى

﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ إمّا بدلٌ من الموصول الثاني، وهو: ﴿ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾، أي: إنَّ اللهَ يصفُ المحسنين بأنَّهم يجتنبون كبائرَ الإثم والفواحش إلّا اللَّمم، والبدليَّة توضِّح معنى الإحسان فيهم، لا مجرَّدَ وصفٍ خارجي، أو إعرابه نعتٌ، أي: الَّذين أحسنوا، واجتنبوا كبائر الإثم والفواحش، أي: فعلوا الحسنات، واجتنبوا المنهيّات، وذلك جامع التَّقوى، أو بيانٌ للموصول السابق، كأنَّه يقول: أعني بهم الَّذين يجتنبون، وهذا قريبٌ من النعت، لكنَّه يُزيلُ الإبهامَ أو التعميمَ في الإحسان، ويُبرزُ القصدَ والتفسير، أو منصوبٌ على المدح[1]، فتكون جملة مستقلَّة منقطعة من حيث الإعراب، لكنَّها مرتبطةٌ سياقيًّا، وتجتمعُ الأوجهُ جميعها في أنَّها تبيِّنُ صفاتِ المحسنين الَّذين استحقّوا الجزاءَ بالحسنى، بتجنُّبهم الكبائرَ والفواحش، وتنبِّه على أنَّ اجتنابَ ما ذُكر يُعدُّ من الإحسان؛ لأنَّ فعلَ السَّيئات ينافي وصفهم بالذين أحسنوا، فإنَّهم إذا أتوا بالحسنات كلِّها، ولم يتركوا السَّيئات؛ كان فعلهم السيئات غيرَ إحسان، ولو تركوا السيئات، وتركوا الحسنات؛ كان تركهم الحسنات سيئات[2].

دلالة التعبير بالمضارع المسند إلى ضمير الجماعة:

مـن صـفـاتِ المحسنين تجدُّدُ اجتنابِ الكبائرِ منهم واستمراره

تدلُّ صيغةُ المُضارِعِ ﴿يَجۡتَنِبُونَ﴾ على تَجدُّدِ اجتِنابِ المحسنين لكبائر الإثم واستِمراره[3]، فهُم يكلِّفون أنفسهم، ويجهدونها على أنْ يتركوا ما عظَّمَ الشّارعُ إثمه بعد تحريمه بالوعيد والحدِّ[4]، وفي هذا إشعارٌ بأنَّ تركَ المعصية سواءٌ كانت بارتكابِ المحرَّمات أو بتركِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 120 - 121.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 67.

الواجبات ينبغي أن يستمرَّ عليه المؤمن، ويجعلَ الاجتنابَ عنها دأبًا له وعادة، حتى يستحقَّ المثوبةَ الحسنى، فإنَّ مَنِ اجتنبَ عنها مرَّة، وانهمكَ عليها في باقي الأزمان لا يستحقُّها بخلاف الحسناتِ المتطوِّع بها، فإنَّ من أتى بها، ولو مرَّة يُؤجَر عليها[1].

سرُّ الإضافة في ﴿كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾:

بيانٌ للفظ (كبائر) بأنَّها الآثامُ الكبيرة فيما شرعَ الله

إضافةُ ﴿كَبَـٰٓئِرَ﴾ إلى ﴿ٱلۡإِثۡمِ﴾، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾، إضافةٌ بيانيَّةٌ، جاءتْ بيانًا للفظ ﴿كَبَـٰٓئِرَ﴾، بأنَّها الآثامُ الكبيرة فيما شرع اللّه، وهي ما شدَّدَ الدينُ التحذيرَ منه، أو ما عظَّمَ الشارعُ إثمه بعد تحريمه، بأنْ ذكرَ له وعيدًا بالعذاب، أو وصفَ على فاعله حدًّا[2]، ولعل الحكمةَ في عدم تسمية الحسنات العظيمة بكبائر الحسنات؛ لأنَّ الحسنةَ مهما كانت عظيمة؛ فهي ليست كبيرة في حقِّ اللّه، بخلاف الآثام الكبيرة فهي كبيرةٌ في حقِّ اللّه العظيم.

تنوُّع القراءات في لفظ ﴿كَبَـٰٓئِرَ﴾ وثراء المعنى:

من صفات المحسنين اجتنابُهم لأصنافِ الكبائر المتنوِّعة وأعظمها الشرك

قرأ الجمهور بصيغة جمع (كبيرة): ﴿كَبَـٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وخلَف بصيغةِ الإفرادِ والتَّذكير: ﴿كَبِيرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾[3]، ولا فرق في المعنى؛ لأنَّ اسمَ الجِنْسِ يَسْتوي فيه المُفرَدُ والجمْعُ[4]، ولكن صيغة الجمع وهي صيغة جمع تكسير، تدلُّ على التَّعظيم في حجم المعصية، لا فقط كثرتها، وعلى التَّنويع في صور الكبائر، فالجمعُ يُفيد أنَّها ليستْ نوعًا واحدًا، بل تشملُ أصنافًا متعدِّدة من المعاصي الكبيرة، وهذا يشيرُ إلى فضلِ هؤلاء المحسنين وعظيم مجاهدتهم لأنفسهم، كما أنَّ هناك من فسَّر ﴿كَبِيرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ بالشرك، لقوله

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 138.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 67، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.
(3) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2: 362.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: 48]، وبذلك تشيرُ قراءةُ الإفراد إلى عظيم جُرم الإشراك.

دلالة العطف:

من إحسانهم أنَّهم يجتنبون الكبائر وما هو أفحش منها

عطْفُ الفواحشِ على كبائر الإثم في قوله تعالى: ﴿يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، يَقْتضي أنَّ المعطوفَ بها مُغايِرٌ للكبائرِ، ولكنَّها مُغايرةٌ بالعُموم والخُصوصِ الوجهيِّ، فالفواحشُ أخصُّ من الكبائر، وهي أقْوى إثْمًا، وهي الفعلات التي يُعدُّ الذي فعلها متجاوزًا الكبائرَ مثل الزنى، والسرقة، وقتل الغيلة[1]، وهذا العطفُ من باب عطف التَّرقّي، أي: الذين يجتنبون الكبائر، وما هو أفحش منها.

سرُّ جمع (الفواحش):

في امتناع المحسنين عن الفواحش بجميع صورها مزيدُ مدحٍ لهم

يدلُّ التَّعبير بصيغة الجمع في لفظ (الفواحش)، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾، على أنَّ المراد بها ما فحش من الكبائرِ خُصوصًا، وزادَ عنها في الفحش[2]، فهي الآثامُ الكبيرة المشتملة على مفاسد ممّا قبُح من الأقوال والأفعال، مثل الزنى، والسرقة، وشرب الخمر وقتل الغيلة، ما فُحش من الكبائرِ خُصوصًا، وزاد عنها في الفحش لا الزنى فقط[3]، وفي هذا مزيدُ مدحٍ لهؤلاء المحسنين الذين جاهدوا أنفسهم على ألّا تقعَ في أيِّ فاحشة من هذه الفواحش الكثيرة التي يكرهها الطبع، وينكرها العقل، ويستخسُّها.

دلالة الاستثناء بـ ﴿إِلَّا﴾:

في الاستدراك تمييز اللَّمم عن الكبائر وبيانٌ لرحمة الله

استِثناءُ اللَّمم في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾، استِثناءٌ مُنقطِعٌ بمعْنى الاستِدراكِ؛ لأنَّ اللَّمَمَ ليس مِن كبائرِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 8/ 160.

الإثم، ولا مِن الفواحشِ، فهو مقابل لهما في الآية، أي: لكن اللمم معفوٌّ عنه، فمَن خالطه لا يخرجُ عن عِداد من أحسن، ووجه الاستدراك أنَّ ما سُمّي باللَّمم ضربٌ من المعاصي المحذَّر منها في الدين، فقد يظنُّ الناسُ أنَّ النهيَ عنها يلحقها بكبائر الإثم، فلذلك حقَّ الاستدراك، وفائدةُ هذا الاستدراك عامَّةٌ وخاصةٌ: أمّا العامَّة؛ فلكي لا يعاملَ المسلمون مرتكب شيء منها معاملةَ مَن يرتكبُ الكبائر، وأمّا الخاصةُ؛ فرحمةٌ بالمسلمين الذين قد يرتكبونها، فلا يقلِّل ارتكابها من نشاطِ طاعة المسلم، ولينصرف اهتمامه إلى تجنُّب الكبائر، فهذا الاستدراك بشارةٌ لهم، وليس المعنى أنَّ الله رخَّص في إتيان اللمم[1]، وبلاغة استعمال ﴿إِلَّا﴾ موضع (لكن) هي الإشارة إلى أنَّ الذَّنبَ الصغير يمكن أنْ يكون كبيرًا باستهانته، كما قال تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ ١٥﴾ [النور: 15][2]، ومن العلماء من يرى أنَّ الاستثناء هنا متَّصل، وأنَّ المراد باللمم ارتكابُ شيءٍ من الفواحش، ثم التوبة منها توبةً صادقة نصوحًا[3].

الغرض من تعريف: ﴿ٱللَّمَمَۚ﴾:

اللَّـمـمُ هي الصـغـائـر في مقابلة الكبائر

التعبيرُ باللَّمم معرَّفًا؛ للدَّلالة على أنَّه الفعلُ المعروف بأنَّه الحرام، الذي هو دون الكبائر والفواحش في تشديد التحريم، وهو ما يندرُ ترك الناس له، فيُكتفى منهم بعدم الإكثار من ارتكابه، ويسمّيه علماء الشريعة الصغائرَ في مقابلة تسمية النوع الآخر بالكبائر[4]، أو هو مقاربة الذنب ثم الانحجازُ عنه[5]، وقد آثر البيانُ القرآني التعبير بلفظ اللمم؛ للدَّلالة على أنَّ فاعلَهُ لا يُكثرُ فعله، ولا يطيلُ البقاء عليه، أو يقاربه دون الوقوع، ثم سرعان ما ينحجزُ عنه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 67.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 76.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 122.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (لم).

يطيل فعله، وإنَّما سرعان ما يتوبُ إلى اللّه، ويستغفره؛ لأنَّ "اللَّممَ اسمُ مصدر (ألَمَّ) بالمكان إلمامًا؛ إذا حلَّ به، ولم يطلِ المكث"[1].

موقع جملة ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ ممّا قبله ودلالته:

العفو عن اللَّمم ليسَ لخُلوِّهِ عن الذَّنبِ بل لِسَعةِ المَغفرةِ الرَّبّانيَّةِ

فصلَ البيانُ القرآني جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾، عمّا قبلها؛ لِما بينهما من كمالِ اتصال، فقد جاءت جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾؛ تَعليلًا لاستِثناءِ اللَّمَمِ مِن اجتنابِهم كَبائرَ الإثم والفواحش، شرْطًا في ثُبوتِ وصْفِ الَّذين أحْسَنوا لهم[2]، وتَنْبيهًا على أنَّ إخراجَه عن حُكم المُؤاخَذةِ به ليسَ لخُلوِّهِ عن الذَّنْبِ في نفْسِه، بل لِسَعةِ المَغفرةِ الرَّبّانيَّة[3].

سرُّ التوكيد بـ﴿إِنَّ﴾:

توكيدُ سعةِ مغفرةِ اللهِ تعالى ورحمته وإحسانه

أكَّد البيانُ الحكيم سعةَ مغفرة اللّه، بحرف التوكيد ﴿إِنَّ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ﴾؛ لأنَّ مِن عادةِ الملوك ألّا يغفروا لمن تكرَّرت ذنوبه إليهم، وإنْ صغرت، ممّا يجعل السامع قد يستعظمُ أنْ يغفرَ ملكُ الملوك سبحانه مثل هذا[4].

سرُّ التعبير بلفظ الربوبيّة مضافًا إلى ضمير النبي ﷺ:

مِن إحسانِ الربِّ بالمحسنين إرسالُ النبي إليهم والتخفيف عنهم

في التَّعبير بلفظ الربوبيَّة ﴿رَبَّكَ﴾ دونَ الاسم العَلَم، إشعارٌ بأنَّ سَعةَ المَغفرةِ رِفقٌ بِعبادِه الصّالِحينَ، شأْنَ الرَّبِّ معَ مَربوبِه الحقِّ[5]، والمعنى: إنَّ ربَّك المحسن إليك بإرسالك رحمة للعالمين والتَّخفيف عن أمَّتك[6]، وفي إضافة (ربّ) إلى ضمير النبي ﷺ دون ضمير الجماعة إيماءٌ إلى أنَّ هذه العناية بالمحسنين من أمَّته قد حصلتْ لهم ببركته[7].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 122.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 122.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 68.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 122.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 68.
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 122.

بلاغة التعبير بالاستعارة، وسر الإضافة:

مغفرةُ الله ورحمته وسعتْ وشملتْ كلَّ شيء

الواسعُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ﴾ الكثيرُ المَغفرة، وقد استعيرتِ السَّعةُ لكثرةِ الشُّمولِ؛ لأنَّ المكانَ الواسِعَ يُمكِنُ أنْ يَحتويَ على العدَدِ الكثيرِ ممَّنْ يَحِلُّ فيه، أي: وسعتْ رحمته ومغفرته كلَّ شيء، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: 7][1]، وفي الإضافة ترغيب في استمطار رحمة الله ومغفرته.

دلالة التعبير بالضَّمير ﴿هُوَ﴾:

تأكيدٌ على أنَّ رحمةَ الله الواسعة صادرةٌ عن علمٍ شاملٍ للظواهر والبواطن

التَّعبيرُ بالضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: للتأكيد على أنَّ الجملةَ استئنافٌ مقرِّر لِما قبلَها[2]، وأنَّ رحمةَ اللهِ الواسعة صادرةٌ عن علم شاملٍ للظواهر والبواطن[3]؛ لأنَّه لمّا وصفَ الذين أحسنوا، فكان ربَّما وقعَ في وهم أحدٍ أنَّه لا يعلمهم سبحانه إلّا بأفعالهم، وربَّما قطعَ أنَّ مَن عملَ بمضمون الآية أنَّه ممَّن أحسن، فأكَّدَ القرآن أنَّ اللهَ هو أعلمُ بذواتهم وأحوالهم منهم بأنفسهم[4].

دلالة التعبير بصيغة التفضيل: ﴿أَعْلَمُ﴾:

لا يعزبُ عن علمه بذواتِ الخلق وأحوالهم شيء سبحانه

العلم بأحوال المخاطَبين صفةٌ مقصورةٌ عليه، ولذا فإنَّ التعبيرَ بصيغة أفعل التفضيل في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اللهَ لا يعزبُ عن علمه بذواتكم وأحوالكم شيء، فعلمه شاملٌ للظاهر والبواطن[5].

معنى الباء ودلالتها في ﴿بِكُمْ﴾، وسر التعبير بالقيد ﴿بِكُمْ﴾:

علمُ الله محيطٌ بالمخاطَبين لا ينفكُّ عنهم

الباءُ في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ للإلصاقِ، أي: علْمُه

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 123.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(3) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 77.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 68.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 68.

سبحانه ملتصقٌ بالمخاطَبين، محيطٌ بذواتهم وأحولهم لا ينفكُّ عنهم، وأفادَ القيد ﴿بِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ بأنَّ ربَّهم أعلَمُ بأحوالهم وأفعالهم وأقوالهم التي ستصدرُ منهم مِن أنفُسِهم، فهو يُدبِّرُ لهم ما لا يَخطُرُ ببالِهم[1].

دلالة الاستئناف في جملة: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾:

بيانٌ لسببِ مغفرةِ اللهِ الواسعةِ بالمحسنين

جُملةُ: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ استِئنافٌ بَيانيٌّ لجُملةِ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[2]؛ لِما تَضمَّنَتْه مِن الامتِنانِ، فكأنَّ السّامِعينَ لَمّا سَمِعوا ذلك الامتِنانَ، شَكَروا اللّهَ، وهجَسَ في نُفوسِهم خاطرُ البَحثِ عن سَببِ هذه الرَّحمةِ بهم، فأُجيبوا بأنَّ ربَّهم أعلَمُ بحالِهم مِن أنفُسِهم؛ فهو يُدبِّرُ لهم ما لا يَخطُرُ ببالِهم[3].

سرُّ تقييد العلم بالظرف: ﴿إِذْ﴾:

علـمُ اللهِ لا يعزبُ عن خلقه من وقتِ إنشاءِ أصلهم من ترابِ الأرض

﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ ظرفٌ لِما مضى من الزمن، متعلِّقٌ بـ﴿أَعْلَمُ﴾، أي: هو أعلمُ بالناس من وقتِ إنشائه إيّاهم مِنَ الأرض، وهو وقتُ خلقِ أصلهم آدم[4]، وفي هذا تطمينٌ للمؤمنين بأنَّ ما يشرعه لهم هو خيرٌ لهم.

دلالة التعبير بالماضي ﴿أَنشَأَكُم﴾ مادة وصيغة:

إنشاءٌ محقَّقٌ أدلُّ على كمالِ قدرةِ اللهِ سبحانه وفضله على عباده

آثرَ البيانُ القرآني فعلَ الإنشاء دون غيره كالخلق، أو الإيجاد، فلم يقلْ: (إذْ خلقكم، أو أوجدكم مِنَ الأرْضِ)؛ لكون الإنشاءِ يشملُ الإيجادَ ومرحلةَ النموِّ والتكامل إلى قربِ تمام القوَّة والاستواء[5]، وهو بذلك أنسبُ للسياق الذي يتحدَّثُ عن مراحلِ وجود الإنسان، والتَّدرُّج في خلقه، وأدلُّ على كمال قدرةِ اللّه سبحانه وفضله على

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 124.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 124.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 124/ 124.
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نشأ).

عباده، والتَّعبير به ماضيًا؛ لكونه أمرًا واقعًا محقَّقًا، ولا يستطيعُ أحدٌ أنْ ينكره، وأمّا إضافته إلى ضمير المخاطَبين - مع أنَّ الإنشاءَ من تراب كان لأبيهم آدم عليه السلام - للإشارة إلى المساواة في الأصل الإنساني عند الناس جميعًا؛ فالناسُ كلُّهم من آدم عليه السلام.

إنشاءٌ وضعفُ قدرة عن تحمُّل المشاقِّ؛ يقتضي رحمة الله

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ ابتدائيَّةٌ، أي: "حين أنشأكم ابتداءً من الأرض - التي طبْعُها طبع الموت، البرد واليبس - بإنشاء أبيكم آدم عليه السلام منها، وتهيئتكم للتكوين"[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ إنشاءهم من الأرض يستلزمُ ضعفَ قدرتهم على تحمُّل المشاقِّ مع تفاوتِ أطوار نشأة بني آدم، وأنَّ هذا الضعفَ المقتضي لسعةِ التجاوز بالمغفرة مقرَّرٌ في علم اللّه من حين إنشاء آدم من الأرض[2].

معنى واللام ودلالتها في: ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

اللام في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ عهديَّة، وهي ترابُ الأرض المعهودة عند العرب[3]، أي: في خلقكم في ضمنِ إنشاءِ أبيكم آدمَ عليه السلام من تراب الأرض، وذكر إنشاء أصل الإنسان من الأرض، وهي عنصرٌ ضعيفٌ يقتضي ملازمةَ الضعف لجميع الأفراد المنحدرة من ذلك الأصل[4].

في العطفِ إحاطةُ علم الله بأحوال عباده كلِّها وبملازمة الضعف لهم

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ﴾:

(إذ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ﴾ معطوفةٌ على ﴿إِذۡ﴾ في قوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وكلاهما متعلقان بـ﴿أَعۡلَمُ﴾، والمعنى: "أعلم بكم من وقتِ إنشائه إياكم من الأرض، ضمن خلقه لأبيكم آدم، ومن وقتِ أنْ كنتم أجنَّة في بطون أمهاتكم"[5]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 68.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 124/ 124.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 29/ 272.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 124.
(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 78.

وفي هذا العطف دلالةٌ على إحاطة علم اللّه بأحوال عباده كلِّها، وبملازمة الضعفِ لهم، سواءٌ في أصلِ خِلقتهم، أو في كونهم أجنَّةً في بطن أمهاتهم، بما يقتضي سعة التجاوز بالمغفرة عنهم.

سرُّ تكرار (إذ):

اختلافٌ بين مرحلتين مهمتين في الخلق المرحلة الترابيَّة، والمرحلة الجنينيَّة

أطنبَ البيانُ الحكيمُ بتكرار (إذ)، فلم يقلْ: هو أعلمُ بكم إذ أنشأكم من الأرض، وجعلكم أجنَّة في بطون أمهاتكم؛ وذلك لبيان الاختلاف بين مرحلتين مهمتين في الخلق: المرحلة الترابيَّة والمرحلة الجنينيَّة، وأنَّ لكلٍّ منهما خصائصهما؛ ولذا جعل (إذ) في كلا الموضعين تتعلَّق بلفظ ﴿أَعْلَمُ﴾، وهذا الاختلافُ يُظهر عظمةَ الخالق سبحانه.

دلالة التعبير بالضمير في: ﴿أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾:

مزيدُ الامتنان ورائحةُ الاهتمام

أفادَ ذِكرُ الضمير ﴿أَنتُمْ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾، جعْلَ الجملةِ اسميَّة، بما يفيدُ القوَّةَ والثبات، فلم يقلْ: إذ أنشأكم من الأرض، وجعلكم أجنَّة؛ وذلك للإشارةِ إلى ثباتِ الجنين، واستقراره في الرحم، في جميعِ مراحله، من النطفة إلى العلقة إلى المضغة، بل إنَّ الاستقرارَ هو أهمُّ مايحتاجه الجنين، وفي هذا مزيدُ الامتنان ورائحةُ الاهتمام، أي: أنتم دون غيركم؛ تذكيرًا بهذه النعمة العظيمة، كما أنَّ في ذلك تفنُّنًا في التعبير عن المرحلتين: الترابية والجنينية.

الغرض من تنكير ﴿أَجِنَّةٌ﴾ وجمعها:

أجنَّةٌ كُثُر في حالةِ ضعفٍ لا تملكون لأنفسكم شيئًا

﴿أَجِنَّةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ﴾ جمعُ جنين مثل سرير وأسرَّة[1]، وهو على وزن أفعِلة، وهذا من جموع القلَّة، والتنكير هنا للتهوين التحقير، أي: إنَّكم كنتم في حالٍ ضعيف، مستورين لا تملكون لأنفسكم شيئًا، وبهذا يذكِّرهم القرآن بعجزهم وضعفهم الأوَّل.

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 238.

إيحاءٌ بالضعفِ الكامل والاحتياجِ المطلق للجنين المستتر والمغمور في رحمِ أمِّه

معنى حرف الجر ﴿فِي﴾ ودلالته:

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ للظَّرفيَّة المكانيَّة الحقيقيَّة، أي: إنَّ الأجنَّةَ داخلَ بطون أمَّهاتكم في موضعِ الاستقرار المعروف - وهو الرحم - كما قال تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ﴾ [الزمر: 6]، ومع الظرفية المكانية إيحاءٌ بالضعفِ الكامل، والاحتياجِ المطلق، فهي ترسمُ صورةَ الإنسان في أضعفِ أحواله، وهو جنينٌ مستترٌ ومغمورٌ في رحم أمِّه، لا يملكُ لنفسه حركةً ولا رزقًا، ممّا يهيّئُ النفسَ لتلقّي التَّذكيرِ والاعتبارِ بقدرةِ اللّه ورحمته في الخلق والتدبير.

كلُّ إنسانٍ له بطنٌ مخصوصٌ نشأ فيه بما يعزِّزُ التذكير بالخلق والقدرة الإلهية

سرُّ الإضافة:

الإضافة في ﴿بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ إضافة بيانيَّة، وهو يدلُّ هنا على موضعِ الأحشاء والرَّحم عند المرأة، والبطون على وزن فُعول، من جمع الكثرة التي تُستخدم في السياقات، التي يُراد فيها الدلالةُ على التعدُّد أو الشمول، ولذا فهو يوحي هنا أنَّ كلَّ إنسانٍ له بطنٌ مخصوصٌ نشأ فيه، فاللّهُ يذكِّر الناسَ جميعًا بأصلهم، ممّا يعزِّزُ معنى التذكير بالخلق والإحاطة والقدرة الإلهية.

وإضافةُ لفظ الأمهات إلى الضمير (كم) الذي يعود على ضمير المخاطَبين ﴿أَنتُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾؛ إضافةُ تعريفٍ حقيقي يُفيدُ التعيين، أي: بطون أمهات كلِّ فردٍ منكم على التعيين، لا بطون الأمهات عمومًا، وهذا يُحدِثُ تأثيرًا نفسيًّا؛ لأنَّ الخطابَ شخصيٌّ مباشرٌ لكلِّ سامع، ويوحي بارتباطٍ وثيقٍ للمخاطب بأمِّه ومكان خلقه، ويُضفي طابعًا من الامتنانِ، بأنَّ اللّهَ خلقَ كلَّ واحدٍ منكم في بطن أمه، ورزقه الحفظَ والنموَّ والرعايةَ بما يدفعُ إلى شكرِ اللّه، وتذكُّرِ عظيمِ قدرته ونعمه سبحانه.

فائدة الوصف بشبه الجملة:

تذكيرٌ باختلافِ أطْوارِ الأجِنَّةِ وإشارةٌ إلى كمالِ علمِ الله وقدرته فيها

البيان القرآني في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ﴾ صفةٌ كاشفةٌ تُبيِّنُ الواقعَ، وتحقِّق المعنى[1]، ولا تُقيِّدُ المَوصوفَ، وهو ﴿أَجِنَّةٞ﴾؛ إذ الجَنينُ لا يُقال إلّا على ما في بطْنِ أمِّه، فبعد الخروج لا يسمّى إلّا ولدًا أو سقطًا، وفائدةُ هذا الكشْفِ أنَّ فيه تَذكيرًا باختلافِ أطْوارِ الأجِنَّةِ مِن وقتِ العُلوقِ إلى الوِلادةِ، وإشارةً إلى كمال العلم والقدرة؛ فعِلْمُه محيطٌ بتلك الأطْوار المختلفة من وقت العلوق إلى حين الولادة [2]، وبطنُ الأم في غاية الظلمة، ومن عَلِمَ بحال الجنين فيها لا يخفى عليه ما ظهرَ من حالِ العباد[3]، وللتذكير برعايته لهم وهم فيها، وللحضِّ على مداومةِ شكره وطاعته وعدم العُجب بالأعمال[4].

بلاغة التعبير بالاعتراض بجملة الفاصلة:

في الاعتراض تحذيرٌ للمؤمنين من العُجب بأعمالهم الحسنة

جُملةُ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ اعتراضٌ بيْنَ جُملةِ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ﴾، وجُملةِ: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾، وغرضُه: تحذيرٌ للمؤمنين من العُجب بأعمالهم الحسنة عُجبًا يُحدثه المرءُ في نفسه، أو يُدخله أحدٌ على غيره بالثناءِ عليه بعمله[5].

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾:

الفاءُ بين تفريعِ الاعتراض على علمِ الله بالمؤمنين وترتيبِ النهي عن تزكيةِ أنفسهم

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾؛ لتَفريعِ الاعتراض على علمِ الله بالمؤمنين؛ تحذيرًا للمؤمنين من العجبِ بأعمالهم الحسنة[6]، أو "لترتيبِ النَّهي عن تزكيةِ النفسِ على ما سبقَ منْ أنَّ عدمَ المؤاخذةِ باللمم ليسَ لعدم كونِه من قبيلِ الذنوب، بلْ لمحض مغفرتِه تعالى مع علمه بصدوره عنكُم، أي: إذا كانَ الأمرُ كذلكَ؛ فلا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 69.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 272.
(4) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 78.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.

تُثنوا عليها بالطهارةِ عن المعاصي بالكليةِ، أو بما يستلزمُها من زكاءِ العملِ ونماءِ الخير، بلِ اشكروا اللّه تعالى على فضلهِ ومغفرتِه"[1].

غرضُ التعبير بالنَّهي في قولِه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾:

التـحـذيـرُ من التفاخرِ والتحرُّز والـحـيـطـة في الحكم

الغرضُ البلاغي للنهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ هو التَّحذيرُ من العُجب والتفاخرِ بالأعمال والأحساب والأنساب؛ لأنَّ اللّه سبحانه لا يخفى عليه شيءٌ من أحوال الناس، فالصوابُ هو التفويضُ إليه؛ لأنَّ للناس بواطنَ مختلفة في الموافقة لظواهرهم، وبين أنواعها بون، وهذا من التأديب على التحرُّز والحيطة في الحكم[2]، كما أنَّ النهيَ هنا يفيدُ العمومَ؛ لأنَّ الفعلَ في سياقِ النهي، فيعمُّ، والمراد النَّهيُ عن تزكيةِ السمعة، أو المدحِ للدنيا، أو التزكيةِ على سبيلِ القطع، وأمّا التزكيةُ لإثباتِ الحقوق، ونحوه - كالإخبارِ عن أحوال الناس بما يعلمُ منهم، وجربوا فيه من ثقةٍ وعدالة - فهي جائزة[3].

دلالة التعبير بالمضارع المضعَّف المجموع ﴿تُزَكُّوٓاْ﴾:

استمرارُ النهي عـــن نـسـبـةِ الـتـزكـيـةِ إلى النفس في السرِّ والعلن

التعبيرُ بصيغة المضارع المسبوق بالنهي ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ إفادةُ استمرارِ النهي عن تزكية النفس وتجدُّده في أيِّ وقت من الأوقات، وفي أيِّ حالٍ من الأحوال، وأمّا التَّضعيف في الفعل؛ فيُراد به نِسبةُ المَفعولِ إلى أصْلِ الفِعلِ، أي: لا تَنسبوا لأنفسِكُم الزَّكاةَ، فقولُه: ﴿أَنفُسَكُمۡۖ﴾ صادقٌ بتزكية المرء نفسه في سرِّه أو علانيته، فرجع الجمْعُ في قولِه: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ﴾ إلى مُقابَلةِ الجمْعِ بالجمْعِ، التي تَقتضي التَّوزيعَ على الآحادِ، مِثلُ: ركِبَ القومُ دَوابَّهم[4].

إضافة لفظ الأنفس واستعمالها، بين الحقيقة والمجاز:

نهيٌ عن تزكيةِ المرء نفسه وعن غيره

إضافةُ الأنفس إلى ضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125 - 126.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 63.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.

﴿أَنفُسَكُمۡۖ﴾، إمّا على سبيلِ الحقيقة بتَزكيةِ المرْءِ نفْسَه في سِرِّه أو عَلانيتِه[1]، والنهيُ عن ذلك؛ لأنَّه من علاماتِ كونه محجوبًا عن اللّه، أو على سبيل المجاز؛ بأنْ يثني على غيره من إخوانه بالصلاح، والطاعة، والنهي لئلّا يغيِّره ذلك، ولأنَّ للناسِ بواطنَ مختلفةَ الموافقةِ لظواهرهم، وبين أنواعها بون، وكثيرًا ما يثني بشيء، فيظهر خلافه، وربَّما حصلَ له الأذى بسببه[2]، وبلاغةُ التعبير بالنفس عن الآخرين في قوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ تنزيلُ الآخرين منزلةَ الذات؛ تذكيرًا للمخاطَبين بأنَّ الكلَّ من نفسٍ واحدة، وأنَّهم كالنَّفس الواحدة، بما يحملهم كذلك على التَّسامح والتَّوادِّ والتَّعاطف، وطيبِ النَّفس فيما بينهم.

موقع جملة ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾ ممّا قبله ودلالته:

بيانٌ لسَببِ النَّهيِ عن تزكيةِ النفس والآخرين

وقَعَتْ جُملةُ: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ موقع شبه كمال الاتصال؛ إذ أثار النَّهي سؤالًا عن علَّة النهي، فكان الجواب: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ﴾، فهو استِئنافٌ مُقرِّرٌ للنَّهي، ومُشعِرٌ بأنَّ فيهم مَن يَتَّقيها بأسْرِها[3]، والمعْنى: فوِّضوا ذلك إلى اللّهِ؛ إذ هو أعلَمُ بمَنِ اتَّقى، أي: بحالِ مَنِ اتَّقى، مِن كَمالِ تَقْوًى، أو نَقْصِها، أو تَزييفِها[4].

دلالة صوغ ﴿أَعۡلَمُ﴾ على هيئة (أفعل) التفضيل:

لا يعزبُ عن علمِ الله شيءٌ من أحوالِ جميع المتَّقين

صاغَ البيانُ الحكيم فعل ﴿أَعۡلَمُ﴾ على هيئة (أفعل) التفضيل، في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اللّهَ أعلمُ بأحوال المخاطَبين ممَّن جاهدَ نفسه، حتى حصل فيه تقوى من أنفسهم ومن جميع الخلق[5]، فإنَّه لا يعزبُ عن علمه شيءٌ من أحوالِ جميع المتَّقين، فيجازيهم بأحسن ما كانوا يتَّقون.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 69، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 125 - 126.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 126.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 69.

معنى (الباء) ودلالتها:

الباءُ في قوله: ﴿بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ للمُلابَسَةِ، أي: علمه سبحانه ملابسٌ لحالِ من اتَّقى من كمالِ تقوى أو نقصها أو تزييفها.

الغرض من التعبير بالموصول (مَن):

في الموصوليَّة بيانٌ لعلمِ الله بالمتَّقين جميعًا

عبَّر البيانُ الحكيم بالموصول (مَنْ) موضعَ ضميرهم في قوله: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، ولم يقلْ: (هو أعلمُ بهم)؛ للدَّلالة على العموم وللتوسُّل به إلى وصْفِهم بما في حيِّزِ صلتِه من اتِّقائهم المعاصي جميعًا، فعِلمُه لا يَعزبُ عن أيٍّ واحدٍ ممَّن اتَّقى.

دلالة التعبير بالماضي، وصوغه على زنة الافتعال:

مدحٌ لمن جاهدَ نفسه في التَّقوى، واستمرَّ حتى صارتِ التقوى وصفًا له

عبَّر البيانُ القرآني بالفعل الماضي ﴿ٱتَّقَىٰٓ﴾، وصاغه على زنةِ الافتعال؛ للدَّلالة على مجاهدةِ النَّفس في التقوى، والاستمرارِ على هذه المجاهدة، "أي: جاهدَ نفسه حتى حصلَ فيه تقوى، فهو يوصلهُ فوق ما يؤملُ من الثوابِ في الدارين، فكيف بمن صارتْ له التقوى وصفًا ثابتًا؟"[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإثم والفاحشة واللَّمم:

الذين يجتنبون كلَّ كبيرةٍ تؤخِّرهم عن الخير، وتنفرُ منها نفوسُهم، يسترُ الله لهم الصغائر

الإثمُ هو الذَّنبُ الذي يستحقُّ العقوبة عليه، ولا يكون إلّا تعمُّدًا[2]، وهو معصيةٌ وخطيئةٌ تستحقُّ على صاحبها الذَّمَّ واللوم والعقاب، ويحملُ على القلقِ، فتنفرُ منه النفس، ولا يطمئنُّ له القلب، وفي الحديث: «الإثمُ ما حاك في صدرك»، ولا يَصحُّ أنْ يوصفَ بهِ إلّا الحرام، سَواء أُريد بهِ العقاب، أو ما يسْتَحق بهِ من الذُّنوب[3]، الفاحشة: هي الفعلةُ الشنيعةُ التي عَظُمَ قبحها، وفَشا استقباحُها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 69.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثم)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 233.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (إثم)، والكفوي، الكليات، ص: 40.

لدى النّاس، من الأفعال والأقوال والأحوال، من زِنى أو نشوزٍ وسوءِ خُلقٍ[1]، والَّتي شَدَّدَ الدّينُ في النَّهْيِ عَنها، وتَوَعَّدَ عَلَيها بالعَذابِ، أو وضَعَ لَها عُقوباتٍ في الدُّنْيا لِلَّذي يَظْهَرُ عَلَيهِ مِن فاعِليها[2]، وأمّا اللممُ؛ فهي صغائرُ الذنوب، أو مقاربةُ المعصية دون مواقعتها[3]، فاللممُ: الفِعلُ الحَرامُ الَّذي هوَ دونَ الكَبائِرِ والفَواحِشِ في تَشديدِ التَّحْريمِ[4]، وقد استعملَ البيانُ القرآني هنا الألفاظ الثَّلاثة، فمدحَ الذين يجتنبون كبائرَ الإثم والفواحش، وكلَّ فعلٍ قبيحٍ شنيعٍ تنفرُ منه النفس، ويؤخِّرهم عن الخير، وبيَّن بالمقابل أنَّ اللّهَ لا يؤاخذهم على اللمم، وهي الصغائر، ومن رحمته سبحانه أنَّه يغفرها، ويسترها.

المغفرة والعفو والصفح:

المغفرةُ تغطيةُ الذنبِ، والغفرانُ يقتضي إسقاطَ العقاب، والعفو: إسقاطُ العذاب الجسماني، والمغفرةُ: إسقاطُ العذاب الروحاني، والتجاوزُ عنهما، وقيل: العفو أبلغُ من المغفرة، فإنَّ الغفران ينبئُ عن الستر، والعفو ينبئ عن المحو، وهو أبلغُ من الستر؛ لأنَّ السترَ للشيء قد يحصلُ مع إبقاءِ أصله، بخلافِ المحو فإنَّه إزالته جملةً ورأسًا، وأمّا الصفحُ؛ فهو التجاوزُ عن ذنبِ المذنبِ ومسامحته، وقيل: هو تركُ مؤاخذةِ المذنب بالذنب، وأن تبدي له صفحةً جميلة، ولهذا لا يُستَعملُ في اللّه تعالى[5]، وقد استعملَ البيان القرآني هنا المغفرة؛ لكونها أنسبَ مع السياق الذي يركِّز على اجتنابِ الكبائر وإسقاطِ العقاب عن الصغائر، وأنسبَ مع السترِ الواسع، وهذا من رحمتِهِ سبحانه.

مـن عـظـيـمِ رحمته سبحانه سـترُه الـواسـعُ الَّـذي يـشـمـلُ إسقاطَ العقاب عن الصغائر

الإنشاء والخلق والإيجاد:

الإنشاءُ: هوَ الإحداثُ حالًا بعد حالٍ، والإنشاءُ: إيجادُ الشيءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فحش).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 121.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لمّ)، والراغب، المفردات: (لم).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/ 110، 27/ 121.
(5) ابن فارس، والراغب، المفردات: (عفو)، (غفر)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 363 - 364.

التدرُّجُ في الخلق مع الرعاية والتهيئةِ من العنايةِ الإلهية في التكوين

وتربيتُهُ، والإنشاءُ: ابتداءُ الخلقِ، وكلُّ من ابتدأ خلْقَ شيءٍ واخترعه؛ فقد أنشأه[1]، أمّا الخَلقُ؛ فهو تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبقْ إليه[2]، أي: إبداعُ الشيءِ من غير أصلٍ ولا احتذاء، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، وليس الخلقُ الذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ تعالى[3]، واستُعمِلَ لفظُ (أنشأكم) هنا دون (خَلَقكم)؛ لكون السياق يتحدَّثُ عن مراحلِ وجود الإنسان، والتَّدرُّجِ في الخلق من التراب إلى الجنين، فدلَّ لفظُ الإنشاء على الخلقِ مع زيادة النُّموِّ والنشوءِ شيئًا فشيئًا، فالإنشاءُ يوحي بالرعايةِ والتهيئة، وهذا من العناية الإلهيَّة في التكوين.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 134، والزبيدي، تاج العروس: (نشأ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).
(3) الراغب، المفردات: (خلق).

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾﴾ [النجم: 33 - 35]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد النَّهي عن تزكيةِ النفس جاءَ التعجيبُ ممَّن ارتدَّ عن الإسلام

لَمّا أمرَ سبحانه النَّبيَّ ﷺ بالإعراض عمَّن تولّى عن التَّشرُّف بذكر الملك الأعظم واللجوء إليه، ونهى عن التزكية للجهل بالعواقب، وكان قد ارتدَّ ناسٌ عن الإسلام، كان سببُ ارتدادهم إخبارَه ﷺ عن بعض ما رأى من الآيات الكبرى ليلة الإسراء، وكان لَمّا نزلت عليه ﷺ سجدة النجم وسجد فيها، وسجدَ معه - كما في البخاري - المسلمون والمشركون والجنُّ والإنس، ولم يكنْ في ظنِّ أحدٍ من الخلق انقلابهم على أدبارهم، ولا في ظنِّ المرتدين؛ سبَّب عن ذلك قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾[1]، فبعد أنْ بيَّن اللّهُ سبحانه سعةَ علمه وقدرته الفائقة على إيقاع الجزاء يوم القيامة بأهل الإساءة والإحسان، وبَيَّنَ جَهْلَ المُشركِينَ في عِبادةِ الأصنام؛ ذَكَر على سبيل التعجيب والتقريع واحِدًا منهم مُعَيَّنًا بسوءِ فِعْلِه، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾: أصلُ (كدي) يَدُلُّ على صَلابَةٍ في شَيءٍ، وشدَّة، فالكُدْيَةُ: صَلابَةٌ تَكونُ في الأرْضِ، يُقالُ: حَفَرَ، فأكْدَى، إذا وصَلَ إلَى الكُدْيَةِ، واستُعير ذلك للطالب المخفق، والمعطي المقلّ، يُقالُ لِلرَّجُلِ؛ إذا أعْطَى يَسيرًا، ثُمَّ قَطَعَ: أكْدَى، وقيل معنى أكدى: قلَّل عطاءه وبخل، شُبِّهَ بالحافِرِ يَحْفِرُ، فيُكْدي، فيُمْسِكُ عَنِ الحَفْرِ[3]، ومعنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 70.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 111، وابن عادل، اللباب: 18/ 200، والزحيلي، التفسير المنير: 27/ 127.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كدى).

﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾: أعطى قليلًا، ثم قطعَ العطاءَ، فلا يُعطي شيئًا؛ إشارةً إلى بخله(1).

2) ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾: مَصدَرُ الفعل (غابَ يغيبُ غَيْبًا)، والغيبُ: كلُّ ما غابَ عنك، وأصله يدلُّ على تَسَتُّرِ الشَّيءِ عنِ العُيون، فكُلُّ ما غابَ عَنِ العيونِ، سواءٌ كانَ مُحَصَّلًا في القلوب، أمْ غيرَ مُحَصَّلٍ؛ فهو غيبٌ(2)، ويُطلق الغيبُ على المُطْمَئِنِّ مِنَ الأرضِ(3)، وهو ما انخفضَ مِنْها، وهو راجعٌ إلى الأوّلِ؛ إذِ الدّاخِلُ في مُطمَئِنِّ الأرض يكونُ غائبًا مَخفيًّا عَنِ العيونِ(4)، ومعنى: ﴿عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ في الآية: مَعْرِفَةُ العَوالِمِ المَغيبَةِ(5).

المَعنى الإجْماليُّ:

توبيخُ مَن تولّى عن طاعة الله، وبَخِلَ في العطاء، وآثَرَ الكفر

ذمَّ اللّهُ تعالى، ووبَّخ مَن تولى عن طاعة الله، فقال مخاطبًا النَّبيَّ ﷺ على سبيل التعجيب: أعلمتَ، وأخبرتَ شأنَ الذي تولّى عن الخير، وأعرضَ عن اتِّباع الحق، وأعطى قليلًا من المال، ثم أحجمَ عن العطاء في سبيل أنْ يتحمَّل عنه غيره وزره، أفعند هذا الكافر الَّذي آثرَ الكفرَ على الإيمان علمَ ما غاب عنه من أمر العذاب، فهو يعلم أنَّ صاحبه يتحمَّل عنه أوزاره يوم القيامة؟ ليس الأمر كما يظنُّ(6).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التعبير بالاستفهام في: ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾:

استفهامٌ تقريريٌّ تعجُّبيٌّ يحملُ التهييجَ والإثارةَ والتَّشويقَ نحوَ المستفهَمِ عنه

الهمزةُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾: للاستفهامِ التَّقريري

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 542، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 64، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 128.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المفردات: (غيب).
(3) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (غيب).
(4) ابن عطيّة، المحرَّر الوجيز: 1/ 84.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 128.
(6) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 541، والزحيلي، التفسير المنير: 27/ 128.

والتعجُّبي[1]، والمرادُ من الاستفهامِ استحضارُ صورةِ المُستَفْهَم عنه في الذِّهن؛ ليُحكمَ عليها، وهي حاضرةٌ ماثلةٌ فيه، فيحمل هذا الاستفهامُ التهييجَ والإثارةَ والتَّشويق نحو المستفهَم عنه، واستحضار صورته، ومِن ثَمَّ الحكم عليه، حتى إذا ما حُكم عليه تمكَّن الحكمُ في النَّفس بكلِّ قوَّة[2].

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ﴾:

بعد بيان الله لجزاءِ المحسن والمسيء تفريعٌ وتعجيبٌ مِن انحرافِ مَن تولّى

الفاءُ لتَفريعِ الاستِفهامِ وما بعْدَه على ما سبق، أي: لتفريع الاستفهام التعجُّبي على قوله: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾؛ إذ كان حالُ هذا الذي تولّى، وأعطى قليلًا، وأكدى جهلًا، بأنَّ للإنسان ما سعى، وقد حصل وقت نزول الآية حادثٌ أنبأ عن سوء الفهم لمراد اللّٰه من عباده مع أنَّه واضحٌ لمن صرف حقَّ فهمه، ففُرِّع على ذلك كلِّه تعجيبٌ من انحراف أفهامهم[3]، ويحتملُ أنْ تكون الفاءُ عاطفةً على محذوف مقدَّر، والتقدير: أفكَّرتَ يا محمد في شأن هؤلاء المعاندين، فرأيت الذي تولى[4]؟ فالفاءُ تقتضي كلامًا يترتَّب على ما تقدَّم من بيانِ علم اللّٰه وقدرته، ووعده المسيء والمحسن بالجزاء، وتقديره هو أنَّ اللّٰه تعالى لَمّا بيَّن أنَّ الجزاءَ لا بدَّ من وقوعه على الإساءة والإحسان، وأنَّ المحسنَ هو الذي يجتنبُ كبائرَ الإثم، فلم يكنِ الإنسانُ مستغنيًا عن سماع كلام النبي ﷺ وأتباعه، فبعد هذا من تولى لا يكون تولّيه إلّا بعد غاية الحاجة ونهاية الافتقار[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 128، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 365، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 161.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 184.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 127.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 365، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 182.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 273.

دلالة التعبير بالماضي: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾:

تحقُّقُ الرؤية وتأكُّدها أبلغُ في التقرير والتعجيب

التعبيرُ بصيغة الماضي أبلغُ في التقرير والتعجيب، وقوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ﴾ أسلوبٌ قرآني يُفتتحُ بمثله الكلام الذي يُراد تحقيقه والاهتمام به، وقد دلَّ التعبيرُ بالماضي على تحقُّق رؤيةِ الحدث وتأكُّده، فكأنَّ المخاطَب قد رأى هذا الحدث وعاينه بنفسه، وهو أمرٌ محسوس معلوم.

الغرض من التعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

المقصودُ بالموصول شخصٌ بعينه أو ما سبقَ ذكره

عبَّر النَّصُّ القرآنيُّ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾، في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾؛ لأنَّ المقصودَ شخصٌ بعينه، أي: المراد به معيَّن، مع اختلاف المفسِّرين في تعيينه، هل هو الوليد بن المغيرة أو غيره؟ والتعبير بـ﴿ٱلَّذِى﴾ دون (مَن)؛ لأنَّ ﴿ٱلَّذِى﴾ أظهرُ في الإطلاق على الواحد المعيَّن دون لفظ (مَن)[1]، أو عبَّر بالموصول؛ لأنَّه عائدٌ إلى مذكور، فإنَّ اللّٰهَ تعالى قال من قبل: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ وهو المعلوم؛ لأنَّ الأمرَ بالإعراض غير مختصٍّ بواحد من المعاندين، فقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾، أي: الذي سبقَ ذكره[2]، فالموصولُ ﴿ٱلَّذِى﴾ يعودُ إلى المستفهَم عنه، وهو الذي تولّى عن طاعة اللّٰه بعد الاشتغال بها.

الغرض من حذف متعلِّق الفعل ﴿تَوَلَّىٰ﴾:

في الحذف إيجازٌ واتِّساعٌ في المعنى

حُذِفَ متعلِّقُ الفعل ﴿تَوَلَّىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾؛ إيجازًا لكونه مفهومًا من السياق، فإنَّ اللّٰه تعالى قال من قبل: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾، وكذلك في الحذف إفادةُ العموم، فيكون التقدير: الذي تولّى عن الإيمان باللّٰه، وعن طاعته بعد الإقدام عليها، وتولّى عن ذكر اللّٰه والقرآن وما جاء به النبي ﷺ، وعن اتِّباع الحقِّ والثبات عليه[3].

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 201، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 127.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 273، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 201.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 162.

دلالة التعبير بالماضي: ﴿تَوَلَّىٰ﴾:

في تحقيق التولي وإثباته تقبيحٌ لفعله وتنفيرٌ منه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بصيغة الماضي ﴿تَوَلَّىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾؛ لإفادة تحقُّق ذلك الفعل منه ممّا يؤكِّد ذمَّهُ، وتقبيحَ فعله، والتنفير منه.

بلاغة التعبير بالاستعارة التصريحيَّة في: ﴿تَوَلَّىٰ﴾:

تصويرُ حالِ المعرض بصورةٍ حيَّةٍ إظهارٌ لقباحة فعله

في قوله تعالى: ﴿تَوَلَّىٰ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ استعارَ الإدبار والإعراض لعدم الدخول في الإيمان، فاشتقَّ من (التولّي) - بمعنى: عدم الإيمان - (تولّى) بمعنى: أعرض عن الإيمان، على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية[1]، فقد صوَّر حالَ المعرضِ عن الحقِّ بمَن يتولّى، ويدبر، فحذفَ المشبَّه (المُعرض)، وصرَّح بالمشبَّه به (التولّي)، ممّا يعطي صورة حيَّة للإعراض عن الإيمان بالله، وكأنَّه يرى المعرضَ يُديرُ ظهره للحقِّ، ويدبرُ عنه، فيزيد قباحة هذا الفعل وبشاعته.

دلالة العطف بالواو ﴿وَأَعْطَىٰ﴾:

مزيدُ ذمٍّ وتوبيخٍ على جمعه بين الذَّميمتين (التَّولّي والبخل)

عطفَ البيان القرآني قوله: ﴿وَأَعْطَىٰ﴾ على قوله: ﴿تَوَلَّىٰ﴾ بالواو؛ لإفادة الجمع بين الذميمتين: (التولّي) و(البخل)، وفي هذا الجمع مزيدُ ذمٍّ وتوبيخ وتعجيبٍ من فعل هذا المعرِض المدبِر عن الإيمان.

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿وَأَعْطَىٰ﴾:

عطاءٌ متحقِّقٌ، لكنَّه قليلٌ وناقصٌ، يتناسبُ مع بخله، وما يستحقُّه من الذَّمِّ

أتى التعبيرُ بالفعل الماضي ﴿وَأَعْطَىٰ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ الفعل وانتهائه، وأنَّ هذا الشخصَ الكافر قد أعطى بالفعل، ولكنَّ عطاءه انتهى بسرعة، فلم يزدْ على ذلك القليل شيئًا، وهذا يتناسبُ مع السياق الذي يصفُ حاله وبخله، فهو لم يستمرَّ في العطاء، بل بخلَ، وتوقَّف، وفي هذا مزيدٌ من الذَّمِّ والتوبيخ له.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 369، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 188.

عطاؤُه الحقيرُ التافهُ الذي لا يُذكر دليلٌ على بخله الشديد

سرُّ الوصف بـ﴿قَلِيلٗا﴾ والغرض من تنكيره:

﴿قَلِيلٗا﴾ في قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا﴾ إمّا صفة لمصدر محذوف، والتقدير: أعطى شيئًا قليلًا، أو عطاءً قليلًا، أو مفعول به لـ(أعطى)، وقد وُصِف العطاءُ بأنَّه قليل؛ توطئةً لذمِّه؛ بأنَّه مع قلَّة ما أعطاه قد شحَّ به فقطعه[1]، ونكَّر البيانُ القرآنيُّ ﴿قَلِيلٗا﴾؛ للدَّلالة على التقليل الشديد والتحقير لهذا المُعطَى، أي: ما أعطاه كان شيئًا تافهًا لا قيمةَ له، كأنَّه شيءٌ لا يُذكر، ممّا يدلُّ على بخله، وهذا يتناسبُ مع قطعه العطاء (أكدى)، وفي هذا كلِّه مبالغةٌ في ذمِّه.

من جمع بين البخل ومنع العطاء مستحقٌّ للذمِّ الشديد

دلالة العطف بالواو في ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ عطفَ قوله: ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾، على قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ﴾ بالواو؛ لإفادة جمعه بين هذين الفعلين الشنيعين اللَّذين يستحقّان الذمَّ الشديد، فهو لم يكتفِ بالبخل، بل قطعَ العطاء تمامًا بعد هذا القليل الحقير، فهذه مذمَّةٌ ثانيةٌ بالبخل زيادةً على إعراضه عن الإيمان وثباته على الكفر، فحصلَ التَّعجيب من حاله كلِّه؛ تحقيرًا لعقله وفساد رأيه[2].

تحقُّقُ وقوعِ الإكداء ممَّن تولّى تأكيدٌ على شدَّة بخله

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾:

عبَّر البيان الحكيم بالفعل الماضي ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّقِ وقوع هذا الفعل وتأكُّده منه، وهو منعه العطاء نهائيًّا، وكذلك للتناسب مع الأفعال الواردة بصيغة الماضي في السياق (أفرأيت، تولى، أعطى)، ومناسبة فواصل الآيات.

بلاغة التعبير بالطباق بين ﴿وَأَعۡطَىٰ﴾ و﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾:

في قوله: ﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ طباقٌ بين فعلين متضادَّين، هما (أعطى) و(أكدى)، وفي هذا الطباق إظهارُ التناقض في سلوكِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 128.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 128.

صاحب هذين الفعلين، فهو يعطي قليلًا رياءً أو لحاجةٍ وقتيَّةٍ، ثم يبخلُ فجأةً، فيظهرُ نفاقه وعدم ثباته، ممّا يثيرُ الاستهجان تجاه هذا المذكور؛ لأنَّه يبدأ بالعطاء، فيخدع الناس، ثم ينقلبُ إلى المنع، فتظهر حقيقته، وفي هذا تقريعٌ وتوبيخ ضمنيٌّ.

طباقٌ يبرزُ تناقضَ السلوك بين العطاء والمنع ويوحي بنفاق صاحبه

بلاغة الاستعارة التصريحيَّة في قوله: ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾ استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ شبَّه الذي قطع ذلك العطاء على قلَّته، بالحافر الذي يكدي، فيمسك عن الحفر؛ إذا وصل في حفره إلى كدية، أي: صفاة عظيمة شديدة، لا تعملُ فيها المعاول، فصار لا يقدرُ معها على شيء من علمه، ولا يستطيعُ النفوذ فيها بشيء من حيله، فيَئِسَ من الحفر، فكذلك الذي يعطي قليلًا، ثم يمسكُ عن العطاء[1]، وفي هذا التشبيه إشارةٌ إلى انقطاعه نهائيًّا عن العطاء، فلا يُعطي شيئًا، فكأنَّه أغلقَ باب الخير إلى الأبد.

في الاستعارة إشارةٌ إلى انقطاعه نهائيًّا عن العطاء، فكأنَّه أغلقَ باب الخير إلى الأبد

دلالة الاستئناف في: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾:

جاءتْ جملة: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ استئنافًا بيانيًّا للاستفهام التَّعجُّبيِّ من قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾[2]، أي: كأنَّ سائلًا يسأل عن سببِ هذا التعجيب من حال الوليد، وما وقع فيه من أمور لا يفعلها عاقلٌ بنفسه، فجاء الجواب مبيِّنًا ذلك بأنَّه لا يعلمُ الغيب.

جوابٌ عن سببِ التعجيب من حالِ الذي تولّى

الغرض من الاستفهام بالهمزة في: ﴿أَعِندَهُۥ﴾:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ إنكاريٌّ على تَوَهُّمِهِ أنَّ استِئجارَ أحَدٍ؛ ليَتَحمَّلَ عَنهُ عَذابَ اللهِ، يُنجيهِ مِنَ العَذابِ، وهو بمعنى النفي، أي: ما عِندَهُ عِلْمُ الغَيْبِ، وهَذا الخَبَرُ كِنايَةٌ عَن

استفهامٌ يحملُ التَّعجُّب والإنكار على خطأٍ ووهمٍ لا أصلَ له

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 369، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 188.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 128.

خَطَئِه فيما تَوَهَّمَهُ، فكأنَّه يعلمُ الغيبَ، ويشاهدُ أنَّ ذلك يدفعُ عنه العقاب[1]، وفيه توبيخٌ وتقريعٌ له على توهُّمه هذا[2].

سرُّ التقييد بالظرف: (عنده) مضافًا إلى الضمير:

المبالغةُ في الاستنكار والتعجُّب من ادِّعاء الكافر بأنَّ علمَ الغيب مختصٌّ به

(عند) في قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ ظرفُ مكانٍ، وهو مجازٌ، ويفيدُ الحضورَ والقرب، وقد أُضيفَ إلى الضمير (الهاء)؛ للإشارة إلى أنَّ علمَ الغيب مختصٌّ به وحده لا يشاركه فيه مشارك[3]، ممّا يجعلُ الاستفهامَ أبلغَ في الاستنكار والتَّهكُّم، والتعجُّب من ادِّعائه بأنَّ علم الغيب حاضرٌ عنده مختصٌّ به، والمعنى: أعند هذا المُكْدي علمُ الغيب، فهو يعلم ما غابَ عنه من أمرِ الآخرة، وما يكون من أمره حتى يضمنَ حَمْلَ العذاب عن غيره؟[4].

الغرض من الإضافة في: ﴿عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾:

في الإضافة تقييدٌ يكشفُ الافتراء على مقامِ الألوهية

الإضافة في ﴿عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ إضافة بيانيَّة توضِّح المضاف وتقيِّده؛ إذ لفظ ﴿عِلۡمُ﴾ نكرة يدلُّ على العموم، فكان في إضافته إلى الغيب بيانٌ بأنَّ المراد علمٌ مخصوصٌ لا كل علم، وهو علمُ الغيب الَّذي لا يعلمه إلّا اللّه، وبلاغةُ هذه الإضافة في أنَّها تُظهرُ أنَّ المنكَر عليه في الآية لا يدَّعي مجرَّد العلم، بل يدَّعي اختصاصًا بعلمٍ لا يعلمه إلّا اللّه، وهو علمُ الغيب، وهنا تزدادُ شدَّةُ التوبيخِ والإنكار؛ لأنَّ دعوى هذا النوع من العلم افتراءٌ على مقامِ الألوهيَّة.

معنى اللام ودلالتها في: ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾:

المبالغةُ في تقريعِ مدَّعي الإحاطة الكاملة بالغيب

اللام في لفظ ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾ جنسيَّةٌ، أي: عنده علم الغيب كلِّه بحيث لا يشاركه في مشارك يمكن أن يخفى عليه شيء منه[5]، وهذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 128.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 71، وحاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1880.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 71.
(4) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 201.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 71.

أبلغُ في التَّوبيخ؛ لأنَّه لا ينكرُ مجرَّد العلم ببعض الغيب، بل ادِّعاء الإحاطة التامَّة به، وهذا لا يليقُ إلّا باللّه تعالى، والمعنى: هل عنده علمٌ بالأمورِ الغيبيَّةِ التي مِن جُملتِها تحمُّلُ صاحبِه عنه يومَ القيامةِ، فيحكم، ويتكلم، وكأنَّه يرى كلَّ شيء؟.

الغرض من تقديم الظرف (عند) على المبتدأ ﴿عِلۡمُ﴾:

في التقديم اهتمامٌ بالعنديَّة العجيب ادِّعاؤها

في قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ قدَّم البيانُ الإلهي (عنده) - وهو مسند - على ﴿عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ - وهو مسند إليه - للاهتمام بهذه العندية العجيبِ ادِّعاؤها، والإشارة إلى بُعده عن هذه المنزلة[1].

معنى الفاء ودلالتها في: ﴿فَهُوَ﴾:

الفاءُ بين التَّفريع والترتيبِ والسببيَّة

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ للتَّفريع، أي: تفرَّع على هذا التعجيب (علمه الغيب) أنَّه يشاهدُ أمورَ الغيب، فهي داخلةٌ في حيِّز الاستفهام[2]، ويمكن أن تكون سببيَّة، تسبَّبَ عن ادِّعائه علمَ الغيب أنَّه يرى الغيب[3]، "أي: أعنده علمٌ بالأمورِ الغيبيَّة، فهو بسببِ ذلك يعلمُ أنَّ صاحبه يتحمَّل عنه يوم القيامة ما يخافه"[4]، فكأنَّ رؤيته نتيجةٌ حتميَّةٌ لادِّعائه علم الغيب.

دلالة التعبير بالضمير (هو):

في التَّأكيد مزيدُ توبيخٍ على توهُّمه علم الغيب

أتى البيان القرآني بالضَّمير (هو)، في قوله: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾، ولم يقلْ: (أعنده علم الغيب، فيرى)؛ وذلك لتقويةِ الحكم وإفادةِ التأكيد على ثبوتِ أنَّه يرى الغيب؛ ليكون في هذا مزيدٌ من التَّوبيخ على توهُّمه.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿يَرَىٰٓ﴾ والغرض من حذف المتعلِّق:

تصويرٌ يزيدُ من شناعةِ ادِّعاءِ فعلٍ خاصٍّ بالله تعالى

عبَّر النظم الحكيم بالفعل المضارع ﴿يَرَىٰٓ﴾، الذي يفيدُ الاستمرار

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 128.
(2) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1880، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 128.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 71.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 65.

والتَّجدُّد؛ لإفادة أنَّ المذكورَ يزعمُ أنَّ الغيبَ منكشفٌ له في كلِّ وقت، فهو يراه رؤيةً مستمرَّةً متجدِّدة، كما أنَّ استعمالَ المضارع هنا يزيدُ من شناعةِ الادِّعاء المرفوض؛ لأنَّه يصوِّر صاحبَ هذا الظَّنِّ، كمن يدَّعي امتلاكَ قدرةٍ مستمرَّة على الاطِّلاع على الغيب، وهو أمرٌ خاصٌّ باللّه تعالى.

والرُّؤية في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ إمّا بصرية، و(رأى) البصريَّة تتعدّى إلى مفعول، ولكنَّه حُذِف هنا، والتقدير: فهو يرى الغيب[1]، والمعنى: "فهو يبصرُ ما خفي عن غيره ممّا هو غيب"[2]، ويمكن أن تكونَ الرُّؤية علميَّة، وحُذِف مفعولاها، والتقدير: علمَ أنَّه غير معذَّب بتحمُّل صاحبه عنه العذاب[3]، أو يرى الرؤيةَ الكاملة، فيعلمَ جميع ما ينفعه، فيرتكبه، وجميع ما يضرُّه، فيجتنبه، ويعلم أنَّ هذا القليل الذي أعطاه قد قُبِلَ، وأمن به من العطب، فاكتفى به[4]، وقد حُذف متعلِّق الرؤية؛ لدلالةِ المقام عليه[5]، وكذلك في حذف المفعول مراعاةٌ للفاصلة القرآنية.

الغرض من التقديم:

في التَّقديم تقويةٌ للحكم وزيادةٌ في التعجيب

في قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ قدَّم الضميرَ المسند إليه (هو) على فعله المسند ﴿يَرَىٰٓ﴾ دون أنْ يقول: (فيرى)؛ لإفادةِ تقوّي الحكم، نحو: هو يعطي الجزيل، وهذا التقوّي؛ بناءً على ما أظهرَ من اليقين بالصفقةِ التي عاقدَ عليها، وهو أدخلُ في التَّعجيب من حاله[6].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 128.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 65.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 21/ 65.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 71.
(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 161.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129.

بلاغة التعبير بالكناية في الآية:

الكنايةُ تجعلُ التَّوبيخَ والإنكارَ أكثرَ تأثيرًا من التصريح

في قوله تعالى: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ كنايةٌ عن ادِّعاء علم الغيب، وفي قوله: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ كنايةٌ عن الزَّعم الكاذب بأنَّ الغيبَ مكشوفٌ له، كأنَّه يراه رأي العين، وبلاغةُ التعبير بالكناية يجعلُ الإنكارَ أشدَّ وقعًا من التصريح؛ لأنَّه يلبسُ ثوبَ التَّهكُّم المغلَّف بالاستفهام، ولإفادةِ الإيجاز، فلم يقلْ: (أيعلم ما لا يعلمه أحد؟)، أو (أيدَّعي ما لا يملك؟)، بل قال: ﴿فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾، وهو أبلغُ وأقصر، ولإفادة تصوير المدَّعي، كأنَّه واقفٌ يرى الغيب رأيَ العين، وهو تصويرٌ ساخرٌ وإنكاريٌّ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التولّي والإعراض:

التولّي انصرافٌ كاملٌ وإدبار، والإعراضُ تجاهلٌ وعدمُ اكتراث

حَقيقَةُ التَّوَلّي: الإدبارُ والذهابُ والانصراف[1]، والتَّولّي إذا عُدّي بـ(عن) لفظًا أو تقديرًا؛ اقتضى معنى الإعراض وتركِ القرب[2]، بينما الإعراضُ تجاهلٌ وعدمُ اكتراث، أَعْرَضَ عَن فُلانٍ، وأَعْرَضَ بوَجْهِهِ: كأنَّه انحرفَ عنه، وولّاهُ عُرْضه، أي: جانبه، أو عارِضَه، ولّاهُ عَرْضَهُ: أدارَ ظهرَه له غيرَ مكترثٍ أو مهتمٍّ به، وصدَّ عنه، وتجاهله، وجفاه[3]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ التَّولّي مع السياق الذي يصوِّر الكافرَ الذي انصرفَ عن الحقِّ انصرافًا كاملًا، وبخل بالعطاء، وانقطعَ عن الخير.

الإكداء والقطع والمنع:

الإكداءُ: هو قطعٌ نهائيٌّ ودائمٌ بعد عطاءٍ قليل، ومعنى أكدى:

(1) الزبيدي، تاج العروس، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ولى).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/ 343، والكفوي، الكليات، ص: 28.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عرض).

المعرضُ عن الحقِّ الذي أعطى قليلًا، ثم انقطعَ نهائيًّا، كأنَّه أغلقَ باب الخير إلى الأبد

منعَ منعًا شديدًا، وأمسكَ عن العطاء، وهو كنايةٌ عن البخل[1]؛ إذ أصلُ المعنى صَلابَةٌ تَكونُ في الأرْضِ، يُقالُ: حَفَرَ، فأكْدَى، إذا وصَلَ إلى الكُدْيَةِ، واستُعير ذلك للطالب المخفق، والمعطي المقلّ، يُقالُ لِلرَّجُلِ؛ إذا أعْطَى يَسيرًا، ثُمَّ قَطَعَ: أكْدَى، شُبِّهَ بالحافِرِ يَحْفِرُ، فيُكْدي، فيُمْسِكُ عَنِ الحَفْرِ[2]، بينما القطعُ أعمُّ من الإكداء؛ إذ القطعُ هو الفصلُ بين الأشياء سواء المحسوسة أو المعقولة، ويدلُّ في أصله على صَرْم وإبانَةِ شَيءٍ مِن شَيءٍ[3]، وقد يكون هذا القطعُ مؤقَّتًا أو دائمًا، وأمّا المنعُ؛ فهو خِلافُ الإعْطاءِ، ومَكانٌ مَنيعٌ: هو في عزٍّ ومنعةٍ[4]، تقولُ: مَنَعْتُه، أي: حُلتُ بينه وبين إرادته[5]، وقد يكون هذا المنعُ ابتدائيًّا، أي: لا يشترطُ أن يسبقه عطاء، ولهذا استُعمِلَ لفظُ أكدى؛ لكونه أبلغَ في الذَّمِّ، وأنسبَ للسياق الذي يصوِّر حالةَ الكافر المعرضِ عن الحقِّ، الذي بدأ بخيلًا، فأعطى قليلًا، ثم انقطعَ نهائيًّا عن العطاء، فلا يُعطي شيئًا، فكأنَّه أغلقَ باب الخير إلى الأبد.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (كدا)، والواحدي، التفسير البسيط: 21/ 64.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (كدى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (قطع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (منع).
(5) الخليل، العين: (منع).

﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧
أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩
وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ٤٠ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ٤١ وَأَنَّ إِلَىٰ
رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ ٤٢ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ
وَأَحۡيَا ٤٤﴾ [النجم: 36 - 44]

۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تنبيهٌ جامعٌ بين الوعظِ والتَّهويلِ

لَمّا كان الغبيُّ - الذي تولّى، وأعطى قليلًا، وأكدى - قد يظنُّ أنَّ عملَ غيره ينفعه؛ نبَّهه اللّه على خطئه في إمساكه عن البرِّ، وقَبول قول صاحبه: أنا أتحمَّلُ ذنوبَك كلَّها، وعبَّر عنه جامعًا للوعظ والتهويل، بقوله: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ﴾(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صُحُفِ﴾: أصلُ (صحف) يدلُّ على انبساطٍ في شَيءٍ وسَعَة، ومنه الصَّحيفَةُ: المبسوطُ من الشيء، كصحيفة الوجه، ومنه الصَّحيفَةُ: وهيَ الَّتي يُكْتَبُ فيها، وجمعها صَحائِفُ، وصُحُفٌ(2)، وقد كانتْ صحفُ الكتابة قديمًا ألواحًا طينيةً وعظامًا ذات وجه عريض وأحجارًا كذلك، ثم رُقَعًا جلديَّة، ثم اتُّخِذَ الورق(3)، ومعنى ﴿صُحُفِ مُوسَىٰ﴾: هيَ أسفار التَّوراةِ، وصُحُفُ إبراهيمَ: صُحُفٌ سَجَّلَ فيها ما أَوْحَى اللّه إِلَيْهِ(4).

2) ﴿وَفَّىٰٓ﴾: وفَى: كَلِمَةٌ تَدُلُّ على إكمالٍ وإتمام، مِنهُ الوَفاءُ: إتمامُ العَهْدِ وإكمالُ الشَّرطِ، ويَقولونَ: أوفَيْتُكَ الشَّيءَ؛ إذا قَضَيتَهُ إيّاهُ

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 105، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 71.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صحف).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صحف).
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 21/ 65، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129.

وافيًا، وتَوَفَّيْتُ الشَّيءَ، واستَوفيتُه: إذا أخذتَه كُلَّه، حَتَّى لَم تَترُكْ مِنهُ شَيئًا، ومِنهُ يُقالُ لِلمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللهُ[1]، ووفَّى الشَّخْصُ بالوعْد: حافظَ عليه، وعملَ به، وأتمَّه، وأنجزه[2]، ومعنى ﴿وَفَّىٰٓ﴾ في الآية: بلَّغ ما أُمر به، وقامَ بجميع ما فُرِضَ عليه، فلم يخرمْ منه شيئًا[3]، وهي في مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]، من قوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]، وأتمَّهنَّ، أي: بَلَّغَهُنَّ إلَى قَوْمِهِ ومَن آمَنَ به[4].

3) ﴿تَزِرُ﴾ - ﴿وَازِرَةٞ﴾ - ﴿وِزۡرَ﴾: الوِزْر: الحِمْلُ الثَّقيلُ مِنَ الآثام والذُّنوب[5]، والأصلُ في معنى الواوِ والزّاي والرّاءِ ثِقَلُ الشَّيءِ، فهوَ متعلِّقٌ بالحَمْلِ[6]، ثَمَّ عبَّر عنهُ بالذُّنوب والآثام؛ تشبيهًا بثِقَلِ الجبلِ، فهوَ يُثقِلُ صاحبَه[7]، فمعنى قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾ [الأنعام: 164]، أي: لا تَحمِلُ نفسٌ آثمةٌ، وِزْرَ نفسٍ أخرى، ولكن كلُّ يُجزى بما كَسَبَ، والآثام تُسمَّى أوزارًا؛ لأنّها أحمالٌ مثقلةٌ، واحدها وِزْرٌ[8]، وهو كمعنى قوله هنا: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾: أي لا يؤاخذُ أحدٌ بذنب أحد[9].

4) ﴿سَعَىٰ﴾: السَّعْيُ المَشيُ السَّريعُ، وهو دونَ العَدْوِ، سَعى الرَّجلُ: أي: عدا، وعمل، وكسب، ويُستَعملُ لِلجِدِّ في الأمرِ، خَيرًا كانَ أو شَرًّا، قال تعالى: ﴿وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآۚ﴾ [البقرة: 114]، وأكثرُ ما يُستعملُ السَّعْيُ في الأفعالِ المحمودة[10]، "والمُرادُ هُنا: عَمَلُ الخَيرِ بقَرينَةِ ذِكْرِ لامِ الاختِصاص، وبِأن جُعِلَ مُقابِلًا لِقَولِهِ: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾"[11].

5) ﴿ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾: بيَّنّا معناه في اللغة في معنى مفردة ﴿وَفَّىٰٓ﴾، و﴿ٱلۡأَوۡفَىٰ﴾ اسْمُ تَفْضيلٍ مِنَ الوَفاءِ، وهوَ التَّمامُ والكَمالُ، والمَعْنَى: أنَّ الجَزاءَ على الفِعلِ مِن حسنٍ أو سيّئ موافِقٌ للمجْزيِّ عَلَيه، ويُجازى جزاءً كاملًا غير منقوص[12].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وفى).
(2) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: 3/ 2475.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 544، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 113.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 130.
(5) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (وزر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وزر).
(7) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وزر).
(8) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/ 207.
(9) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 543.
(10) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (سعى).
(11) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 132.
(12) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140، والزحيلي، التفسير المنير: 27/ 130.

6) ﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾: من (نهي) وأصْله يَدُلُّ على غايَةٍ وبُلوغٍ، ومِنهُ أنهَيْتُ إلَيهِ الخَبَرَ: بَلَّغْتُهُ إيّاهُ، والنِّهايَة: غايَةُ كُلِّ شَيءٍ وآخِرُهُ، والمنتهى: مُفتَعَلٌ مِنَ النِّهايَة: الغايَةِ[1]، ومعنى ﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ في الآية، أي: انتهاءُ جميع الخلقِ ومرجعهم ومردِّهم ومصيرهم إلى الله، فيعاقب، ويثيب[2].

۞ المَعْنى الإجْماليّ:

يقول تعالى ذكره: أمْ لم يُخَبَّرْ هذا الذي رجعَ عن إسلامه - بضمان صاحبه له أنْ يتحمَّل عنه العذاب في الآخرة - بالذي في صحفِ موسى ﷺ وإبراهيم الذي وفَّى طاعةَ الله ورسالاته إلى خلقه، وبلَّغ ما أُمِرَ به، بأنَّه لا يُؤاخذُ أحدٌ بذنبِ أحد، ولا يُجازي عاملٌ إلّا بعمله، فلا يُحَصِّلُ مِنَ الأجْرِ إلّا ما كسبَ هو لنفسه، خيرًا كان ذلك أو شرًّا، وأنَّ عملَ كلِّ عاملٍ سوف يراه يومَ القيامة، ثم يثابُ بسعيه ذلك الثوابَ الأوفى، وأنَّ إلى ربِّك يا محمَّد انتهاءُ جميع خلقه ومرجعهم، وهو المجازي جميعهم بأعمالهم، صالحهم وطالحهم، ومحسنهم ومسيئهم، وأنَّ ربَّك خلقَ في عباده الضحك والبكاء وسببهما، فأضحكَ من شاء، وأبكى من شاء، وأنَّه هو أماتَ مَن ماتَ مِن خلقه، وهو أحيا مَن حَيا منهم[3].

تذكيرُ المعرض عن الحقِّ بما جاء في صحفِ إبراهيم وموسى ﷺ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الإضراب الانتقالي بـ﴿أَمۡ﴾:

﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ منقطعة بمعنى: بل وهمزة الاستفهام، أي: بل ألم ينبَّأ؟ أهو جاهلٌ لم يُخبَرْ ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾[4]، وهي لإضراب الانتقال إلى متعجِّبٍ منه

إضرابُ إنكارٍ وتعجُّبٍ من جهلِ المعرضِ بما جاء في صحف إبراهيم وموسى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نَهَيَ).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 547، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 115.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 543 - 548، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 465 - 466.
(4) ابن عادل، اللباب: 18/ 201، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.

وإنكار عليه آخر، وهو جهله بما عليه أنْ يعلمه الذين يخشون اللّه تعالى من علم ما جاء على ألسنة الرُّسل الأوَّلين، فإنْ كان هو لا يؤمنُ بمحمد ﷺ فهلّا تطلَّبَ ما أخبرتْ به رسلٌ من قبل، طالما ذكرَ هو وقومه أسماءهم وشرائعهم في الجملة[1].

بلاغة الاستفهام المقدَّر بعد ﴿أَمۡ﴾:

الاستفهامُ المُقَدَّرُ بَعدَ ﴿أَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ استفهامٌ إنكاري، مثل الاستفهام المذكور قبلها، في قوله: ﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾، والتَّقدير: (بل ألم ينبَّأ بما في صحف موسى)[2]، ويحملُ هذا الاستفهام الإنكارَ والتعجيب من جهل الذي تولّى بما جاء في صحف إبراهيم وموسى، وظنِّه الغبي بأنَّه يمكن لأحدٍ أن يتحمَّل عنه العذاب في الآخرة.

استـفـهامٌ يحملُ الإنكارَ والتَّعجيب من جهل المُعرض وغبائه

دلالة النفي بـ ﴿لَمۡ﴾:

﴿لَمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ حرفُ جزم ونفي دخلَ على الفعل المضارع ﴿يُنَبَّأۡ﴾، فنقله إلى معنى النفي في الماضي، وأفادَ النفيَ الجازمَ بأن يكون قد أُخبِرَ سابقًا بما في صحفِ موسى وإبراهيم عليهما السلام مع تأكيدِ التحقُّق، ممّا يعطي معنى الإنكار الشديد والتعجيب من جهل المخاطَب بما في هذه الصُّحف، وكأنَّه لم يُخبرْ بها أصلًا مع أنَّ ذلك معلومٌ لدى أهل العلم.

نفيٌ جازمٌ أفادَ زيادةَ التعجيب والإنكار

دلالة بناء الفعل ﴿يُنَبَّأۡ﴾ للمفعول:

عبَّر البيانُ الإلهي بصيغةِ المبني للمفعولِ ﴿يُنَبَّأۡ﴾؛ لأنَّ الأهمَّ هو التركيزُ على المضمون وإبرازُ عظمته، وهو العلمُ بما في صحف موسى وإبراهيم، ولأنَّ المقصودَ هنا ليس فاعلًا بعينه، وهو المبلِّغُ الذي نقلَ الخبر، بما يشعرُ باشتهار هذا المعنى حتى

اشتهارُ مضمون ما في الصحف مع إعراض المشركين يستلزمُ توبيخهم

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129.

لكأنَّ من المستحيل أو المتعسِّر حصر فاعليه، وهذا فيه زيادةُ توبيخٍ على إعراضهم.

معنى (الباء) ودلالتها:

تعاليمُ باقيةٌ لم تنفكَّ عن صحفِ إبراهيم وموسى

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ للإلصاق، والمعنى: أَمْ لم يُنبَّأ بالتعاليم الملتصقة التي لا تنفكُّ عن صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، بما يشيرُ إلى أنَّ هذه التعاليم ما زالتْ موجودةً إلى زمان النبي ﷺ، ومِنْ ثَمَّ المبالغة في توبيخِ المعرضين عن الحقِّ.

الغرض من التَّعبير بـ (ما) الموصولة:

إبهامٌ يفيدُ التَّفخيمَ والتَّشويقَ لما سيفصَّل بعدُ

(ما) في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ اسم موصول، والتَّقدير: أَمْ لم ينبَّأ بالَّذي في صحف موسى، والتَّعبيرُ بالموصول لقصدِ الإبهام؛ تفخيمًا لشأنها وتشويقًا لما فُصِّل بعد ذلك من قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ وما بعده من الأمور المذكورة.

معنى حرف الجر ﴿فِي﴾ ودلالته:

تعاليمُ ومواعظُ عظيمةٌ مستقرَّةٌ داخلَ هذه الصحف

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ يفيدُ الظَّرفيَّةَ الحقيقيَّة، والمعنى: أنَّ التعاليمَ والمواعظ - وهي ماذكرتها الآيات: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ - مستقرَّةٌ داخلَ هذه الصُّحف الَّتي أُنزلت على موسى وإبراهيم عليهما السلام.

الغرض من الإضافة، ودلالة جمعها:

إضافةُ بيانٍ تحملُ المزيدَ من الإنكار على جهلِ المخاطَب

إضافةُ ﴿صُحُفِ﴾ إلى ﴿مُوسَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ إضافةٌ بيانيَّةٌ، بيَّنت أنَّ هذه الصحف هي صحفُ موسى خاصَّة، وليست أيَّ صحف، وأنَّ الإنكارَ على المخاطَب لجهله بما صحف موسى المعروفة والمشهورة عندهم، والتَّعبيرُ بالجمع؛

لكونها صحفًا كثيرة لقوله تعالى: ﴿أَخَذَ ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ [الأعراف: 154]، وقوله: ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ [الأعراف: 150]، وكلُّ لوحٍ صحيفة[1].

سرُّ تخصيص هذه الصُّحف بالذِّكر:

الجهلُ بما جاء في صحفٍ قريبةٍ أفظعُ وأعجب

خَصَّ اللّهُ تعالى صحفَ إبراهيم وموسى - عليهما السلام - بالذِّكر؛ لأنَّ الرجلَ ما بعد نوح إلى زمن إبراهيمَ كان يُؤخَذُ بجريرةِ أخيه وابنه وأبيه، فأوَّل من خالفهم إبراهيمُ عليه السلام، وقرَّرَ ذلك موسى، ولم يأتِ قبله مقرِّرٌ مثله عليه السلام[2]، ولأنَّ شريعةَ إبراهيم كانت معروفةً عن العرب، ويسمّونها الحنيفيَّة، ويدَّعي المشركون أنَّهم على شريعة أبيهم إبراهيم، وكذلك أهلُ الكتاب كانوا يدَّعون أنَّهم متَّبعون ما في التوراة، والعربُ يخالطون اليهودَ، وصحفها قريبةُ العهد منهم، ومن عدا العرب وأهل الكتاب لا متمسِّكٌ لهم ولا سلفٌ في نبوَّة محقَّقةٍ ولا شريعةٍ محفوظة[3].

سرُّ تقديمِ صحف موسى على إبراهيم عليهما السلام:

صحفُ موسى عليه السلام أقربُ وأشهرُ وأكثرُ

قدَّم البيانُ القرآني هنا صحفَ موسى خلافًا للترتيب الزمني؛ لكون التوراة أعظمَ كتابٍ بعدَ القرآن، وهو موجودٌ بين الناس يمكنُ مراجعته[4]، فصحفُ إبراهيم كانت بعيدة، وكانت المواعظُ فيها غيرَ مشهورةٍ فيما بينهم، كصحف موسى التي هي أقربُ وأشهرُ وأكثر[5]، فقد اشتهرتْ بسعة ما فيها من الهدى والشريعة، وأمّا صحفُ إبراهيم؛ فكان المأثور منها أشياء قليلة، وقُدِّرت بعشر صحف، أي: مقدار عشر ورقات بالخط القديم، تسع الورقة قرابة

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 274.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 113، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 65.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 72، والهرري، حدائق الروح: 28/ 163، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 130.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 71.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 65، والزحيلي، التفسير المنير: 27/ 129.

أربع آيات من آي القرآن بحيث يكون مجموع ما في صحف إبراهيم مقدار أربعين آية[1].

توجيه المتشابه اللفظي بين تأخير صحف إبراهيم، وتقديمها:

من أسلوب القرآنِ الكريم وبلاغته مراعاةُ السّياق والمقام

في سورة النَّجم: ﴿أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾، قدَّم البيانُ الإلهي صحفَ موسى على صحف إبراهيم، بينما في سورة الأعلى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ١٩﴾ [الأعلى: 18 - 19]، قدَّم صحفَ إبراهيم عليه السلام؛ مراعاةً للسياق في السورتين، ففي (الأعلى) وقعتا بدلًا من الصحف الأولى، فقدَّم في الذِّكر أقدمهما، بينما في النَّجم أخَّرَ ذِكرَ صحف إبراهيم؛ ليقعَ ما بعدها - وهو قوله: ﴿ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾ - جامعًا لما احتوتْ عليه صحف إبراهيم من قوله: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124][2]، وأيضًا فإنَّ السياق في سورة الأعلى لمجرَّد الإخبار والإنذار، فذكرَ فيه على ترتيبِ الوجود صحف إبراهيم قبل صحف موسى في الإنزال، وأمّا في النَّجم؛ فالمقصود بيانُ انتفاءِ الأعذار، فإن كان الكلامُ مع أهل الكتاب؛ فقدَّم كتابهم، وإن كان الخطابُ عامًّا؛ فصحفُ موسى عليه السلام كانت كثيرةَ الوجود، وأشهرَ عندهم، فقدَّمها، وكذلك هو من باب الترقّي من الأقرب إلى الأبعد؛ لكون الأقرب أعرفَ، كما أنَّ موسى صاحبُ كتابٍ حقيقةً بخلاف إبراهيم عليهما السلام؛ إضافةً إلى مراعاة الفاصلة[3].

دلالة العطف بالواو في ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾:

توراةُ موسى عليه السلام مقرِّرةٌ لما جاء في صحف إبراهيم

عطفَ البيانُ القرآنيُّ (إبراهيم) على ﴿مُوسَىٰ﴾ بالواو في قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، والتقدير: (وبما في صحف إبراهيم) [4]،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 129 - 130.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 129 - 130.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 275، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 163.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.

بجامع أنَّ ما جاء من قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، وما بعده موجودٌ في صحفِ إبراهيم وموسى.

بلاغة الإيجاز بحذف الصحف مع إبراهيم عليه السلام:

إيجازٌ في التَّعبير وإلماحٌ إلى عدمِ شهرة صحف إبراهيم

المضافُ إلى إبراهيم عليه السلام، وهو ﴿صُحُفِ﴾ محذوفٌ، والتقدير: وبما في صحف إبراهيم[1]، بدليل مجيء ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ مجرورًا بالفتحة؛ لأنَّه ممنوعٌ من الصرف، وهذا الحذفُ للاختصار والإيجاز؛ لكونه معلومًا من السياق، وفيه أيضًا إلماحٌ إلى عدمِ شهرة صحف إبراهيم عليه السلام.

نكتة ذِكر الاسم العَلَم لموسى وإبراهيم عليهما السلام:

تصريحٌ يحملُ التشريف للصحف، والحجَّة على المشركين، والتعريض باليهود

في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾، صرَّح البيانُ القرآني بالاسم العَلَم لموسى وإبراهيم - عليهما السلام - لإفادة التعريف والتخصيص لهذه الصحف، وبيان علوِّ شأنها بإضافتها إلى موسى وإبراهيم - عليهما السلام - فكما أنَّ موسى وإبراهيم معروفان عند المشركين وعند أهل الكتاب، فينبغي أن تكون صحفهما وما ورد فيهما معروفةً؛ ممّا يجعل هذا حجَّة عليهم، وفيه توبيخٌ لجهلهم بما جاء فيها، وتعريضٌ بأهل الكتاب؛ لأنَّ ما يكذِّبونه ممّا جاء به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم موجودٌ في كتبهم، بالإضافة إلى أنَّه لم يجرِ لموسى وإبراهيم - عليهما السلام - ذكرٌ في الآيات التي سبقتْ هذه الآية حتى يأتي بضميرهما، فكان لابدَّ من التصريح باسمهما؛ ليحصلَ البيان.

الغرض من التعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

تشويقٌ إلى استحقاقِ إبراهيم عليه السلام بالمدح بالوفاء

في قوله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ عبَّر البيانُ القرآني بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾ في وصف إبراهيم عليه السلام ولم يقلْ: (وإبراهيم الموفّي)؛ للإيماء إلى سببِ استحقاقه الاختصاصَ بهذا الوصف

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.

ومدحه عليه، وهو الوفاءُ والتوفية، كما أنَّ في الموصول إبهامًا ينبِّه، ويشوِّق إلى الصلة بعده، وهو مبالغةُ إبراهيم ﵇ في الوفاء.

دلالة التعبير بالفعل الماضي المضعَّف ﴿وَفَّىٰٓ﴾:

تحقُّقُ الوفاء من إبراهيمَ وبلوغُهُ غايةَ الوفاء

في التَّعبير بالفعل الماضي ﴿وَفَّىٰٓ﴾ دلالةٌ على تحقُّقِ فعل الوفاء وتأكُّده ووقوعه من إبراهيم ﵇ وفي التعبير بالفعل مضعَّفًا؛ دلالةٌ على مبالغة إبراهيم في الوفاء بما عاهدَ اللّهَ عليه[1]، حتى بلغَ غاية الوفاء[2]؛ إذ التَّشديدُ يأتي للتكثير والمبالغة، فالتكثيرُ باعْتبار كثرة المَفعول، وهي الكثرة بحسَبِ الكمِّ، فهو وفَّى، وأتمَّ ما التزمه، أو أُمِر به، وإمّا باعتبار المُبالَغَة في الفعْل، وهي الكثرة بحسَبِ الكَيْف، أي: بالغَ في الوفاء[3].

الغرض من حذف متعلِّق ﴿وَفَّىٰٓ﴾:

وفـاءُ إبراهيـم ﵇ كـان عـامًّا وكثيرًا

حذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلِّق ﴿وَفَّىٰٓ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾؛ إفادةً للعموم[4] والكثرة؛ ليتناول كلَّ وفاءٍ وتوفية من إبراهيم ﵇ ويشملَ توفياتٍ كثيرة منها ما في قوله تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ﴾ [البقرة: 124]، وما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات: 105] وغيرها[5]، ونعم ما قيل هنا: ﴿وَفَّىٰٓ﴾ ببذلِ نفسه للنيران، وقلبه للرحمن، وولده للقربان، وماله للضيفان[6].

سرُّ تخصيص إبراهيم بهذا الوصف:

تـخـصـيـصُ إبراهيم بخُلُقِ الوفاء لاحتماله ما لـم يحتملْه غيره

خُصَّ إبراهيمُ ﵇ بقوله: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ﴾؛ لاحتماله ما لم يحتملْه غيره، كالصبر على نار نمرود، وعلى ذبح الولد، وعلى سعيه لإكرام الضيفان، أو الصوم، وعلى الهجرة، وعلى ترك أهله

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 161، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 71.
(3) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 295.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129 - 130.
(6) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 163.

وولده بوادٍ غير ذي زرع، ولكون وفاء إبراهيم موضع اتّفاق بين اليهود والمشركين والمسلمين، بينما كان المشركون يتوقَّفون في وصف موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]، ولكون وصف إبراهيم بذلك تسجيلًا على المشركين؛ بأنَّ إبراهيم بلَّغ ما أوحي إليه إلى قومه وذرّيَّته، ولكنَّ العرب أهملوا ذلك، واعتاضوا عن الحنيفية بالإشراك[2].

موقع قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ممّا قبله ودلالته:

استئنافٌ بياني أو تفسيرٌ لِما في الصحف

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ عمّا قبله؛ لكونه جملةً مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: ما في صحفهما؟ فأجيب: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾[3]، أو لكون قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ تفسيرًا لما في الصحف، أي: بدلًا عن (ما) في قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ﴾، وتقديره: أم لم ينبَّأ بألّا تزر وازرة وزر أخرى[4].

دلالة (أن) بين المخفَّفة والثَّقيلة والتَّفسيريّة:

بـدلٌ يفصِّلُ إجمال ما في الصحف أو يفسِّره

﴿أَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ عبارة عن (أنْ) و(لا)، ويحتملُ أنْ تكون (أنْ) مخفَّفة من الثقيلة، وتكون الجملةُ بدلًا مفصَّلًا من مجمل، وهو (ما) في قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، والتقدير: أم لم ينبَّأ بأنَّه لا تزرُ وازرة وزر أخرى، ويحتملُ أن تكون (أنْ) تفسيريَّة فسَّرتْ ما في صحفِ موسى وإبراهيم؛ لأنَّ ما في الصحف شيءٌ مكتوب، والكتابةُ فيها معنى القول دون حروفه، فصلح (ما في صحف موسى)؛ لأنْ تفسِّره (أنْ) التفسيرية[5].

دلالة النفي بـ (لا):

حمْلُ أحد عن أحدٍ أيَّ إثمٍ منتفٍ في الماضي والحال والمآل

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ النَّفي بحرفِ (لا) في قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 275، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 161، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 162.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129 - 130.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 161، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 65.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 275، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 72.

(5) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 163، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 129 - 130.

﴿وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾؛ لأنَّ من معاني (لا) أنَّها تخلِّصُ المضارعَ للمستقبل، فالنفيُ فيها أبلغ، ومن ثمَّ فانتفاءُ أنْ تحملَ نفسٌ عن نفسٍ أيَّ إثمٍ هو انتفاءٌ في الحال والمآل، وبما أنَّ هذا الحكم موجودٌ في صحف إبراهيم وموسى، أي: قبل وقوع الحادثة في زمن النبي ﷺ فإنَّ انتفاءَ أن يحملَ أحدُ المشركين عن الآخر أيَّ إثمٍ يشملُ قبل التَّولّي وبعده.

دلالة التعبير بالمضارع المنفي ﴿تَزِرُ﴾:

انتفاءُ حمْلِ أيِّ نفسٍ وِزرَ أخرى علـى الـــدوام والاستمرار

دلَّ صوغُ الفعل ﴿تَزِرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ بصيغة المضارع المنفي على استمرار هذا النفي وتجدُّده، أي: انتفاءُ حمْلِ أيِّ نفسٍ وزرَ أخرى على الدَّوام والاستمرار، وفي أيِّ وقت من الأوقات مهما امتدَّ الزمان.

الغرض من تنكير ﴿وَازِرَةٞ﴾ و﴿أُخۡرَىٰ﴾ وتأنيثهما:

لا تزرُ أيُّ نفسٍ وزرَ نفسٍ أخرى

تنكيرُ لفظ ﴿وَازِرَةٞ﴾ و﴿أُخۡرَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾؛ لإفادة العموم؛ لوقوعهما في سياق النفي، والمعنى: ألّا تزر أيُّ نفسٍ وزرَ أخرى[1]، فيشمل نفيَ ما زعمه الوليد بن المغيرة من تحمُّل الرجل عنه عذاب الله، وغيره[2]، وتأنيث ﴿وَازِرَةٞ﴾؛ لتأويلها: (نفس وازرة)، أي: مكلَّفة بالوزر، وكذلك تأنيثُ أخرى، والمعنى: لا تحملُ نفسٌ من شأنِها الحِملُ حِملَ نفسٍ أُخْرَى[3].

بلاغة التعبير بجناس الاشتقاق في ﴿تَزِرُ﴾، ﴿وَازِرَةٞ﴾، ﴿وِزۡرَ﴾:

جـمـالـيَّـةٌ في السمعِ وترسيخٌ لـلـمـعـنـى في الذهن

بين الألفاظ ﴿تَزِرُ﴾، ﴿وَازِرَةٞ﴾، ﴿وِزۡرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ إذ تكرَّرتِ المادةُ اللغوية (وزر)، بأشكالٍ مختلفة مع تنوُّع المعاني، فلفظُ ﴿تَزِرُ﴾ جاء فعلًا مضارعًا بمعنى (تحمل)، ولفظ ﴿وَازِرَةٞ﴾ أتى اسمَ فاعل بمعنى الحاملة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 72.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 131.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 163، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 131.

للوزر، ولفظ ﴿وِزۡرَ﴾ أتى مفعولًا به بمعنى الإثم أو الحمل الثقيل، وهذا التكرار يعطي جمالية في السمعِ، ويحقِّقُ عذوبةً وترنُّمًا، بما يحملُ السامعَ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وضوحًا، ويساعدُ على ترسُّخهِ في الذِّهن، ويؤكِّد أنَّه لا أحدَ يحملُ عن أحدٍ حمْلَه الثقيل.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾:

المسيءُ لا يجدُ بسببِ حسنةِ الآخر ثوابًا، ولا يتحمَّلُ عنه أحدٌ عقابًا

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ إمّا عطفٌ على قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ﴾؛ لأنَّ كلا الأمرين - وهما: عدمُ انتفاعِ الإنسانِ بعملِ غيرِه من حيثُ جلبُ النفعِ إليهِ، وعدم مؤاخذته بذنب غيره - ممّا في صحف إبراهيم وموسى[1]، أو عطفٌ على المجرور بالباء، أي: على قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، والمعنى: (أم لم ينبَّأ بما في صحف موسى، وبأنْ ليس للإنسان ما سعى)، وبهذا الجمع على الاحتمالين يظهرُ أنَّ المسيءَ لا يجدُ بسببِ حسنة الآخر ثوابًا، ولا يتحمَّلُ عنه أحدٌ عقابًا[2].

دلالة (أنْ) بين المخفَّفة والتفسيريَّة:

في المخفَّفة والتفسيريَّة تأكيدٌ للمعطوف عليه

(أنْ) في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ يحتملُ أنْ تكون المخفَّفة من الثَّقيلة، فتكون الجملةُ عطفًا على المجرور بالباء، أي: على قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾، ويحتملُ أن تكون (أنْ) تفسيريَّةً، فتكون عطفًا على ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾، وعلى كلا الاحتمالين تكون (أنْ) تأكيدًا لنظيرتها في المعطوف عليها[3].

سرُّ إيثار النفي بـ﴿لَّيۡسَ﴾:

نفيُ انتفاعِ الإنسانِ بعملِ غيرِه نفيٌ شاملٌ محقَّقٌ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التعبير بـ﴿لَّيۡسَ﴾ دون غيرها؛ لكونها تنفي الجنسَ كلَّه نفيًا مطلقًا، بينما الأدوات الأخرى قد تنفي الفعلَ أو

---

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 21/ 67، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 163، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 65.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 275، والبقاعي، نظم الدرر: 19/ 72.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 132.

الزمن فقط، كما أنَّ (ليس) تستعملُ مع الحقائق الثابتة، بينما (لا) أو (ما)، فتنفي الأفعالَ العابرة، ومِن ثمَّ فالنفي في الآية نفيٌ شاملٌ محقَّقٌ، بما يعني أنَّ السعيَ هو الطريق الوحيد لتحصيل المنفعة.

معنى اللام ودلالتها في: ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾:

لا ينتفعُ الإنسان، ولا يستحقُّ ثوابًا إلّا بسعيه

اللام في قوله: ﴿لِلْإِنسَٰنِ﴾ للملك والإيجاب، أي: لا يجبُ للإنسان إلّا ما سعى، ولا يستحقُّ إلّا ما عمل، فإذا تصدَّق عنه غيره، فليس يجبُ له شيء، إلّا أنَّ اللهَ ﷻ يتفضَّلُ عليه بما لا يجبُ له، كما يتفضَّل على الأطفال بإدخالهم الجنَّة بغير عمل[1]، فاللامُ هنا لعود المنافع، و(على) لعود المضارِّ، تقول: هذا له، وهذا عليه[2].

معنى اللام ودلالتها في: (الإنسان):

ليس لأيِّ إنسانٍ كائنًا من كان إلّا ما سعى

تعريفُ الإنسان في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ للجنس، ووقوعه في سياق النفي يفيدُ العموم، والمعنى: أيُّ إنسانٍ كائنًا من كان لا يختصُّ به إلّا ما سعاه[3]، أو أن تكون عهديَّة، أي: ليس الكافر، وأمّا المؤمن؛ فله سعيه، وما يسعى له غيره، كما ورد في الأحاديث، وقيل: ليس للكافر من الخير إلّا ما عمله يثابُ عليه في الدُّنيا حتّى لا يبقى له في الآخرة خير[4].

سرُّ التَّعبير بأسلوب القصر بطريق النفي والاستثناء:

لا سبيلَ لانتفاع الإنسان إلّا بعمل نفسه

أفادَ قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ الحصرَ؛ لاشتماله على النفي والاستثناء، فدلَّ على أنَّ الإنسان لا ينتفعُ إلّا بعمل نفسه، ولا يُجزى على عمله إلّا بقدرِ سعيه، ولا يزداد[5]، ولو قال: (ليس له ما لم يَسْعَ)؛ لكانت العبارةُ تنفي عنه فقط سعي غيره، ولا تثبتُ له

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 114.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 276.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 72، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 132.

(4) ابن عادل، اللباب: 18/ 206، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 132 - 133.

(5) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1881، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 167.

سعيه، بينما التَّعبيرُ بالنفي والاستثناء نفى عنه سعيَ غيره، وأثبتَ له سعيه[1]، وهذا أبلغ.

دلالة ﴿مَا﴾ بين الموصولة والمصدرية:

في الموصوليَّةِ مبالغةٌ في القصر، وفي المصدريَّةِ تأكيدٌ له

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ مصدرية، أي: ليس له إلّا سعيه، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾، أي: سوف يُرى المسعي، وتحتملُ أنْ تكون موصولة؛ للدَّلالة على العموم، بما يفيدُ المبالغةَ في الحصر، والمعنى: ليس له إلّا كلُّ ما سعى به، وفَعَلَه[2].

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿سَعَىٰ﴾:

زيادةُ الحثِّ على السعي في العمل الصالح

في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ عبَّر بصيغةِ الفعل الماضي - الدالِّ على تحقُّق الوقوع وتقرُّره - دون المستقبل؛ لزيادة الحثِّ على السعي في العمل الصالح[3]، بأنْ يقرِّر أنْ ليس له إلّا ما قد سعى، وحصلَ، وفرغَ منه، وفي ذلك قطعٌ لتسويلات الشَّيطان وعِداته[4].

بلاغةُ التعبير بالمجاز المرسل، والكناية:

في المجاز والكناية تتميمٌ واحتراسٌ

أصلُ لفظِ السعي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: المشي، فأطلقَ على العمل مجازًا مرسلًا على لفظ ﴿سَعَىٰ﴾، وكناية في جملة القصر، والمراد هنا عمَلُ الخيرِ، بقَرينةِ ذِكرِ لامِ الاختِصاص، وأنْ جُعِلَ مُقابِلًا لقوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾، والمعْنى: لا تَحصُلُ لأحدٍ فائدةُ عمَلٍ إلّا ما عمِلَه بنفْسِه من الأعمالِ الصّالحةِ، فلا يكونُ له عمَلُ غيرِه، وبهذا تكون الآية تتميمًا لقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾، واحتراسًا من أنْ يخطرَ بالبال أنَّ المدفوعَ عن غير فاعله هو الوزر، وأنَّ الخيرَ ينالُ غير فاعله[5].

(1) ابن عادل، اللباب: 18/ 209.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 276، والآلوسي، روح المعاني: 14/ 65.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 27/ 129.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 276.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 132.

دلالة العطف في: ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ﴾:

يجوز أنْ تكون جملة: ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ﴾ عطفًا على جملة: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾، فهي من تمام تفسير: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾، وقد تغيَّر الأسلوب بين الجملتين التَّركيبين؛ لاقتضاءِ المقام أن يقعَ الإخبار عن سعي الإنسان، بأنَّه يعلنُ به يوم القيامة - وذلك من توابع أنْ ليس للإنسان إلّا ما سعى - فلمّا كان لفظ ﴿سَعۡيَهُۥ﴾ صالحًا للوقوع اسمًا لحرف (أنَّ) زالَ مقتضى اجتلابِ ضمير الشَّأن، فزال مقتضى (أنْ) المخفَّفة[1].

سعيُ الإنسان سوف يُرى سواءٌ وردَ في الصحف أو لم يرِدْ

ويجوزُ أن تكون عطفًا على (ما) الموصولة من قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ٣٦ وَإِبۡرَٰهِيمَ﴾، فيكون معمولًا لباء الجرِّ، والتقدير: أمْ لم ينبَّأ بأنَّ سعيَ الإنسان سوف يُرى[2].

سرُّ التوكيد بـ(أنَّ):

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ رؤيةَ سعيِ الإنسان، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾، بحرف (أنَّ)؛ لإفادة تحقيقِ الخبر وتوكيده، وهو أنَّ سعيَ الإنسان لن يضيعَ، بل سوف يُرى، ويُجازى عليه؛ تأكيدًا للوعد الإلهي بذلك.

وعدٌ إلهي محقَّقٌ بأنَّ سعيَ الإنسان سوف يُرى، ويُجازى عليه

الغرض من التَّعبير بالمصدر مضافًا إلى الضمير:

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بالمصدر ﴿سَعۡيَهُۥ﴾؛ للدَّلالة على التأكيد والمبالغة التي يقتضيها التَّعبير بالمصدريَّة، فيشملُ كلَّ سعي فكري أو عقدي، فعلي أو قولي أو جسدي، خفي أو ظاهر دون تحديد زمان أو كيفيَّة، ممّا يجسِّدُ السعي ككيان مادي يُرى، وقد أضافه إلى الضمير العائد إلى الإنسان، أي: سعي الإنسان سوف يرى، وفي

تأكيدٌ ومبالغةٌ وإشعارٌ بالصِّلة الوثيقة بين السعي وصاحبه

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 138 - 139.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 138 - 139.

هذه الإضافة إشعارٌ بالصلة الوثيقة بين السعي وصاحبه، ممّا يعزِّز المعنى في الآية، وهو أنَّه ليس لأحدٍ غيرُ سَعْيه.

دلالة حرف الاستقبال ﴿سَوْفَ﴾:

رؤيــةُ سعـي الإنـسـان وعـدٌ مـؤكَّـدٌ واقـعٌ لا محالة

﴿سَوْفَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ حرفُ استقبال يفيدُ التَّحقُّق، والأكثر أنْ يرادَ به المستقبل البعيد[1]، والتعبير به؛ لإفادةِ أنَّ رؤيةَ سعي الإنسان وعدٌ مؤكَّدٌ لا خلفَ فيه، واقعٌ لا محالة، من غير شكٍّ، وإنْ طالَ المدى[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع المبني للمفعول ﴿يُرَىٰ﴾:

عـمـومُ الرّائين وكثرتهم أهـولُ وأخوفُ

جيء بالفعل ﴿يُرَىٰ﴾ بصيغة المضارع؛ لوقوعه مع ﴿سَوْفَ﴾، فالفعلُ سيقعُ في المستقبل، أي: يوم القيامة، وكان التَّعبير بصيغةِ المبني للمفعولِ؛ للتركيز على فعل الرؤية، ولإفادة عموم الرائين بما يشملُ رؤيةَ الملك سبحانه وجنوده، وهذا أخوفُ، ولإبهام الرائين وكثرتهم؛ لأنَّ الرائي كلَّما كان أكثرَ؛ كان الأمرُ أهولَ[3]، وفي هذا حثٌّ للمؤمن على العمل الصالح وتخويفٌ للكافر من العمل السيّئ.

بلاغة التَّعبير بـ ﴿يُرَىٰ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

رؤيـةُ الأعـمـال بإشهار السُّمعة تـشـريـفٌ لـلـمـحـسـنين وانـكـسـارٌ للمسيئين

الرؤيةُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ إمّا على الحقيقة، أي: إنَّ الإنسانَ يشاهد سعيه يوم القيامة حتى ينظرَ إليه، أي: يرى عمله في ميزانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ﴾ [الكهف: 49]، ويراه كذلك الملائكة وأهل الموقف، ويطَّلعون عليه، فيجوز أن تُجسَّم الأعمال، فتصير مشاهدة - وأمور الآخرة مخالفة لمعتاد أمور الدنيا[4] - ليكون تشريفًا للمحسن، وسرورًا له وتوبيخًا للمسيء

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 139.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 72.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 139.

وحزنًا له[1]، ويجوز أن تُجعل علامات على الأعمال يعلن بها عنها، كما في قوله تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ [التحريم: 8]، والتقدير: وأنَّ عنوان سعيه سوف يرى.

أو أنْ تكون الرؤيةُ مستعارةً للعلم لقصدِ تحقُّق العلم واشتهاره، بأنْ يكون ذلك بإشهار العمل والسعي، كما في قوله تعالى: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: 49] الآية، وحكمةُ ذلك تشريفُ المحسنين بحسن السُّمعة وانكسارُ المسيئين بسوء الأحدوثة[2].

دلالة العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

حصولُ الجزاء أهمُّ من إظهاره أو إظهارِ المجزي عنه

عطفَ البيان الإلهيُّ ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ﴾ على ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يدلُّ على التراخي الرتبي؛ لأنَّ حصولَ الجزاءِ أهمُّ من إظهاره أو إظهارِ المجزي عنه[3]، والتراخي يمكن أن يكون للجزاء، أو لتراخي الكلام، أي: ثم نقول: يجزاه[4].

دلالة التعبير بالمضارع المبني للمفعول ﴿يُجْزَىٰهُ﴾، وإسناده إلى الضمير:

المخوَّفُ منه المجازاةُ مطلقًا لا من مجازٍ معيَّن

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع المبني للمفعولِ ﴿يُجْزَىٰهُ﴾، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾؛ لإفادة تصويرِ الجزاء، وبناؤه للمفعول؛ للتركيز على الفعل وهو المجازاة، ولإفادة التخويف والتهويل؛ لأنَّ المخوَّف منه المجازاةُ مطلقًا لا من مُجازٍ معيَّن[5]، والضَّميرُ المرفوع في قوله: ﴿يُجْزَىٰهُ﴾ يعودُ على الإنسان، وضمير النصب عائدٌ إلى السعي ﴿سَعْيَهُۥ﴾، أي: يُجزى عليه، أو يُجزى به[6]، ويجوز أنْ يكون الضمير للجزاء، ثم فسَّره بقوله: ﴿ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾، أو أبدله عنه[7].

---

(1) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، ص: 1883.
(2) الواحدي، التفسير والوسيط: 21/ 69.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 277.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.
(6) ابن عادل، اللباب: 18/ 206، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140.
(7) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 106.

دلالة التعبير بـ﴿ٱلْجَزَآءَ﴾ معرَّفًا وإعرابه:

كلُّ إنسانٍ سيُجزى الجزاءَ الأوفر الكامل الأتمَّ من خيرٍ أو شرٍّ

اللامُ في قوله: ﴿ٱلْجَزَآءَ﴾ هي لامُ الكمال التي تفيدُ المبالغة، أي: "الجزاء الأوفر الكامل الأتم، إن خيرًا؛ فخير، وإن شرًّا؛ فشرٌّ"(1)، أي: إن كان خيرًا؛ فمع المضاعفة، وإنْ كان غيره؛ فعلى السواء لمن أراد اللّهُ ذلك له، ويعفو عن كثير(2)، وانتصبَ ﴿ٱلْجَزَآءَ﴾ على المفعول المطلق المبيِّن للنوع(3)، ويحتملُ أنْ يكون مفعولًا لـ﴿يُجْزَىٰهُ﴾، وليس بمصدر؛ لأنَّه وصفه بالأوفى، وذلك من صفة المُجزى به، لا من صفة الفعل(4).

سرُّ وصف ﴿ٱلْجَزَآءَ﴾ بـ﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾:

من فضلِ الله وعدله مضاعفةُ الجزاءِ للمطيعين والمجازاةُ بالمثل للعاصين

وصفَ البيانُ القرآنيُّ الجزاء بالأوفى، في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾؛ ليشيرَ إلى فضلِ اللّه وعدله سبحانه، فالأوفى هو الأوفر والأتمُّ الأكمل، فإنْ كان جزاءً على الخير؛ فمع المضاعفة، وإنْ كان جزاءً على الشَّرِّ؛ فعلى السواء، أي: جزاءُ سيِّئةٍ بمثلها(5)، ويعفو عن كثير، وفي هذا وعدٌ للمؤمنين ووعيدٌ للكافرين.

دلالة صوغ ﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ على هيئة (أفعل) التفضيل:

الجزاءُ على الفعل من حسنٍ أو سيّئٍ موافقٌ للمجزي عليه

﴿ٱلْأَوْفَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ اسمُ تفضيل من الوفاء، وهو التمامُ والكمال، والتفضيلُ مستعملٌ هنا في القوَّة، وليس المراد تفضيله على غيره، والمعنى: أنَّ الجزاءَ على الفعل من حَسَنٍ أو سَيِّئٍ موافقٌ للمجزي عليه(6).

دلالة العطف بـ(الواو):

الرُّجوعُ إلى الله أمرٌ مؤكَّدٌ سواءٌ ورد في الصحف أو لم يردْ

القولُ في موقع جملة: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾، كالقول في موقع جملة: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ سواء، فيجوز أنْ تكون هذه الجملة

---

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 168.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 168.

(4) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 106.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.

(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140.

معطوفة على جملة: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾، فتكون تتمَّةً لِما في صحف موسى وإبراهيم، ويكون الخطاب في قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ التفاتًا من الغيبة إلى الخطاب، والمخاطَبُ غير معيَّن، فكأنَّه قيل: وأنَّ إلى ربِّه المنتهى، ويجوز أنَّها ليست ممّا اشتملتْ عليه صحف موسى وإبراهيم، ويكون عطفها عطْفَ مفرد على مفرد، فيكون المصدر المنسبك من أنَّ ومعمولها مدخولًا للباء، والتقدير: أم لم ينبَّأ بأنَّ إلى ربِّك المنتهى، والخطابُ للنبي ﷺ[1].

سرُّ التوكيد بـ(أنَّ):

انتهاءُ الخلق إلى الله تعالى؛ ليجازيهم على أعمالهم أمرٌ ثابتٌ مؤكَّد

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ بحرف التوكيد: (أنَّ) وباسميَّة الجملة التي تَدلُّ على الثباتِ وقوَّةِ الحُكْمِ وبَقائِه، فانتهاءُ الخلق في رجوعهم إلى الله تعالى بعد الموت ليجازيهم على أعمالهم أمرٌ ثابتٌ مؤكَّدٌ، لا شكَّ فيه، وفي هذا التأكيد ردٌّ على المنكرين للبعث والجزاء، وفيه تهديدٌ بليغٌ للمسيء، بالإضافة إلى اطمئنان المؤمن بأنَّ عمله الخير لا يذهبُ سدى، بل يُجازى عليه، ومِن ثَمَّ فيه حثٌّ شديدٌ للمحسن، وأيضًا تسليةٌ لقلبه الشريف ﷺ.

معنى حرف الجر ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالته:

انتهاءُ جميع الخلق يومَ المعاد إلى الرَّبِّ سبحانه

﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ حرف جرٍّ، ومعناه في الآية: انتهاءُ الغاية الزمانيَّة والمكانيَّة، ومجيئه مع لفظ ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ أفادَ معنى الانتهاء في الرجوع إلى الله، أي: مرجع الأمور يوم المعاد إلى ربِّك لا إلى غيره.

الغرض من التَّعبير بلفظ الربوبيَّة مضافًا إلى الضمير:

في اختيار البيانِ القرآني التعبير بلفظ الربوبيَّة ﴿رَبِّكَ﴾، في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ إشعارٌ باللطف والإحسان والعطاء

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 140.

في الربوبيَّة إشعارٌ باللطف والإحسان، وفي الإضافة تشريفٌ وتسليةٌ

والرعاية والعناية، فاللّهُ المربّي لكلِّ مخلوق بعامِّ أفضاله وللنَّبي ﷺ بخاصِّ نعمه وأشرف نواله، وإضافة (رب) إلى الضمير إذا كان الخطابُ للنبي ﷺ تشريفٌ وتسليةٌ لقلبه الشريف، أي: إلى ربِّك يا محمد المحسن إليك المنتهى، فلا تحزن[1]، وإن كان الضميرُ عامًّا، تقديره: إلى ربِّك أيُّها السامع أو العاقل؛ فيكون تهديدًا بليغًا للمسيء، وحثًّا شديدًا للمحسن[2].

بلاغة التعريض في المتضايفين ﴿رَبِّكَ﴾:

تهديدٌ للمكذِّبين؛ لأنَّ شأنَ الرَّبِّ الدفاعُ عن مربوبه

في إضافة الربِّ إلى ضمير النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾؛ تعريضٌ بالتهديدِ لمكذبيه؛ لأنَّ شأنَ الربِّ الدفاعُ عن مربوبه، فربُّك هو ربُّ الأرباب ومسبِّب الأسباب[3]، وإنْ كان الخطابُ عامًّا تقديره إلى ربِّك أيها السامع أو العاقل؛ ففيه تهديدٌ بليغٌ للمسيء؛ لأنَّ مرجع الأمور يوم المعاد إلى اللّه، فيحاسبه على النقير والقطمير.

معنى اللام ودلالتها في: ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾:

إلى الله المرجعُ للحساب وإليه كلُّ منتهى سبحانه

لام ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ يحتملُ أنْ تكون عهديَّة؛ إذا كان المراد بالمنتهى المرجع إلى اللّه بالبعث حسًّا، والمعنى: وأنَّ إلى ربِّك المنتهى الموعود المذكور في القرآن وفي كلام النبي ﷺ ويحتملُ أنْ تكون جنسيَّة تفيدُ العموم، أي: إلى الربِّ كلُّ منتهًى[4]، ويحتملُ أن تكونَ عوضًا عن المضاف إليه، وهو الخلائق[5].

بلاغة التعبير بالمجاز في لفظ ﴿ٱلْمُنتَهَىٰ﴾:

أطلقَ البيانُ القرآنيُّ الانتهاءَ إلى اللّه في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 141.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 278، وابن عادل، اللباب: 18/ 210.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 141.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 279.
(5) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 298.

المنتهى إلى الله بالرجوع إليه يومَ القيامة أو إلى حكمه وأوامره ومعرفته في الدنيا

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾؛ مجازًا عن المرجعِ والمصير إلى الله سبحانه يومَ القيامة برجوع الخلائق حسًّا بالبعث، ومعنًى بالعمل والعلم، والوقوف بين يديه سبحانه للحساب والجزاء[1]، أو مجازًا عن الرجوع إلى حكمه المحضِ الذي لا تلابسهُ أحكامٌ هي في الظاهر من تصرُّفات المخلوقات ممّا هو شأنُ أمور الدنيا، فالكلام على حذف مضاف دلَّ عليه السياق، أو أنْ يكون المنتهى مجازًا عن انتهاءِ السير، بمعنى الوقوف؛ لأنَّ الوقوفَ انتهاءُ سير السائر، ويكون الوقوفُ تمثيلًا لحالِ المطيع لأمر الله تشبيهًا لأمر الله بالحدِّ الذي تُحدَّد به الحوائط، كما عبَّر عن هذا المعنى بالوقوف عند الحدِّ في قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾ [البقرة: 229]، والمعنى: التَّحذير من المخالفة لِما أمرَ اللّهُ، ونهى، أو مجازًا عن انتهاء دلالة الموجودات على وجود اللّه ووحدانيته، فاللّهُ هو المنتهى الذي ينتهي إليه استدلال العقل[2].

الغرض من تقديمِ شبهِ الجملة:

انتهاءُ جميع الخلق إليه سبحانه لا إلى غيره

قدَّم القرآنُ الخبرَ الجار والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ على ﴿ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾؛ لإفادة الاختصاص والقصر، أي: انتهاءُ الخلقِ في رجوعهم بعد الموت إلى ربِّك المحسن إليك لا إلى غيره لا استقلالًا، ولا اشتراكًا، فيجازيهم بأعمالهم؛ إذ لا إله إلّا هو[3]، كما أنَّ في التقديم مراعاةً للفاصلة القرآنية في الآيات.

دلالة العطف بالواو في: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ﴾:

انتقالٌ من الاعتبار بأحوال الآخرة إلى الاعتبار بأحوال الدنيا

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾، على جملة: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ وما قبلها، أي: وممّا في صحف

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 141.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 168.

موسى وإبراهيم أيضًا أنَّهُ - ﷻ - هوَ وحده أضحَكَ وأبكَى[1]، أو يكون في العطف انتقالٌ من الاعتبار بأحوال الآخرة إلى الاعتبار بأحوال الحياة الدنيا[2]، وتأكيدٌ على قدرةِ اللّه تعالى المتصرِّف في كلِّ شيء، فالمرجعُ والمصير إليه سبحانه وهو المتصرِّف في المشاعر من ضحكٍ وبكاء.

سرُّ التوكيد بـ(أنَّ)، وعود الضمير فيه ودلالته:

تأكيدُ أنَّ خالق قوَّتَي الضحك والبكاء هو الله تعالى

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ بحرف التوكيد: (أنَّ) الذي يدلُّ على قوَّةِ الحُكْمِ وثباته، وقطعِ أيِّ شكٍّ بقدرة اللّه تعالى ممّا يقوّي الإيمان بوحدانيته وتدبيره؛ لأنَّه لّما كانت التأثيرات الإدراكية تُحال على أسبابها[3]؛ أكَّد أنَّ الضحك والبكاء من الاختصاص الإلهي، وأنَّها حقيقةٌ مطلقة ثابتة، فالمضحكُ والمبكي هو اللّه تعالى المتصرِّف بمشاعر الإنسان، والضمير في (أنّه) يعودُ على لفظ ﴿رَبِّكَ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، فإسنادُ الإضحاك والإبكاء إلى اللّه تعالى؛ لأنَّه خالق قوَّتي الضحك والبكاء في الإنسان.

عود ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ ووجه التَّعبير به:

قصرُ صفةِ خلق أسباب الضحك والبكاء على الله تعالى

ضميرُ ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ عائدٌ إلى ﴿رَبِّكَ﴾، من قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾، وقد أفادَ ضميرُ الفصل قصرَ صفة خلقِ أسباب الضحك والبكاء على اللّه تعالى أي: هو وحده لا غيره أضحكَ، وأبكى، والقصرُ لدفع توهُّم أنَّ للمخلوق مدخلًا في الإضحاك والإبكاء؛ لإبطال الشَّريك في التَّصرُّف، فتبطل الشركة في الإلهية، وهو قصر إفراد؛ لأنَّ المقصود نفي

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 168.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 142.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 73.

تصرُّف غير اللّه تعالى، وإنْ كان هذا القصر بالنَّظر إلى نفس الأمر قصرًا حقيقيًّا لإبطال اعتقاد أنَّ الدهر متصرِّف[1].

دلالة التعبير بالفعلين الماضيين ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾:

الضحكُ والبكاء سنَّة إلهية ثابتة

جاء التعبيرُ بفعلي ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوع هذه الأفعال، فهي من الأفعال المحقَّقة التي خلقها اللّه، وخلقَ أسبابها وقوَّتها، ممّا يوحي بأنَّها سنَّةٌ إلهية ثابتة، فما يعمله الإنسان من ضحك وبكاء وغيره فبقضائه وخلقه، فهو خالقُ طبائع الموجودات التي تجلبُ أسباب الضحك والبكاء من سرورٍ وحزن[2].

علَّة تخصيص هذين الوصفين بالذِّكر ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾:

الضحكُ والبكاءُ من خواص الإنسان، ويدلّان على الصانع الحكيم

خصَّ البيانُ القرآني الضحكَ والبكاء بالذِّكر؛ لأنَّهما أمران من خواصِ الإنسان، ولا يُعلَّلان، فلا يقدرُ أحدٌ تعليلَ خاصيةِ الضحك والبكاء في الإنسان دون الحيوان[3]، وإذا لم يُعلَّلْ بأمرٍ لا بدَّ له من موجدٍ؛ فهو اللّه تعالى، بخلاف الصحة والسقم فيمكن تعليل سببهما باختلال المزاج وخروجه عن الاعتدال[4]، كما أنَّ ذكر الضحك والبكاء يفيدُ الإحاطة بأحوال الإنسان بإيجاز، ويرمز إلى أسباب الفرح والحزن، ويذكِّر بالصانع الحكيم، ويرشدُ إلى الإقبالِ على طاعته والتضرُّع إليه[5].

الغرض من الإسناد:

اللّه خالق قوَّتي الضحك والبكاء في الإنسان والقاضي بأسبابهما

إسنادُ الإضحاك والإبكاء إلى اللّه تعالى؛ لأنَّه خالق قوَّتي الضحك والبكاء في الإنسان، وذلك خلقٌ عجيب، وقضى أسباب الضحك والبكاء، فهو خالق طبائع الموجودات، التي تجلب أسباب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 74، وحاشية الصاوي على الجلالين، ص: 1883، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 142 - 143.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 107، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 143.
(3) الزحيلي، التفسير المنير: 27/ 131.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 279.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 142.

الضحك والبكاء من سرور وحزن[1]، أي: خلق ما يسرُّ من الأعمال الصالحة، وما يسوءُ، ويحزنُ من الأعمال السيئة، وهذا دليل القدرة الإلهية[2].

سرُّ تقديم (الإضحاك) على (الإبكاء):

في التقديم مزيد امتنان بفضل الله تعالى وقدرته ورحمته

قدَّم القرآن الضحك على البكاء في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾؛ مراعاةً للفاصلة القرآنية، ولأنَّ فيه امتنانًا بزيادة التَّنبيه على القدرة الإلهية[3]، والرحمة الربانية، فالله تعالى يبدأ بالنِّعمة قبل المحنة، كما أنَّ الضحك يناسب حال النَّعيم في الجنَّة، والبكاء يناسب حال أهل النار وعذابهم، والترغيب مقدَّم على الترهيب، ويبعث على التَّفاؤل، ويلائم الفطرة الإنسانية.

الغرض من حذف مفعولي ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾:

فِعْلا الإضحاك والإبكاء مسوقان لقدرة الله لا لبيان المقدور

حذفَ البيان الإلهي مفعول فعلَي ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾؛ لأنهما مسوقتان لقدرة الله لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول[4]؛ ولأنَّ القصد إلى الفعلين لا إلى مفعوليهما؛ فالفعلان منزَّلان منزلة اللازم، أي: أوجد الضحك والبكاء[5]، وفي حذف المفعول أيضًا تعدُّدٌ للمفعول وعمومه، ولهذا تعدَّدتْ أقوالُ العلماء في تقديره، فقالوا: أضحك الله أهل الجنة في الجنة، وأبكى أهل النار في النار، وقيل: أضحك من شاء في الدنيا، بأنْ سرَّه، وأبكى من شاء، بأنْ غمَّه، وقيل: أضحك قلوب المؤمنين والعارفين بشمس معرفته، وأبكى قلوب الكافرين والعاصين بظلمة نكرته ومعصيته، وقيل: أضحك الله المطيعين بالرَّحمة،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 116، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 143.
(2) الزحيلي، التفسير المنير: 27/ 131.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 143.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 279.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 143.

وأبكى العاصين بالسخط، وقيل: أضحك المؤمن في الآخرة، وأبكاه في الدنيا، وقيل: أضحك اللّه أسنانهم، وأبكى قلوبهم[1].

بلاغة التعبير بالطباق بين ﴿أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾:

في الاعتبار بخلق الشيء وضدِّه إشارةٌ إلى دقائق حكمة اللّه تعالى

في الآية محسِّن الطباق؛ إذ جمعَ البيانُ القرآني بين الضحك والبكاء، وهما ضدان، وفي الاعتبار بخلق الشيء وضدِّه إشارةٌ إلى دقائق حكمة اللّه تعالى[2]، وقدرته المطلقة على خلق المشاعر المتقابلة، وانفراده بالتصرُّف في مشاعر البشر.

بلاغة العطف بالواو في: ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾:

اعتبارٌ بانفراده سبحانه بالقدرة على الإماتة والإحياء، كما في الإضحاك والإبكاء

عَطَفَ البيانُ القرآنيُّ جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾، على جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾ وما قبلها من الجمل، أي: وممّا في صحف موسى وإبراهيم أيضًا أنَّهُ - سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ - هوَ وحده أمات وأحيا؛ إذ انتقلَ من الاعتبار بانفراد اللّه بالقدرة على إيجاد أسباب المسرَّة والحزن، وهما حالتان لا تخلو عن إحداهما نفس الإنسان، إلى العِبرة بانفراده تعالى بالقدرة على الإحياء والإماتة[3]، غير أنَّ اللّه تعالى في الأوَّل بيَّن خاصة النوع الذي هو أخصُّ من الجنس، فإنَّه أظهر وعن التعليل أبعد، ثم عطف عليه ما هو أعمُّ منه ودونه في البعد عن التعليل، وهي الإماتة والإحياء[4].

سرُّ التوكيد بـ(أنَّ)، وعود الضمير فيه:

التَّأكيدُ على أنَّ الإماتة والإحياء من الاختصاص الإلهي

أكّد البيان القرآني قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ بحرف التوكيد: (أنَّ)، الذي يدلُّ على قوّةِ الحُكْم وثباته، وقطع أي شكٍّ بقدرة اللّه تعالى، وبأنَّه هو المتصرف الوحيد لا شريك له؛ لأنَّه لمّا كانت الإماتة والإحياء أعظمَ تنافيًا بما مضى، فكانت القدرة على

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 117.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 143.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 144.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 279.

إيجادها في الشخص الواحد أعظمَ ما يكون، وكان ربَّما نُسب الموت إلى مَن قتل، ونسب الإحياء إلى من أطلق مَن وجب قتله[1]؛ جاء التأكيد على أنَّ الإماتة والإحياء من الاختصاص الإلهي، وأنَّها حقيقة مطلقة ثابتة، والضمير في (أنّه) يعود إلى ما عاد عليه الضمير في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾، فالجمل معطوفة على بعضها، أي: يعود على لفظ ﴿رَبِّكَ﴾، في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾.

دلالة التّعبير بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، في قوله: ﴿هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾:

قصر القدرة على الإحياء والإماتة على الله وحده ردًّا على المشركين

القول في ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾، كالقول في ضمير الفصل في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾، فقد أفاد القصر والاختصاص، أي: اللهُ لا غيره الذي له القدرة على الإحياء والإماتة، وجاء التأكيد بضمير القصر؛ ردًّا على أهل الجاهلية، الذين يسندون الإحياء والإماتة إلى الدهر، فقالوا: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24][2].

دلالة التعبير بالفعلين الماضيين ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾:

فعلا الإماتةِ والإحياء مقدَّران في علم الله وواقعان لا محالة

عبَّر البيان القرآني بفعلَي ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ بصيغة الماضي؛ للدلالة على تحقُّق وقوع هذه الأفعال، فهي من الأفعال المحقَّقة الوقوع، ممّا يوحي بأنَّها سنَّة إلهية ثابتة، فالإماتة والإحياء مقدَّران في علم الله، وواقعان لا محالة، وقد وقعتْ كثيرٌ من هذه الأفعال، وستقعُ في المستقبل، فيكون تنزيلًا لمنتظر الوقوع منزلةَ الوقوع، وكذلك تناسبًا مع فعلي أضحك، وأبكى بالماضي، وتناسبًا مع الفاصلة القرآنية.

براعة إنزال فعلي الإماتة والإحياء منزلة اللازم:

المقصود إظهارُ بديع القدرة الإلهية على الإماتة والإحياء

فعلا ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾ منزَّلان منزلةَ اللازم، كما تقدَّم في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ﴾؛ لأنَّ المقصودَ إظهارُ بديعِ القدرة على

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 74.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 74، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 144.

هذا الصُّنع الحكيم، مع التَّعريض بالاستدلال على كيفيَّة البعث وإمكانه، حيث أحاله المشركون، وشاهده في خلقِ أنفسهم[1].

سرُّ تقديم الإماتة على الإحياء:

العبرةُ بالإماتة أوضحُ وأدعى إلى حسن العمل

قدَّم البيان القرآني في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ الإماتةَ على الإحياء؛ لأنَّ الإماتة أدعى إلى حسن العمل[2]، ولأنَّ العبرةَ بالإماتة أوضحُ، والإلباس في الموت أكبر، وللرَّدِّ عليهم لقولهم: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، وكذلك لمراعاة الفاصلة القرآنية[3].

بلاغة التعبير بالطباق بين ﴿أَمَاتَ وَأَحۡيَا﴾:

في نسبة الإماتة والإحياء له سبحانه إثباتٌ لقدرته المطلقة

في الآية محسِّنُ الطباق؛ إذ جمعَ البيان القرآني بين الإماتة والإحياء، وهما ضدان[4]، وفي نسبة خلق الشَّيء وضدِّه إلى اللّه تعالى إثباتٌ لقدرته المطلقة سبحانه وتفرُّده بخلق الموت والحياة، ومن ثمَّ استحقاقه للعبادة، ونفي الشريك له.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنباء والإخبار:

ما في صحف موسى وإبراهيم أخبارٌ مهمَّةٌ عظيمةٌ صادقةٌ

النَّبأُ أخصُّ من الخبر؛ فالنَّبأ خبرٌ ذو فائدةٍ عظيمةٍ يحصلُ به علمٌ أو غَلَبَةُ ظنٍّ، ولا يُقالُ للخبر في الأصل: نَبَأٌ حتى يتضمَّنَ هذه الأشياء الثَّلاثة، وحقُّ الخبرِ - الذي يُقال فيه: نَبَأٌ - أنْ يتعرّى عن الكذب، كالتَّواتر، وخبرِ اللّه تعالى، وخبرِ النبي ﷺ، وسُمّي النبي؛ لكونه منبِّئًا بما تسكن إليه العقولُ الذَّكيَّة[5]، والنَّبأُ لا يكون إلّا للإخبار بما لا يعلمه المخبَر، ويجوز أن يكونَ الخَبر بما يعلمه، وبما لا يعلمه، والإنباءُ عَن الشَّيء أيضًا قد يكون بغير حمل النَّبأ عَنه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 144.
(2) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 299.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 74 - 75، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 144.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 144.
(5) الراغب، المفردات: (نبأ).

تَقول: هَذا الأمر ينبئُ بكَذا، ولا تَقول: يخبرُ بكَذا؛ لأنَّ الإخبار لا يكون إلّا بحمّل الخَبَر[1]، وقد ناسبَ هنا التَّعبير بالنَّبأ؛ لكون ما في صحف موسى وإبراهيم أخبارًا مهمَّةً عظيمة صادقة، لا يعلمها النَّبيُّ ﷺ لولا أن أخبره اللّهُ بها.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ٤٦﴾

[النجم: 45 - 46]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بيانُ كَيفيَّةِ ابتداءِ الحياةِ ممَّن أحيا سبحانه

لـمّا ذَكَرَ اللهُ الإحياءَ بقولِه: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ٤٤﴾ [النجم: 44]؛ أتبعهُ بذكر ما يختصُّ به سبحانه ولا ينازعه فيه أحدٌ، وهو تصنيفُ الولد إلى نوعيه ظاهرًا في اختصاصه سبحانه بل وهو في غايةِ التَّعذُّر على من سواه، فقال: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾، ثم ذكرَ ما يظهرُ، وهو الماءُ - ولا بد أنَّه من صنعه - فقال: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾[1]، أي: مناسبةُ الانتقالِ إلى هذه الجُملةِ أنَّ فيها كيفيَّةَ ابتداءِ الحياة[2].

❁ شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿نُّطۡفَةٍ﴾: (نطف) لها أصْلانِ، أحَدُهُما: جِنْسٌ مِنَ الحَلْيِ، والآخَرُ: نُدوَّةٌ وبَلَلٌ، ثُمَّ يُستَعارُ، ويُتَوسَّعُ فيه، ومن هذا الآخر: النُّطفَةُ: الماءُ الصّافي، ولَيلَةٌ نَطوفٌ: مَطَرَتْ حَتّى الصَّباحِ، والنِّطافُ: العَرَقُ، ثُمَّ يُستَعارُ هذا، فيُقالُ: النَّطَفُ: التَّلَطُّخُ، ولا يَكادُ يُقالُ إلّا في القَبيحِ والعَيْبِ، ويُقالُ: نَطِفَ الشَّيءُ: فسَدَ[3]، والنُّطفَةُ والنُّطافَةُ: القليلُ مِنَ الماءِ يَبْقى في القِرْبَةِ، وبهِ سُمّي المَنيُّ نُطفةً، ولم تَأْتِ في القُرآنِ الكَريمِ مِن هذا التَّرْكيبِ إلّا كَلِمَةُ (نُطْفَة) بهذا المعنى، وهو المعنى المقصودُ في الآيَةِ[4].

2) ﴿تُمۡنَىٰ﴾: أصل (مني) يَدُلُّ على تَقْديرِ شَيءٍ ونَفاذِ القَضاءِ بهِ، وماءُ الإنسانِ مَنيٌّ، أي: يُقَدَّرُ مِنْهُ خِلْقَتُهُ[5]، فالمَنيُّ: ماءُ الرَّجل،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 75.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 145.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نطف).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نطف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مني).

والمعنى المحوري: توقيتٌ لإمساكِ الباطن ما ينضمُّ عليه، فيخرجُ شيئًا بعد شيء، كالمَنيِّ يخرجُ دفْقًا (لا يتوقَّف؛ إذا بدأ، أو لأنَّ خروجه موقوتٌ بداعيه) [1]، ومعنى ﴿تُمْنَىٰ﴾ في الآية: تُدفَقُ، وتُصبُّ في الرحمِ، أو تُخلقُ، أو يقدَّرُ منها الولد[2].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

اللهُ خالقُ الأزواجَ من الإنسانِ خلقًا بديعًا من نطفة

إنَّه ابتدعَ إنشاءَ الزوجين الذكر والأنثى، وجعلهما زوجين؛ لأنَّ الذَّكرَ زوجُ الأنثى، والأنثى له زوجٌ، فهما زوجان، يكون كلُّ واحد منهما زوجًا للآخر، خلقَ ذلك من نطفةٍ تُمنى من الرجل والمرأة[3]؛ بأن تُدفقَ في الرحمِ أو تُخلقَ أو يُقدَّرَ منها الولد[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بالواو في ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ﴾:

وجوهٌ مختلفةٌ من التَّصرُّف الإلهي في الخلق تشكِّل لوحةً متكاملةً تبرزُ جوانبَ القدرة

عَطفَ البيانُ الحكيم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾، على قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾ [النجم: 44]، بجامعِ أنَّ كلًّا منهما آياتٌ دالَّةٌ على كمالِ قدرة اللّه تعالى، وانفراده بالعزة العظيمة، وتفضُّله على الخلق بنعمةِ الإحياء، والإماتة وإنشاءِ الزوجين الذكر والأنثى، وجعلهما زوجين، ولكنَّ هذه الآيات المتعاطفة كلها وجوهٌ مختلفةٌ من التصرُّف الإلهي في الخلق، وقد جمعها الواو في نسقٍ واحد، كأنَّها لوحةٌ متكاملةٌ تبرزُ جوانبَ القدرة.

بلاغة التوكيد بـ(أنَّ)، وعود الضمير فيه:

تقريرُ قدرةِ الله على الخلقِ البديع

التوكيدُ بـ(أنَّ) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾، يفيدُ تقريرَ أنَّ اللّهَ هو خالقُ الأزواج من الإنسان خلقًا

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (منى).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 164، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 170.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 548.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 164.

بديعًا من نطفةٍ، فيصيرُ إلى خصائص نوعه، وحسبك بنوع الإنسان تفكيرًا أو مقدرةً وعملًا، وهذا في سياق تعداد آيات اللّهِ الدالَّة على قدرته، وربوبيته ونعمه.

والضمير في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ﴾ يعودُ إلى اللّه سبحانه لكون السياق في الآيات يتحدَّثُ عن دلائلِ القدرة الإلهية: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [النجم: 43]، و﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحۡيَا ﴿٤٤﴾﴾ [النجم: 44]، والتعبيرُ به دون الاسم الظاهر يربطُ المعاني بسلاسة، ويحفظُ جمالَ الإيقاع دون إطنابٍ مملٍّ، ويمنحُ الكلامَ رهبةً وجلالًا.

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿خَلَقَ﴾:

مَنْ تحقَّقَ خَلقُه للذكرِ والأنثى أوَّل مرَّةٍ قادرٌ على النشأةِ الآخرة

التعبيرُ بالفعل الماضي في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ﴾ يدلُّ على أنَّ الخلقَ قد وقعَ فعلًا، فهو أمرٌ متحقَّقٌ لا شكَّ فيه، وفيه قطعٌ للجدالِ والشَّكِّ، فكون اللّه هو من أنشأ الذكرَ والأنثى حقيقةٌ ثابتة، فلو عبَّر بالمضارع؛ لأفاد أنَّ الخلقَ مستمرٌّ فقط، لكن لا يدلُّ بالضرورة على أنَّه أنشأهما أوَّل مرَّة، وفي هذا تلميحٌ مهمٌّ في الرَّدِّ على منكري البعث، فالذي خَلَقَ أوَّل مرَّة، قادرٌ على أن يُعيد الخلق.

علَّة العدول عن الإتيان بضمير الفصل (هو):

لا يُنازِعُ أحدٌ في أنَّ اللّه خالِقُ الخلْقِ ذكرًا وأنثى

لم يُؤتَ في هذه الجُملةِ بضَميرِ الفصْلِ (هو) - كما في اللَّتَينِ قبْلَها - لعدَمِ الدّاعي إلى القَصْرِ هنا؛ إذ لا يُنازِعُ أحدٌ في أنَّ اللّهَ خالِقُ الخلْقِ، وأنَّ تصنيفَ الولدِ إلى نوعيه ظاهرًا في اختصاصه، بل وهو في غايةِ التَّعذُّر على من سواه[1] بخلافِ الإحياء والإماتة؛ فقد ادَّعاه بعض الجهلة كالنمروذ، كما قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾ [البقرة: 258][2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 75.
(2) تفسير ابن عرفة: 4/ 104، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 147.

دلالة التعبير بلفظ ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ معرَّفًا:

خصوصيَّة الخلق الإنساني ذكرًا وأنثى في الاعتبار

عبَّرَ البيانُ الحكيم بلفظِ ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾ معرَّفًا؛ للإفادة بأنَّ المرادَ بالزَّوجين هما الذَّكر والأنثى من خصوصِ الإنسان؛ لأنَّ سياقَ الكلام للاعتبار ببديع صنعِ الله، وذلك أشدُّ اتِّفاقًا في خلقة الإنسان، ولأنَّ اعتبارَ الناس بما في أحوالِ أنفسهم أقربُ وأمكنُ، ولأنَّ بعضَ الأزواج من الذُّكور والإناث لا يتخلَّق من نطفةٍ، بل من بيض وغيره[1].

دلالة التعبير بلفظَي ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ معرَّفين والجمع بينهما:

الجمعُ بين جنسي الذَّكر والأنثى إظهارٌ للتَّكامل في الخلق الإنساني

عبَّر البيانُ الإلهي بلفظي: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾ معرَّفين بالألف واللام؛ لإفادة الاستغراق الجنسي، أي: إنَّ الآية تشيرُ إلى جنسِ الذكر والأنثى عمومًا، لا إلى فردٍ معيَّن، فالمعنى: أنَّ اللهَ خلقَ كلَّ مَن يندرجُ تحتَ نوعِ الذَّكر، وكلَّ من يندرجُ تحتَ نوع الأنثى، وأمّا الجمعُ بينهما؛ ففيه محسِّنُ الطباق؛ لِما بين الذكرِ والأنثى من شبهِ التَّضاد[2]، بما يُفيدُ أنَّ كِلا القُطبَين في الخلقِ الإنساني حاضرٌ ومقصودٌ، فلا يكتملُ النوعُ البشري إلّا بهما، ويفيدُ إبرازَ القدرة الإلهية في اختلاف المخلوقين من أصلٍ واحد.

بلاغة التعبير بالطباق:

امتنانٌ بأنَّ لكلِّ إنسانٍ زوجةً وأنَّ لكليهما حظًّا في خلقِ الولد بأمر الله

ذكرَ البيان القرآني: ﴿ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾، والبدلَ منه: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾؛ لأمرين: إدماج الامتِنانِ أثناء ذِكرِ الانفرادِ بالخلْق، بنِعمةِ أنَّه خلقَ لكلِّ إنسانٍ زوجةً، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ [الروم: 21]، والثّاني: الإشارة إلى أنَّ لكِلا الزَّوجَين حظًّا مِن النُّطفةِ الَّتي منها يُخلَقُ الإنسانُ، فكانتْ للذَّكرِ نُطفةٌ، وللمرأةِ نُطفةٌ، كما ورَدَ في الحديثِ الصَّحيحِ أنَّه

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 145.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 147.

«فَإذا سَبَقَ ماءُ الرَّجُلِ ماءَ المَرأةِ؛ نَزَعَ الوَلَدَ، وإذا سَبَقَ ماءُ المَرْأةِ ماءَ الرَّجُلِ؛ نَزَعَتِ الوَلَدَ» (1)، وبهذا يَظهَرُ أنَّ لكلٍّ مِن الذَّكَرِ والأُنثى نُطفةً، وإنْ كان المُتعارَفُ عندَ الناسِ قبْلَ القُرآنِ أنَّ النُّطفةَ هي ماءُ الرَّجلِ، إلّا أنَّ القرآنَ يُخاطِبُ النّاسَ بما يَفهَمون، ويُشيرُ إلى ما لا يَعلَمون إلى أنْ يَفهَمَه المُتدبِّرون(2)، وقد جاء أسلوب الطباق؛ بيانًا لنعمه بخلق الضدَّين، وتأكيدًا لأحديَّته سبحانه.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾:

بدايةُ خلقِ الإنسانِ منشؤه من نطفة

﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ﴾ ابتدائيَّةٌ؛ فإنَّ خلْقَ الإنسانِ آتٍ، وناشئٌ بواسِطةِ النُّطفةِ، فإذا تكوَّنَتِ النُّطفةُ، وأُمْنِيَت؛ ابتدَأ خلْقُ الإنسانِ(3)، بما يشيرُ إلى عظمةِ القدرة الإلهية بخلقِ هذا الكائنِ العاقل المدرك من مادة حقيرة، ضعيفة، لا شأنَ لها.

الغرض من تنكير: ﴿نُّطۡفَةٍ﴾:

من نطفةٍ مهينةٍ إلى خَلقٍ مُبهرٍ تَبرُزُ القدرةُ الإلهيَّةُ

النُّطْفَةُ: فُعْلَةٌ مشتقَّةٌ من: نَطَفَ الماءُ؛ إذا قطرَ، فالنُّطفةُ ماءٌ قليل، وقد نُكِّرتْ هنا، فلم تُعرَّفْ بلام التعريف (النطفة) أو الإضافة (نطفته)؛ للمبالغة في التَّحقير والتهوين والغموض، أي: إنَّ اللّهَ بدأ خلقَ الإنسان من شيءٍ قليل، صغيرٍ، حقيرٍ، مجهولِ الشأن، وهذا يُبرزُ القدرةَ الإلهيَّة على خلقِ هذا الخلقِ الإنسانيِّ العجيب من أهونِ شيء.

معنى ﴿إِذَا﴾ ودلالتها ﴿إِذَا تُمۡنَىٰ﴾:

عندَ اختلاطِ الماءَينِ يَبتدِئُ تَخلُّقُ النَّسلِ؛ إذا لم يَعُقْه عائقٌ

﴿إِذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ ظرفيةٌ شرطيةٌ غيرُ جازمة، وهي اسمُ زمان، وقد قيَّد بها البيانُ القرآني، فلم يقل: (من نطفةٍ تُمنى)؛ للإيذانِ بسرعةِ الخلقِ عندَ دَفْقِ النُّطفةِ في

(1) صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: كَيْفَ آخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ أَصْحابِهِ، رقم: (3938).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 145.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 146.

رَحِم المرأة، فإنَّه عندَ التِقاءِ النُّطفتَين يَبتدِئُ تخَلُّقُ النَّسلِ، فهذه إشارةٌ خَفيَّةٌ إلى أنَّ البويضةَ - الَّتي هي نُطفةُ المرأةِ - حاصِلةٌ في الرَّحم، فإذا أُمنيتْ عليها نطفةُ الذَّكَرِ؛ أخذتْ في التَّخلُّقِ؛ إذا لم يَعُقْها عائقٌ، ولِما في فعلِ ﴿تُمْنَىٰ﴾ من الإشارةِ إلى أنَّ النُّطفةَ تُقطَّرُ، وتُصَبُّ على شَيءٍ آخَرَ؛ لأنَّ الصَّبَّ يَقْتضي مَصبوبًا عليه، فيُشيرُ إلى أنَّ التَّخلُّقَ إنَّما يَحصُلُ من انصبابِ النُّطفةِ على أُخرى، فعندَ اختلاطِ الماءَينِ يَحصُلُ تَخلُّقُ النَّسلِ[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تُمۡنَىٰ﴾ مبنيًّا للمفعول:

تركيزٌ على الفعل الذي يُبرزُ القدرةَ الإلهيَّة في الخلق

جاء فعلُ الإمناء بصيغة المضارع ﴿تُمۡنَىٰ﴾، دون أنْ يُقال: (إذا مَنَتْ)؛ لإفادةِ استحضارِ الحدثِ وتجديده، فإمناءُ النطفةِ يتكرَّرُ باستمرار عبرَ الزمان والناس، ومِن ثَمَّ فإنَّ خلقَ الإنسان عمليةٌ جاريةٌ دائمة، وليستْ شيئًا مضى، وانتهى، وقد بُني الفعل ﴿تُمۡنَىٰ﴾ لما لم يسمَّ فاعله؛ للتركيز على الفعل - الذي يُبرزُ القدرةَ الإلهية في الخلق من هذا الشيء الحقير، وتعظيمه - لا الفاعل، وللإشارة إلى ضعف النطفة، فهي ضعيفةٌ، تُقذَفُ، لا تملكُ الفعلَ، بل يُفعَلُ بها، ولأنَّها تدفعها قوَّةٌ طبيعيةٌ في الجسم خفيةٌ، فكان فاعلُ الإمناء مجهولًا لعدم ظهوره[2].

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 146 - 147.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 146.

﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ٤٧ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ٤٨ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ٤٩﴾ [النجم: 47 - 49]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الإقـرارُ بالنشأة الأولـى إقـرارٌ بـالأخـرى، فاللهُ قـادرٌ على النشأتين

عَدَلَ البيانُ الحكيم من الانتقال من نعمةِ الخلق، بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ﴾، إلى نعمةِ الرزق، بقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾، رغمَ تناسبهما بكونهما امتنانًا واقتدارًا على طريقةٍ تشبهُ الاعتراضَ؛ ليُقْرَنَ بين البيانين ذِكْرُ قدرته على النشأتين[1]، أي: جعل ذِكْرُه للنشأة الأولى تَمهيدًا وتَوطئةً للنشاة الأُخرى[2]، فلمّا ساقَ اللّهُ ما سبقَ دَليلًا على إحاطةِ عِلْمِه، فلَزِمَها أنْ دَلَّتْ على تمام قُدرته، وخَتَمَها بالنَّشأةِ الأولى، فلَزِمَ من ذلك الإقرارُ حَتمًا بأنَّه قادرٌ على البَعثِ؛ عَبَّرَ بما يَقتَضي أنَّه لَمّا تقَدَّمَ به وعْدُه على جميع ألسِنَةِ رُسُلِه؛ صار واجبًا عليه، بمعنى أنَّه لا بُدَّ مِن كَونِه؛ لأنَّه لا يُبَدَّلُ القَولُ لَدَيه، لا غَيرُ ذلك[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾: الإنشاءُ: البدءُ، ومنه أنشَأ فلانٌ حديثًا، أي: ابتدأ حديثًا ورفعه، والأصلُ في معناه: الارتفاعُ، ومنه: أنشأه اللّهُ، بمعنى: رفعَه، وهو أيضًا إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه وإيجادُه[4]، والإنشاءُ: ابتداءُ الخَلْق، وكلُّ مَنِ ابتدأ خلْقَ شيءٍ، واخترعَه؛ فقد أنشأه، والإنشاءُ الاختراعيُّ غير المسبوقِ بمثالٍ لا يليقُ إلّا بالباري تعالى[5]، والمراد بالنشأة الأخرى هنا: الإحياءُ بعد الموتِ[6].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 147.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 145.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 75.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نشأ).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نشأ).
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 164، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 170.

2) ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾: أصلُ (أخر) خِلافُ التَّقدُّم، والآخِرُ: نَقيضُ المُتَقَدِّم، وتالٍ لِلأوَّلِ، والأُخُرُ نَقيضُ القُدُم[1]، والآخَرُ: بمعنى ثانٍ، ويُقالُ للمؤنث أُخرى[2]، والآخَرُ: أحدُ الشيئين، وهو بمعنى (غير)، كقولك: رجلٌ آخَر، إلّا أنَّ فيه معنى الصفة، فأصله أفعل من التأخُّر، والأنثى أُخْرى[3]، ومعنى الأخرى: التي لا نشأةَ بعدها، وهي مقابلُ النشأة الأولى[4].

3) ﴿أَغۡنَىٰ﴾: (غني) يَدُلُّ على الكِفايَةِ، والغِنَى في المالِ، يُقالُ: غَنيَ يَغْنَى غِنًى، والغَناءُ بفَتح الغَينِ مَعَ المَدِّ: الاستِغناءُ والكِفايةُ، يُقالُ: لا يُغني فُلانٌ غَناءَ فُلانٍ، أي: لا يَكْفي كِفايَتَهُ[5]، وغَنيَ القَومُ في دارِهِم: أقاموا، كَأَنَّهُمْ استغنَوا بها[6]، والغُنْيَةُ: اسمٌ من الاستِغناء عَن الشَّيْء[7]، والمغاني: المنازِلُ الَّتي يَقطُنُها أهلُها، واحِدُها مغنًى[8]، والغنى: التَّمكُّنُ من الانتفاع بما يحبُّ الانتفاع به، والمراد بقوله: ﴿أَغۡنَىٰ﴾ في الآية: أعطى ما به الغنى من شاءَ من عباده بالأموال[9].

4) ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾: (قني) يدلُّ على مُلازَمَةٍ ومُخالَطَةٍ، ومنه قَنَى الشَّيءَ، واقْتَناهُ: إذا كانَ ذَلِكَ مُعَدًّا لَهُ لا لِلتِّجارَةِ[10]، والاقتناءُ: أَخْذٌ في الحوزة دائمٌ، والمعنى في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ أعطاه ما يدَّخره بعد الكفاية، أي: ما يقتنيه، أي: أعطى ما فيه الغنى، وما فيه القِنْيَةُ، أي: المال المدَّخر، وقيل: ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾: أرضى، وتحقيقُ ذلك أنَّه جعل له قِنْيَةً من الرِّضا والطّاعة، وذلك أعظم الغناءين[11]، ويمكن أن يكون معنى أقنى: ضدَّ أغنى، أي: أفقرَ من شاء منها[12].

5) ﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾: نجمٌ أو كَوْكَبٌ، وهو الكوكبُ المضيء الذي يطلعُ بعد الجوزاء، ولعله

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أخر).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 294.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أخر).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 148.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (غني).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (غني).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(9) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 149، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 170.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قنا).
(11) الراغب، المفردات: (قنى).
(12) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 150، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 170.

سُمّي بذلك؛ لأنَّه مُعلَّمٌ بظهور ضوئه، فسطوعُ ضوءِ النجم يجعلُ له أشعَّةً كالشَّعَر[1]، والمعنى في الآية هنا موافقٌ للمعنى اللُّغوي، أي: النجمُ الذي يُسمّى هذا الاسم، وهو نجمٌ كان بعضُ أهل الجاهليَّة يعبده من دون اللّٰه، وهو من نجومِ برجِ الجوزاء شديد الضياء، ويُسمّى: كلبَ الجبار؛ لأنَّ برجَ الجوزاء يُسمّى الجبار عند العرب أيضًا، والشِّعْرَى: النجمُ الوقّاد الذي يتبعُ الجوزاء، وهو من البروج الربيعيَّة، أي: التي تكون مدَّةَ حلولِ الشمس فيها هي فصل الربيع[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تأكيدُ تحقُّق وعدِ اللّٰه بالإحياء بعد الموتِ

وأنَّ على ربِّك يا محمد - وفاءً بوعدِه - أن يخلقَ هذين الزوجين بعد مماتهم، وبلاهم في قبورهم الخلقَ الآخر، وذلك بإعادتهم أحياء خلقًا جديدًا، كما كانوا قبل مماتهم[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بالواو في قوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ﴾:

دلالـــةٌ على عجيبِ تكوينِ نسلِ الإنسان

رغمَ أنَّ ذِكْرَ البيانِ الحكيم للنشأة الأولى جاءَ تَمهيدًا، وتَوطئةً للنشاة الأُخرى، بما يقتضي أنْ يُقال: إنَّ عليه النشأةَ الأخرى، بدون عطف، وبكسر همزة (إن) إلّا أنَّه عدلَ إلى ذكر العاطف باعتبارِ استقلال جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾، بالدَّلالة على عجيبِ تكوينِ نسلِ الإنسان[4]؛ وذلك ليقرن بين البيانين القدرة على النشأتين، وأنَّه - سبحانه وحده - القادر على النشأتين.

بلاغة التوكيد بـ(أنَّ) وحرف الاستعلاء، وعود الضمير فيه:

أفادَ التأكيدُ بحرف (أنَّ)، والتعبير بحرفِ (على) الدال

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شعر).
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 550، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 150.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 548، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 164.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 145.

توثيقُ الوعدِ الإلهي، والتأكيدُ على أنَّ البعثَ أمرٌ مقطوعٌ به لا يحتملُ التَّردُّد

الاستعلاء، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ تَحقيق النشأة الأخرى، شبَّهَها بالحقِّ الواجبِ الذي لا يَتخلَّفُ، فكأنَّه حقٌّ واجبٌ؛ لأنَّ اللّهَ وعَدَ بحُصولِ ما اقتَضَتْه الحِكمةُ الإلهيَّةُ؛ لظُهورِ أنَّ اللّهَ لا يُكرِهُه شَيءٌ، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنعام: 12][1]، وهذا التأكيدُ الذي أفادَ التحقيق، هو ردٌّ لإنكارِ الكافرين للبعث[2].

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْهِ﴾ على اسم أنَّ ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾:

اهتمامٌ بتحقيقِ وعدِ الله بالبعثِ واختصاصه به

قدَّمَ البيانُ الحكيمُ الخبَرَ ﴿عَلَيْهِ﴾ على اسم (أنَّ)؛ للاهتِمام بالتَّحقيقِ الَّذي أفادَتْه (على)؛ تَنبيهًا على زيادةِ تَحقيقِه بعدَ أن حُقِّقَ بما في (أنَّ) مِن التَّوكيدِ[3]، ولإفادة الاختصاص، أي: إرادة الإحياء بعد الموت خاصٌّ باللّه علمًا وقدرة[4].

معنى اللام ودلالتها في: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾:

النشأة الأخرى هي الإحياء بعد الإماتة

النَّشأةُ: المرَّةُ من الإنشاءِ، أي: الإيجاد والخلْق، وآثر البيانُ الحكيم التَّعبير بها معرَّفةً بـ(الـ) العهدية؛ لإفادة أنَّها النشأة المعروفة المعهودة لدى المخاطَبين، وهي الإحياء بعد الإماتة.

سرُّ التقييد بالصفة: ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾:

الـنَّـشـأةُ بعد الموت للحساب لا نَشأةَ بعدَها

وصفَ البيانُ الحكيمُ ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ بـ﴿ٱلْأُخْرَىٰ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ هذه النَّشأةَ هي النشأةُ الَّتي لا نَشأةَ بعْدَها، وهي مُقابِلُ النَّشأةِ الأولى الَّتي يَتضمَّنُها قولُه تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾، وهذه المُقابَلةُ هي مُناسَبةُ ذِكْرِ هذه النَّشأةِ الأُخرى[5].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 148.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 75.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 148.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 75.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 148 - 149.

تنوُّع القراءات في ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ وثراء المعنى:

في مصدريَّة القراءتين تأكيدُ تحقُّق وعدِ الله بالنشأة الأخرى

قرأ الجمهورُ ﴿ٱلنَّشۡأَةَ﴾ بوزن الفَعلَةِ، وهو اسمُ مصدر (أنشأ)، وليس مصدرًا؛ إذ ليس (نَشَأ) المجرد بمتعدٍّ، وإنَّما يقال: أَنْشَأ، وقرأها ابن كثير وأبو عمرو ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾ بألفٍ بعد الشين المفتوحة[1]، بوزن الفَعالَةِ، وهو من أوزان المصادر، لكنَّه مقيسٌ في مصدر الفعل المضموم العين، في الماضي نحو الجزالة والفصاحة، ولذلك فالنشاءة بالمدِّ مصدرٌ سماعي مثل الكآبة، ولعل مَدها من قبيل الإشباع[2]، وفي مصدرية كلتا القراءتين تأكيد تحقُّق وعدِ اللّٰه بالنشأة الأخرى، أي: بالإحياء بعد الموتِ.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾:

في العطف تذكيرٌ وامتنانٌ وإظهارٌ للاقتدار

يجوزُ أن تكون جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ عطفًا على جملة: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ٣٨﴾ [النجم: 38]، فهي من تمامِ تفسير (بما في صحف موسى وإبراهيم)، ويجوز ألّا يكون مضمونها مشمولًا لما في صحف موسى وإبراهيم، وإنَّما هي معطوفة على قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾[3]، بجامع التناسبِ بينهما؛ إذ إنَّ كليهما يتضمَّنان الامتنان، وإظهار الاقتدار.

سرُّ التوكيد بـ(أنَّ)، وبيان عود الضمير فيه:

في التوكيدِ تنبيهُ النفوس وتربيتها على أن ترى اللهَ في كلِّ سبب

أكَّدَ البيانُ الحكيم قصْرَ صِفةِ الإغناءِ والإقناءِ على اللّٰه دونَ غيرِه؛ لذهولِ النّاس عن شُكرِ نِعمةِ اللّٰهِ تَعالى بإسنادِهم الإرزاقَ لوسائلِه العاديَّةِ من السعي وغيره[4]، فأراد اللّٰهُ بهذا التوكيد تنبيهَ النفوس وتربيتها على أنْ ترى في كلِّ سببٍ قدرة اللّٰه سبحانه.

(1) ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 343.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 149.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 150.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 76.

دلالة التَّعبير بضمير الفصل ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ﴾:

اللّهُ وحده هو الذي يُغني، ويُقني، فهو المصدرُ الوحيد للرزق الحقيقي

أتى البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾، بضَميرِ الفصْلِ (هو)؛ لقصْرِ صِفةِ الإغناءِ والإقناءِ عليه تَعالى دونَ غيرِه، وهو قصْرٌ ادِّعائيٌّ؛ لمُقابَلةِ ذُهولِ النّاسِ عن شُكرِ نِعمةِ اللّهِ تَعالى بإسنادِهم الإرزاقَ لوسائلِه العاديَّة، معَ عدَمِ التَّنبُّهِ إلى أنَّ اللّهَ أوجَدَ مَوادَّ الأرزاقِ وأسبابَها، وصرَفَ موانِعَها[1]، أي: "هو وحده من غير نظرٍ إلى سعي ساعٍ، ولا غيره"[2]، وفي هذا القصر إيقاظٌ لغفلة الإنسان، وردُّه إلى الاعترافِ بالفضل للّه وحده، لا للوسائل الظاهرة.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾:

الإغناءُ والإقناء فعلٌ إلهيٌّ قد تحقَّقَ، وما الأسبابُ إلّا وسائلُ

الفعل الماضي: ﴿أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾؛ يدلُّ على أنَّ الإغناءَ والإقناءَ حدثا بالفعل وتمّا، وليس ذلك مجرَّد وعدٍ أو احتمال، أي: إنَّ اللّهَ قد أغنى عباده بالفعل، وأرضاهم، أو زادهم ما يدخرونه، ومِن ثَمَّ جاء التأكيدُ على حقيقةِ النِّعمة، والفضل لا مجرَّد احتمالها، وفي هذا التعبير أيضًا بيانٌ أنَّ فعلَ الإغناءِ والأقناءِ ليس مرتبطًا بالأسباب فقط، بل هو فعلٌ إلهيٌّ قد تحقَّق، فالأسبابُ ما هي إلّا وسائل وضعها اللّه، وهو الذي يمنحُ الغنى الحقيقي.

دلالة العطف بالواو ﴿وَأَقۡنَىٰ﴾:

مِن كَمالِ فضله وسلطانه سبحانه أن شملَ كلَّ أحوال الرزق وألوانه

عطفَ القرآن (أقْنَى) على ﴿أَغۡنَىٰ﴾؛ لبيانِ أنَّه سبحانه أمكنَ من المال، وأرضى بجميع الأحوال، أو أغناه حتى أرضاه، فيكون زيادةً في الامتنان، باعتبار أقنى بمعنى أرضى[3]؛ لأنَّ الغنى في الحقيقة إنَّما هو غنى النفس، وهو رضاها بما قسمَ لها وسكونها وطمأنينتها، وإنَّما سُمّي ذو المال غنيًّا؛ لأنَّ المالَ بحيث تطمئنُّ معه النفس، فمَن

(1) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 27/ 150.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 76.

(3) ابن عاشور، التَّحريرُ والتَّنوير: 27/ 149.

كان راضيًا بكلِّ ما قسم اللّهُ به؛ فهو غنيٌّ، أو لبيان أنَّه سبحانه أعطى أصولَ المال، وما يدَّخر بعد الكفاية، باعتبار أقنى بمعنى جعل له قنية، أي: ممتلكات يدَّخرها، ويحتفظ بها[1]، أو لبيان أنَّه سبحانه بيده جميع أحوال الإنسان من الإغناء والإفقار، بما يدلُّ على عظيمِ سلطانه وقدرته.

سرُّ تقديمِ الغنى على القنى:

تنبيهٌ إلى أولوية رفعِ الحاجة والافتقار أوَّلًا على حفظِ المكتسبات وثباتها

تقديمُ الغنى على القنى هو تقديمُ الأصل على الفرع، وفيه تركيزٌ على أصلِ النعمة قبل فرعها، فالغنى: رفع الحاجة والفقر، وهو الأصلُ والأساس في النِّعمة، والقنى: إعطاءُ ما يقني الإنسان، ويستقرُّ به كالمال والممتلكات، واهتمامٌ بالأوسع والأشمل، وهو الإغناءُ عن الحاجة بكلِّ صورها، سواءٌ كانت مالية أم معنوية، والقنى يخصُّ جانبًا من جوانب الغنى، وهو الاحتفاظ بالموجود، كما أنَّه من باب تقديم السبب على المسبَّب؛ فرفْعُ الحاجة هو السبب الأوَّلي الذي يؤدّي إلى حفظِ المال والمكتسبات، أو هو من باب تقديم العطاء على المنع؛ تنبيهًا على سعة رحمة اللّه مع سلطانه.

الغرض من حذف مفعولي الفعلين:

الإغناءُ والإقناءُ مسوقان للتركيز على قدرة الله وعظيم فضله

حذفَ النظمُ الحكيم مفعول فعلي ﴿أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾؛ تركيزًا على الفعلين، لا إلى مفعوليهما، فالفعلان منزَّلان منزلةَ اللازم، أي: أوجدَ الإغناء والإقناء، فالفعلان مسوقان لقدرة اللّه وعظيم فضله لا لبيان المقدور، فلا حاجة إلى المفعول، فالغرض من حذفهما توفير العناية على إثبات الفعل.

بلاغة التعبير بالطِّباق بين ﴿أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾:

إظهارُ القدرة الإلهية الشاملة في الغنى والفقر والإعطاء والمنع

في الآية محسِّنُ الطباق؛ إذ جمعَ البيانُ القرآني بين الإغناء والإقناء، وهما ضدّان، باعتبار أنَّ الإقناءَ بمعنى الإفقار؛ رعيًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 76.

لنظائره التي زاوجت بين الضدين من قوله: ﴿أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣﴾ [النجم: 43]، و﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤﴾ [النجم: 44]، و﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾، والطباقُ هنا لإظهارِ القدرة الإلهية الشاملة في الغنى والفقر، والإعطاء والمنع، أو في جميع الأحوال التي يختارها اللّٰه.

دلالة العطف بالواو في ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾:

إنكار آخر على معتقدٍ باطلٍ للمشركين

جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾ لا يجوزُ اعتبارها معطوفةً على جملة: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝٣٨﴾ [النجم: 38]؛ إذ لا تصلحُ لأن تكون ممّا في صحف موسى وإبراهيم - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - لأنَّ الشِّعرى لم تُعبد في زمنِ إبراهيم، ولا في زمن موسى، فيتعيَّن أن تكون معطوفةً على (ما) الموصولة من قوله: ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [النجم: 36] [1]، والمعنى: أم لم يُنبَّأ بما في صحف موسى، وبأنَّ اللّٰه هو ربُّ الشِّعرى؟.

سرُّ التوكيد بـ(أنَّ)، وعود الضمير فيه:

في التوكيد قصرُ المربوبيَّة لله وحده

الضمير في ﴿وَأَنَّهُۥ﴾ يعود على اللّٰه سبحانه لدلالة السياق، والتوكيد بـ (أنَّ)؛ ليفيد يقينًا راسخًا بأنَّ اللّٰه تعالى هو ربُّ الشعرى، أي: تؤكِّدُ على قصرِ المربوبية للّٰه - وحده - والشِّعرى نجمٌ وقّادٌ مضيء اتَّخذته قبيلةُ خُزاعة ربًّا لها، سنَّ لهم ذلكَ أبو كبشةَ رجلٌ من أشرافِهم، وذلك لإثبات وحدانية اللّٰه تعالى عند خزاعة وعند قريش الذين ينكرون ذلك على خزاعة، ولكنهم ليسوا بأحسن حالًا، فقد اتَّخذوا معبودات أخرى كاللّاتِ والعُزَّى ومَناةَ.

دلالة التَّعبير بضمير الفصل ﴿هُوَ﴾:

في قصرِ مَربوبيَّةِ الشِّعرَى على اللهِ دلالةٌ على عجزها

الإتيانُ بضَميرِ الفصْلِ ﴿هُوَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ﴾، يُفيدُ قصْرَ مَربوبيَّةِ الشِّعرَى على اللّٰهِ تعالى[2]، وذلك كِنايةٌ عن كَونِه ربَّ ما يَعتقِدون أنَّه مِن تَصرُّفاتِ الشِّعرى، أي: هو

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 150.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 77.

ربُّ تلك الآثارِ ومُقدِّرُها، وليستِ الشِّعرى ربَّةَ تلك الآثارِ المُسنَدةِ إليها في مَزاعمِهم وأوهامهم، وهذا يحملُ دلالةً على عجزِ هذه الآلهة المزعومة، كما لا يُفهم أنَّ أسلوب القصر في الآية لقصْرِ كَونِ ربِّ الشِّعرى على اللّهِ تعالى دونَ غيرِه؛ لأنَّهم لم يَعتقِدوا أنَّ للشِّعرى ربًّا غيرَ اللّهِ، ضَرورة أنَّ منهم مَن يَزعُمُ أنَّ الشِّعرى ربَّةٌ مَعبودةٌ، ومنهم مَن يَعتقِدُ أنَّها تَتصرَّفُ بقطْعِ النَّظَرِ عن صِفتِها[1].

الغرض من الإضافة في ﴿رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾:

إثباتُ أنَّ الشعرى مَخلوقةٌ للهِ تعالى دليلٌ على إبطالِ إلهيَّتِها

عبَّر البيانُ الإلهيُّ بلفظ الربوبية مضافًا ﴿رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾؛ لإبطال مزاعم المشركين في ألوهيَّة الشعرى أو تأثيرها وإبطال عبادتها؛ لأنَّ الإضافةَ تفيدُ أنَّ اللّهَ مالكُها، وخالقُها، والمتصرِّفُ فيها، فهي مخلوقة مربوبة، خاضعةٌ للّه، لا تملكُ لنفسها نفعًا، ولا ضرًّا، فكيف تملكُ لغيرها؟ وإثباتُ أنَّها مَخلوقةٌ للّهِ تعالى دليلٌ على إبطالِ إلهيَّتِها[2]، أي: ليس لها من الآثارِ التي يسندونها إليها في مزاعمهم شيء، وإنَّما هي من خلقِ اللّه سبحانه.

معنى اللام ودلالتها في: ﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾:

إبطالُ ربوبية آلهةِ بعضهم إبطالٌ لكلِّ شرك

اللام في لفظ ﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ للعهد، ومعهودها ذهنيٌّ، فهي معهودةٌ عند المخاطَبين، فهي نجمٌ معروف ومُعظَّمٌ عند العرب، وكان مَحلًّا للعبادة والتقديس عند بعض القبائل كخزاعة، وهو من نجوم برج الجوزاء شديدِ الضياء، ويُسمّى: كلب الجبّار؛ لأنَّ برجَ الجوزاء يُسمّى الجبّار عند العرب أيضًا، وهذا النجمُ عبدته خزاعةُ، والذي سنَّ عبادته رجلٌ من سادة خزاعة يُكنّى أبا كبشة، وكانت قريش تدعو رسولَ اللّه ﷺ أبا كبشة؛ لمخالفته إيّاهم في عبادة الأصنام، وكانوا يصفونه بابن أبي كبشة، وقيل: لأنَّ أبا كبشة كان من أجداد

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 152.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 152.

النبي ﷺ من قِبَلِ أمِّه، يعرضون، أو يموِّهون على دهمائهم بأنَّه يدعو إلى عبادة الشعرى، يريدون التغطيةَ على الدعوة إلى توحيد اللّه تعالى[1].

فنُّ التنكيت في تخصيص ﴿ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ بالذكر دون غيرها:

إبـطـالُ عِـبـادةِ الـكـواكـبِ عقب إبـطـالِ إلـهـيَّـةِ الملائكةِ

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ مُحسِّنُ التَّنكيتِ؛ وهو أن يَقصِدَ المُتكلِّمُ إلى شَيءٍ بالذِّكرِ، دونَ غيرِه ممّا يسُدُّ مَسدَّه من أجْلِ نُكتةٍ في المَذكورِ تُرجِّحُ مَجيئَه على سواه، وقد خصَّ البيانُ الحكيم (الشِّعرى) بالذِّكرِ دون غيرِها من النُّجوم، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه ﷺ وإنْ وافَقَ أبا كَبْشَة في مخالِفةِ قُرَيش بتركِ عبادةِ الأوثانِ، خالَفَه أيضًا بتركِ عبادةِ الشِّعرَى، وذلك لأنَّ العرَبَ كان ظهَرَ فيهم رجلٌ يُعرَفُ بأبي كَبْشَةَ عبَدَ الشِّعرى، ودَعا خلْقًا إلى عِبادتِها[2]، أو لكون ذكرِ الشِّعرى جاء متناسبًا مع ما ذُكِر من معبوداتِ المنكرين لها من المشركين وهي اللّاتِ والعُزَّى ومَناةَ، وسمّوها بناتَ اللّه، وكلُّها مَعبوداتٌ وهْميَّةٌ لا مُسمَّياتٍ لها، كما قال تعالى: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ﴾ [النجم: 23]، أي: فلمّا تقدَّم ذكره هذه المعبودات، وأعْقَبَها بإبطالِ إلهيَّةِ الملائكةِ؛ أعقَبَ ذلك بإبطالِ عِبادةِ الكواكبِ، مع ما في لَفظِ الشِّعْرَى من مُناسَبةِ فواصلِ هذه السّورة[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 151.
(2) البيضاوي، مدارك التنزيل: 5/ 162.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 152.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢﴾ [النجم: 50 - 52]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تَهديدُ من عاينوا كمالِ عِلْمِه وشُمولِ قُدرتِه ثمَّ أصرّوا على التَّكذيب

لَمّا ذكر سبحانه في الآيات السابقة ما يدلُّ على كمالِ عِلْمِه وشُمولِ قُدرتِه بأُمورِ الخافِقَينِ العُلويِّ والسُّفليِّ، وكان ذلك داعيًا إلى الإقبالِ على ما يُرضيه، وناهيًا عن الإلمامِ بما يُسخِطُه؛ شَرَع في التَّهديدِ لِمَن وقَف عن ذلك، بما وقَع في مَصارِعِ الأوَّلينَ مِن عجائِبِ قُدرتِه، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾[1]، بعد أنِ استوفى البيانُ الحكيم ما يَستحِقُّه مَقامُ الرَّدِّ على باطلِ أهْلِ الشِّركِ من تَكذيبِهم النَّبيَّ ﷺ وطعْنِهم في القرآنِ، ومن عبادةِ الأصنامِ، وقولِهم في الملائكةِ، وفاسِدِ مُعتقَدِهم في أُمورِ الآخرةِ، وفي المُتصرِّفِ في الدُّنيا، وكان مُعظَمُ شأْنِهم في هذه الضَّلالاتِ شَبيهًا بشأْنِ أُمَمِ الشِّركِ البائدةِ؛ نقَلَ الكلامَ إلى تَهديدِهم بخَوفِ أن يَحُلَّ بهم ما حلَّ بتلك الأُمَمِ البائدةِ، فذَكَرَ من تلك الأُمَمِ أشهَرَها عندَ العربِ، وهمْ: عادٌ، وثَمودُ، وقومُ نوحٍ، وقومُ لوطٍ[2].

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾: الأوَّلُ مُفتتَحُ العَدَدِ، وهوَ الَّذي لَهُ ثانٍ، ويَكونُ بمَعْنَى الواحِدِ، ومِنهُ في صِفاتِ اللهِ تَعالَى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ [الحديد: 3]، أي: هوَ الواحِدُ الَّذي لا ثانيَ لَهُ[3]، والمقصود هنا بعادٍ الأولى: عادُ بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وهم الذين أهلكهم الله بريحٍ صرصر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 77.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 152.
(3) الفيومي، المصباح المنير: (أوّل).

عاتية[1]، ومعنى كونها أولى؛ لأنَّها أوَّلَ العرب ذِكرًا، وهم أوَّلُ العرب البائدة، وأوَّل أمَّة أهلكتْ بعد قوم نوح[2].

2) ﴿وَأَطۡغَىٰ﴾: تدلُّ على مَجاوَزة الحدِّ في العصيانِ[3]، والطُّغْيانُ: الاعتداءُ في حُدودِ الأشياءِ ومَقاديرِها[4]، فكلُّ شَيءٍ زادَ، وتَمادى؛ فقد طغَى[5]، ويَرِدُ الطُّغْيانُ في القرآنِ الكَريم على معانٍ أربعةٍ، وهي: الضَّلالُ، والعِصْيانُ، والارتِفاعُ والكَثْرَةُ، والظُّلْمُ، ولِكُلٍّ واحدٍ مِن هذه المعاني شواهدُ[6]، و﴿وَأَطۡغَىٰ﴾ هنا موافقٌ للمعنى اللغوي، أي: مجاوزةُ الحدِّ في العصيان والظلم، أي: أظلمَ، وأطغى من غيرهم، ومن قومك الذين كذَّبوك[7].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إهلاكُ عادٍ الأولى وثـمـودَ وقـوم نـوحٍ لظلمهم وطغيانهم

إنَّ اللّه أهلكَ عادَ بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وهم الذين أهلكهم اللّه بريحٍ صرصر عاتية، كما في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ﴾ [الفجر: 6 - 7]، وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦﴾ [الحاقة: 6]، وأهلك ثمودَ؛ فلم يُبْقها، فيتركها على طغيانها وتمرُّدها على ربِّها مقيمة، ولكنَّه عاقبها بكفرها وعتوِّها، فأهلكها، وأنَّه أهلكَ قومَ نوحٍ من قبل عاد وثمود، إنَّهم كانوا هم أشدَّ ظلمًا لأنفسهم، وأعظم كفرًا بربِّهم، وأشدَّ طغيانًا وتمرُّدًا على اللّه من الذين أهلكهم من بعد من الأمم، وكان طغيانهم الذي وصفهم اللّه به، وأنَّهم كانوا بذلك أكثر طغيانًا من غيرهم من الأمم[8].

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 551.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 153.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (طغى).
(5) الهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 4/ 1172.
(6) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 414 - 415.
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 153.
(8) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 553.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بالواو في ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ﴾:

جملة: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ معطوفةٌ بالواو على جملة: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾، بما يدلُّ على مُلكِ اللّه وسلطانه وقهره لعباده، وهذه الواو تحملُ مع العطف ربْطَ المعاني المتتابعة ضمنَ سلسلة من الحقائق والأفعال الإلهية في السورة، بما يُبرزُ وحدانيته سبحانه في جميع أفعاله، ممّا يزيدُ من وقعِ العِبرة على السامع.

ربْطُ المعاني المتتابعة التي تُبرزُ وحدانية الرَّبِّ القادرِ المنتقم في جميعِ أفعاله

دلالة التوكيد بـ(أنَّ)، وعود الضمير فيه:

الضَّمير في ﴿وَأَنَّهُۥٓ﴾ يعودُ على اسم الجلالة (اللّه)، واستعمالُ الضمير بدلًا من التصريح بالاسم الظاهر يجعلُ العبارةَ أكثرَ سلالةً في اللفظ، ويُبقي التَّركيزَ على الفعل بدلًا من التَّكرار، ويعطيه قوَّة؛ لأنَّ الضَّمائرَ أقوى المعارف، ويحقِّقُ التَّرابطَ المحكمَ والتناسبَ مع ما سبق من الأفعال الإلهية (أضحك، أبكى، أمات، أحيا، أغنى، أقنى)، كما أنَّ استعمالَ حرف (أنَّ)، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾، أفادَ التوكيد بأنَّ اللّهِ هو وحده الذي أهلكَ قومَ هود وقوم صالح وقوم لوط، وفي هذا التوكيد مزيدُ تهديدٍ للمشركين، الذين شابهتْ ضلالاتهم ضلالاتِ هذه الأقوام، وفيه ترسيخُ الإيمان بقدرة اللّه ووحدانيته في التصرُّف.

مزيدُ تهديدٍ للمشركين الذين شابهتْ ضلالاتهم ضلالاتِ الأممِ السابقة

سرُّ العدول عن ذكر ضمير الفصل (هو):

عَدَل البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾، عن ذكر ضمير الفصل (هو) بخلاف ما سبقَ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ﴾ [النجم: 43]، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ﴾ [النجم: 44]، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ﴾، ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾؛ لأنَّ إهلاكَ عادٍ ومَن ذُكِرَ لا يُمكِنُ أنْ يَدَّعيَ ذلك أحدٌ، ومِن ثَمَّ لم يُحتَجْ إلى تأكيدٍ، ولا تَنصيصٍ أنَّه

هلاكُ بعضِ الأقوامِ مَعلومٌ عند العرب لا يحتاجُ إلى مزيدِ تأكيد

تعالى هو فاعِلُ ذلك[1]، وأيضًا لكون هلاكِ هذه الأقوام مَعلومًا عند العرب، فلم يُحتجَّ إلى مزيدِ تأكيد[2].

دلالة التعبير بالماضي ﴿أَهۡلَكَ﴾:

بيانُ قدرة اللهِ على إهلاكِ الظّالمين تهديدٌ للمشركين

التَّعبيرُ بصيغةِ الفعل الماضي في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوع إهلاك اللّه لهذه الأقوام، وتأكُّد هذا الإهلاك، فقد مضى، وانقضى، وفي هذا بيانٌ لقدرة اللّه تعالى على إهلاك الظالمين، ومزيدُ تهديدٍ للمشركين، بأنَّهم لا يعجزون اللّه، فهو قادرٌ على إهلاكهم كما أهلك من قبلهم.

سرُّ تقديم ذكر عاد:

مراعاةُ سياق التَّخويف ومقتضى الحال

قدَّمَ النظمُ الحكيم في الآيةِ ذِكرَ عادٍ وثَمودَ على ذِكرِ قَومِ نوحٍ، مع أنَّ هؤلاء أسبَقُ؛ وذلك لِمُراعاةِ مقتضى الحال والنَّظم البلاغي الذي يراعي حالَ المخاطَبين، وهم العرب في المقام الأوَّل، فإنَّ عادًا وثمودَ أشهَرُ في العرَبِ، وأكثَرُ ذِكرًا بيْنَهم، وديارُهم في بلادِ العرَبِ[3]، ويمكن أنْ يكون التقديمُ من باب التَّدرُّج من الأقربِ؛ للأبعد في التَّأثير؛ مراعاةً لسياق التَّخويف والعِبرة، فبدأ بالأمم الأقرب إلى العرب مكانًا وزمانًا وذِكرًا وتأثيرًا، ثم انتقلَ إلى الأبعد، وهم قوم نوح.

سرُّ وصف عاد بالأولى:

في تهويل شأنِ عاد بيانٌ لعظيمِ قهره، وأنّه المتصرّف في جميع الأزمنة

﴿ٱلۡأُولَىٰ﴾ إمّا وصفٌ كاشفٌ، وليس وصفًا مقيَّدًا، أي: ليس هناك عاد أولى وعاد ثانية، بل هي واحدةٌ، لكنها عادٌ قديمة سابقة، ولهذا وصفها بأنَّها الأولى[4]، أي: لبيانِ تقدُّمهم لا لتمييزهم[5]، فهي أوَّل

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 26.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 153.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 153.

(4) ابن عثيمين، تفسير الحجرات - الحديد، ص: 251.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 283.

العرب ذكرًا، وهم أوَّل العرب البائدة، وهم أوَّل أمَّة أُهلِكت بعد قوم نوح، أو الأولى في مراتبِ الأمم قوَّة وسعةً وبطشًا[1]، حتى إنَّهم قالوا: مَن أشدُّ منا قوَّة، ومع ذلك أهلكهم بألطفِ الأشياء بريح صرصرٍ عاتية[2]، إذًا في الوصف بالأولى تهويلٌ لأمرهم فهم القدماء في الزمان جدًّا، ودلالةٌ على أنَّه المنصرف في جميع الأزمنة[3].

دلالة العطف بالواو في: ﴿وَثَمُودَاْ﴾:

تنوُّع إهلاكِ الله للظالمين إظهارٌ لعظيم قهره وتخويفٌ للمشركين

﴿وَثَمُودَاْ﴾ عطفٌ عَلى ﴿عَادًا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾؛ لأنَّ ما بعدَهُ، وهو فعل ﴿أَبۡقَىٰ﴾ لا يعملُ فيهِ، والعطفُ بالواو لاشتراك القومين في الإهلاك بالريح، ولكن إهلاكُ قوم هود عليه السلام بالرّيحِ الَّتي هي مَبدَأُ الأمطارِ الآتيةِ لهم في السَّحابِ، وإهلاكُ قوم صالح عليه السلام بالريح بحَمْلِها للصَّيحةِ وإرجافِها بهم[4]، وفي تنوُّع إهلاك الله لهم إشارةٌ إلى عظيم قهره، وتخويفٌ للمشركين من أن يحلَّ بهم ما حلَّ بأسلافهم.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾:

عدمُ بقاء أحدٍ من عاد وثمود نتيجة لإهلاكهم التام

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ سببيَّة، أي: سبَّبَ عن إهلاك عادٍ وثمود عدم بقاء أحد منهم[5]، أو فاء الفصيحة؛ لأنَّها تُفصح، وتكشف عن جملة مقدَّرة تدلُّ عليها القرينة قبلها، والتقدير: فأهلكهم إهلاكًا ما أبقى منهم أحدًا، أو ما أبقى لهم أثرًا.

دلالة النَّفي بـ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾، ودلالة التعبير بالماضي:

النفي بـ (ما) في قوله تعالى: ﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ نفيٌ مؤكَّدٌ؛ لأنَّه نفيٌ في الماضي والمستقبل؛ إذ إنَّ (ما) تُستخدم لنفي كلٍّ مِن الفعل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 153.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الحجرات - الحديد، ص: 252.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 78.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 78.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 78.

الماضي والمضارع على حدٍّ سواء، وقد جاءت هنا؛ لتنفي بقاء أحدٍ من عادٍ وثمود بعد إهلاك اللّه لهم.

الغرض من حذف مفعول ﴿أَبۡقَىٰ﴾:

عمومُ العذاب الذي حلَّ بعاد وثمود

حُذِفَ مفعول ﴿أَبۡقَىٰ﴾؛ اختصارًا؛ لدلالةِ ما قبله عليه، والتَّقدير: فما أبقى من قوم هود وقوم صالح أحدًا، ويؤيِّد هذا قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ٨﴾ [الحاقة: 8][1]، ولإفادة العموم، أي: فما أبقى أحدًا رجلًا أو امرأة أو كبيرًا أو صغيرًا، أو حجرًا أو شجرًا، ولمراعاة الفاصلة كذلك.

دلالة العطف بالواو في ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾:

العطفُ في سياق تعدادِ إهلاك المكذِّبين يثبِّتُ قوَّة الحجَّة، ويبرزُ عظمةَ العقاب الإلهي

﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾ معطوفٌ على ﴿عَادًا﴾، والمعنى: وأنَّه سبحانه أهلكَ قوم نوح عليه السلام من قَبۡل إهلاك عاد وثمود[2]، وذلك لأجلِ ظلمهم بالتَّكذيب، إلا أنَّ عادًا أُهلكوا بالرِّيحِ الَّتي هي مَبدَأُ الأمطارِ الآتيةِ لهم في السَّحاب، وقوم نوح أُهلكوا بالماء الَّذي هو غاية السَّحاب[3]، وقد جاء العطف هنا في سياق تعدادِ الأقوام التي أهلكها اللّه، بما يزيدُ من ثقلِ الحجَّة، ويبرزُ عظمةَ العقاب الإلهي.

الغرض من الإضافة في: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾:

في الإضافة تحديدٌ للهوية وتأكيدٌ لعظيم الجُرۡم

إضافةُ لفظ قوم إلى نوح في قوله: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾، إضافةُ تعريفٍ وتخصيص، أي: هم القوم الذين كانوا في عهدِ نوح وهم أهله وعشيرته، وقد أفادتۡ تحديدَ المراد بالقوم، وربطهم مباشرة بالنبي الذي أُرسل إليهم، بما كان يستدعي أن يحفظوا شرفَ هذه النسبة، وهذا يشيرُ إلى عظيم جرمهم.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾:

تحديدُ بداية العذاب في سياقِ هلاكِ الأمم

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ﴾؛ لابتداءِ الغاية

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 283.

(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 173.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 78.

الزمانية، فهي تدلُّ على أنَّ بدْءَ هلاكِ الأمم كان بـ(قوم نوح)، ثم تتابعَ بعده هلاكُ عاد وثمود وغيرهما، ولو عبَّر بالآيةِ دون لفظ ﴿مِّن﴾؛ لَما أفادَ هذا المعنى، وإنَّما أفادَ سبقَ العذاب فقط.

فائدة القيد ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾:

في أسبقيَّةِ قومِ نوحٍ في استحقاقِ الإهلاكِ دلالةٌ على عظيمِ طغيانهم

التَّعبيرُ بالقيد ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ﴾ يفيدُ أنَّ إهلاكَ قوم نوح كان في بعضِ الزمان الماضي، وهو قبلُ إهلاك الفريقين: عاد وثمود[1]، والمعنى: وأنَّه أهلكَ قوم نوح من قبل عاد وثمود[2]، وبيان أسبقيَّة قوم نوح في استحقاق الإهلاك يُفهمُ أنَّ طغيانهم وفسادهم كان أسبقَ وأعظم، ولذلك بُدِئَ بهم، وهذا يتناسبُ مع السياق الذي صرَّح بذلك.

دلالة فصل جملة: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ﴾:

إيذانٌ بعدم التَّفريق في العقاب بين قويٍّ وضعيفٍ أو بيانٌ لشدَّة طغيانهم

لم يعطفِ القرآنُ قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ على ما قبلها؛ لِما بين الجملتين من شبه كمالِ الاتِّصال؛ إذ جاءتِ الجملةُ تَعليلًا لجملة: ﴿أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ إلى آخرِها[3]، كما أنَّ في هذا التعليل ما يؤذِنُ أنَّهُ لا فرقَ عنده بين قويٍّ وضعيفٍ وقليلٍ وكثيرٍ[4]، وفي هذا مزيدُ تخويفٍ للمشركين وتهديد؛ فعلَّةُ الإهلاك فيهم متحقِّقةٌ، أو أنَّ الفصلَ بين الجملتين؛ لكون الآيةِ جملةً اعتراضيَّةً جاءتْ بيانًا لشدَّةِ طغيانهم وفرطِ ظلمهم؛ إذ لو كانتْ تعليلًا؛ لأورد على ذلك أنَّ غيرهم من الظالمين والطاغين لا يلزمُ أن يهلكوا[5].

بلاغة توالي المؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾:

مبالغةٌ في تأكيد كون عاد وثمود وقوم نوح أطغى وأظلم الناس

توالتِ المؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 79.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 553.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 154.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 79.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 6/ 212.

وهي: (إنَّ) التي تفيدُ توكيدَ النِّسبة بين المسندِ والمسندِ إليه، و(الجملةُ الاسميَّة) التي تفيدُ الثبوتَ وقوَّةَ الحُكْم وبقاءَهُ، وضميرُ الفصل ﴿هُمۡ﴾، وقد أفادتْ كلُّ هذه المؤكِّداتِ مجتمعةً المبالغةَ في تأكيدِ كون قوم هود وقوم صالح وقوم نوح أظلمَ وأطْغى مِن قَوم النبي ﷺ الَّذين كذَّبوه، وليس لتأكيد طغيانهم وظلمهم، فهو مشهورٌ، وإنَّما على كونهم أطغى[1]، بما يفيدُ تَسليةً وتعزيةً للنَّبيِّ ﷺ بأنَّ الرُّسلَ مِن قبْلِه لَقوا مِن أُمَمِهم أشدَّ ممّا لقيَه محمَّدٌ ﷺ[2]، وإيماءً إلى أنَّ اللّه مُبْقٍ على أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ فلا يُهلِكُها؛ لأنَّه قدَّرَ دُخولَ بقيَّتِها في الإسلامِ ثمَّ أبنائِها[3]، وتخويفًا للمشركين بأنَّ مَن أهلكَ من كان أقوى وأطغى لا يعجزهُ إهلاكهم.

دلالة التَّعبير بالفعل (كان) ماضيًا وواو الجماعة:

في الإخبار بتحقُّقِ ما وقعَ من إهلاكٍ للأمم السابقة تخويفٌ للمشركين

آثرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ فعلَ الكينونة الماضية، فلم يقل: (إنَّهم هم أظلم وأطغى)؛ للدَّلالة على المضي والانقضاء، أي: تجاوزهم في الظُّلم والطغيان هو حدثٌ تاريخي قد مضى، وانقضى، ووقع، وتحقَّق منهم، وتشيرُ صيغة الجمع إلى شموليَّة صفة التجاوز في الظُّلم والطُّغيان لكلِّ أفراد القوم، ولم تكنْ لبعض الأفراد فقط، وفي هذا زيادةُ تخويفٍ للمشركين من أن يحلَّ بهم ما حلَّ بمَن سبقهم.

دلالة التعبير بضمير الفصل ﴿هُمۡ﴾:

تأكيدُ أسبقيَّة المُهلَكين في الظُّلم والطغيان

﴿هُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ﴾ ضَميرُ فصْلٍ؛ لأنَّه واقعٌ بين معرفةٍ وأفعل التفضيل[4]، وهو لتَقويةِ الخبَر وتأكيده، أي: تأكيد كون هذه الأقوام التي أهلكها اللّه هي أطغى وأظلم من قريش[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 79.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 120.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 154.

(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 27.

(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 154.

سرُّ التعبير بصيغة التفضيل: ﴿أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ ودلالة العطف:

تـعـلـيـلٌ لاسـتـحـقـاق الـعـذاب، وتسليَةٌ للنبي ﷺ

صيغةُ أفعل التفضيل في ﴿أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ تُفيدُ أنَّ هؤلاء الأقوام المُهلكين ليسوا مجرَّد ظالمين وطغاة، بل هم الأشدُّ ظلمًا، والأبلغُ طغيانًا مقارنةً بغيرهم، وتُبرِّرُ سببَ وقوع الهلاك بهم أوَّلًا، وتسلّي عن النَّبي ﷺ؛ لأنَّها توضِّح أنَّ ما واجهه من قومه - رغم شدَّته - أقلُّ ممّا واجهه الرسل قبله، وعطفَ البيانُ الحكيم لفظ ﴿وَأَطۡغَىٰ﴾ على لفظ ﴿أَظۡلَمَ﴾؛ للإشارةِ إلى جمعِ هذه الأقوام - التي أهلكها اللّهُ - بين المجاوزة في الظُّلم الشديد، والطغيان البالغ في آنٍ معًا، فكانوا أفحشَ ظلمًا وأكثرَ طغيانًا، كما أنَّ الجمعَ بين أفعلَي التفضيل ﴿أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ بالواو يُضخِّم المعنى، ويوحي بأنَّهم جمعوا أقبحَ الصفات وأشدَّها، كما أنَّه يشيرُ إلى تنوُّع أسبابِ الهلاك، وهي الظُّلم والطُّغيان.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الظلم والطغيان والبغي والجور:

بـلـوغُ الأقـوام الـهـالـكـة غـايـةَ الظلم والإفراط ومـجـاوزتـهـم الحدَّ في المعصية والكفر

الظُّلمُ أعمُّ هذه الألفاظ؛ إذ هو وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعه تعدّيًا، وهو تجاوزٌ عن المستحقِّ بمنعه وانتقاصه[1]، فالظُّلمُ تتفاوتُ درجاته من صغائرِ الذُّنوبِ إلى كبائرها وصولًا للشركِ باللّهِ تعالى، بينما الطُّغيانُ هو أشدُّ هذه الألفاظ؛ لاشتماله على غايةِ الإفراطِ في المعصيةِ والكفرِ، ومجاوزةِ الحدِّ في المكروه مع غلبةٍ وقهرٍ، والغلوِّ في ذلك، فالطواغيتُ: هم رؤوسُ الضَّلالةِ؛ إذ أمروا النَّاسَ أن يعبدوهم من دونِ اللّه، وفي ذلك غايةُ مجاوزةِ الحدِّ[2]، وأمّا البغي؛ فيأتي بعد الطغيان في الشِّدَّة؛ لاشتماله على شدَّةِ الطَّلب في التعدّي وقصدِ الفسادِ والظلم، والتمادي في الشَّرِّ والكِبر معًا[3]، وأمّا

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظلم).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 230.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (بغي).

الجورُ؛ فهو عبارةٌ عن كلِّ ميلٍ وعدولٍ عن الحقِّ والعدل[1]، وقد جمعَ البيانُ القرآنيُّ هنا بين لفظي الظُّلم والطغيان؛ للمبالغة في بيانِ اتِّساع ظلم هؤلاء وعمومِ ظلمهم لكلِّ شيء، بدءًا من ظلم أنفسهم وقومهم ووصولًا إلى الشرك بالله، إضافةً إلى بلوغهم غايةَ الإفراط ومجاوزتهم الحدَّ في المعصية والكفر مع غلبةٍ وقهرٍ وكبر.

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، والزبيدي، تاج العروس: (جور).

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ [النجم: 53 - 54]

تتابعٌ في عرض عذاب الأمم الظالمة واستئصالها

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بعد أنْ ذكر الإهلاك الشديد لعادٍ الأولى وثمودَ وقوم نوح؛ أتبعه بذكر إهلاكه لقوم لوط عليه السلام بالائتفاك، فقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾: جذرُهُ اللُّغويُّ (أفك)، وأصله أنْ تَقْلِبَ الشَّيءَ، وتَصرِفَهُ إلى غير جِهَتِهِ، ويُؤْفَكون: يُصْرَفونَ عنه بالكذِبِ والباطِلِ[1]، وأكثرُ ما يُستعمَلُ في الكذب؛ "لأنَّ الكذبَ صَرْفُ الكلامِ عمّا ينبغي أن يكونَ عليه"[2]، وكلُّ ما ورَدَ في القرآنِ الكريمِ من اشتقاقاتِ هذه المادَّةِ اللُّغويَّةِ؛ فهو بمعنى التَّغيير، والصَّرفِ عنِ الوجهِ الصَّحيحِ الَّذي يَجِبُ أن يكونَ، مادّيًّا أو معنويًّا[3]، ومعنى ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾: قرى قوم لوط؛ سُمّيت بذلك؛ لأنَّها ائتفكتْ بأهلها، أي: انقلبتْ بهم[4].

2) ﴿أَهۡوَىٰ﴾: أصلُ (هوي) يَدُلُّ على خلوٍّ، وسقوط، أصلُهُ الهَواءُ بَينَ الأرضِ والسَّماءِ، سُمّيَ لِخُلُوِّهِ، ويُقالُ: هَوَى الشَّيءُ يَهوي: سَقَطَ، والهاوِيَةُ: جَهَنَّمُ؛ لأنَّ الكافِرَ يَهوي فيها، ويَقولونَ: الهَوِيُّ ذَهابٌ في انحِدارٍ، والهويّ في الارتِفاعِ، وسُمّيَ هَوى النَّفْسِ بذلِكَ؛ لأنَّه يَهْوي بصاحِبِه في الدُّنْيا إلى كُلِّ داهيَةٍ، وفي الآخرةِ إلى الهاويَةِ[5]، ومعنى ﴿أَهۡوَىٰ﴾ هنا: ألقى من علوٍّ، أي: رفعها في الجوِّ، ثم أسقطها في باطِنِ الأرضِ[6].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أفك).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (أفك).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أفك).
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 70، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 154.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة: (هوي).
(6) حاشيتا القونوي وابن التمجيد على تفسير البيضاوي: 18/ 303.

3) ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ - ﴿غَشَّىٰ﴾: أصلُ (غشى) يَدُلُّ على تَغْطيَةِ شَيءٍ بشَيءٍ، يُقالُ: غَشَّيْتُ الشَّيءَ أُغَشّيهِ[1]، ويُقال: غُشيَ عليه، فهو مغشيٌّ عليه، وهي الغَشْيَة[2]، والغِشاوَة: ما غَشيَ القَلبَ من رَيْنِ الطَّبْعِ[3]، وتَغَشَّى ثيابه واستغشاها: تَغَطَّى بها؛ كي لا يَرى، ولا يَسْمع: ﴿وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ﴾ [نوح: 7][4]، والغِشْيانُ - بالكَسْرِ - الإتيانُ، يُقالُ: غَشيَهُ؛ إذا أتاهُ، ثُمَّ كُنّيَ به عَنِ الجِماعِ كما بالإتيانِ، ومَن فسَّرَهُ بالتَّغطيَةِ، فقَد سَها[5]، ومعنى قوله: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾: غطّاها، وألبسها، وكساها، وأصابها أمرًا عظيمًا من حجارةٍ محماة، وغيرها ممّا لا يسعُ العقول وصفه[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كيفيَّةُ إهلاكِ قوم لوط عليه السلام

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾ يشير إلى أنَّ المخسوفَ بها، المقلوبَ أعلاها أسفلها، وهي قرية سَدوم قوم لوط، أهوى اللّهُ، فأمرَ جبريل عليه السلام، فرفعها من الأرضِ السابعة بجناحه، ثم أهواها مقلوبةً، فغشّى اللّهُ المؤتفكةَ من الحجارةِ المنضودة المسوَّمة ما غشاها، فأمطرها إيّاه من سجّيل[7].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في قوله: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾:

في اختلافِ العطف تنوُّعٌ لصورِ عذابِ قوم لوط

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ﴾ عاطفةٌ، و(المؤتفكة) معطوفة على ما قبلها من المفردات، فهي منصوبة عطفًا على

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (غشا).
(3) الخليل، العين: (غشو).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عشو).
(5) المطرزي، المغرب: (غشي).
(6) حاشية الصاوي على الجلالين، ص: 1884، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 155.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 555.

﴿عَادًا﴾، أي: وأنَّه أهلكَ عادًا وثمود وقوم نوح والمؤتفكة، و﴿أَهْوَىٰ﴾ جملة في موضع الحال، توضِّح كيفية إهلاكهم، أي: وإهلاكُ المؤتفكة مهويًّا لها، أو أن تكون جملة: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ معطوفة على جملة: ﴿أَهْلَكَ عَادًا﴾[1]، ومن ثمَّ فـ﴿أَهْوَىٰ﴾ ناصبٌ للمؤتفكةِ، وإنَّما أخَّرَ العاملَ لكونه فاصلة[2]، أي: أسقطها اللّهُ إلى الأرض مقلوبةً بعد أنْ رفعها على جناحِ جبريل إلى السماء[3]، وهذا العطفُ بيَّن عقوبات اللّهِ للأمم المجاوزة في الظلم والطغيان؛ تكثيفًا للحجَّة على قريش، وتخويفًا لهم من عقوبة الاستئصال، وفي اختلاف العطف تنوُّعٌ لصورِ عذاب قوم لوط.

معنى اللام ودلالتها في: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾:

في العهديَّةِ تحويلٌ من الوصف إلى عَلَمٍ على الهلاك

لام التعريف في ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾ عهديَّة، معهودها ذهني، فهي معروفة بأنَّها مدائنُ قوم لوط، ومشهورةٌ بهذه العقوبة، حتى صار اسمها عَلَمًا على الهلاك، وسُمّيتْ بذلك؛ لأنَّها ائتفكتْ بأهلها، أي: انقلبتْ بهم، ومنه الإفك؛ لأنَّه قلْبُ الحقِّ كذبًا، أفَكَهُ فأتفكَ، قيل: ويحتملُ أن يُراد بها كلُّ ما انقلبتْ مساكنه، ودُمِّرتْ أماكنه[4].

الغرض من حذف المضاف في ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ﴾:

في الحذفِ مزيدُ بلاغةٍ وتركيزٌ على الصفة لا الذات

الموصوفُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ محذوفٌ يدُلُّ عليه اشتقاقُ الوصفِ، والتَّقديرُ: القُرَى المُؤتفِكة، وهي قُرى قوم لوطٍ الأربعُ، وقد صار هذا الوصفُ غالبًا عليها بالغَلَبةِ، ويَجوزُ أنْ تكونَ المؤتفكةُ هنا وصْفًا للأُمَّةِ، أي: لأُمَّةِ لوطٍ؛ ليكونَ نَظيرًا لذِكْرِ عادٍ وثَمودَ وقومِ نوحٍ[5]، والحذفُ عندما يكون الموصوف معروفًا مشهورًا

(1) درويش، إعراب القرآن: 9/ 368.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 28.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 174.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 28.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 154.

في أذهان السامعين أبلغُ؛ لكونه يتناسبُ مع السياق القرآني الموجزِ والمهيب، وفيه تركيزٌ على الصفة لا الذاتِ، وهي عقوبة الائتفاك.

تخصيصٌ لقرى لوط بالائتفاك واهتمامٌ بعبرة ذلك

الغرض من تقديم المفعول ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ على الفعل:

قدَّم البيانُ القرآنيُّ المفعولَ به ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾، على الفعل ﴿أَهۡوَىٰ﴾؛ للاهتِمامِ بعِبرةِ انقلابها[1]، وللإعلام بتخصيصها بما ذكرَ من العذاب، وهو ائتفاكها بأهلها، بما يفيدُ أنَّه تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، فلم يعذِّبْ فرقةً بما عذَّب به الأخرى[2]، ولمراعاة الفاصلة في الآيات[3].

تعبيرٌ يفيدُ شدَّةَ إهلاكِ الله لقومِ لوطٍ وتحقُّقه

دلالة التعبير بـ﴿أَهۡوَىٰ﴾ مادة وصيغة:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالفعلِ ﴿أَهۡوَىٰ﴾، ولم يقل: (أسقط، أوقع...)؛ مراعاةً للمقام والسياق، فهي قرى تستحقُّ أشدَّ العذاب، وإهلاكها كان شديدًا؛ إذ فتقها من الأرض، ثم دفعها في الهواء إلى عنانِ السَّماء، ثم قلبها، وأتبعها حجارة النار الكبريتية وغمرها بالماء، وهذا لا يُناسبه لفظ أسقطَ، أو أوقع؛ لأنَّهما لا يُشترط فيهما السقوط من علوٍّ، بخلاف لفظ ﴿أَهۡوَىٰ﴾، فهو الطرحُ من هواءٍ عالٍ إلى أسفَلَ، فالهاء والواو والياء أصلٌ يدُلُّ على خُلوٍّ وسُقوطٍ، وأصلهُ الهَواءُ بين الأرضِ والسَّماء، سُمّيَ لِخُلوِّهِ، والهَويُّ ذَهابٌ في انحِدارٍ[4].

ومجيء ﴿أَهۡوَىٰ﴾ بصيغة الماضي على وزن أفعل، وهي صيغة ماضٍ قويُّ الحركة؛ للدَّلالة على تحقُّق الإهواء وعلى سرعته العنيفة، ولمراعاة التناسب مع ما سبق من التعبير بالماضي (﴿أَهۡلَكَ﴾، ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾، ﴿غَشَّىٰ﴾) بما يحقِّق نسقًا لغويًّا واحدًا، ولربط هذا الحدث بسُنَن اللّه في التاريخ، بأنَّ من كذَّب الرسل؛ أهلكه اللّه،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 155.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 79.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 28.

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هَوِيَ).

وهذا مهمٌّ في سياقِ السورة التي تخاطبُ كفارَ قريش بالتذكير بهلاك من سبقهم.

معنى الفاء ودلالتها ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ حرفُ عطف، فيه معنى السَّببيَّةِ والتَّعقيبِ، أي: إنَّ ما غطّاها به من الحجارة والماء كان نتيجةً عن الإهواء وعقبه(1)، وهذا يوحي بشدَّة العقوبة وهولها وسرعةِ حلولها بعد الإهلاك، وكأنَّ الجزاء تتابع بلا مهلة.

في التعقيب والسببية دلالةٌ على شدَّة العقوبة وهولها وسرعةِ حلولها بعد الإهلاك

دلالة التعبير بالماضي المضعَّف ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ وعود الضمير فيه:

تضعيفُ فعل ﴿فَغَشَّىٰهَا﴾، في قوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾؛ إن قلنا: للتعديةِ، فإنَّ قوله: ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ مفعولًا ثانيًا، والمعنى: ألبسَ اللّٰهُ سبحانه المؤتفكةَ ما ألبسها إيّاه من العذاب كالحجارة المنضودة المسوَّمة(2)، وإن قُلْنا: إنَّه للمبالغةِ والتكثيرِ، فتكونُ ﴿مَا﴾ فاعلةً كقولِه: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ۝٧٨﴾ [طه: 78](3)، والتعبير بصيغة الماضي؛ لإفادة تحقُّق فعلِ التغشية على المُهلكين، بما يحمله من فنونِ العذاب والحجارة التي وقعتْ عليهم.

تحقُّقُ التصاقِ لباس العذاب وشموله بقوم لوط وتحقُّق كثرته وشدَّته

الغرض من التعبير بالموصول ﴿مَا﴾ وتكرار ﴿غَشَّىٰ﴾:

آثر البيانُ القرآنيُّ استعمالَ الاسم الموصول ﴿مَا﴾، في قوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾، فلم يقلْ: فغشاها بالحجارة أو بالماء؛ لإفادةِ عموم ما غطاها بعد انقلابها وهويّها، من حجارة النار الكبريتية وغمرها بالماء، الذي لا يشبههُ شيءٌ من مياهِ الدنيا، أو غير ذلك ممّا لا يعلمه إلّا اللّه، ولإفادة التَّهويل من خلال الإبهام(4)، ومن خلال مجيء صلة الاسم الموصول من مادَّةِ الفِعلِ وصيغتِه الَّتي

في الموصوليَّة بيانٌ لعموم ما غشّى قرى لوطٍ وهوله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 80، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 155.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 80.
(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 114، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 174.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 114.

أُسنِدَ إليها غَشَّى، وهو لا يُفيدُ خَبرًا جديدًا زائدًا على مُفادِ الفِعلِ، وإنَّما يُقصدُ منه التَّهويل، وكأنَّ المتكلِّمَ أرادَ أن يُبيِّنَ بالمَوصولِ والصِّلةِ وصْفَ فاعِلِ الفِعلِ، فلمْ يَجِدْ لبَيانِه أكثَرَ مِن إعادةِ الفِعلِ؛ إذ لا يُستطاعُ وصْفُه لهوله[1]، فهو أمرٌ عظيمٌ من الحجارة وغيرها، لا يسع العقولُ وصفه[2].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 155.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 80.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ [النجم: 55]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد ذكر النِّعم الـدّالّـة على كمالِ قدرة الله لا تشكيكَ فيما حكمَ به اللهُ

لَمّا أهلكَ اللّهُ الأقوامَ السابقة، فلم يبقَ من فجّارها أحدٌ، وأنجى من أطاعه منهم، فلم يهلكْ منهم أحدٌ، وكان إهلاكُه لكلٍّ منها بشيءٍ غيرِ ما هلكَ به الآخر، فدلَّ كلٌّ من ذلك على تمام علمه وكمالِ قدرته، وكان قد كَمُلَ ما تقدَّم في هذه السورة من النِّعم والنِّقم، التي هي في حقيقتها نِعَمٌ للمؤمنين بالاعتبار؛ خاطبَ سبحانه رأسَ المؤمنين بألّا يدع خواطره تتشكّك فيما حكمَ به ربُّه من إهلاك كثير من المشركين لعدم هدايتهم، فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَالَآءِ﴾: أصلها من (ألْو) أو (إلَى)، وهو العطيَّة، والنعمةُ والهبة[2]، وألْو وإلًى وألًى: نِعَمٌ كثيرة[3]، والمعنى المحوري: تجمُّعُ غَضٍّ يَعْلَقُ بآخرِ الشيء أو أصلِه (أسفله): كالشحم في الأَلْية بمعانيها، ومنه الآلاء: النِّعَم؛ فإنَّها طراءةٌ ولينُ حياةٍ يحوزه من وجَدَها (مع التجاوز عن قيد الخلفية)، وهي تُنالُ بفضل اللّه[4]، ومعنى الآلاء في الآية: النعم[5].

2) ﴿تَتَمَارَىٰ﴾: أصلُ المَرْيِ من: مَرَيْتُ النّاقةَ؛ إذا مَسَحْتُ ضرعَها للحَلْب[6]، والمِرْيَةُ: التَّردُّد في الأمْرِ، وهو أخصُّ مِن الشَّكِّ[7]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 81.
(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط، ومجمع القاهرة، المعجم الكبير: (ألو).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (ألي).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ألى).
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 156.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مري).
(7) الرّاغب، المفردات: (مرى).

والامتِراءُ: المحاجَّةُ فيما فيه مرية، والمِراءُ أيضًا: الجِدالُ، والمُماراةُ: المُجادَلَةُ على مَذْهبِ الشَّكِّ والرِّيبة، ويُقالُ للمُناظَرَة: مُماراةٌ؛ لأنَّ كلَّ واحِدٍ يَستَخرجُ ما عندَ صاحِبِه، ويَمتَريه، كَما يَمتَري الحالِبُ من الضَّرْعِ[1]، والمقصود بالتماري هنا: التَّشكُّكُ، وهو تفاعلٌ من المرية، والمعنى: فبأي آلاء ربِّك يشكِّكونك[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

خطابٌ توبيخي للإنسان وتشريفي للنبي ﷺ

يقول تعالى ذكره: فبأيِّ نعماتِ ربِّك الجليلة الكثيرة المتنوِّعة الدّالة على وحدانيته وقدرته ترتابُ، وتشكُّ، وتجادلُ في فضلها العظيم يا ابن آدم[3]، أو بأيِّ نِعمِ اللّه عليك يا محمَّد يُشكِّكونَك، أي: لا يَستَطيعونَ أن يُشكِّكوكَ في حصولِ آلاءِ ربِّك الَّتي هي نِعَمُ النُّبوَّةِ وغيرِها[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ﴾:

تفريعُ فذلَكةٍ لما ذُكِرَ من النِّعَمِ والنِّقَمِ بأنَّها نِعَمٌ مَحضَةٌ للرَّسول وللمؤمنين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾، تفريعُ فذلَكةٍ لِما ذُكرَ من أوَّلِ السّورةِ، ممّا يَختَصُّ بالنَّبيِّ ﷺ من ذلك، كقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ٢﴾ [النجم: 2]، إلى قوله: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ١٨﴾ [النجم: 18]، وممّا يشملُه النبيَّ، ويشملُ غيرَه، من قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ٤٣﴾ [النجم: 43]، إلى قوله: ﴿هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾، فإنَّ ذلك خليطٌ من نِعَم وضِدِّها على نَوعِ الإنسانِ، وفي مَجموعِها نِعمةُ تعليم الرَّسول ﷺ وأُمَّتِه بمَنافعِ الاعتِبارِ بصُنْعِ اللّهِ، ثمَّ من قَولِه: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا﴾ إلى هنا، فتلك نِقَمٌ من الضّالّين والظّالِمين لنصرِ رُسلِ اللّهِ، وتلك نِعمةٌ على جميعِ الرُّسلِ،

(1) الزبيدي، تاج العروس: (مري).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 156 - 157.
(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 555.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 155 - 156.

ونِعمةٌ خاصَّةٌ بالرَّسول ﷺ وهي بشارتُه بأنَّ اللّهَ سينصرُه، فجميعُ ما عُدِّدَ من النِّعَم على أقوامٍ، والنِّقَم على آخرين، هو نِعَمٌ مَحضَةٌ للرَّسولِ ﷺ وللمؤمنينَ(1).

الغرض من الاستفهام بـ(أيِّ):

الاستِفهامُ في قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ للإنكارِ، فإن كان الخطابُ للنبي ﷺ فالاستفهامُ للإلهابِ وللتعريض بغيره "على طريقةِ قولِه تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]"(2)، وأمّا إذا كان الخطابُ لجميع الناس؛ فالاستفهامُ للإنكار، إنكار أنْ يكون من بين نعم اللّه تعالى - التي ذكرها في سورة النجم - نعمةٌ واحدةٌ يُستخَفُّ بها، أو يُتشكَّكُ في فضلها العظيم(3)، أو أنَّ الاستفهامَ ليس للإنكار؛ لرجحان كون الخطاب للنبي ﷺ وإنَّما هو لتذكير النبي ﷺ بالنِّعم المذكورة قبلُ، فالمعْنى: أنَّك لا تَحصُلُ لك مِرْيةٌ في واحدةٍ مِن آلاءِ ربِّك؛ فإنَّها سواءٌ في الإنعامِ، وذلك لأنَّ (أيّ) اسمُ استفهامٍ يُطلبُ به تمييزُ مُتشارِكٍ في أمرٍ يعمُّ بما يُميِّزُ البعضَ عن البقيَّةِ مِن حالٍ يَختَصُّ به، وهو مُستعمَلٌ هنا في التَّسويةِ؛ كِنايةً عن تَساوي ما عُدِّد مِن الأُمورِ في أنَّها نِعَمٌ على الرَّسولِ ﷺ(4).

نِعَمُ اللهِ لجلالها ليست محلًّا للإنكار، وكلُّها سواءٌ في فضلها العظيم

أو الاستفهام للإنكار، ولكنه كنايةٌ لطيفةٌ عن أنَّ هذه النِّعم لجلالها ليستْ محلًّا للإنكار؛ باعتبار الخطاب للجميع، ويدخلُ فيه النبي ﷺ دخولًا أوَّليًّا(5).

دلالة جمع ﴿ءَالَآءِ﴾ وتعريفها بالإضافة إلى لفظ الرُّبوبيَّة، وكاف الخطاب:

آلاءُ الله كثيرةٌ متعدِّدةٌ ومتنوِّعةٌ وعظيمةٌ تتسامى عن الشَّكِّ

عبَّر البيانُ القرآني بلفظ الآلاء جمعًا ومعرَّفًا بالإضافة؛ لأنَّها

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 155 - 156.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 165.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 70.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 188.

تشملُ الأمورَ الجليلة المعدودة، فيما سبقَ من سورة النجم، وهي آلاءٌ كثيرةٌ متعدِّدةٌ ومتنوِّعةٌ سواء النِّعم الخاصَّة بالنبي ﷺ أو التي شملته وغيره، أو التي هي نقمٌ في صورتها ونِعمٌ في حقيقتها، من حيث إنَّها نصرٌ للأنبياءِ والمؤمنين، وانتقامٌ للكافرين، وفيها عظات وعِبرٌ للمعتبرين[1]، وفي إضافة هذه الآلاء إلى لفظِ الربوبيَّة - الذي يفيدُ التربيةَ والإنعام والتدبير - تعظيمٌ لفضلِ الآلاء على النبيِّ ﷺ وعلى المؤمنين وعلى الناس جميعًا، وتفخيمٌ لشأنها، وتساميها عن الشَّكِّ والريب.

وفي إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَب الذي يعودُ للنبي ﷺ ﴿رَبِّكَ﴾ تشريفٌ له ﷺ أي: هي "عطيةُ المحسن إليك التي هي وجهُ الإنعام والإكرام"[2].

دلالة التعبير بصيغة التفاعل والمضارعة في ﴿تَتَمَارَىٰ﴾:

مبالغةٌ في نفي التشكيك في حصولِ آلاء الله في جميع الأوقات

جاء الفعل ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ بصيغةِ التَّفاعل، فالتَّماري: هو تفاعلٌ من المِرْيةِ، فإنْ كان الخِطابُ للنبيِّ ﷺ كان ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ مُطاوِعَ ماراهُ، والمعنى: فبأيِّ آلاء ربِّك يُشكِّكونَك، أي: لا يَستَطيعونَ أنْ يُشكِّكوكَ في حصولِ آلاءِ ربِّك الَّتي هي نِعَمُ النُّبوَّةِ، والَّتي منها رُؤيتُه جِبريلَ عند سدرةِ المُنْتَهى، ويكون غرضُ الكلام تأييسَ المُشرِكين من الطَّمع في الكفِّ عنهم، وإنْ كان الخِطابُ لغَيرِ مُعيَّنٍ كان ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ تفاعلًا مُستعمَلًا في المُبالَغةِ في حُصولِ الفِعلِ[3]، وقد آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ كذلك بصيغةِ المُضارعةِ؛ ليعمَّ عدمُ التَّشكيك في نعمِ اللّٰه سبحانه جميعَ الأوقات من الحاضر والاستقبال[4].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 165، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 155 - 156.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 80.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 155 - 156.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 189.

سرُّ إسناد فعل التَّماري إلى ضمير الواحد ودلالته:

واقعُ المِراء المنهيِّ عنه أنَّه متعدِّدٌ بتعدُّدِ الآلاء

إسنادُ فعلِ التَّماري إلى الواحدِ في لفظ ﴿رَبِّكَ﴾ - سواء كان رسولَ الله ﷺ، أو عامًّا لكلِّ أحد - هو باعتبارِ تعدُّدِه بحسبِ تعدُّدِ متعلَّقه، فإنَّ صيغةَ التفاعلِ، وإن كانت موضوعةً؛ لإفادةِ صدورِ الفعل عن المتعدَّد ووقوعه عليه بحيث يكونُ كلٌّ من ذلك فاعلًا ومفعولًا معًا، لكنَّها قد تُجرَّدُ عن المعنى الثاني، فيرادُ بها المَعْنى الأوَّل فقط، كما في: يتداعونهم، أي: يدعونهم، وقد تُجرِّد عنهم أيضًا، فيُكتفى بتعدُّد الفعل بتعدُّد متعلِّقه - كما فيما نحن فيه - فإنَّ المِراء متعدِّدٌ بتعدُّد الآلاء، فتدبَّر[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآلاء والنِّعم:

الآلاءُ نِـعـمٌ عظيمةٌ وثابتةٌ لا تكون إلّا من الله تعالى ولا مجالَ للشَّكِّ فيها

الآلاءُ: النِّعمةُ التي تتلو غيرها، من قولك: وليه يليه؛ إذا قربَ منه، وأصله ولي، وقيل: واحد الآلاء إلًى، وقال بعضهم: الإلي مقلوبٌ من إلى الشيء؛ إذا عظمَ عليَّ، قال: فهو اسمٌ للنِّعمة العظيمة[2]، فالآلاءُ تُطلَقُ على النِّعم الكاملةِ العظيمةِ الثابتة والهباتِ الإلهية، وتأتي غالبًا في سياقِ تذكيرِ الإنسان، بنعم اللّه العظمى وقدرته سبحانه على الخلق، بينما النِّعمُ أعمُّ؛ إذ تشملُ النِّعَم الصغيرة والكبيرة، ولهذا آثرَ البيان الإلهي التعبيرَ بلفظ آلاء دون نِعَم، فالسياقُ يتحدَّث عن آياتٍ كونية عظيمة ثابتةٍ انفردَ بها اللّه تعالى كالإحياء والإماتة وخلْقِ الزوجين من نطفة؛ إذا تمنى، والنشأة الأخرى، والإغناء والإفقار وإهلاك الأمم الظالمة، وغير ذلك من الآيات العظيمة الدالَّة على قدرة اللّه تعالى، مّما يلفتُ الانتباهَ إلى التَّدبُّر في هذه النِّعمِ وعدم التشكيك فيها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 165.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 6.

آلاءُ الله واضحةٌ وعظيمةٌ لا مجالَ للتَّردُّد فيها

المرية والشَّكّ والريب:

المرية: التَّردُّد في الأمْرِ، وهو أخصُّ مِن الشَّكِّ[1]، فالامتراءُ هو استمراءُ موطن الشَّكِّ في الأمر والقضية واستخراجُه، قال العسكري: "الامتراءُ هو استِخْراج الشُّبَه المشكلة، وأصله المري، وهوَ استِخراج اللَّبن من الرضع... وامترى امتراءً؛ إذا استخرج الشُّبَه المشكلة من غير حلٍّ لَها"[2]، كأنَّ المرية تعني التَّعرُّف إلى موطنِ الشَّكِّ المكنون في الأمر المتردد فيه، واستخراجه دون الوصول إلى الحلِّ، بينما الشكُّ هو التَّرَدُّد في أمرَيْن لا مزية لأحدهما على الآخر، أي: تردُّد الذهن بين أمرين على حدٍّ سواء، فالشَّكُّ هو استِواءُ طرفي التَّجويز؛ لأنَّهُ لا دَليلَ هُناكَ ولا أمارَة، فهوَ وقوفٌ بَين النقيضين من غير تَقْوِيَة أحدهما على الآخر[3]، وأمّا الريبُ؛ فهو أخصُّ من الشَّكِّ[4]، فالريبُ شكٌّ مع تهمة[5]، أو شكٌّ وخوفٌ، يُقال: رابَهُ الأمْرُ؛ إذا أَدْخَلَ عَلَيهِ شَكًّا وخَوْفًا[6]، واستعمالُ لفظ تتمارى هنا أنسب؛ إذ الاستفهامُ عن استخراج الشَّكِّ والتَّردُّد في آلاء الله الواضحة والعظيمة التي لا مجال للتَّردُّد فيها.

(1) الرّاغب، المفردات: (مرى).
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 99.
(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 99، وابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 424.
(4) الراغب، المفردات: (مري).
(5) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 264، والرّاغب، المفردات: (شكك).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ريب).

﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ٥٦﴾ [النجم: 56]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ما حوتْهُ السّورةُ من إعجازٍ هو تقريرٌ لصدقِ إنذارِ النبيِّ في البَدْءِ والختام

لَمّا تَمَّ الكلامُ في السّورةِ على المنهاجِ البديع، والنَّمط الرَّفيع - في حُسنِ البيانِ للمواعظِ، والشَّرعِ والقَصَصِ والإنذارِ العظيم التّامِّ على وجهٍ مُعجِزٍ مِن وُجوهٍ شَتَّى - أنتَجَ قولَه مُرغِّبًا مُرهِّبًا خاتِمًا السّورةَ بما بدأ هنا به مِن ذِكْرِه ﷺ فقال: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَذِيرٞ﴾، ﴿ٱلنُّذُرِ﴾: أصلُ (نذر) يدُلُّ علَى تَخْويفٍ أوْ تَخَوُّفٍ، ومنه الإنذارُ: الإبلاغُ، ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخْويفِ، وتَناذَروا: خَوَّفَ بَعضُهُم بَعْضًا، ونَذِرْتُ بهِم فاستَعدَدتُ لَهُم، وحَذِرْتُ منهُم[2]، والإنذارُ: إخبارٌ فيه تخويفٌ، كما أنَّ التَّبشيرَ إخبارٌ فيه سرورٌ[3]، ونَذِرَ بالشَّيءِ وبالعَدوِّ: نَذْرًا: عَلِمَهُ، فحَذِرَه، وأنذَره أيضًا: حذَّره، وخَوَّفَهُ في إبلاغه، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، وهو المحذِّر والمخوِّف[4]، ومعنى ﴿نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾، أي: رسولٌ من الرسلِ إليكم - يعني: محمَّدًا ﷺ - أُرسِلَ إليكم، كما أُرسِلوا إلى أقوامهم[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تقريرٌ من الله للقرآن أو رسالةِ النبي ﷺ

هذا الَّذي أنذرتكم به - أيُّها القوم - من الوقائع التي ذكرت لكم أني أوقعتها بالأمم قبلكم، من النُّذر التي أنذرتها الأمم قبلكم في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 81.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح: (نذر).
(3) الراغب، المفردات: (نذر).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نذر).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 468، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 18/ 223.

صحف إبراهيم وموسى، أو هذا رسولُ اللّه محمَّدٌ ﷺ نَذيرٌ لقومه وكانت النُّذر الذين قبله نُذرًا لقومهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف والفذلكة في الآية: ﴿هَٰذَا﴾:

الكلامُ انتِقالٌ اقتضابيٌّ تَنهيةً لِما قبلَه، وابتِداءً لِما بعْدَ اسمِ الإشارة

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ استئنافٌ ابتدائيٌّ، أو فذْلَكةٌ لِما تَقدَّمَ على اختِلافِ الاعتبارَين في مرجِع اسم الإشارة، بأنَّه القُرآنُ، أو ما تَقدَّمَ مِن أوَّلِ السّورة من إنذارات، أو ما لم ينبَّأْ به الذي تولّى، وأعطى قليلًا، ابتداءً من قوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النجم: 36] إلى هنا، أي: إنَّ الكلامَ انتِقالٌ اقتضابيٌّ تَنهيةً لِما قبلَه، وابتِداءً لِما بعْدَ اسمِ الإشارة.

الغرض من التعبير باسم الإشارة الدّالِّ على القرب ﴿هَٰذَا﴾:

تعظيمٌ للنبي ﷺ والقرآنِ ولِما سلَفَ من إنذارات

﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى رسولِ اللّه ﷺ افتتحَ أوَّلَ السورة به، واختتمَ آخرها به، أو إلى القرآن؛ فإنَّه لحضوره في الأذهان ينزلُ منزلةَ شيءٍ محسوسٍ حاضرٍ بحيث يُشارُ إليه، أو ما سلفَ من الإخبار عن الأمم، أي: هذا إنذارٌ من الإنذارات السابقة؛ تنزيلًا لحضوره في السَّمع منزلةَ حضوره في المشاهدة بحيث يُشارُ إليه[2]، وفي استعمالِ القرآن اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ - الدّال على القريب - تشريفٌ وتعظيمٌ للنبي ﷺ والقرآنِ ولِما سلفَ من إنذارات.

دلالة التَّعبير بالمصدر المنكَّر المنوَّن ﴿نَذِيرٌ﴾:

القرآنُ إنذارٌ عظيمٌ ذو شأن

على اعتبارِ أنَّ المشارَ إليه في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ هو القرآن، فيكون اللفظ ﴿نَذِيرٌ﴾ مصدرًا من فعل أنذَرَ، والنُّذُر جمع للمصدر، وتنوينُه يفيدُ التفخيم والتعظيم[3]، فإنذارهُ ليس إنذارًا عاديًا، بل هو إنذارٌ عظيمٌ ذو شأن.

---

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 556.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 28، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 157.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 165.

سرُّ الاقتصار على الوصف بـ﴿نَذِيرٌ﴾:

اقتصرَ البيانُ القرآنيُّ على وصف القرآن أو النبي ﷺ بأنَّه نذير، دون أنْ يقول: نذير وبشير، كما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: 188]؛ لأنَّ المقامَ هنا لا يقتضي إلّا ذكرَ الإنذار؛ إذ إنَّ اللّهَ قد تحدَّثَ من أوَّل السورة إلى آخرها عن قريش وتكذيبها للرسول ﷺ وعبادتها الأصنام[1]، أي: إنَّ الكلام موجَّه إلى المخاطَبين بمعظم ما في هذه السورة، وهم المشركون[2].

مقامُ السورة والسياق العام لا يقتضي إلّا ذكرَ الإنذار والتحذير

بلاغة التعبير بالمجاز العقلي والاستعارة في لفظ ﴿نَذِيرٌ﴾:

(النَّذير) حقيقتُه: المُخْبِر عن حدوث حَدَث مُضِرٍّ بالمخْبَر، وجمعه: نُذُرٌ، هذا هو الأشهر فيه، وإطلاقُ (النذير)، في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾، على الإنذار، وهو خَبَرُ المُخْبِر، أي: على ما هو كلام - وهو هنا القرآن أو بعض آياته - مجازٌ عقليٌّ[3]؛ لأنَّ القرآنَ وسيلةٌ للإنذار لا منذِرَ بذاته، فالإسنادُ تمَّ إلى الوسيلة (القرآن)، بدل الفاعل الحقيقي (الرسول)، لعلاقة السَّببيَّة، أي: إنَّ الكلامَ سببُ الإنذار، لا فاعله الحقيقي.

تحميلُ القرآن صفةَ الفاعل المنذِر يجعلُ الأثرَ النفسي أقوى

ولفظ ﴿نَذِيرٌ﴾ كذلك استعارةٌ مكنيَّةٌ؛ إذ شُبِّه القرآن أو الآيات بشخصٍ يُنذِر، وحُذِفَ المشبَّه به، وهو المنذِرُ الحقيقي، ورُمِزَ له بلفظه، وهو ﴿نَذِيرٌ﴾، وتحميلُ القرآن صفةَ الفاعل المنذِر يجعلُ الأثرَ النفسي أقوى، فيهزُّ القلوبَ، ويوقظُ العقول.

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾ متعلِّقةٌ بمحذوفٍ، هو نعتٌ لـ﴿نَذِيرٌ﴾ مقرِّرٌ له، ومتضمِّنٌ للوعيد، أي: هَذا القرآنُ - الذي تشاهدونَهُ - نذيرٌ من قبيلِ الإنذاراتِ المتقدِّمةِ التي سمعتُم

بيانُ أنَّ النذيرَ من جنسِ النُّذرِ الأولى

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الحجرات والحديد، ص: 255.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 157.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 158.

عاقبتَها، أو هذا الرسولُ منذِرٌ من جنسِ المنذرينَ الأولينَ[1]، أي: ﴿مِّنَ﴾ هنا بيانيَّة بيَّنتْ أنَّ هذا النَّذيرَ من جنسِ النُّذرِ الأولى.

معنى اللام ودلالتها في: ﴿ٱلنُّذُرِ﴾ وسر جمعها:

اللامُ في لفظ ﴿ٱلنُّذُرِ﴾ عهديَّةٌ، والمعهودُ ذكري، سواءٌ كان المقصودُ بالنُّذُر المنذِرينَ الأوَّلين، أو كان المقصودُ الإنذاراتِ المعهودة المتقدِّمةَ، التي مرَّ ذِكرها وذِكرُ عاقبتها[2]، وهذا التعريفُ للنَّذر يُعطي شعورًا بالاستمرارية، والرَّبط بين هذه الرسالة والرسائل السابقة، ممّا يؤكِّد صدقَ الرسالةِ المحمديَّة؛ لأنَّها ليستْ مبتدعةً، بل جزءٌ من سلسلةِ إنذاراتٍ متواصلةٍ ومتجدِّدة.

الـرِّسـالـةُ المـحـمـديَّـةُ ليستْ مبتدعةً بـل جـزءٌ من سلسلةِ إنذاراتٍ مـتـواصـلـةٍ ومتجدِّدة

وجمع الكثرة يشيرُ إلى كثرةِ الإنذارات التي سبقَتْ، وكثرةِ الرُّسلِ التي أُرسلت.

سرُّ وصف ﴿ٱلنُّذُرِ﴾ بالأولى في: ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾:

﴿ٱلنُّذُرِ﴾ إمّا جمعٌ للمصدر، ويكون سرُّ الوصف ترغيبًا للمشركين بالتصديق، وتخويفًا لهم من عدمه، فإنَّ معنى هذا الكلام من معاني الشرائع الأولى التي مرَّ ذكرها وذكر عاقبةِ من كفر بها[3]، أو جمعٌ لاسم الفاعل، وبذلك يكون وصفُ النُّذر بالأولى على تأويلهم بالجماعة الأولى من المرسلين، لمراعاة فواصل الآيات[4]، ولإقامة الحجَّة على المشركين؛ لأنَّ الرسلَ الماضين تقرَّرتْ رسالتهم في النُّفوس، وسكنتْ إليها القلوب، بحيث إنَّه لا يسعُ إنكارها، ولا فرقَ بينه ﷺ وبينهم في ذلك إلّا أنَّ الرحمةَ به أبلغُ وأغلبُ، ولتخويف المشركين: بأنَّكم كالمنذَرين الأوَّلين، فاحذروا ما حلَّ بالمكذِّبين منهم، وارجوا ما كان للمصدِّقين[5].

فـي الـوصـف ترغيبٌ في اتِّباع الـنـبـي ﷺ وتـخـويـفٌ من نزاعه

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 165.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 165.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 158.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 28، والهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 177.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 81.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنذار والتخويف والتبليغ والتحذير:

مهمَّةُ جميع المنذرين التبليغُ مع التَّخويف من المخالفة، والإعلامُ بمَوضِعِ المخافة

الإنذارُ أخصُّ هذه الألفاظ، فالإنذارُ تخويفٌ وتحذيرٌ مع إعلام مَوضِعِ المخافة، من قولك: نذرتُ بالشيء؛ إذا علمته، فاستعددت له، والإنذارُ: إحسانٌ من المنذِر، وكلَّما كانت المخافة أشدَّ؛ كانتِ النِّعمةُ بالإنذار أعظمَ، ولهذا كان النبي ﷺ أعظمَ الناس منَّةً بإنذاره لهم عقابَ اللّٰه تعالى[1]، بينما التخويفُ هو مجرَّدُ الحملِ على الفَزَعِ والذُّعرِ، والخوفُ من اللّٰهِ تعالى والتخويف منه المراد منه الكفُّ عن المعاصي واختيارُ الطّاعات، والحثُّ على التَّحرُّز[2]، وأمّا التبليغُ؛ فهو إيصالُ الخبر والإعلام به، بلَّغَ النّاسَ بالخبر: أوْصله إليهم، وأعْلَمهم به، وأنهاه إليهم[3]، وأمّا التَّحذيرُ؛ فيدلُّ على التَّحَرُّزِ والتَّيَقُّظِ والتأهُّبِ والاستعداد للشيء المخوَّف منه، وحذَّره من الشَّيءِ: أنذرَه، ونبَّهه، وجعله يقظًا[4]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظ الإنذار؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ وجميعَ الرسل مهمَّتُهم إبلاغُ الرسالة مع التخويف من المخالفة، وبيانُ موضع المخافةِ؛ ليحذرَ النّاسُ عقابَ اللّٰه.

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نذر)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 78.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (خوف).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (بلغ).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حذر).

﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝٥٨﴾ [النجم: 57 - 58]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

ما وقَعَ من الوعدِ الصّادقِ دليلُ اقترابِ وقوعِ الساعة

لَمّا كانَ كلُّ آتٍ قريبًا، وكانت الساعةُ - وهي ما أُنذرَ به من القيامة وممّا دونها - لا بدَّ من إتيانها، لِما وقَعَ من الوعدِ الصّادقِ به المحتفِّ بالدلائل التي لا تقبلُ شكًّا بوجهٍ من الوجوه، فكان باعتبار ذلك لا شيءَ أقرب منها، قال دالًّا على ذلك: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾[1]، فلمّا ذكرَ البيانُ الحكيمُ إهلاكَ مَن تقدَّمَ ذِكرُه، وذَكَر قولَه: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾؛ ذكَرَ أنَّ الَّذي أنذَرَ به قَريبُ الوُقوعِ، فقال: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿أَزِفَتِ﴾ - ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾: أصل (أزف) يَدُلُّ على الدُّنوِّ والمُقارَبَة، يُقالُ: أزِفَ الرَّحيلُ؛ إذا اقترَبَ، ودَنا، والمعنى المحوري: تقاربُ المتباعدِ من الشيء أو جوانبه، فيتضايق ما بينها، فالأزَفُ: ضيقُ الوقت، وقوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾، يَعني: قَرُبت القيامةُ، فهي آزفة؛ لأنَّها دائمًا في اقتراب يضيقُ الوقت بيننا وبينها[3]، فالآزفةُ من أسماء يوم القيامة، سُمّيتْ بذلك؛ لقربها إلى الخلق ووقوعها عليهم[4].

2) ﴿كَاشِفَةٌ﴾: الكَشفُ: رَفعُكَ شيئًا عمّا يواريه، ويغطّيه، كرفعِ الغطاءِ عن الشَّيء[5]، ومن المجاز: كشفَ اللّهُ غمَّهُ، قال تعالى: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ﴾ [الأنعام: 17][6]، والكشفُ هنا يجوزُ أنْ يكون بمعنى التَّعرية مرادٌ به الإزالة، والمعنى: لا يستطيعُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 81.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 10/ 28.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أزف).
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/ 438.
(5) الخليل، العين، والزّمخشري، أساس البلاغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (كشف).
(6) عياض، مشارق الأنوار: (كشف).

أحدٌ إزالةَ وعيدِ الواقعة غير اللّه، ويجوزُ أنْ يكون الكشفُ بمعنى إزالة الخفاء، أي: لا يبينُ وقتَ الآزفة أحدٌ له قدرةٌ على البيان، فاللّهُ هو العالمُ بوقتها لا يعلمه أحد[1].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

دنوُّ الآزفةِ التي لا تقومُ إلّا بأمرِ الله

دنَتِ القيامةُ القريبةُ منكم أيُّها الناس، ليس تنكشفُ، فتقوم إلّا بإقامة اللّه إياها، وكشفها دون من سواه مِن خلقِه؛ لأنَّه لم يُطلعْ عليها مَلَكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا[2]، أو يدفعُ كربها وهمَّها، مهما بالغَ الإنسانُ في الكشفِ، وبذلَ الجهد فيه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع الجملة مما قبلها ودلالته: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾:

بيانٌ ينذرُ بآزفةٍ قربت

تتنزَّلُ جملة: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ من التي قبلها منزلةَ البيانِ؛ للإنذارِ الذي تضمَّنه قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ﴾، فالمعنى: هذا نذيرٌ بآزفةٍ قرُبَت[4]، فبينها وبين ما قبلها كمال اتِّصال؛ إذ نزلت من جملة هذا نذير منزلة عطف البيان؛ تأكيدًا لرهبة الإنذار.

الغرض من العدول عن المضارع إلى الماضي ﴿أَزِفَتِ﴾:

تحقُّقُ وقوعِ ما أخبرَ به اللهُ من دنوِّ الساعة

عَدَلَ البيانُ الحكيمُ عن التَّعبير بصيغة المضارع إلى الماضي، في قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾، فلم يقلْ: (تأزِف الآزفة)؛ للدَّلالة على تحقُّقِ وقوعِ ما أخبرَ به اللّهُ من دنوِّ الساعة، وأنَّه لأمرٌ مؤكَّد، أي: كأنَّه وقعَ، حتى صحَّ أن يُخبرَ عنه أنَّه قد حصل، وهذا كثيرٌ في كلامِ اللّهِ عن أحداث السّاعة[5]، وللدَّلالة كذلك على قربِ الساعة وضيقِ وقتِها[6].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 159.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 558.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 82.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 158.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 81.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 15/ 114.

دلالة مجيء الفاعل ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ من مادَّة الفعل:

في الجناسِ الاشتقاقي لفتُ انتباهِ السّامعِ وتهويلٌ عليه

أفادَ اشتقاقُ الفاعل ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾، ممّا وقع منه الفعل في قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾، التَّهويلَ على السّامعِ؛ لتذهبَ النَّفسُ كلَّ مذهبٍ ممكنٍ في تعيينِ هذه الحادثةِ الَّتي أزِفَتْ، ومَعلومٌ أنَّها مِن الأُمورِ المَكروهةِ؛ لوُرودِ ذِكْرِها عقِبَ ذِكرِ الإنذارِ[1]، وبين اللفظين ﴿أَزِفَتِ﴾ و﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ جناسٌ اشتقاقي، يخلقُ تكرارًا صوتيًّا متناغمًا يشدُّ انتباهَ السامعِ أو القارئ، ويعزِّزُ من وقع المعنى، فالاقترابُ في الفعل يتكرَّرُ في الاسم، ممّا يزيدُ من الإحساس بشدَّةِ قربِ وقوعِ الحدث أو الكارثة، أي: دَنتِ السّاعةُ الدانية في نفسها التي وُصِفتْ لكم بالقرب غير مرَّة؛ لأنَّها محطُّ الحكمة وإظهارُ العظمة[2]، وللتَّنبيهِ على قُربِ المُنذَرِ به، وهو مِن كَمالِ الإنذارِ؛ للبِدارِ بتجَنُّبِ الوُقوعِ فيما يُنذَرُ به[3].

وجاء بها بصيغة الفاعل؛ للمبالغة في هولِ هذه الواقعة العظيمة، بالدلالة على حركتها الفعلية، فإنَّها واقعةٌ، تتحرَّك، وتقترب بالفعل، أي: دنتِ الساعةُ الدانية في نفسها، التي وُصِفَت بالقرب[4]، فهي حادثةٌ ضخمةٌ مخيفةٌ تقتربُ لا محالة.

معنى اللام ودلالتها في: ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾:

اقترابُ الآزفةِ التي هي نوعٌ من الأهوالِ العظيمة المهولة

التَّعريفُ في ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ تعريفُ الجنسِ، لِما يوشكُ أن يحدثَ من أهوالٍ أو مصائب، وفيه زيادةُ تَهويلٍ بتمييزِ هذا الجنسِ مِن بينِ الأجناسِ الأخرى؛ لأنَّ في استحضاره زيادةَ تهويلٍ؛ لأنَّه حقيقٌ بالتَّدبُّر في المخلص منه، والمعنى: لقد اقتربتِ الآزفة الَّتي هي نوعٌ من الأهوال، وقد تكونُ من أهوالِ الدُّنيا من جنس ما أهلك

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 158.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 81.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 158.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 82.

به عاد وثمود وقوم نوح، فهي استئصالهم يوم بدر، وقد تكون القيامة الكبرى[1].

سرُّ تأنيث ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾:

تأنيثُ الساعة الدانية في نفسها أبلغُ في الإيحاء بالشمول والهول

استعملَ البيانُ الحكيمُ كلمة ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾ مؤنثة؛ لأنَّها تُؤوَّل بمعنى مؤنَّث، فالمرادُ بها هنا واقعة عظيمة، وهي القيامة، وللدَّلالة كذلك على المبالغةِ؛ لأنَّ العرَبَ يستعملون التَّأنيثَ دَلالةً على المُبالغةِ في النَّوعِ وتكثيره أو تعظيمه؛ لأنَّ الأنثى في ثقافتهم رمزُ الإكثار والتوليد والنوع، فهي مصدر التكاثر والامتداد، وهم كثيرًا ما يُؤَنِّثون الألفاظ حين يُراد بها حادثةٌ كبرى أو واقعةٌ مهولة، كقولهم: نزَلَتْ به نازِلةٌ، أو وقعَتِ الواقعةُ، وغشيَتْه غاشيةٌ، فكان التأنيثُ أبلغَ في الإيحاء بالشمول والهول[2].

دلالة الاستئناف بجملة: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾:

استئنافٌ يبيِّنُ القادرَ الأوحدَ على دفعِ كرب الآزفة أو العلم بوقتها

جاءتْ جملةُ: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ استئنافًا بيانيًّا لجملةِ: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾؛ لأنَّه لمّا ضاقَ الخناقُ من تحقُّق اقترابِ السّاعة المشتملة على الضيق وسوءِ العيش من القيامة، وكلٍّ ما وعدوه في الدنيا ممّا يكون به ظهورُ هذا الدين وقمعِ المفسدين؛ تشوَّف السامعُ للسؤال عن إمكانيَّة دفعها، فأُجيبوا بأنَّه: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[3]، ويمكن أنْ تكون جملةُ: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ صفةً للآزفةِ.

دلالة النفي بـ﴿لَيۡسَ﴾:

نفيُ أيِّ كاشفٍ غير الله للساعة نفيٌ شاملٌ محقَّقٌ

عبَّر البيانُ الحكيم بأداتِ النفي ﴿لَيۡسَ﴾ دون غيرها، فلم يقل مثلًا: ما لها من دون اللّه كاشفة؛ لكون ﴿لَيۡسَ﴾ تُستعمَلُ مع الحقائق الثابتة، وتنفي الجنسَ كلَّه نفيًا مطلقًا، فليس لها أيُّ نفس

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 159.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 159.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 81.

قادرة على كشفها؛ إذا غشيتِ الخلق بشدائدها وأهوالها غير اللّه[1]، بينما الأدوات الأخرى قد تنفي الفعلَ أو الزمن فقط، ومِن ثمَّ فنفيُ أيِّ كاشفٍ غير اللّه يوجدُ الساعة، ويقيمها، ويجلي علمها، أو يدفعُ كربها وهمَّها، هو نفيٌ شاملٌ محقَّقٌ.

معنى اللام ودلالتها في ﴿لَهَا﴾ وفائدة القيد بالجار والمجرور:

توكيدُ الإبطال بأنَّ الأصنامَ أو غيرها قد تكشفُ العذابَ أو تدفعُ الضرَّ

اللامُ في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهَا﴾ لامُ الاختصاص، وتُفيدُ نفيَ وجود كاشفةٍ تخصُّ هذه الواقعة، وهي ﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾، وهذا القيد يجعل النفي أقوى وأشدَّ؛ لأنَّ القيد يمنعُ كلَّ تصوُّر لوجود كاشفة لها من أيِّ جهة، ويُبرزُ أنَّ اللّه - وحده - هو القادرُ على كشفها أو رفعها، ومِنْ ثمَّ يُبطلُ مزاعمَ المشركين من أنَّ الأصنامَ أو غيرها قد تكشفُ العذابَ، أو تدفعُ الضرَّ، فيقول: لا، ليس لها كاشفة تخصُّها، وتقدرُ عليها إلّا اللّه.

الغرض من تقديم الخبر ﴿لَهَا﴾:

اهتمامٌ بالساعة وتركيزٌ عليها وتخويفٌ منها

﴿كَاشِفَةٌ﴾ في الآية اسمُ ﴿لَيۡسَ﴾ مؤخَّر، و﴿لَهَا﴾ خبرٌ مقدَّم، والتقدير: ليس كاشفةٌ لها من دون اللّه[2]، وقد قدَّم النظم الحكيم الخبرَ على اسم ليس؛ اهتمامًا بالساعة، وللتركيز عليها والتخويفِ منها.

معنى حرف الجر ﴿مِن﴾ ودلالته:

توكيدُ نفيِ العلم بوقتِ الساعة والقدرة على دفع كُرَبها لغير الله

﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حرفُ جرٍّ، متعلِّق بالكون الذي يُنوى في خبر ليس، وهي للتَّوكيدِ[3]، ومن هنا ابتدائية، والمعنى: من أدنى رتبة المَلِك المحيط بكل شيء قدرة وعلمًا.

دلالة التعبير بـ﴿دُونِ﴾:

آثرَ البيانُ الحكيمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿دُونِ﴾، في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، ولم يقل: (ليس لها غير اللّه كاشف)؛ لكون

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 166.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 368.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 159.

انحطاطُ رتبةِ كلِّ ما سوى الله سبحانه وسُفولُها

﴿دُونِ﴾ أوسعَ دلالة؛ فإنَّ (غير) تدلُّ على نفي وجود الآخرين فقط، ولا تُلمحُ إلى مرتبة الآخرين، أي: ليس هناك من يكشفها سوى اللّه، أمّا ﴿دُونِ﴾؛ فمن معاني (دون) أن تكون اسمًا للمكان المُباعِد، وهي هنا مستعارةٌ لمعنى المخالفة والدونيَّة والانفصال والعجز؛ فتدلُّ على كلِّ ما هو تحت سلطانه، ودونه رتبةً، ولا يمتلكُ استقلالًا ولا قدرةً، أي: لا تنفي البديلَ فقط، بل تُهينُ مكانته وتُقصيه تمامًا عن موضع القدرة، وكأنَّها تقول: ليس هناك في كلِّ الجهات، ولا في أيِّ رتبةٍ دون اللّه، مَن يوجدُ الساعة، ويقيمها، ويجلّي علمها، أو يدفعُ كربها وهمَّها[1].

سرُّ التصريح باسم الجلالة:

مبالغةٌ في تعظيمِ شأنِ الساعة وتعظيمِ شأن الملك المحيط بكلِّ شيءٍ قدرة وعلمًا

عبَّرَ البيانُ الحكيمُ باسمِ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ في الآيةِ صريحًا لا مضمرًا، فلم يقل سبحانه: (من دونه)؛ تربيةً للمهابةِ في النُّفوس، وذلك بذِكْر الاسم الأعظم الجامع لكلِّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ، وخاصَّة أنَّ السياقَ سياقُ تعظيم وتفخيم لشأن الساعة القريبةِ، وتعظيم لشأن الملك الذي أحاطَ بكلِّ شيء علمًا، وفي إضافة لفظ ﴿دُونِ﴾ إلى الاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى انحطاطِ رتبةِ كلِّ ما سواه سبحانه وسُفولِها، فهو أعظمُ من كلِّ عظيمٍ[2].

دلالة استعمال ﴿كَاشِفَةٌ﴾ بين المصدريّة واسم الفاعل:

ليس للساعة كاشفٌ قويٌّ مهما بالغ في الكشف إلّا الله

﴿كَاشِفَةٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾، إمّا مصدرٌ بوزن فاعلة، كالعافيةِ والجاثية والكاذبة والباقية، والمعنى: ليس لها كشْفٌ، والهاء للتأنيث، أو اسمُ فاعلٍ، قُرِنَ بهاء التأنيث للمبالغة، مثل: (راويةٍ، وباقعةٍ، وداهيةٍ)، أي: ليس لها كاشفٌ قويُّ الكشْفِ، مهما بالغ في الكشفِ، وبذلك الجهد فيه فضلًا عمَّن دونَه غير اللّه[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 82.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 82.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 82، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 159.

بلاغة التعبير بالكناية في: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾:

اللهُ وحده من يدفعُ كربَ الساعة وهمَّها، أو يوجدها، ويقيمها، ويجلي علمها

معنى الكشْفِ: التَّعريةُ وإزالة الخفاء، وهو في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ كنايةٌ عن أمرين: الأول: كنايةٌ عن الرافع أو الدافع، مثلُ: ويكشفُ الضُّرَّ، وذلك ضدُّ ما يقال: غشيَةُ الضُّرِّ، والمعنى: لا يستطيعُ أحدٌ إزالةَ وعيدها غير الله، فهي محقَّقةُ الوقوع، والثاني: كنايةٌ عن إزالة الخفاء، أي: لا يبيِّن وقت الآزفة أحد له قدرةٌ على البيان، على نحو قوله تعالى: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: 187]، فالمعنى: أنَّ اللّهَ هو العالمُ بوقتها لا يعلمه أحدٌ إلّا إذا شاء أنْ يُطلِعَ عليه أحدًا من رسله أو ملائكته(1).

بلاغة التعبير بالاستعارة التمثيليَّة: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾:

حصرُ قدرة كشف العذاب العظيم في الله وحده حقيقةٌ شاملةٌ لكلِّ مواقف الحياة

في قوله تعالى: ﴿لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ فنُّ التَّمثيلِ، فقد أُخرِجَ الكلامُ مخرجَ المثل السائر يتمثَّل به في الوقائع(2)، فالحقيقةُ التي تقرِّرها الآية - وهي: حصرُ قدرة كشفِ العذاب العظيم أو رفعه في اللّه - وحده - لا يشاركها أحد، ولا يستطيعُ أيُّ مخلوقٍ أن يكون كاشفًا عنه - لا يختصُّ بيوم القيامة فقط، وإنَّما هي حقيقةٌ عمليَّة وشاملة تنطبقُ على كثيرٍ من المواقف في الحياة.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

أزف وقرب:

شدَّةُ قرب يوم القيامة، وضيقُ وقتها أبلغُ في التخويف

أزِفَ أخصُّ من قَرُبَ؛ إذ أزفَ يُقال اعتبارًا بضيق الوقت، والمعنى المحوري له: هو تقاربُ المتباعدِ من الشيء أو جوانبه، فيتضايق ما بينها، يُقال: أزفَ الرحيلُ، أي: قربَ، ودنا، وعجلَ، أي: أزف يدلُّ على القربِ الشديد مع ضيق الوقت، وغالبًا يُستعمل مع

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 82.، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 159.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 370.

الأمر المخوَّف منه[1]، بينما القربُ هو مقابلُ البعد، ويُستعمَلُ في المكان، وفي الزَّمان، وفي النِّسبة، وفي الحظوة، والرِّعاية، والقدرة[2]، فهو أعمُّ من أزفَ معنى واستعمالًا، وقد ناسبَ هنا استعمال أزفت الآزفة؛ لكونها أبلغَ من (قَرُبَ)، وأشدَّ تخويفًا وتحذيرًا، فقد دلَّت على شدَّةِ القرب وضيقِ الوقت، وهذا يتناسب مع قربِ وقوع يوم القيامة - فهي تأتي بغتةً - وما يقع فيها من أهوال.

(1) الراغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أزف).
(2) الراغب، المفردات: (قرب).

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ۝٦٢﴾ [النجم: 59 - 62]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

تكذيبُ القرآن بعد تحقُّقِ وقوع الإهلاك ونفي كشفِ كُرَب القيامة سببٌ للتوبيخ

لمّا أفهَمَ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أنَّ اللّهَ تعالى يكشفُ كُرَبَها عمَّن يُريدُ مِن عِبادِه، ويُثَقِّلُه على من يشاءُ، ويكشفُ علمَها بإقامتِها، ولا حيلةَ لغَيرِه في شَيءٍ من ذلك بوجهٍ؛ سبَّبَ عنه، وعمّا تقدَّمه من الإنذارِ قَولُه مُنكِرًا موَبِّخًا من كذَّب بالقرآن، واستهزأ به، وأعرضَ عنه: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾: أصلُ (حدث) هو كَوْنُ شيءٍ لم يَكُنْ، ومنه الحَديثُ؛ لأنَّه كَلامٌ يَحدُثُ منه الشَّيءُ بَعدَ الشَّيءِ[2]، والحديثُ: نقيضُ القديم، والحديثُ: الخبرُ قليلُه وكثيرُه، وهو ما يُحدِّثُ به المُحَدِّثُ تَحديثًا، واستحدثتُ خبرًا، أي: وجدتُ خبرًا جديدًا[3]، "وكلُّ كلامٍ يبلغُ الإنسانَ من جهةِ السَّمع، أوِ الوحيِ في يقظته، أو منامِه، يُقال له: حديثٌ"[4]، ومعنى ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ في الآية: بعضُ القرآن وما جاء فيه من الكلام والخبر؛ إشارة إلى ما ذكر من الإنذار بأخبار الذين كذَّبوا الرسل[5].

2) ﴿تَعْجَبُونَ﴾: أصلُ (عجب) يدلُّ على كِبْرٍ واستِكبارٍ لِلشَّيءِ، وأمْرٌ عَجيبٌ؛ إذا استُكبِرَ، واستُعظِمَ، وشيء مُعْجِبٌ، أي: حَسَنٌ[6]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 22/ 558.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حدث).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (حدث).
(4) الرّاغب، المفردات: (حدث).
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 160.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عجب).

والعَجَبُ: إنكارُ ما يَرِدُ عَلَيكَ لِقلَّةِ اعتيادِه[1]، والعجبُ والتعجُّبُ: حالةٌ تعرضُ للإنسان عند الجهلِ بسببِ الشيء، أو إذا خرجَ بها المتعجَّبُ منه عن نظائره، فالعجبُ هو الشَّيءُ الذي لم يُعرفْ سببه، ولم يُعهدْ مثله[2]، ومعنى العجب هنا: الاستبعادُ والإحالة، أو كنايةٌ عن الإنكار[3].

3) ﴿سَٰمِدُونَ﴾: أصلُ (سمد) يَدُلُّ على مُضيٍّ قُدُمًا مِن غيرِ تَعريج، ومِنهُ السُّمودُ الَّذي هوَ اللّهوُ؛ لأنَّ اللّاهيَ يَمْضي في أمرِهِ غَيرَ مُعَرِّجٍ ولا مُتَمَكِّثٍ[4]، وسمدَ سمودًا: قامَ رافعًا رأسه ناصبًا صدره، كما يَسمُدُ الفحلُ؛ إذا هاج، وسَمَدَ: غَنَّى؛ لأنَّ المغنّي يرفعُ رأسه، وينصبُ صدره، ومعنى قوله: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾: مستغلظون راكبون رؤوسكم في الباطل، سادرون غيرَ خاشعين، لاهون غافلون، أو معرضون مستكبرون[5]، فرحون بأنفسكم، تتغنّون بالأغاني؛ لقلَّة الاكتراث بما تسمعون من القرآن[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تـحـذيـرٌ من إنـكـارِ الـقـرآن والاستـهـزاء به والإعــراضِ عن مواعظه وحكمه

يقولُ تعالى ذِكره لمشركي قريش: أفمن هذا القرآنِ - أيُّها النّاس - تَعْجبون أنْ نزلَ على محمَّد ﷺ وتضحكون منه استهزاءً به، ولا تبكون ممّا فيه من الوعيد لأهل معاصي اللّه، وأنتم من أهل معاصيه، لاهونَ عمّا فيه من العِبَر والذِّكر، معرضونَ عن آياته، فاسجدوا للّه - أيُّها الناس - في صلاتكم دون مَن سواه من الآلهة والأنداد، وإيّاه فاعبدوا دونَ غيره، فإنَّه لا ينبغي أن تكون العبادة إلّا له سبحانه فأخلصوا له، ولا تجعلوا له شريكًا في عبادتكم إيّاه[7].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (عجب).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عجب).
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 160.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمد).
(5) حاشية الصاوي على الجلالين، ص: 1885.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 160.
(7) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 558.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التعبير بالاستفهام في قوله: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾:

إنـكـارٌ وتوبيخٌ وتـجـهـيـلٌ للمشركين على مقابلةِ الإنـذار بالسخرية

الهمزةُ في قوله: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ للاستفهام الإنكاري، داخلةٌ على محذوف استفهام إنكارِ وقوع العجب منه من المشركين، ثمَّ توبيخٌ لهم عليه وتجهيل؛ لأنَّهم لو كانوا يعقلون؛ لبَكَوا من خشيةِ اللّه بدلَ أنْ يضحكوا، وهم لاهون فكهون بسخريتهم منه، وإنكارهم لجديَّة ذلك الحديث.

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿أَفَمِنۡ﴾:

تـعـجـيـبٌ من مقابلةِ المشركين الـقـرآنَ المعجز سـبـبُ هــزءٍ لا اتّعاظ وإيمان

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾ عاطفة، وهمزةُ الاستفهام مقدَّمةٌ من تأخير؛ لأنَّ لها الصدارة في الجملة؛ إذ الأصلُ (فأمن هذا الحديث)، والمعطوفُ عليه محذوف، والتقدير: أتكذبون نبوَّة محمَّد ﷺ فتعجبون من هذا القرآن الذي أنزلَ عليه[1]، أو هي تفريعٌ على قوله تعالى: ﴿هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾، أي: فُرِّع عن وصفِ القرآن، بأنَّه نذيرٌ استِفهام إنكارٍ وتَوبيخ لمن أنكره[2]، ولو لم يردِ البيانُ القرآنيُّ العطفَ؛ لقال: أمن هذا الحديث؟ إلّا أنَّه أتى بالعطف للتعجيب من جعل المعطوف عليه سببًا للاستهزاء به والسُّخرية منه[3].

معنى (مِن) ودلالتها في قوله: ﴿أَفَمِنۡ﴾:

في البيانيَّة إنكارٌ على المشركين، وفي الابتدائيَّة توبيخٌ لهم

(مِن) في الآية بيانيَّةٌ تبيِّنُ موضعَ التَّعجُّب، وهو الذي وقعَ عليه فعل التَّعجُّب، والتقدير: أتتعجَّبون من هذا الحديث، وهو القرآن الكريم؟ وفيها إشارةٌ إلى موضعِ التُّهمة أو الإنكار، أي: كيف يكون التَّعجُّب من شيء بهذه العظمة؟ ويمكن أنْ تُحمل أيضًا على معنى

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 160.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 190.

الابتداء، أي: أتعجبون ابتداءً من هذا الحديث، وكأنَّه أوَّل ما يثيرُ تعجُّبكم، وفيه توبيخٌ لهم؛ لأنَّهم يجعلون أولى ردّات فعلهم للقرآن تعجُّبًا وسخرية؟.

الغرض من التعبير باسم الإشارة الدّالِّ على القريب ﴿هَٰذَا﴾:

التَّعجُّبُ من القرآن أو الإنذار الحاضر الواضح العظيم يُكثِّفُ توبيخ المشركين

الإشارةُ بـ﴿هَٰذَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾، إلى ما ذكرَ من الإنذار بأخبار الذين كذَّبوا الرسل[1]، أو القرآن، أو قوله: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ﴾، فإنَّهم كانوا يتعجَّبون من حشرِ الأجساد وجمع العظام بعد الفساد[2]، وفي استعمالِ القرآن اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾، الدّال على القربِ تنبيهٌ للسامع على أهمّيَّة المشار إليه، وأنَّه حديثٌ عظيمُ الشأن حاضرٌ واضحٌ لا غموضَ فيه، واستبعادُ التَّعجُّب منه، ممّا يُكثِّفُ التوبيخَ واللومَ على المشركين.

سرُّ إيثار لفظ ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ معرَّفًا:

حديثٌ معجزٌ في متابعته لِما يتجدَّد من الوقائع والحاجات

آثرَ البيانُ القرآني لفظَ الحديث في التعبير عن القرآن، في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾ دون لفظِ الكلام أو الخبر؛ للإشارةِ إلى إعجازه في متابعته لِما يتجدَّد من الوقائع والحاجات، وآثرَ أن يأتي به معرَّفًا بـ(الـ) العهدية؛ ليبيِّن أنَّ المقصودَ هو القرآن الكريم نفسه، الكلام المفصل الواضح المبين، وليس مجرَّد كلام عام أو حديث عابر، وليؤكِّد على القدر والمكانة، فـ (الـ) تُبرزُ عظمةَ الكلام وخصوصيته، والمعنى: أفتنكرون هذا القول العظيم، الذي يأتيكم على سبيلِ التَّجدُّد، بحسب الوقائع والحاجات[3]، كما أنَّ التَّعبير بلفظ الحديث عن القرآن؛ ليشملَ مع القرآن كاملًا ما سبق من الحديث عن القيامة؛ إذ يحتملُ أن يُراد بالحديث المشار إليه قوله: ﴿أَزِفَتِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 160.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 287.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 82.

﴿ٱلۡأٓزِفَةُ﴾، فإنَّهم كانوا يتعجَّبون من حشر الأجساد، وجمع العظام بعد الفساد[1]، أو ما ذُكِر من الإنذار بأخبار الذين كذَّبوا الرُّسل[2].

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾:

الإنكارُ الموجَّه للمشركين مقصورٌ على إنكارهم لهذا الحديث

تقديمُ الجار والمجرور، وهو ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ﴾، على الفعل ﴿تَعۡجَبُونَ﴾، فلم يقل: (أفتعجبون من هذا الحديث؟)؛ لأنَّ محطَّ الإنكار ليس هو فعل العجب، وإنَّما هو كون الحديث المشار إليه - وهو آياتُ القرآن - هو المتعجَّب منه[3]، ولإفادة القصر، أي: الإنكار الموجَّه للمشركين مقصورٌ على إنكارهم لهذا الحديث؛ إذ في غيره يمكن أن يكون لهم فيه عذرٌ أو شبهة، أي: هذا الحديثُ ليس أهلًا لأن تُقابلوه بالضَّحك والاستهزاءِ والتَّكذيب، ولو قابلتُم بفِعلِكم كلامًا غيرَه؛ لَكان لكم شُبْهةٌ في فِعلِكم، فأمّا مُقابلتُكم هذا الحديثَ بما فعَلْتُم، فلا عُذْرَ لكمْ فيها[4].

دلالة التعبير بالمضارع المسند إلى واو الجماعة ﴿تَعۡجَبُونَ﴾:

تـجـدُّدُ إنـكـارِ المشركين لآياتِ القرآن دليلٌ على شدَّة طغيانهم

آثرَ البيانُ القرآنيُّ صيغةَ المضارعة في قوله ﴿تَعۡجَبُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ هذا السلوك - وهو الإنكارُ والسخرية من القرآن - يتكرَّر من المشركين، ولم يفعلوه مرَّة واحدة، وهذا يدلُّ على شدَّة عتوِّهم وكفرهم.

بلاغة التعبير بالكناية في: ﴿تَعۡجَبُونَ﴾:

استبعادٌ من المشركين وإحالةٌ وإنكارٌ لآياتِ القرآن

العجبُ هو الشعورُ بالدهشة والغرابة تجاهَ هذا الحديث، ولكن لفظ ﴿تَعۡجَبُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ﴾، لا يعني الدَّهشة، وإنَّما هو كناية عن الاستبعاد والإحالة، كقوله:

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 287.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 160.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 190.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 161.

﴿أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [هود: 73]، أو كنايةٌ عن الإنكار لآيات القرآن[1]؛ لأنَّ العجبَ لا يكون إلّا من الأشياء غير المألوفة[2].

دلالة العطف بالواو في ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾:

جمعُ المشركين بين إنكارهم القرآن والاستهزاء به دليلٌ على شدَّة ضلالهم

لفظ ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾ معطوفٌ على ﴿تَعۡجَبُونَ﴾[3]؛ للدَّلالة على شدَّة ضلالهم وطغيانهم، فقد جمعوا بين إنكارِ القرآن رغمَ أنَّه في غايةِ ما يكون من ترقيقِ القلوب والاستهزاء به؛ لأنَّه قد يمسك المنكر نفسه عن الضحك، ولكنَّهم لم يفعلوا ذلك[4].

دلالة العطف بالواو: ﴿وَلَا تَبۡكُونَ﴾:

في العطف دلالة على بلوغ الكافرين الغاية في الإعراض

عطْفُ ﴿وَلَا تَبۡكُونَ﴾ على ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾، يفيدُ أنَّ الكافرين جمعوا بين الضحك من القرآن، وما أُنذروا به استهزاءً، وعدمِ البكاء خشوعًا وتأثُّرًا، بما يدلُّ على أنَّهم بلغوا الغاية في الإعراضِ عن الحقِّ.

دلالة النفي بـ(لا) والتعبير بالمضارع مسندا:

تجدُّدُ عدمِ تأثُّر الكافرين بالقرآن والنُّذر يفيدُ قسوةَ قلوبهم وشدَّةَ غفلتهم

(لا) أداةُ نفيٍ تدخلُ على الفعل المضارع المفيد للتجدُّد الحدوثي، وقد أفادتْ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبۡكُونَ﴾ تجدُّد عدم بكاءِ الكافرين خوفًا من الوعيد الَّذي اشتملَ عليه، وحزنًا على ما فرَّطتم في شأنه، وخوفًا من أنْ يحيقَ بكم مثل ما حاقَ بالأمم المذكورة هنا، وهذا التجدُّدُ يفيدُ قسوةَ قلوبهم وشدَّةَ غفلتهم.

بلاغة التعبير بالطباق بين ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾، و﴿تَبۡكُونَ﴾:

مبالغةٌ في توكيدِ إعراضهم عن الحقِّ

في الآية محسِّنُ الطباق؛ إذ جمعَ بين الضحكِ والبكاء، وفي نسبةِ ضحكِ الاستهزاء من القرآن، وممّا جاء به النبي ﷺ ونفي ضدِّه،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 160.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 4/ 190.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 369.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 82.

وهو البكاء، فلا يبكون خشية من اللّه تعالى ومن سماعِ ما اشتمل عليه هذا القرآن من وعد ووعيد؛ مبالغةٌ في توكيد إعراضهم عن الحقِّ.

معنى الواو ودلالتها في: ﴿وَأَنتُمۡ﴾:

إخبارٌ بأنَّ المشركين سامدون أو تصويرٌ لحالتهم هذه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾ إمّا استئنافية، والجملةُ بعدها مستأنفة، أي: أخبرَ اللّه تعالى عنهم بأنَّهم سامدون، أو حاليَّة، والجملةُ حالٌ مِن فاعلِ ﴿وَلَا تَبۡكُونَ﴾، أي: انتفى عنكم التباكي حالَ كونِكم سامدين[1]، وفي الحالِ تصويرٌ للحالة الراهنة للمشركين، وهم في وضعِ السَّمْد المستمرِّ تجاه الحقِّ والدعوة، في لحظة مخاطبتهم بالوعد والعقاب، ممّا يُبرز استكبارهم وتماديهم.

دلالة التعبير بـ ﴿سَٰمِدُونَ﴾ مادة وصيغة:

اتحادُ الكافرين في رفضِ الحقِّ بأشكاله يزيدُ من قوَّة توبيخهم

آثرَ البيانُ الحكيمُ لفظ ﴿سَٰمِدُونَ﴾، في قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ﴾؛ لكونه أوسعَ دلالةً؛ فقد ذكرَ المفسرون من السلف لها معانٍ عديدة منها: لاهون عمّا فيه من العِبَر، ومعرضون عن آياته كِبرًا وغِضابًا مُبَرْطِمينَ، أي: شامِخين ومغنّين ولاعبين، وهي لغة أهل اليمن، ومستكبرين وغافلين، ولا ريبَ أنَّ كلَّ ذلك ممّا كان يصدرُ عن المشركين[2]، ولو عبَّر بأحد هذه المعاني؛ لاقتصرَ عليه.

وذكر لفظ ﴿سَٰمِدُونَ﴾ باسم الفاعل المفيد للثبوت والدوام؛ لأنَّ الغفلةَ والانشغالَ باللّهو والترف والتكذيب والكبر والتشويش على القرآن دائمةٌ، وأمّا الضحكُ والعجب؛ فهما أمران يتجدّدان، ويعدمان[3].

وجاءتْ صيغةُ الجمع متناسبةً مع أسلوبِ الخطاب الذي هو بصيغة الجمع، مثل: ﴿تَعۡجَبُونَ﴾، ﴿وَتَضۡحَكُونَ﴾، ﴿وَلَا تَبۡكُونَ﴾، ﴿وَأَنتُمۡ﴾، ﴿فَٱسۡجُدُوا۟﴾، ولإفادة شموليَّة التوبيخ لجماعة المشركين كلِّهم، ولإفادة

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 10/ 116.
(2) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 84.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 287.

كثرةِ الفاعلين واتِّفاقهم على التَّكبُّر والاستهزاء بالقرآن الكريم، واتِّحادهم في رفضِ الحقِّ، ممّا يزيدُ من قوَّة التوبيخ.

معنى الفاء ودلالتها في: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾:

من شأنِ التوبيخ أن يكفَّ العاقلُ عن البطَرِ والاستخفافِ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾، إمّا تفريعٌ على الإنكار والتَّوبيخ المُفرَّعَين على الإنذارِ بالوعيد، فُرِّعَ عليه أمرُهم بالسُّجود للّه؛ لأنَّ ذلك التَّوبيخ من شأنه أن يؤثِّر في قلوبهم، فيَكفَّهم عمّا هم فيه من البطَرِ والاستخفافِ بالدّاعي إلى اللّهِ، ويخضعوا للملك الأعظم[1]، أو ترتيبٌ وتفريعٌ على ما تقرَّر من بطلان مقابلة القرآن بالإنكار[2]، أو فصيحة، أي: إن تدبَّرتم هذا كلَّه، ووعيتموه حقَّ الوعي؛ فاسجدوا[3].

دلالة الأمر المسند إلى واو الجماعة: ﴿فَٱسۡجُدُواْ﴾:

أمرٌ حقيقيٌّ للمشركين بالخضوع لله والكفِّ عن تكذيبِ رسوله

مقتضى تناسق الضمائر أنَّ الخطاب في قوله: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾، موجَّهٌ إلى المشركين، وهو أمرٌ حقيقيٌّ لهم بالخضوع للّه والكفِّ عن تكذيبِ رسوله وعن إعراضهم عن القرآن؛ لأنَّ ذلك كلَّه استخفافٌ بحقِّ اللّه، وكان عليهم لَمّا دُعوا إلى اللّه أن يتدبَّروا، وينظروا في دلائل صدق الرسول والقرآن[4]، "ويحتملُ أنْ يكون الأمرُ عامًّا، ويحتملُ أن يكون التفاتًا، فيكون كأنَّه قال: أيُّها المؤمنون اسجدوا شكرًا على الهداية، واشتغلوا بالعبادة"[5]، ويتضمَّنُ هذا الأمر الدوامَ على الخضوع للّه، أي: اخضعوا خضوعًا كثيرًا للّه الملك الأعظم[6]؛ لأنَّ الأمرَ يقتضي التكرار، وتشيرُ صيغةُ الجمع فيه على مخاطبةٍ جماعية لكلِّ المخاطَبين، وعلى شموليَّة العبادة والخضوع للّه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 85، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 161.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 28/ 180.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 369.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 161.
(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 287.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 85.

بلاغة التعبير بالكناية في لفظ السجود:

السجودُ فعلٌ يُعبِّر عن التسليمِ الكامل لله

أَمْرُ اللّهِ للمشركين بالسجود، في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾، كنايةٌ عن الأمرِ بأن يُسلِموا؛ لأنَّ الصَّلاةَ شِعارُ الإسلام، وهذا باعتبارِ المراد من السُّجود في الآية سُجود الصَّلاةِ لا الخضوع[1].

معنى اللام ودلالتها في ﴿لِلَّهِ﴾:

السجودُ لا يكون إلّا لله

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ﴾ للاختصاص، والمعنى: خصّوا اللّهَ بالخضوع له لا لغيره، أي: أمرٌ بالسجود للّه خصوصًا؛ ليدلَّ ذلك على فضله، وأنَّه سرُّ العبادة ولبُّها، فإنَّ لبَّها الخشوعُ للّه، والخضوعُ له، والسجودُ هو أعظمُ حالةٍ يخضعُ بها العبد[2].

سرُّ التصريح باسم الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾:

تعظيمٌ وتفخيمٌ لشأن المأمور بالسجود والعبادة له

صرَّحَ القرآنُ بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾، ولم يقلْ: فاسجدوا له؛ تعظيمًا وتفخيمًا لشأنِ المأمور بالسجود والعبادة له، أي: اسجدوا للملك الأعظم[3]؛ لأنَّ الاسمَ الجليل يحملُ في ذاته كلَّ صفاتِ الكمال والجلال، كما أنَّه يوقظُ في السامع رهبةً وخشوعًا، وهو ما يتناسبُ مع مقامِ الأمر بالسجود، وهو أسمى مظاهر العبودية، ولتحقيق كمالِ التناسب مع أول السورة، التي بدأتْ بإبرازِ سلطانه بضمير الغائب، فناسب أنْ تُختم بالاسم الصريح.

دلالة العطف بالواو في ﴿وَٱعۡبُدُواْ۩﴾:

من خضعَ لله حقَّ الخضوع؛ عبَدَهُ حقَّ العبادة

عطفَ البيانُ القرآن الأمرَ بالعبادة على الأمرِ بالسجود، في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعۡبُدُواْ۩﴾؛ لأنَّهم إذا خَضَعوا له حَقَّ الخُضوع، عَبَدوه، وتَرَكوا عِبادةَ الأصنام، وقد كان المشرِكون يَعبُدون الأصنامَ بالطَّوافِ حوْلَها، ومُعرِضين عن عِبادةِ اللّهِ، أو واعبدوه العبادة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 161.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 822.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 85.

الكاملة، وهي التي يُفردُ بها؛ لأنَّ إشراكَ غيره في العبادة - التي لا يستحقُّها إلا هو - كعدم العبادة؛ إذ الإشراكُ إخلالٌ كبير بعبادة اللّه، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: 36](1).

دلالة الأمر المسند إلى واو الجماعة: ﴿وَٱعْبُدُواْ۩﴾:

خَـتْـمُ الـسـورة بالأمر بالعبادة؛ لأنَّ آخـرَهـا نتيجةُ أوَّلِـهـا، ومُفَصَّلَها ثمرةُ موصَلِها

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ۩﴾ أمرٌ حقيقيٌّ لهم بعبادة اللّه الكاملة الَّتي لا يشوبها شيء من الشرك، ومنها اتِّخاذ الأصنام شركاء للّه، وهو أمرٌ يفيدُ الاستمرار والدَّوام على العبادة، وصيغةُ الجمع فيه تفيدُ شمولية العبادة للّه، أي: اعبدوه بكلِّ أنواع العبادة، فإنَّه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ [النجم: 2] عن الأمر بذلك ﴿وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: 2]، وختمُ السورة بهذا الأمر يظهرُ أنَّ آخرَ السورة نتيجةُ أوَّلِها، ومُفَصَّلَها ثمرةُ موصَلِها(2).

الغرض من حذف متعلِّق ﴿وَٱعْبُدُواْ۩﴾:

الـعـبـادةُ في الحقيقة لا تكونُ إلّا لله

حذفَ البيانُ الحكيم متعلِّق ﴿وَٱعْبُدُواْ۩﴾، فلم يقلْ سبحانه: (اعْبُدوا اللّه)، إمّا إفادةَ عموم العبادة، أي: أمرَ بالعبادة عمومًا، الشاملة لجميع ما يحبُّه اللّه، ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة(3)، أو لكونه معلومًا من السياق، فحُذِفَ اختصارًا، وإمّا لأنَّ العبادة في الحقيقة لا تكونُ إلّا للّه، فقال: واعبدوا، أي: ائتوا بالمأمور، ولا تعبدوا غيرَ اللّه؛ لأنَّها ليستْ بعبادة، وهذا يناسبُ سجدةَ التلاوة في الآية عند قراءته مناسبةً أشدَّ وأتمَّ ممّا إذا حملناه على العموم(4).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

السُّمود واللّهو والغفلة:

المـشـركـون معرضون لاهون غافلون يتغنّون غـيـر مـكـترثـين بما جاءهم من القرآن

السُّمودُ لهوٌ مصحوبٌ بغناءٍ مع استهتارٍ وغفلة واستكبار؛ إذ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 161.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 85.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 822.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 287.

السُّمودُ هوَ اللّهوُ، وسَمَدَ: غَنَّى، وسمدَ سمودًا: قام رافعًا رأسه، ناصبًا صدره، كما يَسْمُد الفحل؛ إذا هاج؛ لأنَّ المغنّي يرفع رأسه، وينصب صدره، فالسّامِدُ: اللّاهي الرّافع رأسه[1]، بينما اللّهو انشغالُ الإنسان عمّا يعنيه، ويُهمُّه، أي: شغلٌ عن شيءٍ مهمٍّ بشيء لا فائدةَ منه[2]، وأمّا الغفلةُ؛ فهي سهوٌ يعتري الإنسانَ من قلَّة التَّحفُّظ والتَّيقُّظ[3]، وربَّما كان عن عمدٍ، إمّا لانشغاله بغيره، أو تركه إهمالًا وإعراضًا[4]، وقد استعملَ البيانُ القرآني هنا لفظ سامدون؛ لكونه أبلغَ في الذَّمِّ وأدلَّ على أنَّ المشركين رغمَ كلِّ ما جاءهم من المواعظ معرضون مستغلظون، راكبون رؤوسهم في الباطلِ لاهون غافلون، ويتغنّون غيرَ مكترثين بما جاءهم من القرآن.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سمد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (لهو).
(3) الراغب، المفردات: (غفل)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 140.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (غفل).

سُورَةُ القَمَرِ

سُورَةُ القَمَرِ

❁ التّعريف العامّ بالسّورة

المكّيّ والمدنيّ وعدد الآي:

سورة القمر كلّها مكّيّة

سورة القمر كلّها مكّيّة[1]، وذكر السّيوطيّ أنّه استُثنيَ مِنها قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، وقيلَ: استُثني قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾، ثمّ علَّقَ على ذلك فقال: "هو مَرْدودٌ، فقد نزل بمكَّةَ قوله: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، قال عُمر بن الخطّاب: فقلت: أيُّ جمعٍ؟ فلمّا كان يومَ بدر، وانهزمَت قُرَيشٌ نَظَرتُ إلى رسول اللّه ﷺ في آثارهم مُصْلتًا بالسَّيف ويَقولُ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ فكانت ليوم بدرٍ"[2]، فلعلَّ الرّواياتِ الواردةَ في ذلك محمولةٌ على أنّ النّبيّ ﷺ تلا هذه الآيات يوم بدر[3]. وقال ابن عطيّة: "فإنّما كان رسول اللّه ﷺ في بدر مُستشهِدًا بالآية"[4]، وأمّا عدد آياتها: فهي خمسٌ وخمسون آيةً باتّفاق علماء العدد[5].

ترتيب النّزول وترتيب المُصحف:

السّورة محاطةٌ بالسّور المكّيّة في ترتيبها المُصحفيّ والنُّزوليّ

هذه السّورة هي الرّابعة والخمسون في ترتيب المُصحف الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت، والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق، وقد جاء ترتيبها بين سورتيّ (النّجم) و(الرّحمن)، وهي السّورةُ السّابعة والثّلاثون في تَرتيب نُزول السّوَرِ، نَزلَت بعدَ سورة (الطّارق) وقَبلَ سورة (ص)[6]، وقيل: إنّ ترتيبها السّادسةُ والثّلاثون[7].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 211، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.
(2) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 65، 1/ 132.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 165.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 220.
(5) الدّاني، البيان في عدِّ آي القرآن، ص: 236.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 165، ودروزة، التّفسير الحديث: 2/ 271.
(7) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 42.

فضائل السّورة:

القراءة بالسّورة في الأعياد دليلُ مكانتِها في التّذكير والتّمجيد

سورة القمر من سور المُفصَّل الّذي قال فيه النَّبيّ ﷺ فيما رواه عنه واثلةُ بن الأسقع رضي الله عنه: «أُعطيتُ مكانَ التَّوراةِ السَّبعَ الطِّوالَ، وأُعطيتُ مكانَ الزَّبورِ المِئين، وأُعطيتُ مكانَ الإنجيلِ المثانيَ، وفُضِّلتُ بالمُفصَّلِ»(1)، وقد كان النّبيّ ﷺ يقرأ بها في الأعياد، فعن عُمرَ بن الخطّابِ أنّه سأل أبا واقِدٍ اللَّيثيَّ: «ما كانَ يَقرَأُ به رَسولُ اللّه ﷺ في الأضحى والفِطرِ؟ فقال: كان يَقرأُ فيهما بـ: ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ [ق: 1]، و﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾»(2).

التّوقيت الزّمنيّ لنزول السّورة الكريمة:

نزول السّورة في أواسط العهدِ المكّيّ

لم يثبت شيءٌ صحيح مِنَ الرّوايات في تاريخ نزول السّورة الكريمة، ولكنّ الّذي يبدو من خلال ما جاء في الصّحيح عن عائشة رضي اللّه تعالى عنها أنّها قالت: «لقد أُنزِلَ على محمّد ﷺ بمكّة، وإنّي لَجاريةٌ ألعبُ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾»(3)، وكانت عُقِد عليها في شَوّالٍ قبلَ الهجرة بثلاث سِنينَ، أي: في أواخر سَنَة أربعٍ قبلَ الهِجرة بمكَّة، وعائِشةُ يَومئذٍ بنتُ سِتِّ سِنينَ. وذكر بَعضُ المُفَسِّرينَ أنَّ انشِقاقَ القمرِ كان سنةَ خَمسٍ قبلَ الهِجرةِ، وعن ابن عبّاسٍ رضي الله عنهما: "كان بينَ نزولِ آية ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وبينَ بَدرٍ سبعُ سِنين"(4)، وهذا يعني: أنّها نزلَت تقريبًا في أواسط العهد المكّيّ، حيثُ اشتدّ التّضييق على هذه الدّعوة وأصحابها، واشتدَّتِ الشّبهات والاتّهامات حولَها، فنزلت هذه السّورة لردّ هذه الشّبهات وإثبات مصدريّة الوحي.

(1) أخرجه أحمد في المسند، برقم: (16982)، والطّبرانيّ في المعجم: 22/ 76، برقم: (187)، والبيهقيّ في شعب الإيمان: 4/ 71.
(2) مسلم في صحيحه، بابُ ما يُقرأُ به في صلاة الْعِيدَين، برقم: (891).
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، باب: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، برقم: (4595).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 166.

أُخِذ اسمُ السّورة من مَطلَعِها كما اشتُهر ذلك في الرّوايات وكتب التّفسير

اسم السّورة وسبب تسميتها:

وردَت تسميةُ السّورة بسورة ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ عند البخاريّ[1] ومُسلم[2]، وعند التّرمذيّ سورة القمر[3]، وسببُ تسميتها بذلك استهلالُها بذِكره[4]. وقد ربط البقاعيّ بين اسمها ومَقصودها، فقال: "ومقصودها: بيان آخر النّجم في أمر السّاعة، من تحقّقها، وشدّة قُربها، وتصنيفِ أهلها باعتبار ما ذُكر هنا؛ وذلك لأنّه سبحانه وعدَ بذلك، بإخباره ﷺ عنه به، وتحقّقِ صدقه بما أيّده به من آياته الّتي ثَبَتَ بها اقتدارُه على ما يريد، مِنَ الإيجاد والإعدام. فثَبتَ تفرّدُه بالمُلك، وأيّد اقترابها بالتّأثير في آية اللّيل، بما يدُلُّ على الاقتدار على نقض السّماوات المُستلزم لإهلاك الأرض، فآذن ذلك بأنّه ما بقي إلّا تأثيرُ آية النّهار، وعندها يكون طيّ الانتشار، وعمومُ البوار المُؤذن بالإحضار، لدى الواحد القهّار"[5].

وما قاله البقاعيّ له وجاهته، فقام محور السّورة على تحقيق الوعيد للمُكذِّبين بدعوة النّبيّ ﷺ، وذلك بتحذيرهم ممّا سيصيبهم، وممّا أصاب به المُكذِّبين قبلَهم، ولعلّ تسميتَها بسورة (القمر) مرتبطٌ إمّا بمعجزة اللّه تعالى الحسّيّة لنبيّه بحادثة انشقاق القمر، وإنّ الّذي أيّده بذلك قادرٌ على نُصْرة دينه ونبيّه، وإمّا مرتبطٌ بقُرب السّاعة، وما يرافقها من أحداثٍ وتبديلٍ لنواميس الكون، وهذا مرتبطٌ أيضًا بوعيدهم واقتراب حسابهم.

إثبات البعث بدايةً ونهاية، وعرضُ مَصارع المُكذِّبين

المِحور العامّ للسّورة:

مِحورُ هذه السّورة واضحٌ وظاهرٌ للعَيان، وهو مُتَّصِلٌ تمام الاتّصال بمحور سورة النّجم الّتي سبقَتها، فلَئن كان محورُ تلك

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، باب: تفسير سورة القمر: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: 4/ 1842.
(2) أخرجه مسلم في صحيحه، بابٌ: ما يُقرأ به في صلاة العيدَين، برقم: (891).
(3) أخرجه التّرمذيّ في سننه، بابٌ: ومِن سورة القَمر: 5/ 397.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 165.
(5) البقاعيّ، مَصاعِد النّظر: 3/ 39، 40.

يقوم على بيان صدق الوحي الّذي جاءهم به نبيّهم من عند ربّه، فإنّ هذه السّورة جاءَت لِتُنذرَ الأقوامَ المُكذّبين بدعوته، وتَعِدَهم العذابَ الشّديدَ الّذي لَحِق مَن سبقهم، وسيلحق بهم في دنياهم وأخراهم، وفي المُقابل وعدَتِ المُتّقين بجنّاتٍ ونَهَرٍ، فهي سورة مُبشِّرة ومُنذِرة في آنٍ واحدٍ. لذا اقتضاها المقام أن تتناول القضايا الآتية:

أوّلًا: بدأتِ السّورةُ الحديث باقتراب السّاعة وانشقاق القمر في الوقت الّذي كذّبوا فيه نبيّهم واتّبعوا أهواءَهم، واقتضاها الأمر أن تأمرَ النّبيّ في مَعرِض تهديدهم بقولها: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

ثانيًا: ذكَّرَتِ السّورةُ المُعرِضين بمَصارع المُكذّبين السّابقين من قوم نوح وعاد، وثمودَ، وقوم لوط، وآلِ فرعونَ، ثمّ وبّختهم بعدَها، وأنكرت عليهم بقولها: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ۝٤٣ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾.

ثالثًا: اقتضاها الأمر أخيرًا أن تبيّن مآل المُجرمين والمُتّقين يوم القيامة؛ مبيّنةً في أثناء ذلك قدرتَه تعالى عليهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٤٧ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾، ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

موضوعات السّورة وخصائصها:

موضوعُ هذه السّورة العامّ كسائر السّور المكّيّة تقريرُ أصول العقيدة الإسلاميّة، بدءًا من إنزال القرآن بالوحي وتهديد المُكذّبين بآياته، وانتهاءً بالجزاء الحتميّ يوم القيامة ومشاهد عذاب الكفّار، وأنواع ثواب المُتّقين وتكريمهم. أمّا تفصيل ذلك فهو كما يأتي:

أوّلًا: أخبرَتِ السّورةُ بقُرب وقت القيامة، ودليلُ ذلك انشقاقُ القمر الّذي هو أحد المُعجزات الكبرى للنّبيّ ﷺ، وبموقفِ المُشركين من تلك المُعجزة، ووصفِها بأنّها سِحر مُفترى، وغفلتهم عمّا في القرآن مِنَ الزّواجر.

ثانيًا: تلا ذلك أمرُ الرّسولِ ﷺ بالإعراض عنهم، وإنذارِهم بحشرهم أذلّةً مُسرِعين

مَـدارُ الـسّـورة يــدور حــولَ أصول العقيدة ووعـيـد الـلـه بالكافرين

كالجَراد المُنتشِر، بعبارات تهزّ المشاعرَ، وتثير المَخاوفَ، وتملأ النّفسَ رُعبًا وفَزَعًا من أهوال القيامة.

ثالثًا: أنذرَتِ السّورةُ كفّار مكّة بعذابٍ مُشابهٍ لعذاب الأمم السّابقة؛ كقوم نوح وعاد وثمودَ وقوم لوط وقوم فِرعونَ، وأفردَت كلَّ قصّة عنِ الأخرى، وعقّبتها بعبارة مُخيفة تدعو للعجب، وهي: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وقرنها بقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

رابعًا: وبّخَتِ السّورةُ مُشركي قريش على غفلتهم عن هذه النّذر، وحذَّرَتهم مَصرَعًا مُماثِلًا لَمصارع أولئك الأقوام، وهو القتل والهزيمة في الدّنيا، وعذابُ الآخرة الأدهى والأمرّ، الّذي يصاحبه الذّلُّ والمَهانة بالسّحب على وجوههم في النّار، فهم في ضلالٍ وسُعر، وخُتِمَتِ السّورةُ ببيان ظاهرة التّوازن في خلق الأشياء، وسرعةِ نفاذ أمر اللّه ومشيئتِه كلمح البصر، وضرورة العَظمة والتَّذكُّر بهلاك الطّغاة، ورصد جميع أعمال البشر في سجلات مَحفوظة، وتبشير المُتَّقين بالجنّات والكَرامات عند ربِّهم المَليك المُقتَدِر[1].

الخصائص الموضوعيّة لسورة القمر:

الـخـصـائـص الموضوعيّة أصلٌ فِي بـنـاء مَبنَى السّورة ومعناها

أوّلًا: تميّزَتِ السّورةُ الكريمة بقِصَر آياتها وتقارُب فواصلها، ممّا أعطاها إيقاعًا خاصًّا بها، وبلاغةً ورَصانةً وجزالةً في ألفاظها، وجَرْسًا صوتيًّا عَذبًا، وهي صفات لازمَتِ الموضوعات الّتي حوتها هذه السّورة، والّتي اتّسمت بالشّدّة الّتي لم نعهدها في سورة مُماثِلة.

ثانيًا: تميّزتِ السّورة الكريمة بأساليبها البلاغيّة البديعة، وتشبيهاتها ذات الصّبغة المُتلائمة مع السّورة جَرْسًا وصوتًا ومعنًى، فعلى سبيل المثال شبّهَت قومَ عادٍ بعد أن جاءَتهم الرّيح الصّرصر

(1) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 143، 144.

بقولها: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾، بينما شُبِّهت حالتَهم في سورة الحاقّة بتشبيهٍ مُختلِف، فقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾ [الحاقة: 7]، ممّا جعل الرُّمّانيَّ يجعل تشبيههم في سورة القمر من باب إخراج ما لم تجرِ به العادةُ إلى ما جرَت به العادة، وقد اجتمعا في قلع الرّيح لهما، وإهلاكِها إيّاهما، في تلك الآية الدّالّة على عظيم القدرة والتّخويف من تعجيل العقوبة، بينما قال عن تشبيههم في سورة الحاقّة: "وهذا تشبيه قد أخرج ما لا يُعلم بالبديهة إلى ما يُعلم، وقد اجتمعا في خُلوّ الأجساد مِنَ الأرواح، وفي ذلك الاحتقار لكلّ شيء يَؤول به الأمر إلى ذلك المآل(1)". فكلّ تشبيه مِنَ التّشبيهين جاء من نوعٍ آخرَ مُختلِفٍ، ويتّسق مع السّياق الّذي جاء فيه.

الخصائص الأسلوبيّة لسورة القمر:

الخصائص الأسلوبيّة والبيانيّة مرتبطةٌ بالخصائص الموضوعيّة

أوّلًا: تميّزتِ السّورة الكريمة بأنّها رائيّةُ الفواصل، فجميع فواصلها مُنتهية بحرف الرّاء، الّذي زادَت مرّات ذِكر الكلمات المحتوية عليه عن مئة مرّة، ومن خصائص هذا الحرف القوّة والتّكرار، وفي هذا التّكرار تذكيرٌ بتكرير قوّة عذاب الكافرين.

ثانيًا: تكرّرت فيها بعض الألفاظ بشكلٍ لافتٍ للنّظر، مثل: كلمة (نذر) ومشتقّاتُها، حيثُ وردت نحو اثنتي عشْرة مرّةً(2)، إحدى عشْرة منها كانت في فواصلها، وكذلك كلمة (كذب) ومشتقّاتُها، حيثُ وردَت نحو تسعِ مرّات(3).

ثالثًا: تكرّر فيها أسلوبُ الاستفهام، حيثُ تكرّر ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أربع مرّات(4)، وجاء قولُه تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

(1) الرّمّانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، ص: 83، 84.

(2) الآيات: 5، 16، 18، 21، 23، 30، 33، 36(2)، 37، 39، 41.

(3) الآيات: 3، 9(2)، 18، 23، 25، 26، 33، 42.

(4) الآيات: 16، 18، 21، 30.

مرّتين[1]، وجاء قولُه تعالى: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ ستّ مرّات[2]، وكلّ ذلك مرتبطٌ بموضوع الوعيد في السّورة الكريمة.

رابعًا: تميّزتِ السّورة الكريمة بأنّها كانَت زاخرةً بأنساقٍ تعبيريّةٍ خاصّةٍ بها، حتّى كأنّ كلّ تراكيبها كانَت كذلك، ممّا يُؤكِّد أنّ لهذه السّورة نظمًا خاصًّا بها، وهي بهذا تُشبه السّورَ اللّاتي سبقنها بخصوصيّة تركيباتها وأنساقها التّعبيريّة، ومنها على سبيل التّمثيل لا الحصر: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، ومنها كذلك قولُه: ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾، وقولُه: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾، وقولُه: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾، وقولُه: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾، وقولُه: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾، وقولُه: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾، وقولُه: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾، وقولُه: ﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾، وقولُه: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾، وهكذا هي بقيّة آياتِ السّورة الكريمة.

خامسًا: تميّزتِ السّورةُ الكريمة بأنّها حوَت أبنيةً صرفيّة لم تأتِ في غيرها من السّور مثل: ﴿أَشِرٞ﴾، ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾، ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾، ﴿وَسُعُرٍ﴾، ﴿مُّحۡتَضَرٞ﴾، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾، ﴿ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾، ﴿وَأَمَرُّ﴾، ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾، ﴿مَلِيكٖ﴾، ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾، ﴿مُّنتَشِرٞ﴾، ﴿عَسِرٞ﴾، ﴿قُدِرَ﴾، ﴿كُفِرَ﴾، ﴿مُّدَّكِرٖ﴾، وغيرها.

سادسًا: تميّزَتِ السّورة الكريمة بأنّها حوَت ألفاظًا فريدة لم ترِد في غيرها مِنَ السّور، من مثل: ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾، ﴿وَدُسُرٖ﴾، ﴿مُّنقَعِرٖ﴾، ﴿أَدۡهَىٰ﴾.

سابعًا: تميّزَتِ السّورة الكريمة بأنّها حوَت قاموسًا من ألفاظ العذاب والوعيد بما يتلاءم مع شخصيّتها، ومن ذلك: ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾، ﴿بَطۡشَتَنَا﴾، ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾، ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾، ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾، ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾، ﴿أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾، ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، ﴿يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾، وغيرها.

---

(1) الآيتان: 37، 39.

(2) الآيات: 15، 17، 22، 32، 40، 51.

مناسبة السّورة لما قبلها:

سورة القمر مُتّصلة تمامًا بسورة النّجم مضمونًا وأسلوبًا

ذَكرَ الغرناطيّ في وجه اعتلاق سورة القمر بسورة النّجم: أنَّه لمّا أعلمَ اللّهُ سبحانه في سورة النّجم "بأنّ إليه المُنتَهى، وأنّ عليه النّشأة الأُخرى، وأنّ ذلك يقع جزاءَ كلّ نفسٍ بما أسلفَت؛ أعلمَهم سبحانه بقُرب ذلك وحسابِه ليَزدجرَ مَن وفّقه للازدجار، فقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾"[1]. كما أنّه اتّفقت خاتمةُ النّجم وفاتحةُ القمر حولَ إعلان قُرب القيامة، فقال تعالى في سورة النّجم: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ٥٧﴾ [النّجم: 57] وقال في القمر: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾، إلّا أنّه ذكر في القمر دليلًا على الاقتراب، وهو قوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾. وتناسبَت تسميةُ السّورتين وحَسُن التّناسق، لِما بين النّجم والقمر مِن تقارب، كما في توالي سورة الشّمس، واللّيل، والضّحى، ومِن قبلها سورةُ الفجر. كما فصّلَت سورةُ القمر أحوالَ الأمم المُشار إلى إهلاكهم بسبب تكذيب رسلهم في النّجم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ٥٣﴾ [50 - 53]، وهذا يُشابه الأعراف بعد الأنعام، والشّعراء بعد الفرقان، والصّافّات بعد يس[2].

(1) الغرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 319، 320.
(2) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 142، 143.

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ
وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ
مُّسۡتَقِرّٞ ٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤
حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ
إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ
كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ
هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨﴾ [القمر: 1 - 8]

مناسبة مَطْلَعِ السّورة لخِتامِ ما قبلها:

خـتـامُ سـورة النّجم بالإنذار العامّ، ومَطلَعُ سـورةِ القمر بالإنذار الحسّيّ الخاصّ

افتُتِحت سورة القمر بقوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، وهذه الآية على وجهٍ بليغ تُناسِب ختامَ السّورة السّابقة، سورةِ النّجم، الّتي جاء فيها قولُه تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ٥٧﴾؛ أي: دنَتِ القيامةُ واقترب وقوعُها، فأُعيد التّذكير باقتراب السّاعة، لكن في هذه المرّة قُرِن القول بالدّليل الحسّيّ، فدلّل على صدق ذلك بوقوع آيةٍ عظيمةٍ، وهي انشقاق القمر، والمعنى: لقد أخبرناكم بأنّ السّاعة قد أزِفَت، وها هو القمر قد انشقّ فعلًا، تأييدًا لهذا القول، وتصديقًا لوقوعها. فجاءَت سورة القمر تَأكيدًا لِما خُتِمَت به سورة النّجم، مع تعزيز الخبر بالحُجّة المَرئيّة الّتي عاينها النّاسُ، ممّا يزيد من وقع الإنذار وبلاغته[1].

مناسبة الآيات فيما بينها:

إعراضُ المُكذِّبين سلوكٌ راسخٌ لا يـزول بالبراهين بل بالعَرْضِ يومَ الدّين

لمّا أعرضَ الكفّارُ عن آية انشقاق القمر، ناسبَ ذكرُ سببِ الإعراض، وهو العِناد والتّكذيب واتّباع الأهواء، فهو انتقالٌ من

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 288.

ذِكر السّلوك إلى بيان سببه، وناسبَ بعد ذلك ذِكرُ إقامةِ الحُجَج الباهرة عليهم، وبيانُ إصرارهم على التّكذيب، فما تُغْنِ النُّذُر مع المُعانِدين، وناسبَ الانتقالُ إلى بيان المَوقِف منهم، وهو التّولّي عنهم، فإنَّ مآلَهم إلى القيامة، يأتون خاشعين من الذُّلِّ، ويخرجون من أجداثهم إلى مصيرهم المحتوم.

شَرْحُ المُفْردات:

1) ﴿مُّسۡتَمِرٌّ﴾: أصل (مرّ) يدلُّ على مُضيِّ شيءٍ، يُقالُ: مرَّ الشَّيءُ يمُرُّ، إذا مضَى[1]. ووَصفُ ﴿مُّسۡتَمِرٌّ﴾ هنا يجوزُ أن يكونَ مُشتقًّا مِن فِعلِ (مَرَّ) الَّذي هو مَجازٌ في الزَّوالِ، والسّينُ والتّاءُ للتَّقوية في الفِعلِ؛ أي: لا يبقى القَمَرُ مُنشقًّا. ويجوزُ أن يكون مُشتقًّا مِنَ المِرَّة بكسرِ الميم؛ أي: القوَّة، من قولِهم: قَد مَرَّ الحَبلُ: إذا صَلُبَ وقَويَ واشتدَّ[2]. والسّينُ والتّاءُ للطَّلَبِ؛ أي: طَلَبٍ لِفِعله مِرَّةً؛ أي: قوَّةً؛ أي: تمكُّنًا. والمعنى: هذا سحرٌ معروفٌ مُتكرِّرٌ؛ أي: مَعهودٌ منه مِثْلُه[3].

2) ﴿مُّسۡتَقِرٌّ﴾: أصلُ (قَرَّ) يدلُّ على الثُّبوتُ والتَّمكُّنُ[4]، يُقالُ: قرَّ الشَّيءُ، يَقِرُّ قرارًا: إذا ثَبَتَ في مَكانِهِ ولم يَتَحَوَّلْ. وقيل: أصلُه مِنَ القُرِّ، وهو البردُ، وهو يقتضي السُّكونَ، والحرُّ يقتضي الحركة. واستَقَرَّ فلانٌ: إذا تحرَّى القَرارَ[5]. ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ﴾ [البقرة: 36]؛ أي: قَرارٌ وثُبوتٌ. وقولُه تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞ﴾ [الأنعام: 67]؛ أي: غايَةٌ ونِهايَةٌ[6]. ومعنى ﴿مُّسۡتَقِرٌّ﴾: مَحَلُّ استقرار، والاستقرارُ بمعنى الحُصولِ؛ أي: لكلِّ موعودٍ به وقتٌ يحصُلُ فيه[7].

3) ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾: أصلُ (زجر) يدلُّ على الانتِهارِ. يُقالُ: زَجَرتُ البَعيرَ حتَّى مضَى، أزجُرُه[8]. وزجرتُه وأزدجرتُه، وهو كالنَّهي عنِ السّوءِ للإنسان، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرّ).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 304، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 90.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 172.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرَّ).
(5) الرّاغب، المفردات: (قرَّ).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (قرر).
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 7/ 287.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زجر).

﴿مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ﴾، وقد يوضع الازدجار مَوضِع الانزجار فيكون لازمًا[1]. فالزَّجرُ: طردٌ بصوتٍ، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ [الصّافّات: 19][2]. ومُزدَجَر: مَصدرٌ ميميٌّ، وأصلُه مُزتجر، فأُبدلَت تاءُ الافتعال دالًا[3]. والمعنى: طردٌ ومنعٌ عنِ ارتكاب المآثم والشِّرك[4].

4) ﴿ٱلنُّذُرُ﴾: أصلُ (نذر) يدلُّ على تخويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ[5]. والنُّذُرُ: جَماعةُ النَّذيرِ (الرُّسُل)، وهو الاسم مِنَ الإنذار. والتَّناذُرُ: إنذارُ بعضِهم بعضًا[6]. والنَّذرُ، وهو أنَّه يَخافُ إذا أخلَفَ[7]. والنُّذُر في الآية معناه: مَن يُخبِرُ غيرَه بأمرٍ مَخوفٍ حتَّى يَحْذَرَه[8]. والمراد: الرُّسُلُ وما حُمِّلوا به من بلاغات النّذير والتّحذير[9].

5) ﴿نُّكُرٍ﴾: أصل (نَكَر) يدُلُّ على خِلافِ المَعرِفَةِ الّتي يَسكُنُ إليها القلبُ[10]. يُقال: نَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَم يَقبَلْهُ قَلبُهُ ولم يَعتَرِفْ به لِسانُهُ. والبابُ كُلُّه راجعٌ إلى هذا. فالنُّكرُ: الدَّهيُ، والنَّكراءُ: الأمرُ الصَّعبُ الشَّديدُ، ونَكُرَ الأمرُ نَكارَةً[11]، و(نُكُر) معناه مُنكَر، وهو الّذي تأباه النَّفسُ من جهة نفور الطَّبع، وذلك أنّهم لم يَرَوا مثلَه قطّ؛ فينكرونَهُ استعظامًا له، وهو صفة على (فُعُل)، مثل: جُنُب، وجُزُر، وأُحُد، ويجوز فيه التَّخفيف، وإنَّما وُصف بأنَّه ﴿نُّكُرٍ﴾ لِغلَظه على النَّفس[12].

6) ﴿خُشَّعًا﴾: أصلُ (خشع) يدُلُّ على التَّطامُنِ. يُقالُ: خَشَعَ، إذا تَطامَنَ وطأطأ رأسَه، يَخشَعُ خُشوعًا[13]. والخُشوعُ: السُّكونُ والتَّذَلُّلُ، يُقالُ: خَشَعَ في صلاته: إذا أقبَلَ بقلبِه على

(1) الأزهريّ، تهذيب اللغة: 10/ 318، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 92.
(2) الرّاغب، المفردات: (زجر)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 431.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 98.
(4) الرّاغب، المفردات: (زجر)، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 431.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 7/ 137.
(9) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 556.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(11) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 13/ 157.
(12) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 95.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خشع).

ذلك، مأخوذٌ مِن خَشَعَتِ الأرضُ: إذا سَكَنَتْ واطمَأنَّتْ، وخَشَعَ بَصَرُهُ؛ أي: رَمَى ببَصَرِه نحوَ الأرضِ، وخفضَ صَوتَهُ. واختَشَعَ: إذا طأطأ صَدرَه وتَواضَعَ[1]. ووُصِفَتِ الأبصارُ بالخُشوعِ؛ لأنَّ ذِلَّةَ الذَّليل وعِزَّةَ العزيزِ تتبيَّن في نظره، كما قال عزَّ ذِكره: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشّورى: 45][2]. والمعنى: ما يبدو عليهم مِن أثَرِ المَذلَّة والمَخافة يوم القيامةِ[3].

7) ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾: (جدث) أصلٌ واحدٌ وهو القَبرُ، والقَبرُ: حَفيرٌ يُجعَلُ لمواراةِ المَيِّت. وجَمْعُه: أجدُثٌ وأجداثٌ[4]. وتُبدَل ثاؤه فاءً، فيُقال: جَدَف وأجداف، نحو: ثَوْمٌ وفَوْم[5].

8) ﴿مُّهْطِعِينَ﴾: أصل (هطع) يدلُّ على إقبالٍ على الشَّيءِ وانقيادٍ[6]. يُقالُ: هَطَعَ الرَّجُلُ: إذا أقبل ببَصَره على الشَّيء لا يُقلِعُ عنه، يَهطَع هُطوعًا[7]، ولا يكون ذَلِك إلّا مَعَ خَوفٍ[8]. والإهطاعُ: الإسراعُ في العَدْو. وأهطَعَ البَعيرُ: صَوَّبَ عُنُقَهُ مُنقادًا. وأهطَعَ: أسرَعَ[9]. ومعنى المُهطِع: الماشي سريعًا مادًّا عُنُقه، وهي مِشيَةُ مذعورٍ غير مُلتَفتٍ إلى شيءٍ.

9) ﴿عَسِرٌ﴾: أصلُ (عسر) يدُلُّ على صُعوبةٍ وشِدَّةٍ[10]. ومنه العُسْر: نقيض اليُسْر، وهو الضَّيِّقُ والشِّدَّةُ والصُّعوبةُ[11]. والعُسرةُ: قِلَّةُ ذاتِ اليَد. وكذلكَ الإعسار. والعُسْرى: الأُمور الَّتي تَعسُر ولا تَتيسَّرُ، واليُسْرى: ما استَيسَرَ منها[12]. وقد عَسِرَ الأمرُ يَعْسَر عَسَرًا، فهو عَسِرٌ، وعَسُر يَعْسُر عُسْرًا، وعَسارَة، فهو عَسير[13]. والمعنى: صِفةٌ مُشبَّهةٌ مِنَ العُسْرِ، وهو الشِّدَّةُ والصُّعوبةُ[14].

---

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 96.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/ 127.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جدث).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جدث).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هطع).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (هطع).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (هطع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (هطع).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسر).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسر).
(12) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عسر).
(13) ابن منظور، لسان العرب: (عسر).
(14) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 178.

المعنى الإجماليّ:

تماديِ المُكذِّبين رغمَ اقتراب القيامة ووضوحِ الآيات

تُخبرُ الآياتُ الكريمة أنّ قيام السّاعة قدِ اقترب، وأنَّ مَن دلائل اقترابها انشقاقَ القمر، وقد وقع ذلك في مكّةَ حين طلبت قريشُ مُعجزة، فانشقّ القمر نصفين، فرأوه رأيَ العَين، ومع ذلك أعرضوا وقالوا: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾؛ أي: سحر مُتواصِل قويّ. لم يكن إنكارُهم عن عقل أو برهان، بل كان اتّباعًا للهوى وتكذيبًا للحقّ. ومع ذلك فقد جاءَهم من أخبار الأمم السّابقة في القرآن ما يكفي للرّدع والاتّعاظ، وفيه مِنَ الحكمة البالغة ما يكشف العاقبةَ، ويُبيّنُ طريقَ الهلاك والنّجاة، لكنّهم لم ينتفعوا بالإنذار. فكان توجيهُ اللّه لنبيّه أن يُعرِضَ عنهم، فإنّما ينتظرون ما قضاه اللّه فيهم. ثمّ صوّر مَشهَدَ البعث: حين يُدعَى النّاسُ إلى المَوقِف المَهول، وتخشعُ أبصارُهم، ويخرجون مِنَ القبور كأنّهم جَرادٌ مُنتشِر، مُسرعين إلى النّداء للحساب. هناك يقول الكافرون: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾، وهو كذلك عسيرٌ على مَن كَذَّب وأعرض، لكنّه على المؤمنين يسير[1].

الإيضاح اللّغويّ والبلاغيّ:

بلاغة صيغة (الافتعال) ودلالتُها:

تأكيد اقتراب القيامة ردٌّ على المُعتقِد البليد، وتحقيقٌ للمعنى التّليد

دلَّ فعل ﴿ٱقۡتَرَبَتِ﴾ على معنى: (قرُبت)، لكنَّ النّظم الكريم آثرَ استعمالَ هذه الصّيغة دون (قربت)؛ ليدلَّ على شدَّة الاقتراب[2]، والاقترابُ أصلُه صيغةُ مُطاوَعةٍ؛ أي: قَبولُ فعلِ الفاعل، وهو هنا للمبالغة في القُرب"[3]؛ أي: تحقُّق الاقترابُ وتأكّد، ولم يبقَ إلّا وقوعُ السّاعة، وفي التّأكيد معنى الرّدِّ على المُنكِرين وقوعَ السّاعة، فكأنَّه قيل: إنْ أنكرتُم وقوعَها فقدِ اقتربت، والاقترابُ مُتحقِّقُ الوقوعِ، مُتأكِّدُ المَجيء.

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 206.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 87، وابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 261.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 170.

دلالة فعلِ الاقتراب بين الحقيقة والمَجاز:

اقتراب السّاعة في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ يحتمل أن يُحملَ على حقيقته، فهو قربٌ نسبيٌّ مقارنة بعُمُر الكونِ الطّويل منذ أن خلقَه اللّه، فالمُدّة المُتبقية حتّى قيامِ السّاعة قصيرةٌ نسبيًّا إذا ما قيسَت بالزّمن الطّويل الّذي مضى، ويُؤيِّده تشبيه النّبيّ ﷺ بين بعثته وقيام السّاعة بإصبعيه السّبابة والوسطى حين قال: «بُعِثتُ أنا والسّاعةَ كهاتين»[1]، كما قال القرطبيّ في معنى الحديث: "وحاصلُه: تقريبُ أمرِ السّاعة الّتي هي القيامةُ، وسرعةُ مجيئها"[2]. ويُحتمل أن يُحملَ على معنًى مجازيّ؛ أي: "الدّلالة على الإمكان، فالمعنى: اتّضح للنّاس ما كانوا يَجدونه مُحالًا من فناء العالَم، فإنّ لِحصول المُثُل والنّظائر إقناعًا بإمكان أمثالها الّتي هي أقوى منها"[3]، فاقترابها هو إثباتٌ لإمكانيّة حدوثِها.

تـقـريـبُ أمـر السّاعة ومباغتةُ المَجـيء حاصلُ الأمـرِ ومَقصودُ الخبر

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

تعريف لفظ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ للعهد الذّهنيّ، وليست للجِنس أو للتّعريف العامّ؛ وذلك لأنَّ (السّاعة) عَلَمٌ بالغَلَبَة في نصوص القرآن الكريم، فهي تُطلَقُ على معلوم ومعهود في أذهان المُخاطَبين، فالاستعمال السّابق للكلمة في الخطاب القرآنيّ جعلها عَهدًا ذهنيًّا، فجاءت (أل) لتّعريف هذا المفهوم المَعهود[4].

تذكير العقول بـأنّ الـسّـاعـةَ يـقـينٌ حـاضر في الــوجـــدان، لا وهــمٌ غـائـب في الخيال

بلاغة انتقاء لفظ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾:

سُمّيت القيامةُ بالسّاعة؛ "لسُرعة الأمر فيها، أو لمجيئها في ساعةٍ من يومها"[5]، وهذا تعليلٌ عامٌّ يصلح لهذا السّياقِ وغيرِه، ونُكتة اختيارِ لفظ السّاعة دونَ القيامة وغيرِها مِنَ الصّفات الدّالّة على

مجـيء القيامة سريعٌ لا يُمهَل وأكيدٌ لا يُهمَل

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (4652).
(2) القرطبيّ، المفهم لِما أشكل من تلخيص كتاب مُسلم: 7/ 305.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 170.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 171.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 408.

ذلك اليوم المَهول، هو ذكر لفظِ الاقتراب الدّالّ على سُرعة الوقت؛ لأنّ ما يشتدُّ قُربُه يَسْرُع مجيئُه، فاصطفى تعالى لفظًا يدُلُّ على تلك السّرعة، كما أنَّ السّاعةَ هي في حقيقتها لوقتٍ قصير يكون بوقوعه وقوعُ حَدَث مُنتظَر، فلمّا كان سياقُ السّورة ذاكرًا البعثَ، وأحداثَ الأمم الماضية، وما جرى لهم من عقوبات ماحقة، ناسبَ ذكرُ السّاعة؛ لأنَّها ساعةٌ خاطِفةٌ سريعةٌ في عمر الزّمن. مع التّلميح إلى معنى المُباغتة، فهي ليست كعادة الأمور في الدّنيا الّتي تأخذ وقتًا، فإذا جاءَت قامَت فجأةً، وانتهَتِ الحسابات والمَصائرُ بسرعة، وفي هذا إشارةٌ إلى الدّهشة، والمُباغتة، وسرعةِ الحَسْم. والسّاعةُ ستجيء في لحظة خاطفة غيرِ مُحدَّدة.

بلاغة الإسناد المَجازيّ وفائدتُه:

الإيماء إلى قُرب الوقوع وشدّة الحَدَث

إسناد فعل الاقتراب إلى السّاعة في قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ مَجازيٌّ، فالسّاعة لا تقتربُ بذاتها، بل وقتها هو الّذي يقترب، واقترابُ زمانِها هو بفعل اللّه تعالى وحدَه، فهو الّذي يُسيِّر الأزمانَ والأحداث، وهو الّذي يتصرّفُ في ملكوته. وفائدة الإسناد: الإيماءُ إلى قُرب الوقوع، وسُرعة الحَدَث، وشِدّة المَوقِف، فما يشتدُّ قُربُه، تشتدُّ مباغتتُه، وتعظُمُ آثارُه.

بلاغة عطف الانشقاق على الاقتراب، ومناسبتُه:

عطفُ الأدلّة على غاياتها إقناعٌ عقليٌّ وتسلسلٌ بدهيٌّ

عَطْفُ قولِه تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ على قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ من باب عَطْفِ الدّليل على مدلوله، والوسيلةِ على غايتها، فانشقاقُ القمرِ هو دليلُ اقتراب السّاعة، وتظهر المناسبةُ بين المعطوف والمعطوف عليه في أنّ اللّهَ جمع بين أمرَين عظيمَين؛ أحدهما: غيبيّ (اقتراب السّاعة)، والآخر: شهوديّ (انشقاق القمر)؛ ليكونَ الثّاني دليلًا على الأوّل، فحصل التّأكيدُ على تلازمهما بالجمع بينهما،

كما تقول: أقبل الأميرُ، وقد جاء المُبشِّر بقدومه[1]. ويحتمل أن يكونَ العطفُ من عطف الحَدَث على الحدث، وعليه يكون الإخبارُ عن الاقتراب مُرادًا به المعنى الحقيقيّ، أي: أوشكت على الوقوع، فيكون العطف لعطف ما تحقّق وجودُه عَيانًا على ما تحقَّق قربُه غيبًا، فكلاهما مُتحقِّق. وعَطفَ الانشقاقَ على الاقتراب دونَ العكس؛ لأنَّ الاقترابَ أوضحُ في العقل الصّريح مِنَ الانشقاق الّذي جاء به الخبرُ الصّحيح، وبه يَندفع قولُ ابنِ كَيْسان بأنّ العطفَ مَحمولٌ "على التّقديم والتّأخير"[2]؛ وذلك لأنَّ التّرتيب في الوقوع؛ أي: ترتيب وقوع الانشقاق على وقوع الاقتراب.

ومناسبة عطفِ الانشقاق على الاقتراب: هو تقرير نفاذِ القُدرة الإلهيّة على أسرع الوجوه وأتمِّها، فكما انشقّ القمر فِلْقَتين فجأةً من غير تمهيدٍ ولا تنبّؤ، فكذلك السّاعةُ ستأتيكم سِراعًا فجأةً من حيثُ لا تحتسبون.

بلاغة المَجاز الإسناديّ:

قـوّةُ الـفـعـل ومُكنتُه هي نُكتَةُ إسـنـادِ الـفعلِ لغير فاعلِه

أُسند فعلُ الانشقاق في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ مَجازًا إلى القمر، فالقمرُ هو الّذي وقع عليه الفعل، وليس هو الفاعل، فالفاعل الحقيقيّ هو اللّٰه تعالى، وهذه عادة العرب في إسناد الفعل إلى ما وقع عليه مِنَ الجمادات، كما يقولون: سقط الحجر، وانكسر الزّجاجُ، وذلك لتصوير المُتحدَّث عنه كأنّما صدر الفعل عنه لقوّته، ومكنةِ الفعل فيه.

دلالة التّعبير بفعل الانشقاق مادّةً وصيغةً:

دلَّ فعلُ الانشقاقِ في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ على حدوث فرْجٍ أو تَصَدُّع في جسمٍ ما، دونَ انفصالٍ تامّ، مثل الشّقّ في الجدار

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 431.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 171.

انشقاقُ القمر برهانٌ مَحسوس يقطع الشّك، ويُثبت حقيقةَ البعث

أو الخشبة، وهذا يُطابِقُ وصفَ ما حدث للقمر؛ فهو لم يُحطَّم أو يتناثر، بل حَدَثَ فيه صدعٌ أو انقسامٌ، فجاءَتِ المُفردةُ مُطابقةً للواقع، ودلّتِ الصّيغةُ الصّرفيّة (انشقَّ) الّتي هي مُطاوِع (شقّه)، إذ يُقالُ: (شُقَّ الشّيءُ فانشقّ)، فقوله: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ يدُلُّ على وقوع الفعلِ بفعلِ فاعلٍ آخر، وليس من ذاته، فهي تفيد أنّ انشقاق القمرِ حصل له بفعلِ اللّٰه تعالى وقدرتِه، ممّا يُؤكِّد أنّه مُعجزةٌ إلهيّةٌ مقصودةٌ لإدراكٍ تكليفيٍّ إيمانيٍّ، وهو وقوع اليوم الآخر[1]. كما أنَّ ورودَ فعلِ الانشقاق بصيغة الماضي مُرادٌ به الحقيقةُ لا المَجاز؛ فهو يدلُّ على تحقُّق وقوعِ الحَدَث بالفعل، وانتهائه بشكل قطعيٍّ لا شكَّ فيه. فهي تخبر عن حقيقةٍ واقعةٍ قد حدثَت بالفعل، وشاهدها النّاس، ونقلتها الأخبار.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡقَمَرُ﴾:

انشقاقُ القمر المعهود لا يَقبل التّأويلَ على جِرمٍ سماويٍّ آخر

تعريف ﴿ٱلۡقَمَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ للعَهد الذّهنيّ؛ فالمقصود هو القمر المعهود، والمعروف لدى المُخاطَبين، وهو قَمَرُهُم الّذي يرَوْنه في السَّماء، وليس أيَّ قمَرٍ آخَر، فالكلمة تُحَدِّد الجِرم السَّماويَّ المُعيَّن الّذي حدث فيه الأمر الخارق، وبه فلا يَقبَلُ لفظُ ﴿ٱلۡقَمَرُ﴾ التّأويلَ، بتنزيله على جِرم سماويٍّ آخر، سواءٌ من باب الخَرْص، أم بوساطة التّخمينات النّظريّة الفلَكيّة المُستجِدَّة.

لفظ الانشقاق بين الحقيقة والمَجاز:

الانشقاقُ تحقَّق في أصله اللّغويّ، وفي نتيجته المأثورة

الانشقاق في قوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾: له ثلاثة احتمالات؛ الأصل الحقيقيّ: وهو حدوث شَرْخٍ أو صَدْعٍ في سطح القمر؛ أي: تكوّنت هوّةٌ أو فجوة فيه. ويحتمل أن يكون استعارة: إذا حُجِبَ أو انطفأ جُزءٌ من ضوء القمر؛ أي: انمحَت إضاءةُ جُزء منه؛ فاستُعير لفظُ الانشقاق الّذي يصف انفراجَ جسمٍ صُلب، لوصفِ انطماسِ الضّوءِ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 170.

وزوالِه، والاستعارة تصريحيّة تبعيّة، والجامع بين المُشبَّه والمُشبَّه به هو حدوثُ انقسام أو تفرُّقٍ في شيءٍ كان مُتَّصلًا ومُتجانسًا، سواءٌ كان هذا الشّيء مادّيًّا كالقمر، أم غيرَ مادّيٍّ كضَوئه. ويحتمل أن يكون مَجازًا مُرسَلًا إذا انقسم القمر إلى قسمين مُنفصِلَين، فأُطلق لفظُ الانشقاق، وهو السّبب والحَدَث الحقيقيّ، على نتيجته، وهي انفصالُ القمر إلى قسمين. والعلاقة سببيّة؛ لأنّ الانشقاقَ هو سبب التَّفرُّق[1].

والاحتمال الأوّل والثّالث لا تنافرَ بينهما، إذ وقوعُ الانشقاق حقيقةٌ، وهو سبب الانفصال، فيكون قد أطلق اللّفظَ الّذي هو السّبب، وهو مرادٌ في بداية الأمر، وأراد نتيجتَه وهو الانفصال، فإنَّ كلَّ انفصالٍ يبدأ انشقاقًا. وأمّا القولُ بالاستعارة فتأويلٌ بعيدٌ لا يوافق ظاهرَ اللّفظ، وما استقرَّ لدى جمهورِ العلماء والمُفسِّرين.

فنُّ بديعِ الإدماج:

إدماج الموعظة والتّذكير في سياق الخبر إطنابٌ بليغٌ وإفادةٌ بديعةٌ

الإخبار بقوله تعالى: ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ ليس مُجرَّدَ إخبارٍ بحادثة تاريخيّة وقعَت، بل هي موعظةٌ مُدمَجَةٌ في سياقِ الخبر، فالغايةُ من ذِكر انشقاق القمر بعد الإخبار باقتراب السّاعة لا يقتصر على سرد الواقعة، بل التّذكير والتّحذير بأنّ هذا الانشقاقَ هو تصويرٌ تقريبيٌّ لأحَدِ علامات قيام السّاعة، ممّا يدعو النّاسَ إلى الاستعداد ليوم القيامة، والتَّفكُّرِ في هذه العلامات، والاعتبارِ والاتّعاظِ بقُرب الآخرة. والإدماجُ: هو إدخالُ غرضٍ في سياقٍ ليس له، بقصدِ تحقيق الفائدة، وهو لونٌ مِنَ الإطناب البليغ، وهنا هو إدخالُ معنى المَوعظةِ والتّذكير في الإخبار عنِ الحادثة[2].

نوع الواو ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ﴾ تحتمل أن تكونَ عاطفةً،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 170.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 171.

مَنْ كذّب بآيةٍ فكأنّما كذَّب بالآيات جميعًا

والجملة بعدَها تذييلٌ للآية السّابقة، فقولُه: ﴿ءَايَةً﴾ يُشيرُ إلى معجزة انشقاق القمر الّتي رآها المُشركون وكذّبوا بها، وتحتمل أن تكون استئنافًا؛ لإفادة عموم مَوقِف المُشرِكين من جميع الآيات الحسّيّة المُشاهَدة، فالجملةُ مُستقلَّةٌ؛ لبيان حال المُشرِكين عمومًا، وأنّ أيَّ آيةٍ يَرونها يُعرِضون عنها، ويُكذِّبونها، ويَصفونها بالسِّحر[1].

نُكتَةُ التّعبيرِ بـ(إنْ) دون (إذا):

مَظِنّةُ رؤيةِ الآيات الكونيّة، ليس مظنّةً للإيمان بالآيات القرآنيّة

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ أداةِ (إنْ) دون (إذا)، فقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾، و(إنْ) تُفيد الشّرطَ مع مَظنّة الوقوع، بخلاف (إذا) فهي قطعيّةُ الوقوع، وذلك في غالب الاستعمال، ونُكتَةُ التّعبيرِ بها أنَّ رؤيةَ الآيات ليس أمرًا يقينيًّا، بل هو ظنيٌّ، كأنّه قال: إنْ رأوا آيةً أعرضوا، فكيف في عدم رؤيتهم؟ فمَظِنَّةُ الوقوعِ هو لرؤية الآيات لا للإعراض، إذِ الإعراض مُتحقِّقُ الوقوعِ منهم، وذلك أنَّ رؤيةَ الآيات الخارقة ليس مُرادًا شرعًا، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةٗ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٧﴾ [الأنعام: 37].

نوع الرّؤية ودلالتُها:

الرّؤية دليلٌ على انشقاق القمر، وكثيرٌ مِنَ النّاس رآه

الرّؤية في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ﴾ هي رؤية حِسّيَّة لا علميّة، فيدلُّ الفعلُ على الإدراك الحسّيّ بالعين، ولذلك تعدَّت إلى مفعول واحد، وذلك يُقوّي رؤيةَ المُشرِكين لآية انشقاقِ القَمَر رؤيةَ عينٍ، وينفي السّماعَ أو التّخمين في إدراكهم للأمور، ويقوّي حجّة القرآنِ عليهم، فهم لم يُكَذِّبوا شيئًا غيبيًّا، بل شاهدوه بأعينهم، قال الزّمخشريّ: "وعن بعض النّاس: أنّ معناه ينشقُّ يوم القيامة، وقوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ يَردُّه، وكفى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 171.

به رادًّا"[1]، وهذا احتجاجٌ قويٌّ بالآية على أنَّ الرّؤية حسّيّةٌ واقعةٌ في الدّنيا.

دلالة الفعل المضارع:

تجدّدُ إعراضِ أهلِ الكفر مع تجدّد الآيات

دلَّ الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾ على التَّجدُّد المُستقبليّ لأنَّ (إنْ) تدلُّ على الاستقبال؛ أي: إنْ يرَوا في المُستقبل آيةً تِلو أختِها فهُم مُعرِضون.

نُكتَةُ تنكير لفظ ﴿ءَايَةٗ﴾:

التّقريب بين الآراء التّفسيريّة أولى من التّرجيح

نُكِّرَ لفظُ ﴿ءَايَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾ في سياق الشّرط للعموم، فيَعُمُّ المعنى كلَّ آيةٍ خارقة، من شأن رائيها أن يُقبِلَ مُؤمِنًا، ويدخلُ فيها دُخولًا أوّليًّا آيةُ انشقاقِ القمر بطريق الأولَى لا بطريق النّصّ اللّفظيّ، وبه يُعمَل الرّأيان[2] سويًّا في الآية؛ أي: الرّأيُ القائل بإرادة كلِّ آية، والرّأيُ القائل بإرادة آية انشقاقِ القمر، الأوّلُ بطريق النّصّ، والآخَرُ بطريق الأوْلَى.

بلاغة استعمال مفردة الإعراض دون الكفر:

الإعراض تصريحٌ بدليل الكفر وتلميحٌ لضِدّه مِنَ الإقبال على الإيمان

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بمفردة الإعراض في جواب الشّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾ دون (يكفروا)؛ لأنَّ شأنَ رؤيةِ الآيات هو الإقبالُ، ثُمَّ الإيمانُ لا الإعراض، فكان ذِكرُ الإعراض تلميحًا لأثر رؤية الآيات في النّاس أصحابِ الفِطَر السّويّة، وهو الإقبالُ، فلمّا حَدَثَ مِنَ المُشرِكين الإعراضُ دلَّ ذلك على فسادِ فِطرتهم، وسوءِ طويّتِهم، وخرابِ قلوبِهم، كما أنَّ ذِكرَ الإعراضِ كنايةٌ عنِ الكفر، إذِ الإعراضُ دليلُ الكفر؛ فدلَّ الإعراضُ على أنّ رؤيتَهم كانت بلا تحقيقٍ وإعمالِ فِكْر، بل كانَت رؤيةَ المُتهاوِن السّاخِر.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 431.

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 410.

بلاغة استعمال مفردة الإعراض دون مقارباتها:

التَّعبيرُ بالإعراض أنسبُ للغفلة والاستهزاء

التّعبيرُ بالإعراض في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ﴾ أنسبُ للغفلة والاستهزاء، فالقوم لم يكتفوا بالإعراض، بل ألحقوه بالاستهزاء فقالوا: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾، فناسبَ أن يسبقَ ذلك فعلٌ فيه معنى التّغافل والتّهاون، لا فعلٌ فيه شدّةٌ ومجافاة؛ كنأى أو صَدَّ، كما أنّ الإعراضَ أقلُّ كُلفةً من غيره، فـ(النّأيُ) و(الصّدودُ) و(البعد) تدلُّ على فعل فيه مَجهود أو نَفرة أو مَواجهة. أمّا هؤلاء فلم يُكلِّفوا أنفسَهم شيئًا؛ ولم يقاوموا ولم يواجهوا، بل انصرفوا بلا مبالاة، وكأنّهم لم يرَوا شيئًا. وهذا من أبلغ ما يُصوِّر اللّامبالاةَ المُجرِمة أمامَ أعظمِ آيةٍ كونيّةٍ. فاختيارُ الإعراض هنا يلتئمُ مع جوّ المَوقِف. ولم يعبّر بالانصراف؛ لأنّ الانصرافَ فيه معنى التَّحوّل والانقطاع عنِ الشّيء بمغادرةٍ فعليّةٍ، فهو حركةٌ تامَّةٌ بعد مَوقِفٍ. فلو جاء هنا: (وإنْ يروا آية ينصرفوا) لأوهمَ أنّهم وقفوا لحظةً عند الآية ثمّ مالوا عنها، بينما المرادُ أنهم لم يلتفتوا إليها أصلًا، وإنّما قابلوها بوجوهٍ مُعرِضة منذ البداية. فالإعراض أبلغ في تصوير حالة التّغافُل الفوريِّ.

ولم يعبّر بالبُعد؛ لأنّ البعدَ في جوهره مسافةٌ مكانيّةٌ أو معنويّةٌ تفصِل بين شيئين. فلو قيل: (وإن يروا آية يبتعدوا) أو (يبعدوا)، لكان المعنى: أنّهم تباعدوا عنها، وكأنّ بينهم وبينها انفصالًا في المكان أو في الاعتبار. لكنّهم لم يتباعدوا، بل كانوا حاضرين يرون الآيةَ رأيَ العين، غيرَ أنّهم أداروا وجوههم عنها بلا اكتراث.

فاختير لفظ الإعراض في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ دونَ النّأي أو الصّدود أو البُعْد؛ لأنّ الإعراضَ أقربُ لِما بَعْدَ رؤية الآية مُباشرة، فالآية تقول: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ﴾؛ أي: أنّ مَوقِفهم الأوّل عند مُشاهدة الآية لم يكن عنادًا عنيفًا (نأيًا)، ولا مُجابهة مُتشدِّدةً (صدودًا)، بل مُجرَّدَ صرفِ

وجوهِهم بلا مُبالاة؛ أي: أنّهم تعاملوا مع الحَدَث العظيم، وكأنّه لا يستحقُّ التفاتًا. وهذا أليقُ بـ(الإعراض) الّذي فيه معنى الانصراف بالوجه دون استجابة، لا بالمواجهة الشّديدة.

دلالة التّعبير بصيغة المضارع:

الإعراضُ المُستمرُّ دليلُ الكفرِ الرّاسخ والقلبِ السّاخر

جاء فعلُ الإعراض في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾ بصيغة المضارع في جواب (إنْ) الشّرطيّة ليدلَّ على التَّكرار والاستمراريّة، فإعراضُهم لم يكن مرَّةً واحدةً، بل كان عادةً دائمةً كلّما رَأوا آيةً، ويدلُّ على التَّعمُّد والقصد، فالصّيغة الزّمنيّة تفيد أنّ إعراضَهم كان فعلاً إراديًّا مُتعمَّدًا، وليس مُجرَّد غفلةٍ أو سهوٍ أو غَلَبةِ هوى.

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

مَن كفر بالحقّ عنادًا أعرض عنِ المعجزات استهزاءً

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بأسلوب الشّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾، فكلّما تحقّق الشّرط (رؤية آية)؛ تحقّقت النّتيجةُ (الإعراض)، وهذا يقتضي أنّ هذا السّلوكَ ثابتٌ ومُتكرِّرٌ كلّما واجهوا مُعجزة، ممّا يجعله دَيْدَنًا لهم وعادةً وعُرفًا مُستمرًّا. فالأسلوبُ الشَّرْطيُّ هنا يُخرِج الخبرَ من كونه حادثةً واحدةً إلى كونه وصفًا لطبيعتهم وسجيّتهم في التّعامل مع الحقّ[1].

مناسبة عطف القول على الإعراض:

عطف الدّليل على المدلول بيانٌ للإعراض وتأكيدٌ للكفر

ناسب عطفُ القولِ على الإعراض في قوله تعالى: ﴿يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾؛ لبيان الدّليل بعد ذكر المدلول؛ فقولُهم بيانٌ للإعراضِ، وفيه تأكيدٌ على أنّهم تحقّقوا بالكفر باطنًا وظاهرًا، فأعرضوا بقلوبهم، وأظهروا ذلك بقولهم؛ فلم يتركوا لأنفسهم بحبوحةً للتّراجع أو إعادة النّظر، ولم يتركوا فُسحةً لنبيّهم أن

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 172.

يَعذِرَهم أو يتأنّى في الحُكم عليهم، فمَن نطقَ بما فيه، فقد احتجّ على نفسِه، وقطع عنها الإعذار بإظهار حاله.

الافتراءُ المُستمرُّ هو الحقيق بوصف سحرٍ مُستمرٍّ

دلالة صيغة المضارعة:

التّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ يدلُّ على أنّ هذا القولَ دَيْدَنُهم، ويتجدَّد منهم، وكأنّهم لا ينفكّون عنِ اختراع الحيَل الّتي يُلبِّسون بها على أنفسهم، ويُدلِّسون بها على النّاس؛ ليكون ذلك ذريعةً في الصَّدِّ عن آيات الله وسبيلِ رسُلِه(1).

يرجع الضّميرُ إلى معلومٍ في الأذهان مُتجدِّدٍ على طول الزّمان

فائدةُ حذفِ مَرجعِ الضّمائر:

ترجِع الضّمائرُ في الأفعال ﴿يَرَوۡاْ﴾، و﴿يُعۡرِضُواْ﴾، و﴿وَيَقُولُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ﴾ على المُشركين رغم عدمِ ذِكرهم في الآية؛ ذلك أنَّ عادة القرآن الكريم عدمُ تعيينِ المقصود المعلوم للمُخاطَبين في السّياق إلّا لنُكْتَةٍ، فالإيجازُ هو مَسلَك النّظم، فحَذفُ ذِكرِ المُشركين مع عودة الضّمائر إليهم يُعطي إيجازًا بلاغيًّا، حيثُ يفهمُ السّامعُ المقصودَ من الكلام دون حاجةٍ للتّصريح به، وللإضمار فائدةٌ أُخرى: وهي تعميم الحُكم؛ فرغم أنَّ القصَّةَ مرتبطةٌ بمشهد انشقاق القمر، فإنَّ عدمَ ذِكْرِ مَرجعِ الضّمائر يُعمِّمُ الحُكمَ على كلّ مَن يَسلُكُ مَسلَكهم؛ فترجِع الضّمائرُ إلى المقصود المُتعيِّن في الأذهان، سواءٌ أكان المُشركين عند نزول الآيات، أم مَن شابههم على توالي الأيّام، فإنَّ الإعراضَ مع وضوح الحقِّ سبيلُ المُجرِمين، وديدنُ الظّالمين.

دلالة التّنكير مُنتزَعةٌ مِنَ القيود ودلالات السّياق

غرض تنكير لفظ ﴿سِحۡرٞ﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿سِحۡرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾؛ وذلك راجع إلى اختلاف دلالة الصّفة عن الموصوف، فإنْ كان ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 96.

بمعنى: (شديد قويّ نافذ) فالتّنكيرُ للتّهويل والتّعظيم، وإنْ كان بمعنى: (دائم متواصل)، فالتّنكير للتّحقير والتّهوين، وإنْ كان بمعنى: (زائل لا يبقى ومُنقطِع) فالتّنكير للتّجهيل والتّقليل[1].

تنوُّع المعاني لمفردة ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾:

استيعاب المفردة القرآنيّة مَذاهِبَ القائلين وتصويرُ مَقاصِدِهم

تحتمل مفردة ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ معانيَ مُتعدِّدةٍ[2]؛ منها: أن يكون معناها: دائم مُتواصِل يتجدَّد ولا ينقضي. أو أن يكون معناها: شديدٌ قويٌّ نافِذٌ لا يُقاوَم؛ لبيان أنّ الآياتِ هي سحرٌ قويٌّ لا يُقاوم. أو أن يكون معناها: ذاهِبٌ زائِلٌ مُنقطِع لا يبقى؛ وذلك لتهوين شأن آيات اللّه، وتسفيه أمرها. ولا يمنع أن يقصدوا ذلك كلّه باختلاف القائل، فإنّ للنّاس طرائقَ في الوصف والبيان، فاستعمل النّظمُ هذه المفردة لبيان مقصود المُشرِكين جملةً، لا لبيان مقصود بعضهم، فهم يبحثون عن احتجاج يُشَرعِنُ إنكارَهم، فوصفوا الآيةَ بأنّها ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾؛ لتسويغ الإعراض عنها أمامَ أنفسِهم والنّاس.

تنوّع الاشتقاق لمفردة ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾:

مُفردات القرآن تكشف التّباينَ في المَــواقِــف، والاختلافَ بلفظ قرآنيّ واحد

تحتمل مفردة ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ أن تكون مُشتقَّةً من فعل (مَرّ) الّذي هو مَجاز في الزّوال، والسّين والتّاء لتقوية الفعل؛ أي: لا يبقى القمر مُنشقًّا. والغرض: التّهوين، كأنّهم يقولون: لا بأس ستمُرُّ الآيةُ كما تَمُرُّ الخُدَع. وتحتمل أن تكون مُشتقَّةً مِنَ (المِرَّة) بكسر الميم؛ أي: القوّة، والسّين والتّاء للطّلب؛ أي: طُلِبُ لفعله مِرّة؛ أي: قوّة، والمعنى: هذا سحرٌ مُتمكِّنٌ معروف، له أمثلة سابقة[3]. فنَسبوا الآيةَ إلى سحرٍ مُتمكِّن نافِذ، في محاولةٍ منهم لتفسير وقعها العجيب على النّاس، فاحتملَتِ المفردةُ مَعنيين

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 410، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 399.
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 410، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 399.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 172.

مُتقابلين: إمّا سحرٌ زائلٌ لا بقاء له، وإمّا سحرٌ قويٌّ مُتكرِّرٌ مألوفٌ، وجاء اختيار مفردة ﴿مُّسۡتَمِرّٞ﴾ لبيان مَوقِفهم المُتباين، وما صدر عنهم تجاهَ الآيةِ الّتي رأوها، فلا يستطيعون إنكارَها، ولا يَقدرون على تصديقها، فجاءَت هذه المفردة بدلالتها الاشتقاقيّة لبيان مَوقِفين مُتباينين، بمفردة أرادتهما معًا.

نوع الواو ودلالتُها:

الاستئناف والعطف مُتّفِقان على بيان عادتهم في التّكذيب واتّباع الأهواء

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾ تحتمل الاستئنافَ[1]، والمعنى: أنَّ التّكذيبَ واتّباع الأهواء عادتُهم ومَسلَكٌ راسخٌ فيهم. وتحتمل العطفَ، ونُكتَتُه التّنبيهُ على عادتهم القديمة؛ فالاستئناف والعطف مُتّفِقان على بيان أنّ التّكذيب واتّباع الأهواء عادةٌ راسخةٌ فيهم.

بلاغة عطفِ صيغة الماضي على المضارع:

التّكذيب واتّباع الأهواء مَسلَكٌ راسخٌ للمُشركين وسلوكٌ دائمٌ

عُطِفَتِ الجملة الخبريّة ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ على الجملة الشّرطيّة: ﴿يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ﴾، وكان حقُّ المعطوف على الشّرط أن يأتيَ بالمضارعةِ مِثلَه؛ لأنّ الأصل في الشّرط والجواب الاستقبال، فكذلك ما عُطِف عليهما؛ لأنّه في حيِّزهما، فعُدِلَ إلى الماضي ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ التّكذيبَ واتّباعَ الهوى من عاداتهم القديمة، فهو شأنٌ نفسيٌّ مُستَبِدٌّ بهم، فلا يتوقّفُ على مضمون الجملة الشّرطيّة قبله، فهم مُعانِدون مُتَّبعون لأهواهم، وإنْ لم تأتِهم آية، فعَدلَ إلى الماضي للتّنبيه على قبحِهم وذمِّهم بالدّليل والحُجّة، فكأنّه قيل: هم قومٌ قبيحون في تكذيبهم واتّباع أهوائهم، بدليل أنَّهم إنْ يَروا آيةً يُعرضوا ولا يَهتدوا، وأيضًا: للتّنبيه على أنّ الشّرط له مَدخلٌ في التّكذيب، وأنّ التّكذيب مُستمِرٌّ، له معنى الاستقبال بالإصرار والدّوام عليه كمعنى الشّرط[2].

(1) صافي، الجدول: 14/ 64.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 310، 311.

بلاغة الحذف التّقابليّ:

التّكامل في التّقدير خصيصةٌ يقود لها حُسْنُ النّظرِ في النّظم الجليل

في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ شِبهُ احتباكٍ، يتمثّلُ في الجمع بين وصف حال المُشركين في الماضي والمُستقبل في آنٍ واحدٍ، فيَظهر استمرارُ تكذيبِهم وإعراضِهم عبرَ الزّمن دون تغيير، وتقدير المُحذوفات كالآتي: في جانب المُستقبل جاء قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ﴾، فالمَذكور الإعراضُ، والمحذوف المقدر: سيُكَذِّبون ويَتَّبعون أهواءَهم. وفي جانب الماضي جاء قولُه: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾، فالمذكور: التّكذيب واتّباع الأهواء. والمحذوف المُقدَّر: قد رأوا الآياتِ فأعرضوا وقالوا: سحرٌ مُستمرٌّ، فصار المعنى الكامل مستقبلًا: (وإنْ يرَوا آيةً يعرضوا ويقولوا سحرٌ، ويكذِّبوا ويتَّبعوا أهواءَهم)، ماضيًا: (وقد رأوا الآياتِ من قبل، فأعرضوا وقالوا: سحرٌ مُستمرٌّ، وكذَّبوا واتَّبعوا أهواءَهم)، فذُكِر في كلِّ مَوضِع بعضُ الأركان، وحُذِف نظيرُه اعتمادًا على ما ذُكِر في الجانب المُقابِل[1]. هذا، والتّعبير هنا من قبيل (شِبْه الاحتباك)، إذ وقع التّبادلُ بين الذّكر والحذف في مقامَي الماضي والمُستقبل، فشابَه الاحتباكَ من حيثُ البُنية والصّورة، لكنّه لم يَبلغ رتبةَ (الاحتباك التّامّ)؛ لافتقاده وحدةَ السّياق والزّمان الّذي يقوم عليها الاحتباك.

مناسبة العطف وفائدتُه:

عَطْفُ العِلّة على المَعلوم يدفع وهْمَ المعاني غير المُرادة

عَطْفُ اتّباعِ الهوى على تكذيبهم في قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾؛ من عطف العِلَّة على المَعلول؛ لأنّ تكذيبَهم لا دافعَ لهم إليه إلّا اتِّباعُ ما تهواه أنفسُهم من بقاء حالِهم على ما ألِفوه وعَهِدوه واشتَهَرَ دَوامُه، فهو لدَفْعِ توهُّمِ أنّ تكذيبَهم قد يكون حقًّا؛ إذْ ليس كلُّ تكذيبٍ باطلًا! فتكذيبُ غيرِ الحقِّ مِنَ الحقّ! فنبَّه تعالى بقوله:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 172.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ على أنّ تكذيبَهم باطلٌ وعدوان، وليس لهم حقٌّ واعتبارٌ فيه مِثقالَ ذرّة[1]. فكان في ذلك إخبارٌ عن أنّ تكذيبهم لاتّباع الهوى، لا لِشُبهةٍ في استشكال الحقّ[2].

نُكْتَةُ جمعِ الأهواء:

تعدُّدُ الأهواءِ علامةُ التّشتُّت ودليلُ الضّياع

آثَر النّظمُ الكريم جمعَ لفظِ الهوى في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾، ولم يَقُل: (واتّبعوا الهوى)، كما قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [النّجم: 28] بإفراد الظَّنّ؛ وذلك أنَّ الهوى اسمُ جنس يَصدُقُ بالواحد والمُتعدِّد، فعَدَلَ عنِ الإفراد إلى الجمع فقال: ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾؛ لِمُزاوَجة ضمير الجمع المُضاف إليه في لفظ: ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾؛ وللإشارة بجمع الأهواء إلى أنّ لهم أصنافًا مُتعدِّدةً مِنَ الأهواء؛ من حُبِّ الرّياسة، ومن حسد المؤمنين على ما آتاهُمُ اللّه، ومن حُبِّ اتِّباع مِلَّة آبائهم، ومن مَحبَّة أصنامِهم، وإلفٍ لِعوائدهم، وحِفاظٍ على أنَفَتِهم[3].

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾:

الهوى المُتّبع دينُ أهلِ الضّلالة ومِنهاجُ الغارقين في الدُّنيا

في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيثُ شَبَّهتِ الآيةُ الأهواءَ بقادةٍ يُتَّبعون، وحُذِفَ المُشبّه به ورُمِزَ له بأنّه يُتَّبع، فالاستعارة تصويرٌ للمُشرِكين بأنّهم يسيرون في طريقٍ تابعين فيه الأهواءَ في شتاتٍ وضياعٍ مُضلٍّ، وإسنادُ فعلِ الاتّباع إلى الضّمير العائد على المُشرِكين دليلٌ على إرادتهم اتّباعَ الأهواء عن قصدٍ، ففيه عدالةُ الجزاء لِمَن اختار هواه مَتبوعًا له، كما قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيۡهِ وَكِيلًا ٤٣﴾ [الفرقان: 43].

نوع الإضافة ودلالتُها:

أُضيفَ لفظُ الأهواء إلى الضّمير ﴿أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾؛ لتخصيص

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 97.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 311.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 172، 173.

تلك الأهواء بهم، فالإضافة بمعنى اللّام؛ أي: أنّها ليست أهواءً موضوعيّة أو مَقبولةً في نظر العقلاء، وإنّما هي أهواءٌ صادرةٌ عن نفوسهم هم بالذّات، مرتبطةٌ بشهواتهم وحظوظهم، فهم أسرى أهوائهم الخاصّة، والإضافة هنا تُشعِر بالذّمّ والتّقبيح؛ لأنّ اتّباع الهوى إذا نُسِبَ إلى النّفس دلَّ على الانغماس في الباطل والانقياد للشّهوة دون هدى.

هوى النّفس مَكينٌ لا يزول إلّا بإرادة البحث عن الدّين القويم

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ تحتمل أن تكونَ للاستئناف؛ فالجملة مُستأنَفة لتقرير بُطلانِ ما قالوه مِنَ التّكذيب واتّباعِ الهوى، ولإقناطهم ممّا عَلَّقوا به أمانيهم الفارغة، من عدم استقرار أمرِه ﷺ، حيثُ قالوا: سِحر مُستمِرٌّ، ببيان ثباته ورسوخه؛ أي: وكلّ أمر مِنَ الأمور مُنتهٍ إلى غاية يستقرُّ عليها لا محالة، فالخير يستقرُّ بأهل الخير، والشَّرّ يستقرُّ بأهل الشّرّ(1). وتحتمل أن تكون للعطف؛ بجعل الجملة معطوفة على قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾، والمعنى: اقتربَتِ السّاعة، وانشقّ القمرُ، وكلُّ أمرٍ قد استقرَّ، فاجتمعَت هذه الأمور الثّلاثة: قربُ السّاعة، وانشقاقُ القمر، واستقرارُ كلِّ أمرٍ. ويكون ما بين الجملتين اعتراض(2). ووظيفةُ الاعتراض أن يقطعَ سياقَ الخبرِ الرّئيس (اقتراب السّاعة وانشقاق القمر واستقرار الأمور) ليُدْخِلَ وصفًا لحال المخاطَبين مع هذه الآيات، وهو قوله: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾، فأقحم وصفَ عنادهم بين الخبرَين الرّئيسَين المَعطوفَين؛ لتسجيل التّباين بين وضوح الآيات وفساد مَواقِفهم، وتبيين أنّ استقرار أمرهم على الخيبة إنّما هو ثمرةُ تكذيبهم وإعراضهم.

إبراز العِناد يزيد المُفارَقة بين وضوح الآيات وفسادِ المَواقِف

(1) القنوجيّ، فتح البيان: 13/ 288.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 312.

نُكْتَة استعمالِ لفظِ العموم (كلّ):

كلُّ شأنٍ مَردُّه إلى غاية مَحتومة يستقرُّ عندها

أفاد لفظُ العموم (كلّ) في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ الاستغراقَ؛ أي: أنّ جميع الأمورِ من إيمانٍ وكفر، وخيرٍ وشرّ، وحقٍّ وباطل، لها غاية ثابتة لا محالةَ، فيستقرّ الحقُّ على نصره، والباطلَ على خيبته.

دلالة المَجاز بالعموم:

كلُّ أمرٍ مُنتهٍ إلى مآله في الدّنيا والآخرة

في قوله سبحانه: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ مَجازٌ بعموم المَجاز؛ لأنّ الأمرَ أعمُّ مِنَ الموجود الآن، فيشمل ما وُجِد بالفعل، ويشمل المَعدومَ الّذي سيَثْبُت ويستقرُّ حتمًا فيما بعد[1]. فقوله: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ لا يقتصر على الأمور الحاصلة الآن، بل يشمل الحقائقَ الثّابتة، كتكذيبهم الآن، والنّتائجَ المُترتِّبة عليها، كعقوبتهم الآتية، وظهورِ الحقّ، وهلاكِ الباطل. فـ(كلّ أمرٍ) له قرار؛ أي: مآلٌ نهائيّ يستقرُّ عنده، في وقته المُقدَّر له، سواء أدركه المُشرِكون وقت نزول الآية، أم لم يُدركوه. وهذا الاستقرار قد يكون: ثباتًا في الدّنيا (كنصر الحقّ، أو خُذلانهم)، أو في الآخرة (كاستقرار أهل الحقّ في الجنّة، وأهلِ الباطل في النّار). فكأنّه قيل: كلّ أمرٍ دنيويّ أو أخرويّ له قرارٌ وثبوتٌ في الحال والمآل، فيَحيقُ بأهل الخير ويحيق بأهل الشّرّ، فالخيرُ مُستقِرٌّ بأهله في الجنّة، والشّرُّ مُستقِرٌّ بأهله في النّار[2].

غرضُ تنكير لفظ ﴿أَمْرٍ﴾:

جميع شؤون الخَلْق تجري إلى تقدير العزيز العليم

نُكِّر لفظُ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ﴾ للتّعميم؛ أي: كلُّ شأن من شؤون الخَلْق والجزاء وإجابة الدّعوة أو ردّها، صغيرًا كان أم كبيرًا، مصيرُه إلى الاستقرار الّذي قضاه اللّه، فلا يخرجُ عن حُكمه تعالى ومُراده، والأمر واحدُ الأمور، لا واحدُ الأوامر.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 311.

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 114.

توجيه القراءات القرآنيّة:

كلُّ أمرٍ مستقرٍّ يقترب من مآله مع اقتراب السّاعة

قرأ الجمهور: ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ بالرّفع، وهي جملة خبريّة مُستقلَّة، تُفيد تقريرًا كليًّا؛ كلُّ أمر ثابتٌ إلى غايته، وهذا أعمُّ وأشمل في تعميم اليقين وتقويته، ولذلك فهي جارية مَجرَى المَثَل والقانون العامِّ المُطّرِد، وقرأ أبو جعفر: ﴿مُّسْتَقِرٍّ﴾ بالجرِّ، على أنَّ (كلّ أمر) معطوفٌ على السّاعة؛ والمعنى: اقتربَتِ السّاعة، واقترب كلُّ أمرٍ مُستقِرٍّ[1].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ مادّةً وصيغةً:

كلُّ أمرٍ يتّجه إلى نهايته بثبات ورسوخ

جاء التّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ من استقرّ؛ لِما يُفيده من معنى المبالغة في الثّبوت؛ لأنَّ زيادة السّين والتّاء تفيد قوّة الفعل؛ أي: ليس قرارًا مُحتمَلًا بل راسخًا مَحتومًا[2]، وتدلُّ مادّةُ اللّفظ مع دلالة صيغة اسم الفاعل على اللّزوم والدّوام والاستمرار، فكلُّ أمرٍ لا بدَّ أن يبلغَ نهايتَه ويستقرَّ فيها، من غير تردُّد ولا رجوع[3].

بلاغة التّذييل وفائدته:

ربطُ استقرار الأمور كلِّها بنهاية العالَم للجزاء

التّذييل بقوله: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ تقريرٌ لمضمون ما قبله، يجمع بين التّهديد والطّمأنة، والوعدِ والوعيد، ويؤسِّس لقاعدة كونيّة عظيمة، وسنّةٍ من سنن الله لا تتخلّف: أنَّ كلَّ أمرٍ في الوجود، سواء ما وقع منه أم ما هو في طَور الغيب، له مُستقرٌّ محتومٌ يستقِرُّ عنده في الوقت الّذي قدَّرَه الله له. وقد جاءت كلمة ﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾ في سياقِ مَجازٍ بعموم المَجاز[4]؛ لتدلَّ على أنّ الأمورَ كلَّها، من خيرٍ وشرّ، حقٍّ وباطل، نصرٍ وخُذلان، كلّها سائِرة إلى غاياتِها المَرسومة، لا تتخلَّف ولا تتقدَّم، وهذا يُشعِر بأنّ تكذيب المُكذِّبين ليس نهايةَ المَطاف، وأنّ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 380، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 311، 312، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 174.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 72/ 174.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قر).

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 311.

اتّباعَهم للهوى لا يغيّرُ من مآلات الأمور شيئًا، فلكلِّ حقٍّ يومٌ يَظهر فيه، ولكلّ باطلٍ أجلٌ يُقبَر فيه، ويتلاشى عنده. ففي التّذييل بهذه الجملة تقريرٌ لحتميّة المصير، وأنّ التّكذيب واتّباع الهوى لا يُغيّران من سُنن الله في استقرار الأمور وانكشاف العواقب شيئًا.

اتّباع الهوى لا يُغيّر سُننَ الله في عواقب الأمور

بلاغة الاستعارة التّمثيليّة:

في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ مَكنيّةٌ، شبّه اللّهُ تعالى حركةَ الأمور في العالَم، كالتّكذيب والحقِّ والباطلِ والعواقبِ، برحلةِ شخصٍ يسير نحو مكانٍ مُحدَّدٍ، يقترب حينًا ويبتعد حينًا، حتّى يبلغَ المَوضِعَ المُعيَّن له ويَستقرَّ فيه. وهذه الصّورة الكاملة حُذِفت، وأُشير إليها بكلمة ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾، فكانت استعارةً تمثيليّةً مكنيّةً. فصار هنا تمثيلٌ مَكنيٌّ: شبّه الحالةَ بمعنًى مُركَّبٍ (رحلة السّائر)، ثمّ حُذف المُشبَّه به، وأُبقيت كلمةٌ واحدة ترمُز إليه، وهي ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾. ووَجْهُ الشَّبَهِ أنّ كلًّا من (الأمر) و(السّائر) يتحرّك نحوَ غايةٍ مُقرَّرة له، وقد يتأخَّر أو يتقدَّم، لكنّه يستقرُّ في النّهاية في مَوضِعه المَحتوم[1].

نوع الواو ودلالتُها:

مـمّا يزيد من تبكيت المُعانِدين وتقريعهم أنّه قد جاءهم الزّاجر

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أن تكون للاستئناف، فبعد أن ذكر تكذيبَهم واتّباعَهم الأهواءَ، استأنف الكلامَ بذِكر أمرٍ آخر يزيدهم توبيخًا وتقريعًا، وهو أنَّه قد جاءهم ما فيه زجرٌ لسلوكهم ومُعتقدهم، وتحتمل أن تكون عاطفةً الجملة على جملة ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾، وفي هذا العطف معنى الاستدراك الضّمنيّ على مَن يتوهَّم أنّ تكذيبَهم ربّما حصل بسبب أنّ ما جاءهم لم يكن كافيًا في إقناعهم[2]، فأكّد هنا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 173.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 98.

تلك المُفارقةَ، وهو أنّهم تلقَّوا ما يكفي لزجرِهم وردعهم، من أنباء فيها عبرٌ وعِظات، إلّا أنّهم مع ذلك كذّبوا واتّبعوا الهوى! فأُعطوا من وسائل الهداية أقواها، ومع ذلك لم يرتدعوا، بل أصرّوا على التّكذيب والهوى. والرّبط بين الجملتين يُظهر أنّ الضّلال لم يكُن عن جهل، بل عن عناد واختيار، وأنّ الحُجّةَ قامَت، لكنّهم انحازوا للهوى، مع التّذكير بأنّ الأمرَ سيستقرُّ وتنكشِفُ عواقبُه في النّهاية. فهو عطفٌ فيه تقريرٌ للحُجّة، وإدانةٌ للغَفْلة.

نوع اللّام ودلالتُها:

عناية الله بإقامة الحُجَج قاطعةٌ أعذارَ المُكذِّبين

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾ لامُ جواب القسم الدّالّةُ على حذفِه، والتّقدير: (واللّه لقد جاءَهم)، ويصحّ أن تكونَ اللّام لتوكيد الإثبات، فالجملةُ مُؤكَّدةٌ بها كتوكيد القَسَم، وليسَت بقَسَم(1). وعلى كُلٍّ فتصديرُها بالقَسَم أو التّوكيد فقط، مع التّحقيق بـ(قد) - يدلُّ على إبراز كمالِ العناية بمضمون الجملة.

بلاغة المَجاز العقليّ:

الحُجّة الإلهيّة بلغَتِ القلوبَ واضحةً فلا عذرَ في الإعراض عنها

إسناد فعلِ المجيء إلى ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ مَجازٌ عقليٌّ، والمراد أنّها أُبلغَت إليهم وبَلَغَتهم بوساطة الرّسول، فالّذي جاءهم بما فيه مُزدجَر هو رسولُ اللّه ﷺ، إذِ التَّرهيب لا يأتي بذاته، بل يأتي به ناقلُه ومبلِّغُه، ووجهُ البلاغة في ذلك: أنّ الإسنادَ تجسيدٌ وتصويرٌ للأمر الزّاجر، مبالغةً في وضوح الحجّة وقربها، فلا يُعذرون في الإعراض عنها.

نوع ﴿مِّنَ﴾ ودلالتُها:

(من) في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ تحتمل التّبعيضَ(2)؛ أي: جاءهم بعض الأنباء الّذي فيه مُزدجَر. فبعضها ترهيبٌ وزجرٌ،

---

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني النحو: 4/ 181.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 78.

الزّجر المانِع عنِ التّمادي في الشّرك بيانٌ لبعض أنباءِ القرآن

وبعضُها ترغيبٌ وذِكرٌ. وإنّما خصَّ هنا المُزدجَر منها؛ لسياق التّكذيب والإعراض واتّباع الهوى، وتحتمل التّبيين؛ لبيان قوله: ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾، بتقديم المبيِّن على المُبيَّن. بناءً على المختار من جواز تقديمه على المُبيَّن، وإنّما جاز تقديم (من) المبيِّنة على المُبهَم في نحو - عندي مِنَ المال ما يكفي -؛ لأنّ المُبيِّن في الأصل صفةٌ لِمُقدَّر؛ أي: شيءٌ مِنَ المال، والمذكور (المُبيِّن) عطفُ بيانٍ للمبيَّن المُقدَّر قبل (مِن)؛ ليحصلَ البيانُ بعد الإبهام[1].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾:

الزّجرُ المذكور مخصوصٌ بأنباء الوعيد والتّهديد

(أل) في لفظ ﴿ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ للعهد الذّهنيّ، فهي أنباء القرآن في شأن القرون السّالفة، وتوجَّه على أنّها عوضٌ عن مضاف إليه محذوف، تقديره: أنباء القرون الخالية، وهي أنباء التّعذيب والوعيد، أو أنباء السّاعة (الآخرة) [2]، أو أنباء الآيات الكونيّة، كانشقاق القمر، أو أنباءُ آياتِ الوحي وهو القرآن.

بلاغة اختيار مفردة النّبأ:

السّياق هو الّذي يجتبي الألفاظَ، ويُنادي على المقصود

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾؛ لأنّ المقامَ مقامُ تهويلٍ وزجرٍ، ولأنّها أنباءٌ عظيمةٌ عن مَصائر الأمم المُكذِّبة، وليست مُجرَّدَ أخبار تاريخيّة ولا أحاديث مُتداوَلة، فلو قيل: (جاءهم مِنَ الأحاديث)، لكان المعنى: ما يتحدَّث به النّاسُ أو ما يتداولونه من قصص، وهذا يُشعِر بهَوان المَقام، بل قد يحمل معنى ما لا يوثَق به. وسياقُ سورة القمر مَقامُ إنذارٍ وتهويلٍ، فلا يناسبُه لفظُ (الأحاديث) الّذي يوهِم بالقصص المُتداوَلة. ولو قيل: (الأخبار) لكان المعنى: مُجرَّدُ أخبارٍ مَنقولة. و(الخبر) لفظ عامّ، لا يقتضي

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 78.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 312.

العظَمةَ، ولا يُثيرُ الرّهبة بالضّرورة. والآية تريد أن تبيّنَ أنّ ما جاءهم ليس أخبارًا عاديّةً، بل حقائقَ جليلةً هائلةً فيها عِبرة وزجر.

نوع ﴿مَا﴾ ودلالتُها:

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ إمّا موصولةٌ، وهو الظّاهر، وإمّا نكرةٌ موصوفةٌ؛ أي: جاءهم شيءٌ فيه مُزدجَر، وعلى القولَين هي فاعل ﴿جَآءَهُم﴾[1].

بلاغة صيغة ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾:

الزّجرُ القرآنيُّ هو أعلى مَراتِب البيان بما لا يَحتمل التّأويل والنّكران

المُزدجَر: مصدرٌ ميميٌّ، وهو مُصاغ بصيغة اسم المفعول الّذي فعلُه زائدٌ على ثلاثة أحرف (مُفْتَعَل). وازدَجَرَه بمعنى زَجَرَه، ومادّة (الافتعال) فيه للمُبالغة، والدّالُ بدلٌ من تاء الافتعال الّتي تُبدَلُ بعد الزّاي إلّا مثلَ ازدادَ؛ أي: ما فيه مانعٌ لهم من ارتكاب ما ارْتكبوه[2]، والمصدرُ الميميُّ يدلُّ على مُنتهى الحَدَث وغايتِه، ويَحملُ معه عنصرَ الذّات، فهو يدلُّ على الحدث نفسِه (الزّجر)، ويدلُّ على الغاية منه، وهو الزّجر الشّديد القاطِع، ويستصحب ذاتًا، وهي الآيات الزّاجرة، والإنسان المُستهدَف بها[3]، ويصحّ أن يكون ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ اسمَ مكان مَجازيّ؛ أي: الأنباء كانَت لهم مَوضِعَ زجرٍ[4].

دلالة تاء الافتعال في ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾:

ليس بعد زجرِ القرآن زاجرٌ

﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ على وزن (مُفتَعَل)، صيغة اسم مَفعول من فعل (ازدجر)، على زِنَة: (افتعل)، مِنَ (الازدجار) على زِنة (الافتعال). ومن قواعد الصّرف: أنّ تاء الافتعال تتحوّل إلى دال إذا وقع قبلها زاي أو دال، تخفيفًا في النّطق. فبدل أن نقول: ازتزجر، صارت ازدَجَر (قُلبَتِ التّاء دالًا بعد الزّاي). وهذا يحدث في أفعال مثل:

---

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 27/ 137.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.

(3) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 31.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 98.

(ازدَكَر) (أصلها: اتذَكَر)، و(ازدَجَر) (أصلها: اتزَجَر). وصيغة (الافتعال) - هنا - تُضيف معنى المبالغة والقوّة والشّدّة في الزّجر[1]. فالمعنى: ليس مجرَّدَ زجر، بل زجرٌ شديد وقاطع؛ أي: أنّ الأنباءَ الّتي جاءَتهم تحوي زجرًا شديدًا يمنعُهم لو عقلوا، لكنّ ذلك لم يُؤثّر فيهم بسبب عنادهم.

غرضُ تنكير ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾:

تنكير ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ يفيد التّعظيمَ والتّهويل لشأن الزّجر الكامِن في تلك الأنباء.

بلاغة فنِّ التّجريد:

المبالغة في زجر الكافرين لم يزدْهم إلّا بُعدًا عنِ اليقين

جاء لفظُ الازدجار مظروفًا في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ دون أن يقول: (ما هو مزدجر)، على معنى: (جاءهم مُزدجَرٌ مِنَ الأنباء)، وهو شبيهٌ بقوله سبحانه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ [الأحزاب: 21]. فـ﴿أُسۡوَةٌ﴾ [الأحزاب: 21] تعني: قدوة، وكان يمكن أن يُقالَ: (لقد كان رسول الله لكم أسوة)[2]، وهذا على التّجريد، وهو نزعُ صفةٍ عن صاحبها ثمّ جعلها شيئًا مُستقِلًا، كأنّها شيءٌ قائمٌ بنفسه داخلَ الموصوف[3]، وذلك ليَدلَّ على أنّ الزّجرَ ليس شيئًا عارضًا، بل كأنّ الأنباءَ تفيض به وتُحاط به.

نُكْتَة تقديم الجارّ والمجرور على ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾:

زواجر الباطلِ مليئة في القرآن مُكتنِزة في تراكيب البيان

قُدِّم ذِكر الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ لنُكْتَة بلاغيّة رفيعة، وهي إفادة التّخصيص[4]، كأنّه قيل: في هذه الأنباء خاصّةً مُزدجَرٌ لهم. فلو قيل: (ما مُزدجَر فيه) لَكان المعنى عامًّا، لكن لمّا قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾ على المبتدأ ﴿مُزۡدَجَرٌ﴾ أفاد أنّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(3) حسن، البلاغة العربيّة: 2/ 434.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 98.

الزّجرَ كائنٌ في ذاته، كامِنٌ في مضمونه لا في غيره، وكأنّك تقول: ما مُزدجَرٌ إلّا في هذا الّذي جاءَهم مِنَ الأنباء. فأفاد التّقديمُ الحصرَ أيضًا؛ أي: أنّ هذه الأنباء هي مَظنّة الزّجر ومحلُّه دونَ غيرها. وأفاد التّوكيد أنّ الزّجرَ ثابتٌ ومُتحقِّقٌ، ومَغروزٌ في هذه الأنباء، لا انفكاكَ له عنها. وهذا يتناسق مع نُكْتَة التّجريد، فتقديم ﴿فِيهِ﴾ يُعزِّزه.

علّةُ فصْل ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾:

الفصل لكمال الاتّصال أو للاستئناف

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ لأنّه بدلٌ من ﴿مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾؛ أي: جاءتهم حكمة بالغة[1]؛ فهو كمال اتّصال، أو استئناف خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هو حكمةٌ بالِغةٌ[2].

غرضُ تنكير لفظ ﴿حِكۡمَةُۢ﴾:

تفخيم الحِكمة وتعظيمها

نُكِّر لفظ ﴿حِكۡمَةُۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾ للتّفخيم، وأنّها حكمةٌ فائِقةٌ لا مزيدَ عليها، وللتّعظيم وتكثير النّوع؛ أي: هي حكمةٌ مُتجدِّدة كثيرة الأنواع، لا يُحاطُ بها[3].

بلاغة استعمال مفردة ﴿بَٰلِغَةٞۖ﴾ مادّةً وصيغةً:

حِكمةُ اللهِ كاملةُ المضمون بالغةُ الإحكام

جاءت كلمةُ ﴿بَٰلِغَةٞۖ﴾ صفةً لحِكمة في قوله تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾، وهي من حيثُ المادّةُ تدلُّ على الوصول والانتهاء إلى الغاية[4]، وأنَّ الأنباءَ الّتي هي آياتُ اللّه غايةٌ في تقرير الحُجج، وتامّةٌ في دفع الإلباس والظّنّ[5]، وليَدلَّ بالوصف على أنّه ما مِن شيءٍ يَحكُمُ اللّهُ تعالى به إلّا وكان مَبناه على الحكمة الكاملة، فلا يَعتورُه نقصٌ، ولا يفتقر لتكميلٍ أو تعقيبٍ بالنّقد والاستدراك. ومن جهة الصّيغة فهي اسم فاعل مؤنّث تُفيد كون الحكمة واصلةً إلى أقصى مَراتِبها،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 175.
(2) صافي، الجدول: 14/ 64.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 98، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 313.
(4) الرّاغب، المفردات: (بلغ).
(5) القصاب، النّكت الدّالّة على البيان: 4/ 206.

فقد بلغَتِ الغايةَ في الإحكام والكمال، لِما لاسم الفاعل من دلالةٍ على تمكُّن الوصف وثبوته[1]. فالوصف بالبلوغ يُفيد تمامَها بعدم النّقص، وإحكامها بنزاهتها عنِ الاحتمال والتّبدّل[2].

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلّق ﴿بَٰلِغَةٞۖ﴾:

كمال الحِكمة في ذاتها، وكمال وصولها إلى المُخاطَبين

حُذِفَ مفعولُ ﴿بَٰلِغَةٞۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾؛ لإفادة الإطلاق والتّعميم؛ أي: أنّ الحكمةَ قد بلغت غايتَها في ذاتها كمالًا ووضوحًا، وبلغت غايتَها في وصولها إلى المُخاطَبين، فاجتمع لها تمامُ الكمالِ في حقيقتها، وتمامُ البلاغِ في نفاذِها. فحَذْفُ المفعولِ أتاح شمولَ الوجهَين معًا[3].

نوع الفاء ودلالتُها:

الحكمة البالغة للعقول البالغة، لا للعقول الواهمة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ تفريعيّة؛ إمّا على قوله: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ﴾؛ لترتيب عدم إغناء النُّذُر على مجيء الحكمة البالغة مع كونها مُستوجِبةً للإغناء والاكتفاء[4]. وإمّا تفريعيّة على جواب القَسَم المُتقدِّم في قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾[5]؛ أي: باللّه لقد جاءَهم كائنٌ مِنَ الأنباء ما فيه ازدجار لهم[6]، فما أغناهم ذلك، وما كفاهم. فالفاء لترتيب عدم الإغناء على مجيء الأنباء.

نوع (ما) ودلالتُها:

تحتمل (ما) النّفيَ على الإخبار، أو الاستفهامَ على الإنكار

(ما) في قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ إمّا نافية على الإخبار، وإمّا استفهاميّة على الإنكار[7]. فالمعنى على احتمال النّفي؛ أي:

---

(1) فاضل السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 41.
(2) الجلالين، تفسير الجلالين، ص: 705.
(3) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 411، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 312.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 168، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 175.
(5) الخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 27/ 139.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 78.
(7) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 432، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 164.

لا تُغني عنهم النُّذُرُ شيئًا. فمفعولُ ﴿تُغۡنِ﴾ محذوف[1]؛ فيكون تمهيدًا لقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾، فالمضارع المَنفيّ ﴿فَمَا تُغۡنِ﴾ للحال والاستقبال؛ أي: ما هي مُغْنية، ويفيد بالفحوى أنّ تلك الأنباءَ لم تُغْنِ عنهم فيما مضى بطريق الأحرى؛ لأنّه إذا كان ما جاءَهم مِنَ الأنباء لا يُغني عنهم مِنَ الانزِجار شيئًا في الحال والاستقبال، فهو لم يُغنِ عنهم فيما مضى؛ إذ لو أغنى عنهم لارتفع اللّومُ عليهم[2].

والمعنى على الاستفهام الإنكاريّ: ماذا تفيد النُّذُرُ في أمثالهم المُكابرين المُصرّين، أي: لا غِناءَ لهم في تلك الأنباء، فـ (ما) على هذا في محلّ نصبٍ على المفعول المُطلَق لِفعل (تُغني)، وحُذِفَ ما أضيفت إليه (ما). والتّقدير: فأيُّ غِنًى تغني النُّذُر عنهم[3]؟!.

بلاغة التّعريض في مفردة ﴿تُغۡنِ﴾:

النُّذُر تُغني أصحاب العقول الرّاقية ويستغني عنها فاقدو القلوب الصّافية

تدلُّ كلمة ﴿تُغۡنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ على الكفاية والمنع مِنَ الحاجة[4]. فالنّفي هنا يُبرز أنّ النُّذرَ لا تَملِكُ دفعًا ولا كفايةً، والتّعبير بهذه المفردة فيه إيماءٌ إلى أنَّ شأن النُّذُر أن تُغني طالبَ الحقِّ فتورِّثَه الفهمَ والعلمَ بما يرعَوي به عنِ الباطل والغَيّ واتّباعِ الهوى، ففيها تعريض بمَن أغنته النُّذُر، وتصريحٌ بمَن استغنى عنها.

بلاغة التّعريض في مفردة ﴿تُغۡنِ﴾:

تجدُّدُ الإغناءِ مَنفيٌّ عنِ الأثرِ لا الواقع

جاءت مفردة ﴿تُغۡنِ﴾ بصيغة المضارع في حيّز النّفي؛ لتُفيدَ الاستمرار والتّجدُّد؛ أي: أنّها لا تُغني في أيّ وقت أو حال. فنفيُ الإغناء بالمضارع يُصوِّر عجزَ النُّذُر المُطلَق والمُتكرِّر عن أن تُجْدي

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل في الإعراب: 27/ 138.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 313، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 175.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غنا)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غنى).

أو تكفي في ردّهم عنِ العِناد[1]، وفيه بيانٌ لحال المُعرِضين، وأنَّهم بلغوا مرحلةَ الرّان على القلوب، بحيثُ مهما استجدَّ لهم مِنَ النُّذُر، فإنّهم مُعانِدون مُكابِرون، فالنّفيُ تسلَّطَ على تجدُّد الإغناء؛ لإفادة ثباتهم على الباطل.

توجيهُ لطيفةِ حذفِ الياء:

سـقـوطُ حـرفِ الياء إيـماءٌ إلى سـقـوط حـظِّ المُشرِكين

فعل ﴿تُغۡنِ﴾ مضارعٌ مرفوع، حُذِفَت منه الياء رسْمًا من غير موجِبٍ كجزم وغيره، اتّباعًا لسُنَن المَصاحِف، ومراعاةً لحال الوصل عند التقاء السّاكنين الّذي يَستوجِب الحذف، فطوبِق الرّسمُ بالنّطق وصلًا[2]، وفي الحذف لطيفة إشاريّةٌ خفيّة تشير إلى شدّة النّفي وقَطعِ الأمل من أيّ فائدةٍ للنُّذُر مع أصحاب العقول العنيدة، فحُذِف حرفُ المَدّ ليطابقَ معنى الانقطاع والعدم، إيماءً إلى عدم جدوى النُّذُر معهم[3].

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلّقِ الإغناء:

رُبَّ حذفٍ أورث مِـنَ المـعـاني ما لا تُفيدها ألفاظُ المَباني

حُذِفَ مُتعلّقُ فعلِ الإغناء في قوله تعالى: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾، فلم يُقل: عنهم أو عن عذاب الله ونحو ذلك؛ لإفادة الإطلاق والعموم، فالنُّذُر لا تُغني عنهم شيئًا البتّة، في أيِّ وجهٍ من وجوه النّفع أو الكفاية؛ فحَذْفُ المُتعلِّقِ أفاد إطلاقَ المعنى، فزاد في قوّة النّفي وعمومه، كما أنّه أكسب النّظمَ تحسيرًا عليهم، وتهكُّمًا بهم، فلِلحَذْفِ رسالةٌ تَفوق رسالةَ الذّكر، وله سلطانٌ على عقول الأفهام ما لا يُحيط به ضعفاءُ الأفهام.

بلاغة الاحتمال في مفردة ﴿ٱلنُّذُرُ﴾:

تحتمل أن تكون كلمةُ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 168.

(2) صافي، الجدول: 14/ 65.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 98.

تعدُّد الاحتمالات يُعاضِد معنى الاستغراق الشّموليّ

﴿تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ جمعَ نذيرٍ - وهو الظّاهر، أي: (المُنذَر به)، وهي الآيات أو الإنذارات أو الرّسالات، ويؤيّده إسنادُ الفعل المؤنَّث في ﴿تُغۡنِ﴾ إليه. ويُؤيّده: أنّ الكلامَ على الأنباء والحكمة، وهي من مضامين الرّسالات والآيات، ويحتمل أن يكون ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ جمعَ نذير بمعنى المُنذِرين وهم الرُّسل، ويكون تأنيث الفعل ﴿تُغۡنِ﴾ مراعاةً للفظِ النُّذُر لا لمعناه. ويحتمل أن يكون ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ مصدرًا بمعنى الإنذار. ويُعترَض على هذا القول: أنّ الأصل في المصدر ألّا يُثنّى ولا يُجمَع؛ لدلالته على الجنس. والجواب عليه: أنّه يجوز أن يأتيَ المصدر على صورة الجمع، إمّا على معنى المرّات كما في (قُعود) و(جُثوم) أُريد بهما القعدات والجثومات، وإمّا على معنى الأنواع: فيُجمَع باعتبار اختلاف أنواعه. كما أنّ ثَمّة تداخُلًا بين أوزان الجمع وأوزان المَصادر، بحيثُ قد يتبادلان الدّلالة. فكما يأتي جمعُ التّكسير على وزن المَصدر، كما في: سُجود وحُضور، جمع حاضِر وساجِد، رغم أنّهما في الأصل على وزن المصدر[1]. فيمكن للمصادر أن تأتيَ على أوزان الجموع كذلك. وعليه، فالاعتراضُ على المَصدريّة ليس قاطعًا[2].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾:

كلُّ إنذارٍ بحُكم المَعدوم عند صاحب القلب المَعدوم

(أل) في لفظ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾ جنسيّة للاستغراق، وهي تفيد شمول كلِّ النُّذُر الّتي أنذرَتْهم مِنَ الرُّسل والكتب والآيات القرآنيّة والكونيّة قبل ذلك، فالتّعبير بـ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ بـ (أل) الاستغراق يُبرز أنّ جميع صور الإنذار، على كثرتها وتنوّعها، لا تُغني عنهم شيئًا، وهو ما يزيد من عنصر تبكيت القوم وتوبيخهم.

(1) فاضل السّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 139.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 313، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 78.

متاركة المُعانِدين تفريعٌ على مَوقِفهم وإفصاحٌ عن واقعهم

نوع الفاء ودلالتُها الرّابطة:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ تحتمل أن تكون تفريعيّة على قوله: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾؛ أي: أعرِض عن مُجادلتهم؛ فإنّهم لا تفيدُهم النُّذُر؛ أي: إنّك قد بلّغت، فما أنت بمسؤول عنِ استجابتهم، وفيه تسليةٌ وتخفيفٌ وإعذارٌ تامٌّ للنّبيّ ﷺ ومراعاةٌ لخاطره[1]. وتحتمل أن تكون الفصيحة؛ أي: إذا كان الأمر كذلك فتولّ، فالجملة جواب شرط مُقدَّر، أو هي فاء السّببيّة[2]. وعلى مجموع الاحتمالات فالفاء نتيجةٌ للكلام السّابق، وفي مَدخولها معنى المُتاركة والموادعة؛ وذلك أنّه تعالى لَمّا أخبر عنِ المُعانِدين، وأنّه بلغ إعراضُهم وتمرّدُهم بحيثُ إنْ يروا آيةً يقولوا: سِحرٌ مُستمرٌّ، وكرّر المعنى بقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾؛ لأنَّ الإعراض وقولهم: ﴿سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ تكذيبٌ ومتابعةٌ للهوى، ثمّ جاء بقوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ جملةً قسميّة حالًا مُقرَّرة لجهة الإشكال؛ أي: يُكذِّبون، والحال أنّه جاءَتهم حكمةٌ بالغة، ثمّ سجّل عنادَهم بقوله: ﴿فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾؛ أي: بعد أن استعلمتَ حالَهم، وأنّهم لا يؤمنون البتّة، فتولَّ عنهم، وأعرض عنِ الإنذار؛ لأنّ الإنذارَ إنّما يفيدُ إذا انتفع به المُنذَر[3].

مَن أعرض عنِ الحقّ وُكِّل إلى عاقبة اختياره

غرض الأمر ودلالتُه:

الأمر في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ لتهديد المُكذِّبين؛ فهو تهديدٌ ضمنيٌّ لهم؛ أي: دَعْهم وما اختاروا، فسوف يَلْقَون عاقبةَ عنادهم. وللتّهوين على النّبيّ ﷺ؛ أي: لا تَحزن من إعراضهم، فقد بلّغْتَ الرّسالةَ. وعليه؛ فالأمر بالتّولّي كنايةٌ عن تسليمهم لله، وتركِهم لمصير الهلاك.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 176.
(2) الخطيب، وآخرون، التّفصيل في الإعراب: 27/ 139.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 432، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 121.

تعيينُ المقصود بالخطاب ودلالتُه:

اجتماع الدّلالة الظّاهرة والإيمائيّةِ إيجازُ قَصْر

المخاطَب في الأمر ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ هو النّبيّ ﷺ ، ودلَّ الخطابُ على تسليته ﷺ وتثبيته؛ ليُعلَمَ أنّه أدّى ما عليه، ولم يُقصِّر في التّبليغ، كما أنّه دلَّ بالإيماءِ إلى تأنيب الكفّار، إذ وُجِّه الكلامُ للنّبيّ تسليةً، ولأعدائه توبيخًا؛ فدلَّ الخطابُ على تسلية النّبيّ ﷺ صراحةً، وعلى توبيخ الكافرين إيماءً.

بلاغة استعمال حرف (عن):

التّولّي عنِ المُعانِدين إعراضٌ مُستحِقٌّ وإغفالٌ حقيقٌ بهم

عُدّيَ فعلُ التّولّي بحرف (عن) في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾؛ لإفادة المُجاوزة والانصراف الكلّيّ؛ أي: اجعل بينَكَ وبينهم حِجابًا، واصرف وجهَك عنهم تمامًا، وفيه مبالغةٌ في الإعراض، لِما فيه مِنَ الإيماء إلى معنى الإهمال والإغفال، ووضع المُتولَّى عنهم مَوضِعَ المَغفول عنه، غيرِ مُستحِقّ الالتفات، تنبيهًا إلى أنّهم لا يستحقّون أدنى التفاتٍ، كما فيه إيماءٌ إلى معنى الإعراض؛ أي: تولّى مُعرِضًا عنهم.

نُكْتَة الوَقفِ على ﴿عَنۡهُمۡۘ﴾:

انتهاءُ التّبليغ أشدُّ إنذارٍ واجَهَهُ المُشرِكون لو كانوا يفقهون

حَسُنَ الوقفُ على الجارّ والمجرور ﴿عَنۡهُمۡۘ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ لنُكْتَةٍ بيانيّة، وهي إفهام معنى القطع التّامّ، وهو الإخبار بانتهاء تبليغهم وإنذارهم، وتركِهم وما هم عليه مِنَ العناد، وتوطئةً للاستئناف: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾، كأنّ ذلك الجزاءَ هو عاقبة تولّيهم. وإذا وُصِلَ الكلام ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ أصبح المعنى تأجيلَ العقوبةِ إلى ذلك اليوم. وهذا ضعيف؛ لأنَّ تولّيه عنهم ليس مُغيًّا بيوم يدعُ الدّاعي[1]، ولإيهام الوصل أنَّ التّولية مأمورٌ بها يوم النّفخ في الصّور، فيُظنّ أنّ العاملَ في الظّرف هو (تولّ).

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 174.

كأنَّه قيل: فتولّ يوم يدع الدّاعي. وهو ضعيفٌ جدًّا لِبُعدِه[1]. أمّا الوقفُ على ﴿عَنۡهُمۡۘ﴾ فيَفْصِل الأمرَ بالإعراض عنهم عن مَشهَد القيامة.

مَوقِع الظّرف بناءً على الوقف والوصل:

التّذكير بوعيد القيامة بين يَدَي الإعـــراض عـن المعْرِضين

بناءً على الوصل في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ - وهو وجه ضعيف - يكون ﴿يَوۡمَ﴾ ظرفَ زمان مُتعلِّقًا بفعل (تولَّ)؛ أي: أعرض عنهم إلى يوم القيامة، وعلى الوقف يكون ﴿يَوۡمَ﴾ منصوبًا بفعلٍ محذوفٍ، تقديره: اذكرْ يومَ يدعو الدّاع[2]، ففي الوقف تصويرٌ مَشهَديٌّ مُستقِلٌّ ليومِ القيامة أشدّ تهديدًا وأوقع في النّفس.

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

الوعيد المُرْتقَب يـتـجـلَّى يــومَ يُـدعَـى إلى أمرٍ نُكرٍ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنّ الأمر بالتَّولّي مُؤذِنٌ بغضبٍ ووعيدٍ، فمِن شأنه أن يُثيرَ في نفس السّامع تساؤلًا عن مُجمَل هذا الوعيد، ووقع الاستئنافُ مُعترِضًا بين جملة ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ وجملة ﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾. وإذ قد كان المُتوعَّدُ به شيئًا يحصُلُ يومَ القيامة، قُدِّمَ الظّرفُ على عامله - وهو قوله: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾؛ ليحصُلَ بتقديمه إجمالٌ يُفصِّلُهُ بعضَ التّفصيل ما يُذكَرُ بعدَه، فإذا سَمِعَ السّامِعُ هذا الظّرفَ، عَلِمَ أنّه ظرفٌ لأهوالٍ تُذكَرُ بعدَهُ، هي تَفصيلُ ما أجمَلَهُ قولُه: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ﴾ مِنَ الوعيد، بحيثُ لا يَحسُنُ وقعُ شيءٍ ممّا في هذه الجملة هذا المَوقِعَ غير هذا الظّرف، ولولا تقديمُهُ لجاء الكلامُ غيرَ مَوثوقِ العُرى، وانظُرْ كيف جَمَعَ فيما بعدَ قولِه: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ كثيرًا مِنَ الأهوال، آخِذٌ بعضُها بحُجَزِ بعضٍ بحُسن اتّصالٍ، يَنقُلُ كلُّ منها ذِهنَ السّامعِ إلى الّذي بعدَه، من غير شعورٍ بأنّه يُعَدِّدُ له أشياءَ[3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 174، والسّمين، الدّرّ المَصون: 6/ 222.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 182، والخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 140.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 177.

دلالة التّعبير بالفعل المضارع:

التّعبير بصيغة الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ يفيد استحضارَ الصّورة المستقبليّة؛ لتقريب مَشهَد الدّاعي حين يُنادي النّاس.

استحضارُ الصّورة المستقبليّة؛ وتقريبُ مَشهَد الدّاعي

نُكْتَةُ حذفِ واو ﴿يَدۡعُ﴾:

لفظُ ﴿يَدۡعُ﴾ رُسِمَ في المُصحَف بغير واو؛ اتّباعًا لقراءة الوصل بسبب التقاء السّاكنَين، ولفظ ﴿ٱلدَّاعِ﴾ رُسِمَ في المصحف بغير ياء للتّخفيف[1]. والحذف فيهما ليس لمُجرَّد التقاءِ السّاكنين والتّخفيف فحسب، بل له إيحاءٌ بيانيّ أيضًا، ففيه إيجازٌ صوتيّ يُضاهي رهبةَ المَشهَد وسرعةَ النّداء، كما أنّ الخِفّة والقطعَ في اللّفظ تعكِسُ نفاذَ الدّعوة وقَطعَها لعالَم الدّنيا، إيذانًا بالانتقال إلى هول القيامة. فالرّسمُ والقراءة اجتمعا على التّخفيف صوتًا، وأدّيا معنى الرّهبةِ والسُّرعةِ دلالةً.

الحذفُ الصّوتيّ يُجسّدُ رهبةَ النّداء وسرعة وقوعِه

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلدَّاعِ﴾:

تحتمل (أل) في لفظ ﴿ٱلدَّاعِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ مَعنَيين؛ العهد الذّهنيّ، أي: الدّاعي المعلوم عندكم، وهو إسرافيلُ - على قول - الموكَّلُ بالنّفخ في الصّور والدّعاءِ إلى المَحشَر[2]. ولا يبعُدُ أن تكون (أل) لتعريف الماهيّة؛ أي: الدّاعي المَهيب في ذلك اليوم العظيم، فلا يحتاج إلى تعريفٍ آخر؛ لأنّه لا يَلتبسُ بغيره.

الدّاعي على الحقيقةِ هو داعي يوم القيامة

بلاغة جِناس الاشتقاق:

في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾ جناسُ الاشتقاق، وهو أن يأتيَ في الكلام لفظان، بينهما اتّفاقٌ في المادّة الأصليّة (الجذر) واختلافٌ في الصّيغة؛ فقولُه: ﴿يَدۡعُ﴾ فعل، وقولُه: ﴿ٱلدَّاعِ﴾ اسم، وكلاهما من

جناس الاشتقاق يجمع بين الفعل والفاعل لتأكيد المعنى والدّلالة

---

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 13/ 290، وصافي، الجدول: 14/ 66.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 13/ 290.

جذر (د ع و)، واختلفا في الصّيغة، وهو جِناس اشتقاق؛ لأنّه ليس تَكرارًا مَحضًا، ولا اختلافًا تامًّا، بل اشتراكًا في الأصل اللّغويّ مع اختلاف البُنيَة، فيجتمع فيه التّلازمُ الدّلاليُّ، والجَرْسُ البيانيّ.

بلاغة المَجاز بالحذف:

تهويلُ مَوقِفِ القيامةِ وتعظيمُ مآلِ المُجرِمين

حُذِف مفعول ﴿يَدۡعُ﴾، والتّقدير: (يدعوهم الدّاعي)؛ لدلالة ضمير ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على تقدير المحذوف في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾[1]، وفائدة الإيجاز بحذف المفعول الإسهامُ في تعظيم الهول؛ ليُلقيَ في نفس السّامع شعورًا بالمفاجأة والرّهبة، وتكثيفِ دلالة المُتعلّق ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾. فكأنّك أمامَ مَشهَدٍ يسمعُه السّامعُ، فيُبادِرُ بالسّؤال: (وما الّذي يُدعَى إليه)؟ فيأتي الجواب مُبهَمًا مُروِّعًا: ﴿إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾!.

بلاغة استعمال لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾:

إبهام المَدعوِّ إليه يـورِثُ الرّهبةَ، ويُعَزِّز التّهديد

آثَر النّظمُ الكريم استعمالَ لفظِ ﴿شَيۡءٖ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾؛ للدّلالة على الإبهام المُفزِع؛ فالتّنكير هنا هو إبهامٌ يُراد به التّهويل؛ لأنّ النّفسَ إذا واجهَت المجهول خافَت منه أكثرَ ممّا لو عُيِّن، فكلمة ﴿شَيۡءٖ﴾ مُبهمَةٌ تدلُّ على أمرٍ غامضٍ، مُفاجِئ غيرِ مُعتادٍ، يُستشعَرُ فيه الهولُ قبل أن يُكشَفَ النّقابُ عن حقيقته، كما أنَّ التّنكيرَ أفاد التّعظيمَ في سياق التّهديد والوعيد؛ أي: يَدع الدّاع إلى أمرٍ عظيمٍ لا يوصف، تُفزَع له القلوبُ، وتُنكِرُه الفِطَر[2].

بلاغة استعمال مفردة ﴿نُّكُرٍ﴾ وصفًا:

وَصْفُ الشَّيءِ بالنّكارةِ يُجسِّم الفزع، ويُبلغ بالهول غايته

كلمة ﴿نُّكُرٍ﴾ في قوله: ﴿شَيۡءٖ نُّكُرٍ﴾ وصْفُ مبالغةٍ لاسم المفعول، فهو شديدُ النّكارة[3]؛ أي: أمرٌ تُنكِرُه النّفوسُ، وتَمَجُّه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 177.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 177.

(3) فاضل السّامرائي، معاني النّحو، ص: 59، 60.

العقولُ، وتهرُبُ منه الفِطَرُ السّليمةُ، فهو غير مألوف، لا يقبلُه عقلٌ، ولا تصبِرُ عليه نفْسٌ[1]. أو هو صفة مشبّهة فيدلّ اللّفظُ على تشبُّع ﴿شَيۡءٍ﴾ بالصّفة، فقوله: ﴿شَيۡءٍ نُّكُرٍ﴾؛ أي: دائم النّكارة ومُتشبِّعٍ بها إلى أبعد حدّ[2]، وهذا الوصف يُتمِّم مَشهَدَ الهول في السّياق، ودلالةَ تنكيرِ الموصوف قبلَه، فالجمعُ بين الإبهام والوصف يُجَسِّم الهولَ؛ كأنّهم يُستقبَلون في يوم القيامة بنداءٍ مُروِّعٍ، إلى أمر مَجهول، لكنّه مشهودُ الفظاعة والغرابة، تفزَعُ له الرّوحُ قبلَ أن تراه[3]! فالتّعبير جَمَعَ بين أصل المعنى (الاستقباح)، وصيغة المُبالغة (الهول العظيم)؛ ليُصوِّرَ الحَدَثَ يومَ القيامة بأنّه شيءٌ فظيعٌ مُنكَرٌ، تستعظمُهُ العقولُ وتستفظعُهُ القلوبُ.

توجيه القراءات القرآنيّة:

امتدادُ الصّوت بالضّمّ يناسب تفصيلَ الصّفة وبيانَها

قرأ الجمهور ﴿نُّكُرٍ﴾، وقرأ ابن كثير ﴿نُّكۡرٍ﴾ على وزن (فُعۡل) بضمّ الفاء وسكونِ العَين[4]، وهي وصفٌ يُفيد المبالغةَ أيضًا؛ أي: شيءٌ منكورٌ مُبالَغٌ في إنكاره لشِدّته وفظاعته. والفرق بين قراءة ضَمّ الكاف وسكونها: أنَّ الضّمَّ فيه مبالغةٌ من جهة الصّيغة؛ أي: أنَّ الوصفَ نفسَه بلغَ غايتَه. وقراءةُ السّكون فيه فيها إيجازٌ وقوّةٌ من جهة الوَقْع، يوحي بأنّ الشّيءَ بذاته بالِغٌ في النّكارة بحيثُ لا يحتاج إلى زيادة، فكلاهما يلتقي في معنى الشّدّة والفظاعة، لكنّ الضّمَّ أبلغُ في الوصف الكيفيِّ، والتّسكينَ أوجزُ وأشدُّ وقعًا في النّفس.

بلاغة استعمال مفردة ﴿خُشَّعًا﴾:

مَن لم يخشع في الدّنيا اختيارًا فسيخشعُ في القيامة إجبارًا

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ كلمةِ ﴿خُشَّعًا﴾ في قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾؛ لدلالتها على التّذلُّل والانكسار والخضوع،

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 432.

(2) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 65، وصافي، الجدول: 14/ 66.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 177.

(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 380.

وهو ما يُناسب مَوقِفَ المُشرِكين يومَ القيامة، ومن حيثُ الصّيغةُ فهي جمعُ خاشِع، وهو اسمُ فاعل صُيِّر إلى جمع تكسيرٍ؛ للدّلالة على الكثرة وتعدُّد الأفراد، وهي وصفٌ لحال الّذين يخرجون من قبورهم أذلّةً مُنكسِرةً أبصارُهم[1]. ونُكتَةُ استعمالِ هذه المفردة دون مُقارباتها: هو التّعريض بمدح المؤمنين الّذين كانوا خُشّعًا للّه تعالى في الدّنيا، وبيانُ أنَّ مَن لم يخشَعْ في الدّنيا اختيارًا، فسيخشع يومَ القيامة قهرًا وإجبارًا.

توجيه القراءات القرآنيّة:

تصوير الخشوع في كلِّ فردٍ تفصيلًا، وفي المجموع جُملةً

قرأ البصريان وحمزة والكسائيّ وخَلَف: ﴿خَٰشِعًا﴾، وقرأ البقيّة: ﴿خُشَّعًا﴾[2]، فقراءةُ الإفراد ﴿خَٰشِعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ تُصوِّر الخُشوعَ صفةً شاملةً مُطلقةً، قدِ استولَت على كلِّ بَصَرٍ فردًا فردًا، فيُرى الذِّلُّ واحدًا مُتحقِّقًا في كلّ عين على حِدَة، ممّا يُبرز شمولَ الأثرِ وتساوي النّاسِ فيه[3]، وقراءةُ الجمع ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ تُصوِّر تفرُّقَ المظاهرِ وتوزُّعَها على الأبصار، فيوحي بكثرة العُيون الخاشعة، وهولِ المَشهَد بكثرة الذّلّة الظّاهرة على كلّ الجماعات، فيكون أوقعَ في تصوير تراكم الخَوفِ والذُّلِّ الجماعيّ، فالإفرادُ يُركّز على شمول الخشوع في كلِّ فرد، والجمعُ يُركّز على كثرة الخاشعين وفظاعةِ المَشهَد الجماعيّ.

بلاغة الكناية في ذِكر الأبصار:

ذلّةُ الذّليل وعِزّة العزيز تَظْهَران في عيونهما

إسناد الخشوع إلى الأبصار في قوله: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ مَجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ الخُشوعَ والذّلَّ والانكسارَ هو في الأنفُس حقيقةً لا في الأبصار، ولذا أجازوا أن يكون ﴿أَبۡصَٰرُهُمۡ﴾ بدلًا مِنَ الضّمير في

(1) ابن منظور، لسان العرب: (خشع)، والقنّوجي، فتح البيان: 13/ 290، والسّامرائيّ، معاني الأبنية، ص: 133، والخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 142.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 380.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 100.

﴿خُشَّعًا﴾؛ لأنّ التّقدير: (خشّعًا هم)؛ أي: أنفسهم وذواتهم[1]. وإنّما أضاف الخشوعَ إلى الأبصار؛ لأنّ العِزّ والذُّلّ يتبيّن فيها، ويظهر أكثر من ظهوره على بقيّة البدنِ، فالأبصارُ كاشفةٌ لِما في النّفوس[2]، فقولُه تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ كنايةٌ عن صفة الذّلّة والانخذال؛ لأنّ ذِلّة الذّليل وعِزّة العزيزِ تظهران في عيونهما[3].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة المضارع:

تصويرُ حالِ الخارجين من قبورهم في مشهدٍ مفاجئٍ متتابع

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ لتصوير حال الخارجين من قبورهم؛ فناسبَ التّعبيرُ بالمضارع لإبراز المَشهَد المُفاجئ المُتتابع.

نوع ﴿مِنَ﴾ ودلالتُها:

مبدأ الخُروج والانبعاث يكون من داخل القُبور

(مِنْ) في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾؛ لابتداء الغاية المكانيّة؛ أي: مبدأ خروجهم وانبعاثهم يكون من داخل القبور.

بلاغة استعمال مفردة ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾:

الأجداث تختصُّ بصوتٍ دالٍّ على خروج النّاس من قبورهم

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿ٱلْأَجْدَاثِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ دون (القبور)؛ وذلك لأنّ الأجداثَ مُرتبطةٌ بمعنى الجَدَث، وهو صوت الحافِرِ والخُفِّ وأكلِ اللّحم، وهذه الأصوات الثّلاثة ستكون حاضرةً وقتَ خروجِ النّاس من قبورهم، فتنمو اللّحومُ على الأجساد، ثمّ يَحْفرون ليَخرجوا، فصوتُ الحَفْرِ ونُموِّ اللّحم هو الحاضر بقوّة في مَشهَد القيامة، وهو الّذي بسببه سُمّي القبر جَدَثًا، فإنَّ تآكل اللّحوم ابتداءً واضمحلالَها هو سببُ تسميةِ القبر بالجَدَث، فكذلك القبر عند نُموِّها، ويُرشِّحُ ذلك أنَّ الآياتِ الّتي ورد فيها لفظُ الجَدَث تصوِّرُ وقتَ خروجِ الأجساد من قُبورها.

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل في الإعراب: 27/ 143.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 13/ 290.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 432.

ما وافق خصوصَ السّياقِ فهو المُقدَّم على عموم الواقع

نوع (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾:

عُرِّفَ لفظُ ﴿ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ﴾، بجعل (أل) عوضًا عنِ المضاف إليه المحذوف؛ أي: من أجداثهم؛ لأنَّ السّياق فيهم، ويحتمل أن يكون تعريفَ الجنسِ؛ أي: القبور على وجه العموم، لا قبورًا مَخصوصة. والإتيان بـ (أل) الجنسيّة يُشعِرُ بأنّ هذا المَشهَد عامٌّ شامِلٌ لكلِّ القُبور في الدّنيا، فيُبرِزُ شموليّةَ البعث، وأنّه لا يختصُّ بقوم دونَ قوم، ولا بمكانٍ دونَ مكان، ودلالةُ الجنس صحيحةٌ باعتبارِ عمومِ الحَدَث، لا باعتبار خصوص السّياق، ولذلك الأولَى أن تكون (أل) عِوضًا عنِ المضاف إليه المحذوف.

انتشار الجَراد صورةٌ مُركَّبة تجمَعُ التّكاثُفَ والانتشار والازدحام

بلاغة التّشبيه ونوعه:

في قوله تعالى: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ تشبيهٌ مُرسَل مُفصَّل: حيثُ شبّههم بالجَراد المُنتشِر، في الكثرة والتّموّج والانتشار في الأقطار، بجامِع الكثرة، وعدمِ الاستقرار، والانتشارِ في الأقطار، كما جاء تشبيهُهُم بالفَراش المَبثوث. وقد قيل: يكونون أوّلًا كالفَراش حين يَموجون اضطرابًا وفَزَعًا، لا يهتدون أين يتوجَّهون؛ لأنّ الفَراش لا جهةَ لها تَقصِدُها، ثمّ هُم كالجَراد المُنتشِر إذا توجَّهوا إلى المَحشَر، فهما تَشبيهان باعتبار وقتَين[1]. والتّشبيه هنا مُرسَلٌ؛ لذِكر الأداة، ومُفصَّل؛ لذكر وجه الشّبه، وهو الانتشار، فكأنّه قال: خروجهم من قبورهم كالجَراد في انتشاره. كما أنَّ هذا التّشبيه مُركَّبٌ، فهو تشبيهٌ تمثيليّ؛ لأنّه تشبيهُ هيئةِ خروج النّاس مِنَ القبور مُتراكِمين، بهيئة خُروج الجَراد مُتَعاظِلًا - يركب بعضُه بعضًا كما السِّفاد - يسير غيرَ ساكن[2]، وقد أفاد هذا التّشبيهُ تجسيدَ الصّورةِ وتشخيصَها؛ فهذه الجموعُ الخارجة مِنَ الأجداث

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 80، وصافي، الجدول: 14/ 67.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 179.

في مثل رَجْعِ الطّرف تُشْبهُ الجَرادَ الّذي اشتهر بانتشاره واحتشاده دون أن يكون له هدفٌ من هذا الانتشار والاحتشاد، وكذلك هذه الجموعُ قد ألجمَها الخوفُ، وعَقدَ الهولُ أفهامَها، وضربَ عليها رواكدَ مِنَ الحَيرة، وغشيَها بأمواجٍ مِنَ الضّلالة والرَّين، فهي تسير تلبيةً لدعوة الدّاعِ دونَ أن تعرِف لمَ يَدْعوها، ولكنّها تعرف بصورة مُبهمة أنّه يدعوها إلى شيءٍ نُكرٍ لا تكْتَنِهُ حقيقتَه، ولا تعرِفُ فحواه[1].

غرض تنكير لفظ ﴿جَرَادٌ﴾:

صورة الجَراد المُشبَّهِ به تقريبيّة لا تحقيقيّة

نُكِّر لفظُ ﴿جَرَادٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ للتّعظيم والتّهويل وإظهار المُفارقة، فالتّنكير يُشعِر بأنّهم ليسوا كأيِّ جَرادٍ مَعهود، بل جَرادٌ عجيبٌ مُرعِبٌ في كثرته واضطرابه وانتشاره، فيجعلُ صورةَ البعثِ أفظعَ وأقوى. ولو قال بالتّعريف: (كالجَراد المُنتشِر)؛ لأفاد التّشبيهُ تشبيهَ الخارجين مِنَ القبور بجَرادٍ مَعروفٍ مألوفٍ عند النّاس في حياتهم، فيقتصرُ على المُشابهة من حيثُ الهيئةُ الطّبيعيّة للجَراد إذا انتشر، أمّا التّنكيرُ فيدلُّ على انقطاع النّظير في شدّة الكثرة والفوضى والانتشار[2].

علّةُ التّشبيهِ بالجَراد المُنتشِر:

بيان الانتشار غيرِ المُنظَّم كغوغاءِ الجَراد لتصويرِ هول المَوْقِف

آثر النَّظمُ الكريم تشبيهَ الخارجين مِنَ القُبور بالجَراد المُنتشِر في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾؛ لبيان صورة الانتشار فهو ليس انتشارًا على وجه المَهَل والوقار، بل انتشارٌ غوغائيٌّ كانتشار الجَراد، زيادةً في هول ذلك اليوم، وتقريرًا لِما تقدَّم من وصفه[3]. والانتشار هنا هو وجهُ الشّبهِ، والتّصريح به أكّدَ في الأذهان أنَّ التّشبيه حاصلٌ في الكثرة وزحمةِ الاختلاط، لا في

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 9/ 375.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 101.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 101.

صِغَرِ الجُثَثِ والذّوات. فهم كالجَراد في كثرته وزحمتِه في انتشاره، لا في صِغَر جرمِه وحجمه.

بلاغة استعمال مفردة ﴿مُّهۡطِعِينَ﴾:

تصوير حالِ الهَلَعِ الشّديد بمَدِّ الأعناق وشخوصِ الأبصار

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردة ﴿مُّهۡطِعِينَ﴾؛ لدلالتها على أمرين معًا، وهما الإقبال على الشَّيءِ بالبصر مع الانقياد، ولا يكون ذَلِك إلّا مَعَ خَوفٍ، والإسراعُ في العَدْو مع مدِّ العُنُق بانقيادٍ[1]، فالمفردةُ تصوِّر حالَ المُهطِع بأنّه مذعورٌ مُنقادٌ مُسرِعٌ مادٌّ عنقَه، شاخصٌ بصرُه، فهي تصوِّر حالَ الذّعر والهلع والغموضِ الّذي يعيشُه الإنسانُ حالَ خروجه مِنَ القبر، دون أن يكون هناك التفاتٌ لشيءٍ سوى أن ينظرَ أمامَه بشخوص البصر ومدّ العنق.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلدَّاعِ﴾:

المعهود المذكور الّذي ينادي بالبعث

تعريف لفظ ﴿ٱلدَّاعِ﴾ للعهد الذّكريّ؛ أي: المعهود المعلوم الّذي ذُكر سباقًا في قوله: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ﴾، وهو المَلك الّذي ينفخ في الصّور أو ينادي بالبعث[2].

فائدة إظهار لفظ ﴿ٱلدَّاعِ﴾:

دفع توهُّم الاحتمال وتصويرُ مَشهَد الخروج بأدقّ تفاصيله

آثر النّظمُ الكريم إظهارَ لفظِ ﴿ٱلدَّاعِ﴾؛ لِدفع توهُّم إرادة اللّه تعالى، فإنَّه لو أُضمِر لاحتمل السّياقُ ﴿ٱلدَّاعِ﴾ ولفظَ الجلالةِ، وتعيينُه يدلُّ على أنّهم ما زالوا في إبهامٍ مِنَ المَشهَد، وضياعٍ في المَوقف، فلو قال: (مُهطِعين إليه) لاحتمل إرادةَ الإهطاع إلى اللّه تعالى، وهذا الاحتمال يُغيِّبُ إرادةَ تصوير المَشهَد بامتداداته الّتي تدلُّ على أنَّ النّاسَ حين الخروج في حالِ خوفٍ وهَلَعٍ مُبهَم، كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن الأثير، النّهاية: (هطع).
(2) القنّوجي، فتح البيان: 13/ 290.

﴿٥١ قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜۗ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَصَدَقَ
ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٢﴾ [يس: 51 - 52].

علّة فصْلِ جملة ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾:

الاستئناف البيانيُّ تجاوبٌ مع المُتلقّي وتحريكٌ لِمكنونات الفِكْر

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ عمّا قبلَه؛ لِكونه في مَوقِع الاستئناف البيانيّ، فالجملةُ في مَوقِع الجواب عمّا نشأ قبلَها من وصف اليوم والأهوال وأهله بسوء الحال في قوله: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾، كأنَّه قيل: فماذا يكون حينئذٍ[1]؟ وماذا يصدر عنِ الكافرين من مَواقِفَ وأقوالٍ، فأُجيب: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾، والاستئناف البيانيّ من دواعي الفصل، وهو شبهُ كمالِ الاتّصال.

بلاغة إظهار الفاعل دونَ إضماره:

عُسْرُ القيامةِ مُختصٌّ بالكافرين بسبب كفرهم

آثر النّظمُ الكريم ذِكرَ الفاعلِ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ مُظهَرًا بلفظ: ﴿ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، دون إضماره بأن يُقال: (يقولون)؛ ليعودَ على الضّمير (هم) في قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ﴾؛ للتّخصيص والتّنصيص على الكافرين دون غيرهم، بأنّ العُسْرَ مَشهودٌ مِنَ الكافرين فقط، وأنّ المؤمنين لا عُسْرَ عليهم، بل أمانٌ ويُسْرٌ في مَبعَدَةٍ عنِ الفزَع والحَزَن[2]، ولو قال: (يقولون) لاحتمل العمومَ، ولإظهار سببِ العُسْر؛ أي: بسبب كفرهم، وقسوةِ قلوبهم، وقُبحِ أعمالِهم، أحسّوا بهذا اليوم عسيرًا، في حين لا يُحِسُّ به المؤمنون كذلك.

نُكْتَةُ التّعبير باسم الإشارة القريب:

إيصال المعنى بصيغة حسّيَّة واضحةٍ بطريق الإشارة

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ اسمِ الإشارةِ للقريب في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾؛ لتعريف ما يكون في اليوم، فهم لا يمتلكون أدواتٍ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 168.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 80.

مَعرفيّةً لبيان المقصود بهذا اليوم، إلّا أنّه يومٌ عَسِرٌ، فأشاروا إليه باسم الإشارة القريب؛ للتّعريف بما استكنَّ في نفوسهم تِجاهَهُ، ولإضفاءِ الوضوح الحسّيِّ على شدّتهم في هذا اليوم، فالإشارةُ بالقريب تُجَلّي المرادَ وتُجَرِّدُه مِنَ الإبهام، فلا يكتنفُهُ الغموضُ، أو شيءٌ من شوائب الإلباس والتَّشوّش، كما أنّها تُؤكِّد المعنى المُصاحبَ للمُشار إليه بتشخيصه وتقريبه المكانيِّ والزّمانيِّ.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿يَوۡمٌ﴾:

تهويل يوم القيامة على الكافرين

نُكِّر لفظُ ﴿يَوۡمٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾؛ لإفادة التَّهويل، فكلامُ الكافرين يعكِسُ هولَ ما رأوه، خاصّةً وأنّهم وصفوه بأنّه عَسِرٌ.

فائدة وصفِ اليوم بأنّه ﴿عَسِرٞ﴾:

يومٌ عسيرٌ على الكافرين غيرُ يسير

وَصف اليوم بـ﴿عَسِرٞ﴾ في قوله: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾ ينفي عنِ الظّرف أيَّ إبهام أو غموض، كما يعيّنُ حقيقةَ اليوم، ويُثبِتُ شدَّته بوضوح[1].

بلاغة استعمال مفردة ﴿عَسِرٞ﴾ مادّةً وصيغةً:

وَصْفُ اليوم بالعُسْر بيانٌ لِما يراه الكافرون ويستشعرونه

التّعبير بالعُسْر في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ﴾؛ لإظهار شدّة اليوم وصعوبته، وإخلائه من مظاهر اليُسْرِ والرّاحة في طبائع أحداثه[2]، وهو وصفٌ لِما يستشعرُهُ ويراهُ الكافرون في ذلك اليوم، وهو ما يقذفُهُ اللّهُ في قلوبهم، وما يُجريه على أبصارهم من رؤيةِ أهوالٍ تقودُهُم إلى مثل هذا الوصف، وقد قال تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠﴾ [اللّيل: 10]، وقد جاء على وِزان الصّفة المشبّهة (فَعِل)؛ وهي صيغة تصف ثبوتَ الصّفةِ في الموصوف؛ أي: هو يومٌ ثابتُ العُسْر لا يزولُ وقْعُ عُسرِه عن الكافرين[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 101.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسر).

(3) السّامرائي، معاني الأبنية، ص: 69.

بلاغة المَجاز ودلالتُه:

تصوير ما يكون في الزّمان بنسبته إليه

وَصْفُ اليوم بأنّه ﴿عَسِرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ مَجازٌ بديعٌ؛ لأنّ العُسرَ ليس وصفًا حقيقيًّا لليوم ذاتِه، بل لِما يجري فيه من أحداثٍ شديدةٍ على الكافرين[1]، كالحشرِ، والحساب، والنّداء، والخوف، تمامًا كما نقول: هذا يومٌ سعيدٌ، أو هذا يومٌ مَشؤومٌ، والمقصود ما يُقارِنُ اليومَ من وقائعَ وأحوالٍ.

۞ الفُروقُ المعجميّة:

اقتربت وأزِفَتْ:

الأزفُ قربٌ مع شدّةٍ وضيقٍ، والاقتراب قربٌ مُطلَقٌ

الأزَف: هو قُربٌ مخصوصٌ بحال الضّيق، فأزِف الوقتُ: دنا وقرب (فضاقَتِ الفُسحة الزّمنيّة بينك وبين حلوله). ومعنى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأٓزِفَةُ ۝٥٧﴾ [النّجم: 57]: قَرُبَتِ القيامة[2]، فهي آزِفَة؛ لأنّها دائمًا في اقترابٍ يُضيِّقُ الوقتَ بيننا وبينها[3]. والأزَف أيضًا: الضّيق وسوء العيش[4]، فهو ضيقٌ حسّيٌّ وضيقٌ معنويٌّ نفسيٌّ.

وأمّا القُربُ: فهو ضِدّ البُعدِ، حسّيًّا كان أم معنويًّا. وهو دُنُوُّ شيءٍ من شيءٍ[5]، ولا يَلْزَم فيه اقترانُه بالضّيق أو سوءِ الحالِ أو الشّدّة. ولذا فلفظُ (أزف) يُستعمَلُ في سياق الشّدّة والضّيق والوعيد في القرآن[6]، كما في قوله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلْأٓزِفَةُ ۝٥٧﴾ [النّجم: 57]، وقوله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْأٓزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ﴾ [غافر: 18]، فهو إنذارٌ بقُربٍ شديدٍ يقترنُ بوعيدٍ، فهي ضيّقةٌ في الوقت، وضيّقةٌ في سوءِ حالِها على الكافرين.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 101.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 239، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 430.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أزف).
(4) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (أزف).
(5) الرّاغب، المفردات: (قرب).
(6) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أزف).

التّولّي إعراضٌ مع إقبالٍ على آخر

الإعراض، والنّأي، والصّدود، والبُعْد، والتّولّي، والانصراف:

الإعراض: هو الانصرافُ عنِ الشّيء بلا مُبالاةٍ، وعدمُ اكتراثٍ بتوليةِ وجهِه وإبداءِ عَرضِه، وهو مأخوذٌ مِنَ العَرض، وهو النّاحية الّتي تُقابِلُ الطّول، ومنه العُرض بضَمّ العَين، وهو النّاحية والجانب العريض في الشّيء[1].

والنّأْيُ: هو الصّرفُ والإبعاد بقوّة، فهو إبعادٌ يشتمِلُ على مُبالَغةٍ وشِدّة[2].

والصّدود: مِنَ الصّدِّ وهو المَنع، والصَّدُّ: الحاجز المانِع بين الشّيئين، والصّدود: الانصرافُ عنِ الشّيء مع حيلولةٍ وتَمَنُّعٍ، ففيه معنى الابتعاد بفجوةٍ وغِلظَة[3].

والبُعد: خِلافُ القُرب، وهو جَعْلُ فُسحةٍ ومسافةٍ بين الشّيء والشّيء، فلا يلتقيان، وليس لذلك حَدٌّ محدود، وإنّما ذلك بحسب اعتبار المكان بغيره، فهو أعمُّ مِنَ النّأي والإعراض والصّدود، لأنّه قد لا يكون عن قصدِ مُجافاةٍ أو تمنُّعٍ أو انصرافٍ وإعراضٍ[4].

والتّولّي عنِ الشّيء وإنْ تضمَّنَ معنى الإعراض عنه، فلا يخلو من معنى القُرب بحالٍ؛ وذلك لأنّ معنى القُرب أصلٌ في مادّة اللّفظ، وعليه، فإذا قيل: تولّى عن كذا، فيكون بمعنى: أعرضَ عنه وقَرُب إلى غيره، فالتّولّي بمعنى الإعراض، فيه معنى الانصراف عن جهة، وموالاة جهةٍ أخرى، فليس إعراضًا مَحضًا إلى غير بديل[5].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عرض).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نأي)، والرّاغب، المفردات: (نأى)، وابن منظور، لسان العرب: (نأي)، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نأو، نأى).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صد)، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صدد).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بعد).

(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ولي).

والانصراف عنِ الشّيء: هو التَّحوّل عنه والرّجوع فيه، كما في قوله: ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ [الفرقان: 19]؛ أي: لا يقدرون أن يصرِفوا عن أنفسهم العذابَ، أو أن يصرفوا عن أنفسهم النّارَ، أو يصرفوا الأمر عن حالةٍ إلى حالةٍ[1].

النّبأ والخبر والحديث:

النّبأ هو الخبر العظيم الّذي له شأن، والخبرُ أعمُّ منه

النّبأ: أصل (نبأ) الانتقال من مكانٍ إلى مكان، وسُمّيَتِ الأخبارُ المَحكيَّة بالأنباء؛ لكونها تنتقل من جهةٍ إلى جهة. والنّبأ يُقال في الخبَر الّذي لا يعلمُه المُخبَر، ولذا يقتصر على الأخبارِ ذاتِ الفائدة العظيمة؛ لأنّ الإخبارَ بما لا يعلمُه المُخاطَب، يُحدِثُ عندَه عِلمًا لم يكن عنده فيستفيد.

والخبَر: هو العِلم بحقيقةِ الشّيء، وهو عامٌّ في جميع المعلومات المَعلومة بالخبَر، وهو أعمُّ مِنَ النّبأ في نفسِه وفي جهتِه (المُخبَر)، فقد يكون حقًّا وباطلًا، وقد يكون ذا فائدةٍ أو خالٍ منها، وقد يكون المُخبَر عالمًا بما يُخبَر به أو غيرَ عالم[2].

والأحاديث: هي الأقاويل الّتي تحدُث بعدَ أن لم تكُن، وكلامٌ يحدُث منه الشّيء بعد الشّيء. فأصلُ ذلك مِنَ الحدوث، وهو النّشوء الجديد للشّيء قبلَ أن يكون، ومنه الحديث ضدّ القديم[3].

القُبور والأجداث:

القُبور للدَّفن، والأجـــداثُ للبعث

القَبر: هو مَقرُّ الدّفنِ، ومَوضِعُ المواراة عمومًا[4]، وهو مُختصٌّ بحالِ السّتر والغموض[5]، ولذلك جُعِل من إكرام الميّت قبْرُه، فقال

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صرف).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خبر، نبأ).

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (حدث).

(4) الرّاغب، المفردات: (قبر).

(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قبر).

تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١﴾ [عبس: 21]؛ أي: جعله ممّن يُقْبَر، ولم يجعله يُلقى للكلاب والطّير والسّباع، فالقبر ممّا أُكرِمَ به بنو آدم[1]. وأمّا الأجداث فهي القبور أيضًا، لكنّها مُقترِنةٌ بوقت خروج النّاس منها، والجَدَث في كلام العرب هو صوتُ الحافر والخفّ، وصوتُ أكلِ اللّحم، فكان ذِكْرُ الأجداث لتصوير حال خروج النّاس من قبورهم، وقد نمَت على أجسادهم لحومها، ثمّ خرجوا بأظفارهم من قبورهم، فهذا الصّوت هو الجَدَث، وهو نُكْتَةُ التّسمية، كذلك وقت الموت لِما في القبور من تآكُل اللّحوم، ووقت الخروج لِما في القبور من صوت نموّ اللّحم، والفرق بين الأجداث والقبور يتبيّن فيما يأتي: الأوّل: القبور مكان دفنِ الأجساد، بينما الأجداثُ مكانُ بعث الأجساد. الثّاني: القبور مكان ذهاب الأبدان في الأرض، بينما الأجداث مكانُ عودة الأبدان مِنَ الأرض. الثّالث: القبور نهاية الإنسان بعد حياته الدّنيويّة، والأجداث بداية الإنسان قبل حياته الأخرويّة[2].

مُهطِعين ومُسرِعين:

الإهطاع إسراعٌ مُقترِن بمدّ البصر، والإسراعُ أعمُّ منه

الهُطوع إسراعٌ مخصوصٌ بمَدّ العنُق، فهو إسراعٌ مُقترِنٌ بإقبال الأبصار على الشّيء المقصود. قال الجوهريّ: "هَطَعَ الرّجل، إذا أقبلَ ببصره على الشّيء لا يُقلِعُ عنه، يَهطَع هُطوعًا"[3]. قال ابن عطيّة: "المُهطِعُ: المُسرِعُ في مَشيهِ نحوَ الشّيءِ مع هَزٍّ ورَهَقٍ، ومَدِّ بصرٍ نحو المَقصِد، إمّا لخوفٍ أو طَمعٍ أو نحوه"[4].

وأمّا الإسراعُ فهو ضِدُّ البطء[5]، فليس مُقيَّدًا ولا مَخصوصًا بحالٍ سواه.

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قبر).
(2) المثنى محمود، الإيضاح والتّقييد في إعجاز القرآن المجيد، ص: 224.
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (هطع).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 213.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سرع).

﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ وَٱزۡدُجِرَ
٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ١٠ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ
بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ١١ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ
قَدۡ قُدِرَ ١٢ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ١٣ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا
جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ١٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥
فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ
مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: 9 - 17]

مناسبة الآيات لما قبلَها:

الانتقالُ مِنَ الوعيد بالزّمن القادم إلى الإنذار بما نزل بالأمم السّابقة

لَمّا ذَكرَتِ الآياتُ السّابقة المُقدِّماتِ الدّالّةَ على اقتراب القيامة، وأشراطِ السّاعة، وما يكون من أهوالها، وبعثِ النّاس من قبورهم، وما صدر عنِ الكافرين مِنَ العِناد بعدَ أن أتَتهم الأنباءُ الزّاجرةُ، فآثَروا الكفرَ على الإيمان؛ ناسبَ الانتقالُ إلى بيان مَصير السّابقين، وما حلَّ بهم مِنَ العذاب الأليم في الدّنيا، زيادةً في تنبيه المُخاطَبين، وإيثارًا للتّرهيب على إنزال العقاب المَهيب، فبدأ بذِكر قوم نوح عليه السلام، وما نَزلَ بهم مِنَ العقوبة الماحِقة المُغرِقة؛ ليكونَ للمُشرِكين عِبرةً وآيةً.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾: أصل (زجر) يدلُّ على الانتهارِ[1]. ومنه الزَّجرُ: طَردٌ بصَوتٍ، يُقالُ: زَجَرْتُهُ فانْزَجَرَ[2]، وحقيقته المَنعُ والتَّخويفُ، وصيغة الافتعال ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمُبالغة في زجره وإيذائه عليه السلام[3]. والمراد هنا: انتَهَروهُ بالسَّبِّ وغيرِه[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زجر).
(2) الرّاغب، المفردات: (زجر).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 102.
(4) الجلالان، تفسير الجلالين، ص: 705.

2) ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾: أصلُ (همر) يدُلُّ على صَبٍّ وانصِبابٍ[1]. ومنه الهَمرُ: صَبُّ الدَّمعِ والماءِ والمَطَرِ، وهَمَر الماءُ وانهمر، فهو هامرٌ مُنهَمِرٌ. والفَرَسُ يَهمِرُ الأرضَ هَمْرًا، وهو شِدَّة حَفرِه الأرضَ بحوافِرِه[2]، ومعنى المُنهَمِر: المُنصَبُّ؛ أي: المصبوبُ على الأرض بقوَّةٍ وبكَثرةٍ وتتابعٍ[3].

3) ﴿قُدِرَ﴾: أصل (قدر) يدلُّ على مَبلَغِ الشّيءِ وكُنهِه ونِهايَتِه[4]. فالقَدْرُ: مَبلَغُ الشَّيءِ ونهايَتُه، يُقال: قَدْرُه كذا؛ أي: نِهايَتُه. ويأتي بمعنى التَّقدير، وهو: بيانُ كَمّيَّةِ الشَّيءِ، يُقال: قَدَرَ الشَّيءَ بالشَّيءِ، يَقدُرُه، قَدْرًا، وقدَّرَه؛ أي: قاسَهُ وبيَّنَ مقدارَهُ[5]. ووَصفُ الأمرِ في الآية بأنَّه قد قُدِرَ، مُرادٌ به الإتقانُ والإحكامُ بمقدارٍ، يُقالُ: قَدَرَهُ بالتَّخفيفِ إذا ضبطَه وعيَّنَه[6]. ومعناه في الآية: قُضيَ به في الأزَل، وهوَ هَلاكُهم غَرَقًا[7].

4) ﴿أَلۡوَٰحٖ﴾: (لوح) أصلٌ صحيحٌ، مُعظَمُه مُقاربةُ بابِ اللَّمعان. ومِنَ الباب: اللَّوحُ: كلُّ صَفيحةٍ عَريضَةٍ مِن صفائحِ الخَشَبِ؛ واللَّوحُ: الَّذي يُكتَبُ فيه[8]؛ وسُمّي لَوحًا لأنّه يَلوح. ومِنَ الباب: اللّوح بالضَّمّ، وهو الهواء بينَ السَّماء والأرض[9]. وألواحُ الجَسَدِ: عِظامُه ما خَلا قَصَبَ اليَدَينِ والرِّجلَين، ويُقالُ: بَلِ الألواحُ مِنَ الجَسَدِ كلُّ عَظْمٍ فيه عِرَضٌ[10]. والألواحُ جَمعُ لَوْحٍ، وفي الآية: القِطعةُ المُسوّاةُ مِنَ الخَشَبِ[11].

5) ﴿وَدُسُرٖ﴾: أصل (دسر) يَدُلُّ على دَفعٍ شَديدٍ، يُقالُ: دَسَرْتُ الشَّيءَ دَسْرًا، إذا دَفَعتَه دَفْعًا شديدًا، ودَسَره بالرُّمح مثله. والدِّسارُ خَيطٌ من ليف تُشَدُّ به ألواحُ السَّفينةِ، والمَساميرُ أيضًا تُسَمَّى دُسُرًا في أمر السَّفينة؛ لأنَّ المِسمارَ يُدفَعُ أبَدًا حتّى يَستَوي[12]، واحدها دِسارٌ[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (همر).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (همر).
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 102.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قدر).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 183 - 184.
(7) السيوطي والمحلي، تفسير الجلالين، ص: 705.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكم، وابن منظور، لسان العرب: (لوح).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوح).
(10) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن سيده، المُحكم: (لوح).
(11) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 184.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دسر)، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 214.
(13) الرّجز في الدّيوان، ص: 16، والخليل، العين: (دسر).

7) ﴿مُّدَّكِرٍ﴾: أصل (ذكر) يدلُّ على حِفظِ تَذكُرِه، وهو خِلافُ النِّسيان، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ[1]. فالذِّكْرُ ما ذَكَرتَهُ بلِسانِكَ وأظهرتَهُ. والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّال - بالقَلبِ. يُقالُ: ما زالَ مِنّي على ذُكْرٍ؛ أي: لَم أنسَه[2]. ومُدَّكِرٍ أصلُه: مُذْتَكِرٌ (مُفْتَعِلٌ) مِنَ الذُّكرِ بضمِّ الذّال، وهو التَّفَكُّرُ في الدَّليلِ، فقُلِبَت تاءُ الافتعالِ دالًا لِتقارُبِ مَخرَجيهما، وأُدغِمَ الذّالُ في الدّالِ لذلك[3]. والمراد هنا: أي: مُتَذَكِّرٍ مُتَّعِظٍ، مُعْتَبِرٍ، خائِفٍ[4].

المعنى الإجماليّ:

الجُحودُ والإنكارُ سُنّةُ قومِ نوحٍ لِمَن بعدَهم، والطّوفانُ إنذارٌ لِمَنْ لَحِقَهم

تُبيِّنُ الآياتُ الكريمةُ قصّةَ قومِ نوحٍ عليه السلام؛ بغَرَضِ الإنذارِ والتّخويفِ والتّهديدِ، فيُذَكِّرُ أنّ هؤلاءِ المُكذِّبين لم يكونوا أوّلَ مَن كذَّبَ، بل سبقَهم قومُ نوحٍ، وهم أوّلُ أمّةٍ بُعِثَ إليها رسولٌ يدعوهم إلى التّوحيد، فكذّبوه واتّهموه بالجُنون، وتمادَوا في الإساءة إليه قولًا وفعلًا حتّى ضاق بهم، فدعا ربَّه: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾، فاستجاب اللّهُ دعاءَه، وأرسل الطّوفان، ففُتِحَت أبوابُ السّماء بمطرٍ شديدٍ، وفَجَّرَتِ الأرضُ عيونَها، فالتقى الماءُ من فوق ومن تحت، تنفيذًا لأمرٍ قدَّرَه اللّهُ منذ الأزل. ونجّى اللّه نوحًا والمؤمنين معه في سفينةٍ مَصنوعةٍ من ألواحٍ ومَساميرَ، تجري مَحفوظةً بعين اللّه، وكانَت نجاتُهم جزاءً لصبر نوحٍ وتكذيبِ قومِه له. وقد أبقى اللّهُ خبرَ الطّوفان آيةً باقيةً للعِظَة والاعتبار، يدعو بها كلَّ قلبٍ حيٍّ إلى التَّدبُّر، ثمّ أعقب ذلك بالاستفهام التّحفيزيّ: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؟ أي: هل مِن مُعتَبر بهذه العِبرة الجليّة؟ وتكرَّرَ السّؤالُ مع

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(2) أبو عمرو الشّيباني، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 187.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 7/ 429.

تقرير نعمةِ اللّه في تيسير القرآن للحفظ والتّذكُّر، فمَن لم يَتَّعظ بعدَ كلِّ هذه الآيات فبِمَ يتَّعظ[1]؟.

۞ الإيضاح اللّغويّ والبلاغيّ:

بلاغة الاستئناف البيانيّ وفائدتُه:

التّكذيب والإنكار سُنّةٌ في الأمم، يُنجّي اللهُ منها عبادَه المتّقين

قوله تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ[2] يُجيب عن سؤالٍ مُقدَّر في ذهن السّامع، يُثيرُه السّياقُ السّابق في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾؛ فكأنّ سائلًا قد سأل بعد مَعرفةِ تكذيبهم وإعراضهم واتّباعهم لأهوائهم: هل كانوا وحدَهم في ذلك التّكذيب، أم كان لهم سلفٌ في المَسلَكِ والعقوبة؟ فأُجيبَ: ﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ بأسلوبٍ يُنبّه ويُهيّئ للاتّعاظ؛ ليُقالَ: ما هم بأوّل مَن كذّب، ولكن مَن كذّب قبلَهم أُخِذ بالعذاب، فلْيَتّعظ هؤلاء.

وفائدةُ هذا الاستئناف رسمُ اتّصالِ السُّنن في الأمم، ببيان أنّ التّكذيبَ سنّةٌ قديمةٌ، وعقوبتُه كذلك. مع إثارة الخوف في نفوس المُكذِّبين من مصير مَن قبلهم، وإقامةِ الحُجّة عليهم بأنّهم ليسوا أوّلَ مَن بُلِّغ، ولا أوّلَ مَن كُذِّب، بما ينفي العُذرَ عنهم. وهذا الاستئنافُ البيانيُّ تمهيدٌ قَصَصيٌّ بديعٌ، يهيّئ السّامعَ لِما بعدَه من مضمون قصّة نوحٍ على جهة الإجمال، في مَشهَدٍ وجيز بالغِ التّركيز.

نُكْتَةُ تأنيثِ الفعل وتذكيرِ الفاعل:

التّأنيثُ إيماءٌ إلى معنى الاجتماع على الباطل، والتّذكيرُ تصريحٌ بالقيام على التّكذيب

آثر النّظمُ الكريم تأنيثَ فعلِ التّكذيب مع تذكير الفاعل في قوله تعالى: ﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ على تأويل القوم بالجماعة، لاستحضار معنى الجماعة المُتوافِقة على الباطل والمُجتمِعة عليه، وفي لفظ ﴿قَوۡمُ﴾ استحضارُ معنى القوّة والعزيمة الّتي تضمَن لهذا الاجتماع ألّا يهونَ ولا ينخرِم.

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 208.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 179.

دلالةُ تضعيف فعل ﴿كَذَّبَتۡ﴾:

ضُعِّف فعل ﴿كَذَّبَتۡ﴾ للتّعدية؛ أي: نسبوا غيرَهم إلى الكذب[1]، فهم يقومون بتكذيب الآخرين الصّادقين بقوّة القوميّة الّتي تجمعُهم، وشدّة الباطل الّتي تقوم بهم.

قيامهم بتكذيب الآخرين الصّادقين بقوّة القوميّة الّتي تجمعُهم

فنُّ التّغليب:

آثر النّظمُ الكريم إسنادَ فعلِ التّكذيب إلى قوم نوح في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ دون بعضهم للتّغليب، فما آمنَ به إلّا قليلٌ[2]، فغلَّبَ الأكثر على الأقلّ.

نُسِبَ التّكذيب لبعضهم دونَ بعضٍ للتّغليب

توجيهُ مُتشابهِ إسقاطِ الجارّ:

أُسقِط الجارّ قبل الظّرف في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾ فلم يقُل: (من قبلهم)، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التّوبة: 70]، لأنّ السّياق في بيان أمر التّولّي عن المُشرِكين، فناسبَ أن يَذكُرَ القبليّةَ المُطلَقة غيرَ المُقيّدة بكون التّكذيب كان ابتداءً من قبلهم، بل هو قبلَهم قبليَّةً مُطلَقة، لأنَّ المقصودَ بيانُ سُنَنيّة الأمر، بخلاف ذِكر (من)؛ ففيه تنبيهٌ على أنَّ الأنباءَ كانت من قبل المُشرِكين؛ ليقعَ التَّذكُّرُ والتَّفكُّرُ بما حصل للسّابقين ابتداءً مِنَ الزّمن الّذي قبلَهم مباشرةً، فيقع الاتّصال بالماضي كلّه؛ لأنّ المطلوبَ هو التَّفكُّرُ لا الإنذارُ المُطلَقُ.

الإنذار المُطلَق المَسبوق بالتّولّي تُناسبُه القبليّة المُطلَقة

فائدة ذِكر الظّرف مُقدَّمًا:

آثر النّظمُ الكريم ذكرَ الظّرفِ ﴿قَبۡلَهُمۡ﴾ مُقدَّمًا في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾؛ للتّشويق للمُؤخَّر، وللعنايةِ بتوجيه

معرفة تاريخ الأمم السّابقة يُهَوِّن شأنَ المُعاصِرين

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 180.

الأفهام لقبليّة حصولِ التّكذيب؛ وذلك أنّ الآياتِ أرادَت إظهارَ سنّةِ الأمم السّابقة في تلقّي الهِداية، وأنّها قامَت على التّكذيب في مُجمَلها، فكان إظهارُ القبليّة مع تقديمها بيانًا في كون ما سيأتي ذكرُهُ هو سُنّةٌ اجتماعيّةٌ اتّبعتها الأممُ السّالفة، وأنّ المُشرِكين ليسوا بدَعًا مِنَ الأمم، ففيه تهوينٌ لِما قام به المُشرِكون، وأنّه أمرٌ ليس ذا بالٍ، ولا يستحقُّ الالتفاتَ، فإمّا الاهتداء، وإمّا نزول البلاء.

دلالة تعريف ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ بالإضافة لا بالعَلَميّة:

المَعارفُ البشريّة مـرعـيَّـةٌ في الخبر القرآنيّ عـنِ الوقائع التّاريخيّة

جاء تعريف ﴿قَوۡمُ نُوحٖ﴾ بالإضافة إلى اسم رسولِهم لا إلى اسم قبيلتهم؛ كعادٍ وثمودَ؛ وذلك أنّهم مُحقوا فلم يبقَ في الأرض مَن يحفظ اسمَهم إلّا بإضافتهم إلى رسولهم، بخلاف عادٍ وثمودَ فإنّهم عُرفوا عند العرب بأسماء قبائلهم، وتناقلَها العَربُ فيما بينهم، كما أنّ الإضافةَ تجعل الفاعلَ مُحدَّدًا ومَعروفًا لدى السّامع، فتَبرُزُ الخصوصيّةَ التّاريخيّة والجماعيّة لهؤلاء الكافرين السّابقين[1].

بلاغة جناس الاشتقاق:

استمرارُ تكذيب البشر للرّسل عـبرَ الأجيـال يتجلّى بجناس الاشتقاق

في قوله تعالى: ﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ الكلمتان ﴿۞كَذَّبَتۡ﴾ و﴿فَكَذَّبُواْ﴾ مُتشابِهتان اشتقاقيًّا مِنَ الجذر (كذب)، فيكون هنا جناسٌ اشتقاقيٌّ؛ لأنّه يكرِّرُ الجذرَ مع اختلاف الصّيغة الزّمنيّة، فيُبرزُ استمراريّةَ الكذبِ والتّكذيب عبرَ الأجيال.

بلاغة إدخال الفاء على فعل التّكذيب الثّاني:

الـتّـكـذيـب الإجماليُّ إيماءٌ إلى العقوبة، والـتّـفـصيـليُّ بيـانٌ لأسبابها وتاريخها

آثر النّظمُ الكريم تَكرارَ فعلِ التّكذيب في قوله تعالى: ﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾؛ وذلك لتفريع التّكذيب الثّاني على الأوّل، فالتّكذيبُ الأوّل هو الوصف العامّ الإجماليّ لهم بما كان سببًا في إهلاكهم، والتّكذيبُ الثّاني المُفرّع عليه هو تفصيلٌ للمُجمَل،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 180.

فبدأ بالتّكذيب الأوّل الّذي هو عبارةٌ عنِ النّتيجة الكلّيّة الّتي أوصلَتهم إلى الغَرق في الطّوفان، ثمّ شرع في بيان ذلك تفصيلًا، وتكون الفاءُ تفريعيّةً. ويحتمل أن يكونَ التّكذيبُ الأوّلُ عامًّا، على احتمال أن يكون تكذيبُ قومِ نوح لرُسلٍ كثيرين قبلَ نوح عليه السلام، ثمّ كان التّكذيبُ الأخيرُ لنوحٍ هو الماحِقُ، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشّعراء: 105]، فيكون الأوّلُ عامًّا، والثّاني خاصًّا بنوحٍ عليه السلام، فتكون الفاءُ من عطف الخاصِّ على العامِّ، وهو قريبٌ من توجيه الأوّل. فالتَّكرار للتّأسيس، كأنّه قيل: كان مَذهَبُهُمُ التّكذيبَ للرّسالات، فكذَّبوا عبدَنا[1]. وفي إعادة التّكذيب التّنبيهُ على أنّ تكذيبَهم الأوّلَ لم يكُن بحقٍّ، فكان قولُه: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ تفريعًا بتصديق المُكَذَّب، ودحضًا لهم، كأنّه قيل: كذَّبَت قومُ نوحٍ، وكان تكذيبُهم تكذيبًا لعبدِنا؛ أي: لم يكُن تكذيبًا بحقٍّ! كما يقول القائل: كَذَّبَني فكذَّبَ صادقًا[2].

دلالة إيثارِ لفظِ العبوديّة على الرّسالة:

العبوديّة هي الوصف الأشمل والأشرف في مقام الانتصار للحقّ

آثرَ النّظمُ الكريم الإخبارَ عن نوحٍ عليه السلام بعنوان العبوديّة المُضاف إلى ذاته العَليّة في قوله: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾، دون التّعبير بالرّسالة أو النّبوّة؛ فلم يقُل: (فكذّبوا رسولَنا)؛ لأنّ المقصودَ تشريفُ نوح عليه السلام بكونه عبدًا لله تعالى، فهو عبدٌ لله قبل أن يكون رسولًا، وبيانٌ أنّه ليس له مِنَ الأمر شيءٌ إلّا إرادةُ سيّده؛ لأنّه عبدٌ، والعبدُ محدودٌ بحَدِّ سيِّده وتكليفه. والعبدُ أبعدُ عن تحريف كلامِ سيّده[3]، كما أنَّ التّعبير بـ ﴿عَبۡدَنَا﴾ بدلًا من اسمه عليه السلام، غيَّرَ وجهَ القصّة، فجعلَها قضيّةً بين الله وأعدائه، لا بين بشر وبشر.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 294.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 294.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 294.

الإضافة للاختصاص، ولازم الاختصاص التّشريف

نوع الإضافة ودلالتُها:

أُضيف لفظُ (عبد) إلى ضمير العظَمة في قوله تعالى: ﴿عَبۡدَنَا﴾، والإضافةُ بمعنى اللّام فأفادَتِ الاختصاصَ؛ أي: هو عبدٌ لنا لا لغيرنا، ولازمُ الاختصاص التّشريف.

المُكذِّبون مُتناقِضون في أقوالِهم بسببِ غيابِ الحقِّ عن قلوبِهم

بلاغة عطف جُمَلِ الاتّهام:

عُطِفَ قولُه تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَجۡنُونٞ﴾ على قوله: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾؛ للدّلالة على أنّهم لم يقتصروا على مُجرَّد التّكذيب، بل نسبوه إلى الجُنون[1]. ففي العطف بهذه الجملة بيانٌ لمزيدِ قُبحِ صُنعِهم، حيثُ لم يَكتفوا بقولهم: (إنّه كاذِبٌ)، بل قالوا: ﴿مَجۡنُونٞ﴾؛ أي: يقول ما لا يقبَلُه عاقلٌ، والكاذبُ العاقلُ يقول ما يظَنُّ به أنّه صادقٌ، فقالوا: ﴿مَجۡنُونٞ﴾؛ أي: يقول ما لم يَقُل به عاقلٌ، فبيَّن بذلك مبالغتَهم في التّكذيب[2]، ودلَّ العطف على التّناقُض في مَوقفِهم، فإنَّ ما يَصدُر عنِ المجنون ليس بكذبٍ؛ لأنّه ليس نتاجَ العقل، فكيف يوصَف الإنسانُ بالكذب والجُنون في آنٍ؟ فهذا مِن اضطرابهم وتناقضهم، أو من تباين مَوقِفهم واختلافهم فيما بينهم.

غرضُ تنكير لفظ ﴿مَجۡنُونٞ﴾:

التّهوين من شأن نوحٍ عليه السلام، والقدح بأهليّته

نُكِّر لفظ ﴿مَجۡنُونٞ﴾ للتّهوين من شأن نوحٍ عليه السلام، وقَدح أهليَّته، فكأنَّهم قالوا: ما هو إلّا مَجنون، فاتّهامهم له بالجنون كنايةٌ عن عدم إيمانهم به.

دلالة بناء فعل (ازدُجر) للمَفعول:

تنوّعُ احتمال الفاعل وكثافةُ التُّهم الموجَّهة لرسل الله تسليةٌ لِمَن بعدهم

بُنِيَ فعلُ ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمفعول للعِلم بالفاعل، فسُلِّط الفعلُ على الحَدَث والمفعولُ لبيان صبر نوحٍ عليه السلام على قومه، وأنّه وجد منهم شدّةً وغِلظةً وتهكُّمًا، ففيه تسليةٌ للنّبيّ ﷺ بذِكرِ مَن تقدّمه، فقال:

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 81.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 294.

﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾؛ أي: فعلوا ما يوجِب الانزجار من دعائهم حتّى تركَ دعوتَهم، وعدلَ عنِ الدّعاء إلى الإيمان إلى الدّعاء عليهم. ولو قال: (زجروه) ما كان يفيد أنّه تأذّى منهم؛ لأنّ في السّعةِ يُقال: (آذَوْني، ولكن ما تأذَّيت)، وأمّا (أوذيتُ) بالبناء للمفعول فهو قطعٌ بالأذيّة وتحقيقٌ بوقوعها. ويحتمل أن يكون بناءُ قولِه تعالى: ﴿وَٱزۡدُجِرَ﴾ للمفعولِ حكايةَ قولهم؛ أي: هم قالوا: (ازدُجِر)، تقديره: (قالوا: مَجنونٌ مُزدَجَرٌ)، ومعناه: ازدَجَرَهُ الجِنُّ، أو قالوا: (جُنَّ وازدُجِرَ)، فكأنّ الزّجرَ لم يقع مِن قِبَلِهم كما الجُنون. والأوّل أظهرُ، وهو أنّهم هم الّذين ازدَجَروه؛ كما هم الّذين بَهَتوهُ بالجُنون[1].

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾ تفريع على قوله: ﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾، وما تفرَّعَ عليه مِن تقوُّلِهم عليه، وازدجارِهم له[2].

فائدة التّعبير بلفظ الرّبوبيّة:

تعليم العباد أنَّ مُقتضَى الرّبوبيّة نُصرةُ الأولياء والانتقامُ مِنَ الأعداء

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ الرّبوبيّة في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ﴾؛ لبيان أنَّ المَغلوبَ إنّما يُنادي صاحبَ العظَمة والمَلكوت، المُربّي والمُصلِح لجميع أحواله، والنّاصرُ لأوليائه، ففيه تعليمٌ للعباد استحضارَ معاني الرّبوبيّة، وقد أُخِذ أنّ نوحًا عليه السلام دعا ربَّه؛ لأنَّ اللّه قال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾، فهو إخبار عمّا حصل، وفيه إرشادٌ وتعليمٌ أنَّ الرّبَّ المُعينَ النّاصرَ هو المُنتقِمُ مِنَ المُجرمين.

غرضُ إضافةِ لفظِ الرّبوبيّة إلى الضّمير:

تشريفُ نوحٍ عليه السلام، ورضا اللهِ عليه

أُضيفَ لفظُ الرّبوبيّة إلى الضّمير ﴿رَبَّهُۥٓ﴾؛ لتشريف نوحٍ عليه السلام، والإيماء إلى رضا اللّه تعالى على عبدِه، فهو الّذي أضافه سبحانه إلى نعت الرّبوبيّة.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 295.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 182.

لطيفة حذفِ حرف الباء:

الدّعاء بالحال الكاشِفةِ عن صاحبها سببُ نصرةِ المَغلوبين

آثَر النَّظمُ الكريم حذفَ الباءِ في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي﴾؛ أي: دعا بأنّي مَغلوبٌ؛ أي: بمَضمونِ هذا الكلامِ في لُغَتِه[1]، فنوحٌ عليه السلام لم يتكلَّم العربيّةَ، والمَذكور يدلُّ على كلامه، فحَكَتِ الآيةُ دعاءَه، وليكونَ فعلُ الدّعاءِ مُتَّصلًا بحالِ الغَلَبَة، فجعل الغلبةَ كأنّها نفْسُ المَدعوّ به، لا واسطةَ بينها وبين الدّعاء، فكأنّ نوحًا عليه السلام ما دعا إلّا بأنْ ألقى حالَه مباشرةً بين يدي اللّهِ، من غير أن يتكلَّفَ بذِكر وسائط؛ أي: ألقى بنفسه المَغلوبةِ بين يدي ربِّه مُستغيثًا، بدون تعبيرات فاصلةٍ أو ألفاظٍ متوسطة.

غرضُ تنكير لفظ ﴿مَغۡلُوبٞ﴾:

تهويل الحال وكمالُ الوصف بالغَلبة

تنكير لفظِ ﴿مَغۡلُوبٞ﴾ أفاد كمالَ الوصف بالغلبة، كأنّه يقول: يا ربِّ إنّي غارقٌ في الغلبَة، فلا يُنجي إلّا نصرُك، فهو لتهويل الحال.

بلاغة الاستعارة المَكنيّة:

التّصريح بالغَلبةِ توطئة لطلب النّصر

في قول نوحٍ عليه السلام: ﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيثُ شبَّه يأسَهُ من إجابتهم لدعوته بحالِ الّذي قاتل أو صارع فغَلَبَهُ مُقاتِلُهُ[2]، وذكرَ لازمَ القتال وهو لفظ ﴿مَغۡلُوبٞ﴾، حيثُ أطلقَ صفةَ الغلَبَةِ، وهي صفةٌ تُستعمَل عادةً في الصِّراع البدنيِّ أو القتال على حالة يأسِه من إيمان قومه، وفائدةُ التّعبير بالغلبة التّوطِئةُ لطلب النّصر.

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ لتفريع طلب النّصر على التّصريح بالغَلبة، وهذا من أدب الدُّعاء وفقهه مع اللّه تعالى.

غرض الأمر ودلالتُه:

لا يملِكُ العبدُ الضّعيفُ لنفسه إلّا الدّعاء

جاء التّعبير بصيغة الأمر ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 81، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 182.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 182.

﴿أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ﴾ مَجازًا عن طلب إظهارِ الغَلبة؛ أي: إيقاع النّصر له على مَن غَلَبَه، فهو استعارةٌ للأخذ بالثّأر والانتقامِ مِنَ الظّالمين، وللدّلالة على شدّة حاجتِه وسرعةِ رجائِه، كما يجوز حَملُ صيغةِ الأمر هنا على المَجاز المُرسَلِ، حيثُ استعملَ صيغةَ الأمر، وقصدَ التَّضرُّعَ والدّعاءَ.

بلاغةُ إطلاقِ فعلِ ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾:

طلبُ النّصر للحقِّ لا للذّات في نداء الأنبياء

أطلقَ فعلَ ﴿فَٱنتَصِرۡ﴾ دونَ تقييد، فلم يقُل: (فانصرني)، أو (فانتصرْ لي)؛ وذلك للإيجاز ومراعاةِ الفاصِلة[1]، ولأنَّ مقصودَه نصرةُ اللّهِ لدعوته ولدينه، لا مُجرَّدَ نصرِه الشَّخصيّ. فهو لا يطلُبُ مُجرَّدَ الخلاصِ الفرديّ، بل يَطلبُ انتقامَ الحقّ، وإظهارَ العدلِ الإلهيِّ بإهلاك المُكذِّبين الظّالمين.

نوع الفاء ودلالتُها:

دعاء الأنبياء مستجاب

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مُفرَّعةٌ على جملة ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾، ومقصودُ التّفريع بيانُ أنَّ اللّه سبحانه استجاب لدعائه عليه السلام، فعاقبَهم بالطّوفان.

براعة التّعبير بمفردة الفتح:

التّهديد بفتح أبوابٍ أُغلقت بأمر الحفيظ، لا بنظام كونيٍّ بديع

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة (فتحنا) في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ دون (شقّقنا) أو (خرقنا)؛ وذلك لأنَّ الفتحَ يكون لِما هو مهيَّأٌ للفتح، وللتّذكير بما يكون يوم القيامة من فتح السّماوات، كما قال تعالى: ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ أَبۡوَٰبٗا ١٩﴾ [النّبأ: 19]، فهي تُخبر عن حَدَث غيبيٍّ ماضٍ، كما أخبرتِ آيةُ النّبأ عن حدثٍ غيبيٍّ مُستقبليٍّ، وكلاهما استُعمل فيه فتحُ أبوابِ السَّماء، وفي كلاهما كان إنهاءٌ للبشريّة؛ الأوّل: إنهاءُ البشريّة نسبيًّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 182.

في ذلك الوقت، والآخر: إنهاء البشريّة مُطلَقًا، والأوّلُ إنذارُ الثّاني. وفي التّعبير بمفردة (الفتح) فتحٌ لأبواب التّحذير والتّنبيه والوعيد والتّهديد، فإنَّ الأبوابَ الّتي فُتِحَت لقوم نوحٍ، قد أُغلِقَت برعاية اللّه تعالى وحفظه.

توجيه القراءات القرآنيّة:

تضعيف الفعل يدلُّ على المُبالغة في الفتح وكثرة الأبواب

قرأ ابن عامر قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ﴾ بتشديد التّاء: ﴿فَفَتَّحْنَآ﴾، وقرأ الجمهور بالتّخفيف: ﴿فَفَتَحْنَآ﴾[1]، وقراءةُ التّشديد لها مزيدُ دلالةٍ على قراءة التّخفيف، وهو المُبالغة في الفتح وتَكراره؛ وصيغةُ التّفعيل تدلُّ على كثرة الأبواب، فهي لتكثير المَفعول، كما في قوله تعالى: ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: 23]. فلولا أنّ الأبوابَ كثيرةٌ ما بالغَتْ في الإغلاق كيفًا وكمًّا، فالمبالغةُ إذًا حاصلةٌ في قوّة الفعل، وفي عدده بتكراره على التّوزيع؛ إذًا كثرة المفعول يَلزمُه تكثيرُ الفعل[2].

نُكْتَةُ ذكرِ ﴿أَبْوَابَ﴾ بدلًا من حذفها:

الإخبار عن الواقع الغيبيّ يُعينُ على الجمع بين التّرهيب والتّرغيب

آثَر النّظمُ الكريم ذِكرَ لفظِ ﴿أَبْوَابَ﴾ بدلًا مِنَ الاقتصار على ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾، فلم يقُل: (فَفَتَحنا السّماء)؛ وذلك للإخبار بأمرٍ غيبيٍّ يومئ إلى شيءٍ من خلق اللّه المُحكَم، الّذي يغيب عن عقولنا، ولإكساب الآية صورةً مُركَّبةً مِنَ السّماء بأبوابها، ولأنَّ هذا هو الواقع الّذي حصل يوم الطّوفان.

نوع الإضافة ودلالتُها:

أبواب السّماء غيبيّةٌ لا نعلم عن حقيقتها إلّا ما ورد به الخبر

إضافةُ الأبوابِ إلى السّماء في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَابَ ٱلسَّمَآءِ﴾ بمعنى اللّام، فهي تدلُّ على الاختصاص، أو بمعنى (في)؛ أي: أبوابًا في السّماء، وهي إضافةٌ مكانيّةٌ، من إضافة الجُزء إلى الكلّ، والشّيء إلى مكانه، لأنَّ الأبوابَ جُزءٌ مِنَ السّماء ومُتَّصِلةٌ

(1) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 258.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 258، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 319.

بها، والمَعنيان مُرادان، ودالّانِ على مَعنًى غيبيٍّ لا نَعلمُهُ على وجه التّحقيق إلّا بما جاء به النّقل السّديد.

بلاغة الاستعارة التّمثيليّة:

أبدع الاستعارات ما اجتمع فيه التّشبيهُ المُركَّبُ والمُفرَدُ

في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، حيثُ شبَّهَ هيئةَ نزولِ المَطرِ الغزير المُتدفّقِ مِنَ السّماء، بصورةِ جماعاتٍ تندفعُ خارجةً من أبوابٍ مفتوحةٍ. فكأنّ السّماءَ دارٌ، والأمطارَ سيلٌ مِنَ الخلائق ينفجرُ اندفاعًا من تلك الأبواب، كما يخرج النّاسُ دفعةً واحدةً من أبواب الدّار في حال الطّوارئ أو الازدحام. ولا يَخفى ما في هذا التّوجيه مِن اشتماله على الاستعارة على سبيل التّشبيه المُركَّب والتّشبيه المُفرَد[1]، والتّشبيهُ المُفردُ استعارةٌ مَكْنيَّة؛ إذ شُبِّهت السّماء بشيء عظيم ذي أبواب، ثمّ حُذِف المُشبَّه به، ورُمِز إليه بلازمه، وهي الأبواب، والمَكْنيّة قائمةٌ على تخييل السّماء كالبناء، وانفتاح المطر كانفتاح الأبواب، وقيل: "الكلام على حقيقته"[2].

نوع الباء ودلالتُها:

الماء هو أداة فتح أبواب السّماء، ليكونَ جندَ اللهِ النّاصر

تحتمل الباء في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ﴾ أن تكونَ لِلآلة، كفتحتُ البابَ بالمِفتاح. ويجوز أن تكونَ للمُلابَسة؛ أي: كان الفتّحُ مَقرونًا ومُلتبِسًا بنزول الماء. كأنّ أبوابَها لا تُفتَح في تلك الحال مِنَ المُلابَسة والاقتران، والآلةُ أبلغُ في التّصوير[3]. فكأنّ الماءَ جاء وفتحَ أبوابَ السّماء كما يَفتَح المِفتاحُ البابَ، وعلى هذا تفسير قول مَن يقول: يَفتَحُ اللّهُ لك بخيرٍ؛ أي: يُقدِّرُ خيرًا يأتي ويَفتحُ البابَ، وعلى هذا ففيه لطيفةٌ، وهي من بدائع المعاني، وهي أن يُجعَلَ المقصودُ مُقدَّمًا في الوجود، ويقولُ: كأنَّ مَقصودَكَ جاء إلى بابٍ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 182.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 81.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 81.

مُغلَقٍ ففَتَحَهُ وجاءَكَ، وكذلك قولُ القائِل: لعلَّ اللهُ يَفتحُ برزقٍ؛ أي: يُقدِّرُ رزقًا يأتي إلى الباب الّذي كالمُغلَقِ فيَدفعُهُ ويَفتَحُهُ، فيكونُ اللهُ قد فتحَهُ بالرِّزق[1].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

السّماء الّتي نزل منها ماءُ العذاب هي المعهودة

(أل) في السّماء في قوله تعالى: ﴿أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ للعهد الذّهنيّ؛ أي: السّماء المعهودة الّتي تُدركها العقول، وتعرِفُها الأنظار، لا سماء مجهولة أو غير مألوفة، فهي السّماء الّتي فوق رؤوس الخلائق الّتي تغطي الأرضَ، وهي الّتي يَنزِل منها المَطر.

نُكْتَةُ تنكير لفظ (ماء):

التّنكير للتّكثير والتّهويل

نُكِّر لفظ (ماء) لإفادةِ التّكثير والتّهويل، فهو الماء المعروف، لكنّه غيرُ مَعهود في شدَّته وانهماره، يفوقُ ما يعرِفُهُ النّاسُ ممّا شاهدوه؛ فلا يُقاسُ بما يَألَفون من أمطار.

بلاغة المَجاز في صيغة ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾:

تدفُّقُ الماءِ بقوّةٍ شديدةٍ تصويرٌ لحركةِ الماء في إغراق الظّالِمين

وُصِفَ الماءُ بالانهمار في قوله تعالى: ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ بصيغة اسم الفاعل؛ لتدلَّ على التّدفُّق الذّاتيّ للمطر، والانصبابِ التّلقائيّ المُستمرِّ للماء بغزارةٍ، وبناءُ (مُنفعِل) يأتي كثيرًا للمُطاوعة، ككسرتُه فانكسرَ، لكنَّه هنا لا يُرادُ به مُطاوعةُ فعلٍ سابق؛ أي: لم يسبقْهُ فعل (هَمَرْتُه)، بل استُعملَ الفعلُ على معنى التّدفُّق والانصباب من ذاته، فصار دالًّا على الانفعال الذّاتيّ أو الوقوع من غير سببٍ ظاهرٍ، والفاعلُ الحقيقيُّ لانهمار المطر هو اللّه ﷻ، ووصفُ الماء بأنّه ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾ على بناء اسم الفاعل من تلقاء نفسه مَجازٌ عقليٌّ، فالماءُ المُنهمِرُ مَفعولٌ به على الحقيقة، لكنّه جُعِل في صورة الفاعل مَجازًا، مبالغةً في تصوير شدَّتِه في القوّة والاندفاع، كأنّما يَنهمِرُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 296.

من تلقاء نفسه مراعاةً لظاهر ما يبدو للنّاظر أنّه كذلك. فحين يُجعَلُ الماءُ كأنّه يَنهمرُ بنفسه ومن تلقاء ذاته، يُدرِكُ السّامِعُ أنّ اندفاعَهُ جارٍ بلا عائقٍ ولا تكلُّفٍ، بل هو غامرٌ طاغٍ.

بلاغة التّعبير بمفردة ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾:

الانهمارُ وصفٌ دالٌّ على الانصباب بشدّة وكثرة

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿مُّنۡهَمِرٖ﴾؛ لِتدلَّ على أنّه مُنصَبٌّ بأبلغ ما يكون مِنَ السّيلانِ عِظَمًا وكَثْرةً، ولذلك لم يقُل: (بِمَطَرٍ)؛ لأنّه خارجٌ عن تلك العادة[1]، فالانهمارُ وصفٌ دالٌّ على المبالغة الشّديدة المُتتابِعة.

دلالة التَّعبير بمفردة (فجّرنا):

قوّة الانفجارِ وشدّتُه تدلّانِ على قصديّة الفعل بغَرض الإغراق

يدلُّ استعمالُ فعلِ التّفجير دونَ فعلِ الخروج في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ على القوّة مع الفجأة في الخروج، فهو إخراجٌ مَخصوصٌ، والتّضعيفُ في الفعل للتّعدية، ولو قال: (أخرجْنا عيونَ الأرض) لدلَّ على مُجرَّد فعلِ الإخراج، ولما أشعرَ بقوّة الفعل الدّالِّ على شديد الغضب بغرض الإغراق.

بلاغة المناسبة في العطف بين الجُمَل:

عيونُ الأرض وأبوابُ السّماء تشهدان بهَوْل الغضبِ الإلهيّ

ناسبَ ذكرُ تفجير عيون الأرض في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ ذكرَ انهمارِ المطر مِنَ السّماء في قوله تعالى: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾، فكما أنَّ الماءَ مُنهمرٌ مِنَ السّماء بقوّة، فهو مُتفجِّرٌ مِنَ الأرض بشدَّةٍ وقوّةٍ؛ ليلتقيَ غضبُ الماءِ النّازل مِنَ السّماء بغضب الماء المُتفجِّر مِنَ الأرض؛ استجابةً للأمر الإلهيّ، فالماء هنا جنديٌّ من جندِ اللّه تعالى، وشأنُ الجنديّ أن ينتصرَ لرُسل اللّه، وأن يستجيبَ لأمر اللّه، فكأنّ الماءَ حاصرَهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، في صورةٍ بالغةِ الرّهبة، تُجسِّدُ شدّة العقاب، وهو معنى قولِه تعالى في مَوضِع آخر: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ [العنكبوت: 14].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 104.

تصـويرُ الأرض بـأنّـهـا عـيـونٌ تتفجّر ماءً

بلاغة التّشبيه البليغ:

في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ تشبيهٌ بليغ، وتقدير الكلام: الأرض عيون، لكن لمّا دخلَ فعلُ ﴿وَفَجَّرۡنَا﴾ جعل المبدأ مفعولًا به والخبرَ تمييزًا، ونُكْتَتُهُ تصويرُ الأرضِ بأنَّها كلَّها أو ذاتَها جُعِلت عيونًا مُتفجِّرة، لا مُجرَّدَ أنَّ العيون تنبعُ من باطنها، فهذا المعنى هو تشبيهٌ بليغ حُذِفت منه أداةُ التّشبيه ووجهُه، فكأنّه قيل: الأرض عيونٌ؛ وذلك للمبالغة، والأصل: أنّها كالعيون باستحضار أداة التّشبيه المَحذوفة[1].

موازنـة بلاغيّةٌ بين فتح الأبواب وتفجير العُيون لتعظيم الحَدَث

المقابلة البيانيّة بين جُملتَي: ﴿فَفَتَحۡنَآ﴾ و﴿وَفَجَّرۡنَا﴾:

وقعَ تقابلٌ ضِدّيٌّ بين جملة ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وجملةِ ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾، إذ حقَّق التّقابُلُ توازنًا بلاغيًّا يدعَمُ مَشهَد الطّوفان الكونيّ الشّامل، حتّى تبدوَ الأرضُ كأنّها انقلبَت على مَنْ فيها، ووجه ذلك: أنّه جعل المِياهَ نازلةً مِنَ السّماء من أبوابٍ مَفتوحةٍ واسعةٍ، ولم يقُل في الأرض: (وأجرينا مِنَ الأرض بحارًا وأنهارًا)، بل قال: ﴿عُيُونٗا﴾ والخارج مِنَ العين دونَ الخارجِ مِنَ الباب، فالعينُ أقلُّ وأصغرُ، ولِدفع توهُّم أنّ الخارجَ مِنَ الأرض كان أقلَّ مِنَ المَنصبِّ مِنَ السّماء، ذَكرَ في الأرض أنّه تعالى فجّرها كلّها، فقال: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ﴾ أي: كلَّها؛ لِتُقابِلَ كثرةُ عيونِ الأرضِ سعةَ أبوابِ السّماء، فيحصلَ بالكثرةِ هاهنا ما حصل بالسّعةِ هاهنا[2].

إبراز هول المَشهَد بـجـعـل الأرض كـلّـهـا عـيـونًـا مُتفجِّرة

بلاغة التّمييز المُحوَّل عنِ المفعول:

جاء التّمييزُ في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ مُحوَّلًا عن المفعول، والتّقدير: وفجّرنا عيونَ الأرض، والعدول عن ذكر العيون مَفعولًا إلى جعله تمييزًا أبلغُ؛ لأنَّ فيه تصويرًا للأرض كلِّها، وكأنّها

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 320.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 297.

تحوَّلت إلى عيونٍ مُتفجِّرَةٍ، لا مُجرَّد أنَّ عيونًا مَعدودةً فُجِّرَت منها. فهو يضفي شمولًا وعمومًا، ويُظهِرُ شدّةَ الطّوفان وكثرةَ الماء من كلِّ ناحية، كأنّه قيل: لم يبقَ مَوضِعٌ مِنَ الأرض إلّا صار عينًا مُتفجِّرة، وكأنّ وجهَ الأرض بأسره تحوَّلَ إلى عيونٍ تفيض[1]. وأيضًا للتّمييز هنا بلاغةٌ دقيقةٌ؛ وهو إفادةُ التّهويل بالإبهام ثمّ البيان[2]؛ إذ لو قيل: (وفجّرنا عيونَ الأرض)، صار الذّهنُ يذهب إلى عيون مَعلومة في الأرض، وكأنّها أماكنُ مُتفرِّقةٌ مَحدودةٌ، لكن لمّا قال: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونًا﴾ حصل الإبهامُ، **أوّلًا**: فذَكَرَ الأرضَ وحدَها دون تقييد، فأنت لا تدري ما الّذي فُجِّر منها، ثمّ جاء البيان بالتّمييز بكلمة ﴿عُيُونًا﴾ فوضَّح نوع التّفجير، لكن بعد أن شدَّ ذِهنَ السّامع وأوقعَه في رهبة الانتظار، فكأنّ الأسلوبَ يقول: الأرضُ كلُّها صارَت عيونًا مُتفجِّرةً، لا مُجرَّد بعضِ العيون المَحدودة. إذًا، (الإبهام ثمّ البيان) تَرَكَ المُستمِعَ لحظةً في غموضٍ مَهيبٍ، ثمّ كَشفَ المفاجأة بما هو أعظمُ وأفخم ممّا يَتوقَّع.

غرضُ تنكير لفظ ﴿عُيُونًا﴾:

تعميم مَشهَد الانفجار وتكثير العيون للمُبالغة في الطّوفان

نُكِّر لفظُ العيون في قوله تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونًا﴾ لعلّتين: إعرابيّة وبيانيّة. فالعلّة الإعرابيّة لأنّها تمييزٌ مُحوَّلٌ عنِ المفعول به، والتّمييز في الأصل يكون نكرةً[3]. والبيانيّة فللتّكثير والتّهويل؛ أي: عيونًا لا تُحصى ولا تُحدُّ، وكأنّ الأرضَ كلَّها انبجسَت عيونًا مُتدفِّقةً.

نوع الفاء ودلالتُها:

اجتماع الماءَين نتيجةَ التّفجير والإنزال، بلا فواصل ولا إبطاء

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ للتّعقيب السّريع؛ أي: جاء التقاءُ ماءَيِ السّماء والأرض عقبَ التّفجير وفتحِ الأبواب؛ فأفادَت

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 177.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.

(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 312.

أنَّ اجتماعَ الماءَين كان نتيجةً عاجلةً لذلك التّفجير والإنزال، لا فاصلةَ فيه ولا إبطاءَ[1].

دلالة التّعبير بمُفردة الالتقاء:

تلاقي الماءَين مَشهَدٌ مَهولٌ في تصوير اتّحاد السّماء والأرض في التّعذيب

أفاد التّعبيرُ بمفردة الالتقاءِ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ تصويرَ مَشهَدِ اجتماعِ ماءِ السّماء المُنهمِر مع ماء الأرض المُتفجِّر. فكلمةُ (التقى) تدلُّ على أنّ الماءَين التقيا بقوّةٍ، واندمجا اندماجًا شديدًا، حتّى صار الماءُ من فوق ومِن تحت كتلةً واحدةً، في مَشهَدٍ رهيبٍ، ولو جرى ماءُ الأرض المُتفجّر جريًا ضعيفًا لَما التقى مع ماء السّماء، بل كان ماءُ السّماءِ يَرِدُ عليه ويتّصِلُ به[2]، ودلَّت مُفردةُ الالتقاء على العذاب المُغرِق، إذ كلُّ ما قبل الالتقاء مُقدِّمةٌ وتوطِئةٌ للعذاب، فلمّا وقعَ الالتقاءُ نزلَ العذابُ الماحِقُ.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَآءُ﴾:

الماء المُلتقي هو الجامع بين مَصدري الإغراق

﴿ٱلۡمَآءُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ للعهد الذّكريّ، إذ سبق ذكرُه مرّتين: ﴿بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ﴾ وهو ماء السّماء، وفي قوله: ﴿وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا﴾ وهو ماء الأرض[3]؛ فلمّا قيل: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ صار التّعبيرُ بـ(أل) العهديّة إشارةً جامعةً إلى هذَين الماءَين معًا؛ أي: أنَّ (أل) جمعَتِ الماءَين المَذكورَين لتصويرهما، وكأنَّهما ماءٌ واحدٌ عظيمٌ مُتدفِّقٌ، يلتقي بأمر اللّه تعالى.

دلالة إفراد كلمة ﴿ٱلۡمَآءُ﴾:

وَحْدَةُ مَقصَد العذاب بالماء يُناسبه إفرادُ الماء

عدل النّظمُ الكريم عن تثنية الماء، فلم يقُل: (فالتقى الماءان)، مع أنّهما ماءان، (ماء السّماء، وماء الأرض)، وأفرد ذكر ﴿ٱلۡمَآءُ﴾ توحيدًا لهما؛ لأنّهما لمّا التقيا، وكثرَتِ الكمّيّةُ، وعَظُمَ الخطرُ، صارا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 296، 297.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.

ماءً واحدًا مُتعاظِمًا مُتوحّدَ الهيئة[1]. فالإفرادُ لتحقيق أنّ التقاء الماءين لم يكُن بطريق المجاورة، بل بطريق الاختلاط والاتّحاد[2]، ولمّا كان مقصودُ الماءَين واحدًا ناسب التّعبيرُ بالإفراد دون التّثنية.

بلاغة الاستعارة المكنيّة:

تـصـويـرُ المـاء كفاعلٍ مُختارٍ، وإظـهـارُ تـدبير الله في الالتقاء

في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيثُ شُبِّه فيها الماءُ بشخصٍ عاقل، وحُذِف المُشبّه به، ورُمِزَ له بفعل ﴿فَٱلۡتَقَى﴾، ونُكتَةُ الاستعارةِ تصويرُ مَشهَد الفيضان كأنّه مَوعِدٌ مَحتومٌ بين طرفين قاصدين اللّقاءَ. وفيه إشارةٌ إلى أنّ هذا اللّقاءَ ليس اتّفاقًا عفويًّا، بل بأمرٍ قد قُدِر؛ أي: بقَدَرٍ إلهيٍّ مَقصودٍ. فالاستعارة أظهرَتِ الماءَ كفاعلٍ مُختارٍ؛ لتوكيد أنّ الحَدَثَ جارٍ على تدبيرٍ مُحكَمٍ، لا على سبيل المُصادَفة.

دلالة حرف الاستعلاء:

الطّوفان وافقَ أمـرًا سابقًا في اللّوح المحفوظ

حرف ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ للاستعلاء المجازيّ[3]؛ أي: أنّ التقاءَ الماء وقَعَ موافِقًا ومُطابِقًا لأمرٍ مُحكَم مُقدَّرٍ، قُدِّر قبلَ حدوثه تقديرًا دقيقًا لا خَلَلَ فيه، وكأنّه كُتِب في قضاءٍ سابقٍ أن يقع هذا الطّوفان بتلك الصّورة.

غرض تنكير لفظ ﴿أَمۡرٖ﴾:

عـظَـمـةُ تدبير الـلـه تَـظْـهَـر في إبهام الأمر وبيانِ إحكامه

نُكِّر لفظ ﴿أَمۡرٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ﴾ للتّعظيم والتّهويل، فالتّنكير يُصوّر الأمرَ على أنّه شيءٌ عظيمُ الشّأن، مُبهَمٌ في أوّل وهلة لزيادة الرّهبة، ثمّ يُبيَّن بكونه مُقدَّرًا مُحكَمًا. وفائدة ذلك: الجمع بين الإبهام المَهيب والإيضاح المُحكَم، بأنّ الطّوفانَ لم يكُن صدفةً، بل بأمرٍ مَخصوصٍ مِنَ اللّه تعالى.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 81.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 185.

دلالة التّعبير بـ﴿قَدْ﴾:

العقوبة الّتي نزلَت بهم قضاءٌ إلهيّ مُحكَمٌ

دلَّ التّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ مُصدَّرًا بـ﴿قَدْ﴾ التَّحقيقيّة على أنّ العقوبةَ الّتي نزلَت بهم قضاءٌ مُحكَمٌ، وأنّ هذا الإهلاكَ مَحكومٌ مُتقَنٌ مُرادٌ في الحكمة الإلهيّة بما يجعل مشهَدَ العقابِ مَشحونًا بالرّعب والهيبة.

نُكْتَةُ بناءِ فعل ﴿قُدِرَ﴾ للمَفعول:

هول التّقدير يَجبُر السّكوتَ عن مُقدِّره

استُعمل البناءُ للمفعول في قوله: ﴿قَدْ قُدِرَ﴾، ولم يقُل: (قدّرناه)، مع أنّ اللّه هو المُقدِّر؛ ليَقَعَ التّركيزُ على عظَمة التّقديرِ نفسِه، فالعناية موجَّهةٌ إلى نفس الحَدَث (التّقدير) لا إلى الفاعل (اللّه)؛ لأنّ المَقامَ مَقامُ تهويلٍ وإرهابٍ للمَشهَد لا مقامُ تبيينِ مَن قدَّره. فالمراد إبرازُ أنّ التّقديرَ واقعٌ ثابتٌ مُحكَمٌ بنفسه، لا يُسأَلُ عنه، ولا يُناقَشُ في عظمته. وفي صيغة البناء للمَفعول إشعارٌ بأنّ الأمرَ خارجٌ عن قدرةِ الخَلْق، فالأمرُ مُبرَمٌ مَحكومٌ لا يستطيع أحدٌ دفعَه أو تغييرَه، فكأنّ التّقديرَ نفسَه صار حقيقةً ماثِلةً مَفروغًا منها، لا محلًّا للنّقاش في فاعلها[1]، مع ما فيهِ من تفخيمِ التّقدير، فإنّه لمّا لم يُذكَر الفاعل (اللّه)، وأُبرِزَ الفِعل وحدَه، دلّ ذلك على أنّ التّقديرَ أعظمُ من أن يوصفَ أو أن يرتبطَ بفاعلٍ بلفظٍ عاديٍّ، بل هو تدبيرٌ إلهيٌّ خفيٌّ مَهيبٌ، فضلًا عن مناسبتِه السّياقَ، فالسّياقُ كلُّه تصويرٌ لأحداثٍ هائلةٍ خارِقةٍ لعاداتِ البشر (طوفانٌ يغمُر السّماءَ والأرض)، فناسَبَ أن يأتيَ الفعلُ بطريقةٍ تُعظِّم الفِعلَ وتُهَوِّله في النّفوس.

فائدة وصف الأمر بأنّه ﴿قَدْ قُدِرَ﴾:

جملة ﴿قَدْ قُدِرَ﴾ في محلّ جرّ نعتٌ لـ ﴿أَمْرٍ﴾[2]. وفائدةُ الوصف: التّنبيهُ على الإحكام والتّقدير المُسبَق، كما أنّ الوصفَ يُظهِرُ العنايةَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.
(2) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 150.

الإلهيّةَ بالجزاء، ففيه طمأنةٌ للمُؤمنين أنّ ما وقع حقٌّ وعدلٌ. ولا يخفى ما فيه مِنَ التّأكيد على نفاذ القدرة في التّوقيت المُقدَّر لها، فلا يخرج شيءٌ عن تقديره، ولا يتخلَّفُ عن ميقاته. والمقصود مِنَ الوصف ﴿قَدۡ قُدِرَ﴾ لا يقفُ عند مُجرَّد التّقدير السّابق، بل ينبِّهُ على معنى الدّقَّة في تنفيذ ما قُدِّر، بحيثُ لا تزيد قطرةٌ ولا تنقُص، ولا يتجاوز البلاءُ مَن قُصِد به. كما أنّ فيه إشارةً دقيقةً إلى إحاطة القدرة؛ أي: أنّ وقوعَ الطّوفان لم يكُن لعجزٍ سابقٍ ثمّ تيسَّر، بل هو سهلٌ على اللّه في أيِّ وقت، وإنّما أجراه في الوقت المُقدَّر لحكمةٍ، ولذا كان في تخفيف اللّفظ في قوله: ﴿قُدِرَ﴾ - ولم يقُل: (قدِّر) - إلماحٌ إلى سهولة وهوان الفعل على اللّه، مهما بدا عظيمًا عند البشر[1].

أقدارُ اللهِ مُحكَمَةٌ لا تزيد ولا تنقُص، وكلُّها جاريةٌ بقُدرته، وهَيّنةٌ على أمره

نوع الواو ودلالتُها:

جملة: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ معطوفةٌ على التّفريع السّابق في قوله: ﴿فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ﴾، إذ ترتَّبَ عليه إغراقُ المُكذِّبين. لكن قد يَتوهَّم السّامعُ أن شمول الماء للأرض والسّماء قد عمّ جميعَ الخَلق بلا استثناء، فجاءَت جملة ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾ معطوفة عطفَ (احتراس)؛ لِتدفعَ هذا الوهم، وتبيّنَ أنّ مع الغرق حصلَت نجاةُ نوح، فجمعَتِ الآيةُ بين الهلاك والنّجاة معًا[2]. فعَطفَتِ الواوُ نجاةَ نوح على هلاك قومه.

رحمةُ الله تُرافِقُ نقمتَه، فيُهلِكُ أهلَ التّكذيب، ويَحفظُ أولياءَه

بلاغة تقديم الإغراقِ على الإنجاء:

تقديم ذِكر إغراقِ قوم نوحٍ ﵇ على الإخبار عن إنجائه في السّفينة، من باب تقديم المَقاصِد على الأدوات، والغاياتِ على الوسائل، فالإغراقُ هو مَقصود السّياق، والإنجاء مَعلومٌ بداهةً، فذِكرُه تتميمٌ وتكميلٌ.

الإغراقُ مَقصود السّياق، والإنجاء مَعلومٌ بداهةً

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 184.

نُكْتَةُ ذكرِ نوح دونَ مَن معه:

عُدّي فعل (حملنا) إلى ضمير نوح عليه السلام دون مَن معه في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ﴾، فلم يقُل: (وحملناهم)؛ لأنّ هذا الحِمْلَ كان إجابةً لدعوته ولِنَصرِه، فهو المَقصودُ الأوّل من هذا الحِمْل؛ ولذلك قال: ﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾[1]، ولم يقُل: (كُفِروا)؛ لأنّ الّذي جُحِد أمرُه هو نوح عليه السلام أصالةً، ومَن آمن به تبَعٌ له، ولِما يَقتضيه فِعلُ الحِمْل مِن استلزام حمل المؤمنين معه، بما أفاده عموم السّياق القرآنيّ، فذِكر نوحٍ عليه السلام دون مَن معه لبيان أنَّ إنجاءَ القائد هو إنجاءٌ لِمَن معه، فـ «همُ القَومُ لا يَشقَى بهِم جَليسُهُم»[2].

هُمُ القَومُ لا يَشقَى بهِم جَليسُهُم

نُكْتَةُ التّعبيرِ بحرف الاستعلاء:

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ دون حرف الظّرفيّة؛ وذلك لأنَّه لم يَستعملْ لفظَ (السّفينة)؛ والأنسبُ مع الألواح حرفُ الاستعلاء، فلمّا آثر التّعبيرَ بذات الألواح دونَ السّفينة أو الفُلك، كان الأنسبُ حرفَ الاستعلاء، كما أفاد حرفُ الاستعلاء التَّمكُّن؛ أي: أنّ نوحًا عليه السلام ومَن معه صاروا كالمُستَعلين على الماء، لا الغارِقين فيه. ففيه إشارةٌ إلى رفعة مكان النّجاة وعزّتها، إذ صارَتِ السّفينةُ كظهرٍ يُركَب، لا وعاءٍ يُحتبَس فيه، فكأنّ حرفَ الاستعلاء ألقى على قصّة النّجاة عظمةً وهيمنةً، في مُقابل ذلّة الغارِقين[3].

مراعاة المُناسبة مع الدّلالة على المكِنَة والثّبات

بلاغة الكناية بحذف المَوصوف:

حُذِفَ الموصوفُ في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ﴾، فلم يقُل: (على سفينةٍ ذاتِ ألواحٍ) كنايةً عنِ السّفينة، فالنّظم تَرَكَ

ما هي إلّا ألواحٌ حامِلةٌ، والعِبرةُ بِمَنْ رعاها، وأدار أمرَها

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 184.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (2689).

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

التّصريحَ بالمَوصوف، وذَكَرَ لازمَه (الصّفة) [1]؛ ليُفهمَ منه تفخيمُ أمرِ الإنجاء الإلهيِّ، والرّعاية الرَّبانيّة، فاختيارُ الكناية ﴿ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ﴾ دون السَّفينة فيه إيماءٌ إلى تهوين شأنِ السّفينة بالتّعبير الكنائيِّ، فكأنّه قيل: ما هي إلّا ألواحٌ حامِلةٌ، فالعِبرةُ بمَن يَرعى الألواحَ، ويُدبِّرُ أمرَها، لا بكونها سفينةً عظيمةً.

بلاغةُ التّعبير بمُفردة ﴿أَلۡوَٰحٖ﴾:

تفصيلُ الصّنعة وبيانُ دقّة العملِ مدحٌ لصنيع نوحٍ وأثرِه في السَّفينة

التّعبير بـ ﴿أَلۡوَٰحٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ﴾، دون أن يقولَ (خَشَبات)، فيه إشارةٌ إلى أنّ تلك الخَشَباتِ قُطِّعَت ونُجِّرَت وصُفَّت بعناية، حتّى صارَت ألواحًا عريضةً مُهيّأةً للبناء، لا مُجرَّدَ خشبٍ خام، كما أنّ في التّسمية بـ﴿أَلۡوَٰحٖ﴾ مَلمَحًا مِنَ التّكريم، إذ لم يكتفِ باسم الجنس (الخشب)، بل اختار صفةَ الصّنعة النّهائيّة. فالكلمة تَشي بجَودَة الإعداد، ودقّةِ الصُّنع، وتُبرزُ رعايةَ اللّه لعبده نوحٍ عليه السلام[2].

نُكْتَةُ عطفِ الدُّسُر على الألواح:

الأخذ بالأسباب أصلٌ في عمل الأنبياء

عَطفُ الدُّسُرِ على الألواح في قوله تعالى: ﴿ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ للتّعريف بأجزاءِ السّفينة الّتي تركَّبت منها؛ أي: الألواح والدُّسُر، فهي ليست ألواحًا مُبعثَرَةً، بل مجموعةً بتثبيت الدُّسُر لها، وفيه إيماءٌ إلى الأخذ بالأسباب، فإنَّ السّفينةَ لم تتركّب مِنَ الألواح كيفمَا اتّفقَ، بل صُنِعَت لها الدُّسُر، وثُبِّتَت بها.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾:

النّجاةُ ليسَت بقوّة المادّة بل بقُدرة المَولى

نُكِّر لفظُ ﴿أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾ لإفادة التّهوين؛ أي: أنّها ألواح ودُسُر يسيرة في أعين النّاس، لكنّها صارَت بأمر اللّه سببَ النّجاةِ العظيم؛ ليتبيّنَ أنّ النّجاةَ ليسَت بقوّة المادّة بل بقُدرة المَولى.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 321.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 105.

توجيه تتابع الصّفات بالذّكر:

الأخذ بالأسباب أصلٌ في التّوكُّل في مسيرة الأنبياء

جملة: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ إمّا في مَوقِع صفةٍ ثانيةٍ للمَوصوف المَحذوف في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾؛ أي: سفينةٍ مُتَّصفة بأنّها ذاتُ ألواحٍ ودُسُرٍ وجارية بأعيننا، وإمّا أن تكون حالًا مِنَ المَوصوف المَحذوف (سفينة)؛ لكونه نكرةً مَوصوفةً بـ﴿ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ﴾، فليسَت مُتمحّضةً في التّنكير، ولذا صارَت صالحةً لوقوع الحال منها[1]، وعلى الإعرابين فهي في جملة المعنى البلاغيّ صفةٌ لواقع السّفينة، وخُصَّ هذان الوصفان بالذّكر؛ لأنّ الأوّلَ وصفٌ لذات السّفينة، والآخر وصفٌ لملابساتها، ومَوقِعُ الصّفة الثّانية مِنَ الأولى مَوقِعُ المُبيِّن مِنَ المُبيَّن، إذِ الجَريان برعاية اللّه تعالى بيانٌ لحمل نوحٍ عليه السلام على ذات ألواحٍ ودُسُرٍ، فالحفظُ لم يكُن بالسّفينة الّتي صفتها أنّها ذاتُ ألواحٍ ودُسُرٍ، بل بكونها جاريةً برعاية اللّه وحفظه، وبه يتكامَلُ تخصيصُ السّفينة بهذَين الوصفين بالذّكر، الجامِعَين بين هوان الأسباب، وعظَمةِ الرّعاية الإلَهيّة، وبه يتحقَّق تمامُ التَّوكُّل على اللّه تعالى.

نُكتة تقييدِ الجَري بقوله: ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾:

العناية الإلهيّة هي الّتي تحفظ عبادَ اللّه في الشّدائد

قُيِّد فعلُ الجري في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ بكونه جاريًا برعاية اللّه تعالى؛ دفعًا لتوهُّم أنَّ السّفينةَ جاريةٌ بهذه الألواح والدُّسُر، فالسّفينة مَحفوظةٌ بعين اللّه لا بقوّة مادّيّتها، فهو الّذي يَسوقُها ويَحفظُها ويَهديها وسطَ الماء المُتلاطِم، بعنايته الخاصَّة، فالآيات تُرشِدُ القارئَ إلى أن لا يَنظُرَ إلى السّفينة من حيث مادّتُها، بل من حيثُ عينُ مَن يُجريها ويحفظُها[2].

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 151.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 106، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 185.

نوع الباء ودلالتُها:

رعايةُ الله وحفظُه سببُ نجاة المؤمنين

الباء في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ سببيّة، فرعاية الله وحفظه هي سببُ جريان السّفينة، ويكون فعلُ ﴿تَجۡرِي﴾ كناية عنِ النَّجاة، بذِكر الوسيلة، وهو فعل الجريان وإرادةُ الغاية، وهي النّجاة؛ فالحفظُ سببُ النّجاة، وقيل: للمُلابسة[1]؛ أي: مُلتبِسة برعايتنا وحفظنا[2].

دلالة جمع ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾:

حِفظُ اللهِ واسِعٌ لا يَحدُّهُ ظرفٌ ولا عَددٌ

جُمِعَ لفظُ العَين في قوله: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ لِتقوية المَعنى؛ لأنّ الجمعَ أقوى مِنَ المُفرَد؛ أي: بِحِراساتٍ مِنّا وعِناياتٍ. ويجوز أن يكونَ الجمعُ باعتبار أنواع العِناياتِ بتنوّع آثارها. وأصلُ استعمال لفظ العَين في مِثلِ هذا تَمثيلٌ بحال النّاظر إلى الشَّيء المَحروس مِثلِ الرّاعين، كما يُقالُ لِلمُسافر: (عينُ اللّهِ عليك)؛ أي: راعٍ لك، ثمّ شاع ذلك حتّى ساوى الحقيقةَ، فجُمِعَ بذلك الاعتِبارِ[3].

بلاغة الكناية:

كنايةٌ عنِ الحفظ والرّقابة والعناية

التّعبير بـ ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ كنايةٌ عنِ الحفظ والرّقابة والعناية؛ أي: بأمرنا وبمَرأى منّا وتحت حفظنا وكلاءتنا[4]، فكُنّي بالأعين عنِ الحفظ والرّعاية التّامّة.

غرض تنكير لفظِ ﴿جَزَآءٗ﴾:

عِظَمُ المجازاة يتناسب مع عظَم العمل

نُكِّرَ لفظُ ﴿جَزَآءٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ للتّفخيم والتّهويل؛ أي: جزاءً عظيمًا خاصًّا يناسب عِظَمَ العقوبة، وفيه أيضًا تعميمٌ ليشمَلَ كلَّ ألوان الجزاء المُستحقِّ، لا نوعًا واحدًا منه.

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 477.

بلاغة مَوقِع ﴿جَزَآءً﴾ بما قبلَه:

إعمالُ مَجموعِ المعاني أولى من إعمال أحدِها

قوله تعالى: ﴿جَزَآءً﴾ مَفعولٌ لأجله، والعاملُ فيه فعلُ (فتحنا) وما عُطِفَ عليه؛ أي: فعلْنا ذلك كلَّهُ جزاءً لِنوحٍ[1]، كأنّه قال: فتحْنا أبوابَ السَّماء، وفجَّرنا الأرضَ عيونًا، وحملْناه جزاءً لنوحٍ، وهذا في غاية الإكرام لِمَن صَبَرَ على قومِه داعيًا إلى اللّه تعالى، فمَجموعُ السّابق مِنَ السّياق هو المُؤثِّر في المَعنى، وهذا أظهرُ وأحسنُ مِن نصبه بفعل (حملناه) وحدَه، أو نصبِه بقوله: ﴿تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا﴾ وحدَه؛ لأنَّ الجزاءَ ما كان يحصُلُ إلّا بحفظِهِ وإنجائِه معًا، فوَجَبَ أن يكون ﴿جَزَآءً﴾ مَنصوبًا بكونه مَفعولًا له بهذه الأفعال[2].

دلالة ذِكرِ فعلِ الكونِ الماضي:

عقوبةُ الظّالِمين لا تكون لمُجرَّد الكُفر، بل للاستمرار فيه والعِناد عليه

دلَّ ذِكرُ فعلِ ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ على أنّ كُفْرَ قوم نوحٍ به قديمٌ ومُستمرٌّ منذ أن جاءَهم بالرّسالة، فلم يقُل: (لِمَن كُفِر)؛ وذلك لأنّه ليس المقصود بيانَ أنّه كفرٌ فحسب، بل لبيان أنّه كُفِر به منذُ زمانٍ مضى، فهو عريقٌ في اتّصافه بأنّه مَكفورٌ به، وذلك نحو ما حُكي في سورة نوح بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥﴾ [نوح: 5] إلى قوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾ [نوح: 8 - 9][3]، وهو ما يدلُّ على أنَّ اللّه تعالى لا يُحاسِبُ النّاسَ بمُجرَّد وقوع الكفر، بل باستمرارهم عليه، وإصرارهم، وعنادهم على نبذ دعوة الحقِّ.

نُكْتَةُ بناءِ فعل ﴿كُفِرَ﴾ للمفعولِ:

الانتصارُ للدّعوة مَجمَعُ خيوطِ الجزاء

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ عن نوحٍ ﷺ بالمَوصول والضّمير المُستتر والفعلِ المَبنيِّ للمَفعول في قوله تعالى: ﴿لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾، دون ذِكر

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 297.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

الاسم الصّريح؛ لأنَّ الإبهامَ في مَقام العِلم بالمَمدوح يورِّثه تعظيمًا وتشريفًا، كما أفاد أنَّ الجزاءَ لم يكُن لنوحٍ ﵇ بالاعتبار الخاصّ، بل باعتبارِه قد كُفِر من قومه بسبب دعوته للّه تعالى، فالانتصار في مآل الأمر هو للدّعوة، فالجُحودُ لم يكُن لنوحٍ ﵇ فقط، بل كان جُحودًا لحقيقةٍ عظيمةٍ تمثَّلَت فيه، فهو عبدُ اللّه ورسوله.

بلاغة المَجاز بحذف مُتعلّق فعل ﴿كُفِرَ﴾:

كثرة المعاني أوفرُ في بيان الواقع مِنَ الاقتصار على بعضها

حُذِفَ مُتعلِّقُ فعلِ ﴿كُفِرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾؛ للدّلالة عليه مِنَ السّياق، وانفتاحِ المعنى، وفي ذلك بلاغةٌ وإيجازٌ، وتكثيرٌ لِلجهات الّتي وقَعَ منها الكفرُ، فهو كفرٌ برسالته، وكفرانٌ بأداء شكره على ما قدَّمَ في سبيل إنقاذ قومِهِ مِنَ الهلاك الماحِق، والمَعنيان المُحتمَلان لـ﴿كُفِرَ﴾؛ أي: كُذِّب وكُفِر برسالته، وهو الأشهر، أو كُفِر إحسانُه ونُصحُه، وجُحِدَ فضلُه، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]؛ أي: لا تجحدوا نعمتي. وفي هذا المعنى الثّاني إشارةٌ دقيقةٌ إلى أنّهم كفروا نعمتَهُ ونُصحَهُ ومعاناته، فجاء العذابُ جزاءً على ذلك الجحود، وفي هذا مزيدُ تسليةٍ للنّبيّ ﷺ[1].

نوع الواو، ودلالتُها:

الانتقال من مَشهَد النّجاة إلى مَشهَد العِبرة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾ تَحتملُ العطفَ على السّابق أو الاستئناف[2]؛ لأنّها جاءَت لابتداء غرضٍ جديدٍ بعد تمام الخبر عن إنجاء السّفينة، وهذا الغرض هو الانتقال من مَشهَد النّجاة إلى مَشهَد العِبرة.

دلالة تتابُع المُؤكِّدات:

تتابُعُ المُؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ لتقوية المعنى وتحقيقِ الدّلالة، فأفادَتِ اللّامُ توكيدَ الخبر،

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 185.

(2) درويش، إعراب القرآن، 9/ 378، وصافي، الجدول: 14/ 70.

إقامةُ الآيةِ البالغةِ أمرٌ مُحقَّقٌ لا يُنكرُهُ إلّا باهِتُ الفكر

و(قد) التّحقيق؛ أي: أنّ الأمرَ واقعٌ مُحقَّقٌ لا شكَّ فيه، والفعلُ الماضي ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ يدلُّ على التَّحقُّق والوقوع النّاجز، وهذا التَّراكُم في أدوات التّوكيد يُؤذِنُ بأنّ تَركَ السّفينة أو القصّةِ آيةً باقيةً أمرٌ ثابتٌ قطعيّ لا يُدفَعُ ولا يُجادَلُ فيه، حتّى لا يكون لأحدٍ عُذرٍ في الغَفْلة عنه. فالوظيفة البيانيّة لتلك المُؤكِّدات هي قطعُ العُذر وتثبيتُ الحُجّة، فقد يَضِلُّ السّامعُ ويتوهَّمُ أنّ ذلك من الأساطير أو الخيال، فجاء هذا التّأكيد المُتتابِع ليجعلَ الخبرَ في أعلى مَراتِب التّحقيق[1].

تعيين مَرجِع الضّمير ودلالتُه:

السّفينة أو القصّة أو الحادثة بكاملها معجزةٌ هائلةٌ وعبرةٌ باقية

يعودُ الضّميرُ في فعل ﴿تَّرَكۡنَٰهَآ﴾ إلى السّفينة، أو القصّة، أو إلى الحادثة بكاملها[2]، وإبهامُ مَرجِع الضّمير فيه إجمالٌ مَقصودٌ؛ للتّفخيم؛ أي: تركنا شيئًا عظيمًا، مُعجزةً هائلةً، عِبرةً باقيةً.

غرض تنكير لفظِ ﴿ءَايَةٗ﴾:

آيةٌ عظيمةٌ باهرةٌ لا تُدفَع

نُكِّر لفظُ ﴿ءَايَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾ للتّعظيم؛ أي: تركناها آيةً عظيمةً باهرةً لا تُدفَع؛ لِتكونَ عِبرةً لِمَن يأتي بعدَهم. فتنكيرُها يُشعِرُ بأنّها مِنَ الجلال والعِظَم بحيثُ لا تُحصَرُ في وصفٍ أو تُقيَّدُ بحَدٍّ.

بلاغة التّعبيرِ بمفردة ﴿ءَايَةٗ﴾:

الآيةُ جامِعةٌ بين الدّلالة الحِسّيّة والمعنويّة

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بمفردة ﴿ءَايَةٗ﴾ دون (عِبرة) أو (عِظةٍ) ونحوهما؛ وذلك لأنّ ﴿ءَايَةٗ﴾ تشمَلُ معنى الدّلالة الواضِحة والمُعجزة المُبهِرة، فهي ليست مُجرَّدَ قصّةٍ تُحكَى، بل علامةٌ ربانيّة شاهدةٌ على القُدرة والعدالة والنّصر. فالآيةُ تشمَلُ السّفينةَ الباقيةَ كآثارٍ مَرئيّةٍ، ونجاةَ المؤمنين، وهلاكَ الكافرين، وتدبيرَ اللّه للأمر

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 322.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 106.

كلِّه مِنَ السّماء والأرض[1]، كما أنّها تتركُ السُّنّةَ الباقيةَ لِمَن بعدَ قوم نوحٍ في العالِمين، ولاسيّما أنَّ حَدَثَ الطّوفان هو الأشملُ والأعمُّ في البشريّة من أحداث القِصصِ الغابرةِ، والأممِ العابرة؛ فهي جامِعةٌ بين الآية الحِسّيّة والمعنويّة.

توجيه المتشابِه اللّفظيّ:

قـدرةُ اللـه تستغرقُ أحوالَ الإيجاد وأحوالَ الإبقاءِ والاستدامة

جاء استعمالُ مُفردةِ التّركِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَـٰهَآ﴾، بينما قال في سورة العنكبوت: ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: 15]؛ فآثَر الجَعلَ؛ وذلك لأنَّ ذِكرَها في سورة القمر وردَ بعد ذِكرِ كيفيّةِ صُنعِها، وحُدوثِ الطّوفان، وحَملِ نوحٍ في السّفينة؛ فأخبرَ بأنّها أُبقيَت بعد تلك الأحوال، فالآيةُ في بَقائها، وفي سورة العنكبوت ورَدَ ذِكرُ السّفينة ابتداءً، فأخْبَر بأنّ اللّهَ جعلَها آيةً إذْ أوحَى إلى نوحٍ بصُنعِها، فالآيةُ في إيجادها، وهو المُعبَّر عنه بـ ﴿وَجَعَلْنَـٰهَآ﴾ [العنكبوت: 15][2]. ففي سورة القمر ذَكَرَ التّركَ بعد تفصيل الأحداث، وفي العنكبوت ذَكَرَ الجَعلَ إجمالًا، فناسَبَ كلَّ سياقِ المُفردةُ الّتي ورَدَت فيه.

نوع الفاء ودلالتُها:

الإفصاح عن شرط مقدر

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ فصيحة، فقد أفصحَت عن شرطٍ مُقدَّر؛ أي: إذا كانَت قصّةُ السّفينة آيةً فهل مِن مُدَّكِر؟[3].

غرض الاستفهام ودلالتُه:

التّقريعُ لِمَن لم يتعظ، والتّحضيض على التّذكّر والتّفكّر

الاستفهامُ في ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تقريعيٌّ تحضيضيٌّ في آنٍ؛ تقريعيٌّ لِمَن سَمِعَ هذا الخبرَ العظيمَ ولم يتّعظ، وتحضيضيٌّ يحثُّ على التَّذكُّر والتَّفكُّر[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 107.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 186.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 322، وصافي، الجدول: 14/ 70.

(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 187.

معنى ﴿مِن﴾، ودلالتُها:

التّأكيد على عموم الجنس

﴿مِن﴾ في حيز الاستفهام الإنكاريّ في قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؛ للتّأكيد على عموم الجنس، فالمراد كلُّ مَن سَمِعَ الآيةَ ليَعتبرَ بها ويتّعظَ بدلالتها.

دلالة صيغة (الافتعال):

مَن أراد الهِداية وتحصيلَ الحقِّ فعليه بالاجتهاد

جاء اختيارُ صيغة ﴿مُّدَّكِرٖ﴾ على وزن (مُفتعِل)؛ للدّلالة على الاجتهاد في التّذكُّر، فالأمرُ يحتاج إلى إعمال عقلٍ وتأمُّلٍ وجَهدٍ، وليس مُجرَّدَ سماعٍ عابرٍ[1]، وهو المقصودُ بالاستفهام التّحضيضيّ، فإنَّ الاستجابةَ لإرشادات الوحي يحتاج إلى عقلٍ واعٍ، وقلبٍ صافٍ، ونيّةٍ صادقةٍ، واجتماعُها ليس بالأمر الهيِّن، فالآيةُ تُرشِدُ العبادَ بطريق الإيماء إلى ضرورة الاجتهاد لتحصيل الاعتبار والاتّعاظ.

غرض تنكير لفظ ﴿مُّدَّكِرٖ﴾:

عمومُ الخطاب لكلّ مكلّفٍ قادرٍ على النّظر والفكر

نُكِّرَ لفظ ﴿مُّدَّكِرٖ﴾ لِمَوقِع ﴿مِن﴾؛ ولِعموم الخطاب وشمولِه، فيَعمُّ كلَّ مُكلَّفٍ قادرٍ على الاجتهاد وبلوغ الحقِّ بالنّظر والفكر.

نوع الفاء ودلالتُها:

تفريعُ التّعيين والبيان على المفهوم في جملة الكلام

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تفريعٌ على القصّة السّابقة الّتي شملَت إنزالَ الطّوفانِ، ونجاةَ نوحٍ، وهلاكَ المُكذِّبين، كأنّه قيل: بعد أن عرفتَ ما حلَّ بهم، فانظُرۡ وتأمَّلۡ! كيف كان عذابي لِمَن كذَّبَ نُذُري[2]، والتّفريعُ هنا تفريعُ تعيين، وبيانٍ لمفهوم الآية الموجزَةِ لحَدَثِ الطّوفان.

غرضُ الاستفهام بـ(كيف):

التّهويل والتّعجيب من شدّة العذاب والنّذارة

غرض الاستفهام بـ(كيف) في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 107.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 187.

﴿وَنُذُرِ﴾ التّعجيب والتّهويل من شدّة العذاب؛ أي: ما أفظعَه وما أشدَّه! فليس المَقصودُ طلبَ العلم، بل إثارةَ الفزع والتّنبيه[1].

نُكْتَةُ ذكرِ فعل ﴿كَانَ﴾:

آيــاتُ الاعـتـبـار مُتحقِّقةُ الوقوع فـــي الآذان، مُستمرَّةُ الاعتبار في الأذهان

آثر النّظمُ الكريم ذكرَ فعل ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ لإفادة تحقُّقِ الوجودِ في الماضي[2]، فالعذابُ والنُّذُرُ ليس مُجرَّدَ احتمالٍ أو تهويلٍ أو تحذيرٍ، بل واقعٌ قد تحقَّقَ بالفعل. وهذا يُضفي صفةَ الثّبات واليقين على ما يُحكى، فيستدعي ذلك في السّامِعين وجوبَ الالتفات للنُّذُر، فهو خطابٌ استمراريٌّ لجميع العباد كي يَعتبروا ممّا حصل لقوم نوحٍ عليه السلام.

نوع الإضافة ودلالتُها:

تعظيم العذاب وتفخيم شأنه

إضافةُ لفظ العذاب إلى ضمير المُتكلِّم في قوله تعالى: ﴿عَذَابِي﴾؛ لتعظيم العذاب وتفخيم شأنه، والإضافة بمعنى (من)؛ أي: عذابٌ صادرٌ مِنَ الجبّار، الّذي لا يَقدِرُ أحدٌ على دفعِه.

دلالة جمع ﴿نُذُرِ﴾ وحذف الياء:

رحـمـةُ الـلـه مُتكرِّرةُ النّزولِ، بـخـلاف عـذابِـه فهو واحد

آثر النّظمُ الكريم جمعَ ﴿نُذُرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ دون الإفراد (نَذيري)؛ إشارةً إلى تكرُّر الإنذار وتنوّع أساليبِه، ومع ذلك لم يَستجيبوا؛ وذلك لبيان الرّحمة الإلهيّة، وحُذِفَ ياءُ المُتكلِّم من (نُذُرِ)، وأصلُه: نُذُري. وحَذفُها في الكلام في الوَقف فصيحٌ، وكَثُرَ في القرآن عند الفَواصل[3].

بلاغة التّذييل:

الاعـتـبـار مـن قِـصـص السّابقين مَنهجُ الـعـقـلاء مِـنَ المؤمنين

جملة: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ واقعةٌ في مَوقِع التّذييل كتذكيرٍ ختاميٍّ وتعليقٍ على القصّة، ليُربَطَ بها الواقعُ الحاليّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 187.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 107.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 187.

للمُشرِكين في عهد النّبيّ ﷺ ، فهي وعيدٌ وتخويفٌ بأنّ العذابَ ليس مَوقوفًا على قوم نوحٍ، بل سنّة ماضية لِمَن كَذَّبَ النُّذُرَ. فالآية تهزُّ القلوبَ، وتوقِظُ الغافِلين، وتَحمِلُ في طيّها تهديدًا بوقوعٍ مثله لِمَن سار على درب المُكذِّبين.

دلالة جملة القَسَم:

القرآن طريق واضح لكلِّ مَن أراد الهِداية

جملة ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ جملةٌ قَسَميَّةٌ[1]، افتتحَت بـ﴿وَلَقَدۡ﴾ للتّوكيد، وفيها معنى القَسَم المَحذوف؛ أي: واللّه لقد يسَّرنا...، وهذا يدلُّ على عظيم العناية الإلهيّة بتبليغ القرآن، وجَعْلِه سهلًا مَيسورًا للاتّعاظ.

نُكْتَةُ تَكرارِ ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ عقب كلِّ قصّة:

اشتمال قصص القرآن على أسباب التّيسير اللّفظيِّ والمَعنويِّ

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ جاء ذِكرُهُ في نهاية كلِّ قصّة في هذه السّورة، والغَرضُ منه: التّقرير والتّأكيد على أنّ كلَّ قصّةٍ من قِصص الأقوام الماضية هي قرآنٌ يُتلى، فيه مِنَ الهداية والإرشاد والاعتبار ما يكون كافيًا للإيمان والاستجابة للحقِّ، كما أنَّ كلَّ قصَّةٍ تشتمِلُ على نوعٍ مِنَ الذِّكر، ولونٍ مِنَ الاعتبار ما يكون مُستقلًّا عن غيرها في خصوصيّات، وإنِ اتّفقَ معها في عموميّات، فكلُّ قصّة تامَّة في مَضمونها الوعظيِّ، وهي قادرةٌ وحدَها على إيقاظ الغافِلين، لكنّ النّاسَ ما زالوا على إعراضهم، فجيء بهذه الجملة مرارًا لتعميق الشّعور بالحَسرة والتّحذير. وفي تكرار الجملة أعقابَ كلِّ قصّة تنبيهٌ على قضيّة التّيسير بالبيان واللّغة. والتّيسير هنا تيسيرٌ لفظيٌّ، ومَعنويٌّ بالعِبَر والأمثال والقِصص، ففيه ردٌّ على مَن يَزعمُ أنّ القرآنَ غامِضٌ أو عَسيرٌ، بل فيه كلُّ وسائل البيان والتّأثير. ولا يخفى ما في هذا التّذييل المَكرور من جمال الإيقاع،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 83.

فالتَّكرارُ نفسُه أسلوبيًّا يُؤسِسُ إيقاعًا مُتدرِّجًا مُتناميًا يَثبت في السَّمع والقلب، ويَتماشى مع مَقصِد السّورة: الإنذار، والتّذكير، والتّهديد بالمصير(1).

نُكْتَةُ تَكرارِ ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾:

قوله تعالى: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ جاء بعد قوله: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾، ثمّ جاء بعد قوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ تعقيبًا على قصص السّورة، ففي السّياق الأوّل: جاءَت هذه الجملة بعد ذكر غرقِ قوم نوح ونجاةِ نوح بالسّفينة، فقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ﴾؛ أي: أبقيناها دليلًا باقيًا في الأرض، إمّا السّفينةُ نفسها، وإمّا قصّتها في التّاريخ والقرآن(2). والوظيفةُ البلاغيّةُ هنا للجملة أنّها بمثابة تعجُّبٍ إنكاريٍّ توبيخيٍّ: كيف تبقى الآيةُ قائمةً ظاهِرةً، ومع ذلك لا يَعتبرُ أحدٌ؟ والمُعاتَبةُ هنا مُتعلِّقةٌ ببقاء الأثر الحِسّيّ أو التّاريخيّ وعدم الاعتبار به. وفي السّياق الثّاني: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ تأتي بعدَ نهاية كلِّ قصّةٍ (عاد، ثمود، قوم لوط)، حيثُ يُبرِزُ فيها تيسيرَ القرآن للاتّعاظ، بدلًا من بقاء آثارٍ حِسّيّة كما في قصّة نوحٍ. فالوظيفةُ البلاغيّةُ لجملة ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ حينئذٍ أنّها بمَثابة تقريعٍ جديدٍ، لكنّه أشدُّ حُجَّةً؛ لأنّه مُرتبطٌ الآن ببيان اللّه نفسِه في القرآن، لا بآثارٍ ماضية. فالآيةُ الكُبرى الآنَ ليسَتِ السّفنَ ولا الرّياحَ ولا الصّواعقَ، بل القرآنُ ذاتُه، وفيه إلزامٌ عقليٌّ ووجدانيٌّ أقوى وآكَد(3).

تقريعُ العقول بتأمُّل المَنقول لتحقيق الحقِّ فيما جاء به كتابُ الحقِّ

بلاغة الاستعارة المَكنيّة في لفظ ﴿يَسَّرۡنَا﴾:

في قوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾ شبّهَ سرعةَ حصولِ التَّذكُّر عند سماع القرآن، وسهولةَ الانتفاع به، بمَنفعةٍ جاهزةٍ

الهداية لا تُنال إلّا بالسّعي إليها بجِدٍّ وإخلاص

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 83.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 165، وابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 272.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 190.

ومُيسَّرةٍ لطالبها، فيكون التّيسيرُ استعارةً مَكنيّةً؛ لأنّ الذِّكرَ ليس مالًا ولا مَتاعًا مادّيًّا، بل شُبِّهَ بمَتاعٍ مُيسَّرٍ للآخذ، وفي لفظ ﴿يَسَّرْنَا﴾ تخييلٌ يَرْسُمُ في الذّهن صورةً مَحسوسةً لمعنًى مَعقولٍ، فقوله سبحانه: ﴿يَسَّرْنَا﴾ يُؤذِن بصورة من تيسير المَتاع، وتقريب الطُّرق، وتذليل العَقباتِ، فيتخيل السّامِعُ كأنّ القرآنَ شيءٌ مادّيٌّ قد ذُلِّلَت طرقُ الوصول إليه[1].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 190.

﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٢٢﴾ [القمر: 18 - 22]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من نزع قوم نوحٍ بالمياه إلى نزع عادٍ بالرّيح

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ قصّةَ نوحٍ عليه السلام فيما اشتملَت عليه مِنَ الهول العظيم، نشأ في نفس السّامع توهُّمُ أنّ أحدًا بعدَهُم لن يَجترِئَ على التّكذيب، خصوصًا إذا أُرسِلَ إليهم رسولٌ، فحَصَلَ التَّشوّفُ لِمعرفة ما جرى بعدَهم، فجيء بقصّة عادٍ، وهي أعظمُ ما وقع بعد نوحٍ فيما عرفَه العَربُ؛ ليكونَ في ذلك عِظةٌ لهم، وقد كان عذابُهم بالرّيح الّتي أذهبَت جبالَهم الرّمليّةَ، ممّا يُقرِّبُ تصوّرَ تسييرِ الجبالِ يومَ القيامة، ويشير إلى أهوال النّفخ في الصّور، فافتتح القصّة بقوله: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾؛ أي: كذَّبوا رسولَهم هودًا عليه السلام، وتكذيبُهم به كان تكذيبًا بدعوةِ اللّه وإنذارِه[1]. كما أنَّ ذكرَ قصّة عادٍ حصلَت بعد قصّةِ قومِ نوحٍ عليه السلام باعتبار التّرتيب الزّمانيِّ، وفي التّرتيب بيانُ الانتقال من عذاب الغَرق بالماء الّذي جاءَهم من فوقهم ومن تحتهم، إلى عذاب الرّيح الّتي جاءَتهم من فوقهم، وحرَّكَتِ الرّمالَ من تحتهم، فقومُ نوحٍ نُزِعوا من أرضهم بالماء، وعادٌ نزعوا من أرضهم بالرّيح الصّرصر.

شَرْحُ المُفْرداتِ:

1) ﴿صَرۡصَرٗا﴾: أصل (صَرّ) يدلُّ على بَردٍ وصوتٍ. ومنه: الصِّرّ:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 114.

البَرد. والصَّرّة: شدَّة الصّياح[1]. والصَّرْصَر: الرّيحُ العاصِفَةُ الّتي يكونُ لها صَرْصَرَة؛ أي: دَويٌّ في هُبوبِها؛ من شِدَّةِ سُرعَةِ تَنَقُّلِها، والتَّضعيفُ فيه للمُبالَغةِ في شِدَّتِها[2]، مأخوذٌ مِنَ الصِّرّ: وهو البَردُ الّذي يَصُرُّ؛ أي: يَجمَعُ ويَقبِض، فيجعل الأشياء تتقبَّض وتتجمَّد[3]. والمراد هنا: ريحًا شَديدة البَردِ والصَّوت والعُصوفِ، حَتّى كانَت تُجَمِّدُ البَدَنَ ببَرْدِها، فتَكونُ كأنَّها تَصُرُّهُ - أي: تَجْمَعُهُ - في مَوضِعٍ واحِدٍ فتَمنَعُهُ التَّصَرُّفَ بقوَّته[4].

2) ﴿نَحْسٍ﴾: أصل (نحس) يدُلُّ على خِلافِ السَّعْد[5]. ومنه النَّحْسُ، بالفَتح: الأمرُ المُظلِمُ[6]. والعَرَبُ تُسَمّي الرّيحَ الباردةَ إذا أدبرَتْ نَحْسًا. وقيل: هو الرّيحُ ذاتُ الغُبار[7]. وقيل: الغُبارُ في أقطارِ السَّماءِ إذا عكَف الجَدْبُ عليها[8]، وحقيقته أن يحمرَّ الأفقُ فيصير كالنُّحاس؛ أي: لَهَبٍ بلا دُخان، فصار ذلك مثلًا للشُّؤْم[9]. ويومٌ نَحسٌ: شَديدُ الحَرِّ كثيرُ الرّياح والعَجاج[10]، ومعنى النَّحْس: سوءُ الحالِ، وأُريدَ بـ ﴿يَوْمِ نَحْسٍ﴾: شُؤْمٍ وشَرٍّ[11]. وهو أوَّلُ أيّامِ الرّيحِ الَّتي أُرسِلَت على عادٍ، إذ كانت سبعةَ أيّام إلّا يومًا[12].

3) ﴿تَنزِعُ﴾: أصلُ (نزع) يدلُّ على قَلْعِ شيءٍ وإزالته[13]. النَّزْعُ: الإزالَةُ بعُنفٍ؛ لِئَلّا يَبقى اتِّصالٌ بَينَ المُزالِ وبَينَ ما كانَ مُتَّصِلًا بهِ، وانتزَعَ الشَّيءُ: انقلَعَ[14]، والنَّزْعُ عنِ الشَّيء: الكَفُّ عنه، والنُّزوعُ: الاشتياق الشّديد[15]، ومعنى النَّزع في الآية: الإزالة للشَّيء بعُنفٍ، حتَّى يزولَ عن آخره، وينفصل عمّا كان مُتَّصِلًا به[16]. والمراد هنا: تَقلَعُهُم من مَواضِعِهم[17].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صر).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 24/ 259.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 9، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صرصر).
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 17/ 163، 19/ 114.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نحس).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (نحس).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نحس).
(8) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (نحس).
(9) الرّاغب، المفردات: (نحس).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (نحس).
(11) الثّعلبي، الكشف والبيان: 25/ 277.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نحس).
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزع).
(14) ابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(15) الرّاغب، المفردات: (نزع)، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 193.
(16) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 107.
(17) الواحديّ، الوجيز، ص: 1047.

4) ﴿أَعْجَازُ﴾: أصل (عجز) يدلُّ على مُؤَخَّرِ الشَّيءِ. واحِدُه: عَجُز[1]. ومنه عَجُزُ الإنسانِ: مُؤَخَّرُهُ، وبه شُبِّهَ مُؤَخَّرُ غيرِه[2]. وفلانٌ عِجزةُ ولدِ أبَوَيه؛ أي: آخِرُهم[3]. فالعَجْزُ حقيقتُه التَّأخُّرُ عنِ الشّيء، وحصولُه عند عَجُزِ الأمرِ؛ أي: مُؤخَّرِه، كما ذُكِر في الدّبر، وصار في التّعارف اسمًا للقصور عن فعل الشّيء، وهو ضِدُّ القُدرة[4]. وأعجاز النَّخل: أصولُها الَّتي تقومُ عليها. والمراد بها هنا: النَّخل بتمامِه ما عدا الفروع[5].

5) ﴿مُّنقَعِرٍ﴾: أصلُ (قعر) يدلُّ على هَزْم في الشَّيء ذاهِبٍ سُفْلًا[6]. ومنه القُعْرُ: الوَهدَة في الرَّملِ، وكذلك القَعْرُ، وجمعُه قعرَةٌ. وقَعْرُ الشَّيء: نهايةُ أسفله[7]. والقَعّوْرُ: بئرٌ عميقةٌ[8]. وقَعَرَ النَّخلَةَ والشَّجرةَ: قطَعَها مِن أصلها، فسَقَطت. وانْقَعَرَت هيَ: انجَعَفَتْ من أصلها وانصرعَت[9]. ويُقالُ: قَعَرْتُ النَّخلَةَ: إذا قَلَعْتَها مِن أصلها حتَّى تَسقُطَ[10]. وقال بعضُهم: معنى انْقَعَرَتْ: ذهبَت في قَعرِ الأرض، وإنَّما أراد تعالى أنّ هؤلاء اجتُثّوا كما اجتُثّ النَّخل الذّاهبُ في قَعْرِ الأرضِ، فلم يبقَ لهم رسمٌ ولا أثرٌ[11].

❁ المَعْنى الإجْمَاليّ:

إهــلاكُ عــادٍ
إنـذارٌ للمُكذِّبين
وتـثـبـيـتٌ
للمُؤمنين

تُبيِّنُ الآياتُ الكريمةُ تكذيبَ عادٍ رسولَها، وكيف طلبَت منه أن يأتيَهم بالعذاب الّذي وعدَهُم به إنْ كان صادقًا، فأرسلَ اللهُ عليهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عجز).
(2) الرّاغب، المفردات: (عجز).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عجز).
(4) الرّاغب، المفردات: (عجز).
(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 107.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قعر).
(7) الرّاغب، المفردات: (قعر).
(8) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (قعر).
(9) ابن سِيده، المُحكم: (قعر).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قعر)، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 105.
(11) الرّاغب، المفردات: (قعر).

ريحًا صرصرًا عاتيةً، استمرَّت سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيّام مُتتابِعةٍ، شُؤمًا وعذابًا، تَقلَعُ النّاسَ من أماكنهم، وتَصرَعُهم بشدّةٍ حتّى تَنفصِلَ رؤوسُهم عن أجسادهم، فيَبْدون بأجسامهم الضّخمة كأنَّهم أعجازُ نَخلٍ مُنقعِرةٍ، ساقطةً على الأرض بعد اقتلاعها، ثمّ جاء الاستفهامُ التّحذيريُّ التّهديديُّ: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؟ ليُفهَمَ منه شدّةَ ما أُنزِلَ بهم، وأنّ هذا جزاءُ المُكذِّبين بالرُّسُل، وتُختَمُ الفِقرةُ مرّةً أخرى ببيان نعمة اللّه في تيسير القرآن لِلحفظ والتَّذكُّر، فهو سبيل النَّجاةِ لِمَن وعَى واتَّعظ، فهل مِن مُدَّكِر[1]؟.

الإيضاحُ اللّغَويّ والبَلاغِيّ:

علّةُ فصل جملة ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾:

مَوقِعُ ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كمَوقِع جملة ﴿۞ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾، فهي استئنافٌ بيانيٌّ؛ فكان مُقتضى الظّاهر أن تُعطَفَ عليها، وإنّما فُصِلَت عنها ليكونَ في الكلام تَكريرُ التّوبيخ والتّهديد والنّعي عليهم عَقِبَ قوله: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ٥﴾ [القمر: 4، 5]، ومَقامُ التّوبيخ والنّعي يقتضي التّكريرَ[2].

التَّكرار والانفصال بين القَصص توثيقٌ لِمَوضِع كلِّ قوم مِنَ التّهديد

دلالة التّصدير بصيغة الماضي:

صُدِّرَتِ الجملةُ بالفعل الماضي ﴿كَذَّبَتۡ﴾؛ لبيان سبق جريمتهم وثبوتها التّاريخيّ، وسُجِّلَت حَدَثًا مُنفصِلًا يستحقُّ الذّكرَ بذاته، وليكونَ عنوانًا لهم على مدى الزّمان إلى يوم القيامة، فيرتبطَ عنوانُ التّكذيب بالمُجرِمين في الأرض، فهُمُ المُكذِّبون على الحقيقة.

الذّنوبُ العظيمةُ آثارٌ يُثبتها التّاريخُ، وتلتصِقُ بصاحبها

بلاغةُ العموم بذِكر اسم القبيلة:

أسند النّظمُ الكريمُ فعلَ التّكذيب إلى عادٍ، مع أنَّ المُكذِّبين هم

---

(1) أبو بكر الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 210.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 191.

أغلبُ القوم لا جميعُهم؛ فالحُكمُ على عادٍ بالتّكذيب عمومٌ عُرفيٌّ، بناءً على أنّ معظمَهم كذّبوه، وما آمنَ به إلّا نَفَرٌ قليلٌ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: 58](1)، والعموم باعتبار أنَّ المُكذِّبين كانوا هم أصحابُ السّطوةِ والسّلطةِ، والكلمةِ الفَصْل في مُحاربة دين الله تعالى، ورضي عمومُ النّاس بما كان، فكان للمُؤمنين حُكمُ الاستثناء.

تكذيب المَجموع بالحقِّ حكمٌ على جميعهم به

نُكْتَةُ ذِكرِ اسم القبيلة دون نسبتها لنبيّها:

مَن شُهر بالباطل صار اسمُه علَمًا على الباطل

لم يقُل في السّياق الكريم: (كذّبَت قومُ هودٍ) كما قال: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ﴾؛ وذلك لأنّ قومَ نوحٍ ليس لهم اسمُ قبيلةٍ حفظَه التّاريخُ لهم بعدَ الطّوفان؛ فعُرِفوا بالعنوان الإضافيّ: ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾، وهو تعريفٌ غيرُ عَلَميٍّ لكنّه يحقِّقُ التّعريفَ بالانتماء إلى نبيّهم، أمّا ﴿عَادٌ﴾ فلها اسمُ عَلَم قَبَليٍّ مَعروف، وهو أدلُّ على تعيينهم وتشهيرهم في التّاريخ، فذُكِروا باسمهم ﴿عَادٌ﴾، وهذا أبلغُ في تقريع المُخاطَبين وفضحِ الماضين؛ لأنّ اسمَهم العَلَم صار عَلَمًا على التّكذيب(2)، فكأنّه قيل: كذَّبَتِ الأمّةُ المَشهورة بتلك الجريمة.

نُكْتَةُ حذفِ مَفعول التّكذيب:

إذا حضرتِ العِبرةُ فلا حاجةَ لذكر التّفاصيل المَعلومة

حُذِفَ مَفعولُ فعل ﴿كَذَّبَتْ﴾، والتّقدير: كذَّبَت عادٌ هودًا. فالمقصودُ التّكذيبُ بهودٍ عليه السلام، لكن لم يُذكَر صراحةً، لثلاث نُكَت: الاختصار: لأنّ المَقامَ ليس مَقامَ تفصيلٍ لقصّة هودٍ، بل هو مَقام إيجازٍ يركِّز على العِبرة والعذاب(3). ولذلك لم يقُل: (فكذَّبوا هودًا) كما قال في قصّة نوحٍ: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا﴾؛ لأنَّ تكذيبَ قوم نوحٍ أبلغُ؛ لطول مَقامِه فيهم، وكَثرةِ عِنادِهم(4). كما أنّ حكايةَ (عاد) مذكورةٌ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 191.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 301، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 83، 84.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 84.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 13/ 296.

هاهنا على سبيل الاختصار، فلم يَذكُر إلّا تكذيبَهم وتعذيبَهم، فقال: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾ كما قال: ﴿۞كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ﴾، ولم يَذكُر دعاءَه عليهم وإجابتَهُ كما قال في نوح[1]، ففيه إيجازٌ بالحذف الّذي يَفتَرض أنّ السّامِعَ على عِلمٍ بالقصّة، فهو حذفٌ يُغني عنِ التّطويل، ويُحفِّزُ الذّهنَ على استحضار مُجريات القصّة بنفسه، والمُسارعة إلى مَوضِع العِبرة، فالقَصْدُ ليس عرضَ الجَدَلِ بينهم وبين نبيّهم، بل الانتقالُ مُباشرةً إلى العقوبة الّتي توجِبُ الاتّعاظَ وهي قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾.

نُكْتَةُ تقديمِ جملة ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وتَكرارها:

توزيعُ الأمر بالاعتبار عَقِب ذِكرِ العِلّة وبعدَ بيانِ العقوبة إيماءٌ إلى التّشابُه بين الأقوام

جاء قولُه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ بعد قوله: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾ تفريعًا على تكذيبهم، قبلَ ذكرِ نوعِ العذابِ وبعدَ ذكرِه، بخلاف المَواضِع السّابقة واللّاحقة، حيث اقتُصر على ذِكر الجملة بعد ذِكرِ العذاب، وفائدةُ التّقديم: التّنبيهُ على عِلَّة العذاب، وإثارةُ انتباهِ السّامعِ قبلَ أن يُلْقَى عليه وصفُ العذاب الغريب؛ ليتهيأ لِسماعه، ويُصغي له، كأنّه قيل: (كذَّبَت عادٌ، فانتبِه الآن، واستمعْ كيف كان عذابي)، ممّا يُثيرُ ترقُّبًا وتشويقًا، وهذا لا ينفي التّهويلَ، بل يقوّيه؛ لأنّ العذابَ الّذي أُتوا به نادرٌ وغريبٌ؛ أي: عذابٌ بالرّيح العاتية القاصِفة، لا مثيلَ له في الأمم الأخرى، فالسّياق يستدعي تقديمَ التّهويل[2]، وفائدة التَّكرار: الجريُ على سُنَن القَصص في هذه السّورة، مِنَ التّنبيه على شديد العذاب الواقِع عليهم، وتوزيع الأمرِ بالاعتبار عَقِب ذِكْرِ العِلّة وبعدَ بيان العقوبة، إيماءً إلى التّشابه بين الأقوام، فعادٌ تُشبهُ قبيلةَ قريشٍ والعَربَ في البُعْدِ القَبَليِّ، والعلاقةِ العشائريّة، وأثرِ القَرابةِ والعاداتِ والتّقاليدِ في توجيه النّاس، وزرعِ الاعتقاداتِ في أذهانهم.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 301.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 301، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 84.

بلاغة الاستفهام ودلالتُه:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي﴾ مَجازٌ مُرسَلٌ لعلاقة الإطلاق والتّقييد، يُرادُ به التّشويق؛ لأنّ الجوابَ على هذا الاستفهام لا يأتي مباشرةً، بل يتأخَّرُ إلى ما بعدَهُ، فالسّياقُ يستبقي ذهنَ السّامعِ مُعلَّقًا مُنتظِرًا الجوابَ. وهذا من أقوى أساليب التّشويق في البلاغة، وهو أيضًا مُكنّى به عن تهويل ذلك العذاب، وفي هذا الاستفهام إجمالٌ لحال العذاب، وهو إجمالٌ يزيد التّشويقَ إلى ما يُبيِّنه بعدَه من قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [النّبأ: 1]، ثمّ ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [النّبأ: 2][(1)].

إذا سبق الوعيدُ التّفصيلَ عظُمَ الأثرُ في القلب

بلاغةُ المَجاز بحَذْف المُضاف:

حُذِفَ المُضافُ في قوله تعالى: ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، والتّقدير: (عاقبة عذابي أو أثر عذابي)؛ وذلك لتهويل أمر العذاب، إذِ المَقصودُ أثرُ العذاب لا العذابُ نفسه، فهو ما ينبغي أن يُلتفتَ إليه بما يترتَّبُ عليه من تحقيق الوعيد؛ أي: كيف كان عذابي؟ وكيف تحقَّقَت نُذُري الّتي سبقَتِ العذاب[(2)]. وهذا التّقدير يُرادُ به الجمعُ بين التّحذير قبلَ وقوعِ العذابِ والجزاءِ بعدَه.

التّحذيرُ المُشفِقُ يَجمعُ بين الوعد والواقع

فائدة تتابُع المُؤكِّدات:

التّأكيدات في جملة: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾ للمبالغة في تحقُّق مَضمون الجملة[(3)]. فـ(إنّ) لتوكيد مَضمون الجملة، ودفعِ توهُّم الإنكار أو الاستبعاد مِنَ السّامِعين. وضمير العَظمة (نا): يفيدُ التّعظيمَ والتّهويلَ؛ أي: أنّ الفعلَ صادرٌ مِنَ اللّه تعالى بعظمته وجلاله، ممّا يُضاعِفُ هولَ العذاب. والفعل الماضي ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾

إظهارُ تحقُّق العذاب، وتهويلُ شأنه، وتعظيمُ أثرِه

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 191.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 191.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 323.

لِلتحقُّق والوقوع المُنجَز؛ أي: أنَّ الأمرَ قد تمَّ فعلًا لا محالة. وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾؛ للاهتمام والاختصاص؛ أي: أنَّ العذابَ مُسلَّطٌ عليهم هم بالذّات دون غيرهم، فالآيةُ مُحكَمةٌ في تأكيد أنَّ العذابَ واقعٌ بهم من عند اللّه، مُؤكَّدٌ، مُتحقِّقٌ، مَخصوصٌ بهم، لا مَهرَبَ منه.

علّة فصل جملة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾:

بيانُ العذاب يكشِفُ فداحة التّكذيب، ويُفصِّلُ مَوضِعَ الإجمال

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ بيانٌ لقوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، فالجملةُ بيانٌ وتفسيرٌ لِما أجملَه سابقًا مِنَ العذاب، فهي من باب كمال الاتّصال، وتحتمل أن تكونَ استئنافًا لبيان السّابقة، فهي بيانٌ للإجمال، فهي من باب شبهِ كمال الاتّصال[1].

نُكْتَةُ الاكتفاء بجملة البيان بحال العذاب دونَ الإنذار:

إرسالُ العذاب نتيجةٌ من ورائها سببٌ، وهو عدمُ الانتفاع بالإنذار

جملة البيان ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ بيّنت حالَ العذاب دون حالِ الإنذار؛ لأنّ الإنذارَ قد فُهِم مِنَ التّكذيب، فلا تكذيبَ إلّا بعدَ الإنذار، فكان مِنَ الإيجاز والاقتصاد في اللّفظ أن يُكتفى بهذا التّضمين البلاغيّ في قول اللّه تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾، فلم يَذكُر مَن كذَّبوه اكتفاءً بوضوح المعنى في أنّهم كذَّبوا نبيّهم هودًا عليه السلام[2].

فائدةُ تعديةِ فعل الإرسال بحرف الاستعلاء:

تصوير الرّيح قوّةً عُلويّةً قاهرةً نازِلةً بإحاطة، تُبرز شدّةَ العذاب وسرعة التّدمير

عُدّيَ فعلُ الإرسالِ بحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ﴾ إعلامًا بالنّقمة[3]، وإيذانًا بإشراف العذاب عليهم واستعلائه؛ أي: أنَّ الرّيحَ جاءَت من فوقهم مُسلَّطةً قاهرةً، وتنبيهًا على إحاطة العذاب وإطباقه، فالعذابُ لم يَمُرَّ بهم مرورًا، بل

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 84، والقنّوجي، فتح البيان: 13/ 296، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 191.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 192.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 114.

غشيَهم وأحاطَ بهم. وفي حرف الاستعلاء إفادةُ التَّمكُّنِ مِنَ النِّكاية، فالعذابُ مُسيطِرٌ عليهم، لا يَملِكون منه فرارًا ولا دفاعًا.

تعيين مَرجِع الضّمير ودلالتُه:

العـذاب واقـع عـلى المُـكـذِّبـين مختصّ بهم

تعديةُ الإرسال في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ إلى ضميرهم، هي كإسناد التّكذيب إليهم بناءً على الغالب، وقد أنجى اللّهُ هودًا والّذين معه، أو هو عائد إلى المُكذِّبين بقرينة قوله: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾[1].

غرض تنكير لفظ ﴿رِيحٗا﴾:

ريــح عظيـمة هائلة، لا تُدرَك حقيقتُها من شدّتها

نُكِّر لفظ ﴿رِيحٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا﴾؛ للتّفخيم والتّعظيم؛ أي: ريح هائلة، لا تُدرَك حقيقتُها من شدّتها، ولا عهدَ للنّاس بمثلها.

بلاغة استعمال مُفردة ﴿صَرۡصَرٗا﴾:

اجتماعُ أوصافٍ عـديـدة في لفظٍ واحـدٍ أوكـدُ في تـهـويـل مَـوقِـف العذاب

وَصْفُ الرّيحِ بـ﴿صَرۡصَرٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ جاء لتقرير أنّ الرّيحَ كانَت في غاية الشّدّة، فهي باردةٌ مُدمِّرةٌ تَحرقُ بشدّة بردها، وشديدة الصّوت تُرعِب وتُزلزِل القلوبَ، فجَمَعَ في وصفٍ واحدٍ بين شدّة البرد وهولِ الصّوت؛ لزيادة تهويلِ العذاب[2]. ولو ذَكَرَ أنّها ريحٌ باردةٌ أو شديدةٌ، لَما أفادَ هذه المعاني مُجتمِعةً.

دلالة إضافة اليوم إلى الصّفة:

تعليق الأحكام بما يُقدِّره اللهُ، لا بذات الزّمان

الإضافة في قوله تعالى: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ﴾ من باب إضافة الزّمان إلى ما يقعُ فيه، مثل: يوم الفتح، يوم القيامة، يوم التّلاق؛ أي: هو يومٌ وُصِفَ بما حَدَثَ فيه. فالنّحس ليس صفةً ذاتيّةً لليوم، وإنّما صفةٌ لِما جرى فيه من عذابٍ على الكافرين، فصار يومًا مَنحوسًا بالنّسبة إليهم، لا في ذاته. وهذا يفيد أنّ الزّمانَ بريءٌ مِنَ النَّحس والسَّعد،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 192.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 114.

وإنّما النّاسُ هُم مَن يرَون فيه شؤمًا أو خيرًا، بحسب ما يُصيبُهم فيه، وهذا يُردُّ على اعتقادات الجاهليّة ومَن شابههم في التّشاؤم بالأيّام. فاليومُ الواحِدُ قد يَحمِلُ عذابًا لقومٍ ورحمةً لآخرين(1).

بلاغة المَجاز العقليّ ودلالاته:

النّحس معنًى قائمٌ في الزّمان

إضافة ﴿يَوۡمِ﴾ إلى ﴿نَحۡسٖ﴾ مِنَ المَجاز العقليِّ، فـ(النَّحس) في الحقيقة صفةٌ لِما يقعُ في اليوم من شقاءٍ أو عذابٍ أو بلاءٍ؛ أي: صفةٌ للحوادث لا لليوم نفسِه. لكنّ الآيةَ أضافَت (النّحس) إلى اليوم، فوُصِفَ اليوم بالنّحس، وهذا نقلٌ للصّفة من مَحلِّها الحقيقيِّ (الحدث) إلى غيره (الزّمان)، فيُعدُّ مَجازًا عقليًّا. وبلاغةُ هذا المَجاز تظهرُ في نواحٍ عدَّةٍ؛ منها: التّكثيفُ والتّصويرُ المَجازيُّ، فكلُّ لحظةٍ في ذلك اليوم مَشؤومة، وإشاعة الجوِّ النّفسيِّ المُخيف؛ فالمَجازُ العقليُّ يُنتِجُ جوًّا نفسيًّا مِنَ الرّهبة، وإبرازِ شمولِ العذابِ وامتدادِه، فنَقلُ النَّحسِ إلى (اليوم) كلِّه يوحي بأنّ النّكبةَ لم تكُنْ لحظةً عابرةً، بل استغرقَتِ الزّمانَ كلَّه، والتّحقيرَ والسّخرية مِنَ القوم، فعذابُهُم صار يومًا مَشهورًا في سجلِّ الزّمان بالنَّحس، وذلك يُرسِّخُ خِزيهم في الذِّهن، ويَجعلُ من مُصيبتِهم عِبرةً تاريخيّةً بارزةً.

بلاغة الوصف في قوله: ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾:

أشدُّ العذابِ ما استمرَّ إلى حين تتميم المَقصِد

أفاد وصفُ النّحس بـ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾ في قوله: ﴿يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ توكيدَ أنّ الشَّرَّ الّذي وقَعَ لم يكُن لحظةً طارئةً، بل كان قويًّا في ذاته؛ أي: نَحسًا بلغَ غايتَه في الشُّؤم. وهو ماضٍ نافِذٌ في أمره؛ أي: ليس عارِضًا يمكن دفعُهُ أو التَّراجُعُ عنه، بل هو تنفيذ إلهيّ حاسم. وكونه مُستمِرًّا يجعلُهُ دائمَ الأثر حتّى تمام الانتقام؛ أي: استمرّ النَّحسُ حتّى استأصلهم. والغايةُ البلاغيّةُ في ذلك: أنّ المَقصودَ باليوم ليس المُفرَدَ، بل الجنس؛ أي: أيّام العذاب المُتتابِعة، فوَصفُ يومِ النّحس

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 192، 193.

بـ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾ يُفهَمُ منه الامتدادُ الزّمنيُّ للعذاب، واتصالُه بلا انقطاع حتّى تَمامِ النِّقمة. كما أنّ لفظَ ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾ يومِئُ بأنّ النّحسَ لم يكُن فقط في الزّمان بل في القَدَر؛ أي: في طبيعة ما أصابَهم، فيتأكَّدُ بذلك أنّ العذابَ كان شامِلًا من حيثُ الزّمانُ والأثرُ والقَدَرُ معًا(1).

الدّلالة المَجازيّة لصفة ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾:

تشخيصُ الزّمان وتصويرُ الوقت بالدّوام تهويلٌ لوقع العذاب

على جَعْل قولِه: ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾ صفةً ثانيةً لليوم، فنِسبةُ الاستمرار إلى اليوم مَجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ الأصلَ أنّ (اليوم) لا يستمرُّ؛ لأنّه وحدةٌ زمنيّةٌ مَحدودةٌ، فالمرادُ: استمرارُ أثرِه أو نَحْسِه أو عذابِه، لا استمرار الزّمانِ نفسه، فهو مَجازٌ عقليٌّ بإسنادِ الصّفةِ إلى ظرفِ ما يستحقُّها. فالصِّفة هي: ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾، والمُستحِقُّ لها في الحقيقة هو: النَّحس أو العذاب الّذي حَصَلَ في اليوم، لكنّها أُسنِدَت إلى (اليوم)، وهو الظّرف. فصار التّعبيرُ مَجازًا عقليًّا؛ لأنّ الصّفةَ نُسِبَت إلى غير ما تستحقُّه في الحقيقة(2).

تنوّع الدّلالاتِ للفظ ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾:

العذابُ الثّقيلُ المُحكَمُ يُحَسُّ كما تُحَسُّ المَرَارة

يحتمل أن يكونَ ﴿مُّسۡتَمِرّٖ﴾ بمعنى مُحكَم؛ أي: دقيق في إنفاذ العذاب، كما في قولهم: أمرٌ مُستمرٌّ؛ أي: نافذٌ لا خللَ فيه. ويحتمل أن يكونَ بمعنى: (شديد المَرارة)، فيكون مَجازًا عن هول اليوم وبشاعته، إذ لا طَعَمَ لليوم، ولكن قُصِدَ بـ(مَرارته) ما فيه مِنَ الشِّدّة. وهذه استعارةٌ شُبِّه فيها اليومُ أو العذابُ بشيءٍ مُرِّ الطّعم، فأثبتَ له (المَرارة) تجسيدًا لشِدّة الأذى. وهذه استعارةٌ مَبنيّةٌ على تشبيهِ مَعنويٍّ بحِسّيٍّ، وهي أوضحُ ضروب البلاغة؛ لأنّها تنقلُ الإحساسَ من مُستوى التّجريد الذّهنيِّ إلى مُستوى التّذوُّق الجسديِّ، فتجعل

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 115، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 84.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 84، والقنّوجي، فتح البيان: 13/ 296.

المُخاطَبَ كأنّه يَتذوّقُ العذابَ[1]، ولا مانعَ من إرادة الجميع، فأشَدُّ العذابِ وأكثرُهُ مَرارةً هو ما أُحكِمت فيه أسباب نفاذ العذاب.

بلاغة الاستئناف البيانيّ:

إذا نزل الأمرُ الإلهيّ تلاشَتِ الحصون

جملة: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لإرسال الرّيح عليهم، وقعَت جوابًا لسؤالٍ مُقدَّرٍ: فماذا فعلَت بهم تلك الرّيح؟ وكيف أثّرت فيهم؟ فأُجيب بجملة: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ﴾.

بلاغة التّعبير بمُفردة النّزع:

الرّيحُ وحدَها كافيةٌ في هدم أسطورة القوّة

التّعبيرُ بمُفردة النّزع في قوله: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ هو تصويرٌ للعُنف والقوّة في إصابةِ الرّيح إيّاهم، بما يدلُّ على أنّ الرّيحَ كانت تقتلِعُهم اقتلاعًا، والنّزعُ فيه شدّةٌ وتكلُّفٌ ومُقاومةٌ[2]. وعِلّةُ أخذِهم بكيفيّة النّزع: التّنبيهُ على عَجزِهم التّامِّ عن مُقاومة الرّيح، وأنّها كانَت أقوى من كلِّ قويٍّ فيهم، وأقوى من جميع أسبابهم في القوّة، فمَن كان على وجهِ الأرضِ أخذَته، ومَن احتمى منها بمانعٍ أو ساترٍ أو بنيانٍ أو خندقٍ أخذَته واقتلعَته، فلا صمودَ لهم أمامَها بوجهٍ مِنَ الوجوه[3].

بلاغة الإظهار في مَقام الإضمار:

الإهلاكُ لا يخصُّ بل يَعمُّ ويَغُمُّ

آثر النّظمُ الكريمُ إظهارَ المفعول ﴿ٱلنَّاسَ﴾ بدلًا مِنَ الضّمير[4]، فلم يقُل: (تنزعهم)، بل جيء بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للتّنصيص على العموم؛ أي: ليشملَ الذّكورَ والإناث، الكبار والصّغار، وكلَّ مَن كان من قوم عادٍ ممّن نزَلَ بهم العذابُ، ولو قال: (تنزعهم) لَتوهِّمَ إرادةُ أكابرِ المُجرمين مِن عادٍ. وهذا من بلاغة القرآن؛ لأنّ الضّميرَ قد يُتوهَّمُ منه التّخصيصُ أو الإشارةُ إلى المَذكورين سابقًا، أمّا إيرادُ الاسم الظّاهرِ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ففيه إظهارٌ في مَقام الإضمار،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 115، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 84.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 304، وابن عادل، اللّباب: 18/ 257.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 115.

(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 96.

يُفيدُ التّهويلَ والتّعميم، والتّنبيهَ على أنّ الرّيحَ لم تُبقِ منهم أحدًا، فالجميعُ نُزِعوا بقوَّةٍ. كما أنّه يُهيّئُ المَشهَدَ لارتباطهم بصورة ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾؛ ليتمَّ التّخييلُ كاملًا بذِكر الهيئة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ ثمّ المشبَّه به (أعجاز النّخل).

بلاغة المَجاز العقليّ:

تصويرُ الرّيح بأنّها تحوَّلَت إلى أداة ذاتيّةٍ تتولّى اقتلاعَ النّاس

أُسند فعلُ النّزع في قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ إلى الرّيح، والفاعلُ الحقيقيُّ هو اللّه ﷻ، إذ هو الّذي يُجري الرّيحَ، ويجعلُها سببًا للإهلاك، وإسنادُ الفعل إلى الرّيح مَجازٌ عقليٌّ يُؤذِنُ بشِدّة مُباشرتِها للعذاب، كأنّها فاعِلةٌ بذاتها، ففي الإسناد تصويرٌ مَحسوسٌ لقوَّة الرّيح وفتكِها، حتّى بدَت وكأنّها صاحبةُ فعلٍ مُستقلٍّ، وفائدةُ ذلك: تهويلُ المَشهَد، كأنّ الرّيحَ نفسَها تتولّى اقتلاعَ النّاس وإلقاءَهُم أرضًا، لا مُجرَّد كونها أداةً مُسخّرَةً[1].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾:

تمييزُ المَقصود بالعقوبة دون سائر النّاس

(أل) في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ للعهد الذّهنيّ؛ أي: النّاسَ المَعهودين في سياق القِصّة، وهم قوم عادٍ الّذين أصابَهم العذابُ. وفائدةُ التّعريف: تمييزُ المَقصود بالعقوبة دون سائر النّاس.

بلاغة التّشبيه المُرسَلِ التّمثيليّ:

ألطفُ التّشبيه ما صَوَّرَ الغائِبَ بالمُشاهَد المَحسوسِ لدى المُخاطَبين

في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ تشبيهٌ مُرسَلٌ تمثيليٌّ، حيثُ شُبِّهوا بأعجاز النّخل، وهي أصولُها بلا فروع؛ لأنّ الرّيحَ كانَت تقلَعُ رؤوسَهم، فتُبقي أجسادًا وجُثثًا بلا رؤوس، ويَزيدُ هذا التّشبيهُ قوّةً، أنّهم كانوا ذَوي جُثَثٍ عِظامٍ طِوالٍ. وهذا من تشبيه المَحسوس بالمَحسوس، فالمُشبّهُ هنا (عاد) قومُ هود، والمُشبّهُ به أعجازُ النّخل، وهما حِسّيّان[2].

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 325.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 86، صافي، الجدول: 14/ 73.

وجهُ التّشبيهِ بأعجاز النّخل المُنْقَعِر:

حضورُ صفات المُشبَّه به في المُشبَّه تمثيلٌ للغائب بالحاضر

تشبيهُ (عاد) بعد إنزال العذابِ بهم بأعجاز النّخل المُنقعِر، وهي أصول النّخل، أو جذوعُها الّتي بقيَت بعد انقلاع رأسِها من أصله، يُفهَمُ منه الإشارةُ إلى ضخامة أجسادِهم، فشُبِّهوا بجُذوع النَّخلِ لا الأغصانِ أو الورقِ، وهذا يُذكِّرُ بقول اللّه فيهم: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ٨﴾ [الفجر: 8]. والإشارةُ إلى اقتلاعهم مِنَ الأرض كما تُقتلَعُ النَّخلةُ من أصلها، وهذا يدلُّ على أنّهم كانوا ثابتين في الأرض بثِقلهم أو بمحاولة مُقاومة الرّيح، لكنّها مع ذلك قلعَتهُم بعُنفٍ. فالتّشبيهُ يَجمَعُ بين العُنف في الفعل، والضّخامةِ في المَفعول به، وهو من أروع الصّور الّتي ترسُمُ بشاعةَ العذاب وقوّةَ الرّيح، وتُعزِّزُ التّهويلَ المُرادَ في سياق السّورة[1].

نوع الإضافة ودلالتُها:

إضافةُ الأعجازِ لتصوير السّقوط المَهيب والنّهايةِ المُزلزِلة

الإضافةُ في قوله تعالى: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ﴾ هي إضافةٌ بيانيّةٌ، من قبيل إضافةِ الجُزءِ إلى الكلِّ، إذ أُضيفتِ الأعجازُ إلى النّخل؛ لبيان أنّها أعجازٌ له لا لغيره، وفائدةُ الإضافة: تعيينُ هيئةِ المُمزَّقين المُلْقَين على الأرض بلا رؤوسٍ ولا حركةٍ، في صورة ساقِطين ضخامٍ كأعجازِ النّخلِ بعد اقتلاعها.

عِلّة ذِكرِ الأعجاز دونَ الرّؤوس:

إذا قُلِعَت الرّؤوس، طُمِسَت مَعالِمُ الحياة

في ذكر ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ﴾ دون (رؤوسها) دلالةٌ على الخَواء والخَراب، فهُم بلا روحٍ ولا حياة، أجسامٌ خاويةٌ تسقُطُ ميّتةً، انفصلَتْ عنها رؤوسُها، فلأنّ الرّيحَ كانَت تقلَعُ رؤوسَهم فتُبْقي أجسادًا وجُثَثًا بلا رؤوسٍ، لم يذكُرِ الرّؤوسَ[2]. فهو وصفٌ للواقع الحِسّيِّ الّذي آلَ إليه القومُ بعدَ العذاب، لا مبالغةً في البيان المَعنويِّ.

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 304، وابن عادل، اللّباب: 18/ 257.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 86.

دلالة التّقييد بصفة ﴿مُّنقَعِرٖ﴾:

مَن فُزِّعَ مِنَ الرّوح صار صورةً للموت

آثر النّظمُ الكريم الوصفَ بـ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ في قوله: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾؛ للإشارة إلى أنّ الرّيحَ صَرَعَتهُم صَرعًا تَفَلَّقَت منهُ بُطونُهم، وتَطايَرَت أمعاؤُهُم وأفئدَتُهم، فصاروا جُثثًا فارغةً، وهذا تفظيعٌ لحالِهم، ومُثلَةٌ لهم؛ لِتخويف مَن يَراهُم[1].

عِلّة التّذكير في ﴿نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾:

التّذكير لمناسبة الفواصل

النّخل اسمُ جنس يُذَكّر ويُؤنّث، وقد ذُكِّر الوصفُ في قوله: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾، وأنّث في قوله: ﴿أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ٧﴾ [الحاقة: 7]؛ لمناسبة الفواصل[2].

دلالة التّعبير بـ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ مادّةً وصيغةً:

وَصْفُ الأجسادِ بالاقتلاع الجَذريِّ تصويرٌ لشِدَّة الهلاك واستمراره

التّعبير بمفردة ﴿مُّنقَعِرٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ﴾ يَجمعُ بين دلالة المادّة والصّيغة؛ فمن حيثُ المادّة (قعر): تدلُّ على الاقتلاع مِنَ الأصل، بقلعٍ شديدٍ يَتركُ حُفرةً وأثرًا عميقًا؛ أي: ليس مُجرَّدَ سقوطٍ بل اقتلاعٌ جذريّ عنيف. ومن حيث الصّيغة: (اسم فاعل على وزن مُنفَعِل)، تُفيدُ قيامَ الوصفِ بالذّات؛ أي: أنّ النّخلَ نفسَه في حال الانقِلاع والانقِعار، فهو في صورة ذاتِ حيّةٍ مُتلبِّسةٍ بهذا الحَدَث، فالتّعبيرُ باسم الفاعل وصفٌ لحال الهَلْكَى، بأنّهم في هيئة النّخل الّذي أخذَته قوّةٌ قاهِرةٌ حتّى صار هو بنفسه في حالِ انقلاعٍ واضطرابٍ، فاقتلاعُهم ليس عارِضًا، بل صفةٌ ثابتة مُستمرَّة بهم تصحَبُهم حتّى بعد هلاكهم[3].

نُكۡتَةُ تَكرار قوله: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾:

التّكرار مُؤذِنٌ بتباين المعنى

تكرَّرَ قولُه تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في نفس قصّة عادٍ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 194.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 42.

(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قعر)، وصافي، الجدول: 14/ 73.

مرّتين؛ في المَوضِع الأوّل منها: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، وفي المَوضِع الثّاني فيها: ﴿كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ۝٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾. وغرضُ التّكرار: التّهويلِ والتّفخيم، فتكرارُ الجملةِ يُرادُ به تعظيمُ الأمر وتضخيمُهُ في نفس السّامع، فهو إثارةُ رُعْبٍ ودهشةٍ من ذلك العذاب، فالآيةُ الأولى قبلَ ذِكرِ العذاب، والثّانية بعدَ ذِكره، وكأنّها خاتِمةٌ موجِعةٌ لِمَشهَد الصّرعى[1].

توجيه المتشابِه اللّفظيّ:

ما كَثُرَ وقوعُه عُرِّف، وما نَدَر نُكِّر

جاءَتِ الرّيحُ نكرةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾، ومعرفةً في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذّاريات: 41]، ووجهُ ذلك: أنّ العُقمَ في الرّيح أظهرُ مِنَ البرد الّذي يَضرُّ النّبات، أو الشِّدّة الّتي تَعصِفُ الأشجارَ؛ لأنّ الرّيحَ العقيمَ هي الّتي لا تُنشِئُ سحابًا، ولا تُلقِّح شجرًا - وهي كثيرة الوقوع -، وأمّا الرّيحُ المُهلِكةُ البارِدةُ فقلّما توجَدُ؛ فقال: ﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذّاريات: 41]؛ أي: هذا الجنس المعروف، ثمّ زادَهُ بيانًا بقوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذّاريات: 42]، فتميَّزَت عنِ (الرّيح العقيم)، وأمّا (الصّرصَر) فقليلةُ الوقوعِ، فلا تكونُ مشهورةً؛ فنَكَّرَها[2].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 166.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 303.

﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي
ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ٢٤ أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ
٢٥ سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ ٢٦ إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ
لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ
مُّحۡتَضَرٞ ٢٨ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي
وَنُذُرِ ٣٠ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ
٣١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٣٢﴾ [القمر: 23 - 32]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلها:

الانتقال مِنَ الإجمال إلى التّفصيل

لمّا ذَكرتِ الآياتُ السّابقةُ قصّةَ عادٍ، ناسبَ ذِكرَ مَن تلاهم في الزّمان وفي الذّكر الحكيم، فبَيْنَ القِصّتَين تكامُلٌ في ذِكْر أسبابِ العذاب، وجاءَت قِصّةُ عادٍ على طريق الإجمال، وقصّةُ ثمودٍ على طريق التّفصيل، فناسبَ ذكرَ التّفصيل بعد الإجمال.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسُعُرٍ﴾: أصل (سعر) يَدُلُّ على اشتِعالِ شيءٍ واتّقادِه وارتفاعِه، وسُمّي الجنون بالسُّعُر؛ لأنَّهُ يَستَعِرُ في الإنسان[1]. والسَّعير: النّار، والسُّعار حرُّها، وهو السُّعُر أيضًا. وسُعِرَ الرَّجُل فهو مَسعورٌ، إذا ضربَهُ السَّموم والعَطش[2]. والسَّعرُ: المَجنون، وجَمعُهُ سُعُرٌ[3]. والمُرادُ هنا: شَقاء وعَناء وعَذاب، أو جُنون؛ من قولهم: ناقَةٌ مَسعورةٌ: إذا كانت كأنَّ بها جُنونًا[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سعر).
(2) الخليل، العين: (سعر).
(3) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (سعر).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 107.

2) ﴿أَشِرٌ﴾: أصل (أشر) يدلُّ على الحِدَّة. مِن ذلك قَولُهم: هو أشِرٌ؛ أي: بَطِرٌ مُتَسَرِّعٌ ذو حِدَّةٍ[1]. والأشَر: المَرَحُ والتَّجَبُّرُ والكِبرياء[2]. والمراد هنا: مُتَكَبِّرٌ بَطِرٌ يُريدُ أن يَتَعاظَمَ علينا بالنُّبوَّة[3].

3) ﴿فِتْنَةً﴾: أصلُ الفِتنَة مِنَ الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[4]، يُقالُ: فتَنْتُ الذَّهَبَ؛ أي: أحرَقْتُهُ بالنّارِ؛ لِتَمييزِ الجَيِّدِ مِنَ الرَّديءِ، ويُسَمَّى الصّائِغُ: الفَتّانُ، وكذلِكَ الشَّيطانُ[5]. والفَتْنُ أيضًا: إدخالُ الرَّوعِ والاضطِرابِ على العَقلِ بسَبَبِ تَسليطِ ما لا تَستَطيعُ النَّفسُ تَحَمُّلَهُ[6]، والفِتنَةُ: الابتِلاءُ والامتِحانُ والاختِبارُ، يُقالُ: فتَنْتُهُ، أفْتِنُهُ، فتْنًا وفُتونًا: إذا امتَحَنْتُهُ[7]، وهو المقصود به في الآية؛ أي: اختبارًا وامتحانًا حتّى يَظهرَ للعِباد ما نحن عالِمون بما يكونُ منهم[8].

4) ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾: أصلُ (رقب) يدلُّ على الانتظارِ والتَّرَصُّدِ، يُقالُ: رَقَبْتُهُ وأرْقَبتُهُ وارْتَقَبْتُهُ؛ أي: انتَظَرْتُهُ وتَرَصَّدْتُهُ[9]. ومنه المُراقَبَةُ: حِراسَةُ الشَّيءِ ومُلاحَظَتُهُ، يُقالُ: راقَبَ الشَّيءَ ورَقَبَهُ، مُراقَبَةً ورِقابًا؛ أي: حَرَسَهُ ولاحَظَهُ[10]. وتأتي بمعنى الحِفظِ. ورَقيبُ القَومِ: حارِسُهُم وحافِظُهُم. وتُطلَقُ المُراقَبَةُ على الخَوفِ والخَشيَةِ، يُقالُ: راقَبَ اللّهَ في أمرِهِ؛ أي: خافَهُ وخَشِيَهُ[11]. والارتقابُ هنا معناه: التَّرَقُّبُ، وهو (افتِعالٌ) من رَقَبَهُ إذا انتظرَه، مِثْلُ: رَقَبَ، وهو أبلَغُ دلالَةً مِن رَقَبَ؛ لزيادةِ المَبنى فيه[12]. والمُراد هنا: فانتَظِرْهُم وتَبَصَّرْ ما هُم صانِعوه بها[13].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أشر).
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 108.
(3) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 25/ 235.
(4) الخليل، العين: (فتن).
(5) ابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (فتن).
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 7/ 91.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(8) أبو حفص النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 14/ 163.
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (رقب).
(10) الجوهريّ، الصّحاح: (رقب).
(11) ابن سِيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (رقب).
(12) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.
(13) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 142.

5) ﴿شِرْبٍ﴾: أصلُ (شرب) يدلُّ على تناول كلِّ مائع، ماءً كان أو غيرَه(1)، تقولُ: شَرِبْتُ الماءَ أشربُه شَرْبًا، وهو المَصدَرُ. والشَّرابُ: اسمٌ لِما يُشرَبُ، وجمعُه أشرِبَةٌ (2)، والشَّرْبُ: القومُ الَّذينَ يَشرَبونَ، والشِّرْبُ: الحظُّ مِنَ الماءِ(3). وماءٌ شَروبٌ وشَريبٌ، إذا صَلَحَ أن يُشرَبَ وفيه بعضُ الكراهةِ(4).والشِّرْبُ في الآية معناه: نَوْبَةُ الاستِقاءِ مِن الماءِ(5).

6) ﴿مُّحْتَضَرٌ﴾: أصلُ (حضر) يدلُّ على الوُرودِ والمُشاهَدة(6). ومنه الحُضورُ، نَقيضُ المَغيب والغَيْبةِ. وأحضَرَ الشَّيءَ، وأحضَره إيّاه(7). واحتُضِرَ المَريضُ وحُضِرَ إذا حَضَرَهُ المَوتُ ونَزَلَ به، وهو مُحتَضَرٌ ومَحضورٌ(8). والمُحتَضَرُ: اسمُ مَفعولٍ مِنَ الحُضورِ وهو ضِدُّ الغَيبَةِ(9). والعَرَبُ تَقولُ: اللَّبَنُ مُحتَضَرٌ ومَحْضورٌ فغَطِّهِ؛ أي: كَثيرُ الآفَةِ، يَعني: يَحتَضِرُه الجِنُّ والدَّوابُّ وغيرُها مِن أهل الأرض(10). وهو هنا بمعنى مَحضورٍ مَشهودٍ مُتَواسًى فيه(11).

7) ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾: أصلُ (عطو) يدُلُّ على أخذٍ ومُناولةٍ(12). فالعَطْوُ: التَّناولُ باليَد، قال الخليلُ: ومنه اشتُقَّ الإعطاءُ. والمُعاطاةُ: المُناولةُ(13). ويُقالُ: عاطى الصَّبيُّ أهلَه، إذا عمِل وناوَل ما أرادوا(14)، والتَّعاطي: تناولُ ما لا يجوز تناولُه(15)، مُطاوِع عاطاهُ، وهو مُشتَقٌّ مِنْ عَطا يَعطو، إذا تَناوَلَ(16). والتَّعاطي في الآية معناه: تناولُ الشَّيءِ بتكلُّفٍ، والمُرادُ به: اجترأ على تعاطي قتلِها غيرَ مُبالٍ بما يَفعَلُ(17).

---

(1) الرّاغب، المفردات: (شرب).
(2) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (شرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرب).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 201.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حضر).
(7) ابن سِيده، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (حضر).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (حضر).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 21.
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حضر).
(11) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 5/ 218.
(12) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عطو).
(13) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سِيده، المُحكم، والرّاغب، المفردات: (عطو).
(14) ابن سِيده، المُحكم: (عطو).
(15) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عطو).
(16) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 52.
(17) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 166.

8) ﴿فَعَقَرَ﴾: أصلُ (عقر) يدلُّ على الجَرْحِ أو ما يُشبِهُ الجَرحَ مِنَ الهَزمِ في الشَّيءِ[1]. والعَقَر عند العرَب: كَشْف عرقوب البَعير، ثم جُعِل النَّحرُ عقرًا؛ لأنَّ العَقرَ سببٌ لنحره، وناحِر البعير يَعقِرُهُ ثمّ يَنحَرُه[2]. والعَقيرة السّاقُ المَقطوعَةُ، يُقال: عَقَرتُ الفَرَسَ بالسَّيف: إذا ضَربتُ قوائمَهُ[3]. والعَقّارُ: الَّذي يَعنُفُ بالإبِلِ لا يَرفُقُ بها في أقتابِها فتُدبِرَها[4]. والمقصود بالعَقرِ في الآية: ضَرْبُ النّاقةِ بالسَّيفِ على عَراقيبِها لِتسقُطَ إلى الأرضِ جاثيةً فيتمكَّنَّ النّاحِرُ مِن نَحرِها.

9) ﴿صَيۡحَةً﴾: أصلُ (صيح) تَشقيقُ الصَّوتِ، مِن قَولِهِم: انصاحَ الخشبُ، أو الثَّوبُ، إذا انشقَّ، فسُمِعَ منه صَوتٌ، وصيحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ كذلك[5]، والصِّياحُ صوتُ كُلِّ شَيءٍ إذا اشتَدَّ[6]. والصَّيحَةُ: العذابُ، يُقالُ: صيحَ في آلِ فُلانٍ إذا هَلَكوا. والصَّيحةُ: الغارةُ إذا فوجِئَ الحيُّ بها[7]. ولمّا كانَتِ الصَّيحةُ قد تُفزِع، عبَّر بها عَنِ الفَزَعِ في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحِجر: 73]، والصّائِحَةُ: صَيحَةُ المناحة[8]. والمراد بالصَّيحَةِ في الآية: صاعقةُ العَذابِ الَّتي نَزَلَت بقَومِ صالِحٍ فأحدَثَتْ رَجْفَةً في القُلوبِ وزَلزَلَةً في الأرضِ، وصُعِقَ بها جَميعُ القَومِ، فأصبَحوا في ديارِهِم جاثِمينَ ساقِطينَ على وُجوهِهِم مَصعوقينَ لَم يَنْجُ مِنهُم أحَدٌ[9].

10) ﴿كَهَشِيمِ﴾: أصلُ (هشم) يدلُّ على كسْرِ الشَّيءِ الأجوفِ وغيرِ الأجوف، وهَشَمْتُهُ هَشْمًا[10]. والهَشْمُ: الكَسْرُ والتَّفتيتُ، يُقالُ: هَشَمْتُ أنفَه؛ أي: كَسَرت قَصبَتَه، والرّيحُ إذا كَسَرَتِ اليَبيسَ، يُقالُ: هَشَمَتْهُ، وتَهَشّم الشَّجرُ إذا يَبِس وتَكَسَّر[11]. والهَشيمُ: اسمٌ على وزنِ فعيلٍ بمعنى مَفعولٍ؛ أي: مَهشومًا مُحطَّمًا. والمراد به هنا: ما يَبِسَ وجَفَّ مِن أغصانِ العِضاةِ

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقر).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عقر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عقر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عقر).
(5) الرّاغب، المفردات: (صيح).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(8) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(9) رضا، المنار: 12/ 104.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هشم).
(11) الخليل، العين: (هشم).

والشَّوكِ وعظيمِ الكَلأ، كانوا يتَّخذونَ منه حَظائرَ لحفظ أغنامِهم من الرّيحِ والعادية[1]. فكانوا كالهشيم الَّذي يَجمعُه صاحبُ الحَظيرةِ؛ أي: قد بلغ الغايةَ في اليُبْس حتَّى بَلَغ إلى أن يُجمَع ليوقَد به[2].

11) ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾: أصل (حَظَر) يدُلُّ على المَنْع[3]. يُقالُ: احتَظَرَ على إبِلِه وغَنَمِه، وحَظَرَ؛ أي: جَمَعَ الشَّجَرَ ووَضَعَ بَعضَهُ فوقَ بَعضٍ؛ ليَمنَعَ بَرْدَ الرّيحِ، ويمنعَ السِّباعَ عَن إبِلِهِ ونَعَمِه[4]. والمرادُ هنا: صاحِب الحَظيرَة، مِنَ الحَظر: المَنع، والمُحتَظِرُ المُفتَعِلُ مِنَ الحظير؛ أي: مُتكلِّفُ عَمَلِ الحَظيرَة.

❁ المعْنَى الإجْمَاليُّ:

عنادُ ثمودٍ أمامَ آيـةِ الـنّـاقـة، ومـآلُ المُكذِّبين بعاقبتها

تُبيِّنُ الآياتُ الكريمةُ قصّةَ ثمودٍ في إثر قصّة قوم نوحٍ وعاد؛ للتّذكير والاعتبار، فيُبيِّنُ أنّهم كذَّبوا رسالتَه، وما أنذرَهُم به من عذابٍ، وسخِروا من دعوتِه، مُتسائلين في استنكارٍ: كيف نتبعُ بشرًا مِثلَنا؟ إنْ فعلْنا فنحنُ في ضلالٍ وجنونٍ، ثمّ قالوا: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾؟ وادّعَوا أنّه كذّابٌ مُتكبِّرٌ. فرَدَّ اللّهُ عليهم: بأنّهم سيَعلمون مَنِ الكذّابُ الأشِرُ، حين يأتيهم العذابُ، فقد أخذَتهُمُ الصّيحةُ، فهلكوا عن آخرِهم. وكان اللّهُ قد أرسلَ إليهم آيةً ظاهرةً؛ استجابةً لطلبهم حين سألوا أن يُخرِجَ لهم ناقةً من صخرةٍ عظيمةٍ. فاستجاب اللّهُ، وأخرجَ ناقةً عُشَراءَ مُعجِزةً في خَلْقها، وأمرَهم نبيُّهم أن يتركوها تأكلُ في أرض اللّه، وأن يُقَسِّموا الماءَ يومًا لها ويومًا لهم، وكانَت تشرَبُ مِنَ البئر يومَها، فيحصلون منه على لبنٍ وفيرٍ، تمرُّ به على أبوابهم. لكنَّهم كفروا النّعمةَ، وضاقوا بها،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 203.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هشم)، والزّجّاج، معاني القرآن: 5/ 90.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حظر).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 112، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 142، والشّوكانيّ، فتح القدير: 5/ 153.

فعَقروا النّاقةَ بأيدي رجلٍ منهم، فعُجِّلَت لهم العقوبةُ، فأرسلَ اللّٰهُ عليهم صيحةً واحدةً أهلكَتهم، فأصبحوا جُثثًا هامِدةً، كالعُشب اليابسِ المُتناثِرِ في حظائر المَواشي. وتختمُ الآياتُ القصّةَ بتأكيد أنّ القرآنَ قد يسَّرَهُ للذّكر، فهل مِن مُتَّعظٍ يَعتبرُ بما حَوَته هذه الآياتُ مِنَ العِبَر، قبلَ أن يُدرِكَهُ المَصيرُ المَحتومُ[1]؟.

الإيضاحُ اللّغويّ والبلاغيّ:

مَوقِع جملة ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ﴾ ممّا قبلَها:

الّذين أعرضوا عن خطاب الحقّ صُرِفَ عنهم فضلُ الانتفاع به

القول في مَوقِع جملة ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ كالقول في مَوقِع جملة ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾. وكذلك القولُ في إسناد حُكمِ التّكذيبِ إلى ﴿ثَمُودُ﴾ - وهو اسمُ القَبيلةِ - مُعتبَرٌ في الغالِبِ الكثيرِ، فإنَّ صالِحًا قد آمَنَ به نَفَرٌ قليلٌ[2].

نوع الباء ودلالتُها:

التّكذيبُ بآيات الله غايةُ العِناد والخُذلان

تحتمل الباءُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ أن تكونَ للتّعدية؛ أي: كذَّبوا النُّذُرَ نفسَها؛ (أي: الرّسل أو الآيات الّتي أنذروا بها)، وأن تكونَ للمُلابسة؛ أي: كذَّبوا حالَ كونِهم مُلابسين للإنذار ومواجَهين به، فيكون المعنى: كذَّبوا تكذيبًا مَقرونًا بما جاءَهم من إنذارٍ مُتكرِّرٍ مُؤكَّدٍ، والتّعدية على اعتبار أنّ النُّذُر جمعُ نذير، بمعنى المُنذِر أو المُنذَر به، والمُلابسة على معنى أنّ النُّذُرَ مَصدرٌ بمعنى الإنذار[3]. والتّعديةُ بالباء أبلغُ مِن أن يُقالَ: (كذَّبَت ثمودُ النُّذُرَ)؛ لأنّه يُصوِّرُ تكذيبَهُم وكأنّه مُتلبِّسٌ بالآيات والنُّذُر نفسها، فيزيد في تقبيح فعلِهم وإظهارِ عظيمِ جُرمِهم.

---

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 212.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 195.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 326.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلنُّذُرِ﴾:

(أل) في لفظ ﴿ٱلنُّذُرِ﴾ عهديّةٌ ذهنيّة، ودلّ الجمعُ على عموم النُّذُر المَذكورة في القصّة؛ أي: بالإنذارات المُتكرِّرة الّتي جاءها بهم صالح ﵇ بدليلِ ما بعدها.

كذّبَ قومُ صالح بإنذارات نبيّهم المتكرّرة

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ تفريعُ قولِهم على: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾؛ أي: بسبب تكذيبِهم قالوا له ذلك اعتِراضًا عليه وجَحْدًا له[1].

بلاغة الاستفهام ودلالتُه:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ للإنكار على دعوة صالحٍ ﵇، فهم يُنكرون أن يكونَ النّبيُّ بشرًا منهم، ويتعجَّبون منه.

إنكارُ ثمودَ أن يكونَ النّبيُّ بشرًا منهم، والتّعجّب من ذلك

دلالةُ ذِكر لفظِ البشريّة:

في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ تنبيهٌ على أنّ المُشابَهة في البشريّة لا تستلزمُ عدمَ التّفاوتِ في فضل الله تعالى! كما قال سبحانه: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ [التّغابن: 6]، ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ٣٤﴾ [المؤمنون: 34]، وهذا كثيرٌ في القرآن، وهذه الأقيسةُ فاسدةٌ[2]. فالاعتراضُ هنا فيه نقضٌ للنُّبوّة بعقليّة المَساواة الدّنيويّة، ورفضٌ للهداية بسبب الاستعلاء النّفسيِّ والجماعيِّ. وتعظيمُ العَددِ والاجتماعِ الضّالِّ مُقابلَ الانفرادِ المخصوص بالحقّ.

مَن ظنّ التّساوي بين البشر فقد خاصَم القَدَرَ وخالفَ الحقَّ

نُكْتَةُ تقديم المفعول:

قُدِّمَ ذِكرُ ﴿أَبَشَرٗا﴾ على فعل الاتّباع في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 117، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 196.

(2) الشّنقيطيّ، العذب النّمير: 3/ 142.

﴿وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾؛ ليُفيدَ إنكارَهم وتعجُّبَهم مِن بشريّته؛ فإنكارُهم مُتَّجهٌ إلى أن يكون بشرًا مَتبوعًا، وليس مُتَّجهًا إلى وجودِ مُتَّبعٍ؛ لذا قُدِّمَ المفعولُ على الفعل[1]، وهذا فيما زعمَه القومُ، وإلّا فالأَمرُ لا يَعْدو أن يكونَ مُراوغةً منهم، هروبًا مِن اتّباع الحقِّ، ومخادعةً، ظنًّا أنّهم يَظفرون بالخلاص مِنَ الدّعوة إلى تقييد شهواتهم.

الحيَلُ الفكريّةُ أسلوبُ الأممِ المُراوغة

غرضُ تنكير لفظِ ﴿أَبَشَرٗا﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿أَبَشَرٗا﴾ للتّهوين والتّقليل والتّحقير، فهُم لا يرَون أنّ البشرَ أهلٌ لِأن يُتَّبعَ، ولا أهلٌ أن يُنزّلَ عليه وحيُ السّماء.

تهوينُ ثمود من شأن الأنبياء وتحقيرُهم

توجيهُ تفصيلِ تكذيبِ ثمودَ دونَ عاد:

لمّا ذَكرتِ الآياتُ السّابقةُ تكذيبَ عادٍ ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ﴾ لم يُفَصَّل فيها ذِكرُ أقوالهم، بينما فُصِّلَ تكذيبُ ثمودَ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ٢٣ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾؛ وذلك لقصدِ بيانِ المُشابهة بين تكذيب ثمودَ وتكذيبِ قُريشٍ؛ إذ تشابهَتْ أقوالُهم[2]، كما ذكرَت ذلك سورةُ (ص).

ذِكرُ أقوالِ السّابِقين للتّلويح بمَصيرهم إن استمرَّ العِناد

نُكْتَةُ إيثارِ الغَيبة على الخطاب:

إيثارُ الغَيبة على الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾، بدل أن يقولوا: (أنتَ بشرٌ منّا واحدٌ، أنتَّبِعُك؟)، تحمِلُ في طيّها بلاغةَ التّحقير والتّقليل من شأنه، فحين يتكلَّمُ الإنسانُ عن مُخاطَبه بصيغة الغَيبة بدلَ الخطابِ، فهو يتعمَّدُ الإعراضَ عنه؛ لأنّه لا يَستحِقُّ أن يكونَ محلَّ الخطاب، فهو احتقارٌ مُغلَّفٌ بالإعراض، والغَيبةُ توحي بأنّهم يتكلَّمون عنه فيما بينَهم، فهُم في مَجلِسٍ مُغلَق يَتدارَسون أمرَه، وهذا يُعزِّزُ التّواطؤَ الجماعيَّ على التّكذيب، بخِلاف الخطاب فيكون هناك تواصُلٌ بينهم وبينه.

التّحقيرُ والإعراضَ عنِ النّاصح من صفات المَخذولين عن التّبصُّر

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 196.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 196.

نوع (مِنْ) ودلالتُها:

عِلَّةُ الكِبر الحَسدُ، وآفةُ الرّفضِ الحِقدُ

(مِن) في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا﴾ للتّبعيض؛ أي: أبَشَرًا واحدًا من أفرادِنا نتّبعه؟ وهو اعتراضٌ على تميُّز شخصٍ مُعيَّنٍ مِن بينهم، وادعائه النّبوّةَ. وهذا أظهرُ في سياق الحسدِ والاستكبارِ الشّخصيِّ، فالاعتراضُ لا يَقتصِرُ على كون الرّسولِ بشرًا فقط، بل على كونه فردًا واحدًا مُتميّزًا مِن بينهم، مع أنّهُم يرَون أنفسَهم نُظراءَ له، وربَّما أحقَّ منه![1].

نُكْتَةُ تقديمِ القيد على النّعت:

يلجأُ أتْباعُ الباطلِ إلى تكثير السّواد، وينخدِعون بكثرة أهله

التّرتيبُ الّذي وقَعَ في النّظم في قوله: ﴿مِّنَّا وَٰحِدٗا﴾ بتقديم ﴿مِّنَّا﴾ على ﴿وَٰحِدٗا﴾ يُعلي من شأن المانعِ العقليِّ الأهمِّ عندهم؛ وهو أن يكونَ من (جنسهم)، ثمّ يُضيف عليه مانعًا ثانيًا: أنّه (واحدٌ) فقط. وهذا أبلغُ في تصوير فسادِ اعتراضِهم. ولو قيل بترتيبٍ آخَر (أبشرًا واحدًا منّا) فسيجعل الانفرادَ في العدد هو الأبرزَ، ويجعل ﴿مِّنَّا﴾ في الدّرجة الثّانية، وهذا يُضعِف النّكتةَ البلاغيّةَ[2]. وفائدةُ التّركيب: أنّ قولَهم: ﴿مِّنَّا﴾ يصِفُ هذا البشرَ بأنّه واحدٌ من جماعتنا نحن، لا يفضلُنا في شيءٍ، وقولهم: ﴿وَٰحِدٗا﴾ تزيد التّحقير؛ أي: ليس فقط من جنسنا، بل فردٌ واحدٌ، لا جماعةَ معه، ولا مقام، وهو ما يدلُّ على بُعْدِ القَبَليَّة الجَمْعيّة في عقليّة ثمودَ، الّتي سيطرَت على طرائق تفكيرهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارع مُضعَّفًا:

المبالغة في الفعل لإظهار صعوبة الاتّباع وعُسْر المتابعة

التّعبير بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ يفيدُ إنكارَ اتّباعِ واحدٍ على الدّوام، فهُم يُنكِرون طلبَ الطّاعةِ الدّائمةِ للنّبيِّ، والمُتابعةِ المستمرّةِ للوحي، وجاء فعل: ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ على التّضعيف لا التّخفيف، فلم يقُل: (نَتْبَعُه) للمبالغة في الفعل؛ لأنّ اتّباعَهم

(1) ابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد بهامش القونويّ: 18/ 326.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 171.

سيكون على غير مألوفِهم في الاعتقاد والسّلوك وموروثات آبائهم، فيحتاجون جُهدًا وشدّةً في الفعلِ لو كان! كأنّهم قالوا: "نجاهدُ نَفسنا في خَلْعِ مَألوفِنا، وخِلافِ آبائِنا، والإقرارِ على أنفسِنا بسخافةِ العقلِ والعَراقةِ في الجهل، ونحنُ أشدُّ النّاسِ كَثرةً وقوّةً وفَهمًا ودِرايةً"(1).

بلاغةُ الاستعارة التّصريحيّة في لفظ الاتّباع:

الاستكبارُ عن الانقياد للحقِّ يَحجُبُ صاحبَه عن طُرُق الهداية

الفعل ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾ جاء على سبيل المَجاز، فشُبِّهت طاعةُ النّبيِّ باتّباع شخصٍ؛ لأنّ الاتّباعَ في الأصل هو المَشيُ خلفَ القائدِ في الطّريق، أو لحوقُ الشّيءِ من غيره حِسًّا(2)، وصُرِّح بالمُشبّه به على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة لمعنى الانقياد والطّاعة والالتزام بما جاء به الرّسولُ ﷺ. فهنا نقْلٌ لِلَفظٍ من معناه الحِسّيِّ إلى المعنويّ على سبيل المُشابهة؛ أي: جَعْلُ الطّاعةِ كالمَشي خلفَ المَتبوع.

بلاغةُ جملةِ التّعليل:

جملة ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ تعليلٌ لإنكار أن يتّبعوا بشرًا منهم، تقديره: (أنتَّبعك وأنت بشرٌ واحدٌ منّا؟!)؛ أي: إنْ حصل الاتّباعُ فنحن في ضلالٍ وسُعُرٍ.

معنى ﴿إِذٗا﴾ ووظيفتها الرّابطة:

ترتيبُ النّتائج على المُقدّمات الباطلة صنيعُ أهل الضّلالات

﴿إِذٗا﴾ حرفُ جوابٍ وجزاء(3)، ووظيفتُه في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ﴾ الرّبطُ بين الجملة الّتي قبلَها والّتي بعدَها، وهي تُفيدُ أنّ ما بعدَها مُترتِّبٌ على ما قبلَها غالبًا، بإنكارٍ أو تعجُّبٍ أو استنكار، بحسب السّياق. والمعنى: إنِ اتّبعنا بشرًا منّا، فنحن - بزعمهم - نكون في ضلالٍ ظاهرٍ، وخطأ جسيمٍ(4).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 117.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (تبع).

(3) صافي، الجدول: 14/ 74.

(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 197.

غرض تتابعِ المُؤكِّدات:

عناد المُكذِّبين عن استكبارٍ أعمًى لا يَلين

تتابعَتِ المُؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾، فـ(إنّ) تُفيدُ التّوكيد على مضمون الخبر، واللّامُ المُزحلَقة في ﴿لَّفِى﴾ زيادةُ توكيد على مضمون الجملة، و(في) تُفيدُ الظّرفيّةَ؛ أي: أنّهم غارقون مُنغمِسون في الضّلال؛ لبيان المُبالَغة المُفرطة في استبعاد الهداية مع رسوخهم في العِناد، حتّى صارَت حُجَجُهُم مَشحونةً بالتّشديد المُتكرِّرِ الّذي لا يقوم على بُرهان(1).

بلاغة استعمال حرفِ الظّرفيّة:

تصويرُ شدَّة الانغماسِ في الضَّلال مبالغةٌ كاشفةٌ عن عُمق الضَّلال

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ حرفِ الظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ في بيان موقف ثمودَ، والظّرفيّةُ مَجازيّةٌ، فهي ليست ظرفيّةً مكانيّةً حقيقيّةً، تدلُّ على مُبالغتهم في بيان شدَّة التّلبُّس بالضّلال والسُّعُر، حتّى كأنّهم مَغمورون فيه أو مُحاطون به كما يُحاطُ الشّيءُ بالظّرف. والمَجازُ مَجازٌ بالظّرفيّة، حيثُ شُبِّهَ الحالُ أو الصّفةُ الّتي تُلازمُ الإنسانَ بشيءٍ يُحيطُ به إحاطةَ الظّرف بالمَظروف. وفيه تصويرٌ بلاغيٌّ قويٌّ لشِدّة الانغماس والتَّمكُّن مِنَ الضَّلال والجُنون. وقد تكرَّرَ هذا الأسلوبُ كثيرًا في القرآن الكريم، كقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ١١٠﴾ [هود: 110]، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ١٣﴾ [الانفطار: 13]؛ للدّلالة على شِدّة التَّلبُّس بالمعنى، لا مُجرَّدِ الوقوع فيه(2).

نُكْتَةُ الجمعِ بين الضَّلال والسُّعُر:

المُغالاة في الإنكار تفضَحُ الضَّلال

الجمع بين الضَّلال والسُّعُر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ يَحمِلُ نُكتَةً بلاغيّةً دقيقةً، وهي التّهويل والتّضخيم في إنكارهم. وهذا من أساليب الجمع بين المُتبايِنات لزيادة التّهويل، مثل قولهم: (خَرَف وجُنون) أو (عَمًى وصَمَم)، فكذلك عبّروا عن

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 159، 160.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 197.

تمام النّفْرة مِنَ الاتّباع، والمُبالغة في التّكذيب، بتصوير الإيمان به يُفضي بهم إلى الجهل والجنون والعذاب، "كأنّه وعدَهم بأنّهم إنِ اتّبعوه اهتدَوا ونجَوا مِنَ النّار، فقالوا بالعكس: لوِ اتّبعناك لَضَلَلْنا واعترفْنا بالسُّعُر بالنّار، عكسَ ما قال، وهذا من أشدِّ المُراغمة للرّسل عليهم الصّلاةُ والسّلام والمُحادّةِ لله ﷻ"[1]، "وهذا الكلامُ من ضلالهم وشقائهم، فإنّهم أنِفوا أن يتَّبعوا رسولًا مِنَ البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابِدين للشّجر والحَجر والصّور"[2]، فكان قولُهُم هذا كنايةً عنِ الجمع بين سوءِ السّبيلِ وسوءِ المَصير.

غرض تنكير لفظ ﴿ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾:

غـلـوّ ثـمـود وإفـراطُـهـم فـي استبشاع خـضـوعـهـم للوحي والرّسول

التّنوين في قوله تعالى: ﴿ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ للتّفخيم والتّهويل، والجمع بينهما يُؤكِّدُ على مدى غلوِّهم وإفراطِهم في استبشاعهم رؤيةَ أنفسِهم خاضعين للوحي والرّسول.

نُكْتَةُ تقديمِ الضّلال على السُّعُر:

الـضّـلالُ أمـارةُ انتكاسِ العقل وخَرابِ الإدراك

قُدِّمَ الضَّلالُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾ على السُّعُر؛ لكون الضَّلالِ واقعًا في الدّنيا، وهو سوءُ السّبيل بغيابهم عن متابعة الحقِّ للجهل والعِناد، وأمّا السُّعُر فهو سوءُ المصيرِ وهو النّار، وهذا في الآخرة، وحتّى لو كان السُّعُرُ بمعنى الجُنون - على قولٍ في التّفسير - فحَقُّهُ التّأخير؛ لأنَّ الحُكمَ بالجُنون هو عاقبةُ من يَضِلُّ، فهو على معنى: ضلّوا فقيل عنهم: مَجانين لِضلالهم، فالجنونُ حُكمٌ مُستنتَجٌ بعد الضَّلال، مع مُراعاة الفواصل[3].

دلالةُ إفرادِ الضَّلال وجَمْعِ السُّعُر:

تَـكـرارُ قـول المُخالِفِ بقلب المَقصِد تَهَكُّمٌ مَقصودٌ

أُفرِد الضَّلالُ وجُمِع السُّعُر في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ﴾؛ لأنّ الضّلالَ مَصدرٌ، والسُّعُر جمع (سعير) باعتبار أنّ النّارَ

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 279.
(2) تيسير الكريم الرّحمن، تفسير السّعديّ، ص: 826.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 326، 327.

دَركاتٌ، فهي واحدةٌ باعتبار جنسها، ومَعدودةٌ باعتبار طبقاتِها[1]، فدلَّ ذلك على أنَّهم سمعوا النَّذارةَ ومَضمونَها مِنَ التّهديد بالوعيد، فأعادوا كلامَ صالحٍ ﷺ بطريق التّهكُّم، كأنّهم قالوا: إنّ الضّلالَ والسُّعُرَ الّتي يُنذِرُنا إيّاها صالحٌ هي في اتّباعه لا في مُتارَكتِه وتركِ دعوتِه.

مَوقِع جملةِ ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾:

إنكارُ اصطفاءِ الله للرّسل كِبرٌ يُفضي إلى العِناد

جملة: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ في مَوقِع التّعليل للاستفهام الإنكاريِّ الّذي قبلَها: ﴿أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ﴾[2]؛ أي: أنّهم أنكروا اتّباعَ بشرٍ منهم، وعلّلوا هذا الإنكارَ بأنَّ الذِّكرَ لم يُلقَ على جميعهم، أو على مَن يَرونَه أحقّ به، بل خُصَّ به هذا الواحدُ، فقالوا بتعجُّبٍ واستنكار: كيف نتّبعُه، وقد أُلقيَ الذِّكرُ عليه وحدَهُ من بيننا؟ فالمعنى: أنكروا الاتّباعَ، وعلّلوا هذا الإنكارَ بعدم اختصاصِه بشيءٍ ظاهرٍ مِنَ الفضل أو التَّميُّز عنهم، فكيف يُختار هو دونَ سواه؟ وهذا من جملة القياسات العقليَّة الفاسدة الّتي أبطلَها القرآنُ في أكثر مِن مَوضِع، كما في قوله: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف: 31].

بلاغة الاستعارة ودلالتُها:

الوحي يَنزِلُ بعظَمةٍ تُزَلزِلُ القلوبَ، وتُثبِتُ الحقَّ

فعل (أُلقي) في الأصل يدلُّ على الطَّرح والرَّمي المادّيّ، كما تقول: ألقيتُ الحَجرَ على الأرض، لكن في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ﴾ استعارةٌ، إذ شُبِّهَ إنزالُ الوحي مِنَ السّماء بإلقاءِ شيءٍ مَحسوسٍ، فيكونُ من باب الاستعارةِ التّصريحيّة؛ لأنّ اللّفظَ المُستعمَلَ (أُلقي) قد استُعمِلَ في غير معناه الحقيقيِّ، وأُريد به الإنزالُ المَعنويُّ. وعلاقةُ الاستعارة: المُشابَهة في التّلقّي من عُلوٍّ، وبصورة مُفاجِئةٍ وقويَّةٍ، ممّا يُعطي للذِّكر أثرًا وهيبةً، ويوحي بثِقلِه

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 326.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 197.

وأهمّيّتِهِ، كما جاء في قوله: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥﴾ [المُزّمّل: 5]. ففي كلّ ذلك تصويرٌ للجلال والعَظَمة والرّهبة الّتي تُرافِقُ نزولَ الوحي، ممّا يُضاعِفُ من جُرْم استكبارِهم وإنكارِهم له[1].

دلالة التّعبيرِ بصيغة المَبْنيِّ للمَفعول:

مَوضِعُ إنكارِ ثمودَ في إلقاء الذِّكر على صالحٍ، لا في كونه مِنَ الله تعالى

جاء التّعبيرُ بفعل الإلقاء بصيغة المَبنيِّ للمَفعول في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ﴾؛ لكون إلقاءِ الذِّكرِ هو مَوضِعُ الإنكار من ثمودَ، وهُم يَعلمون المُرسِل سبحانه، ولا سيّما أنّ الفعلَ العظيمَ والنّادرَ في نفسه ليس بحاجةٍ إلى تسمية فاعلِه؛ لأنّ القلوبَ أكثرُ ما يكون تعلُّقها بظاهرةِ حدوثِ الفعلِ لا بمصدر إحداثِه. كما أنّ في عدم تسمية الفاعلِ إشارةً إلى أنّهم أهلُ إعراضٍ عن الله سبحانه، لا يبحثون في حقائق الأمور، ولا يريدون أن يَحْصُلَ منهم استحضارٌ لله سبحانه، ولو باللّسان والقول فقط، فهُم أهلُ تمرُّدٍ على الله قبلَ أن يتمرَّدوا على رسله.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بـ(ألقي) دون (أنْزل):

المُستكبِرُ يَرى عظمةَ الوحي إهانةً لا فضلًا

آثَر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بفعل (أُلقيَ) بدلًا من (أُنزل) في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ﴾ ليتضمَّنَ نُكتةً بلاغيّةً مُهمّةً، وهي: الإيحاء بالعَجَلة والقوّة والاندفاعِ في إلقاء الذِّكر[2]، بخلاف (أُنزل) الّتي تفيدُ القصدَ والجاهزيّةَ. ففي اختيار (أُلقي) نوعٌ مِنَ التّحقير في زعمهم؛ لأنّهم أرادوا الاستنكارَ: كيف يُلقَى هذا الذِّكرُ العظيمُ عليه دون غيره؟ فكأنَّهم يَصفون الأمرَ كأنَّه شيءٌ رُمي رَميًا بغير عناية، وعن غير دراسةٍ وحِكمة، فجاء التّعبيرُ مُلائمًا لِمَوقفهم الاستهجانيِّ. وقد تَحمِلُ الكلمةُ أيضًا في مَواضعَ أُخرى معنى القوّةِ والجَدّيّةِ والوَقعِ الثّقيل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 197.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 88، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لقى).

﴿ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المُزّمِّل: 5]، حيثُ يدلُّ على العظَمة والثِّقَلِ والتّأثير، لا على التّحقير، فكلُّ مَقامٍ له ما يناسبُهُ.

توجيه المتشابِه اللّفظيّ:

الألفاظُ القرآنيّةُ كاشفةٌ عن طبائع الأقوام وطرائق التّفكير

افترق التّعبيرُ في هذه السّورةِ بفعل الإلقاء في قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾، وفي سورة (ص) بفعل الإنزال في قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [ص: 8]؛ لبيان الفرق بين شخصية ثمودَ وشخصية قُريشٍ، فكانَت قُريشٌ أكثرَ اتّزانًا وأقربَ للثّبات النّفسيِّ من شخصيّة ثمودَ المُتمثّلة بالعَجْرَفة واللّامبالاة، فالألفاظُ كاشفةٌ عن حقائق الأقوام، إذ كلُّ لفظٍ يوحي بشخصيّة المُتكلِّم، ويومِئ إلى طريقة تفكيره.

دلالة استعمال أسلوب الاستفهام دون النّفي الصّريح:

الكشفُ التّاريخيُّ عن شخصية ثمودَ مُتغلغِلٌ في أساليب البيان

الاستفهام في قولهم: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ إنكاريٌّ بمعنى النّفي، كأنّهم قالوا: (ما أنزَلَ عليه الذِّكر)، وجاء النّفيُ بصيغة الاستفهام الإنكاريِّ دونَ النّفي الصّريح؛ لأنّه أبلغُ وأقوى في المعنى مِنَ النّفي الصّريح، فهو يكشِفُ عن طبيعة الحوار الدّائر بين النّاس في ثمودَ، فبعضُهم يسألُ والآخرون يُجيبون، وهذا يدلُّ على أنّ هناك مَن يُثيرُ على الملأ شبهاتٍ تدحَضُ مَوقِفَهم من دعوة الحقِّ، وهُم يقاومونها بهذه الأسئلة المُثيرةِ للشّفقة، والكاشفةِ عن طبيعة الاستبداد في رفض الحقِّ، فالاستفهامُ له غرضٌ عريضٌ في الكشف عنِ الحوار الفكريِّ والعَقديِّ الدّائرِ في القبيلة، لا مُجرَّد أنّه أسلوبٌ بلاغيٌّ له غرضٌ ودلالةٌ ظاهرةٌ.

توجيه المتشابِه اللّفظيّ في التّقديم والتّأخير:

غَلَبَ على ثمودَ التّكذيب، وعلى قُريشٍ الحسد

آثر النّظمُ الكريم تقديمَ نائبِ الفاعل على الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾، دون أن يقولَ: (أألقي عليه الذِّكر)؛ كما قال في سورة (ص): ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾

[ص: 8]؛ وذلك أنَّ ثمودَ غلبَت عليهم العُنجهيّةُ والتّكذيبُ، بينما غَلَبَ على قُريشٍ الحَسدُ والكِبرُ، ولذلك قُدِّمَ ذِكرُ الجارِّ والمجرور؛ لأنّه هو مَوضِعُ الإنكار، فنفوسُهُم تأبى أن ينزلَ عليه وحيٌ، وهو ما يُقوي نُكتةَ استعمالِ مُفردةِ الإنزالِ دونَ الإلقاءِ في (ص)، فهم يُقِرّون بإنزال الرّسالة لكنّهم لا يَعترِفون في أن تكونَ نازلةً على محمّدٍ ﷺ، وهو ما يوحي أنّ ثمودَ كان تكذيبُهم للرّسالة أشدَّ من تكذيب قُريشٍ، وحسدُ قُريشٍ كان أشدَّ من حسد ثمودَ، فلكلٍّ شأنُهُ في الشَّرِّ وحربِ الإسلام ونبذِ التّوحيد.

دلالة استعمالِ حرفِ الاستعلاء:

عُدّيَ فعلُ الإلقاء بحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ﴾ باعتبار أنَّ الإلقاءَ يكون من عُلوٍّ، فاستعمال حرف الاستعلاء لبيان الواقع، وموقفِهم منه.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾:

الذِّكر المُرادُ هو المَعهود لدى ثمودَ من وحيٍ ورسالةٍ

عُرّفَ لفظُ ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾ للعهد الذّهنيِّ، على اعتبار ذلك الذِّكرِ المَعهودِ الّذي يَزعُمُ صالحٌ - بحسب اعتقادهم - أنّه وحيٌ مِنَ اللّه، فيكون مَحلُّ استغرابِهم نزولَ هذا الذِّكر المَخصوص على صالحٍ عليه السلام دونَهم.

نوع ﴿مِنۢ﴾ ودلالتُها:

الاعتراض على تفرُّد النَّبيِّ بالاصطفاء حَسَدٌ لا ابتغاء حقٍّ

في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾، ﴿مِنۢ﴾ هنا لابتداء الغاية، ومعناها: ابتداءُ الاصطفاء أو الإلقاء من مجموع الجماعةِ؛ أي: أأُلقي عليه الذّكرُ، وابتُدئ باختياره من بيننا، مع أنَّ فينا مَن هو أولَى وأحقُّ - في زعمهم - ، فهُم يُنكِرون أن يبدأ التّفضيلُ أو التّشريفُ منه دونَ سواه، فكأنّهم يقولون: مِن بين هذا الجمعِ كلِّهِ، كيف وقعَ الاختيارُ عليه؟ فالآيةُ تُعبِّرُ عنِ اعتراضهم الحاسدِ المُستنكِرِ على تفرُّد الرّسول بالوحي من بين قومه، وهي صورةٌ من

صور الحَسَد والكِبر، كما في مَواضِعَ أخرى شبيهة، مثل: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١﴾ [الزّخرف: 31].

فائدة التّقييد بالظّرفيّة ودلالتها:

الحاسِدُ تفضَحُه كلماتُه، وتكشِفُ عورتَه إيماءاتُه

التّعبيرُ بقيد ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ يُشعِرُ بالتّمايز والاصطفاء من داخل الجماعة نفسِها، لا من خارجها. وهذا يُضخِّمُ في نظرهم وجهَ الإنكار! إذ كيف يُترَكُ الكُثراءُ والوجهاءُ والشّرفاء، ويُصطفى هو وحدَه؟ فالبينيّةُ ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ تجلّي ذلك الاستبعادَ، كأنّهم جعلوا الظّرفيّةَ (الاختيار مِنَ الوسَط) دليلًا على عدم أحقّيته، كما أنّ قولَهُم: ﴿مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ فيه تجليةٌ للحَسَد، فالظّرفُ يَرسُمُ مَشهَدَ اصطفاءِ فردٍ من وسَط جمعٍ غفيرٍ، فيَكشِفُ عنِ الغَيرة الكامِنةِ في قلوبهم.

نوع الإضراب ودلالتُه البيانيّة:

ما بعدَ الحَسدِ والكِبر إلّا التّطاولُ على الصّادِقين

لمّا أفادَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَءُلۡقِيَ ٱلذِّكۡرُ عَلَيۡهِ مِنۢ بَيۡنِنَا﴾ النّفيَ والإنكارَ، أُتبِعَ بالإضراب بـ ﴿بَلۡ﴾، وهذا من أساليب الانتقال مِنَ المَنفيِّ إلى ما يَزعمونه هو الحقيقة، فقالوا: ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾. وهذا العطفُ بـ﴿بَلۡ﴾ هو عطفُ إضرابٍ انتقاليٍّ؛ أي: انتقلوا من نفي الوحي عنه (بطريق الاستفهام الإنكاريِّ)، إلى إثبات وصفٍ سلبيٍّ له بزعمهم، وهو الكَذِبُ والبَطَر(1)، فجملةُ الإضراب معطوفةٌ على ما تضمَّنه الاستفهامُ الإنكاريُّ مِنَ النّفي المُقدَّر، فكأنّهم قالوا: ليس هو ممَّن يُلقَى عليه الذّكر، ثمّ أضربوا انتقالًا عن ذلك إلى ادّعاء أنّه كذّابٌ أشِرٌ.

غرض التّعبير بالجملة الاسميّة:

الاسميّة تثبيتٌ للادّعاءِ المُتوهَّم في نظر ثمودَ

التّعبير بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ يخدم غرضَ التّوكيد والإصرار على الاتّهام؛ ليكونَ إنكارُهُم أشدَّ وأبعدَ عنِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 119، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 198.

القَبول، وكأنَّ تعبيرَهُم هذا جاء ردًّا على احتمال أن يكونَ اختيارُهُ للوحي لفضيلةٍ أو استحقاقٍ، فحكموا عليه بحُكم قطعيٍّ ثابتٍ في زعمهم بأنّه ليس أهلًا، بل هو في قمة الكَذب والبَطَر.

غرض التّعبير بصيغة المُبالغة:

تضخيمُ التّهمة والمبالغة فيها وسيلةٌ لتكذيب المُخالِف

جاء التّعبيرُ بصيغة المُبالغة في قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ﴾[1] لبيان حسدِ ثمودَ وحِقدِها على نبيِّ اللّه صالحٍ عليه السلام بأنّه كثيرُ الكَذب، مُتمادٍ فيه، لا يُتصوَّرُ منه صدقٌ أصلًا، فجاءَتِ الصّيغةُ لتغليظ التُّهمةِ وتضخيمِها، فلم يتّهموه بأنَّه مُجرَّدُ كاذبٍ، بل هو كذّابٌ مَطبوعٌ على الكذب؛ ليكونَ لهم توطئةً لإسقاط أهليَّتِهِ لِتَلَقي الوحي، فالمبالغةُ وسيلةٌ لإقناع أنفسهم ومَن حولهم بنفي كلِّ إمكانيّةٍ لصدقِه.

دلالة تقديم ﴿كَذَّابٌ﴾ على ﴿أَشِرٌ﴾:

تهمةُ الكذب هي الألصقُ بردِّ الرّسالة، والأشِرُ تعليلٌ لذلك

قُدِّم ذكرُ ﴿كَذَّابٌ﴾ على ﴿أَشِرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾؛ وذلك لأنَّ تهمةَ الكَذِب هي الأشَدُّ ارتباطًا بالرّسالة، فالكاذِبُ لا يُؤتمَنُ على الوحي، فجعلوها الأساسَ وقدَّموها، ثمّ ثنَّوا بوصف ﴿أَشِرٌ﴾، والأشِرُ في اللّغة: هو المُتطاوِل البَطِر الطّاغي، فهو ليس مُجرَّدَ كذّابٍ، بل كذّاب مُتغطرِس مُتعالٍ؛ وذلك لتصويره في هيئة المُتعاظِم البَطِر الّذي يَتوهَّمُ لنفسه ما ليس له. وهذا التّرتيبُ يُسوّغُ لهم ردَّ دعوة صالحٍ عليه السلام من أصلها؛ إذ نفيُ الصّدقِ يَقتلِعُ دعواه من جذورها، ثمّ وصفُ الأشِرِ يُسَوّغُ استنكارَهم اختصاصَه مِنْ بينهم بالوحي، فكان ذِكرُ الأشِرِ بعد الكَذّاب تعليلًا؛ كأنّه قيل: لماذا كَذَبَ هذا الكذبَ العريضَ؟ فكان التّعليلُ بأنّه أشِرٌ!.

بلاغة حذف العامل في جملة ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾:

جملة: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوفٍ دلّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 119.

عليه السّياقُ تَقديرُهُ: قلْنا لِنذيرِهم، وهو رسولُ اللّه إليهم[1]. فالجملةُ حكايةٌ لِما قالَهُ ﷺ لصالحٍ عليه السلام وعْدًا له ووعيدًا لقومه[2]، وحُذِفَ فعلُ القول لبيان المُباغتة في الرَّدِّ عليهم، وأنَّ الأمرَ للّه تعالى وحدَه.

وَعْـدُ اللّهِ لأنبيائه ووعيدُه لجاحديهم حقٌّ مباغِتٌ لا يُرَدُّ

دلالة إلحاق السّين بالمُضارع:

السّين في قوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ تُفيد التّقريب والتّأكيد، وهي تختلف عن (سوف) التي تُفيد مطلقَ الاستقبال، وقد تُفيد التّراخي. ونُكْتَةُ التّعبير بـ (السّين) دون (سوف): تقريب زمن الوعيد، فكأنّ اللّه يقول: ليس بينكم وبين انكشاف الحقيقة إلّا وقتٌ يسير. وهذا فيه تهديد صريح، وسخرية ضمنيّة من المُكذّبين الكاذبين، وتأكيدُ تحقّقِ الخبر، فدُخولُ السّين على الفعل (يعلمون) يُفيد تأكيد وقوعه، أي: أنّ العِلم حاصلٌ لا محالة[3].

اقتراب الوعيد يجعل الحقَّ أظهرَ وأرهَبَ

توجيه القراءات القرآنيّة:

اختلف القرّاءُ في قوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ﴾؛ فقرأ بياء الغَيبة الجمهورُ، وقرأ بالخِطاب ﴿سَتَعۡلَمُونَ﴾ ابنُ عامر وحمزة[4]، فهي تحتمل أن يكون هذا حكايةَ كلامٍ منَ اللّه لصالح عليه السلام، على تقدير: (قلْنا له: قُلْ لهم)؛ ففيه حذفُ قَولٍ. ويَحتملُ أنْ يكونَ خطابًا مِنَ اللّه لهم، بتقدير: (قلْنا لهم: ستعلَمون). ويحتمل أن يكونَ خطابًا للمُشرِكين على جعل الجملة مُعترِضة[5].

اختلافُ الخطاب والغَيبة يُؤثّرُ في تعيين المَقصود بالكلام

بلاغة الاستفهام وغرضه:

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ جاء بمعنى التّقريع والتّوبيخ والتّهديد، فهو استفهامٌ إلزاميٌّ، يَقلِبُ

الاستفهامُ وسيلةُ التّقريع الكاشفِ عن حقائق الأشياء

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 198.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 171.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 171.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 380.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 438، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 166، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 44، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 172.

دعواهم عليهم؛ إذ نسبوا الكذبَ والأشِرَّ إلى صالحٍ ﷺ، فجاء الجوابُ مُعلّقًا على المُستقبل؛ ليكشِفَ لهم أنّ الحقَّ سينجلي عن قريبٍ، وأنّ الكذّابَ الأشِرَ ليس الرّسولَ بل هم. فالاستفهام هنا يحقّقُ غرضين: الوعيدَ بما سيلقونه مِنَ العذاب القريب، والإلزامَ بإثبات كذبِهم من خلال الواقع لا بمُجرَّد المُجادَلة[1].

بلاغة الاستعارة التّصريحيّة في لفظ ﴿غَدٗا﴾:

حياة كلِّ إنسان يومٌ غدُهُ القيامة

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بلفظ ﴿غَدٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾ دون (السّاعة) أو (القيامة)؛ لتقريبِ الزّمن في حِسّ السّامع، فالعقوبةُ وشيكةٌ، فالغدُ هو اليومُ التّالي للحاضر، فيكون مَحمولاً على تشبيه يوم القيامة لشدّة قربِه باليوم التّالي، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة، وهو من أساليب التّهويل والوعيد القريب.

نُكْتَةُ تقديم ﴿غَدٗا﴾:

توكيدُ التّهديد، وإبراز القرب الزّمنيّ

قُدِّمَ لفظُ ﴿غَدٗا﴾ على قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾؛ لِما في التّقديم من توكيد التّهديد، وإبراز القرب الزّمنيِّ، ولفت الانتباه إلى عِظَم ما سيقعُ في ذلك (الغد).

براعة إعادة كلامِ الخَصْم في الرّدِّ عليه:

الإشعار بقوّة الفعل وعِزّة المُتكلِّم يُضفيان على الخطاب بغتة المُدهِش

جاء الرَّدُّ على ثمودَ حين وصفوا صالحًا ﷺ بأنّه: ﴿كَذَّابٌ أَشِرٞ﴾ بالألفاظ نفسها في قوله تعالى: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾؛ لتكونَ الحُجّةُ أبلغَ عليهم، وكأنّما أُخذوا من كلامهم ليُقذفَ به في وجوههم، فينكشِفَ أنَّ الوصفَ الّذي رمَوه به هو عينُ ما يَصدُقُ عليهم. وهذا الأسلوب يُرسِّخُ الإلزامَ والتّبكيتَ، ويُشعِرُ أنّ القضيةَ ستُحسَمُ بالفعل لا بالجدال؛ ليعلموا عمليًّا مَنِ الكذّابُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 119، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 328.

ومَنِ الصّادقُ، وبذلك يتحقَّقُ التّهديدُ والوعيد مع إبطال باطلهم بأبلغِ صورةٍ[1].

مَوقِع جملة ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ ممّا قبلها:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ بيانٌ لقوله: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا مَّنِ ٱلۡكَذَّابُ ٱلۡأَشِرُ﴾[2]، كأنّه قال: سيعلَمون الكذّابَ الأشِرَ حيث نُرسِلُ النّاقةَ لهم[3].

فائدة توكيد قوله: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾:

تراكُمُ التّوكيد يُبرِزُ خطورةَ النّاقة فتنةً فاصلة وتهديدًا واقعًا

افتتاح قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾ بـ(إنّ) مع ضمير العظَمة والتّعبير بالاسميّة؛ لزيادة التّقرير وتثبيت المعنى في ذهن السّامع، وعلّةُ هذا الإيراد التّأكيديّ أنّ النّاقةَ لم تكُن أمرًا عاديًّا بل آيةً عظيمة فاصِلة. وفي هذه المُؤكِّدات تقويةٌ ليقين النّبيِّ ﷺ، وشدُّ أزره، وترسيخُ أنّ الأمرَ حقٌّ لا مَحيدَ عنه، وأنّه فِتنةٌ وامتحانٌ لا شكَّ في وقوعه.

دلالة التّعبير باسم الفاعل:

وعدُ اللهِ بإرسال النّاقة أمرٌ مَحتومٌ لا مَفرَّ منه

جاء التّعبير باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ للاستقبال، بقرينة قوله: ﴿سَيَعۡلَمُونَ غَدٗا﴾، وقد تقدَّمَ أنّ الجُملتَين كالمُبيَّن والمُبيِّن، وبقرينة قوله: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ﴾؛ أي: سنرسِلُها فارتقِب ذلك مُستقبَلًا[4]، ولم يأتِ التّعبيرُ بصيغة الفعل المضارع؛ ليجمعَ دلالتين: دلالةَ الحَدَث في المُستقبل، ودلالةَ تحقيق الأمر وثبوته.

بلاغة اختلاف التّعبير بفعل الإرسال بين القصّتين:

اجتباءُ الصّيغ باعتبار زمن الحَدَث وطبيعته

اختلف التّعبيرُ بفعل الإرسال في قصتي عاد وثمود، فقد عبَّرَ بالفعليّة في قصّة عادٍ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 88.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 199.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 308.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 308.

وعبَّرَ بالاسميّة في قصَّة ثمودَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾، والنّكتة في تلك المُبايَنة تعود إلى اختلاف المَقام والغرض البلاغيِّ، ويتجلّى الفرق في أنّه جاء بالفعل ماضيًا ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ لأنَّ الحديثَ عن عذاب عادٍ قد وقَعَ، فهو سردٌ للقصّة، فالسّياقُ يحكي خبرًا واقعًا. وفي ثمودَ جاء بصيغة اسم الفاعل ﴿مُرۡسِلُواْ﴾؛ للدّلالة على أنَّ الإرسالَ لم يقعْ بعد، وإنّما هو وعدٌ إلهيٌّ بالعذاب مُعلَّقٌ على الفتنة الّتي يُختبرون بها، وهي النّاقة، فـ ﴿مُرۡسِلُواْ﴾ يدلُّ على تحقيق الوقوع مع قُربه واستمراريّته في التّقدير، وأنّ هذا الأمرَ مُقرَّرٌ ومُحتَّمٌ في عِلم اللّه، لا يَتخلَّفُ، فهو بمثابة تقريرٍ قد صَدَرَ.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿مُرۡسِلُواْ﴾:

الإرسالُ في النّاقة مَجازٌ عنِ الإخراج، أو كنايةٌ عنِ التّحدّي والفتنة

في قوله سبحانه: ﴿مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ شُبِّهَت النّاقةُ بمُرسَلٍ أو رسولٍ شاهِدٍ عاقِلٍ، يُرسِلُهُ اللّهُ ليُؤيّدَ به دعوى صالح عليه السلام، واستُعير لها فعلُ (الإرسال) الّذي هو مُختَّصٌ بالآيات والرُّسل، فصار ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ بمعنى: (جاعلوها آيةً مُرسَلةً كشاهدٍ بالصّدق). فشُبِّهَ جَعْلُ النّاقةِ آيةً وإظهارُها لخوارق العادة، بإرسال رسولٍ من عند اللّه بآيةٍ لتصديق دعواه، بجامع كون كلٍّ منهما وسيلةَ إقامةِ الحُجّةِ والتّصديق. وهذه استعارةٌ تصريحيّةٌ، حُذِفَ فيها المشبَّه (جَعْلُها آيةً)، وصُرِّحَ بالمشبَّه به (الإرسال)، ومن لطائف الاستعارة: تشريفُ النّاقة بجَعْلِها مُرسَلةً لإقامة الحُجّة، وتبكيتُ ثمودَ الّذين ما انتَفعوا بإرسال صالحٍ عليه السلام.

بلاغة التّعبير بمُفردة ﴿فِتۡنَةٗ﴾:

مِن وظائف المُفردة القرآنيّة بيانُ مَقصود الأفعال

آثر النّظمُ الكريم التّعبيرَ بمفردة ﴿فِتۡنَةٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ﴾؛ لبيان مَقصود الإرسال، وأنّه حاسمٌ في تحقيق الغاية الّتي لأجلها أُرسِلَتِ النّاقةُ، وما ينبني عليها من تمحيص النّاس، وتمييزِ الخبيث مِنَ الطّيّب، ولا أدلَّ على معنى

الفتنة أن تكونَ النّاقةُ مُستأثِرةً بيوم في الشُّرب، وثمودُ بيوم آخر، والفتنة: هي ما يُصيبُ النّاس قُبَيْلَ الانتصار لدين الله تعالى، فيقعُ التّمييزُ بين النّاس، فيهلك مَن هلك عن بيّنةٍ ويحيا مَن حيَّ عن بيّنةٍ، فوظيفةُ المُفردة هنا هو إظهارُ مَقاصديّة الإرسال، وتحقيقُ التّمييز بين المؤمنين والكافرين؛ ليأتيَ العذابُ حقيقًا بأهله، فتقومَ الحُجّةُ على مَن بعدَهم، أنّه الله لا يَظلِمُ النّاسَ شيئًا، وإعراب ﴿فِتْنَةً﴾ مفعولٌ لأجله، أو حال[1]، يُقوّي دلالةَ المقاصديّة في الآية.

نوع اللّام ودلالتُها:

اختصاص كلِّ قوم بابتلاء يكشفُ عن الحكمة الإلهيّة في فتنة النّاس

اللّام في ﴿لَّهُمْ﴾ لام التّخصيص؛ أي: أنّ هذه الفتنة ليسَت مُطلَقةً، بل مَقصورة عليهم دون غيرهم، فيكونُ إرسالُ النّاقة ابتلاءً خاصًّا بثمودَ، يُكشَفُ به مَوقفُهم، ويُظهِرُ عنادُهم، وتخصيصُ الفتنة بهم في قوله: ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ إشارةٌ إلى عدل الله، إذ يَبتلي كلَّ قومٍ بما يناسبُ حالَهم؛ ليُظهرَ صدقَهم أو كذبَهم.

غرض الأمر ودلالتُه:

انتظار ما سيؤول إليه أمرُ ثمودَ مع النّاقة

الأمر بالارتقاب في قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ محمولٌ على معناه الأصليّ، بغرض انتظار ما سيؤول إليه أمرُ ثمودَ مع النّاقة، مع الإيماء إلى أنَّ دعوتَهُم قد أخذَت منحًى آخر.

نُكْتَةُ المَجاز بالحذف:

الرّحمة أساسُ العدلِ الإلهيّ، والعدلُ سابقٌ لعذاب الله

عُدّي الارتقابُ إلى الضّمير في قوله سبحانه: ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ على تقديرِ مُضافٍ يَقتضيه الكلامُ؛ لأنَّه لا يَرتقِبُ ذواتَهم، وإنّما يَرتقِبُ أحوالًا تَحصُلُ لهم. وهذه طريقةُ إسنادِ أو تعليقِ المُشتقّاتِ الّتي معانيها لا تُسنَدُ إلى الذّوات، فتكونُ على تقديرِ مُضافٍ؛ اختصارًا في الكلام، واعتِمادًا على ظهور المعنى. والمعنى: فارتَقِبْ ما يَحصُلُ

(1) الخطيب وآخرون، التّفصيل: 27/ 162.

لهم مِنَ الفتنة عند ظهور النّاقة[1]. ونُكتةٌ أخرى وهي تسليطُ الضّوء على ما سيصدرُ عنهم من أعمالٍ ومَواقِفَ تُعيِّن مصيرَهم بإرادتهم؛ أي: فارتقِبْ اختيارَهم وإرادتَهم فيما سيحصُلُ لهم.

انتظار المُرتَقب والصّبر عليه ترضيَةُ النّفس لما سيقع

نُكتة التّعبير بصيغة (افتَعلْ):

جاء التّعبير بصيغة (افتعل) في قوله تعالى: ﴿فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ﴾؛ ليدلَّ على التّكلُّف في الفعل والانتباهِ إلى أنّ المُرتقَب أمرٌ جَلَلٌ يتطلَّبُ حَذرًا وترقُّبًا بالغًا. فالتَّرقُّبُ هنا هو عبارةٌ عن انتظار أمرٍ مَحتوم الوقوع، ولمّا ارتبطَ بنزول العذاب لِمعرفة مَوقِف ثمودَ مِنَ الإيمان والتّوحيد، ازدادَ عبئُهُ على صالحٍ عليه السلام، ولذلك عُطِفَ عليه الأمرُ بالاصطبار.

من مَعاقد البلاغة حذفُ ما يدلُّ عليه السّياق

بلاغة الإيجاز بين المُتَعاطِفات:

جملة: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ معطوفةٌ على قوله: ﴿مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾، باعتبار أنّ الوعدَ بخَلق آيةِ النّاقةِ يقتضي كلامًا مَحذوفًا، تقديره: فأرسلْنا لهم النّاقةَ، وقلْنا: نبئهم أنّ الماءَ قِسمةٌ بينهم، على طريقة العطف والحذف في قوله: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ﴾ [الشّعراء: 63]، وإنْ كان حرفُ العطف مُختلِفًا، ومثلُ هذا الحذف كثيرٌ في إيجاز القرآن[2]، فآيةُ الشّعراءِ العطفُ فيها بالفاء الفصيحة؛ أي: ضَرَبَ فانفلَقَ، وهنا جاء العطفُ على مَفهومٍ مِنَ السّياق.

الماءُ المَقصودُ هو معهودٌ في الأذهان، مَنقولٌ في الأخبار، مُشاهَدٌ وقتَ النّزول

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَآءَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡمَآءَ﴾ للعهد، تُشير إلى ماءٍ معلوم في الذّهن، وليس ماءً مُطلقًا؛ أي: هو ماءُ القرية الخاصّ الّذي يَشربُ منه القومُ، ويَسقون أنعامَهم، فليس الكلامُ عن مُطلَق الماء، بل عن مَوردٍ مُحدَّدٍ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.

مُشترَكٍ، مَعروف عندهم، يقعُ عليه النّزاعُ، ويجري فيه الاختبارُ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 23]، فهو أيضًا ماءٌ مَعهودٌ معروفٌ؛ أي: البئر أو العين الّتي كانَت لسقيا أهلِ مَديَن[1].

وفائدةُ العهد هنا: توجيهُ المُعجزة والفتنةِ إلى مَوردِ مَعاشِهم المُشترَكِ؛ تحقيقًا للابتلاء والتّمييز بين مَن يَرضى بأمر اللّه فيَقْسِم الماءَ، ومَن يتعدَّى.

نُكْتَةُ الإخبار بالمصدر في ﴿قِسۡمَةُۢ﴾:

عدالةُ القِسْمَة تُمهِّد لاختبار الطّاعة والانقياد

الإخبار بالمصدر بدلَ اسم المفعول في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ﴾، فلم يقُل: (مقسوم)؛ للمبالغة في تحقُّق المعنى. والتّوكيد على أنّ الفعلَ ثابتٌ مُستقِرٌّ في المَوصوف، لا طارئٌ عليه، كأنّ المعنى: أنّ الماءَ قد بَلَغَ في وضوح قِسْمته وثباتها مَبلَغًا صارَ معه كأنّه هو نفسُ القِسمةِ، لا مُجرَّدَ شيءٍ مَقسوم، فلا يُحتاج إلى بيان كيفيّة تقسيمه[2].

دلالة التّعبير بـ﴿قِسۡمَةُۢ﴾مادّةً وصيغةً:

الإخبار بالمصدر للتّأكيد والمبالغة

كلمة ﴿قِسۡمَةُۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ تدلُّ على القَطع والتّجزئة بالعدل والإنصاف، ممّا يُبرزُ أنَّ توزيعَ الماء ليس جُزافًا، بل هو أمرٌ مُقدَّرٌ مَقسومٌ مِنَ اللّه تعالى، ومن جهة الصّيغة (فِعْلَة) فتفيد المَصدريّةَ[3] الدّالّةَ على الحَدَث نفسه؛ أي: فعل القَسْم والتّوزيع، وفيها إشعارٌ بالدّوام والتَّجدُّد، وكأنّ عملية القِسمةِ مُستمرَّةٌ وثابتةٌ.

غرض تنكير لفظ ﴿قِسۡمَةُۢ﴾:

كلُّ مقسومٍ مِنَ الله عظيمُ الشّأن فلا يُعتدَى عليه

نُكِّر لفظ ﴿قِسۡمَةُۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ للعِلم بمضمون اللّفظ ومعناه، ولتعظيم القِسمة وتفخيم شأنها؛ أي: قِسْمةٌ عظيمة الشّأن، ليسَت كسائر القِسْمات؛ لأنّها من

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 200.

عند اللّه لا مَدخَل لأحد فيها، وهي فاصلةٌ قاطعةٌ، لا تُردُّ ولا تُبَدَّلُ، وهي مَخصوصةٌ مُتميّزةٌ، لا تُشبهُ ما يَعرفونه من تقسيمٍ بشريٍّ.

دلالة الظّرفيّة ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾:

قِسمةُ الله عادلةٌ حاسمةٌ كنتيجة مُخالَفَتِها

أفاد استعمالُ الظّرفيّة في قوله تعالى: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ التّوزيعَ العادلَ والمُشاركةَ المُتوازنةَ، فالماء قد وُضع في مَوضِعٍ وسط يُقسَمُ بينهم بالسَّويّة[1]، لا يختصُّ به طرفٌ دون آخر، وفيه: ترسيخُ معنى العدل الإلهيِّ في القِسْمة، وقَطعُ التَّذرُّعِ بالمُخاصَمة؛ لأنّ الظّرفيّةَ (البينيّة) تضمنُ أنَّ كلَّ طرفٍ حاضرٍ في حقِّه ونصيبِه.

تعيين مَرجِع الضّمير ودلالته التّغليبيّة:

تقسيمُ الماء بين قبيلةٍ ظالِمةٍ وبهيمةٍ مُرسَلةٍ حكمةٌ ماضيةٌ

الضّمير في قوله: ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ عائدٌ على أهل القرية والنّاقة معًا، لا على البشر وحدَهم، وذلك من باب (تغليب العقلاء)، فغُلِّب ضميرُ الجمع العاقل حتّى لو كان بعضُ المَذكورين غيرَ عاقلٍ، كالنّاقة هنا. ووجه ذلك: أنّ النّاقةَ، بعد أن ظهرَت كآيةٍ، لم تكُن مُجرَّد بهيمةٍ مَملوكةٍ لأحد، بل هي آيةٌ مُرسَلةٌ مِنَ اللّه، وكان لها حقٌّ مَعلومٌ في الماء كالبشر، كما في قوله: ﴿لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ﴾ [الشّعراء: 155]، فكان لها نَوْبَةٌ في الماء تُراعَى مِثلَ نَوْباتِهم، وهذا التّناوبُ في الشُّرب هو بدايةُ الفتنة الّتي كشفَتْ مَواقِفَ القوم، فشَحّوا بالماء، وأضمروا الأذى، فاستحقّوا الوعيدَ والعذابَ[2]. ففي هذا السّياق قولُهُ: ﴿قِسۡمَةُۢ﴾ يفيدُ التّوكيدَ على أنّ الماءَ موزَّعٌ بعدلٍ، ونظامٍ مَرعيٍّ. وقوله: ﴿بَيۡنَهُمۡۖ﴾ تغليبٌ عقليٌّ، دلَّ على اشتراك البشر والنّاقة في مَورِدٍ واحدٍ بأمرٍ إلهيٍّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (بين).
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 201.

نُكْتَةُ فصلِ قوله: ﴿كُلُّ شِرْبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾:

جملةُ ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ جملةٌ مُستأنَفةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعراب، جاءَت تفصيلًا وبيانًا[1] لِما في قوله: ﴿ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ﴾. وسببُ الفصل: أنّها بمَنزلةِ الجواب عن سؤالٍ مُقدَّر: كيف تكون القِسمة؟ فجاء البيانُ: كلُّ شِربٍ يَحضرُهُ صاحبُهُ المُخصصُّ به. فالفصلُ هنا لإبراز هذا الحُكم كجملةٍ قائمةٍ بذاتها، توضِّحُ القِسمةَ، وتُؤكِّدُ عدلَها، لا باعتبارها قيدًا تابعًا، بل حُكمًا مُستقلًّا.

بيان القِسْمة بين ثمودَ والنّاقةِ حقُّه الفَصْل

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ العُموم:

أفاد التّعبيرُ بلفظ العموم ﴿كُلُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ الإحاطةَ والشّمولَ، بحيثُ لا يُستثنى أحدٌ من نظام القِسْمة، فيُشعِر بالمُساواة المُطلَقةِ في التّوزيع. وهذا له دلالةٌ بالغةٌ في تحقيق الضّبط الصّارم لمَورِد الماء، فلا مَجالَ للنِّزاع أو الطُّغيان، إذ إنَّ كلَّ شِربٍ - للقوم أو للنّاقة - مُحدَّدٌ حاضرٌ عند أهله بانتظام.

الشّمول في حُكم الله يضمَنُ عدلَ القِسْمة، ويمنَعُ الفوضى

دلالة التّنوين في لفظِ ﴿شِرۡبٖ﴾:

التّنوين في لفظ ﴿شِرۡبٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ على تقديرِ مضافٍ إليه، أي: كلُّ شِربِ ماءٍ مُحتَضَرٌ.

دلالة التّعبير بـ﴿شِرۡبٖ﴾ مادّةً وصيغةً:

تدلُّ كلمةُ ﴿شِرۡبٖ﴾ في أصلها على تناولِ مائعٍ مَخصوصٍ بالفم، فيدلّ على أنّ (الشِّرب) في الآية هو اسمٌ على نصيبٍ مَخصوصٍ يُتناولُ بحسب التّوزيع المُقدَّر له[2]. كما دلَّتِ الصّيغةُ ﴿شِرۡبٖ﴾ بكسر الشّين، وهي اسمُ مَصدرٍ على إرادة الحصّةِ المُقرَّرة على جهة التَّكرار والدّوام، فكأنّ كلَّ نَوبةٍ تُعطى هي (شِربٌ) كاملٌ مُستقلٌّ، لا مُجرَّدَ جُرعةٍ عابرة، وهي اسمُ مَصدر؛ لدلالتها على الشّيء أو

الأرزاق مِنَ الله، فتوزيعُها ابتداءً وانتهاءً، أمرًا واختيارًا، يَحْتكِمُ للرّضا التّامّ

---

(1) صافي، الجدول: 14/ 76.

(2) الرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شرب).

الذّات (الحصّة والنّصيب مِنَ الماء المُخصّص للشّرب)، ولا تدلُّ على الحَدَث نفسِه الّذي هو بضمٍّ الشّين وفتحِها، شُرب في مصدر[1].

نُكْتَةُ اختيارِ الجملة الاسميّة دونَ الفعليّة:

النّظام الإلهيُّ ثابتٌ، ومَن اعتدى عليه فإنّما يَعتدي على نفسه

جاء التّعبيرُ بالاسميّة في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾ واسم المفعول ﴿مُّحۡتَضَرٞ﴾؛ لإفادة أنَّ هذا الشِّربَ ثابتٌ ومُؤهَّلٌ لأن يُقصَد، ملازمٌ لأصحابه لا ينفكّون عنه. وفيه دلالةٌ على أنّ هذا النّظامَ في قِسمة الماءِ صار قانونًا مُستقرًّا، لا يَعتريه التّبدُّلُ أو التّفاوتُ، ولو قيل: (كلُّ شرب يُحضَرُ فيه) (جملة فعليّة) لكان المعنى: أنّ حضورَهم للماء يَحدُثُ ويتجدَّدُ في كلِّ وقتِ شُربٍ، لكنّه لا يوحي باللّزوم والثّبات. وقد استخرج البقاعيُّ مِنَ الصّيغة الاسميّة هذه دلالةَ التّشريفِ والتّعظيم للمَورِد، وتحبيب الحضور إليه، واستحقاقه لأن يكونَ مَوضِعَ تزاحُم أو فِتنةٍ واختبارٍ؛ أي: أنّ هذا الشِّربَ أو المَورِدَ الّذي يُحتَضَرُ - له مِنَ العظمة والغرابة ما يجعلُهُ مَوضِعَ اهتمام، كأنّ الأنفسَ تتكلَّفُ الحضورَ إليه[2]. وهذا المعنى لا يَكفي في الوفاء به التّعبيرُ بالجملة الفعليّة، بل يليقُ بتعبيرٍ اسميٍّ يدلُّ على ثباتِ القِسمةِ فيه، ويُلائِمُ مكانةَ المَشرَبِ الّذي تعلَّقَ به مَظهرٌ من مَظاهر آياتِ الامتحان والابتلاء.

نُكْتَةُ حذفِ مُتعلِّق اسم المفعول:

شـدّةُ وضوحِه ودلالـةُ السّياق عليه

حُذِفَ مُتعلِّقُ الحضورِ في قوله: ﴿كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ﴾، والتّقدير: (مُحتَضَرٌ عنده)؛ أي: عند الماء، وحُذف لشدّة وضوحه ودلالة السّياق عليه اعتمادًا على فهم المُتلقّي[3].

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ هي الفصيحة، عاطفةٌ

(1) الجوهريّ، الصّحاح: (شرب)، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 3/ 166.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 121.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 201.

مَدخولَها على مُقدَّرٍ محذوفٍ قبلَهُ؛ أي: فأرسلْنا النّاقةَ، وكانوا على هذه الوتيرة مِنَ القِسْمة، فمَلّوا ذلك، وعزموا على عَقر النّاقة ﴿فَنَادَوۡاْ﴾ لِعقرِها ﴿صَاحِبَهُمۡ﴾[1].

المجموع الفاسد يبحَثُ عن قائده إلى الباطل

دلالة التّعبير بمُفردة النّداء:

نداءُ التّهييج على اقتراف الباطل نداءٌ على الانتحار الذّاتيّ

اختار النّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالنّداء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ لِمُطابقته للواقع، فهو أبلغُ من أن يُقال: (فقالوا لصاحبهم) أو (فطلبوا من صاحبهم)؛ لأنّ النّداءَ دالٌّ على جَهْرهم وانفعالهم، إذِ النّداءُ صوتٌ مُرتفِعٌ يَشي بالتّحريض والإثارة والانفعال الجماعيِّ[2]. والتّعبيرُ بالنّداء يوحي بأنّ القومَ كانوا في حالٍ مِنَ الحماس والتّهييج، حتّى إنّهُم صاحوا به ليقضيَ مُصيبتَهم بندائهم.

نُكْتَة إسنادِ فعلِ النّداء إلى ضمير الجماعة:

التّحريضُ الجماعيُّ على الباطل يفضَح انحطاطَ الأُمّة

أُسند فعلُ النّداء في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ لضمير الجماعة؛ لبيان اتّفاق القوم على الاستغاثة بصاحبهم، وأجمعوا أمرَهم، وحمّلوه مَسؤوليةَ التّنفيذ، وهذا المعنى تُخْفيه الألفاظُ الأخرى كالقول أو الطّلب. ففي هذا تصويرٌ لحالة التّآمُر الجماعيِّ على الجريمة، فصار الأمرُ مُشترَكًا بينهم وبين صاحبهم؛ ففيه إدانةٌ جماعيّةٌ بالتّواطؤ.

بلاغة التّعبير بلفظ الصّاحب:

الصُّحبةُ المَقصودة هي صحبةُ الاتّفاق المُسبَق على إنفاذ أمر

آثرتِ الآيةُ استعمالَ لفظِ الصّاحب في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ﴾ بدلًا مِنَ التّصريح بالاسم، أو الاكتفاء بوصفه بالفعل (كالقاتل أو العاقر)؛ وذلك لبيان أنَّ هذا العاقِرَ هو صاحبُهُم الّذي بينَه وبينَهم اتّفاقٌ سابقٌ على فعلٍ ما، وليس المُرادُ بالصُّحبة

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 89، والقنّوجي، فتح البيان: 13/ 300.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 311، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ندي).

المُلازمةِ الودّيّةِ الّتي تكون بين اثنين، بل هي مُلازِمةُ الاتّفاق على القيام بأمرٍ مُسبَقٍ اتُّفق عليه.

نوع الإضافة ودلالتُها:

إضافة الصّاحب إلى الضّمير ﴿صَاحِبَهُمْ﴾ بمعنى (من)، باعتباره أحدهم، وبمعنى اللّام باعتبار قيامِه بفعلٍ مخصوصٍ لهم، والاحتمالان مُتآيلان.

نوع الفاء ودلالتُها:

التّفريع بالفاء يُصَوِّر الانحدارَ الأخلاقيَّ السّريعَ في الإقدام على الجريمة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ تدلُّ على التّرتيب والتّعقيب، وهي فاءٌ تفيدُ أنّ الفعلَ الثّاني وقعَ مُباشرةً بعد الأوّل، وبلاغيًّا تفيدُ أنّ صاحبَهم لم يتأخّر أو يتردَّد بعدَ أن نادوه، بل بادرَ بالفعل بسرعةٍ. فيُفهَمُ مِن ترتيب الأفعال: ﴿فَنَادَوْاْ﴾، ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾، ﴿فَعَقَرَ﴾، أنّ النّداءَ وحدَهُ فتحَ بابَ الجريمة المُتَّفق عليها سريعًا، وساقَ الأحداثَ نحو النّهاية الرّهيبة دون فاصلٍ، فالفاء في ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ تُبرزُ فوريَّةَ الإقدام، وتَسَرُّعَ الفاعلِ في ارتكاب الموبقةِ بمُجرَّد النّداء[1]، وليس لأحدٍ أن يقومَ بهذا الفعل وبهذه الكيفيّة تجاهَ أمرٍ يخصُّ المجموعَ إلّا بعدَ الاتّفاق مع المَجموع، وتواطؤ الجميع عليه.

دلالةُ التّعبير بصيغة (تفاعَلَ):

التّواطُؤ على فعل الإثم العامِّ يقعُ بالنّيابةِ والوكالة

مجيءُ لفظِ ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ على وِزان (التَّفاعُل) في قوله تعالى: ﴿فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ يدلُّ على مُشاركةٍ أو تدرُّجٍ أو تكلُّفٍ. وهو هنا من عَطا يَعطو؛ أي: تناولَ بيده شيئًا. ولم يقُل: (فأخذ) أو (فتناول)؛ لأنّ (تعاطى) تُشيرُ إلى تَردُّدٍ، وتَكلُّفٍ، ومُبالغةٍ، وجُرأةٍ في الإقدام على الفعل، فهذه "الفِعلَة تَدافَعَها النّاسُ وأعطاها بعضُهُم بعضًا، فتَعاطاها هو وتناولَ العُقرَ بيده"[2]، وتوحي الصّيغةُ

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 283.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 218.

بأنَّ القتلَ لم يكُن خاطِفًا مُفاجئًا، بل فعلًا تمّ التّجهيزُ له والتّدبيرُ لإنفاذه. فاختيارُ هذا اللّفظ دونَ غيره يُفصِحُ بلطفٍ عن تآمرٍ دفينٍ، وتواطؤ مَشينٍ، وتردُّدٍ مَفضوحٍ...، ثمّ وقوعٍ في المَحذور[1].

بلاغة التّعبير بلفظ ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾:

الجُبنُ الجماعيُّ ينتهي بتوكيل فردٍ مُتهوّرٍ يقودُهم إلى الهاوية

استعمالُ لفظِ التّعاطي يُصوّرُ استعارةً تمثيليّةً بليغةً، فشُبِّهَ حالُ القومِ في تردُّدِهم وتدافُعِهم عن مباشرة عَقرِ النّاقة، بحال قوم يتداولون كأسًا مِنَ السُّمّ أو سيفًا يُخشَى استعمالُه، فكلٌّ يدفَعُهُ للآخر، حتّى انتهى إلى صاحبهم، فكلٌّ يتظاهرُ بالإقدام ثمّ يتراجَعُ، ويدفعُهُ لغيره، فصوّرَتِ الحالةُ النّفسيّةُ والمَوقِفُ الجماعيُّ كلُّه بصورةٍ تمثيليّةٍ مَجازيّةٍ قائمةٍ على مَشهَدٍ مَعروفٍ. فالمُشبَّه: حالُ القوم في تردُّدِهم وتخوّفِهم من عَقر النّاقة، والمشبَّه به: حالُ المُتخوِّفين من تعاطي سُمٍّ أو استعمال سيفٍ في مَوقِفٍ خطيرٍ. ووجهُ الشّبه: التّردُّدُ والتّمانُعُ، وتَدافُعُ المسؤوليّةِ، وكأنّ الأمرَ سمٌّ أو سيفٌ يُخافُ منه[2].

دلالة العطف بالفاء في فعل ﴿فَعَقَرَ﴾:

سرعة عقر الأشقى للنّاقة

عطف ﴿فَعَقَرَ﴾ بالفاء علَّل قوله: ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾؛ للدّلالة على سرعة إتيانِه ما دعوه لأجله من قتل النّاقة[3]؛ أي: فتَعاطى صاحبُهم آلةَ القتلِ فعَقَرَ النّاقةَ[4].

دلالة الفاء في جملة: ﴿فَكَيْفَ كَانَ﴾:

الرّبطُ بين الجريمة والعقوبة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تفيدُ التّرتيبَ والتّسبُّبَ؛ أي: لمّا عقرَها، ترتَّبَ على ذلك عذابُ اللّه تعالى وأثرُ النُّذُر، ففي التّفريع ربطٌ بين الجريمة والعقوبة.

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 167، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 172.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 201، 202.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 202.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 311.

بلاغة التّعبير بأسلوب الاستفهام دون الإخبار:

آثر النّظمُ الكريم الإخبارَ عنِ العذاب بشأن ثمودَ بأسلوب الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، دون الخبر الصّريح، فلم يقُل: فعذَّبتُهم، أو فأهلكتُهم؛ لكونه أبلغَ في تهويل العذاب، فجاء بلفظ (كيف) الّذي يُدخِلُ السّامعَ في مَقام التّأمُّل والتَّخيُّل، كما أنَّ في التّأمُّل والتّفكُّر مَلمَحُ التّهديد الضّمنيِّ لِمَن أراد اقتفاءَ أثرهم، واتّباعَ مَسيرتِهم، وفيه تشويقٌ لِمعرفة تفاصيل العذاب، إذ هو جارٍ على أسلوب الإبهام للتّهويل. وفي الاستفهام معنى التّوبيخ للمُخاطَبين؛ لأنّ السُّؤالَ موجَّهٌ لهم، كأنّه قيلَ لهم: ألَم تَرَوا كيف عذَّبتهم؟.

مَن تأمّلَ عاقبة المُكذِّبين عَرَفَ قَدْرَ الإنذار ووجوبَ الاتّعاظ

نُكْتَة عطفِ النُّذُر على العذاب:

أفاد الجمعُ بين العذاب والنُّذُر في قوله تعالى: ﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في التّنبيه على أنّ العذابَ لم يأتِ فجأةً، بل بعدَ إنذارٍ مُتكرِّرٍ، والتَّكرارُ حاصِلٌ من جمع (نذر)، ففي الجمع بينهما تذكيرٌ بحجّة اللّه عليهم: أنّ العذابَ لم يكُنْ ظلمًا ولا مُباغتةً، بل بعد تحذيرٍ واضحٍ.

لا ينزلُ العذابُ الإلهيُّ إلّا بعد نذيرٍ رحمانيٍّ

مَوقِع قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً﴾:

جاءَت جملة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً﴾ في مَوقِع البيان والجواب عن ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فهو مثل مَوقِع قوله ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ في قصّة عاد[1].

بلاغة الاستعارة في لفظ الإرسال:

في لفظ الإرسال في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ استعارةٌ، فقد شبِّهتِ الصّيحةُ بجُندٍ أو رسولٍ يُرسَلُ بالعذاب، وحُذِفَ المشبَّهُ به، ورُمِزَ إليه بلازمِهِ وهو الإرسال، على

الصّيحةُ جنديٌّ من جند الله يُهلِكُ به مَن يشاء

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 202.

سبيل الاستعارة المَكنيّة التّبعيّةِ، وفائدةُ الاستعارة: تصويرُ الصّيحةِ بصورة القوَّةِ المُنظَّمةِ المأمورةِ من عند اللّه، تتحرَّكُ بأمره كما يتحرَّكُ الجُندُ المُرسَلُ، فيتجلّى مَشهَدُ إرسالِها عليهم بالقوّة والقَهر.

دلالةُ وصفِ الصّيحة بواحدة:

العذابُ الإلهيُّ يَـنـزِلُ بجنديٍّ واحـــدٍ قـاصِـمٌ للمُجرمين

وَصْفُ الصّيحةِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ بلفظ ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ يتضمّنُ نُكتَةً بلاغيّةً قويّةً، هي الإشارة إلى كونها خارقةً للعادة، فلو كانَت صيحاتٍ مُتكرِّرةً أو عذابًا مُمتدًّا لكان أقربَ إلى المألوف؛ أمّا كونُها صيحةً واحدةً، ومع ذلك فقد أفنَتْ قبيلةً كاملةً، فذلك يُشيرُ إلى شدّة وقعِها وفظاعةِ أثرِها؛ ويُظهِرُ جبروتَ القدرة الإلهيّة، فأنْ تهلكَ أمّةٌ كاملةٌ بصيحةٍ واحدةٍ تقريعٌ وتخويفٌ للمُخاطَبين، فما أمرُ النّاس إلّا صيحة واحدة، فبمُجرَّد أمر واحد يُفني. كما أنّ في وصف الصّيحة بـ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ تهكُّمٌ بأعداء اللّه، فقوّتهم لا تساوي شيئًا، حتّى إنَّ أضعفَ وسائل العذاب من حيثُ الكمّ ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ كانت كافيةً لتدميرهم، فهُم لا يستحقّون أكثرَ من صيحةٍ واحدةٍ؛ فهي أبلغُ في إظهار خِذلانهم وسقوطهم. ومن جهةٍ أخرى، فيها تصويرٌ لِفُجاءة العذاب؛ فكلمة ﴿وَٰحِدَةٗ﴾ توحي بالمُباغتة، وكأنّها لم تُمهلْهم أو تتكرَّرْ عليهم، فجاءَت مُباغتةً، قاضيةً، مُدمِّرةً[1].

نوع الفاء ودلالتُها:

الفاء في جملة ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ تفريعٌ لأثَرِ الصّيحةِ على إرسالها؛ لتصوير ما بعد الصّيحة،؛ أي: بسبب إرسالها صاروا كالحطب المُكسَّر، اليابس، المُتناثر[2].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 202.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 123.

دلالة استعمال (كان) دون (صار):

مصيرُ المُكذِّبين مَرهونٌ بفجأةِ العذاب وبَغْتةِ الهلاكِ

أفاد استعمالُ (كان) في قوله تعالى: ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ تحقُّقَ الوجودِ في الزّمن الماضي، كأنّه قيل: (أرسلَ عليهم صيحةً فماتوا)، فإرسالُ الصّيحةِ مُتّصلٌ بحال مَوتهم المُعبَّر عنه بالمُشبّه به ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾. وهذا أدقُّ من (صاروا) الّتي قد تحملُ دلالةَ التَّحوّلِ التّدريجيِّ. والفارق بين (كان) و(صار)، أنّ (صار) تُستعمَلُ إذا لم يمكنْ أن يُقالَ: هو كذا؛ أي: في مَقام التَّحوُّل الحقيقيّ، مثل: (صار البيضُ فِراخًا)؛ لأنّك لا تستطيعُ أن تقولَ: (البيضُ فِراخٌ) إلّا بعدَ التَّحوّل. أمّا في الآية فيصحُّ معنًى أن يُقال: (هم كهشيم) بعد وقوع الصّيحة بالفعل، بلا حاجة إلى حمل (كان) على (صار)[1]. وعليه: فالتّعبيرُ بـ ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أبلغُ من (صاروا)؛ لأنّه يُفيدُ أنّ تشبيهَهم بالهشيم صار حالًا مُشاهَدًا وواقِعًا بلا زمنٍ تحوّليٍّ، ويشيرُ إلى فجائيّة المَصير بعد صيحةٍ واحدةٍ؛ ويحملُ دلالةَ الانقطاع الكاملِ لِما كانوا عليه من قوّةٍ ومَنَعَةٍ[2]، وفيه تناسبٌ مع بنية السّورة القائمة على الفجاءة والحَسْم.

بلاغة التّشبيه ومناسبته التّاريخيّة:

التّشبيهُ القرآنيُّ مُتناسِبٌ مع واقعِ الأقوام المُتحدَّث عنهم

في قوله تعالى: ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ تشبيهٌ مُرسَلٌ، ذُكِرَت فيه الأداةُ، حيثُ شُبِّهوا بالشّجر اليابس، الّذي يتّخِذُه مَن يعمَلُ الحظيرةَ لأجلها، أو كالحشيش اليابس الّذي يجمَعُه صاحبُ الحظيرة لِماشيته في الشّتاء[3]. وهو تشبيهٌ يدلُّ على تحويلهم إلى بقايا لا حياةَ فيها ولا قِوامَ. وقد ناسبَ تشبيهُ ثمودَ بعد هلاكهم بقوله: ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ باعتبار أنّ ثمودَ كانَت في بيئةٍ رعويّةٍ وزراعيّةٍ، فشُبِّهوا بما كانوا عليه في البيئة الّتي يعيشون فيها،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 311.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 123.
(3) صافي، الجدول: 14/ 77.

فتشبيهُهم بالهشيم المُضاف للمُحتظِر تشبيهٌ لهم بما هو ساقِطٌ لا قيمةَ ولا نفعَ له. وفيه كنايةٌ عنِ انقلابهم الكامل مِنَ الحضارة والعمار إلى الخَراب والانهيار، فقد كان أصحابُ الحِجْر أهلَ تشييدٍ وتحضُّرٍ، فلم يبقَ من آثارهم شيءٌ له نفْع.

فائدةُ التّشبيه بهشيم المُحتظِر:

المُـفْـسِـدُ في الأرض يُحطَّمُ كـالـهـشـيـم، ومَـصـيرُهُ إلى الجحيم

تشبيهُ ثمودَ بهشيم المُحتظِر في قوله تعالى: ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ «يُحتمَلُ أن يكونَ التّشبيهُ بكونهم يابِسين كالحَشيش بين الموتى الّذين ماتوا من زمانٍ، وكأنّه يقول: سَمِعوا الصّيحةَ فكانوا كأنّهم ماتوا من أيّام، ويُحتمَلُ أن يكونَ لأنّهم انضَمّوا بعضُهم إلى بعضٍ كما يَنضمُّ الرُّفقاءُ عند الخوفِ داخلِينَ بعضُهم في بعضٍ، فاجتمعوا بعضٌ فوق بعضٍ، كحَطبِ الحاطبِ الّذي يَصُفُّهُ شيئًا فوقَ شيءٍ، مُنتظِرًا حضورَ مَن يشتري منه شيئًا، فإنّ الحَطّابَ الّذي عندَه الحَطبُ الكثيرُ يَجعلُ منه كالحَظيرة، ويُحتمَلُ أن يكونَ ذلك لبيان كونِهم في الجحيم؛ أي: كانوا كالحَطب اليابس الّذي للوَقيد، فهو مُحقِّقٌ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: 98]، وقولِه تعالى: ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ [الجنّ: 15]، وقولِه: ﴿أُغۡرِقُواْ فَأُدۡخِلُواْ نَارٗا﴾ [نوح: 25]، كذلك ماتوا فصاروا كالحَطب الّذي لا يكونُ إلّا للإحراق؛ لأنّ الهشيمَ لا يَصلُحُ للبناء»(1).

دلالة الإضافة وفائدتُها:

مَـن أفـسـدَ الـعـمـلَ بعد الـجَـهـد سـوّيَ بـبـقـايـا المَـتـاع التّالِف

إضافةُ الهشيم لذاتِ المُحتظِر في قوله: ﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ هي إضافةٌ لأدنى مُلابسة(2)؛ لأنّ صاحبَ الحظيرة هو الّذي يجمَعُ الهشيمَ(3)؛ ولإفادة قلّةِ الشّأن والمَهانة؛ لأنّ الهشيمَ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 312.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 330.

(3) الواحديّ، البسيط: 21/ 113.

المُرتبطَ بالمُحتظِر هو أدنى الهشيم مَنزِلةً؛ لأنَّه من فضلاتٍ مَتروكةٍ لا يُنتفَعُ بها، وقد رُميَت بعد أن تهشَّمَت[1]. وفي الإضافة إشارةٌ إلى المصير بعد الفعل، فكما أنّ الهشيمَ نتيجةُ فعلِ المُحتظِر، فمصيرُ ثمودَ نتيجةُ فعلِهم واختيارِهم - تعاطَوا الجريمةَ، فحلَّ بهم ما جعلَهُم كهشيم مَن احتظر. ولذلك لم يقُل: فكانوا كالهشيم، ولم يقُل: فكانوا كهشيم الحظيرة؛ لأنّ الهشيمَ وحدَه قد يكون نافعًا، وقد يُحرَّزُ في المُستودَعات ليُتَّجَر فيه. وهشيمُ الحَظيرة هو المَصفوفُ المَرصوفُ الّذي به بناء الحَظيرة، ففيه خيرٌ ونفعٌ[2]، أمّا هنا فالإضافة عيَّنَتِ المَقصودَ، ودلَّت على المراد بما هو ضارٌّ غيرُ نافعٍ، سرعانَ ما يَتخلَّصُ منه المُحتظِر.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾:

الصّورُ الحِسّيّةُ المعهودةُ أقوى في استحضار المَشهَدِ الغيبيِّ

(أل) في لفظ ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ للعهد الذّهنيِّ العموميِّ، إذ تستحضِرُ صورةً مَعروفةً معهودةً عند العرب، وهو راعي الأنعام الّذي يَحتظِرُ لأنعامه ومواشيه حظيرةً من هشيم الشّجر. فالتّعريفُ هنا يَستحضِرُ مَشهَدًا مَحسوسًا مَألوفًا لهم، فيقارنون حالَ المُهلَكين المُبعثَرين بالهشيم المُتكسِّر في الحظيرة، فيتضاعفُ وقعُ تأثير ذلك في نفوسهم.

دلالة الافتعال في اسم الفاعل ﴿ٱلْمُحْتَظِرِ﴾:

نهاية المُنشغل في الدّنيا عنِ الآخرة كهشيم حظيرةٍ بعد طولِ اجتهاد

المُحتظِر: مُفتعِل مِنَ الحظيرة؛ أي: مُتكلِّفٌ عملَ الحَظيرة[3]. فصيغة (افتعل) تدلُّ على التَّكلُّف في الفعل، وبذلِ القصدِ والجُهدِ في أداء الصَّنعة. فالمُحتظِرُ هو الّذي يقصِدُ ويتكلَّفُ صناعةَ الحَظيرة، كما تفيدُهُ صيغةُ (مُفتعِل). و(الهشيم) هو ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 123.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 203.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 203.

تفتَّتَ وتناثرَ من أعواد الحَطب وسَقَطَ عنِ البناء. فإذا أُضيف الهشيمُ إلى ﴿ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ كانَتِ الإضافةُ إلى ما سَقَطَ منه، أو فاتَهُ استعمالُهُ، أو تناثَرَ عن عمله. فالنّتيجة: أنّهم شُبّهوا بما لم يُنتفع به رغمَ الجُهدِ المَبذولِ والقَصدِ المُتكلَّف؛ أي: صاروا كفضلاتِ الصَّنعة، وبقايا العمل، وسُقاط الحيلة. وهذه نُكْتَةٌ شديدةُ التّوبيخ، فهم لم يُشَبَّهوا بالحَظيرة في كمالها، ولا بالحَطب في أصله، بل بهشيم الحَظيرة المُتناثِرِ المُهمَلِ بعد العملِ عليه، أو السّاقطِ قبل أن يُستفادَ منه، ففيه لطيفةٌ وعظيّةٌ بأنَّ المُعتَني بأمر الدّنيا والمُنشغِلَ فيها عنِ الآخرة نهايتُه فيها كهشيم مَنِ اجتهدَ في حظيرته، وتشبيهُهُم بهذا النّوع مِنَ الهشيم أذلُّ لهم من أن يُشبَّهوا بهشيم الرّياح أو غيرها؛ لأنّ الهشيمَ هنا صورةٌ لِما لم يُتَمَّمْ ولم يُنتفَعْ به. وهذا النّمطُ مِنَ الإشارة إلى ضياع الجَهدِ والتَّكلُّف هدرًا، له نظائرُ في القرآن مثلُ قولِه تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣﴾ [الفرقان: 23]، وقولِه: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ [البقرة: 264]. فجميعُها يُشير إلى خسارة العمل مع وجود الجُهد الظّاهر، وهو ما استُفيد أيضًا من قوله: ﴿كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ بهذا الفهم المُختَزَل في صيغة (مُفتعِل).

❁ الفُروقُ المعجميّة:

الأشَرُ، والفرحُ، والبَطَرُ:

الأشَرُ: شدّةُ البَطَر. فهو أبلغُ مِنَ البَطَر، والبَطَرُ أبلغُ مِنَ الفَرَح، فإنّ الفَرحَ - وإنْ كان في أغلب أحوالِهِ مَذمومًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ٧٦﴾ [القصص: 76] - قد يُحمَدُ تارةً إذا كان على قَدْرِ ما يَجب، وفي المَوضِع الّذي يَجب، كما قال تعالى: ﴿فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ [يونس: 58]، وذلك أنّ الفَرحَ قد يكونُ من سُرورٍ بحسب قضية العقل،

الفرح يُمدَحُ ويُذَمُّ بحسب المَقام، بخلاف البَطر فهو مَذمومٌ، والأشَر أشدُّ منه

والأَشَرُ لا يُمتدَحُ الإنسانُ عليه؛ لأنّه لا يكونُ إلّا فرحًا بحسب قضيّة الهوى[1]. فالأَشَرُ لفظٌ يدلُّ على الحِدَّة والتَّطرُّف في الصّفة[2].

والبَطَر هو المَنزِلةُ الوسط بين الأشَر والفَرح، وهو البَطَر: دَهَشٌ يعتري الإنسانَ من سوء احتمالِ النّعمةِ وقلّةِ القيام بحقِّها، وصرفِها إلى غير وجهها[3]. ولا يكونُ إلّا مَذمومًا؛ لأنّه فرَحُ سوءٍ يحمِلُ على الإفساد. وأمّا الفرحُ فهو مُطلَقُ المَسَرّة، فإنْ كان سرورًا بخيرٍ فهو خيرٌ، وإنْ كان سرورًا بشرٍّ فهو شرٌّ. وعليه فالبَطَرُ هو المُبالغة في الفَرح، والأَشَرُ هو المُبالغةُ في البَطَر، والفرحُ هو أصلُ ذلك كلّه.

القتل والعَقر:

العَقرُ قطعٌ يُفضي إلى الموت، والقتلُ إزالةُ الرّوحِ عمومًا

القتْلُ: هو إزالةُ الرّوح عنِ الجسد[4]، وقد يقعُ بعَقرٍ وبغيره؛ كموتِ السُّمِّ وموتِ الكَمَدِ والقَهْر، وموتِ الجوع.

وأمّا العَقْرُ: فهو الجَرحُ والقَطعُ[5]، وقد يكون بقصدِ إيقاعِ الموتِ، أو بقصدِ الإيذاءِ فقط، وفي الآية بقصد إنهاءِ الحياة، وقد قال تعالى: ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾؛ لأنّه قتلٌ بالنَّحر الّذي لا يكونُ إلّا بالجَرْح والقَطع. ومنه قولهم: عقرتُ البعيرَ؛ أي: ذبحتُه نحرًا، فأصابَ النّاقةَ إصابةَ موتٍ بالعَقْر والنّحر، كما تُعقَر سائرُ النّوق.

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أشر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أشر).
(3) الرّاغب، المفردات: (بطر).
(4) الرّاغب، المفردات: (قتل).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عقر).

﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ ٣٣ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ
ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ ٣٤ نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن
شَكَرَ ٣٥ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ٣٦ وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ
عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧ وَلَقَدۡ
صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ ٣٨ فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٩ وَلَقَدۡ
يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ٤٠﴾ [القمر: 33 - 40]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

قصّةُ قومِ لوطٍ، وتناسُبها مع مَطلَعِ السّورة

لَمّا كانَتِ الآياتُ السّابقةُ بمقاطعِها المُتنوِّعة قد سلكَت مَسلكَ التَّحذير والتَّهديد والوَعيد لِمَن خالفَ الحقَّ المُبينَ، وابتُدِئَ بقصَّةِ قوم نوحٍ فعادٍ فثمودَ، ناسبَ أن تكونَ قصَّةُ قوم لوط عليه السلام رابعةَ تلكَ الأربعِ؛ ليزدادَ رَدعُ المُكذِّبين المُتهاوِنين، ويقعَ منهُم تنوُّعُ أسبابِ العذابِ مَوقِعَ الوعظ الشَّديد، كما أنَّ قصَّةَ قوم لوطٍ عليه السلام من أعظم ما وقَعَ بعد ثمودَ ممّا تعرِفُهُ العَربُ من أخبار الأُمَمِ البائدة وآثارِهم الباقية، فمَرعيٌّ فيها التَّناسُبُ الزَّمانيُّ، معَ ما في قصَّتهِم من صورةٍ تُشبهُ أهوالَ السّاعةِ؛ بتبديلِ الأرضِ غيرَ الأرض، فهي الصّورةُ المُناسبةُ لِمَطلَعِ السّورة، فجاءَتِ القصَّةُ في تسلسُلٍ بيانيٍّ يُصَعِّدُ المَوعظةَ بقومٍ إلى آخرين أشدَّ بأسًا منهم؛ تحريكًا للقلوب، وتنبيهًا للعقول.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿حَاصِبًا﴾: الحاءُ والصّادُ والباءُ أصلٌ واحدٌ، وهو جنسٌ من أجزاءِ الأرضِ، ثمَّ يُشتَقُّ منه، وهو الحَصْباءُ، وذلكَ جنسٌ مِنَ الحَصى[1]. والحَصْبُ: رَمْيُكَ بالحَصْباء؛ أي: صِغار الحَصَى

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حصب).

أو كِبارها[1]. يُقالُ: تَحاصَبَ القَومِ إذا تَقاذَفوا بالحصى[2]. ويُقال للرّيح الَّتي تَحمِل التُّرابَ والحَصى حاصِبٌ، وللسَّحابِ يَرمي بالبَرَد والثَّلج حاصِبٌ؛ لأنَّهُ يَرمي بهما رَمْيًا[3]، والمقصود بالحاصب في الآية: الرّيحُ الَّتي تَحْصِبُ؛ أي: تَرمي بالحَصباءِ تَرفَعُها مِنَ الأرضِ لِقوَّتِها[4].

2) ﴿بِسَحَرٍ﴾: أصل (سحر) يدلُّ على وقتٍ مِنَ الأوقات[5]. السَّحَرُ والسَّحَرَةُ: اختلاطُ ظلام آخر اللَّيل بضياء النَّهار، وجُعل اسمًا لذلك الوقت، ويُقالُ: لقيته بأعلى السَّحَرَين، والمُسْحِرُ: الخارج سَحرًا، والسَّحورُ: اسمٌ للطَّعام المأكول سَحَرًا، والتَّسَحُّرُ: أكْلُه[6]. وسَحَر إذا كان نكرةً يُرادُ به سَحَرٌ مِنَ الأسحار: انصرَفَ، تقولُ: أتيتُ زيدًا سحرًا، فإذا أردتَ يومكَ، قلتَ: أتيته سَحَرَ يا هذا، وأتيتُه بسَحَرٍ[7]. والمراد به في الآية: ما بين آخر اللَّيل وطُلوع الفجر حيثُ يختلطُ سَوادُ اللَّيل ببياض النَّهار[8].

3) ﴿بَطۡشَتَنَا﴾: أصلُ (بطش) يدلُّ على أخذِ الشَّيء بقَهرٍ وغلَبَةٍ وقوَّةٍ[9]. والبَطْش: التَّناوُلُ بشِدَّة عِندَ الصَّوْلة، والأخذُ الشَّديدُ في كُلِّ شَيءٍ بطشٌ؛ بَطَشَ يَبطُشُ ويَبطِشُ بَطْشًا[10]، وكلُّ ما في القرآن مِنَ البطشِ فهو بمعنى الأخذِ الشَّديدِ - صولةً أو عقوبةً[11]، فالبَطْشَةُ هنا: المَرَّةُ مِنَ البطشِ، وهو الأخذُ بعُنفٍ؛ لعِقابٍ ونحوه[12].

4) ﴿فَتَمَارَوۡاْ﴾: أصلُ المَرْي من مَرَيْتُ النّاقةَ: إذا مَسَحْتُ ضَرعَها للحَلْب[13]، والمِراءُ: الجِدالُ، والمُماراةُ: المُجادَلَةُ على مَذهبِ الشَّكِّ والرّيبة، ويُقالُ للمُناظَرَةِ: مُماراةٌ؛ لأنَّ كل

(1) الخليل، العين: (حصب).
(2) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (حصب).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حصب).
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(6) الرّاغب، المفردات: (سحر).
(7) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 21/ 115.
(8) مَجمَع البحوث، التّفسير الوسيط: 9/ 1184.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطش).
(10) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (بطش).
(11) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بطش).
(12) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (مرى/ مري).

واحِدٍ يَستَخرجُ ما عندَ صاحِبِه ويَمتَريه كما يَمتَري الحالِبُ مِنَ الضَّرْعِ[1]. والامتِراءُ: الشَّكُّ والتَّرَدُّدُ في الأمرِ، وهو المُحاجَّة فيما فيه مِرْية. قال تعالى: ﴿قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [مريم: 34]. والتَّماري في الآية: تفاعُلٌ مِن المِراءِ وهو الشَّكُّ، وصيغةُ المُفاعَلَة للمُبالَغة[2].

5) ﴿رَٰوَدُوهُ﴾: أصل (رود) يدُلُّ على مَجيءٍ وذَهابٍ[3]. والمُراوَدة: مُفاعَلةٌ مِن رادَ يَرودُ: إذا جاءَ وذهبَ[4]. والمُراوَدَة: المُراجَعَةُ والمُرادَدَةُ، وراوَدَ جاريَتَه عَن نفسها، وراودَتْه هيَ عن نَفسِه، إذا حاولَ كلُّ واحِد من صاحِبه الوَطءَ والجِماعَ[5]. ومعناها: أن تُنازِعَ غيرَك في الإرادة، فتريدُ غيرَ ما يريدُ، أو تَرودَ غيرَ ما يَرودُ، وراوَدتُ فلانًا عن كذا[6]. وعليه فالمُراوَدَةُ هنا مُرادٌ بها: مُحاوَلَةُ رِضَى الكارهِ شيئًا بقَبولِ ما كَرِهَهُ[7]، فقومُ لوطٍ عليه السلام أرادوا منه تَمكينَهم من ضُيوفِه، مِمَّن كانَ أتاهُ مِنَ المَلائكَةِ في هَيئَةِ الأضيافِ- طَلَبًا للفاحِشَةِ[8].

6) ﴿فَطَمَسْنَآ﴾: أصلُ (طمس) يدلُّ على مَحْوِ الشَّيءِ ومَسْحِه[9]، ومنه الطَّمْسُ: الإهلاكُ والإتلافُ ومَحْوُ أثَرِ الشَّيءِ، يُقالُ: طمَسَ الشَّيءُ ويطمِسُ طُموسًا إذا زالَ بحيثُ لا يُرى ولا يُعرفُ لذهاب صورتِه[10]، ومثالُه: طَمْسُ الخَطِّ، وطَمْسُ الأثَرِ. والشَّيءُ طامِسٌ أيضًا، وقد طَمَسَ هو بنَفسِه[11]. ويأتي بمعنى ذَهابِ ضَوءِ الشَّيءِ، يُقالُ: طَمَسَ النَّجمُ: ذَهَبَ ضَوءُهُ، والقمرُ مثلُه[12]، ويُقال: عَينٌ طمْس ومَطموس، وهو الَّذي لا يُرى شقُّ عَينِه ولا يَتبيَّنُ جَفنُه[13]. ومعنى ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾: حَجَبناها عنِ الأبصارِ فلم ترَ شيئًا[14].

---

(1) الرّاغب، المفردات: (مرى).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 205.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رود).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 454.
(5) الزّبيدي، تاج العروس: (رود).
(6) الرّاغب، المفردات: (رود).
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.
(8) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 144.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمس).
(10) الرّاغب، المفردات: (طمس).
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طمس).
(12) الخليل، العين: (طمس).
(13) الواحديّ، التّفسير البسيط: 18/ 512.
(14) المراغيّ، تفسير القرآن: 27/ 92.

7) ﴿بُكۡرَةٗ﴾: أصلُ (بكر) يدلُّ على أوَّلِ الشَّيء وبَدْئه. ومنه البُكرةُ وهي الغَداةُ، والجمعُ البُكَر. والتَّبكير والبُكور والابتكار المُضيُّ في ذلك الوقت[1]. والبُكْرَة الّتي هي أوَّلُ النَّهار، فاشتُقَّ من لفظه لفظُ الفِعل، فقيل: بَكَرَ فلان بُكورًا: إذا خرجَ بُكْرَةً[2]. وكلُّ مَن بادرَ إلى الشَّيء فقد أبْكَرَ إليه وبَكَّرَ، أيَّ وقتٍ كانَ[3]. والمراد بها هنا: أوَّلُ النَّهارِ، وهو وقتُ الصُّبح[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نجاةُ آلِ لوطٍ وهلاكُ قومِهِ عِبرةٌ للغافِلين وتمكينٌ للشاكِرين

تُبيِّن الآياتُ الكريمةُ قصَّةَ قومِ لوط - أهل قرى سَدوم وعمورة - الّذين كذَّبوا رسولَهم لوطًا، وخالَفوا أمرَ اللّه، وأصرّوا على الفاحشة، فأعرضوا عنِ النُّذُرِ الّتي أنذرَهم بها، وتطاوَلوا في العِناد، فأرسلَ اللّهُ عليهم عذابًا مُهلِكًا، بدأ بحاصِبٍ، وهو ريحٌ ترميهم بالحجارة، ثمَّ قلبَ اللّهُ عليهم قُراهُم، فجعلَ عاليَها سافلَها، ونجَّى اللّهُ لوطًا ومَن آمنَ معه من أهله في وقتِ السَّحر، رحمةً منه وفضلًا؛ لأنَّهم شكروا اللّهَ بالإيمان والطّاعة. وهذه سُنَّة اللّه: يُنجي مَن يشكرُه، ويُعاقِبُ مَن يُعرِضُ ويَكفُرُ.

وكان قومُ لوطٍ قد أُعذِروا، فقد أنذرَهُم اللّهُ مرارًا، ولكنَّهم تمادَوا، بل راودوا نبيَّهم عن ضُيوفهِ الملائكة ليفعلوا بهم الفاحشةَ، فطَمَسَ اللّهُ أعينَهم، وجعلَهُم عِبرةً، وقيلَ لهم: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾، ثمَّ جاءَهم العذابُ في الصَّباح، فكان عذابًا مُستقِرًّا لا يُفارِقُهم، عذابًا في الدُّنيا وعذابًا مُمتدًّا في جهنَّم. ويُختمُ المَشهَدُ كما خُتِمَ ما قبلَهُ بتذكيرٍ: بيُسرِ القرآنِ ودَعوَتِه للاتِّعاظ به، فهل مِن مُدَّكِرٍ يَعتبرُ ويَتجنَّبُ مَصيرَ الغافِلين[5]؟.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بكر).
(2) الرّاغب، المفردات: (بكر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بكر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 206.
(5) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 216.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآيات عن سابقتها:

تفصيلُ القرآن للقَصص بأحداثٍ مُتباينةٍ يُثبتُ أنَّ سُنَّةَ الله واحدةٌ لا تتبدَّلُ

فصلَت هذه الآياتُ ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ لكمال الانفصال؛ للإشارة إلى أنَّ قصَّة قوم لوطٍ مُتميِّزةٌ عن قصَّة ثمودَ قبلها، مع أنَّ الجامِعَ واحدٌ: وهو (تكذيبُ الرُّسلِ وعاقبةُ المُكذِّبين). فالفصلُ يحقِّقُ الانتقالَ من قصَّةٍ إلى أخرى ومن مَشهَدٍ إلى آخر، ويُهيِّئُ الذِّهن لاستقبال عِظةٍ جديدةٍ مُستقلَّة. ففائدةُ الفصل تتلخَّصُ في استقلال كلِّ قصَّةٍ ببيان مَضمونها، بذِكر كلِّ أمَّةٍ بعذابها؛ ليكونَ العذابُ واقِعًا مُتكرِّرًا على المُكذِّبين، لا مُجرَّد حادثةٍ واحدةٍ، فيتأكَّدُ معنى سُنَّة اللّه في إهلاك الكافرين.

علَّةُ تعريف القوم بالإضافة إلى اسم نبيِّهم:

خِسَّةُ الفاحشة تُبعِدُ النّاسَ عن صاحبها ولو بالاسم

جاء تعريفُ ﴿قَوۡمُ لُوطٍ﴾ بالإضافة إلى نبيِّهم دون ذكر اسمٍ مَعلومٍ لهم كعادٍ وثمودَ، لأنَّهم لم يكونوا يُعرَفون باسمٍ مُستقلٍّ عند العرب، فرُبِطوا باسم نبيِّهم المَعروف[1]، فقد عُرِفوا به، واشتُهروا بالانتساب إليه، ولخسَّة فاحشتهم لم يرضَ بهم أحدٌ انتسابًا، وقد جرَتِ الإضافةُ مَجرَى الأعلامِ المُشتهرة على الأقوام المُندثِرة.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي:

صيغة الماضي في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق التّكذيب ووقوعه منهم، فهو سياقُ تقريرٍ وتسجيلٍ.

دلالة جمع (النُّذُر):

مَن كَذَّبَ برسولٍ فقد كَذَّبَ بالرُّسل

أفادَ جمعُ النُّذُرِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ العمومَ؛ أي: كذَّبوا بكلِّ مَن أنذرَهم أو كلِّ ما أُنذروا به، وهو عامٌّ في نُذُر لوطٍ أو نُذُر مَن تقدَّمَه أو إنذاراتِ اللّه جميعًا؛ لأنَّ داعيةَ الاستهانة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.

الشّاملة برسالات التَّحذير حاصلةٌ في المُكذّب أبدًا، فلو عُرِضَ عليه كلُّ رسولٍ لكذَّبه، فكان تكذيبُهُ لواحدٍ تكذيبًا للجميع.

مَوقِع جملة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾:

جملة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عنِ الإخبار عن قوم لوطٍ بأنَّهم كذَّبوا بالنُّذُر[1]، فجاءَت جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: ما شأنُهم؟ أو ما قصَّتُهم؟.

توجيهُ حذفِ طَيِّ الحوار بخلافِ القَصص المتُقدِّم:

تفصيلُ الفاحشةِ القبيحةِ في مَوضِعٍ يُغني عن سَردِها في باقي المَواضِع

بدأ النَّظمُ الكريمُ بذِكْرِ عذابِ قوم لوطٍ بعدَ الإخبار عن تكذيبهم: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ﴾، ثمَّ قال: ﴿أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾؛ ولم يذكُرْ بينهما كيفيَّةَ ذلك، كما كان في قصّة نوحٍ وثمودَ في هذه السّورة؛ ونكتةُ ذلك اشتهارُ أمرِهم وذُيوعُ جريمتهم، فطَواها وعجَّلَ بعَذابها؛ للدَّلالة على مُنتهَى قُبْحِها الَّذي لا يَكفُّهُ إلّا تعجيلُ العذابِ في الواقع، وذَكَرُهُ في النَّظم؛ ليكونَ موافِقًا للواقع[2]، كما أنَّ سورةَ القمر بُنِيَت على تهديد المُشرِكين لإعراضهم عنِ الاتِّعاظ بآيات الله الّتي شاهَدوها، وآثارِ آياته على الأمم الماضية الّتي عِلموا أخبارَها، وشهِدوا آثارَها، فلم يكُنْ ثَمَّةَ مُقتَضًى لتفصيل أقوالِ تلك الأمم إلّا ما كان منها مُشابِهًا لأقوال المُشرِكين في تفصيله، ولم تكُنْ أقوالُ قوم لوطٍ بتلك المَثابة، فلذلك اقتُصَرَ فيها على حكاية ما هو مُشترَكٌ بينهم وبين المُشرِكين، وهو تكذيبُ رسولِهم وإعراضُهم عن نُذُرِه[3].

غَرَضُ تنكير لفظ ﴿حَاصِبًا﴾:

تنكيرُ العذاب يَزيدُهُ رهبةً، ويُذكِّرُ أنَّ بطشَ الله لا يُحَدُّ ولا يُحاطُ به

نُكِّر لفظ ﴿حَاصِبًا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾؛ لإفادة التَّهويل والتَّفخيم؛ أي: ريحًا حاصِبةً

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 124.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.

مَجهولةَ الكيفيَّةِ مُرعِبةً مُدمِّرةً لا يُدرَكُ كُنهُها، وهذا الأثرُ التَّنكيريُّ يجعَلُ السّامعَ يَتخيَّلُ عذابًا عظيمًا ﴿حَاصِبًا﴾ مُتنوِّعَ الكيفيَّةِ، فيبقى أثرُ الوعيد حاضرًا في النَّفس بلا تحديدٍ يُقيِّدُهُ.

نوع الاستثناء ودلالته:

كَثرةُ الخبيث لا يُعدَمُ فيه نقاءُ الطَّيِّب

الاستثناء في قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ هو استثناءٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ آلَ لوطٍ من قومه بلا شكٍّ، فدخَلوا في جنسِ المُستثنَى منه، وهو قومُ لوط، فيصحُّ أن يُستثنَوا منهم، لذا كان الاستثناءُ حقيقيًّا مُتَّصلًا، ولم يُذكَرْ لوطٌ عليه السلام في المُستثنى؛ لدخوله فيه بدلالة الفَحوى (المعنى المَفهوم)؛ لأنَّه نبيُّهم، وهو الأصلُ في النَّجاة؛ ولأنَّه لو استُثنِيَ الآلُ وتُرِكَ هو لكانَ في ذلك خللٌ في معنى النَّظم. والقاعدة: أنَّه إذا ذُكِر الفرعُ، ولم يُذكَرِ الأصلُ، دلَّ على أنَّ الأصلَ أولى وأحرَى، وهذا من باب فحوَى الخطاب أو قياسِ الأولى[1]، وجاء الاستثناءُ بعد تقرير العذاب؛ ليُبرزَ العناية الخاصَّةَ والنَّجاةَ المُنفرِدةَ، ويُقوّيَ في النَّفس مَشهَدَ التَّفرقةِ بين المُهلَكينَ والنّاجين.

توجيه السُّكوت عن ذِكرِ زوجةِ لوط:

لا ينفَعُ النَّسبُ عـنـد فـسـادِ العقيدة

في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم﴾ لم يُذكَرْ استثناءُ الزَّوجة، رغم أنَّها لم تُنَجَّ، والسِّرُّ: أنَّ القرآنَ قد سبقَ وأن بيَّنَ في مَواضِعَ أخرى أنَّها كانَت مِنَ الغابرين، كقوله: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٨٣﴾ [الأعراف: 83]، فحَصَلَ الاكتفاءُ بذلك، وكذلك في الحذفِ تنبيهٌ على أنَّ النَّجاةَ ليسَت بالنَّسب بل بالإيمان، فمَن لم يُؤمِن، لا يُعدُّ مِنَ الآل، وإنْ كانَت زوجَ النَّبيِّ، كما قالَ تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: 46][2].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204، وابن جُزَي، تقريب الوصول، ص: 163، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 860.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.

غرضُ إسنادِ فعلِ الإنجاءِ إلى ضميرِ العظمة:

النَّصرُ والنَّجاةُ لا تكونُ إلّا من عند الله مهما عَظُمت الأخطارُ

أُسنِد فعلُ الإنجاء إلى ضمير العظمة ﴿نَّجَّيْنَٰهُم﴾؛ لإظهار عِظمِ الفضل والمِنَّة، وأنَّ النَّجاةَ ليسَت بطبيعة الأسباب ولا بقُدرة بشرٍ، بل هي من فعل اللّه العظيم وحدَه. وفي ذلك تعظيمٌ للمِنَّة على آل لوطٍ، وتأكيدٌ أنَّ نجاتَهُم كانَت بقُدرة اللّه وحدَه، فيقوى أثرُ الامتنان في قلوب السّامِعين.

نكتةُ حذف مُتعلّق الإنجاء:

عـنـايـةُ الـلـه بعباده المؤمنين تَحفُّظُهم من كلِّ سوءٍ

حُذِف مُتعلِّقُ فعلِ الإنجاء في قوله تعالى: ﴿نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾؛ للتَّعميم والإطلاق؛ أي: نجّيناهُم من كلِّ ما أحاطَ بهم من عذاب الاستئصال والمَهالِك. والحذفُ أبلغُ مِنَ التَّقييد ببيان شُمول النَّجاة وكمالِ العناية الإلهيَّة؛ فالحفظُ الإلهيُّ قد أحاطَ بهم من كلِّ جهةٍ، وهو حذفٌ دلَّ عليه السّياقُ في قوله: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم﴾؛ أي: نجّيناهُم من ذلك العذابِ المُرسَلِ فلم يُصِبهُم شيءٌ من ذلك.

نوعُ الباء ودلالتُها:

وقتُ النَّجاة لا يُخطئُ مَوعِدَه

الباء في قوله تعالى: ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ للمُلابسة[1]؛ أي: نجاتُهم مُلتبِسةٌ بوقت السَّحرِ داخِلين فيه. وعبَّرَ بها دون الظَّرفيَّة (في سَحَر)؛ للتّأكيد على أهمّيّة نجاتِهم وتعظيمًا لها بإلصاقها في ظرفِ وقوعِها، فكأنَّ نجاتَهُم في دقَّة إيقاعِها في ميقاتِها، صارَت كاللَّصيق بالوَقت المُتشبِّث به.

دلالة ذكر السَّحَرِ:

إخـبـارُ الـقـرآن بـالـواقعِ لفائدةٍ تنفَعُ العباد

ذُكِرَ السَّحَرُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾؛ للإخبار عنِ الواقع والزَّمن الّذي وقَعَ فيه الإنجاءُ، وللإشارة إلى أنَّ إنجاءَهم وقَعَ قبيل حلولِ العذابِ بقومِهم لقوله تعالى بعدَه: ﴿وَلَقَدۡ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 331.

﴿صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٌ مُّسۡتَقِرٌّ﴾[1]، فنجّاهم اللّهُ في آخر وقتٍ مُمكنٍ للنَّجاة، وهذا يُعمِّقُ صورةَ النَّجاةِ السَّريعةِ المَلهوفة، ويُشعِرُ بأنَّ العذابَ لاحِقٌ بهم لا مَحالةَ، فلم يُمهَلِ القومُ بعد خروجِ لوطٍ ﷺ إلّا قليلًا، وفيه سبقُ الرَّحمةِ للغضب.

فائدةُ ذِكْرِ وقتِ السَّحَر:

أفادَ ذكرُ السَّحَر في قوله تعالى: ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ استحضارَ نعمةِ الإنجاءِ للمُؤمنين؛ ليكونَ هذا الوقتُ وقتَ الدُّعاء للإنجاء مِنَ الظّالمين في كلِّ وقتٍ وحين.

نكتةُ تنكير لفظ (سَحَر):

نُكِّر لفظُ (سَحَرٍ) في قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾؛ للتَّعظيم والتَّهويل؛ أي: في وقتٍ عجيبٍ مَخصوصٍ مِن أسحرِ اللَّيالي، قليلِ البركةِ في حقِّ الكافرين، عظيمِ النِّعمةِ في حقِّ النّاجين. فالتَّنكيرُ يُلفِتُ السّامِعَ إلى دقَّة التَّوقيتِ ولُطفِ التَّدبير؛ فنَجاتُهم لم تكُنْ جُزافًا، بل في ساعةٍ مَخصوصةٍ جعلَها اللّهُ ميعادًا للفصلِ بين الهلاكِ والنَّجاة.

نصرُ الله يأتي في لحظةٍ مُقدَّرةٍ لا يتقدَّمُ ولا يتأخَّرُ

مَوقِع جملة ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾:

قوله تعالى: ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ جملةٌ تعليليَّةٌ للإنجاء الوارد في قوله: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٖۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾، كأنَّه قيل: نجَّيناهم لأجلِ إنعامِنا عليهم. و﴿نِّعۡمَةٗ﴾ مفعولٌ له، فهو بيانٌ لسبب الفعلِ، وهو قوله: ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم﴾[2].

إنـجـاءُ الـلـه لـعـبـادِه فضلُ إنعامٍ وعظيمُ امتنانٍ

غرضُ تنكير كلمة ﴿نِّعۡمَةٗ﴾:

نُكِّرَ لفظُ ﴿نِّعۡمَةٗ﴾؛ للتَّفخيم والتَّعظيم؛ أي: نعمةٌ عظيمةٌ تُجَلُّ

كلُّ نجاةٍ نعمةٌ مَخصوصةٌ ونعمةٌ مَمدودةٌ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 204.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 131، والخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 27/ 167.

عنِ الوصف؛ لأنَّها نعمةُ النَّجاة مِنَ العذاب الّذي أهلَكَ أمَّةً بكاملها. ولإفادة النَّوعيَّة والتَّميُّز؛ أي: هذه النِّعمةُ نوعٌ خاصٌّ فريدٌ مِنَ النِّعم، لا يماثلُهُ غيرُهُ، وهي النَّجاةُ الاستثنائيَّةُ في لحظةِ الهلاك العامِّ. فتنكيرُ ﴿نِّعۡمَةٗ﴾ دلَّ على أنَّها نوعٌ مِنَ النِّعم الّتي لا تكونُ إلّا من عند اللّه، لا تُنالُ بكسبٍ أو حيلةٍ. ولإفادة الإبهام؛ للإجلال، فتنكيرُ النِّعمة لتفخيم شأنِها على وجهٍ يُشبِهُ الإبهامَ المَقصودَ، كقول القائل: (لقد أنعمتُ عليه نعمةً)، والمراد: نعمةٌ مَبهمَةٌ لا تكادُ توصَفُ من فرط عظمتِها. وقد يفيدُ التَّنكيرُ - هنا - الإطلاقَ والشُّمولَ، فيحتمِلُ أنَّ المقصودَ بـ﴿نِّعۡمَةٗ﴾ كلُّ ما نالَهم مِنَ الفضل، مِنَ النَّجاة، والهداية، والإكرام، وإبعادهم عن مَواطِن السّوء، فجاءَتِ الكلمةُ نكرةً؛ لِتدلَّ على نِعمةٍ جامِعةٍ شاملةٍ لكلِّ ذلك[1].

نوع ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتها:

كلُّ نِعمةٍ آتيةٌ مِنَ الله وحدَه، فالشُّكرُ له وحدَهُ

﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ ابتدائيَّةٌ، تفيدُ ابتداءَ الغاية؛ أي: إنَّ هذه النِّعمةَ صادرةٌ ابتداءً من عند اللّه وحدَه لا من غيره. فحرفُ الابتداء هنا يوضِّحُ مَصدرَ النِّعمة وخصوصيَّتَها، فيربطُها بكرمِ اللّه، لا بسبب فعاليَّةٍ أو وسيلةٍ أرضيَّةٍ، فيتعمَّقُ بذلك أثرُ الامتنان والتَّذكير بفضلِ اللّه وحدَهُ.

دلالة التَّعبير بالعِنديَّة:

التَّعبير بالظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾ تنويهٌ بشأن النِّعمة؛ لأنَّ ظرفَ (عند) يدلُّ على الادِّخار والاستِئثارِ، فذلك أبلغُ مِن أن يُقال: نِعمةٌ منّا، أو: أنعَمنا[2].

مَوقِع جملة ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾:

جملةُ ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ مُعتَرِضةٌ، وهي استئنافٌ بيانيٌّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.

عن جملة ﴿نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾، باعتبار ما معها مِنَ الحال؛ أي: إنعامًا لأجل أنَّه شَكَر، ففيه إيماءٌ بأنَّ إهلاكَ غيرهم لأنَّهم كفروا، وهذا تعريضٌ بإنذار المُشركين وبشارةٌ للمُؤمنين، كأنَّه قيل: هل ذلك الإنجاءُ مُختصٌّ بهم؟ فأُجيبَ بعمومهِ لأمثالِ آلِ لوطٍ مِن كلِّ مؤمنٍ شاكرٍ[1].

الشُّكرُ قنطرةُ النَّجاةِ وأصلُ البلوغِ

بلاغة التَّمثيل وغرَضُه:

مُثِّل إنجاءُ آلِ لوطٍ المُشار إليه باسم الإشارة للبعيد في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ بأن سيكونَ مثلَهُ لكلِّ مَن شَكَرَ؛ فالمعنى: كما أنجيناهُم بتلك النِّعمةِ، كذلك نجزي كلَّ شاكرٍ بنجاةٍ خاصَّةٍ به؛ أي: «مِثلُ هذا الإنجاءِ العظيم الّذي جعلَنا جَزاءً لهم ﴿نَجۡزِي﴾ بقُدرتنا وعَظمَتنا ﴿مَن شَكَرَ﴾»[2]. وهو تمثيلٌ، وغرضُهُ التَّقريرُ والتَّثبيتُ لقاعدةٍ مُطَّردةٍ لا تتخلَّفُ: أنَّ اللّهَ يُنعِم ويُنجّي مَن شكَرَه. مع التَّحفيز على الشُّكر بربطِ الجزاءِ المَوعود بصورةٍ عمليّةٍ واقعيّةٍ رآها المُخاطَبون في قصَّة لوطٍ عليه السلام.

إنجاءُ آلِ لوطٍ مثالٌ حيٌّ يُجسِّدُ وعدَ الله الدّائمَ بجزاء الشّاكِرين

دلالةُ التَّعبير باسم الإشارة البعيد:

التَّعبيرُ باسم الإشارة البعيد في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾؛ للدَّلالة على البُعد المعنويِّ وفَخامةِ المَنزِلة، فإنَّه لمّا كانَت واقعةُ إنجاء آلِ لوط أمرًا عظيمًا جَلَلًا بعيدًا عن مألوف النّاس، ناسَبَ أن يُعبَّرَ باسم الإشارة البعيد ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتَّفخيم. وهذا البُعدُ المعنويُّ - بواسطة ﴿كَذَٰلِكَ﴾ - هو الّذي مَهَّدَ للانتقال مِنَ الواقعة الجزئيَّةِ (إنجاءِ آل لوط) إلى القانون العامِّ (جزاء كلِّ شاكر)؛ لأنَّ ما يُعظَّمُ ويُفخَّمُ يُجعَلُ أنموذجًا يُقاسُ عليه غيرُهُ.

تعظيمُ الحدثِ تأهيلٌ له؛ ليكون مثالًا يُعمَّمُ على غيره

بلاغةُ اختيار مُفردة الشُّكر دون غيرها:

خصَّ النَّظمُ الكريمُ مُفردةَ الشُّكر دون غيرها مِنَ الأعمال في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.

الشُّكرُ عبادةُ المُقرَّبين، والنَّجاةُ مكافأةُ الصّابرين

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِى مَن شَكَرَ﴾؛ وذلك لأنَّ السّياقَ يدورُ على (النَّجاة) الّتي وصفَها بأنَّها: ﴿نِّعۡمَةً مِّنۡ عِندِنَا﴾، فلمّا كانَتِ النَّجاةُ نعمةً مَحضةً مِنَ الله، كان الشُّكرُ هو المُقابلَ الأنسبَ لهذا الإنعام، وهو الاعترافُ بالنِّعمة والتَّصرُّفُ فيها على وجهٍ مَرضيّ. فثبتَ بذلك أنَّ الشُّكرَ هنا لفظٌ جامعٌ لغيره مِنَ الصِّفات والأعمال، وهو الأليقُ بالسّياق. كما أنَّه: في اصطفاء الشُّكر هنا دون غيره مُقابلةٌ خفيَّةٌ مع تمرُّد الكافرين، فالسّياقُ مليءٌ بكُفر قوم لوطٍ، ومراوغتِهم وتمرُّدِهم، في قوله: ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾، وقوله: ﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾، وقوله: ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾، فجاء الشُّكرُ هنا: للشّاكرين عن أولئك الكافرين، وتأكيدًا أنَّ الجزاءَ مُرتبطٌ بشُكر النِّعمة لا بمُجرَّد الانتماء[1].

بلاغة فنِّ الاحتباك:

الاحتباكُ يُثيرُ الذِّهنَ، ويُحفِّزُ الفهمَ، ويزيدُ البلاغةَ اتِّساعًا

في قوله تعالى: ﴿نِّعۡمَةً مِّنۡ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾ احتباكٌ، حيث ذَكَرَ النِّعمةَ أوَّلًا، ولم يذكُرْ ما يقابلُها من شُكرٍ في المَوضِع الأوَّل، ثمَّ ذُكِرَ الشُّكرُ في الجملة الثّانية (نَجزي مَن شَكَر)، ولم يُذكَرْ فيها النِّعمةُ الّتي هي سببُ الثَّواب والجزاء، فكأنَّ التَّقديرَ: أنجيناهُم نعمةً مِن عندنا، فشكروا، فنَجزي مَن شَكَرَنا على نِعمَتِنا[2].

نكتةُ حذف مُتعلَّق الشُّكر:

الشُّكرُ سبيلُ المُحسِنين في الأمر كلِّه

حُذِفَ مُتعلِّقُ فعلِ الشُّكر في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِى مَن شَكَرَ﴾؛ لإفادة العموم والإطلاق؛ أي: نَجزي مَن شكرَ ربَّه في أيِّ نعمةٍ وعلى أيِّ حال، دون تقييدٍ بنعمةٍ مَخصوصةٍ. وهذا العمومُ يفتَحُ البابَ واسعًا أمام المُخاطَب ليَجعلَ شُكرَهُ شاملًا لكلِّ نِعَم الله، فيتأكَّدَ عمومُ الحُكم، ويَعظُمَ الحافزُ على الشُّكر بجميع أنواعه وخِصاله[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.

نوعُ العطفِ وبلاغتُه بين الجمل:

التَّكذيبُ سابقٌ للتَّعذيب، وقد يتأخَّرُ ذِكرُه لبيانِ السَّبب

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ عطفٌ على جملة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾[1]، فذَكَرَ وقوعَ العذابِ أوَّلًا، ثُمَّ عَطَفَ عليه الإنذارَ السّابقَ له، وهو الأصلُ الّذي بُنِيَ عليه العذابُ. فالعطفُ إذًا ليس للتَّرتيب الزَّمنيِّ، بل للتَّفصيل السَّببيِّ، فالإنذارُ تعليلٌ وبيانٌ للسَّببِ الّذي أوجبَ ذلك العذابَ. وهذا كثيرٌ في القرآن؛ حيث يُذكَرُ الأثرُ أوَّلًا، ثمَّ يُعطَفُ عليه السَّببُ على سبيل التَّفسير والتَّعليل، لا التَّرتيب الزَّمنيّ[2].

نكتةُ تصدير الجملة بلامِ القسَمِ وحرفِ التَّحقيق:

البيانُ إذا تأكَّدَ، بَلَغَ الغايةَ في الإعذار

تصديرُ الجملة بلام القَسَم وحرفِ التَّحقيق، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ﴾؛ لتوكيد مَضمونها؛ لإثباتِ الإنذار السّابق على العذاب، وهذا الأسلوبُ يوصِلُ العتابَ والوعيدَ بأقوى صورةٍ مُمكِنةٍ. وفيه تأكيدُ الغرَض الّذي سيقَتِ القصَّةُ لأجله، وهو مَوعِظةُ قُريشٍ الّذين أنذرَهُم رسولُ اللّه ﷺ فتَماروا بالنُّذُر[3].

دلالة التَّعبير بفعل الإنذار:

جاء اختيارُ فعل الإنذار في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾؛ للإيذان بالتَّحذير الشَّديد والتَّخويف مِنَ العاقبة، ولاسيَّما قد اقترنَ بذِكر البَطشة.

نكتةُ إيثار إضمارِ الفاعل دون التَّصريح به:

توجيه النَّظر إلى الإنذار الشَّديد لترهيب المُخاطَب بما أُعلِمَ به

أُضمِرَ الفاعلُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾؛ لينصرِفَ النَّظرُ إلى فظاعة المُنذَر به (بطشةُ اللّه) وعظمتِه، وهذا الأسلوبُ يوجِّهُ ذهنَ السّامعِ إلى مَضمون الرِّسالة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 315، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.

(الإنذار بالبَطش) لا إلى صاحبِها، فيجعل جوهرَ القضية هو الخطرَ الدّاهِمَ نفسَهُ، ويؤكِّدُ أنَّ الإنذارَ قائمٌ بذاتِه، وحُجَّتُه بالغةٌ مهما كان القائل.

نكتة إفراد لفظ ﴿بَطۡشَتَنَا﴾:

بطشةٌ واحدةٌ مِنَ الله كفيلةٌ بالعذاب العظيم لِخلْقه

أُفرِدَ لفظُ البَطشة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾، وهو المَرَّةُ الواحدةُ مِنَ البَطش[1]، إشارةً إلى تهوين العذابِ باعتبار مَن صَدَرَ عنه، وهو اللّه ﷻ، وتعظيمه في الأثر باعتبار مَن نَزَلَ فيهم العذابُ، فالأَخْذةُ الواحدةُ كافيةٌ لِما للّه من عَظَمَةٍ وقُدرةٍ، فهي غيرُ مُحتاجَةٍ إلى التَّثنيَة؛ ولذلك قرنَها بضمير التَّعظيم ﴿بَطۡشَتَنَا﴾؛ ليدلَّ على أنَّ الصِّفاتِ على قدر الذَّوات، فالفِعلَةُ الواحدةُ مِنَ العظيم كثيرةٌ كافيةٌ[2]! وذلك الإفرادُ هنا يتناسَبُ مع قوله قبلَهُ: ﴿صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾.

نوع الإضافة ونُكتتُها:

كما أنَّ النِّعمةَ مِنَ الله لأوليائه، فكذلك البَطشة مِنَ الله لأعدائه

إضافةُ البَطشةِ إلى ضمير العَظمة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا﴾ بمعنى (مِن)، فكما أنَّ النِّعمةَ مِنَ اللّه لأوليائه، فكذلك البَطشةُ ماحِقةٌ لأعدائه، ونكتتُها إضفاءُ صبغةِ الجلالِ والرَّهبةِ على المعنى، فهي ليست أيَّ بطشةٍ، بل البطشةُ المنسوبةُ إلى اللّه العظيم الجبّار، وبتلك الإضافة يتأكَّد أنَّ الإنذارَ لم يكُن من خطَرٍ عاديٍّ بل من عقوبةٍ إلهيَّةٍ قاهرةٍ، فيوَجَّهُ الانتباهُ إلى خطورة الاستهزاء بها، ويَجعلُ التَّماريَ بالنُّذُر سفهًا بيِّنًا في مُقابلة قوَّةِ اللّه وجَبروتِه.

بلاغةُ الاستعارة التَّمثيليَّة:

البَطشُ الإلهيُّ بالشَّواذِّ رحمةٌ ربانيَّةٌ بأصحاب الفِطرة

في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا﴾ استعارةٌ تمثيليَّةٌ، حيث شُبِّهَتْ حالةُ العَذابِ المُرسَلِ عليهم بهيئة البَطش القاهِرِ من قادرٍ مُنتَقِمٍ.

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 205.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 125.

ولفظةُ ﴿بَطْشَتَنَا﴾ على صيغة الإفراد كنايةٌ عنِ الإهلاك السَّريع؛ لأنَّه من لوازم البَطشةِ الواحدةِ أن تكونَ فجائيَّةً عنيفةً سريعةً لا تُفْلِتُ[1].

نوعُ الفاء ودلالتُها:

طولُ أمَدِ الشَّكِّ إزهـاقٌ لـروح اليقين

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ للعطف على ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾، وهي لتفريع الإنكار على الإنذار. والتَّعقيبُ بها للدَّلالة على سرعتهم في التَّكذيب من غير فِكْرٍ ولا نظَرٍ. وتصديرُ المَعطوف عليه بأدوات التَّوكيد في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾؛ للإشارة إلى أنَّ ما تفرَّعَ عنه من تَماريهم وتشكُّكِهم غيرُ جديرٍ به، فهو شكٌّ في مَوضِع الحقيقة واليقين، ويعضُدُهُ مجيءُ المَعطوف بصيغةِ التَّفاعُل[2].

دلالة استعمال مادَّة المِراء:

المِـراءُ قائمٌ على مُجانَبةِ الصَّواب ومُتارَكة صحيح الجواب

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفردة ﴿فَتَمَارَوْاْ﴾ دون الجدال؛ لأنَّ الامتراءَ هو الشَّكُّ المَصحوبُ بالجدال، فهو شكٌّ جدليٌّ[3]، فهو يُمارَسُ رغمَ وضوح الأدلَّة؛ لنبوعِه من العِناد لا مِنَ الجهل، ولذلك لم يُعبَّرْ بالشَّكِّ وحدَهُ؛ لأنَّ الشَّكَّ قد يكونُ عن نقصٍ في المَعرفة. ولم يُعبَّرْ بالجدال وحدَهُ؛ لأنَّ الجدالَ قد يَصدُرُ عنِ الحجَّةِ والبرهان واليقين، فيقعُ على نحوٍ مَحمودٍ[4]، لكنَّه هنا جدالٌ على غير أساسٍ وعلى غير يقينٍ، ولذا عبَّرَ عن تلك الحال المُضطرِبةِ المُختلِطةِ مِنَ الشَّكِّ والجدلِ بالامتراء.

بلاغة صيغة التَّفاعُل ودلالتها:

الشُّكوكُ ألـواحُ الـهلاك، والمِـراءُ دُسُرُ الفناء

جاء التَّعبيرُ بصيغة (تفاعُل) للمُبالغة في الشَّكِّ والجِدال، فقوله: ﴿فَتَمَارَوْاْ﴾ يدلُّ على تَكرار الفعل واستمرارِه، بما يجعلُهُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 205.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 126.
(3) الرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (مرى).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (جدل).

قويًّا شديدًا في نفسِه، وبما يدُلُّ على تكلُّفِهم وتصميمِهِم عليه، ويدُلُّ على المُشارَكة فيه (أي: كلٌّ منهم يُماري ويُجادلُ الآخر)[1].

فالصّيغة تُصوِّرُ القومَ في حالة اضطرابٍ وجدالٍ شديدٍ حول ما أُنذِروا به، لا يَثبتون على قولٍ، ولا يوقنون بما يَسمَعون، بل يَطعَنُ بعضُهم في بعضٍ، ويَتبادلون الشُّبهاتِ والمُكابرةَ، ممّا يُعمِّقُ حالتَهم مِنَ الكُفر والضَّلال.

نكتةُ تعديةِ فعلِ المِراء بالباء:

إقصاءُ المُصلِحين بوّابةُ السُّقوط، ومحاربتُهم؛ الهلاكُ نفسُه

آثَر النَّظمُ الكريمُ تعديةَ فعلِ الامتراءِ بالباء في قوله تعالى: ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ دون حرف الظَّرفيَّة؛ لتضمينِه معنى التَّكذيب، ويحتمِلُ حمْلَ الباء على معنى (في) الظَّرفيَّة من غير تضمين الفعل[2]. وفي التَّعدية بالباء هنا دون (في) مُناسبةٌ بديعةٌ مع التَّوكيدات في التَّركيب، وهو إفادةُ الباء في أصل مَعناها للإلصاق والمُقارَبة، فهي توحي بوقوعِ الفعلِ على الشَّيء أو به، ولو بأدنى مُلابسةٍ أو صِلةٍ. ففي السّياق ﴿فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ﴾ دلَّتِ الباءُ على أنَّ المِراء تعلَّقَ بـ (النُّذُر) تعلُّقًا يُلصَقُ به مُجرَّدُ الجدالِ أو الشَّكِّ، دونَ التَّعمُّق فيه أو الدُّخول الكاملِ في باطنِه؛ فمِراؤهم لم يكُنْ على وجهٍ فيه إنصافٌ أو تفكُّرٌ، بل كان مِراءً لاصقًا بالنُّذُر من خارجه، لا بحثًا عنِ الحقِّ في حقيقته وباطنه. فلو قيل: (فتَماروا في النُّذُر)؛ لأفادَ ذلك دُخولًا وتوَغُّلًا في موضوع النُّذُر؛ أي: أنَّ الشَّكَّ نشأ داخلَ بنيَتِه، وهذا يوهِمُ تسرُّبَ الشَّكِّ إلى أصل الرِّسالة أو مَضمونها. لكنَّ الباء هنا تمنَعُ هذا الإيهامَ، فهي تُنزِّهُ النُّذُرَ عنِ التُّهمة، وتجعَلُ الفعلَ مَنسوبًا إليهم باعتبار قضيَّة التَّكذيبِ لا باعتبار قضيَّةِ الإنذار. ويَعتضِدُ هذا تصديرُ التَّركيب بالمُؤكِّدات بـ ﴿وَلَقَدۡ﴾، وصيغة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 126، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 332، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 25/ 244.

الماضي: ﴿أَنذَرَهُم﴾، وكلُّها تقرِّرُ البلاغَ، والإنذارَ، والعَدالةَ. فجاءَتِ (الباء) لتُقوّيَ المعنى بأنَّ النُّذُرَ في حِمَى اليقين، ولم تنفُذْ إليه ريبةٌ، وإنَّما أخطأ القومُ حين لاصَقوا ظاهرَ النُّذُر بمُراءاتِهم من غير تعمُّقٍ، فهُم لم يُدرِكوا جَوهرَها.

مَوقِع جملة ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ ممّا قبلَها:

منعُ النَّفس عنِ الفواحش بابٌ في إكرامِها وعَطائها

جملة: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ بيانٌ لجنايتِهم بعدَ الإنذار الّذي كذَّبوه وكفروا به. فقوله: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ بيانٌ للكفر العامِّ، وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ بيانٌ لأفعال الفُسوق الّتي أدَّى إليها الكفرُ[1]، فهو ذِكرٌ لجريمة المُراودة بعدَ ذِكر جريمةِ المُماراة؛ لِحشد جرائمِهم وبيانِ أنَّ اللّهَ تعالى لم يُنزِلْ بطشَتَهُ عليهم بظُلم، بل بما استحَقّوه مِنَ الكُفر والتَّكذيب.

دلالةُ التَّعبيرِ بمُفردة ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

المُراودة تتطلَّبُ مَكرًا في الأداء وإلحاحًا في الإغواء

مادَّة ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ مأخوذةٌ مِنَ الجذر (ر و د) الّذي يدلُّ على التَّردُّد والذَّهاب والإياب في الطَّلب؛ برفق تارةً وخداع تارةً، ثمَّ صارَ يُستعمَلُ في المُساومة والإلحاح، بل في التَّلطُّف الماكِر في بلوغِ الغرضِ[2]، وجاءَ اللَّفظُ على صيغة (فاعَلَ)؛ لِتدلَّ على المُشاركة والمُحاولة؛ أي: إنَّ الفعلَ جرى بينَهم وبينَه في صورة مُدافَعَةٍ، فهُم يُلِحّون ويُكرِّرون الطَّلبَ ويُحاولون، وهو يُدافِعُ ويردُّهُم، فظَهرَ بذلك شدَّةُ العِناد من جانبهم والثَّباتُ من جانبه[3]. واجتماعُ المادَّةِ والصّيغةِ يكشِفُ عن إصرارٍ آثمٍ مِنَ القوم يُقابِلُهُ مُدافَعةُ نبيِّ اللّه عليه السلام، لا مُجرَّد طلبٍ عابرٍ، ويُهيِّئُ السّياقَ لإبراز استحقاقِهم للعقوبة العاجلة (طَمس الأعين)، إذ سبَقَها فعلٌ قبيحٌ صيغتُهُ بذاتها شاهِدةٌ على قُبحِهم[4].

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 332.
(2) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (رود).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رود).
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 90.

بلاغةُ الكناية في لفظ المُراودَة:

قوله: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾ كنايةٌ عن صفةٍ، وهي قصدُ الفُجور في إتيان الأدبار[1]، ومُجادلةُ لوطٍ ﷺ لاقترافِ الآثام.

نكتةُ إسنادِ المُراودة إلى ضمير الجميع:

إذا استشرَى المُنكَر في الأمَّة عَمَّتِ العقوبةُ

أُسنِدَ فعلُ المُراودة إلى ضمير قوم لوطٍ في: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ﴾، وإنْ كانَ المُراودون نَفرًا منهم؛ لأنَّ ما راودوا عليه هو مرادُ جميعِ القوم، بقَطعِ النَّظرِ عن تَعيينِ مَن يفعلُهُ[2]. وهذا من إسنادِ ما للبعض إلى الجميع لِرضاهم به.

توجيه تعلُّق حرف الجرِّ ﴿عَن﴾ بفعل ﴿رَٰوَدُوهُ﴾:

مَن امتنعَ عن المروءة جوزيَ بعَينِ المَهانة

تعلَّقَ حرفُ الجرِّ ﴿عَن﴾ بفعل ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾، وهناك توجيهان لبيانِ تعلُّقه؛ فإمّا أن يتعلَّقَ الحرفُ بمَحذوفٍ يعودُ على (التَّمكين)؛ أي: (راودوه عن تمكينِه من ضيفِه)، أو (عن حماية ضيفِه)، وهو قولٌ جارٍ على الأصل في استعمال (راودَ) الّتي تتعدَّى بنفسها دونَ حرفٍ. وهذا الوجهُ فيه تقديرُ مُضافٍ مَحذوفٍ (تمكينهم، أو حمايته)، وجُعِلَت ﴿عَن﴾ مُتعلِّقةً به.

وإمّا أن يُضمَّنَ فعلُ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ معنى فعلٍ آخرَ يتعدَّى بحرف ﴿عَن﴾؛ فضُمِّنَ ﴿رَٰوَدُوهُ﴾ معنى (صرفوه) أو (دَفعوه)؛ أي: أرادوا أن يَصرفوه عن ضيفِه. فـ﴿عَن﴾ على هذا ليسَت زائدةً ولا مُتعلِّقةً بمَحذوف، بل هي هيئةٌ لازِمةٌ للفعل الجديد ضِمنًا، كما تقول: نهاهُ عن كذا أو صَرَفَهُ عَن كذا[3].

نكتةُ إفراد لفظِ الضّيف:

العِبرةُ في الجامِع لِلكَثْرة باعتبارٍ واحدٍ

أُفرِدَ لفظُ (الضَّيف) في قوله تعالى: ﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ﴾، مع أنّ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 332.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.

الضّيوفَ كانوا جماعةً مِنَ الملائكة؛ للتَّعبير عنِ الجمع باسم الجنس، أو للإشارة إلى أنَّ الضَّيفَ في حُكم الوحدة؛ لأنّهم جماعةٌ مُتَّحِدّون في جهةٍ واحدة، ومُرسَلون لغايةٍ واحدةٍ، وفي ذلك تهويلٌ للعدوان، إذ صوَّر كلَّ الضُّيوف، وكأنَّهم ضيفٌ واحدٌ، فصارَ العدوانُ عليهم عُدوانًا مُركَّزًا(1)، كما أنَّ الإفرادَ يُعطي وقعًا أوجزَ وأقوَى في السَّمع.

بلاغةُ الحذفِ وطيِّ الأحداث:

الحذفُ لتهويل المَوقِف وتسريعِ مَشهَد العقوبةِ بالتّركيز على أركان المَشهَد

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ لم يُذكَرْ ما جرى في المُراودة من أخذٍ وردٍّ وتهديدٍ ودفاعٍ من لوط ﷺ، ولا ما سَبقَ الطَّمسَ من مَحاولاتهم المُستَميتة للوصول إلى الضَّيف، ولا المُحاورة الحاصِلة قبل الطَّمس، فحُذِفَ ذلك كلُّه ليُترَكَ الجوُّ مَملوءًا بالتَّوتر والرَّهبة، ثمَّ يأتي الفعلُ الإلهيُّ المُفاجئ: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ قاطِعًا لكلِّ جَدَلٍ. وهذا الحذفُ يُسرِّعُ الانتقالَ من جريمة القوم إلى عقوبتهم، فيُبرِزُ شدَّةَ المَوقِفِ وسرعةَ الانتقام، وكأنّ العذابَ داهمَهُم بغتةً دونَ مُهلةٍ. وهو أيضًا يركِّزُ السّامِعَ على نتيجةِ المُراودة (الطَّمس والعذاب) لا على تفاصيلها، ولذلك كانَتِ الفاءُ في ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ للسَّببيَّة لا للتَّعقيب، لأنَّه كان قبلَ الطَّمسِ حوارٌ وجَدَلٌ(2).

دلالةُ عطفِ جملة ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ على ﴿رَٰوَدُوهُ﴾:

يَنطَفِئ نورُ البصَر بسبب ظُلمةِ البصيرة

تفريعُ طَمسِ أعينِهم على مُراودتِهم لضيوفه بالفاء في قوله تعالى: ﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ يدلُّ على أنَّ قومَ لوطٍ عَموا قبل أن يُخسَفَ بهم، ويُمطَرَ عليهم؛ ففيه بيانٌ واضحٌ - لِمَن تدبَّرَه - أنَّ النَّظرَ إلى المُردِ للشَّهوة مَعصيةٌ؛ لأنَّ المَلائكةَ كانوا جاؤوا لوطًا في صورة المُردِ الحِسان مِنَ البشر، فلمّا رَمَقوهم بعين الشَّهوة عوقِبوا بالعَمى(3).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 126.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 332.

(3) القصّاب، النّكت الدّالّة على البيان: 2/ 209.

دلالةُ التَّعبير بمُفردة ﴿فَطَمَسۡنَآ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الطَّمسُ مَحوٌ شامِلٌ وحاسِمٌ للأبصار بقُدرة الله القاهرة

كلمة ﴿فَطَمَسۡنَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ من جهة المادَّة: الطَّمْسُ في أصله يدلُّ على مَحو الأثرِ حتَّى يزولَ تمامًا، واستعماله هنا في الأعين يُفيدُ إزالتَها ومَحْوَ مَعالِمِها بحيث لا تُبصرُ ولا يُتخيَّلُ لها بقاءُ وظيفةٍ، وهو أبلغُ مِن لو قيل: (أعمَيناهُم)؛ لأنَّ العَمى تبقى معه العينُ في تجويفِها في الوجه، والّذي يَزولُ هو فقط وظيفةُ الإبصار، أمّا الطَّمسُ ففيه مَسحٌ لِمَكان العين وتسويتُه بسائر الوجهِ، فلا يكونُ للعين شَقٌّ[1]. ومن جهة الصّيغةِ فهو فعلٌ ماضٍ مُتعدٍّ مُسنَدٌ إلى ضمير العَظمة؛ فالمُضيُّ يُصوِّرُ الأمرَ كأنَّه قد وقَعَ وانتهى، فيُشعِرُ بالسُّرعة والحَسم. وإسنادُهُ إلى ضمير العظمة يدلُّ على أنَّ الطَّمسَ فِعلٌ إلهيٌّ ذو قوَّةٍ قاهرةٍ لا مَرَدَّ لها[2].

بلاغةُ الكنايةِ والمَجاز في طمسِ الأعيُن:

طَمسُ الأعيُن كنايةٌ عن عدم القُدرة على الاهتداءِ؛ ليَشملَهُم العذابُ

قوله تعالى: ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ كنايةٌ عن سَلب القُدرة على إدراك الحقِّ أو منعِهم من مَقصودِهم في الاعتداء على الضَّيف، فالعينُ آلةُ الهِداية في السَّير والرُّؤيَة، وطمسُها كنايةٌ عن إذلالهم وشلِّ حركتهم. ويَحتملُ أن يكونَ مَجازًا عنِ العمى أو تعطيل البصر؛ لأنَّ الطَّمسَ (محو الأثر) استُعمِل في غير معناه الحسّيِّ الأصليِّ، فصارَ استعارةً لِسَلبِ النَّظرِ ومحوِ مَنفعَةِ العينِ، كما أنَّ الطَّمسَ هو بدايةُ العَذاب، والبَطشةَ نهايتُهُ، إذ بطَمسِ أعيُنِهم تَندفِعُ القُدرةُ على رؤية الحقِّ، وبالتالي عدم الهداية فهي تشبهُ الغَرغرةَ وطلوعَ الشَّمس مِن مَغرِبها، فالطَّمسُ هو رَفعُ القُدرةِ على الهِداية لِتحقيقِ النَّجاة.

بلاغةُ المَجاز بحذف القَول:

قوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوف دلَّ عليه سياقُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (طمس)، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 126، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 90.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 126.

الكلام؛ أي: (قلنا للنَّفَر الّذين طمَسْنا أعينَهم: فذوقوا عذابي)[1]. وهذا الأسلوبُ يُعدُّ مِنَ الإيجاز بالحذف، وفائدتُه: تهويلُ العذابِ وتعظيمُ وقعِه، فجاءَ الكلامُ بصيغة الأمر ﴿فَذُوقُواْ﴾، وكأنَّ المَقامَ لا يحتاجُ إلى أن يُقال: (قال اللّه لهم)، بل العذابُ نفسُهُ ناطِقٌ ومَهيبٌ بحيث لا يخفى قائلُه. وإذا حَصَلَ الإفهامُ ناسَبَهُ الاختصارُ، فلَمْ تكُنْ حاجةٌ إلى ذِكْرِ فعل القول. وهناك نكتةٌ بعيدةٌ في عُمقِ السّياقِ، وهو أنَّ هذه الجملةَ يتجدَّدُ ذِكرُها في السّورة مع تكذيب كلِّ أمَّةٍ لِرسولها، وتكرارُها يقتضي الإيجازَ فيها، وكأنَّها لازِمةٌ بلاغيَّةٌ تتردَّدُ مع كلِّ مَشهَدٍ وحَدَثٍ؛ لِتعميق أثرِها في النَّفسِ والعقل، وحذفُ القولِ يُجرِّدُها لذلك التَّأثيرِ الفاعِل.

العـذابُ ناطِـقٌ بنفسه فلا حاجةَ لِذِكرِ قائِلِه

بلاغةُ المَجاز في التَّعبير عنِ الإحساس بالذَّوق:

استُعملَ لفظَ الذّوقِ في الإحساس بالعذاب في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ على سبيل المَجاز المُرسَل؛ لعلاقة التَّقييد في الإحساس[2]؛ لأنَّ الذَّوق أُطلِقَ وأُريدَ به مُطلَقُ الإدراك الحسّيِّ لِلعذاب، فقُيِّدَ أحدُ أنواع الإحساس (الذَّوق)، وأُريدَ به كلُّ إدراك مُباشِرٍ للألم. وهذا التَّقييدُ يُصوِّرُ شدَّةَ العذاب كأنَّه أمرٌ يلتصِقُ بالذّات، ويُدرَكُ إدراكًا حسّيًّا لا فكاكَ منه، فيُقرِّبُ المَعنى الغيبيِّ إلى الحِسِّ، ويجعلُ الوعيدَ أكثرَ إيلامًا وإقناعًا.

توسيعُ الإدراك الحسّيِّ ليجعلَ العـذابَ مَحسوسًا كأنَّه يُذاقُ

نكتةُ عطفِ النُّذُرِ على العذاب:

عَطَفُ النُّذُرِ على العذابِ في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ لأنَّ العذابَ تصديقٌ للنُّذُر؛ أي: ذوقوا مِصداقَ نُذُري[3]، فكلُّ عذابٍ وقَعَ كانَ بعدَ نُذُرٍ، وكلُّ نُذُرٍ صُدِّقَ بالعذاب. ففي العطف بينهما تذكيرٌ بالإنذار، وتقريرٌ لاستحقاقِ العقوبة.

مَن ذاق العذابَ نَدمَ على تكذيب النُّذُر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 173، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.

بلاغةُ المَجاز بحذفِ المُضاف:

آثارُ الإعراضِ عنِ النُّذُر ذَوقٌ للعذاب

في قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ عُطِفَ (نذري) على ﴿عَذَابِي﴾ في الذَّوق، وظاهرُهُ أنَّ النُّذُرَ تُذاقُ، وثمَّة حذفٌ لمُضاف؛ لأنَّ الإنذارَ كلامٌ لا يُذاقُ في الحقيقة. ولذلك قُدِّرَ مضافٌ مَحذوفٌ، تقديره: (فذوقوا عذابي وآثارَ نُذُري)، أو (ونتيجةَ نُذُري)، أو (فذوقوا عذابي وما أنذرتُكم به)[1]. وفائدةُ حَذفِ المُضاف: إشراكُ السّامِع في تقدير المعنى، وإشعارٌ بتمام المُطابقة بين النُّذُر والواقع، فكأنَّ العذابَ والنُّذُرَ شيءٌ واحدٌ، وتأكيدٌ على تحقُّق الوعيد، فيَذوقون عذابًا مُطابِقًا تمامًا لِما أُنذِروا به.

توجيه معنى الفاء ودلالتها:

الطَّمسُ بدايةُ العذاب، والخَسفُ نهايتُه

الفاء في ﴿فَذُوقُواْ﴾ تحتمِلُ أن تكونَ تعقيبًا زمنيًّا، كأنَّ الطَّمسَ حَصَلَ أوَّلًا، ثمَّ ذاقوا عذابًا آخرَ بعدَهُ، وبهذا الاعتبارِ قالَ مَنْ قالَ: إنَّ قومَ لوطٍ عَموا قبلَ أن يُخسَفَ بهم، ويُمطَرَ عليهم[2]. وتحتمِلُ أن تكونَ للتَّرتيب أو التَّعقيب الذِّكْريِّ، فتفيدُ حينئذٍ التَّفريعَ السَّببيَّ؛ أي: بسبب هذا الطَّمس، قيل لهم: ذوقوا العذابَ. ومعنى التَّرتيب الذِّكريِّ: ذِكْرُ العذاب بعد الطَّمسِ مُجرَّدُ ترتيبٍ في السَّرد، فوقوعُ الثّاني بعدَ الأوَّلِ حاصلٌ في الكلام لا في الزَّمن. وبهذا الاعتبار يكونُ الطَّمسُ نفسُهُ هو العذابَ المَقصودَ، كأنَّه قيل: (فطمَسْنا أعيُنَهم، ثمَّ أمرَهم - تهكُّمًا - بذوقِ ذلك كنوعٍ مِنَ العذاب)، فـ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي﴾ هو بيانٌ لِما حَصَلَ لهم مِنَ الطَّمس، لا أمرٌ جديدٌ[3].

نوع الواو ودلالتها:

الطَّمسُ مُقدِّمةُ الهلاك العامِّ المُصبِح عليهم

جملة: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ عَطفٌ على ما قبلَها ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾، فالواو عاطفة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 206.

(2) القصّاب، النّكت الدّالّة على البيان: 2/ 209.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 332.

تفيدُ الجمعَ بين عقوبةٍ عاجلةٍ خاصَّةٍ (طَمسُ الأعين) وعقوبةٍ عامَّةٍ قاصِمةٍ (العذابُ المُستقرُّ صباحًا)، فيجوز أن يكونَ طَمسُ الأعيُن وقَعَ ليلًا عند محاولة الفاحِشة، ثمَّ أعقبَهُ عذابُ الصُّبح، فذَكَرَ العذابَين مَعطوفَين؛ لِبيان تتابُع النَّقمة وتنوُّعِها، فكان الطَّمسُ مُقدِّمةً للهلاك العامِّ صباحًا.

نُكتةُ تقييدِ الفِعلِ بالظَّرف:

شرُّ البلاء ما يَقعُ في وقت السُّكون والرَّخاء

تعليقُ فعلِ التَّصبيحِ بظرف الإبكار في قوله: ﴿صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾؛ للدَّلالة على أنَّ العذابَ جاءَهم باكرًا أوَّلَ الصَّباح، فالقيدُ الظَّرفيُّ تخصيصٌ لوقتِ الصَّباح، وهو الجزءُ الباكرُ منه (أوَّلُ النَّهار حيث يَخرجُ أوَّلُ الضَّوء من عُمق الظَّلام ثمَّ يَسترسِلُ مُستمرًّا ومُتزايدًا)[1]، وهذه الباكورةُ الصَّباحيَّةُ مُمتدَّةٌ إلى وقت شروق الشَّمس حيث قال اللّه عنهم: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحِجر: 73]، فوقتُ الإشراق هو عُنفوانُ التَّبكير حين كانَتِ العقوبةُ عليهم أشدَّ[2].

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿بُكۡرَةً﴾:

بُكرةُ النُّهوضِ صارَت صباحَ العذاب والهلاك

تنكيرُ ﴿بُكۡرَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾؛ للإطلاق وعدم التَّعيين؛ أي: في بُكرةٍ ما مِنَ البُكَر الّتي هي أوَّلُ النَّهار، نَزَلَ بهم العَذابُ، وهذا الإبهامُ يزيدُ في التَّهويل؛ لأنَّ العَذابَ فاجأهُم في وقتٍ مُبكِّرٍ لم يَحتسِبوه. وفي التَّنكير إشعارٌ بالتَّقليل، كأنَّها بُكرةٌ واحدةٌ لا تتكرَّرُ، لكنَّها كانَت كافيةً لإنهاءِ وجودِهِم، وفيه تصويرٌ لِسُرعة الأخذِ الإلهيِّ وبَطشِه[3].

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿عَذَابٞ﴾:

إبهامُ العذاب أوَّلًا لِتهويله، ثمَّ وصفُهُ بالاستقرار لتأكيدِ دَوامِه وشدَّته

نُكِّرَ لفظُ ﴿عَذَابٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾؛ لإفادة التَّهويل والتَّفخيم؛ أي: عذابٌ عظيمُ الشّأن لا

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بكر).
(2) السّعديّ، تفسير السّعديّ، ص: 827.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 333.

يوصَفُ. ويَلزَمُ عن ذلك التَّفجيعُ والمُباغتةُ، كأنَّهم فوجِئوا بعذابٍ مَجهولِ الكيفيَّةِ والقدْرِ، فيخافُ منه السّامِعُ بمُجرَّد إطلاقِه، ثمَّ جاء الوصفُ بـ ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾ ليزيدَ المَعنى وضوحًا، كأنَّه قيل: ليس عذابًا عابرًا، بل عذابٌ دائمٌ لا انفكاكَ منه. فالآيةُ جمعَت بين الإبهام أوّلًا بالتَّنكير لِتهويل المَوقِف، ثمَّ الإيضاحِ ثانيًا بالوصف ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾ لبيان شدَّتِه ودوامِه.

دلالةُ وصفِ العذاب بـ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾:

شرُّ العذاب ما استقرَّ، وشرُّ البلاءِ ما طال

وَصْفُ العذابِ بلفظ ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ يُرشِّحُ أنَّ الطَّمسَ في قوله: ﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ لم يكُنْ نهايةَ العذاب، بل بدايتَه، وأنَّه قد أعقبَهُ عذابٌ آخرُ استقرَّ بهم، وثَبتَ عليهم. فالوصفُ بـ﴿مُّسۡتَقِرّٞ﴾ يُشعِرُ بأنَّ الطَّمسَ كان مَدخَلًا للعذاب الحقيقيِّ، لا مُنتهاه. وفيه أيضًا تهويلٌ للعاقبة، كأنَّ الطَّمسَ عقوبةٌ على مُحاولةِ الإيذاء، ثمَّ جاءَهُم بعدَهُ عذابٌ لا يَرتفعُ[1].

فائدة تَكرار قوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾:

توسيعُ فئة الخطاب يقتضي التَّكرار

قوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ تفريعٌ على قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ لا يُعَدُّ تكريرًا خاليًا مِنَ الفائدة[2]، فالجملةُ الأولى كانَت في سياق طَمس العيون، وهو عذابٌ اختُصَّ بمَن راودَ لوطًا عن ضيفه، كما في قوله: ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيۡفِهِۦ فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾، ثمّ قيل لهم: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾؛ أي: أنتمُ الّذين طُمِسَت أعينُكم. أمّا الجملةُ الثّانيةُ ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ فهي بعد قوله: ﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾، وهو عذابٌ أصابَ عمومَ قومِ لوطٍ[3]. وفائدةُ الإعلامِ بما قيلَ لهم من قوله: ﴿فَذُوقُواْ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 173.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 207.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 144.

﴿عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ في المَوضِعين: أن يتجدَّدَ عند استماعِ كلِّ نبأٍ من ذلك ادِّكارٌ لهم، واتِّعاظٌ، وإيقاظٌ؛ استيفاءً لحقِّ التّذكير القرآنيِّ[1].

عِلَّةُ عدمِ ذِكرِ جملة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾:

حين تتكفَّلُ الأحداثُ بالإفهام، فلا حاجةَ للسُّؤال والتَّقرير

لم يُذكَرْ في قصَّة لوطٍ عليه السلام جملة ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كما ذُكِرت في سياق قصَّة قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ؛ لأنَّ ذِكرَ العذاب في قصَّة قوم لوطٍ جاء مُفعَمًا بالتَّنكيل والتَّفصيل الكافي، فذُكِرَت المُراودةُ الشَّنيعةُ، ثمَّ طَمسُ العيون فجأةً، ثمَّ العذابُ المُستقِرُّ الّذي جاءَهُم بُكرةً، ثمَّ خُتِمَ الأمرُ بقولٍ موجِعٍ: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ مرَّتين، فكان هذا أشدَّ إفهامًا للمَقام وأقوى تهديدًا من سؤال التّقرير: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي﴾؛ لأنَّ الواقِعَ المَحكيَّ في القصَّة كافٍ في الإفهام والتَّهويل[2]، وكأنَّما قيل: لا حاجةَ إلى التَّقريرِ بعد هذا التَّنكيل!.

نُكتةُ تكرار جملة ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ﴾:

الغفلاتُ المُتجدِّدةُ تَستوجِبُ تَكريرًا مُتجدِّدًا

كُرِّر قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ بعد استيفاء قصَّة قوم لوطٍ، وكما كان بعد كلِّ قصَّةٍ؛ إشعارًا بأنَّ تكذيبَ كلِّ رسولٍ مُقتضٍ لنزولِ العذاب، واستماعَ كلِّ قصَّةٍ مُستدَعٍ للادِّكار والاتِّعاظ، واستئنافًا للتَّنبيه والاتِّعاظ؛ لِئلَّا يَغلِبَهُمُ السَّهوُ والغَفلَةُ[3].

الفُروقُ المُعجَميَّة:

الإرسالُ والإطلاقُ والبَعثُ:

الإطلاقُ بعد قيدٍ، والإرسالُ أعمُّ، والبَعثُ فيه استثارةٌ مُتواليةٌ

الإرسالُ: أصلُ الرِّسلِ: الانبعاثُ على التُّؤَدَة؛ أي: إطلاقُ الشَّيءِ وإفلاتُهُ بيُسْرٍ وعدمِ عجَلَة. وتصوِّرَ منه تارةً الرِّفقُ، فقيل: على رِسْلِكَ، إذا أمَرتَهُ بالرِّفق، وتارةً الانبعاثُ فاشتُقَّ منه الرَّسولُ[4].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 207.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 207.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 167.
(4) الرّاغب، المفردات: (رسل).

وأمّا الإطلاقُ فأصلُ (طلق) يدلُّ على التَّخلية والإرسال[1].
والإطلاقُ: هو انعتاقُ الشَّيءِ ممّا كان يُقيِّدُه. ومنه الطَّلاقُ لغةً: وهو التَّخليةُ مِنَ الوِثاق، فمتى ذُكِرَ القيْدُ يُقال: أطلقتُ، ولا يُقالُ أرسلتُ. ومنه: أطلَقتُ البعيرَ من عِقاله[2]، إذا فكَكْته عنه، فأُرْسِل، وكأنَّ الإرسالَ هو استمرارُ الإطلاق، فالإطلاقُ يُتصوَّرُ معه الإفلاتُ مِنَ القيْد، والإرسالُ هو الانطلاقُ في بحبوحةٍ ويُسْرٍ، وهذا يكونُ بعد تَعوُّدِ الانطلاق من غير قيْدٍ، ولذا فالإرسالُ يأتي بعدَ الإطلاق، ولم يقُل في النَّظم: (أطلقْنا عليهم) اختيارًا للأسهل، فإنَّ الإرسالَ فيه سهولةٌ وخِفَّةٌ، والإطلاقُ فيه صعوبةٌ؛ لكونه حاصِلًا من قَيْد، فإذا امتنعَ الأسهلُ فامتناعُ الأصعبِ أولى وآكَدُ، فاصطفاءُ الإرسال آكَدُ في التَّحدّي والمُمانَعة ونَفاذِ القُدرةِ وهَوانِ إهلاكِهم على اللّه سبحانَه.

وأمّا البَعثُ فهو إثارةُ الشَّيءِ وتحريكُه إلى وِجْهَته. فالبَعثُ فيه استفزازٌ واستِثارةٌ، وهو يَشتمِلُ على دفعٍ مُتوالٍ بقوَّةٍ، فليس فيهِ تُؤَدَةٌ أو تباطؤٌ[3].

الصُّبحُ والفَجرُ والغَداةُ:

الفجرُ بدايةُ الانبثاق، والصُّبحُ وضوحُ النّور وانتشارُه، والغَداةُ هي فترةُ أوّلِ النَّهار

الفَجْر: من مادَّة (ف ج ر) الّتي تدلُّ على الشَّقِّ والانفجارِ، وعليه، فمَدلولُه الأساس: هو الانشقاقُ الأوَّلُ للظُّلمة بضياء النَّهار. ووقتُهُ: أوَّلُ ما يبدو مِنَ الضَّوء الصّادقِ المُنتشِرِ الّذي يَشقُّ الظَّلام. فالفَجرُ يَتعلَّقُ بلحظة البدايةِ نفسِها: انفجار النّور. ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ [البقرة: 187][4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طلق).
(2) الرّاغب، المفردات، السّمين، عمدة الحفّاظ: (طلق).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بعث).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين، عمدة الحفّاظ، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فجر).

والصُّبح: من مادَّة (ص ب ح) الّتي تدلُّ على نور النَّهار، ومنه الصَّباح: أوَّل النَّهار، وهو وقتُ احمرار الأفق بحاجب الشَّمس[1]. فالصُّبحُ أو الصَّباحُ هو الوقتُ الّذي استبانَ فيه النّورُ، وظَهَرَ بعدَ الفَجر[2]. ووقتُه: يمتدُّ مِنِ انكشافِ النّور ووضوحِهِ إلى قُبيل طلوع الشَّمس، وهو غايةُ وقتِ صلاةِ الصُّبح. وقد يُتوسَّعُ فيه، فيقعُ على خلاف وقت المساء عمومًا[3]. وعليه، فـ(الصُّبح) يتعلَّقُ بظهور الضَّوء وانتشاره لا على لحظة الانشقاق[4]. ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: 81].

والغَداة: من مادَّة (غ د و) تدلُّ على أوَّلِ النَّهار. فتُطلَقُ على أوائل النَّهار عامَّةً بعد انبلاج الصُّبح إلى وقتِ الضُّحى أو إلى قُبيل الزَّوال. فوقتُها أوسعُ مِنَ الفجر والصُّبح؛ لأنَّها تشمَلُ الفترةَ مِنَ الصُّبح إلى ارتفاع النَّهار أو إلى الزَّوال[5]. وقد يدلُّ على مَطلِعِ النَّهار كلِّه، فيُستعمَلُ في مُقابل العشيِّ (آخر النَّهار) [6]. وقد تُطلَقُ على وقتِ ما بعد الفجر الصّادق إلى شروق الشَّمس[7]. والتَّوفيقُ بينهما: أنَّ الغَداةَ هي أوَّلُ النَّهار بعد الفجر الصّادق؛ أي: اللَّحظة الّتي يبدأُ فيها النّاسُ نشاطَهم، لكنَّ الاستعمالَ توسَّعَ، فصارَتِ الغَداةُ تشمَلُ الصُّبحَ كلَّه إلى آخر الضُّحى. ومن هنا جاءَت أقوالُ المُعجَميّين بين التَّحديد والتَّوسيع. وعليه: فالتَّرتيبُ الزَّمنيُّ لهذه الأوقات: الفجرُ فالصُّبحُ فالغَداةُ؛ فالفجرُ انشقاقُ أوَّلِ ضوءٍ، والصُّبحُ انكشافُ النّورِ حتَّى قُبيل الشَّمس، والغَداةُ تبدأ بعدَ الفجر، وقد تمتدُّ حتَّى الضُّحى.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (صبح).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صبح).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (صبح).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صبح).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (غدو).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غدو).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (غدو).

﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ ٤١ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ
أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ ٤٢ أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم
بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ ٤٣ أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ ٤٤ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ
وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ٤٦﴾

[القمر: 41 - 46]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ مِنَ الأممِ القديمةِ إلى القريبةِ

لمّا كان تَكرارُ إنذارِ مَن سَبقَ قد يوهِمُ أنَّ مَن تأخَّرَ عنهم في الزَّمان لم يُنذَرْ، وأنَّ الهلاكَ وقَعَ به لِمُجرَّد تفريطِهِ في الاعتبار بمَن تقدَّمَه، دَفَعَ اللّهُ هذا الوهمَ ببيان أنَّ آلَ فِرعونَ - مع كونِهم مُتأخِّرين عن قوم لوطٍ - قد جاءَهُمُ النُّذُر كذلك، فقال سبحانَه مُقسِمًا: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾؛ ليعلمَ أنَّ سُنَّةَ اللّه ماضيةٌ في الإنذار قبلَ الأخذ، وأنَّ الهلاكَ لا يَقعُ إلّا بعد قيام الحُجَّة[1].

بلاغةُ المُناسبة بين مَطلِع القَصص وختامِها

بالنَّظر إلى عُموم السّياق في سورة القمر نجدُ احتكامًا بلاغيًّا إلى قاعدة (مُطابقة المبدأ للخاتِمة)، وهو ما يدخلُ ضمنَ (مراعاة النَّظير)، ويُعَدُّ من أساليب الإحكام والتَّفنُّن في الأسلوب القرآنيِّ؛ فمُطابقةُ البدءِ بالخَتم تتجلَّى في أنَّ الإغراقَ عذابُ أوَّلِ مُكذِّبٍ (قوم نوح)، والإغراقَ عذابُ آخر مُكذِّبٍ (آل فِرعون)، مع ترَقٍّ في وسيلة النَّجاة؛ فنوحٌ نجا بسفينةٍ صنعَتَها يَداهُ بإذن اللّه. وموسى نجا بشَقِّ البحر، فكانَت أرضًا تمخرُها أقدامُهُم لا ألواحٌ ودُسُر. فكان الخَتمُ أدهشَ مِنَ البدء؛ لأنَّ موسى لم يَحتج أن يَصنعَ سفينةً مُنجيةً؛ فكانَت قُدرةُ اللّه هي المُنجية، وقد أحاطَتِ المياهُ بالرَّسولَين، ومَن معهما.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 128.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلزُّبُرِ﴾: أصلُ (زبر) يدُلُّ على قِراءةٍ وكِتابةٍ وما أشبه ذلكَ، فأصل (زَبَر) هنا: يدُلُّ على إحكام الشَّيءِ وتَوثيقِه، ويدُلُّ على قِراءَةٍ وكتابَةٍ وما أشبَهَ ذلكَ[1]. يُقالُ: زَبَرْتُ الكِتابَ، إذا كَتَبْتَهُ، ومنهُ الزَّبورُ[2]. وكلُّ كتابٍ غليظِ الكتابة يُقال له: زَبورٌ، وخُصَّ الزَّبورُ بالكتاب المُنزَّل على داودَ عليه السلام. والزُّبُرُ: الكُتُبُ الَّتي كُتِبَ فيها ما أوحيَ إلى الرُّسُلِ[3]. ورُبَّما قالوا: زَبَرْتَهُ، إذا قرأتَهُ. وقيل: بل الزَّبورُ كلُّ كتابٍ يَصعبُ الوقوفُ عليه مِنَ الكُتبِ الإلهيَّةِ، قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشّعراء: 196][4]. والزُّبُر في الآية جَمعُ زَبورٍ، وهو الكِتابُ، وزبورٌ بمعنى مَزبورٍ؛ أي: بَراءَةٌ كُتِبَتْ في كُتُبِ اللّه تعالى السّالِفَةِ[5].

2) ﴿وَيُوَلُّونَ﴾: أصْلُ (ولي) يدلُّ على قُرْبٍ؛ مِن ذلك الوَلْيُ: القُرْبُ، يُقالُ: تَباعَدَ بَعدَ ولْيٍ؛ أي: قُرْبٍ[6]. والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، فإذا عُدّي (تَوَلّى) بنفسِه اقتَضَى معَنى الوَلايَةِ، وحُصولِهِ في أقرَبِ المَواضِعِ، وإذا عُدّي بـ (عَنْ) لفظًا أو تقديرًا اقتَضَى معنَى الإعراضِ وتَرْكِ قُربهِ. والتَّوَلّي: الإعراضُ بعدَ الإقبال[7]. وهو هنا بمعنى: يَجعلونَ غيرَهُم يَلي[8]؛ أي: يَرجعون إلى الأدبارِ هارِبين[9].

3) ﴿ٱلدُّبُرَ﴾: أصل (دبر) يدلُّ على خِلافِ القُبُلِ[10]. والدُّبُرُ مُؤَخَّرُ الشَّيءِ وخَلفُهُ، يُقالُ: دَبَرَ النَّهارُ وأدبَرَ: إذا جاءَ آخِرُهُ. والتَّدبيرُ: أن يَنظُرَ الإنسانُ إلى ما تَصيرُ عاقِبَتُهُ وآخِرُهُ، ويُطلَقُ الدُّبُرُ أيضًا على الظَّهرِ[11]. والإدبارُ: الذَّهابُ إلى جهةِ الخَلف. يُقال: ولّاهُ دُبُرَهُ: إذا انهزَم[12]. والدُّبُر في الآية معناه: الظَّهرُ، وهو ما أَدْبَرَ؛ أي: كان وراءً،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 162.
(4) الخليل، العين، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (زبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ولي).
(7) الرّاغب، المفردات: 27/ 179.
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 213.
(9) الرّاغب، المفردات: (ولي).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (دبر).
(11) الجوهريّ، الصّحاح، وابن الأثير، النّهاية: (دبر).
(12) الكفويّ، الكلّيات، ص: 160.

والمقصودُ بالدُّبُر هنا: الأدبار؛ أي: يوَلّي كلُّ أحدٍ منهم دُبُرَهُ، فينصرفوا مُنهزِمين(1).

4) ﴿أَدْهَىٰ﴾: أصْلُ (دهي) إصابةُ الشَّيءِ بالشَّيءِ بما لا يَسُرُّ. يُقالُ ما دَهاهُ؛ أي: ما أصابَهُ. لا يُقالُ ذَلِكَ إلّا فيما يَسوءُ. ودَواهي الدَّهرِ: ما أصابَ الإنسانَ مِن عظائِمِ نوَبِهِ(2). والدّاهيةُ أمرٌ فظيعٌ لا يُهتدَى لدوائِه(3). وأدْهى: اسمُ تَفضيلٍ من دَهاهُ إذا أصابَهُ بداهيَةٍ، وهي الرَّزِيَّةُ العُظمى تَنزِلُ بالمَرءِ(4)، والمرادُ هنا: السّاعةُ أشدُّ إصابَةً بداهيةِ الخُلودِ في النّارِ من داهيةِ عَذابِ الدُّنيا بالقَتلِ والأسرِ(5).

5) ﴿وَأَمَرُّ﴾: أصل (مرّ) يدلُّ على خِلافِ الحَلاوَةِ والطّيب. ومنه قولهم: أمَرَّ الشَّيءُ يُمِرُّ ومَرَّ، إذا صار مُرًّا. ولَقيتُ منه الأمرَّينِ؛ أي: شَدائدَ غيرَ طَيِّبَة. والأمَرّان: الهمُّ والمرَضُ(6)، والمراد هنا: أشَدُّ مَرارةً ومَذاقًا من عذاب الدُّنيا، واستُعيرَتِ المَرارَةُ للإحساسِ بالمَكروه(7).

المَعنى الإجْماليُّ:

دعوةُ آل فِرعونَ، وغرورُ قُريشٍ، يجتمعان في إنكارِ يومٍ لا مردَّ له

تُذكِّرُ الآياتُ الكريمةُ بما نَزَلَ بآلِ فِرعونَ حين جاءَتهم النُّذُر على لسانِ موسى وهارونَ، فكذَّبوا بالآياتِ الّتي أرسلَها اللّهُ، وهي تسعُ آياتٍ من أوَّلِها العصا إلى انفلاقِ البحرِ، فأصرّوا على الكفر والظُّلم، فكان جزاؤُهُم أن أخذَهُمُ اللّهُ أخذَ عزيزٍ مُقتَدِرٍ، لا يُعجِزُهُ شيءٌ، فأغرقَهُم أجمعين، ثمَّ توبِّخُ الآياتُ مُشركي قُريشٍ، وتُخاطِبُهُم: أكُفّارُكُم يا قُريشُ خيرٌ من أولئك الّذين أهلكْناهُمْ من قَبلُ؟ أم أنَّ لكم براءةً مَكتوبةً في الكُتُبِ تُنجيكُم مِنَ العذابِ؟ لا

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 213.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (دهي).
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 168.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 221.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 214.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرّ).
(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 214.

هذا ولا ذاك، بل أنتم مُمهَلون، فإمّا التَّوبةُ وإمّا الهلاكُ، وقد كانوا يقولون مُتفاخِرينَ بقوَّتِهم وكَثرتِهم: نحنُ جماعةٌ لا تُهزَمُ، فجاءَ الرَّدُّ الصّارِمُ: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، وقد تحقَّقَ ذلك في بدرٍ حين هُزِموا، وولَّوا هارِبين، وتُذكِّرُهُم أنَّ العذابَ الحقيقيَّ ما زال أمامَهم: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾؛ أي: أنَّ العَذابَ الأعظمَ يَنتظِرُهم في الآخرة، فإنَّ عذابَ الدُّنيا إلى جانبِه هيِّنٌ، والسّاعة داهيةٌ كُبرى، وبلاءٌ شديدٌ، وعذابُها أمرُّ من كلِّ ما ذاقوه في هذه الحياة(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة تصدير القصَّة بالمؤكِّدات:

التّوكيدُ القرآنيُّ يشدُّ الانتباهَ حين تكون الجريمةُ أفظعَ وأوضحَ

جاء قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ مُصدَّرًا بـ(اللّام) و(قد)، وهُما أداتا توكيد، ومعَهُما القسم المُقدَّر؛ أي: (واللّه لقد جاء آلَ فِرعونَ النُّذُر)؛ وذلك لإبراز شدَّة العناية بهذا المَقطَع مِنَ القَصص، وتمييزه عن غيره من حيث خطورتُه ووقعُه. لأنَّ آلَ فِرعونَ، بخلافِ الأقوام الأخرى، عايَنوا آياتٍ عظيمةً مُتتابِعةً: الطّوفان، والجَراد، والقُمَّل، والضَّفادع، والدَّم، وانفلاق البحر، والعصا، واليد البيضاء... فهي أعظمُ آياتٍ جاءَت لقوم مُجتمِعةً، كما قال تعالى: ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ [النّازعات: 20]، ولأنَّ عقوبتَهُم كانَت بالهلاك الغامِرِ والذُّلِّ المَهين، فقد أُهلِكوا غرقًا، ثمَّ أُدخِلوا النّارَ ﴿يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا﴾ [غافر: 46]، فهُم من أشدِّ مَن أخذَ اللّهُ كما في قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾؛ ولأنَّ موسى عليه السلام جاءَهُم بعدَ غَيبةٍ، وجاءَهُم مُباشرةً برسالةٍ صريحةٍ، وأيَّدَها بمُعجزاتٍ عمليَّةٍ مَشهودةٍ، فصارَ مَجيءُ النُّذُرِ إليهم أصرحَ وأوضحَ مِن أن يُكذَّبَ به، ومع ذلك وقَعَ منهُم أعظمُ العِناد(2).

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 217، 218، 219.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 173، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 208.

توجيهُ الاختِلافِ في توكيد مَطلِع القصّة دون أخَواتِها:

الوعيدُ باقتراب هزيمةِ سادةِ قُريشٍ بما يُشابِهُ هزيمة آلِ فِرعونَ

جاء مَطلِعُ الحديث عن آلِ فِرعونَ مُؤكَّدًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾، بخلاف بقيَّة القَصص الّتي بدأت بدون توكيدٍ، كقوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٍ﴾ [القمر: 9]، وقوله: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴾ [القمر: 18]، وقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 23]، وقوله: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: 33]، ونُكتة ذلك التّنبيهُ على قُربِ آل فِرعونَ من مُشركي قُريشٍ زمانيًّا، وأنَّ العذابَ نزلَ في الآل، ومَنِ استقوَى بفِرعونَ وسارَ معه في حَربِهِ على موسى عليه السلام لاستئصالِهم، فكانت هناك مُشابَهةٌ ومُقارَبةٌ، فكأنَّ التَّوكيد لفتٌ للأنظار لِما سيقعُ على رؤوس المُشرِكين مِنَ القتل والتَّنكيل، ولاسيَّما السّادة الّذين هُمْ أشبَهُ بآلِ فِرعونَ، وممّا يُرشِّحُ الفَرقَ في التَّوكيد، وأنَّه مُرادٌ به العذابُ الخاصُّ بسادة المُشرِكين، ما وقَعَ لهم يومَ بدرٍ، والَّذي أشارَت إليه الآيةُ اللّاحِقة، وهي قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ الۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ [القمر: 45]، وهو عَينُ ما وقَعَ يوم بدر، فكانَت هزيمتُهُ مُقارِبةً لهزيمة فِرعونَ، فغرَضُ التَّوكيد هو لفتُ الأنظار لِما سيكون في المُستقبل القريب.

توجيهُ اختلافِ التَّعبير بالإخبارِ عن مجيءِ النُّذُر دون تكذيبِ آلِ فِرعونَ:

الرِّسالةُ الإلهيَّةُ تَستهدِفُ المَسؤولَ الأوَّلَ عنِ الظُّلم قبل سائر النّاس

آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ مَجيءِ النُّذُر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ بخلاف بقية القَصص، كما قال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٌ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾، وقال: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ لُوطِۭ بِٱلنُّذُرِ﴾؛ وذلك أنَّ دعوةَ موسى عليه السلام لم تكُن موجَّهةً إلى (شَعب القِبْط كافَّةً) بالتَّكليف، وإنَّما كانَت موجَّهةً إلى فِرعونَ والطَّبقةِ الحاكِمةِ المَسؤولينَ عن قهر بني إسرائيلَ، لهذا اختُصَّ آلُ فِرعونَ بالإنذار دون إطلاقِ الوصفِ على (قوم فِرعونَ) أو (القِبطِ). وهذا له مَدخَلٌ في التَّعبير بالمجيء دون التَّكذيب؛ لأنَّه

إذا كان مَناطُ التَّكذيب وصدُّ الرِّسالة من آلِ فِرعونَ ناسَبَ التَّمهيدَ بالإنذار: (جاء النُّذُر) ثمَّ الإخبار بعدَه: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾؛ لأنَّ الغايةَ أوَّلًا هي إقامةُ الحُجَّة لا اتِّهامهم، وبيانُ مَسؤوليَّتِهم لا التَّعميم على الأمَّة، فالسّياقُ هنا أرادَ أن يُظهِرَ إقامةَ الحُجَّةِ أوَّلًا قبلَ ذِكْرِ ردِّها بالتَّكذيب؛ لكون التَّكذيبِ صادرًا من جهةٍ وطبقةٍ مَخصوصَةٍ لا مِنَ المَجموع العامِّ، بخلافِ القَصصِ السّابقةِ؛ فبدأها بذكر ﴿كَذَّبَتْ﴾ دون تمهيدٍ بالإنذار؛ لأنَّ قرارَ التَّكذيب كان جمعيًّا من عُموم الأمَّة، فكان التَّركيزُ ليس على الإبلاغ، بل على ردِّ الإبلاغ، إسراعًا في تسجيل الإدانةِ القاطِعةِ بالتَّكذيب؛ ليكونَ مُنطَلقًا لاستحقاق العقوبة، وهذا من دقَّة القرآن في عدلِه في التَّعبير، وإحكامِه في توزيعِ المَعاني بحسب السّياقِ والمُخاطَب(1).

نُكتة التَّعبير بالمَجيء دون الإرسال:

الإنـذارُ الصَّريحُ حُجَّةٌ بالِغةٌ لا عُذرَ بعدها

التَّعبيرُ بالمَجيء دون الإرسال في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾؛ لأنَّ (أُرسل) تدلُّ على التَّكليف بالبلاغ، وهي أنسَبُ حين يُرادُ بيانُ وظيفة الرَّسول، و﴿جَآءَ﴾ تدلُّ على الوصول الفعليِّ والقُدوم المَحسوس، وهي أنسَبُ حين يُرادُ تصويرُ المُقابَلة والمواجَهة. ومَجيءُ موسى عليه السلام إلى فرعونَ ومَلئِه كان فِعليًّا وحِسّيًّا ومَلحوظًا، فموسى كان غائِبًا عن مِصرَ، هارِبًا إلى مَدينَ، ثمّ عادَ إليهم فجأةً بعد غيابٍ طويلٍ يحمِلُ رسالةً من ربِّه، فجاءَهم بالآياتِ وبالإنذارِ مُشافَهةً ومُعاينةً، فعبارة ﴿جَآءَ﴾ أدقُّ وأقربُ للتَّصوير الحسّيِّ الواقعيِّ، وهو أبلغُ في الإيذان باستحقاقٍ أوضَح للعقوبة؛ لأنَّ النُّذُرَ لم يكُنْ غائِبًا أو عبرَ رسائلَ، بل (جاءَهم) بعينِه شخصًا وصوتًا وآيةً(2).

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 208.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 319.

فائدةُ ذِكْرِ ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ دون الاكتفاءِ بِفرعونَ:

تـنـبـيـهُ أعـوان الـظّـالِـمين إلى وحـدةِ المَصير الـدُّنـيـويِّ والأُخرويِّ

ذَكَرَ القرآنُ ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ دونَ التَّصريحِ بذكرِ فِرعونَ وحدَهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ فيصيرُ ذِكرُ الجزءِ دالًّا على ذكرِ الكلِّ؛ لبيانِ مَسؤوليَّة مَن يُحيطُ بالظّالم، ويَنصرُهُ على المُؤمنين، وأنَّه لا ينفَكُّ عن مَصيره الدُّنيويِّ والأخرويِّ، ففيه تنبيهٌ لسادة قُريشٍ ومَن يَلوذُ بهم، ويُناصِرُهُم على الحقِّ، بأنَّ مَصيرَهُم كمَصيرِهِم، فضلًا أنَّ فِرعونَ داخلٌ في الآلِ، بل هو أولَى النّاسِ بالذِّكر، فالاكتفاءُ بذكر (الآل) يُغني عنِ التَّصريح به؛ لأنَّ عِلْمَ السّامِعِ يَستحضِرُهُ تلقائيًّا باعتباره رأسَ الآلِ ومَصدرَ القَرار[1].

بلاغةُ الإسنادِ المَجازيِّ:

مدارُ الأمرِ على الرِّسالةِ لا الرَّسولِ المُنذِرِ

مفرد ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ الإنذار؛ أي: الإنذارات والرِّسالات، فيكونُ إسنادُ فعلِ المَجيءِ إلى النُّذُر (الإنذارات) مَجازًا عقليًّا بعلاقة السَّببيَّة؛ لأنَّ الرُّسلَ جاؤوا بسبب النُّذُر، فلو لم يَحملوا لأقوامِهم النُّذُرَ لَما جاؤوا، ومآلُ القولَين يصُبُّ في الغايةِ والمَآلِ، ونكتةُ المَجازِ تهويلُ الإنذارِ، حتَّى كأنَّه هو الّذي جاءَهم مواجَهةً.

فائدة استعمال مُفردة ﴿ءَالَ﴾ بدل (قوم):

مـوالاةُ الظّالِمين تُـدخِـلُ المَـواليَ فـي حُـكـمِـهـم ومَصيرِهم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالآل بدلَ القوم، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾؛ لأنَّ (القوم) أعمُّ مِنَ (الآل)؛ فالقومُ: كلُّ مَن يَقومُ الرَّئيسُ على أمرِهم، فيقومونَ هم بأمرِهِ، وقومُ فِرعونَ كانوا تحتَ قَهرِهِ بحيث لا يُخالِفونَه في قليلٍ ولا كثيرٍ؛ فالقومُ يشمَلُ كلَّ مَن يَدخُلُ تحتَ سُلطة فِرعونَ، سواءٌ من خاصَّتِه أو من عامَّة النّاس. أمّا (الآل) فهُم الخاصَّةُ والمُقرَّبونَ من فِرعونَ؛ أي: النُّخبة الدّاعِمةُ والمُشارِكةُ له في القَرار والتَّمكين والاستكبار؛ كهامانَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 173.

وقارونَ والملأِ، فهُمُ الّذين شاركوه في الظُّلم، والصَّدِّ عن سبيل اللّٰه، والطُّغيانَ، وتكذيبَ النُّذُر عن وعيٍ واختيارٍ، وهُمُ المَقصودونَ هنا في الآية(1)، وذُكِرَ الآلُ دونَ القوم للتَّنبيه على نزولِ العذابِ عليهم، فقد شَمَلَ العذابُ آلَ فِرعونَ جميعًا.

نُكتة تقديم ﴿ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ على الفاعل:

التَّحذيرُ والتَّنبيهُ من مُقتضَيات الرَّحمة الرَّبّانيَّة

قُدِّمَ ذِكرُ المَفعولِ على الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ لتوجيه انتباهِ المُخاطَبين على أهمّيَّة الحَدَث، فإنَّ شأنَ التَّنبيهِ في الخطاب شأنٌ تحذيريٌّ يَدفَعُ المَصائِبَ إنْ تفاعَلَ معها المُخاطَب بعقلهِ وقلبهِ، وشأنٌ توبيخيٌّ إنْ أهمَلَ النَّظرَ فيها.

دلالة جمع ﴿ٱلنُّذُرُ﴾:

تعدُّدُ وسائل الإنذارِ يَقطَعُ الأعذارَ، ويزيدُ مَسؤوليةَ المُكذِّبين

النُّذُر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾، جمع (النَّذير)، فهو اسمُ مَصدرٍ بمعنى (الإنذار) مِن (أنذَرَ)؛ أي: أنَّ ﴿ٱلنُّذُرُ﴾ تعني الإنذاراتِ المُتكرِّرةَ، فهو جَمعٌ باعتبار التَّعدُّد في الإنذارات، لا في المُنذِرين؛ لأنَّ المُنذِرَ هنا واحدٌ، وهو موسى عليه السلام. ووجْهُ الجَمع: الدَّلالةُ على وفرة الإنذاراتِ وكَثرة سُبُلِ التَّذكيرِ، وهو من باب تعدُّدِ الأسباب وتنوُّعِ وسائلِ الدَّعوةِ والتَّذكير، ممّا يجعَلُ عاقبةَ المُكذِّبينَ أشدَّ وأخزَى؛ لأنَّهم ما كذَّبوا بإنذارٍ واحدٍ، بل بأمواجٍ مِنَ النُّذُر المُتلاحِقة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ [طه: 56](2).

مَوقِع جملة ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ ممّا قبلَها:

السّياقُ القرآنيُّ يُبقي المُتلقّي حاضِرَ الذِّهن في كلِّ مَقطَعٍ

قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ يَحتمِلُ أن يكونَ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ يُفهَمُ مِنَ السّياق، فبعدَ أن قال اللّٰه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ قد يَتبادَرُ إلى ذهن السّامِع: ماذا كان

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 319، وابن عادل، اللُّباب: 18/ 274.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 208.

مَوقِفُهم من هذه النُّذُر؟ وماذا فعلوا بها؟ وكيف كانَت عاقبتُهم؟ فجاء الجوابُ في الاستئناف ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾، وفائدةُ الاستئناف البيانيِّ زيادةُ تشويقِ المُتلقّي وانتقالُهُ الذِّهنيُّ مع السِّياق، وإبرازُ أثرِ النُّذُر، وما يترتَّبُ على التَّكذيب بها.

ويَحتمِلُ أن يكونَ ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ بدلَ اشتمالٍ من جملة ﴿جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾؛ لأنَّ مجيءَ النُّذُر إليهم مُلابِسٌ للآيات، وظُهورُ الآياتِ مُقارِنٌ لِتكذيبِهم بها، فمَجيءُ النُّذُر مُشتَمِلٌ على التَّكذيب؛ لأنَّه مُقارِنٌ مُقارِنِه[1]، فيكونُ من باب كمال الاتِّصال، والأوَّلُ من باب شِبهِ كمالِ الاتِّصال، والتَّوجيهان صحيحا المعنى.

بلاغةُ التَّغليب في الحُكم على الجميع:

الـحُـكـمُ على الجماعةِ لا يُنكِرُ وجودَ استثناءٍ، لـكـنَّه يُسجِّلُ المَوْقِفَ العامَّ

إسنادُ التَّكذيب إلى آلِ فِرعونَ مع وجودِ مَن آمنَ منهم في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾؛ لأنَّ الإسنادَ إلى الجمعِ ظاهرًا يدلُّ على عُمومِ الحال، وإنْ لم يكُنِ المرادُ جميعَ الأفراد حقيقةً[2]. والسِّرُّ البلاغيُّ في هذا الإسناد المَجازيِّ هو إسنادُ الفِعل للأغلب الغالِب، فالغالِبُ على آلِ فِرعونَ هو التَّكذيبُ، فحُكِمَ على الجَمع بذلك، وإنْ وجِدَ فيهم مَن آمنَ كالرَّجُل المُؤمِنِ في سورة غافر، وآسيةَ بنتِ مُزاحِم، زوجةِ فِرعونَ. وذِكرُ الرَّجلِ المُؤمنِ وامرأةِ فِرعونَ في مَوضِعٍ آخرَ هو بيانُ استثناءٍ خارجٍ عنِ القاعِدة، لا مُخصِّصٌ لها في المَقام البيانيِّ هنا، والمَقامُ مَقامُ تهويلٍ للعقوبة، وبيانُ العاقبة لِمَن استكبرَ عنِ الحقِّ، فالخِطابُ موجَّهٌ لِمَن يتَّبعُ سيرةَ التَّكذيب، لا لِمَن نجا مِنَ المَصير.

نوعُ الباء ودلالتُها:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ هي باءُ التَّعدية،

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 208.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 208.

ومعنى الإلصاقِ مُلازِمٌ لها، وهذا أبلغُ ممّا لو قيل: (كذَّبوا آياتِنا)، إذ يُشعِرُ حرفُ الإلصاق بالمُبالغة في الجُحود.

نُكتةُ جمعِ الآياتِ وإضافتِها إلى ضميرِ العَظمة:

تكذيبُ الآياتِ الإلهيَّةِ عِلَّةُ الأخذِ الشَّديد عند صاحبِ العقلِ الرَّشيد

جُمِعُ لفظُ الآياتِ ثمَّ أُضيفَ إلى ضمير العَظمةِ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾، فالجمعُ لإحاطة كلِّ ما جاءَهُم من دلائلَ عقليَّةٍ وحسّيَّةٍ وشرعيَّةٍ، فلا يبقى عُذرٌ ولا مَهربٌ، وإضافتُها إلى ضمير العظمة (نا) يُكسِبُها شرفَ المكانة، وعظيمَ الشَّأن، فهي ليسَت مُجرَّدَ خوارقَ مَعزولةٍ، بل هي مَنسوبةٌ إلى اللّٰه سبحانه؛ فتكذيبُها اعتداءٌ على مَصدَرِها الإلهيِّ لا على الرَّسول فحسب.

دلالة التَّعبير بلفظ العُموم (كلّ):

رَفضُ كلِّ آيةٍ برهانٌ على العِنادِ لا الجهل

استعملَ التَّعبيرُ القرآنيُّ لفظَ العموم (كلّ) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾؛ ليَدُلَّ على الاستيعاب التّامِّ والتَّعميم الكاملِ للآيات الّتي كُذِّبَ بها، فلم يُؤمنوا بأيِّ آيةٍ، لا صُغرى ولا كُبرى، لا قَديمة ولا جديدة، بل كذَّبوا بالجميع. وتكذيبُهُم بآية انفلاقِ البحرِ خاصَّةً أبلغُ في العَمى والعناد؛ لأنَّها آيةٌ عَينيَّةٌ فُجائيَّةٌ حسّيَّةٌ، لا يُعذَرُ معها بجَحدٍ أو توهُّم، ومع ذلك لم يتَّعظوا بها، بل دخلوها مُكذِّبين، فأُغرِقوا فيها مُكذِّبين[1].

بلاغة الكناية في لفظ العُموم:

رفضُ الآياتِ كلِّها كنايةٌ عنِ المُبالغة في التَّكذيب ومُبالغةِ الرُّسل في التَّبليغ

النَّصُّ على العُموم بلفظ (كلّ) في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ كنايةٌ عن توبيخِهم والتَّسجيل عليهم بالحُجَّةِ البالِغة في استحقاقِهِمُ العذابَ؛ لأنَّ تكذيبَهُم ولو بآيةٍ واحدة يكفي في الأخذِ المَذكور، فكيف بالآيات كلِّها[2]، فهُم بالَغوا في الكُفر والتَّكذيب، كما أنَّ لفظَ ﴿كُلِّهَا﴾ كنايةٌ كذلك عن مُبالغةِ الرَّسول في التَّبليغ،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 209.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 334.

والصَّبرِ على المُكذِّبين؛ ففيه إيماءٌ إلى تبرِئة الرُّسل من أيِّ قُصورٍ في البلاغ والإنذار.

نوعُ الفاء ودلالتها:

الفاء في قوله: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ﴾ للتَّفريع على التَّكذيب في قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، والتَّفريعُ يُفيدُ التَّسبُّبَ؛ أي: تسبَّبَ عن تكذيبِهم أخْذُهم وإهلاكُهم[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الأخذ:

عقابُ الله قبْضٌ قاهرٌ لا مَهرب منه لِمَن أعرَضَ وكَذَّب

استُعيرَ لفظُ الأخذِ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ لِمَعنى العقاب والإهلاك والانتقام[2]؛ لأنَّ الأخذَ في أصلِه هو التَّناولُ باليَد، فنُقِلَ إلى معنى المَجاز وهو الاستيلاءُ عليهم بالعذاب، فشُبِّه الإهلاكُ والتَّعذيبُ بالأخذِ على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ونكتةُ ذلك بيانُ الاقتدارِ الإلهيِّ بأنَّه أخذٌ يَسيرٌ عليه سبحانه، فكما أخَذَهم فهو يَأخُذُ غيرَهُم.

فائدةُ المَفعولِ المُطلَق:

تأكيدُ نوعِ العُقوبة يَزيدُ من رَهبتِها في النُّفوس

أفادَ انتِصابُ قوله تعالى: ﴿أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ على المَفعوليَّة التَّأكيدَ على نوعِ الأخذِ، فالمَفعولُ المُطلَقُ يُعزِّزُ من قوَّة الفِعلِ، ويدلُّ على عَظمةِ العذاب الّذي لا يُقهَرُ ولا يَفِرُّ منه أحدٌ، وهذا يكشِفُ مُستوى القَسوة في العذاب الّذي لاقاهُ فِرعونُ وقومُهُ بعد تكذيبِهم المُتواصِل للآيات[3].

بلاغةُ إضافةِ المَصدرِ إلى فاعِله:

البَطشُ بالباطِشِ عدلٌ من الرَّحيم بعبادِه المَساكين

إضافةُ ﴿أَخۡذَ﴾ إلى ﴿عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ بمعنى (مِن)؛ أي: أخذًا آتيًا مِن عزيزٍ مُقتَدِرٍ، والإضافةُ من إضافة المَصدر إلى فاعِله، فالآخذُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 91.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 208.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 209.

عزيزٌ مُقتدِرٌ، وفيه إيماءٌ لِفرعونَ ومُناسبةٌ لِمَقامِه، فكما كان يَبطِشُ بالنّاس كعادة الملوك الجبابرة، الّذين يَخطفون النّاسَ، ويَبطِشون بهم بقوّةٍ لا يُمكِنُ مُقاومتُها؛ فإنَّ اللّه تعالى قد أخَذَ فِرعونَ وآلَهُ بالقوّة نفسِها الّتي لا مَرَدَّ لها.

تعيينُ مَرجِع الضَّمير ودلالتُه:

يرجع الضَّميرُ إلى آلِ فِرعونَ تحقيقًا، وإلى الأقوامِ السّابقين إيماءً

الضَّمائرُ في قوله تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذۡنَٰهُمۡ﴾ تحتمِلُ أن تَرجِعَ لآخِرِ مَذكورٍ، وهُم آلُ فِرعونَ، وتَحتمِلُ عَودَها إلى جميع الأقوام المُتقدِّم ذِكرُها[1] بطريقِ الإيماء، فتكون خاتمةً للقَصص الواردة في السّورة، وتلخيصًا للجزاءِ العامِّ لِمَن كذَّبَ الرُّسلَ، خصوصًا بعد استعراض قَصصِ الماضين (قوم نوح، عاد، ثمود، لوط، فِرعون)، فكان ختامُ القَصص بجملةٍ جامعةٍ مانِعةٍ: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾؛ لتكونَ ميزانًا يوزَنُ به كلُّ طاغيةٍ ومُكذِّبٍ يأتي بعدَهُم.

والقولُ بعودة الضَّمير إلى أقرب مَذكورٍ بناءً على القاعدة النَّحْويَّةِ المَشهورةِ، والقولُ بعودة الضَّمير إلى جميع المُتقدِّم ذِكرُهُ بناءً على العُموم السّياقيِّ، والمَعنيان مُتآيلان، ورجوعُ الضَّميرِ إلى أقرب مَذكورٍ أظهَرُ في الكلام الجُزئيِّ، وإلى جميعِ المُتقدِّم ذِكرُهُ أظهَرُ في المَقصِد الكلّيِّ.

نُكتةُ الجَمع بين صفتَي ﴿عَزِيزٖ﴾ و﴿مُّقۡتَدِرٍ﴾:

قوَّةُ الله تُرهِبُ الطّغاةَ وتُطمئِنُ أهلَ الإيمان

الجمعُ بين صِفتي عزيزٍ ومُقتدِرٍ في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾؛ لِلجمع بين التّهديد والتَّطمين. ففيهما تهديدٌ لِمَن يَرى نفسَهُ قويًّا في الأرض، وتطمينٌ للمؤمنين أنَّ قوَّةَ اللّه لا تُجارَى، ولا يُفلِتُ منها مُتجبِّرٌ. فالعزيزُ هو الّذي لا يُغالَبُ، ولا يُهزَمُ. والمُقتدِرُ: هو الّذي يُحسِنُ إنزالَ العِقاب بقُدرةٍ دقيقةٍ، ويُنزِلُهُ على وجه

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 220.

الحِكمةِ. فجَمَعَ هنا بين وصفَين مُتباينَين في اللَّفظ، ومُتَّحِدَين في تقرير الغَلبة لِلمُؤمن، وإمضائِها على المُستكبِر.

غرَضُ تنكيرِ الاسمَين الجليلَين:

نُكِّرَ الاسمان الجليلان ﴿عَزِيزٍ مُّقۡتَدِرٍ﴾؛ لإفادة التَّفخيم؛ أي: أخذًا صادرًا عن عِزّةٍ لا تُدافَع، واقتدارٍ لا يُغالَبُ، كأنَّهما عِزَّةٌ واقتدارٌ لا نظيرَ لهما.

نُكتة تقديمِ صفةِ العِزَّة:

أخـذُ الـلـهِ لا يُقاوَمُ؛ لِعزَّته، ولا يُفلِتُ منه أحدٌ؛ لاقتدارِه

قُدِّمَ ذِكرُ صفة العزَّة على الاقتدار في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٍ مُّقۡتَدِرٍ﴾؛ لأنَّ الأخذَ ناشئٌ أوَّلًا من قهرٍ وغلبةٍ لا تُدافَعُ، ثمَّ جاء الاقتدارُ مُكمِّلًا ليُبيِّنَ أنَّ هذا القهرَ مُقترِنٌ بقُدرةٍ تامَّةٍ لا يُعجِزُها شيءٌ، فهو ترتيبٌ مَنطقيٌّ مِنَ القهر إلى التَّمكُّن. ولذا فُسِّر ﴿عَزِيزٍ﴾ بالّذي لا يُغلَبُ، و﴿مُّقۡتَدِرٍ﴾ بالّذي لا يُعجَز[1].

دلالةُ التَّعبير بصيغة (افتعل):

تجلّي القُدرة الإلهيّة في صورةٍ فعليَّةٍ ظاهرةٍ

كلمة ﴿مُّقۡتَدِرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَخۡذَ عَزِيزٍ مُّقۡتَدِرٍ﴾ اسم فاعل من (اقتَدَر) الخماسيِّ، على زنة (افتَعَل)، وهو أبلغُ من (قادر) و(قدير)؛ لزيادة مَبناهُ الّتي تُؤذِن بزيادة مَعناه. وصياغتُه مِنَ (افتَعَل) تدلُّ على المُبالغة في الفعل، والتَّمكُّن منه، وإنفاذِه بقوَّةٍ وإحكام. ولم يقُل: (أخذَ عزيزٍ قديرٍ) بدلًا من ﴿مُّقۡتَدِرٍ﴾؛ لأنَّ (مُقتدِر) تدلُّ على إظهار الفعلِ وإيقاعِه في الخارج، وأمّا (قدير) فهي وإنْ كانَت صفةَ مُبالَغةٍ أو صفةً مُشبَّهةً، على زنة (فَعيل)، تدلُّ على تَمام القُدرة ودوامِها وثُبوتِها ذاتًا، إلّا أنَّها قد تُقالُ لِمَن له قُدرةٌ ذاتيَّةٌ، لكن قد لا يُباشِرُ الفعلَ، أو لا يُظهِرُ أثرَ قُدرته. فصيغةُ ﴿مُّقۡتَدِرٍ﴾ "أبلغُ في هذا السّياق من (قدير)"[2]، رغم أنَّ (قديرًا)

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 334، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 209.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 334.

على صيغة المُبالغة؛ لأنَّ الغرضَ هنا ليس المُبالغةَ المُجرَّدة، بل إظهار القُدرة في صورةِ الفعل.

بلاغةُ المناسَبة بين مَنطوقِ الفاصلة ومَضمون القصَّة:

ادّعاءُ القوَّةِ لا يُنجّي مِنَ الأخذ الإلهيِّ إذا غابَ الحقُّ

في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ مقابلةٌ بين مَقام الادِّعاء ومَقام الحقيقة، ففرعون قال في كِبره: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النّازعات: 24]، وادَّعى العزَّةَ والاقتدارَ، فجاء الرَّدُّ الإلهيُّ في خاتمة العذاب ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾؛ أي: العزَّة والاقتدارُ الحقُّ للّه وحدَه، لا لِمَن اغترَّ بمُلكٍ أو سُلطةٍ، ففيه إفحامٌ له ولسائر مَن سارَ على دربه، كما في ذلك إبرازٌ للمُناسبة النَّفسيَّة والسّياقيَّة بين ألفاظِ الخاتمة ومَطلِع القصَّة، فآلُ فِرعونَ عُرِفوا بالتَّكذيب مع الاستكبار والسُّخرية، فناسبَ أن يكون أخذُهم بأقصَى درجات القوَّةِ الّتي لا مَردَّ لها، فجاءَ التَّعبيرُ بـ﴿أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ تجليةً للبَطش الإلهيِّ المُتناسِب مع مُستوى عِنادِهم وتكذيبِهم(1).

مَوقِع جملة ﴿أَكُفَّارُكُمۡ﴾ ممّا قبلَها:

الاتِّعاظُ بالماضين يُبيِّنُ المصيرَ الّذي يَنتظرُ المُكذِّبين

قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ استئنافٌ مُقرِّرٌ لحاصل ما قبلَه مِنَ القَصص الّتي مَرَّت، فهو فصلُ الخطاب الّذي يُسجِّلُهُ المُخاطِب على المُخاطَب، وغايتُهُ في ختام الكلامِ معه، فبَعدَ سَردِ قَصصِ المُكذِّبين من نوحٍ إلى آلِ فِرعونَ، قيلَ للمُخاطَبين على جهة النَّفي والإنكار وتقرير المُخاطَب: أأنتُم خيرٌ مِن هؤلاء إذْ كفَروا فعوقِبوا، وتكفُرون فتُفلِتوا؟! تلك إذن قِسمةٌ ضيزى! ولأجل إبراز ذلك التَّسجيل كتقريرٍ مُستقِلٍّ وبيانٍ فاصِلٍ، فُصِلَتِ الجملةُ ولم تُعطَف(2).

---

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة القمر، ص: 289.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 209.

نكتةُ العُدولِ في الخطاب:

مِنَ التَّلميحِ إلى التَّصريحِ تتجلَّى شِدَّةُ الإنذارِ الإلهيِّ

في قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ عدولٌ في أسلوب الكلام من كونه موجَّهًا للرَّسول ﷺ - في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ [القمر: 6]، وما بعده يَدخلُ في مَضمونِ الخطاب - إلى خطابِ المُشركين؛ لينتقلَ عنِ التَّعريض بهم إلى التَّصريح؛ اعتناءً بمَقام الإنذار والإبلاغ[1]؛ لِمُباغتةِ القوم بعدَ سَرْدِ القَصص السّابق بقصد التَّوبيخ والتَّقريع، والتَّنبيه والتَّحذير والتَّهديد.

بلاغةُ الاستفهام ودلالتُه:

الإنكارُ بالنَّفي في سياقِ التَّفضيلِ أبلغُ في التَّوبيخ

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾؛ للإنكار الوُقوعيِّ التَّحقيقيِّ، فلا يحتاجُ إلى إقرار المُخاطَب واعتقاده؛ لأنَّه حاصِلٌ بالفعل، وفائدتُه: إثباتُ مُغالطة المُخاطَب ومُكابرتِه فيما لا يَحتاجُ إلى بَرهَنةٍ واستدلالٍ، فيكون هذا الاستفهامُ في معنى النَّفي؛ أي: لستُم خيرًا مِن هؤلاء الكَفرة، بل أنتم مُتساوون في استحقاق الجزاء؛ لِتساويكم في أصل الجناية والتَّكذيب[2]. وتقوَّى هذا الإنكارُ والنَّفيُ بإيراده في سياق المُقارنة، فقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ هو في الحقيقة إنكارٌ للمُفاضلة؛ فالمعنى: لستُم بخيرٍ منهم. وهذا الأسلوبُ أقوى مِن أن يُقال: (أنتُم شرٌّ منهم)؛ لأنَّ الإنكارَ بالنَّفي في سياق التَّفضيل أبلغُ في التَّوبيخ.

فنُّ تَجاهُلِ العارِف:

إظهارُ عدمِ العِلمِ في خطابِ المُكذِّبِ تهكُّمٌ وتوبيخٌ

يحتمِلُ أن يكونَ الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ على حقيقته، فيُفهَمُ في ظاهر التَّركيب أنَّه طلبيٌّ يسأل عنِ الأفضليَّة، لكنَّه في السّياق ليس للسُّؤال الحقيقيِّ بل هو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 47، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 209.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 335.

توبيخيٌّ، مَسوقٌ سَوقَ المعلومِ مَساقَ غيرِه. وهذا من فنون البلاغة المَعروف باسم: (تجاهُل العارِف)؛ أي: توجيهُ السّائل المُقتضي في الظّاهر عدمَ العِلم بما هو في الحقيقة بغرَض التَّهكُّم والتَّعريض. أو ما يُسمّيه بعضُ البلاغيينَ بـ(سَوق المَعلوم مَساقَ المَجهول). فبهذا الأسلوب يُقلَبُ الاستفهامُ إلى تقريرٍ للتَّوبيخ والتَّقريع، كأنَّه قيل: هل تظنّون أنَّكُم خيرٌ من قوم نوحٍ أو عادٍ أو ثمودَ أو قوم لوطٍ، حتَّى تُستثنَوا مِنَ العذاب؟! في الحقيقة، لا فضلَ لكفّار مكَّةَ على كفّار الأمم السّالفة، بل إنَّ أسبابَ العذاب حاصِلةٌ عندَهُم أوفرَ وأوضَح؛ فقد بلغَتهُمُ الرِّسالةُ، وجاءَتهُم الآياتُ، وسَمِعوا القَصصَ والمَواعِظَ، ثمَّ كذَّبوا واستكبروا كما فعَلَ أولئك، أو أشدّ[1].

بَراعةُ إضافةِ اللَّفظ إلى ضميرِه:

الإضافة البيانيَّة تُميِّزُ صِنفًا خاصًّا في المُخاطَبين

ضمير الخطاب الجمعيّ في: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ﴾ يَرجِعُ إلى أهل مكَّةَ، وهم أنفسُهُم الكفّار؛ فإضافةُ لفظ (كفّار) إلى ضميرهم إضافةٌ بيانيَّةٌ؛ لأنَّ المُضافَ صِنفٌ من جنسِ مَن أُضيفَ هو إليه، فهو على تقدير (مِن) البيانيَّة، والمعنى: الكفّارُ (منكم) خيرٌ مِنَ الكفّار السّالِفين؛ أي: أأنتُم الكفّارُ خيرٌ مِن أولئك الكفّار[2]، والإتيانُ بالوصف مُضافًا إلى ضميرهم ﴿أَكُفَّارُكُمۡ﴾ بدلًا مِنَ الاقتصار على (أأنتُم خيرٌ) فيه تعريضٌ وتقريعٌ أشدُّ؛ لأنَّهم لم يُخاطَبوا بضمير الذّات الجماعيِّ، بل وُصِفوا بوَصفهِم الّذي يُعيِّرُهم ويَكشِفُ جُرمَهم: (كفّاركم)، وفيه إيماءٌ إلى قيمةٍ هدائيَّةٍ، وهي تنزيلُ المُخاطَب مَنزلةَ غيرِ الكافر؛ لِتنزيهِه عن نجاسةِ الكُفر - الّذي هو واقِعٌ فيه - فيما يُفترَضُ أن يكون عليه من الإيمان.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 210.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 210.

بلاغةُ فنِّ التَّجريد:

تجريدُ المُشركين للكُفر يُؤكِّد أنَّهم كيانٌ مَوصومٌ لا صِلةَ له بالنَّجاة

يجوزُ أن يكونَ خطابُ المُشرِكين بوصف الكفر مع إضافته إلى ضميرهم من باب التَّجريد، وهو أسلوبٌ بديعيٌّ يُنَزَّل فيه الشَّيءُ مَنزِلةً كأنَّ له شيئًا آخرَ من جنسه، ثمَّ يُضافُ إليه لِمبالغةٍ ما، كقول القائل: (لكَ في نفسكَ صاحبٌ يُعاتِبُك)؛ أي: تُجرِّد من نفسك صاحبًا خياليًّا يلومُك، والمقصودُ أنَّك أنت تلومُ نفسَكَ، كذلك قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٌ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ يمكن أن يُفهَمَ - على وجه التَّجريد - أنَّ الخطابَ جَرَّدَ مِنَ القوم صِنفًا خاصًّا سمّاهُ (كفّارًا)، ثمَّ أُضيفوا إليهم، فقال: (كفّاركم)، فصار المعنى: منكُم صِنفٌ مَخصوصٌ هو كفّارُكم، أفَهُمْ خيرٌ مِن أولئك الكفّار؟!.

وهذا أبلغُ في الذَّمِّ والتَّوبيخ؛ لأنَّ فيه إبرازَ الكفر كصفة لازمةٍ تامَّةٍ فيهم، كأنَّها جنسيَّةٌ مُستقلَّةٌ، ويجعلهم كأنَّ كُفرًا قد تملَّكَهُم أو انبثقَ منهم، فصار كالصّاحب لهم، كأنَّ كُفرًا خالِصًا مُجرَّدًا قد أُخرِج منهم ثمَّ أُعيدَ إليهم بالإضافة[1].

دلالة صيغة التَّفضيل:

احتمال المُفاضلة وعدمها عائدٌ إلى تشخيصِ المعاني وربطِها بالمَقاصد

كلمةُ ﴿خَيۡرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٌ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ اسمُ تفضيل، وأصله (أَخْيَرٌ) بوزن اسم التَّفضيل، فحُذِفَتِ الهمزةُ لِكثرة الاستعمال[2]، وهي في هذا السّياق تَحتمِلُ الدَّلالةَ على التَّفضيل باعتبارين: **الأوَّل**: حيث كان الكلامُ استفهامًا جاز فيه مجيءُ لفظة التَّفضيل بين الكفّار المُخاطَبين والكفّار السّالِفين في الخيريَّة؛ لأنَّ المُستفهِمَ جائزٌ له أن يوقِفَ مُحاوِرَه على ما شاء؛ ليَرى هل يُجيبُهُ بالصَّواب أو بالخطأ[3]. **والثّاني**: أنَّه لمّا وقعَ التَّساوي بين الكافرين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 91.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 335.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 203.

الحاضِرين والكافرين الغابِرين، في أنَّهما فريقان مُنفصِلان، صحَّ وقوعُ التَّفضيل بينهما على هذا الأصل[1].

ويَحتمِلُ أن تكون ﴿خَيْرٌ﴾ مَنزوعَ المُفاضلةِ، فاسمُ التَّفضيل قد يُستعمَلُ لا لتفضيل شيءٍ على شيءٍ آخرَ مُعيَّن، بل قد يُرادُ به مُجرَّد الزِّيادة في أصل الوصف. فيُراد باسم التَّفضيل تجاوُزُ صاحبِه وتباعُدُه عنِ الغير في الفعل، لا بمعنى تفضيلِه بالنِّسبة إليه بعد المُشاركة في أصل الفعل، بل بمعنى: أنَّ صاحبَه مُتباعِدٌ في أصل الفعل، مُتزايدٌ إلى كمالِه فيه على وجه الاختصار، فيحصُل كمالُ التَّفضيل[2]، فيكون المعنى هنا نفيُ أن يكونَ أحدُ الفريقين مُتمايزًا على الآخر في أصل الصِّفة؛ وهي الكُفرُ البَواح.

نوع ﴿مِّنْ﴾ ودلالتُها:

التَّفضيل يكون لِما بعد ﴿مِّنْ﴾

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ هي ﴿مِّنْ﴾ التَّفضيليَّة؛ لابتداء غاية التَّفضيل، فهي حرفٌ واصِلٌ بين المُفضَّل والمُفضَّل عليه؛ لإفادة المُقارنة والتَّرجيح بينهما، وغايةُ التَّفضيل هي ما بعدَ اسمِ التَّفضيل ﴿أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾.

دلالة التَّعبير باسمِ الإشارة البعيد:

اجتماعُ البُعدِ الزَّمانيِّ والمَعنويِّ بحسب السِّياق والمَقصود

التَّعبيرُ باسم الإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ﴾؛ لإشارته إلى البُعداءِ زمنًا ومَقامًا، فالمَقصود: المَذكورون من قوم نوحٍ إلى فِرعونَ ممَّن حقَّ عليهم العذابُ، وهؤلاء بُعَداءُ في المنزلةِ والتَّاريخ[3]، ويَحمِلُ استعمالُ اسم الإشارة للبعيد معنى البُعدِ المَعنويِّ المَجازيِّ، بالإضافة إلى البُعدِ الزَّمانيِّ الحقيقيِّ؛ فهُم بُعَداءُ عنِ الحقِّ، فشأنُهم الإبعادُ عن مَواطِن الكرامة.

(1) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 60، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 3/ 314.

(2) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 39، وفاضل السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 313.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 335.

تَوهُّمُ البَراءة يَكشِفُ الوجهَ القاتِلَ للأمانِ الكاذب

مَوقِع جملة ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾:

قوله: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ لا إضرابٌ إبطاليٌّ، فهو انتقالٌ من تعريضٍ بتوهُّم الأفضليَّة ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ﴾ إلى نفي دعوًى ثانيةٍ باطلةٍ، وهي: أنَّهم في أمانٍ مِنَ العذاب الإلهيِّ، وكأنَّ لهم صكَّ براءةٍ، فيكون هذا مِنَ التَّبكيتِ والسُّخرية من شُعورِهِم الزّائفِ بالأمان مِنَ العذاب[1].

نقضُ شُعور الأمان بإثباتِ زَيف الأوهام

غرضُ الاستفهام ودلالتُه:

في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ ﴿أَمۡ﴾ مُنقطِعةٌ للإضراب الانتقاليِّ، بمعنى: (بل) وهمزة الاستفهام؛ أي: بل أَلَكُم[2]؟ والجمعُ بين الاستفهام و﴿أَمۡ﴾ بعد استفهامٍ آخرَ فيه تعاقُبٌ لأساليب البيان في تحقيقِ غرَضِ التَّوبيخ، والاستفهامُ هنا: إنكاريٌّ يُنكِرُ عليهم هذا الشُّعورَ الكاذبَ، وتقريريٌّ يَقطَعُ بعدَمِ وجودِ مثلِ هذا البراءة[3].

دلالةُ التَّعبير بحرف الظَّرفيَّة:

وظيفةُ حرفِ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ ربطُ البراءة بالمَكان أو النِّطاق، كأنَّه قيل: هل لكم نصيبٌ للبراءة داخلَ الزُّبُرِ؟ لِتعيين المَكان الَّذي يُسأَلُ عنه.

تأصيلُ المعاني العقديَّة أصلٌ في خِطابِ العقلِ الباحث عنِ النَّجاة

فائدةُ تقييدِ البراءةِ بكونِها ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾:

قُيِّدَتِ البراءةُ بكونها في الزُّبُر في قوله: ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾، فلم يأتِ السُّؤالُ عن براءةٍ مُطلَقةٍ، بل عن براءةٍ مذكورةٍ في كُتُبٍ مُعتبَرةٍ؛ أي: في وحيٍ إلهيٍّ مُنزَّلٍ، لا مُجرَّد مَزاعِمَ أو أمانيّ. وهذا فيه ردٌّ على مَن يظنُّ أنَّ نجاتَه قائمةٌ على تقليدٍ أو

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 91، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 210.

(2) الخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 27/ 173.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 140، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 211.

ادِّعاءٍ أو إرثٍ دينيٍّ بلا حجَّةٍ. ولو قال: (أم لكُم براءةٌ؟) لاحتملَ أن تكون مَزعومةً أو مَظنونةً، لكن قوله: ﴿فِي ٱلزُّبُرِ﴾ قيدٌ مُهمٌّ يدلُّ على التَّوثيق والمَرجعيَّةِ، ويُبطِلُ الحُجَجَ المُعتمِدةَ على الأهواء، أو الرُّؤى الشَّخصيَّةِ، أو المَوروثاتِ المَشكوكِ فيها، مع التَّعريض بأنَّ البراءةَ مكتوبةٌ في الزُّبُر للَّذين آمنوا. وفي القيد تنبيهٌ إلى حال الكافر والمؤمن؛ فالكافرُ آمنٌ في الدُّنيا، مع أنَّه لا يَملِكُ براءةً. والمؤمنُ خائِفٌ في الدُّنيا، مع أنَّه يَملِكُ وعدًا بالنَّجاة[1].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلزُّبُرِ﴾:

(الـ) في ﴿ٱلزُّبُرِ﴾ لحقيقة الجنس؛ أي: جنس الكُتُب السَّماويَّة، أو لِلعَهد؛ أي: ما سَبقَ لهم به عِلمٌ من هذه الكُتُب.

بلاغة فنِّ الاحتباك:

الحذفُ البليغُ يُكثِّف المعنى ولا يُخِلُّ به

في قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ بديعُ الاحتباك، ففي الطَّرف الأوَّل مِنَ التَّرديد ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ ذُكِرتِ الخَيريَّة، ولم يُذكَرْ أنَّ أولئك ليسَت لهم براءةٌ. وفي الطَّرف الثّاني مِنَ التَّرديد ﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ ذُكِرَتِ البراءةُ، ولم يُذكَر أنَّ أولئك ليسوا بخيرٍ منهم. وعليه فوجهُ الاحتباك إثباتُ الخَيريَّة في الشِّقِّ الأوَّل، فهي دليلٌ على حذفها في الثّاني، وإثباتُ البراءة في الشِّقِّ الثّاني، فهي دليلٌ على حذفها في الأوَّل؛ والمعنى: أكُفّارُكُم خيرٌ مِن أولئِكُم، وليس لكم براءةٌ في الزُّبُر؟ أم لكم براءةٌ في الزُّبُر، ولستُم بخيرٍ منهم؟[2].

مَوقِع جملة ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ﴾ ممّا قبلها:

الانتقال مِنَ التَّوبيخ إلى كشف الغرور العمليّ

قوله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ من تبكيتٍ إلى تبكيتٍ، فالآيةُ جاءَت بصيغة الإضراب: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 320.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 130.

﴿جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾، والتَّقدير: (بل أيَقولون) على تأويل همزةٍ استفهاميَّةٍ بعد حرفِ الإضراب؛ أي: بل يقولون هذا القول - وليس لهُم أن يقولوه. و﴿أَمْ﴾ هنا مُنقطِعةٌ، تفيدُ الانتقالَ إلى نوعٍ جديدٍ مِنَ التَّوبيخ[1]. ويجوز أن تكونَ ﴿أَمْ﴾ هنا مُتَّصلةً لا تفيدُ إضرابًا ولا انقطاعًا، بل تُفيد طلبَ تعيين أحدِ هذه الأمور في الوقوع، وهو ما رجَّحَه القونويُّ[2].

بلاغة الالتفات مِنَ الخطاب إلى الغَيبة:

الإعــــراضُ عـنِ المُخاطَب المُكذِّب توبيخٌ لِمَقامه

كان الخطابُ موجَّهًا إلى أهل مكَّةَ في قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَكُم﴾ ثمَّ التفتَ السّياقُ إلى الحديث عنهم بصيغة الغَيبة: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. وهذا الالتفاتُ فيه صرفٌ للوجه عنهم، كمَن أعرضَ عن مُحاورٍ لم يَعُد يُحتفَى بخِطابه. وفيه إشعارٌ بالإعراض عن مَقامهم وانحدارِ رُتبتِهم. كما فيه نقلُ قبيحِ قولِهم إلى الغير، ممّا يزيدُ في التَّوبيخ، كأنَّه يقول عنهم: ليسوا أهلًا أن يواجهوا، بل يُتحدَّثُ عنهُم لا إليهم[3].

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ المضارع:

الفعلُ المضارع في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ يدلُّ على الاستمراريَّة؛ أي: يقولون على الدَّوام مُتفاخِرين، فأفادَ شدَّةَ العِناد وقوَّةَ الفخر وبالِغَ الغرور.

فائدةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

تـأكـيـدُ ثـبـاتِ الادِّعـاء الزّائف، وفَـضـحُ الـغـرور الجارف

التَّعبيرُ بمَقول القول جملةً اسميّةً مُستهَلَّةً بضمير جماعة المُتكلِّمين ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ يدلُّ على تأكيد الذّات والاعتداد بها، مع إظهار صفةِ الانتصار كحقيقةٍ مُفترَضَةٍ لديهم في مَوقِع الثُّبوت واليقين، وكأنَّ الجملةَ الاسميَّةَ جاءَت لتُعزِّزَ غرورَهُم وادِّعاءَهم

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 92.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 336.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 336.

الزّائِفَ، وتجعلَ المبالغةَ في اعتدادِهم بالانتصار واضحةً للسّامِع، فتزيدَ من وضوحِ التَّناقض بين ادِّعائهِم والواقع.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿جَمِيعٌ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ ذِكرَ كلمة ﴿جَمِيعٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾؛ للجمع بين معنى الاجتماع على الباطل في حرب الرِّسالة، والاتِّفاقِ عليه دون تَفرُّقٍ.

بلاغةُ جِناس الاشتقاق:

الجِناسُ الاشتقاقيُّ يُبرِزُ التَّناقُضَ بين غرورِ المُكذِّبين وواقعِ الهزيمة

في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝٤٤ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ﴾ جناسٌ اشتقاقيٌّ بين ﴿جَمِيعٌ﴾ و﴿ٱلْجَمْعُ﴾، فاللَّفظان اشتُقّا منَ الجذر نفسه؛ فـ(جميع) صفة تدلُّ على اجتماعِ الأفراد[1]. و(الجمْع) مصدرٌ يدلُّ على الاجتماع، وقد سُمّي به الفاعِلون (الجماعة)[2]. والجناسُ هنا يربطُ بين ادِّعاء المُكذِّبين بالجمعيَّة الشّامِلة للانتصار ﴿جَمِيعٌ﴾، والواقع الّذي سيواجِهونه كمجموعةٍ مُتجمِعةٍ ﴿ٱلْجَمْعُ﴾، فناسبَ نقضَ ادِّعائهِم بكلمةٍ من جنسِ ما ادَّعَوه.

دلالةُ إفرادِ لفظِ ﴿مُّنتَصِرٌ﴾:

كثرةُ الأنصار لا تنفَعُ مَن خذلَه الله

كان مُقتَضى الظّاهر - بناءً على المعنى - أن يُقال: (نحن جميعٌ مُنتصِرون)، باعتبار أنَّ ﴿نَحْنُ﴾ جماعة، و﴿جَمِيعٌ﴾ بمعنى: (مُجتمِعون)، فيُناسبُه الجمعُ في (مُنتصِرون). لكنَّ النَّظمَ جاء بإفراد ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ مُراعاةً للَّفظ والمعنى، فجاء الخبرُ ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ مُفردًا لِمُطابَقة لفظ ﴿جَمِيعٌ﴾، ولِبيان ما دلَّ عليه كلامُهُم من أنَّهم مُجتمِعون على كلمةِ رجلٍ واحدٍ، فكأنَّهم يقولون: نحن رجلٌ واحدٌ مُنتصِرٌ؛ ففيه تنبيهٌ على الإفراط والمبالغة في الاعتداد بالنَّفس، والاغترار بما سيُحقِّقونه من ظفرٍ.

---

(1) صافي، الجدول: 1/ 100.

(2) الجوهريّ، الصّحاح: (جمع)، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 25/ 37.

كلُّ تجمُّع باطلٍ محكومٌ بالخُذلان مهما بدا مُتماسِكًا

مَوقِع جملة ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾ ممّا قبلها:

جملةُ ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾ استئنافيَّةٌ، وقعَت جوابًا على قولهم: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾، فأُجيب: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾، ففيه ردٌّ وإبطالٌ لذلك، ولكونه جوابًا فُصِلَ، ولم يُعطَف[1].

دلالة السّين:

السّين في قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾؛ للتَّأكيد والتَّقريب، ولذلك لم يقُل: (سوف يهزم)؛ لاستبعاد التَّراخي وتحقيق التَّعجيل[2].

انهزامُ الجمع بأدنى سببٍ أمرٌ مَحتومٌ

نُكتةُ بناء فعل ﴿سَيُهۡزَمُ﴾ للمفعولِ:

بُنِيَ فعلُ ﴿سَيُهۡزَمُ﴾ لِما لم يُسمَّ فاعلُه؛ للدَّلالة على أنَّ انهزامَهُم حاصلٌ بأهوَنِ سببٍ وأيسَرِ طريق، كأنَّه لسُهولته يحصلُ من تلقاءِ نفسِه، وللتَّنبيه على أنَّه وعدٌ مَضمونٌ لا يَحتمِلُ خُلْفًا ولا إبطاءً ولا مُماطلةً أو عَنَتًا [3].

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡجَمۡعُ﴾:

(الـ) في لفظ ﴿ٱلۡجَمۡعُ﴾ للعهد الذِّكريِّ، والمعهودُ ما في قوله: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ﴾؛ أي: سيُهزَمُ الجمْعُ القائلُ بأنَّه مُنتصِرٌ، فـ(الـ) عِوَضٌ عن مُضافٍ إليه، وهو ضميرُهم[4].

فُرقةُ الأفعال هاتكةٌ لسترِ وحدةِ الأقوال

دلالة الجمع في ﴿وَيُوَلُّونَ﴾:

أُفرِدَ الفعلُ والفاعلُ في قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ﴾، وجاء التَّعبير في قوله: ﴿وَيُوَلُّونَ﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير الجمع؛ وذلك لبيان أنَّ الهزيمةَ ستُفرِّقهم، فهُم بعدَ أنِ اجتمعوا تنظيرًا، وأصبحوا يدًا واحدةً في دعواهم المُنبِئَةِ عن ضعفِ عقولِهم في فهْمِ حقائقِهم

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 213.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 131.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 336، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 213.

القائمة على باطلِ الاعتقادِ، وسوءِ الارتباطِ، جاءَتِ الهزيمةُ لهم جميعًا ففرَّقتهم، فبانَت فُرقتُهم بتولية الأدبار، كلٌّ منهم ولّى الدُّبُر، فوقعوا في خِزْيِ الإنباء قبل أن يقعَ، وفضيحةِ الاستهتار بهَتكِ الأستار عمّا سيَقع.

دلالةُ إفرادِ لفظِ ﴿ٱلدُّبُرَ﴾:

أهـلُ الباطل اجتمَعوا على قولٍ واحدٍ، وفي التَّولية كدُبُرٍ واحدٍ

أُفرِد لفظ ﴿ٱلدُّبُرَ﴾، فلم يقُل: (الأدبار)؛ لإرادة الجنس، بناءً على أنَّ (الـ) للجنس، فالمُرادُ الماهيةُ والحقيقةُ، سواء كانَت مُتحقِّقةً ضمن فردٍ أو أفرادٍ، والمراد هنا تحقُّقُها ضمن أفرادٍ كثيرة[1]. ويَحتمِلُ أن يكون في تأويل: (يولّي كلُّ واحدٍ منهم دُبُره) على حدِّ قولهم: (كسانا الأميرُ حُلَّةً)؛ أي: حُلَّةً لكلِّ واحد[2]، كما أنَّ واو الجمع تنوبُ عن تَكرار واو العطف، فقوله: ﴿وَيُوَلُّونَ﴾ بمثابة: (يولّي هذا الدُّبُرَ، ويولّي ذاك، ويولّي الآخرُ)؛ أي: كلُّ واحدٍ يولّي دُبُرَهُ[3]، أو إفرادُهُ إشارةٌ إلى أنَّهم في التَّولية كنَفسٍ واحدةٍ، فلا يَتخلَّفُ أحدٌ عن الجمع، ولا يَثبُتُ أحدٌ للزَّحف؛ فهُم كانوا في التَّولية كدُبُرٍ واحدٍ[4]، كما كانوا في الجَمْع كنَفْسٍ واحدةٍ، وهذا من صنيعِ أهلِ الهَزائم بعد الانكشافِ في ميدانِ أهل العَزائم.

بلاغةُ الكناية وفائدتُها:

جملة ﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ كنايةٌ عن صفةِ الفرار والهزيمة، وفائدةُ الكناية تقريبُ المَشهَد بطريقة حسّيَّة (إبداء الظَّهر)؛ لتقريب صورة الهزيمة في الذِّهن.

بلاغةُ الإضراب ونوعُه:

عــذابُ الـدُّنـيا مِـفـتـاحُ عـذاب السّاعة

جملة ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ﴾ إضرابٌ انتقاليٌّ مِنَ الوعيد بعذاب

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 336.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 92.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 322.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 322.

الدُّنيا كما حلَّ بالأُمَم قبلَهُم إلى الوعيد بعذاب الآخرة[1]. وهذا الإضرابُ عطفٌ على مُقدَّرٍ مَحذوفٍ، كأنَّه قيل: ليس هذا تمامَ عُقوبتِهِم أو عقابِهِم الوحيد، بل ينتظرُهُم موعِدٌ مِنَ العذاب آخَرُ، هو مَوعِد السّاعة[2].

وعليه: فـ﴿بَلِ﴾ هنا للإضراب الانتقاليِّ الّذي يَعطِفُ غرَضًا على غرَض، فكِلتا الجملتين قبل ﴿بَلِ﴾ وبعدَها مُقَرَّرٌ وثابتٌ، فالإضرابُ انتقاليٌّ لا إبطاليٌّ، ويصحُّ أن يكون الإضرابُ جوابًا عن سؤال مُقدَّر: أيكونُ انهزامُ جَمْعِهم هو غايةَ عذابهم؟ فأُجيبَ: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾، فالجملةُ حينئذٍ استئنافٌ بيانيٌّ.

نُكتة اختصاص السّاعة بكونها مَوعِدَهم:

السّاعة مَوعِدٌ مَخصوصٌ بالعقاب لِمَن استهزأ بها وجَحَدَها

خصَّ النَّظمُ السّاعةَ بالذِّكرِ في كونِها مَوعِدَهُم في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾، مع أنَّها مَوعِدٌ للجميع مؤمنًا وكافرًا؛ لكون هذا من باب التَّخصيص بالتَّهديد، والبيانُ على سبيل الرَّدِّ والتَّفنيد، ويدلُّ عليه أمور: أنَّهم هم السّائِلون عنِ العذاب تكذيبًا، لا إيمانًا، فقالوا: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [يونس: 48]، وقالوا: ﴿عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: 16]، وأنَّهم أنكَروا البعثَ أصلًا، فكأنَّ السّاعةَ لا تعني عندَهم شيئًا، فجيء بها هنا لِتصدمَهم وتُقرِّرَها عليهم خِصّيصًا؛ أي: إنْ كنتُم تستبعِدونَ وقوعَها، فهي لكم أنتُم مَوعِدٌ لا مَحالةَ. ولذا فالخطابُ هنا للوعيد، لا للجزاء على الطّاعة، فالمؤمنون مَوعِدُهم الخيرُ، لا يُخاطَبون بصيغة وعيدٍ، بينما الكفّارُ مَوعِدُهم الانتقامُ، فوُجِّهَتِ السّاعةُ إليهم، وخُصِّصَتْ بهم[3].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 214.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 92.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 322.

مَوقِع جملة ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾:

عذابُ السّاعة مُؤكَّدٌ لا مَفرَّ منه، وهو أدهَى من كلِّ ما سلف

جملة ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ استئنافٌ بالوعيد الصَّريح، بعد الإلماح إليه في جملة الإضراب؛ والمعنى: بل السّاعةُ مَوعِدُهم، وذلك مَوعِدُ عذابٍ لا مَوعِدُ رحمة؛ لأنَّها ساعةُ فظاعةٍ عليهم ومَرارٍ. وتقديرُ المُضافات هاهنا سائغٌ؛ والمعنى: بلِ السّاعةُ مَوعِدُهُم، وعذابُ السّاعةِ أدهى وأمرُّ. وحَذفُ المُضاف وإقامةُ المُضاف إليه مَقامَهُ مِنَ المَجازات الشّائِعة، ويكون لدفع الإطناب، وإبراز الفَظاعة كأنَّها هي ذاتُ السّاعة.

نُكتة إعادةِ اسم (السّاعة):

إعادةُ ذِكرِ السّاعةِ توكيدٌ لِهَولِها وتهويلٌ لأمرِها

أُعيدَ اسمُ (السّاعة) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ﴾ دون أن يُؤتَى بضميرها، فلم يقُل: (بل السّاعة مَوعِدُهم وهي أدهى)؛ لقصد التَّهويل، ولتكونَ الجملةُ مُستقلَّةً بنفسها، فتجري مَجرَى المَثَل السّائر[1].

بلاغةُ حذفِ مُقارِن التَّفضيل:

تركُ بيانِ المَفضولِ يدلُّ على أن لا شيءَ يَفوقُ عذابَ السّاعة

حُذِفَ مُقارِنُ التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، فلم يُعيَّن أدهى وأمرُّ من أيِّ شيءٍ؟ وتوجيه الحذف أنّه لتوسيع دائرةِ الهَولِ، فلو قيل: (أدهى من عذابهم)؛ لَقُيِّدَ الهَولُ، لكن حين يُترك، فالمعنى: لا شيءَ أشدُّ منها، بل هي أدهَى من كلِّ الدَّواهي والأهوال، ولبلوغ الغاية؛ أي: أدهَى الدَّواهي، وأمرُّ المَرارات، فلا داهيَةَ تُماثلها. وهذا من أقوى صيغ التَّفضيل، إذا حُذف طرفُ التَّفضيل هنا يُقصَدُ به الوصولُ إلى ذروة المعنى، والوجهان لا يتنافيان، بل يُمكن الجمعُ بينهما، فهي ﴿أَدۡهَىٰ﴾ من كلِّ عذابٍ سلفَ في الدُّنيا. و﴿أَدۡهَىٰ﴾ على إطلاق التَّفضيل؛ أي: أنَّها غايةُ ما تتصوَّرُهُ النَّفسُ مِنَ الدَّواهي والشَّدائد[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 174، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 214.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 322.

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿أَمَرُّ﴾:

(المَرارة) في الأصل: طَعمٌ لاذعٌ غيرُ مَحبوب، وهذا معنًى حسّيٌّ ماديٌّ، وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ استُعملَتِ الكلمةُ في غير مَعناها الأصليِّ، فلا حديثَ عن طعم يُذاقُ، بل عن عذابٍ نفسيٍّ وهَولٍ مَعنويٍّ. فاستُعيرَتِ المَرارةُ للإحساس بالمَكروه، فالمَرارةُ هنا ترمزُ إلى ثِقل وقعِ المُصيبة على النَّفس، وصعوبةِ احتمالها، فهي مرارةٌ وجدانيَّةٌ لا طَعميَّةٌ. وهذا من تشبيه المَعقول بالمَحسوس؛ لتقريبِهِ إلى الذِّهن، فوُصِفت السّاعةُ بأنَّها (أمَرُّ) تشبيهًا لحالِها في شدَّتها على النَّفس، بما يُعرَفُ من شدَّة (المَرارة) في الطَّعْم، فكان هذا من استعارة المَحسوس (المَرارة الذَّوقيَّة) للمَعقول (الكرب النَّفسيّ)؛ لإبراز فظاعة السّاعة عليهم، وصُعوبةِ احتمالها، وقُبحِ أثرِها في الوجدان. وهذه الاستعارةُ تمثيليَّةٌ؛ لأنَّ الآيةَ لا تشبِّهُ شيئًا مُفردًا بشيءٍ مُفرَدٍ، بل تُصوِّرُ حالَ السّاعةِ في شِدَّتها وهَولِها، بصورةِ مَرارةِ الطَّعمِ الشَّديدةِ، وهذا تمثيلٌ لحالةٍ نفسيَّةٍ لا تُرى، بصورةٍ حسّيَّةٍ مألوفةٍ[1].

السّاعةُ تُذيب ظاهرَهم بالرَّزايا، وتَكسِر باطنَهم بالمَرارة

نُكتةُ تقديم ﴿أَدۡهَىٰ﴾ على ﴿أَمَرّ﴾:

التَّقديمُ بين الصِّفتين ﴿أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ في سياق قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ له نكتةٌ معنويَّةٌ بالِغةٌ، وهو تحقيقُ التَّصاعُدِ المَعنويِّ المُتدرِّج مِنَ الأدنى إلى الأعلى. فتقديم﴿أَدۡهَىٰ﴾ لدلالتها على الهَول الظّاهر أوَّلًا؛ أي: ما يلمسُهُ النّاسُ من أثر السّاعة ودهشتِهم بهَولِها. وتأخيرُ (أمرّ) لارتباطِها بالمَرارة الباطنة؛ أي: الإحساس الدّاخليّ بالعذاب وذوقه النَّفسيِّ.

شَدُّ الانتباه مِنَ الإدراك الظّاهر إلى الإحساسِ الباطنِ في جوهَرِ النَّفس

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 221، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 214.

وعليه، فالتَّقديم والتَّأخير هنا يُحقِّقان تصاعُدًا في التَّأثير مِنَ الخارج إلى الدّاخل، ومِنَ الظّاهر إلى الباطنِ؛ ليكتملَ تصوُّرُ العذاب بكلِّ أبعاده، ولا يَخفى ما في تأخير (أمرٌ) من مُراعاة الفاصلة، وصيانتها ألّا تنخرِمَ.

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ
وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ٤٨ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩ وَمَآ
أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ
مِن مُّدَّكِرٖ ٥١ وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ
مُّسۡتَطَرٌ ٥٣ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ
مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ٥٥﴾ [القمر: 47 - 55]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من ذِكر السّاعة إلى ذِكر عَذابِها تفصيلًا ونعيمِها إجمالًا

لمّا ذَكرتِ الآياتُ السّابقةُ السّاعةَ باعتبارِها عاقبةَ المُجرِمين في الدُّنيا، ناسبَ ذِكرَ تعليل استحقاقِ المُجرِمين لِما أُعِدَّ لهم فيها، فجاء التَّقريرُ بصيغة التَّوكيد، جامِعًا بين ضلالهم في الدُّنيا واحتراقهِم في الآخرة، فقيل: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾؛ بيانًا لحالهم الماضية والآتية، ولِيبطُلَ تعجُّبُ مَن توهَّمَ النَّجاةَ مع التَّكذيب، مع ختم الآياتِ ببيانِ مآلِ المؤمنين على سبيل الإجمالِ بعد ذِكْرِ مآلِ الكافرينَ على سبيل التَّفصيل.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّ﴾: أصل (مسّ) يدلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَد[1]. والمسُّ يُقال فيما يكونُ معه إدراكٌ بحاسَّة اللَّمس. ويُقالُ في كلِّ ما ينال الإنسانَ من أذى[2]، وهو مَجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، فمِنهُ مَسُّ الشَّيطانِ؛ أي: حُلولُ ضُرِّ الجِنَّةِ بالعَقلِ، ومَسُّ سَقَرٍ: ما يُصيبُ من

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسّ).
(2) الرّاغب، المفردات: (مسس).

نارِها، ومَسَّهُ الفقرُ والضُّرُّ: إذا حَلَّ به[1]، والمَسوسُ مِنَ المياه: ما نالتهُ الأيدي[2]، والمرادُ هنا: إصابةُ جهنَّم لكم. فإنَّ مسَّها سببُ التَّألُّم بها[3].

2) ﴿سَقَرَ﴾: أصل (سقر) يدلُّ على إحراقٍ أو تلويحٍ بنارٍ[4]. وسَقَر: عَلَمٌ على جَهَنَّمَ، وهو مُشتقٌّ مِنَ السَّقْرِ بسُكونِ القَّافِ، وهو التِهابٌ في النَّارِ، فـ﴿سَقَرَ﴾ وُضِعَ عَلَمًا لجهنَّم؛ ولذلك فهو مَمنوعٌ مِنَ الصَّرفِ للعلَميَّةِ والتَّأنيثِ؛ لأنَّ جهنَّمَ اسمٌ مُؤنَّثٌ معنًى اعتبَروا فيه أنَّ مُسمَّاهُ نارٌ، والنَّارُ مُؤنَّثةٌ[5].

3) ﴿بِقَدَرٍ﴾: أصل (قدر) يدلُّ على مَبلَغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونِهايتِه. والقَدْرُ: قَضاءُ اللّه تعالى الأشياءَ على مَبالغِها ونِهاياتِها الَّتي أرادَها لها، وهو القَدَرُ أيضًا[6]. والقَدَرُ في الآية معناه: تحديدُ الأُمورِ وضبطُها[7]؛ أي: مُقدَّرًا مُرتَّبًا على مُقتضى الحكمة، أو مُقدَّرًا مَكتوبًا في اللَّوحِ المَحفوظ قبل وقوعِه[8]. وحقيقةُ القَدَرِ الاصطلاحيِّ خَفيَّةٌ؛ فإنَّ مِقدارَ تأثُّرِ الكائِناتِ بتصرُّفاتِ اللّه تعالى وبتسبُّبِ أسبابها ونهوضِ مَوانِعها لم يبلُغْ عِلْمُ الإنسانِ إلى كشفِ غَوامضِه[9].

4) ﴿كَلَمْحٍ﴾: أصلُ (لمح) يدُلُّ على لَمْعِ شَيْءٍ. يُقالُ: لَمَحَ البَرْقُ والنَّجْمُ لَمْحًا، إذا لَمَعا[10]. واللَّمْحُ: النَّظَرُ بالعَجَلَةِ. يُقالُ: لَمَحَ البَرْقَ ببصَرِه. ولَمَحَهُ وألْمَحَهُ إذا أبصَرَه بنظَرٍ خَفيفٍ، والاسمُ اللَّمْحَةُ[11]. ومعناه هنا: النَّظرُ السَّريعُ العاجلُ الَّذي لا تَريُّثَ معَهُ ولا انتظار، والمرادُ بهذه الآيةِ وأمثالها: بيانُ كمالِ قُدْرة اللّه تعالى وسُرعةِ إيجادِه لكلِّ ما يُريد[12].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 2/ 316.

(2) الخليل، العين: (مسس).

(3) الجلالين، تفسير الجلالين، ص: 708، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 168.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سقر).

(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 216.

(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).

(7) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 217.

(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 168.

(9) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 219.

(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لمح).

(11) الجوهريّ، الصّحاح: (لمح)، والواحديّ، البسيط: 21/ 126.

(12) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 120.

5) ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ﴾: أصل (شيع) يدُلُّ على مُعاضَدَةٍ ومُساعَفَةٍ[1]. ومنه الشّيْعَةُ: الفِرْقَةُ، أو القَومُ يَجتَمعونَ على الأمر[2]، وكلُّ قَومٍ أَمْرُهُم واحِدٌ يَتْبَعُ بَعضُهُم رأيَ بعضٍ فهُم شيَعٌ، ويُقالُ: هُم شيعَةُ فُلانٍ، وشيعَةُ كذا مِنَ الآراءِ[3]، وجمعها شيَعٌ، وأشياعٌ جمعُ الجمع[4]. وذهبَ القرطبيُّ إلى أنَّ أصلَ الكلمة مأخوذٌ مِنَ الشّياع؛ وهو الحَطَب الصِّغارُ توقَدُ به الكبارُ[5] حتَّى تشتعلَ النّار. والمرادُ به هنا: الأشباه والنَّظائر[6]؛ أي: أشباهَكُم في الكُفر ممَّن قبلَكم[7].

6) ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾: أصل (سطر) يدُلُّ على اصطِفافِ الشَّيءِ، كالكِتابِ والشَّجَرِ. والسَّطْرُ: الصَّفُّ مِنَ الشَّيء. والسَّطْرُ: الخَطُّ والكتابةُ، وهو في الأصل مَصدرٌ، والسَّطَرُ بالتَّحريك مثله[8]. والمُرادُ هنا: مَكتوبٌ مَسطورٌ في اللَّوح المَحفوظ[9]، وهو اسم مَفعولٍ من (استطر) زِنةُ (افتعل) بمعنى: مَكتوب، وزنُه (مُفْتَعَل) بضمِّ الميم وفتحِ العين[10].

7) ﴿وَنَهَرٖ﴾: أصلُ (نهر) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تفتُّح شيءٍ أو فتحِه. النَّهْر: مَجرَى الماء الفائض؛ وسُمّيَ نَهْرًا؛ لأنَّه يَنهَرُ الأرضَ؛ أي: يَشقُّها، وأصلُه يدُلُّ على تَفَتُّح شيءٍ أو فتحِه. يقال: نَهرتُ الشَّيءَ؛ أي: شققْتُهُ شَقًّا واسعًا. ثمَّ أُطلقَ النَّهرُ على الماء الجاري في هذا الشَّقِّ للمُجاورة، تجوُّزًا[11]. ونَهَر هنا: بفتحتَين لُغَةٌ في نَهْر بفَتح فسُكونٍ. والمُرادُ به اسمُ الجِنس الصّادِق بالمُتعدِّد؛ لقوله تعالى: ﴿مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الأعراف: 43][12]. والمرادُ هنا: أنهار، وحَّدَ وأراد الجَمع[13].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شيع).
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 174، وابن سِيده، المُحكم: (شيع).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيدي، تاج العروس: (شيع).
(4) ابن سِيده، المُحكم: (شيع).
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 6.
(6) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 121.
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 168.
(8) الجوهري، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (سطر).
(9) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 168.
(10) صافي، الجدول: 14/ 86.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نهر).
(12) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 225.
(13) الجوهريّ، الصّحاح: (نهر)، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 169.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

ضلالُ المُجرمين، وعَدلُ اللهِ في المصير بين الفريقين

تُختمُ السّورةُ الكريمةُ بهذه الآياتِ ببيانٍ شاملٍ لمصير النّاس على اختلاف مَواقِفهم مِنَ الإيمان والطّاعة. فيُخبر أوَّلًا عن حالِ المُجرِمين الّذين أفسَدوا أنفسَهم بالشِّرك والمعاصي، بأنَّهم في ضلالٍ في الدُّنيا، وفي نارٍ مُستعِرةٍ يومَ القيامة، يُسحَبون فيها على وجوهِهم، ويُقالُ لهم على سبيل التَّهكُّم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾، وهي دَركةٌ من دَركاتِ جهنَّمَ.

ويُؤكِّدُ سبحانَه أنَّ هذا المَصيرَ، كسائر ما يقعُ في الكون، إنَّما هو بقدرٍ سبقَ به عِلمُ اللّه، فما من شيءٍ إلّا وقد خُلِقَ بقَدرٍ مُحدَّدٍ، لا يقعُ إلّا بما شاءَه اللّهُ وعَلِمَه وكَتَبَه، وكلُّ أمرِه إذا أرادَ شيئًا، فهو لا يَستدعي منهُ إلّا قول: (كُن) فيكون في لَمْحِ البصر.

ثمَّ يُذكِّرُ قريشًا بمَن سبقَهُم مِنَ المُكذِّبين، من أشياعِهم وأمثالِهم، الّذين أهلكَهُم اللّهُ؛ ليكونَ في ذلك مَوعظةٌ لِمَن أراد أن يتذكَّر، ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾، ويُبيِّن أنَّ أعمالَ هؤلاء كلَّها مَحفوظةٌ في الزُّبُر - أي صُحف الملائكة - فلا يغيبُ منها شيءٌ، بل كلُّ شيءٍ مُدوَّنٌ في اللَّوح المَحفوظ.

ثمَّ يَعرِضُ في المُقابل مصيرَ المُتَّقين، الّذين أطاعوا اللّهَ، وابتعدوا عنِ الشِّرك والمعاصي، بأنَّهم في جنّاتٍ وأنهار، في مَقعَد صِدقٍ، في مَجلِسٍ لا لغوَ فيه ولا باطلَ، عند مَلكٍ مُقتدِرٍ، يَجزي كلَّ عبدٍ بما قدَّمَ، ويجعلُ لكلِّ فريقٍ ما يستحقُّه عدلًا وحِكمةً ورحمةً[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقِع جملة ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾:

جملةُ ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ بيانٌ مُصوِّرٌ لفظاعَةِ

(1) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 5/ 220، 221.

إظهارُ مآل المُجرمين بيانٌ لِهَولِ السّاعة وشِدَّةِ وعيدِها

السّاعة، وتفصيلٌ للعذاب الّذي وُعِدَ به المُشرِكون في قوله: ﴿بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، فلمّا ذَكَرَ المحلَّ الزَّمنيَّ (مَوعِد السّاعة)، وذَكَرَ فظائعَه وأهوالَه ﴿أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾، بيَّنَ هنا أحوالَ الحالّيْن والمُقيمين المُستحقّين لهذا المَحلِّ المَوعود، فقال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾[1].

فائدة استعمال ﴿إِنَّ﴾:

التَّهديد بعذاب الآخرة يستدعي التَّنبية والتَّأكيدَ

افتتاحُ الجملة بـ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ للاهتمام بصريح الخبر، فحرفُ ﴿إِنَّ﴾ يُفيدُ التَّوكيدَ والاهتمامَ. والاهتمامُ في هذا السّياق مُهِمٌّ؛ لأنَّ الكلامَ يُنبِئُ عن عاقبةٍ عظيمةٍ، وهي ضلال المُجرمين واحتراقهم في النّار. والتَّوكيدُ يُلفِتُ السّامِعَ إلى خطورة المَضمون، فلا يمرُّ عليه مرَّ الكرام. والتَّأكيد هنا أيضًا مطلوبٌ بسبب التَّعريض، فالسّياقُ ظاهرُ التَّوجيه للنَّبيِّ ﷺ ، لكنَّه يتضمَّنُ تَعريضًا بالمُشرِكين. وهذا التَّعريضُ مُؤكَّدٌ بـ﴿إِنَّ﴾؛ لأنَّ المُشركين يُنكرون العذابَ الأُخرويَّ، فناسَبَ أن يُؤكَّدَ الكلامُ عند تعريضِهِ بهم. والتَّعريضُ المُؤكَّدُ أقوَى وقعًا عليهم مِنَ التَّصريح غير المُؤكَّد، إذ يُظهِرُ ثِقةَ المُتكلِّم بحصول ما يُنكِرُه السّامعُ، وهذا أبلغُ في الزَّجر والإفحام. وعليه: فحرفُ ﴿إِنَّ﴾ في هذا المَوضِع جَمَعَ بين الوظيفة النَّحْويَّة الأصليَّة: التَّوكيد. والوظيفة البلاغيَّة: الاهتمام، والتَّعريض مع الزَّجر[2].

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

احتمالُ الاستغراق والعهدِ قائمٌ على معاني السَّوابق واللَّواحق

(الـ) في لفظ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ للاستغراق، على أنَّ الجملةَ كالتَّعليل لِما قبله، ولذا أُكِّدَ بـ(إنَّ)، واختير الفصل، فلا يكون من باب وضع المَظهَر مَوضِعَ المُضمَر. ويجوز أن تكونَ (الـ) للعهد، والمرادُ مَن سبق

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 215.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 215.

قصَصُهم في السّياق القريب، وعلى هذا يكون اللَّفظُ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ من باب الإظهار في مَقام الإضمار تأكيدًا لِما قبله[1].

فائدة إيثار الإظهار على الإضمار:

الإجــرامُ عِلَّةُ العذابِ ووصمةُ عــارٍ تغمسُ أصحابَها في النّار

بناءً على القول بأنَّ تعريفَ لفظ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ للعهد فإنَّ النَّظمَ يكون قد آثرَ إظهارَ لفظ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ بدل الإضمار، فلم يقُل: (إنَّهم في ضَلال وسُعُر)، وفائدةُ الإظهار في مَقام الإضمار إلصاقُ وصف الجُرم بهم بوجهٍ لا انفكاكَ عنه؛ بالتَّصريح بهذا اللَّقب ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بدل ضميرهم، فكلُّ ما يأتي بعد هذا الوصف مَصبوغٌ بصِبغةِ الإجرام، فيكون العذابُ لاحقًا لهُم بسبب هذا الوصف الّذي لا يُفارقُهم، وللتَّشهير بوَصفِهم، والتّنديد بحالهم الإجراميَّة، ولتعليل جزائهم بإجرامهم؛ مع التَّوطئة لِما سيأتي ذِكرُه من صوَر العذاب، فإذا عَرَفَ المُتلقّي أنَّهم مُجرمون استعدَّ ذِهنُه لتلَقّي تفصيل مَصيرهم المُؤلم، مثل قوله: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾[2].

توجيهُ تخصيصِ المُشركينَ بنعتِ الإجرام:

الـوصـفُ بـ(الإجـرام) في القرآنِ الكريم يشمَلُ الكُفر والطُّغيان والظُّلم؛ وهو عِلَّةُ العذاب

آثرَ النَّظمُ الكريمُ اختيارَ صِفةِ الإجرام دونَ الكُفرِ أو الشِّرك أو التَّكذيبِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ وذلك أنَّ الإجرامَ هو القائدُ إلى التَّعدّي والإفسادِ والاعتداء بالفعل، فهو أغلظُ وأشنَعُ من مُجرَّد الكُفر، ويَلزمُ عنه الكُفر في القرآن الكريم؛ ففيه تنبيهٌ على سبب استحقاقِ العذابِ؛ فالإجرامُ لا يَقتصِرُ على كُفرٍ باطنيٍّ، بل يشمَلُ ما ترتَّبَ عليه من مَظالمَ وشُرورٍ، واكتسابِ المَكروهاتِ والمَفاسد[3]، مع التَّنبيه على أنَّ كُفرَ الكافرين كان بسببِ إجرامهِم، ولو لم يكونوا مُجرمين لآمَنوا واتَّبعوا الحقَّ المُبين.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 337.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 215.
(3) الرّاغب، المفردات: (جرم).

دلالة جمع (سُعُر):

المُجرِمونَ في درجاتٍ مِنَ النّار، وطبَقاتٍ مِنَ الشَّقاء

كلمة (سُعُر) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ جمع (سعير) - على قولٍ في التَّفسير - وهو أحد أسماء النّار المُشتعِلة شديدةِ الاتِّقاد. وفائدةُ الجمعِ الدَّلالةُ على قوَّة العذاب وتنوُّعِه، فيُفيدُ أنَّ النّارَ الّتي هُم فيها ليسَت سَعيرًا واحدًا، بل أنواع مِنَ السَّعير المُتفاوتة.

فالجَمْعُ هنا للتَّكثير والمُبالغة في التَّفخيم والتَّهويل، فهُم في ألوانٍ مِنَ العذاب بحسب عِظَم جُرمِهم في أصل الشِّرك، وبحسب تفاوتِهم في مُدَدِ الأعمار وشناعة الآثارِ، مع أنَّهم لو كانوا في نوعٍ ودرجةٍ واحدةٍ مِنَ العذاب لَكفَتهُم، فكيف إذا اجتمعَت عليهم صُنوفٌ منه وطبقات.

بلاغةُ إفرادِ الضَّلال وجمعِ السُّعُر:

طريقُ الضَّلال الواحد يقودُ إلى مَصائرَ مُتعدِّدةٍ مِنَ الهلاك

أفردَ الضّلالَ وجَمعَ السُّعُرَ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الضَّلالَ واحدٌ في أصله، لكنَّه قادَهُم إلى أنواعٍ مِنَ العذاب (سُعُر)، فالضَّلالُ سببٌ مُفرَدٌ، لكنَّ تبعاتهِ مُضاعَفةٌ شديدةٌ مُتشَعِّبَة.

توجيه تعلُّق الظَّرف في جملة ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ﴾:

الأمرُ بذَوق مَسِّ سَقر يكونُ يومَ السَّحب في النّار

الظَّرفُ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ﴾ مُتعلِّقٌ بالقول المُقدَّر في ﴿ذُوقُواْ﴾؛ أي: ذوقوا مَسَّ سَقر يومَ سحبِكم في النّار، ولا يتعلَّقُ بـ﴿ضَلَٰلٖ﴾؛ لأنَّ الضَّلالَ هو حالَهم في الدُّنيا، على معنى أنَّهم كانوا في الدُّنيا في ضلالٍ وجُنونٍ لا يَعقلون ولا يَهتدون[1]. ولو كان المَقصودُ بالضَّلال الهلاكَ في الآخرة لكان قوله: ﴿وَسُعُرٍ﴾ تكريرًا له وتوكيدًا، والتَّأسيسُ خيرٌ منه[2]. فالبلاغة في الآية اقتضَت أن يكون

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 325.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 338.

﴿فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ حالًا دنيويًّا، و﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ﴾ مَشهَدًا أخرويًّا مُنفصِلًا في الزَّمن والمَقام؛ ليجمعَ التَّهديدَ بين حالهم في الدُّنيا وما يَنتظرُهم في الآخرة، بلا حشوٍ ولا تَكرار.

بلاغة استعمال مفردة السَّحب:

الدّار الآخرة تُذِلُّ المُستكبِرين، وتُهينُ المُجرمين

جاء التَّعبيرُ بمُفرَدة السَّحب في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾؛ والسَّحبُ هو الجَرُّ بعُنفٍ مع إذلالٍ، ولا يُستعمَلُ في الأناسيِّ في حال مَن يُكرَّمُ أو يُؤخَذُ برفق. وكونُهم يُسحَبون يدلُّ على أنَّهم مُجبَرون، عاجزون، لا يَملِكون دفعًا عن أنفُسِهم، وهذا يُنافي كِبْرَهُم السّابق، وهو يدلُّ على تجدُّد الاتِّصالِ بالنّار كلَّما جُرَّ خَطوةً احترقَ مَوضِعٌ جديدٌ.

دلالةُ التَّعبير بحرفِ الظَّرفيَّة:

استُعمِلَ حرفُ ﴿فِي﴾ للإشارةِ إلى أنَّ السَّحبَ واقعٌ داخلَ النّار لا إليها، فهو عذابٌ في داخلها، وهذا يدلُّ على الإحاطةِ الكاملةِ بهم من كلِّ جانب، لا مَهربَ، ولا تخفيفَ.

نُكتة تَعديَة فعلِ السَّحب بحَرفِ الاستعلاء:

جاءَت تعديةُ فعلِ السَّحب بحرف الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾، لبيان قوَّة السَّحب، وأنَّ الوجوهَ قامَت مَقامَ الأقدامِ الحافيةِ.

توجيهُ تخصيصِ الوجوه بالذِّكر:

مَن رفعَ وجهَه كِبرًا في الدُّنيا جُرَّ عليه في الآخرة

خصَّ النَّظمُ الكريمُ الوجوهَ بالذِّكر في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾؛ لتصوير حالهم بغاية المَهانة والذُّلِّ؛ إذ كان مُقتضى الظّاهر أن يُسحَبوا على ظُهورِهم أو أقدامهم؛ مُبالغةً في تصوير الهَوان والتَّحقير؛ وليدلَّ على أنَّ عذابَهُم يمَسُّ كرامتَهم ومكانةَ

وجوهِهِم قبل أجسادِهم[1]، فوجهُ الإنسان أشرَفُ مَوضِعٍ فيه، والجَرُّ عليه هو أقصَى صوَرِ الإذلال، ففيه تذكيرٌ بمَوقِفِهم في الدُّنيا حين رفعوا رؤوسَهم تكبُّرًا على آياتِ اللّه، فجاء الجَزاءُ من جنسِ العمل[2].

مَوقِعُ جملة ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾:

أعظَمُ العذاب اجتماعُ الحِسّيِّ غيرِ المُتوقَّع بالمَعنويِّ غيرِ المُعتاد

قوله: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ مَقولُ قولٍ مَحذوف؛ أي: أنَّ تقديرَ الكلام: (يُقال لهم: ذوقوا مسَّ سَقَر)، والقولُ نفسُه مَحذوفٌ للعِلم به، ولأنَّه في سياق التَّهديد والوعيد؛ فالمَشهَدُ صار بليغًا في وضوحه، فلا حاجةَ إلى التَّصريح بالفعل (يُقال لهم). والجملةُ مِنَ القول المَحذوف والمَقولُ ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لتقرير نتيجة سحبِهم وإهانتِهم، فكأنَّه قيل: ما هو جزاؤهم الّذي يُقالُ لهُم في تلك الحال[3]. وحَذفُ القول فيه إيجازٌ وتهويلٌ للمَشهَد؛ لأنَّ الاهتمامَ صار بفعل ﴿ذُوقُواْ﴾ لا بالقائل.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الذَّوق:

الذَّوقُ مُستعارٌ لبداية الإحساس بالعذاب إجبارًا لا اختيارًا

لفظُ الذَّوق في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ مُستعارٌ للإحساس[4]؛ لأنَّ الذَّوقَ في الأصل هو إدراكُ طعم الشَّيء بالحاسَّة الخاصَّة في الفم[5]، وهنا لم يُرِدْ به حقيقةَ تذوُّقِ طعم؛ لأنَّ العذابَ ليس ممّا يُذاقُ في الفم. وإنَّما استُعير الذَّوقُ للإحساس بمَرارة العذاب وألَمِه؛ لأنَّ الذَّوقَ من أقرب الحواسِّ وأشدِّها اتِّصالًا بالنَّفس، وأبلغِها أثرًا؛ فصار الذَّوقُ مَجازًا عن مُطلَقِ الإدراك أو الإحساسِ بالعذاب، وتحقيقُه أنَّ لفظَ الذَّوق مُستعارٌ لبداية الإحساس بالعذاب، كما أنَّ الذَّوقَ لبدايةِ الأكل، وعليه فالاستعارةُ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، حيث

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 132، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 215.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 132، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 215.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 215.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 215.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).

صُرِّح بلفظ المُشبَّه به (الذَّوق)، وأُريد به المُشبَّه (بداية الإحساس بالعذاب)، مع افتراق ذوق الدُّنيا عن ذَوق الآخرة، فالذَّوقُ في الدُّنيا لاختيار الأكل من عدمه، فإذا استساغَهُ المُتذوِّقُ أكلَ، وإلّا امتنعَ، وأمّا ذَوقُ مسِّ سَقَر فلا سبيلَ معه إلّا العذاب.

دلالةُ صيغة الأمر ﴿ذُوقُواْ﴾:

غرضُ الأمرِ إهانةُ المُخاطَبين، ومُجازاتُهُم بأفعالِهم

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ مُستعمَلٌ مَجازًا في معنى الإهانة والمُجازاة[1]، فخرجَ عن معناه الأصليِّ - وهو الطَّلب - إلى معنًى آخرَ لغرضٍ بلاغيٍّ، وغرضُه الإهانة، كأنَّه قيل لهم: ﴿ذُوقُواْ﴾ إشعارًا لهم بالخِزي والهَوانِ على ما فعلوا، فالغرَضُ إهانتُهم بالأمر، لا طلب تحقيقِه منهم، والمُجازاةُ، فالمرادُ بقوله: ﴿ذُوقُواْ﴾ جوزيتُم بما كسَبتُم مِنَ الإجرام.

بلاغةُ المَجاز المُرسَل في لفظ المَسِّ:

التَّعبير بالمسِّ يُبرزُ شِدَّةَ العذاب وإحاطتَهُ بالمُجرِمين

استُعمِل المسُّ في قوله تعالى: ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ بمعنى الإصابة أو الوقوع في العذاب؛ أي: حلولِ العذابِ عليهِم وإحاطتِهِ بهم، وليس المقصودُ اللَّمسَ الجُزئيَّ أو الخفيفَ كما في المَسِّ الحقيقيِّ، وهذا مَجازٌ مُرسَلٌ لعلاقة المُلابَسة أو المُسبِّبيَّة؛ لأنَّ الإصابة بالعذاب مُلازِمةٌ للمسِّ أو مُسبَّبةٌ عنه في العادة[2].

بلاغةُ الاستعارة المَكنيَّة:

نسبة المَسِّ إلى النّار تُجسِّدُ هَولَ العذاب وتجعلُ الجَمادَ فاعلًا مُؤذيًا

أُسنِدَ فِعلُ المَسِّ في قوله تعالى: ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾، وهو فعلٌ مُختَصٌّ بالذَّواتِ الحيَّة إلى سَقَر (النّار)، وهي جَمادٌ لا تُباشِرُ المسَّ حقيقةً؛ لتشبيه النّار بحيوانٍ حيٍّ يبطُشُ ويمَسُّ. فشُبِّهَت سَقَر بحيوانٍ حيٍّ يُباشِرُ الإيذاءَ بالمَسِّ، فأُسنِدَ إليها فعلٌ من أفعال الأحياء وهو (المَسُّ)، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، حيث شُبِّهَت

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 216.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 338، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 216.

النّارُ بالحيوان المُؤذي، وحُذِفَ المشبَّه به (الحيوان)، ورُمِزَ إليه بلازِمِه (المَسّ) [1].

بلاغةُ المَجاز:

احتمالُ المَجازِ العقليّ والمَجازِ بالحذف لتصويرِ هَولِ العذاب

أُسنِدَ فعلُ المَسِّ إلى النّار ﴿سَقَرَ﴾، والحقيقةُ أنَّ الفاعلَ المُباشِر للمَسِّ هو حرارةُ النّار ولهيبُها، لا النّار من حيث هي ذات، فالإسنادُ إلى النّار مَجازٌ عقليٌّ، باعتبارِها سببًا للمَسِّ لا فاعلةً له حقيقةً، ويوجَّهُ على المَجازِ بحَذفِ المُضاف وإقامةِ المُضافِ إليه مقامَه.

بلاغة اختيار مُفردة ﴿سَقَرَ﴾:

مُراعاةُ التّدرُّج في التّرهيب من عذاب النّار تصعيدٌ لسياق الوعيد

اختير التَّعبيرُ هنا في سورة القمر باسم ﴿سَقَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾؛ مراعاةً للتَّدرُّج في رتبة العذاب مِنَ العامِّ إلى الخاصِّ، فقد قال: ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾، ثمَّ ﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ﴾، ثمَّ ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾. فعبَّرَ بالوصف العامِّ (النّار) - ﴿يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ﴾، ثمَّ خَتَمَ بالتَّخصيص باسم ﴿سَقَرَ﴾، فالانتقالُ مِنَ النّار إلى سَقَر كشفٌ عن مرحلةٍ أفظَعَ وأخَصَّ في العذاب. كما أنَّ اختيارَ ﴿سَقَرَ﴾ يتهادَى مع التَّعبير بالمَسِّ، فكما سبق: المَسُّ يوحي باللُّطف في اللَّفظ، لكنَّه هنا جاء مع ﴿سَقَرَ﴾ لتكونَ المُفارَقةُ شديدةً، وهو أنَّ أقلَّ تماسٍّ مع ﴿سَقَرَ﴾ يُذيق أهوالًا لا تُحتمَلُ. فلو مَسّوها فقط لَذاقوا العذابَ الأقصى.

ولو قيل (مسَّ النّار) لفاتَت هذه المُفارقة؛ لأنَّ النّار قد يُتخيَّلُ لها درجات، أمّا ﴿سَقَرَ﴾ فهي أخصُّ اسمًا في الشِّدَّة، ولا يَخفى ما في ﴿سَقَرَ﴾ من توافُقٍ مع سائر فواصل السّورة. ولم يُذكر (جهنَّم)؛ لأنَّ اسمَ (جهنَّم) يُفيدُ الإقامةَ في المَقرِّ البعيد والقَعر السَّحيق، والسّياقُ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 92.

هنا في سورة القمر يُصوِّرُ مَوقِفَ السَّحب والذَّوق: ﴿يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ﴾، لا مَقرَّ الاستقرار بعد الحُكم عليهم، فناسبَ ﴿سَقَرَ﴾ الّتي تُبرزُ شدَّةَ الإحراق واللَّدغ بمُجرَّد المُماسَّة.

نوع الإضافة ودلالتها:

تضخيمُ أثرِ العذاب بإبراز المُلازَمة بين النّار وأذاها

الإضافة في قوله: ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ من إضافة المَصدر إلى فاعله على الظّاهر؛ أي: المسَّ الّذي تُباشِره سَقَر (النّار). والإضافة فيها إيجازٌ وتصويرٌ للمَشهَد؛ لأنَّ الإضافة هنا تولِّدُ قوَّةَ الإسناد، إذ تجعلُ (المسَّ) مُلازِمًا لـ﴿سَقَرَ﴾ كهويَّةٍ مُلاصقةٍ للنّار، فكأنَّ المسَّ لا يُرى إلّا صادرًا عنها، وكأنَّها ذاتٌ فاعِلةٌ واعيةٌ.

مَوقِع جملة ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾:

كلُّ ما يقع في الكون يجري بمشيئةِ الله وتقديره المُحكَم

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ استئنافًا بعد بيان الوعيد والهلاك الّذي أصابَ المُكذِّبين، وهو تذييلٌ لِما سبق؛ أي: خلاصةٌ جامعة تؤكِّدُ أنَّ ما أصابَ المُجرمين ما كان عبثًا، بل وفقَ حكمةٍ وقَدَرٍ، وهو تمهيدٌ وتوطئةٌ لِما بعدَه: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾؛ ليُبيِّنَ أنَّ تنفيذَ هذا القَدَرِ يجري بأيسر شيءٍ وأسرَعِه عند اللّه[1].

دلالة التَّعبير بحرفِ (إنَّ) ودلالته:

توكيدُ القضايا الكبرى يَهدِمُ الأوهامَ ويوقِظُ الغافلين إلى حقائقِ الأفهام

أفادَ استعمالُ حرف التَّوكيد (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ توكيدَ الحقيقة العظيمة الّتي يُنكِرُها المُشرِكون لِما يقتضيه إنكارُ البعث والاستهزاء بإنزالِ العذاب، وهي أنَّ اللّه هو خالقُ كلِّ شيءٍ ومُقدِّره، فلا مَجالَ لادِّعائهم الاستقلالَ بقُدرةٍ أو دَفعِ عذابٍ. والاهتمام للفتِ انتباهِ السّامعين إلى خطورة ما يُقال؛ لأنَّ ما بعد (إنَّ) يتضمَّنُ قاعدةً كونيَّةً عُظمَى مُرتبطةً بمَصائرِ العباد وأفعال اللّه في الكون. وهذا التَّوكيدُ والاهتمامُ مَقصودٌ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 216.

بهما: إبطالُ زعم المُشرِكين بقوَّتِهم، كما سبق في قولهم: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾، وتعظيمُ شأن الوعد والوعيد (انهزامُهُم وتعذيبُهم، وانتصارُ المؤمنين وغَلَبَتُهم - كِلاهُما حقٌّ ثابتٌ مُقدَّرٌ)[1].

نُكتة التَّعبير بأداة العُموم:

الأمــورُ مُـقـدَّرةٌ مِن خالِقِها دون تـخـصـيـصٍ أو استثناء

جاء التَّعبيرُ بلفظ العُموم ﴿كُلَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾؛ ليعمَّ جميعَ ما يقعُ في الكون، من هلاكٍ وعذابٍ، ومن نصرٍ ونَجاةٍ، ومن أسبابٍ ونتائجَ، ليُعلَمَ أنَّ كلَّ ما سبقَ ذِكرُهُ، وما سيأتي، ليس عن مُصادَفة أو ظُلم، بل بقدَرٍ مُحكَم، فالعمومُ توكيدٌ لإنجاز الوعد والوعيد من غير زيادةٍ ولا نقصانٍ بأيسَر ما يكون[2].

فائدةُ تقديم المَفعول على طريقة الاشتغال:

تـوكيدُ شمـول الـخَـلْـقِ ومـنـع التَّوهُّم في المعنى

انتصبَ ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ على المَفعوليَّة لـ ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ على طريقة الاشتغال[3] في قوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾، فـ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ مَفعول به مُقدَّم. و﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾: الفعل اشتغلَ بضميرٍ يعود على ذلك المَفعول (الهاء في خلقنْاه ترجعُ إلى ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾). فالفعلُ ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ مَشغولٌ بضمير المَفعول المُتقدِّم عليه[4].

وفائدةُ مجيء التَّركيب على طريقة الاشتغال تأكيدُ المفعول مرَّتين؛ **فأوَّلًا**: ذُكِرَ باللَّفظ الظّاهر ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾؛ ليقعَ في الذِّهن ابتداءً أنَّ المَقصودَ هو العُمومُ المُطلَقُ لكلِّ مَخلوق، **وثانيًا**: أُعيدَ ذِكرُهُ في صورة الضَّمير في (خلقْناه)؛ ليزدادَ التَّوكيدُ بأنَّ الفعلَ تعلَّقَ بهذا المَفعول بعينه. فحَصَلَ بذلك: التَّوكيد بالاشتغال.

ولتَجنُّب اللَّبسِ في المعنى. فلو قُدِّمَ الفعلُ، فقيل: (إنّا خلقْنا كلَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 216.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 144.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 219.
(4) ابن هشام، أوضح المَسالك: 2/ 139.

شيءٍ بقَدَرٍ) - ربَّما يُتوهَّم أنَّ (بقَدَرٍ) صفةٌ لـ (شيءٍ)؛ أي: إنّا خلقْنا كلَّ شيءٍ مُقدَّرٍ؛ (أي: مَخلوقًا مُقدَّرًا سلفًا). وهذا لا يفي بالغرض البلاغيِّ المقصود، لكن حين يأتي النَّظم: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ يتَّصل الجارُّ والمجرور ﴿بِقَدَرٍ﴾ بالفعل ﴿خَلَقۡنَٰهُ﴾ بلا فاصل، فيدلُّ على أنَّ الخَلقَ نفسَه كان بقَدَرٍ، لا أنَّ الشَّيءَ مُقدَّرٌ فقط.

ولتحقيق التَّوكيد بالأسلوب الكامل، فقد سَبَقَ ذِكرُ (إنَّ) في ﴿إِنَّآ﴾؛ لتوكيد الخبر (الّذي هو نسبةُ الخَلق إلى اللّه)، ثمَّ جاء تقديمُ المَفعول به ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾ وتكرارُهُ بالضَّمير؛ ليكونَ توكيدًا ثانيًا من جهة المَفعول به، فصار التَّركيبُ أبلغَ في توكيدِ النِّسبة، وتوكيدِ شمول الخَلق، وإظهارِ تمام الحِكمة في تقدير اللّه[1].

نوعُ الباء ودلالتُها:

أفعالُ العباد تصدُرُ عن تقديرٍ سابقٍ ومَشيئةٍ نافذةٍ

الباء في قوله تعالى: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ للمُلابَسة؛ أي: خلقنْاه مُستقِرًّا ومُلتبِسًا بقَدَرٍ. فالجارُّ والمجرور ﴿بِقَدَرٍ﴾ في حكم المَفعول الثّاني؛ لأنَّه مَقصودٌ بالذّات في التَّركيب، فليس المرادُ الإخبارَ عن عموم الأشياء في مَخلوقيَّتها للّه، بل المراد الإخبار عن هيئة تلك الأشياء في مَخلوقيَّتها، وهو عدمُ انفكاكها حين خُلِقَتْ وحُصِّلَتْ عنِ العلم المحيط والتَّقدير الحكيم[2].

بلاغةُ التَّذييل ومناسبةُ التَّعقيب بالقَدَر:

الهلاك والنَّصر كِلاهُما واقعٌ بتقديرٍ سابقٍ

التَّعقيبُ بجريان كلِّ شيءٍ وفق قانون الأقدار في قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ بعد ذِكر أخبار الأمم السّابقة وإنذار الأمم اللّاحِقة، فيه تثبيتٌ للوعد والوعيد؛ فالمشركون يتوهَّمون أنَّ وعيدَ اللّه قد لا يتحقَّقُ عليهم، فجاءَتِ الآيةُ لتؤكِّدَ لهم أنَّه كما قدَّرنا الهلاكَ للأمم قبلَكُم، وقدَّرنا النَّصرَ للمؤمنين، كذلك قدَّرْنا ما

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 219.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 217.

أنتُم فيه وما سيُصيبكم، وفيه إبطالُ دعاوى القوَّة حين قالوا: ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾، فجاءَتِ الآيةُ هنا لِتقولَ لهم: قوَّتُكم نفسُها جزءٌ من خَلق اللّٰه وتقديره، لا تَملِكون أن تصنعوا لأنفُسِكم نصرًا إنْ لم يكُن مُقدَّرًا لكم، وفيه تذكيرهُم أنَّ السّاعةَ الّتي أوعِدوا بها هي بقَدَرٍ؛ فكما عُجِّلَ بالعذاب على المُكذِّبين السّابقين بقَدَرٍ، فالسّاعةُ نفسُها آتيةٌ بقَدَرٍ، فلا ينفعُكُم إنكارُها ولا استعجالُها، فهذا من وجوه تعقيب آيات الإنذار والعقاب المذكورة في هذه السّورة بالتَّذييل بقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ بعد قوله: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾[1].

بلاغة العطف والتَّرتيب بين الجمل:

التَّقديرُ الإلهيُّ يجري بحكمة، وتنفيذُه يقعُ بلمحة

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾؛ ووجهُ العطف ترتيبُ الثّانية على الأولى في بيان الحكمة والقُدرة؛ فالجملةُ الأولى: بيانُ الحكمة في التَّقدير، ببيان أنَّ الخلقَ كلَّه يجري بتقديرٍ دقيقٍ مِنَ اللّٰه ﴿بِقَدَرٖ﴾. والثّانية: بيانُ القُدرة في الإنجاز والإنفاذ بسرعةٍ لا يُدركُها البشرُ ﴿وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾، فأفاد العطفُ ترتيبَ سرعة الإنجاز على الخَلق والتَّقدير، بغرَض التَّهديد والوعيد، فكما حصلَ ما حصلَ للسّابقين يحصلُ للّاحقين، وفي الجمع بين هاتين الجملتين وتواليهما على هذا التَّرتيب تكميلٌ للبرهان وتقويةٌ للحُجَّة، بأنَّ كلَّ خَلْقٍ وُجِدَ على المِقدار المُحكَم ناجِزًا على الفَور في وقته المُقَدَّر.

دلالة التَّقييد بوصف: ﴿وَٰحِدَةٞ﴾:

إرادةُ اللّٰه واحدةٌ تُنْفِذُ أمرَهُ دون تثنيةِ أمرٍ

لفظُ ﴿وَٰحِدَةٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ﴾ صفةٌ لموصوفٍ مَحذوفٍ، يُقدَّرُ على التَّأنيث للمُطابقة بين الصِّفة والموصوف؛ أي: إرادةٌ واحدةٌ أو كلمةٌ واحدةٌ، وهي كلمة الإيجاد

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 217.

(كُن)، كما في قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82][1]، وفي التَّعبير به إشارةٌ إلى أنَّ أمرَ اللّه لا يَحتاجُ إلى تَكرارٍ أو إلحاحٍ أو مُعالجاتٍ مُتعدِّدةٍ، بل هي كلمةٌ واحدةٌ أو إرادةٌ واحدةٌ تقع بها الأشياء؛ ففي القيد الوصفيِّ تأكيدٌ على النّجازَةِ القاطعة الّتي لا يَشوبُها تعطيلٌ ولا اعتراضٌ.

بلاغةُ القصرِ ونوعُه وغرَضُه:

أمرُ الله نافذٌ لا يتردَّد وُقوعُه ولا يتأخَّرُ حُصولُه

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ قصرٌ بطريق النَّفي والاستثناء، وهو أقوى طرُق القصر، والقصرُ حقيقيٌّ، إذ لا يتعدَّدُ ولا يتكرَّرُ، إنَّما هو كلمةٌ واحدةٌ تنفذُ، وهو قصرُ موصوفٍ على صفة؛ أي: قصرُ أمرِه تعالى على كَونه مرَّةً واحدةً فقط، بغير تعدُّدٍ، وغرَضُه الظّاهر إبطالُ توهُّم المُعانِدين؛ فقد يظنّون أنَّ إقامةَ السّاعة أو الإهلاكَ يحتاج وقتًا وتدرُّجًا، فنُفي ذلك بقصر الأمر على المرَّة الواحدة السَّريعة. وتثبيتُ عِباد اللّه المؤمنين بإظهار كمالِ قُدرة اللّه لهم، فيَستبشرون بذلك؛ فلا يَستبطِئونَ نصرًا، ولا يَستكثِرون صبرًا، ولا يَتعاظمونَ أمرًا.

بلاغةُ التَّشبيه ونوعُه:

التَّشبيهُ المُجمَلُ يُطوَى فيه وجه الشَّبه؛ ليزيدَ من قوَّة المَشهَد

التَّشبيه في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ مُرسَلٌ مُجمَلٌ ذُكِرت فيه الأداةُ، وحُذِف منه وجهُ الشَّبه، ولم يُصرَّحْ به في اللَّفظ، لكنَّه مَفهومٌ مِنَ السّياق، وهو السُّرعة أو الفجاءة. وتتجلَّى بلاغةُ التَّشبيه في إيضاح سرعةِ نفاذ الأمر الإلهيِّ بتشبيهه بشأنٍ مَحسوسٍ عند النّاس جميعًا، وهو لمحُ البصر؛ أي: حركةُ الجفنِ حين يفتحُ أو يُغمضُ العينَ. وهذا أدقُّ ما يكون في السُّرعة، فلا يكادُ يُحَسُّ به. وفي التَّشبيه تقريبُ المعنى الغيبيِّ للمُخاطَبين، فتنفيذُ أمر

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 220.

اللّه لا يحتاجُ إلى زمنٍ ولا مُعالجةٍ ولا تدرُّج، فجاء التَّشبيهُ بأسرَع ما تُدركُهُ الحواسُّ؛ ليُقرِّبَ للذِّهن سرعةَ نفاذِ المَشيئة[1].

بلاغةُ الكناية في لفظ ﴿لَمۡحِۭ﴾:

تشبيهُ سرعةِ الأمرِ الإلهيِّ بلمحِ البصَر تقريبٌ للسُّرعة لا تحقيقٌ لزمانها؛ فهي أقرب

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مُفردة ﴿لَمۡحِۭ﴾ لإثارة الخوف والتَّحذير ببيان سرعة وقوعِ الأمر؛ لأنَّ التَّشبيهَ يوحي بالمُباغتة والدَّهشة، فيُحذِّر السّامعَ أنَّ العذابَ قد يُدرِكُهُ فجأةً قبل أن يَشعُرَ، وهي بالغة التَّأثير؛ ففي كلمةٍ واحدةٍ (لمح البصر) جمعَت صورةَ الحركة وسُرعتَها وفجاءَتَها بما يَعجِزُ عنه الوصفُ الطَّويلُ، والمرادُ باللَّمح مُطلَقُ اللَّمح السَّريع، فالمقصود كنايتُهُ عن صفة السُّرعة لا زمن اللَّمح، فالمقصودُ تقريبُ سرعة إنفاذ الأمرِ الإلهيِّ لا تحقيقه، وهذا مُقتَضَى التَّشبيه.

نوعُ الباء ودلالتها:

البصَر سببُ اللَّمح، فمَن لم يُبصرْ لم يَلمَحْ

الباء في قوله تعالى: ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ باءُ الآلة أو المُلابَسة، كأنَّه قيل: لمحٌ أداتُه أو آلتُه البصر. أو لمحٌ ملابِسٌ للبصر، والمقصود هنا أدنى مُلابسة؛ أي: سرعة أمرِ اللّه كسُرعة لمحةٍ تحصُلُ عند أقلِّ تماسٍّ مع البصَر؛ أي: في اللَّحظة الخاطفة الّتي يقعُ فيها اللَّمحُ بالبصَر، سواءً كان لَمْحًا بانتباهٍ وطواعيةٍ أم كان عفويًّا لا إراديًّا.

توجيهُ المُتشابه اللَّفظيِّ:

دقَّة التَّعبير بباء المُلابسة تُصوِّرُ المُباغتةَ الإلهيَّةَ في أوضَح صورة

جاء التَّعبيرُ بإضافة اللَّمح للبصر بدون ذِكر الباءِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النّحل: 77]، وفي سورة القمر ذُكِرَتِ الباءُ ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾؛ لأنَّ المَقامَ في سورة النَّحل أخفُّ، فناسبَه التَّركيب الأخفُّ والأخصَر، إذْ في الإضافة تخفيفٌ وطيٌّ، ومن حيث المعنى، فالإسنادُ حاصلٌ إلى السّاعة ﴿وَمَآ

(1) أبو حيّان البحر المحيط: 10/ 49، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 221.

﴿أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [النّحل: 77]؛ وهي موجودٌ مخصوصٌ من أمر اللّه، وأمّا في القمر فالإسنادُ إلى نونِ الذّات العليَّة ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ﴾، والأمرُ هنا أعمُّ مِنَ السّاعة، فالمقصودُ عُمومُ أوامر اللّه الّتي تقع فجأةً، أيًّا كانَت ماهيَّتُها، فكان المعنى هنا أثقلَ، فاقتضى زيادةَ التَّركيب.

ومن حيثُ تبايُن السّياق: فسياقُ سورة النَّحل عنِ السّاعة ذاتِها، والمَقامُ مَقامُ تقرير سرعةِ وقوعِ السّاعة حين يأذنُ اللّه بها، فجاء التَّشبيهُ بخِفَّةٍ وسلاسةٍ ﴿كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾ [النّحل: 77]؛ لأنَّ الغرضَ تصويرُ السُّرعة المَعهودة عند السّامع دون تعقيدٍ، بما يناسبُ الحديثَ عن يوم القيامة الّذي هو مَعلومٌ عند النّاس عِظَمُ شأنِه، ولكنَّهم بحاجةٍ إلى تأكيد سرعته. وأمّا في القمر ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾ فالمَقامُ هنا أبلغُ وأشدُّ تهويلًا؛ لأنَّ الحديثَ في سياق الوعيد بالعذاب الّذي يأخُذُ الكافرين فجأةً، ولذلك لم يقُل هنا: (أمر السّاعة)، بل قال: ﴿أَمۡرُنَآ﴾؛ أي: فِعلُنا وإيقاعُنا للأمر أيًّا كان: (ساعة، عذاب، هلاك). فاستعمل ﴿كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾؛ لأنَّ المَقامَ مَقامُ تهويلٍ وتخويفٍ، والتَّعبيرُ بالبصر كآلةٍ للَّمحِ أدَقُّ في تصوير المُباغتة، وأشدُّ في تحذير المُخاطَبين، وأقرَبُ إلى ترسيخ صورةِ سرعةِ نفاذِ الأمرِ الإلهيِّ.

مَوقِعُ جملة ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ ممّا قبلها:

تأكيدُ الإهلاك الماضي تحذيرٌ من إهلاكٍ حاضرٍ ينتظرُ المُكذِّبين

جملة: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ استئنافيَّةٌ في مَوقِع النَّتيجة لِما سبقَها من تقرير أنَّ إهلاكَ المُكذِّبين أمرٌ مُقدَّرٌ مُحكَمٌ، يتمُّ بسرعةٍ لا تخطرُ ببالٍ، وهو واقع بكم إنْ لم تَعتبرو، فجاء قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ بعد قوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾؛ ليُريَهُم مِصداقَ هذا النِّظام الإلهيِّ في الأمم المُكذِّبة قبلهم، وليُحمِّلَهم مسؤوليَّةَ الاعتبار بقوله: ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾[1].

(1) صافي، الجدول: 14/ 85، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 222.

فائدةُ توكيد الخبر بلامِ القسَم و(قد):

تنزيلُ المُخاطَبين مَنزِلةَ المُنكِرين ليقعَ التَّهديد والوعيدُ على بابه

توكيدُ الخبر في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ بلام القسم، و(قد) لتنزيل المُخاطَبين مَنزلةَ مَن يُنكِرُ ذلك؛ لأنَّ شأنَ العالم الارْعِواءُ عن غيِّه؛ فغرَضُ التَّوكيد تهديدُ المُخاطَبين ووعيدُهم بأنَّه قد يَنزِلُ بهم ما قد نزل بأشباهِهم وأشياعِهم مِنَ الأمم السّابقة.

بلاغةُ الالتفات مِنَ الغَيبة إلى الخطاب:

الخطابُ بعد الغَيبة أبلغُ في إيقاظِ الغافلين وتسجيل الحجَّة عليهم

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ عَدلَ فيه إلى الخطاب بعد أن كان النَّظمُ على أسلوب الغَيبة في قوله: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝٤٥ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ۝٤٦ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ ۝٤٧ يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾، ومَرجِعُ الضَّمائر في النَّظم غَيبةً وخطابًا راجعٌ إلى المُشرِكين لظهور أنَّهم المَقصودُ بالتَّهديد، وهو - أي الخطاب المَعدول إليه - تصريحٌ بما تضمَّنه قولُه: ﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾[1]، فقد جعلَهم ومَن قبلهم مِنَ الأمم المُكذِّبة السّابقة سواءً في أصلِ الكُفر والعمل، وهنا جعلَهُم ومَن قبلهم سواءً في استحقاقِ الهلاك، وهذا الالتفاتُ مَقصودٌ لإثارة انتباهِهم وإيقاظِ غَفلتِهم؛ فهو أدعى للتَّأثير في نفوسهم حين يواجهُهم بالخطاب بعد أن كانوا غائِبينَ عنه.

نكتة إضافة الأشياعِ إلى ضمير المُخاطَبين:

الأمم الهالكة جزءٌ مِنَ المُخاطَبين في المَنهَج والطَّريق

أُضيفَ لفظُ الأشياع إلى ضمير المُخاطَّبين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؛ لجَعل الهالِكين مِنَ الأمم السّابقة مُتَّصِلين بالمُخاطَبين أنفسِهم؛ لأنَّ أولئك الأشياع كانوا على شاكِلتِهم في الكُفر والمُعاندة؛ فجاءَتِ الإضافةُ لتقريب صورةِ الهلاكِ منهم، وتكثيفِ شُعور التَّهديد؛ والمعنى: (هلاكُهُم هو إنذارٌ لكم، وأنتُم امتِدادٌ لهم في الضَّلال).

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 222.

بلاغةُ اختيار لفظ الأشياعِ دونَ الأتباع:

اختيرَ لفظُ الأشياعِ دون الأتباع في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾؛ للدَّلالة على العصبيَّة والانتشار، فالأمرُ ليس مُجرَّدَ تبعيَّةٍ (كما في الأتباع)، ولا مُجرَّد مُشابَهة في الجوهر (كما في الأشباه)، بل قريشٌ ومَن حولها امتدادٌ لأُمَمٍ سبقَتهم، لهم شيَعٌ وأحلافٌ وانتشارٌ وقوَّةٌ كما كان لأولئك السّابِقين.

السّابقون مِنَ الأمـم شايَعوا اللّاحقين في مَسلَكِهم فكانوا لهم سندًا في الباطل

فجاءَت كلمة (الأشياع) ليَفهموا منها أنَّهم ليسوا استثناءً، بل أنتم فِرَقٌ مُتعصِّبةٌ مُمتدَّةٌ من سلاسل الكافرين السّابقين، ومَصيرُكم كمَصيرِهم. وهذا يتناسبُ مع سُنَن الهلاك المُتكرِّرة في السّورة؛ لأنَّ لفظَ (الأشياع) يَربطُ حاضرَهم بماضي أمم كثيرةٍ؛ كأنَّهم شيعةٌ لأولئك في الضَّلال. فكأنَّه قيل: (أهلكْنا نُظراءَكم مِن قبلُ، وهم أقوى منكم وأكثرُ عددًا، فكيف بكم؟). فمادَّة ذلك اللَّفظ تُبرِزُ عاملَ الاستقواء بالسَّوابق؛ إذِ المُشرِكون بمكَّةَ كانوا يَتواصَون بالتَّكذيب، ويَستندون إلى أنَّ هذا هو حالُ الأمم قبلكم، فناسَبَ أن يُسلَبوا هذا الشُّعورَ بالقوَّة؛ بالتَّصريح أنَّ هؤلاء الأشياع الّذين تَقوَّيتُم بذِكرِهم قد أُهلِكوا قبلَكم، فلم يقُل: (الأتباع)؛ لأنَّه أضعفُ معنًى، إذ يدلُّ على مُجرَّدِ اللَّحاقِ بلا إشعارٍ بالقوَّة والانتشار.

دلالة المَجاز في لفظ ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ﴾:

استُعمِلت كلمة ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ للازِمِ معناها، فلم يُقصَد بها الأتباعُ بالنُّصرة، بل المُشابِهون للمُخاطَبين في الكُفر والضَّلال، فانتقل من معنى (الأتباع المُتناصِرين) إلى (المُشابِهين في الكُفر)، وهذا أقربُ إلى المَجاز المُرسَل بعلاقة المُلابَسة أو المَعنى المُلازِم[1].

المُشابَهة في الكُفر تورِثُ المُشابَهة في المصير

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 94.

بلاغةُ الاستعارة في كلمة ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ﴾:

تأكيدُ الإهلاك الماضي تحذيرٌ من إهلاكٍ حاضرٍ ينتظِرُ المُكذِّبين

في قوله: ﴿أَشۡيَاعَكُمۡ﴾ شُبِّهَ المُكذَّبون بالأشياع؛ لأنَّهم كانوا مُتناصِرين على الكُفر والباطل كما يتناصر الأشياعُ بعضُهم بعضًا. وقيل: الكلمة على حقيقتها؛ أي: أتباعُكم في الكُفر مِنَ الأمم السّابقة[1].

دلالة تفريعِ جملةِ الاستفهام على الخبر:

مَقصودُ الإخبارِ تحقيقُ التَّهديد والاعتبار

جاءت جملةُ ﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ تفريعًا على قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾؛ لتكونَ دالَّةً على إرادة الاعتبار وطلب الادِّكار، فيدلُّ ذلك على أنَّ التَّأكيدَ ليس لبيانِ الخبر ذاتِه، بل لِما وراءَ الخبر مِنَ التَّهديد والتَّعليم[2].

بلاغةُ العطف بين الجُمل:

قياسُ الشّاهد على الغائب في عالم الشَّهادة مَجلَبةٌ للاعتبار

جملة: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَآ أَشۡيَاعَكُمۡ﴾، فالضَّمير في ﴿فَعَلُوهُ﴾ يعود إلى الأشياع[3]. فالعطفُ هنا يُرتِّبُ المعانيَ؛ لتأكيد أنَّ هذا الإهلاكَ لم يكُن نهايةَ الأمر، بل كلُّ أعمالِ هؤلاء الأشياعِ قد كُتِبت لِتكونَ مَحلًّا للمُحاسبة والجزاء في الآخرة، وفيه تهديدٌ ضمنيٌّ بأنَّ أعمالَ الكافرين مَحفوظةٌ عليهم، لا تُنسَى ولا تُهمَلُ، فكما أنَّ كلَّ شيءٍ فعَلَه السّابقون مَحفوظٌ، فكذلك أفعالُ المُخاطَبين هي مَحفوظةٌ.

فائدةُ الابتداءِ بلفظ العموم:

شمولُ الحساب واستيعابُ الجزاء لكلِّ عملٍ

الابتداء بلفظ العموم في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ فيه نكتةٌ بديعةٌ، إذ يقرِّرُ من أوَّل الكلام شمولَ الإحصاء لكلِّ عملٍ من غير استثناء، فلا يغيبُ صغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا سِرٌّ ولا عَلَنٌ. فجاء لفظُ (كلّ) في صدر الآية ليدفعَ الوهمَ ابتداءً أنَّ بعضَ الأفعال يُنسَى

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 94.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 222.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 223.

أو يُهمَلُ، ويُؤكِّدُ أنَّ كلَّ ما يَصدُرُ عنهم قد أُثبِتَ في صُحُف الأعمال وألواحِ الكتَبَة، يَنتظِرُهُم ذلك عند الحساب.

دلالةُ التَّعبير بلفظِ ﴿شَىۡءٍ﴾:

الإحاطةُ بأفعال العبادِ بعُمومٍ مُطلَقٍ

لفظ ﴿شَىۡءٍ﴾ اسمٌ يدلُّ على جنسٍ عالٍ موغِلٌ في التَّنكير والعُموم، كموجودٍ وكائنٍ وأمْر، وقد يتخصَّصُ بالوصف أو بالعادة والعقل[1]؛ فأفاد في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَىۡءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ التَّهويلَ مع الإطلاق؛ أي: أيُّ شيءٍ كان صغيرًا أو كبيرًا، ظاهرًا أو خفيًّا، حقيرًا في أعيُن النّاس أو عظيمًا في نظرِهم، فهو مَكتوبٌ مَحفوظٌ؛ فجاء اللَّفظُ ليُشعِرَ بأنَّ جنسَ أعمالهم كلَّه داخِلٌ في الإحصاء بلا استثناء، فلا يغيبُ عنه أدنى أثرٍ من آثارهم.

بلاغةُ استعمال مفردةِ الفعلِ دون مُقارباتها:

اشتمالُ الحساب لجميع الأفعال، ومُناسبةُ ألفاظ السّياق

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بفعل ﴿فَعَلُوهُ﴾ دون (عملوه) أو (صنعوه)؛ ليشمَلَ كلَّ ما صدرَ عنهم كائنًا ما كان، فالقرآنُ يُريد الإحاطةَ بكلِّ ما بَدَرَ منهم بلا قيد، فجاء باللَّفظ الأعمِّ، ولاسيَّما أنَّه واردٌ في مَقام التَّسجيل والمُحاسبة والتَّوبيخ، فليس المُرادُ مَدحَ العمل أو وصفَهُ بالإتقان، فلا يُقالُ: (صنَعوه)، وإنَّما مُجرَّدُ حَصرِ ما وقَعَ منهم وتثبيتُه في الزُّبُر. ولو قيل (عمِلوه) لربَّما أوهَمَ أنَّ المُرادَ ما كان فيه قصدٌ وإرادةٌ واضحةٌ، بينما هناك أشياء يُحاسَبُ عليها الإنسانُ قد تقعُ بغير قصدٍ جليٍّ، فجاء بفعلِ ﴿فَعَلُوهُ﴾ ليَشمَلَ الجميعَ، كما أنَّ في ﴿فَعَلُوهُ﴾ تناسُبًا تامًّا مع قوله: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسۡتَطَرٌ﴾؛ أي: التَّسجيل والحَصر الشّامل؛ فاختيرَ لذلك لفظٌ شامِلٌ أيضًا، وهو ﴿فَعَلُوهُ﴾.

بلاغةُ الكناية ودلالتُها:

تعلَّقَ الجارُّ والمَجرورُ ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ بمحذوفِ خبرٍ مُقدَّرٍ من جنسِه؛

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 173.

الكتابةُ في الزُّبُر تهديدٌ بالمُحاسَبة والعقاب

أي: كلُّ شيءٍ فعلوهُ مَكتوبٌ في الزُّبُر[1]، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾؛ أي: كلُّ أعمالهم مَكتوبةٌ في الكُتُب وصحائف الأعمال مع الحَفَظَة الكاتِبين، وليس الغرضُ البلاغيُّ مُجرَّدَ الإعلام بأنَّ أعمالَهُم مَكتوبةٌ، وإنَّما التَّهديدُ بأنَّ هذه الكتابةَ ليسَت عَبثًا، بل هي للمُحاسبة عليها، فالإخبارُ بأنَّ أفعالَ المُتقدِّمين مكتوبةٌ هو التَّهديد بتعيين مَصير المُخاطَبين بعد الإخبار بمَصير الغابرين.

أسلوب التَّعريض في الخبر:

التَّعريض بحفظِ الأعمال أدعَى إلى الرُّعب والاعتبار

الإخبارُ بقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ يحمِلُ تعريضًا وتهديدًا لمُشركي العرب، بأنَّهم لن يُفلتوا بعذاب الدُّنيا وحدَه بإيقاع الهزائم بهم على أيدي الرَّسول والمومنين، بل أمامهم حسابٌ دقيقٌ ومُساءلةٌ لا تُغادِرُ صغيرةً ولا كبيرةً. والتَّعريض هنا أشدُّ وقعًا مِنَ التَّصريح؛ لأنَّه يَجعَلُ المُخاطَبين يَتوقَّعون العاقبةَ الأشدَّ بأنفسهم، بما يُدخِلُ الرُّعبَ في قلوبهم خفْيَةً؛ ليُتيحَ لهم المُراجعةَ وتقليبَ النَّظر والادِّكار في حالٍ مِنَ التَّفكُّر الصّامت الّذي يَقطَعُ عنهم العُذرَ، ويُسجِّلُ الحُجَّةَ عليهم[2].

بلاغةُ الكناية ونوعُها:

المحاسبةُ الإلهيَّة تشملُ كلَّ عملٍ صغيرٍ وكبيرٍ دون إغفال

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ كنايةٌ عنِ الإحاطة التّامَّة لعِلم اللّه بأعمالِهم، وكنايةٌ عن صفة الجزاء؛ لأنَّ الكتابةَ هنا لازِمةٌ للحساب، والحسابُ لازمٌ للعقاب أو الثَّواب، ولهذا كان في الآية تبشيرٌ لِمَن أحسَنَ؛ لأنَّ عملَهُ الصَّغيرَ والكبيرَ مَرصودٌ، فلا يَضيعُ أجرُهُ، وإنذارٌ لِمَن أساء؛ لأنَّ ذنوبَه العظيمةَ والصَّغيرةَ مَحفوظةٌ عليه[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 135، والخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 27/ 179.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 223.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير.: 27/ 224.

بلاغة الاستعارة في لفظتَي ﴿صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ استعارةٌ بديعةٌ، إذ أطلقَ لفظَ الصَّغير والكبير على الأعمال، مع أنَّ حقيقتَهما في الأجسام. فشُبِّهَتِ الأعمالُ بأجسام لها حَجمٌ يُقاس بالصِّغر والكِبر، ثمَّ استُعير هذان اللَّفظان للدَّلالة على تفاوت الأفعال قلَّةً وكَثرةً، أو حقارةً وعِظَمًا في ميزان الحساب، على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة، وفائدتُها عِظةٌ بليغةٌ للإنسان بأنَّ كلَّ ما يَصدرُ عنه - مهما دَقَّ أو جَلَّ - مُحصًى مَكتوبٌ، لا يغيبُ منه شيءٌ.

تصويرُ الأعمال في مَراتِبَ حسّيَّةٍ لتخويف المُخاطَبين من نزول البليَّة

بلاغة الطِّباق بين ﴿صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ وقعَ الطِّباقُ بين ﴿صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾؛ ليجمعَ طرفي التَّفاوت، فيدلّ على الشُّمول والإحاطة التَّامَّة بجميع الأعمال، فلا يَغيبُ منها دقيقٌ ولا جليلٌ؛ فالطِّباقُ ليس لِمُجرَّد التَّضادِّ اللّفظيِّ، بل لتحقيق مَعنى الاستقصاء والكمال في الإحصاء، فتترسَّخُ في الأنفس هيبةُ المَوقِف، وتَنبعِثُ بوازع اليقظة والمُحاسبة.

إحاطةُ الكتاب بكلِّ الأعمال دون استثناء

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾:

استُعمِلَت مُفردة ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾ بدلًا من لفظ (مكتوب)؛ وذلك لأنَّ ﴿مُّسۡتَطَرٌ﴾ يدلُّ على الأسطر، والأسطرُ هي عبارةٌ عن جزئيّاتِ المَكتوب الكُلّيِّ، فكلُّ سطرٍ فيه أعمالُ الإنسان، فعلى هذا هي توكيدٌ لمعنى الإحاطة والشُّمول في قوله: ﴿صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ﴾، فهو مكتوبٌ بإحكام ونظامٍ وتوثيقٍ لا يُغفَلُ منه شيءٌ، كما يُسطِّرُ الكاتبُ في السِّجلِّ بدِقَّةٍ، ووزنُ (مُفتَعَل) يدلُّ على قوَّة الفعل والمُبالغة في إحكامه. ففي اللَّفظ تَجَلٍّ لصورةٍ بصريَّةٍ قويَّةٍ للكتابة المُنَظَّمَة، حيث الأعمالُ مُدوَّنَةٌ في سِجلٍّ عظيمٍ مَحفوظٍ لا يُنسَى منه شيءٌ[1].

التَّنبيه على الأسطُر ذات التَّفصيل الجزئيِّ والإحاطة الكلّيَّة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 135.

بلاغةُ جملة التَّذييل:

توكيدُ المعاني لدى أهل الغفلة رأفةٌ من صاحب الرَّحمة

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ كالتَّذييل لقوله: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾، وهذا التَّذييلُ تعميمٌ بعد تخصيص، وتأكيدٌ بعد تأسيس، ليشملَ كلَّ ما يمكنُ أن يَندرِجَ تحت وصف الأعمال، سواءً كان صغيرًا من أعمال القلوب والخَطرات والهَمسات، أو كبيرًا مِنَ الجنايات العظيمة والجرائم البارزة، وهذا أبلغُ في شُمول المُحاسبة والجزاء، وعليه فجُملة ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ﴾ بعد قوله: ﴿وَكُلُّ شَيۡءٖ فَعَلُوهُ﴾ من باب عطفِ العامِّ على الخاصِّ[1].

مَوقِع جملة ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ ممّا قبلها:

بلاغةُ تتميم الجزاء - في ذِكر البِشارة بعد النِّذارة - من سُنَنِ البلاغة

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ وقَعَ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ السّامِعَ بعد أن تكرَّرَ في السّياق ذِكْرُ المُجرمين وعذابِهم وهلاكِ أشياعِهم، وذُكِرَ أنَّ كلَّ صغيرٍ وكبيرٍ مُستَطَرٌ، صار مُتشوِّقًا إلى سَماعِ خبرِ مُنقَلَبِ الطَّرفِ الآخر؛ وهم المُتَّقون. فالآية تُجيبُ على سؤالٍ مُقدَّرٍ في النَّفس: فما حالُ المُتَّقين إذن؟ فحين ذُكِرَ أنَّ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٖ وَكَبِيرٖ مُّسۡتَطَرٌ﴾ كان ذلك شاملًا لأعمال المُجرِمين والمُتَّقين، فاقتضى المَقامُ بيانَ أنَّ الجزاءَ لا يَقتَصِرُ على العقاب، بل هناك ثوابٌ كذلك. فجاءَتِ الآيةُ ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ لتُتمَّ المعنى في الجمع بين التَّرهيب والتَّرغيب؛ ليكتملَ مَقصودُ الهداية، ويُراعَى حالُ السّامِعِ، حتَّى لا يَقتَصِر ذهنُهُ على صورة الهلاك، بل يرى في المُقابل رحمة اللّه وعدله[2].

نُكتةُ افتتاحِ الجملةِ بحرف التَّوكيد:

توكيدُ النَّعيم تثبيتٌ لقلوب المتَّقين، وزَعزعةٌ لقلوبِ المُشركين

افتُتِح قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ بحرف ﴿إِنَّ﴾؛ للاهتمام بمَضمون الخبر وتوكيده[3]؛ ليُقارِبَ ما جاء في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 224.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 175، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 224.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 224.

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾؛ وللدَّلالة على أنَّ هذا الجزاءَ أيضًا مُقدَّرٌ ومَكتوبٌ، كما قُدِّرَ عذابُ المُجرِمين، ولتأكيد المعنى المُنكَرِ عند المشركين، وزيادةِ طمأنةٍ للمؤمنين.

دلالةُ التَّعبير بحرفِ الظَّرفيَّة:

نعيمُ الآخرة مُستغرِقٌ مُحيطٌ بأصحابه

حرف الظَّرفيّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾ بمعنى (التّلبُّس القويّ)؛ أي: أنَّهم مُتلبِّسون بهذا النَّعيم تلبُّسَ المَظروفِ بظرفِه، مُلازمون له، مُحيطٌ بهم من كلّ جهةٍ إحاطةَ الظَّرف بما في داخله[1].

فائدة عطف ﴿وَنَهَرٖ﴾ على ﴿جَنَّٰتٖ﴾:

ذِكرُ الأنهار بعدَ الجِنان تكميلٌ لبيان النَّعيم

أفادَ عطفُ ﴿وَنَهَرٖ﴾ على ﴿جَنَّٰتٖ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾؛ ليدلَّ على أنَّه ليس المَقصودُ الإخبارَ بأنَّ المُتَّقين ساكنون في الجنّات فقط، وليس المرادُ أنَّهم مُنغمِسون في الأنهار، إذ لم يكُنْ هذا ممّا يتطلَّعُ إليه السّامِعون أو يَتصوَّرونَهُ كنعيم، بل المرادُ أنَّهم في نعيمٍ يَجمَعُ بين لذَّةِ الجنّات بظِلالها وثمَرِها ومَساكِنها، ولذَّةِ الأنهارِ بجَرَيانها وبهجَتِها ومائها العَذب، فهُم مُتلبِّسون بالنَّعيم النّاشِئ عن اجتماعِ هذين الأمرَين، ولذا حُذِفَ المضافُ وأُبقيَ على الظَّرف للدَّلالة على شدَّة المُلابسة؛ والمراد: في نعيمِ جنّاتٍ ونعيمِ نهَرٍ، أو نعيمٍ مِن جنّاتٍ ومِن نَهَر[2].

نُكتة جمع ﴿جَنَّٰتٖ﴾ وإفراد (نَهَر):

أنهارُ الجنَّة كثيرةٌ مُتشابهةٌ لها حكمُ النَّهر الواحد في نَعيمِه

جاء التَّعبيرُ بصيغة الجمع للفظ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ للإشارة إلى عِظَم شأنِها، وسعتِها، وتعدُّدِ أنواعِها وأصنافِها، فهي ليسَت جنَّةً واحدةً بل جنّات مُتنوِّعات، وهذا أوقعُ في النَّفس وأبلغُ في تصوير كثرة النَّعيم وتعدُّده.

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 225.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 225.

بينما جاء لفظ ﴿وَنَهَرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ بصيغة المُفرد، وهو اسمُ جنسٍ أُريدَ به الجمعُ؛ أي: (أنهار) كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: 67]؛ أي: أطفالًا، وقوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74]؛ أي: أئمَّةً، وقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا﴾ [النّساء: 4]؛ أي: أنفسًا، وقوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النّساء: 69]؛ أي: رُفقاء، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التّحريم: 4]؛ أي: مُظاهِرون[1]. كما أنَّه خصَّ مَوضِعَ القمر بتلك الصّيغة مراعاةً للفاصلة، ولقرينةِ جمع ﴿جَنَّٰتٍ﴾، فلو قال: (وأنهار) لم يكُن مَكينًا في الفاصلة كالتَّعبير بقوله: ﴿نَهَرٍ﴾[2].

كما أنَّ الإفرادَ جاء لتصوير أنهارِ الجنَّةِ كأنَّه نهرٌ عظيمٌ واحدٌ يتشعَّبُ في تلك الجنّات، فكان الإفرادُ أبلغَ في هذا المَقام. وجمَعَ الأنهار في مَواضِعَ أُخرى حتَّى لا يتوهَّمَ السّامعُ أنَّ في الجنَّةِ نهرًا واحدًا فقط؛ فيدلُّ بالجَمعِ على كثرَتِها وتنوُّعِها[3].

مَوقِع جملة ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ ممّا قبلها:

نعيمُ الجنَّة لا يَكتملُ إلّا بمَقامِ القُربِ مِنَ الله

قوله تعالى: ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ في مَوقِع البدلِ من قوله: ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾، وهو إمّا بدلُ بعضٍ من كلٍّ، أو بدلُ اشتمال. والمعنى على الأوَّل: أنَّ ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ مَوضِعٌ مَخصوصٌ ﴿فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾، فهو بعضٌ يندرج في نعيم تلك الجنّات، فذكَر الكلَّ ثمَّ عيَّنَ بعضَهُ المَخصوصَ داخلَ الجِنان.

والمعنى على بدل الاشتمال: أنَّ مَقعدَ الصِّدقِ ليس جزءًا حِسّيًّا مِنَ الجِنان والأنهار (كما في بدَلِ البعضِ مِنَ الكُلِّ)، بل هو أمرٌ

---

(1) الشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب، ص: 217، وأضواء البيان: 4/ 272.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 442، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 169، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 175.

(3) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 287.

مَعنويٌّ يَشتملُ عليه حالُ أهلِ الجنَّة مِنَ الكرامة والرِّضا والطُّمأنينة والنَّعيم الكامل.

ويصحُّ أن يكونَ ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ في مَوقِع الصِّفة لقوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ﴾، وقولُهُ: ﴿عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾ صفةٌ ثانيةٌ لهما؛ فيتضاعَفُ الشَّرفُ بالمَوضِع والقُرب؛ أي: في جنّاتٍ ونَهَرٍ مَوصوفَين بذلك، كما تقول: وقفةٌ في سبيل الله؛ أيِّ: وقفةٌ مَوصوفةٌ بهذه الصِّفة الشَّريفة[1].

نكتة اختيار لفظ ﴿مَقۡعَدِ﴾ بدلًا من مَجلِس:

مَقعَدُ الصِّدق في الجنَّة كنايةٌ عنِ الخُلود الهنيء والثَّبات المُطمئن

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بلفظ ﴿مَقۡعَدِ﴾ دون مَجلِس؛ وذلك لأنَّ المَجلِسَ يدلُّ على الجلوس في ذاتِه من غير دلالةٍ على طول اللَّبث أو الدَّوام، فلو قيل: (مَجلِس صِدق) لفُهِم أنَّ لهم مَكانًا يَجلسون فيه حينًا ثمّ يَغادرونه أو يَتنقَّلون عنه، وهذا لا يُناسبُ مَقامَ الخلودِ المُنزَّه عنِ التَّحوُّلِ والعارضيَّة المُؤقَّتة؛ فجاء التَّعبيرُ بلفظ ﴿مَقۡعَدِ﴾؛ ليدلَّ على القرار الثّابت والمكثِ الدّائم واللَّبث الطَّويل، فهو حالٌ أخصُّ مِنَ الجلوس وأدلُّ على مَقام الخلود والاستمرار في النَّعيم، ولا يَخطرُ في بال أحدٍ المَعنى المَذموم للقعود، فهو خاصٌّ في سياق القُعود عنِ الجهاد ومَواضِع العملِ والاجتهاد، وأمّا القعودُ في الجنَّة فكنايةٌ عنِ الخلود، وعليه: فلو قيل: (مَجلِس صِدق) لكان ممّا يطرأ عليه مَعنى المُفارقة، وأمّا التَّعبيرُ بلفظ ﴿مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾ فيدلُّ على أنَّهم في مَوضِع استقرارٍ أبديٍّ لا يَتحوَّلون عنه، وهو أليَقُ بمَقام أهل الجنَّة عند ربِّهم[2].

فائدة إفراد لفظ ﴿مَقۡعَدِ﴾:

أُفرِدَ لفظ ﴿مَقۡعَدِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾، وأُريدَ به

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 332، والخطيب وآخرون، التّفصيل في إعراب التّنزيل: 27/ 181.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 332، 333.

ذكرُ نعيم المتَّقين جاء لتتميم وعيدِ أهلِ الجحيم

الجِنسُ، وهو دالٌّ على الجمع؛ أي: كلُّ مَقعَدٍ طيِّبٍ كريم ينالُه المُتَّقون في الجنَّة، وفائدةُ إفرادِ لفظ المَقعَد مع إرادة الجنس الإشعارُ بعظمة المَقام وشرفِهِ حتَّى كأنَّ كلَّ المَقاعد الكريمة كالمَقام الواحدِ في شرَفِهِ وكرامته؛ ففيه التَّعظيمُ والتَّفخيم لشأنه، وفيه الدَّلالة على وحدة العظمة والشَّرف والنَّعيم بين أهل الجنَّة جميعًا[1]، ولمّا كان السّياقُ في ترهيب ووعيدِ الكافرين، جاء وصفُ نعيم المُتَّقين بطريق الإجمال، وشأنُ الإجمال الإخبارُ عنِ النَّعيم في مُقابل الإخبار عن عذاب أهل النّار، وتفصيلُ درجاتِ أهل الجنَّة ليس هذا مَوضِعَهُ، فإنَّ الإخبارَ عن نعيمِهم جاء لتتميم التَّرهيب والتَّبكيتِ وتشديدِ النَّكير على المُشرِكين.

دلالة الإضافة في ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾:

كرامةٌ لا يشوبُها باطلٌ، ونعيمٌ لا يُخالِطُه زيفٌ

إضافة ﴿مَقْعَدِ﴾ إلى ﴿صِدْقٍ﴾ من باب إضافة الموصوف إلى الصِّفة؛ لِلمبالغة في تمكُّن الصِّفة منه، فهُم في مَقعَدٍ يَشتملُ على كلِّ ما يَحمدُهُ القاعِدُ فيه[2]. وهذه الإضافةُ لأدنى مُلابَسة[3]، فهو مَقعَدٌ يلتبسُ به الصِّدقُ من كلِّ وجهٍ، فلا يشوبُهُ كذِبٌ قطُّ، لا في الخبر عنه، ولا في وصفِهِ، ولا في أهله، فكلُّه حقٌّ[4]. فالمُخبِرُ عنه صادقٌ، والمَقعَد نفسُه في الوصفِ مُطابِقٌ، والفائزون به أهلُ صِدقٍ وحقٍّ.

دلالةُ مجيء الصِّفة مَصدرًا:

مَقامُ النَّعيم والخُلود أقيمُ من جوهر الصِّدق والبراءة من كلِّ نقصٍ

الإضافة في قوله تعالى: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ من إضافة المَوصوف إلى الصِّفة، كأنَّه قيل: (مَقعَدٌ صِدقٌ) فنعتَ الموصوفَ بالمصدر، بجعلِ العين نفسَ المعنى مبالغةً، كأنَّ هذا المَقعَدَ أوجدَهُ اللّٰه من حقيقة الصِّدق، فكأنَّ ذاتَ الموصوف تحوَّلَتْ إلى نفسِ معنى الصِّفة[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 19/ 136، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 95.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 227.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 95.
(4) ابن عثيمين تفسير سورة القمر، ص: 298.
(5) السّامرائي، معاني النّحو: 3/ 190.

دلالاتُ المَجاز والحقيقة في لفظ الصِّدق:

يحتمِلُ لفظُ الصِّدق في قوله تعالى: ﴿مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أن يكونَ من باب المَجاز المُرسَل، فليس المقصودُ الحقيقةَ اللَّفظيّة للصِّدق (مُطابقة الخبر للواقع)، بل ما يَلزمُ عنِ الصِّدق، وهو المكانُ المَرضيُّ؛ أي: مقامٌ طيِّبٌ مَقبولٌ، حسنٌ مَحبوبٌ عند الله. فأُطلِقَ الصِّدقُ، وأُريدَ لازِمُهُ (المكانُ المَرضيُّ المَحمودُ)، ويَحتمِلُ أن يكونَ استعارةً؛ أي: أنَّ الصِّدقَ شُبِّهَ بشيءٍ آخرَ، مِثْل المَكان المَرضيِّ، وذُكِرَ لازمٌ من لوازمه على سبيلِ الاستعارةِ المَكنيَّة، ويَحتمِلُ حَمْلَ اللَّفظ على ظاهرِه، فيُرادُ: صِدقُ المُخبِر به أو صِدقُ أصحابِ هذا المَقعَد المَجزيّين به[1].

صِدقُ الحال يَستجلِبُ صِدقَ المَقامِ وشَرَفَ المَنزِل

بلاغةُ الكناية في الظَّرف:

العِنديَّةُ في قوله تعالى: ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ للقرب الرُّتبيِّ، فالمرادُ قُربُهُم في المَنزِلة والمَرتبة والشَّرف، فهي كنايةٌ عنِ الكرامةِ الّتي يَحظَون بها، والمَنزِلةِ الّتي يَنالونها.

دلالةُ تنكيرِ وصفَي الجَلال:

نُكِّرَ لفظا ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾؛ للدَّلالة على عظمةٍ غيرِ مَحدودةٍ؛ فهو مليكٌ ذو مُلكٍ عظيم لا يُحاطُ به وصفٌ، ومُقتَدِرٌ ذو قُدرةٍ قاهرةٍ لا يُدرِكُها عقلٌ. ففي التَّنكير إشارةٌ إلى أنَّ مُلكَهُ تعالى وقُدرتَه ﷻ لا تدري الأفهامُ كُنهَهُما، وكمالَهُما فوق ما تستطيعُ العقولُ إدراكَهُ[2].

مَقامُ القُرب مُنزَّهٌ عنِ الوصف مُقدَّسٌ عنِ الحدِّ

دلالةُ صِفتَي ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ بالذِّكر:

خَصَّ النَّظمُ الكريمُ وصفَي ﴿مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ في الفاصلة؛ ليناسِبَ مَقامَ العِنديَّة والقُرب، ومَقامَ النَّعيم واللَّذَّة؛ لأنَّ القُربةَ مِنَ الملوك لذيذةٌ، وكلَّما كان المَلِكُ أشدَّ اقتدارًا كان المُتقرِّبُ منه أشدَّ

جلالُ المُلك وكمالُ القُدرة فوقَ إدراكَ المَخلوقين

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 95.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 95.

التذاذًا، وفي تعقيب ﴿مَلِيكٍ﴾ بـ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ القُربَ منه سبحانه يُخالِفُ القُربَ من سائر الملوك، فإنَّ المُلوكَ يُقرِّبون منهم مَن يُحبّونه ومَن يَرهَبونه، مخافةَ أن ينقلبوا عليهم، وينحازوا إلى عَدوِّهِم فيغلبونهم، ولذلك قال تعالى: ﴿مُّقْتَدِرٍ﴾؛ ليدلَّ على أنَّه لا يُقرِّبُ أحدًا إلّا بفضله(1).

دلالةُ صيغتَي ﴿مَلِيكٍ﴾ و﴿مُّقْتَدِرٍ﴾:

لفظُ ﴿مَلِيكٍ﴾ أبلغُ من (مالك)، و﴿مُّقْتَدِرٍ﴾ أبلغُ من (قادر)؛ لدلالةِ (فعيل) على المُبالغة واللُّزوم، ودلالةِ (مفتعِل) على طلاقةِ الفعل وشدَّة القيام بالصِّفة والتَّمكُّن منها(2).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الغَلبةُ والهزيمة:

تدلُّ الغَلبةُ على القَهر دون كسرٍ، والهزيمةُ على القهر بانكسارٍ وتحطيمٍ

بين الغلبةِ والهزيمةِ عمومٌ وخصوصٌ؛ فكلُّ مَهزوم مَغلوبٌ، وليس كلُّ مَغلوبٍ مَهزومًا. لأنَّ الهَزْمَ حطْمٌ وكسْرٌ. والغلبةُ قوَّةٌ وشدَّةٌ وقهرٌ(3)، وذلك لا يَلزمُ عنه انكسارٌ أو تحطيمٌ. فالهزيمةُ إذًا أبلغُ مِنَ الغَلبة، ولذلك لم يقُل هنا: (ربّ إنّي مهزومٌ فانتصِرْ)؛ لأنَّ وليَّ اللّهِ لا يُهزَمُ أبدًا! ولكن قد يجفو عليه غِلاظُ القلوب فيَغلبِوه ويُحرِجوه، ولذلك فالتَّعبير بـ﴿مَغْلُوبٌ﴾ هنا فيه إشارةٌ إلى أنَّ قومَه كانوا غِلاظًا قُساةً، وهذه طباعُ الكَفرة. لأنَّ أصلَ (غلب) الغِلظةُ والسَّماكةُ، فأصلُه من قولهِم: رجلٌ أغلَبُ وامرأةٌ غَلباءُ؛ أي: غليظةُ الرَّقبة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ [عبس: 30]؛ أي: غِلاظًا مُمتلِئةً(4).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 334.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 18/ 343.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (غلب، هزم).

(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (غلب).

الزُّبُر والصُّحف والكتاب:

الـزُّبُــر هي المُـحـكَـمـةُ في كـتـابـتـهـا، والـصُّـحـفُ هي الأوراقُ المَكتوبُ فيها، والكُتُب باعتبار الجَمع فيها

الزُّبُر هي الكُتُبُ المَكتوبة بإحكام، وزَبَرَ: قَطَعَ، وقَيَّد. ومن ذلك: زَبَرْتُ الكتاب: كتبتُه كتابةً غليظةً، وكلُّ كتابٍ غليظِ الكتابة يُقال له: زَبورٌ. والزُّبْرَةُ: قطعةٌ عظيمةٌ مِنَ الحديد، جَمعُه زُبَرٌ[1]، فالزُّبُر تدلُّ على الكُتُب الجامِعة المُحكَمة، فيها معنى القوَّة والصَّلابة، كأنَّها ألواحٌ أو نصوصٌ مُقيَّدةٌ لا انفكاكَ عنها، وفي ذلك قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾، ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ١٩٦﴾ [الشّعراء: 196]. فدلالتُها الظّاهرة: الكتابات الموثَّقة السّابقة، ذات الطّابع المَجموع والمَحفوظ كالسِّجلّات[2].

والصُّحُف جمع (صحيفة)، والصَّحيفة: الّتي يُكتَبُ فيها. وأصلُ الصَّحيفة: المَبسوط من كلِّ شيءٍ. ومنه صحيفة الوجه. والمُصحَف: هو الجامِعُ للصُّحُف المَكتوبة. والجمعُ مَصاحِف[3]. وقد كانَت صُحُفُ الكتابة قديمًا ألواحًا طينيَّةً وعظامًا ذاتَ وجهٍ عريض وأحجارًا، كذلك ثمَّ رُقَعًا جلديَّةً، ثمَّ اتُّخِذَ الورقُ[4]. فالصُّحُفُ تدلُّ على الأوعية المادّيَّة للكتابة، بخلاف الزُّبُر الّتي تُشيرُ إلى قوَّة الكتاب نفسِه وغِلظَتِه في القَطع والإحكام.

والكُتُب جمعُ كتابٍ، مَصدر (كتَبَ)؛ أي: جَمَعَ وضَمَّ[5]. فالكُتُب تدلُّ على: الوحدةِ الجامعةِ الّتي تحتوي ما فُصِّلَ في غيرها. وكلُّ شيءٍ جَمَعتَ بعضَه إلى بعض فقد كتبتَه[6].

(1) الرّاغب، المفردات: (زبر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زبر).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صحف).
(4) محمد جبل المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صحف).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (كتب).
(6) الفيروزآباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (كتب).

المسُّ والإصابة:

المَسُّ يدلُّ على المُلامسةِ والوصولِ باليد أو بما في مَعناها[1]، فيدلُّ اللَّفظُ على الملامسة والاتِّصال والإمساك باليد، وقد يُستعمَلُ في أدنى درجاتِ ذلك، ولو من غير إيلامٍ أو نفوذٍ[2]. فالمسُّ يُعنَى بمُجرَّد الوصولِ أو التَّعرُّض، سواء خفيفًا أو مَعنويًّا. ومن ذلك ما جاء في الخبر: لم نجِدْ مَسًّا مِنَ النَّصَب، وهوَ أوَّل ما يُحَسُّ بِهِ مِنَ التَّعب[3].

وأمّا الإصابةُ فتدلُّ على التَّوجُّه نحو الشَّيء والاستقرار فيه[4]. والصَّوْبُ أيضًا: الإصابة، وتُستعمَلُ في الخير والشَّرِّ. ومنه المُصيبةُ والمُصاب[5]. فمدلولُ الإصابة: هي الوقوع على الشَّيء وقوعًا تامًّا مُؤثِّرًا؛ أي: بُلوغه بالتَّحقُّق والنَّفاذِ، وذلك يقتضي إصابةَ الهدَف المَقصود، مع إحداثِ أثرٍ واضحٍ (خيرًا أو شرًّا).

إذن من حيث القوَّة: فالمسُّ: أخَفُّ، قد يكون مُجرَّدَ مُلامسةٍ أو تعرُّضٍ، وأمّا الإصابةُ فأعمَقُ وأشَدُّ، تدلُّ على نُفوذٍ ووقوعٍ مُؤثِّر.

المـسُّ بحسب المُـلامـسَـة ولـو قلَّت، والإصابةُ أعمَقُ وأشدُّ

جهنَّم والنّار وسَقَر:

جهنَّمُ هي اسمٌ لنارِ اللّه الموقَدة، وهو لفظٌ يدلُّ على العُمق والظُّلمة وبُعدِ القَعر[6]، فجهنَّمُ هي الاسمُ الجامعُ لأشدِّ مَراتِب النّار وأعمَقِها، ولفظُها يشتملُ على الهَول والفظاعة والعُمقِ، فهي قَعرُ النّار ومُستقَرُّ الكُفّار.

جـهـنَّـمُ اسـمٌ لـلـنّـار بـعـيـدةِ القَعر، والـنّـارُ وصـفٌ لعنصرِ العذاب، وسَقَر دركةٌ مَخصوصةٌ مـن دَركـات جهنَّم

وأمّا النّارُ فتدلُّ على الإضاءة والاشتِعال المُلتهِب[7]، فهي تَصدقُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (مسّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (صوب).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جهنم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نور).

على الطَّبيعة المُحرِقة نفسِها الّتي يُعذَّب بها، سواءً أكانَت نارَ الدُّنيا أم نارَ الآخرة. فلفظُها يتوفَّرُ على صفة الإحراق والعذاب الحسّيِّ.

وسَقَر هو اسمٌ مِن أسماء النّار، وتدلُّ على شدَّة الحرِّ والإحراق، يُقال: سَقَرَتْهُ الشَّمسُ أي: لوَّحَتْهُ بحَرِّها؛ أي: غيَّرت جِلدَهُ وبشرَتَه، وأذابَته[1]. إذن ﴿سَقَر﴾ هو أحدُ أسماءِ دركاتِ جهنَّمَ الخاصَّة بالكافرين، تدلُّ على الحرارة الماحِقة الّتي تُسقِرُ الجِلدَ وتسوِّدُهُ؛ أي: تُغيِّرُ البشرةَ بالاحتراق.

الأشياعُ والأتباع:

الأشياعُ سندٌ في المَنهج، والأتباع تكثيرٌ في الطَّريق

الأشياع لفظٌ يُطلَقُ على الأتباع الّذين لهم قوّةٌ وانتشارٌ بالتَّبعيّة القائِمة بينهم، فهُم يَتماثلون ويَتشابهون في العصبيّة والقوّة والتَّحزُّب لِمَسلَكهم، وأصل ذلك مِنَ (الشّياع): الانتشار والتّقوية. يُقالُ: شاعَ الخبرُ؛ أي: كَثُرَ وقَوِيَ، وشاعَ القومُ: انتشروا وكثروا، وشَيَّعْتُ النّارَ بالحَطب: قوّيتها، والشّيعَةُ: مَن يَتقوّى بهم الإنسانُ، ويَنتشرون عنه.

والأتباعُ فمن (تبع)، وهو أصلٌ يدلُّ على التُّلُوِّ والقَفْوِ[2]، فالشَّيءُ يَتَّبعُ الشَّيءَ: إذا تلاهُ وجاء في قَفاهُ، فهو يدلُّ على مُطلَق اللُّحوقِ للغير في شيءٍ ما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ [غافر: 47]؛ أي: لَحِقْنا بكم في العمَلِ والمَصير.

الفعلُ والعملُ والصُّنع:

الفعلُ أوسَعُ الألفاظ، والعمَلُ أخَصُّ، والصُّنعُ أخَصُّ الجميع

الصُّنْعُ إجادةُ الفعل؛ فكلُّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنْعًا، ولا يُنسَبُ إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسَبُ إليها الفعلُ[3]، والعَمَلُ كلُّ فعلٍ يكونُ مِنَ الحيوان بقَصدٍ؛ فهو أخَصُّ مِنَ الفعل؛ لأنَّ الفعلَ

(1) الصّحاح، الجوهريّ، وابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سقر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (تبع).
(3) الرّاغب، المفردات: (صنع).

قد يُنسَبُ إلى الحيوانات الّتي يقعُ منها فعلٌ بغيرِ قَصد، وقد يُنسَبُ إلى الجمادات، والعَمَلُ قلَّما يُنسَبُ إلى ذلك، ولم يُستعمَلِ العَمَلُ في الحيوانات إلّا في قولهم: البقر العَوامِلُ، والعَمَلُ يُستعمَلُ في الأعمالِ الصّالحة والسَّيِّئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 277][1]. فالعملُ إيجادُ الأثر في الشَّيء، يُقالُ: فلانٌ يَعملُ الطّينَ خَزفًا، ولا يُقالُ: يفعل ذلك، لأنَّ فعلَ الشَّيء عبارةٌ عمّا وجَدَ في حالٍ كان قبلَها مَقدورًا، سواء كان عن سببٍ أو لا[2].

والفِعلُ التَّأثير من جهةِ مؤثِّر، وهو عامٌّ لِما كان بإجادةٍ أو غيرِ إجادة، ولِما كان بعلمٍ أو غيرِ علم، وقصدٍ أو غيرِ قصدٍ، ولِما كان مِنَ الإنسان والحيوان والجمادات؛ والعمَلُ مثله، والصُّنعُ أخَصُّ منهما، قال: ﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ﴾ [البقرة: 197]، ﴿وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا﴾ [النّساء: 30]، ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: 67][3].

المكتوب والمُستَطَر:

المكتوبُ يُؤكِّدُ علـى التَّدوين الجامِع للمَضامين، أمّا المُستَطَرُ فيزيد معنى الدّقّة

المكتوب: مِنَ الكُتُب: وهو الجَمْع، والكتابُ اسمٌ لِما كُتِبَ مَجموعًا[4]، والكتابةُ إثباتُ الكلام بحروفٍ مَجموعةٍ في النَّظم والخطِّ[5]، والمُستَطَرُ مِنَ السَّطر، وهو الصَّفُّ مِنَ الكتابة، والسَّطرُ من أيِّ شيءٍ هو الصَّفُّ منه. والسَّطرُ: الخطُّ والكتابةُ؛ لِمُراعاة استقامة الصَّفِّ فيهما غالبًا[6]. والمُستَطَر: اسمُ مَفعولٍ من (استطر) زِنةُ (افتعل) بمعنى مَكتوب، وزِنتُهُ (مُفْتَعَل) بضمِّ الميم وفتحِ العين[7].

(1) الرّاغب، المفردات: (عمل).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 109 - 110.
(3) الرّاغب، المفردات: (فعل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كتب).
(5) الرّاغب، المفردات: (كتب).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سطر).
(7) صافي، الجدول: 14/ 86.

والمُسْتَطَرُ يتضمَّنُ معنى (المكتوب) وزيادة؛ ففيهِ ترتيبُ المَكتوب صفًّا بعدَ صفٍّ، وسطرًا بعد سطر. ولذا فهو أخَصُّ مِنَ المَكتوب. إذ لا يَقتصرُ على إثباتِ المَضمون، بل يُشير إلى طريقة التَّسجيل المُنظَّمِ الّتي تُعطي معنَى الإحاطةِ والدِّقَّة في التَّدوين.

سُورَةُ الرَّحۡمَٰن

سُورَةُ الرَّحْمَٰنِ

التَّعريفُ العامُّ بالسّورة:

المكّي والمدنيُّ وعدُّ الآي:

الاختلافُ في سورةِ الرَّحمن بين القرآنِ المكّيِّ والمدَنيِّ

سورةُ الرَّحمن من السّورِ المختَلَفِ في نزولها اختلافًا كبيرًا، على ثلاثة أقوالٍ، **الأوّلُ:** أنَّها مكّيَّةٌ، وهو الرّاجح من أقوالِ العلماءِ، وعليه الجمهور[1]. **والثّاني:** أنَّها مكّيَّةٌ إلّا آيةً واحدَةً، وهي قوله ﷻ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾. **والثّالث:** أنَّها مدنيَّةٌ[2]، ولكنَّ الرِّوايات التي جاءت بأنَّها مدنيَّةٌ ضعيفةٌ[3].

وعددُ آياتِها حسبَ العَدَّينِ الكوفيِّ والشّاميِّ ثمانٍ وسبعون آيةً، وهو المُثبتُ في مصحف المدينة المنورة، وسبعٌ وسبعون حسبَ العَدَّين المدنيِّ والمكّيِّ، وستٌّ وسبعونَ حسب العَدِّ البصريِّ، وعدد كلماتها بالإجماع إحدى وخمسون وثلاثمئة كلمة[4].

ترتيب النُّزول وترتيب المصحف:

سورةُ الرَّحمنِ هي عَروسُ القرآنِ، ودُرَّةُ آلاءِ رحماتِهِ، وذروةُ إيقاعِهِ النَّغَميِّ

سورةُ الرَّحمنِ هي السّورةُ الخامسةُ والخمسون في ترتيبِ المصحفِ الشَّريفِ، وترتيبها في النُّزول الثّالثة والأربعون على القول بأنَّها مكيَّةٌ، وهو الرّاجح[5]، والثّامنة والتسعون على القول بأنَّها مدنيَّةٌ.

اسم السّورة ومناسَبَة تسميَتها:

تعدَّدت الأقوال في تحديد اسم السورة، وهي كما يأتي:

أوّلًا: لهذه السّورة المباركةِ اسمٌ ذائعٌ مشهورٌ، تكاد تقتصرُ عليه

(1) محمّد بن عبد الله الفالح، المكّيّ والمدنيّ من السّور والآيات، ص: 358.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 4/ 193، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 151، والسّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 69.

(3) عبد الرزاق حسين أحمد، المكّيّ والمدنيّ في القرآن الكريم: دراسة تأصيليّة نقديّة، ص: 264، 284.

(4) الدّاني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 237.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 228.

سورة الرّحمنِ هي سورةُ الرّحمة العامَّةِ

كتبُ التَّفسيرِ وعلومِ القرآنِ، وهو أنَّها سورة (الرّحمن)؛ لأنَّها ابتدأت بهذا الاسم الجليل من أسماء اللّه تعالى، وقد أجمع العلماء على هذا الاسمِ، وعلى أنَّه اسم تَوقيفيٌّ[1]، وقد جاءتِ الرِّواياتُ الكثيرة بهذا الاسم وحدَه[2].

وهذا الاسم شديدُ الدَّلالةِ على مقصدِ السّورَةِ، وهو بيانُ مظاهر الرَّحمةِ العامَّةِ، وتعدادُ نِعَمِه على خَلْقِه في الدّارَين؛ لأنَّ الرَّحمنَ سبحانه هو العامُّ الامْتِنانِ، فمقصودُها بالذّاتِ إثباتُ الاتِّصافِ بعُمومِ الرَّحمةِ ترغيبًا في إنعامِهِ وإحسانِهِ، وترهيبًا مِن انتِقامِهِ بقَطعِ مَزيدِ امتِنانِهِ، فدلَّت على شمولِ قُدرتِه بتَفصيلِ عَجائِبِ مَخلوقاتِهِ وبَدائِعِ مَصنوعاتِهِ في أُسلوبِ التَّذكيرِ بنَعمائِهِ، والامْتِنانِ بجَزيلِ آلائِهِ، على وجهٍ مُنْتِجٍ لِلعِلْمِ بإحاطَتِهِ بجَميعِ أوْصافِ الكَمالِ[3].

وكذلك فقد حفَلت السّورةُ بمعاني الهَيبة والجلال والرِّعاية والإكرام، والحفظ والإحكام والإتقان للخَلْق، وكُلُّها من لوازمِ اسم اللّهِ الرَّحمن سبحانه[4].

تعبيرُ (عروس القرآنِ) بين الاسميَّةِ والوصفيَّةِ

ثانيًا: وذَكَر بعضُ أهل التفسير أنَّ اسمها عروسُ القرآن[5]، فقد روى البَيْهَقيُّ في شُعَبِ الإيمانِ بسندٍ ضعيفٍ، عَنْ عَليٍّ ﵁ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: "لِكُلِّ شَيْءٍ عَروسٌ، وعَروسُ القُرْآنِ سورَةُ الرَّحْمَنِ"[6]، وقالوا: اسْمُها "عَروسُ القُرْآنِ" واضِحُ البَيانِ في بيان مظاهرِ الآلاء

(1) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 69، والسّيد إسماعيل، الكشف والبيان عن التّوقيفيّ من أسماء سور القرآن، ص: 89 - 93، وأسماء آل عابد، سورة الرّحمن دراسة تحليليّة موضوعيّة استنباطيّة، ص: 45 - 47.

(2) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (1398)، وأحمد في المسند، برقم: (3958)، وابن حبّان في صحيحه، برقم: (747).

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 139.

(4) عيسى إبراهيم ومحمود مهنّا، من دلالات أسماء السّور في القرآن، ص: 274.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 139، ومصاعد النّظر: 3/ 46، والخطيب الشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 156، والشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 129.

(6) رواه البيهقيّ، في شعب الإيمان، باب تخصيص سور من المفصّل بالذّكر، حديث رقم: (2265).

والنِّعَم؛ لأنَّها الحاويَةُ لِما فيهِ مِن حُليٍّ وحُلَلٍ، وجَواهرَ وكِلَلٍ، والعروسُ بجميعِ النِّعمِ والجَمالِ، والبَهجَةِ مِن نَوعِها والكَمالِ[1].

ولفظ العروسِ هاهُنا يحتملُ وجهين، أحدُهما: الزّينةُ، ومنه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ [يونس: 24]، فشَبَّهها بالعروسِ؛ إذا تَزَيَّنتْ بالحُليِّ والثّيابِ الفاخِرَة. وثانيهما: الزُّلفَى إلى المحبوبِ والوصولُ إلى المطلوب؛ وذلكَ أنَّه كلَّما كَرَّر قولَه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ كأنَّه يَجلو نِعمةً من نِعَمه السّابغةِ على الثَّقلينِ، ويُزَيِّنُها، ويَمُنُّ عليهم بها[2].

والحقُّ أنَّ هَذا الوصفَ لا يعدو أنْ يَكونَ ثَناءً عَلى هذه السّورَة، وليسَ هو مِنَ التَّسْمِيَةِ في شَيءٍ، كَما رويَ أنَّ سورَةَ البقرَةِ فُسطاطُ القُرآنِ.

وممّا يدفع أن يكون هذا الوصفُ اسمًا، ذِكْرُ اسمِ السّورةِ نفسِها في الحديث، والظّاهِر أن معنى: «لكلِّ شَيءٍ عروسٌ»، أي: لكلِّ جنسٍ أو نوعٍ واحِد من جنسِه يُزيِّنُه، تَقول العَرَب: "عرائس الإبل" لِكرائِمِها، فإنَّ العَروس تكون مُكَرَّمَة مُزَيَّنَة مَرْعيَّةً من جَمْع الأهْلِ بالخِدمَةِ والكرامة، ووَصْفُ سورَةِ الرَّحمن بالعروس، فيه تَشْبيهٌ لما تحتوي عَلَيْهِ من ذِكرِ الحَبرَة والنَّعيم في الجنَّة بالعروس في المَسَرَّة والبَذْخ، وهو تَشْبيهُ مَعْقول بمحسوسٍ، ومِنْ أمْثال العَرَب: لا عِطرَ بعد عَروس، أو هو تَشبيهٌ لِما كَثُر فيها مِن تَكْرير ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، بما يكثر على العَروس من الحُليّ في كلّ ما تَلبَسَه[3].

ورَدت تسميَة السورة بسورة الرَّفْرَف

ثالثًا: انفرد البقاعيُّ بالقولِ: إنَّ هذه السّورةَ الكريمةَ تُسمى بـ"سورةِ الرَّفرفِ"، فقال: "سورةُ الرّحمن ﷻ، وتسمّى: عروسَ القرآنِ، والرَّفرفَ"[4]، وقدِ اشتُقَّ هذا الاسم من قولِ اللّٰه تعالى في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 139.
(2) الطّيبيّ، الكاشف عن حقائق السّنن: 5/ 1677.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 227.
(4) البقاعيّ، مصاعد النّظر: 3/ 46.

السّورة: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾، وهذا هو الموضعُ الوحيدُ الّذي وردت فيه هذه المفردةُ، فوَجهُ التَّسميَة بها ظاهرٌ[1]، وإن كان من المستبعد أن يُعدَّ اسمًا للسّورةِ الكريمةِ.

المِحور العامُّ للسّورة:

التَّنويهُ بشأنِ القرآنِ لكونِهِ أعظمَ نِعَمِ اللهِ لهداية الخَلق

السّورةُ إعلانٌ عامٌّ في ساحةِ الوجودِ الكبيرِ بآلاءِ اللّهِ الباهرةِ في جميلِ صنعِه وإبداعِ خَلقه، وفي فيضِ نعمائِه، وفي تدبيرِه للوجودِ وما فيه، وتَوجُّهِ الخلائق كلِّها إلى وجهه الكريم، مع تحدّي الثَّقلين إن كانا يملكان التَّكذيبَ بهذِه الآلاءِ، فالسّورةُ تحثُّ على شُكرِ آلاءِ اللّهِ، وتحذِّرُ من تكذيبِها أو التَّغافلِ عنها، وقد دارَتْ سورةُ الرَّحمن على عدد من المحاورِ القرآنيَّةِ، وهي[2]:

أوّلًا: التَّعريفُ ببعض نِعَمِ اللّهِ تعالى على الثَّقلينِ، والدَّلالةُ على عظيم مُلْكِ اللّه، وتمامِ اقتدارِه بعمومِ رحمته، وسبقِها لغضبه.

ثانيًا: الحثُّ على توحيدِه سبحانه للفوز بما أعدَّ لعبادِه المتَّقينَ.

ثالثًا: جاءت موضوعاتُ السّورةِ بيانًا مفصَّلًا للرَّحمةِ الإلَهية بالإنسانِ، وما أسبغَه عليه ربُّه - تباركت آلاؤه - من النِّعَمِ الدُّنْيَويَّة والأخرويَّة، والمادّيَّةِ والرّوحيَّةِ، وقد بدأها جلَّ شأنُه بالنِّعمةِ الرّوحيَّة الكبرى التي أضفاها على الإنسانِ، بإنزالِه القرآنَ في أرفعِ صورةٍ للكتب السّماويَّة، كيفَ لا؟ وهوَ المِنَّةُ الكُبرى والنِّعمةُ العُظمى، والقانونُ المُهيمنُ على أهل الأرضِ، والنَّفخةُ الإلهيَّةُ في أرواحِهم، التي تُمِدُّهم إحساسًا بالوجود وشعورًا بالحياة، ولذلك قَدَّمه اللّه في الذِّكر على خَلق الإنسان؛ فبالقرآن يَتحقَّق للإنسان معنى

---

(1) أسماء آل عابد، سورة الرّحمن دراسة تحليليّة موضوعيّة استنباطيّة، ص: 48.

(2) المهائميّ، تبصير الرّحمن: 3/ 342، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 139، ومصاعد النّظر: 3/ 46، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 227، وشوقي ضيف، سورة الرّحمن وسور قصار، ص: 25، ومجموعة من المؤلّفين، التّفسير الموضوعيّ لسور القرآن: 7/ 545، ومحمّد الغزاليّ، نحو تفسير موضوعيّ، ص: 422، وعمر علي حسّان، دلالة أسماء السّور القرآنيّة على محاورها وموضوعاتها، ص: 510.

الإنسانيَّة، وأضافَ إليه نعمة خَلْقه الإنسانَ، وما رُكِّب في مَلَكاته من العِلم والتَّعلُّم.

التَّعريفُ ببعض نِعَمِ اللهِ تعالى على الثَّقَلَينِ

رابعًا: بَيَّنتِ السورة أنواعَ النِّعمِ الدُّنيويَّةِ المتَّصلةِ بالكونِ، والمُرتبطةِ بالحياةِ الإنسانيَّة، وما ينبغي أن يُكفل لَها من العدالةِ والرِّزقِ وأسبابِ العيشِ والانتفاعِ بكلِّ ما في البرِّ والبحرِ، وفي هذا كلِّه إشارةٌ إلى ارتباط الوجود بخالقه المبدع، واتِّصالِ الكون بصانِعِه العظيم، وقد فصَّلتِ السّورةُ الحديثَ عنْ قُدرةِ اللّه تعالى فيما أتقن من خَلْق، وما أبدعَ من إنشاء، كخَلْق الإنسان، وخَلْق الجانِّ، وتسييرِ الأفلاك، وتسخيرِ السُّفُن التي تَمْخَر عُبابَ البحر، وكأنَّها الجبالُ الشّاهقة عظَمةً وضخامةً.

إظهارُ كمالِ مُلكِ لله بقدرته على إفناء الخَلق وبقاء الحَيِّ ذي الجلالِ والإكرام

خامسًا: ذكرتِ السّورةُ أنَّ مصيرَ العالَم كلِّهِ إلى فناءٍ وزوالٍ، وذلك في سُرعة واضحةٍ؛ لتعظَ الخَلقَ بقدرته تعالى على إفنائهم، فيُصبحوا أثرًا بعد عينٍ، في طَيِّ التَّواري عن الوجودِ، ويتجلّى وجهُ الكريم الباقي بلا زوالٍ ولا انتهاءٍ، منفردًا بالبقاء والجلال والإكرام.

تحدّي الجِنِّ والإنسِ بالخروج من ملكوت ذي العِزَّةِ والجبروت

سادسًا: تسوق الآياتُ التَّحدّيَ لكلِّ من تُنازعه نفسُه إلى الخروج من ملكوت اللّهِ العظيم وسلطانه القديم، فليس لأحدٍ قدرةٌ على منازعة الجبّارِ سبحانَه، بل كلُّهم مأسورن لعَظَمة قدرتِه، وأيُّ محاولَةٍ للخروج عن ناموس الكونِ ومقاديره الإلهيَّة، محكومٌ عليها بالفشل الذَّريع، ومحفوفَةٌ بالوعيد الشّديدِ، بإرسالِ الشّواظ والنُّحاس، فلا يتمكَّنُ أحدٌ منهم منَ الانتصارِ على إرادَةِ اللّهِ وبالغِ قُدرَته وعظمته.

ذِكْرُ أهوالِ القيامَةِ للحَثِّ على توحيده تعالى، وبيانِ مصيرِ المجرمين

سابعًا: أعقبت السّورةُ بذِكر البعثِ والحساب، وفصَّلتِ القولَ في عقابِ الكافرينِ وما ينتظرهم من عذاب النّارِ، وكأنَّ الحقَّ ﷻ يريدُ أن يقضيَ فيهم على نوازعِ الكفرِ وآثامِه، ويَردَّهم إلى سواءِ السَّبيلِ؛ رحمةً بهم وعطفًا عليهم، ومن أجل ذلك كان تصويرُ السّورة لعذاب الجحيم داخلًا في آلاء اللّه ونِعَمِه، فعرضت لمشهد الانقلاب

الكونيِّ، وما يَعْقِبُه من مشاهد الحساب ومشاهد العذاب والثَّواب؛ فالمُجرمون الأشقياء تُجْمَع أقدامُهم إلى جباههم، ويُقذَفون على هذه الهيئة في النّار[1].

موضوعات السورة وخصائصها:

توجيهُ الخطابِ من أوّل السّورة إلى آخرها للجنِّ والإنس كِلَيْهما

تعدُّ سورةُ الرَّحمن ذات نسقٍ خاصٍّ ومَلحوظ، فهي إعلانٌ عامٌّ في ساحة الوجود الكبير، وإعلامٌ بآلاء اللّهِ الباهرة الظّاهرة في جميل صُنعِه، وإبداعِ خَلْقِه، وفي فيض نعمائه، وفي تدبيره للوجود وما فيه، وفيها تَوجيهٌ للخلائقِ كلِّهم إلى وجهه الكريم، وإشهادٌ عامٌّ للوجود كلِّه على الثَّقلَينِ: الإنس والجِنِّ، المخاطَبَينِ بالسّورة على السَّواء في ساحة الوجود، على مشهد من كلِّ موجود، مع تحدّيهما إن كانا يملكانِ التَّكذيب بآلاء اللّه، تحدّيًا يتكرَّر عقبَ بيانِ كلِّ نعمةٍ من نعمه التي يُعدِّدها، ويُفصِّلها، ويجعل الكونَ كلَّه مَعْرِضًا لها، وساحةَ الآخرة كذلك، ورنَّة الإعلان تتجلَّى في بناء السّورة كلّه، وفي إيقاع فواصلها تتجلّى في إطلاق الصّوت إلى أعلى، وامتدادِ التّصويت إلى بعيد، كما تتجلّى في المطلع الموقِظِ الذي يستثير التَّرقُّبَ والانتظار، لِما يأتي بعد المطلع من أخبار.

الخصائصُ الموضوعيّةُ للسّورة:

تـفـرُّدُ الـسّـورة بافتتاحِها باسمِ اللهِ (الرَّحْمَنِ)

أوَّلًا: تفرَّدت سورةُ الرّحمنِ على نحوٍ خاصٍّ بافتتاحِها الباهرِ باسم اللّهِ تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وهي السّورةُ الوحيدةُ في القرآن الَّتي افتُتِحتْ باسمٍ من أسماءِ اللّهِ، لم يتقدَّمه غيرُه، وهو الاسمُ الذي لا يشارُكه سبحانه فيه أحدٌ؛ إذْ هوَ اسم خاصٌّ باللّه وحدَه، وهو من أجملِ أسماءِ اللّه تباركتْ آلاؤُه، فهو يُشعِر العبدَ بلُطفِ اللّهِ، ورَحمتِه، ورأفتِه، وعَفوِه، وإحسانِه.

ثانيًا: تفرَّدَتْ سورةُ الرَّحمنِ بتَعدادِ آلاءِ اللّهِ الباهرة، ونِعَمِه الكثيرةِ

---

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 14/ 206 - 207.

تعداد الآلاءِ والنِّعَم في إيجازٍ وتدفُّقٍ وسلاسَةٍ مع توالي الاستفهام الإنكاريِّ

الظّاهرَةِ على العباد، التي لا يُحصيها عدٌّ، بإيجازٍ وتدفُّقٍ وسلاسَةٍ، وفي مقدِّمتِها نعمةُ تعليم القرآن، بوصفِه المِنَّةَ الكُبرَى على الإنسان، ورغمَ كثرةِ السّوَرِ الَّتي عدَّدَتْ نِعَمَ اللّهِ على عبادِه؛ فقد تفرَّدتْ سورةُ الرَّحمن بهذا التَّعدادِ المتتابِعِ، والاستفهامِ الإنكاريِّ المُتَوالي، فتناولتِ السّورةُ في البداية نِعَمَ اللّه الكثيرةَ، وبعدها دلائل القدرة الباهرة في تسيير الأفلاك، وتسخير السّفن الكبيرة، وبعدَها الاستعراض السَّريع لصفحة الكون المنظور، وفيها كذلك ذُكِرت نِعَمُ اللّه، التي منها النِّعَمُ الكبرى المستقِرَّةُ، ومنها الصُّغرى المُتجدِّدَةُ بتَجَدُّد الحياة الإنسانيَّة، فعلى كلِّ إنسان شكرُ هذه النِّعم؛ اعترافًا بها وإجلالًا لها، ووفاءً لحقِّ المُنعِم بها.

المُزاوجة بين أسلوب التَّرغيب والتَّرهيب بوتيرةٍ متسارعةٍ

ثالثًا: جاء استخدام أسلوبِ التّرغيب والتّرهيب بوتيرة متسارعةٍ مؤثّرةٍ؛ لأنّ اللّه سبحانه ذَكَر أهوالَ يومِ القيامة، وتحدَّث سبحانه عن حال الأشقياء المجرمين، وما يلاقونه من فزع، وبعدَها يذكر مشهدَ النّعيم للمتّقين، في شيء من الإسهاب والتّفصيل؛ إذ يكونون في الجنان مع الحور العين.

المَيلُ للألفاظِ الدّالَّةِ على الرّحمةِ

رابعًا: تتميّز سورةُ الرّحمن كذلك باشتمالها على كثيرٍ من الألفاظ الدّالَّةِ على الرّحمة، حتَّى إنَّها مع ذِكر عذاب المُجرمين تستعمل ألفاظًا أخفَّ وطأةً من الألفاظ التي سبق ورودُها في سورة القمر، ومن ذلك أنَّ سورةَ القمرِ تُعبِّرُ عن عذاب المجرمين في النّارِ بلفظِ السَّحْب في قولِه: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: 48]، وهو لفظٌ شديدٌ يوحي بالجَبروتِ والهيمنَةِ والاقتدارِ، التي هي سِماتُ سورةِ القَمَرِ، وذلك في مقابل لفظِ الطَّوافِ في سورةِ الرّحمنِ في قولِه: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾، وهو لفظٌ أخَفُّ وطأةً من لفظ ﴿يُسْحَبُونَ﴾ [القمر: 48]، حتَّى إنَّهُ يُستَعْملُ للتّعبيرِ عن نعيم أهل الجنَّةِ، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: 24].

كَثُر في سور الرحمن ذكر الألفاظ المختصَّة بالعَروسِ

خامسًا: تفرَّدتْ سورةُ الرَّحمنِ بألفاظٍ تُبرز أسبابَ وصفِها بأنَّها عروسُ القرآنِ، فقد كَثُرتْ فيها الألفاظُ المختصَّةُ بالعَروسِ، ومنها: ﴿وَرۡدَةٗ﴾، وهي السّورة الوحيدةُ التي ذُكرتْ فيه الوردةُ اسمًا، و﴿كَٱلدِّهَانِ﴾، أي ما يُدَّهَنُ به، وهو من لوازم الطّيبِ، و﴿يَطۡمِثۡهُنَّ﴾، وقد ورد مرّتين، وهي السّورةُ الوحيدةُ التي ذَكرتِ العلاقةَ بينَ الرّجل والمرأة في القرآنِ بهذا اللّفظِ صراحةً، وهو من الألفاظِ المختصَّةِ بالعروسِ البكرِ، و﴿ٱلۡيَاقُوتُ﴾، وهو من نفائسِ الأحجار الكريمةِ، وكذلك ورد ذِكرُ المَرجان مرَّتينِ؛ لمناسَبته للسّورةِ، وجاء اللّفظانِ لوصفِ جمالِ الحورِ العينِ، وهو أمرٌ يَليقُ بالعَروس دونَ غيرها، و﴿حِسَانٞ﴾ جمع حسناء، وقد وردت مرّتين في السّورة، وهي في موضعها الأول وصفٌ لجمالِ الحورِ العينِ، و﴿مَّقۡصُورَٰتٞ﴾، و﴿ٱلۡخِيَامِ﴾، و﴿رَفۡرَفٍ﴾، و﴿وَعَبۡقَرِيٍّ﴾، فهذه الألفاظُ كلّها من لوازم الفَرَح بالعروس وما يُعدُّ لها في بيتِ زوجيَّتِها ساعةَ البناءِ بها، فهذه الألفاظُ على هذا النَّحو لم تجتمع في سورة أُخرى سوى سورةِ الرَّحمن، التي وُصِفت بأنَّها عروسُ القرآن.

الخصائصُ الأُسلوبيَّةُ للسّورة:

المميّزات الأسلوبيَّة والمعجميَّة التي تفرّدت بها سورة الرَّحمن

تميَّزت سورةُ الرَّحمن بعدد من الأساليب والقضايا اللُّغويَّة الّتي ميّزتها، وأعطتها طابعًا خاصًّا، ومن أبرز هذه السِّمات الأسلوبيَّة:

أوَّلًا: تنتهي فاصلةُ السّورة كلِّها تقريبًا بالألف والنّون، ولا وجود لهذه الفاصلة في القرآن الكريم إلّا في آية واحدة أخرى هي قولُ اللّهِ تعالى: ﴿قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]، فهذه الفاصلةُ ممّا تتميَّزُ به سورةُ الرّحمن عن سورِ القرآنِ جميعًا، وهي تناسِب التَّثنية التي تسود السّورة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى جاءتْ كلّ الأفعالِ التي تنتهي بها بعضُ الآياتِ مرفوعةً، وهي: ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، التي تكرّرت إحدى وثلاثين مرَّةً، ثُمَّ مرورًا بضمير التّثنية في

الأفعال، في: ﴿يَلۡتَقِيَانِ﴾، و﴿يَبۡغِيَانِ﴾، و﴿تَنتَصِرَانِ﴾، و﴿تَجۡرِيَانِ﴾، وكذلك جاءت كلُّ الأسماء المثنّاةِ في فواصلِ الآياتِ مرفوعةً، وهي: ﴿جَنَّتَانِ﴾، و﴿زَوۡجَانِ﴾، و﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾، و﴿عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾.

ثانيًا: غايرَ نظمُ السّورةِ بينَ حرفي الفاصلةِ في أغلب الآياتِ، وبين حرفي الفاصلةِ في الآيتين اللّتَين تتكلّمانِ عن الله تعالى، فقدِ انتهتا بفاصلةٍ أخرى غير فاصلةِ (الألفِ والنّونِ)، وهي فاصلةُ (الألف والميم)، وبهذا ميَّزتِ السّورةُ بين اللّهِ سبحانه الواحدِ الأحدِ، وبين مخلوقاتِه الّتي صاغَها على أَساسِ التّثنيةِ، فجَعلتْ فواصلَ الآيات التي تتحدَّث عن تلك المخلوقات تنتهي بفاصلة تدلُّ على التّثنيةِ، أو تُشبهُها، بينما جَعلتْ فاصلتَي الآيتين اللّتَين تتحدّثان عنه تعالى شيئًا آخرَ، وهي فاصلةُ الألف والميم في قوله: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، و﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وهذه الفاصلةُ وإنِ اشتركت مع خمس فواصلَ أخرى، وهي: ﴿لِلۡأَنَامِ﴾، و﴿ٱلۡأَكۡمَامِ﴾، و﴿كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾، و﴿ٱلۡأَقۡدَامِ﴾، و﴿ٱلۡخِيَامِ﴾، فإنَّها تمايزت عنها بوصفها مصدرًا، في حين جاءت الفواصل الأخرى على صيغة الجمع.

ثالثًا: حرفُ النّونِ أكثرُ الحروف دورانًا في فواصلِ السّورةِ، بل هو الحرفُ المهيمنُ على إيقاع السّورةِ؛ إذ ورد في فواصلِ السّورة سبعين مرَّةً، يليه حرفُ الميمِ الذي ورد في فواصلها سبعَ مراتٍ، وقد تحقّق بين الحرفين انسجامٌ صوتيٌّ؛ لما بينهما من تقاربٍ في المخرجِ والصِّفةِ، فكان لهما أثرٌ كبيرٌ في نسقِ الكلام، واعتدالِ المقاطعِ؛ إذْ غلبَ على فواصلها التَّرنُّمُ، ولا يخفى ما لهذا التَّرنُّم من جَرْسٍ قويٍّ يخترقُ الآذانَ والأسماعَ، كما لا يخفى ما تميَّزت بهِ نهاياتُ الفواصلِ القرآنيَّة في السّورةِ من قوَّة الارتباطِ الدَّلاليِّ بما قبلها؛ إذْ تأتي تلك النِّهاياتُ تمهيدًا لما يليها في تمكُّنٍ واستقرارٍ، فهيَ مُطْمئِنّةٌ لا نافرةٌ ولا قَلِقَةٌ، فكانتْ مظهرًا من مظاهرِ الإعجازِ القرآنيِّ في السّورةِ[1].

رابعًا: هيمنت ظاهرةُ التَّثنيةِ بقوَّةٍ على مظاهرِ التَّعبيرِ في سورة الرَّحمن، فكانتْ بمنزلة عنصرٍ بنائيٍّ موحَّدٍ، ومبدأ عامٍّ ثابتٍ، وكانَ مجيئُها قصدًا ظاهرًا؛ لتكون عنصرًا محوريًّا

---

(1) زينب البغداديّ، الدّرس اللّغويّ في سورة الرّحمن، ص: 1340.

فاعلًا في العناصر الأخرى، ومُتحكِّمًا في بنيتها بصورةٍ تضمن تلاحُمَ أجزاء السّورةِ الكريمَةِ، وتحقِّقُ لها الانسجامَ على وفق نظام بنائيٍّ ملحوظٍ[1]، وذلك بدءًا من شيوع خطاب التَّثنية في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فالآية تكرَّرت إحدى وثلاثين مرَّةً، ثُمَّ مرورًا بضمير التَّثنية في الأفعال، في: ﴿يَلۡتَقِيَانِ﴾، و﴿يَبۡغِيَانِ﴾، و﴿تَنتَصِرَانِ﴾، و﴿تَجۡرِيَانِ﴾، بالإضافة إلى تثنيةِ الضَّمائرِ في: ﴿مِنۡهُمَا﴾، و﴿فِيهِمَا﴾، والتَّثنيةِ بالعطفِ في: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾، و﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ﴾، و﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ و﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾، و(الفاكهة) و﴿وَٱلنَّخۡلُ﴾، و﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ و﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾، و﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ و﴿ٱلۡجَآنَّ﴾، و(الطّينِ) و(النّارِ)، و﴿ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾، و﴿ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾، و﴿بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾، وانتهاءً بالتَّثنية بالياء والنّون والألف والنونِ في: ﴿ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾، و﴿ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾، و﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، و﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾، و﴿جَنَّتَانِ﴾، و﴿زَوۡجَانِ﴾، و﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾، و﴿عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾، و﴿ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾.

خامسًا: انفردت سورةُ الرّحمن بعدد من الألفاظ والصّيَغ والتَّراكيب، فلم تَرِد في غيرها، وهي: ﴿ٱلۡبَيَانَ﴾، وهو الموضع الوحيد الذي ذُكِر فيه البيان اسمًا، ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾ بمعنى العُشب، ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ بإسناد (يسجد) إلى ضمير المثنى، و﴿رَفَعَهَا﴾، و﴿تُخۡسِرُواْ﴾ من الإخسار، و﴿لِلۡأَنَامِ﴾، و﴿تُكَذِّبَانِ﴾ بإسناد الفعل (تُكذّبُ) إلى المثنى، وقد تكرّر إحدى وثلاثين مرَّةً، و﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾، و﴿مَّارِجٖ﴾، و﴿ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ مثنى (مَغْرِب)، و﴿يَلۡتَقِيَانِ﴾ بإسناد (يلتقي) إلى المثنى، و﴿يَبۡغِيَانِ﴾ بإسناد (يبغي) إلى ضمير المثنى، و﴿ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾، و﴿سَنَفۡرُغُ﴾ بإسناد (فرغ) إلى ضمير العظمة، و﴿ٱلثَّقَلَانِ﴾، و﴿تَنتَصِرَانِ﴾، و﴿كَٱلدِّهَانِ﴾، و﴿عَيۡنَانِ﴾ مُثَنًّى، و﴿تَجۡرِيَانِ﴾ بإسناد الفعل (تجري) إلى المثنّى، و﴿زَوۡجَانِ﴾ مُثنًّى، و﴿بَطَآئِنُهَا﴾، و﴿وَجَنَى﴾، و﴿يَطۡمِثۡهُنَّ﴾، وقد ورد مرّتين، و﴿ٱلۡيَاقُوتُ﴾، و﴿مُدۡهَآمَّتَانِ﴾، و﴿نَضَّاخَتَانِ﴾، و﴿حِسَانٞ﴾ جمع حسناء، وقد وردت مرّتين في السّورة، و﴿مَّقۡصُورَٰتٞ﴾، و﴿ٱلۡخِيَامِ﴾، و﴿رَفۡرَفٍ﴾، و﴿وَعَبۡقَرِيٍّ﴾.

وهي السّورة الوحيدةُ التي ذُكِرتْ فيها مادَّةُ (مرجن) عند من عدَّه من الرّباعيِّ، وقد وردت مرّتين في السّورة: ﴿وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾، والسّورة الوحيدةُ التي ذُكرتْ فيها مادَّةُ الفناء: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾، والسّورة الوحيدةُ التي ذُكرتْ فيها: ﴿ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وتفرّدت

(1) محمود سليمان، سورة الرّحمن بين التّثنية والتّكرير، ص: 17.

السّورة بذِكر مادَّةِ (نفذ)، فوردت فيها ثلاثَ مرّاتٍ، ﴿تَنفُذُواْ﴾ و﴿فَٱنفُذُواْ﴾، و﴿تَنفُذُونَ﴾، وهي السّورة الوحيدةُ التي ذُكرتْ فيها مادَّةُ (شوظ): ﴿شُوَاظٌ﴾، وهي السّورة الوحيدةُ التي ذُكِر فيها النّحاس اسمًا: ﴿وَنُحَاسٌ﴾، وهي السّورة الوحيدةُ التي ذُكرتْ فيها الوردةُ اسمًا: ﴿وَرْدَةً﴾، وهي السّورة الوحيدة التي جاء فيها لفظ (الجنّة) مثنًّى بمعنى النّعيم الأُخرويّ: ﴿جَنَّتَانِ﴾، وهي السورة الوحيدة التي وردت فيها ﴿بِٱلنَّوَاصِى﴾ جمعًا، وهي السورة الوحيدة التي جاءت فيها مادّة (فنن): ﴿أَفْنَانٍ﴾.

سادسًا: ورد الفعل المتعدّي إلى مفعول واحدٍ أكثرَ من الفعل اللّازم، وكان استعمال الأسماء المجرّدة في سورة الرّحمن أكثرَ من المزيدة، بالإضافة إلى ثرائها بالمشتقّات، كاسم الفاعل واسم المفعول والصّفة المشبّهة.

سابعًا: استُعمِلت الجملةُ الخبريّة بنسبة تفوق الجملة الإنشائيّة بصورة واضحة جليّة، فقد وردت الجملة الخبريَّة في ثمانية وأربعين موضعًا، بينما الجملة الإنشائيّة وردت في سبعة مواضع بخلاف آية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ والتي تكررت إحدى وثلاثين مرة؛ وذلك لغلبة الأسلوب التَّقريريِّ على السّورة، فقد هدفت إلى بيان مظاهرِ رحمة اللّه تعالى وتقريرها في أذهان المُتلَقّين، وترسيخِها في وجداناتهم، بطريقة تحثّهم على التّأمُّلِ والتَّدبُّر.

ثامنًا: برز أسلوبُ التّقديم والتّأخير على نحوٍ لافتٍ في السّورةِ، فورد في معظم آياتها، وخاصّة في الجُمَل الاسميّة منها، وتنوّعت أغراضُه؛ مثل التّشويق والاختصاص، والتّعظيم والتّهديد والتّخويف، وغيرها.

تاسعًا: يُؤكّدُ تحليل النَّسيج اللَّفظيِّ أنَّ سورة الرَّحمنِ حَفَلت بعددٍ من المفردات والحقول المعجميّة، والتّعبيرات التي اقتصر ورودُها على السّورِ المَكّيَّة(1)، ومنها: ﴿بِحُسْبَانٍ﴾، ﴿وَٱلْحَبُّ﴾، ﴿ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾، ﴿ءَالَآءِ﴾، ﴿بَرْزَخٌ﴾، ﴿ٱلْجَوَارِ﴾، ﴿ٱلْجَآنَّ﴾، ﴿قَٰصِرَٰتُ﴾، ﴿ٱلطَّرْفِ﴾، ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، ﴿وَرُمَّانٌ﴾.

(1) إبراهيم عوض، سورة الرّحمن: دراسة بلاغيّة وأسلوبيّة، ص: 6 - 11، وامحمّد صافي المستغانمي، برنامج "في رحاب سورة": مقدّمة سورة الرّحمن، تلفزيون الشارقة، والحلقات على موقع "يوتيوب" على شبكة المعلومات الدّوليّة.

مناسبةُ السّورةِ لما قَبْلَها:

سورةُ الرّحمنِ تُفَصِّلُ ما أُجْمِلَ في نهايةِ سورةِ القمرِ

يظهرُ وجهُ المناسبةِ بين سورةِ الرَّحمن والسّورةِ التي قبلَها، وهي سورة القمر، من عدَّة وجوه.

أولًا: أنَّ سورة الرَّحمن بأسْرِها بمنزلة الشَّرحِ والتَّفصيلِ لسورة القَمَرِ، ففي سورة القمرِ بيانٌ إجماليٌّ لأوصاف السّاعةِ وعذابِ النّارِ وهَولِها وحالِ المجرمين في سقر، وحالِ المتَّقين في جنّاتٍ ونَهَر، أمّا سورةُ الرّحمن؛ فهي تفصيلٌ على التّرتيب الواردِ في هذا الإجمالِ، وعلى النّحوِ المَذكورِ من وصف القيامةِ وهولِها، ثمّ النّارِ وأهلِها، ثمّ وصفِ الجنّة وأهلِها أصحابِ النّعيم، ولذا قال فيهم ربُّ العِزّة سبحانه: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾، وذلك هو عين التّقوى.

ثانيًا: أنّ سورة القمر اشتملت على ذِكر أنواعِ النِّقَمِ التي حَلّتْ بالأممِ السّابقةِ، مثل: قومِ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ وآلِ فرعونَ، وفي سورة الرّحمن التي تليها ورد ذِكرُ أنواعِ الآلاء والنِّعَم التي أنعم اللّهُ تعالى بها على النّاس جميعًا.

الانتقال بالإنذار من خصوصِ مشركي العرب إلى عمومِ الإنسِ والجِنِّ

ثالثًا: كذلكَ فإنَّ المتأمّل لسورةِ القمرِ يَلْحَظ بجلاءٍ أنَّ الخطابَ والإعذارَ فيها يتَّجهُ إلى بني آدمَ وحدَهُم دون الجنِّ، بل إلى مشركي العربِ منهم على وجهِ التّحديدِ؛ فأُتبعتْ بسورةِ الرَّحمنِ تَنْبيهًا للثّقلينِ وإعذارًا إليهم وتقريرًا للجنسِ، على ما أودع اللّهُ تعالى في العالم من العجائبِ والبراهينِ السّاطعة، فتَكَرَّرَ فيها التّقريرُ والتَّنبيهُ بقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ خطابًا للجنسين، وإعذارًا للثَّقَلينِ؛ فبان اتِّصالُها بسورةِ القمر أشدَّ البيانِ[1].

رابعًا: ختم النّظم الجليلُ سورةَ القمرِ ببيانِ صفتَين من صفاتِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 335، وابن الزّبير الغُرناطيّ، البرهان في تناسب سور القرآن، ص: 328، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 139، ومصاعد النّظر: 3/ 46، والسّيوطيّ، تناسق الدّرر في تناسب السّور، ص: 136، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 96.

بعد بيانِ المُلْكِ والاقتدارِ يأتي بيانُ الرَّحمةِ والإنعامِ

اللّهِ تعالى، تَدُلّانِ على الهيبةِ والرَّهبةِ والعَظَمةِ والجبروتِ، وهما المليك والمقتدر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: 54 - 55]، ثمّ ابتدأتْ سورةُ الرَّحمنِ بصفةٍ أخرى من صفات اللّهِ تعالى تَدُلُّ علَى الرَّحمةِ واللّطف والرَّحَموتِ، في قولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، ثُمَّ بيانِ مظاهرِ رحمةِ اللّه تعالى وفضلِه على الإنسانِ، وفي الكونِ كلِّه، سَمائِه وأرضِه، فهو تعالى عزيزٌ مقتدرٌ بالنّسبة للكفّار، ورحمنٌ مُنْعِمٌ غافرٌ للمتّقينَ الأبرارِ، فابتدأتِ السّورةُ بقولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، فكأنَّهُ جوابٌ لسؤالٍ: مَنِ المُتَّصِفُ بالمُلك والاقتدار؟.

البيانُ القرآنيُّ هو السّبيلُ الوحيدُ إلى مقعدِ الصِّدقِ عند اللهِ

خامسًا: قَدَّمَ النَّظمُ القرآنيُّ في السّورة نعمةَ تعليم القرآنِ على غيرها من النِّعَم والآلاءِ، وفائِدَتُه الإيصالُ إلى مقعدِ الصِّدقِ؛ لأنَّ القرآنَ هوَ السَّبيلُ الوحيدُ لبيانِ ما يرضاه اللّهُ - تباركت آلاؤه - للعمل به، وبيانِ ما يُسخِطُه، ويُغْضِبه لتَحاشيه وتَجَنُّبِه.

تناسبُ المضمون بين سورتَي القمر والرَّحمن:

تعدادُ النِّقمِ وتعدادُ النِّعمِ، مع التّعقيبِ ببيانِ النُّذُرِ لمن كفرَ

سادسًا: من أوجه التّناسب بين سورتي القمرِ والرّحمنِ تناسُبُ المضمون بينهما، ومنه التّعدادُ وتكرارُ التّعقيب، فقد عدَّدتْ سورةُ القمرِ ضروبَ النِّقم التي نزلت بالأمم، وعقَّبتْ بعد كلّ منها بالدّعوةِ إلى الاعتبار بالآيات والنّذر بقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ [القمر: 16]، وكذلك فقد عدَّدَتْ سورةُ الرَّحمن النِّعمَ الدّينيَّةَ والدّنيويَّةَ في النَّفسِ والآفاقِ، وعقبتْ بعد كلٍّ منها بإنكار الإخلالِ بواجب الشّكر بقولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، كما اشتركتا في ذِكر أهوالِ يوم القيامَةِ وعذابِ أهلِ النّارِ، ونعيمِ أهلِ الجَنَّة.

الامتنان بنعمةِ تيسيرِ القرآنِ وتعليمِهِ

سابعًا: اشتركتْ سورتا القمرِ والرّحمنِ في التّذكيرِ بنعمةِ القرآنِ العظيم، فتكرَّرَ في سورة القمرِ ذِكرُ تَيسيرِ القرآنِ للذِّكرِ، والحثُّ على التَّفكُّرِ في هذه النّعمة العظيمَةِ، وابتدأتْ سورةُ الرَّحمنِ

بذِكرِ نِعمةِ تعليمِ القُرآنِ، وقَدَّمتْها على سائرِ النِّعمِ الأُخرى لعظيم مكانتها وأثرها في هداية الخَلْقِ إلى الحقِّ.

المعجزة المادّيَّةُ الأُخرويَّةُ بعد المعجزةِ المادّيَّةِ الدُّنيويَّةِ

ثامنًا: ورد في سورة القمر ذِكر معجزةٍ مادّيَّةٍ دنيويَّة، وهي انشقاق القمر في قولِه تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ①﴾ [القمر: 1]، واحتفت سورة الرَّحمن بذِكر معجزةٍ مادّيَّةٍ أُخرويَّةٍ، وهي انشقاقُ السّماءِ كذلك[1]، في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾؛ لبيانِ سعةِ اقتدارِ اللّهِ ﷻ، فكما هو سبحانه قادرٌ على إرسال المعجزات في الدُّنيا، فإنَّ إحداث المعجزات أهونُ عليه في الآخرة.

علاقة مطلع السّورة بخاتمتها:

تمجيدُ اللهِ ﷻ في مطلَعِ السّورةِ ومختَتَمِها

تاسعًا: افتتحَ النَّظمُ سورةَ الرَّحمنِ باسمٍ عظيمٍ من أسماءِ اللّهِ ﷻ هو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، واختَتَمَها كذلك ببعضِ صفاتِ اللّهِ تعالى، فقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾؛ لبيانِ صفاتِ اللّهِ الكبيرِ المُتعالِ، وحَثًّا للخَلْقِ أجمعينَ على توحيدِه وتعظيمِه، والسَّيرِ في طريقِ مرضاتِه، والابتعادِ عن سَخَطِهِ وعقوبتِه.

التَّكرار وأقسامُه وفوائدُه البلاغيَّةُ في سور القرآن:

لَمّا كان التَّكرار أحدَ الأساليبِ اللُّغويَّة التي لا يخلو منها نصٌّ أدبيٌّ، فقد عرَّفَه البلاغيّونُ بأنَّه: "تكريرُ كلمَةٍ فأكثر باللَّفظ والمعنى لنُكتَةٍ"[2]، وقسَّموه إلى نوعين:

الأوَّلُ: التَّكرارُ المفيدُ، فهو لا يدخل تحتَ باب التَّكرار إلّا من جهة اللَّفظ، وقد يدلُّ على معنًى واحدٍ، والمقصود به غرضٌ واحدٌ، وهو الذي يُرادُ به التَّوكيدُ، وقد يوجد في المعنى دونَ اللَّفظِ، ويدلُّ على معنيينِ مختلِفَينِ، ويُرادُ به التَّقريرُ.

(1) امّحمّد صافي المستغانمي، برنامج "في رحاب سورة": مقدّمة سورة الرّحمن.
(2) ابن معصوم، أنوار الرّبيع في أنواع البديع: 5/ 345.

والنَّوع الآخرُ: التَّكرارُ غيرُ المُفيد؛ وذلك إذا لم يُضِف شيئًا جديدًا من جهة الدَّلالةِ على مُرادِ المتكلِّم، فإذا كان على هذا النَّحو؛ فهو من التَّكرار المعيبِ(1).

وثمَّةَ فوائدُ بلاغيَّةٌ لا تكاد تُحصى للتَّكرار المُفيدِ في النُّصوص الأدبيَّة، منها: التَّوكيدُ، والتَّلذُّذُ بذِكرِ المُكَرَّر، وإظهارُ التَّوجُّع والتَّحسُّرِ والمبالغةُ فيهما، والتَّشويقُ والاستعذابُ، والازدراءُ والتَّهكُّم، والوعدُ والوعيدُ، وتذكُّرُ ما قد بَعُدَ بسبب طول الكلام، وزيادةُ الاستبعادِ، والتَّفخيمُ، والتَّعظيمُ، والاستغاثةُ، والتَّقريرُ والتَّوبيخُ، والتَّشهير وشِدَّةُ التَّوضيع بالمَهجوِّ، والتَّنويهُ بالمُكَرَّر والإشادَةُ به، وإظهارُ اللَّوعة والصَّبابَةِ، والتَّنويهُ بذِكر الصَّنيعِ، والمبالغةُ في الشَّيءِ والحثُّ والحضُّ عليه(2).

مناطُ البلاغةِ في التَّكرار في بعضِ سور القرآن:

بلاغة تَكرار الجُمَل والعبارات من سِمات السّوَر المكيَّة

احتُفي بالتَّكرارِ في بعضِ المواضعِ من السّورِ الكريمَة، فجاءَ للحَثِّ على العِظَةِ والاعتبارِ والتَّأمُّلِ في سورة الشُّعراءِ وسورةِ القمرِ، وللحثِّ على المواظبةِ على ذِكْرِ اللّٰهِ، كتكرير كلمةِ التَّوحيد في سورةِ آل عمرانَ، ولتقرير وحدانيَّته واقتدارِه ومُلكه للسَّماوات والأرضِ في سورة النِّساءِ، ولتخصيص بعضِ المخاطَبينَ دونَ بعضٍ في سورة فاطر، وللإيحاء بالرَّهبَةِ والتَّخويفِ في سورة المرسلاتِ، وللإيحاء باليأس في سورة (الكافرون)، وللتّعجيب في سورة المدَّثِّر، وغيرِ ذلك من المعاني الدَّقيقة والفوائد الشَّريفةِ، فالحقُّ الذي لا مراءَ فيه أنَّ التَّكرارَ في القرآنِ إنَّما كانَ لمعانٍ جَزْلةٍ، ومقاصدَ سَنيَّةٍ، واشتملَ على أسرارٍ ورموزٍ، مَن أحاطَ بها؛ فقدْ أوتيَ منَ البلاغةِ مفاتيحَ الكنوزِ(3).

---

(1) محمود السّيد شيخون، أسرار التّكرار في لغة القرآن، ص: 9 - 10، وص: 32 - 36.

(2) المرجع السابق، ص: 22 - 31، والزّركشيّ، البرهان: 3/ 9.

(3) العلويّ، الطّراز: 2/ 179، ومحمود السّيّد شيخون، أسرار التّكرار في لغة القرآن، ص: 52 - 62.

وقد تكرَّرت آيةُ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في سورة الرَّحمن إحدى وثلاثين مرَّةً، وهو ما أكسبَها إيقاعًا خاصًّا، وسمتًا مُمَيَّزًا؛ وذلك بسبب كثافة التَّكرار مع صِغَر حجم السّورة نسبيًّا، ولكنَّ سورة الرَّحمن لم تنفرد تمامًا بهذه الظّاهرة، بل هي تشترك فيها وعددٍ من السّورِ المَكّيَّةِ، مثل سور: القمر، والمرسلات، والصّافّات، والشُّعراء، والأعراف، وهي ظاهرة لا توجد في السّور المدنيَّة تقريبًا، من ذلك:

التَّكرار في سورة القمر:

تتَّسم سورةُ القمر المكّيَّةُ، التي تسبق سورةَ الرَّحمن مباشرةً، بظاهرة التَّكرار نفسها، فقد وردت فيها آيةٌ واحدةٌ بالألفاظ نفسها تقريبًا في ستةِ مواضعَ، وهي قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٦﴾ [القمر: 16] التي تكرَّرت بنصِّها ثلاثَ مرّاتٍ في الآيات: [18، 21، 30]، وبعبارة قريبة منها في قوله: ﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ ٣٧﴾ [القمر: 37]، التي تكررت في الآية [39]، بالإضافة إلى تكرار قولِه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧﴾ [القمر: 17] [القمر: 22][القمر: 30][القمر: 40]، وقد أدّى توالي الآيتين في أغلب المواضع إلى تكثيف الشُّعور بجمال أسلوب التَّكرارِ في السّورةِ الكريمةِ.

التَّكرار في سورة المرسلات:

كان التَّكرار ظاهرةً لافتة في سورةٍ مكّيَّةٍ أخرى، قريبةٍ منهما في ترتيبِ المصحف، وهي سورة المُرسلات، التي تكرَّرت فيها آيةٌ واحدةٌ عشرَ مرّاتٍ على نحو قريبٍ جدًّا من الإيقاع التَّكراري في سورة الرَّحمن، وهي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ [المُرسلات: 15]، فتكرَّرت في الآيات: [19، 24، 28، 34، 37، 40، 45، 47، 49]، ومن اللّافت للنَّظر أنَّ هذه الآيةَ نفسَها قد وردت بنصِّها تقريبًا في سورتين مكّيَّتين كذلك، هما سورةُ الطّور في الآية: [11]، وسورة المطفِّفين في الآية: [10].

التَّكرار في سورة الصّافات:

تتَّسم سورةُ الصّافّات المكّيَّةُ بالسَّمةِ نفسِها، فقد تكرَّرت فيها آيتان بالألفاظ نفسها تقريبًا، وهي قوله: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ٨٠﴾ [الصّافّات: 80]، فتكرَّرت أربعَ مرّاتٍ بالعبارة نفسها تقريبًا في الآيات: [105، 110، 121، 131]، وقد وردت آية: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿٨١﴾ [الصافات: 81] ثلاثَ مرّاتٍ في الآيات: [81، 111، 132]، وبضمير المثنى في الآية: [122]، وقد أسهم تكرارُ هاتَين الآيتَين وتواليهما غالبًا في تكثيف ظاهرة التَّكرار في السّورة الكريمة، وكذلك تكرَّرت هاتان الآيتان، بكلِّ ألفاظِهما أو ببعضها فحسب، في عدد من المواضع الأُخرى، كلُّها في سورٍ مكّيَّة.

التَّكرار في سورة الشُّعراء:

جاءت ظاهرة التَّكرار لافتةً للانتباه في سورة الشُّعراء المكّيَّة، فقد تكرَّرت فيها آيتان متواليتان ثماني مرّاتٍ، وهما قولُه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء: 8 - 9]، وذلك في الآيات: [8 - 9]، و[67 - 68]، و[103 - 104]، و[121 - 122]، و[139 - 140]، و[158 - 159]، و[174 - 175]، و[190 - 191].

التَّكرار في سورة الأعراف:

جاء التَّكرار في سورة الأعراف المكّيَّةِ على نحوٍ أخفَّ كثيرًا من السّور السّابقة، ولكنَّه كذلك لافتٌ للانتباه، فقد تكرَّرت عبارةُ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف: 66] مرَّتين في الآيتين: [66، 90]، وهي العبارة التي تكرَّرت بنصِّها في سورتين مكّيَّتين، وذلك في الآية: [27] من سورة هود، والآية [24] من سورة (المؤمنون)، وكذلك تكرَّرت في سورة الأعراف عبارةُ: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ [الأعراف: 75] في الآيتين: [75 - 88]، وهو ما يُشير بجلاءٍ إلى أنَّ تكرار الآيات بنصِّها أو بما هو قريب منها قُربًا شديدًا نمطٌ غالبٌ على السّور المكّيَّةِ، وهو ما يرجِّح أنَّ سورة الرَّحمن مكيَّةٌ.

تنوُّع الأقوالِ في توجيه تكرارِ قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾:

القولُ الأوَّلُ: أنَّ التَّكرارَ للتَّأكيد والتَّذكير والمبالغةِ في التَّقرير، واتِّخاذِ الحُجَّة على كلِّ نعمةٍ، وزيادةِ الإفهام، والتَّنبيهِ وطردِ الغَفْلة، فقد أشار ابنُ قُتَيبة، ومن بعده جمهورُ العلماءِ(1) إلى أنَّ مردَّ الحِكمة في تكرارِ قولِه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أنَّه عدَّدَ في هذه السّورةِ نعماءَه، وأذْكَرَ عبادَه آلاءَه، ونَبَّهَهم على قدرته ولُطفِه بخَلقِه، ثُم أَتْبَعَ ذِكرَ كُلِّ خَلَّةٍ وصَفَها بهذِه الآيةِ، وجَعَلَها فاصِلةً بينَ كُلِّ نِعمتَينِ؛ ليُفَهِّمَهُم النِّعَم،

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 239 - 240، والعسكريّ، الصّناعتين، ص: 194، والشّريف المرتضى، أمالي المرتَضى: 1/ 123.

ويُقَرِّرَهم بها، وهذا كقولِكَ للرَّجلِ الذي أحسنتَ إليهِ دهرَك، وتابعتَ عنده الأيادي، وهو في ذلكَ يُنْكِرُك، ويَكفرُك: ألَمْ أُبَوِّئْكَ منزلًا، وأنتَ طريدٌ؟ أفتُنْكِرُ هذا؟ ألَمْ أَحْمِلْك، وأنت راجلٌ؟ أفتُنْكِرُ هذا؟ ألَمْ أُحُجَّ بكَ، وأنتَ صَرورَةٌ؟ أفتُنْكِرُ هذا؟ فعلى هذا يكون تكرارُ الآيةِ مشتمِلًا على فوائدَ مجتمعةٍ، وهي: التَّأكيدُ والتَّذكيرُ والمبالغةُ في التَّقرير، واتِّخاذُ الحُجَّة على كلِّ نعمة، وزيادةُ الإفهام، والتَّنبيهُ وطَردُ الغَفْلة؛ وذلك لاختلافِ النِّعم، فعقَّبَ بالتَّوبيخِ على إنكارِ كلِّ واحدةٍ منها، فإنَّ اللّهَ تعالى إنَّما أوردَها في خطابِ الثَّقَلَين: الجنِّ والإنس، فكلُّ نعمةٍ يَذْكرُها، أو ما يؤول إلى النِّعمة، فإنَّه يُردِفُها بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ تقريرًا للآلاء، وإعظامًا لحالها، فالقرآنُ إنَّما نزلَ بلسانِ العربِ على عادَتِهم في كلامِهم، ومن عادَتِهم أنَّهم إذا ذَكروا النِّعمَ على إنسانٍ، يُكَرِّرون التَّنبيهَ على الشُّكرِ، أو ذِكر التَّوبيخ عند عدمِ الشُّكرِ، واللّه تعالى عَدَّ النِّعمَ والمواعظَ والنُّذُرَ في هذه السّورة، وذَكَر عند كلِّ واحدةٍ منها هذه الكلمةَ؛ لِئَلّا يَنْسَوا شُكْرَها، ويعرفوا إحسانَ اللّه عليهم، ويجدِّدوا الحمدَ عليها[1].

القولُ الثّاني: ليست الآية من قبيل التَّكرار، بل هي لتأسيس البيانِ في كلِّ موضعٍ على حِدَةٍ، فقد أشار فريقٌ مُعتَبَرٌ من العلماء[2] إلى أنَّ ورودَ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرَّةً في السّورةِ عَقِبَ النِّعم والإنذار والتَّخويف، ليسَ من قَبيل التَّكرارِ، بل هو بيانٌ لكلِّ نعمةٍ أوإنذارٍ أو تخويفٍ على حِدَةٍ؛ لأنَّ القولَ بأنَّ الآية في كلِّ مرَّةٍ وردتْ فيها بعد المَرَّةِ الأولى من قبيل التَّأكيدِ (وهو مقتضَى ظاهر اللّفظ)، يَلْزَمُ منه أن يكونَ التَّأكيدُ قد تَكَرَّر أكثرَ من ثلاثِ مَرّاتٍ، والعربُ لا تزيد في التَّأكيدِ على ثلاثٍ، فيُحمَلُ (الآي) في كلِّ موطنٍ على ما تقدَّمَ قبلَ لفظِ ذلك التَّكذيب، ويكونُ التَّكذيبُ ذُكِرَ باعتبارِ ما قبلَ ذلكَ اللَّفظ خاصَّةً، فلا يتكرَّرُ منْها لفظٌ، فلا تأكيدَ البتَّةَ في السّورةِ كلِّها، وكذلكَ القولُ في سورة المُرسلاتِ، فإنَّ ظاهرَ تكرير قوله: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ [المرسلات:

(1) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 259/ 18، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 149 - 151، والسّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 5/ 340، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 226، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 159، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 18/ 311، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 293، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 96، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 206، وعبد العظيم المطعني، خصائص التّعبير القرآني وسماته البلاغيّة: 1/ 331.

(2) القرافيّ، شرح تنقيح الفصول، ص: 113، والزّركشيّ، البرهان: 3/ 9، والسّيوطيّ، الإتقان: 5/ 1650، ونسبه للعزّ بن عبد السّلام وغيره، والشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب، ص: 228.

15]، أنَّه تكرارٌ وتأكيدٌ، فيَلزمُ منه الزّيادةُ على الثَّلاثِ، فيُحملُ على المُكَذِّبينَ بما ذُكِرَ قبلَ كلِّ لفظٍ على حيالِه، فيكونُ الجميعُ تأسيسًا لا تأكيدًا[1]، وسمّى بعضُهم هذا الضَّربَ من التَّكرار بالتَّرديد، وهو ما كانَ لتَعدُّدِ المتعلِّق بأن يكون المُكَرَّرُ ثانيًا مُتَعَلِّقًا بغيرِ ما تعلَّق بهِ الأوَّلُ، فكُلُّ واحدةٍ من المرّاتِ التي وردت فيها الآيةُ تَتَعَلَّقُ بما قبلها، ولذلكَ زادتْ على ثلاثةٍ، ولو كان الجميعُ عائدًا إلى شيءٍ واحدٍ لما زادَ على ثلاثةٍ؛ لأنَّ التَّأكيد لا يزيد عليها[2].

القولُ الثّالث: الجمع بين التَّأكيدِ والتَّأسيس، وقد ناقش البهاءُ السُّبكيُّ إمكانَ الجَمعِ بين القولين، فقال: "فإنْ قُلتَ: إذا كانَ المُرادُ بكل ما قبلَه؛ فليسَ ذلك بإطنابٍ، بَل هي ألفاظٌ، كُلٌّ أريدَ به غيرُ ما أُريدَ بالآخرِ، قلتُ: إذا قُلنا: العِبرةُ بعموم اللَّفظِ، فكلُّ واحدٍ أُريدَ به ما أُريدَ بالآخرِ، ولكنْ كُرِّرَ؛ ليكونَ نَصًّا فيما يَليهِ، وظاهرًا في غيرِه، فإنْ قلتَ: يلزمُ التَّأكيدُ، قلتُ: والأمرُ كَذلِكَ، ولا يَرِدُ عليه أنَّ التَّأكيدَ لا يُزادُ بهِ عن ثلاثةٍ؛ لأنَّ ذلكَ في التَّأكيدِ الذي هو تابعٌ، وأمّا ذِكرُ الشَّيءِ في مَقاماتٍ متعدِّدةٍ أكثرَ من ثلاثةٍ؛ فلا يمتنعُ"[3]، وهذا القولُ هو الأقربُ للصَّوابِ، لوُرودِ الشَّواهدِ الكثيرةِ من كلامِ العربِ على وقوع التَّكرارِ أكثرَ من ثلاث مرّاتٍ في مواضعَ كثيرةٍ من كلامهم، فيكون الورودُ في كلِّ موضعٍ تأسيسًا لهذا الموضعِ، ويكونُ التَّكرارُ للتَّأكيد، باعتبارِ النَّصِّ بأكمله.

تـوافـق تـكـرار (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ) وعدد أبـواب الـجـنَّـةِ والنّارِ

من عجائبِ الموافقاتِ في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أنَّ ثمانية منها ذُكِرت عقيب آياتٍ فيها تَعدادُ عجائبِ خَلْقِ اللهِ وبدائعِ صُنعه، ومبدأ الخَلْقِ ومَعادهم، ثمَّ سبعةٌ

(1) القرافيّ، شرح تنقيح الفصول، ص: 113، والشّنقيطيّ، دفع إيهام الاضطراب، ص: 228.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 5/ 1650.
(3) بهاء الدين السّبكيّ، عروس الأفراح، ص: 609.

منها ذُكِرت عَقيب آياتٍ فيها ذِكْر النّارِ وشدائدِها على عَدَد أبواب جهنَّم، وحَسُن ذِكْر الآلاءِ عقيبَها؛ لأنَّ في صرفها ودفعها نِعمًا توازي النِّعم المَذكورة، أوْ لأنَّها حَلَّت بالأعداءِ، وذلك يُعدُّ من أكثر النِّعماءِ، وبعد هذه السَّبعة ثمانيةٌ في وصف الجِنان وأهلِها على عدد أبواب الجنَّة، وثمانيةٌ أُخرى بعدَها للجَنَّتَين اللَّتَين دونها، فمنِ اعتقد الثَّمانية الأولى، وعَمِلَ بموجبها؛ استحقَّ كلتا الثَّمانيتَين من اللّه، ووقاه السَّبعةَ السّابقة[1].

الأثَـرُ النَّـفسيُّ المَهيبُ في تكرارِ قولِه (فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ)

كان من شأنِ ترديد قولِ اللّهِ تباركت آلاؤه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أنْ يقيمَ الأُذنَ على هذا النَّغم، ويربطَها به، فإذا تكرَّرت هذه الآيةُ بعد ذلك؛ لم تجدِ الطَّريقَ إلى الأُذنِ مسدودًا عليها، أو مُستوحِشًا منها، بَل إنَّ الأُذنَ لتَتَفَتَّحُ لها، وتدعوها إليها، وتجذبُها نحوَها، فقد سبقَ هذا التَّكرارَ المُنتظرَ تكرارٌ آخرُ، يمهِّدُ له، ويُهيِّئ السَّمعَ واللِّسانَ لاستقبالِه، وذلك بأن تَكرَّرت كلمةُ (الميزان) ثلاثَ مرّاتٍ في ثلاث فواصلَ متتابعةٍ، دون أن يفصل بينها فاصلٌ آخرُ، ولا شَكَّ أنَّ هذا تمهيدٌ بليغٌ للتَّكرارِ الذي سيبدأُ بعد هذه الفواصل مباشرةً بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فيتلقّى المُتَلَقّي من خلالها درسًا عُلْويًّا من ينابيع التجليات البيانيَّة، أمّا المَعنى الذي وراءَ هذا النَّظم، فهو أروعُ وأعجبُ، إنَّه جامعةُ معارفَ، وبحارُ لآلئَ ودُررٍ، لا تزالُ أبدَ الدَّهرِ تُغري الطّالبين لها، الغوّاصين في بحارِها؛ ليَملؤوا أيديَهم منها، ويُزيّنوا جيدَ الزَّمنِ بما يَنظمون من جواهرِها[2].

بلاغةُ ترتيبِ الآلاءِ في السّورة:

في كون الآلاء ثمانيةً إشارةٌ إلى أنَّها سببٌ إلى الجنَّة ذاتِ

(1) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 231، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 1/ 447 - 448، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 498.

(2) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 652 - 657.

الأبواب الثَّمانيةِ؛ إن شُكِرت، وفي تعقيبها بسَبعٍ ناريَّةٍ إشارةٌ إلى أنَّها سببٌ للنّار ذاتِ الأبواب السَّبعة؛ إن كُفِرَت، وفي تعقيبها بها إشارةٌ إلى أنَّ سببيَّتَها للنّار أقربُ؛ لكونها حُفَّت بالشَّهوات، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ منِ اتَّقى ما توُعِّد عليه بشِكر هذه النِّعم؛ وُقيَ أبوابَ النّارِ السَّبعةَ، ثمَّ عقَّبَها بثمانيةٍ ذَكَر فيها جنَّة المُقَرَّبين؛ إشارةً إلى أنَّ من عمل لما وُعِدَه كما أمرَه بهِ اللهُ؛ نال أبوابَ الجنَّة الثَّمانيةَ، وثمانيةٍ أُخرى عَقِب جنَّةِ أصحاب اليمين؛ إشارةً إلى مثل ذلك - والله أعلم - وكان ترتيبُها في غاية الحُسْنِ، فقد ذُكِرَت النِّعَمُ أوَّلًا استعطافًا وترغيبًا في الشُّكر، ثمَّ الأهوالُ ترهيبًا ودَرْءًا للمَفْسَدة بالعصيان والكفر، ثمَّ النِّعَمُ الباقية لجَلْب المصالح، وبَدَأ بأشرفِها، فذَكَر الجنَّةَ العُليا؛ لأنَّ القلبَ إثْرَ التَّخويفِ يكون أنشطَ، والهِممَ تكون أعلى، والعَزمَ يكون أشدَّ(1).

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 155.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾

[الرحمن: 1 - 4]

❁ مُناسَبَةُ مطلعِ سورةِ الرحمنِ مع ختامِ سورةِ القمرِ:

بعد بيانِ المُلْكِ والاقتدارِ، يأتي بيانُ الرَّحمةِ والإنعامِ

لمّا ختمَ اللّهُ تعالى سورةَ القمر بعظيم المُلكِ وبليغِ القدرةِ، في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ۝٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ ۝٥٥﴾ [القمر: 54 - 55]، وكان المَلِكُ القادرُ لا يَكمُلُ مُلكُه إلّا بالرَّحمة، وكانت رحمتُه لا تتمُّ إلّا بعمومِها؛ قصرَ هذه السّورةَ على تعدادِ نعمِه على خَلْقه في الدّارين، وذلك من آثار المُلكِ، وفصَّل فيها ما أجملَ في آخرِ سورةِ القمر من مقرِّ الأولياءِ والأعداءِ في الآخرة، وصَدَّرَها بالاسم الدّالِّ على عموم الرَّحمة؛ براعةً للاستهلالِ، وموازنةً لما حصلَ بالمُلكِ والاقتدارِ من غايةِ التَّبرُّكِ والظُّهورِ والهيبةِ والرُّعبِ، باسم هو مع أنَّه في غايةِ الغيبِ، دالٌّ على أعظم الرَّجاءِ، مفتتِحًا لها بأعظمِ النِّعم، وهو تعليم الذِّكر، في قولِه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، الذَّي هزَّ ذوي الهِمَم العاليةِ في القمرِ إلى الإقبالِ عليه بقولِه: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ [القمر: 17]؛ لأنَّه لّما كانَ للعظَمةِ الدّالَّة عليها نونُ ﴿يَسَّرۡنَا﴾ [القمر: 17]، التي هي عمادُ المُلك نظرانِ: نظرُ الكبرياءِ والجبروتِ يقتضي أن يتكلَّم بما يُعجِزُ خَلْقَه من كلِّ جهةٍ في الفهم والحفظِ والإتيانِ بمثلِه، ونظرُ الإكرام والرَّحمة، وكانت رحمتُه سابقةً لغضبِه، يَسَّر لها الذِّكرَ تحقيقًا للرَّحمة بعد أن أبقى من آثارِ الجبروتِ الإعجازَ عن النَّظرِ، ومن الإعجازِ من الفهم الحروفَ المقطَّعة أوائل السّورِ، ومنعَ المتَعَنِّتَ منَ أن يقولَ: إنَّه لا مَعانيَ لها، بأنْ فهَّم بعضَ الأصفياءِ بعضَ أسرارِها، فقال

جوابًا لمن كأنَّه قال: مَنْ هذا المليكُ المقتدرُ؟ فقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، أي: العامُّ الرَّحمة[1].

القـرآنُ هو السَّبيل الوحيدُ إلى مقعدِ الصِّدقِ عند اللهِ

وكذلك فقد امتنَّ اللّهُ تعالى في أوَّل السّورةِ بتعليم الإنسانِ القرآنَ، وقدَّمَها على غيرها من النِّعَم والآلاءِ؛ لمناسَبَةِ قولِه: ﴿فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ﴾؛ لأنَّ القرآنَ هوَ السَّبيلُ الوحيدُ لبيانِ ما يرضاه اللّهُ تباركَت آلاؤه، فينبغي العملُ به، ولبيانِ ما يُسخِطُه، ويغْضِبه، فيتحاشاه الإنسانُ، ويتجنَّبُه.

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡبَيَانَ﴾: (بين) أصلٌ واحدٌ، وهو بُعدُ الشَّيءِ وانكشافُه، وبانَ الشَّيءُ وأبانَ؛ إذا اتَّضحَ، وانكشفَ[2]، والمعنى المِحوريُّ: امتدادٌ بينَ طرفينِ أو جانبينِ، مع فصْلٍ كبيرٍ أو اتِّساعٍ، ومِنْ ذلكَ الفصلِ والتَّمْييزِ جاء معنى الوضوحِ والظُّهورِ؛ لأنَّ المفصولَ المُتَمَيِّزَ عن غيرِه يَلْفِتُ النَّظرَ، وهو المعنى الَّذي جاءَت به كلُّ مفرداتِ التَّركيبِ القرآنيَّةِ، عدا الظَّرف (بَيْنَ)[3]، والبَيانُ: ما بُيِّنَ به الشَّيءُ مِن الدَّلالَةِ وغيرِها، وهو كذلك إظْهارُ المَقصودِ بأبلغ لفظٍ، وهو من الفَهْم وذكاءِ القلْب مَعَ اللَّسَن، ورَجُلٌ بَيِّنٌ: فصيحٌ، والجَمْعُ أبيناءُ[4]، والمُرادُ بالبيانِ في الآية: المَنطِقُ الفَصيحُ المُعْرِبُ عَمّا في الضَّميرِ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

افـتـتـاحٌ فـريـدٌ لعروس القرآن بأعظم نِعَم اللهِ

افتتَح النَّظمُ الجليلُ السّورةَ باسم اللهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الدّالِّ على سعةِ رحمتِه، ثمّ عدَّد نِعَمًا جليلةً هي من آثارِ رَحْمَتِه بالخلقِ، فابتدأ بالنِّعمة العُظمى، وهي نعمةُ تعليمِ القرآنِ، فتعليمُ القرآنِ العظيمِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 139 - 140، ومصاعد النّظر: 3/ 45.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بين).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (بين).
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 99.

أعظمُ النِّعم شأنًا[1]، ثُمَّ عَقَّبَ بذِكرِ نعمةٍ أخرى من نعمِه الجليلةِ، وهي نِعمةُ إيجادِ الإنسانِ من العدمِ، بعدَ أنْ لم يكُن شيئًا مَذكورًا، ثمَّ هيَّأ له من أوَّلِ أسبابِ ارتقائِه في مدارجِ الإنسانيَّة، بأنْ علَّمَه كيف يُبيِّنُ، ويُفصِحُ، فتميَّزَ بذلك عن الأجناسِ الأخرى، وصارَ أهلًا لحملِ الأمانةِ التي عجزت عن حَمْلِها السَّماواتُ والأرضُ والجبالُ، وأصبحَ مستعِدًّا لتلقِّي العلومِ والخلافةِ في الأرض[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الافتتاحِ بالاسمِ الجميلِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

اسم الله الرَّحمن رَدٌّ على افتراءات المشركينَ ببشَريَّةِ القرآنِ

افتتحَ النَّظمُ الجليلُ السّورةَ الكريمةَ باسم اللّهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ فكانَ فيهِ تشويقٌ لجميعِ السّامعينَ إلى الخبرِ الذي يُخَبَّرُ به عنه؛ إذ كان المشركونَ لا يَألَفون هذا الاسمَ، كما قيل في أسباب نزول السّورةِ: إنَّها نزلت في قولِهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: 60]، أي: ما نَعرِفُ الرَّحمَنَ، فنَزَلَتْ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[3]، فهم إذا سمعوا هذه الفاتحةَ؛ تَرَقَّبوا ما سيَرِدُ من الخبرِ عنه، والمؤمنونَ إذا طَرَقَ أسماعَهم هذا الاسمُ؛ استشرَفوا لما سيَرِدُ من الخبرِ المناسبِ لوصفِه، فهذا ممّا همُ متشوِّقون إليه من آثارِ رحمتِه، وكذلك فقد ورد أنَّ سورةَ الرَّحمنِ نزلت بسببِ قولِ المشركين: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾ [النّحل: 103]، فأكْذَبَهُمُ اللّه تَعالى، وقالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[4]، أي: يُعَلِّمُه القرآنَ، فكانَ الاهتمامُ بذِكرِ الَّذي يُعلِّمُ النَّبيَّ ﷺ القرآنَ أقوى منَ الاهتمامِ بالتَّعليم، وأوثرَ استحضارُ الجلالة باسمِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دونَ غيرِه من الأسماء؛ لأنَّ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 443، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 142، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 98.
(2) السّعديّ، تفسير الكريم الرّحمن، ص: 828، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 129.
(3) مقاتل، تفسير مقاتل: 4/ 194، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 223، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 54.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 223، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 54.

المشركين يأبَون ذِكرَه[1]، فهذا الاسمُ الذي هو أعلى أسماء الذّاتِ الإلَهيَّةِ جمالًا يمسكُ بأجزاءِ السّورةِ كلِّها، لفظًا ومعنًى، فالرَّحمنُ هوَ الذي تَتَدَفَّقُ من رحمتِه هذه النِّعمُ، التي تعرِضُها السّورةُ في كلِّ آيةٍ من آياتِها[2].

تنوُّعُ الموقعِ الإعرابيِّ لاسم اللهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، وثراءُ المعنى:

تعدُّدُ التَّقديراتِ في بناء الجملةِ إشــارةٌ لكثافة معاني

ذهبَ المُعرِبونَ إلى أنَّ اسمَ اللّهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، فيه ثلاثةُ أوجهٍ، أحدُها: أنَّه خبرُ مبتدأ مضمرٍ، أي: اللّه الرَّحمنُ، أو هو الرَّحمنُ. الثّاني: أنَّه مبتدأٌ، وخبرُه مضمرٌ، أي: الرَّحمنُ ربُّنا، وهذان الوجهان عند مَنْ يرى أنَّ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ آيةٌ مع هذا المُضمرِ معه، فإنَّهم عَدّوا ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ آيةً، ولا يُتَصَوَّرُ ذلك إلّا بانضمام خبرٍ أو مُخْبَرٍ عنه إليه؛ إذِ الآيةُ لا بُدَّ أنْ تكونَ مفيدةً. الثّالث: أنّه ليس بآيةٍ، وأنَّه مع ما بعده كلامٌ واحدٌ، وهو مبتدأٌ خبرُه ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، وجملتا ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ خبرٌ ثانٍ وثالثٌ[3]، وهذه التَّقديرات التَّركيبيَّة المتعدِّدةُ تُشيرُ إلى كثافة المعاني الدَّلاليَّة بين الابتداء والخبر في هذا الاسم المبارِك، وثَمَّةَ من يرى أنَّ اسمَ اللّهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، في هذا الاستهلالِ المَهيب مُكتَفٍ بنفسِه تركيبيًّا، فالنُّطقُ بهِ وحدَه دون تقدير مبتدأٍ أو خبرٍ، كافٍ لإيقاعِ الأثرِ النَّفسيِّ الهائل في نفوس المُتلَقّين بسَعة رحمته وشمولِ عفوه، فهذا اللَّفظُ هوَ المبتدأ والخبرُ في الوقتِ ذاتِه، وهو الفاعل المُطلَق الذي لا يحتاج إلى مُكَمِّلٍ من مُكمِّلاتِ الجملةِ، فإذا تلا الإنسانُ هذه الكلمة المفردةَ؛ أيقن أنَّها تنصرفُ إلى الإلهِ الواحدِ الأحدِ الفردِ الصَّمدِ[4].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 228.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 141، وعبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 652.

(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 153، والخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 185.

(4) عبد الملك مرتاض، نظام الخطاب القرآنيّ: تحليل سيميائي مركّب لسورة الرّحمن، وقد أشار امّحمّد صافي المستغانميّ إلى هذا الرّأي، في حلقته: مقدمة تفسيره لسورة الرّحمن، برنامج "في رحاب سورة"، في الدّقيقة الثّامنة والثّلاثين.

سرُّ وقوعِ الخَبرِ أكثرَ من جملةٍ فِعليَّةٍ:

ثبوتُ تعليمِ القرآنِ وخَلْقِ الخَلقِ وتعليمِ البيانِ للهِ وحدَه

عندَ تقدير أنَّ اسمَ اللهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ليس بآيةٍ، وأنَّه مع ما بعدَه كلامٌ واحدٌ، وهو مبتدأٌ خبرُه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، وجملتا ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، يكونُ النَّظمُ الجليلُ قد جمعَ في هذه الجملة بين ثلاثةِ ردودٍ على المشركين الذين أنكروا معرفتَهم باسم اللهِ الرَّحمن، **الرَّدُّ الأوَّلُ**: أنَّ الرَّحمنَ هو من علَّم القرآنَ، **والثّاني**: أنَّه خلقَ الإنسانَ، **والثّالثُ**: أنَّ الرَّحمن هو من عَلَّم البيانَ، وآثرَ التَّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّةِ؛ لِما للجملة الاسميَّة من الدَّلالة على ثباتِ الخبرِ، ولأنَّ مُعْظَم هذه السّورة تعدادٌ للنِّعمِ والآلاءِ، فافتتاحُها باسم ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ براعةُ استهلالٍ[1].

سرُّ ترتيبِ الأخبارِ الثَّلاثَةِ:

بـدأ بنعمة القرآن لشَرفها، ولأنَّه أعظم وحي اللهِ رُتْبةً

رتَّب النَّظمُ الحكيمُ الأخبارَ الثَّلاثَةَ ترتيبًا متدرِّجًا من الأهمِّ فالمُهمِّ، فأتى من نعمةِ الدّينِ بما هو في أعلى مراتبها، وأقصى مراقيها، وهو إنعامُه بالقرآن وتنزيله وتعليمه؛ لأنَّه أعظمُ وحي اللهِ رتبةً، وأعلاه منزلةً، وأحسنُه في أبوابِ الدّين أثرًا، وهو سنامُ الكتبِ السَّماويَّة، ومِصداقُها، وأخَّر ذِكرَ خَلْقِ الإنسانِ عن ذِكْرِه، ثمَّ أتبعَه إيّاه؛ ليُعلَمَ أنَّه إنَّما خلقَه للدّينِ، وليحيطَ علمًا بوحيه، وكتبِه، وما خلقَ الإنسانَ من أجله[2].

سرُّ الفصلِ بين الجمل الثَّلاث:

الفصلُ لتعديد النِّعم على سبيل التَّوبيخ والتَّبكيت للحَثِّ على طاعة الرَّحمنِ

فصَل النَّظمُ الحكيمُ بين الخبر الثّاني والثّالث، ولم يعطفها على الخبر الأوَّل، وكان مقتضى الظّاهر أن يكون الكلام: (الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ، وخَلَقَ الإنْسانَ، وعَلَّمَهُ البَيانَ)، ولكنَّه عدَل عن الوصل بالواو أو الفاء إلى الفصل؛ لإرادةِ تعديدِ النِّعمِ، فهذه الأفعالُ مع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 231.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 443.

ضمائرها أخبارٌ مترادفةٌ، وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمطِ التَّعديد، كما تقولُ: زيدٌ أغناكَ بعد فقرٍ، أعزَّك بعد ذلٍّ، كثَّرك بعد قلَّةٍ، فعلَ بكَ ما لم يفعل أحدٌ بأحدٍ، فما تنكر من إحسانِه؟[1].

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

تعريفُ الاسم الجميلِ ردٌّ على المشركين وتَحدٍّ لهم

اللّام في ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ لام العهد، أي: هو اللّهُ الرَّحمنُ الذي عهدتُم رحمتَه في جميع مجالي الخَلْق، وعرفتُم فضلَه في شتّى شؤون الحياة، فهو تعالى المعروف في الأرض والسَّماء، وإن أنكره المشركون، وزعم جهلَه الزّاعمون، وقيل: لفظ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ جمع بين خمسةِ أحرفٍ من الحروفِ المُقَطَّعةِ في أوائلِ السّورِ، هي: ﴿الٓرۚ﴾ [يونس: 1]، و﴿حمٓ ١﴾ [غافر: 1] و﴿نٓۚ﴾ [القلم: 1]، فيكون مجموعها ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾، فيكون من باب التَّحدّي والإعجاز بما عَرَفوه من الحروف في كلامهم[2].

الغرض من تقديم المسند إليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾:

تقديمُ المسندِ إليه للتَّعظيمِ

قدَّم النَّظمُ الحكيم المسند إليه ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ إمّا للتَّأكيدِ أو للحَصْرِ، وفيه من تعظيم شأن القرآن ما فيه[3]؛ إذْ أجَّجَ في نفس المتلقّي لهفةً مُلحَّةً لمعرفةِ (المسند)، فقد أرادَ اللّهُ تعالى أن يخصَّ نفسَه في هذه الآيات المباركة عمَّن سواه، بتعليمِ القرآنِ، وخَلْقِ الإنسانِ، وغيرِ ذلك من النِّعَم؛ تأكيدًا منه تعالى أنَّه وحدَه من يختصُّ بهذه الصِّفات الرَّبّانيَّة العظيمة.

دلالَةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿عَلَّمَ﴾، وسِرُّ إضمارِ الفاعِلِ:

ثبـاتُ تعليم القرآن وتحقُّقه؛ لأنَّه غاية الوجود الإنسانيِّ

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بصيغةِ المُضيِّ في قولِه: ﴿عَلَّمَ﴾؛ للدَّلالةِ على ثباتِ هذا التَّعليم ودوامِه وتحقُّقه؛ إذ إنَّ تعليمَ القرآنِ هو مدارُ الغاية من الوجود الإنسانيِّ، ولذا كانت الدَّلالةُ على تحقُّقه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 443.

(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 100، والشّربينيّ، السّراج المنير: 4/ 157، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 98.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 98.

وثباتِه أولى من القولِ بتجدُّده واستمراره، وأُضمِرَ الفاعلُ للعِلم به، ولتعظيم شأنه، فإنَّ من شأن الإضمار هاهُنا أن يعيد المتلقّي دائمًا إلى المُنعِم الأوَّل، وسرِّ الوجود الأوحدِ، وهو الرَّحمن سبحانه، فهو مِنَ الظُّهورِ والجلاءِ بحيثُ لا يُتَوَهَّم أنَّ هذه النِّعم لأحدٍ سواه.

سرُّ التَّعبير بالفعلِ ﴿عَلَّمَ﴾:

في تعليم القرآن إشارةٌ لاحتوائه على علوم الأولينَ والآخِرين

آثَر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿عَلَّمَ﴾ في قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ دون (أَنْزَلَ) أو (أَوْحَى)؛ لما في ذلك من بيانِ الامتنان بالآلاء، وأوَّلُها وأعلاها هو تعليم القرآنِ، وتعليمُ القرآن من خصائص هذه السّورةِ الكريمة، وذلك لاشتمالِ التَّعليم على أمورٍ ثلاثَةٍ: تيسيرِ تَعلُّم ألفاظِه، وتسهيلِ إدراكِ معانيه، وتعليم كيفيَّةِ العمل به، بالإعانة على تنفيذ أوامره ونواهيه، فضلًا عن العِلْم بمعانيه على وجه يُعتدُّ به[1]، وجيء بالفعلِ ﴿عَلَّمَ﴾ على صيغة (فَعَّلَ) الدّالَّةِ على الكثرة والمبالغة، ومن مقتضيات التَّكثير والمبالغة في الحَدَث استغراقُ وقتٍ أطولَ؛ لإفادة التَّلبُّث والمُكْثِ للمتعلِّم، ففيها من الفائدةِ والامتنانِ بالنِّعمةِ من التَّلبُّثِ والمُكْث ما ليس في صيغة (أعلم)[2]، كما أنَّ الفعل (عَلِمَ) إذا ضُعِّفَ؛ كانَ بمعنَى تَحصيلِ التَّعليم، بخلافِه إذا عُدّيَ بالهمزة؛ فإنَّه يكونُ لتحصيلِ الإخبارِ والإنباءِ[3]، فعَدَلَ عنه لمزيد من الإفادة الرّبّانيَّةِ والمِنَحِ الإلهيَّةِ بتَدَبُّرِ القرآن، وقيل: ﴿عَلَّمَ﴾ من العَلامة، والمعنى: جعلَه علامةً وآيةً يُعْجِزُ بها المعارِضين[4]، وهذا على ما قيل: يُناسبُ ما ذُكِرَ في مُفتَتَحِ السّورةِ السّابقة من قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ①﴾ [القمر: 1]،

---

(1) ابن عثيمين، تفسير القرآن الكريم، من سورة الحجرات لسورة الحديد، ص: 301.

(2) فاضل السّامرائيّ، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآني، ص: 65 - 67، وانظر: أسماء آل عابد، سورة الرّحمن دراسة تحليليّة، ص: 88.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 232.

(4) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 6/ 496.

وتتناسَبُ السّورتانِ في المفتَتَح؛ إذ افتُتِحت الأولى بمعجزةٍ من باب الهيبة، وهذه بمُعجزةٍ من باب الرَّحمة[1].

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾:

التَّعريف إمّا للعهد الذِّكريِّ، أو الذِّهنيِّ، أو الحضوريِّ

اللّام في ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾ لامُ العهد، ويحتمل العهد هاهنا ثلاثةَ احتمالاتٍ، فهو إمّا للعهد الذِّكْري؛ إشارةً إلى ما ورد في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: 17]، وهو أدْعَى لتحقيق التَّناسب بين السّورتين، فهو اسمٌ غلبَ على الوَحيِ اللَّفظيِّ الذي أوحيَ بهِ إلى محمَّدٍ ﷺ[2]، وإمّا للعهد الذِّهنيِّ، أي: القرآن الذي عرفتموه، وقَرَّ في أذهانكم وعقولِكم، فآمنَ به المؤمنون، وتنازع في شأنه المشركون، فكذَّبوا به، فالتَّعريفُ على هذا الوجه حثٌّ للمؤمنين على مزيدٍ من التَّدبُّر، وتقريعٌ للمشركين وتوبيخٌ لهم، ولومٌ لما هم فيه من التَّكذيب والإنكار، وإمّا أن يكون للعهد الحضوريِّ، أي: هذا القرآن الذي بين أيديكم الآن، تقرؤونه بألسنتكم، ويقرعُ أسماعَكم، فالمُرادُ به على هذا الوجه: القرآنُ المَرْئيُّ المشهود بالكتابة، والمَتلوُّ المسموعُ، الجامعُ لكلِّ خيرٍ، الفارقُ بين كلِّ لَبْسٍ، وكان القياسُ يقتضي ألّا يعلم المسموعَ أحدٌ؛ لأنَّه صفةٌ من صفاتِه، وصفاتُه في العِظَم كَذاتِه، وذاتُه غيبٌ محضٌ؛ لأنَّ الخَلْقَ أحقرُ من أن يُحيطوا به عِلمًا، فدلَّ تعليمُهُ القرآنَ على أنَّه يَقْدِر أن يُعلّم ما أراد من أراد[3]، ففيه إشارةٌ للامتنان بهذا الشَّرفِ العظيم، وحثٌّ على نَيْل بركة النِّعم الحاضرة بين أيديهم، وقيل: بل المرادُ بالقرآن حِفْظ المَقروء أو استيعابُه في القَلْب، فلا يتَفَلَّتُ[4]، ومن ثَمَّ فإنَّ القرآنَ هو القراءةُ الواعيةُ في صحف الوجودِ، وفي كتب العِلمِ، وأجلُّها قدرًا وأعظمُها

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 98، وردّه هو وغيره من المفسّرين.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 232.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 141.

(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قرأ).

ذِكرًا القرآن الكريم، فتصدَّر كلَّ هذه النِّعم؛ لأنَّهُ بغير هذه القراءةِ لا يهتدي الإنسانُ إلى اللّه سبحانه، ولا يتعرَّفُ على خالقه، ولا تقوم قدماه على طريق الحقِّ والخير، أمّا بالتَّعلُّم؛ فيكون المتلقّي لكلمات اللّه هوَ القارئَ المستَبْصِر، الذي يكشف بقراءته دلائلَ القُدرةِ الإلَهيَّة، فيؤمنُ باللّهِ، ويقومُ على خلافتِه في الأرض، ويقيمُ موازينَ العدلِ فيها(1).

سرُّ إضمارِ المفعولِ الأوّلِ في الفعل ﴿عَلَّمَ﴾:

فـي إضـمـارِ المفعولِ الأوّلِ ثراءللمعنَى

أضمرَ البيانُ القرآنيُّ المفعولَ الأول للفعل ﴿عَلَّمَ﴾؛ لظهورِه، والتَّقديرُ: علَّمَ محمَّدًا ﷺ؛ لأنَّهم ادَّعوا أنَّه مُعَلَّمٌ، وإنَّما أنكروا أن يكون مُعلِّمُه القرآنَ هو اللّه تعالى، وهذا تبكيتٌ أوَّل(2)، ويكون المُراد منه: أنَّه ﷻ علَّم القرآنَ رسولَنا ﷺ، ثمَّ يُخَرَّج ذلك على وجوه، أحدها: أنَّه جبريل عليه السلام؛ إذ قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥﴾ [النّجم: 5]، لكن خرجت الإضافةُ إلى اللّه تعالى؛ لما أنَّه علَّمَه بأمره. والثّاني: أضاف التَّعليم إلى نفسه؛ لما أنَّه هو الذي أثبتَه في قلبه حتّى لا ينساه، والثّالث: أضاف إلى نفسه، وإن علَّمَه جبريلُ عليه السلام؛ لأنَّه هو الخالقُ لفعلِ التَّعليم من جبريل عليه السلام(3)، وقيل: المفعولُ المُضمَرُ أنَّهُ تعالى علَّم من شاءَ القرآنَ من عباده؛ إنسًا وجنًّا ومَلَكًا، أو من رَحِمَ من عبادِه، وعلى هذا القولِ يكونُ امتنانًا على منِ اختصَّه بتعلُّم كلامه(4)، وقيل: علَّم النّاسَ على العموم؛ لأنَّ السّورة جاءت؛ لبيانِ الأعمِّ من النِّعَم الشّامِلَة، ولدلالةِ ما بعدَه عليه، وهو قولُه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، فهو المقصودُ بالتَّعليم(5)، والأنسبُ مع بيانِ النِّعَمِ في

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 654.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 232.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 10/ 469.
(4) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 6/ 496.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 232.

تعميم التَّعليم، لا في تعليمِ شخصٍ دون شخصٍ، يقال: فلانٌ يطعمُ الطَّعامَ، إشارة إلى كرمه، ولا يبيِّن مَن يطعمه[1].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿خَلَقَ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

انفرادُه تعالى بقضيَّةِ الخَلْقِ دليلٌ على وحدانيَّتِه

آثَر النَّظمُ التَّعبيرَ بمفردةِ (الخلق)، في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ لما تتضمَّنُه من معاني الإبداعِ والإنشاءِ على غيرِ مثالٍ سبق، ومِنْ غيرِ أصلٍ، ولا احتذاءٍ، ولِمعنى التَّقدير الدَّقيق المستقيم[2]، وهي المعاني التي يتطلَّب السّياق إثباتَها؛ لبيانِ أنَّ إيجاد الإنسانِ من العدَمِ إحدى النِّعم الجليلةِ التي امتنَّ اللّهُ بها على الإنسانِ، وكذلك لاشتمالِها على كثيرٍ من التَّقديراتِ التي تُثري الآيةَ، فمنها: إنْشاؤُهُ عَلى ما هو عَلَيْهِ مِنَ القوى الظّاهِرَةِ والباطِنَةِ[3]، وأنَّهُ تعالى قدَّره، وأوجدَه على هذا الشَّكلِ المعروفِ والتَّركيبِ الموصوفِ، منفصلًا عن جميعِ الجماداتِ، وأصلُه منها، ثُمَّ عن سائرِ النّامياتِ، ثمَّ عن غيرِه من الحيواناتِ، وجعلَه أصنافًا، وفصَّل بين كلِّ قومٍ بلسانِهم عمَّن عداهم، وخَلْقُه لهم دليلٌ على خَلْقِه لكلِّ شيءٍ موجودٍ[4]، ففي خَلْقِ الإنسان دلالتان، أولاهما: الدَّلالة على تفرُّدِ اللّهِ تعالى بالإلَهيَّة، وثانيتُهما: الدَّلالة على نعمة اللّه على الإنسان؛ لأنَّ فيها تشريفًا للمخلوق، بإخراجه من غياهب العَدَمِ إلى مَبْرز الوجود في الأعيان[5]، وجاء الفعلُ ﴿خَلَقَ﴾ في صيغة المُضيِّ؛ لإفادة اليقين بانفرادِه تعالى بخَلْقِ الإنسانِ، ولترسيخ الاعتقاد بقدرته تعالى، فكلُّ من خُلِق، وكلُّ من يُخْلَقُ، وسيُخْلَقُ، إنَّما هم في حُكْمِ المُضيِّ قدرةً واستطاعةً وتحقُّقًا، وكذلك فإنَّ التَّعبيرَ بالجملةِ الفعليَّةِ تقويةٌ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 337.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خلق).

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 176.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 141.

(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 233.

للحُكمِ، أو تخصيصٌ له، وذلك بتنزيلهم منزلةَ المُنكِرين لخَلْقِ اللّهِ الإنسانَ بعبادتِهم غيرَه[1].

مَعنَى اللّامِ ودلالتُها في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

ترجيحُ عمومِ جنس الإنسانِ أنسبُ لسياقِ الامتنان بالنِّعم الإلَهيَّة والآلاء الرَّبّانيَّةِ

اللّام في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للعهد، والمقصود آدم ﷺ بوصفِه أوَّلَ البشر، فالإنسانُ - وإن كان اسم جنسٍ - لكنَّ أحقَّهم بالإرادةِ بهذا أوَّلُهم وهو آدم ﷺ، وإرادتُه لا تمنعُ إرادةَ الجنسِ من حيثُ هو، كما جاء عن بعض السَّلف[2]، أو المرادُ بالإنسان هاهُنا محمَّد ﷺ؛ إذ هو الإنسانُ الكاملُ الإنسانيَّةِ، المُؤَهَّلُ لتلقّي هذا القرآنِ العظيم والبيانِ الشَّريفِ[3]، والرّاجح ما ذهب إليه جمهورُ المفسِّرين من أنَّ المُرادَ بالإنسانِ هاهُنا جنسُ الإنسانِ، وهذا تمهيد للخبر الآتي، وهو ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾[4]، ووحَّد اللَّفظ دون الجمع (الإنس)؛ لأدائه عن الجنس كلِّه، فيدخل فيه الأنبياءُ وغيرُهم ممَّن خَلَقَ اللّهُ من الإنس، وذلك يفيدُ ثبوتَ المِنَّةِ على كلِّ البشرِ بإخراجهم من العدمِ إلى الوجودِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿عَلَّمَهُ﴾ ومرجعُ الضَّميرِ ودلالتُه:

انفرادُه تعالى بتعليم الإنسان

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ آثَر النَّظم الحكيمُ التَّعبيرَ بصيغةِ المُضيِّ، دون صيغة المضارعة؛ للدَّلالة على تحقُّق التَّعليم ورسوخه، وتوكيدِ أنَّه وحدَه تعالى هو الذي علَّم في الماضي، فكلُّ تعلُّم في الحاضر أو المستقبل، إنَّما هو من آثار هذا التَّعليم الأوَّل، فلَه وحدَه الفضلُ والمِنَّةُ، ومجيءُ المسنَدِ فعلًا بعد المسندِ إليه؛ لإفادةِ تقوّي الحُكمِ، والضَّمير في ﴿عَلَّمَهُ﴾ يعودُ على جنسِ الإنسان، حسبَ

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 233.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 143.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 134، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على الجلالين: 6/ 496، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 99.

(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 25/ 178، والزّجّاج معاني القرآن: 5/ 95، والماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 423، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 99، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 323.

الرّاجح من السّياقِ وأقوالِ العلماءِ، وفيه دلالةٌ على اختصاصِ الإنسانِ بالبيانِ المُفْصِحِ عَمّا في الضَّمير، دونَ غيرِه من خَلْقِ اللّهِ تعالى، وفيه مزيدٌ من التّذكيرِ بالمِنَنِ والنِّعَم، وفيه من التَّبكيتِ ما فيه؛ لأنَّهم لم يَشكروه على نعمةِ البيانِ؛ إذ صرفوا جُزءًا كبيرًا من بيانهم فيما يُلهيهم عن إفراد اللّهِ بالعبادةِ، وفيما يُنازعون به من يَدْعوهم إلى الهُدى[1].

دلالَةُ التَّعبير بصيغةِ (فَعَّلَ) في ﴿عَلَّمَهُ﴾:

إفـادةُ التَّلبُّثِ والمُكْثِ أدعى للاعتراف بالمِنَّةِ العظيمة

جيء بالفعلِ ﴿عَلَّمَهُ﴾ على صيغةِ (فَعَّلَ) الدّالَّة على الكثرة والمبالغةِ، ومن مقتضيات التَّكثير والمبالغة في الحَدَث استغراقُ وقتٍ أطولَ لإفادة التَّلبُّثِ والمُكْثِ للمُتعلِّم، ففيها من الفائدةِ والامتنانِ بالنِّعمةِ من التَّلبُّث والمُكْث ما ليس في صيغةِ (أعْلَم)[2]، كما أنَّ الفعل (عَلِمَ) إذا ضُعِّفَ؛ كانَ بمعنَى تَحصيلِ التَّعليم، بخلافه إذ عُدّيَ بالهمزة فإنَّه يكونُ لتحصيلِ الإخبارِ والإنباءِ[3]، فعدلَ عنه لمزيد من التَّذكيرِ بالمِنحة الرّبانيَّةِ والمِنَّةِ الإلَهيَّة بتعليم البيانِ.

مَعنَى اللّامِ ودلالتُها في ﴿ٱلۡبَيَانَ﴾ وثراءُ الدَّلالةِ فيها:

الـلّامَ جنسيَّةٌ تفيدُ العمومَ؛ تـذكـيرًا بـهـذه الـنِّـعـمـةِ العظيمةِ

تعدَّدَتْ أقوالُ المفسّرين في المُرادِ بالبيانِ في قولِه: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، ويمكن إجمالُها في قولين[4] بينهما عمومٌ وخصوصٌ، **الأوَّل:** أنَّ البيانَ هاهُنا عامٌّ لكلّ ما يُبِينُ به الإنسانُ عن ضميرِه، ويُفصِحُ عن ذاته، فهو بيانُ ما به حاجةٌ إليه من أمر الدّينِ والدُّنيا، ويشملُ النُّطقَ، والتَّمييزَ، والكتابة، والخَطَّ، والفهمَ، والإفهامَ. **والآخر:** أنَّ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 233 - 234.
(2) السّامرّائيّ، بلاغة الكلمة في التّعبير القرآنيّ، ص: 65 - 67، وأسماء آل عابد، سورة الرّحمن دراسة تحليليّة، ص: 88.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 232.
(4) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 25/ 178، والزّجّاج، معاني القرآن: 5/ 95، والماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 423، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 134، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 99، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 232.

المُرادَ بالبيانِ لونٌ خاصٌّ من البيانِ، ذكروا فيه ضروبًا من الأشياءِ المُبيَّنَةِ للإنسانِ، كبيانِ الحلالِ والحرامِ، وبيانِ القرآنِ وما فيه من الشَّرائعِ، وأسماءِ كلِّ شيءٍ، والخيرِ والشَّرِّ، وسبيلِ الهُدى وسبيل الضَّلالَةِ، والأمرِ والنَّهيِ، والأوَّلُ هو الرّاجحُ؛ لأنَّهُ الأقربُ للسّياقِ، ولأنَّهُ الموافقُ لتعدادِ النِّعَمِ الجليلة في سورةِ الآلاءِ والنِّعمِ، فاللّام في ﴿ٱلْبَيَانَ﴾ جنسيَّةٌ تفيدُ العمومَ.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البَشَرُ والإنْسانُ:

المُـرادُ بالبَـشَـر الـجـانـب الـظّـاهـريُّ والـحـيـويُّ، والمرادُ بالإنسانِ المخلوقُ الواعي العاقلُ

مفردة (البَشَر) مأخوذةٌ من مادةِ (بشر) التي يدور معناها حولَ الظُّهور، ومنها: بَشَرَةُ الإنسان، أي: ظاهرُ جلدِه؛ لظُهور جِلدِه، وخُلوِّه من الشَّعَر، بخلاف الحيوانات التي عليها الصّوف أو الشَّعر أو الوَبَر[1]، وسُمّي النّاس بَشَرًا؛ لأنَّهم أحسنُ الحَيَوانِ هَيْئَةً، ويجوز أن يُقال: إنَّ قَوْلَنا: (بشر) يَقتَضي الظُّهورَ، وسُمّوا بشرًا لظُهور شَأْنِهم[2]، أو لانتِشارهم في الأرضِ[3]، ومن ثَمَّ فإنَّ إطلاق لفظ (البشر) على الإنسان ينصرف إلى الجانبِ الظّاهريِّ فقط، فيُراد به النّاحيَةُ المادّيَّةُ (الجسميَّة)، أو الشَّكليَّةُ (الهيئة) المتمثِّلةُ في شَكل الإنسان وهيئته من ناحيةِ الشَّكلِ والجمالِ والمظهرِ والقَوام، كما أنَّها تشملُ الجانبَ الغرائزيَّ[4].

وأمّا مفردةُ (الإنسان)؛ فاختلفوا في اشتقاقها، فذهب بعضُهم إلى أنَّهُ مُشْتَقٌّ من الأُنْسِ؛ لأنَّه خُلِقَ خِلْقةً لا قِوامَ لها إلّا بأُنس بعضِهم ببعضٍ، ولهذا قيل: الإنسان مَدَنيٌّ بالطَّبع، وقيل: سُمّي بذلك؛ لأنَّه يأنَس بكلِّ ما يألَفُه، وذهب آخرون إلى أنَّه مشتقٌّ من النِّسيان، على

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (بشر).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 276.
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بشر).
(4) سعيد الصّوافيّ، لفظا البشر والإنسان في القرآن، دراسة لغويّة دلاليّة، ص: 198 - 204.

وزنِ (إفعلان)، وأصلُه: إنسيان، سُمّي بذلك؛ لأنَّه عَهِدَ اللّهُ إليه، فنَسيَ[1]، والمرادُ بِهِ اسمُ جِنسٍ يقع على الذَّكر والأنثى، والواحد والجمع، والنّاسُ: تَخفيف الأُناسِ، وحَذَفوا الهمزةَ طلبًا للخِفَّة[2].

فمفردةُ الإنسانِ تدلُّ على ما يتمتَّعُ به هذا المخلوقُ من الخصائص والصِّفات التي تميِّزه عن غيره من المخلوقات، سواء ما يتَّصل منها بالجانبِ العقليِّ، من المعرفةِ الحسّيَّة والعقليَّة وما يتَّبع ذلك من تَذَكُّرٍ ونِسيانٍ، أو ما يتَّصل بالجانب الاجتماعيِّ في الإنسان، وغريزةِ المَيل الطَّبيعيَّة إلى بَني جنسِه، فلفظُ (الإنسان) أعمُّ من لفظِ البشرِ؛ إذ يشمل الجانبَ الظّاهريَّ للإنسان؛ إضافةً إلى الخواصِّ الأُخرى المُميِّزة للإنسان عن سائر المخلوقات، من العقل والإدراك والإرادة والوَعْي[3]، ومن هنا فإنَّ لفظَ الإنسانِ أنسبُ لسياق سورةِ الرَّحمن؛ لأنَّها تذكيرٌ بالنِّعمِ وتوبيخٌ للمُكلَّفين، مؤمنِهم وكافرِهم.

البَيانُ والقولُ والكلامُ:

البيانُ أخصُّ من الكلامِ، والكلامُ أخصُّ من القولِ

الكلامُ: كلُّ لفظ مستقلٍّ بنفسه، مفيدٍ لمعناه، وهو يقعُ على الألفاظِ المنظومةِ، وعلى المعاني التي تحتَها مجموعةً، وهو أخصُّ من القولِ، فإنَّ القول يقع على المفردات، والكَلمةُ تقع عندهم على كلِّ واحد من الأنواع الثَّلاثة، وقد قيل بخلاف ذلك[4].

وأمّا القول؛ فأصلُه أنَّه كلُّ لفظٍ نطقَ به اللِّسانُ، تامًّا كان أو ناقصًا، فالتّامُّ هو المُفيد، أي: الجملة وما كان في معناها، والنّاقص ما كان بضِدِّ ذلك، ثمَّ يُتَّسَعُ فيه، فيوضَع القولُ على الاعتقادات والآراء، ومن أدلِّ الدَّليلِ على الفَرْق بين الكلام والقول، إجماعُ

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (إنس).
(2) الفيوميّ، المصباح المنير: (أنس).
(3) الصّوافيّ، لفظا البشر والإنسان في القرآن، دراسة لغويّة دلاليّة، ص: 198 - 204.
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (كلم).

النّاس على أن يقولوا: القرآنُ كلام اللّهِ، ولا يقال: القرآنُ قولُ اللّهِ؛ وذلك أنَّ هذا موضعٌ ضيّقٌ مُتَحَجِّر، لا يمكن تحريفُه، ولا يسوغ تبديلُ شيءٍ من حروفه، فعُبِّرَ لذلك عنه بالكلام الذي لا يكون إلّا أصواتًا تامَّةً مُفيدةً، وعُدِلَ به عن القول الذي قد يكون أصواتًا غيرَ مفيدةٍ، وآراءَ معتَقَدَةً[1]، فكلُّ كلامٍ قولٌ، وليس كلُّ قولٍ كلامًا؛ لأنَّ الكلام ما أفاد، والقولَ قد يُفيد، وقد لا يُفيد[2].

وأمّا البيانُ؛ فهوَ النُّطقُ الفَصيحُ المُعْرِبُ - أي: المُظهِر - عَمَّا في الضَّميرِ[3]، فكلُّ ما يُبِينُ به الإنسانُ عن ضميرِه، ويُفصِحُ عن ذاتِه؛ فهو بيانُ ما به حاجةٌ إليه من أمر الدّينِ والدُّنيا، ويشملُ النُّطقَ، والتَّمييزَ، والكتابةَ، والخَطَّ، والفهمَ، والإفهامَ، وجعلَه مُميَّزًا حتّى انفصلَ الإنسانُ من جميعِ الحيوانِ، فهو على هذا النَّحوِ أخصُّ من القول والكلام كِلَيْهما.

(1) ابن جنّي، الخصائص: 1/ 18 - 20.

(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 486 - 487.

(3) الجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 47.

﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦
وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨
وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرّحمن: 5 - 9]

مُناسبةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعد الامتنان بالقرآنِ والبيانِ، يأتي الامتنانُ، بتفصيلِ النِّعمِ العُلْويَّةِ والسُّفْليَّةِ اللّازمةِ لحياة الأبدانِ

لمّا بيَّن الرَّحمنُ سبحانه في الآيات السّابقاتِ النِّعمةَ في تعليم القرآن الذي هو حياةُ الأرواح، وبيَّن الطَّريقَ فيها؛ دلَّ على البيانِ بذكر البيِّناتِ التي يجمعُها أمرٌ، ويفرِّقها آخرُ، ولها مدخَلٌ في حياة الأجسادِ، وعدَّدَها على سبيل الامتنان، فبدأ بالكوكبِ الأعظمِ الذي هو أعظمُ نورًا، وأكبرُ جرمًا، وأعمُّ نفعًا؛ ليكون خضوعُه لقَبول الآثارِ أدلَّ على خضوعِ غيره، وذلك بيانًا لحكمته تعالى في تدبيره وقوَّته، ثمَّ عطف بذِكرِ القمر؛ لأنَّه آيةُ اللَّيلِ، وكان البدءُ عمومًا بهذين الجِرمَينِ اللَّذَين كان بهما البيانُ الإبراهيميُّ، ولمّا كان سيرُهما على هذا المنهاج دالًّا على خضوع ما دونَهما من الكواكب بطريق الأَوْلَى؛ أتبعَهما حضورَ ما هو للأرض كالكواكبِ للسَّماء في الزّينة والنَّفع والضُّرِّ والصِّغَر والكِبَر والكَثرة والقِلَّة من النَّبات، وهو النَّجم، وأعقبَ بذِكر الشَّجَر، فأخبر بانقيادِهما وخضوعِهما انقيادَ السّاجدِ من العقلاء، ممّا يدلُّ على وحدانيَّة الصّانع وفعله بالاختيارِ، ونفي الطَّبائع، ثمَّ عطفَ بذِكر رفع السَّماء؛ لأنَّهُ لمّا كان تغيُّرُ ما تقدَّم من الشَّمس والقمر والنَّجم والشَّجر يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّه سبحانه هو المُؤثِّر فيه، وكانت السَّماءُ والأرضُ ثابتَتين على حالةٍ واحدة، فكان ربَّما أشكل أمرُهما على أهل الجمود والاغترار، فبيَّنَ تعالى أنَّه رفعَ السَّماءَ بعد أن كانت مُلتصقةً بالأرض، ففتقَها منها وأعلاها عنها، بما يشهدُ لذلك من العقلِ عند كلِّ مَن له تَأمُّلٌ،

ولمّا كانتِ السَّماءُ مع عُلوِّها الدّالِّ على عِزَّة موجدِها ومُدَبِّرها دالَّةً على عَدْلِه باعتدال جميع أحوالها؛ دلَّنا على أنَّه شرع لنا مثلَ ذلك العدل، وهو الميزان العدل؛ لتنتظم أمورُنا، ولتقومَ أحوالُنا، وتصلحَ أقوالُنا وأفعالُنا بما قامت به السَّماواتُ والأرض، وهو العدلُ، ولذا نهى عنِ الظُّلم والطُّغيان في الأشياء الموزونة، وفي مساواة الظّاهر والباطن والقول والفعلِ، ثمَّ أكَّدَه مَزيدًا من التَّأكيد بالنَّهي عن الضِّد، فأمرَ بالقِسطِ وعدمِ الإخسارِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾: (حسب) أصولٌ أربَعَةٌ، فالأَوَّلُ: العَدُّ، تقول: حَسَبْتُ الشَّيءَ أَحْسُبُه حَسْبًا وحُسْبانًا. والثّاني: الكفايةُ، تقول: شيءٌ حسابٌ، أي: كافٍ. والثّالث: الحُسْبانُ، وهي جَمعُ حُسْبانَةٌ، وهي الوِسادةُ الصَّغيرةُ. والرّابعُ: الأَحْسَبُ الذي ابيضَّت جِلدَتُه من داءٍ، ففسدتْ شَعْرَتُه، كأنَّه أبرصُ[2]، ومن المعنى الأوَّلِ قولُه تعالى: ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: 5]، وقولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ [الأنعام: 96][3]، فالحَسْبُ: العَدُّ والإحصاءُ، والحَسَبُ: ما عُدَّ[4]، والمعنَى المحوريُّ: جَمْعُ ما هو منتشرٌ في حيِّزٍ يَضُمُّه حتّى يمتلئَ بِه، فأصلُ الحُسبانِ جمعٌ للمتشابهاتِ، وتبيينٌ لما تحصَّلَ، وتقديرٌ لكميّاتِ المحسوبِ، وليس أمرًا عشوائيًّا[5]، والمرادُ في قولِه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ بِحِسابٍ ومنازلَ، أي: بحسابٍ وتقديرٍ تجريان[6].

2) ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾: (نجم) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على طُلوعٍ وظهورٍ، ونَجَمَ النَّجمُ: طَلَعَ، ونَجَمَ السِّنُّ والقَرْنُ: طَلَعا، والنَّجمُ: الثُّريّا، اسمٌ لها، وليس لهذا الحديث نَجْمٌ، أي: لا أصلَ أو مَطْلَعٌ، والنَّجمُ من النَّباتِ: ما لم يكن لَهُ ساقٌ، من نَجَمَ؛ إذا طَلَعَ[7]، والمعنى المِحوريُّ: طلوعُ الجِرمِ أو نتوؤُه دقيقًا من سطحٍ يَنْضَمُّ عليه، كنَجْم النَّبات، وهو صِغاره،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 144، 149، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 339، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 55، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 235.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسب).
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (حسب).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (حسب).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حسب).
(6) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 112، والأخفش، معاني القرآن، ص: 2/ 530، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 436.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نجم).

مقابلَ الشَّجَر، ونجوم السَّماءِ تبدو دقيقة[1]، والمرادُ بالنَّجم هاهُنا: إمّا نَجْمُ السَّماءِ، وهو موَحَّدٌ، والمُرادُ بهِ جَميعُ النُّجومِ، وإمّا النَّجْمُ النَّباتُ الَّذي قَدْ نَجُمَ في الأَرْضِ، وانبَسَطَ فيها، لَيْسَ لَهُ ساقٌ[2].

3) ﴿وَوَضَعَ﴾: (وضع) أصلٌ واحِدٌ يدلُّ على الخفْضِ للشَّيءِ وحَطِّه، ووَضَعْتُهُ بالأرضِ وضْعًا، ووَضَعَتِ المرأةُ ولدَها[3]، ووَضعَ عنهُ الدَّيْنَ والدَّمَ وجميعَ أنواعِ الجنايةِ يضعُه وضْعًا: أَسْقَطَه عنهُ[4]، والوضعُ أعمُّ منَ الحَطِّ، ومنه: المَوْضِعُ، ويُقالُ ذَلِكَ في الحَمْلِ والحِمْلِ، ويُقالُ: وضَعَتِ الحملَ، فهو مَوْضوعٌ[5]، ووَضَعَ الشَّيءَ من يده: ألقاهُ، ووَضَعَ الشَّيءَ: ضِدُّ رَفَعَه، ووضعَ الشَّيءَ في المكان: أَثْبتَه فيه، ووَضع العَلَمَ: هَدَمَهُ، وأَلْصَقَه بالأرض، والمَعنَى المِحوريُّ: الهويُّ بالشَّيءِ إلى مَقرٍّ مُنخفضٍ يَثْبُتُ فيه عن حيِّزٍ عالٍ كانَ فيه[6]، واخْتُلِفَ في المُرادِ: بـ (وَضَعَ) في قوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ على عددٍ من الأقوالِ، الأَوَّل: أَلْقاهُ في الأرض، بمعنى أوجده، والثّاني: نَصبَه، وأقَرَّهُ، وثبَّتَه[7]، والثّالث: شَرَعَ العَدلَ، وأمَرَ بهِ[8]، والرّابع: خَفَضَ ميزانَ العَدلِ إلى أرضِ النَّفس والبدنِ[9].

4) ﴿ٱلْمِيزَانَ﴾: (وزن) بناءٌ يدلُّ على تعديلٍ واستقامةٍ، ووَزَنْتُ الشَّيءَ وزنًا، والزِّنَةُ: قَدْرُ وزنِ الشَّيءِ، والأصلُ وزْنَة، ويقالُ: قام ميزانُ النَّهار؛ إذا انتصفَ النَّهارُ، وهذا يوازِنُ ذلكَ، أي: هو مُحاذيه، ووزينُ الرَّأي: معتَدِلُه، ويقال لِلآلةِ التي توزنُ بها الأشياءُ: ميزانٌ، وأصلُه مِوْزانٌ، انقلبت الواوُ ياءً لكسرةِ ما قبلَها، وجمعُه مَوازين، واخْتُلِفَ في المرادِ بالميزان في قولِه: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ على أقوالٍ، الأَوَّل: أَنَّهُ الميزانُ ذو اللِّسانِ، أي: هداهم للآلة المعروفةِ؛ ليَتَناصَفَ بهِ النّاسُ في الحُقوقِ. والثّاني: أنَّه الحُكمُ. والثّالِثُ: أَنَّهُ العَدْلُ، والرّابعُ: أَنَّهُ القرآنُ[10].

---

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نجم).

(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 424، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 341، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 146، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 236، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 787.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وضع).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (وضع).

(5) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (وضع).

(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وضع).

(7) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 341، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 154، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 56.

(8) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 177.

(9) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 101.

(10) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 436، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 341، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 154، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 56، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 151.

5) ﴿تَطۡغَوۡاْ﴾: (طغى) أَصْلٌ صَحيحٌ مُنْقاسٌ، وهو مُجاوَزَةُ الحَدِّ في العِصْيانِ، يُقالُ: هو طاغٍ، وطَغَى السَّيْلُ: إذا جاءَ بماءٍ كثيرٍ، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ﴾ [الحاقّة: 11]، يُريدُ خُروجَهُ عَنِ المِقدارِ، وطَغَى البَحْرُ: هاجَتْ أمْواجُهُ، وطَغَى الدَّمُ: تَبيَّغَ[1]، والطُّغْيانُ والطُّغْوان لُغَةٌ، والفِعْلُ منه: طَغَيْتُ وطَغَوْتُ[2]، والمعنى المِحوريُّ: ارتفاعُ الشَّيءِ باستغلاظٍ وتجاوزٍ حتّى يَغْشَى، ويُغطّيَ ما حولَه[3]، والمُرادُ بـ ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾، أي: لا تُجاوِزوا العدلَ[4].

6) ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾: (قسط) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنَيين متضادَّين والبناءُ واحد، فالقِسْطُ: العَدلُ، قال اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾ [المائدة: 42]، والقَسْطُ بفتح القاف: الجَوْرُ، والقِسطاسُ: الميزانُ[5]، ومنه الإقساطُ: وهو العَدلُ في القِسمة والحُكْم، وتقول: أقسَطْتُ بينَهم، وأقسَطْتُ إليهم، والقِسْطُ: الحِصَّة التي تَنوبُه[6]، وتَقَسَّطوا بينَهم الشَّيءَ، أي: اقتسموه بالتَّسويَة، فكلُّ مِقدارٍ قِسْطٌ في كلِّ شيءٍ، والقِسْطُ: يَسْتَوي فيه الواحدُ والجَميعُ، وقولُه تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ﴾ [الأنبياء: 47]، أي: ذواتِ القِسْطِ، أي: العَدْلِ، وقولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 282]، أي: أَقْوَمُ وأعْدَلُ[7]، وأَقْسَطَ، أي: عَدَلَ، فهوَ مُقْسِطٌ، وفي أسْمائِهِ تعالى الحُسْنَى المُقْسِطُ: هو العادِلُ[8]، والقِسْطُ: هو النَّصيب بالعَدل كالنَّصَف والنَّصَفة[9]، والمُرادُ في قولِه: ﴿بِٱلۡقِسۡطِ﴾ أي: بالعَدلِ[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بدأ النَّظمُ الحكيمُ في تفصيلِ البيانِ الكونيِّ، بعدَ إجمال البيانِ القرآنيِّ واللُّغويِّ؛ ليقرأ الإنسانُ بما أودع فيه الخالقُ من عقلٍ وقلب، وسَمْعٍ وبَصَرٍ، آياتِ اللّهِ ونِعمَهُ في الكون الفسيح، فالشَّمسُ والقَمرُ يجريان بحسابٍ مقدورٍ، كُلٌّ في فلَكِه، وهما أظهرُ ما

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغى).
(2) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (طغى).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (طغو - طغي).
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 138.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسط).
(6) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (قسط).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (قسط).
(8) الزّبيديّ، تاج العروس: (قسط).
(9) الرّاغب، مفردات القرآن: (قسط).
(10) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 424.

تفصيلُ مجالات البيانِ في آفاق الكونِ الرَّحيبِ

في العالَم العُلْويِّ المنظورِ من نجوم وكواكبَ، بحيثُ يقعان في نظرِ كلِّ إنسان، ويَدْنوان من مفهوم كلِّ ذي نظرٍ، فإذا نظر الإنسانُ إلى الشَّمس والقمر، نظرًا قائمًا على الدَّرس والحِساب، أسلَمَه هذا النَّظرُ إلى ما وراء الشَّمس والقمر، من قدرةِ اللّهِ العليم الخبير، وإذا قَصُرَ نظرُ الإنسانِ عن أن يرى ما وراءَ الشَّمس والقمر في العالَم العُلْويِّ، فليُقِمْ نَظرَه على ما بين يديه من العالَم الأرضي؛ يجد وجهَ الأرض، وقد نجمت فيه نجومٌ أشبهُ بنجوم السَّماءِ، فإنَّ قيام النَّجم والشَّجر من النَّبات بحُسبانٍ أيضًا، دليلٌ آخرَ من أدلَّة القُدرةِ الإلَهيَّة، قائمٌ في مِحراب الولاء والخُضوعِ والسُّجود للّه ربِّ العالَمين، فكما في العالَم العُلْويِّ مجالٌ فسيحٌ للنَّظر والكَشْفِ عن علوم لا حدودَ لها، فكذلكَ في عالَم النَّباتِ، نجمِه وشجرِه، عِلمٌ لا ينتهي أبدًا.

ثمَّ لفت الأنظارَ إلى نعمةٍ أُخرى من نِعَم اللّهِ تعالى، وهي هذه السَّماءُ المرفوعةُ كالمِظَلَّةِ فوقَ النّاس، بلا عَمَدٍ تقوم عليها، وإنَّما يد القُدرة هي التي تُمسكُ بها، وتقيمُها على ميزانٍ دقيقٍ لا ينحرفُ قيدَ أُنْمُلَةٍ، ووَضَعَ لها حسابًا دقيقًا، وميزانًا مضبوطًا تجري عليه أمورُها، ودعاهم بما في نظام السَّماء من الحُسبانِ الدَّقيقِ والميزانِ الرَّهيف، إلى أن يُقيموا أمرَهم في التَّعامل مع هذه العوالم على العَدلِ والإحسانِ، فلا يَنحرفُ بهم النَّظرُ عن مواقع الحقِّ منها، فذلك ضلالٌ وخُسرانٌ للميزان الذي وضعَهُ اللّه تعالى في أيديهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مَوقعُ الجملةِ ممّا قبلَها ودلالتُها في ثراءِ المعنى:

دِقَّةُ الجَريانِ من آثار قدرة الرَّحمنِ

جاءتْ جملةُ: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ خبرًا رابعًا عن المبتدأ الذي صَدَّر به النَّظمُ الجليلُ السّورةَ، وهو اسمُ اللّهِ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 664 - 667.

وذلك لضرورةِ الرَّبط بينها وبين الجُمل السّابقةِ، ورابطُ الجملةِ بالمبتدأ تقديره: بحُسبانِه، أي: بحُسبانِ الرَّحمنِ وضبطِه، وفي هذه الجملةِ استدلالٌ على تفرُّدِ اللهِ تعالى بخَلْق الشَّمسِ والقمرِ، وامتنانٌ بما أَوْدَعَ فيهما من منافعَ للنّاسِ، وبنظامِ سيرِهما الذي به تدقيقُ نظامِ معاملاتِ النّاس واستعدادهم؛ لما يحتاجون إليه عند تغيُّراتِ أجوائهم وأرزاقهم، ويتضمَّن الامتنان بما في ذلك من منافعهم[1].

سِرُّ مجيء هذه الجملةِ بدون عاطف:

تبكيتُ الكفّار لعبادَتِهمُ الشَّمسَ والقمرَ

جاء النَّظمُ الحكيم بدون عاطف في قول اللهِ تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾، كما هو حال الجُمَل السّابقة عليه؛ وذلك لأنَّ الخبر جارٍ على أسلوب التَّعديد، الذي يَرمي إلى تبكيتهم، ووَجْهُهُ: أنَّهم غفلوا عمّا في نظام الشَّمس والقمر من الحِكمة، وما يدلُّ عليه ذلك النِّظامُ من تفرُّد اللهِ بتقديره، فاشتغل بعضُهم بعبادة الشَّمسِ، وبعضُهم بعبادةِ القمرِ، كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيۡلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُۚ لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ وَٱسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ٣٧﴾ [فصّلت: 37][2].

سِرُّ تقديم ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ على القمر:

خضوعُ الأكبر دليلٌ على خضوع الأصغر

قدَّم النَّظمُ الجليلُ ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ على ﴿وَٱلۡقَمَرُ﴾ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾، فبدأ بالكوكب الأعظم الذي هو أعظمُ نورًا وأكبرُ جِرمًا وأعمُّ نفعًا؛ ليكونَ خضوعُه لقَبول الآثار أدلَّ على خضوع غيره، بيانًا لحكمته في تدبيره وقوَّته في تقديره[3]، وكذلك قدَّم الشَّمسَ؛ لأنَّها أظهرُ وأوضحُ للرّائين، ولأنَّها الأصل في ضوء القمرِ، ولولا ضوؤُها ما بدا القمرُ على هذا النَّحو المنير في ظلمة اللَّيل.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 234.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 234.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 144.

التـنـبـيـهُ إلى بالغِ اقتدارِ اللهِ تعالى بتسخيرِ المتلازماتِ

بلاغة التَّعبير بمراعاة النَّظير بين ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾:

استعمل النَّظمُ مُراعاةَ النَّظير في ذكر ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾[1]؛ وذلك لإيضاحِ اقتدارِ اللّهِ تعالى على كلِّ ظواهرِ الكونِ، فأضفَى على المعنَى حُسنًا وجمالًا، وزادَهُ رَونقًا وبيانًا، ولو جاء النَّظمُ بذِكرِ الشَّمس وحدَها لما كانَ للآيةِ هذا التَّأثيرُ البليغُ في النُّفوسِ والعقولِ، وقد يكون من باب إيهام الطِّباق، وسِرُّ ذلك أنَّ السّورةَ بُنيت على ذِكر الأمورِ المزدوجةِ، والشَّمس والقَمر مزدوجان في معارف عموم النّاس، فالشَّمسُ نجمٌ مشتعلٌ وهّاجٌ، والقمرُ كويكبٌ معْتِمٌ باردٌ يُضيء بانعكاسِ ضوءِ الشَّمس، فذِكرُ الشَّمس والقمر كذكر السَّماء والأرض والمشرقِ والمغربِ والبحرين[2].

من دلائل اقتدار اللـهِ ومَـنِّـهِ أنَّ الحُسبانَ ثابتٌ لا يتغيَّر

سِرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ في ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ عدَلَ النَّظمُ عن استعمالِ الجملة الفعليَّة، كما هو الحالُ في الجُمَلِ الثَّلاثِ السّابقة، واستُغني بجَعْلِ اسمِ الشَّمس والقمر مسندًا إليهما عن تفكيك المسند إلى مسندين، أحدهما: يدلُّ على الاستدلال، والآخر: يدلُّ على الامتنان، كما وقع في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، فجاء بهذه الجملةِ اسميَّةً للتَّهويل بالابتداء باسم الشَّمس والقمر، وللدَّلالة على أنَّ حسبانَهما ثابتٌ لا يتغيَّرُ منذ بدءِ الخَلْق، مُؤذِنٌ بحكمة الخالق[3].

تقديرُ الحِسابِ بعدَ الوقوعِ، أمّا الحُسبانُ؛ فقبلَ الوقوعِ

سِرُّ إيثار مفردة ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾، ومَعنى الباءِ ودَلالتُها:

الفرقُ بين الحسابِ والحُسبان: أنَّ الحساب مُقدَّرٌ بعدَ وقوعِ ما يُحسَبُ وما يُعَدُّ، أمّا الحُسبانُ؛ فإنَّه يُحسَبُ، ويُقدَّر قبلَ الوقوعِ[4]، وهو الملائمُ للمُرادِ هنا، وهو بيانُ القُدرةِ والإنعام، وكأنَّ المعنى: لولاهما ما قدَرَ أحدٌ

(1) البابرتي، شرح التّلخيص، ص: 620.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 234.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 234.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 5/ 2601.

على الحساب، و(حُسْبان) على وزن (فعلان) الدّالّ عادةً على المبالغة كَكُفْرانِ النِّعمة، وغُفرانِ الله، وجاءَ القرآن بهذه الكلمةِ في مَوضِعَين اثنين فيما يتَّصلُ بالشَّمس والقمر، هنا، وفي قوله: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ [الأنعام: 96]، ولذلك لم يقلِ الحقُّ حِسابًا، وجاءَ بـ(حسبان) في الموضِعَين؛ لأنَّ الأمر يقتضي مبالغةً في الدِّقَّةِ، فهذا ليسَ مُجرَّدَ حسابٍ، لكنَّه حُسبان[1]، والشَّمس والقمرُ يجريان بحُسبانٍ مُقدَّر معلوم في بروجهما ومنازلهما، ووفقَ سُرعةٍ مُقدَّرةٍ لا تتغيَّر، ولا تتبدَّلُ، يعلمها الفلكيّون والدّارسون، بحيثُ تنتظم بذلك أمورُ الكائنات السُّفليَّة، وتختلف الفصولُ والأوقاتُ، وتُعلَم السُّنونُ والحِساب[2]، ولولا اللَّيلُ والنَّهار، والشَّمس والقمر، لم يدرِ أحدٌ كيفَ يَحْسِب؛ لأنَّ الدَّهر يكون كلُّه ليلًا أو نهارًا[3]، ولَما انتظمت عباداتُ المؤمنين في الصّيام برؤية هلالِ رمضان، وفي الحَجِّ برؤية هلال ذي الحجَّة، والباء في قوله: ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ للمُلابسة، وهي ظرفٌ مستقرٌّ، هو خبرٌ عن الشَّمس والقمر، والتَّقدير: كائنانِ بحُسْبانٍ، أي: بملابسة حُسْبانٍ، أي: لحساب النّاس مواقعَ سيرهما[4].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمجازِ العَقْليّ في إسنادِ الخبرِ ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ للمبتدأ:

الشَّمسُ والقمرُ سببٌ لتَلبُّس النّاسِ بالحسابِ الدَّقيق

في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾، أسند النَّظمُ الجليلُ المُلابسةَ إلى الشَّمس والقمر على طريقةِ المجازِ العقليِّ؛ لأنَّ الشَّمسَ والقمرَ سببٌ لتَلبُّس النّاس بحسابهما، كما تقول: أنتَ بعنايةٍ منّي، أي: جعلتَ عنايتَكَ مُلابِسةً للمُخاطَب مُلابسةً اعتباريَّةً، فالحُسبانُ كنايةٌ عن انتظامِ سيرهما انتظامًا مُطَّردًا، لا يختلُّ حسابُ النّاسِ له والتَّوقيتُ به[5].

(1) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 6/ 3811 - 3813، و23/ 14809 - 14811.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 144، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 107.
(3) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 268.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 234.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 235.

سِرُّ الاقتصارِ على ذِكر الشَّمسِ والقمرِ دونَ غيرِهما:

الاقتصارُ على الدَّليل شديدِ الوضوحِ لإقناع العقولِ بما اعتادَته

اقتصرَ النَّظمُ الكريم على ذِكرِ الشَّمس والقمر دونَ بقيَّةِ الكواكبِ، وإن كان فيها حُسبانُ الأنواء والحَرِّ والبَردِ، مثلَ الجَوزاءِ والشِّعْرَى والثُّريّا؛ لأنَّ الشَّمسَ والقمرَ هما الباديان لجميعِ النّاس، لا يَحتاج تَعقُّلُ أحوالِهما إلى تعليم توقيتٍ مثلَ الكواكبِ الأُخرى[1]، فهما دليلان واضحانِ، لا يحتاجان إلى بُرهانٍ عقليٍّ، أو حُجَّةٍ نظريةٍ.

دلالةُ العَطفِ بالواو في ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾:

التَّناسُبُ التَّقابُليُّ بينَ نعم الله

في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ عطف النَّظمُ الجليلُ الجملةَ بالواو، على الجملة السّابقة عليها، وهي قولُه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾، فأفادَ إثباتَ التَّناسبِ التَّقابليِّ بين الشَّمس والقمر من ناحيةٍ، والنَّجمِ والشَّجرِ من ناحية أُخرى، فالشَّمسُ والقمرُ جِرمان عُلْويّانِ مُضيئان مُتحرِّكان، لا حياةَ فيهما، وأمّا النَّجم - على القولِ بأنَّه النَّبات الذي لا ساقَ له - والشَّجرُ؛ فهما مخلوقان سُفليّانِ حَيّانِ ثابتان[2].

وكذلك فقد جاء العطفُ لتَعداد النِّعم دونَ التَّوبيخِ، فقد أخلى الجُمَلَ - أي: التي قبل ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ - عن العاطف؛ لأنَّ الغَرضَ تعديدُ النِّعمِ وتبكيتُ المُنكِر، كأنَّه لمّا عَدَّ نِعمَه حَرَّك منه حتّى يتأمَّلَ هل شكرَها حقَّ شُكرِها أم لا؟ ثمَّ يأخذ في أُخرى، ولو جيء بالعاطف؛ صارتْ كواحدةٍ، ولم يكن من التَّحريك في شيء، ولمّا تم الكلام من التَّعديدِ المُحرِّكِ والتَّبكيتِ، بذِكر ما هو أصلُ النِّعم على نمطٍ؛ ردَّ الكلامَ على منهاجه الأصليِّ، من تعدادِ النِّعم واحدةٍ بعد أُخرى، على التَّناسب والتَّقارُبِ بحرف النَّسقِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ النِّعمَ لا تُحصى، فلْيَكتَفِ بتعديد أجَلِّها رُتبةً للغرض المَذكور،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 235.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 340.

فإخلاءُ الجُمَلِ الثّانيةِ والثّالثةِ والرّابعةِ عن العاطف، إنَّما هو ورودُها على نَهْجِ التَّعديد، معَ الإشارةِ إلى أنَّ كُلًّا ممّا تضمَّنَته نِعمةٌ مستقِلَّةٌ تقتضي الشُّكرَ، وقد قَصَّروا في أدائه، ولو عُطِفت مع شِدَّة اتِّصالِها وتناسبِها؛ لربَّما توهِّم أنَّ الكُلَّ نعمةٌ واحدة[1].

سرُّ خُلوِّ الآيتين من الرّابطِ اللّفظيِّ:

لم يَدَّعِ أحدٌ من البشرِ تسخير الشمس والقمر

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾، خلت الآيتان عن الرّابط اللّفظيِّ مع كونهما خبرين؛ وذلك لأنَّ الأصلَ في تركيبهما: (والشمسُ والقمرُ بحسبانِه، والنَّجم والشَّجرُ يسجدانِ له)، وسرُّ الخُلوِّ من الرّابط اللّفظيِّ التَّعويلُ على كمال قوَّة الارتباطِ المعنويِّ؛ إذ لا يُتوهَّم ذهابُ الوَهم إلى كون حال ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾، بتسخير غير اللّهِ ﷻ، ولا إلى كون سجودِ النَّجم والشَّجر لأحدٍ سواه تعالى، فاستغنى عن الرّابطِ اللّفظيِّ[2].

الغَرضُ من التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة ﴿وَٱلنَّجۡمُ﴾:

التَّعبير بالجملة الاسميَّة لثبات أصل الإنعام

استعمل النَّظمُ الحكيم الجملةَ الاسميَّةَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾؛ للدَّلالةِ على ثباتِ الامتنان بنعمةِ النَّباتِ عمومًا، فذَكر ما لا ساقَ لهُ، وهو النَّجم، وما له ساقٌ، وهو الشَّجرُ، فامتنَّ بذِكر ما هو أصل الرِّزق من الحُبوب، والثّمار، والحشيش للدَّوابِّ، ولمّا كانت هذه الأربعةُ مغايرةً؛ لجنس الإنسان في ذاته وصفاته؛ غيَّر النَّظمُ بإيرادها في صورة الاسميَّة؛ تحقيقًا للتَّغاير بينهما وضعًا، وطبعًا، وصورةً، ومعنًى، والمعنى، أي: والزَّرع والشَّجر ينقادان للّه سبحانه فيما أراد بهما طبعًا، كما ينقاد المُكلَّف اختيارًا، فما اختلافُ ثمرِهما في الشَّكل، والهيئةِ، واللَّون، والمِقدار، والطَّعم،

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 100.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 177.

والرّائحة، إلّا انقيادٌ للقُدرة التي أرادت ذلك[1]، وجُعِلت الجملةُ مفتتحةً بالمسند إليه؛ لتكون على صورة فاتحة الجملة التي عُطِفت عليها[2]، وهي الجملُ التي ذَكرت الامتنانَ برفع السَّماءِ، ووضعِ الأرض، وذِكْر الحَبِّ.

سرُّ تقديمِ النَّجم على الشَّجَر:

بدأ بما هوَ أعمُّ نفعًا وأعظمُ وقعًا للإنسان والحيوانِ

قدَّم النَّظمُ الحكيم في قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾، ذِكْرَ الأصغر من جنس النَّبات وهو النَّجم، وأخَّر الجنس الأكبر، وهو الشَّجَر، على غير ما جرى عليه النَّظمُ في الآية السّابقة من تقديم الشَّمس، وهي الكبرى من بين النُّجوم، على القمر، وهو الأصغر من بين الكواكب، والسِّرُّ في ذلك: أنَّ النَّجم أعَمُّ نفعًا وأعظم وقعًا في حياة الإنسان والحيوان؛ لأنَّ منه أكثرَ الأقوات لجميع الحيوان والملابس من القطن والكِتّان وغير ذلك من عجيب الشَّأن[3].

المُوازنة اللَّفظيَّة والمعنويَّةُ بين الشَّمس والقمرِ والنَّجم

وفي تقديم النَّجم على الشَّجرِ موازنةٌ لفظيَّةٌ للشَّمس والقمر، وأمرٌ معنويٌّ، وهو أنَّ النَّجم في معنى السُّجود أدخل، لما أنَّه ينبسط على الأرض كالسّاجد حقيقةً، كما أنَّ الشَّمس في الحُسبان أدخلُ؛ لأنَّ حساب سيرها أيسرُ عند المُقوِّمين من حساب سير القمر؛ إذ ليس عند المُقوِّمين أصعبُ من تقويم القمر في حساب الزّيج[4].

بلاغة التَّعبيرِ بإيهام التَّوريةِ أو إيهام التَّناسبِ:

في ذِكر اللَّفظ القريب وإرادةِ المعنى البعيد لفتٌ للانتباهِ

اختلف العلماءُ في المُرادِ بالنَّجم في قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ على قولين، **الأوَّلُ:** أنَّ المُرادَ به النَّباتُ الذي لا ساقَ له، **والآخرُ:** أنَّهُ النَّجم الذي في السَّماء[5]، وجمع بعضهم بين القولينِ؛

(1) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 269.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 236.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 146.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 341.
(5) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 424، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 341، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 146، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 236، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 7/ 787.

بناءً على قاعدة: الجمع بين معاني المشترَك اللَّفظيِّ؛ إن لم يكن بينها تضادٌّ[1]، فأجرى لفظَ (النَّجم) على المعنَيين كليهما.

والجمهورُ على تفسير النَّجم بما لا ساق له من النَّباتِ؛ مراعاةً للفظ الشَّجر، وكذلك لتجنُّب التَّكرار، فإنَّ الشَّمس من جِنس النُّجوم أيضًا، ولأنَّ قولَه: ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ يدلُّ على أنَّ المُراد ليس نجمَ السَّماء؛ لأنَّ مَن فسَّر به؛ قال: يسجد بالغروب، وعلى هذا فالشَّمس والقمر أيضًا كذلك يَغْرُبان، فلا يبقى للاختصاص بذِكر سجودِهما فائدةٌ، وأمّا إذا قلنا: هما أرضيّان؛ فنقول: ﴿يَسۡجُدَانِ﴾، بمعنى: ظلالِهما تَسجدُ، فيختصُّ السُّجودُ بهما دونَ الشَّمس والقمر[2]، فكان في تقدُّمِ ذِكر الشَّمس والقمر ما يُتَوَهَّمُ منه أنَّ النَّجم هاهنا بمعناه المعروف، أي: النَّجم الذي في السَّماء، ففيه توريةٌ ظاهرة، وقيل: بل هو إيهام التَّناسبِ[3]، وذلك بذِكر اللَّفظ القريب وإرادةِ المعنى البعيد، وفيها إعمالٌ للذِّهن، ولفتٌ للانتباهِ لهذه الآلاء والنِّعم، على وجه يَحثُّ على التَّفكُّر والتَّدبُّر.

بَلاغةُ مُراعاةِ النَّظيرِ في ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ﴾:

تحقيق الانسجام اللَّفظيِّ والتَّوكيدِ المعنويِّ

القولُ بأنَّ النَّجم في قولِه تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾، هو النَّبات الذي لا ساقَ له، يجعل استعمالَ هذا اللَّفظ في هذا المعنى من بابِ مُراعاةِ النَّظير، وهو استعمالٌ يُكسِب النَّظمَ الجليل من التَّناسب بين ألفاظ هذه الآيةِ وما قبلها، ما يُسهم في تحقيق الانسجام والتَّناسق والتَّناغم وموافقةِ الكلام لمقتضى الحال، وهو كذلك يوقِظُ الحِسَّ الجماليَّ للنَّص الكريم في ذِهنِ المُتلقّي، ويُضفي على الآية مَظهرًا من مظاهر القوَّة والمتانة، فإنَّ المعاني المُتناسبةَ

(1) الشّيرازيّ، التّبصرة في أصول الفقه، ص: 184، والآمديّ، الإحكام في أصول الأحكام: 2/ 242، وابن النّجار الفتوحيّ، شرح الكوكب المنير: 1/ 140 - 141.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 341.

(3) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 129، وبسيونيّ فيود، علم البديع، ص: 161.

يُعَزِّز بعضُها دلالةَ بعضٍ، ويُنَمّيها، ويَشُدُّ أزرَها، كما أنَّه يجعل الكلامَ سَلِسًا وعَذبًا، فكلُّ لفظٍ يسكن بجوار أخيه خاليًا من الثَّغرات.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ مادَّة:

السُّجودُ أخصُّ الأفعالِ الدّالَّةِ على الانقياد

استعمل النَّظمُ مادَّةَ (سجد)، في قول اللّه تبارکت آلاؤه: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾، وعدلَ عن غيرها من الألفاظ التي قد تكون ملائمةً للسّياق، مثل: (يخضعان)، أو (خاضعان)، أو (ينقادان)، أو (منقادان)؛ لأنَّ السُّجود يُطلَقُ على وضع الوجه ومُقَدَّم الرَّأسِ على الأرض بقصد التَّعظيم، وهو أخصُّ أفعالِ الصَّلاة وأكثرُها تعبيرًا عن تمام الانقياد والخضوع والتَّسليم للّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملة الفعليّة:

الكونُ كلُّه في حالة عبادةٍ متجدِّدة لله ﷻ

أُتيَ بالمُسنَد فعلًا مضارعًا؛ للدَّلالة على تجدُّد هذا السُّجود وتكرُّره[1]، فالكونُ كلُّه في حالةِ عبادَةٍ متجدِّدَةٍ؛ تسليمًا لأمر اللّهِ تعالى، وإذعانًا باقتداره بما له من الكبرياء والعِزَّة، وفي تقديم المسنَد إليه (النَّجم)، على خبره الذي هو جملةٌ فعليَّة، قَصْرٌ لسجود الكائنات على اللّه وحدَه.

دلالةُ الفعل ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ بينَ الحقيقةِ والمَجاز:

السُّجودُ حركةُ الظِّلالِ، أو سجودٌ لا نفقهُ كُنْهَهُ

اختلف العلماءُ في المراد بسجود النَّجم والشَّجر على عدد من المعاني، منها ما هو حقيقي، ومنها ما هو مجازيٌّ، فمن الحقيقيِّ: أنَّ معنى سجودِهما أنهما يستقبلانِ الشَّمسَ؛ إذا طلعت، ثمَّ يَميلان معها حين ينكسر الفَيْءُ[2]، وقيل: دورانُ الظِّلِّ معهما، كما قالَ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ﴾ [النّحل: 48]، وقد قيل: إنَّ النَّجمَ أيضًا يُرادُ بِه النُّجومُ، وهذا جائزٌ أن يكونَ؛ لأنَّ اللّه تعالى قَد أعلَمَنا أنَّ النَّجمَ يسجدُ، فقالَ:

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 236.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 112.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ﴾ [الحج: 18][1]، وقيل: المرادُ أنَّ حقيقة السُّجود توجد منهما، وإن لم تكن مَرئيَّةً، كما يُسَبِّحُ كلٌّ منهما، وإن لم يُفْقَه، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: 44][2].

وأمّا على المجازِ؛ ففي ﴿يَسۡجُدَانِ﴾ استعارةٌ، فهو تشبيهٌ للنَّجم والشَّجر بالإنسان والحيوان، فإنَّهُ إذا كانت حقيقةُ السُّجود وضعَ الجبهةِ أو مقاديمِ الرَّأس على الأرض؛ فالنَّجمُ والشَّجر في الحقيقة رُؤوسُهما على الأرض وأرجلُهما في الهواء؛ لأنَّ الرَّأس من الحيوان ما به شُربه واغتذاؤه، والنَّجم والشَّجر اغتذاؤهما وشربُهما بأجذالهما في باطن الأرض، فهو سجودُهما بالشَّبه، لا بطريق الحقيقة[3]، وغالبُ المفسِّرين على أنَّ معنى السُّجودِ في النَّجمِ والشَّجرِ أنَّهُما يخضعان، وينقادان لما يُراد منهما، ويَذِلّان للانتفاع بهما انقيادَ السّاجد من العقلاء لِما أُمِرَ به، بجَرْيهما لِما سُخِّرا له، وطاعتِهما لِما قُدِّرا فيه من غير إباءٍ، على تجدُّد الأوقات[4].

بلاغة السَّجع في الآيتين:

كمالُ السَّجعِ يُسهِم في زيادة الإحساس بالمعنى

حصل من قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾، بعد قوله: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾، قرينتان متوازيتان في الحركة والسُّكون، وهذا من المُحسِّنات البَديعيَّة الكاملة، فقدِ اتَّفقت كَلِمتا (القمر) و(الشَّجر) في الوزن والقافية، وكذلك ﴿بِحُسۡبَانٖ﴾ و﴿يَسۡجُدَانِ﴾، واتَّفقت كلمةُ ﴿ٱلشَّمۡسُ﴾ و(النَّجم) في الوزن دون القافيَة[5].

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 96.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 341.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 341.
(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 19/ 147، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 236 - 237.
(5) الدّسوقيّ، حاشية الدّسوقيّ على مختصر المعاني: 4/ 195.

دَلالةُ العطفِ في ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾، والتَّعبير بالجملة الفعليَّةِ:

التَّراوحُ بين الوصل والفصل تنويعٌ في ذِكرِ النِّعَمِ والآلاءِ

عطفَ النَّظمُ الحكيمُ قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ على قولِه: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾، فعاد الكلامُ إلى طريقة الإخبارِ عن المسند إليه بالمسند الفعليِّ، كما في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وهذا معطوف على الخبر، فهو في معناه[1]، وقد آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبير، بالجملةِ الفعليَّةِ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾، دونَ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ كما في الآيتين السّابقتينِ؛ وذلك لأنَّهُ لمّا كان تغيُّرُ ما تقدَّم من الشَّمس والقمر والنَّجم والشَّجر، يدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّه سبحانه هو المؤثِّرُ فيه، وكانت السَّماءُ والأرضُ ثابتَتَين على حالةٍ واحدةٍ، فكان ربَّما أشكل أمرُهما، كما ضلَّ فيهما خَلْقٌ من أهل الوَحْدَة، أهلِ الجُمود والاغترار والوقوف مع الشّاهد وغيرهم[2].

توجيهُ العطفِ بالنَّصبِ في ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾:

العدول من معنى دوامِ التَّسخير والانقيادِ إلى معنى التَّوكيد

اختلفتِ الأنظارُ في توجيه عطفِ ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ بالنَّصب، على ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ بالرَّفع، فذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّها منصوبةٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ على شريطة التَّفسير، أي: (ورفع السَّماءَ، رَفَعَها) للتَّوكيدِ، فتكون الجملةُ فعليَّةً؛ وذلك لأنَّ العطفَ على جملة: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ الكبرى، يَلْزم منه تخالفُ الجُملَتين المعطوفة والمعطوف عليها، بالاسميَّة والفعليَّة، وهو خِلاف الأوْلَى، وكذلك فإنَّ العَطفَ على جملةٍ عُطِفَت على جملة ﴿يَسْجُدَانِ﴾ الصُّغرى، يَلْزمُ منه أن تكون خبرًا للنَّجم والشَّجر مثلَها، وذلك لا يصِحُّ؛ إذ لا عائدَ فيها إليهما، وكذا يقال في العطف على كبرى وصغرى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، وأجيب عن ذلك بأنَّهُ لا يلزم في المعطوف على الشَّيء أن

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 237.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 147.

يُعْتَبر فيه حالُ ذلك الشَّيء، ورجَّحَ آخرون أنَّ العطفَ على جملة: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾، يُؤْذِنُ بأنَّ الأصل: (أجرى الشَّمسَ والقمر، وأسجد النَّجمَ والشَّجر)، فعدل إلى معنى دوام التَّسخير والانقياد في الجملَتَين الأوْلَيَين، ومعنى التَّوكيد في الأخيرة، فدلَّ الاختلاف في الأخبار المتوالية لـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ على معانٍ تبهر ذا اللُّبِّ[1].

الغرضُ من تقديمِ المفعولِ به في (السَّماءَ):

تقديم السَّماءِ للتَّنبيه بما فيها من أنواع البدائع علـى وحـدانـيَّـة اللهِ سبحانه

قدَّم النَّظمُ الجليل المفعول به (السَّماءَ)، في قولِ اللّٰه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن تكون الجملةُ: (ورَفَع السَّماءَ)؛ وذلك للدَّلالَةِ على عظَمةِ السَّماءِ وما فيها من عجيب النُّجوم والكواكب، كما في قولِ اللّٰه: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57]؛ تنبيهًا على التَّفكُّر فيما فيها من جلالة الصَّنائع وأنواع البدائع[2]؛ إذِ المقصودُ الأوَّلُ هو لَفْتُ الذِّهنِ للسَّماءِ، لا للرفع.

دلالةُ التَّعبير بالفعلِ ﴿رَفَعَهَا﴾ بين الحقيقة والمجازِ:

بـيـانٌ لـقـدرتـه وامتنانه بإعداد ما يُلائم الخَلقَ

في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ آثرَ النَّظم الحكيمُ استعمالَ الفعل (رفع) دون (خلق)؛ لأنَّ رفعَ السَّماء يقتضي خَلْقَها؛ إذِ المعنى: خلقها مرفوعةً ومسموكةً[3]، ومعنى ﴿رَفَعَهَا﴾: خَلقها مرفوعةً بغير أعمدة، كما يقال للخيّاط: وسِّعْ جيبَ القميص، أي: خِطْهُ واسعًا[4]، وفي أصل ﴿رَفَعَهَا﴾ الصّوريِّ الحسّيِّ قولانِ، **الأوَّلُ:** أنَّها كانت ملتصقةً بالأرض، ففتقها منها، وأعلاها عنها، بما يشهد لذلك من العقل عند كلِّ مَن له تأمُّلٌ، في أنَّ كلَّ جسمٍ ثقيلٍ ما رفعَهُ

(1) الباقوليّ، كشف المشكلات وإيضاح المعضلات: 2/ 1303 - 1304، والطِّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 150، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 101.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 147.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 444، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 410.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 237.

عمّا تحتَه إلّا رافعٌ، ولا رافِعَ لهذه إلّا اللّه، فإنَّه لا يَقْدر على التَّأثير غيرُه[1]، **والآخرُ**: أنَّهُ خلقها مرفوعةً ابتداءً، لا أنَّها كانت مخفوضة، ورَفَعَها[2]، وعلى كِلا التَّقديرين فإنَّ في رفع السَّماء بيانًا لقدرته تعالى، وتذكيرًا بامتنانه على خَلْقه برفعها بما ييسِّرُ معيشَتهم، فلو لم تكن السَّماءُ مرفوعةً على هذا النَّحو الهائل الشّاسعِ البديع المناسبِ للخَلْق أجمعين؛ لوجدوا في العيش عنَتًا وكَدًّا، ويجوز أن يكون المراد بالرَّفعِ في ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ ما يشمل الصّوريَّ والمعنويَّ بطريق عموم المجازِ، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز عند من يرى جوازَه[3].

دلالةُ التَّعبير بالسَّماءِ مفردَةً لا جمعًا:

الامتنانُ برفع السَّماءِ جهةَ العُلوِّ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ آثرَ النَّظمُ الحكيمُ استعمالَ (السماءَ) مفردةً دون الجمع (السماوات)؛ وذلك لأنَّ المرادَ هاهنا الامتنانُ برفع السَّماءِ جِهَةَ العُلوِّ، مقابلَ وضعِ الأرضِ في قولِه: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ [الذّاريات: 22]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ﴾ [الملك: 16]، وأمّا حيثُ أُريد العددُ أُتيَ بصيغة الجمع الدّالَّةِ على سعة العظَمةِ والكثرةِ، نحو: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الصّف: 1]، أي: جميعُ سكانها على كثرتهم، و﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الجمعة: 1]، أي: كلُّ واحدةٍ على اختلاف عددها[4].

دلالةُ العطفِ في ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾:

امتنَّ اللّه برفع السَّماءِ على أعدلِ الوجوه، ثمَّ امتنَّ بإقرار العدلِ لأهلِ الأرضِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ عطفَ النَّظمُ الجليلُ بالواوِ وضعَ الميزانِ على رفع السَّماءِ؛ وذلك لما بينهما من

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 147.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 101.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 444، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 150، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 56، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 147، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 101.
(4) السّيوطيّ، معترك الأقران: 3/ 480.

التَّناسبِ اللَّفظيِّ والمعنويِّ، فمن حيثُ التَّركيب كلتاهما جملةٌ فعليَّةٌ في صيغةِ المُضيِّ، وأمّا من حيثُ التَّناسبُ المعنويُّ؛ فإنَّه لمّا كانت السَّماء مع عُلوِّها الدّالِّ على عِزَّةِ موجدِها ومُدبِّرِها دالَّةً على عدله باعتدال جميعِ أحوالها، دلَّنا على أنَّه شرعَ لنا مثلَ ذلك العدلِ؛ لتقومَ أحوالُنا، وتصلحُ أقوالُنا وأفعالنا بما قامت به السَّماوات والأرض، فقال: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾[1].

سرُّ عطفِ وضعِ الميزانِ على ما سبقه من النِّعم والآلاءِ:

التَّدرُّجُ في بيانِ مظاهرِ الامتنانِ من القرآن إلى العدل والفرقانِ

في هذا العطف أيضًا لطيفةٌ أخرى، وهي أنَّه تعالى بدأ أوَّلًا بالعِلْم، ثمَّ ذكر ما فيه أشرفُ أنواع العلوم، وهو القرآن، ثمَّ ذكر العدلَ، وذكر أخصَّ الأمور له، وهو الميزان، وهو كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: 25]؛ ليعملَ النَّاسُ بالكتاب، ويفعلوا بالميزان ما يأمرهم به الكتابُ، فقولُه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾، مثلُ قولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: 25]، وكما أنَّ العقلَ والعلمَ صارا سببًا لبقاء عمارة العالم، كذلك العدلُ في الحُكم سببٌ، وأخصُّ الأسباب الميزانُ، فهو نعمةٌ كاملةٌ تسهم في بقاء الحضارةِ، واستقرار الأمم، ولا ينظر إلى عدم ظهور نعمةِ الميزانِ لكثرته وسهولة الوصول إليه، كالهواء والماء، اللَّذين لا يتبيَّن فضلُهما إلّا عند فقدهما[2].

بَلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل (وَضَعَ) بين الحقيقة والمجازِ:

بتشريع العدلِ واستقراره ثبتَ نظامُ العالَم

اختلفَ العلماءُ في المُرادِ بالفعل (وَضَعَ) في قوله: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ على أقوالٍ، **الأوَّلُ:** ألْقاهُ في الأرض، بمعنى أوجده، **والثّاني:** نَصبَه، وأقرَّهُ، وثبَّتَه[3]، **والثّالث**: شَرَعَ العدلَ، وأمَرَ به[4]، **والرّابع:**

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 148.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 342.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 341، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 154، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 56.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 177.

خَفَضَ ميزانَ العدلِ إلى أرضِ النَّفس والبدنِ[1]، وهذه المعاني كلُّها من المعاني المجازيَّة؛ لأنَّ المعنى الحقيقيَّ للوضع هو الهويُّ بالشَّيءِ إلى مَقرٍّ مُنخفضٍ يَثْبُتُ فيه عن حيِّزٍ عالٍ كانَ فيه[2]، وقد دلَّ الفعلُ (وضعَ) على أنَّهُ تعالى وفَّر لكلِّ مُسْتَحِقٍّ ما استحقَّه، ووفَّى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، حتّى انتظم به أمرُ العالَم، واستقامت أحوالُ الخَلْق[3]، فالوَضْعُ هُنا مُسْتَعارٌ بالجَعْلِ، فهو كالإنزالِ في قولِه: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الحديد: 25]، ومنهُ قَولُ أبي طلحةَ الأنصاريِّ: «وإنَّ أَحَبَّ أموالي إلَيَّ بَيْرَحاءُ، وإنَّها صَدَقَةٌ للّه، أرْجو برَّها وذُخْرَها عِنْدَ اللّه، فضَعْها يا رَسولَ اللّه حَيْثُ أراكَ اللّه»[4]، أي: اجعلْها، وعَيِّنْها لِما يدُلُّك اللّه عليه[5].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ الخفيِّ والمشاكلة الضِّدّيَّة:

تنبيهُ المتلقّين إلى بالغِ اقتدار اللهِ تعالى

جاء الطِّباق في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ بين الفعلين (رَفَعَ) و(وضَعَ)؛ لإيضاحِ اقتدار اللّهِ تعالى على كلِّ ظواهرِ الكونِ، فأضفَى على المعنَى حُسنًا وجمالًا، وزادَهُ رَونقًا وبيانًا، وقدِ اطَّرد في هذه الآية والآيات السّابقة عليها أسلوبُ المقابلةِ بين ما يُشبه الضِّدَّين بعد مقابلة ذِكر الشَّمس والقمر، بذِكر النَّجم والشَّجر، فجيء بذِكْر خَلْق السَّماء وخَلْق الأرض، كما جيء بذِكْر الرَّفع والخَفْض، فإطلاقُ الوضع في الآية بعد ذِكر رفع السَّماء مشاكلةٌ ضِدّيَّةٌ، وإيهامُ طباقٍ مع قوله: ﴿رَفَعَهَا﴾، ففيه محسِّنانِ بديعيّانِ[6]، فأضحى هذا الأسلوبُ أحدَ أهمِّ السِّمات الأسلوبيَّة في سورةِ الرَّحمن، فأسهَمَ في تنشيط الفاعِليَّةِ الإدراكيَّةِ في أذهانِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 101.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وضع).
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1484).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 177.
(5) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 238.
(6) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 238.

السّامِعينَ والمُتَلَقّينَ، وأدّى إلى ترسيخ قدرتهِ تعالى في عقولِ المتلَقّين وقلوبِهم، وعملَ على إيقاظ حواسِّهِم؛ لتدبُّر الكونِ الفسيحِ، وفيهِ حثٌّ للعاقِلِ على إمعانِ الفِكْرِ للاعتبارِ والاتّعاظِ بما في هذه النِّعم الجليلة والآلاء البديعة.

معنَى اللّامِ ودلالتُها في ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾:

الـمـيـزانُ إمّـا أن يـكـون الـمـيـزان الـمعـروف أو هو العدل

اختلفَ الأنظارُ في المرادِ بالميزان في قولِه: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ على أقوالٍ، **الأوَّلُ:** أنَّهُ الميزانُ ذو اللِّسانِ، أي: هداهم للآلة المعروفة؛ ليَتَناصَفَ بِهِ النّاسُ في الحُقوقِ. **والثّاني**: أنَّه الحُكْمُ. **والثّالِثُ**: أنَّهُ العَدْلُ، **والرّابِعُ**: أنَّهُ القرآن[1]، والقولان الأوَّلُ والثّاني أرجح الأقوالِ، وعلى أيِّهما فإنَّ اللام فيه هي لام العهد الذِّهنيِّ، أي: ذلك الميزان الذي عهدتم أثرَهُ في حياتكم واستقامةِ أموركم، أو هو العَدلُ الذي هو أهمُّ مبادئ التَّعايش بين الخلقِ عمومًا، والبشرِ خصوصًا.

بلاغةُ التَّعبير بالمجاز في لفظِ ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾:

تجسيدُ العدلِ في صورة الميزانِ استعارةٌ تأخذُ بالألبابِ

ذهب جمعٌ كبير من المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالميزان، في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾ هو العدلُ، وعلى ذلك يكون لفظُ ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾ استعارةً تصريحيَّةً، وشاع إطلاق الميزان على العدل باستعارة لفظ الميزان للعدل، على وجه تشبيه المعقول بالمحسوس، ففيه تجسيدٌ لمعنى العدل في صورةٍ حِسّيَّةٍ تلفت الانتباهَ، وتأخذ بالألبابِ[2]، والميزانُ هنا مثلُ الذي في قولِه تَعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ﴾ [الحديد: 25]؛ لأنَّه الذي وضعهُ اللّه، أيْ: عَيَّنَهُ لإقامةِ نظامِ الخَلْقِ، وكذلك فإذا كان المُرادُ بالميزانِ ما تُعرف به مقاديرُ الأشياء من الآلة المعروفة والمكيال المعروف، فالمعنى أنَّ اللّه تعالى خلقَهُ

---

(1) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 436، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 341، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 154، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 56، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 151.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 101، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 237، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 310.

موضوعًا مخفوضًا على الأرض؛ إذ علَّق به أحكامَ عبادِه وقضاياهم المُنزَّلة من السَّماء، وما تعبَّدَهم به من التَّسوية والتَّعديل في أخذهم وإعطائهم، والمشهور أنَّه بهذا المعنى مجازٌ أيضًا من استعمالِ المقيد في المُطلق، وقيل: هو حقيقة، فالواضعُ لم يضعْهُ إلّا لما تُعرَفُ به المقادير على أيِّ هيئةٍ، ومن أيِّ جنسٍ كان، والنّاس لمّا ألِفوا المعروفَ لا يكاد يتبادر إلى أذهانهم من لفظ ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾ سواه[1].

دلالةُ (أن) بين المصدريَّة والتَّفسيريَّة:

غلبةُ الأثرةِ على طباعِ البشرِ اقتضت التَّنبيهَ

(أنْ) في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾ إمّا أن تكون مصدريَّة تُفيدُ التَّعليل، أي: لئَلّا تطغَوا في حَقِّ الميزانِ وشَأْنِه، بأنْ تَعْتَدوا، وتَتَجاوَزوا ما ينبغي فيهِ من العدلِ والمساواةِ[2]، وممّا يُرجِّح أنَّ حملَ قوله: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾ على التَّعليل أرجحُ من حملِه على التَّفسير، أنَّه جمع بينَه وبين الكتاب في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [الحديد: 25]، ففيه إجراء (وضَعَ) مجرى (وَصَّى) المؤوَّلِ بالقول، لاستقامةِ تفسير ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾ لـ(وَضع)[3]، وهذا من باب الإخبارِ بنعمةِ العدلِ، والامتنان بها، فهو تعالى يُخبرُ بأنَّهُ أرسى مبدأ العدلِ، منعًا للطُّغيان في المعاملة؛ لعِلْمه تعالى بغَلبةِ الأَثَرةِ على طباعِ البشرِ وميلهم إلى التَّطفيف والإخسارِ، وعلى كون (أنْ) هاهُنا مفسِّرَةً؛ تكونُ (لا) ناهيةً، والفعلُ ﴿تَطۡغَوۡاْ﴾ مجزومٌ بها على تقدير قولٍ مُقدَّرٍ[4]، أي: (قلنا: لا تَطْغَوا في الميزان)، وتَعْضُدُها قراءةُ عبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه: (لا تَطْغَوا) بغيرِ (أنْ)، على إرادَةِ القولِ، أيْ: قائلًا، أو نَحوَهُ[5].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 101.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 444، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 101.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 151.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 156.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 101.

وصحَّ مجيئُها تفسيريَّةً دون التَّصريح بجملة القولِ قبلها؛ لأن فعل: (وَضَعَ الميزانَ) فيه معنى أمر النّاس بالعدل، وفي الأمر معنى القول دون حروفه، فهو حقيق بأن يأتيَ تفسيره بحرف (أنْ) التَّفسيريَّة[1]، والمرادُ بالنَّهي على هذا الوجهِ: لا تَعْتَدوا، وتَتَجاوَزوا ما ينبغي من العدل والنَّصَفة، وأجْروا الأمورَ وفق ما وُضِع لكم من سنن الميزان في كلِّ أمر، فترْقى شؤونُكم، وتنتظم أعمالُكم وأخلاقُكم[2]، وهذا من ثراء المعنى.

الغرض من الحذف في قولِه: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾:

من خصائص الإعجاز البيانيِّ تكثيرُ الأوجه وإثراءُ الدَّلالة

في الآية وجهان من وجوه الحذف، **الأوَّلُ**: حذفُ لامِ التَّعليلِ، على تقدير (أنْ) مصدريَّةً؛ إذِ الأصلُ: (لِئَلّا تَطغَوا)، **والآخر**: حذفُ فعلِ القول، على تقدير (أنْ) تفسيريَّةً، فيكون التَّقدير: (قلنا: لا تَطْغَوا)، والسِّرُّ في هذا الحذف تكثيرُ الأوجه وإثراءُ الدَّلالةِ بأن تكون الآيةُ إخبارًا مرَّةً، ونهيًا مرَّةً أخرى.

دلالةُ التَّعبيرِ بمادة الطُّغيان دونَ مادَّةِ الظُّلم:

في الطُّغيانِ ضروبٌ من المبالغةِ والشِّدَّةِ في مجاوزة الحَدِّ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بنفي الطُّغيان أو النَّهي عنه؛ لأنَّهُ أشدُّ من الظُّلم، لاشتمالهِ على ضروبٍ من المبالغةِ في مجاوزة الحدِّ، وقد كان أنسبَ للسّياقِ؛ لغَلَبة الأَثَرةِ على البشرِ في استيفاء الحقوقِ والمعاملاتِ، فمن قال: الميزانُ هو العدلُ؛ قال: طغيانُه الجَوْرُ، ومن قال: إنَّ الميزانَ هو آلةُ التَّسويةِ؛ قال: طغيانُه البَخْسُ، أي: النَّقصُ[3]، وذهب بعضهم إلى أنَّه إنَّما قيل: (لا تطغَوا) دون غيرها؛ لأنَّ ما لا يُضْبَطُ في الوزنِ موضوعٌ عنهم، ما لم يتعمَّدوا البخسَ، فإذا تعمَّدوا؛ فقد طَغَوا[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 238.

(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 310.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 9/ 290، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 310.

(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 139.

المرادُ بضمير واو الجماعة ودلالتُه:

الإشارةُ إلى كثرةِ الطُّغيانِ والطُّغاةِ

في قولِه: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾ عادَ النَّظم الجليل بواو الجماعةِ على جنسِ الإنسانِ المذكورِ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، وآثَر التَّعبيرَ بواوِ الجمع دونَ الإفرادِ، فلم يقل: (ألّا تطْغَى في الميزانِ)؛ بيانًا لكثرة وقوعِ الطُّغيانِ، وتعدُّدِ الطُّغاةِ على حقوقِ النّاسِ، فكأنَّ الآيةَ تُحَذِّرُ من كثرةِ الطُّغيانِ؛ لغَلبةِ حُبِّ النُّفوسِ على تعاملات البشرِ، وكذلك أتى بواو الجمع؛ لأنَّ ممّا يساعدُ على الحَدِّ من الطُّغيانِ وانتشارِ العدلِ والقسطِ، أن يكون اجتنابُ الطُّغيانِ متبادلًا بين النّاسِ، فلا معنى لعدمِ الطُّغيانِ من فئةٍ دون فئةٍ، بل تمام العدلِ أن يتناصفَ النّاسُ أجمعون؛ لذا كان التَّعبيرُ بواو الجماعةِ أنسبَ(1).

بلاغة التَّعبير بالالتفاتِ في ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾:

التَّنبيه لقضيةِ العدلِ ومَكانَةِ مبدأ المساواة

عدلَ النَّظمُ الجليل عن أسلوب الغَيبةِ في قولِه: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، إلى أسلوب الخطاب في قوله: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾؛ وذلك لأنَّ للالتفات أثرًا في التَّنشيط للإصغاءِ، وإيقاظِ السّامعين، فأفادَ تنبيهَ المُتلقّين لمكانة قضيَّةِ العدلِ، وتحَرّي الحقِّ والمساواة في كلِّ الأُمورِ عامَّةً، وفي أمورِ الميزان خاصَّةً.

معنَى ﴿فِي﴾ ودلالتُها في ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾:

النَّهيُ عن أقلِّ الطُّغيان للدَّلالةِ على النَّهي عن كلِّ طغيانٍ

جاءَتْ ﴿فِي﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ ظرفيَّةً مجازيَّةً تُفيد النَّهيَ عن أقلِّ طُغيانٍ على الميزان، أي: ليس النَّهيُ هاهُنا عن إضاعة الميزانِ كلِّه، بل النَّهيُ عن كلِّ طُغيانٍ يتعلَّق به، على نحو الظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ﴾ [النّساء: 5]، أي: ارزقوهم من بعضِها.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/ 547.

المرادُ بالميزان في قولِه: ﴿فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾:

المُراد بالميزان إمّا الموزونات أو العدل والموزونات

اختلفت الأنظارُ في تحديد المرادِ بالميزان في قولِه: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾، فذهب فريقٌ إلى أنَّهُ الأشياءُ الموزونةُ من الموزونات المعروفة، والعلم والعمل المُقدَّر أحدُهما بالآخر، وفي مساواة الظّاهر والباطن والقول والفعل، فالميزان الثّاني عامٌّ لميزان المعلومات وميزان المحسوسات[1]، وذهب فريقٌ إلى أنَّ المرادَ به ما يشمل العدلَ، ويشمل ما به تقديرُ الأشياء الموزونة ونحوِها في البيع والشِّراء[2].

دلالةُ تكرارِ لفظةِ (الميزان) ثلاثَ مرّاتٍ:

تكرارُ لفظةِ (الميزان) للتّوصيةِ والتّشديدِ أو للمغايرة

كرَّر النَّظمُ الحكيم لفظَ (الميزان) ثلاثَ مرّاتٍ، فجاء في هذه الآية، وفي الآية التي سبقتها، والآيةِ التي تلتها، واختلفت الأنظار في توجيه هذا التَّكرار، فذهب فريقٌ إلى أنَّهُ كرَّره تشديدًا للتَّوصية به، وتقويَةً للأمر باستعماله والحَثِّ عليه[3]، وذهب فريقٌ آخر إلى أنَّهُ كَرَّرهُ، وقد سبق ذِكره؛ لكي يكون قائمًا بنفسه في النَّهي عنه، ولا يكون الثّاني متضمَّنًا بالأوَّل[4]، وقيل: أعادَهُ ثَلاثَ مَرّات، فصرَّحَ، ولم يُضمِر؛ لكَون كلِّ واحِد قائِمًا بنَفسِهِ غيرَ مُحْتاجٍ إلَى الأوَّل، وقيل: لأنَّ كلَّ واحِد غيرُ الآخر، الأوَّلُ ميزانُ الدُّنْيا، والثّاني: ميزانُ الآخِرَة، والثّالِثُ: ميزانُ العقل، وقيل: نزلت مُتَفَرِّقَةً، فاقتضى الإظْهار[5].

دَلالةُ العطفِ في ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ﴾:

بعد النَّهي عن الطُّغيانِ، أتى الأمرُ بالعدلِ والقِسطِ

عطف النَّظمُ الحكيمُ بالواو قولَ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ على قولِه: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾، وذلك للتَّوسُّط بين الكمالين: كمالِ الاتِّصالِ، وكمالِ الانفصال، فالجُملتان كِلتاهما إنشائيَّةٌ طَلَبيَّةٌ، الأولى للنَّهي عند من رأى (أن) تفسيريَّةً، والثّانية

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 148.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 239.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 444، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 151.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 139.
(5) الكرمانيّ، البرهان في توجيه متشابه القرآن، ص: 231.

للأمر، ووُجِدت بينهما المناسبةُ المسوِّغة للعطف، وهي استمرارُ الحديث عن نعمة الميزانِ، وما يجب على الخَلْق من اتِّباعِه من الأوامر والنَّواهي بشأنه، كي تستقيمَ الحياةُ على جادَّةٍ قويمةٍ، فبعدَ النَّهي عن الطُّغيانِ، أتى الأمرُ بالعدل والقِسطِ؛ إذ المرادُ: قَوِّموا وزنَكم بالعدلِ، وقيل: أقيموا لسانَ الميزانِ بالقسط والعدل، وقيل: الإقامةُ باليدِ، والقِسطُ بالقلبِ(1).

دلالةُ إيثارِ الفعلِ (أقيموا):

إقامةُ الوزن بالحق تتطلَّبُ إخلاصًا

في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ آثرَ النَّظم الجليلُ التَّعبيرَ بالفعلِ: (أقيموا) دون (زِنوا بالقسط)؛ وذلك لأنَّ أصلَ القيامِ في اللُّغة هو الانتصابُ المُضادُّ للجلوسِ والاضطجاع، وإنَّما يقوم القائم لقصد عملٍ صعبٍ لا يتأتَّى من قعود، فيقومُ الخطيبُ، ويقومُ العاملُ، ويقومُ الصّانعُ، ويقوم الماشي، فكان للقيام لوازمُ عرفيَّةٌ مأخوذة من عوارضِه اللّازمةِ؛ ولذلك أُطلِق مجازًا على النَّشاط في قولهم: قام بالأمرِ، ولذا كان تكرُّرُ التَّعبيرِ به عن إقامةِ الصَّلاةِ؛ لما ينبغي فيها من النَّشاطِ والإخلاص للّٰهِ ﷻ(2)، فكأنَّ إيفاءَ الحقوقِ على خير وُجوهِ الإيفاءِ يحتاج من النِّشاط والإخلاص ما يدفع عنه نوازعَ النَّفسِ إلى التَّطفيفِ أو البَخْس.

بلاغةُ التَّعبير بالمجازِ في ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ﴾:

المواظبةُ على تحرّي العَدلِ تحتاجُ إلى مجاهدةٍ للنَّفسِ

في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ﴾ استعمل النَّظمُ الحكيمُ فعلَ إقامةِ الوزنِ، وهو من قبيل المجاز المرسل، الذي شاع حتّى ساوَى الحقيقةَ، فصارت كالحقائق، ولذلك صحَّ بناءُ المجاز الثّاني والاستعارة عليها(3)، فإقامةُ الوزنِ استعارةٌ تبعيَّةٌ، شبَّهت

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 177.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/ 231.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/ 231.

المواظبةَ على تَحرّي الحقِّ في الموزونات والعناية بها بجَعْلِ الشَّيء قائمًا على الدَّوام؛ لما يحتاجه من مجاهدة النَّفسِ على السَّير على جادَّة الحَقِّ والعدلِ والمساواةِ، ويحتملُ كذلك أنْ يكون (أقيموا) بمعنى قَوِّموا، كما يقال في العودِ: أقمتُه، وقوَّمْتُه[1]، فيكونُ كذلك استعارةً تبعيَّةً بتشبيه المعقولِ بالمحسوسِ عند مَن ذهب إلى أنَّ الوزنَ هو العَدلُ، أو هي من باب تشبيه محسوسٍ بمحسوسٍ عند من ذهب إلى أنَّ الوزنَ هو الميزانُ أو الموزون.

الغَرَضُ من التَّعبير بفعل الأمرِ مُسندًا إلى واو الجماعة:

الأمـرُ للوجوب لحتميَّة وجود الـعـدلِ في العالمِ

جاءَ الأمرُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ لوجوب القيامِ دومًا على المَعدَلَةِ والمساواة في الوزن، وآثرَ التَّعبيرَ بواوِ الجمعِ دون الإفرادِ، فلم يقل: (وأقم الوزنَ)؛ لبيانِ أنَّ من تمام نفع العَدلِ أن يكون متبادَلًا بين النّاسِ، فتمامُ العَدلِ أن يَتناصفَ النّاسُ أجمعون، على قدم المساواة، فلا حيفَ ولا ظُلمَ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمفعولِ به مصدرًا بين المجاز والحقيقة:

اللّامُ للاستغراق لتشملَ كلَّ المعاملاتِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ﴾ استعملَ البيانُ القرآنيُّ مفردةَ ﴿ٱلْوَزْنَ﴾ مُعرَّفَةً باللّام الدّالَّةِ على الاستغراقِ؛ لتَعُمَّ كلَّ وزنٍ يوزنُ، وللإشارةِ إلى مراعاةِ المَعْدَلَةِ في جميعِ ما يَتَحَرّاه الإنسانُ من الأفعالِ والأقوالِ[2]، فهو أمرٌ بإقامة العَدلِ في البيع والشِّراء وسائر المعاملات، والمراد بالوزن إمّا الحقيقة، أي: أقيموا لسانَ الميزان بالعدلِ[3]، وقال فريقٌ: بل المرادُ: أقيموا اللِّسانَ بالقولِ[4]، والرّاجح: الجمع بين الحقيقة والمجازِ، فيجوزُ أن يكونَ إشارةً إلى تحرّي العَدالةِ في الوزنِ وتَركِ الحَيفِ فيما يتعاطاه فيه، ويجوز أن يكون

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 343.
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (وزن).
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 444.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 3/ 379.

إشارةً إلى تعاطي ما لا يكون به في القيامة خاسِرًا، فيكون ممَّن قال سبحانه فيهم: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: 9]، وكِلا المعنَيين متلازمان، وقيل: المعنى على التَّعدّي بتقدير مضافٍ، أي: موزونَ الميزانِ، أو جَعْلُ الميزانِ مجازًا عن الموزون فيه[1].

معنَى الباءِ ودلالتُها في ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾:

التَّلبُّسُ بالعَدلِ التّامِّ سبيلُ إحقاقِ الحقِّ

جاءتِ الباءُ في قوله: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾ للمُلابسة، أي: أقيموا الوزنَ على أحسن حالٍ من الوفاء بالحقوق، متلبِّسين بالعَدل بألّا تظلموا أحدًا حقَّه، ويُحتَمل أن تكون لِلسَّبَبِيَّةِ، أي: راعوا في إقامَةِ التَّمْحيصِ ما يَقتَضيهِ العَدْلُ[2].

سِرُّ تقييدِ الفِعل بالجارِّ والمجرور ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾:

المبالغةُ في توكيدِ إقامةِ العَدلِ سبيلُ المحسنينَ

قيَّد النَّظمُ الحكيم إقامةَ الوزنِ بشِبه الجملة ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾؛ للتَّأكيد والمبالغةِ في إقامةِ العَدلِ؛ إذ إنَّ قولَه: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ إمّا أن يكونَ حالًا من فاعِل (أقيموا)، أي: أقيموا الوزنَ مُقسطين، أو حالًا من المفعول به ﴿ٱلْوَزْنَ﴾، أي: أقيموا الوزنَ متلبِّسًا أو مقترِنًا بالقِسط[3].

دلالةُ العطفِ في ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ﴾:

تأكيدُ إقامةِ العدلِ ببيانه سبيلَه، وهو انعدامُ الخُسرانِ

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ﴾ معطوفًا بالواو على قولِه: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ﴾؛ وذلك للتَّوسُّط بين الكمالَين، فكِلْتاهما جملةٌ إنشائيَّةٌ طَلبيَّةٌ، الأوْلَى للأمرِ، والثّانيةُ للنَّهي، وهي لتأكيدِ الأمرِ الواردِ في الجملة الأولى، عن طريقِ المغايرةِ والتَّنويع في الأسلوب، فكان بينهما من المناسبةِ ما يُجيز العطفَ، ولم يمنع من العَطفِ مانعٌ، وسرُّ ذلك العطفِ أنَّهُ لمّا كان المرادُ العدلَ العظيمَ؛

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 102.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 240.

(3) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 191.

بيَّنَهُ بالتَّأكيد، بعد الأمر بالنَّهي عن الضِّدِّ، أي: لا توقِعوا في شيء من آلة العَدل التي تُقَدَّرُ بها الأشياءُ - من الذَّرْع والوَزْن والعَدل والكيل ونحوه - نوعًا من أنواع الخُسْرِ[1].

الغَرضُ من التَّعبيرِ بأسلوب النَّهي ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ﴾:

النَّهيُ للتَّنبيهِ على الخصالِ الذَّميمةِ

جاء النَّهيُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾؛ تأكيدًا للأمرِ السّابقِ، وتنبيهًا للتَّخلّي عن خصلةٍ ذميمةٍ مُستشريةٍ في طِباعِ البَشرِ عمومًا، وكانت متأصِّلةً في نفوس المشركين خصوصًا، فقدْ كانَ المشركون يَعهدونَ إلى التَّطفيفِ في الوزنِ، كَما جاءَ في قَوْلِهِ تَعالى: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ٣﴾ [المطففين: 1 - 3]، فلمّا كان التَّطفيفُ سُنَّةً من سُنَنِ المشركين؛ تصدَّتِ الآيةُ للتَّنبيه عليه[2].

سرُّ اختيارِ الفعلِ ﴿تُخۡسِرُواْ﴾:

الإخسارُ يشمل النَّقصَ في الدُّنيا والآخرة

آثرَ النَّظمُ الجليل التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿تُخۡسِرُواْ﴾ دون (تَنْقُصوا)؛ لما في الخُسران من العموم[3]، وهو الأكثر ورودًا في القرآن، فكلُّ خسارةٍ نقصٌ، وليس كلُّ نقصٍ خسارةً، كما أنَّ التَّعبير بالإخسارِ يشمل إخسارَ العَدلِ بالتَّلاعب في الموزون، ويشمل الأثرَ النّاتج عن الإخسارِ في الدُّنيا، وهو الخُسرانُ في الآخرة، فإنَّ إعطاءَ الزَّكاةِ نقصٌ في المالِ في الدُّنيا، لكنَّه رِبحٌ في الآخرة، ومَنعُها زيادةٌ في المالِ في الدُّنيا، لكنَّه خُسرانٌ في الآخرة؛ فلذا عبَّر بالإخسارِ الذي هو نقصٌ متحقِّقٌ في الدُّنيا والآخرة.

الغرضُ من التَّعبيرِ بالمفعول بِهِ مُعرَّفًا باللّام ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾:

جاءَت لفظةُ الميزانِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 149.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 240.

(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (خسر).

الميزانُ إمّا أن يكونَ هو العَدلُ، أو الآلةُ المعروفةُ

باللّام الدّالَّةِ على الاستغراقِ، أي: لا تُخْسِروا أيَّ ميزانٍ كان، وقد تعدَّدتِ الأقوالُ في المُرادِ بالميزان، فمنهم من حملَ الميزانَ على معنَى العَدلِ، وعليه فالمعنى: النَّهيُ عن التَّهاون بالعَدلِ لغَفلةٍ أو تسامحٍ، ويكون الإخسارُ جَعْلَ صاحبِ الحَقِّ خاسِرًا مغبونًا، ومنهم من حملَ الميزانَ على آلة الوزن، فكان المعنى النَّهي عن غَبنِ النّاسِ في الوزنِ لهم، ويكون الإخسارُ بمعنى النَّقصِ، أي: لا تجعلوا الميزانَ ناقصًا(1).

الغرض من وضع المُظْهَر ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾ موضعَ المُضمر:

للعدلِ مَقامٌ عظيمٌ عند اللهِ اقتضى إظهارَ الميزانِ

أظهر البيانُ القرآنيُّ لفظَ ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾، وكان مقتضَى الظاهر أن يعود عليه بالضَّمير، فيقولُ: (ولا تُخْسِروه)، وإنَّما آثرَ إظهارَ لفظِ ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾؛ تنبيهًا على شدَّةِ عنايةِ اللّه بالعَدْل، وقد عُلِمَ بتكرير ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾ ما أُريدَ من التَّأكيد في الأمر به، لما له من الضَّخامة، سواء كان بمعنى واحد، أو بمعانٍ مختلفة(2).

الجناسُ المُماثِلُ بين لفظَي الميزانِ، أسهمَ في إمتاعِ الآذانِ

وكذلك فقد أدَّى تكرار كلمة ﴿ٱلۡمِيزَانَ﴾، في قوله: ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾، إلى وجود محسِّن الجناسِ المماثل، الذي لفتَ الانتباه؛ لتحديد المُرادِ من لفظِ (الميزانِ) في الموضعين، واسترعى إعمالَ العقلِ والإمعانِ في تدبُّرِ الآيتينِ، لمعرفةِ ما إذا كانَ المقصودُ التَّكرارَ، أو التَّنبيهَ على معنى آخرَ كما سبقتِ الإشارةُ، وذلك فضلًا عن إمتاعِ الآذانِ بهذا الجَرْس البديعِ الموافقِ لفاصلة الألف والنّون.

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الطُّغيان والظُّلم:

الأصلُ في معنى الطُّغيان: تجاوزُ الحَدِّ والغُلُوُّ في ذلك، ويشمل

---

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 240.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 149.

الإفراطَ في المعصية والكِبْر والكفر[1]، وهو بذلك أشدُّ من البَغي والظُّلم، والمعنى المِحوريُّ: ارتفاعُ الشَّيءِ باستغلاظٍ وتجاوزٍ، حتّى يَغْشَى، ويُغطّي ما حولَه[2].

الطُّغيانُ أشدُّ مِنَ الظُّلم؛ لاشتماله على مجاوزة الحَدِّ والمبالغة

وأمّا الظُّلمُ؛ فإنَّ معانيَه كلَّها تدور حولَ منعِ الحقِّ ومجاوزتِه، ووضعِ الشَّيءِ في غير موضعه، ومعناه المِحوريُّ: هو الَميل عن القَصد والتَّعدّي، سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا؛ إذ يتراوح الظُّلمُ ما بين أكبر الكبائر، وهو الشِّرك باللّه ﷻ، وبين ارتكاب صغائر الذُّنوب، فالمادَّتان مشتركتان في معنى مجاوزة الحَدِّ، ولكنَّ الطُّغيانَ أشدُّ من الظُّلم؛ لاشتماله على مجاوزة الحَدِّ والمبالغة في الكِبْر والمعصيَة والشَّرِّ والكفر، والظُّلمُ أدنى من الطُّغيان؛ إذ تتفاوت درجاتُه من صغائر الذُّنوب إلى كبائرها، إلى الشِّرك باللّه ﷻ[3]، والمُرادُ بـ﴿أَلَّا تَطۡغَوۡاْ﴾ في الآيةِ، أي: لا تُجاوِزوا العدلَ[4]، وعبَّرَ في الآيةِ بالطُّغيانِ للتَّحذير والتَّخويفِ من مَغبَّةِ الإفسادِ في مبدأ العَدْل.

القِسْطُ والعَدْلُ:

القِسْطُ هو أشَدُّ حالاتِ العَدْلِ بيانًا وظُهورًا

يشترك العَدلُ والقِسطُ في معنى المساواةِ والانتصاف[5]، ويتميَّزُ القِسْطُ بأنَّه هوَ العَدْل البيِّنُ الظّاهِرُ، ومِنْه سُمّي المِكْيال قِسطًا والميزان قسطًا؛ لأنَّهُ يُصَوِّر لكَ العدْل في الوَزْن حَتَّى تراهُ ظاهرًا، وقد يكون من العَدْل ما يخفى، ولهذا قالوا: إنَّ القِسْط هوَ النَّصيبُ الَّذي بُيِّنَتْ وجوهُه[6].

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (طغى).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (طغو - طغي).
(3) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 144 - 148.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 138.
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (عدل)، و(قسط).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 234.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ [الرّحمن: 10 - 13]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

امتنان المولى تعالى بتوطئةِ الأرضِ وتوفير الأرزاقِ

لمّا ذكرَ تعالى إنعامَه الدّالَّ على اقتداره برفعِ السماءِ؛ ذكر مقابلَه، وهو خفضُ الأرضِ ودَحْوُها، بعد أن وسَّط بينهما ما قامتا به من العَدلِ والقِسطِ، ثمَّ مَنَّ على الخَلْقِ ببيان مزيدِ الإنعام، فذكر نعمةَ الفواكهِ، وبدأ بها؛ لأنَّها ألذُّ ما يكونُ، ولأنَّها برقَّتِها وشدَّة لطافتِها منافيةٌ للأرض في يُبْسِها وكثافتها، فكان كونها فيها عجبًا دالًّا على عظيم قدرته، وكان ذِكْرها يدلُّ على ما تقدَّمَها من النِّعم من جميع الأقوات، ثمَّ نبَّه عليها بتعريف نوع منها، وهو النَّخلُ، ونوَّه به؛ لأنَّ فيه مع التَّفكُّهِ التَّقوُّتَ، وهو أكثرُ ثمارِ العرب المقصودين بهذا الذِّكر بالقصد الأوَّل، وأتبعه الأصل في الاقتيات للنّاس والبهائم، وهو الحَبُّ، ثمَّ ذكرَ الرّيحانَ؛ ليَعُمَّ، ويَخُصَّ جميعَ ما ذُكِر من سائر النَّبات وغيره، على وجهٍ مُذَكِّرٍ بنِعمه بغذاء الأرواح، بعدما ذَكر غذاءَ الأشباح، ولمّا كان مَن كفر به تعالى بإنكاره أو إنكارِ شيءٍ من صفاته، أو كَذَّب بأحد من رُسله قد أنكر نِعمَه أو نعمةً منها، فلزمه بإنكاره لتلك النِّعمةِ إنكارُ جميع النِّعم، قال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، مُنْكِرًا موبِّخًا مُبَكِّتًا لِمَن أنكر شيئًا من نِعمه، أو قال قولًا أو فعل فعلًا يَلْزَم منه إنكارُ شيءٍ من هذه النِّعمِ المتزايدةِ التي لا يَسوغُ إنكارُها، ولا إنكارُ شيءٍ من لوازمها[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 149 - 151.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِلْأَنَامِ﴾: اختُلِفَ فيهِ، فقيل: مِن (أنَمَ)، وقيل: أصلُه (وَنامٌ) من (وَنَم)؛ إذا صَوَّتَ من نَفْسِه، كـ(إناء) و(وناء)، والمرادُ بِه الخَلْقُ، أو كُلُّ من يَعتَريه النَّومُ، أو الجِنُّ والإنسُ، كما قال جمهور المفسِّرين، وهما الثَّقَلانِ، ويجوز في الشِّعر الأنيمُ[1]، أو جَميعُ ما على وجْهِ الأرْضِ من جَميع الخَلْقِ[2]، بدليل قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، ولم يَجْرِ للجِنِّ ذِكْرٌ قبلَ ذلكَ[3]، والمعنى المِحوريُّ يُعبِّرُ عن كلِّ ما يَنمو من إنسانٍ وجانٍّ وحيوانٍ ونباتٍ، ولكنَّها تنطبق أكثرَ على الإنسان والجانِّ والحيوان؛ لزيادة الحركة، وهي امتداد ونمو[4].

2) ﴿الْأَكْمَامِ﴾: (كمم) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على غِشاءٍ وغطاءٍ، والكِمُّ: وِعاءُ الطَّلع، والجمع الأكمام[5]، وهو ما غَطّى جُمّارَ النَّخلةِ من السَّعفِ واللّيفِ[6]، واختلفوا في المرادِ بالأكمامِ على عدد من المعاني، الأوَّل: ليفُها الَّذي في أعْناقِها، الثّاني: رَقَبَةُ النَّخْلِ الَّتي تُكَمَّمُ فيهِ طَلْعًا، الثّالث: هو الطَّلْعُ المُكَمَّمُ الَّذي هو كِمامُ الثَّمَرَةِ، الرّابعُ: مَعْنى ذاتِ الأكْمام، أي: ذَواتِ فُضولٍ عَلى كُلِّ شَيْءٍ[7].

3) ﴿الْعَصْفِ﴾: (عصف) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، يدلُّ على خِفَّةٍ وسُرعةٍ[8]، والمعنى المِحوري: قَشْرٌ وإذهابٌ بقوَّة لما هو نَحْوُ الغِلافِ أو اللِّحاء للحَبِّ والزَّرع[9]، من ذلك العَصْف، وهو ما على الحَبِّ من قشورِ التِّبنِ، وما على ساقِ الزَّرعِ من الورقِ الذي يَبِسَ، فتَفَتَّتَ[10]، وقيل: العَصْفُ: كُلُّ زرعٍ أُكِلَ حَبُّهُ، وبَقِيَ تِبْنُه، وقيل: المَأْكولُ مِنَ الحَبِّ[11].

4) ﴿وَالرَّيْحَانُ﴾: المعنى المِحوَري: انبساطٌ أو اتِّساعٌ وانتشارٌ مع شمولٍ ولُطفٍ، مع استواءٍ أو نحوه، والرِّيحُ معروفٌ، وهي: الهواءُ المتحرِّك، ومادَّتُها مُتَخَلْخِلَةٌ، وهي تشملُ

---

(1) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (أنم).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (أنم).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (أنم).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أنم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كمم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كمم).
(7) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 426.
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عصف).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (عصف).
(10) الزّبيديّ، تاج العروس: (عصف).
(11) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 207.

الأرضَ وأهلَها، أو هيَ مشمولةٌ في كلِّ خلاءٍ بينَنا[1]، والرَّوْحُ التَّنَفُّس، وقد أراحَ الإنسانُ؛ إذا تنفَّسَ، وقوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: 89]، فالرَّيْحانُ: ما لَه رائحةٌ[2]، وقد ألزموا الرّيحانَ التَّخفيفَ لطول الكلمة، كما فعلوا في كينونة ودَيمومة، وأصلُهما كيِّنونة وديِّمومة، وقيل رَيْحان: على بناء (فَعْلان)، وأصلُه رَوْحان، فأبدلوا من الواو ياءً، فصار (ريحان)[3]، وفي المرادِ بالرّيحانِ في قوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ أوجُهٌ، أحَدُها: أنَّهُ الرِّزْقُ، الثّاني: أنَّ الرَّيْحانَ الزَّرْعُ الأخْضَرُ الَّذي لَمْ يُسَنْبَلْ؛ لاستِراحَةِ النَّفْسِ بالنَّظَرِ إلَيْهِ، الثّالِثُ: أنَّهُ الرَّيْحانُ الَّذي يُشَمُّ، الرّابِعُ: هو الحَبُّ المَأْكولُ[4].

5) ﴿ءَالَآءِ﴾: الآلاءُ واحِدُها (ألَى) بالفَتْحِ، وقَد يُكْسَرُ، ويُكْتَبُ بالياءِ، مِثْلُ: (مِعًى) و(أمْعاءٍ)[5]، ومِثْلُهُ: (ألًا)، و(إلْيٌ) و(إلًى)[6]، والمعنى المِحوريُّ: تجمُّعُ غَضٍّ يَعْلَق بآخر الشَّيءِ أو أصْلِه، ومنه الآلاء، أي: النِّعَم، فإنَّها طَراءةٌ ولينُ حياةٍ يَحوزُه من وجَدَها، وهي تُنال بفضل اللّه: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞﴾ [الأعراف: 69]، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[7]، وهي النعمة التي تتلوها غيرُها، ومعنى الآلاء: نعمُه الظّاهرةُ والباطنةُ، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20][8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكرت هذه الآياتُ الكريماتُ طائفةً أخرى من آلاءِ اللّهِ - تبارك وتعالى - ونِعمه، فذكرت الأرضَ التي هيَّأها اللّهُ، وبَسَطها، ووطَّأها لمنفعةِ الأنام، بعد أنْ شرع اللّهُ تعالى لهم الميزانَ الذي يضبطون به أمورَ الأرض، وقد هيَّأها اللّهُ؛ لتكونَ مأوًى صالحًا لحياة الإنسان، فأخرج منها فاكهةً لذيذةً يتنعَّم بها الخَلْقُ، وأخرج نخلًا ذاتَ أكمام، وهو الجراب الذي يضمُّ طلعَ النَّخل، الذي يتكوَّن منه الثَّمر، وأوجد فيها كذلك الحَبَّ الذي يُؤكل كالحِنطة

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (روح).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن: (روح).
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السّبع وعللها، ص: 424، وأبو عليّ الفارسيّ، الحُجّة للقرّاء السّبعة: 6/ 246، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 144.
(4) الماورديّ، النكت والعيون: 5/ 426.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (ألا).
(6) أبو حيّان، تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب: (ألي)، وكراع النّمل، المنتخب من كلام العرب، ص: 257.
(7) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ألى).
(8) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ألو).

تهيئةُ الأرضِ وتوفير الأرزاق نِعَمٌ عظيمةٌ

وغيرِها، والعصفَ الذي هو غذاء الماشية، كما امتنَّ تعالى عليهم بالرّيحان، ذلك النَّبتُ الطَّيِّب الرّيحِ؛ إشارةً إلى أنَّ الإنسان ليس مُجرَّدَ حيوانٍ يطلب حاجة الجسدِ من طعام وشرابٍ وحَسْبُ، وإنَّما هو كائنٌ أسمى من عالم الحيوان، لا يقف عند مطالب الجسد، بل إنَّ لروحه مطالبَ لا تقلُّ عن مطالب الجسد.

وبعد هذا العرضِ الكاشف لرحمة الرَّحمنِ، وقدرته، وقيّوميَّته على هذا الوجود، يخاطب اللّهُ تعالى الكائِنَين اللَّذَين لهما وجودٌ ظاهر على هذه الأرض، ولهما مجالٌ فسيح فيها، فيقول: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، مخاطِبًا الجنَّ والإنس؛ إذ هما الكائنان المُكلَّفان، بما لهما من عقل وإدراك، فهو سبحانه بهذه الآيةِ يوبِّخُ من كفر منهما، ويُقرِّر نعمَهُ وآلاءَهُ وفضلَه وإحسانَهُ[1]، فكأنَّهُ تعالى قال: فبأيِّ واحدةٍ من هذه النِّعم تُكَذِّبان ربَّكُما، وتجحدان فضلَه ومِنَنَه، يا معشرَ الجنِّ والإنس، مع أنَّ كلَّ نِعمة من هذه النِّعم تستحقُّ منكم الطّاعةَ والخضوعَ لعِزَّة اللّهِ وجَلالِه، والإخلاصَ في عبادته[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العَطفِ في ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

تمكُّنُه تعالى من أرجاء الكونِ

عطفَ النَّظمُ الجليلُ قولَه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ على قولِه: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ﴾؛ للدَّلالة على التَّمَكُّنِ والاقتدارِ من جميع أرجاء كونه الفسيح؛ إذ لمّا ذَكر إنعامَه الدّالَّ على اقتدارِه برفعِ السَّماء؛ ذَكَر على ذلك الوجهِ مقابلَها بعدَ أن وسَّط بينهما ما قامتا به من العَدل؛ تنبيهًا على شدَّة العناية والاهتمام به[3]، والعطف هاهُنا للتَّوسُّط بين الكمالين: كمالِ الاتِّصالِ وكمالِ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 667 - 669.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 133.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 149.

الانقطاعِ، ولوجود المناسبةِ بينهما، وهي التَّقابلُ بين رفع السَّماء ووضعِ الأرض.

الغرضُ من تقديمِ المفعولِ بهِ:

تقديمُ السَّماءِ للتَّنبيه إلى ما فيها من أنواع البدائع

قدَّم النَّظمُ الجليل المفعولَ به (الأرض)، في قولِ اللّه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾، وكان مقتضى الظّاهر أن تكون الجملةُ: (ووضع الأرضَ للأنام)؛ وذلك للاهتمامِ بها، وللتَّنويه بفضلها على الخَلْق، ولعظَمة إبداعها، كما في قولِ اللّه: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [غافر: 57]، وتنبيهًا على التَّفكُّر فيما أودع اللّه تعالى فيها من عجائب المخلوقات، وغزيرِ الأرزاق والمنافع؛ إذِ المقصودُ الأوَّلُ لَفْتُ الذِّهنِ للأرض في حَدِّ ذاتها، أكثرَ من قضيَّة الوضع والتَّذليلِ.

الغَرضُ من التَّعبيرِ بالمقابلةِ:

في الأرضِ والسَّماءِ تتجلّى نِعَمُ اللهِ الجزيلةُ، وآلاؤه العظيمة

جاءت المقابلة في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾، وقوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا﴾، بين الفعلين (رَفَعَ) و(وضَعَ)، وبين (السَّماء) و(الأرض)؛ لإيضاحِ اقتدار اللّهِ تعالى على كلِّ ظواهرِ الكونِ، وزيادة في بيانِ واسعِ عطائه للأنام، ولحثِّ العاقلِ على إمْعانِ الفِكْر للاعْتِبارِ والاتِّعاظِ بما في هذه النِّعم الجليلة والآلاء البَديعةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَضَعَهَا﴾ مادَّةً وصيغةً:

في معنى وضع الأرضِ من الدَّلالات من كبرى

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ استعمالَ الفعل (وضع) دون (خلق)؛ لأنَّ وضْعَ الأرضِ يقتضي خَلْقَها ابتداءً، فكان في الامتنان بذِكر الوضع من المعاني ما ليس في الخَلْق، فقد تعدَّدت أقوال المفسِّرين في معنى الوضع، فشمِلَت التَّوطئةَ، والبَسطَ، والتَّمهيدَ، والدَّحْوَ، والبَسطَ على الماء، وجَعْلَها تحتَ أقدامِهم وجُنوبِهم؛ لتمكينهم مِنَ الانتفاع بها

بجميع ما لهم فيها من منافعَ ومعالجات[1]، وفي ذلك من الدَّلالات الكثيفة ما يُؤكِّد عظَمةَ الأرض وكثرةَ منافعها، وعبَّر بصيغةِ المُضيِّ؛ للدَّلالةِ على تحقُّق الامتنان بهذه النِّعمة، وثبوتِها بما هو مشاهَدٌ معلومٌ لكلِّ الخَلْق.

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿لِلۡأَنَامِ﴾:

اللّامُ لبيانِ الاختصاصِ بمنافعِ الأرضِ، ولبيانِ مزيدِ الامتنانِ

جاءت اللّام في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ إمّا للاختصاصِ، أي: إنَّ وضعَ الأرض مختصٌّ بالأنام، لمزيد البيانِ بالامتنان بالآلاء والنِّعم، ففيها معنى عود النَّفع، فإنَّ لفظ (الأنام) يجمعُ الإنسانَ وغيرَه من الحيوان على الرَّأي الرّاجح، وإن كان المرادُ بالأنام الإنسانَ وحدَه؛ فإنَّما خُصَّ الإنسان بالذِّكرِ؛ لأنَّ انتفاعَه بها أكثرُ، وأتمُّ، وأكملُ؛ فإنَّه ينتفع بها، وبما فيها وبما عليها، وإن كان المرادُ بالأنام الخَلْق، فإنَّ (الخلق) يُذكَرُ، ويُراد به الإنسان في كثير من المواضع[2]، وأشار آخرونَ إلى أنَّ اللّام هاهُنا للأجَلِ[3]، أي: إنَّ الأرضَ موضوعةٌ لتوفيَة آجالِ الآنام، كما في قولِه: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: 55].

دلالة التَّعبير بمفردةِ (الأنام) دون (الخلق):

مفردَةُ الأنامِ أكثرُ شمولًا من مفردَةِ الخَلْقِ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبير بمفردةِ (الأنام)، في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾؛ وذلك لأنَّها أكثرُ شمولًا لجميع ما على وجْهِ الأرْضِ من جَميع الخَلْقِ[4]، ولما فيها من التَّعبير عن كلِّ ما ينمو، من إنسانٍ وجانٍّ وحيوانٍ ونباتٍ، ولما فيها من الدَّلالة على زيادة الحركة[5]، فناسَبَ لفظُ الأنامِ مقامَ الامتنان بتوفير الأرزاقِ وزيادَةِ

---

(1) الرّاغب، مفردات القرآن: (وضع)، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 445، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 103، وابن عاشور، التّحرير التّنوير: 27/ 241.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 344.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 241.

(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (أنم).

(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أنم).

عطاءِ اللّٰهِ لخَلْقه، فقد شَمِلت اللَّفظةُ أرزاقَ الإنس والجنِّ ودوابِّهما، وغيرِ ذلك من الحيوان والنَّباتِ.

مَوقعُ جملةِ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ مِمّا قبلَها ودلالتُهُ:

تقريرُ نفعِ الأرضِ وبيانُ ما فيها من ألوانِ المنافع والأرزاقِ

قولُ اللّٰهِ تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير ما أفادته الجملة السّابقةُ من كونِ الأرضِ موضوعةً لمنافعِ الأنامِ وتفصيلِ المنافعِ العائدةِ إلى البشرِ، وقيلَ: هي حالٌ مقدَّرةٌ من الأرضِ، فالأحسنُ حينَئذٍ أن يكون الحالُ هو الجارَّ والمجرورَ، و﴿فَٰكِهَةٌ﴾ مرفوعةٌ على الفاعليَّةِ، أي: فيها ضروبٌ كثيرةٌ مما يُتفكَّه بهِ[1]، بتقدير: استقرَّتْ فيها فاكهةٌ، وقيل: جملةُ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ جملةٌ مُبَيِّنَةٌ للجملة السّابقة، وهي قولُه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾[2].

الغرضُ من التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾:

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسميَّةِ مناسبٌ لتحقُّقِ الإنعامِ وثباتِهِ

عبَّر النَّظمُ الجليل في قول اللّٰهِ تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ بالجملة الاسميَّة؛ للدَّلالة على الثَّباتِ والتَّحقُّق، فهي من النِّعم الثّابتةِ التي امتنَّ بها تعالى على الخَلْق أجمعينَ، فإنَّ المُعتاد في أشجار الفاكهة أنَّها من الأشجار المُعمِّرةِ التي تُؤْتِي أُكُلَها عامًا بعد عامٍ، على غير المعتاد في بقيَّة الزُّروع، وفيها كذلك بيان الرَّحمة بمزيد الإنعام، بدوامِ هذا اللَّون الشَّهي من الطَّعام؛ إذِ الفاكهةُ هي ألذُّ ما يكون من طعامِ الأرضِ.

معنى (في) ودلالتُها، والغَرضُ من تقديمِ الخبرِ:

تقديمُ الخبرِ للاهتمامِ بضُروبِ النَّعيمِ

في قول اللّٰهِ تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾، جاءت (في) دالَّةً على الظَّرفيَّة، وقدَّم البيانُ القرآنيُّ الخبرَ ﴿فِيهَا﴾ على المبتدأ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾؛ للاهتمام بما تحتوي عليه الأرض[3] من نِعَمٍ يتمتَّع بها الخَلْق؛ إذِ المَقصودُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 178.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 241.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 241.

الأوَّلُ بيانُ اشتمالِ الأرضِ على ضروبِ الأرزاقِ والنِّعَم؛ لمناسبة ذلك لسياق السّورةِ الكريمة، التي هي سورةُ الآلاءِ والرَّحمات.

سِرُّ إيثارِ التَّعبير باسم الجنس ﴿فَٰكِهَةٌ﴾:

لفظُ (فاكِهَةٌ) الأنسبُ في سياقِ المبالغةِ في إظهارِ النِّعَمِ

يعبِّرُ القرآنُ في بعض المواضعِ باسم الجنس ﴿فَٰكِهَةٌ﴾، وفي مواضعَ أخرى بالجمعِ ﴿فَوَٰكِهُ﴾ [المؤمنون: 19]، مع أنَّ الصّيغتَين تدُلّان على التَّفكُّهِ والتَّمَتُّعِ بطيب الثِّمارِ الشَّهيَّة، والسِّرُّ في ذلك أنَّ القرآنَ غالبًا ما يُستعمَلُ لفظ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ في المواضع التي يقتضي فيها السّياقُ المبالغةَ في ذكرِ النِّعَم؛ وذلك لأنَّ لفظ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ اسمُ جنس، فهو لفظٌ عامٌّ يشمل المُفردَ والمثَنّى والجمعَ، أمّا (فواكه)؛ فهي جمعٌ، واسم الجنس يكون أعمَّ من الجمع؛ لذلك تُستعمَل الفاكهة في القرآن لما هو أوسع من الفواكه، ومنها ما جاءَ هاهُنا في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾؛ لمناسبة التَّعبير بالفاكهةِ عن وجودِ هذه النِّعمةِ في سائر أنحاء الأرض، ولمناسبة المبالغةِ في الامتنان بالنِّعم الرَّبّانيَّة في هذه السّورة[1].

الغرضُ من تنكيرِ المبتدأ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾:

الامتنانُ بالفاكهةِ الكثيرةِ الأنواعِ، العظيمةِ الكُنهِ والأثرِ

جاءتْ لفظةُ ﴿فَٰكِهَةٌ﴾ نكِرَةً للتَّكثير، أي: فاكهةٌ كثيرة، كما يقال: لفلانٍ مالٌ، أي: كثيرٌ، وكذلك فقد أفادَ التَّنكيرُ التَّعظيمَ، وهو أنَّ القائل كأنَّه يُشيرُ إلى أنَّه عظيمٌ لا يحيطُ بمَعرِفتِه كلُّ أحد، فتنكيرُه إشارةٌ إلى أنَّه خارج عن أن يُعرَف كُنْهُه[2]، ففي الأرضِ ضروب منها عظيمة جدًّا، يُدرك الإنسانُ بما له من البيان تبايُنَها في الصّور والألوان، والطُّعوم والمنافعِ، وغيرِ ذلك من بديع الشّأنِ[3]، وفي

(1) السّامرائيّ، برنامج لمسات بيانيّة.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 344.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 150.

التَّنكير كذلك دلالةٌ على تعدُّد الاستخدام، فهي تُستعمَلُ طازجةً ومطبوخةً ومجفَّفةً على شتّى الأشكال وضروب الألوان[1].

سرُّ تقديمِ الفاكهةِ على النَّخلِ:

الابـتـداءُ من الأدنى والارتقاءُ إلى الأعلى

في تقديمِ النَّظم الجليل ذِكرَ الفاكهةِ على ذِكْر النَّخلِ وغيرِها من الأقواتِ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ قولانِ: **الأوَّلُ:** أنَّهُ للتَّدرُّجِ، من باب الابتداءِ بالأدنى والارتقاء إلى الأعلى؛ إذِ الفاكهةُ للتَّفكُّه في المقام الأوَّلِ، فهي في النَّفع دونَ النَّخلِ الذي منه القوتُ والتَّفكُّه كِلاهُما، والنَّخلُ دونَ الحَبِّ الذي هو للقوتِ في المقامِ الأوَّلِ، وعليه المدار في سائر المواضع، وبه يتغذّى الأنامُ في جميع البلاد، فبدأ بالفاكهة، ثمَّ ذَكرَ النَّخل، ثمَّ ذَكر الحَبَّ الذي هو أتمُّ نعمةً؛ لموافقته مِزاجَ الإنسان، ولهذا خلقَهُ اللهُ في سائر البلاد، وخَصَّصَ النَّخل بالبلاد الحارَّة[2]، **والقولُ الثّاني:** أنَّه بدأ بها للانتقالِ من العامِّ إلى الخاصِّ؛ لأنَّ ذِكْرَها يدلُّ على ما تقدَّمها من النِّعم من جميع الأقوات، فبدأ بها؛ ليصيرَ ما يتقدَّمُها كالمَذكور مرَّتَين[3].

دلالةُ العطفِ في ﴿وَٱلنَّخۡلُ﴾، وسِرُّ تعريفِه باللّامِ دونَ الفاكهةِ:

ذِكـرُ النَّـخلِ وتـعـريـفُـه لـعظَـمة أثـرِه وعظيمِ نفعِه

عطفَ النَّظمُ على ذِكر الفاكهة بذِكرِ النَّخلِ، في قولِه: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾؛ للتَّنبيه على عظَمة الامتنان بالفاكهةِ بتعريف نوعٍ منها، والتَّنويه به[4]، وأفردَها بالذِّكر لكثرتها بالبلاد العربيَّة، وكثرةِ فوائدِها؛ لأنَّها يُنْتَفَعُ بثمارها رطبةً ويابسةً، ويُنْتَفَعُ بجميع أجزائها، فيُتَّخذُ من خوصِها السِّلالُ والزَّنابيل، ومن ليفها الحِبالُ، ومن جريدها سقفُ البيوت، ويُؤكل جُمّارُها، ومن ثَمَّ ذَكرها

(1) المَراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 108.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 344، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 103.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 150.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 150.

باسمها، وذكر الفاكهة دونَ أشجارها[1]، وعرَّفَ النَّخلَ باللّام دون الفاكهةِ؛ لعدد من الأسباب، **الأوّل:** أنَّ القوتَ محتاجٌ إليه في كلِّ زمانٍ، متداولٌ في كلِّ حينٍ وأوانٍ، فهو أعرَفُ من الفاكهةِ، والفاكهةُ تكون في بعضِ الأزمانِ وعند بعض الأشخاص.

الثّاني: أنَّ الفاكهة غيرُ متعيَّنةٍ؛ لاختلاف الأذواق والحاجات من شخصٍ لشخص، فنكَّرَها، والنَّخلُ والحَبُّ معتادان معلومان فعَرَّفهما. **والثّالثُ**: أنَّ النَّخل وحدَها نعمةٌ عظيمةٌ تعلَّقت بها منافع كثيرة، وأمّا الفاكهة؛ فنَوعٌ منها[2].

سرُّ تقييد النَّخلِ بالوصف ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾:

في الوصف امتنانٌ بمزيدِ الجمالِ وعميمِ النَّفعِ

وَصْفُ النَّظم النَّخلَ بـ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ وصفٌ للتَّحسينِ، فهو اعتبار بأطوار ثَمَر النَّخل، وامتنانٌ بجمالِه وحُسْنِه، كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النّحل: 6]، فامتنَّ بمنافعها، وبحُسْن منظرها[3].

سرُّ التَّعبيرِ بفريدةِ ﴿ٱلۡأَكۡمَامِ﴾:

تيسير جمع الثّمر وتعدُّدُ الفوائدِ من جملةِ الإنعامِ

استعملَ النَّظمُ الحكيمُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ مفردَةَ ﴿ٱلۡأَكۡمَامِ﴾، وهي من الفرائد التي لم ترِد إلّا في هذا الموضع، كمفردة (الأنام) قبلَها، والكِمُّ: وِعاءُ الطَّلع، والجمع: الأكمام، وكمٌّ: هو ما غَطّى جُمّارَ النَّخلةِ من السَّعَفِ واللّيفِ[4]، وقد أفاد استعمالُ هذه المُفردةِ الإشارةَ إلى مزيدِ الامتنانِ بسهولة جمع ثمراتِ النَّخيل، وكلِّ ما فيها للانتفاع به على أيسرِ الوجوهِ وأكملِها، فإنَّ النَّخلةَ شجرةٌ عظيمةٌ لا يمكن هَزُّها - مثل بعضِ أنواع الأشجارِ - لتسقطَ منها الثَّمرةُ؛ فلا بدَّ من قطف الشَّجرة، فخَلَقَه اللهُ تعالى

---

(1) المَراغيّ، تفسير المراغيّ: 27/ 108.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 345.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 241.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كمم).

عناقيدَ مجتمعةً، وكذلك الرَّطبُ، فكونُها ﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ من جملة إتمام الإنعام[1]، وكذلك فإنَّ فيها من جمالِ التَّكوينِ ما يَسُرُّ العينَ، كما في قوله: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠﴾ [ق: 10]، والأكمامُ أجمل ما يكون في النَّخلة؛ لذا كان التَّعبيرُ بها في هذا السّورةِ ملائمًا لابتِنائها على الجَمال والنَّعيم.

دلالةُ العطفِ في ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾، وسرُّ تعريفِه:

الامتنانُ بالحَبِّ الذي به قوامُ حياةِ النّاسِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ عطفَ النَّظمُ الحكيمُ الحَبَّ على ذِكرِ ما اشتملت عليه الأرضُ من الفاكهة والنَّخل؛ وذلك على سُنَّةِ التَّدرُّجِ من الأدنى إلى الأعلى، أو من المُهمِّ فالأهمِّ، وجاء به معرَّفًا؛ لأنَّهُ الأصلُ في الاقتيات للنّاس والبهائم، فالحَبُّ الذي منه الحنطة والشَّعير والأرزُّ، به قَوام حياةِ معظمِ النّاس[2]، واللّام في ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ للجنس.

سِرُّ وصفِ الحَبِّ بأنَّهُ ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾:

الامتنانُ بإطعامِ الدَّوابِ بعد الإنعامِ بإطعامِ البشرِ

وصفَ النَّظمُ الجليلُ الحبَّ بأنَّهُ ﴿ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾؛ لأنَّهُ لمّا كان النَّخلُ والحَبُّ أَدْخَلَ في الامتنانِ؛ لكونهما لا يُستَغنى عنهما، بخلافِ الفاكهةِ؛ شفَعَ كُلًّا بعَلاوة فيها مِنَّةٌ أيضًا، وقد تعدَّدت الأقوالُ في العَصفِ، فقيل: هو ما على الحَبِّ من قُشورِ التِّبنِ، وما على ساقِ الزَّرعِ من الوَرقِ الذي يَبِسَ، فتَفَتَّتَ[3]، وقيل: العَصْفُ: كُلُّ زرعٍ أُكِلَ حَبُّهُ، وبَقيَ تِبْنُه، وقيل: المَأكولُ مِنَ الحَبِّ[4]، ففيه تنبيهٌ على أنَّه تعالى كما أنعم عليهم بما يَقوتُهم من الحَبِّ؛ أنعمَ عليهم بما يقوتُ بهائِمَهم من العَصف، وكذلك يُفهَم من هذا الوصفِ التَّذكيرُ بأنَّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 345.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 345، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 150، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 241.

(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (عصف).

(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 207.

نعيمَ الجنَّة نعيمٌ خالِصٌ، فهي دارٌ خالصةٌ للتَّلذُّذِ[1]، فلا يُعَكِّرُ من صَفوِ التَّلذُّذ بنعيمها عَصفٌ ولا غيرُه، كما في طعامِ الدُّنيا.

تنوُّعُ القراءاتِ في ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾، وثراءُ المعنى:

قرئَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ في عدد من القراءات المتواترةِ:

في تخصيصِ بعضِ النِّعم بيانٌ لمزيدِ الاهتمام وعظَمةِ الإنعامِ

القراءة الأولى: برفعِ الباءِ والنّونِ: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾، رُفع ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾ عطفًا على قوله: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾، أي: (وفيها الحبُّ)، فيكون ابتداء، ورُفِعَ ﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ عطفًا على ﴿وَٱلۡحَبُّ﴾، وقرأ بها ابنُ كثير وعاصمٌ ونافعٌ وغيرُهم.

والقراءةُ الثّانيةُ: بنصب الباء والنّون: ﴿وَٱلۡحَبَّ ذَا ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانَ﴾، بإضمار فعل تقديرُه: (وخلق الحَبَّ) أو (أنبتَ الحَبَّ ذا العصف)، على أنَّه معطوف على قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾؛ لأنَّ من معاني ﴿وَضَعَهَا﴾: خَلَقَها، و﴿ذَا﴾: نعت لـ: ﴿وَٱلۡحَبَّ﴾ و﴿وَٱلرَّيۡحَانَ﴾: معطوفٌ على ﴿وَٱلۡحَبَّ﴾، أي: (وخلقَ الريحانَ)، وبهذه القراءة قرأ ابنُ عامرٍ.

والقراءةُ الثّالثةُ: برفعِ الباء وخفضِ النّون ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانِ﴾، عطفًا على ﴿ٱلۡعَصۡفِ﴾، أي: (ذو العصفِ وذو الرَّيحانِ)، على أنَّ الحَبَّ الحُنطةُ، وعَصفُه التِّبنُ أو ورقُ الزَّرعِ، والرّيحانُ: الرِّزقُ، وقرأ بها حمزةُ والكِسائيُّ وخَلَف[2]، وفي هذه القراءات ما يدلُّ على تخصيصِ بعضِ النِّعمِ بتقدير الفعلِ أو حذف المضاف وإقامةِ المضافِ مكانَه، فهو للتَّنصيصِ على أهمّيَّتها وعظيمِ قَدْرِها، فتُثْري المعنى، وتلفت الانتباه بالتَّغاير في أحوال التَّراكيب[3].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 344، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 103.

(2) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 619، وأبو عليّ الفارسيّ، الحُجّة للقُرّاء السّبعة: 6/ 246، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 380.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 344، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 103.

دلالةُ التَّعبيرِ بالرَّيْحانِ مادَّةً وصيغةً:

الامتنانُ بنعمةِ الرّائحة الطَّيّبة تلبية لاحتياج الرّوح

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾، استعملَ النَّظمُ الجليلُ مفردةَ (الرَّيْحان)؛ للامتنان بنعمةٍ أخرى، اختلفَت الأنظار في المُرادِ بها على أقوالٍ، أحَدُها: أنَّهُ الرِّزْقُ، وقد سَمّت العربُ الرِّزقَ رَيحانًا؛ لأنَّ الإنسان يَرتاح له، ويقوى به روحه. الثّاني: أنَّ الرَّيْحانَ الزَّرْعُ الأخْضَرُ الَّذي لَمْ يُسَنْبَلْ؛ لاستِراحَةِ النَّفْسِ بالنَّظَرِ إليْه. الثّالِثُ: أنَّهُ الرَّيْحانُ الَّذي يُشَمُّ؛ إذِ اللُّغَةُ العُرفيَّةُ في الرّيحان أنَّه يُطلَق على ما له رائحةٌ من الأنوار. الرّابِعُ: هو الحَبُّ المَأْكولُ، ومنه يقال: سُبْحانَكَ وريحانَكَ، أي: رزقَكَ، ويقولون: خرجنا نطلب ريحانَ اللّهِ ورزقَه[1]، وهذه المعاني كلُّها من بديع الآلاء والنِّعم، وإن كان الرّاجح أنَّ الرَّيحانَ كلُّ مشموم طيِّبِ الرّيح من النَّبات، وفي هذا النَّوع نعمةٌ عظيمةٌ، فمنه الأزهارُ والمندلُ والعقاقير[2]، فيكونُ مغايرًا لما قبلَه، على حسب القاعدة الأصليَّةِ في مقتضى العطفِ، إشارةٌ إلى أنَّ اتِّجاه هذا النَّبتِ إنَّما هو إلى الرّوح، فالرّيحانُ والرّوحُ من مادَّة واحدة لفظًا ومعنًى[3]، وفي التَّعبيرِ بهذه اللَّفظة تمامُ المناسبةِ للآلاء والنِّعم المعجبة في سورة الرَّحمن.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد تعديد النِّعَمِ والآلاء يأتي تفريعُ التَّصديق والإيمان

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من المِنَن المُدْمَجة من دلائل صدق الرّسول ﷺ، وحَقّيَّة وحي القرآن، ودلائلِ عظَمة اللّه تعالى وحِكمته، باستفهام عن تعيينِ نعمةٍ من نِعَم اللّه يتأتّى لهم إنكارُها، وهو تذييلٌ لما قبلَه[4]، فكأنَّ أصلَ الكلامِ: إذا عرفتُم هذه النِّعمَ العظيمةَ والآلاءَ الجسيمةَ،

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 144، والماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 426.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 225.
(3) الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 14/ 668.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 243.

التي هي من الظُّهور والوضوح بمكانٍ لا مِريَة فيه، فبأيِّها تُكَذِّبان؟ إذ لا سبيلَ إلى التَّكذيبِ، فلا بدَّ من الإقرار التّامِّ، والتَّصديق الكاملِ، والإيمانِ الحقِّ بعد الامتنان بكلِّ هذه النِّعم، التي هي دليلُ قدرتِه وعظَمتِه وقيّوميَّتِه ورحمتِه.

الاستفهامُ الاستنكاريُّ للتَّقرير وللتَّوبيخ

الغَرضُ من التَّعبيرِ بالاستفهامِ في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ﴾:

استعمل النَّظمُ الجليل أداةَ الاستفهام (أيٍّ)؛ لما فيها من العموم، إذْ هي بحَسَب ما تضافُ إليه، فإن أُضيفت إلى مكان؛ كانت مكانًا، وإن أُضيفت إلى زمان؛ كانت زمانًا، وإن أُضيفت إلى غيرهما؛ كانت بحسب ما أضيفت إليه[1]، وهذا الاستفهام يصِحُّ أن يكون استفهامَ إنكارٍ وتوبيخٍ، ويصِحُّ أن يكون استفهامَ تقريرٍ، يكون استفهامَ إنكارٍ، أي: لا تجدون نعمةً من نِعَم اللّهِ عليكم موصوفةً بوصف يقبل جَحْدَها منكم؛ لأنَّها نِعَمٌ شوامخُ رواسخُ، فمَن منكم يُنكر رفعَ السَّماء مثلًا؟ ومَن منكم يُنكر وجودَ الأرضِ، وهو مقيم عليها؟ ويكون استفهامَ تقريرٍ، أي: تقرير المخاطَبين واعترافِهم بأنَّ نِعَمَ اللّه لا يمكن إنكارُها[2]، فلا يستطيعُ أحدٌ منهم أنْ يَجْحَدَ نِعمَ اللّه تعالى[3].

الآلاءُ نِعَمٌ متواليةٌ فيها الهناءةُ واللّينُ، وهي نِعَمٌ ظاهرةٌ وباطنةٌ

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظة ﴿ءَالَآءِ﴾:

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بلفظ (الآلاء)؛ لأنَّ معناها يدور حولَ الطَّراءةِ واللّين والهناءةِ في حياةِ مَن يَحوزها، وهي تُنال بفضل اللّه، كما في قولِه: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [الأعراف: 69][4]، كما أنَّها هي النِّعم التي تتلو غيرَها، ومعنى الآلاء: نِعمُه الظّاهرةُ والباطنةُ[5]، وعبَّرَ بالآلاء كذلك؛ لأنَّها من أجلِّ النِّعَمِ؛

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 256.
(2) عبد العظيم المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 211.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 243.
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ألي).
(5) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ألو).

لأنَّها النِّعمُ المخصوصةُ بالمُلوك، لما لها من اللَّمعانِ والصَّفِّ المُمَيِّز لها من غيرها، ولما لِرُؤيتها من الخير والدُّعاء، فإذا نظرتَ إلى معنى (الآل)؛ كان المعنى أنَّ تلكَ النِّعمَ الكِبارَ المُلوكيَّةَ تُظهِر للعِباد معرفتَه تعالى، وأنَّه يَؤول إليه كلُّ شيءٍ أولًا من غير نِزاع، كما أنَّه بكلِّ شيء عليم، وتَكِلُّ عن نظرها الأبصارُ النَّوافذُ، كما تَكِلُّ عن رؤية الأشخاص التي يرفعُها الآل؛ لأنَّها تدلُّ عليه سبحانه، فهي نِعمٌ عظيمةٌ، وإن كانت نِقمًا؛ لأنَّه لا نِعمة تدلُّ مثلَ ما دلَّ عليه سبحانه[1].

بيانُ المرادِ بـ ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضع:

الآلاء هي كلُّ ما سبقَ بيانُه ابتداءً من صفة رحمتِه، وانتهاءً بنعمةِ الرِّزقِ الوفيرِ

جاء قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، بعد ما مضت اثنتا عشرةَ آيةً، عدَّدَ فيها أصولَ نِعمِه تعالى، وهي: الامتنانُ بصفةِ رحمته تعالى، وتعليمِ القرآن، وخَلْقِ الإنسانِ، وتعليمِ البيانِ، وتقديرِ حُسبانِ الشَّمس والقمرِ، وتعبيد النَّجم والشَّجر؛ للدَّلالةِ على أنَّ كلَّ الخَلْقِ عابدون طوعًا أو كَرهًا، ورفْع السَّماءِ، ووضع الميزان بالشَّرائع، وتهيئة الأرضِ لمعاش الأنام، وما بثَّ فيها من الفاكهة والنَّخل والحَبِّ ذي العَصفِ والرَّيحان، فكأنَّ المرادَ في الآية هاهُنا ذِكرُ الآلاءِ مجتمعةً، والتَّقديرُ: أتُكذِّبان بإنزال القرآن؟ أتُكذِّبان بأنَّكم مخلوقون أحياء؟ أتُكذِّبان بأنَّكم مُتكلِّمون أبيناءُ؟ أتُكذِّبان بالشَّمس والقمر ومنافعِهما التي لا تُحصَى؟ أتُكذِّبان بالنَّبات والأشجار؟ أتُكذِّبان برفع السَّماء والتَّشريع العادل؟ أتُكذِّبان بخَلْق الأرضِ وإقامتِكم مُنعَّمين هانئين عليها؟ أتُكذِّبان بما تجود به لكم من خيرات؟ فإنِ استطعتم أن تُكَذِّبا - يا معشرَ الثَّقلين - ولو بخَلْق أنفسِكم، ويكونَ لتكذيبِكم تصديقٌ عند أنفسكم؛ صَحَّ لكم أن تُكَذِّبوا بالرَّحمن، وإن لم يكن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 152.

ذلك فلا يصِحُّ لكم أن تُكَذِّبوا بالرَّحمن[1]، فدلَّ كلُّ ذلك بغاية البيان على أنَّ له تعالى كلَّ كمالٍ[2].

الغرض من الإضافة في ﴿ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾:

اختصاصِ الرَّبِّ تعالى بالآلاء والنِّعمِ على خَلْقِه

أضافَ النَّظمُ الجليلُ الآلاءَ إلى الرَّبِّ تعالى؛ بيانًا لاختصاصِه بها وحدَهُ دونَ سواهُ، فهي آلاءٌ ربّانيَّةٌ لا قِبَلَ لأحدٍ من البشرِ أنْ يَمتنَّ بها على أحدٍ من الخَلْقِ، فكلُّ هذه النِّعم من الآلاء التي لم يَدَّعِ أحدٌ أنَّه سخَّرها، وهيَّأها، وهي كذلك إضافةُ تشريفٍ وتعظيمٍ وتفخيمٍ[3].

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ:

سورةُ الرَّحمن هي سورةُ الامتنانِ بالتَّربيةِ والإحسانِ والتَّنشئةِ

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّةِ دونَ الأُلوهيَّةِ إشارةً إلى نعمةِ التَّربيةِ، وللمناسبة من سورةِ الرَّحمن كلِّها، التي هي سورةُ الامتنان بنعمةِ الإحسانِ، فهو تعالى يُخاطِبُ الثَّقلينِ بأنَّه هو المُحسن إليهما، بما أسدى من المزايا التي أسداها إليهم على وجه الكبرياء والعظَمة، وهي دائمةٌ لا تنقطع، من غير حاجةٍ إلى مكافأة أحدٍ ولا غيرها، وهو تعالى المُدَبِّر لهما، فلا مُدَبِّرَ ولا سيِّدَ لهما غيرُه، فإنَّ كلَّ هذه النِّعمِ الكِبارِ آياتٌ دالَّةٌ عليه، وصنائعُ مُحكمةٌ، وأحكامٌ وحِكم، ظهرت بها عِزَّتُه، وبانت بها قُدْرَتُه[4].

توجيهُ المتشابه اللَّفظيِّ بين سورة الرَّحمن وسورة الأعرافِ:

إضافةُ الآلاء للرُّبوبيَّةِ للامتنانِ بالنِّعم

ورد لفظ الآلاء في ثلاث سورٍ، هي: (الأعراف، والنَّجم، والرَّحمن)، وقد أضافَ النَّظم الجليلُ الآلاء للرُّبوبيَّةِ في سورة الرَّحمن في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، الذي تكرَّر إحدى وثلاثين مرَّةً، وفي سورة النَّجم مرَّةً واحدَةً في قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ [النّجم: 55]، وأضافه للأُلوهيَّة مرَّتين

---

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 210.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 152.

(3) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 211.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 152.

في سورة الأعراف، في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٦٩﴾ [الأعراف: 69]، وفي قولِه: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٧٤﴾ [الأعراف: 74]، فأمّا إضافةُ الآلاء إلى الرُّبوبيَّة؛ فلأنَّ سورتي النَّجم والرَّحمن قد حفلتا بالحديث عن أصناف النِّعم التي بها قوامُ الإنسانِ وتربيتُه وتنشئته بتهيئة الأرض والسَّماء، فالإضافة على سبيل الامتنانِ، وأمّا إضافتها للأُلوهيَّةِ في سورة الأعراف؛ فلأنَّ المقصودَ بالآلاء هُناك أنَّها نِعمٌ تحضُّ على إخلاص العبوديَّة للّه وتَركِ الإشراك، فالمُرادُ بها الحَثُّ على الإيمانِ وتركِ عبادة الأصنام، وإخلاص العبادة له، وتركِ الإشراكِ به[1].

الغرضُ من الخطابِ بضميرِ الحضورِ:

الالتفات إلى الخطابِ للتّقريع والزَّجرِ

جاء الخطابُ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿رَبِّكُمَا﴾ على باب الالتفات؛ إذ مبنى افتتاحِ السّورة على الخطابِ مع كلِّ مَنْ يسمعُ، فكأنَّه لما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، قال: اسمعوا أيُّها السّامعون، والخطابُ للتَّقريعِ والزَّجرِ، كأنَّه تعالى نبَّه الغافلَ المُكذِّبَ على أنَّه يفرض نفسَه كالواقف بين يدي ربِّه، يقول له ربُّه: أنعمتُ عليكَ بكذا وكذا، ثمَّ يقول: فبأي آلائي تُكَذِّب، ولا شكَّ أنَّه عند هذا يستحي استحياءً لا يكون عنده فرض الغيبة[2].

المقصود بعَوْد الضَّمير في علامة التَّثنية:

جمهورُ المفسِّرين أنَّ المرادَ بالتَّثنيةِ الإنسُ والجِنُّ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بضمير المثنى في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ دون الإفراد، كما هو مقتضى الظّاهِر، فلم يقل: (فبأيِّ آلاء ربِّكَ تُكذِّبُ أيُّها الإنسانُ)، وقد تعدَّدتِ الأنظار في توجيه مرجع ضمير التَّثنيةِ في الآية، وبقيَّةِ مواضعها في السّورة:

فالقولُ الأوَّلُ: هو ما ذهب إليه جمهورُ المفسِّرينَ، وهو أنَّ المرادَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/ 239، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 3/ 186.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 349.

بضمير المثنَّى الثَّقَلان: الإنسُ والجنُّ، وذلك أنَّ لفظَ (الأنام) في قولِه: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ اسمٌ للجِنِّ والإنسِ، فعاد الضَّميرُ إلى ما في الأنام من الجنس، وقيل: بل (الأنام) اسمٌ للإنسان، ولما كان لفظُ (الجانِّ) مَنْويًّا، وظهر من بعدُ بقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ جاز عودُ الضَّمير إليه، وقيل: وردَ المخاطَبُ في النِّيَّة لا في اللَّفظ، كأنَّه قال: (فَبِأيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ أيُّها الثَّقلان)، ولما وردَ من ذِكر الإنس والجنِّ في السّورة في قولِه: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، و﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾[1].

القولُ الثّاني: الخطاب للمُفرد، ولكنَّه جاء على باب التَّكرار للتَّأكيد، فكأنَّهُ قال: فبأي آلاء ربِّكَ تُكذِّب، مثل: لبَّيْك وسعديْك، ومعنى هذا أنَّ الخطاب لواحدٍ، وهو الإنسان.

القولُ الثّالثُ: أنَّ الخطابَ للواحدِ على أصل الكلام، ولكنَّهُ جارٍ على عادة العرب في خطاب الواحد بلفظ التَّثنية، كما في قولِ امرئ القيس:

قِفا نبكِ، من ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ *** بسِقطِ اللّوى بينَ الدَّخولِ فحَوْمَلِ

وكذلك في قولِه:

خَليلَيَّ مُرّا بي على أُمِ جُنْدَبِ *** نُقَضِّ لُباناتِ الفُؤادِ المُعذَّبِ

وكما هو أحد الوجوه في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۝٢٤﴾ [ق: 24][2].

القولُ الرّابعُ: أنَّ الخطاب لفريقين، هما المؤمنون والكافرون، الذين ينقسمُ إليهما جنس الإنسانِ المذكورِ في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وهم المخاطَبون بقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْاْ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ الآية، والمنقسمُ إليهما لفظ (الأنام) المُتقدِّم ذِكْرُه، أي: إنَّ نِعَمَ اللّهِ على النّاس لا يَجْحَدُها كافرٌ، بَلْهَ المؤمنَ، وكلُّ فريقٍ يتوجَّه إليه الاستفهام بالمعنى الذي يناسبُ حالَه؛ إذِ المَقصودُ الأصليُّ: التَّعريض بالمشركين وتوبيخُهم على أن أشركوا في العبادة مع المُنعِم

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 25/ 202، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 149، والزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 445، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 349، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 155، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 158، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 171، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 411.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 114، ومكّي بن أبي طالب القيسي، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 11/ 7217، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 149، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 349، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 58، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 243، والبيان في ديوان امرئ القيس، ص: 8، وص: 41.

غيرَ المُنعِم، والشَّهادةُ عليهم بتوحيد المؤمنين، والتَّكذيبُ مستعمَل في الجحود والإنكار.

القولُ الخامسُ: أنَّ المرادَ بالتَّثنيةِ الذَّكرُ والأنثى، فعاد الضَّمير إليهما والخطاب معهما.

القولُ السّادسُ: أنَّ المراد العموم، لكنَّ العامَّ يدخل فيه قسمان، بهما ينحصر الكلُّ، ولا يبقى شيءٌ من العامِّ خارجًا عنه.

القولُ السّابع: المرادُ القلبُ واللِّسانُ.

القولُ الثّامن: الدّلائلُ السَّمعيَّة والدَّلائل العقليَّة، وهذه الوجوه قريبةٌ بعضُها من بعض[1].

والرّاجح من بين هذه الأقوالِ: أنَّ المرادَ بضميرِ التَّثنيةِ: الثَّقلان من الإنس والجنِّ، لذكرهما في الآياتِ من هذه السورة بقوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، وبقولِه: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، وبقولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾، كما ذهب إليه جمهورُ المفسِّرينَ، وإن كانَ القولُ بأنَّ المرادَ هم المؤمنون والكافرونَ قولًا سديدًا لا يخلو من وجاهةٍ؛ لأنَّ الخطاب القرآنيَّ كلَّهُ إنَّما نزلَ فيهما؛ لزيادةِ الهدايةِ، أو للإنذارِ والتوبيخ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّكذيبُ مستعملٌ للتَّشنيع على شِدَّةِ الجُحودِ

آثرَ النَّظمُ الجليلُ التَّعبيرَ بمادَّةِ (التَّكذيب)؛ لأنَّ التَّكذيبَ هاهُنا مستعملٌ في معنى الجَحْدِ والإنكارِ مجازًا لتشنيع هذا الجَحْد[2]، وإيثارُ المضارع ﴿تُكَذِّبَانِ﴾ على الماضي (كذَّبتم)؛ لأنَّ المُراد إنكارُ التَّكذيب في الحال والاستقبال معًا، أمّا الماضي؛ فلأنَّه سابق على الخطاب، وإنشاء الأمر أو النَّهي، وما يتولَّد عنهما من تقرير وإنكار

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 347.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 244.

لا تعلُّقَ لهما بما مضى، بل تعلُّقُهما يكون دائمًا بما هو كائن الآن، وبما سيكون(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الآلاءُ والنِّعمُ:

الآلاءُ نِـعَـمٌ مـتـواليـةٌ فيها الهناءةُ واللّينُ، وهي نِعَمٌ خاصَّةٌ

يدورُ معنى (الآلاء) حول الطَّراءةِ واللّين والهَناءةِ في حياةِ مَن يَحوزها، وهي تُنال بفضل اللّه، كما في قولهِ: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٦٩﴾ [الأعراف: 69](2)، كما أنَّها هي النِّعم التي تَتْلو غيرَها، ومعنى الآلاء: نعمُه الظّاهرةُ والباطنةُ، وهي من أجلِّ النِّعَمِ؛ لأنَّها النِّعم المخصوصةُ بالمُلوك(3).

النِّعمُ أعمُّ من الآلاءِ

وأمّا النِّعمةُ؛ فهي الحالةُ الحَسَنةُ، وبِناء النِّعْمَة بناء الحالةِ التي يكون عليها الإنسان، كالجِلْسَة والرِّكْبَة، أما النَّعْمَةُ؛ فهي التَّنَعُّمُ، وبِناؤُها بناءُ المَرَّة من الفِعْل كالضَّرْبَة والشَّتْمَة، والنِّعْمَةُ للجِنْسِ تقال للقليلِ والكثيرِ، فهي أعمُّ من الآلاءِ(4).

---

(1) المطعني، التّفسير البلاغيّ للاستفهام: 4/ 211.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ألى).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 152.
(4) الرّاغب، مفردات القرآن: (نعم).

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٦﴾ [الرحمن: 14 - 16]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الامتنانُ بأصول النِّعَمِ تهيئةً للامتنان بخَلْقِ الثَّقلَين

لمّا ذَكَرَ تعالى العالم الأكبر من السَّماءِ والأرض وما أوجد فيها من النِّعم؛ ذكر مبدأ مَن خُلِقت له هذه النِّعم(1)، وهما الإنس والجِنُّ، وكان قد تقدَّمَ في إشارة الخطابِ الامتنانُ بخَلق الإنسان وبيانِ أصول النِّعمِ عليه، فأتبع ذلك تفصيلًا لما أجمل، بذِكر خَلقِ الإنسانِ، ولمّا كان أغلبَ عناصره التُّراب؛ أشارَ إلى مطابقة اسمه لمُسَمّاه، بما فيه ممّا يقتضي الأُنس، وعبَّر عن ذلك بما هو في غاية البعد عن قابليَّة البيان، وهو الصَّلصالُ، الذي إذا نُقِرَ عليه؛ صارَ كالفخّارِ، فكما أنَّ الآدميَّ بكلامه يُعرَف حالُه وغايةُ أمرِه ومآله، فالمذكور هنا غايةُ تخليقه؛ إذْ من التُّراب جسدُه ونفسُه، ومن الماء روحُه وعقله، ومن النّار غَوايَتُه وحِدَّتُه، ومن الهواء حركتُه وتقلُّبه في محامده ومذامِّه، ولمّا كان الجانُّ الذي شمله أيضًا اسمُ الأنام مخلوقًا من العناصر الأربعة، وكان الغالبُ على جبلَّته النّار؛ عبَّرَ بلفظِ الجانِّ، وقيَّدَهُ بأنَّهُ من مارجٍ صافٍ من لهب النّار؛ لأنَّها هي الأغلب من عناصره، ولمّا كان خَلق هذَين القَبيلَين على هَذَين الوجهين اللَّذَين هما في غاية التَّنافي، مستورًا أحدهما عن الآخر مع منع كلٍّ من التَّسلُّط على الآخر إلّا نادرًا؛ إظهارًا لعظيم قدرته وباهر حِكمته؛ كرَّرَ الاستفهامَ بغرضِ التَّقريرِ والإنكارِ(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾: (صلل) أصلانِ، أحدهُما: يدلُّ على ندًى وماءٍ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 58.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 155 - 157.

قليلٍ، والآخَرُ: على صوتٍ، فأمّا الأوَّلُ؛ فالصَّلَّةُ، وهي الأرضُ، تُسَمَّى الثَّرى لنداها، وأمّا الصَّوتُ؛ فيُقالُ: صَلَّ اللِّجامُ وغيرُه؛ إذا صَوَّتَ، والصُّلْصَلَةُ: بقيَّةُ ماءٍ، سُمّيت بذلك لحكايةِ صوتِ تحرُّكِه في المزادَةِ[1]، والمعنى المِحوريُّ: تماسكٌ أوِ امتساكٌ في الأثناء بامتداد، مع دقَّةِ جرمٍ أو رِقَّةٍ وحِدَّةِ أثرٍ[2]، وسُمّيَ الخَزَفُ صَلْصالًا؛ لأنَّهُ يُصَوِّتُ، ويُصَلْصِلُ[3]، وقيل: الصَّلْصالُ: المُنْتِنُ من الطّين، من قولهم: صَلَّ اللَّحمُ؛ إذا أَنْتَنَ[4]، وقيل: الصَّلصالُ: الطّينُ اليابسُ الَّذي يَصِلُّ من يُبْسِه، أي: يصوِّتُ، وقيل: هو صلصال؛ ما لم تُصِبه النّار، فإذا مسَّته النّارُ؛ فهو فخّار[5]، والمقصود بالصَّلصال في الآية: الطّينُ الَّذي يُتْرَكُ حَتَّى يَيْبَسَ، فإذا يَبِسَ؛ فهو صَلْصالٌ، وهو شِبْهُ الفَخّارِ، إلّا أنَّ الفَخّارَ هو ما يَبِسَ بالطَّبخ بالنّار[6].

2) ﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾: (فخر) أصلٌ صحيحٌ، وهو يدلُّ على عِظَمٍ وقِدَمٍ، من ذلكَ الفَخْرُ، وهو عَدُّ القديم من المآثِرِ، والفَخيرُ: الذي يُفاخِرُكَ، بوزنِ الخصيم، والفاخِرُ: الشَّيءُ الجَيِّدُ[7]، والمعنى المِحوريُّ: عِظَمُ جرمِ الشَّيءِ أو غِلَظُه مع خُلوِّه - أحيانًا - ممّا يُناسبُ عِظَمَ جرمِه عادةً أو توقُّعًا، كالفَخّار الذي كان طينًا ثقيلًا، فأصبح صُلبًا خفيفًا، وبذا تبيَّنَ اتِّساقُ معنى لفظِ الفَخّار مع معنى التَّركيب[8]، والفَخّارُ في الآيةِ: الجِرارُ، قيل: وذلك لصَوته؛ إذا نُقِر، كأنَّما تَصَوَّرَ بصورة من يُكْثِر التَّفاخُرَ[9].

3) ﴿ٱلۡجَآنَّ﴾: (جن) أصلٌ واحدٌ، وهو السَّترُ والتَّسَتُّرُ، فالجنَّةُ ما يصيرُ إليه المسلمونَ في الآخرةِ، وهو ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ، والجنَّةُ البستانُ؛ لأنَّ الشَّجرَ بوَرقِه يستُرُ، والجنينُ: الولدُ في بطنِ أُمِّه، والجِنَّةُ: الجُنونُ؛ لأنَّهُ يُغَطّي العقلَ، وجِنانُ اللَّيلِ: سوادُهُ وسَتْرُهُ الأشياءَ، والجِنُّ سمّوا بذلك؛ لأنَّهم مُتَسَتِّرونَ عن أعيُنِ الخَلقِ، قال اللّه تعالى:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلّ).
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (صلل - صلصل).
(3) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (صلل).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (صلل).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (صل).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 160.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فخر).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 245، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فخر).
(9) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فخر)، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 104.

﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: 27][1]، وجَنَّ الشَّيءَ يَجُنُّه جَنًّا: سَتَره، وكلُّ شَيْءٍ سُتِر عَنْكَ؛ فقَدْ جُنَّ عَنْكَ[2]، والمعنى المِحوريُّ: سَتْرُ الشَّيء بكثيفٍ يَعلوه، أو يكونُ الشَّيءُ في أثنائِه[3]، والمرادُ بالجانِّ في الآيةِ: إمّا أبو الجنِّ، كما أنَّ الإنسانَ المذكورَ هنا هو أبو الإنس، وهو آدم، وإمّا الجِنُّ بنفسه، فالجانُّ والجِنُّ وصفان من باب واحد[4]، وقيل: بل المُرادُ إبليسُ وما خرج عنه من الشَّياطين[5].

4) ﴿مَّارِجٍ﴾: (مرج) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مجيءٍ وذهابٍ واضطرابٍ، ومَرَجَ الخاتمُ في الإصبع: قَلِقَ، ومَرَجت أماناتُ القوم وعُهودُهم: اضطربت، واختلطت، والمَرْجُ: أصله أرضٌ ذاتُ نباتٍ تَمْرجُ فيها الدَّوابُّ[6]، وفي المرادِ بالمارج أقوالٌ، منها: أنَّه لهيبٌ مختلِط[7]، أو هو اللهبُ الأخضرُ والأصفرُ والأحمر، الذي يعلو النّارَ؛ إذا أُوقِدت، ويكون بينها وبين الدُّخان، أو هو النّارُ المُرسلةُ التي لا تمتنع، أو هو النّار المضطربةُ التي تذهب، وتجيء، وسُمّي مارجًا لاضطرابه وسرعة حركتِه[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذه الآياتِ الكريماتِ ذَكَّرَ النَّظمُ الجليلُ بنعمةٍ أخرى، وهي نعمةُ خَلْقِ الإنسانِ، من أشياءَ تبدو للنّاظرينَ لا قيمةَ لها في نفسها، فما الطّينُ المُنتنُ في أوَّلِه، اليابسُ في آخره، إلّا شيءٌ ضئيلٌ أمامَ قدرةِ اللّهِ التي بلغتْ بالإنسانِ الغايةَ من الكمال في الخَلقِ والإبداعِ والتَّصويرِ، فقد خلق اللّهُ تعالى بقدرته آدمَ الذي هو أصل البشرِ، وعنه تفرَّع الجنس الإنسانيُّ من طينٍ يابسٍ يُشبه الفخّارَ في يُبوسته وصَلابته، وكذلك فقد خَلق تعالى جنسَ الجِنِّ من لهبٍ خالصٍ لا دخانَ فيه، أو ممّا اختلطَ بعضُه ببعضٍ من اللهب الأحمر وغيرِ الأحمر، فبلغَ به ما بلغَ، والمقصودُ بالآيتين تذكيرُ بني آدمَ بفضلهم على غيرهم؛ إذ بيَّن

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنّ)، الخليل بن أحمد، كتاب العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جنن).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (جنن).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جنن، وجنجن).
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 349، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 104.
(5) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 161، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 245.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرج).
(7) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (مرج).
(8) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 428.

- تباركتْ آلاؤه - لهم مبدأ خَلْقهم، وأنَّهم قد خُلِقوا من عنصر غير الذي خُلِق منه الجنُّ، وأنَّ اللّه تعالى قد أمر إبليس المخلوقَ من النّار، بالسُّجود لأبيهم آدمَ، المخلوقِ من الطّين، فعليهم أن يشكروا اللّه تعالى على هذه النِّعمة، وأن يحذروا وسوسةَ إبليسَ وجنودِه[1]، وكَرَّرَ الاستفهامَ بغرضِ التَّقريرِ والإنكارِ، أي: أَتُكذِّبانِ بنعمة البصرِ وغَيْرِها؛ مِنْ خَلْقِكُم على هذا النَّمط الغريب، وإيداعِكم ما أودَعَكم من القوى، وجَعْلِكم خُلاصةَ مخلوقاتِه، ومِن مَنْعِ أحدِ قبيلَيْكُم عن الآخَر، وتَيسيرِه لكم الأرزاقَ والمنافعَ، وحَمْلِكم على الحنيفيَّة السَّمْحة، وقدرتِه على إعادتكم كما قدر على ابتدائكم[2].

التَّذكيرُ بأصل خَلْقِ الإنسِ والجِنِّ تذكيرٌ بأصلِ النِّعَمِ

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئناف بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾:

العودَةُ للفصل بين النِّعم للتَّذكيرِ بفضل كلِّ نعمةٍ

استأنف النَّظمُ الحكيمُ قولَه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ بعد قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ لأنَّ الآيةَ تمهيدٌ للتَّوبيخ على إخلالهم بمواجبِ شُكرِ النِّعمة المتعلِّقة بذاتَي كلِّ واحدٍ من الثَّقلين[3]، فعاد النَّظمُ إلى طريقةِ الاستئناف دون الوصلِ؛ للتَّذكير بكلِّ نِعْمَةٍ على حِدَةٍ، كما سارَ عليه النَّظم في أوَّلِ السّورةِ في قولِه: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، ومن الملاحظ أنَّ النَّظم الجليلَ سيسير على هذه الطَّريقةِ في المواضعِ بعدَ ذلك في كلِّ المواضعِ تقريبًا، خلا تلك المواضع التي يستمرُّ فيها الحديثُ عن النِّعَمة نفسها.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿خَلَقَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

انفرادُه تعالى بقضيَّةِ الخَلق دليلٌ على وحدانيَّتِهِ

آثر النَّظمُ التَّعبيرَ بمفردةِ (الخلق) في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾؛

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 135.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 155 - 157.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 179.

لما تتضمَّنه من معاني الإبداعِ والإنشاءِ على غيرِ مثالٍ سبق، ومِنْ غيرِ أصلٍ ولا احتذاء، ولِمَعنى التَّقدير الدَّقيق المستقيم(1)، وهي المعاني التي يتطلَّب السّياقُ إثباتَها؛ لِبيانِ أنَّ إيجاد الإنسانِ من العدَمِ إحدى النِّعم الجليلةِ التي امتنَّ اللّهُ بها على الإنسانِ، وكذلك لاشتمالِها على كثيرٍ من التَّقديراتِ التي تُثْري الآية، فمنها: إنْشاؤُهُ عَلى ما هو عَلَيْهِ مِنَ القوى الظّاهِرَةِ والباطِنَةِ(2)، وأنَّهُ تعالى قَدَّره، وأوجدَه على هذا الشَّكلِ المعروفِ والتَّركيبِ الموصوفِ، منفصلًا عن جميعِ الجماداتِ، وأصلُه منها، ثُم عن سائرِ النّامياتِ، ثمَّ عن غيرِه من الحيواناتِ، وجعلَه أصنافًا، وفَصَلَ بين كلِّ قوم بلسانِهم عمَّن عداهم، وخَلْقُه لهم دليلٌ على خَلْقِه لكلِّ شيءٍ موجودٍ(3)، ففي خَلْقِ الإنسانِ دلالتان، أولاهما: الدَّلالة على تَفرُّد اللّه تعالى بالإلَهيَّة، وثانيَتُهما: الدَّلالة على نعمة اللّه على الإنسان؛ لأنَّ فيها تشريفًا للمخلوق بإخراجه من غياهب العَدَم إلى مَبْرز الوجود في الأعيان(4)، وجاء الفعلُ ﴿خَلَقَ﴾ في صيغة المُضيِّ؛ لإفادة اليقينِ بانفرادِه تعالى بخَلْقِ الإنسانِ، ولترسيخ الاعتقاد بقدرته تعالى، فكلُّ من خُلِق وكلُّ من يُخْلَقُ وسيُخلَقُ، إنَّما هم في حُكْمِ المُضيِّ قُدرةً واستطاعةً وتحقُّقًا، وكذلك فإنَّ التَّعبيرَ بالجملةِ الفعليَّةِ فيه تقويةٌ للحُكم، أو تخصيصٌ له، وذلك بتنزيلهم منزلةَ المُنكرين لخَلْقِ اللّهِ الإنسانَ بعبادتِهم غيرَه(5).

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

ذهب كثيرٌ من المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بالإنسان في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ آدمُ ﷺ، بوصفِه أبا البشر، وقال آخرون: أراد اسمَ الجنسِ، وساغ ذلك من حيثُ إنَّ أباهم مخلوق من الصَّلصال دونَ غيرِه(6)، والرّاجح أنَّه آدمُ حسبما نصَّ غيرُ واحدٍ من أنَّهُ قولُ الجمهورِ(7)، وعليه تكون اللّامُ في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ لامَ العهد(8)، وهو الموافق لتفسير قولِه اللّهِ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ [الحجر: 26]، وعلى

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، مفردات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خلق).
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 176.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 141.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 233.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 233.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 226.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 160، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 104.
(8) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 499.

القولِ بأنَّ المرادَ جنسُ الإنسانِ، تكونُ اللّامُ للجنسِ، والمرادُ أصلُ الخَلقِ لجنس البشرِ، وعلى التَّقديرينِ؛ فإنَّها إظهارٌ للامتنان بخَلقِ البشرِ، وإخراجِهم من العدمِ إلى الوجودِ.

اللّام إمّا للعهد، وإمّا للجنسِ؛ ولكلٍّ دلالتها

إيثار التَّعبير بلفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

المفارقةُ بين الخَلقِ والأصل؛ تذكرةٌ لذي الكِبرِ

لم يَردْ في القرآنِ ذكْرُ اسْمِ آدمَ عليه السلام عند بيانِ أنَّ أصلَ الخَلْقِ كان من صلصالٍ، فلم يقل: (خلقَ آدم من صلصال كالفخّار)، ولم يردْ هذا الوصفُ إلَّا عند ذِكرِ الإنسان أو البشر، ونُكْتَةُ التَّعبيرِ بلفْظِ الإنسانِ هنا، مع أنَّ المُراد آدمُ، هي تذكير كلِّ إنسانٍ مخاطَبٍ بأنَّ أصلَه بذاتِه وأوصافِه؛ كان من صلصالٍ منتنٍ أوَّلًا، ثمَّ يبسَ، فلا يغتر، ولا يتكبَّر، ولينظر إلى عظمة اللّه، وبديع خلقِه، ومقتضى حكمته، وسعة علمه تعالى، وفيه إشعارٌ ببديع صنع اللّه في تصوير الإنسان، وعظمته، وأنَّها من أجمل صورِ الخَلْقِ، ففيه تعجيب من صورة خَلْقِه وما هو عليه؛ لمجيء اللَّفظ في سياق تعظيم قدرة اللّه وبديع خلقه، وفيه تنبيه على أنَّ كلَّ فرد من أفراد البشرِ له حظٌّ من إنشاء آدم عليه السلام منه، فكان خَلْقه منَ الطّين خَلْقًا لكلِّ أحدٍ من فروعه منه، ولمّا كان خَلْقُه على هذا النَّمط السّاري إلى جميع أفراد ذرّيَّته أبدعَ من أن يكون ذلك مقصورًا على نفسه، كما هو المفهوم من قوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾؛ كانَ أدلَّ على عِظَمِ قُدرةِ الخلّاق العليم وكمالِ عِلْمه وحِكْمته.

معنى ﴿مِن﴾ ودلالَتُها في ﴿مِن صَلۡصَٰلٖ﴾:

(مِنْ) لابتداءِ الغايةِ لبيانِ أصلِ الخَلقِ إظهارًا لإعجازِ القرآنِ

جاءتْ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ﴾ لابتداء الغايةِ[1]، أي: إنَّ ابتداءَ خَلقِ جنسِ الإنسانِ ممثَّلًا في آدمَ عليه السلام كان من صلصالٍ، وفي بيان أصل خلق الإنسان بيانٌ لعجيب قُدرةِ اللّه تعالى الواحدِ الأحدِ؛ لأنَّ خلقَهُ من هذه الأمورِ أعجبُ من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 59.

خَلقِ الشَّيءِ من شكلِه وجنسِه، ولأنَّه تعالى أخرجَ من هذه الحالَةِ المَهينَةِ نوعًا هو سَيِّدُ أنْواعِ عالَم المادَّةِ ذاتِ الحَياةِ، ولمّا كان بيان أصلِ الخَلقِ ليس في عِلْم الإنسان في وقتِ التَّنزيل؛ كان ذِكْره وبيانُه دليلًا على إعجاز القرآن، وكونه من عند اللّه تعالى، وحجَّةً على نُبوَّةِ رسولِه ﷺ[1].

دلالةُ التَّعبير بالصَّلصالِ، والغرضُ من تنكيره:

يُعرفُ الإنسانُ بالصَّوتِ المبينِ عن حالِه

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بمفردَةِ ﴿صَلْصَٰلٍ﴾، في قولِه تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ﴾، وقد اختلفَ العلماءُ في دلالتها على قولين، **الأوَّلُ:** أنَّهُ سُمّيَ صَلصالًا؛ لأنَّ معناه الطّينُ اليابسُ الَّذي يَصِلُّ من يُبْسِه، أي: يُصوِّتُ[2]، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ الآدميَّ بكلامِه يُعرفُ حالُه وغايةُ أمرِه ومآلِه[3]، وفيه إشارَةٌ خفيَّةٌ إلى نعمةِ تعليم البيانِ في أوَّلِ السّورةِ. **والآخرُ:** أنَّ الصَّلصالَ هو المُنتنُ من الطّين، من قولهم: صَلَّ اللَّحمُ؛ إذا أنْتَنَ[4]، فهو إشارةٌ إلى ذلك الأصلِ المَهينِ؛ لئلّا يتكبَّرَ، ولكي يعرفَ مِنَّةَ اللّهِ عليه ببديع خَلْقه تعالى، وكذلك يحتملُ أن يكون التَّعبيرُ بلفظِ الصَّلصالِ دونَ لفظِ (الطّين)؛ لأنَّ الصَّلصالَ أجملُ مراحلِ الطّينِ اليابسِ، فكان التَّعبيرُ به أنسبَ لسياقِ سورةِ الرَّحمنِ، التي احتفلت احتفالًا عظيمًا بالآلاءِ والنِّعم، وما فيها من جمالٍ للعين والنَّفس، وجاء لفظُ ﴿صَلْصَٰلٍ﴾ نكرةً إمّا للتَّخصيصِ، أي: من صلصالٍ بعينِه؛ بيانًا لقدرةِ اللّهِ تعالى على خَلْقِ الإنسانِ هذه الخِلْقةِ العجيبةِ من صَلصالٍ، وإمّا للتَّحقير، أي: من صلصالٍ مهينٍ منتنٍ؛ لتذكير الإنسانِ بأصلهِ الضَّئيل، فلا يستكبر عن عبادَتِه تعالى.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/ 137، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 14/ 42.
(2) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (صلل).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 155.
(4) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفاظ: (صلل).

سِرُّ تقييدِ الصَّلصالِ بالوصفِ بشبهِ الجُملةِ ﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾:

الوصفُ بشبهِ الجملةِ للتنوع

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ وصفَ الصَّلصالِ بأنَّهُ ﴿كَٱلۡفَخَّارِ﴾، وهو صفةٌ لـ﴿صَلۡصَٰلٖ﴾، وعليه فهو كالخزف الذي إذا نُقِرَ عليه؛ صوَّت صوتًا يُعلمُ منه، هل فيه عيبٌ أم لا؟ وذلك لصوته؛ إذا نُقِر، كأنَّما تصوَّر بصورة من يكثر التَّفاخُرَ[1]؛ إذِ الفَخّارُ هو الطّين المطبوخ بالنّار، وهو الخَزفُ، مستعملٌ على أصل الاشتقاق، وهو مُبالغةُ الفاخرِ، كالعَلّامِ في العالم، وذلك أنَّ التُّرابَ الذي من شأنه التَّفتُّتُ؛ إذا صار بحيثُ يُجْعَلُ ظرفَ الماءِ والمائعاتِ، ولا يَتَفَتَّتُ، فكأنَّه يَفخرُ على أفرادِ جنسِه[2].

الغرض من التَّشبيهِ المرسلِ المُجْمَلِ في الآية:

استعملَ النَّظمُ الجليلُ التَّشبيه المرسل في قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾؛ إذ المعنى: أنَّه صلصالٌ يابسٌ يُشبه يبس الطّين المطبوخ، والمُشَبَّهُ غيرُ المُشَبَّهِ به[3]، وفي هذا التَّشبيه إظهارٌ لقدرة اللّهِ وبديعِ حِكمَتِه في خَلْقِ الإنسانِ.

دلالةُ العطفِ، وسِرُّ تكرارِ الفِعلِ الماضي:

في العطفِ إظهارٌ لكمالِ النِّعْمَةِ ومفارقةِ التَّفضيل

عطفَ النَّظمُ الحكيمُ بالواوِ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾، على قولِه: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾؛ للتَّوسطِ بين الكمالين: كمالِ الاتِّصالِ، وكمال الانقطاعِ؛ إذْ إنَّ كلتا الجُملتينَ خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، ووُجدت بينهما المناسبةُ المسوِّغَةُ للعطفِ، وهي أنَّ الجِنَّ، مثلُه مثلُ الإنس، مذكورٌ في لفظِ (الأنام)، فلمّا فصَّلَ الحديثَ شيئًا ما عن خَلْقِ الإنسانِ؛ كانَ من المناسبِ أنْ يُفصِّلَ أيضًا في خَلْقِ الجانِّ؛ لما بينهما من التَّقابل والمغايرة،

(1) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (فخر)، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 104.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 349.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 245.

فكانَ في اقترانِ الحديثِ عن خَلْقِهما إظهارٌ لكمال النِّعمَةِ في خَلْق الإنسان من مادَّةٍ لَيِّنة، وهو قابل للتَّهذيبِ والكمالِ وصدورِ الرِّفقِ بالموجوداتِ التي معه على وجه الأرضِ[1]، وكرَّرَ فعلَ (خَلَقَ)؛ لتوكيدِ نسبةِ خَلْقِ الجانِّ لهُ تعالى، بالإضافة إلى مغايرةِ طبيعةِ خَلْقهِ لهم.

معنى اللّام ودلالتُها في ﴿ٱلْجَآنَّ﴾:

اللّامُ إمّا للعهد تحذيرًا، أو للجنس بيانًا

اختلفَ العلماءُ في المرادِ بالجانِّ في الآيةِ على أقوالٍ، منها: أنَّهُ أبو الجنِّ، كما أنَّ الإنسانَ المذكورَ هنا هو أبو الإنس، آدمُ عليه السلام، وعلى هذا فاللّامُ للعهدِ، وقيل: بل المرادُ إبليسُ وما خرج عنه من الشَّياطينِ، وقَدْ حَكى اللّه عَنْهُ قَوْلَهُ: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٖ ١٢﴾ [الأعراف: 12][2]، ففي ذِكره تحذيرٌ من اتِّباعِ وسوسته وإغوائه. والثّاني: أنَّ المرادَ جِنسُ الجانِّ، فالجانُّ والجِنُّ وصفان من بابٍ واحدٍ[3]، وعلى هذا فاللّام للجنس، وفيه تذكيرٌ وموعظةٌ بمظهر من مظاهر قدرة اللّه وحِكمته في خَلْق نوعِ الإنسان وجنسِ الجانِّ.

بلاغةُ المقابلةِ بين الآيتينِ:

في المقابلةِ بين الآيتين إبرازٌ لاقتدار اللهِ تعالى وسعةِ قُدْرَتِهِ

بَينَ قولِ اللّهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٖ كَٱلْفَخَّارِ﴾، وقوله: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾ مقابلةٌ[4]، فقد قابل النَّظمُ الجليلُ بين خَلْقِ ما أصلهُ طينٌ، وما أصلهُ نارٌ، وبين ما هو مَرئيٌّ وما هو خفيٌّ غير مرئيٍّ، وفيه إيماءٌ إلى ما سبق في القرآنِ النّازل قبلَ هذه السّورة من تفضيلِ الإنسان على الجانِّ؛ إذ أمر اللّهُ الجانَّ بالسُّجود للإنسانِ، وما ينطوي عليه ذلك من وفرة مصالحِ الإنسان على مصالح الجانِّ، ومن تأهُّله لعمران العالم لكونه مخلوقًا من طينته؛ إذِ الفضيلة تحصل من مجموعِ أوصافٍ، لا من خصوصيّاتٍ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 245.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 161، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 245.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 349، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 104.
(4) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 202.

مفردةٍ[1]، وكذلك ففي المقابلة بينهما بيانُ فضلِ اللّه تعالى على الإنسانِ؛ إذْ بيَّن تعالى أنَّه خلقه من أصلٍ كثيفٍ كَدِرٍ، وخلقَ الجانَّ من أصلٍ لطيفٍ، ومع ذلك فقد جعل الإنسانَ أفضلَ من الجانِّ، فإنَّه إذا نظرَ إلى أصلِه؛ عَلِمَ أنَّه ما نال الشَّرفَ إلّا بفضل اللّهِ تعالى، فكيف يُكَذِّبُ بآلاء اللّهِ؟[2].

مَعنَى ﴿مِن﴾ ودَلالتُها في ﴿مِن مَّارِجٖ﴾:

طبيعةُ الجِنِّ ناريَّةٌ لطيفةٌ، فلا تعوقه المادّةُ

جاءتْ ﴿مِن﴾ في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ﴾ لابتداءِ الغايةِ[3]، أي: ابتدأ خَلْقَ هذا الجنسِ من النّارِ، فغلبتْ على طبيعتِه الصِّفةُ النّاريَّةُ، فاكتسب من صفاتها ما صارَ بِه ألطفَ من الإنسانِ مادَّةً؛ إذِ النّارُ ألطفُ من الطّينِ، فصارت لديهم القدرةُ على أن ينفذوا من الأشياء، لا يعوقُهم شيءٌ ماديٌّ، وهذا لأنَّهم خُلقوا من شفافيَّة النّار، ونحن من كثافة الطّين؛ لذلك هم يَرَوْنَنا، ولا نراهم[4].

دلالةُ التَّعبيرِ بمفردةِ ﴿مَّارِجٖ﴾:

الإشـــارةُ إلى اضطراب حركةِ الجِنِّ وسرعتِه واختلاطِ أحوالِهِ

تعدَّدت أقوالُ العلماءِ في المرادِ بـ ﴿مَّارِجٖ﴾، منها: أنَّه لهيب مختلِط[5]، أو هو اللهبُ الأخضرُ والأصفرُ والأحمرُ، الذي يعلو النّارَ؛ إذا أوقدت، ويكون بينها وبين الدُّخان، أو هو النّارُ المُرسلةُ التي لا تمتنع، أو هو النّار المُضطربة التي تذهب، وتَجيء، وسُمّي مارجًا لاضطرابِه وسرعة حركتِه[6]، وهي كلُّها أوصافٌ يتَّصِفُ بها اللهب الذي يعلو النّارَ الموقدةَ، وهو لسانها وطرفها، فهو منقطعٌ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 245.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 349.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 59.
(4) الشّعراويّ، خواطر الشّعراويّ: 24/ 14821 - 14822.
(5) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (مرج).
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 428.

عن الحطبِ، مرتفعٌ عنهُ، خالصٌ من الدُّخانِ، مختلطُ الألوانِ، مضطرب الحركةِ لا يستقرُّ، وكلُّها أوصافٌ تجتمع حالَ اشتعالِ النّارِ والتهابها، ففيها مجتمعةً إشارةٌ لما هو معلومٌ عن حالِ الجنِّ واضطرابه، وفيه من الجمالِ وتداخلِ الألوانِ وشدَّةِ بريقها ما يناسبُ مقامَ الامتنانِ بالآلاء والنِّعَمِ في سورةِ الرَّحمن، فوصفَ خَلْقَ الجانِّ بأجملِ الألفاظ.

معنى ﴿مِّن﴾ والغرض من تنكير ﴿نَّارٍ﴾:

خَلْقُ تعالى الجانَّ من نارٍ مخصوصةٍ متميِّزةٍ عن سائر النّيرانِ

تعدَّدت الأقوالُ في معنى ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن نَّارٍ﴾؛ منها: أنَّها بيانيَّةٌ، جاءتْ بيانًا لـ ﴿مَّارِجٍ﴾، كأنَّهُ قيل: من نارٍ صافيةٍ أو مختلطٍ من نارٍ، فالتَّنكير للمطابقة، وكأنَّه قيل: خلق من نارٍ صافيةٍ أو مختلطةٍ، على التَّفسيرين، وإن جعلت ﴿مِّن﴾ ابتدائيَّة؛ فإنَّما نَكَّرَ؛ لأنَّه أراد نارًا مخصوصةً متميِّزةً من بين النّيران، لا هذه المعروفة[1]، وذهب بعضهُم إلى أنَّ ﴿مِّن﴾ هاهُنا للتَّبعيضِ، أي: إنَّ خَلْقَ الجانِّ كانَ من بعضِ النّارِ[2].

سرُّ الوصفِ بشبه الجملةِ ﴿مِّن نَّارٍ﴾:

خروجُ الملائكة بالوصفِ لأنَّهم من نورٍ لا من نارٍ

وصفَ النَّظمُ الحكيمُ المارِجَ بأنَّهُ ﴿مِّن نَّارٍ﴾؛ لبيانِ أنَّ النّارَ هي الأغلبُ من عناصر تكوينِ الجنِّ، فتعيَّن المرادُ بذكرِ النّار، وهمُ الجنُّ، دونَ الملائكة؛ لأنَّ الملائكةَ - عليهم السلام - من نورٍ لا من نارٍ، وليس عندهم مروجٌ ولا اضطرابٌ، بل هم في غايةِ الثباتِ على الطّاعةِ فيما أمروا به، وقد عَرف بهذا كلُّ مُضطَرِبٍ قدرَه لئلّا يتعدّى طَوْرَه[3].

سرُّ تقديمِ خَلْقِ الإنسان على خَلْقِ الجانِّ:

التَّقديمُ لشرفِ الإنسانِ ولأنَّهُ المَنوطُ بعمارَةِ الأرضِ

قدَّمَ النَّظمُ الجليلُ الحديثَ عنِ الامتنانِ بخلقِ الإنسانِ على الامتنانِ بخلقِ الجانِّ، رغمَ أنَّ النَّظم في العادَةِ يقدِّم الحديثَ عن

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 132.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 59.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 156.

الجنِّ على الحديثِ على الإنسِ؛ وذلكَ لتقدُّمه في الخَلْقِ، وإنَّما قدَّمَه هنا لبيانِ شرفِ الإنسانِ وتفضيلِه على الجنِّ، بعدَ أن أسجدَ اللهُ لآدمَ ملائكته؛ لأنَّهُ هو المنوطُ به عِمارةُ الأرضِ والاستخلافُ فيها، كما هو مقتضى قولِ اللهِ تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد تعديد النِّعَمِ والآلاء يأتي تفريعُ التَّصديقِ والإيمانِ على المعرفة بقدرته تعالى

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من المِنن المُدمجة مِنَ الامتنانِ بخَلْقِ الإنسانِ من أصلٍ مُنتنٍ، وهو الصَّلصالُ، فصيَّرَهُ خَلْقًا بديعًا، دالًّا على بديعِ الصَّنعة وبالغِ الحِكمة، وإذا حُمِلَ الصَّلصالُ على أنَّهُ أجملُ مراحلِ الطّينِ، ففيه بلاغة التعبيرِ بما يُناسبُ السّورةَ من النِّعم والآلاء أيضًا. فكأنَّ أصل الكلام: إذا عرفتم هذه النِّعمَ العظيمةَ والآلاءَ الجسيمةَ، التي هي من الظُّهور والوضوح بمكانٍ لا مرية فيه، فبأيِّها تُكَذِّبان؟ إذ لا سبيلَ إلى التَّكذيبِ، فلا بدَّ من الإقرار التّامِّ والتَّصديق الكاملِ والإيمان الحقِّ بعد الامتنان بكلِّ هذه النِّعم التي هي دليلُ قدرته وعظمته، وقيّوميَّته ورحمتِه.

بيانُ المرادِ بـ ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضع:

الآلاء هي الامتنانُ بالقدرةِ على الخَلْقِ

جاء قولُ اللهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعد آيتَينِ اثنتين، بيَّنَ فيهما تعالى بالغَ قدرته على خَلْقِ الإنسانِ والجانِّ، وإخراجِهما من العدم، مع ما بينهما من التّمايزِ في الشَّرفِ والمكانةِ، فكأنَّ التَّقديرَ: أتُكذِّبانِ بهذه النِّعمِ المُلوكيَّة النّاشئة عن مُبدعِكُما ومُربّيكُما وسيّدِكُما، أي: بنعمة خَلْقكم على هذا النَّمطِ الغريبِ، وإيداعِكم ما أودعكم من القوى، وجعلكم خلاصةَ مخلوقاتِه، ومِنْ مَنْعِ أحدِ قبيلَيكُم عن الآخَر، وتيسيره لكم الأرزاقَ والمنافعَ، وحَمْلِكم على الحنيفيَّة السَّمْحَة، وقدرته على إعادتكم كما قَدَرَ على

ابتدائكم[1]، أو أنَّ الآيةَ مذكورةٌ لبيانِ القُدرةِ، لا لبيان النِّعمة، وكأنَّه تعالى لمّا بيَّن النِّعمَ الثَّمانيةَ التي ذكرها في أوَّل السّورة، فكأنَّه ذكر الثَّمانيةَ لبيان خروجها عن العدد الكثير الذي هو سبعةٌ، ودخولِها في الزّيادة التي يَدلُّ عليها الثَّمانيةُ؛ إذْ إنَّ العرب عند الثّامنِ تذكر الواوَ؛ إشارة إلى أنَّ الثّامنَ من جنسٍ آخرَ، فبعدَ تمام السَّبعة الأوَل؛ شرعَ في بيان قدرته الكاملةِ، وقال: هو الذي خلق الإنسان من تراب، والجانَّ من نار، ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا﴾ الكثيرة المذكورة التي سبقت من السَّبعة، والتي دلَّت عليها الثّامنة ﴿تُكَذِّبَانِ﴾، وإذا نظرتَ إلى ما دلَّت عليه الثَّمانية وإلى قوله: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، يظهر لك صحَّة ما ذُكِر أنَّه بيَّن قدرتَه وعظمتَه[2].

بلاغة التَّكرار:

التَّكرار للتَّأكيدِ والتَّأسيس كِلَيْهما

التَّكرارُ في هذه الفاصلة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّأكيد والتَّنبيه والتَّحريك، والتَّكرارُ موجودٌ في مواضع من القرآن، وذهب قومٌ إلى أنَّ هذا التَّكرارَ، إنَّما هو لاختلاف النِّعم، فكرَّر التَّوقيف في كلِّ واحدةٍ منها[3]، وسبقت الإشارةُ إلى قضيَّة التَّكرار في مقدِّمة السّورةِ، وترجيحُ أنَّ المُرادَ الأمرانِ كلاهما.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 152.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 350.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 59.

﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ ١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ١٨﴾ [الرّحمن: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بعد بيانِ قدرته تعالى في الخَلْق، جاء بيانُ التسخير

لمّا ذكَرَ سبحانه الإنسَ والجانَّ، اللّذَينِ أحدُهما ظاهرٌ، والآخرُ مستترٌ؛ إرشادًا إلى التَّأمُّل فيما فيهما من الدَّلالةِ على كمالِ قُدرتِه، فكانا محتاجَينِ إلى ما هما فيه من المَحلِّ، وكان صلاحُه ممّا دبَّر سبحانه فيه من منازلِ الشُّروقِ الذي هو سبب الأنوار والظّهور، والغروبِ الذي هو منشأ الظُّلمة والخفاء، فأتبعَ الحديثَ عن خَلْقِ الإنس والجنِّ الحديثَ عن بديع صُنعه الدّالِّ على توحيده في تسخير المشرقَين والمغربَين؛ إذ منها الأمطارُ والثُّلوج، والرَّبيعُ الذي هو للنُّمو، والخريفُ الذي هو للذُّبول، فهي آية الإيجادِ والإعدام، فبيَّنَ سبحانه اقتدارَه على تسخير المشرق والمغرب، فأخرج بواسطتهما كلَّ ما به حياةُ الثَّقلَين، منَ الزَّرع والزَّيتون والرُّمّان والنَّخيل والأعناب والجِنانِ المَعروشات وغير المَعروشات ومن كلِّ الثَّمرات[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾: (شرق) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إضاءَةٍ وفَتْحٍ، ومِنْ ذَلكَ شَرَقَتِ الشَّمْسُ؛ إذا طَلَعَتْ، وأشْرَقَتْ؛ إذا أضاءَتْ، والشُّروقُ: طُلوعُها[2]، والمعنى المِحوريُّ: طلوع الشَّمسِ أو أيٍّ من النُّجوم، من عمق أقصى الأفق الشَّرقي، كأنَّما تشقُّه[3]، والمشرقُ موضعُ شروقِ الشَّمسِ، على وزنِ (مَفْعِل)، والمَشْرِقُ والمغرب إذا قيلا بالإفراد؛ فإشارةٌ إلى ناحيتي الشَّرْقِ والغرب، وإذا قيلا بلفظ التَّثنية؛ فإشارة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 157 - 159.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرق).

(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شرق).

إلى مطلعَي ومغربَي الشِّتاء والصَّيف، وإذا قيلا بلفظ الجمع؛ فاعتبارًا بمطلع كلِّ يوم ومَغربه، أو بمطلع كلِّ فصل ومَغربه، قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشّعراء: 28]، و﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، و﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40][1]، وفي معنى المشرقين والمغربين في الآية ثلاثةُ أقاويل: أحدها: أنَّ المشرقَين مشرقُ الشَّمس في الشِّتاء والصَّيف، والمغربَين مغربُ الشَّمس في الشِّتاء والصَّيف. الثّاني: أنَّ المشرقَين مشرقُ الشَّمس والقمر، والمغربين مغربهما. الثّالث: أنَّ المشرقَين الفجرُ والشَّمسُ، والمَغْرِبين: الشَّمسُ والغَسقُ[2]، وقيل المشرقين: أقصى مطلع تطلُع منه الشَّمس في الأيام الطِّوال، وأقصر يوم في الأيام القِصار[3]، وقيل: أَقْصَى ما تَنْتَهي إليه الشَّمسُ في الصَّيْفِ، والآخَرُ: أَقْصَى ما تَنْتَهي إليه في الشِّتاءِ[4].

2) ﴿ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾: المعنى المِحوريُّ: الانصباب والانحدارُ إلى مقرٍّ أو مَغارٍ عَبْرَ مسافة ما بثِقَلٍ أو قوَّةٍ[5]، والمغربُ اسمٌ فيه معنى الظَّرفيَّة على وزن (مَفْعِل)، والغَربُ المَغرِبُ، والغُروبُ: غَيبوبَةُ الشَّمس[6]، ومعنى الغَربِ: الذَّهاب والتَّنحي، يُقال: غرَب عَنَّا يَغرُبُ غربًا، وقد أغربتُه وغرَّبتُه؛ إذا نحَّيتَه[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكر تعالى عمومَ ربوبيَّته وتدبيره، فقال: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، فهو تعالى ربُّ كلِّ ما أشرقت عليه الشَّمسُ، وكُلِّ ما غربت عليه، وكلِّ ما طلعَ عليه القمرُ والكواكبُ النَّيِّرةُ، فكلُّ مظاهرِ الكونِ تحتَ تدبيرِه وربوبيَّته، وقد ثنّاهما باعتبارِ مشارقِها ومغاربها شتاءً وصيفًا، وورد في القرآن ذِكْرُ المشرقِ والمَغرب: بالإفراد، وهو باعتبار الجِهة، فقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ [المزّمّل: 9]، وبالجمع، وهو باعتبار كلِّ يوم في السَّنة، فقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ

---

(1) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شرق).
(2) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 429.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 64.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (شرق).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غرب).
(6) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (غرب).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شرق).

﴿٤٠﴾ [المعارج: 40]، وربوبيَّتُه وتدبيره تَعُمُّ ما بينهما كذلك، كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشّعراء: 28][1]، وفي شروق الشَّمسِ وغروبها منافعُ كثيرةٌ للخَلْق وفوائدُ جَمَّةٌ لا تُحصَى من تعاقب اللّيل والنَّهار، كاعتدال الهواء، واختلافِ الفصول، وحدوث ما يناسب كلَّ فصلٍ فيه، إلى غير ذلك؛ لذا فقد أردف بتوبيخ من أنكر من الثَّقلَين نِعمَه، وجَحَدَها[2].

في تسخيرِ المشرقَين والمغربَينِ ما لا تحصى منافعِه

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾:

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا، فيه بيانٌ لجملةِ: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، وعَطَفَ ﴿وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ لأجْلِ مُراعاةِ المُزاوَجَة[3]، والآيةُ استمرارٌ لبيانِ مظاهرِ قدرتِه تعالى وبالغِ سلطانِه في هذا الكونِ الفسيحِ، ففيها للمؤمنينَ من الإنسِ والجنِّ زيادَةُ إيمانٍ بقُدرةِ اللّه، وفيها كذلك توبيخٌ وتقريعٌ للكافرينِ منهما على إنكارِهم لهذه الآلاءِ البيِّناتِ.

في الآيـةِ بيانٌ لقـدرةِ اللـهِ وسلطانِه

الغرضُ من حذفِ المبتدأِ في ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾:

الرّاجحُ في إعرابِ كلمةِ ﴿رَبُّ﴾ أنَّها خبرُ مبتدأٍ مضمرٍ، أي: (هوَ رَبُّ)، أي: ذلك الذي فعَلَ هذه الأشياء[4]، والغرضُ من هذا الحذفِ تعظيمُ الرَّبِّ تباركتْ آلاؤه؛ إذ لا يَدَّعي أحدٌ مهما بلغ سلطانُه أنَّ له في المشرقين أو المغربينِ تصرُّفًا أو ملكًا، فانتقل البيانُ مباشرةً لبيانِ اقتدارِ اللّهِ وسلطانِه عليهما؛ لأنَّ النِّسبةَ إليه معلومةٌ لا يجحدها جاحدٌ، وكذلك فإنَّ في حذف المسندِ إليه تمييزًا لهذه

في الحذف تعظيمٌ للرَّبِّ تعالى، وإبرازٌ للاقتدار

(1) مجموعة من المؤلّفين، المنتخب في تفسير القرآن، ص: 792.
(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 25/ 210، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 171، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 830.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 247.
(4) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 162.

القدرةِ الجسيمةِ، وهي اقتداره تعالى على المشرقَين والمغربَين وما بينهما؛ للدَّلالةِ على أنَّها وحدها تكفي لبيانِ مبلغ سلطانه في هذا الكونِ الفسيح؛ إذ من شأنِ حذف المبتدأ في مقام المدح ونحوه أن يعملَ على تميُّز المعاني، وظهورِها صنوفًا متباينة وألوانًا مختلفة وأجناسًا متغايرة، ويجعل الجُمَلَ المستأنفةَ مستقلَّة بمعانيها، غيرَ مرتبطةٍ بما قبلها، فتكونُ أشدَّ وقعًا على المتلقّي[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالمُثَنَّى في ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾:

ظاهرةِ التَّثنية في سورة الرَّحمن

يأتي لفظُ (المَشْرِقُ) و(المَغْرِبُ) في القرآن الكريم مفردًا وتثنيةً وجمعًا، ولكلِّ صيغةٍ من الصّيغ الثَّلاثِ دلالتُها في سياقها، أمّا الإفراد؛ فيأتي في السّياق الذي يهدفُ لإفادة العموم والشُّمولِ، وأمَّا التَّثنية؛ فقد جاءتْ هاهُنا متناسبةً مع سياق سورة الرَّحمن، الذي كثرت فيها ظاهرة التَّثنيةِ، فقد تجلت ظاهرةُ التَّثنيةِ بوضوح في سورة الرَّحمن، فكانتْ بمنزلة عنصرٍ بنائيٍّ موحَّدٍ، ومبدأٍ عامٍّ ثابتٍ، وكانَ مجيئُها قصدًا ظاهرًا؛ لتكون عنصرًا محوريًّا فاعلًا في العناصر الأخرى، وذلك بدءًا من شيوع خطاب التَّثنية في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، التي تكرَّرت إحدى وثلاثين مرَّةً، ثُمَّ مرورًا بضمير التَّثنية في الأفعال، والتَّثنيةِ بالعطفِ، وانتهاءً بالتَّثنية بالياء والنّون أو الألف والنّونِ[2]، وأمَّا مجيءُ الجمع، فيكون اعتبارًا باختلاف المغارب والمطالع كلَّ يوم، كقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠﴾ [المعارج: 40]، وهو ما يتناسب مع القَسَمِ الذي يلائمه الجمعُ، فأتَتْ كلُّ صيغة بما يُناسبها من حيثُ السّياق.

الغرض من الإضافةِ إلى الرُّبوبيَّةِ:

الإضافةُ إلى لفظ الرُّبوبيَّة تشريفٌ وتعظيمٌ للآلاءِ

خصَّ تعالى ذِكرَ المشرقَين والمغربَين بالتَّشريف في إضافتهما إلى

(1) بسيونيّ فيود، علم المعاني، ص: 101.
(2) محمود سليمان، سورة الرّحمن بين التّثنية والتّكرير.

الرَّبِّ تعالى في قوله: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾؛ لعظمِهما في المخلوقات، وأنَّهما طرفا آية عظيمة وعبرةٍ، وهي الشَّمس وجَرْيُها[1]، وقد آثرَ النَّظمُ هاهُنا إضافةَ المشرقين إلى الرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ؛ إظهارًا لجانبِ الامتنان بالإنعام والتَّربيةِ ومراعاةِ ما به قوامُ حياةِ الثَّقلينِ، ومن الملاحظِ أنَّ الإضافة للأُلوهيَّةِ عادةً ما تأتي في سياقِ الحثِّ على إخلاصِ العبوديَّةِ، كما في الحديث عن تحويل القبلةِ، في قولِه تعالى: ﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البقرة: 142]، وذلك مراعاةً لأصل الوضعِ اللُّغويِّ، بين مادَّتي (رب) و(أله)، ومن الملاحظِ كذلك أنَّ الإضافة للرُّبوبيَّةِ قد جاءت في السّور المَكّيَّةِ دون السّورِ المدنيَّةِ، فجاء التَّعبير بالإسناد إلى الرُّبوبيَّةِ في سور: الشُّعراء، والصّافّاتِ، والرَّحمن، والمعارج، والمزَّمِّل؛ لاهتمام السّورِ المكّيَّةِ بإظهارِ جانب الرُّبوبيَّةِ في المقامِ الأوَّل.

دلالةُ تكرارِ لفظِ (ربُّ):

التَّكرار في سورة الرَّحمنِ لأنَّ مبناها على تعديدِ النِّعمِ

كرَّر النَّظمُ الجليلُ ذِكر (الرَّبِّ) مع لفظَيِ المشرقَين والمغربَينِ، في قولِه: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾، وعدلَ عن هذا التَّكرار في سائر المواضع الأخرى التي ذكرت المشرق والمغرب بالإفراد والجمع، كقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾ [البقرة: 115]، وقولِه: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ﴾ [البقرة: 142]، وقولِه: ﴿قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ٢٨﴾ [الشعراء: 28]، وقولِه: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40]، وقولِه: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [المزمل: 9]، وإنَّما كرَّره هنا تأكيدًا، وخصَّ ما هنا بالتَّأكيد؛ لأنَّه موضعُ الامتنان، وتعديدِ النِّعم، ولأنَّ الخطاب فيه من جنسين، هما الإنس والجنُّ، بخلاف المواضع الأخرى[2].

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 227.

(2) زكريا الأنصاريّ، فتح الرّحمن بكشف ما يلتبس من القرآن، ص: 545 - 546.

دلالةُ العطفِ، وسرُّ التقديم:

تأكيدُ ربوبية المشرقين المغربَين، وما بينهما

عطفَ النَّظمُ الجليلُ بذِكرِ المغربينِ بعد ذكر المشرقينِ؛ لإفادَةِ عموم اقتدارِ اللّهِ تعالى على كلِّ مظاهر الكونِ الشّاسِعِ، فهو سبحانه ربُّ المغربَينِ كما هو ربُّ المشرقَينِ، وفي عطفِ المغربَينِ كذلك تأكيدٌ؛ لأنَّه تعالى ربُّ ما بينهما، ففي هذا العطفِ تمهيدٌ للتَّوبيخِ في الآية التّاليةِ، وقُدِّمَ ذِكرُ ﴿ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ على ﴿ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ باعتبار البدايةِ الزَّمانيَّة؛ فالشُّروق هو المبدأ، والغروب هو النِّهايةُ، ومواقيتُ الصَّلاة تبدأ مع حركة ما قبل الشُّروق، والشُّروقُ بداية الحركةِ والنَّشاط لعموم المخلوقات، والغروبُ بدايةُ الظُّلمةِ والعَتَمة؛ فلذلك كلِّه بدأت الآيةُ كسائر آيات القرآن بالشُّروق قبلَ الغُروبِ.

بلاغَةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ:

الطِّباقُ مُبرِزٌ لاقتدار اللهِ وعظَمة سلطانه وقَهْره

جاءَ الطِّباقُ بين ﴿ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ و﴿ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ مُبرزًا لعظَمة اقتدارِ اللّهِ تعالى، فلا يحول دونَ اقتدارهِ مشرقٌ أو مغربٌ، بل هو تعالى ربُّ المتضاداتِ، يُسَيِّرُها بقدرتِه، ويُدخلها تحت قهره وسلطانه، ورغم أنَّ التَّعبيرَ بالمشرقين وحده يكفي لإدراك أنَّه تعالى ربُّ المشرقَين وربُّ المغربين، فإنَّ الجمع بين المتضادّينِ يؤكِّدُ غلبةَ سلطانه تعالى، ويُرسِّخه في عقولِ المتلقّين ووجداناتهم.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد تعديد النِّعَمِ والآلاء يأتي تفريعُ التَّصديق والإيمان على المعرفة بقدرته تعالى

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من بيانِ الاقتدار على ربوع الكونِ الفسيح بمَشْرِقَيه ومَغربَيهِ وما بينهما، وبيانِ مِنَّتِه تعالى بتسخير الكون الكبيرِ للثَّقلَين، فكأنَّ أصل الكلام: إذا عرفتم هذه النِّعمةَ العظيمةَ، وما سبقها من النِّعم والآلاءِ، وكان ثبوتها واقعًا لا محالةَ؛ فبأيِّها تُكَذِّبان؟ إذ لا سبيلَ إلى التَّكذيبِ، فلا بدَّ من الإقرار التّامِّ،

والتَّصديق الكاملِ، والإيمان الحقِّ بعد الامتنان بكلِّ هذه النِّعم التي هي دليلُ قدرتِه وعظَمتِه وقيّوميَّتِه ورحمتِه.

بيانُ المرادِ بـ ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضع:

الآلاء هي بيانُ ربوعِ الكونِ الفسيحِ

جاء قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعد آيةٍ واحدَةٍ، بيَّنَ فيهما تعالى بالغَ قدرتِه على تسخيرِ الشَّمسِ والقمرِ دائبَين دائرَين لإدارة الزَّمانِ وتجديدِ الأيام، وعددِ الشُّهور والأعوام، واعتدالِ الهواء واختلاف الأحوال على الوجه الملائم لمصالح الدُّنيا ومعايشها، على منهاج محفوظ، وقانون لا يزيغ[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 159.

﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١ يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٣﴾ [الرحمن: 19 - 23]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

الامتنان بتسخير البحرين للمنافعِ والزّينةِ

لمّا ذكر تعالى المشرقَين والمغربَين، وهما حركتان في الفُلك؛ ناسبَ ذلكَ ذِكرُ البحرين؛ لأنَّ الشَّمس والقمر يجريان في الفلك كما يجري الإنسان في البحر، فذكر البحرين عقيبَ المشرقين والمغربين، ولأنَّ المشرقين والمغربين فيهما إشارةٌ إلى البحر لانحصار البرِّ والبحر بين المشرق والمغرب[1]، وأشار في ذلك إلى الامتنانِ منه تعالى بإرسال البحرين: المِلْحِ والعَذْب، بأنْ جعلهما مضطَرِبَين في طبعهما، فهما يتماسّان على ظهر الأرض، بلا فصل بينهما في رؤية العين وفي باطنها، وإنْ كان اللّهُ تعالى بقدرته المطلقةِ جعلَ بينهما حاجزًا عظيمًا يمنعهما مع الالتقاء من الاختلاط، فلا يَطغَيان، ولا يبغي واحد منهما على الآخر بالممازجة، ولا يتجاوزان ما حَدَّه لهما خالِقُهما ومُدَبِّرُهما، لا في الظّاهر ولا في الباطن، فخَلَطَهما اللّهُ تعالى في رأي العين، وحجز بينهما في رأي عين القُدرة؛ ولذا فقد كرَّر تعالى تبكيت المُكذِّبينَ المعاندينَ؛ ليَدْعوَهم إلى الاعتبار بهذه الأصول من أنواع الموجودات، ثمَّ زادَ في بيانِ الامتنانِ بمزيدٍ من النِّعم والآلاء الدّاعيةِ للتَّفكُّر والاعتبارِ، فذكر ما يخرج منهما من اللُّؤلؤ الذي هو في غاية البياض والإشراق والصَّفاء، والمَرْجان التي هي في غاية الاختلاط والحُمرة؛ لبيانِ الامتنان بالمغايرة بينهما في الألوان والمنافع والأحجام، ولمّا كان ذلك من جليل النِّعم؛ كرَّرَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 350.

التَّقرير والتَّوبيخَ لكلِّ من أنكر هذه الصَّنائع العظمى، من خَلْق المنافع الكثيرة في البحار، وتسليط البشرِ عليها بتسيير السُّفن، وإخراجِ الحُليِّ الغريبة وغيرها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَرَجَ﴾: (مرج) أصلٌ صحيحٌ يَدُلُّ على مَجيءٍ وذَهابٍ واضْطِراب، ومَرِجَ الخاتَمُ في الإصْبَع: قَلِقَ[2]، والمعنى المِحوريُّ: حركةٌ مختلفةُ الاتِّجاهات لما يُفْتَرض استقرارُه[3]، ومعنى ﴿مَرَجَ﴾ هاهُنا: خَلَّى، وأرْسَلَ، وأهْمَلَ، يُقالُ: مَرَجَ السُّلْطانُ النّاسَ؛ إذا أهْمَلَهُم[4]، ومَرَجَ اللهُ البحرينَ العذبَ والمِلْحَ: خلطهما حتّى التقيا، وقيل: أرسلهما، ثمَّ يلتقيان بعدُ، وقيل: خلّاهما، ثمَّ جعلَهما لا يلتبس ذا بذا[5]، وفي المرادِ بـ﴿مَرَجَ﴾ هاهُنا أقوالٌ، منها: تفريقُ البحرين، أو إسالةُ البحرين، أو استواء البحرين[6].

2) ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: أصل البَحْر كلُّ مكانٍ واسعٍ جامعٍ للماءِ الكثيرِ، ثمَّ اعتُبِر تارةً بسَعة المعاينة، فيقال: بَحَرْتُ كذا: أوسعتُه سعةَ البحر، تشبيهًا به، ومنه: بَحرْتُ البعير: شققت أُذنَه شقًّا واسعًا، ومنه سُمّيت البَحيرَة، قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: 103]، وسمّوا كلَّ متوسِّع في شيءٍ بَحْرًا، حتّى قالوا: فرسٌ بحرٌ، باعتبار سعةِ جَريه، وللمتوسِّع في علمه بَحْرٌ، وقد تَبَحَّرَ، أي: توسَّع في كذا[7]، وفي المرادِ بالبحرين هاهُنا أقوالٌ، الأوَّل: البحرُ المالحُ والأنهارُ العذبةُ. الثّاني: بحرُ فارس واليمن، وبحر الرّوم. الثّالث: بحرُ السَّماءِ وبحرُ الأرضِ. الرّابعُ: بحرُ المشرقِ وبحرُ المغرب يلتقي طرفاهما. الخامس: بحرُ اللُّؤلؤ وبحرُ المَرجان[8]، والأوَّل أرجحُها.

3) ﴿بَرْزَخٌ﴾: البرزخُ: الحائلُ بين الشَّيئين، كأنَّ بينهما بَرازًا، أي: متَّسعًا من الأرضِ، ثمَّ صار كلُّ حائلٍ برزخًا، فالخاءُ زائدةٌ[9]، ومن ثمَّ فالمعنى المِحوري: مَعْبَرٌ باطنيٌّ جَوفيٌّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 159 - 163.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مرج).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مرج).
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 162.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (مرج).
(6) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 430.
(7) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (بحر).
(8) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 429.
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (برزخ).

من خلالِ حاجزٍ بين أشياء[1]، والبرزخ في القيامة: الحائل بين الإنسان وبين بلوغ المنازل الرَّفيعة في الآخرة، وقيل في الوسوسة: هي بَرازِخُ الإيمان، أي: ما بَيْنَ الشَّكِّ واليَقينِ، وقيلَ: هوَ ما بَيْنَ أوَّلِ الإيمان وآخِرِه، والبَرزَخُ: ما بين الدُّنيا والآخرة قبلَ الحشر، أي: من الموت إلى البعث[2]، وأمّا المرادُ بالبرزخِ في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾؛ فهو الحاجزُ بين البحرين: المِلْحِ والعَذْبِ، وهو حاجز وهْميٌّ؛ إذ العَذْب من المِلْح وإليه[3]، وقيلَ فيه: إنَّهُ عَرْضُ الأرْضِ، وقيل: إنَّهُ ما بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، وقيل: جَزيرَةُ العَرَبِ[4].

4) ﴿يَبۡغِيَانِ﴾: (بغي) أصلان، أحدهما: طلبُ الشَّيءِ، والثّاني: جنسٌ من الفسادِ، فمن الأوَّل: بَغَيتُ الشَّيءَ أبغيه؛ إذا طلبتُه، والبُغيَة والبِغية: الحاجةُ، والأصل الثّاني: قولهم بغى الجرحُ؛ إذا ترامَى إلى فسادٍ، ومنه أن يبغيَ الإنسانُ على آخرَ، ومنهُ بَغْيُ المطرِ، وهو شدَّته ومعظمُه، والبَغْيُ: الظُّلمُ[5]، والمعنَى المِحوريُّ: تزايدُ الشَّيءِ نموًّا وقوَّةً أو توصُّلًا لاكتمالِ حالِه، ومنَ التَّزايُدِ جاء معنَى الطَّلبِ؛ لأنَّه ازديادٌ، ومنهُ أيضًا جاءَ معنى التَّجاوُزِ؛ لأنَّه تعدٍّ وتَزايدٌ، فبغَى عليهم، أي: عدلَ عَنِ الحَقِّ واستَطال، وكلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدارِ الَّذي هو حدُّ الشَّيءِ بَغْيٌ، ومنهُ قولُهُ: ﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الشورى: 27][6]، والمرادُ في قوله: ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾: لا يبغي أحدُهما على الآخرِ بالممازجةِ وإبطالِ الخاصّيَّة، أو لا يتجاوزانِ حَدَّيهما بإغراقِ ما بينهما[7].

5) ﴿ٱللُّؤۡلُؤُ﴾: اللُّؤلؤَةُ: الدُّرَّةُ، والجمع: اللُّؤلؤ واللَّآلئ، وتلألأ النَّجمُ والقمرُ والنّارُ والبَرقُ، ولألأ: أضاءَ ولمَعَ، وقيل: اضطرب بَريقُه، وفي صفته ﷺ: يتلألأ وجهُهُ تلألؤَ القمرِ، أي: يستنيرُ، ويشرقُ، وتَلَألأت النّارُ: اضطربت، ولَألأَ الثَّورُ بذَنَبِه: حَرَّكَه[8]، والمعنى المِحوريُّ: تركُّز الصَّفاءِ وما إليه من اللَّمعانِ، وانحصارُه في حيِّز بحيثُ يمتدُّ منه أثرٌ قويٌّ منتشر، كجِرْمِ اللُّؤلؤ في تَركُّزه في صَدَفه، مع انتشارِ بريقه؛ إذا أُخْرِج، وبريق النَّجم،

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (برزخ).
(2) الرّاغب الأصفهانيّ، مفردات القرآن، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (برزخ).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (برزخ).
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 429.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بغو، بغى).
(7) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 172.
(8) الخليل بن أحمد، كتاب العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (لألأ).

كقولِه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [الواقعة: 22 - 23][1]، واللُّؤْلُؤُ - في أصله - حيوانٌ، داخلَ صَدَفةٍ جيريَّةٍ تَقيه من الأخطار، يُفْرِز مادَّة لَزِجة تتجمَّد مُكَوِّنَةً (اللُّؤلؤ)[2]، واختلفتِ الأنظارُ في المُرادِ باللُّؤلؤِ على أقوالٍ، منها: أنَّه الدُّرُّ الكِبارُ، وقيل: بل هو الدُّرُّ الصِّغارُ، وقيل: اسمٌ جامعٌ للحبِّ الذي يخرج من البحرِ[3].

6) ﴿وَٱلْمَرْجَانُ﴾: مشتقٌّ إمّا من (مرج)، وعليه يكونُ فيه معنى الاضطرابِ والحركةِ والاختلاط[4]، وإمّا من (مرجن)، والمَرجانُ حيوانٌ بحريٌّ ذو أصابعَ دقيقةٍ، ينشأ ليِّنًا، ثمَّ يتحجَّرُ، ويتلوَّن بلونِ الحُمرة، ويتصلَّبُ كلَّما طالَ مُكْثُه في البحر، فيستخرج منه كالعروقِ تتَّخذ منه حِلْيَةً، والمرجانُ لا يَخْرج من ملتقى البحرين المِلْح والعَذب، بل من البحر المِلْح[5]، والمرادُ به إمّا صغارُ اللُّؤلؤ، وهو أشدُّ بَياضًا، ولذَلك خُصَّ الياقوتُ والمَرجان، فشُبِّه الحورُ العين بهما، وقالَ بَعضهم: هوَ جَوْهَر أَحْمَر[6]، فإنِ اعتُبر في اللُّؤلؤ معنى التَّلألؤ واللَّمعان، وفي المَرجان معنى المَرج والاختلاط، فالأوفَق لذلك أنَّه الخَرَزُ الأحمر، وهو المشهورُ المتعارَف[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خلق اللّهُ تعالى البحرينِ، وأرسلهما بقدرته في مجاريهما، بحيثُ يلتقيان ويتَّصل أحدُهما بالآخر، ومع ذلك لم يختلطا، بل يبقى المالح على مُلوحته، والعَذب على عُذوبته؛ لأنَّ حِكمة اللّه قدِ اقتضت أن يُفْصَل بينهما بحواجزَ من أجرام الأرض، أو بخواصَّ في كلٍّ منهما، تمنعُهما هذه الخواصُّ وتلك الحواجز من أن يختلطا، ولولا ذلك؛ لاختلطا، وامتزجا، وهذا من أكبر الأدلَّة على قدرة اللّه تعالى ورحمتِه بعباده؛ إذ أبقى اللّه تعالى المالحَ على مُلوحتِه، والعَذْبَ على عُذوبته؛ لينتفعَ النّاس بكلٍّ منهما في مجال الانتفاع به،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 172.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 138.
(3) ابن قتيبة، تفسير غريب القرآن، ص: 438، وابن جرير الطبري، جامع البيان: 25/ 218، والزّجّاج، معاني القرآن: 5/ 100، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 162، والآلوسيّ، روح البيان: 14/ 105.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (مرج).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 250.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (مرجن).
(7) الآلوسيّ، روح البيان: 14/ 105.

مِن بالغِ الآلاء تسخيرُ البحارِ والأنهارِ للإنسانِ

فالماءُ العَذْب يُنتَفع به في الشَّراب للنّاس والدَّوابِّ والنَّبات، والماءُ المِلْح يُنتَفع به في أشياءَ أُخرى، كاستخراج المِلْح منه، وفي غير ذلك من المنافع، ومن بديع صُنع اللّه في هذا الكون، وجودُ البحارِ الهائلة والأنهارِ الكثيرة على سطح الأرض، ومع ذلك فكلُّ نوعٍ منهما باقٍ على خصائصه، مع أنَّ كُلًّا منهما قد يَلتقي بالآخر؛ وذلك بسبب ما في كلٍّ منهما من خصائصَ تدفع عنه اختلاطَ الآخرِ به، فلا يبغيان، ولا يتجاوزُ كلٌّ منهما حَدَّه المُقدَّر، ووظيفتَه المقسومةَ، وبينهما برزخٌ من طبيعتهما من صنع اللّه تعالى، وتصُبُّ جميعُ الأنهارِ تقريبًا في البحار، وهي التي تنقل إليها أملاحَ الأرض، فلا تُغيِّر طبيعةَ البحارِ، ولا تبغي عليها، فلا عجب أن يذكر الرَّحمنُ - تباركت آلاؤه - البحرين، وما بينهما من برزخ، في مجال الآلاء والنِّعم، ثمَّ يذكرَ بعضَ نعمِه المُختبئة في البحرين، ومنها اللُّؤلُؤُ والمَرجانُ، اللَّذانِ تُتَّخَذُ منهما الحُليُّ الغاليةُ الثَّمنِ، العاليةُ القيمةِ، التي تتحلّى بها النِّساء، والآية الكريمةُ صريحةٌ في أنَّ اللُّؤلؤ والمَرجان يخرجان من البحرين: المِلْح والعَذْب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ [فاطر: 12]، فإنَّ هذه الآية صريحة في أنَّ اللُّؤلؤ والمَرجان يخرجان من كِلا البحرين المِلْح والعذب، وقد أثبتت البحوث العلميَّة صحَّةَ ذلكَ، فقد عُثِر عليهما في بعض الأنهار العَذْبة، التي في ضواحي ويلز وإسكوتلاندا في بريطانيا[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

القُدرةُ على التَّسخير من الدَّلائل الكافية على بيانِ عظَمةِ اللهِ

دلالةُ الاستئنافِ في قولِه ﴿مَرَجَ﴾:

جاءَ قولُ اللّهِ تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ﴾ استئنافًا ابتدائيًّا، على طريقةِ السّورةِ الكريمةِ في الفصلِ بين ذِكر النِّعمِ والآلاء؛ لأنَّ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 136 - 138.

الفصل هاهُنا أبلغُ في تأكيدِ عِظَمِ النِّعمة المَذكورةِ، وأنَّها وحدَها دليلٌ كافٍ على مبلغ اقتدارِ اللّهِ تعالى على تسخير ما في الكونِ، وذهب بعضُهم إلى أنَّ الجملةَ وقعتْ خبرًا آخَرَ عن الرَّحمن، قُصِد منه العِبرةُ بخَلق البحار والأنهار، وذلك خَلْقٌ عجيبٌ دالٌّ على عظَمةِ قُدرةِ اللّه وعِلْمه وحِكْمته[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿مَرَجَ﴾ مُتعدّيًا:

من دلائل القُدرة الرّبانيَّةِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ المُضيِّ، في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ هذه الخصائصِ وثباتِها، فقد أودعَ تعالى مياهَ البحرين: المِلْحِ والعَذْبِ خصائصَها المُميِّزةَ لها، فأرسلها، وخلطها فجعلهما مضطَربين، من طبعهما الاضطراب[2] منذ خلقهما اللّهُ تعالى؛ فدلَّ التَّعبيرُ بالمُضيِّ على ثباتِ صفة القدرةِ للّه، وعبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بالفعلِ ﴿مَرَجَ﴾ متعدّيًا، بخلافِ التَّعبيرِ بـ(مَرِجَ) في قولِه: ﴿مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ﴾، وذلك لأنَّ (مَرَجَ) إذا كان متعدّيًا كان بمعنى خَلَط، أو ما يقرُب منه، أمّا المارِجُ والمَريجُ؛ فمن: (مَرِجَ يَمْرَجُ) كـ(فَرِحَ يَفْرَحُ)؛ فالأصل في (فَعِلَ) أن يكون غريزيًّا، والأصل في الغريزيِّ أن يكون لازمًا، ويثبت له حُكمُ الغريزيِّ، وكذلك فُعِل في كثيرٍ من المواضع[3].

معنى اللّامِ في ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ ودلالتها:

اللّام إمّا للجنس، أو للعهد الجنسيِّ أو الحضوريِّ

جاءتْ كلمةُ ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ معرَّفَةً باللّام، وقدِ اختلفت أقوالُ العلماءِ في المرادِ بالبحرين، وأرجحُها: أنَّ المرادَ البحرُ المالحُ والأنهارُ العَذْبةُ[4]، وعلى هذا: فالتَّعريف فيها تعريفُ الجنسِ، الذي يفيد العمومَ، وقد يكون المقصودُ ما يعرفه العربُ من هَذَين

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 248.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 159.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 350.
(4) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 429.

النَّوعين، وهما نهرُ الفراتِ وبحرُ العجم، والتقاؤُهما انصبابُ ماء الفرات في الخليج، الذي في شاطئ البصرة، والبلادُ التي على الشّاطئ العربيِّ من الخليج تُعْرَف عند العرب ببلاد البحرين لذلك، وعليه فتكونُ اللّامُ لامَ تعريفِ العهدِ الجنسيِّ، ويجوز أن يكون المرادُ بحرين مالِحَين مُعَيّنَين، والتَّعريف حينَئذٍ تعريفُ العهدِ الحضوريِّ، فالمُرادُ: بحران معروفانِ للعرب، هما البحر الأحمر الذي عليه شُطوط تِهامة، مثل: جدَّة ويَنبُع النَّخل، وبحرِ عُمان، وهو بَحْر العرب الذي عليه حضرموت وعَدَن من بلاد اليمن(1).

سِرُّ التَّعبيرِ بالمفعول به مُثنًّى ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾:

غلبةُ ظاهرة التَّثنيةِ أنسبُ لخطابِ الثَّقلَين

جاءَ لفظ ﴿ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ مُثنًّى، على ما في هذه السّورةِ منَ الاحتفالِ بظاهرةِ التَّثنيةِ؛ لأنَّ الخطابَ فيها - على ما ذهب إليه غالبُ المفسِّرين - للثَّقلَين: الإنسِ والجنِّ، أو هو للمؤمنين والكفّارِ، وكذلك لأنَّها سورةُ تعدادِ النِّعَم، فالتَّعبيرُ بالمُثنّى أنسبُ للسّياقِ، والمراد: تثنية نَوْعَي البحر، وهما البحر المِلْح والبحر العَذْب، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞۖ وَمِن كُلّٖ تَأۡكُلُونَ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُونَ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَاۖ﴾ [فاطر: 12]، وهوَ الأوفقُ للسّياقِ؛ لأنَّ القرآن يفسِّرُ بعضُه بعضًا(2).

سِرُّ التَّقييدِ بالحالِ جُملةً فعليَّةً في صيغة المضارعة:

في التَّعبير بالالتقاء دليلٌ على طلاقة القدرة

قيَّدَ البيانُ القرآنيُّ مَرْجَ البحرينِ بالفعل ﴿يَلۡتَقِيَانِ﴾؛ لأنَّ مُجرَّدَ المَرْجِ اختلاطٌ واضطرابٌ، فبيَّنَ هذا القيدُ أنَّ البحرينِ يتماسّان، ويتجاورانِ بلا فصلٍ بين الماءين في رؤية العين، فأرسلَهما، وتركَهما يلتقيان، ولكنَّهما لا يبغيان، ولا يتجاوزُ كلٌّ منهما حَدَّه المُقَدَّر، ووظيفتَه المقسومةَ، وبينهما بَرزخٌ من طبيعتهما من صُنعِ اللّه،

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 249.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 105.

وتقسيم الماء على هذا النَّحو في الكرة الأرضيَّة لم يجئ مصادفةً ولا جُزافًا، فهو مُقَدَّرٌ تقديرًا عجيبًا، وهذا القَدْر من الماء المالح هو اللّازم بدقَّةٍ لتطهير جَوِّ الأرض وحِفْظِه دائمًا صالحًا للحياة، فالفائدةُ: إظهارُ القدرة في النَّفع، فإنَّه إذا أرسل الماءين بعضَهما على بعض، وفي طبعهما - بخَلْقِ اللّه وعادتِه - السَّيَلانُ والالتقاء، ويمنعُهما البَرزخُ الذي هو قُدرةُ اللهِ أو بقدرة اللّه، يكون أدَلَّ على القدرة ممّا إذا لم يكونا على حال يلتقيان، فمن شأنهما أن يكون مكانُهما واحدًا، ثمَّ إنَّهما بقيا في مكان متميّزين؛ فذلك برهانُ القُدْرة والاختيار[1]، وعبَّرَ بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿يَلۡتَقِيَانِ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الالتقاءِ بين هذه المياهِ، في أنهارِ العالَم وبحارِه، أو بفعل المَدِّ والجَزْرِ اللَّذَين يتعاقبان كلَّ يومٍ بفعل حركةِ القمر.

بلاغةُ التَّعبير بالاستعارةِ في ﴿يَلۡتَقِيَانِ﴾:

وجـودُ الـقُـدرة مـانـعٌ مـنَ الاختلاطِ

في قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ استعارةٌ فيها تشخيصٌ للبحرين، فكأنَّهما شخصانِ يتصافحانِ، والمُرادُ بها: أنَّه سبحانه أرسل البحرين طاميَيْن، وأمارَهُما مائِعين، وهما يلتقيان بالمقاربة، لا بالمُمازجة، فبينَهما حاجزٌ يمنعُهما من الانخراق، ويَصدُّهما عنِ الاختلاط[2].

الغرضُ من التَّقديم:

الاهتمامُ بتقديم مناطِ القُدرة بحَجزِ أحدِ الماءَين عن الآخرِ

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ الظَّرفَ ﴿بَيۡنَهُمَا﴾ على المبتدأ ﴿بَرۡزَخٞ﴾؛ للاهتمام ببيانِ مناطِ القُدرةِ المُطلقةِ بحَجز أحدِ الماءَين عن الآخر، فلا يَبغي بعضُهما على بعضٍ، بل رغم التقائِهما؛ فإنَّ خصائصَ كلِّ ماءٍ كما هي دونَ تغيُّرٍ؛ لأداء دَورِه في الحياةِ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 350.
(2) الموسوعة القرآنية، خصائص السور: 9/ 106.

الغرضُ من تنكيرِ المبتدأ ﴿بَرۡزَخٞ﴾:

التَّنكيرُ لإفادَةِ العموم، ولتعظيمِ قُدرةِ اللهِ في خَلْقِ الكونِ

جاءتْ كلمةُ ﴿بَرۡزَخٞ﴾ نكرةً لإفادَةِ العموم، ومن هذا العموم تعدَّدت آراءُ العلماء في المرادِ بها، فالرّاجح: أَنَّهُ حاجزٌ وهْميٌّ؛ إذِ العَذْبُ من المِلْح وإليه، فهو حاجزٌ من قدرةِ اللّهِ - تباركت آلاؤه - في جَعْلِ خصائصِ كلِّ ماءٍ على ما هو عليه رغمَ الالتقاء، وقيلَ فيه: إنَّهُ عَرْضُ الأرْضِ، وقيل: إنَّهُ ما بَيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، وقيل: جَزيرَةُ العَرَبِ[1]، وكذلك فإنَّ في تنكيرها تعظيمًا لهذا البَرزخِ، فهو حاجزٌ عظيمٌ دالٌّ على قُدرةِ اللّهِ الباهرةِ المُجَرَّدَة[2]، فإنَّ في بيانِ عظَمة المخلوق دليلًا على عظمةِ الخالقِ تعالى.

سِرُّ التَّقييدِ بالحالِ جُملةً فعليَّةً في صيغة المضارعةِ:

لا يتجاوزُ أحدُ الماءين حَدَّه الذي حَدَّه له الخالقُ تعالى

قيَّدَ النَّظمُ الجليلُ قولَه: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ﴾ بالجملة الحاليَّةِ الفعليَّة ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ القدرةِ على منعِ أحدِ الماءين من إفسادِ الآخر، رغمَ الالتقاء والتَّماسِّ الظّاهريِّ بينهما، فلا يتجاوز كلُّ واحدٍ منهما ما حَدَّه له خالقُه، فالماءُ العَذْبُ الدّاخلُ في المِلْحِ باقٍ على حاله لم يمتزج بالمِلْح، فمتى حَفَرت في جنب المِلْح في بعض الأماكن؛ وجدتَ الماءَ العَذْب، بل كلَّما قَرُبت الحُفْرة من المِلْح؛ كان الماء الخارج منها صالحًا، فخَلَطَهما اللّهُ في رأي العين، وحَجَزَهما بقُدرته تعالى، وإذا كان هذا حال جمادٍ لا إدراكَ له ولا عقل؛ فكيف يبغي العقلاءُ بعضهم على بعض؟[3]، وعبَّرَ بالجملةِ الفعليَّةِ ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ تدَخُّل القُدرةِ الإلَهيَّة المُطلقةِ في منعِ الإفسادِ؛ حفظًا لصلاح الأرضِ لحياةِ الثَّقلَين.

---

(1) الماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 429.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 160.
(3) الصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 501.

توجيه المتشابه اللَّفظي بين سورتَي الرَّحمن والفرقان:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ في سورة الرَّحمنِ بقولِه: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾، بما في هذا التَّعبير من اللُّطفِ والرَّهافةِ؛ لأنَّ سورةَ الرَّحمنِ هي سورةُ الآلاء والنِّعم والرَّحماتِ، وأمّا في سورةِ الفرقانِ؛ فقال: ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٥٣﴾ [الفرقان: 53]؛ وذلك لمناسبة السّورة للشِّدَّةِ على المجرمين واستغاثتهم من عذاب النّارِ، في قوله: ﴿يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢﴾ [الفرقان: 22][1].

في سورة الرَّحمن النَّعيمُ والرَّحمةُ، وفي سورة الفرقان الجحيمُ والشِّدَّةُ

بلاغة التَّعبير بالكنايةِ في ﴿يَبۡغِيَانِ﴾:

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بمادَّةِ البغي في ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾؛ وذلكَ لِما فيهِ من الدَّلالَةِ على العُدوانِ والظُّلم، ولما فيهِ من الدَّلالة على شِدَّةِ الطَّلبِ والتَّجاوزِ والرَّغبةِ في الازديادِ[2]، فكأنَّ كلَّ ماءٍ من الماءين فيه حرصٌ على التَّعدّي على الآخرِ، ولكنَّ القدرةَ الإلهيَّةَ منعتْ سريانَ أحدِ الماءين في الآخرِ، كما في قولِه: ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ﴾ [النّمل: 61]، ومعنى قوله: ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾، أي: لا يغلب أحدُهما على الآخر، فيقلبُه إلى صفته، إمَّا المِلح على العَذب، أو العَذب على المِلح، وكنَّى تعالى بلفظ البغي عن غلبة أحدهما على صاحبه؛ لأنَّ الباغي في الشّاهد اسمٌ لمَن تغلَّب من طريق الظُّلم بالقوَّة والبَسْطة، والتَّطاولِ والسُّطوة[3].

في التَّعبير بالبغي دلالةٌ على مكانِ القُدرة الإلهيَّة في صلاحِ الكونِ

بلاغةُ التَّشبيه في ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾:

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ﴾ تشبيهٌ بليغ، أي: بينهما مثلُ البَرزخِ، وهو معنى ﴿لَّا يَبۡغِيَانِ﴾، أي: لا يبغي أحدُهما

منع غلبة أحد خصائصِ الماءين على الآخر تشبيهٌ بمنع الفسادِ

(1) امحمّد صافي المستغانميّ، برنامج في رحاب سورة، الآيات من 7 - 23.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بغي).
(3) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص: 321.

على الآخر، أي: لا يَغلب عليه، فيفسد طعمَه، فاستُعير لهذه الغَلبة لفظُ البغي الذي حقيقتُه الاعتداءُ والظُّلم[1].

بَيانُ المرادِ بـ (الآلاء) في هذا الموضعِ:

في إرسالِ الماءين نعمةٌ، وفي حفظِهما نعمة مماثلةٌ

عبَّرَ النَّظمُ الحكيمُ في ختام الآياتِ بلفظِ الآلاء على عادةِ السّورةِ في نظمها العجيب، والمرادُ بالآلاء هاهُنا: نعمةُ إرسال أحدِ الماءين على الآخر؛ إذ لو لم يُرسلهما؛ لجَفَّ الماءُ المالحُ على المدى البعيد بعاملِ التَّبَخُّر، ولجفَّ الماء العذب بعد مدَّة كذلك، ففي إرسالهما حفظٌ لهما، ومن النِّعم والآلاء كذلك احتفاظُ كلِّ نوعٍ من البحرين بخصائص مائه، سواء أكان ماءً مِلْحًا أو عَذْبًا، فلا يُفْسِدُ أحدُهما الآخرَ؛ حفظًا للأرضِ لكي تكونَ صالحةً لبقاء الثَّقلَين.

دلالةُ الاستئنافِ في قولِه: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا﴾:

الجملةُ إمّا مستأنفةً للتعدادِ، أو بيانية لحالِ المِنَّة

قولُ اللّهِ تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾، إمّا أن يكونَ استئنافًا ابتدائيًّا[2]، على طريقةِ السّورةِ الكريمة في الفصل بين ذِكر النِّعم والآلاء؛ لأنَّ الاستئناف هاهُنا أبلغُ في تأكيدِ عِظَم النِّعمة المذكورة، فهي امتنانٌ بذِكر النِّعمة المستخرجة من البحرِ، كما مَنَّ بذِكرِ ما ينبت في البَرِّ من الفاكهة والنَّخل والحَبِّ والعَصْف، وإمّا أن يكون الفصلُ لأنَّ الجملةَ وقعت حالًا من البحرين[3]؛ إذِ التَّقدير: (مرجَ البحرين يلتقيان خارجًا منهما اللُّؤلؤُ والمرجانُ).

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَخۡرُجُ﴾:

تجدُّدُ استخراج اللُّؤلؤِ والمَرجانِ من تجدُّدِ النِّعم والآلاءِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ بصيغةِ المضارعةِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ استخراج اللُّؤلؤِ والمَرجانِ من البحارِ المَلِحةِ والأنهارِ العَذْبةِ، أو من بَحرَي الرّوم وفارس، وفيه امتنانٌ بتجدُّدِ النِّعَمِ والآلاء واستمرارِها.

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 249.
(2) الخطيب ومصلوح والعلوش، التّفصيل في إعراب آيات التّنزيل: 27/ 199.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 249.

توجيهُ القراءاتِ الواردةِ في ﴿يَخْرُجُ﴾:

في القراءتين امتنانٌ بالتَّسهيل، وامتنانٌ بمنح القُدرة

وردَت في قول اللّهِ تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ قراءتان، فقرأ المَدَنيّانِ والبَصريّانِ بضمِّ الياءِ وفتحِ الرّاءِ ﴿يُخْرَجُ﴾، وقرأ الباقونَ بفتح الياء وضَمِّ الرّاءِ ﴿يَخْرُجُ﴾[1]، أمّا على القراءة الأولى؛ فهو من الإخراج؛ لأنَّه يُخْرَجُ، ولا يَخْرُجُ بنفسه[2]؛ ولأنَّ كلًّا من وجودِه فيه والتَّسليطِ على إخراجِه منه خارقٌ من غير نظرٍ إلى مُخْرِجٍ مُعَيَّنٍ، والنِّعمةُ نفسُ الخروج[3]، فهو امتنانٌ بمَنحِ القُدرةِ على الاستخراج، وعلى القراءة الثّانية: فهو اتِّساعٌ، وذلك أنَّه إذا أُخرِجَ؛ فقد خَرَجَ[4]، ففيها امتنانٌ بتسهيل خروجِهما.

معنى (مِنْ) في قولِه: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾:

(مِنْ) إمّا أن تكونَ ابتدائيَّةً، أو سببيَّةً

جاءتْ (مِنْ) في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿مِنْهُمَا﴾ إمّا ابتدائيَّةً، إن كان المُراد بالبحرين: بحرين معروفَين من البحارِ المَلِحة؛ لأنَّ اللُّؤلؤَ والمَرجانَ يكونان في البحر المِلْح، والمرادُ: الابتداء العقليُّ، كما يقال: خَلقَ اللّهُ آدمَ من تراب، فكذلك اللُّؤلؤ يخرج من الماء، أي: منه يتولَّد، وأمّا إنْ كان المراد بالبحرين: البحر المِلْح، والبحر العَذْب، فتكونُ (مِن) للسَّببيَّة، كما في قوله تعالى ﴿فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ [النّساء: 79]، أي: يخرج اللُّؤلُؤُ والمَرجانُ بسببهما، أي: بسبب مجموعهما[5].

الغرضُ من تقديمِ الجارِّ والمجرور:

التَّقديمُ للاختصاص والاهتمامِ بإظهارِ الامتنانِ

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرورَ ﴿مِنْهُمَا﴾ على الفاعلِ ﴿ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾؛ لبيانِ اختصاصِ استخراجِ اللُّؤلؤِ والمرجانِ من البحرين كليهما؛ ولأنَّ في التَّقديمِ اهتمامًا بما في البحرين منَ النِّعَمِ والآلاءِ.

---

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 380 - 381.

(2) أبو العلاء الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 389.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 161.

(4) أبو العلاء الكرمانيّ، مفاتيح الأغاني في القراءات والمعاني، ص: 389.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 350، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 249 - 250.

توجيهُ الأقوالِ في عودِ الضَّميرِ في ﴿مِنۡهُمَا﴾:

لكلِّ قول ما يؤيِّده، وما يقوّيه من الكشف العلميِّ

في عودِ الضَّميرِ في قولِه: ﴿مِنۡهُمَا﴾ عددٌ من الأقوالِ بناءً على الاختلافِ في المرادِ بالبحرين[1]، **الأوَّل:** يخرجان من نوعَي الماءِ جميعًا: المالح والعَذْبِ. و**الثّاني**: يخرجان من المالح في المواضع التي يلتقي فيها بالعَذْبِ. الثّالث: يخرجان من بحري فارسٍ والرّوم، ولا إشكال في هذه الوجوه، والأخير منها على وجه الخصوص[2]، والقولُ الرّابعُ: يخرجان من المالحِ فقط دون العَذْب، حسبما هو مُشاهَدٌ معلومٌ عند الأقدمينَ، وكلُّ ذلك له ما يؤيِّده من الواقع، وما يقوّيه من الكشف العلميِّ.

معنى اللّامِ ودلالتُها في ﴿ٱللُّؤۡلُؤُ﴾:

اللّامُ جنسيَّةٌ لاستغراق صفات الجمال في اللُّؤلؤِ

جاءَ لفظُ ﴿ٱللُّؤۡلُؤُ﴾ معرَّفًا باللّام؛ للدَّلالةِ على الامتنانِ بنعمة جنسِ اللُّؤلؤِ؛ لما له من قيمة نفيسةٍ، يُباهي بها مَن يمتلكه، فاللّامُ هاهُنا جنسيَّةٌ لاستغراق صفاتِ الجمال في اللُّؤلؤِ، والمرادُ باللُّؤلؤِ هاهُنا حبَّةُ اللُّؤلؤِ نفسُها، لا حيوانُ اللُّؤلؤ، الذي هو حيوان مائيٌّ حلزونيٌّ مستقِرٌّ في غلافٍ ذي دفَّتَين مُغْلَقتَين عليه، يفتحُهما بحركة حيويَّةٍ منه؛ لامتصاص الماء الذي يسبح فيه، ويُسمّى غلافُه صدفًا، فتوجَد في جوف الحيوان حَبَّةٌ ذاتُ بريقٍ، وهي تتفاوت بالكِبَر والصِّغَر، وبصفاء اللَّون وبياضِه[3].

دلالةُ العطفِ:

تعدُّدُ النِّعم ومغايرتُها أدعى لاستجلابِ الشُّكرِ

عطفَ النَّظمُ الحكيمُ ذِكرَ (المَرْجانُ) على ذِكرِ اللُّؤلؤ؛ لبيانِ مزيد

---

(1) مقاتل، تفسير مقاتل بن سليمان: 4/ 197، والفرّاء، معاني القرآن: 3/ 115، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 100، والواحديّ، التّفسير البسيط: 21/ 155، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 228، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 350، وأبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 60، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 8/ 180، والآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 106 - 107، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 9/ 105، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 249 - 250.

(2) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 8/ 132.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 249.

الإنعام بما وهبَ للنّاس من نتاج البحرين، وفي العطفِ بيانٌ لجزيل الإنعام بنوعٍ مغايرٍ لسابقهِ بالمغايرة في الألوان والمنافع والأحجام، وهذه المغايرةُ بين الأنواع أدْعَى لاستجلاب الشُّكرِ، وأدلُّ على طلاقةِ القُدرةِ، ولذا كان التَّعقيب بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد تعديد النِّعَمِ والآلاء يأتي تفريعُ التَّصديق والإيمان

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم؛ لبيان منَّتِه تعالى بتسخير الكونِ الكبيرِ للثَّقلَين، فكأنَّ أصل الكلام: إذا عرفتم هذه النِّعمةَ العظيمةَ، وما سبقها من النِّعمِ والآلاء، وكان ثبوتُها واقعًا لا محالةَ؛ فبأيِّها تُكَذِّبان؟ إذ لا سبيلَ إلى التَّكذيبِ، فلا بدَّ من الإقرار التّامِّ، والتَّصديق الكاملِ والإيمان الحقِّ، فهذه النِّعم دليلُ تفضُّلِه وإنعامِه، ولمّا كانت من جليل النِّعم؛ فقد كرَّرَ التَّقريرَ والتَّوبيخَ لكلِّ مَن أنكرَها.

بيانُ المرادِ بـ ﴿ءَالَآءِ﴾ في هذا الموضع:

الآلاء هي الامتنانُ بمَرْجِ البحارِ واستخراجِ اللُّؤلؤِ والمَرجانِ للزّينة والتِّجارة

جاء قولُ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ بعد أنْ عدَّدَ البيانُ القرآنيُّ مجموعةً من النِّعَمِ الجليلةِ، هي الامتنان بنعمة مَرْجِ البحرين مع الإبقاءِ على خصائصهما صالحةً لحفظ الحياةِ، وبنعمةِ إخراج اللُّؤلؤ والمَرجانِ، للزّينة والتِّجارة وغيرهما[1].

۞ الفروقُ المُعجَميَّة:

(يَبْغيانِ) و(يَظلمانِ) و(يَطغَيان):

الطُّغيانَ أشدُّ من الظُّلم؛ لاشتماله على مجاوزة الحَدِّ والمبالغة

البَغْيُ له معنيان، أحدهما: طلبُ الشَّيءِ، والثّاني: جنسٌ من الفسادِ، وفيه معنى الشِّدَّةِ والظُّلم[2]، والمعنَى المِحوريُّ: تزايدُ الشَّيءِ نموًّا وقوَّةً أو توصُّلًا لاكتمالِ حالِه، ومنَ التَّزايُدِ جاء معنَى الطَّلبِ؛ لأنَّه ازديادٌ، ومنهُ أيضًا جاءَ معنى التَّجاوُزِ؛ لأنَّه تَعدٍّ وتزايدٌ، فبغَى

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 163.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغي).

عليهم، أي: عدلَ عَنِ الحَقِّ واستَطال، وكلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدارِ الَّذي هو حدُّ الشَّيءِ بَغْيٌ، ومنهُ قولُهُ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشّورى: 27][1]، والمرادُ في قوله: ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾: لا يبغي أحدُهما على الآخرِ بالممازجةِ وإبطالِ الخاصّيَّةِ، أو لا يتجاوزانِ حدَّيهما بإغراقِ ما بينهما[2].

وأمّا الطُّغيان؛ فالأصلُ فيه تجاوزُ الحدِّ والغُلوُّ في ذلك، ويشمل الإفراطَ في المعصية والكِبْر والكفر[3]، وهو بذلك أشدُّ من البَغي والظُّلم، والمعنى المِحوريُّ: ارتفاعُ الشَّيءِ باستغلاظٍ وتجاوزٍ حتّى يَغْشَى، ويُغَطّي ما حولَه[4].

وأمّا الظُّلم؛ فإنَّ معانيه كلَّها تدور حولَ منعِ الحَقِّ ومجاوزته، ووضع الشَّيء في غير موضعه، ومعناه المِحوريُّ: هو المَيل عن القَصد والتّعدّي، سواء أكان صغيرًا أم كبيرًا، حيثُ يتراوح الظُّلمُ ما بين أكبر الكبائر، وهو الشِّرك باللّه ﷻ، وبينَ ارتكاب صغائر الذُّنوب، فالمادَّتانِ مشتركتان في معنى مجاوزة الحدِّ، ولكنَّ الطُّغيانَ أشدُّ من الظُّلم؛ لاشتماله على مجاوزة الحَدِّ والمبالغة في الكِبْر والمعصية والشَّرِّ والكفر، والظُّلمُ أدنى من الطُّغيان؛ إذ تتفاوت درجاتُه من صغائر الذُّنوب إلى كبائرها، إلى الشِّرك باللّه ﷻ[5].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بغو، بغى).
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 172.
(3) الرّاغب، مفردات القرآن: (طغى).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (طغو، طغي).
(5) محمّد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 144 - 148.

﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٥﴾ [الرّحمن: 24 - 25]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

امتنانٌ باستخراج ما في الباطن، ثم امتنان بتسيير على الظاهر

لمّا ذكر تعالى الخارجَ من البحر بماء السَّماء؛ أعقب بذِكر السّائرِ عليه بالهواءِ، وهي الجواري فيه، من السُّفن الكِبار والصِّغار، الفارغةِ والمشحونةِ، ولمّا كانت مع كونها عاليةً على الماء منغمسةً فيه، مع أنَّه ليس لها من نفسها إلّا الرُّسوب والغوص؛ عبَّر باحتواءِ البحر لها، ولمّا كانت تُرى على البعد كالجبال على وجه الماء؛ شبَّهها بالجبال الطّوال، ولمّا كان لهذه النِّعمة الجليلة عظيمُ الفضل؛ لما فيها من المنافع بالتَّكسُّب من البحر بالصَّيد وغيره، والتَّوصُّل إلى البلاد الشّاسعة للفوائد الهائلة؛ لمزيد الدَّلالة على إبداعه وقدرته على التَّصرُّف بكلِّ ما يريده على حَدٍّ سواء؛ لذا فقد كرَّر التَّقرير والتَّوبيخ، فقال: أتُكَذِّبانِ بنعمة البصر مِن تَحتِكم أو غيرِها من الأسفار، في محلِّ الأخطار، والإنجاء عند الاضطراب والرّيح في محلِّ الخسار، والإرشاد إلى ذلك بعد خَلْق مواد السُّفن وتعليمِ صنعتها وتسخيرها والفلك[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡجَوَارِ﴾: (جري) أصلٌ واحدٌ، وهو انسياحُ الشَّيءِ، يقال: جرى الماءُ يجري جِرْيَةً وجَرْيًا وجَرَيانًا، والسَّفينةُ الجاريةُ، وكذلك الشَّمسُ، والجاريةُ من النِّساءِ من ذلك أيضًا؛ لأنَّها تُستَجرَى في الخِدمة[2]، والمعنى المحوريُّ: انتقالٌ بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسلةٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 163 - 165.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جري).

متَّصلة، كسَيلانِ الماء والدَّم، وكذا جَريُ الفرسِ[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقّة: 11]، أي: السَّفينة التي تجري في البحر، وجمعها: جَوارٍ، قال ﷻ: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشّورى: 32][2].

2) ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: (نشأ) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ وسُموٍّ، ونشأ السَّحابُ: ارتفع، وأنشأه اللّهُ: رفعَه، ومنه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ [المزّمّل: 6]، ويُراد بها القيام والانتصابُ للصَّلاة، ومن الباب: النَّشْءُ والنَّشَأُ: أحداثُ النّاس، والنّاشئُ: الشّابُّ الذي نشأ، وارتفعَ، وعلا، وأنشأ فلانٌ حديثًا، وأنشأ ينشد، ويقول[3]، وأنشأ يفعل كذا، أي: ابتَدَأ، ونشأ في بني فلانٍ: شَبَّ فيهم، وبابُه: قَطَع، وخَضَع[4]، والمعنى المِحوريُّ: حدوثُ الشَّيءِ من جنسه مبتدَأً صغيرًا آخذًا في الاستِغلاظ[5]، ومعنى المُنشآت في قَوْله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: السُّفُن المرفوعات الشُّرُع، والمُنشِئات: الرّافعاتُ الشُّرُع، وقالَ الفرّاء: مَن قَرَأ ﴿ٱلْمُنشِـَٔاتُ﴾؛ فهُنَّ اللّائي يُقْبِلن، ويُدبِرْن، و﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾: أُقْبِلَ بهِنَّ، وأُدْبِر[6].

3) ﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾: (علم) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، يدلُّ على أثر بالشَّيء يتميَّز به عن غيره، ومن ذلك العَلامةُ، ويقال: علَّمتُ على الشَّيءِ علامةً، ويقال: أعْلَمَ الفارسُ؛ إذا كانتْ له علامةٌ في الحرب، والعَلَمُ: الرّايةُ، والجمع أعلامٌ، والعَلَمُ: الجبلُ، وكلُّ شيء يكون مَعْلَمًا: خِلافُ المَجْهَلِ، والعِلْمُ: نقيضُ الجهلِ، وقياسُه قياسُ العَلَم والعَلامة[7]، والمعنى المِحوريُّ: الدَّلالة والهداية بمرتفع إلى معنًى، اتجاه أو طريق أو حَدٍّ، أو غيرِ ذلك، كما يدلُّ العَلَم في الصَّحراء على الاتِّجاهات والطُّرق والمواقع، وكما يُتَّخَذ الجبلُ عَلَمًا على مثل ذلك[8]، والعَلَمُ: الأثر الذي يُعْلَمُ به الشَّيء كعَلَم الطَّريق وعَلَم الجيش، وسُمّي الجبلُ عَلَمًا لذلك، وجمعه أَعْلامٌ[9].

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جرى).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (جري).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشأ).
(4) الرّازيّ، مختار الصّحاح: (نشأ).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نشأ).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (نشأ)، والفرّاء، معاني القرآن: 3/ 115، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/ 100.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(8) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (علم).
(9) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (علم).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تسييرُ السُّفنِ كالأعلام على من آياتِ عظَمته تعالى

بيَّنَ اللّهُ تعالى في هذه الآيةِ نعمة أخرى من نِعَمِه التي مقرُّها البحار، فقال: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فامتنَّ بتسييرِ السُّفن الجارية المرفوعةِ الشِّراع، وهو ما يُسَمّى بالقُلُع، فله سبحانه وحدَه - لا لغيره - التَّصرُّف المُطلق في السُّفن المرفوعة القِلاع، التي تَجري في البحر، وهي تشبه الجبال في ضخامتها وعظمتها، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواعَ تجاراتهم، وغيرَ ذلك ممّا تدعو إليه حاجتُهم وضرورتُهم، وقد حفظها حافظُ السَّماوات والأرض، وهذه من نِعَم اللّه الجليلة، ومن الآيات الكثيرة التي تُشبه هذه الآيةَ في دلالتها على قدرة اللّه تعالى، وعلى مِننه على عباده بهذه السُّفن التي تُجرى في البحر بأمره، قوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤﴾ [الشّورى: 32 - 34][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواوِ في ﴿وَلَهُ﴾:

اتِّصالُ الحديثِ عن البحر وما فيه من الآلاء والنِّعَم

عطفَ النَّظمُ الحكيمُ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾، على جملةِ: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾؛ لأنَّ هذا من أحوالِ البَحرين، وقد أغنت إعادةُ لفظِ البحر عن ذكر ضميرِ البحرين الرّابطِ لجملةِ الحالِ بصاحبها[2]، فالعطفُ هاهُنا جارٍ على سَنَنِ السّورةِ الكريمةِ في الفصلِ بين النِّعَم، كلٍّ على حِدَةٍ؛ لأنَّها تصلحُ دليلًا مستقلًّا للإبانةِ عن قدرةِ اللّهِ، وأمّا عندما ترتبطُ النِّعمةُ في الآية بالنِّعمةِ في الآيةِ التي سَبَقتها؛ فإنَّ من دَيْدَنِ

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 138 - 139، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 830.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 251.

السّورة العطفَ بين الآياتِ بالواو أو بالفاء؛ ليكون النَّظرُ إلى الآلاء في انتظامها وتركيبها داعيًا لحُسْنِ إدراكها وللاعتبارِ بما فيها منَ الامتنانِ من ناحيةٍ، وللدَّلالةِ الكُلّيَّةِ على القُدرةِ من ناحيةٍ أُخرى.

الغَرضُ من تقديمِ الخَبرِ:

التَّصريفُ الحقيقيُّ لله وحدَهُ

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شبهَ الجملةِ ﴿وَلَهُ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ السّائر في الفُلك لا تصريفَ له، وإن ظهر له تصريفٌ، فهو لِضُعفه كَلا تصريفٍ، فالتَّصريفُ الحقيقيُّ في كلِّ شيءٍ عامَّةً، وفي الفلك خاصَّةً، له ﷻ لا لغيره، فلا تغترّوا بالأسبابِ الظّاهرةِ فتقفوا معها، فتُسنِدوا شيئًا من ذلك إليها، كما وقف أهلُ الاغترار، الذين هم أجْمَدُ أهلِ الأرض أذهانًا وأحقرُهم شأنًا، فقالوا بالاتِّحاد والوَحْدة[1].

معنى اللّامِ ودلالةُ التَّعبير بها:

المُلْكُ للهِ وحدَهُ

جاءتِ اللّام الجارَّةُ في قولِ اللّهِ: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾؛ لإفادَةِ المُلك، وللإخبار عن الجواري بأنَّها له؛ للتَّنبيه على أنَّ تحريكَ البحر أو الإنسانِ للسُّفن إقبالًا وإدبارًا لا يخرجُها عن مُلك اللّه[2]، وللإشعار بأنَّ كونَهم هم الذين صنعوها، لا يُخرِجها عن مُلكه تعالى وتصرُّفه؛ إذ هو الخالق الحقيقيُّ لهم ولها، وهو الذي سخَّر تلك السُّفنَ؛ لتَشُقَّ ماءَ البحرِ بأمره[3]، وكذلك فإنَّ في نسبةِ الجواري له سبحانه تذكيرًا بما لا يَغْفلُ عنه من له أدنى عقلٍ؛ فضلًا عن الفاضلِ الذَّكيِّ، فكلُّهم وهم في وسطِ المَوج منتظرون رحمةَ اللّه تعالى، معترفون بأنَّ أموالَهم وأرواحَهم في قبضة قدرة اللّه تعالى، وهم في ذلك يقولون: لك الفُلكُ، ولك المُلكُ، وينسبون البحرَ، والفُلكَ إليه، ثمَّ إذا خرجوا،

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 163.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 251.

(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 14/ 139.

ونظروا إلى بُيوتهم المَبنيَّةِ بالحجارةِ والكِلْسِ، وخفيَت عليهم وجوهُ الهَلاكِ، يَدَعون مالكَ الفُلك، ويَنسَون ما كانوا ينسبون في البحر والفُلك إليه، وإليه الإشارة بقوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ٦٥﴾ [العنكبوت: 65][1].

سِرُّ تعريفِ المبتدأِ باللّامِ في ﴿ٱلْجَوَارِ﴾:

مخاطبةُ المتلقّي مخاطبةَ المُدرِكِ؛ لحَثِّه على مزيدِ التُّفكُّر

جاءتْ لفظةُ ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ مُعرَّفةً باللّامِ؛ للدَّلالةِ على معرفةِ المُخاطَبينَ بهذهِ السُّفنِ الجاريةِ في عُرضِ البحارِ، ولبيانِ سبقِ إدراكِهم لها، فهو أدْعى للحثِّ على التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ في عظَمة اللّهِ تعالى، وهي كذلك مَجْلًى من مَجالي آثارِ نعمتِه وآلائه على خلقه.

سرُّ التَّعبير بـ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ جمعًا:

في تعظيمِ البحرِ والتَّرهيبِ من سطوتِهِ تذكيرٌ بعظيمِ قدرةِ اللهِ

في جمع ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ وتوحيدِ البحر وجمعِ الأعلام فائدةٌ عظيمةٌ، وهي أنَّ ذلك إشارةٌ إلى عظمة البحر، ولو قال: (في البحار)؛ لكانت كلُّ جارية في بحر، فيكون البحر دون بحر يكون فيه الجواري التي هي كالجبال، وأمّا إذا كان البحر واحدًا، وفيه ﴿ٱلْجَوَارِ﴾ التي هي كالجبال، يكون ذلك بحرًا عظيمًا، وساحلُه بعيدًا، فيكون الإنجاء بقدرةٍ كاملةٍ[2].

الغرض من حذفِ الموصوفِ، وإقامةِ الصِّفةِ مقامه:

التَّعبيرُ بأظهرِ صفاتِ السُّفنِ؛ للدَّلالةِ على مناطِ الامتنانِ

حَذَف البيانُ القرآنيُّ الموصوفَ، وهو (السُّفُنُ)، وأقام مقامَه صفتَه، وهي ﴿ٱلْجَوَارِ﴾، جمعُ جاريةٍ، والجارية هي السَّفينةِ، وهي صفةٌ جرت مجرى الأسماءِ[3]، سُمّيتْ بذلك؛ لأنَّها موضوعةٌ للجَري، وغلبت بسبب الاشتقاق على السَّفينة الجارية، ثمَّ صار يُطلَق عليها ذلك، وإن لم تَجْرِ، حتّى يقال للسَّفينة السّاكنة أو المشدودة على

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 353.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 353.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرُّ المصون: 10/ 166، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 502.

ساحل البحر: جاريةٌ؛ لما أنَّها تجري، فتُرِكَ الموصوفُ، وأُقيمَت الصِّفة مقامَه، فالتَّعبيرُ بـ﴿ٱلْجَوَارِ﴾؛ للدَّلالةِ على الامتنانِ بأظهرِ صفاتِ السَّفينةِ، وهي الجَريُ، ومن ذلك أنَّ اللّه تعالى لمّا أمر نوحًا ﷺ باتِّخاذ السَّفينة، قال: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [هود: 37]، ففي أوَّل الأمر قالَ لها: الفُلْك؛ لأنَّها بعدُ لم تكن جرتْ، ثمَّ سمّاها بعد عملِها سفينةً، كما قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ [العنكبوت: 15]، وسمّاها جاريةً كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾﴾ [الحاقة: 11]، فالفُلْكُ قبلَ الكُلِّ، ثمَّ السَّفينةُ، ثم الجاريةُ[1]، وقد دلَّ على الموصوفِ المحذوفِ - وهي السُّفنُ - متَعَلَّقُه، وهو قوله: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ﴾، والتَّقدير: السُّفُنُ الجواري؛ إذ لا يَجري في البحرِ غيرُ السُّفن[2].

دلالة التَّعبير بـ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾:

التَّعبيرُ بالإنشاءِ أنسبُ لمقام الامتنانِ والتَّذكير بالآلاءِ

تَعَدَّدَتْ أقوالُ المفسِّرين في المرادِ بـ﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾، منها: أنَّها المرفوعات الشُّرُع، والمرفوعات البناء، والمُجْرَيات، والمصنوعات، والمُحْدَثات[3]، وكلُّها راجعةٌ لمعنى التَّنشِئة؛ إذْ لمّا كانت حياةُ كلِّ شيءٍ تأتي بحالة من حالات الاكتمال في النشأة، وكانت السُّفنُ تُبْنَى من خشبٍ مجمَّعٍ، وتوصَلُ حتّى تصير على هيئةٍ تقبل المنافعَ الجمَّةَ، وكانت تُرَبَّى بذلكَ الجمعِ كما يُرَبَّى النَّباتُ والحيوانُ، وكانت ترتفع على البحر، ويُرفَع شِراعُها، وتحدُث في البحر بعد أن كانت مستَترة بجبال الأمواج؛ كان التَّعبير بالمنشآت أنسبَ لمقام الامتنانِ والتَّذكير بالنِّعم والآلاءِ، فهو سبحانه الذي أنشأها للنّاسِ، بأن هداهم إلى سِرِّ بنائها، وإرسالِها ورفعِ شراعها[4].

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 353.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 251.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 5/ 100، والواحديّ، والتّفسير البسيط: 21/ 156، والماورديّ، النّكت والعيون: 5/ 431، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 164، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 172.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 163، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 502.

دلالة تَنَوُّعِ القراءات في ﴿ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾:

قراءةُ كسرِ الشّين على المجازِ والتَّوَسُّعِ، فكأنَّ السُّفُنَ الجواري تُنشِئُ الأمواجَ

ورد في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ﴾ قراءتان متواترتان، فقرأ حَمْزَةُ وأبو بكر - بخِلافٍ عَنهُ -: ﴿ٱلۡمُنشِـَٔاتُ﴾ بكَسْرِ الشّين، والباقونَ بفَتْحِها[1]، ومعنى قراءةِ حمزةَ وأبي بكرٍ أنَّها رافعةٌ شراعَها؛ بسبب استمساكها عن الرُّسوب، ومُنْشِئة للسَّير، أي: إنّها تُنْشِئُ الموجَ بجَرْيها، أو تُنشئُ السَّيرَ إقبالًا وإدبارًا، أو التي رَفَعَتْ شُرُعَها، ونسبةُ الرَّفْعِ إليها مجازٌ، كما يقال: أَنْشَأَتِ السَّحابةُ المطرَ، والباقون بالفتح، وهو اسمُ مفعول، أي: أنشأها اللّه أو النّاسُ، أو رفعوا شُرُعَها[2]، والآيةُ تحتمل المعنيين: الأوَّل والثّاني على القراءتين، باستعمال الاشتقاق في معنيَي المشتق منه، ويكون في ذلك تذكيرٌ بنعمة إلهام النّاس إلى اختراع الشِّراع لإسراع سير السُّفن[3].

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتُها، وسِرُّ التَّقييدِ بالجارِّ والمجرورِ:

الامتنانُ بتسخيرِ البحرِ العظيمِ لمنافعِ الثَّقلَين

جاءتْ ﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿وَلَهُ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ بمعنى الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، وذلك لاشتمالِ البحرِ على السُّفُنِ الجواري المنشَآت، فلا مكانَ لها للجَري سوى عُرْضِ البحر، وفي التَّقييدِ بالجارِّ والمجرورِ تذكيرٌ بما هو بديهيٌّ، يعرفُه كلُّ النّاسِ من غَرَقِ الأشياءِ في البحارِ، فكانَ من بيانِ الامتنانِ تذكيرُهم بتسخير البحرِ العظيمِ الأمواجِ الهائجِ الاضطرابِ؛ لما فيه منفعتُهم بالصَّيد والتِّجارة واستخراجِ اللُّؤلؤِ والمَرجانِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّشبيهِ:

في تشبيه السُّفنِ بالأعلامِ مع سلاسةِ حركتِها، تنبيهٌ للأذهانِ

التَّشبيه بالأعلام دلَّ على أنَّ المرادَ بالمنشَآت السُّفنُ الكِبارُ؛ إذ إنَّ لفظ الجواري يشمل الصَّغير منها والكبير، وقيل: تُرى من

(1) ابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/ 381، وتحبير التّيسير، ص: 571.
(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 166.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 251 - 252.

بُعْدٍ كالجبال الطِّوال، وقيل: السُّفن تُنشِئُ الموجَ حالَ جَرْيها، والموجُ كالأعلام[1]، والأظهر أن يكون المُراد تشبيهَ السُّفنِ الكِبار بالجبال في العِظَم والارتفاع، وجريانُها مع قامتِها وارتفاعِها على الماءِ أظهَرُ في بيان القُدرة، يُؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٣٢﴾ [الشّورى: 32]، والتَّشبيهُ هاهُنا من التَّشبيه المرسل المُجْمَل، أي: إنَّ السُّفنَ الجواري التي أُحْكِم إنشاؤها تُشْبِهُ الجبالَ في العِظَم والضَّخامةِ والثَّباتِ فوقَ الشَّيءِ، فذكر أداةَ التَّشبيهِ، وحَذفَ وجهَ الشَّبَه[2]، وعلى كلٍّ فهذا الوصفُ يُفيد تعظيمَ شأنِ السُّفنِ الجَواري في صنعها، المقتضي بداعةَ إلهام عقولِ البشر لصُنْعها، والمقتضي عِظَمَ المِنَّة بها؛ لأنَّ السُّفن أمْكَنُ لحَمْل العددِ الكثير من النّاس والمَتاع[3].

معنى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بعد التَّذكير بنعمة تسيير السُّفن يأتي تفريعُ التَّقرير على قدرته تعالى

جاءَت الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من بَيان مِنَّته تعالى بتسخير البحر لتسيير السُّفن كالأعلام الضِّخام، فكأنَّ أصل الكلام: إذا عرفتُم هذه النِّعمةَ العظيمةَ، وما سبقها من النِّعمِ والآلاء، وكان ثبوتُها واقعًا لا محالةَ؛ فبأيِّها تُكَذِّبان؟ إذ لا سبيلَ إلى التَّكذيب، فلا بدَّ من الإقرار التّامِّ، والتَّصديق الكاملِ، والإيمان الحقِّ، فهذه النِّعم دليلُ تفضُّله وإنعامِه، ولمّا كان تسييرُ السُّفنِ للتِّجارة واستخراج الحُليِّ واللُّؤلؤ والمَرجان والانتقالِ في أقطار الأرضِ من جليل النِّعم؛ فقد كرَّرَ التَّقرير والتَّوبيخَ لكلِّ مَن أنكرَها.

بيانُ المرادِ بـ (الآلاء) في هذا الموضع:

امتنَّ اللّهُ تعالى بنعمةٍ أخرى من نعمه العظيمة وآلائه الجسيمةِ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 353.
(2) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 14/ 217، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 310.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 251 - 252.

نعمةُ تسيير السُّفنِ للتِّجارة وللانتِقال في أقطار الأرضِ

وهي نعمة تسيير السُّفنِ الضِّخام في عُرْض البحر؛ وذلك لأنَّ السُّفنَ من أعظم الأسباب للمَتاجر والمَكاسِب المنقولةِ من قُطْرٍ إلى قُطرٍ، وإقليم إلى إقليم، ممّا فيه صلاحٌ للنّاس في جَلْب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع، قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، أي: بنِعَمِه التي أنعم بها في هذه الجواري، مِن خَلْق موادِّها، والإرشادِ إلى أخذها، وكيفيَّة تركيبِها وإجرائِها في البحر، بأسبابٍ لا يَقْدرُ على خَلْقِها وجَمْعِها غيرُه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الأعلام والجبال:

في العَلَم إشارةٌ إلى الدَّلالةِ والهدايةِ، وفي الجبل إشارةٌ إلى الارتفاعِ والشِّدَّةِ

الأعلام: جمع عَلَم، وهو كلُّ شيءٍ يكون مَعْلَمًا، خِلافَ المَجْهَل[2]، والمعنى المِحوريُّ: الدَّلالة والهداية، بمرتفع إلى معنًى: اتِّجاهٍ أو طريقٍ أو حَدٍّ أو غيرِ ذلك، كما يدلُّ العَلَمُ في الصَّحراء على الاتِّجاهات والطُّرق والمواقع، وكما يُتَّخَذ الجبلُ عَلَمًا على مثل ذلك[3]، والعَلَمُ: الأثر الذي يُعْلَمُ به الشَّيءُ، كعَلَم الطَّريقِ وعَلَم الجيشِ، وسُمّي الجبلُ عَلَمًا لذلك، وجَمعُه أعْلامٌ[4].

وأمّا الجبلُ؛ فهو تجمُّعُ الشَّيءِ في ارتفاعٍ، وأن يكونَ شديدَ الأثناءِ مع غِلَظِ هَيئةٍ، والمُرادُ بالجبل في الطَّبيعة: أنَّهُ اسم لكل وتِدٍ من أوتاد الأرض؛ إذا عَظُم، وطال، والجبلُ من الرَّملِ: العريضُ الطَّويلُ[5]، وجمعه: أجْبال وجِبال، وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ [النبأ: 6 - 7]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ۝٣٢﴾

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 9/ 105.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (علم).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (علم).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (علم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (محمد جبل).

[النّازعات: 32]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: 27][1]، ومن هنا فإنَّ تسميةَ الجبلِ بالعَلَمِ من التَّعبير المجازيِّ، الذي تُلاحَظُ فيه وظيفةٌ بعينها من وظائفِ الجَبل، وهي الدَّلالةُ على معالِم الأرضِ.

(1) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (محمد جبل).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٢٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢٨﴾ [الرّحمن: 26 - 28]

❁ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قبلَها:

بعدَ ذِكرِ تسييرِ السُّفنِ وما يتناوشُها من الموت؛ جاء ذِكْر الفناءِ وبقاءِ الرَّبِّ تعالى

لمّا أخبر تعالى أنَّه خلق السَّماواتِ والأرضَ وما بثَّ فيهما من المنافع من الأعيان والمعاني، واستوفى الأرضَ بقسمَيها بَرًّا وبحرًا، مضمِّنًا ذلك العناصرَ الأربعة التي أسَّس عليها المُرَكَّبات، وكان أعجبَ ما للمخلوق من الصَّنائع ما في البحر، وكأنَّ راكبَه في حُكم العَدم؛ دلَّ على أنَّه تعالى المُتفرِّدُ بجميع ذلك، وأنَّهُ الباقي بعد هلاك الخَلْق، فأشار إلى فناء جميع من على الأرضِ، لإحاطة أسبابِ الهلاك بهم حسًّا ومعنًى، كما أنَّها محيطةٌ بمَن هو في السَّفينة من فوقِه، ومن تحتِه ومن جميعِ جهاته، ولمّا كان الوجهُ أشرفَ ما في الوجود، وكان يُعَبَّرُ به عمّا أُريدَ من صاحب الوجه، كان التَّعبير به أعظمَ وأدلَّ على الكمال الواجب له تعالى، فيبقى وجهُ ربِّك ﷻ بعد فناء الكلِّ، بقاءً مستمرًّا إلى ما لا نهاية لهُ، لا تعتريه حاجةٌ، ولا يُلِمُّ بجنابه الأقدس نقصٌ، وذلك من لوازم العظَمة التي لا تُرامُ، التي هي صفةُ ذاته التي تقتضي إجلالَه عن كلِّ ما لا يليق به، وما يتَّصف به تعالى من الإحسان العامِّ[1]، فوقوعُ هذه الجملةِ عَقِبَ ما عدَّدَ من النِّعم، فيه إيماءٌ إلى أنَّ مصيرَ نِعَم الدُّنيا إلى الفناءِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَانٍ﴾: (فني) هذا بابٌ لم يُبْنَ على قياسٍ معلوم، قالوا: فنيَ يَفْنَى فناءً، واللّه تعالى أفْناهُ، وذلك إذا انقطع، والفِناءُ: ما

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 163.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 251 - 252.

امتد مع الدّار من جوانبها، والجمعُ أفْنِيَةٌ[1]، والفَناءُ: نَقيض البَقاء، وتَفانَى القومُ قَتْلًا: أفنى بَعضُهم بعضًا، وتَفانوا، أي: أفنى بَعضُهم بَعْضًا في الحَرْبِ، وفَنِيَ يَفْنَى فناءً: هَرِمَ وأشرف على المَوتِ هَرَمًا[2]، والفَناءُ: نَفادُ الشَّيءِ[3]، وذهب بعضُهم إلى أنَّ المعنى المحوريَّ لهذه المادَّةِ فقْدُ النَّفع الأساسيِّ للشَّيء؛ لزيادة امتداده مكانًا أو زمانًا، كفِناء الدّار، ليس به مَبْنى لزيادته عمّا يُرادُ البناءُ عليه، وكالشَّيخ الفاني، ذهبت قوَّته؛ إذِ استُهلِكت، واستُنْفِدَتْ بطول عُمُره[4]، ومنه قولُه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، والمرادُ بـ﴿فَانٍ﴾: هالكٌ[5]، كما في قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88].

2) ﴿وَيَبْقَىٰ﴾: (بقي) أصلٌ واحدٌ، وهو الدَّوامُ[6]، يقال: بَقيَ الشَّيءُ يَبْقَى بقاءً، وهو ضِدُّ الفناءِ[7]، ويقولون: هو يُبقي الشَّيءَ ببَصَرِه؛ إذا كان ينظرُ إليه، ويرصُده[8]، والبَقاءُ ثَباتُ الشَّيءِ على حالته الأولَى، وهو يُضادُّ الفَناء، والباقي ضَرْبان: باقٍ بنَفْسِه لا إلَى مُدَّةٍ، وهو الباري تعالَى، ولا يصحُّ عليه الفَناءُ، وباقٍ بغيرِهِ، وهوَ ما عَداهُ، ويصحُّ عليه الفناءُ، والباقي باللّه ضَربان: باقٍ بشخصِه وجُزئِهِ إلَى أن يَشاءَ اللّه أن يُفْنِيَه، كبقاءِ الأجرامِ السَّماويَّةِ، وباقٍ بنَوعِهِ وجنسِهِ دونَ شَخصِه وجُزئِه، كالإنسانِ والحَيَوانات، وكذا في الآخِرَةِ باقٍ بشخصِه كأهْلِ الجنَّةِ، فإنَّهم يَبقونَ على التَّأبيدِ لا إلَى مُدَّةٍ، والآخَرُ بنَوْعِه وجِنْسِه، كثِمارِ أهْلِ الجنَّة[9].

3) ﴿ٱلْجَلَٰلِ﴾: جَلَّ الشَّيءُ: عَظُمَ، وجُلُّ الشَّيءِ: مُعْظَمُه، والجَلَلُ: الأمرُ العظيمُ[10]، وجلَّ الشَّيءُ يَجِلُّ، فهو جَليلٌ[11]، والمعنى المحوريُّ: تغطيةٌ عظيمةٌ واسعةٌ يُقصَد بها الصّونُ، ومن التَّغطيةِ الواسعةِ دون قَيدِ الصَّوْنِ: جَلَّلَ المطرُ الأرضَ: عمَّها، وطَبَّقها، ومن ذلك

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فنى).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (فنى).
(3) الزّبيديّ، تاج العروس: (فني).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فنى).
(5) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 4/ 198.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بقي).
(7) الخليل بن أحمد، كتاب العين: (بقي).
(8) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بقي).
(9) الرّاغب، مفردات القرآن: (بقي).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جلل).
(11) ابن منظور، لسان العرب، والفيوميّ، المصباح المنير: (جلل).

الاتِّساع العظيم، اسْتُعملَ التَّركيبُ في التَّعبير عن العِظَم المادّيّ، ومِن هذا العِظَم المادّيِّ مع الشُّمولِ، جاء العِظَمُ المعنويُّ كما في الجُلَّى: الأمر العظيم، وكما في وصفه تعالى بالجَليل، وجلالُ اللّه: عَظَمتُه، كما في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، و﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، ومَلْحظُ الصَّون ثابتٌ بمعنى التَّنزيه له تعالى، فيقال: جَلَّ عن كذا، أيْ: تَنَزَّهَ[1]، والجَلالَةُ: عِظَمُ القَدْرِ، والجَلالُ بغيرِ هاءٍ: التَّناهي في ذَلكَ، وخُصَّ بوصف اللّه تعالى، فقيل: ذو الجلالِ، والجليلُ: العظيمُ القَدْر، ووصفه تعالى بذلك إمّا لخَلْقِه الأشياءَ العظيمةَ المُستَدَلَّ بها عليه، أو لأنَّه يَجِلُّ عن الإحاطة به، أو لأنَّه يَجِلُّ عن إدراك الحواسِّ[2].

4) ﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾: (كرم) أصلٌ صحيحٌ له بابان، أحدهما: شرفٌ في الشَّيء في نفسِه، أو شرفٌ في خُلُقٍ من الأخلاقِ، يقال: رجلٌ كريمٌ، وفرسٌ كريمٌ، ونباتٌ كريمٌ، وأكْرَمَ الرَّجلُ؛ إذا أتى بأولادٍ كرام، واستكرمَ: اتَّخذ عِلْقًا كريمًا، وكَرُمَ السَّحابُ: أتى بالغيثِ، وأرضٌ مَكْرَمَةٌ للنَّباتِ؛ إذاً كانت جيدةَ النَّباتِ، والكرم في الخُلُق: الصَّفح عن ذنب المُذنب، والكريمُ: الصَّفوحُ، واللّه تعالى هو الكريمُ الصَّفوحُ عن ذنوب عباده المؤمنين[3]، وكذلك فالكريم مِن صفات اللّه وأسمائِه: هو الكثيرُ الخيرِ، الجَواد المُعطي الذي لا يَنفَد عطاؤه، وهو الكريم المطلَقُ، والكريم: الجامعُ لأنواعِ الخيرِ والشَّرفِ والفضائل، والكريمُ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحمدُ، فاللّه ﷻ كريمٌ حميدُ الفِعال، وربُّ العرش الكريم: العظيم، والكَرَم نقيضُ اللُّؤم، يكون في الرُّجلِ بنفسه، وإن لم يكن له آباء، والكَرْمُ: العِنَبُ؛ لأنَّه مجتَمِعُ الشُّعُبِ منظومُ الحَبِّ[4]، والمعنى المِحوريُّ: رِقَّةُ الشَّيءِ المتجمِّع ونقاؤه أو صفاؤه، مع قَبول النَّفس له[5]، والإكرامُ: مصدرُ أكرمَ يُكرِمُ، والمعنى في قولِه: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: أنَّ اللّه تعالى مستحِقٌّ أن يُجَلَّ، ويُكرَمَ، ولا يُجْحَدَ، ولا يُكْفَرَ به، وقد يُحْتَمَلُ أن يكونَ المعنى: أنَّه يُكْرِمُ أهلَ وِلايتِه، ويرفعُ درجاتهم، وقد يحتمل أن يكون أحدَ الأمرين، وهو الجلالُ

(1) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جلل).
(2) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (جلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والخليل بن أحمد، كتاب العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (كرم).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (كرم).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كرم).

مضافًا إلى اللّه تعالى بمعنى الصِّفةِ له، والآخر: مضافًا إلى العبد بمعنى الفعلِ منه[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الفناءُ حتمٌ لازمٌ على كلِّ الخَلْقِ ويبقى الحيُّ القيومُ

بيَّن الحقُّ تعالى في هذه الآياتِ الكريمات، أنَّ جميعَ من على الأرض من النّاسِ والحيواناتِ، وكذلك أهلُ السَّماوات إلّا من شاء اللّه، سيَفْنَون ويموتون، وتنتهي حياتُهم جميعًا، ولا يبقى إلّا ذات اللّه سبحانه ذي العظَمة والكبرياء، والإفضالِ والإكرام الذي يُكْرِمُ به المُخلِصين من عباده، وصفةُ الجلال والإكرام من عظيم صفات اللّه، وأعظمُ النِّعمةِ مَجيءُ وقتِ الجزاء عَقِبَ ذلك، قال رسول اللّه ﷺ فيما رواه التِّرمذيُّ عن أنس رضي الله عنه: «ألِظّوا بيا ذا الجلالِ والإكرام»[2]، أي: الزَموا ذلك في الدُّعاء، وسَمِعَ ﷺ رَجُلًا، وهو يَقولُ: يا ذا الجلالِ والإكرام، فقالَ: «قدِ استُجيبَ لَكَ، فسَلْ»[3]، ونظير الآية: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٨﴾ [القصص: 88]، وقد نعت تعالى وجهَهُ الكريمَ في هذه الآية الكريمة بأنَّه ذو الجلالِ والإكرام، أي: هو أهلٌ أن يُجَلَّ، فلا يُعْصَى، وأن يُطاعَ، فلا يُخالَفَ، كقوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ [الكهف: 28]، وكقوله إخبارًا عن المُتصدِّقين: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: 9]، وذو الجلال والإكرام هو ذو العَظَمة والكِبرياء، ثم كرَّرَ تعالى التَّقريرَ والتَّوبيخَ، فكأنَّهُ قال: فبِأي نِعَم اللّهِ هذه تُكَذِّبان أيُّها الإنس والجنُّ، فالنّاس والمخلوقاتُ جميعًا يتساوَوْن كلُّهم في الوفاة، ثمَّ يصيرونَ إلى الدّارِ الآخرة، فيحكمُ فيهم ذو الجلال والإكرام بحُكْمِه العَدلِ؛ إذِ الفناءُ

(1) الخطابيّ، شأن الدّعاء، ص: 92، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 210.
(2) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (3867).
(3) أخرجه التّرمذيّ في سننه، برقم: (3870).

طريقُ البقاء والحياةِ الأبديَّة، فكانَ في الفناءِ نعمةُ التَّساوي في الموت، ونعمةُ تعاقُب الأجيالِ، ونعمةُ العدلِ المطلق، ونعمةُ الانتقالِ من الدّار الفانيةِ إلى الدّارِ الخالدةِ الباقية، دارِ الجزاء والثّواب، ذاتِ النَّعيم المادّيِّ والرّوحيِّ الشّامل، فكيف يكون منكم التَّكذيبُ بهذه النِّعَم العظيمة؟[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في ﴿كُلُّ مَنْ﴾:

الـفـنـاء حـتـمٌ لازمٌ، سواء أكانَ استئنافًا ابتدائيًّا أم امـتـدادًا لـلـحـديث عـنِ النِّعم

فصل النَّظمُ الحكيمُ قولَ اللّهِ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، عن النِّعمةِ السّابقةِ عليها، وهي قولُه: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾؛ وذلك لأنَّ السّورةَ الكريمةَ من دَيْدَنها الفصلُ بين النِّعَم؛ لأنَّ كلَّ نعمةٍ وحدَها تكفي للدَّلالةِ على قدرتِه تعالى، وتكفي لبيانِ عظيمِ الامتنانِ منه تعالى، فالجُمْلَةُ استِئنافٌ ابتِدائيٌّ[2]، وذهب بعضُهم إلى أنَّه ليس في الفناء نعمةٌ سوى الاعتبارِ، وذهبَ بعضهم إلى أنَّ في الفناءِ نِعمًا كثيرةً، فهو طريق البقاء والحياةِ الأبديَّة، فكانَ في الفناءِ نعمةُ التَّساوي في الموت، ونعمةُ تعاقب الأجيالِ، ونعمةُ العدلِ المطلق، ونعمةُ الانتقالِ من الدّار الفانيةِ إلى الدّارِ الخالدةِ الباقية، دارِ الجزاء والثّواب، ذات النَّعيم المادّيِّ والرّوحيِّ الشّامل[3]، وكذلك فإنَّ استئنافَ الآيةِ هاهُنا تمهيدٌ للمقطع الثّاني من مقاطع السّورة، الذي سيبدأ في قولِه تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾، فذكَّرت الآيةُ هنا - بعد تعديد النِّعم السّابقةِ - بأنَّ مصيرَ العالَم كلِّه إلى فناءٍ وزوالٍ، وذلك في سُرعة واضحةٍ، وإشارةٍ لامحةٍ؛ لتعِظَ الخَلْقَ بقدرته تعالى على إفنائهم، فيصبحوا أثرًا

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 209 - 210.
(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 253.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 253، ووهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 210.

بعد عينٍ، في طيِّ التَّواري عن الوجودِ، ويتجلّى وجهُ الكريمِ الباقي بلا زوالٍ ولا انتهاءٍ، منفردًا بالبقاء والجلال والإكرام، فهي تمهِّدُ لإعلانِ التَّحدّي؛ لكلِّ مَن تُنازِعُه نفسُه إلى الخروج من ملكوت اللّٰهِ العظيم وسلطانه القديم، فليس لأحدٍ قدرةٌ على منازعة الجبارِ تعالى، بل كلُّهم مأسورون لعظمة قدرته، وإنَّ أيَّ محاولَةٍ للخروج عن ناموس الكونِ ومقاديرِه الإلَهيَّة، محكومٌ عليها بالفشل الذَّريع، ومحفوفَةٌ بالوعيد الشَّديدِ بإرسالِ الشّواظِ والنُّحاسِ، فلا يتمكَّنُ أحدٌ منهم منَ الانتصارِ على إرادَةِ اللّٰهِ وبالغِ قُدرَته وعظَمته.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿كُلُّ﴾:

في مقام الفناء يكونُ الأنسبُ التَّعبيرَ بأقوى ألفاظِ العموم والشُّمولِ والاستغراقِ

في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ استعملَ النَّظمُ الجليلُ لفظَ ﴿كُلُّ﴾، وهو أقوى ألفاظ العموم[1]، لِدَلالته على الشُّمولِ والاستغراقِ، وهو يُستعمَلُ في الدَّلالةِ على قضيَّةٍ كُلّيَّةٍ موجَبةٍ، فلا يُستثنَى منها أحدٌ، فهي تشمل كلَّ جنسٍ، وكلَّ فردٍ، وقد تكرَّرَ لفظُ ﴿كُلُّ﴾ في التَّعبير عن قضيَّة الموتِ في القرآن الكريم، كما في قولِه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ الذي تكرَّر ثلاثَ مرّاتٍ، في [آل عمران: 185]، و[الأنبياء: 35]، و[العنكبوت: 57]، وقولِه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ٨٨﴾ [القصص: 88]؛ وذلك لتأكيدِ حتميَّةِ الموتِ والفناءِ على كلِّ شيءٍ مخلوقٍ في الكونِ بأسره.

سرُّ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ دونَ الفعليَّة:

ثباتُ قضيَّةِ الموتِ مهما طالَ الأمدُ

آثر النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّة في قولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾؛ للدَّلالةِ على الثَّباتِ، فحُكمُ الموتِ والفناء من الأحكام الثّابتة القارَّةِ الحتميَّة التي لا تتغيَّرُ، فقد قضى تعالى على كلِّ مخلوقٍ بالفناءِ مهما تطاولَ أمَدُه، ومهما استَغرَقَ في النِّعَمِ والآلاءِ؛ لذا كان التَّعبير بالجملة الاسميَّة أنسبَ للسّياقِ.

(1) الزّركشيّ، البحر المحيط: 4/ 84.

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصولِ مضافًا للفظِ ﴿كُلُّ﴾:

فناء العاقل يدلُّ على فناء غير العاقل بدليل الأوْلى

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالاسم الموصولِ ﴿مَنْ﴾ الدّالِّ على العاقلِ، في قولِه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وعدلَ عن لفظِ (ما) الذي يدلُّ على غير العاقلِ؛ وذلك للدَّلالة على التَّصريح؛ تهويلًا بفناء العاقل على فناء غير العاقل بطريق الأوْلى[1]، وكذلك فقد آثرَ التَّعبيرَ بضمير العاقلِ؛ لأنَّ الخطابَ في السّورة الكريمةِ للثَّقلينِ من الإنس والجِنِّ، وهم المستفيدونَ من النِّعَم السّابقةِ التي سخَّرَها اللّٰهُ لهم، وهم كذلك المنتفِعون بالتَّخويف، فخصَّهم تعالى بالذِّكر[2]، وفي إسنادِ ﴿مَنْ﴾ إلى ﴿كُلُّ﴾ زيادةٌ في المبالغةِ والتَّوكيدِ.

معنى حرف الجَرِّ (على) ودلالتُه، وبيانُ مَرجِعِ الضَّمير:

مهما تمكَّنَ المخلوقُ في الأرض؛ فمصيرُه الفناءُ لا محالةَ

دلَّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ (على) في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ على الاستعلاءِ، سواء أكان استعلاءً حقيقيًّا أم مجازيًّا، فأشارَ التَّعبيرُ بها إلى فناء كلِّ من تَمكّن في الأرض، واستقرَّ فيها تمكُّنًا واستقرارًا حقيقيًّا أو مجازيًّا، مهما بلغَ تنعُّمُه بهذه النِّعَم والآلاء والسّابقة، وسرُّ مَجيئها أنَّ المخلوقَ كثيرًا ما يغفلُ عن حتميَّةِ الفناء؛ إذا تمكَّن، واستقرَّ.

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالمضمر دون المظهر في ﴿عَلَيْهَا﴾:

وضوحُ المُرادِ بالضَّميرِ يُغني عن التَّصريح بالمُرادِ

في قولِ اللّٰهِ تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بالمُضمر؛ إشارةً إلى وضوح المرادِ بالمضمر، وهو الأرضُ، وذلك بقرينة المقام مثل قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ٣٢﴾ [ص: 32]، أي: الشَّمسُ، ومثلُه في القرآن كثيرٌ وفي كلامِ البُلغاء[3]، فيقال: هو أكرمُ مَن عليها، يَعنونَ الأرضَ، وإن لم يَجْرِ لها ذِكرٌ، فلا يَسبقُ إلى الوهم

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 163.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 355.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 252.

أنَّ المرادَ غيرُ الأرضِ، وهو كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: 45]، فهي معروفةٌ عند المخاطَبين، فلا داعيَ لذِكرها، ويحتملُ أنْ يكونَ الضَّمير في ﴿عَلَيۡهَا﴾ عائدًا إلى الأرض، وقد جرى ذِكرها في أوَّل السّورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾، وإن كان بَعُدَ لفظُها[1]، وقال ابن عبّاس: لمّا نزلت هذه الآيةُ؛ قالت الملائكة: هلَكَ أهلُ الأرضِ، فنزلت: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾ [القصص: 88]، فأيقنتِ الملائكةُ بالهلاك[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿فَانٖ﴾ دونَ (مَيِّتٍ):

التَّعبيرُ بالفناءِ ألطفُ مِنَ الموتِ، ولذا فهو أنسبُ لسياقِ النِّعَمِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾، عبَّرَ النَّظم الجليلُ بمادَّةِ الفناءِ دونَ مادَّةِ الموتِ، فعدلَ عن: (كُلُّ من عليها مَيِّتٌ)؛ وذلك لتحقيق المقابلة بين الفناء والبقاء في الآية التّالية، ولأنَّ لفظَ الفناءِ أخفُّ وقعًا من لفظِ الموتِ، ولذا فهو أنسَبُ للسّورة الكريمة التي تتحدَّث عن النِّعم والآلاء، فكأنَّ الحقَّ تعالى لم يُرِد أن ينالَ الحُزنُ من قلوبِ المؤمنين الموحِّدين، فعبَّر بمادَّةِ الفناءِ، وهي أخفُّ وطأةً من الموتِ؛ ذلك أنَّ كلَّ موجودٍ على الأرض يفنى، وتزولُ خُصوصيّاتُه وامتيازاتُه وجميعُ مشخِّصاتِه الأرضيَّة المادّيَّة، إلّا ما يكون وجهًا للرَّبِّ.

فائدةُ ذِكرِ الفناءِ في السّورة الكريمة:

في ذِكر الفناءِ وجوهٌ من الحَثِّ على العبادةِ والأمر بالصَّبر

أفادَ ذِكرُ الفناء في السّورة - عَقِبَ التَّذكير بالنِّعم والآلاءِ - الحثَّ على العبادة وصرفِ الزَّمان اليسير إلى الطّاعة، وأفاد كذلك المنعَ من الوثوق بما يكون للمَرء، فلا يقول - إذا كان في نعمةٍ -: إنَّها لن تذهب، فيترك الرُّجوع إلى اللّه معتمدًا على مالِه ومُلكِه، وفيها كذلك الأمرُ بالصَّبر إن كان في ضُرٍّ، فلا يكفر باللّه معتمدًا على أنَّ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 62.

(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 5/ 99، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 164.

الأمر ذاهبٌ والضُّرَّ زائلٌ، ومن فوائد ذِكر الفناء تركُ اتِّخاذ غيرِ اللّهِ تعالى معبودًا، والزَّجرُ على الاغترار بالقُرب من المُلوك وترك التَّقرُّب إلى اللّه تعالى؛ فإنَّ أمرَهم إلى الزَّوال قريب، وفيها الحثُّ على التَّوحيد، وتركِ الشِّرك الظّاهر والخفيِّ جميعًا؛ لأنَّ الفانيَ لا يصلح لأن يُعْبَد[1]، وكذلك فإنَّ في التَّعبير بالفناءِ تذكيرًا بوجه النِّعمة في فناء الخَلْق بالتَّسوية بينهم في الموت، ومع الموت تَستوي الأقدامُ، وقيل: وجهُ النِّعمة أنَّ الموت سببُ النَّقل إلى دار الجزاء والثَّواب[2].

الغرضُ من تنكيرِ الخبرِ ﴿فَانٍ﴾:

التَّنكير لإفادة العموم، وللتَّهويل والتَّخويفِ

جاءتْ كلمةُ ﴿فَانٍ﴾ نكرةً؛ لإفادةِ العموم والشُّمولِ، وفي تنكيرها كذلك من التَّهويل والتَّخويف ما يَردَعُ الكافرينَ المُكَذِّبينَ بالآلاءِ والنِّعم، ويحثُّهم على معاودةِ التَّفكُّر والتَّدبُّر في هذه النِّعم الجزيلة والآلاء العظيمة.

معنى الواوِ ودلالتُها في ﴿وَيَبۡقَىٰ﴾:

الفناء الحتميُّ للمخلوقين، والبقاءُ السَّرمديُّ لله الواحدِ القهّار

وصل النَّظم الحكيم بين الجُملتَين بالواو؛ للتَّوسُّط بين الكمالَين، كمالِ الاتِّصال وكمالِ الانقطاع، فقد اتَّفقت الجُملتان في الخبريَّة لفظًا ومعنًى في قوله: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، ووُجِدَت المناسبةُ المُسوِّغةُ للعطف، وهو التَّضادُّ بين المعنَيين، وهو الفناء الحتميُّ للمخلوقين، والبقاءُ السَّرمديُّ للّه الواحدِ القهّار، ولم يمنع من العطف مانعٌ، ولذا وصل بينهما، فأسهم العطفُ في إبراز قُدرة اللّه ﷻ في أسمى معانيها، فلا يقدر على جمعِ تلك الأضداد إلّا الخالقُ القادر المهيمن، ذو السُّلطانِ والمُلْك[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

استمرارُ البقاءِ الأزليِّ السَّرمديِّ للهِ وتجدُّدُه

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ آثَرَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 355.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 17/ 164.
(3) بسيوني فيود، علم المعاني، ص: 475.

النَّظمُ الحكيم التَّعبيرَ بالجملةِ الفعليَّةِ في ﴿وَيَبۡقَىٰ﴾، وعدلَ عن التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة، كما في الجملة السّابقة: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ﴾، فلم يقل: (والباقي هو اللّٰهُ ذو الجلال والإكرام)؛ وذلك لأنَّ الجملةَ الفعليَّةَ تُفيدُ الاستمرارَ والتَّجَدُّدَ، في مقابل الجملةِ الاسميَّة التي تُفيدُ الثَّباتَ والحتم، ففناءُ المخلوقاتِ حتمٌ لازمٌ، وهو أمرٌ ثابتٌ قارٌّ لا مفرَّ منه، وبقاءُ اللّٰهِ تعالى، وإن كان هو أيضًا لازمًا أبدًا، فإنَّ التَّعبير بالجملة الفعليَّةِ يفيدُ أنَّ بقاءه تعالى يتَّسم بالاستمرارِ والتَّجدُّدِ، على نقيضِ الفناء في حقِّ المخلوقينَ.

دلالةُ التَّعبير بالإثبات دون النَّفْي:

التَّعبير بالإثبات أرسخُ في الأذهانِ وأقربُ للعقولِ

عبَّرَ النَّظمُ الجليلُ عن بقاء اللّٰهِ تعالى بأسلوب الإثباتِ، فقال: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾، وعدلَ عن النَّفي، فلم يقل: (ولا يبقى إلّا وجهُ ربِّك)؛ وذلك لما في استمرارِ وجوده تعالى من بداهةٍ تقتضي الإثباتَ دونَ النَّفي، فالتَّعبير على هذا النَّحو أرسخُ في الأذهانِ وأقربُ للعقولِ، ولأنَّه إذا ثبت عند المؤمنين الموحِّدين وجودُه - وهو ثابت على كلِّ حال - فمِن مقتضيات هذا الوجود أن يثبت أبدًا، فلا مجالَ البتَّةَ لعقلٍ آمنَ بوجوده إلى نفي هذا الوجود في لحظة من لحظات الدَّهرِ الذي هو خَلۡقٌ من خَلۡقه، فهو سبحانه واجبُ الوجود، لا أوَّلَ له ولا بدايةَ، فلم يسبق وجودَه عدمٌ، ولم يَخۡلُ لحظةً عن الوجود، فهو سبحانه الإلهُ الواحدُ المعبود بحقٍّ، لا يجوز عليه العدمُ أزلًا، ولا يجوز عليه العدمُ أبدًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ بين ﴿وَيَبۡقَىٰ﴾ و﴿فَانٖ﴾:

أرشدَ الطِّباقُ إلى سرمديَّة الله تباركت آلاؤه

جاءَ الطِّباقُ بين اسم الفاعلِ ﴿فَانٖ﴾، والفعلِ ﴿وَيَبۡقَىٰ﴾، مُبرِزًا لقُدرةِ اللّٰهِ تعالى وعظَمتِه وسطوته، فقد أسهم الطِّباق في بيان أنَّهُ تعالى قد قضى بالفناء على كلِّ موجودٍ على ظهر البسيطة، في حين

تفرَّد هو بالعظَمة والجلال والبقاء السَّرمديِّ، فأوضح الطِّباقُ هذه الحقيقةَ الإلهيَّة البالغة، المُرشدةَ إلى ضرورة إفراده ﷻ بالعبادة والتَّعظيم والإجلال والإكرام.

بلاغةُ الافتنانِ في الآيتَين:

الجمع بين الفناء والبقاء، والتَّعزيَة والفخر

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ فنُّ الافتنانِ، وهو التَّصرُّفُ في الكلامِ بالإتيانِ بفَنَّيْنِ متفاوتَين من فنون الكلام(1)، فقابلَ بين الفناء والبقاء من ناحيةٍ، وجمعَ بين التَّعزيةِ والفخرِ من ناحية أخرى؛ إذ عَزَّى جميعَ المخلوقاتِ، وتمدَّحَ بالانفرادِ بالبقاء بعد فناءِ الموجودات، مع وصف ذاته بعد الانفراد بالجلالِ والإكرام(2).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمجازِ المُرسلِ في ﴿وَجۡهُ رَبِّكَ﴾:

ذِكرُ الوجهِ مجازٌ عن ذاتِه العليَّة تعالى

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن ذات اللّهِ تعالى بالوجهِ، فالمقصود بـ﴿وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ ذاتُه، فذِكْرُ الوجهِ هنا جارٍ على عُرف كلامِ العرب، وقد أُضيفَ إلى اسمه تعالى لفظُ الوجهِ بمعانٍ مختلفة، منها ما هنا، ومنها قولُه: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 115]، وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: 9]، وقد علمَ السّامعون أنَّ اللّهَ تعالى يستحيل أن يكون له وجهٌ بالمعنى الحقيقيِّ، وهو الجزء الذي في الرَّأس، واصطلح علماءُ العقائد على تسمية مثلِ هذا بالمتشابه، وكان السَّلف يُحْجِمون عن الخوض في ذلك مع اليقين باستحالة ظاهرِه على اللّه تعالى، ثمَّ تناولَهُ علماءُ التّابعين ومَن بعدَهم بالتَّأويل تدريجيًّا، إلى أنِ اتَّضح وجهُ التَّأويل بالجَرْي على قواعد علم المعاني، فزالَ الخفاء، واندفع الجَفاء، وكلا الفريقين خيرَةُ

(1) أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها: 1/ 264.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 28/ 310.

الحنفاء[1]، فالإضافةُ بيانيَّةٌ، وحقيقةُ الوجهِ في الشّاهد الجارحةُ، واستعمالُه في الذّات مجازٌ مرسلٌ، كاستعمالِ الأيدي في الأنفس، وهو مجازٌ شائع، وقيل: أصلُه الجِهة، واستعمالُه في الذّات من باب الكِناية، وتفسيرُه بالذّاتِ هنا مبنيٌّ على مذهب الخَلَف، وتعيينُ المُراد في مثل ذلك دونَ مذهب السَّلفِ.

وقيل: الوجه بمعنى القصدِ، ويراد به المقصودُ، أي: ويبقى ما يُرادُ به وجهُ اللّهِ، ويبقى ما يُقْصَدُ به ربُّك ﷻ من الأعمال، وأقربُ منه ما قيل: وجهه تعالى الجِهةُ التي أمرنا ﷻ بالتَّوجُّه إليها، والتَّقرُّب بها إليه سبحانه، ومرجِعُ ذلك العمل الصّالح أيضًا، واللّٰهُ جلَّ شأنُه يُبقيه للعبد إلى أن يجازيَه عليه[2].

تحديد مرجع الضَّمير في ﴿رَبِّكَ﴾ ودلالتُهُ:

الظّاهر أنَّ الخطاب في قوله: ﴿وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ للرَّسولِ ﷺ، وفيه تشريفٌ عظيم له، والمقصودُ: تبليغُه إلى الذين يُتلَى عليهم القرآنُ؛ ليَذَّكَّروا، ويعتبِروا، وقيل: الخِطاب لكلِّ سامع، ليَعُمَّ كلَّ مخاطَبٍ[3].

الخِطابُ إمّا تعظيم لرسول اللهِ ﷺ، أو لكلِّ سامعٍ للعموم

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ مُضافًا لكافِ الخِطابِ:

في التَّعبير بالرُّبوبيَّةِ بيانٌ لعنايته سبحانه

في قوله تعالى: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ الرُّبوبيَّةِ مُضافًا إلى ضمير الخطاب؛ إشارةً إلى أنَّه سبحانه المُربّي لرسول اللّهِ خاصَّةً، بالرِّسالة والتَّرقية بهذا الوحي، إلى ما لا يُحَدُّ من المعارف، أو هو سبحانه المُتولّي لتربية المخاطَبينَ عامَّةً، وكذلك فإنَّ التَّعبير بالرَّبِّ إشارةٌ إلى أنَّ البلوغ إلى مرتبة الفناء عن غيره تعالى، إنَّما يتحصَّل بتربية اللّه ﷻ وبتأييده، فإنَّ هذا المقامَ منتهى درجةِ العارفين باللّه وأوليائِه المُقَرَّبين[4].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 253.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 107.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 62، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 253.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 166.

في الإضافة من اللُّطف ما يناسبُ مقامَ تعديد النِّعم

وكذلك فقد عدلَ النَّظمُ عن عدمِ الإضافة مطلقًا، فلم يقُلْ: (ويبقى وجهُ الرَّبِّ)؛ وذلك لأنَّ في إضافةِ الضَّمير إلى الرَّبِّ تعالى إشارةً إلى اللُّطف، والموضعُ موضعُ بيانِ اللُّطفِ وتعديد النِّعم، فلو قال بلفظ الرَّبِّ لم يدلَّ عليه الخطاب، وفي لفظِ الرَّبِّ عادةٌ جاريةٌ، وهي أنَّه لا يُترَك استعمالُه مع الإضافة، فالعبدُ يقولُ: (رَبَّنا اغفِرْ لَنا)، و(رَبِّ اغفِرْ لي)، واللّه تعالى يَقولُ: ﴿رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ﴾ [الشّعراء: 26]، و﴿رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢﴾ [الفاتحة: 2]، وعندما ترك الإضافة؛ ذَكرَهُ مع صفةٍ أُخرى من أوصافِ اللَّفظِ، فقالَ تعالى: ﴿بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥﴾ [سبأ: 15]، وقالَ أيضًا: ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ ٥٨﴾ [يس: 58][1].

سرُّ التَّعبير بالرُّبوبيَّةِ دونَ الأُلوهيَّةِ:

المقصودُ هاهُنا التَّربيةُ بالنِّعم

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بإضافةِ الوجهِ إلى الرُّبوبيَّةِ دون الأُلوهيَّةِ ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ﴾، رغمَ أنَّهُ في مواضعَ أُخرى عبَّرَ بإضافةِ الوجه إلى الأُلوهيَّة كما في قولِه: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 115]، وقال: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ [الرّوم: 38]؛ وذلك لأنَّ المُراد في الموضعَينِ المَذكورَينِ هو العبادةُ، فأمّا قولُه: ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: 115] فظاهرٌ؛ لأنَّ المذكورَ هناكَ الصَّلاةُ، وأمّا قَوْلُهُ: ﴿يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ﴾ [الروم: 38]؛ فالمذكورُ هو الزَّكاةُ، قال تعالى مِن قَبلُ: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾ [الرّوم: 38]، ولفظُ (اللّه) يدلُّ على العبادةِ؛ لأنَّ اللّه هو المعبودُ، والمذكورُ في هذا الموضعِ النِّعَمُ التي بها تربيةُ الإنسانِ، فقال: ﴿وَجۡهُ رَبِّكَ﴾[2].

دلالةُ إفرادِ الخطاب دونَ التَّثنية:

آثَرَ البيانُ إفرادَ الضَّمير في قولِه: ﴿وَجۡهُ رَبِّكَ﴾ دون تثنيته، كما هو ديدَن السّورةِ عمومًا؛ وذلك لأنَّ المعنى: أيُّها السّامع لا تلتفت

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 356.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 356.

في الإفرادِ دعوةٌ ليتدبَّرَ كلُّ إنسانٍ حالَه دونَ أحوالِ غيرِه

إلى أحدٍ غير الله تعالى، فإنَّ كلَّ مَن عَداه فانٍ، والمخاطَبُ كثيرًا ما يخرجُ عن الإرادة في الكلام، ولو قال: (وجهُ رَبِّكُما)؛ لكانَ كلُّ واحدٍ يُخرج نفسَه ورفيقَه المخاطَب من الفناءِ[1].

سِرُّ الوَصفِ بـ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ودلالة العطفِ:

الجلالُ والإكرامُ كناية عن حُكمِه العدلِ بالثَّواب والعقاب

وصَفَ البيانُ القرآنيُّ قولَه: ﴿وَجْهُ رَبِّكَ﴾ بأنَّهُ: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، والسِّرُّ في ذلك أنَّه تعالى لمّا ذَكرَ أنَّه قد قضى على كلِّ مخلوقاتِه بالفناء؛ أتبعَ ذلك بما يُحَقِّق العدلَ المُطلقَ التّامَّ الذي هو صِفَتُه، فهو تعالى يبعثهم مرَّةً أخرى، فيصيرون إلى الدّار الآخِرة، فيَحْكُم فيهم ذو الجلالِ والإكرام بحُكمه العَدل، فالمُراد هاهنا ملزومُ معناها؛ لأنَّها كناية عن مجيء وقتِ الجزاء، وهو من أجلِّ النِّعم، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ١٦﴾ [المؤمنون: 15 - 16]؛ ولذلك خصَّ الوَصْفَين بالذِّكر، يعني: الجلالَ والإكرامَ؛ لأنَّهما يَدُلّان على الإثابة والعقاب[2].

الوصفُ بالجلال والإكرام نفيٌ للتَّشبيه والتَّجسيم عن ذاته العليَّةِ

وذهب آخرون إلى أنَّ الوصف بـ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ تنبيهٌ على التَّنزيه عمّا قد يوهِمُه ذِكْرُ الوجهِ مع المحسوسات، فيقيس بعضُهم ذاتَه العَلِيَّة بالشّاهد الذي كلُّه نقصٌ وحاجةٌ، وهو تعالى لا تُدرِكه الأبصارُ، ولا تُحيط به الأوهام، ولا تعتريه حاجةٌ، ولا يُلِمُّ بجنابه الأقدسِ نقصٌ، فأثبت له الوصفُ الجليلُ العظَمةَ التي لا تُرام، وهو صفة ذاته التي تقتضي إجلالَه عن كلِّ ما لا يليق به، والإحسان العام، وهو صفةُ فعلِه[3]، وأكَّدوا ذلك بأنَّه لّما كان الوجهُ هنا بمعنى الذّات؛ وُصِف بأنَّه ذو العظَمة والإنعام على عباده، وإلّا فإنَّ الوجه الحقيقيَّ لا يضاف للإكرام في عُرف اللُّغة، وإنَّما يُضاف للإكرامِ اليدُ، أي: فهو لا يَفْقِده عبيدُه، وقد

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 356.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 15/ 162.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 165.

دخلت في الجلال جميعُ الصِّفات الرّاجعة إلى التَّنزيه عن النَّقص، وفي الإكرام جميعُ صفاتِ الكمال الوجوديَّة وصفاتِ الجمال كالإحسان(1).

بَيانُ المرادِ بـ (الآلاءِ) في هذا الموضعِ:

المساواةُ في مصير الفناء، والبعث للثّواب والعقاب، من أعظم النِّعمِ

بعد أنْ ذكرَ تعالى قضاءَه بالفناء على كلِّ خَلْقه، وبقاءَه وحدَه فردًا صمدًا أزلًا سرمدًا، فلا يعتريه نقصٌ بعد فناءِ الخَلْق؛ عقَّبَ بذِكر قولِه: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فذهب بعضُهم: إلى أنَّه ليس في الفناء نعمةٌ سوى الاعتبارِ(2).

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفناء والموت والهلاك:

الفناءُ تغيُّرُ خصائصِ الشَّيءِ؛ تمهيدًا لدخوله حيِّزَ العدمِ

الفَناءُ: نَقيض البَقاءِ، وتَفانَى القومُ قَتْلًا: أفنَى بَعضُهم بعضًا، وفَنِيَ يَفْنَى فناءً: هَرِمَ، وأشرف عَلى المَوتِ هَرَمًا(3)، والفَناءُ: نَفادُ الشَّيءِ(4)، والمعنى المِحوريُّ: فقدُ النَّفعِ الأساسيِّ للشَّيء؛ لزيادة امتدادِه مكانًا أو زمانًا(5)، والفَناء هاهُنا: الاضمحلالُ والتَّلاشي، والانعدام، والزَّوال، والهلاكُ، والموتُ، أي: لِكلِّ من على ظهر الأرض.

وأمّا المَوتُ؛ فعَرَضٌ يُضادُّ الحَياةَ مُضادَّةَ القتلِ، ولا يكون إلّا من فِعلِ اللّهِ تعالى، والمَوْت يَنْفي الحَياةَ مَعَ سَلامَة البِنية، ولا بُدَّ في القَتْل من انِتقاض البنية، ويستعارُ المَوْتُ في أشياءَ، فيُقالُ: ماتَ قلبُه؛ إذا صارَ بَليدًا، وماتَ المَتاعُ، أي: كَسَدَ، وماتَ الشَّيْءُ بَينهُم: نَقَصَ، وحظٌّ مَيِّتٌ: ضَعيفٌ، ونباتٌ مَيِّتٌ: ذابلٌ، ووَقع في الماشيةِ مَوَتانٌ؛ إذا تَماوَتَتْ، ومَوَتانُ الأَرْضِ؛ إذا لَم تُعْمَرْ(6).

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 253.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فنى).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (فني).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (فنى).
(6) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 104.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرحمن: 29 - 30]

مُناسَبَةُ الآيتين لما قبلهما:

حتميَّةُ الفناءِ في حقِّ المخلوقين دليلٌ على شِدَّةِ احتياجهم

لمّا كان أدلَّ دليلٍ على العدمِ الحاجةُ، وعلى دوامِ الوجودِ الغِنى؛ أشارَ إلى مبلغِ احتياجِ الخَلق له تعالى، وسؤالِهم إيّاه، فكلُّ الخَلقِ في السَّماوات والأرضِ، من ناطقٍ أو صامتٍ، بلسانِ الحالِ أو المقالِ أو بهما، يَصْمُدون إليه بحوائِجهم، ولمّا كان كأنَّهُ قيل: فماذا يفعلُ عند السُّؤالِ، وعبَّر بأقلِّ الأوقاتِ المحدودة المحسوسة - وهو اليوم - عن أقلِّ الزَّمانِ، كما عبَّر به عن أخفِّ الموزونات بالذَّرَّة، فقال مجيبًا لذلك، بأنَّهُ لا يخلو وقتٌ من الأوقاتِ من احتياجهم وسؤالهم له تعالى، وفيه ردٌّ على اليهود - لعنةُ الله وغضبُه عليهم - حيث قالوا في السَّبت ما هو منافٍ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: 38]، وقولِه: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: 255]، فلا يخلو يومٌ من أيام الدَّهر بحسابِ الثَّقلين من إحداثِ أعيانٍ وتجديدِ معانٍ أو إعدامِ ذلك، وهي شؤونٌ يُبْدِيها، لا شؤونٌ يَبْتَدِيها، تَتَعَلَّقُ قدرتُه على وفق إرادته على ما تعلَّق به العِلْم في الأزل، أنَّه يكون، أو يُعْدَم في أوقاته، فكلُّ شيءٍ قانتٌ له، خاضعٌ لديه، ساجدٌ لعظَمته، شاهدٌ لقدرته، دالٌّ عليه، مصداقَ قولِه: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: 44]، وذلك التَّعبير - مع أنَّه من أجلِّ النِّعَم - أدلُّ دليلٍ على صفاتِ الكمال له، وصفاتِ النَّقص للمتغيّراتِ، وأنَّها عدمٌ في نفسها، ولأنَّها نِعَمٌ قال: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، فهو المُربّي للثَّقلَينِ بهذا التَّدبير العظيم

لكلِّ ما يُصلحُهما، فهل تُكَذِّبانِ بنعمة السَّمعِ أو غيرها، من تصريفه إيّاكم فيما خلقكم له[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ﴾: (سأل) أصل واحد، يُقال: سأل يسأل سؤالًا ومسألةً[2]، والمعنى المِحوريُّ: استخراجُ ما في حوزةٍ أخرى، أي: طَلَبُ تحصيله بَدفْعٍ أو حَثٍّ، وخلاصةُ معنى هذا التَّركيب هو الطَّلب، إما طلبُ شيءٍ، أي: تحصيلُه، أو طلب عِلمٍ، أي: معلومةٍ[3]، والسُّؤالُ: استدعاءُ معرفة، أو ما يُؤَدّي إلى المعرفة، واستدعاءُ مالٍ، أو ما يؤدّي إلى مالٍ، فاستدعاءُ المعرفة جوابُه على اللِّسان، واليد خليفةٌ له بالكتابة، أو الإشارة، واستدعاءُ المال جوابُه على اليد، واللِّسان خليفة لها؛ إمّا بوعد، أو بردٍّ، والسُّؤالُ للمعرفة يكون تارةً للاستعلام، وتارةً للتَّبكيت[4]، والمعنى هاهُنا: أنَّ الكلَّ يَحتاجون إليهِ، فيسألونه، وهو غنيٌّ عنهم[5].

2) ﴿شَأۡنٖ﴾: (شأن) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ابتغاءٍ وطلبٍ، من ذلك قول العرب: شَأَنْتُ شَأْنَهُ، أي: قَصَدْتُ قصدَه، ومن ذلك قولهم: ما هذا مِن شَأني، أي: ما هذا من مطلبي والذي أبتغيه، وأمّا الشُّؤون؛ فما بين قبائل الرَّأسِ، الواحدُ شأنٌ، وإنَّما سُمّيت بذلك؛ لأنَّها مجاري الدَّمعِ، كأنَّ الدَّمعَ يطلبُها، ويجعلُها لنفسه مسيلًا[6]، والشَّأْنُ: الأمرُ والحالُ[7] الذي يتَّفق، ويصلح، ولا يقال إلّا فيما يعظُم من الأحوال والأمور، قال اللّه تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾[8]، والمعنى المِحوريُّ: فُروعٌ أو شُعُبٌ دقيقةٌ تمتد في أثناءٍ أو منها مع وصلٍ أو توصُّل، والشّأْن: الخَطْب والأمر والحال، وهو شعبة من الأمور الخاصَّة أو الجارية التي تنشأ، كما في قولِ اللّهِ: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 167 - 168.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سأل).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سأل).
(4) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (سأل).
(5) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/ 210.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (شأن).
(7) الجوهريّ، الصّحاح: (شأن).
(8) الرّاغب، مفردات القرآن، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شأن).

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: 61]، وكلُّ (شأن) في القرآن فهو بهذا المعنى[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الخلقُ جميعًا محتاجونُ إلى فضلِ اللهِ

بيَّنَتِ الآيتان أنَّ اللّهَ تعالى هو المقصودُ بالسُّؤال في السَّماواتِ والأرضِ، فالخَلقُ جميعًا محتاجونَ إلى فضله وإحسانه، فكلُّ الخلقِ يسألونه سؤالَ الفقيرِ للغنيِّ، والضَّعيفِ للقويِّ، ومن لا يملكُ أيَّ شيء، لمن يملك كلَّ شيءٍ، فكلُّ من في السَّماوات والأرض مستمِدٌّ من فضل اللّه، سألَ، أو لم يَسألْ، فإن لم يسأل بلسانه؛ فقد سأله بحالِه، وهذه المِنَن والعطايا التي تعيش فيها المخلوقات، وتحفظ عليها وجودها، هي من عند اللّه، ومن واسع رحمتِه، يجود بها عليها، فالسُّؤال هنا كناية عن الحاجة، وكلُّ مخلوق في حاجة أبدًا إلى عون اللّه، وإلى أمداد إنعامه وإحسانِه، ثمَّ بيَّنتْ أنَّه تعالى، في تصريف وتدبير للخَلْق، في كلِّ يوم، بل في كلِّ لحظة، فذلك شأنُ المالك فيما ملك، والخالقِ لما خَلَق، لا يغفل أبدًا عن مُلْكه، فليس الوجودُ مجرَّدَ آلةٍ تدور على وجهٍ واحدٍ لا يتغيَّر أبدًا، بل هو في كلِّ آنٍ من آونة الزَّمن في تجدُّد دائم، وفي حركة دائبة، دون أن يقع في نظامه خلل أو اضطراب، وهذا برهانٌ على أنَّ لهذا الوجود إلهًا قادرًا، عالمًا حكيمًا، يغيِّر فيه، ويُبدِّل كيف يشاء، له وجودٌ مُؤثِّر في الحياة، فهو سبحانه حيٌّ حياةً أبديَّةً سرمديَّةً، وليس هذا التَّبدُّلُ والتَّحوُّلُ في أحوال النّاس، وفي صور الموجودات، هو ممّا يُحْدِثه اللّهُ سبحانه حين يَحْدث، وإنَّما هي أمور واقعة في عِلم اللّه القديم، مسطورةٌ في كتابه المكنون، فيُظْهِر منها ما يُظْهِر في الوقت المَقدور له، وعلى الصّورة التي أرادها ﷻ أزلًا، فهي أمورٌ يُبديها، ولا يَبتديها[2]، فبأيِّ نعمةٍ من نِعَم اللّه وآلائه

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 110، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شأن).
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 14/ 676 - 678.

تُكَذِّبان؟ فإنَّ اختلافَ شؤونه في تدبير أحوالِ عبادِه وشؤونهم نعمةٌ لا يمكن جَحْدُها، ولا يتَيسَّر لِمُكَذِّب تكذيبُها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ مَوْقِعِ جملةِ: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾ من الإعرابِ:

الجملةُ إمّا امتنانٌ بإجابة سؤال، أو بيانٌ لجلال وجهه

في الموقعِ الإعرابيِّ لقولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ وجهان، أحدهما: أنَّ الجملةَ مستأنَفَةٌ. والثّاني: أنَّها حالٌ مِنْ ﴿وَجۡهُ﴾، والعاملُ فيه (يَبْقَى)، أي: يَبْقَى مَسؤولًا مِنْ أهلِ السَّماواتِ والأرضِ[2]، وعلى الوجه الأوَّل، فصَلَ النَّظْمُ الحكيمُ بين هذه الجملةِ وسابقتها، وهي قولُ اللّهِ تعالى: ﴿كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٖ ٢٦ وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾؛ لأنَّ الامتنانَ بإجابة سؤال الخَلْقِ في كلِّ لحظة من لحظات الدَّهرِ حُجَّةٌ كافيةٌ وحدَها؛ لبيانِ قدرته وسطوته وعظَمته من ناحية، ورحمتِه ولطفِه من ناحية أخرى، وعلى الوجه الثّاني: فالجملة بيانٌ لجلال وجهه وإكرامِ ذاتِه، بأنَّهُ الذي تَصْمُدُ إليه حاجاتُ الخلائقِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَسْـَٔلُهُۥ﴾ دون (يطلبُ):

السُّؤال إمّا سؤال استعطاءٍ أو استعلامٍ أو طلبٍ واستخراجٍ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ في قولِه تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ باستعمالِ (سأل) دون (طلب)؛ وذلك لاشتمال (سأل) على عدد من المعاني، **الأوَّلُ:** أنَّهُ سؤالُ استعطاء، فيسأله كلُّ أحدٍ الرَّحمةَ وما يحتاجُ إليه في دينِه ودنياه، فالخَلْقُ قاطبةً يطلبون منه تعالى ما يحتاجون إليه في ذواتهم حدوثًا وبقاءً، وفي سائر أحوالهم، سؤالًا مستمرًّا بلسان المقالِ أو بلسانِ الحالِ، فإنَّهم كافَّةً من حيثُ حقائقُهم الممكنةُ بمعزلٍ من استحقاقِ الوجودِ وما يتفرَّع عليه من الكمالاتِ بالمَرَّة، بحيثُ لو انقطع ما بينهم وبين العناية

---

(1) وهبة الزّحيليّ، التّفسير المنير: 27/ 211.

(2) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 10/ 168.

الإلهيَّة من العلاقة؛ لم يَشَمّوا رائحةَ الوجودِ أصلًا، فهم في كلِّ آنٍ سائلون[1]. **وثانيها**: أنَّه سؤالُ استعلام، أي: عنده علم الغيب لا يعلمه إلّا هو، فكلُّ أحدٍ يسأله عن عاقبةِ أمره، وعمّا فيه صلاحُه وفسادُه، أو هو سؤال الملائكة كلَّ يوم: إلَهَنا ماذا نفعل؟ وبماذا تأمرنا؟ وذلك بعد الفناء أو قبلَه. **وثالثها**: أنَّ ذلك سؤالُ طلبٍ واستخراجِ أمرٍ، فلا معطيَ سِواه، ولا رازقَ غيرُه تعالى[2].

الغَرضُ من التَّعبيرِ بالفاعل اسمَ موصولٍ ﴿مَن﴾:

السُّؤال ممَّن يعقِلُ أصالةً

آثرَ النَّظمُ الحكيمُ التَّعبيرَ بالفاعلِ اسمًا موصولًا دالًّا على العقلاءِ، وهو ﴿مَن﴾؛ لأنَّ المقصود بيانُ المِنَّةِ على العقلاءِ في المقامِ الأوَّلِ، وهم المخاطَبونَ أصالةً في السّورةِ الكريمةِ، وهم الثَّقلانِ، وكذلك لأنَّهم المخاطَبونَ بالنِّعم والآلاءِ في الآياتِ السّابقةِ، وهم المَوْعودون بالجزاءِ في الآياتِ التّالية.

بلاغَةُ التَّعبيرِ بالطِّباقِ في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

اللهُ تعالى مقصدُ السّائلينَ في السَّماواتِ، كما هو مقصدُ السّائلينَ في الأرضِ

في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ جاءَ الطِّباقُ بين السَّماوات والأرضِ مُبرزًا؛ لكونهِ تعالى مَقصِدَ السُّؤال في السَّماواتِ، كما هو مَقصِدُ السُّؤال في الأرضِ، فهو سبحانه المقصودُ بالسُّؤال في كلِّ مكانٍ، كما هو سبحانه المقصود بالسُّؤال في كلِّ زمانٍ، فالاحتياج عامٌّ في أهل الأرض وأهل السَّماء، فالجميعُ يسألونه، فسؤالُ أهلِ السَّماوات، وهم الملائكة: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ [الشورى: 5]، ويسألون رضا اللّه تعالى، ومن في الأرض، وهم البشر، يسألونه نِعَمَ الحياة والنَّجاةَ في الآخرة، ورفعَ الدَّرجاتِ في الآخرة[3].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 110.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 358.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 254.

الغرض من حذف المفعولِ الثّاني: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ﴾:

الحذف لإفادةِ العمومِ

حذفَ النَّظمُ الجليلُ المفعول الثّاني من: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ﴾؛ لإفادة التَّعميم، أي: يسألونه حوائجَهم ومهامَّهم من طلوع الشَّمس إلى غروبها[1]، فالغرضُ توفيرُ العنايةِ على كونه سبحانه مطلوبًا منه كلُّ الحوائج، والنَّص على المطلوب تحجيرٌ للمعنى؛ لذا فالحذفُ مطلوبٌ لاتِّساع المعنى.

الموقع الإعرابيُّ لقولِه: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾، وثراءُ المعنى:

دوامُ رعايةِ اللهِ لخَلْقِه في كلِّ يومٍ وساعةٍ

يجوز أن تكون الجملة حالًا من ضمير النَّصب في ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ﴾، أو تذييلًا لجملة: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، أي: كلَّ يوم هو في شأن من الشُّؤون للسّائلين وغيرهم، فهو تعالى يُبْرِم شؤونًا مختلفةً من أحوال الموجودات دوامًا، ويكون ﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾ ظرفًا متعلِّقًا بالاستقرار في قولِه: ﴿هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾[2].

دلالةُ التَّقييدِ باليومِ دونَ غيرِه:

اليومُ أقلُّ وحداتِ الزَّمانِ صلاحيَّةً للمقامِ

جاء التَّقييدُ باليومِ في الآيةِ؛ لأنَّهُ لمّا كانَ اليومُ أقلَّ الأوقات المحدودة المحسوسة؛ عبَّر به عن أقلِّ الزَّمانِ، كما عبَّر عن أخفِّ الموزونات بالذَّرَّةِ، والمرادُ: في أيِّ وقت من الأوقات عامَّةً، ومن يوم السَّبتِ خاصَّةً؛ لأنَّ اليهود قالوا في السَّبت ما هو منافٍ لقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ٣٨﴾ [ق: 38]، فبيَّنتِ الآيةُ أنَّ له في كلِّ يوم شأنًا مختلفًا، من إحداث أعيانٍ وتجديدِ معانٍ أو إعدام ذلك[3]، وقيل: المرادُ باليوم هاهنا الوقتُ أو اللَّحظة من الزَّمن[4]، فهو سبحانه يُنْفِذُ ما قَدَّرَ أن يكونَ ممّا سبقَ في علمِه، وأثبتَه في اللَّوح المحفوظِ، وليس هو إحداثَ

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 254.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 254.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 167.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 62، والصّاويّ، حاشية الصّاويّ على تفسير الجلالين: 6/ 503.

أمرٍ لم يتقدَّم في عِلْمِه، بل جرى القَلَمُ بما هو كائنٌ إلى يوم القيامةِ، لا يُزادُ في ذلك، ولا يُنقَصُ، لكنَّه تعالى يُثْبِتُ ما يشاء، ويمحو ما يشاء، وكلُّ ذلك تَقَدَّم عِلْمُه به بلا أمَد(1).

دلالةُ المجازِ في ﴿يَوۡمٍ﴾:

المُـرادُ بـاليـومِ مُطلَقُ الزَّمنِ

﴿يَوۡمٍ﴾ مستعملٌ مَجازًا في الوقت بعلاقة الإطلاق؛ إذِ المعنى: كلَّ وقتٍ من الأوقات ولو لحظةً، وليس المُرادُ باليوم الوقتَ الخاصَّ الذي يمتد من الفجر إلى الغروب، وإطلاق اليوم ونحوِه على مُطلَقِ الزَّمان كثيرٌ في كلام العرب، كقولهم: الدَّهر يومان: يومُ نُعْمٍ ويومُ بُؤْسٍ(2).

سرُّ تقديم ﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾:

الاهتمامُ بإفادةِ تـكـرُّرِ العـنـايـةِ الرَّبَّانيَّةِ

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الظَّرفَ ﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾ على ما فيه متعلَّقُه؛ للاهتمام بإفادة تكرُّر ذلك ودوامِه، والمعنى: في شأن من شؤونِ مَن في السَّماوات والأرض، مِنِ استجابة سؤالٍ، ومن زيادةٍ، ومن حِرمانٍ، ومن تأخيرِ الاستجابة، ومن تعويضٍ عن المَسؤولِ بثوابٍ(3).

مَرْجِعُ الضَّميرِ في ﴿هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ ودلالَتُه:

بيانُ كثرةِ شؤونِه تعالى في الدُّنيا

للعلماء في مرجع الضَّمير ﴿هُوَ﴾ في قولِه: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ قولانِ، **الأوَّلُ**: أنَّهُ عائدٌ على اللّٰهِ تعالى، وعليه اتِّفاق المفسِّرين، ويدلُّ عليه ما رويَ عنِ النَّبيِّ ﷺ في تفسير هذه الآيةِ، حيث قال: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، ويُفَرِّجَ كَرْبًا، ويَرْفَعَ قَوْمًا، ويَخْفِضَ آخَرِينَ»(4)، **والقولُ الثّاني**: أنَّ الضَّميرَ ﴿هُوَ﴾ عائدٌ إلى ﴿يَوۡمٍ﴾، و﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾ ظرفُ سؤالِهم، أي: يقع سؤالُهم في كلِّ يوم، وتكونُ جملةُ ﴿هُوَ فِي

---

(1) مكّي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 11/ 7223.

(2) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 255.

(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 27/ 254.

(4) أخرجه ابن ماجه في سننه، برقم: (207)، والأرجح وقفه على أبي الدرداء، كما في صحيح البخاريّ، كتاب التّفسير، تفسير سورة الرّحمن.

﴿شَأۡنٖ﴾ جملةٌ وُصِفَ بها ﴿يَوۡمٍ﴾، وهو نَكِرةٌ، كما يقال: يسألني فلانٌ كُلَّ يوم، هوَ يومُ راحتي، وقولُه: ﴿هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ يكون صفةً مميِّزةً للأيامِ التي فيها شأنٌ عن اليوم[1]، والأوَّلُ أرجحُ، والمُراد: بيان كثرةِ شؤونه تعالى في الدُّنيا، فـ﴿كُلَّ يَوۡمٍ﴾، على معنى: كلَّ وقتٍ من أوقات الدُّنيا[2].

مَعْنَى ﴿فِي﴾، ودلالَتُها في قَوْلِه: ﴿فِي شَأۡنٖ﴾:

ثبوتُ التَّصرُّفِ أبدًا وأزلًا للهِ ﷻ

معنى ﴿فِي﴾ في قولِه: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ تقويةُ ثبوتِ الشُّؤون للّه تعالى، وهي شؤون تَصَرُّفِه ومظاهرُ قُدرتِه، كما قال بعضهم: شُؤونٌ يُبديها، لا شؤونٌ يَبْتَديها[3].

المرادُ بـ﴿شَأۡنٖ﴾، والغَرض من تنكيرِها:

الشَّأنُ هو الأمرُ العظيمُ الجليلُ، والتَّنكيرُ لإفادةِ العمومِ والشُّمولِ

عبَّرَ النَّظم الجليلُ عن رعايةِ اللّهِ تعالى لخَلْقه بلفظ ﴿شَأۡنٖ﴾، والمرادُ بالشَّأنِ الأمرُ والحالُ[4]، الذي يتَّفق، ويصلح، ولا يقال إلّا فيما يَعظُم من الأحوال والأمور[5]، وجاءَ بِه نكرةً لإفادةِ العموم، فشمل كثيرًا من وجوه العطاءِ والإنعامِ والتَّفضُّل، فهو تعالى يُغْني فقيرًا، ويَجْبُرُ كسيرًا، ويُعطي قومًا، ويمنعُ آخرين، ويميتُ، ويُحيي، ويَرفعُ، ويَخفضُ، لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ، ولا تُغْلِطُه المسائلُ، ولا يُبْرِمُه إلحاحُ المُلِحّين، ولا طولُ مسألةِ السّائلين، فسبحانَ الكريمِ الوهّاب، الذي عمَّت مواهبُه أهلَ الأرضِ والسَّماواتِ، وعمَّ لطفُه جميعَ الخَلْق في كلِّ الأوقاتِ واللَّحظات، وتعالى الذي لا يمنعُه من الإعطاء معصيةُ العاصين، ولا استغناءُ الفقراء الجاهلين به وبكرَمِه، فهذه الشُّؤون - التي أخبر أنَّه تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ - هي تقاديرُه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 358.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 14/ 110.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 255.
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (شأن).
(5) الرّاغب، مفردات القرآن: (شأن).

وتدابيرُه التي قَدَّرَها في الأزل، وقضاها، لا يزال تعالى يُمْضيها، ويُنْفِذها في أوقاتها التي اقتضتها حكمتُه، وهي أحكامه الدّينيَّة التي هي الأمر والنَّهي، والقَدَريَّة التي يُجْريها على عبادِه مُدَّة مقامِهم في هذه الدّار، حتّى إذا تمَّت هذه الخَليقةُ، وأفناهم اللهُ تعالى، وأراد أن يُنفِذَ فيهم أحكامَ الجزاء، ويُريهم من عَدْلِه وفَضْلِه، وكثرة إحسانه، ما به يَعرفونه، ويوحِّدونَه؛ نَقَل المُكلَّفين من دار الابتلاء والامتحانِ، إلى دار الحيوان[1].

معنى الفاءِ ودلالَتُها في ﴿فَبِأَيِّ﴾:

بـعـد تـعـديـد النِّعَمِ والآلاء، يأتي التَّقرير

جاءَتِ الفاءُ في قولِ اللّه تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ للتَّفريعِ على ما تقدَّم من الإنعام بكونِه تعالى مقصدَ السّائلين في كلِّ الأزمان والأوقاتِ، فجاءَ التَّقرير والتَّوبيخُ للمُكَذِّبينَ، فكأنَّ أصلَ الكلامِ: إذا عرفتُم هذه النِّعمَةَ العظيمةَ الجسيمةَ، التي هي من الظُّهور والوضوح بمكانٍ لا مِريَةَ فيه، فبأيِّها تُكَذِّبان؟ إذ لا سبيلَ إلى التَّكذيبِ، فلا بُدَّ من الإقرار التّامِّ والتَّصديقِ الكاملِ والإيمان الحقِّ بعد الامتنان بهذه النِّعمة التي هي دليلُ قدرتِه وعظَمتِه وقيّوميَّتِه ورَحمتِه.

بَيانُ المُرادِ بالآلاء في هذا الموضعِ:

كـونُـه سبحانه مقصِدَ السائلينَ نـعـمـةٌ عظمى ومنَّةٌ جسيمةٌ

المرادُ بالآلاء في قولِ اللّهِ تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تصريفُ الرَّبِّ تعالى فيما خلقَكم له أيُّها الثَّقلانِ، وجميعِ ما تسألونه تعالى من المَغفرةِ، والرَّحمة، والرِّزقِ، والإحياءِ، والإماتةِ، وغيرِها من شؤون خَلْقِه في السَّماوات والأرضِ، وقد تكرَّرت في هذه الآيةِ المُقَرِّرة على النِّعم من أوَّلِ السّورةِ إلى هنا ثمانيَ مَرّات عَقِبَ النِّعم؛ إشارةً إلى أنَّ نِعَمَ اللّه ﷻ لا تُحْصَى؛ لأنَّها تزيد على السَّبعة التي هي العَدَدُ التّامُّ الواحدُ، وهو مبدأ لدور جديد من العدد؛ إشارةً إلى

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 830.

أنَّه كلَّما انقضى منها دورٌ؛ ابتدأ دورٌ آخرُ، ووجهٌ آخرُ: وهو أنَّ الأخيرةَ صرَّح فيها بـ ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، والسَّبعُ التي قبلَها يَختصُّ بأهل الأرض؛ إشارةً إلى أنَّ أُمَّهات النِّعم سبعٌ، كالسَّماوات والأرض والكواكبِ السّيارة، ونحوِ ذلك[1].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 168.

المحتويات

